المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة

أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

الأحرف باء - تاء - ثاء

4

البلادي - الثوري

دار الجيل

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة
أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

الأحرف باء - تاء - ثاء

المجلد الرابع

دار الجيل

بترخيص من

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

دار الجيل

الطبعة الأولى

1425هـ - 2005م

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تونس: القباضية الأصلية - ص.ب.: 1120

هاتف: 784466 - 0021671

فاكس: 782091 - 0021671

784965 - 0021671

E.mail: Alesco@Email.ati.tn

Website: www.alesco.net

دار الجيل

بيروت: البوشرية - شارع الفردوس - ص.ب.: 8737 (11) - برقياً دار جيلاب

هاتف: 52/ 51/ 689950 فاكس: 689953 (009611)

E.mail: daraljil@inco.com.lb.

Website: www.daraljil.com

القاهرة: هاتف: 5865659 فاكس: 5870852 (00202)

تونس: هاتف: 71922644 فاكس: 71923634 (00216)

الإشراف العام

د. المنجي بوسنينة

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المدير المسؤول

د. محمد صالح الجابري

الهيئة العلمية

هيئة التحرير

تُنجز هذه الموسوعة بالتشاور والتعاون
مع 70 جامعة علمية؛ عربية وإسلامية وعالمية، وبمشاركة
أكثر من 2000 عالم جامعي وخبير في مجالات تخصص الموسوعة،
يساهمون في التحرير والمراجعة وتقديم المشورة.

ب
ت / ث

المجلد الرابع

البلادي - الثوري

البلادي البحراني، أحمد بن عبد الله

(ت 1137هـ/1724م)

أحمد بن عبد الله بن حسن بن جمال البلادي، فقيه، نحوي، صرفي، شاعر، ينسب إلى «بلاد القديم»، من قرى البحرين المعرقة في العلم والسياسة [البلادي، علي بن حسن، الأنوار، ص165؛ النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية 2/ 51].

اتصف بالتقوى والورع والزهد وشدة التواضع [الأمين، الأعيان 3/ 9؛ البلادي، الأنوار ص 165]. وعاصر فترة الانتعاش العلمي في البحرين [المنصور، أنيسة، شعر البحرين ص 98 وبعدها]، وتتلمذ على يدي أشهر علمائها الشيخ سلمان بن عبدالله الماحوزي (ت 1121هـ/ 1709م) وتوفي البلادي في الرابع عشر من رمضان سنة 1137هـ/ 1724م [البحراني يوسف الكشكول 3/ 11].

آثاره

1 - رسالة في الصلاة وهي شرح رسالة شيخه سليمان الماحوزي قيل إنها نفيسة لكنها لم تكمل؛ 2 - رسالة في إثبات الدعوى على الميت بشاهد ويمين؛ 3 - رسالة فيمن يحرم نكاحهن ووصفت بأنها تدل على علم وافر وفضل كبير [الأمين، الأعيان 3/ 9؛ البلادي، الأنوار ص165؛ التاجر محمد علي، منتظم الدُّرَّين ترجمة 71؛ الطهراني، الكرام البررة ج1 ص95؛ النويدري، أعلام الثقافة 2/ 52].

المصادر والمراجع

● الأمين، محسن، أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت 1983، 3/ 8 - 9؛ ● البحراني، يوسف، الكشكول، مكتبة نينوى الحديثة، طهران، د. ت، 3/ 1؛ ● البلادي، علي بن حسن، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، مطبعة النعمان، النجف 1377؛ ص165 - 167؛ ● التاجر، محمد علي، منتظم الدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين (مخطوط)، ترجمة 71؛ ● الطهراني، آغا بزرك، الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة، دار المرتضى للنشر، مشهد - إيران، ط2 1404، ج1 ص95؛ ● المنصور، أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين - أطروحة دكتورا دولة بصدد النشر، ص98 - 135؛ ● النويدري، سالم، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، مؤسسة المعارف، بيروت، 1992، 2/ 51 - 53.

د.جليل منصور العريض
جامعة البحرين

البلادي البحراني، عبد الله بن علي

(ت 1148هـ/1735م)

عبد الله بن علي بن أحمد بن سليمان، فقيه، متكلم، ينسب إلى «بلاد القديم» التي كانت أحد معاقل العلم والرئاسة في البحرين. [التاجر محمد علي، منتظم الدرين ترجمة 523؛ النويدري سالم، أعلام الثقافة الإسلامية 2/ 130].

عاصر فترة الانتعاش العلمي في البحرين [المنصور أنيسة، شعر البحرين ص98 - 135].

وتتلمذ على يديه جملة من علماء البحرين، منهم: الشيخ يوسف بن أحمد العصفور البحراني (ت 1186هـ/ 1772م)، وأخواه عبد علي بن أحمد (ت 1177هـ/ 1763م) والشيخ محمد بن أحمد (ت 1182هـ/ 1768م). كما يروي عنه جملة من العلماء، منهم الشيخ حسن الدمستاني (ت1181هـ/ 1767م)، والشيخ عبد الله بن علي الماحوزي (ت؟) والسيد نصر الله بن الحسين بن علي الحسيني الذي أجازه في 1145هـ/ 1732م. والشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزي (ت 1121هـ/ 1709م)، ومعاصروه الشيخ علي بن حسن بن يوسف البلادي (ت؟)، والشيخ محمود بن عبد السلام المعني البحراني (ت؟) [التاجر، ترجمة 523].

قرّظه من ترجم له، فقال عنه عبدالله بن صالح في إجازته الجارودية: «فاضل كامل خصوصاً في علم الكلام، ثقة، عدل، متورع، عاقل، رزين، صالح... [البلادي، علي بن حسن، أنوار البدرين ص168، النويدري، أعلام الثقافة 3/ 130].

أسندت إليه رئاسة البلاد من قبل الدولة الصفوية، فقام بها خير قيام، وتصدّى لمواجهة الظلم، وحين تعرضت البحرين للغزو من قبل «جبارة الهولي» من أعراب فارس [النبهاني خليفة، التحفة النبهانية ص77؛ النويدري 2/ 131] رحل إلى «شيراز» لطلب العون، وكان إمام الجمعة والجماعة في جامعها تلميذه الشيخ يوسف البحراني فقدّمه على نفسه لإمامة الصلاة تقديراً منه لكونه أستاذه [البحراني يوسف، لؤلؤة البحرين 73؛ البلادي، الأنوار ص 169] فلم يبقَ في «شيراز» إلا مدة يسيرة وانتقل إلى جوار ربه، ودفن هناك في عام 1148هـ/ 1735م. [الأمين حسن، مستدركات أعيان الشيعة 2/ 162؛ البحراني، اللؤلؤة ص 73].

آثاره

1 - رسالة في علم الكلام؛ 2 - رسالة أخرى في نفس الموضوع كتبها للشيخ أحمد بن محمد (شيخ الإسلام في البحرين)؛ 3 - رسالة في الفلسفة أسماها «نفي الجزء الذي لا يتجزأ»؛ 4 - رسالة في النحو في.

تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف؛ 5 ـ شرح رسالة أستاذه الشيخ سليمان الماحوزي في المنطق؛ 6 ـ رسالة في وجوب جهاد العدو في زمن الغيبة؛ 7 ـ رسالة في عدم ثبوت الدعوى على الميت بشاهد ويمين؛ 8 ـ رسالة في أجوبة مسائل السيد محمد الصنديد. [الأمين، مستدركات الأعيان؛ البحراني، اللؤلؤة ص73؛ البلادي، الأنوار ص169؛ العصفور محسن، المقدمة الفاخرة ص231؛ النويدري، أعلام الثقافة 3/ 131].

المصادر والمراجع

● الأمين، حسن، مستدركات أعيان الشيعة، دار المعارف، بيروت ط1، 1989، ج2 ص162؛ ● البحراني، يوسف بن أحمد آل عصفور، لؤلؤة البحرين، مطبعة النعمان، النجف، د.ت، ص72، ـ 675؛ ● البلادي، علي بن حسن، أنوار البدرين، مطبعة النعمان، النجف، 1377هـ، ص168 ـ 170؛ ● التاجر، محمد علي، منتظم الدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، مخطوط، ترجمة 523؛ ● العصفور، محسن، المقدمة الفاخرة لكتاب الحدائق الناضرة، مكتبة العزيزي، قم، ط1، 1409، ص231؛ ● المنصور، أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين، أطروحة دكتورا دولة بصدد النشر ص98 ـ 135؛ ● النبهاني، محمد بن خليفة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، دار إحياء العلوم ـ بيروت، 1986، ص77؛ ● النويدري، سالم، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1992، 2/ 130 ـ 132.

د. جليل منصور العريض
جامعة البحرين

البلادي البحراني، علي بن حسن

(1274هـ/1857م ـ 1340هـ/1921م)

الشيخ علي بن الشيخ حسن بن الشيخ علي بن الشيخ سليمان آل حاجي البلادي القديحي، ينتمي إلى أسرة علمية يتوارث أجيالها حب العلم وخدمة الشريعة، فأبوه عالم وكذلك سلسلة أجداده [الصفار، الشيخ علي البلادي القديحي، ص15 ـ 19؛ النويدري، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، 2/ 732].

ولد في قرية "بلاد القديم"، من قرى البحرين، وكانت عاصمة البلاد، تقطنها الزعامات الدينية والسياسية والاجتماعية آنذاك، وتعرضت للعديد من المحن

والكوارث جرّاء السلطات التي تعاقبت على البلاد [البلادي، أنوار البدرين ص49، 53، 166، 270؛ الصفار، الشيخ علي البلادي القديحي ص19؛ المنصور، أنيسة، شعر البحرين ص44، 65] وتوفي في القطيف في 1340هـ/ 1921م وأبّنه ورثاه شعراء البحرين والقطيف.

نزح إلى القطيف مع والدته وعمره أحد عشر عاماً إثر اشتداد الأزمة السياسية في البلاد واضطراب الوضع الأمني فيها. وفي موطنه الجديد حظي برعاية الشيخ أحمد بن صالح آل طعان. من علماء البحرين النازحين عنها إلى القطيف (ت 1315هـ/ 1897م)، فأصبح أستاذه وأباه الروحي ثم صهره على ابنته بعد ذلك [الأنوار ص54؛ والصفار ص 21]. وقرأ على يديه النحو والصرف والمعاني والبيان والتوحيد والفقه [الأنوار ص 271]، ثم رحل إلى النجف وأخذ عن عدد من علمائها منهم: الشيخ محمد حسين الكاظمي (ت 1308هـ/ 1890م)، والشيخ محمد طه نجف (ت 1323هـ/ 1905م)، والسيد مرتضى بن مهدي الكشميري (ت 1323هـ/ 1905م)، والشيخ محمود ذهب (ت 1324هـ/ 1906م)، والشيخ حسن بن مطر الجزائري (ت 1329هـ/ 1911م)، ونال إجازة من السيد مرتضى الكشميري، وبمبادرة من الأستاذ نفسه، وكان يتجنب طلبها تعففاً [شبر جواد، أدب الطف 9/ 29؛ الأنوار ص271؛ الصفار، الشيخ علي البلادي ص 22].

وفي القطيف أسهم في تحريك الحياة العلمية فكانت مدرسته الدينية في القديح من أوائل المدارس في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وفيها وعلى يديه تتلمذ حشد كبير من الطلاب تسنم بعضهم فيما بعد مراكز فقهية مرموقة؛ ومنهم: الشيخ عبدالله المعتوق (ت 1362هـ/ 1943م) وكان مرجعاً مقلداً للكثير من أهل القطيف والأحساء، والشيخ محمد بن ناصر بن نمر (ت 1348هـ/ 1929م)، والسيد محمد هاشم العوامي (ت 1358هـ/ 1939م) وغيرهم كثير [الأنوار ص378؛ والشيخ علي البلادي ص 27 - 28].

نال مكانة مرموقة في مجتمعه، فكان مهاباً لدى قومه، مطاعاً عندهم، ينظرون إليه نظرة إجلال واحترام، واتصف بالتقوى والحلم، والتواضع وقوة الذاكرة، ورجاحة العقل، والخوف من الله، والالتزام بأوامره ونواهيه [مقدمة الأنوار ص ي و ك وهي بقلم حفيده]، كما كان محباً للعلم والعلماء والاطلاع.

مع غياب أغلب شعره يمكن القول إن موهبته يغلب عليها النظم، وله نَفَسٌ طويل في صياغة المنظومات فبعضها يبلغ أربعمائة بيت، وتتجه موضوعاته شعراً ونظماً توجُّهاً دينياً، فجلّ أشعاره التي وصلت هي في المدائح النبوية.

ويقول في رثاء الحسين بن علي، مشيراً إلى فداحة خطبه: [الرمل]

يَا لَخَطْبٍ زَلْزَلَ السَّبْعَ الشِّدَادَا
وَلَقَدْ أَوْهَى مِنَ الدِّينِ العِمَادَا

وَرَمَى الإِسْلامَ سَهْماً مُثْبَتاً
فَأَصَابَ القَلْبَ مِنْهُ وَالفُؤَادَا

وَكَسَا الإِيمَانَ ثَوْباً أَسْوَداً
بِيْضُ أَيَّامِ الهَنَا عَادَتْ سَوَادَا

[البلادي، حسين بن علي، رياض المدح والرثاء ص 512]

ويتعاطف مع حادث استشهاد الحسين، فيحرم على نفسه الفرح ومظاهر البهجة والحبور في شهر محرم، وهو الشهر الذي قُتل فيه الحسين، ويستثمر مصطلحات الحج وشعائره لإضفاء القداسة على هذا الحادث: [البسيط]

هَلَّ المُحَرَّمُ فاخلعْ حِلَّةَ الطَّرَبِ
والْبَسْ به حلَلَ الأرْزاءِ والكَرَبِ
واحْرِمْ وطُفْ كَعبَةَ الأحْزَانِ مُنتَجِراً
هَدْيَ السُّرُورِ مَدَى الآبَادِ والحِقَبِ
وعَرِّفِ المَشعرَ الأقْصَى جِمَارَ جَوًى
وحَسِّرِ القَلْبَ بالتزفَارِ واللَّهَبِ

[رياض المدح والرثاء ص 517]

وعلى صعيد واقعه يتألم لما أصاب موطنه البحرين (أوال) من مآسٍ ومحن بسبب اضطراب الوضع السياسي وانعدام الأمن، ويتحسّر على تحولها من مركز علمي مرموق إلى دار يخيم عليها الجهل والدمار والخراب بعد نزوح أهلها: [مجزوء الكامل]

كانَتْ أوَالُ مَدِينَةً
لِلْعِلْمِ والعَمَلِ الصَّحِيحِ
ومَحَطَّ أرْبَابِ التُّقَى والزُّهْدِ
والأدَبِ الفَصِيحِ
ومَحَلَّ أرْبَابِ النُّهَى والدِّينِ
وكُلِّ فَتًى رَجِيحِ
مِن جَهْبَذٍ ورعٍ وذي
فَضْلٍ وعَمَّالٍ رَبِيحِ
كَمْ عَابِدٍ مُتَهَجِّدٍ
فِي لَيْلِهِ حَتَّى الصَّبُوحِ
واليَوْمَ قَدْ لَعِبَتْ بِهَا
رِيحُ الحَوَادِثِ أيُّ رِيحِ
والجَهْلُ فَاشٍ والفَسَادُ
بِهَا وكُلُّ هَوًى طَمُوحِ
وتَبَدَّدَتْ عَنْ أهْلِهَا مِنْ
كُلِّ مُنْتَجِلٍ قَبِيحِ

[أنوار البدرين ص 51]

والبلادي ينسج. فيما وصل من شعره القليل. على منوال الأقدمين من حيث الأغراض وآليات العمل الفني، فالصور واللغة والأساليب والموسيقى الشعرية ذات طابع قديم. واعتنى كشعراء عصره بفنون البديع، وإن لم يثقل نصوصه بها.

آثاره

له العديد من المؤلفات وأشهرها:

1 - أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، قدّم له بنبذة جغرافية وتاريخية عن كل من البحرين والقطيف والأحساء، وترجم لعلماء هذه المنطقة العربية في عصره وما سبقه من عصور، واحتوى الكتاب على 123 ترجمة لعلماء البحرين، و58 ترجمة لعلماء القطيف، و23 ترجمة لعلماء الأحساء، وقدّم ما توفر لديه من معلومات عن هؤلاء العلماء وبشكل موجز.

وتكمن قيمة هذا الكتاب في عنايته وحفظه جزءاً من تاريخ الفكر والأدب، وتقديمه عدداً من أسماء الكتب والمؤلفات المجهولة لأبناء منطقته في العصر الحديث. وتتميز طريقته في التأليف بالعناية بالمصادر التي يستقي منها معلوماته بالنسبة للتراجم السابقين عليه، فكان يذكر اسم الكتاب واسم مؤلفه، وإن كان

مشافهة ذكر اسم الشخص الذي نقل له المعلومات وَصِلَتَهُ بالمترجم له، والكتاب سِجِلٌ لجانب من جوانب الحياة الفكرية في منطقة الخليج العربي خلال فترة من التاريخ تكاد تكون مجهولة [الشيخ علي البلادي ص 78].

وطبع الكتاب في النجف في مطبعة النعمان ص1377هـ/ 1957م، وأشرف على طبعه وتصحيحه محمد علي محمد رضا الطبسي، وكتب مقدمته حفيد المؤلف؛ 2 ـ رياض العلماء الأتقياء الورعين في شرح الأربعين وخاتمة الأربعين، وهو كتاب في الأصول والفروع والمواعظ والمناقب؛ 3 ـ النعم السابغة والنقم الدامغة في الإمامة، وأتمه ابنه الشيخ حسين البلادي القديحي؛ 4 ـ وله حواشٍ على «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد؛ 5 ـ ديوان شعر أسماه «جنات تجري من تحتها الأنهار»، والجزء الأكبر منه في المدائح النبوية وهو مجهول المكان؛ 6 ـ جواهر المنظوم في معرفة المهيمن القيوم، وهي في الأصول الخمسة، وتقارب الأربعمائة بيت؛ 7 ـ زواهر الزواجر في معرفة الكبائر، وتقارب الأربعمائة بيت أيضاً؛ 8 ـ جامعة أبواب لمن لله خير باب، ومنظومة «جامعة البيان في رجعة صاحب الزمان»؛ 9 ـ رسالة جوهرة العزيزة في جواب المسألة الوجيزة في التوحيد؛ 10 ـ رسالة الحق الواضح في أحوال العبد الصالح، وهي سيرة أستاذه الشيخ أحمد بن صالح آل طعان الستري.

وله مجموعة مسائل أرسلها إلى السيد أبي تراب بن أبي القاسم الخوانساري النجفي (ت 1346هـ/ 1927م) أجابه عنها ضمن رسالة له بعنوان «المسائل البحرانية».

وله إجازات كتبها لطلابه منها: إجازة كتبها إلى السيد محمد بن علي بن شبر، كتبها في العراق في 1327هـ/ 1909م وإجازة للسيد مهدي الغريفي البحراني (ت 1343هـ/ 1924م). [شبر جواد، أدب الطف 9/ 29؛ أعلام الزركلي 4/ 276؛ الأمين، محسن، عيان الشيعة 8/ 185؛ البلادي، أنوار البدرين ص272؛ الطهراني، الذريعة 1/ 422 و2/ 429؛ الصفار، الشيخ علي البلادي القديحي ص24؛ التاجر، منتظم الدرين ترجمة 618؛ الطهراني، مصفى المقال ص309؛ الأميني، محمد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف 1/ 205؛ كحالة، معجم المؤلفين 7/ 65؛ القائيني، معجم مؤلفي الشيعة ص 59].

المصادر والمراجع

• الأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، 1983، 8/ 185؛
• الأميني، محمد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف، مجهول الناشر، ط2، 1992 ص512، 519؛
• البلادي، حسين، رياض المدح والرثاء، تصحيح وتعليق حسن عبدالأمير محمد، المكتبة الحيدرية، قم، ط1، 1416 ص512، 519؛ • البلادي، علي بن حسن، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، مطبعة النعمان، النجف، 1377 المقدمة وص270 ـ 273؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، 4/ 276؛ • شبر،

جواد، أدب الطف أو شعراء الحسين، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 9/ 28 ـ 38؛ ● الصفار، حسن، الشيخ علي البلادي القديحي، مؤسسة البقيع لإحياء التراث، ط 1، بيروت، 1990؛ ● الطهراني، آغابزرك، الذريعة، دار الأضواء، بيروت، 1983، 1/ 422 و2/ 420، وكتاب مصفى المقال، دار العلوم، بيروت، 1988، ص309؛ ● القائيني، علي الفاضل، معجم مؤلفي الشيعة، مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران، 1405، ص59؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت 7/ 5 ـ 6؛ ● النويدري، سالم، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، مؤسسة المعارف، بيروت، 1992، 2/ 732 ـ 737.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
جامعة البحرين

البلادي البحراني، محمد بن عبد الله

(ت 1170هـ/1756م)

محمد بن عبد الله بن الحسن بن يوسف بن محسن البلادي الخطي [النويدري سالم، أعلام الثقافة 2/ 213]، فقيه عالم، له عناية بنظم وتدوين التراجم، علم الرجال كما كان يسمى. وينسب إلى «بلاد القديم» من قرى البحرين، وكانت آنذاك من المراكز العلمية التي نشطت فيها الحياة الفكرية [المنصور أنيسة، شعر البحرين ص98 ـ 135]. كما ينسب إلى «الخط» أي «القطيف» ولعلّ أصله منها أو أنه نزح إليها، وتشح المصادر في التعريف بشخصيته أو ذكر أخباره.

آثاره

لم يُذكر منها إلا مصنفان:

1 ـ منظومة في الرجال، عِدّتها ألف ومائة وخمسون بيتاً (من الرجز)، وبدأها بذكر نسبه، نظمها في عام 1170هـ/ 1756م. وأولها [الرجز]:

ذو المجدِ والأفضالِ ثم الفضلُ ... الحمدُ للهِ العليِّ العَدْلُ
تُغني الذي في علمهِ خصاصه ... وبعدُ فاعلمْ هذه الخلاصه
جرحاً وتعديلاً لمن قد يجهله ... تنبئكَ أحوال الرجال النقله

[الطهراني، الذريعة 23/ 108؛ القائيني، معجم مؤلفي الشيعة، ص 60]

2 ـ رسالة وسمها بـ «السلاسل في إلحاق الأواخر بالأوائل»، ويبدو أنها أرجوزة أيضاً في تراجم الرجال. وهي على ترتيب الحروف

في الأسماء والألقاب والكنى، أولها: «الحمد لله الذي تلألأت أنوار بهائه الأمجد، وتسلسلت رواة أخبار نعمائه خلفاً عن سلف..» وهي ناقصة لا يوجد منها إلا ما يقرب من المائتي بيت [الطهراني، الذريعة 12/ 210؛ القائيني، معجم مؤلفي الشيعة، ص 60].

والمصنفان موجودان ضمن مجموعة خطية جلّها من تصانيف علماء البحرين، ودوّنها الشيخ إسماعيل بن علي بن الحسن بن عبد الله الماحوزي البحراني في عام 1234هـ/ 1818م. وكانت موقوفة في مدرسة «البروجردي» في النجف [الطهراني، مصفّى المقال ص 432].

المصادر والمراجع

● الطهراني، آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط3، 1983، 12/ 210 و23/ 108؛ ● الطهراني، آغا بزرك، مصفّى المقال في مصنفي علم الرجال، دار العلوم، بيروت، ط2، 1988، ص432؛ ● القائيني النجفي، علي الفاضل، معجم مؤلفي الشيعة، مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، إيران، ط1، 1405؛ ● المنصور، أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين، أطروحة دكتوراه دولة بصدد النشر ص98 ـ 135؛ ● النويدري، سالم، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، مؤسسة المعارف ـ بيروت ط1، 1992، ص213 ـ 214.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
جامعة البحرين

البلادي، ياسين بن صلاح الدين بن علي

(ت 1147هـ/ 1734م)

ينتسب الشيخ ياسين بن صلاح الدين بن علي بن ناصر البلادي [الأمين، الأعيان 10/ 282؛ التاجر، ترجمة 988] إلى «بلاد القديم» أحد مراكز العلم والرئاسة في البحرين في القرون الماضية [النويدري 2/ 255]. وأشاد بعلمه وضروب ألوانه المعرفية كل من ترجم له؛ ووصفوه بأنه عالم، فقيه، رجالي، محدّث، أستاذ في العلوم العربية، شاعر أديب [الأمين، الأعيان 10/ 282؛ حرز الدين محمد، معارف الرجال 3/ 281؛ الزركلي، الأعلام 8/ 130].

عاش في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، وهو عصر حققت فيه البحرين حياة علمية نشطة، وأصبحت معقلاً للعلم والعلماء والإنجازات العلمية [المنصور، أنيسة، شعر البحرين ص98 ـ 135].
أخذ العلم عن جماعة من علماء بلاده؛ فتتلمذ

على الشيخ عبد الله بن صالح السماهيجي (ت1135هـ/ 1722م) وكتب له إجازة مبسوطة في كتاب «منية الممارسين». كما يروي بالإجازة عن الشيخ حسين بن محمد الماحوزي (ت 1181هـ/ 1767م)، وعن الشيخ محمد بن يوسف بن كنبار البحراني (ت 1130هـ/ 1717م) [حرز الدين، معارف الرجال 3/ 282 الإحالة؛ الطهراني، مصفّى المقال ص 495؛ وطبقات أعلام الشيعة 6/ 816].

وتتلمذ عليه عدة من العلماء منهم السيد نصر الله بن السيد حسين الموسوي الحائري، من علماء العراق اغتيل في عام 1166هـ/ 1752م وأجازه أن يروي عنه بتاريخ 1145هـ/ 1732م أثناء عودته من الحج عن طريق البحرين في عام 1144هـ/ 1731م [حرز الدين، معارف الرجال 3/ 201، 283؛ الطهراني، مصفى المقال ص 495؛ الذريعة 1/ 263].

تسنّم مراكز مرموقة فكان إمام الجمعة والجماعة في البحرين، وانتهت إليه رئاسة القضاء والحسبة الشرعية فيها [البلادي، الأنوار ص 221؛ النويدري 2/ 255].

وعاصر البلادي مرحلة تاريخية قلقة ومضطربة، وظل يشغل الوظائف إلى أن تعرضت «البحرين» إلى محنة سياسية وهي الغزو العماني الذي ظل يُمارس على البلاد على شكل حملات متتابعة وعنيفة، وقد خضعت البحرين للسيطرة العمانية في سنة (1130هـ/ 1717م).

وعيّن سلطان «عمان» عليها أحد عبيده والياً فحكمها حكماً جائراً متعسفاً واتبع سياسة القمع والبطش وسفك الدماء، فعمّ الذعر بين أهلها، فعمد الكثيرون منهم إلى مغادرتها. أما الشيخ ياسين فقد اضطره مركزه إلى البقاء فيها ومواجهة الغزو، وطلب الأهالي من السلطان عزل ذلك الوالي، ولم يجبهم، ووقعت مجزرة عظيمة دعيت بـ«وقعة العبد» سقط فيها عدد من الشهداء، [العصفور، تاريخ ص60 ـ 63؛ المنصور، شعر البحرين ص 47 ـ 49؛ النويدري 2/ 256]، وكان الشيخ ياسين شاهد عيان فيها وربما كان أحد قادة المواجهة ووصف فظاعة ما حدث في مقدمة رسالته الموسومة بـ«القول السديد»، فقال: «قد جرد الزمان عليها صارم العدوان، وأفنى من كان فيها من السكان، وأضرم نار غاراته عليها حتى أباد من كان فيها... لقد أصابها سهام العين... فشتّت ما بقي من أهلها أيدي سبأ في جميع البلدان... مُلئت أزقتها من القتلى والجيف، من أولئك الأعلام والسادات وذوي الشرف فقبورهم بطون الكلاب الضاربة»، ويصف معاناته الذاتية: «وكان ممن تغصص ذلك العلقم كاتب هذا التدوين... فكم من سيف قد حطمه، وكم من رمح لطمه وهشمه، وإني كنت بيقين من جملة أولئك الهالكين...» [العصفور، تاريخ البحرين ص62 ـ 63؛ النويدري، 2/ 256].

لم تُجْدِ المقاومة نفعاً بسبب عدم تكافؤ القوة وضعف الدولة الإيرانية وهي السلطة الحامية للبحرين، فظلت البلاد تحت السيطرة إلى أن انتزعها منهم نادر شاه سنة 1133هـ/ 1720م.

وحين يئس الشيخ ياسين من جدوى المقاومة رحل إلى «فارس» وأقام في «شيراز» في مدينة «جويم»، وربما تنقل في مدن أخرى. [الأمين، الأعيان 10/ 282؛ الطهراني، الطبقات 6/ 816؛ مصفى المقال ص 495] ثم تنقطع أخباره.

وأشرنا إلى أنه في عام 1147هـ/ 1734م أجاز

تلميذه نصر الله الحائري، من علماء العراق المرموقين، إجازة في البحرين، ولا يعرف هل أقام في البحرين بعد ذلك أم رحل عنها، كما لا يعرف أين قضى نحبه ومتى. لكن مما لا شك فيه أنه اكتوى بنيران الغربة، ففجرت في نفسه مشاعر الشوق والحنين إلى البحرين فحنّ وتحسّر على ماضٍ سعيد له فيها: [البسيط]

وإن لقيتُ بها همّاً بإضرارِ
ليس البعادُ عن الأهلين والدارِ
بل عن منادمةِ الأحبابِ ويحكَ ما
ترى ضياعي عن الأهلينَ والجارِ
هذي «أوال» فلا آوي بها وطنٌ
ولا حوتٌ لأديبٍ لا ولا دارِ
أرى معالمَها تبكي عوالمَها
قد بُدِّلتْ بعد سكنِ الدارِ بالدارِ
إن الأميرَ بها من كان مفخرةً
إني التمستُ من العشار أعشاري
وأمسِ كنتُ بدارِ الحكم يلحظُني
حامي الذمار عزيزُ الجندِ والجارِ

[البلادي: الأنوار ص222؛ حرز الدين، معارف الرجال 3/ 283]

آثاره

تميز الشيخ ياسين بغنى عطائه فقد أنجز الكثير من المؤلفات وهي تربو على نيف وعشرين مؤلفاً، تتنوع بين كتاب ورسالة وحواشٍ، وجلّها مازال مخطوطاً، وأشار الأمين في الأعيان 10/ 283 ـ 284، والطهراني في الذريعة في مواضع كثيرة من كتابه إلى أماكن وجود مؤلفات الشيخ ياسين وأبرزها:

أ ـ في التراجم:

1 ـ كتاب «معين النبيه في رجال من لا يحضره الفقيه»، فرغ منه في البحرين سنة 1125هـ/ 1712م، وهو شرح لكتاب «من لا يحضره الفقيه» لمحمد بن علي بن بابويه القمي (الصدوق). ويقال عن هذا الكتاب إنه كتبه بمنهج لم يتداوله أحد، وإنه مرتب على مقدمات ومطلّبين، والمقدمات أربع عشرة في الدراية، والمطلب الأول والثاني في رجال من لا يحضره الفقيه [الطهراني، الذريعة 21/ 287]؛ 2 ـ كتاب «المحيط» أو «الوسيط»، ويعرف بـ «رجال الشيخ ياسين البحراني».

ب ـ في النحو:

1 ـ كتاب «الروضة العلية» وهو في شرح «ألفية ابن مالك» فرغ منه سنة 1134هـ/ 1721م في بلدة «جويم أبي أحمد» من توابع «فارس»، وهو في مجلد كبير بحجم شرح ابن الناظم، وتضمن اعتراضات على المرجع، ويقول عنه مؤلفه إنه جامع للمسائل، وإنه استبدل بعض أبيات ابن الناظم بأحسن منها [الذريعة 11/ 301]؛ 2 ـ كتاب «الفوائد العربية» أو «الفوائد النحوية»، وقال عنه مؤلفه بأن فيه مسائل لم تذكر في غيره مع اختصاره [الذريعة 16/ 362]؛ 3 ـ حواشٍ على «الفوائد العربية» وهو بمنزلة الشرح للكتاب السابق؛ 4 ـ كتاب «العوامل» في النحو، وهو مما يمتحن به الأذكياء بعضهم بعضاً، ويصفه مؤلفه بأنه مؤلف على نهج غريب، ومرتب على منبع وأسس ومبانٍ [الذريعة 15/ 360]؛ 5 ـ كتاب «القوانين»، قال عنه المؤلف بأنه اشتمل على مسائل لم تجمع في

غيره، وقرأه عليه جملة من الدارسين في البحرين قبل الوقعة التي أدت إلى نزوحه؛ 6 - حواشٍ على الكتاب السابق بمثابة الشرح عليه؛ 7 - كتاب «الدراية» ألفه لبعض تلاميذه وفق منهج دراسي محدد؛ 8 - كتاب «الحسام الصارم في الردّ على ابن الناظم» وصفه صاحبه بأنه عجيب في انتظامه متناهٍ في انسجامه لم يسبق في فنه بنظير؛ 9 - حاشية على «شرح الكافيه» المسمّى بـ «الوافية» والشرح لعبد الرحمن الجامي، والمتن لابن الحاجب؛ 10 - حاشية على «شرح النيسابوري، لشافية ابن الحاجب وهي في علم الصرف.

ج - في العلوم العقلية:

1 - كتاب «لآلئ البحرين» أو «لآلئ التحرير» منظومة في المنطق. جمع فيها قواعد هذا العلم وكثير من الزوائد بأوجز عبارة وأبين إشارة كما يقول المؤلف؛ 2 - كتاب «اعتماد المنطقيين» وهو شرح للكتاب السابق؛ 3 - رسالة «النور» في علم الكلام، ألفها بأوجز عبارة، وأخصر إشارة كما يقول، وكتبها بالتماس من أحد معاصريه وهو «محمد رفيع البردستاني» في بلدة «بردستان» بفارس.

د - مصنفات أخرى:

1 - رسالة «التحفة الواصلة» في شرح حديث «الشقي من شقي في بطن أمه»، أنجزها في بلدة «شيراز» بالتماس أحد السادة. ويذكر إنه أورد فيها عشرة أدلة لم ينتبه لها غيره [الذريعة، 23، 200]؛ 2 - رسالة في حديث «الوصية نصف الإيمان»؛ 3 - حواشٍ متفرقة على شرح «صلاح الدين الصفدي» لقصيدة «الطغرائي» المعروفة بـ «لامية العجم»؛ 4 - حواشٍ متفرقة على كتابي «سعد الدين التفتازاني» في البلاغة «المطوّل» و«المختصر»؛ 5 - حاشية على شرح الزبدة أي «زبدة الأصول» للشيخ محمد جواد الكاظمي، والمتن للشيخ «البهائي»؛ 6 - حاشية على شرح العقائد النسفية؛ 7 - رسالة سمّاها «القول السديد في تفسير كلمة التوحيد»، وهي في تفسير «لا إله إلا الله» ذكر فيها جميع ما يتعلق بالموضوع من جميع العلوم [الذريعة 17/ 210]؛ 8 - حاشية على «شرح اللمعة الدمشقية» [الذريعة 6/ 98]؛ 9 - رسالة في نقد علماء الرجال أسماها «رسالة في عدم اعتبار قول علماء الرجال لكثرة اشتباهاتهم» ابتدأها باستهجان تقسيم الأخبار إلى أربعة أصناف: صحيح، وحسن، وموثق، وضعيف، وهو يرى عدم التعويل على أقوال الرجال وينتقدهم [الذريعة 15/ 234]. وقد انتقد صاحب الأعيان في 10/ 284 هذه الرؤية بالنسبة للشيخ ياسين؛ 10 - رسالة تتضمن ما يربو على تسعين مسألة في ضروب معرفية شتى، أرسلها إلى أستاذه الشيخ «عبد الله بن صالح السماهيجي» (ت 1135هـ/ 1722م)، فأجابه عنها في رسالة أسماها «منية الممارسين في جواب مسائل مولانا الشيخ ياسين» فرغ منها في 25 ذي العقدة 1125هـ/ 1713م. وفي آخرها كتب الأستاذ لتلميذه إجازة مبسوطة، وضمّنها إطراءً له ومما قاله: «فإن مقترح ذلك عليّ والسائل مني - وإن كنت أحق بسؤاله، والأحرى بأن أكون من جملة تلامذته ورجاله، لا من أشكاله وأمثاله - ممن لا يسوغ لي خلافه، ولا يسعني إلا إسعاده

وإسعافه...» [البحراني، يوسف، اللؤلؤة، ص 101 الإحالة؛ الطهراني، الذريعة 2/ 94 و20/ 372 و 23/ 210]. وهذه الرسالة مازالت مخطوطة ومتداولة في البحرين؛

11 - كتاب «المجموع» ويشير إليه صاحب الأعيان في 15/ 284 ويرجح له ذلك الاسم، ويذكر أنه في أربعة مجلدات. و يشير المترجمون أن له كتاباً يعرف بـ«الكشكول» [الطهراني، الذريعة 18/ 81؛ والقائيني، معجم مؤلفي الشيعة ص 62]. ونرجح أن يكون الاسمان لنفس الكتاب لكن لا يوجد ما يؤكد أنهما كتابان مختلفان أم كتاب واحد [الأمين الأعيان 10/ 283 - 284؛ البحراني يوسف، اللؤلؤة، ص 101؛ البلادي، الأنوار ص 222 - 223؛ حرز الدين، معارف الرجال 3/ 283 - 284؛ الزركلي، الأعلام 8/ 130؛ الطهراني: أ - مصفى المقال، ص 495، ب - طبقات أعلام الشيعة 6/ 816 و817 ج - الذريعة، أجزاء متعددة؛ القائيني، معجم مؤلفي الشيعة ص 62؛ النويدري، أعلام الثقافة 2/ 257 و 259].

وأشار المؤلف إلى أن الكثير من تلك المصنفات التي أنجزت في البحرين قد تلفت في الواقعة التي دمرت البلاد والمعروفة بـ «وقعة العبد» [النويدري، أعلام 2/ 259]. وذكر الشيخ ياسين جلّ مؤلفاته في إجازته لتلميذه نصر الله الحائري التي كتبها في 1145هـ/ 1732م.

■ المصادر والمراجع

● الأمين، محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، 1983، 10/ 282 - 284؛ ● البحراني، يوسف، لؤلؤة البحرين، مطبعة النعمان، النجف، د.ت، ص 101 الإحالة؛ ● البلادي، علي بن حسن، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، مطبعة النعمان، النجف، 1377هـ، ص221 - 223؛ ● حرز الدين، محمد، معارف الرجال، مطبعة الآداب، النجف 1965، ج3 ص281 - 284؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986، ج8 ص130؛ ● الطهراني، آغا برزك، أ - الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط3، 1983، أجزاء متعددة أشير إليها، ب - طبقات أعلام الشيعة، تحقيق علي نقي منزوي، نشر جامعة طهران، مصوّر عن ط1 - 1372هـ/ 1952، ج 6/ 816 - 817، ج - مصفى المقال في مصنفي علم الرجال، دار العلوم، بيروت، ط2، 1988، ص495؛ ● العصفور، محمد علي بن محمد تقي، تاريخ البحرين ويسمى بـ«الذخائر»، مخطوط ص61 - 63؛ ● القائيني النجفي، علي الفاضل، معجم مؤلفي الشيعة، مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، ط1، 1405هـ، الجمهورية الإسلامية الإيرانية؛ ● المنصور، أنيسة، شعر البحرين من القرن السابع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين، أطروحة دكتورا دولة بصدد النشر، ص 98 - 135؛ ● النويدري، سالم، أعلام الثقافة الإسلامية في البحرين، مؤسسة المعارف، بيروت، ط 1، 1992، ج 2 ص225 - 260.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
جامعة البحرين

البلاذري، أحمد بن يحيى

(ت 279هـ/892م)

أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، من أصل فارسي. ولد ببغداد في بداية القرن الثالث للهجرة/ القرن التاسع للميلاد، وتوفي حوالي سنة 279هـ/ 892م. قام بالعديد من الرحلات داخل العالم الإسلامي حيث زار مدن الشام (حمص، دمشق، أنطاكية) والعراق والحجاز وإيران قبل أن يستقر ببغداد وينادم الخلفاء العباسيين: المتوكل، والمستعين، والمعتز. وقد شغل خطة مدرب لابن الخليفة الأخير واسمه عبد الله. ومن أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم العلم نذكر خاصة مصعب الزبيري، وعثمان بن أبي شيبة، والقاسم بن سلام، والمدائني، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي.

اشتهر البلاذري رغم كتبه الكثيرة بكتابين هامين هما: كتاب فتوح البلدان، وكتاب أنساب الأشراف.

أما الكتاب الأول «فتوح البلدان» فهو عبارة عن سجل للفتوحات الإسلامية، أورد فيه البلاذري معلومات مفيدة عن كل مصر وبلد فتحه العرب والمسلمون. وينقسم الكتاب إلى خمسة أقسام. تناول في القسم الأول منه الحديث عن عصر الرسول محمد وحروبه ومغازيه، ثم درس في القسم الثاني موضوع الردة وبداية الفتوحات بداية من الشام والعراق والجزيرة. وفي القسم الثالث تعرض إلى فتوح أرمينية ومصر والمغرب والأندلس. وخصص القسم الرابع للحديث عن حركة التمصير (الكوفة والبصرة) والفتوحات في الشرق (الجبال، الدينور، همذان الري، أذربيدجان، جرجان، والسند)؛ كما تحدث عن أحكام أراضي الخراج وقضايا العطاء والخاتم والديوان والخط. وأخيراً تعرَّض في القسم الخامس والأخير إلى كور الأهواز، وفارس، وكرمان وخرسان والهند

واعتمد في كتابه على روايات أهل المدينة (الواقدي - ابن سعد)، وكذلك على الروايات التي جمعها خلال أسفاره؛ كما أورد البلاذري معلومات هامة جدا عن الأوضاع الاقتصادية والإدارية والثقافية لكل مصر وبلد. وبالتالي فإن كتابه يتضمن معلومات تتجاوز موضوع الفتوحات في حد ذاتها لتشمل تعريب الإدارة، ونظام الجباية، وضرب العملة، والخط العربي.

أما الكتاب الثاني «أنساب الأشراف» فهو مؤلف عام في التاريخ الإسلامي بؤبه البلاذري حسب الأنساب، وفيه العديد من الأخبار والتراجم والشعر. بدأه بالحديث عن الرسول محمد ﷺ وبني هاشم من علويين وعباسيين. ثم ذكر بني أمية وبقية قريش ومضر لاسيما قيس، ومنها ثقيف قبيلة الحجاج بن يوسف الذي خصص له البلاذري ترجمة مفيدة.

من ناحية التنظيم جاء الكتاب منظما على منوال كتب الطبقات؛ لكن البلاذري درس فيه

أحداث كل فترة تاريخية معينة، وراعى التسلسل التاريخي أثناء حديثه عن سيرة كل خليفة من الراشدين والأمويين والعباسيين. من ناحية أخرى لم يغفل البلاذري الحديث عن الفرق مثل الخوارج والشيعة، وعن الثورات بمختلف أصنافها.

أما مصادر الكتاب فقد استعمل المؤلفات المكتوبة التي كانت متوافرة في عصره إلى جانب الروايات الشفوية التي جمعها عبر رحلاته. ثم إنه قام بنقد مصادره هذه معتمدا طريقة الإسناد الجمعي للتدليل على الاتفاق على المعلومات الأساسية المتعلقة بكل حدث من الأحداث المذكورة.

يعتبر البلاذري رغم اتصاله بالعباسيين مؤرخا موضوعيا يحترم المصادر التي أخذ منها معلوماته. وقد أصبح بدوره مرجعا أساسيا بالنسبة إلى المؤلفين الذين عاشوا بعد القرن الثالث مثل الأصفهاني، ابن أبي حديد، ابن خلكان، ابن عساكر، ياقوت وغيرهم.

■ آثاره

1 ـ فتوح البلدان، حقق هذا الكتاب في أواخر القرن التاسع عشر، وطبعه في ليدن 1863 ـ 66 المستشرق دي خويه. كما طبع في بيروت سنة 1967، وحققه عبد الله وعمر أنيس الطباع، وطبع من قبل سنة 56/ 1957 في القاهرة وصلاح الدين المنجد في 3 أجزاء.

2 ـ أنساب الأشراف، طبعه في ليبزيغ سنة 1883 المستشرق أهلواردت. ثم عثر بيكر على كامل الكتاب في إستنبول. مما فتح مجال التحقيق التدريجي لمختلف أجزاء الكتاب.

سنة 1936 حقق قوتين الجزء الخامس وطبع في القدس؛ سنة 1938 حقق شلو سنقار الجزء الرابع وطبع في القدس؛ سنة 1959حقق محمد حميد الله الجزء الأول وطبع في القاهرة؛ سنة 1974حقق محمد باقر المحمودي الجزء الثاني وطبع في بيروت؛ سنة 1978حقق عبد العزيز الدوري الجزء الثالث وطبع في بيروت؛ سنة 1979 حقق إحسان عباس الجزء الرابع وطبع في بيروت؛ وفي سنة 1996طبع كامل الكتاب في دار الفكر ببيروت (13 جزءًا) بتحقيق سهيل زكار.

■ المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، طبعة دار المأمون، 5/ 89 وما بعدها حتى 102؛ ● ابن النديم، الفهرست، طبعة طهران (د.ت)، 125؛ ● ابن حجر، لسان الميزان، 1/ 322 ـ 323؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، 3/ 101 ـ 102؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت 179، 1402؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت 1968، 2/ 201 ـ 203؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت 1969، 1/ 252؛ ● الدوري، عبد العزيز، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت 1960، المطبعة الكاثوليكية، 48 ـ 51؛ ● مصطفى،

شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت 1978، دار العلم للملايين، 1/ 243 ـ 245؛ ● سالم، السيد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية (د.ت)، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، 115 ـ 116؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، جزءان، ليدن 1949، 1/ 147 وما بعدها.

- Encyclopédie de l'Islam - Nouvelle Edition - Al-Baladhiri, I pp 1001-1002 (CH/ Becker et F/ Rosenthal).

د. راضي دغفوس
جامعة تونس

البلاساغوني، يوسف

(عاش في القرن 5هـ/11م)

أديب كبير ومفكر فريد من آسيا الوسطى، ينسب إلى مدينة بلاساغون التي ثبت أنها كانت في جنوب قازخستان، ولكن موقعها القديم لم يتحدد بدقة وإن كان يظن أنها في موقع بين مدينة ألمالق القديمة الحالية ومدينة طراز. كانت مدينة بلاساغون مدينة عظيمة ذكرتها الكتب التاريخية كثيرًا، وكانت تقاوم الغزاة مقاومة باسلة، تذكر كتب تاريخ آسيا الوسطى عن هذه المدينة أنه سقط منها خمسة وسبعون ألفا في مقاومة الغزاة.

وفي هذه المدينة كان مولده. المعلومات عن حياته قليلة جدًا، ونعلم أنه عاش بعض سنوات حياته في مدينة كاشغر بين جماعات الأويغور، التي توجد منطقتهم حاليا في داخل الصين. وألف هناك كتابه «هاس حاجب» في ثقافة البلاد أو ثقافة الموظف في القصر الملكي، وكان يوسف يعمل حاجبًا للوالي أبي علي حسن بن سليمان.

آثاره

ألف يوسف البلاساغوني عدة كتب بالعربية والتركية، وصلتنا منها عدة مخطوطات، تناولت جوانب من الأدب والثقافة التركية في آسيا الوسطى، وكذلك تاريخ قبائل أفغانستان.

كتابه الكبير عنوانه: قوتادغو بيليك، ألفه سنة 462هـ/ 1069م، وقد وصل هذا الكتاب بالتركية ونشر، وكلمة «قوت» في عنوان هذا الكتاب من أصل عربي، ولكنها تعني هنا الرزق والسعادة، فكأنه كتاب مؤلف بهدف سعادة الفؤاد بطريق العلم الذي يحقق السعادة للملوك وغيرهم، لقد ألف هذا الكتاب ليكون بهجة للملوك. يعرف هذا الكتاب باسم «قوتا دغوبيليك بغراخان»، إضافة إلى اسم الحاكم الذي ألف له هذا الكتاب. وهناك معلومات حول الخط الذي دون به. هناك رأي بأنه كان بالحروف العربية، وكذلك بالحروف

الأويغورية القديمة. ويرى بارتولد أن الكتاب لا بد أنه كتب بالحروف العربية المستخدمة في المنطقة كلها في تدوين الفارسية والتركية، وأن اسم الأويغور لم يكن يطلق على الترك من رعايا دولة القراخانيين المسلمة، وكان يطلق على شعب آخر غير تركي، وأن الخط الأويغوري القديم لم يكن مألوفا عند الترك المسلمين في ذلك الوقت، وقد وصل نص هذا الكتاب مدوّنا بالحروف العربية.

إن هذا الكتاب هو أحد المؤلفات الشرقية المؤلفة للملوك بمحتوى تعليمي أخلاقي، غير أنه في الواقع يضم مادة قرآنية ثقافية مؤلفة لأصحاب المناصب وكل الطبقات. يضمّ الكتاب حكايات من حقائق التاريخ وحكايات من خيال المؤلفين لتأييد النظريات الأخلاقية في الحكم والسلوك. ومن مقدمة الكتاب ومحتواه يتّضح الاعتماد على مراجع عربية وفارسية، وتسود في جانب منه الروح الإسلامية، وفيه معلومات عن حياة بلدان المسلمين، وتأكيد لأهمّية التقوى في المعاملات وللسلوك السليم للفرد في نفسه وفي أسرته.

لقد اهتمّ باحثون معاصرون كثيرون بهذا الكتاب وأكثرهم من العلماء الروس والألمان والمجريين والقازان. كان هناك رأي بأن هذا الكتاب يعد أقدم نص وصل إلينا بالتركية، غير أن اكتشاف النقوش الأرخونية الأقدم عدّل هذه الفكرة. ومع هذا فإن قدم هذا الكتاب نسبيًا بالنسبة إلى تاريخ آسيا الوسطى جعل منه مصدرًا مهمًا لدراسة حياة الترك قبيل دخولهم الإسلام وفي مرحلة التحوّل المهمّة في حياتهم، وفيه معلومات نادرة عن حياة القبائل في أقصى الشرق من بلاد الترك.

ولاحظ باحثون انتشار هذا الكتاب وشعبيته، فهناك جمل مأخوذة منه وجدت على فخاريات أثرية، وكأن نصوصه كانت تدور على لسان الشعب. وألف أحد علماء كاشغر في أقصى المشرق من العالم التركي في داخل الصين محاكاة له، هو كتاب «هبة الحقائق» لأحمد بن محمد يوكناني، وهو بلغة كاشغر الأويغورية، وعرف منه مؤلفون آخرون فكرة واضحة عن الحياة في خوارزم. وهذا الكتاب من أهم الكتب، لقدمه وندرة المصادر التي وصلتنا من عصره.

كان مارتين هارتمان يرى في هذا الكتاب مثالا لـ «أدب السراي» لأنه مؤلف للملوك وكبار الموظفين، وذلك في مقابل كتاب «ديوان لغات الترك» لمحمود الكاشغري الذي يضمّ نصوصًا شعرية كثيرة لأفراد عاديين، وكأنه يمثل «أدب الشعب»، ولكن بارتولد يتحفّظ في قبول هذا الرأي، وذلك لوجود أشياء مشتركة في الكتابين، وذلك مع ملاحظة اختلاف الهدف بين عمل الكاشغري وعمل البلاساغوني. فقد ألف الكاشغري «ديوان لغات الترك» ليكون معجمًا غير أنه ذكر فيه شواهد كثيرة، ولكن كتاب البلاساغوني عمل أدبي ثقافي أخلاقي. ويتّفق رأي الباحثين في تمثل المؤلف للأدبين العربي والفارسي، ووصفه لجوانب الحياة عند قبائل الترك من كاشغر شرقًا إلى خوارزم غربًا، وفي أنه أفاد في نصائحه الأخلاقية المدوّنة من حكمة الشعب التي تناقلتها الأجيال بطريقة شفاهية.

المصادر والمراجع

● بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، القاهرة 1996، ص94، 98، 153 ـ 156، 189؛ ● هناك دراسات عنه في كتاب عبد الستار دربسالة عن أعلام قازاقستان، (بالقازاقية)، ألماطي 1993م.

د. عبد الستار دربسالة
جامعة نور مبارك ـ
قازاخستان

ابن بَلْبَان، أبو الحسن علاء الدين علي الفارسي

(675هـ/1276م ـ 739هـ/1339م)

أبو الحسن، علاء الدين علي بن بلبان بن عبد الله الفارسي، المصري الحنفي المنعوت بالأمير، فقيه، نحوي، ناظم له عناية بالحديث، ولد سنة خمس وسبعين وستمائة للهجرة، وسكن القاهرة وبها توفي في منزله على شاطىء النيل، سنة 739هـ [الزركلي، الأعلام، 4/ 267].

قرأ على أكابر علماء عصره بمصر، فأتقن الفقه على الفخر بن التركماني، وأبي العباس السروجي الحنفيين، وقرأ النحو على أبي حيان والأصول على العلاء القونوي، وسمع الحديث من الدمياطي، وابن عساكر، ومحمد بن ساعد وغيرهم واشتغل به، ولكنه لم يحدث.

صحب نائب مصر سيف الدين أرغون الناصري الدويدار، وهو الذي يقوم بتبليغ رسائل السلطان ويقدم له العرائض ويأخذ توقيعه عليها ويعرف قديما بالحاجب، وعظمت منزلته في أيام السلطان المملوكي المظفر بيبرس (ت 709هـ)، وكان قد عين مرة للقضاء لسكونه وعلمه وتصوّنه. وكان ابنه جمال الدين قد تفقّه على مذهبه، ثمّ تحوّل شافعيًا فتألّم أبوه لذلك، قال الذهبي: سمع بقراءتي جزءا وكان جيد الفهم حسن المذاكرة، مليح الشكل، وافر الجلالة. وكان علاء الدين ينظم نظما وسطا، فمن عنوانه قصيدة أولها:

سرتْ نسمة طابت بطيِّبة الذكر
فأرَجتِ الأرجاء من عَرفها العِطري

[ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 3/ 32].

آثاره

صنف تصانيف كثيرة أكثرها في الفقه والحديث وأعظمها ذكرا:

1 ـ كتاب الإحسان في تقريب صحيح ابن الحبان، في تسعة مجلدات نشره مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بضبط وتقديم

كمال يوسف الحوت. وسبب تأليفه لهذا الكتاب أن شيخه الحافظ قطب الدين عبد الكريم الحلبي (ت 735هـ) أشار عليه بترتيب صحيح ابن حبان فرتبه على الأبواب، ذلك أن الصحيح ترتيبه مخترع، ليس على الأبواب وليس على المسانيد، ولهذا سماه التقاسيم والأنواع، قال السيوطي: «والكشف من كتابه عسر جدا» [تدريب الراوي، 1/ 109].

وقد ذكر ابن حبان في مقدمة صحيحه وجه اختياره لهذا الترتيب، فقال: «فتدبرت الصحاح لأسهّل حفظها على المتعلّمين، وأمعنت الفكر لئلا يصعب وعيها على المقتبسين، فرأيتها تنقسم خمسة أقسام متساوية، متفقة التقسيم، غير متنافية. فأولها: الأوامر التي أمر الله عباده بها؛ والثاني: النواهي التي نهى عباده عنها؛ والثالث: إخباره عما احتيج إلى معرفتها؛ والرابع: الإباحات التي أبيح ارتكابها؛ والخامس: أفعال النبي ﷺ التي انفرد بفعلها.

ثم رأيت كل قسم منها يتنوّع أنواعا كثيرة، فجميع أنواع السنن أربعمائة نوع على حسب ما ذكرناها، ويقول في ص 82: «قصدنا في تنويع السنن الكشف عن شيئين، أحدهما، خبر تنازع الأئمة فيه وفي تأويله، والآخر عموم خطاب صعب على أكثر الناس الوقوف على معناه» [الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، 1/ 17]؛ 2 ـ ترتيب معجم الطبراني، وذلك بإشارة من شيخه قطب الدين الحلبي، فرتب الكبير ترتيبا حسنا على الأبواب وكان الطبراني قد رتب في معجمه الصحابة على الحروف، وقد اشتمل على نحو خمسة وعشرين ألف حديث [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1737]؛ 3 ـ تحفة الحريص في شرح التلخيص، للخلاطي الحنفي (ت 652هـ) وهو شرح طويل في الفقه أبدع فيه وأجاد، والتلخيص عبارة عن تعليقات وفوائد على الجامع الكبير في الفروع لمحمد بن الحسن الشيباني؛ 4 ـ تلخيص الإمام في أحاديث الأحكام، لابن دقيق العيد، وكان ابن دقيق العيد قد كتب كتابا سماه «الإلمام» جمع فيه متون الأحاديث المتعلّقة بالأحكام مجردة عن الأسانيد، ثمّ شرحه وبرع فيه وسماه «الإمام»، قيل إنه لم يؤلف في هذا النوع أعظم منه لما فيه من الاستنباطات والفوائد، لكنه لم يكمله، وقد لخص ابن بلبان هذا الكتاب؛ 5 ـ كتاب في «المناسك» جامعا لفروع كثيرة في المذهب؛ 6 ـ تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق، وهو كتاب في مناقب أبي بكر وسابقيته في الفضل والإسلام؛ 7 ـ تنبيه الخاطر على زلة القارىء والذاكر، وهو كتاب في أحكام القراءة والذكر وآدابها؛ 8 ـ كما ألف سيرة لطيفة للنبي. وذكر الزركلي له كتابين آخرين هما: 9 ـ المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية؛ 10 ـ والأحاديث العوالي [الأعلام، 4/ 268].

■ المصادر والمراجع

● ابن بلبان، علاء الدين، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، تقديم وضبط كمال يوسف حوت، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية؛ دار الكتب العلمية، بيروت 1407هـ/ 1987م؛ ● القرشي، عبد القادر (ت 775هـ)، الجواهر المضية، تح. عبد الفتاح الحلو، مطبعة

عيسى الحلبي وشركاه، 1398هـ/ 1978م؛ ● ابن حجر، العسقلاني (ت 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت؛ ● ابن قطلوبغا، قاسم (ت 879هـ)، تاج التراجم في طبقات الحنفية، مطبعة العاني، بغداد، 1962م؛ ● اللكنوي، محمد عبد الحي (ت 1304هـ)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية وبهامشه كتاب التعليقات السنية، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان؛ ● الزركلي، خير الدين (ت 1976م)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط8، بيروت 1999م، 4/ 267 ـ 268.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

بلبل زاده، الهبري علي بن مصطفى أفندي

(ت 1083هـ/ 1672م)

ولد في كوتاهيه، واسم والده هو مصطفى، وجده بير محمد، وعرف بلقب «بلبل زاده»، وبنسبة الكوتاهي. ولا توجد معلومات كافية تتعلق بحياته. وينقل أنه بعد أن أكمل تحصيله العلمي، استقر حسب رغبته في قصبة قزل حصار (قاريستوس) التي تقع جنوب جزيرة إغري بوز، وتوفي في هذه القصبة. وتذكر بعض المصادر عام 1072هـ/ 1662م تاريخاً لوفاته، بيد أن هذا غير صحيح، ذلك لأن المؤلف ذكر في نهاية كتابه «هدية الهبري» أنه أنهى كتابة هذا المؤلف في عام 1083هـ/ 1672م، لذا فإن التاريخ الذي أورده محمد طاهر البورصوي في مؤلفه «المؤلفون العثمانيون» عن وفاته بعد عام 1080هـ/ 1670م يعتبر الأكثر صوابا.

يملك المؤلف معلومات واسعة بصفة خاصة في مجالي الفقه وعلم الكلام. وقد أعطى أهمية قصوى للتدريس، وقام في الوقت نفسه بتأليف مختلف الكتب عكس بقية العلماء في تلك الفترة. ويفهم من خلال دراسة المؤلفات الضخمة التي كتبها الهبري في مختلف المواضيع أنه تلقى ثقافة مدرسية سليمة، كما أنه بذل جهدا واضحا في تثقيف العامة في المواضيع الدينية. كما أولى أهمية خاصة لتفسير القرآن الكريم. بالإضافة إلى ذلك قام الهبري بترجمة بعض مؤلفاته من اللغة العربية إلى اللغة التركية. ومن جانب آخر كان يرجح اتباع أسلوب شامل في المواضيع التي تناولها في كتبه. وقام بتوسيع بعض مؤلفاته في فترة لاحقة أو شرحها.

آثاره

1 ـ حديقة الفقهاء في الفتاوى، قام المؤلف بشرح هذا الكتاب تحت عنوان «تلخيص

الفتاوى». ويذكر محمد طاهر البورصوي أنه توجد نسخة من هذا المؤلف الذي يتكون من خمسة مجلدات في مكتبة مناستر. ويجب أن يكون هو المؤلف الذي أشار إليه إسماعيل باشا بعنوان «الفتوى في تلخيص الفتاوى»؛ 2 ـ العقود الدرية في شرح الفرائض الهبرية، هو عبارة عن شرح باللغة العربية كتبه المؤلف للنص الذي ألفه حول الفرائض [مكتبة الدولة ببايزيد، قسم بايزيد، رقم 2640]؛ 3 ـ ظهور الآخرة، هو ترجمة موسعة باللغة التركية لمؤلف «ملتقى الأبحر» لصاحبه إبراهيم الحلبي. وتوجد مخطوطات مختلفة منه [مثلا أنظر: مكتبة السليمانية، قسم سريز، رقم 945؛ مكتبة الدولة ببايزيد، قسم بايزيد، رقم 7884]؛ 4 ـ منية العابدين: هو عبارة عن شرح باللغة التركية لرسالة «شروط الصلاة» لمؤلفها الملا فناري، والتي تتكون من بضعة أوراق. ويتكون الكتاب من مقدمة وسبعة عشر بابا وخاتمة. وتناول فيه الطهارة والصلاة [مكتبة السليمانية، قسم حاجي محمود أفندي، رقم 949]؛ 5 ـ المنهاج المحمدي والطريق الأحمدي، هو مؤلف باللغة العربية يتعلق بأسس الدين الإسلامي [مكتبة الدولة ببايزيد، قسم ولي الدين أفندي، رقم 1926]. ويحتوي الكتاب على المعلومات الدينية العامة بالاضافة إلى عقيدة أهل السنة. وقد تم شرحه من قبل المؤلف بعنوان: «هدية الهبري في ترجمة المنهاج المحمدي». ويشتمل الكتاب في أقسامه الأولى على مفاهيم الأدلة الشرعية والعقل والتقليد والبدعة، ويحتوي القسم التاسع على العقائد السنية، وتتضمن الأقسام اللاحقة مواضيع مثل الطهارة والصلاة وغيرهما، واحتوى القسم الأخير على المسائل الأخلاقية والخصال الإنسانية [للاطلاع على مخطوطة المؤلف أنظر: مكتبة السليمانية، قسم حميدية، رقم 581]؛ 6 ـ ظهور المصير، رسالة منظومة باللغة التركية تدور حول مواضيع العقائد [مكتبة السليمانية، قسم الشهيد علي باشا، رقم 1077/ 2]؛ 7 ـ شفاء الأبدان المرضى في سر منافع القرآن الشريف والأسماء الحسنى، عبارة عن رسالة باللغة التركية. واستفاد في إعدادها من «الدر الناظم» و«البرق اللامع» وغيرهما من الكتب التي تتناول فضائل آيات القرآن الكريم. ويتضمن هذا المؤلف موضوع علاج الأمراض عن طريق قراءة الآيات التي تحتوي على الأسماء الحسنى. وتتألف الرسالة من مقدمة وبابين [مكتبة السليمانية، قسم حميدية، رقم 178]؛ 8 ـ الفوائد الهبرية، عبارة عن رسالة باللغة التركية تتعلق بالوباء [مكتبة السليمانية، قسم سريز، رقم 2757]؛ 9 ـ تحفة الطلاب، رسالة صغيرة باللغة التركية تحتوي على نصائح مختلفة للطلاب [مكتبة عاطف أفندي، رقم 2515].

بالإضافة إلى ذلك تنسب مؤلفات أخرى إلى علي هبري أفندي وهي «زبدة الفكر في زيارة خير البشر» و«نبضة المناسك وشرح الحديث الأربعين».

المصادر والمراجع

● البورصوي، محمد طاهر، المؤلفون العثمانيون، استانبول 1333 ـ 1342، I، 278 ـ 279؛ ● المؤلف نفسه، «تراجم أحوال: الهبري علي أفندي»، الصراط

المستقيم، VII/159، 1326، ص39؛ • المؤلف نفسه، «تراجم أحوال: الهبري علي أفندي»، سبيل الرشاد، IX/209، 1330، 11 ـ 10؛ • البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، استانبول 1951 ـ 1955، I، 761 ـ 760؛ • كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1376 ـ 1381/1957 ـ 1961، VII، 242 ـ 241؛ • قراطاي، فهمي أدهم، دليل المخطوطات التركية في مكتبة متحف سراي طوب قابي، استانبول 1961، I، 37، 85، 141؛

• Ismail Uzunçarsili, Osmanli Tarihi, Ankara 1947-59, III/2, s. 495, 546-547; Ayni mellif, Osmanli Devleti'nin Ilmiyye Teskilati, Ankara 1965, s. 237.

د. محمد سعيد أوزار وارلي
جامعة اسطنبول ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي
تونس

البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل

(235هـ/849م ـ 322هـ/934م)

أبو زيد أحمد بن سهل البلخي عالم موسوعي ألمّ بعلوم شتّى من فلسفة وكلام وجغرافيا وطب. ولد في قرية شامستيان بالقرب من بلخ في بلاد خراسان من أب سجستاني الأصل كان مدرسا للبنين.

بدأ حياته معلّما مثل أبيه، ثم أقبل على دراسة العلوم الشرعية ثم رحل إلى بغداد لتلقي سائر المعارف في عصره. وقد أقام أبو زيد البلخي في بغداد ثماني سنوات تتلمذ فيها على يدي الفيلسوف أبي يوسف يعقوب الكندي. ولئن لم تذكر المصادر من شيوخه سوى هذا الفيلسوف الذي كان أيضًا مقدما في الطب، والحساب، والمنطق، والهندسة، والألحان، فلا شك في أنّ إقامته بالعراق مكّنته من الأخذ عن أعلام العلوم في القرن الثالث والعقود الأولى من القرن الرابع الهجري مما يفسّر معرفته بالطبّ والطبيعيات والنجوم وحذقه لعلم الكلام وسائر العلوم الإسلاميّة. ولما ارتفع البلخي بعلمه عرضت عليه الخطط الرفيعة، فدعاه عبد الله البشاري صاحب خراسان إلى بخارى ليستعين به إلاّ أنّه رفض. وكان من المقرّبين إلى أبي علي الجيهاني وزير نصر بن أحمد الساماني. ولمّا استولى أحمد بن سهل بن هاشم المروزي على تخوم بلخ عرض عليه الوزارة فرفضها وقبل الكتابة فاشتغل بها إلى أن توفّي، وقد كانت رعاية الوزير الجيهاني له سببا في استقراره فتمكن من التأليف في شتّى المعارف. فألّف في

الفلسفة، والرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا، والطب، والأدب، والنحو وغيرها.

وعندما ذهب أبو زيد البلخي إلى مكة المكرّمة لأداء مناسك فريضة الحج، اجتمع ببعض العلماء المشتغلين في الفلك والجغرافية والأدب والفقه، فتبادل معهم الرأي في كثير من الأمور، خاصة ما يتعلّق بالعلوم الشرعية والتجريبية. وكان من نتائج هذا الحوار مؤلفه الشهير في الجغرافية «صور الأقاليم» الذي يعدّ أول أطلس للإسلام جمع فيه خرائط تشمل صور الأقاليم والبلدان. وقد نقل عنه في ذلك الاصطخري في كتابه «صور الأقاليم». وتوجد بعض هذه الخرائط في مجموعة كونراد ميلر - Konard Miller - المسماة بالخرائط العربية - Mapae Arabicae.

وقد كانت مواقف أبي زيد ومعتقداته موضوع أخذ وردّ. فقد قيل إنّه كان تارة «يطلب الإمام ومرّة كان يسند الأمر إلى النجوم والأحكام..». وقيل أيضًا إنّ تعمّقه في الفلسفة وأسرار علم التنجيم والهيئة وبحثه في علم الطبّ والطبائع وأصول الدين كلّ ذلك «قاده إلى الحيرة وزلّ به عن النهج الأوضح» [معجم الأدباء، 3/ 73]. ويعتبر أبو حيان التوحيدي أنّه «سيّد أهل المشرق في أنواع الحكمة»، لكنّه فشل في التوفيق بين الشريعة والفلسفة، وخاب في ادّعائه «أنّ الفلسفة مقاومة للشريعة، والشريعة مشاكلة للفلسفة»؛ كما خاب في نشر الفلسفة استجابة لطلب أمير خراسان «فشتّت الله كلمته وقوّض دعامته وحال بينه وبين إرادته» [الإمتاع والمؤانسة، 2/ 15].

لكن لم يتردّد أبو حيّان في التنويه بكتابه في نظم القرآن كما أنّ كتابه في البحث عن التأويلات الذي تناول فيه طريقة تأويل القرآن وخاصّة مبالغات الإسماعيلية في ذلك حظي برضى العلماء، فقال فيه بعضهم: «ما صنف في الإسلام كتاب أنفع للمسلمين من البحث عن التأويلات» [معجم الأدباء، 3/ 80]. وقد أثار هذا الكتاب غضب الحسين بن علي المروزي القرمطي فقطع عنه ما كان يصله به من مال. كما أنّه وضع كتابا بعنوان «القرابين والذبائح» أثار عليه غضب محمد بن أحمد الجيهاني وزير نصر الساماني فقطع عنه أيضًا ما يعطيه من مال، لأنّ هذا الوزير كان ثنويا يقول بإله الخير وإله الشرّ، لهذا ولتخلّيه عن مذهب الإمامية قال فيه بعضهم: «كان قويم المذهب، قويم الاعتقاد.. وأنّه لم يعثر له مع ما له من المصنّفات الجمّة على كلمة تدلّ على قدح في عقيدته» [معجم الأدباء، 3/ 75].

ولئن تنوّعت مصنّفات البلخي وشملت معارف عدّة من فلسفة وكلام ونجوم ونحو وشعر وسياسة وأخلاق ونظم للقرآن.. فقد اشتهر خاصة بكتابه «صور الأقاليم» باعتباره أصل مصنفات الإصطخري وابن حوقل، وبكتابه «مصالح الأبدان والأنفس» الذي ربط فيه بين الأمراض النفسية والأمراض العضوية، فكان أوّل من فعل ذلك بين هذين النوعين من الأمراض، وعالج قضيّة المحافظة على صحّة الإنسان منطلقا من مبدإ النظر إلى البدن والنفس البشرية معا؛ وبتعبيره الخاص «فإن إضافة تدبير مصالح الأنفس إلى تدبير مصالح الأبدان أمر صواب، بل هو مما تمس الحاجة إليه ويعظم به الانتفاع لاشتباك أسباب الأبدان بأسباب الأنفس. فإن الإنسان، قوامه بنفسه

وبدنه وليس يتوهّم له بقاء إلا باجتماعهما، لتظهر منه الأفعال الإنسانية فهما يشتركان في الأحداث النائبة والآلام العارضة، وكما أن البدن إذا سقم وألِمَ وعرضت له الأعراض المؤذية منع ذلك قوى النفس.. بل ربما أدّاه تحامل الآلام النفسانية عليه إلى الأمراض البدنية».

ومن تلامذة أبي زيد البلخي ابن فريغون، وأبو الحسن محمد بن يوسف العامري (ت 381هـ)، وأبو محمد الحسين بن محمد الوزيري، الذي يعود إليه الفضل في رواية كثير من أخباره التي ضمّها كتاب أبي سهل أحمد بن عبيد الله بن أحمد في أخبار ثلاثة بلخيين هم أبو زيد أحمد وهو هذا، وأبو الحسن شهيد البلخي، وأبو القاسم الكعبي البلخي (ت 319 هـ)، أحد أقطاب المعتزلة.

آثاره

يشير ياقوت اعتمادا على ما قاله حفيد أبي زيد البلخي أنّ له نحوا من سبعين تأليفا يذكر منها صاحب معجم الأدباء ستة وخمسين مصنّفا:

1 ـ مصالح الأبدان والأنفس، طبعه فؤاد سزكين، فرانكفورت، 1405هـ/ 1984م، يتكوّن هذا الكتاب من مقالتين أولهما في تدبير مصالح البدن وثانيهما في تدبير مصالح النفس؛ 2 ـ صور الأقاليم، ولا نعرف من هذا الكتاب إلاّ ما أخذه منه الاصطخري في كتابيه المسالك والممالك والأقاليم؛ 3 ـ أقسام العلوم؛ 4 ـ شرائع الأديان؛ 5 ـ السياسة الكبير؛ 6 ـ السياسة الصغير؛ 7 ـ فضل صناعة الكتابة؛ 8 ـ أسماء الله وصفاته؛ 9 ـ صناعة الشعر؛ 10 ـ فضيلة علم الأخبار؛ 11 ـ الأسماء والكنى والألقاب؛ 12 ـ أسماء الأشياء؛ 13 ـ النحو والتصريف؛ 14 ـ الصورة والمصدر؛ 15 ـ رسالة حدود الفلسفة؛ 16 ـ ما يصحّ من أحكام النجوم؛ 17 ـ الرد على عبدة الأوثان؛ 18 ـ فضيلة علوم الرياضيات؛ 19 ـ أقسام علوم الفلسفة؛ 20 ـ القرابين والذبائح؛ 21 ـ عصمة الأنبياء؛ 22 ـ نظم القرآن؛ 23 ـ قوارع القرآن؛ 24 ـ الفتاك والنساك؛ 25 ـ ما أغلق من غريب القرآن؛ 26 ـ أجوبة أبي القاسم الكعبي؛ 27 ـ النوادر في فنون شتّى؛ 28 ـ أجوبة أهل فارس؛ 29 ـ تفسير صور كتاب السماء والعالم لأبي جعفر الخازن؛ 30 ـ أجوبة أبي الفضل السكري؛ 31 ـ أجوبة أبي إسحاق المؤدب؛ 32 ـ المصادر؛ 33 ـ أجوبة أبي الفضل السكري؛ 34 ـ الشطرنج؛ 35 ـ فضائل مكة على سائر البقاع؛ 36 ـ جواب رسالة أبي علي بن المنير الزيادي؛ 37 ـ منية الكتّاب؛ 38 ـ البحث عن التأويلات؛ 39 ـ الرسالة السالفة إلى العاتب؛ 40 ـ رسالته في مدح الوراقة؛ 41 ـ الوصية؛ 42 ـ صفات الأمم؛ 43 ـ القرود؛ 44 ـ فضل الملك؛ 45 ـ أدب السلطان والرعية؛ 46 ـ شرائع الأديان؛ 47 ـ أخلاق الأمم؛ 48 ـ فضائل بلخ؛ 49 ـ رسالة ما يصحّ من أحكام النجوم...

المصادر والمراجع

● التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، تح. أحمد أمين، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان 2/ 15؛ ● ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب

إسحاق، كتاب الفهرست، تح. رضا تجدّد بن علي بن زين العابدين الحائري المازندراني، ط3، 1988، 1/ 153؛
• الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تح. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993، 274؛ • م. ن، معجم البلدان، تح. فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتاب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1990 ـ 1/ 568 ـ 569؛
• الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تح. د.س. ديدرنغ، ط 2، ج 2، قسم 6، 409 ـ 413؛
• السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1/ 311؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 14، سنة 1999، 1/ 134؛
• بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، تح. رمضان عبد التواب ويعقوب بكر، دار المعارف، مصر 1973، الذيل، 1/ 408؛ Balkhi: Encyclopédie de l'Islam, N.E.
• دائرة المعارف الإسلاميّة الكبرى، طهران 1416هـ/ 1995، 4/ 630.

د. محيي الدين عطية
جامعة القاهرة ـ مصر
د. توفيق قريرة
جامعة تونس

البلخي، أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي

(ت 106هـ/ 724م)

أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي، المفسر المشهور والمعلم الكبير، يعود نسبه إلى قبيلة بني هلال بن عامر، القبيلة المضرية المشهورة. لا تعرف سنة ولادته ويرجح أنه من مواليد الكوفة في العراق، حيث نشأ فيها وتلقى علومه، ويبدو أنه اضطرّ إلى مغادرتها إلى خراسان لأسباب سياسية في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث أشارت بعض المصادر إلى أنه كان من أنصار الإمام علي رضي الله عنه. وقد استقرّ في بلخ أكثر من استقراره في سمرقند وبخارى ومرو، ولهذا السبب حمل لقب البلخي، حيث أسس في البروقان القريبة من بلخ مكتبا كبيرا لتدريس الأطفال والصبيان مجانا حسبةً لله تعالى [ياقوت، إرشاد الأريب، 12/ 15 ـ 16].

في خراسان أصبح شخصية مهمة، ومما يدل على ذلك اختياره سنة 106 هـ/ 723م من قبل زعماء هذا الإقليم الكبير والمهم مع يزيد بن المفضل الحداني، لكي يكونا سفيرين لإصلاح ذات البين بين مضر من جهة، وربيعة

والأزد من جهة أخرى أثناء توتر الأوضاع بينهما في ولاية مسلم بن سعيد على خراسان [الطبري، تاريخ، 7/ 31]. وهذا يدل على أنه كان يلقى الاحترام والقبول من قبل قيادات خراسان الرسمية والقبلية على اختلاف ميولها واتجاهاتها.

وقد اختلف في كونه تابعيا صحب بعض أصحاب رسول الله ﷺ، لا سيما عبد الله بن عباس حبر الأمة، الذي اشتهر بتفسيره للقرآن الكريم، أو أنه أخذ التفسير عن كبار التابعين الذين تتلمذ عليهم مثل سعيد بن جبير، أو الأسود النخعي وغيرهم. ويلاحظ أن الفقهاء والمفسرين أشاروا إليه بصفته تابعيا كبيرا، في حين أثار علماء الحديث شكوكا جدية على لقائه وأخذه عن ابن عباس خاصة، فضلا عن غيره من أصحاب الرسول ﷺ، مثل عبد الله بن عمرو، وأبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك. وأشاروا في الوقت نفسه إلى أنه أخذ روايات ابن عباس في التفسير من طهران الحالية عاصمة إيران كما أشاروا إلى نقله مرويات في التفسير عن الأسود النخعي، وعطاء بن أبي رباح المكي، وطاووس اليماني [البسوي، المعرفة، 2/ 174؛ الذهبي، سير، 4/ 599]. وهكذا تظهر الجهود الكبيرة التي بذلها الضحاك وهو يطلب العلم ما بين الكوفة ومكة المكرّمة، واليمن والري.

أما أبرز تلاميذه الذين رووا عنه التفسير فهم جويبر بن سعيد الأزدي، والحسن بن يحيى البصري، وحكيم بن الديلم، وسلمة بن نبيط، وسليمان بن كيسان، وعبد الرحمان بن عوسجة، وعبد العزيز بن أبي رواد، وأبو روق عطية بن الحارث الهمداني، وإسماعيل بن أبي خالد، وعلي بن الحكم البناني، وعمارة بن حفصة، وكثير بن سلم، ونهشل بن سعيد، ويحيى بن أبي حية الكلبي، ومقاتل بن حيان النبطي، وواصل مولى أبي عينية، ونصر بن مشارس وآخرون. وهذه القائمة الطويلة والناقصة في آن واحد تدل على الأثر الكبير الذي تركه الضحاك بن مزاحم في تفسير كتاب الله العزيز.

أما في التوثيق فقد أجمعت أكثرية علماء الجرح والتعديل على توثيقه والثناء عليه، فهو صدوق في نفسه، رغم الشكوك التي أثيرت حول لقائه ونقله مباشرة عن الصحابة رضي الله عنهم، إذ رجحوا نقله عنهم عن طريق كبار التابعين الذين صاحبهم وسمع منهم. وقد وثقه كل من الإمام أحمد بن حنبل الذي قال عنه بأنه ثقة مأمون؛ وكذلك وثقه يحيى بن معين، وأبو زرعة، وابن حبان في كتابه الثقات؛ وقال عنه ابن عدي أنه عرف بالتفسير، وأما ما رواه عن ابن عباس وأبو هريرة ففي ذلك كله نظر، ونقل عنه البخاري في صحيحه شيئا موقوفا وهو تفسير قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ [آل عمران: 41]، إن الرمز هو الإشارة. كما وثقه الدارقطني والعجلي [ابن حجر، تهذيب التهذيب، تاريخ، 4/ 454]؛ ووثقه وأثنى عليه أيضا ابن شاهين الذي قال عنه إنه ثقة مأمون [ابن شاهين، تاريخ، 120].

وعلى صعيد تصنيفه كتابا في التفسير، فإني أميل إلى ترجيح ذلك على الرغم من أن عصره كان يعتمد في هذه الفترة المبكرة على الروايات الشفوية أكثر من التدوين المنظم، فقد أشير إلى أن سلمة بن نبيط، وعلي بن الحكم البناني رويا عنه من غير كتاب مؤلف، أي اعتمدا فقط على الروايات وآرائه التي

شافههما بها. في حين أن عبيد بن سلمان، وجويبر بن سعد، ونصر بن مشارس رووا عنه عن طريق كتاب مؤلف [ابن عدي، الكامل، 7/ 1315؛ الداؤودي، طبقات، 1/ 216]. ويبدو أن تفسير نهشل لم يلق قبولا نظرا إلى أنه كان متروك الحديث [النسائي، الضعفاء، 2398]. وسرعان ما وجدت مرويات الضحاك وآراؤه في التفسير طريقها في عصر التدوين المنتظم في القرنين الثاني والثالث إلى الكتب، حيث نجد نقولات الأخير عن الضحاك كثيرة جدا وقد بلغت 1332 رواية نجدها في مختلف مجلّداته، مما يدل على المكانة الكبيرة التي حظي بها الضحاك لدى إمام المفسرين.

كما نجد مرويات الضحاك لدى الطبري في كتابه الثالث «الآثار الباقية» إذ نجد اثنتي عشرة رواية، سبع منها عن عبد الله بن عباس وأربع بلا سند، وواحدة عن زيد بن أرقم، وهي تتعلّق بتفسير الخلق الأول، وإبليس، ومدّة اليوم، وخلق الملائكة، وخلق آدم، والطوفان [الطبري، الآثار الباقية، 25، 27، 28، 40، 55، 56، 61، 63، 64، 66، 121]، فضلا عما نقله عنه في تاريخه حيث نجد اثنتي عشرة رواية على صعيد التفسير في موضوع خلق آدم وعن الطوفان وفي سيرة يوسف، سبع منها عن ابن عباس وواحدة عن سلمان الفارسي وأربعة بلا سند [الطبري، تاريخ، 1/ 23، 42، 44، 59، 81، 90، 92، 95، 97، 100، 181، 343].

المصادر والمراجع

● ابن سعد، الطبقات الكبرى، تح. إدوارد سخاو، ليدن، مطبعة بريل، 1322 هـ، 6/ 210، 7 قسم 2/ 102؛ ● خليفة، الطبقات، تح. أكرم ضياء العمري، بغداد، مطبعة العاني، 1387هـ/ 1967 م، 311، 322؛ ● ابن حبيب، المحبر، تح. إيليزة ليختن ستيتر، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر 1361 هـ، 475؛ ● مسلم، الكنى والأسماء، تح. عبد الرحيم محمد القشقري، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، 1404هـ/ 1984م، 2/ 687؛ ● البسوي، المعرفة والتاريخ، تح. أكرم ضياء العمري، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1394هـ/ 1974، 2/ 102 - 103، 108، 143، 174، 198؛ ● ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ليدن، مطبعة بريل 1891م، 216؛ ● الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1979م، 1/ 42 - 43، 59، 81، 90، 92، 95، 97، 100، 181، 343، 3/ 617، 7/ 31؛ ● الطبري، الآثار الباقية عن القرون الخالية، القاهرة، مطبعة محمد محمد مطر، 25، 27، 28، 40، 55، 56، 61، 63، 64، 66، 121؛ ● السجستاني، المصاحف، تح. محيي الدين عبد السبحان واعظ، قطر، إدارة الشؤون الإسلامية، 1995م، 1/ 463 - 464، 477؛ 2/ 788؛ ● ابن عبد ربه، العقد الفريد، بيروت، دار الكتاب العربي عن طبعة القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1949م، 6/ 234؛ ● ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، تح. عبد الرحمان اليماني، حيدر آباد الدكن،

1371 ـ 1372هـ، 4/ 459؛ ● ابن حبان، كتاب الثقات، تح. إبراهيم شمس الدين، تركي فرحان المصطفى، بيروت 1984م، دار الفكر، 7/ 1414 ـ 1415؛ ● النسائي، كتاب الضعفاء والمتروكين، تح. بوران الضناوي، وكمال يوسف الحوت، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، 1405 هـ/ 1985 م، ص 238؛ ● ابن شاهين، تاريخ أسماء الثقات، تح. صبحي السامرائي، الكويت، الدار السلفية 1404هـ/ 1984م، 120؛ ● ابن النديم، الفهرست، بيروت، مكتبة خياط عن طبعة موهانس رودجر 1964، 33 ـ 34؛ ● الطوسي، رجال الطوسي، تح. محمد صادق آل بحر العلوم، النجف الأشرف، المكتبة والمطبعة الحيدرية بالنجف، 1381هـ/ 1961م، 94؛ ● أبو نعيم، حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، بيروت، المكتبة السلفية د.ت، 2/ 105؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة، مكتبة الخانجي، مطبعة السعادة، بغداد، المكتبة العربية، 1349هـ/ 1931م، 13/ 165؛ ● الشيرازي، طبقات الفقهاء، بغداد، المكتبة العربية، 1356 هـ، 93؛ ● ابن الجوزي، نواسخ القرآن، تح. أشرف علي الملباري، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، 1984م، 85؛ ● ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء، تح، د. س. مرجيليوث، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، 1355 هـ/ 1936م، 12/ 15 ـ 16؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1977 م، 5/ 255 ـ 256، 2/ 391؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1406 هـ/ 1986م، 4/ 598 ـ 560؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، تح. ج. برجستراسر القاهرة، مكتبة الخانجي بمصر، 1352هـ/ 1933م، 1/ 337؛ ● ابن حجر، تهذيب التهذيب، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف النظامية 1366 هـ، 4/ 453 ـ 454؛ ● الداؤودي، طبقات المفسرين، تح. علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة وهبة، 1/ 216؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت، 1999م، 3/ 215؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة فهمي أبو الفضل، محمود فهمي حجازي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971م، 1/ 180، 186 ـ 187.

د. رعد محمود البرهاوي
جامعة الموصل ـ العراق

البلخي، أبو معشر جعفر بن محمد الفلكي

(ت 272هـ/886م)

أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي الفلكي المنجم إمام وقته في فنه. نسبته إلى بلخ، وهي مدينة عظيمة من بلاد خراسان [معجم البلدان، 1/ 358 ـ 359].

لا تذكر المصادر تاريخ ولادته، لكن ابن النديم يشير إلى أن منزله في الجانب الغربي من بغداد، وأنه توفي بواسط وقد جاوز المائة [الفهرست، 335]. أما في ما يخص تكوينه فقد ذكر ابن النديم أيضا أنه كان أوّلا من أصحاب الحديث، وكان يندد بمعاصره الكندي (ت نحو 260هـ/ 873م) لتعاطيه الفلسفة «ويغري به العامة»؛ فأرسل إليه الكندي على ما يبدو من يغريه بالنظر في علمي الحساب والهندسة، لكن استعداده الفطري قصّر به عن البراعة في الجانب العددي البرهاني من تلك العلوم. وفي أواسط حياته، بعد أن انتقل من خراسان وسكن بغداد ولعدم صبره على معاناة علم الحساب والهندسة وصعوبتهما ودقتهما، انتقل إلى الكلام في علم النجوم (التنجيم). قال ابن القفطي: «إن لأبي معشر كلاما في الفلك بالقول المطلق المجرد من البرهان. ثم كان له علم واسع في تاريخ الأمم عامة وتاريخ الفرس بخاصة» [تاريخ الحكماء، 153].

لقد عاصر أبو معشر البلخي العالم الفلكي البتاني أبا عبد الله الراصد (ت 317هـ/ 929م). ويظهر أنه تأثر به وبآرائه [دراسات في تاريخ العلوم، حكمت نجيب، 230].

وكان متصلا بخدمة بعض الملوك ومنجما للموفق أخي المعتمد، وكان لكتبه تأثير كبير في الدراسات الفلكية في أوروبا، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللّغة اللاتينية. وهكذا انتقل إلى الأوروبيين تفسيره لظاهرة المد والجزر وارتباطها بالقمر [آلدو ميلي، العلم عند العرب، 169؛ دراسات في تاريخ العلوم، 231]؛ وكثيرا ما يرد ذكر أبي معشر عند الغربيين في العصور الوسطى باسم البماسر Albumassar [دائرة المعارف الإسلامية، 1/ 404 ـ 405، ترجمة محمد ثابت].

آثاره

حفظت لنا المصادر القديمة أسماء كتبه التي زادت على مائة تأليف معظمها في علوم التنجيم، والهيئة، والأنواء والأمطار والرياح، وغيرها. وإن العديد من مؤلفاته محفوظة في خزائن المخطوطات في العالم. ومن مصنفاته:

1 ـ كتاب أسرار النجوم، تناول فيه أحكام الكواكب والأبراج والنجوم والأزياج، ورتبه على أبواب. وقد خصص أحد أبواب الكتاب لذكر عناوين كتب النجوم المعروفة في زمانه وأسماء مؤلفيها، والتي حفظت في خزائن الملوك والسلاطين وكبار رجال الدولة والعلماء، وأغفل ذكرها المؤرخون. إضافة إلى الكتب المشهورة والمتداولة بين الناس في

وقته، والتي لم ينشأ ذكرها لشهرتها. ومن الكتب التي ذكرها في كتابه: كتاب التجارب ليحي بن برمك، وكتاب الرجوع والهبوط ليحيى بن منصور، وكتاب أبي المسافر اليماني منافع النجوم في الطلّسمات، وكتاب في صور برج البروج، وكتاب الأسرار لهرمس، وكتاب الحراني، وكتاب المحاسن لمحمد بن عبد الله بن طاهر، وكتاب الصور الثلاثمائة والستين، وكتاب المناحس والسعادات لسند بن علي، وغيرها من الكتب. كما ذكر أقدم الأزياج المعروفة في زمانه، معتبرا زيج أرخميدس أقدمها. وتوجد من هذا الكتاب نسخة في دار العراق للمخطوطات برقم 30009 [مخطوطات الفلك والتنجيم، أسامة ناصر النقشبندي 1981، 2]؛ 2 ـ كتاب المدخل الكبير، وهو كتاب في التنجيم يتكوّن من ثمانية فصول كان له أثر كبير في الغرب وخاصة في ما يتعلّق بنظرية المدّ والجزر. ترجم، ترجمه (Johannes Hispalensis) سنة 1130 إلى اللاتينية في العصور الوسطى يوهنّاس هيسبلنسيس، وترجمه كذلك سنة 1150 هارمنوس سكوندوس (Hermannus Secundus)، ونشرت الترجمة بأوغسبورغ سنة 1489، وسنتي 1495 و 1506 بفينيسيا؛ 3 ـ كتاب تحاويل سني المواليد، نسخة بالأسكوريال رقم 917، ترجمه إلى اللاتينية يوهناس هيسبلنسيس، ونشرت الترجمة بأغسبورغ سنة 1489، وبفيانا سنة 1515؛ 4 ـ كتاب النكت، وهو شبه تلخيص لكتاب التحاويل، منه نسخ في مكتبة الأسكوريال رقم 1/ 918، و5/ 838، وبالمكتبة الوطنية بباريس في المجموع رقم 2588، نشرت الترجمة اللاتينية بأغسبورغ سنة 1488 والبندقية سنتي 1488و1506؛ 5 ـ مواليد الرجال والنساء، نسخة ببرلين رقم 5881؛ 6 ـ كتاب إثبات علم النجوم؛ 7 ـ كتاب هيئة الفلك واختلاف طلوعه، ويقع في خمسة فصول؛ 8 ـ كتاب القرانات في البروج الاثني عشر واتصالات الكواكب بعضها ببعض؛ 9 ـ كتاب زيج الهزازات ويقع في 71 بابًا؛ 10 ـ كتاب الزيج الصغير المعروف بزيج القرانات وتضمن معرفة أواسط الكواكب لأوقات اقتران زحل؛ 11 ـ كتاب الأمطار والرياح وتغيّر الأهوية؛ 12 ـ كتاب الطبائع الكبير في خمسة أجزاء؛ 13 ـ كتاب الأنواء.؛ 14 ـ كتاب أسرار النجوم؛ 15 ـ كتاب المزاجات؛ 16 ـ بغية الطالب في معرفة الضمير للمطلوب والطالب والمغلوب والغالب؛ 17 ـ كتاب السهمين وأعمار الملوك والدول؛ 18 ـ كتاب الملل والدول؛ 19 ـ كتاب تفسير المنامات من النجوم؛ 20 ـ كتاب الأقاليم...

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، صياغة حديثة، تح. ناهدة عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة؛ ● م. ن، الفهرست، تح. رضا تجدد، ط 3، دار المسيرة، بيروت، 1988، ص335؛ ● أبو الريحان، محمد البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية؛ ● الزوزني، تاريخ الحكماء، وهو المختصر المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بإخبار الحكماء لجمال الدين علي القفطي، ليبسك سنة 1330، مكتبة المتنبي ببغداد ومؤسسة

الخانجي بمصر؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، مج ١، دار الثقافة بيروت، لبنان؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت 1997؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي بيروت (د.ت)، مج 5، ص 251؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، جمادى الثانية 1933، العدد الأول، تر. محمد ثابت الفندي، أحمد الشنشاوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس 1/ 404ـ 405؛ ● خير الدين الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، بيروت، 2/ 127؛ ● محمد أمين فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيك، ج5، دار الفكر العربي، بيروت؛ ● باقر أمين الورد، المحامي، معجم العلماء العرب، ج ١، العلماء القدماء، راجعه كوركيس عواد، ط ١، 1982م؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، العلم للملايين، تر. عبد الحليم النجار، والسيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب بإشراف محمود فهمي حجازي، القاهرة 1933، الهيئة العامة للكتاب، فصل أبو معشر الفلكي، القسم الثاني، 3 ـ 4/ 609 ـ 613.

د. أسامة ناصر نقشبندي
دار التراث ـ العراق
د. باسل كامل دلالي
المجمع العلمي العراقي

البلدي، أبو العباس أحمد بن محمد

(ت 380هـ/990م)

هو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى البلدي من مدينة بلد (بلط)، وهي مدينة أسكي موصل الحالية، والقريبة من مدينة الموصل في العراق، ولا نعرف بالتحديد تاريخ ولادته، ولم تذكر المراجع القديمة المعتمدة تاريخ وفاته، بينما ذُكر في المراجع الحديثة بأنه توفّي سنة 380 هـ. كذلك لم تسعفنا المصادر إلى معرفة بدايات تلقّيه العلم، إلاّ أننا نرجّح أنّه تلقى دراسته الأوّلية في مدينته (بلد)، ثم انتقل إلى الموصل، التي كانت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري مركزا مهمّا يستقطب طلاّب العلم، وفيها أكمل دراسته وتلقّى دروس الطب على أحمد بن أبي الأشعث، وكان من أجلّ تلامذته، لازمه سنتين، واشتغل عليه، وتميّز [ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء ج. 2 ص 249]. وكان هناك عدد من الأطباء المعاصرين له درسوا علم الطب على ابن الأشعث نذكر منهم: أبا الفلاح محمد بن ثواب الموصلي (المعروف بابن

الثلاج)، وأحمد بن الحسين بن زيد بن فضالة البلدي، وعزوز بن الطيب اليهودي البلدي. ثم كانت النقلة الكبرى في حياته حين ذهب إلى مصر والتقى بالوزير أبي الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس وزير المعزّ الفاطمي، وألّف له كتابه «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم» في حدود سنة 369هـ/ 978م، وعاش بقية حياته في القاهرة يدرّس الطب ويعالج المرضى حتى وفاته.

يستطيع قارئ نصوص كتابه «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم» أن يلمس مذهبه في طريق البحث العلمي بوضوح، فهو يضع في بداية الكتاب الأساس الفلسفي لطريقته في المعالجة والتدبير والتأليف. كما أنّ المتتبع لأقواله يخرج بنتيجة حتمية هي أنه كان يسير على نمط قريب من الطريقة العلمية الحديثة، وخط سيره هذا مبيّن على أسس رصينة هي:

- التحصيل النظري: استشهد بأقوال السابقين، ونقل عن أغلبهم مدلّلا على سعة اطلاعه واستيعابه الواعي، وتفهّمه الكامل بالكتب والمصادر المتوفّرة في زمانه. وبذلك أصبح كتابه خير مرجع لمن يريد أن يعرف ما كتبه السابقون في هذا الموضوع ممّن فقدت كتبهم الأصلية مثل روفس الأفسيس، والأمانة العلمية في النقل صفة ثابتة في تأليفه، وبجانب ذلك يلاحظ عدم تقيده بآراء السابقين حرفيا، إذ نعثر في مواضع مختلفة نقدا لجالينوس أو مخالفة لرأي أبقراط.

- المنهج التجريبي: اعتمد المنهج التجريبي في البحث العلمي القائم على الاستقراء والقياس والمشاهدة، أو التجربة والتمثيل.

- الشمولية في الموضوع: يعتبر كتاب البلدي أكمل وأشمل ما كتب من قبل الأطباء العرب في هذا الحقل لاحتوائه على مسألة العناية بالأم الحامل والولادة بجانب العناية بالطفل من الناحية الجسمية والنفسية والتربوية، وكذلك لاحتوائه أمراضا لم يذكرها غيره من الأطباء العرب وغير العرب ممن سبقوه.

ولقد اعتنى إلى جانب ذلك بعلم الأجنة، فأفرد الأبواب (من 12 إلى 18) لذلك، حيث ذكر فيها آراء السابقين إضافة لآرائه التي جاءت قريبة من علم الأجنة الحديث.

كما اعتنى بصحّة الطفل الجسمية في مستوى نوم الطفل واستحمامه وملابسه وفراشه وتغذيته وتطور حركات نمو الطفل.

وانفرد البلدي بتأكيده على اختلاف تأثير العلاجات باختلاف الأشخاص، وأكد على ضعف تأثير العلاج على الشخص نفسه بمرور الأيام لتعوّده عليه، وهي ملاحظة جديرة بالإكبار. كما أكّد في مواضع أخرى من كتابه على اختلاف تأثير العلاجات حسب اختلاف الأعمار.

ويجهل الكثيرون أنّ البلدي هو أوّل من وصف مرض الحميقاء (الجدري الكاذب = الجديري = جدري الماء Chicken Pox)، وتمكّن من تمييزه عن الجدري والحصبة، وأعطى لكلّ مرض من هذه الأمراض وصفا منفصلا، ودليلنا على أنه أول من اكتشفه هو عدم ذكر أوصاف هذا المرض من أحد من المؤلفين اليونانيين وكذلك العرب والمسلمين

ممن سبقه. ولسوء الطالع بقي اكتشاف البلدي هذا كشخصه وكتابه طيّ النسيان فلم ينتشر ذكره، ولم يترجم إلى اللغات الأوروبية.

ولا نجد ذكرا مفصّلا لمرض الحميقاء (الجدري الكاذب) في المصادر الطبية العربية منها والأجنبية لأكثر من خمسة قرون تلت مجيء البلدي. وبعد أن استعرض الدكتور ارهرت كاهلة (أستاذ تاريخ طب الأطفال في معهد تاريخ الطب بجامعة ورز بيرك بألمانيا) بدايات ورود اسم الحميقاء (الجدري الكاذب) في المصادر الغربية أخذ يقول: «لذا من الآن فصاعدا يجب أن يقترن اسم البلدي كأوّل واصف لمرض الجدري الكاذب في تاريخ طب الأطفال، Kahle: Erhart, The Description of Varicella B4.

■ آثاره

كتاب «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم» ويعود التأليف لسنة 368 هـ/ 978 م، أو بعيد ذلك بقليل، وكان ألّفه للوزير أبي الفرج يعقوب بن يوسف بن كلي وزير المعز الفاطمي، ط، تح. محمود الحاج قاسم حمد، بغداد 1401 هـ/ 1980 م، دار الحرية للطباعة.

■ المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، دار الفكر، بيروت، 1956، ج. 2، ص248 ـ 249؛ ● ابن أبي الأشعث، الأدوية المفردة، مخطوط، نسخة المتحف البريطاني، ص 12؛ ● مانفرد أولمان توبنغن، الرواية العربية لأعمال روفس الأفسيس، تر. رضوان السيد، قدّم المقال في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، حلب 12 نيسان 1976؛
- Kahle: The Description of Vericella B4, Al-Baldi, p. 241

بحث قُدّم في ندوة الطفل العربي، طرابلس ليبيا 15 ـ 20 مارس 1982.

د. محمود الحاج قاسم محمّد
طبيب أطفال
الموصل ـ العراق

■ بلدي، نجيب

(1324هـ/1907م ـ 1397هـ/1978م) ■ ■ ■

يعد نجيب بلدي، أحد أعضاء الدفعة الأولى بالجامعة المصرية، من روّاد الفكر الفلسفي العربي المعاصر، ومن أهمّ مؤرّخي الفلسفة العربية. ولد في 18 يونيه 1907 بمدينة القاهرة. وتعلّم في مدارسها الابتدائية والثانوية، وبعد حصوله على الباكالوريا التحق بكلية الآداب بالجامعة المصرية بعد تحوّلها إلى جامعة حكومية

ودرس الفلسفة لمدّة أربع سنوات، وتخرّج في الدفعة الأولى في قسم الفلسفة 1929م. وبعد تخرّجه أرسل في بعثة إلى فرنسا حيث حصل على ليسانس الفلسفة ودبلوم الدراسات العليا 1932 من جامعة باريس، وعاد إلى التدريس في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) 1938م. ودارت رسالتاه للدكتوراه: الأولى حول التفكير الديني عند باركلي ووحدة فلسفته، والثانية عن فكرة المعرفة عند كوك ويلسون. وبعد أن ناقش رسالته بباريس سنة 1945، انتقل للعمل في جامعة الاسكندرية أستاذا مساعدا 1942م وظل يعمل بها حتّى 1956م حين سافر للعمل أستاذا زائرًا بالولايات المتحدة الأمريكية لمدة عام. وأعير إلى جامعة الرباط بالمغرب في أكتوبر 1962 لتدريس تاريخ الفلسفة لمدة ستّ سنوات. وبعد إحالته للتقاعد عاد للعمل بجامعة الرباط، وكانت حصيلة محاضراته كتاب «دروس في تاريخ الفلسفة» الذي نشره تلميذاه: الطاهر وعزيز، وكمال عبد اللطيف بالمغرب 1987م. توفّي في حادث في 6 يوليو 1978م.

وهو يعبّر في مؤلّفاته المختلفة التي كتبها باللغتين العربية والفرنسية على مقولة أساسية هي أنّ مؤرّخ الفلسفة فيلسوف، لا يكتفي برواية أقوال الفلاسفة، بل يحرص على تقديم رؤيته لها مفسّرا ومؤوّلا. كما يتضح ذلك في كتابه عن المفكّر الفرنسي بسكال 1956م، وديكارت 1959م، حيث يجعل نجيب بلدي من دراسته للفيلسوف الفرنسي مناسبة للتفلسف والوصول إلى معنى الفلسفة، فهو لا يكتفي بعرض الفكرة وكتاباته، وفي هذه العودة تظهر صورة ديكارت صاحب البسائط والأفكار الواضحة والحقائق المألوفة. فيربط بين الفيلسوف ومجتمعه وعصره ويقارنه بمظاهر التفكير السابقة عليه واللاحقة له. ويعرض مراحل التفكير الديكارتي؛ فهناك مرحلة تمهيديّة عاصرت أحلام الفيلسوف ومشروعات نجدها في بعض المخطوطات الخاصة بالموضوعات العلمية، والمرحلة الأولى مرحلة المنهج والعلوم التي بدأت منذ 1627م، والثانية هي مرحلة التأليف الفلسفي التي عالج فيها مسألة اليقين والوجود في طبيعته وأصله ومصيره، وأصدر فيها كتاب «التأملات» 1641م، والمرحلة الثالثة والأخيرة هي مرحلة الفلسفة الأخلاقية التي ظهرت فيها رسائله المختلفة مع أعلام عصره وكتاباه «مبادىء الفلسفة» وكتاب «الانفعالات». وهذه الفلسفة من وجهة نظر بلدي لم تظهر دفعة واحدة، وإنّما أنشأت في الزمان متّصلة بأحداث الحياة متبدّلة متطوّرة. وقد تتبّع بلدي في دراسته مراحلها المختلفة حيث يعرض في القسم الأوّل من كتابه المنهج وحقائق العلم، والثاني في الفلسفة الأولى، والثالث في خصائص الوجود، رافضا التفسير المثالي الذي قدّم في العربيّة لديكارت متبنّيا تفسيرا واقعيا لحياة وفلسفة ديكارت وفلسفته تختلف عن تفسير عثمان أمين المثالي الروحاني له.

وظهر له في عام 1961م كتاب «فيدون والفلسفة الغربية»، وفيه تتبّع أثر محاورة أفلاطون في الفلسفة اليونانية القديمة والمسيحية الوسيطة والفلسفة الغربية الحديثة، وفي العام التالي ظهر كتابه «تمهيد لمدرسة الإسكندرية وفلسفتها» متحدّثا فيه عن تاريخ

هذه الفلسفة وحقيقتها متناولاً فلسفة أفلاطون ومكانتها وصلتها بهذه المدرسة. وأصدر في نفس العام 1962م كتابه «مراحل التفكير الأخلاقي» وفيه يتناول الفضائل الأخلاقية المختلفة، وتطوّرها في تجربة الضمير عبر مراحل التفلسف المختلفة. وهو يقدّم «مراحل الفكر الأخلاقي» في شكل عرض بنائي للمعاني الأخلاقية يتّفق وهذه المراحل في مقدّمة وخاتمة وفصول خمسة تتناول معاني الفضيلة، والواجب، والبطولة، والمحبّة، والعمل. وهو يرى أنّ تاريخ الفكر الأخلاقي نشأ مع مشكلات الحياة الاجتماعية والعلمية، ولم ينشأ تحت ضغط مطلب الفكر النظري، وتطوّر بفضل ما اعترضه من صعوبات دفعت بالمفكرين الأوائل إلى الاعتناء بالفضيلة والكلام عنها والحوار حولها. وهذا ما يميّز الفكر الأخلاقي اليوناني خاصّة عند سقراط. ويرى أنّ الفلسفة الأخلاقية تأتي متأخرة دائما على الفكر الأخلاقي الحيّ. ولقد ظهرت الأزمة الحقيقية أو المشكلات منذ القدم وتبلورت منذ ظهور المسيحية، وبعد أن يعمّ التأزّم ويعمّ الشعور بالعقدة الأخلاقية يظهر التعبير عنها، وهذا ما تمّ لأوّل مرّة مع كانط.

بالإضافة إلى هذه المؤلفات نشر العديد من الدراسات والأبحاث في مجلّة «الكاتب المصري» عن «بعض جوانب فلسفة سارتر»، و«الفلسفة واللغة»، و«الفلسفة بين مصر والمغرب»، و«إميل بربيه وكتابه الأخير في الفلسفة المعاصرة»، و«معجم لالاند الفلسفي» بمجلّة «كلّية الآداب» جامعة الإسكندرية، و«الاعتقاد» في مجلّة «علم النفس»، كما كتب عن «الفلسفة في المغرب العربي»، و «بين الشرق والغرب: أفلاطون»، في مجلة «دراسات فلسفية وأدبية» بالمغرب. وله بالفرنسية «ثوابت الفكر الفرنسي» نشر في المطابع الجامعية بفرنسا 1948، و«قيمة الماضي» في المطابع الأدبية بفرنسا 1953م، حيث يعرض نظريّته في الزمان، وهو موضوع محوريّ في تفكير حاضر فيه عدّة سنوات لطلابه بجامعة الاسكندرية حيث يناقش فيه نظريات الفلاسفة الوجوديين والماركسيين والهيجليين في الزمان. وصدر كتابه «فكر أفلاطون» عن المطابع الجامعية بفرنسا 1970م محاولاً فيه الكشف عن الأصول المصرية للفيلسوف.

وله عدة أبحاث أخرى توضح مناحي تفكيره المختلفة هي «ملاحظات عن الزمن عند ديكارت» بالفرنسية، مجلّة «كلية الآداب» جامعة الاسكندرية 1944 م؛ و «المعاني المختلفة للتجربة عند الفلاسفة الإنجليز»، و«التجربة الدينية والذاكرة عند جراهام جرين»، و «طبيعة الصور المقدسة وقوتها عند القديس يوحنّا الدمشقي»؛ و «مصدر الجرأة ودلالتها عند أفلوطين»، بالإضافة إلى دراسات عديدة بالفرنسية في مجلة «كراسات» الحلقة التوماوية بالقاهرة، ومجلّة القاهرة ودار السلام. كما كتب عن كل من «الشيخ مصطفى عبد الرازق، ويوسف كرم، وقصة الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي» بمجلّة ميدو Midco.

ونظرا إلى أستاذيته وريادته في التأريخ للفلسفة قدّمت عدّة دراسات حول جهوده في ندوة الجمعية الفلسفية المصرية «مدرسة الاسكندرية الفلسفية عبر العصور» 1994م. وعقدت ندوة حوله بالقاهرة في أبريل 1998 تحدث فيها محمد عبده محجوب عن نجيب بلدي الإنسان، وحبيب الشاروني عن فلسفة نجيب

بلدي، وعبد المعطي عن النزعة الديكارتية عند نجيب بلدي، وماهر عبد القادر عن بلدي وكتابه «تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها».

■ آثاره

أ ـ مؤلفات بالعربية: 1 ـ باسكال، دار المعارف، القاهرة، 1956م؛ 2 ـ ديكارت، دار المعارف، القاهرة 1956م؛ 3 ـ فيدون والفلسفة الغربية، الإسكندرية 1961؛ 4 ـ مراحل الفكر الأخلاقي، دار المعارف، القاهرة 1962م؛ 5 ـ تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، دار المعارف، القاهرة 1962م.

ب ـ مؤلفات بالفرنسية: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية

1 - La pensée religieuse de Berkley, Le Caire : I.F.A.O. 1947.

2 - La notion de connaissance chez Cook Wilson, Le Caire : I.F.A.O. 1939.

3 - Les constants de la pensée française, Paris, Presses Universitaires de France, 1948.

4 - Valeur du passé, Paris : P.U.F., 1953.

5 - La pensée de Plotin, Paris: Presses Universitaires de France, 1970.

■ المصادر والمراجع

● أحمد عبد الحليم عطية، التفسير الواقعي لديكارت في «الديكارتية في الفكر العربي المعاصر»، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1989م؛ ● أحمد عبد الحليم عطية، نجيب بلدي من الترجمة إلى الإبداع في الفصل الأول من الأخلاق في الفكر العربي المعاصر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1990م؛ ● حبيب الشاروني، التعريف بنجيب بلدي، ص 285 ـ 288، مجلة الفلسفة والعصر، العدد الأول، القاهرة أكتوبر 1999م.

د. أحمد عبد الحليم عطية
جامعة القاهرة

■ البَلَّفيقي، أبو إسحاق محمد بن إبراهيم

(646هـ/1248م ـ 694هـ/1294م) ■ ■ ■

أبو إسحاق محمد بن إبراهيم بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الحاج السُلمي البلفيقي، مقرئ متصوف. يرجع نسبه إلى الصحابي المعروف حارثة بن العباس بن مرداس. وبعد الفتح العربي الإسلامي للأندلس، استقر أجداده من قبيلة بني سُليم في بَلفيق (Belfiq)، وهي بلدة أندلسية صغيرة تقع ضمن أعمال المرية (Almeria). وكان يُعرف بابن الحاج، وهي شهرة قديمة لا يُعلم لمن الإشارة بها إلى سلفه. ولكنه اشتهر أكثر بالبلفيقي والمروي، نسبة إلى بلفيق والمرية. وقد استوطن والده في مدينة سبتة المغربية

التي وُلد بها عالمنا هذا محمد، يوم الاثنين الحادي والعشرين لذي القعدة من سنة ست وأربعين وستمائة.

نشأ محمد بن إبراهيم البلّفيقي في مدينة سبتة، على طهارة تامة، وعفة بالغة، وصَون ظاهر، وكان عَلَماً بين شبان كتّابه الذي تلقى فيه تعليمه الأولي. وقد قرأ القرآن العزيز بالقراءات السبع على الأستاذ أبي الحسين بن أبي الربيع القُرشي، وتفقه عليه في رسالة أبي محمد بن أبي زيد القيرواني في فقه المالكية، وأخذ عنه العربية، واللغة، واستظهر عليه فصيح ثعلب، وأجاز له. كما أجاز له أبوه إجازة عامة. وسمع في سبتة من الراوية المحدّث أبي بكر بن مشليون بعض الموطأ. كذلك تأدب بالخطيب أبي زيد عبد الرحمن بن عيسى بن أحمد بن فتح الورَياغلي الطنجي الأصل والمولد، نزيل سبتة. وأخذ أيضاً عن أبي يعقوب المحاسبي، وأبي العباس أحمد بن فرتون، كما سمع عن أبي عبد الله الدبّاج، الذي كان موثقاً بسبتة ويُعرف بالذبيح.

وقرأ بالأندلس على عدد كبير من الشيوخ، منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي المتوفى سنة 658 هـ/ 1260 م، والقاضي الحسن أبي عبد الله الأزدي، وأبي يحيى عبد الرحمن بن الفرس، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخزرجي، والكاتب أبي الحسن الرعيني، وغيرهم. وقد أجاز له من أهل المشرق جماعة على يد أبيه. ولا تتوفر لدينا معلومات كثيرة عن تلاميذه، باستثناء أن قاضي الجماعة بحضرة تلمسان، أبا عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القُرشي، كان أحد الذين أخذوا عنه. وكان الشيخ المعلم الثقة أبو محمد قاسم الحصّار، أحد الملازمين له، المنقطعين إلى خدمته، والسفر معه إلى البادية.

تميز البلّفيقي، بشخصية قوية، وبكرامات يحفظها عنه أهل مدينته سبتة. ومما يُنقل عن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (656 ـ 685هـ/ 1258 ـ 1286م) أنه قال بعد مقابلته له: «إن كل رجل صالح دخل عليّ كانت يده ترغَد في يدي، إلا هذا الرجل، فإن يدي كانت ترعُد في يده عند مصافحته». وهذا يدل على تأثيره القوي في هذا السلطان، لاسيما بعد أن وعظه موعظة، أعنف عليه فيها، فانفعل لموعظته، وكان ذلك من أسباب قيامه بإحدى حملاته للجهاد، وعبوره إلى الأندلس.

وعلى صعيد التراث العلمي، ومؤلفاته نجد إشارة واحدة فقط إلى تأليف له بعنوان: «درر المناقب في فضائل الأولياء»، وأنه كان ينظم الشعر أيضاً. ولكن من المؤسف أن شعره وكتابه لم يصلا إلينا. ومع هذا فيكفي البلّفيقي فخراً أنه أنجب ابناً حمل بعده لواء العلم والمعرفة، واشتهر بطول باعه في علوم مختلفة، هو أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج السُلمي البلفيقي المتوفى سنة 771هـ/ 1369م، الذي تولى القضاء في مدن متعددة بالأندلس، وله مؤلفات كثيرة تزيد على العشرين، تغني عن قصور والده في هذا المجال [ابن فرحون، الديباج المذهب، 2/ 272].

ويشير لسان الدين ابن الخطيب، إلى نزعة محمد البلفيقي الصوفية، التي بدأت بوادرها

بالظهور في فترة مبكرة من حياته في سبتة. فبعد شدة طلبه للعلم، ابتدأ بنبذ الدنيا، والإقبال على الآخرة، وجرى على سُنن المُتقين، آخذا بالأشد من ذلك والأقوى، طامحاً بهمته إلى أقصى ما يؤمّه السالكون، فرفض زي الطلبة، واكتفى بارتداء الملابس الخشنة، وترك الاختلاط بالناس، وبالغ في الابتعاد عنهم؛ «وانقطع إلى الله برباطات سبتة وجبالها، وخصوصاً ميناءها، وعكف على ذلك سنين. ثم سافر إلى المغرب سائماً في الأرض، على زي الفقهاء للقاء العُبّاد وأهل العلم، فأحرز من ذلك ما شاء الله...» [الإحاطة، 3/ 249].

ولم تتوقف جولته في المغرب، بل امتدت لتشمل الأندلس، فعبر البحر إلى المرية، مستقر أسلافه، حيث كانت له بقايا أملاك بقيت لأهله بها. واستمر على حال التبتل والإخبات، فكان على ما يصفه أصحابه صواماً، قواماً، خاشعاً، ذاكراً، تالياً، قوالاً للحق، مُسقطاً للتصنع والمباهاة. ثم قدم مدينة غرناطة، حيث قابل فيها أمير المسلمين من بني نصر، السلطان محمد الثاني الفقيه (672 ـ 701 هـ/ 1273 ـ 1302 م). ولا يشير لسان الدين بن الخطيب، الذي أورد هذه الرواية إلى السبب الحقيقي للمقابلة، التي اعتقد السلطان أنها ربما كانت لطلب حاجة منه. ولكن رد محمد البَلَفيقي على سؤال وزير السلطان عن حاجته، أظهر استخفافه بالدنيا، والطلب من غير الله، قائلاً: «بهذا الرسم رحلتُ، ثم ظهر لي أن أُنزل حاجتي بالله، فعارٌ على من انتسب إليه أن يقصد غيره» [الإحاطة، 3/ 249]. ويبدو أن هذا الرد قد أثر في السلطان، مما كان له أثره فيما بعد، من موقفه منه، لاسيما بعد أن رجع البلفيقي إلى المغرب، مستصرخاً سلطانها أبا يوسف يعقوب المريني لنصرة الأندلس، نتيجة لاشتداد أحوال أهلها، بسبب تطاول أعدائهم الإسبان. فعبر أبو يوسف المريني البحر، لمساعدة أهل الأندلس، ونتيجة لذلك ازداد نفوذ بني مرين فيها نظراً إلى سيطرتهم على بعض المدن والحصون، مما أدى إلى انزعاج السلطان الغرناطي محمد الفقيه، الذي اعتقد أن البلفيقي قد أغرى به ملك المغرب، ومما زاد هذا الاعتقاد سعي الساعينْ به، فأمر بنهب ماله، ومصادرة أملاكه التي عهد بها إلى المختص بالأملاك السلطانية، ولكن محمداً البلفيقي تخلص من المحنة، وغادر الأندلس إلى سبتة التي بقي فيها حتى وفاته في العشر الأواخر من شهر رمضان من سنة 694هـ/ 1294م، ودفن إثر صلاة العصر بجبانة الخَرُّبة من منارتها، بالقرب من قبر أحد الصالحين، المعروف بالشيخ ريحان الأسود.

■ المصادر والمراجع

● الوادي آشي، برنامج الوادي آشي، تح. محمد محفوظ، بيروت، 1980، دار الغرب الإسلامي، 124 ـ 125، الترجمة 137؛ ● ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1975، 248 ـ 251؛ ● ابن حجر، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تح. محمد علي البجاوي، القاهرة، 1964 ـ 1967، 1/ 170؛ ● ابن القاضي المكناسي، درة

الحجال في أسماء الرجال، تح. محمد الأحمدي أبو النور، تونس ـ المكتبة العتيقة ـ القاهرة، دار التراث، 1971، 59 ـ 60، الترجمة 503؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1966، 2/ 269 ـ 274 (ترجمة ابنه)؛ ● التعريف بابن خلدون، تح. محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1951، 61 تعليق رقم 2.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

البلقيني، جلال الدين عبد الرحمان بن عمر

(763هـ/1362م ـ 824هـ/1421م)

ولد جلال الدين عبد الرحمان بن عمر بن أرسلان الكناني البلقيني الشافعي بالقاهرة سنة 763 هـ/ 1362م في بيت علم ودين وعز وترف؛ فقد كان والده شيخ الإسلام وقاضي القضاة في الدولة المملوكية، وجده لأمه قاضي القضاة بهاء الدين بن عقيل الشافعي النحوي ابن حجر، [رفع الإصر، 1/ 332]. وقد عاصر من ملوك هذه الدولة التي حكمت مصر والشام والحجاز واليمن كلاً من السلطان شعبان بن حسين، والمنصور علي، والصالح أمير حاج، والظاهر برقوق، والناصر فرج بن برقوق، والمؤيد شيخ، والمظفر بن المؤيد، ثم أخيرا الظاهر ططر.

وتكمن أهمية العلماء والقضاة في هذه الدولة التي لها أياد بيضاء في الدفاع عن دار الإسلام ومقدساته طيلة 265 سنة، كونهم أحد أهم مصادر شرعيتها، ولكونهم يمثلون الصلة بينهم وبين الرأي العام آنذاك، من خلال إصدار الفتاوى السياسيّة، وفي التحريض على الجهاد، وفي إمامة السلطان والخطبة والدعاء عند المناسبات الدينيّة، وعند حلول الكوارث الطبيعية كالأوبئة والقحط. ولذلك حظي البلقيني باهتمام السلاطين وتعاون معهم، بصفته شيخ الإسلام وقاضي القضاة الشافعية، واعتمدوا عليه في البيعة عند تولي السلطة [ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 13/ 136، 144، 192، 207، 14/ 68، 98، 238].

ويعد قاضي القضاة سراج الدين البلقيني والد صاحب الترجمة، أستاذه الذي تلقى عليه معظم علومه، وقد ساعده ذكاؤه المفرط وقوة حفظه على استيعاب كتب العلم، على الرغم من انشغال والده بأعباء القضاء، فضلا عن علاقته المباشرة مع السلطان ورجال الدولة، فقد حفظ القرآن الكريم، وكتاب «العمدة» وما كتبه أبوه لأجله مثل «التدريب»، و«مختصر ابن الحاجب الأصلي»، وألفية ابن مالك،

وغيرها. كما درس مع أبيه كتاب الحاوي، وسمع الشيء اليسير من السنن الكبرى للإمام البيهقي على الشيخ علي بن أيوب، كما سمع من أبيه معظم كتب السنة في الحديث.

وإن كان سماعه لها على غير شرط السماع المعروف لدى علماء الحديث، لما كان يصاحب هذه الدروس من البحوث المختلفة، فضلا عن اللغط المخل بصحة السماع.

هذا ودرس خلال هذه الفترة على الحافظ البهاء عبد الله بن محمد، والزين أبي الحسن علي الأيوبي الذي سمع منه الكثير من سنن البيهقي، كما حصّل له الشهاب بن حجي في دمشق لما جاءها بصحبة والده إجازات أكثر من مائة شيخ من شيوخ الشام مثل ابن أميلة، والصلاح بن عمر، والبدر بن الهبل، والشهاب بن النجم، والحافظ ابن كثير، والزين العراقي، والتاج السبْكي وغيرهم. وهكذا أصبح مؤهلا للإفتاء وعمره تسع عشرة سنة، إذ أذن له والده بذلك سنة 781هـ/ 1379م؛ وجاء في نص إجازته أنه رأى منه البراعة في فنون من الفقه وأصوله والفرائض وغيرها، مما يظهر من مباحثه على الطريقة الجدلية والمسالك المرضية والأساليب الفقهية والمعاني الحديثة.

وأول منصب تولاه البلقيني كان «توقيع الدست» في ديوان الإنشاء. ثم تولى قضاء العسكر بعد موت أخيه بدر الدين سنة 791هـ/ 1388م؛ وهذا فضلا عن «توقيع الدرج» والنظر في وقفي السيفي وطقجي. وبعد موت صدر الدين المناوي وتولي ناصر الدين الصالحي نافسه البلقيني على منصب قاضي القضاة، واستطاع إزاحته وتولى المنصب عام 804هـ/ 1401م بدعم من أمير آخور الكبير سودون طاز، وعزل سنة 805هـ/ 1402م من ناصر الدين الصالحي، وأعيد سنة 806هـ/ 1403 م، وسرعان ما تبادل المنصب مع منافس آخر هو الأخنائي عدة مرات، إلى أن استقر في المنصب عام 808هـ/ 1405م، ثم صرف الباعوني، بعد مقتل السلطان الناصر سنة 815هـ/ 1412م، وأعيد بعد شهر واستمر إلى أن صرف بالهروي سنة 821هـ/ 1418م، ثم أعيد بعد عشرة أشهر ولم يزل في المنصب إلى أن مات سنة 824هـ/ 1421م [السخاوي، الضوء اللامع، 4/ 107 ـ 108].

ومما يدل على أهمية البلقيني ومقدار الاحترام الذي حظي به على صعيد السلطات المملوكية والعلماء والعامة على السواء، كتاب تقليده بعد عزل قاضي القضاة الهروي عام 821 هـ/ 1418م والذي قرئ في جامع السلطان المؤيد شيخ، وقيل عن هذا الاحتفال، إنه لم يتفق لملك مصر يوم نظيره، ومما جاء في هذا التقليد: «الحمد لله الذي أبان فضل العرب على العجم، في الكتاب والسنة، وأظهر جلال سراجهم المنير فأوضح بحسن تدريبه الجنة... وكانت ستور الجهل قد أسبلت على التفاسير فأظهر السر للآلئ كشافها. أما القراءات فهي في قري شيخ الإسلام وفضله فيها عاصم من الجهل ونافع. وأما الحديث فهو مجلي مبهماته بنور جلاله الساطع، وأما العربية فقد ظهر بعد وعر العجم تسهيلها...» [ابن حجة، خزانة الأدب، 429 ـ 431]. وقد أثنى المؤرخون بصورة عامة على أدائه أثناء توليه منصب قاضي القضاة، حيث أشاروا إلى كفاءته ونزاهته وعفّته مع لين جانبه

وتواضعه وكرمه. أشير كذلك إلى حبه للمنصب، وأنه كان سريع الغضب مع الندم والرجوع بسرعة.

وعلى الرغم من انشغال البلقيني بأعباء منصبه، فضلا عن مصاحبته للسلاطين والسفر معهم أحيانا إلى خارج مصر، فقد عرف عنه بأنه كان عالما جليلا على صعيد التدريس والتأليف والتأثير في عصره. فعلى صعيد التدريس كان يقوم بتدريس التفسير كل يوم جمعة من تاريخ وفاة والده وإلى شوال سنة 823هـ/ 1420م: حيث ابتدأ من الموضع الذي انتهى إليه أبوه، وتوقف عند قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] [ابن حجر، أبناء العمر، 3/ 260].

ويعود سبب توقفه كما يظهر من سيرة حياته إلى مرضه، وتنقله خارج مصر إلى الشام. وكان درسه يقوم من خلال تعليقه على تفسير البغوي، وآراء المفسرين مثل ابن حيان والزمخشري، إذ كان يدهش الحاضرين بتمكنه وسرعة بديهته. كانت هذه الدروس تتم أيضا في مدرسته التي أنشأها في القاهرة، فضلا عن تدريسه التفسير أيضا في جامع ابن طولون والمدرسة البرقوقية، كما درّس الفقه في الزاوية الخشابية في جامع عمرو بن العاص، وبالخروبية، والبشتيلية، والبدرية، والملكية، والآلجيهية، والحجازية، والجمالية. كما درّس الحديث الشريف بالأشرفية، وولي تدريس الشامية البرانية بدمشق مع التصدير بجامع بني أمية. ويبدو أن جلال الدين ورث أباه سراج الدين في التدريس في بعض هذه المدارس المذكورة، فقد أشير إلى أنه كان يدرس في الحجازية والبديرية، أما الخروبية فقد ورث التدريس فيها بعد كل من جده لأمه قاضي قضاة بهاء الدين بن عقيل، وعن أبيه سراج الدين الذي كان معيدا فيها. وأشير إلى أنه كان يدرس التفسير أيضا في مدرسة الاستادار وكان يزامله التدريس فيها الحافظ ابن الحجر العسقلاني حيث كان الأخير يدرس الحديث النبوي الشريف، وكان يتناول في هذه المدرسة راتبا شهريا قدره ثلاثمائة درهم [المقريزي، المواعظ، 2/ 369، 382، 392، 402]. وبذلك نجد البلقيني مفسرا وفقيها ومحدثا مع تمكنه من علوم العربية التي تعد الأداة الرئيسة في كل هذه العلوم.

انتهت حياة البلقيني الحافلة بالعلم والمعرفة والعمل سنة 824هـ/ 1421م عن عمر بلغ إحدى وستين سنة بعد عودته مباشرة من دمشق بصحبة الملك المؤيد حيث كان مثقلا بالمرض، وكان موته غامضا، فقد أشير إلى موته مسموما، وقيل بعلة القولنج [ابن فهد، لحظ الألحاظ، 284]. إن هذه الوفاة الغامضة ترتبط بطبيعة عصر المماليك وعدم استقراره سياسيا، فضلا عن التنافس بين العلماء، وقد دفن في القاهرة في مدرسة أبيه.

■ آثاره

تضم مؤلفاته قائمة كبيرة ومتنوعة، فعلى صعيد التفسير الذي اشتهر به ألف تفسيرا لم يكمله، ولا يعرف مصير هذا التفسير، كما ألف كتابا في علوم القرآن سماه «مواقع العلوم من مواقع النجوم» ضم ستة أبواب: الأول في مواطن النزول وأوقاته وفيه اثنا عشر نوعا. والثاني في السند وهو ستة أنواع. والثالث في الأداء وهو

ستة أنواع أيضا. والرابع في الألفاظ وهو ستة أنواع كذلك. والخامس في المعاني المتعلقة بالألفاظ، ويضم خمسة أنواع [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1890].

أما على صعيد الفقه فيشير السخاوي إلى أنه ألف فيه الكثير، من ذلك «نكت على المنهاج» لم يكمله، و«نكت على الحاوي الصغير»، و«نظم ابن الحاجب الأصلي». وقد التزم لكل من حفظه بجائزة نقدية كبيرة، فضلا عن أجوبة على «أسئلة يمنية» و«أسئلة مغربية» و«حواش على الروضة». أما على صعيد الحديث النبوي الشريف فقد ألف الإفهام لما في صحيح البخاري من الإبهام، وقد استفاد في تأليفه من الحافظ ابن حجر من خلال لقاءاته معه ومذاكرته له، كما ألف كتابا أسماه معرفة الكبائر والصغائر والخصائص النبوية، فضلا عن كتاب الوعظ.

المصادر والمراجع

● ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، القاهرة، 1305 هـ، المطبعة الخيرية، 429 ـ 431؛ ● المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، د. ت، مكتبة الثقافة الدينية، 2/ 369، 382، 392، 402؛ ● ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، تح. حسن حبشي، القاهرة، 1389هـ/ 1969م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث العربي، 3/ 157، 159، 209 ـ 260؛ ● م. ن، رفع الإصر عن قضاة مصر، تح. حامد عبد المجيد، محمد المهدي أبو سنة، محمد إسماعيل الصاوي، القاهرة، 1957، المطبعة الأميرية، 2/ 332 ـ 336؛ ● ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ بذيل تذكرة الحافظ، دمشق، 1347 هـ، مطبعة التوفيق، 282 ـ 284؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 13، تح. فهيم محمد شلتوت، القاهرة، 1390هـ/ 1970م، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 13/ 136، 144، 192، 207، ج 14، تح. جمال محمد محرز فهيم محمد شلتوت، القاهرة، 1391هـ/ 1973م، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 14/ 127 ـ 138؛ ● الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح. حسن حبشي، القاهرة، 1971، مطبعة دار الكتب، 2/ 523؛ ● الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، تح. حسن حبشي، القاهرة، 1970، دار الفكر العربي، 176؛ ● السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، 1354 هـ، مكتبة القدسي، 4/ 106 ـ 113؛ ● السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1387هـ/ 1967م، دار إحياء الكتب العربية، 1/ 438؛ ● ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة 1911، المطبعة الكبرى ببولاق، 2/ 9؛ ● الداوؤدي، طبقات المفسرين، تح. علي محمد عمر، القاهرة، 1972 م، مكتبة وهبة، 1/ 276 ـ 277؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طهران، 1387هـ/ 1947م، المكتبة الإسلامية،

1/ 444، 2/ 885، 1163، 1890؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت، 7/ 166؛ ● البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طهران، 1387هـ/ 1947م، المكتبة الإسلامية، 1/ 530؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 3/ 320.

د. رعد محمود البرهاري
جامعة الموصل ـ العراق

البلكرامي، الشيخ أوحد الدين بن القاضي

(1193هـ/ 1779م ـ 1262هـ/ 1845م)

العلامة الشيخ أوحد الدين البلكرامي بن القاضي علي أحمد العثماني.

ولد بمدينة بلكرام الواقعة بولاية اترابرادبش شمالي الهند في سنة 1193 هـ/ 1779م ونشأ وترعرع فيها وتلقى دروس العلوم الابتدائية على يد أبيه. ولما بلغ سن الرشد انتقل مع العلاّمة الشيخ محمد أسلم الفرشوي البلكرامي إلى مدينة كلكتا التي كانت حينذاك محط العلماء والأدباء والمفكرين، وتعلم هناك مختلف العلوم والفنون من الأساتذة البارعين، وسرعان ما أصبح متضلعا من الأدبين العربي والفارسي، ثم شد رحاله متوجها إلى أمصار ومدن الهند المختلفة لإشباع نهمه العلمي، واستفاد من العلماء والأدباء المتواجدين في هذه الأمصار والمدن، وأخيرا ارتحل إلى جزيرة العرب لصقل لغته العربية وزيادة قدرته على الأساليب الأدبية للغة العربية. ولهذا الغرض مكث في الأقطار العربية لفترة طويلة، وعاد إلى مسقط رأسه بعد تحقيق مطامحه وأهدافه.

عند الرجوع إلى بلاده حمل ماكينة للطباعة بالحروف العربية ونزل بها في مدينة لكناؤ حيث اشترى منه هذه الماكينة المولوي محبوب علي سوداكر، وأنشأ على أساسها مطبعة لطباعة ونشر الكتب العربية في الهند. ومن الجدير بالإشارة هنا إلى أن المولوي المذكور قد عين العلامة البلكرامي مديرا لهذه المطبعة، فكان بلكرامي يقضي معظم ساعاته في جمع المواد، كما كان العلامة البلكرامي مشغولا بالاستمرار في تأليف الكتب والمعاجم وتدريس الطلاب الذين يحضر كثير منهم من الأماكن النائية، فاستفاد منه عدد كبير من الناس ومنهم الشيخ محمد بشير السهواني، والقاضي بشير الدين القنوجي، والشيخ جميل أحمد البلكرامي. وكل ما ألف هؤلاء العلماء والأدباء من الكتب والرسائل ينم على أن أوحد الدين كان حقا أوحد زمانه في العلم والأدب والمعرفة، وقد اعترف بفضيلته وعلوّ كعبه تلاميذه وأساتذته جميعا؛

فأبرز أستاذه الجليل الشيخ أحمد يمني الشرواني خصائص أساليب بيانه قائلا: «تقطف أزهار الظرائف البيانية والملح البديعة من خمائل إنشائه». ولا ريب في أن مكوثه الطويل بالبلدان العربية قد أعطاه تفوّقا ملحوظا على أبناء جلدته. ولهذا السبب سرعان ما أصبح منزله ملتقى ومنتدى للعلماء والأدباء والمفكرين، فكان يناقش معهم الشيخ البلكرامي قضايا أدبية ولغوية، وكان يوضح لهم مواطن الضعف والركاكة في أساليب بيانهم. ولعل هذا هو السبب الذي حدا به إلى تأليف معجم باسم «نفائس اللغات» الذي يعتبر نسيج وحده بحيث أوضح فيه الكلمات الأردية بثلاث لغات وهي العربية والفارسية والتركية. ومن الملاحظ أنه لم يكتف فيه بشرح الكلمات الأردية وبذكر مترادفاتها باللغات الثلاث المذكورة آنفا فحسب بل نقل لتدعيم آرائه كثيرا من الأبيات لفحول الشعراء العرب والفرس، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على أنه كان كثير المطالعة وموسوعي العلم والمعرفة، وكان يستوعب الكلمات من جميع جوانبها ونواحيها. وبسبب هذه الخصائص والمميزات نال هذا المعجم قبولا واسعا في الاوساط العلمية والادبية في الهند وخارجها، وقد رأى هذا المعجم النور لأول مرة في سنة 1253هـ وصدرت حتّى الآن عدة طبعات. ومن الجدير بالذكر أنه كان الساعد الأيمن لأستاذه الشيخ أحمد بن محمد قاسم اليمني الشرواني في تصحيح القاموس للفيروزآبادي في طبعته الهندية.

وإلى جانب هذه المساهمات الجليلة ألف كتابا باسم «مفتاح البيان في المحاورات العربية» لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها؛ ومع الأسف فإن هذا الكتاب المفيد المتضمّن 133 صفحة لا يزال مخطوطا في المكتبة الرئيسية لجامعة علي كرا المسلمة بالهند. ومن أبرز ميزات هذا الكتاب كثرة استخدام الحوارات للتمرين على الأساليب المختلفة للبيان. وهذه الحوارات تشتمل على جمل وكلمات تتميز بالسهولة والسلاسة وتخلو من التصنّع والتكلف. وفي هذا الخصوص لا ريب في أن اختلاط المؤلف مع العرب أثناء إقامته في الجزيرة العربية قد ساعده كثيرا في صياغة الجمل السهلة والتراكيب السلسة، وهذه الجمل والتراكيب أكثر فائدة لكل من يرغب في دراسة اللغة العربية، وقد زين البلكرامي حواشي هذا الكتاب بشروح الكلمات الصعبة والتراكيب العويصة. وهذه الشروح تنم عن سعة اطلاعه على الذخائر اللفظية للغة العربية.

ومن مؤلفات البلكرامي الأخرى «خميلة الآداب فيما يفيد من الكتاب»، و«العسجد المسبوك في قصة بديعة الجمال وسيف الملوك»، و«سلوة الأحزان في أشعار النسوان»، و«روضة الأزهار»، و«تذكرة شعراء العرب»، وما عدا هذه المؤلفات له تعليقات وشروح عديدة، وعلى سبيل المثال له شرح لـ«ديوان المتنبي»، و«قصيدة بانت سعاد»، و«مقامات الحريري». وكافة هذه الأعمال والآثار تدل على شدة انغماسه في العلوم والفنون العربية، وأنه في الحقيقة لم يجد فرصة أو إمكانية إلا استغلها ورفع مستوى اللغة العربية في مختلف أصقاع الهند. ومن هنا نلاحظ أنه ترك آثارا جمة في فروع الأدب

العربي كلها فلم يكتف بتأليف الكتب أو إعداد القاموس فحسب، بل سكب عواطفه في قوالب الشعر العربي. وهكذا أثبت براعته في هذا المجال أيضًا، وذلك لأنه كان مرهف الحس رقيق العاطفة ودقيق الملاحظة وفوق كل ذلك كان يمتلك قدرة فائقة على إظهار خلجات قلبه في أسلوب الشعر العربي، ويشهد بذلك كل من يلقي نظرة عابرة على أشعاره المبعثرة في مختلف كتاباته ورسائله. ومن المؤسف أنه لم يعتن بجمع قصائده العربية في ديوان؛ لعله كان يجد أبياته أقل نفعا من آثاره النثرية أو كان يحس أن قرض الأشعار لا يليق بمكانته العلمية والدينية.

وأيا كان الأمر فإن أبياته العربية تكشف النقاب عن أنه كان يحيط علما بأكثر جوانب التراث العربي للعصرين الجاهلي والإسلامي، وكان متأثرا بأساليب وتعابير الشعراء الجاهليين إلى حد أننا إذا حذفنا اسمه من قصائده يكون من الصعب القول بأن ناظم هذه القصائد ينتمي إلى بلد غير عربي، أو أنه من الشعراء المتأخرين للأدب العربي؛ وذلك لأنه لم يأت بشيء في أشعاره يدل على أنه كان يعيش في وسط الغابات الكثيفة والأنهار الجارية والأشجار الباسقة التي تشتهر بها الهند في أرجاء العالم كله؛ وعلى سبيل المثال ننقل أبياته التالية:

يا سائقَ الظعن قل لي أنتَ ما الخبر
ألنزل الركبَ حيثُ الرسم والعفرُ

أما مررتَ بحيٍّ فيه لي رشأٌ
تكلّف الشمسَ أن تحكيه والقمرُ

غصنٌ رطيب رشيق زانَهُ هَيف
شمس إلى وجهها لم يمْكِن النظرُ

مذ بان عنّيَ لم تدر الكرى مُقلي
أرعى النجوم وعينُ الدمع منهمرُ

من لي به وهو ظبْي جلَّ منشأه
يسلُّ لحظا لقتلي ثم يعتذرُ

ويتبلور من هذه الأبيات أن الشاعر برغم كونه هندي المولد كان عربي الثقافة والمعرفة التي يمتاز بها العصر الجاهلي وتراثه الشعري. ومن الملاحظ أنه تصفح بمنتهى الدقة دواوين الشعراء الجاهليين لكي يفهم المفردات والتراكيب القرآنية؛ وبكلمة أخرى اتخذ الشعر الجاهلي وسيلة لفهم معاني القرآن وتعابيرها المختلفة. وفي هذه المحاولة أذاب هويته الهندية حتى بدأ يعد نفسه من ضمن الشعراء الجاهليين الذين كانوا يهيمون في بوادي ووديان الجزيرة العربية، ويتغزلون بالعذارى والفتيات، ويشبهونهن بالظباء والآرام والأبقار الوحشية، ويكررون استعارات وتشبيهات تختص بالمظاهر الطبيعية للجزيرة العربية. ولقد تأثر البلكرامي بهذه الميزات للشعر الجاهلي واستخدمها بمنتهى البراعة في أشعاره، فمثلا يقول في إحدى قصائده:

ميّاسة القدِّ ماست وما خطرت
إلاَّ وقلبي بحبْل الودِّ قد أسِرَتْ

نشوانةٌ من رحيق الحسن قد سفكت
دمي بمُقلتِها عمدًا وما حذرَتْ

كأنها غصنُ بانٍ صيغَ من ذهب
في خدها روضةٌ أنوارها زهرَتْ

خـريـدة مـا رنـت إلا ومُـقْـلَـتُـهـا
حُسام لحظٍ على عشاقها شهَرَتْ
اللّـهَ اللّـهَ كم جور على دنف
أظنّ طينتها بالجوْرِ قد خمرَتْ

المصادر والمراجع

● الشريف أحمد البلكرامي، تنقيح الكلام في تاريخ خطة پاك بلكرام، ص 212؛ ● علي كره، مجلة «فكر ونظر»، الهند، ديسمبر 2022، ص 41؛ ● الحسيني، عبد الحي، نزهة الخواطر، م 7، ص 100؛ ● محمد عبد الله، محمود، اللغة العربية في باكستان، ص 63.

د. محمد أسلم الإصلاحي
مدير مركز الدراسات العربية والافريقية ـ جامعة نيودلهي ـ الهند

البلكرامي، عبد الجليل الحسيني

(1071هـ/1661م ـ 1128هـ/1716م)

العلامة الكبير الشيخ عبد الجليل بن الشيخ أحمد الحسيني البلكرامي، ولد ببلدة «بلكرام» الواقعة في الإقليم الشمالي للهند في 13 شوال 1071هـ في أسرة كانت لها شهرة واسعة في المجالات العلمية والأدبيّة والثقافية، فكان جده الأعلى محمد صغرى بن علي بن حسين يحظى بمرتبة عالية في بلاط السلطان شمس الدين التتمش. وتم على يده فتح منطقة «بلكرام» التي أصبحت فيما بعد مستقرا لأسرته وخرج منها عدد كبير من العلماء والأدباء والموظفين الحكوميين؛ ومن بينهم الشيخ الفاضل عبد الجليل الذي تفتحت عيونه في هذه البلدة التاريخيّة ونشأ وتثقّف فيها فتلقّى دروسه الابتدائيّة على الشيخ سعد الله البلكرامي، والشيخ مبارك الحسيني البلكرامي. ثم توجّه إلى أماكن أخرى طلبا للعلم والمعرفة واستفاد بعديد العلماء والفضلاء والمحدّثين من أمثال الشيخ نور الحق الدهلوي، والشيخ غلام نقشبندي الكنوني، وسرعان ما أصبح متضلّعا في العلوم والمعارف والآداب.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه كان بارعا في أربع لغات وهي: العربية والفارسية والتركيّة والهنديّة فكان يقرض الشعر بهذه اللغات الأربع بمنتهى الجودة الرشاقة، ولما ذاع صيته ونبوغه في العلوم والآداب شدّ رحاله إلى إقليم «الدكن» في جنوب الهند حيث كان الملك المغولي الكبير أورنك زيب يحارب المتمردين المحليين ونجح في الحصول على وظيفة «بخشيكري» وهي وظيفة تتعلّق بكتابة الوقائع والأحداث الحكومية. ولم يزل بهذا المنصب حتّى ولاه الملك المذكور في سنة 1112هـ ديوان البريد بمنطقة غجرات التي

كانت حينذاك تابعة لولاية البنجاب. ثمّ تمّ تعيينه بنفس المنصب في منطقة «سيوستان» وبهكر الكائنة بولاية السند، وظل يباشر أعمال هذه الوظيفة حتّى 1162هـ ثم خلى منصبه هذا لفلذة كبده الشيخ محمد الذي كان هو الآخر ماهرا في اللغة والأدب، ورجع إلى عاصمة دلهي وانضمّ إلى البلاط الملكي. وفي أواخر أيام حياته استقال من وظيفته، ونفرّغ للأذكار والأوراد الدينيّة ولبّى نداء ربّه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر 1128هـ/ 1716م، ونقل جثمانه إلى بلكرام ودفن فيها عند قدم أبيه الشيخ أحمد الحسيني.

ويظهر مما سلف ذكره أن حياة العلامة عبد الجليل كانت حافلة بالأعمال الإداريّة إذ إنه كان موظفا مرموقا في الحكومة المغولية، ومع هذا لم ينصرف قط عن قراءة وتأليف الكتب. وكلما سنحت الفرصة صرف همّته للتزوّد بالمعلومات والمعارف الدينية والفنون الأدبيّة، فكان بذلك يفوق جميع أقرانه في المطالعة، وموسوعي العلم والمعرفة، ضليعا في الأدب والشعر والحديث والتفسير وأسماء الرجال والتاريخ والسير، وعلم الهيئة، وفنون البلاغة المختلفة. وكلّ من تباحث معه في المواضيع المذكورة تأثّر بمعلوماته الواسعة ودلائله القاطعة. فيقول عنه العلامة علي المعصوم الدشتكي الشيرازي: «ما رأيت لهذا السيد بالهند نظيرا لما ألقاه في خمائل الأدب غصنا نضيرا». ومن الأسف أنه بالرغم من علمه الوافر لم يترك لنا آثارا علمية جمّة كما فعل سبطه الفاضل العلامة غلام علي آزاد البلكرامي حتى أننا لا نجد له ديوانا مع أنه كان يقرض الشعر بالعربية والفارسية والهندية والتركية؛ ومن أبياته المندرجة في سبحة المرجان للعلامة غلام علي آزاد البلكرامي نستشف أنه كان شاعرا فذّا وكانت له يد طولى في نظم القصائد بالعربية. وكان يراعي فيها المحسنات البديعية، فعلى سبيل المثال نظم الأبيات التالية في خطاب أرسله إلى صديقه خواجه عبد الباسط الدهلوي طالبا منه «ربيعة الأبرار» للعلامة الزمخشري:

يا باسط الأيدي أيا غيث الندى
صيرت مزرعة العطاء مربعا
لا غرو أن أطلب ربيعاً منكم
فالغيث يُعْطي العالَمين ربيعا

وكذلك في البيتين التاليين حيث نجده يعنى بالجناس في قوله:

يا صاح لا تلم المتيَم في الهوى
هو عاشق لا ينثني عن خِلّه
يأبى الدواءَ سقامُه كعيونه
فعلى الطبيعة يا معالج خلّه

تدل هذه الأبيات على مهارة العلامة عبد الجليل الفائقة في الفنون البلاغية وقدرته المتميّزة على الأساليب المختلفة في اللغة العربية، فيقول سبطه الفاضل غلام علي آزاد البلكرامي أن جدي عندما قرأ البيت التالي للبديع الهمداني في «حدائق السحر» للعلامة رشيد الدين الوطواط البلخي (ت 573هـ) في ضمن أمثلة المدح بما يشبه الذم:

هو البدر إلاّ أنّه البحرُ زاخرٌ
سوى أنّه الضرغام لكنّه الوبل

وعلم أنّ أبا إسحاق إبراهيم بن محيي الغزي

(ت 524هـ) لم يقدر على أن يأتي بمثل هذا البيت رغم جهوده القصوى، واعترف أخيرا بعجزه قائلا: ما نظم قطّ أحد مثله قبل البديع ولن ينظم أحد مثله بعده، وقع في الحيرة والاستغراب، وقال: عجبت من نفي التأييد الذي نقله الوطواط عن الغزي، ونظمت بيتا على منواله وزدت فيه مراعاة النظير وهو:

هو القطب إلا أنه البدرُ طالعاً
سوى أنّه المرّيخ لكنه السعد

مثل هذه الأبيات في الحقيقة تحدو بنا إلى القول إنّ العلامة عبد الجليل كان أبرع وأقدر من سبطه العلامة غلام علي آزاد على كتابة القصائد بالعربيّة. وقد اعترف بهذه الحقيقة العلامة غلام علي آزاد في كتابه الشهير «سبحة المرجان». ومع هذا كلّه فلم نعثر حتّى الآن على أي ديوان شعري له بينما نجد عشرة دواوين ضخمة لسبطه غلام علي آزاد البلكرامي، وكذلك لم نجد إلى الآن أي تصنيف له بالعربيّة مع أنّ كان كاتبا بارعا في الكتابة باللغات الأربع، وهي: العربية، والفارسيّة، والتركيّة، والهنديّة. وتتجلى هذه الحقيقة في أسلوبه وبيانه وفي مؤلفاته الأخرى التي لا نجد منها إلا بعض المقتطفات في كتب التاريخ والسير.

آثاره

من كتبه التي تعرفنا على عناوينها: 1 ـ الحكم العرفانية ويتعلّق بالأمثال والحكم المتبعة في الأوساط الصوفية؛ 2 ـ آداب المترسلين، ويتناول أساليب البيان والإنشاء والبلاغة. ومع الأسف فإن هذين الكتابين يعتبران حتى الآن في عداد الكتب المفقودة؛ 3 ـ رسالة على إبطال جزء لا يتجزأ ونذكر منها قوله: «نفرض دائرة مركبة من الأجزاء التي لا تتجزى ونفرض فيها خطين مارين بالمركزين طرفيها جزء واحد من محيط الدائرة فهما يتقاطعان على المركز فالانفراج الذي بينهما قبل التقاطع إما أن يكون قدر الجزء أو أكثر أو أقل والأول باطل لاستلزامه كون المتقاطعين متوازيين، وكذلك الثاني لأنه يستلزم أن يكون المتقاربان في جهة متباعدين فيها، فتعين الثالث وهو مستلزم للانقسام» [الندوي، اللغة العربية وآدابها . . .، 220].

المصادر والمراجع

● الندوي، رضوان علي، اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية؛
● البلكرامي، غلام علي آزاد، سبحة المرجان في آثار هندستان، 207؛
● الحسني عبد الحي، نزهة الخواطر، 6/ 147؛
● M.G. Zubeid Ahmed, Contribution of India-Pakistan to Arabic Literature, p. 245.

د. محمد أسلم إصلاحي
مركز الدراسات العربية والإفريقية
جامعة نيودلهي ـ الهند

البلكرامي، غلام علي آزاد

(1110هـ/1698م - 1194هـ/1780م)

غلام علي آزاد بن نوح الحسيني الواسطي البلكرامي، الهندي، الحنفي، أديب شاعر، وحنفي المذهب، وجشتي الطريقة، وأحد العلماء المشهورين؛ لم يكن له نظير في زمانه في النحو، واللغة، والشعر، والبديع، والتاريخ، والسير، والأنساب. ولد يوم الأحد لخمس بقين من صفر سنة عشر ومائة وألف بمحروسة «بلكرام» ونشأ في مهد العلم والمشيخة، وقرأ الكتب الدراسية على السيد طفيل محمد الأترولوي، وأخذ اللغة والحديث والسير عن جده لأمه عبد الجليل بن مير أحمد البلگرامي، وسمع منه المسلسل بالأولية وحديث الأسودين التمر والماء، وأخذ العروض والقافية عن خاله محمد بن عبد الجليل، وأخذ الطريقة عن الشيخ لطف الله الحسيني البلكرامي.

ثم رحل إلى الحجاز فحج وزار سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، وقرأ بالمدينة المنورة «صحيح البخاري» على الشيخ محمد حياة السندي، وأخذ عنه إجازة الصحاح الستة وسائر مقروءاته، وصحب الشيخ عبد الوهاب الطنطاوي المصري المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة وألف، وأخذ عنه فوائد جمة، وعرض عليه لقبه الشعري «آزاد» فقال: أنت من عتقاء الله تعالى فاستبشر بهذه الكلمة، وأرخ لحجه بلفظ «عمل أعظم»، ورحل إلى الطائف فزار عبد الله بن عباس، ثم رجع إلى الهند سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف وسكن بأورنك آباد، وأقام في زاوية الشيخ مسافر الغجدواني عند الشيخ محمود سبع سنين؛ وحصلت بينه وبين ناصر جنك بن آصف جاه الموافقة فأحبه حبا شديداً حتى كان لا يدعه في الظعن والإقامة. فلما قام ناصر جنك بالملك مقام والده سنة إحدى وستين ومائة وألف ألح عليه بقبول منصب الإمارة فأبى وقال: هذه الدنيا مثلها كمثل نهر «طالوت» غرفة منه حلال والزيادة عليها حرام.

وقال بعض أصحابه فيما كتبه في ترجمة آزاد وجعله ديباجة لديوانه الرابع «المردف» (صنفه لحفيده الأمير حيدر بن نور الحسين البلكرامي في شهور معدودة من سنة تسعين ومائة وألف): إنه حسان الهند ومداح النبي ﷺ، أوجد في مدحه معاني كثيرة نادرة لم يتفق مثلها لأحد من الشعراء المفلقين، وأبدع في قصائده المدحية مخالص لم يبلغ مداها فرد من الفصحاء المتشدقين، وله في التغزل طور خاص يعرفه أصحاب الفن، ومنحه الله قدرة على النظم حتى لينظم قصيدة كاملة في يوم واحد بل في بعضه على كيفية يراها الناظرون. وكلما يتوجه إلى النظم تحضر المعاني لديه صفا صفاً وتتمثل بين يديه فوجا فوجا، ونصاب القصيدة في التغزل أحد وعشرون بيتا وهي الدرجة الوسطى التي تريح الأسماع ولا تمل الطباع. وإنما يميل خاطره إلى النظم في

أيام الربيع، وأما في غير هذه الأيام فيصدر الشعر من قريحته قليلا لأنّ الربيع فيه المراتع وتهتز الطبائع، انتهى؛

لقد حاول آزاد إدخال الأفكار والأساليب الفارسية في الشعر العربي وحاول التجديد في فنون الشعر والبديع. يقول في كتابه «سبحة المرجان في آثار هندوستان»: «وأما الأهاند فهم مبدعون فنونهم وما هصروا إلا غصونهم.. ثم إن قدماءهم كانوا قبل زمان الإسلام استخرجوا من الكلام بدائع وافية، واستنبطوا من رشحات الأقلام صنائع شافية منها مشتركة بين العرب وبينهم كالتورية وحسن التعليل وتجاهل العارف والمراجعة والاستعارة والتشبيه والجناس والسجع وغيرها، ومنها مختصة بالعرب كاستخدام المضمر وحسن التخلص والتاريخ على قاعدة الجمل وغيرها، ومنها مختصة بالهند. وأنا قصدت أن أنقل القسم الأخير عن الهندية إلى العربية فرأيت بعضها لا يقبل النقل لخصوصيته بلسان الهند وبعضها يقبل النقل فنقلت عنها نبذة وجدتها فائقة.. وأرجو من العرب أن يستحسنوا مخترعات الأهاند كما استحسنوا الأسياف الهندية بين الفرائد».

ويذكر آزاد أمثله على ذلك فيقول: «التنزيه، هذا النوع استخرجه بعض الأهاند في مقابل التشبيه وهو أن يبرئ المتكلم شيئاً عن أن يماثله شيء آخر كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: 7 - 8]، وقول حسان بن ثابت في مدح النبي ﷺ:

واحسن منك لم تر قط عيني
واجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

وقول ابن الفارض:

فلم أر مثلي عاشقاً ذا صبابة
ولا مثلها معشوقة ذات بهجة

وقولي من قصيدة نبوية:

فرد جليل لا يشاهد مثله
من ثم رؤيته شفاء الأحول

وفي سبيل التجديد في الشعر العربي في الهند قام آزاد بنظم قصائد في قالب الغزل وهو مشهور في الشعر الفارسي والأردي، وله صفات فنية خاصة فلا يزيد عدد الأبيات على أحد عشر بيتاً متحدة في الوزن والرديف والقافية. وفي نهاية الغزلية يذكر الشاعر تخلصه الشعري، وتتميز الغزلية بأن كل بيت فيها وحدة قائمة بذاتها، وقد يحمل كل بيت معنى مختلفا عن البيت الذي قبله والذي يليه. وقد نظم آزاد غزليات عديدة، ولكنه لم يستطع التقيد بالشكل الذي يضم عددا محددا من الأبيات.

كما حاول آزاد إدخال الترديف وهو رائج في الشعر بين الفارسي والأردي حيث يحافظ الشاعر على كلمة أو أكثر يكررها في نهاية أبيات القصيدة بعد القافية.

وعندما وصلت قصائد آزاد المدحية إلى علماء المدينة المنورة أعجبوا بها وقدروها كل التقدير وعرضوها على الروضة الخضراء وكان من بين المعجبين بها الشيخ عبد الوهاب الطنطاوي المصري الذي أخذ عنه آزاد فوائد جمة من الأحاديث النبوية في مكة المكرمة.

وعندما علم الشيخ أن كلمة آزاد: هي رمز اسم الشاعر واعتاد الشعراء في الهند وإيران بمثل هذا، قال مخاطباً آزاد: «سيدي إنك من عتقاء الله». ثم إن آزاد هذا كأنه ولدته أمه شاعراً فكان مفطورًا على دقة الذوق في الشعر ورقته. وكان ينشد الأشعار بالفارسية، وله كتابان فارسيان يتداولهما العلماء إعجاباً، ومن الغرابة أن تاريخ الأدب العربي لبروكلمان يعرض لعديد من شعراء الهند، ولكنه لا يذكر شيئاً عن آزاد ولا عن كتبه، ربما لأنه لم يجد عملاً من أعماله، مع أن كتابه «سبحة المرجان» طبع في بومباي طبعة حجرية سنة 1885.

لقد جدد آزاد ولا شك في فنون الشعر العربي في المهجر الشرقي في الهند عندما أدخل فن الوصف حين تعرض في قصيدته المعروفة باسم «مرآة الجمال» والتي تبلغ مائة وخمسة أبيات لوصف كل عضو من أعضاء الحسناء من رأسها حتى أقدامها وخص كل عضو ببيتين. يقول العالم الجليل صديق حسن خان المتوفى سنة 1890 عن هذه المنظومة في كتابه «نشوة السكران»: «ومثل هذه القصيدة الحسينية مثل القصائد البديعيات حيث شرع فيها الشيخ صفي الدين الحلي. ثم جاء جمع من الفرسان وأطلقوا أعنة الأقلام. وقد قال آزاد، لقد شرعت في البنيان وأسست قواعد العمران فمن يجيء بعدي يزيد على هذا البناء ويرفعه إلى سابعة السماء إن شاء الله، وهذا أمر مرجو لكني لم أقف إلى الآن على من زاد عليه بعده».

مات غلام علي آزاد البلكرامي سنة ثمانين وسبعمائة وألف ببلدة أورنك آباد.

■ آثاره

1 ـ سبحة المرجان في آثار هندستان، يضم الجزء الأول منه أحاديث نبوية في أهمية الهند، وأصله عمل مستقل عنوانه: سمامة العنبر فيما ورد في الهند من سيد البشر، يوجد في آصفية 3/ 258، 732. ويضم الجزء الثاني تراجم لعلماء الهند، أما الجزء الثالث فقد كان في الأصل عملا مستقلا بعنوان: تسلية الفؤاد، عن البلاغة في الأدبين السنكسريتي والعربي، وأما الجزء الرابع فكان عن الحب من وجهتي نظر هندية وعربية، ويوجد في ما نشستر 292، وكلكتا مدرسة 332، بنكي بور 12/ 810، 1/ وآصفية 1/ 198/ 19. وطبع على الحجر في بومباي 1303، القاهرة ثان 5/ 419، وترجمه إلى الفارسية شمس الدين الحسني حسيني بنارسي نحو سنة 1869، وتوجد في بنكي بور 8/ 7، وطبع أيضا في الهند عام 1980م؛ 2 ـ مظهر البركات، هذه منظومة مزدوجة أو مثنوي من بحر الخفيف، ألفها سنة 1194هـ ـ 1780م/ 6م ـ 2، وتوجد في بريل أول 664 وثان 91، ومانشستر 481؛ 3 ـ كتاب الأشكال، مخ. يوجد في آصفية 3/ 642؛ 4 ـ شفاء العليل في اصطلاحات كلام أبي الطيب المتنبي، مخ.، وهو في مؤاخذات على المتنبي في ديوانه؛ 5 ـ سبعة دواوين، بعنوان: السبع السيارة، من سنة 1179 ـ 94هـ/ 1765 ـ 80م، يوجد بخطه في لكهنو، مكتبة نواب نور حسن، انظر: 152 JRASB 1917 CXXXIX طبع منه، ديوانان في حيدر آباد. أما الديوانان التاسع والعاشر فهما في عليكره 126/ 1 ـ 2، ويوجد ديوان في رامبور 1/ 886. والأول والثاني والثالث

من هذه الدواوين السبعة مجموع قصائده التي أنشأها إلى سنة تسع وثمانين ومائة وألف، والرابع منها «المردف» صنفه لحفيده الأمير حيدر بن نور الحسين البلكرامي في شهور معدودة من سنة تسعين ومائة وألف. وهو مشتمل على نبذة من القصائد غير المردفة أيضا، والرديف عبارة عن كلمة مستقلة فصاعداً تتكرر بعد الروي وبه يتنوع الشعر الفارسي على أنواع لا تحصى، ولا رديف في شعر العرب وإن تكلف أحد بالترديف لا تظهر له طلاوة مثل ما تظهر في شعر الفرس، والخامس فيها ديوان المستزاد صنفه سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، والمستزاد من مستخرجات العجم ثم تناوله العرب وهو كلام موزون يستزاد فيه بعد كل بيت إلا البيت المصرع فإنه يستزاد فيه جزءان بعد الشطر الأول أيضا كما تراعى فيه القافية والقسم الأول أوفق بالدوبيت، والقسم الثاني أوفق بالقصيدة. ولا يخفى على الناقد أن تمكين القافية في زيادة المستزاد قلما يوجد مثله في غيرها فالزيادة فيه كأنها برة في ساق الغادة على أنها تجلب المعاني الرائقة وتجذب الخيالات الفائقة، بخلاف الرديف فإنه يطرد المعاني ويقل الغواني، والسادس منها ديوان القصائد فيه ألف وثلاث مائة وأربعون بيتا وفيه ترجيع أنشأه في شهور معدودة من سنة اثنتين وتسعين وثلاث وتسعين. والسابع منها في قصائد أنشأها في شهور معدودة من سنة ثلاث وتسعين وأربع وتسعين، وتم الديوان السابع في محرم سنة أربع وتسعين ومائة وألف. وهذه الدواوين السبعة محفوظة وطبع معظمها عندي ولله الحمد، وقال في خطبة الديوان السابع: وهذه الدواوين السبعة سوى «مرآة الجمال» وهي قصيدة نونية في وصف أعضاء المعشوقة من الرأس إلى القدم، وسوى المزدوجة في بحر الخفيف وهي مشتملة على سبع عشرة حكاية. وجملة أبياتي بعد إتمام الديوان السابع بلغت عشرة آلاف، انتهى؛ 6 ـ ديوان بالفارسية ويوجد في آصفية 1/ 696، انظر ما كتبه أثينه Ethen عن المكتب الهندي 1722، وفي بانكي بور 3/ 252 له مؤلفات بالفارسية والأردية ذكرها وجاهت حسين 125/ 30؛ 7 ـ روضة الأولياء، الهند 1301م. وهو في أخبار بعض المشايخ الجشتية ممن قبورهم بالروضة على بعد ثلاثة أميال من أورنك آباد؛ 8 ـ ضوء الدراري، شرح فيه قسما من صحيح البخاري إلى آخر كتاب الزكاة وقفت عليه في خزانة السيد نور الحسن ابن صديق حسن القنوجي بخط المصنّف. وهو شرح ممزوج بالمتن ملخص من القسطلاني صنفه بالحرمين الشريفين؛ 9 ـ غزلان الهند؛ 10 ـ سرو آزاد؛ 11 ـ يد بيضاء؛ 12 ـ خزانة عامدة، وهذه المصنفات الثلاثة الأخيرة في أخبار شعراء الفارسية وأشعارهم؛ 13 ـ مآثر الكرام في تاريخ بلكرام، وهو كتاب مفيد جدا في أخبار المشايخ والعلماء من أهل بلكرام، وقد تعقب عليه غلام حسين البلكرامي في شرائف عثماني، وشنع عليه تشنيعا بالغا وكنى عنه بابن نوح؛ 14 ـ الشجرة الطيبة في أنساب السادة من أهل بلكرام؛ 15 ـ سند السعادات في حسن خاتمة السادات، في الطبقات والرجال؛ 16 ـ لامية الهند... الخ.

المصادر والمراجع

● البغدادي، هدية العارفين، 1/ 770؛
● م. ن. إيضاح المكنون، 1/ 126، 483، 2/ 3، 28؛ ● معجم المؤلفين،

32/ 7؛ • فهرس دار الكتب المصرية، 3/ 181، 5/ 214؛ • نزهة الخواطر، 6/ 201 ـ 205؛ • بروكلمان، 9/ 228 ـ229؛ • سيد وجاهت حسين، 30/ 119، JRASB 1936؛ • رحمني علي، تذكره علماء هند، 154؛ • م. ن، حدائق الحنفية، 354 ـ 356؛ • م. ن، سيلي النعماني، 129 ـ 112/ 5؛ • م.ن، حركة التأليف: 130 ـ 141؛ • م. ن، مآثر الكرام، المقدمة (ص 5 ـ 20)؛ • م. ن، روضة الأولياء لغلام علي آزاد، 46 ـ 45؛ • الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، ج. 5، ص 121، وفيه أنه ولد سنة 1116هـ/ 1704م.

د. جلال السعيد الحفناوي
جامعة القاهرة

■ البلكرامي، مرتضى الزبيدي محمد بن محمد

(1145هـ/ 1732م ـ 1205هـ/ 1791م) ■ ■ ■

هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرازق البلكرامي، لغوي، وصوفي ومحدث، اشتهر بالسيد مرتضى الزبيدي، ويكنى بأبي الفيض وأبي الجود وأبي الوقت، وكان يلقب بمحيي الدين. ينتهي نسبه إلى أحمد بن عيسي بن زيد بن علي بن علي بن أبي طالب عليهم سلام الله..

ولد بمدينة بلكرام من مقاطعة قنوج في ولاية اترابراديش سنة خمس وأربعين ومائة وألف (1145هـ/ 1732م)، ونشأ بها، وليس مولده ببلدة زبيد باليمن كما صرح قاموس الأعلام وغيره، وكذلك ليست ولادته في سنة أربع وخمسين ومائة وألف (1154هـ/ 42 ـ 1741م) كما زعم جرجي زيدان في تاريخه. حلت تمائمه في مدينة بلكرام ودرس المناهج الابتدائية هناك، ثم في سنديلة وخيرآباد (بلدتان صغيرتان على مقربة من لكناؤ بولاية اترابراديش). ثم سافر إلى دهلي، ومكث هناك بضع سنوات، وحضر دروس شيوخ الوقت الممتازين مثل الشاه ولي الله الدهلوي. وخرج من دهلي إلى مدينة «سورت» بولاية «كجرات» حيث أخذ عن الشيخ خير الدين بن الزاهد السورتي. ومن هناك رحل في شرخ شبابه إلى الحجاز للدراسات العليا في اللغة والحديث والفقه، وأقام بمكة المكرمة حيث استفاد من السيد عبد الرحمن العيدروس، والشيخ عبد الله السندي، والشيخ عبد الله، ومحمد بن علاء الدين المزجاجي والشيخ عمر بن أحمد بن عقيل المكي. ثم انتقل إلى الطائف (1166هـ/ 1753 ـ 1752م). ثم أقام ببلدة زبيد باليمن مدة طويلة حتى لقب بالزبيدي.

ثم ذهب إلى مصر وتعلم بها. وكان الشيخ عبد الرحمن العيدروس أكبر شيوخه هو الذي رغبه فيها. دخل مصر سنة 1167هـ وتنقل بها شمالاً وجنوباً، وأخذ عن شيوخ كثيرين كثيراً من العلوم، وسكن بخان الصاغة، وحضر دروس الشيوخ مثل الجوهري والبليدي والحفني، وسافر في الأقطار المصرية، وسمع من علمائها الممتازين. وتنقل أيضاً في فلسطين. وعلا صيته وبزغ اسمه حتى طلبه السلطان العثماني في سنة 1194هـ/ 1780م، ولكنه لم يغادر مصر، وكاتبه ملوك النواحي وكثرت عليه الوفود واستجازه السلطان عبد الحميد الأول فأجازه بكتب الحديث كما كتب الإجازة إلى محمد باشا راغب صدر الوزارة ونظام الملك وكثيرين من العلماء في غزة ودمشق وحلب وأذربيجان وديار بكر ومدراس والرباط وغيرها من البلاد. وأَمَّهُ الناس من كل مكان فاختار العزلة والاعتكاف. تزوج من مصر سنة 1182هـ على الأرجح. واستقر في حي «عطفة الغسال» حيث أقام حلقة الدرس في مسجد من مساجد الناحية وبدأ فيه محاضراته اليومية حول كتاب «القاموس» للفيروزابادي أمام الطلاب يستند فيها إلى كتب اللغات القيمة. واستغرقت دراسته هذه في اللغة طوال أربع عشرة سنة، فكثر عدد تلاميذه في اللغة والأدب وبينهم الأمراء والأعيان والعلماء والشيوخ، فكانوا يهدونه هدايا ثمينة وتبرعات كثيرة حتى صار غنيا.

وكان السيد مرتضى ذكي الفؤاد قوي الذاكرة مستحضراً للنوادر والأسانيد، عيناه تتوقدان بالذكاء كأنهما جذوتان متوقدتان، وكانت أفئدة الناس تهوى إليه إذا تكلم أو تبسم، وقد انتقل السيد مرتضى إلى سكنه الجديد بسويقة اللالاء.

وكان يحب زوجته واسمها زبيدة حباً شديداً فلما ماتت سنة 1196هـ حزن عليها أشد الحزن ودفنها عند ضريح السيدة رقية. وبنى على قبرها مقصورة، ولازم قبرها أياما يجتمع عنده الناس ينشدون ويقرؤون، ثم اشترى بالقرب منه قطعة أرض بنى عليها منزلاً صغيراً وأسكن به أمها وكان يبيت فيه كثيراً وأغلب ظني أنه عُرف بالزبيدي نسبة إلى زوجته لا إلى زبيد باليمن كما قيل.

تزوج مرة ثانية لكنه بقي مع زوجته الأولى بروحه حتى مات بالطاعون في مصر يوم الأحد من شعبان 1205هـ/ابريل 1791م ودفن بجوار زوجته الأولى التي كان يحبها حبا جما، وكان قد شيد على قبرها قبة ضخمة وزينها بالفروش والستائر الثمينة الجميلة، وكان يرثيها ما دام حيا ويقول:

سأبكي عليها ما حييتُ وإن أمتْ
ستَبكي عظامي والأضالعُ في قبري

واستولت زوجته الثانية على كل ما عنده إرثاً إذ لم ينجب منها ولا من الأولى.

وكان السيد مرتضى غزير العلم كثير الآثار متقنا للغات الفارسية والتركية والفقه والكلام. وأشهر آثاره «تاج العروس»، وهو كما نعلم شرح القاموس لقاضي زبيد باليمن الفيروزأبادي (ت 817هـ/ 1414م)، وصار «تاج العروس» للزبيدي ذريعة لصيته الذائع في البلدان الإسلامية وازدحم عليه العلماء والطلاب والأمراء والأكابر والأعيان للأخذ والاستفادة حتى بدأ يعيش عيش الأمراء المترفين، فلبس الملابس الفاخرة، وركب الخيول المسوّمة. وكان ينفرد بلباسه وزيّه بين العلماء المصريين، ويعتمّ مثل أهل مكة

بعمامة منحرفة ولها عذبة مرخاة على قفاه. ولما أكمل شرح القاموس أولم وليمة جيّدة عام 1181هـ/ 1767م جمع فيها الشيوخ والأعيان من أنحاء القطر المصري فشهدوا بغزارة علمه، وأدلى السيد مرتضى أمامهم ببيان جامع وصف فيه خصائص شرحه حتى اقتنعوا بفضله وتفوقه بين معاصريه وأقرانه. وذاع صيت كتبه إلى أقصى أقطار العالم الإسلامي، فازدحموا إليه من كل فج عميق من سورية، ولبنان، وفلسطين، وتونس، والجزائر، والمغرب، والسودان، وغيرها من البلدان، وأهدوا إليه هدايا ثمينة حتى ادّخر مالا طائلا.

والقاموس للفيروزأبادي هو أكثر المعاجم تداولا بين أيدي الكتاب والمعلمين وهو مرتب بحسب أواخر الكلم. وعوّل السيد مرتضى الزبيدي في شرحه على «لسان العرب»، و«العباب الزاخر» (لرضي الدين حسن الصغاني ت 650 هـ)؛ وفي شرح غرائب الألفاظ على «العباب الزاخر» للصغاني و«تكملة على الصحاح» للجوهري، وأبقى ترتيب الكلام على أواخر الألفاظ. وحين عُني إدوارد لين المستشرق بوضع معجم عربي - انجليزي في مجلدات عديدة كان تعويله على «تاج العروس» و«لسان العرب»، ويشتمل هذا المعجم على أكثر من ثلاثة آلاف صفحة كبيرة.

ومن مميزات «تاج العروس» أنه يغنيك في اللغة عن سائر اللغات ويحتوي على شرح مفصل لمفردات الألفاظ، وأضاف الشارح المذكور ما فات الفيروزأبادي تحت عنوان «ومما يستدرك عليه»، فيضمن هذا الشرح كثيرا من رجال العلم والحديث والتفسير الذين لا توجد تراجمهم في كتب أسماء الرجال المتداولة.

آثاره

1 - تاج العروس في شرح جواهر القاموس، وهو من أمهات الكتب العربية في فن اللغة وواسطة العقد بين جميع آثاره، ألفه في عشرة مجلدات كبار. غلب عليه الاشتغال بهذا الشرح خاصة حتى عكف عليه أربعة عشر عاما كاملة، وطبع تاج العروس مرارا في البلدان العربية بعضه بمصر سنة ست وثمانين ومائتين وألف (1286هـ/ 1869م) في 5 مجلدات، وطبع كله فيها سنة ست ثلاثمائة وألف في 10 مجلدات، وفي الكويت وبيروت في السنوات الأخيرة؛ 2 - إتحاف السادات المتقين بشرح إحياء علوم الدين، شرح فيه الكتاب المشهور للإمام الغزالي وانتقده على الرغم من وجود شارحين آخرين للغزالي، كما تتبع سلاسل الرواة الأحياء سنة 1304هـ/ 1886م في ثلاثة عشر جزءا، طبع في مصر سنة 1311هـ/ 1893م في عشرة أجزاء. ويشهد هذا الكتاب أيضاً كشرح القاموس على غزارة علمه وسعة اختياره ودقة نقده وجودة ذهنه، توجد منه نسخة خطية بالمتحف البريطاني بلندن ونسخة أخرى في مكتبة ميونخ بألمانيا؛ 3 - رسالة في أحاديث يوم عاشوراء، (دار الكتب المصرية، رقم 209)؛ 4 - الأمالي السيخونية، في الحديث أملاها في جامع سيخون ونسختها في برلين (الرقم 10255)؛ 5 - مجمع المشائخ؛ 6 - الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة؛ 7 - در الضرع في أحاديث أم زرع؛ 8 - تخريج حديث «شيبتني سورة هود»؛ 9 - المواهب الجلية فيما يتعلق بحديث

الأولية؛ 10 ـ المرقاة العلية في شرح الحديث المسلسل بالأولية؛ 11 ـ في تخريج حديث «نعم الإدام الخل»؛ 12 ـ العروس الحلية في طرق الحديث الأولية؛ 13 ـ رسالة في أصول الحديث؛ 14 ـ القول الصحيح في مراتب التعديل والتجريح؛ 15 ـ التجبير في الحديث المسلسل بالتكبير؛ 16 ـ نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح. توجد نسخته الخطية في المتحف البريطاني وفي برلين؛ 17 ـ عقود الجواهر المنيفة في أدلة أبي حنيفة، توجد في المتحف البريطاني؛ 18 ـ القول المسموع في الفرق بين الكرع والمكروع. توجد في مكتبة ندوة العلماء بلكهنو؛ 19 ـ كشف الغطاء عن الصلاة الوسطى؛ 20 ـ الاحتفال بصوم الست من شوال؛ 21 ـ أمالي أبي حنيفة؛ 22 ـ بلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب؛ 23 ـ النفحة القدسية؛ 24 ـ حكمة الإشراق إلى كتاب الآفاق، في علم الكلام والعقائد؛ 25 ـ إتحاف بني الزمن في حكم قهوة اليمن؛ 26 ـ إتحاف الإخوان في حكم الدخان.

وله كتب شتى في علم اللغة والنحو والصرف واللغة ومن أهمها:

1 ـ القول المبتوت في تحقيق لفظ «تابوت» (دار الكتب المصرية، الرقم 4/ 179)؛ 2 ـ تكملة القاموس؛ 3 ـ عجائب الآثار؛ 4 ـ التفتيش في معنى لفظ «درويش»؛ 5 ـ المنى في سر الكنى؛ 6 ـ التعريف بضروريات علم التصريف؛ 7 ـ تحفه القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل.

المصادر والمراجع

● الحسيني عبد الحي، نزهة الخواطر، 7/ 470 ـ 479؛ ● تذكرة علماء هند، 224 ـ 226؛ ● اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، 6/ 347 ـ 348؛ ● مقدمة المحقق لتاج العروس، ص، و، ي، وما بعدها؛ ● جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، 3/ 310؛ ● الزركلي، الأعلام، ط14، بيروت 1999، 7/ 70 (تحت اسم مرتضى الزبيدي).

د. جلال السعيد الحفناوي
جامعة القاهرة ـ مصر

البَلنسي الرصافي، أبو عبد الله محمد بن غالب

(ت 572هـ/1177م)

هو أبو عبد الله محمد بن غالب الملقب في بعض المصادر بالرفاء، والمعروف بالرصافي البلنسي نسبة إلى رصافة بلنسية التي ولد بها ونشأ. لم تذكر كتب التراجم تاريخ ميلاده، لكن المراكشي ألمح إليه حين تحدث عن رائيته التي مطلعها [الديوان، 77، ق 24]:

لَــوْ جِـئْـتَ نَـارَ الـهُـدَى
مِـنْ جَـانِـبِ الـطُّـورِ

وقال إنه مدح بها عبد المؤمن بن علي «عند نزوله بجبل الفتح (جبل طارق) ولم تكمل للرصافي يوم أنشد هذه القصيدة عشرون سنة» [المغرب، 2/ 243]. ونزول الخليفة الموحدي بجبل طارق رغبة في بسط نفوذه على أراضيها المسلمة كان عام 555هـ/ 1160م. ولو صدق تقدير المراكشي فإن الرصافي يكون قد ولد حوالي 536هـ/ 1140 ـ 1141م. وأنه صار من أعلام الشعر في عصره و لمّا يبلغ العقد الثاني بما أنه قد حظي بدعوة الأمير الموحدي ومدحه مع أشهر شعراء عصره.

كان أبوه رفّاء فورث الابن هذه الحرفة وامتهنها إلى وفاته. ولكنّه حصّل في صباه ـ مع ذلك قسطا وافرا من العلم أخذه عن شيوخ العصر وخصوصا في مالقة مستقر العائلة بعد خروجها من بلنسية. وأورد المقري في «النفح» (1073م) أنه كان في جمع من الطلبة بالوادي الكبير بمالقة حين ارتجل بيتين (قد يكونان مما ذكر في القصيدة 13 ص 19 من الديوان) ارتجالا جعل شيخه يستطرفهما ويتنبأ للفتى البلنسي بمنزلة بين الشعراء مميزة. وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الرصافي فإن المطّلع على شعره يجده فيه ما يعكس ثقافة صاحبها الموسوعية.

وبعد أن غادر الرصافي بلنسية من غير رجوع اتخذ من مالقة مستقرا يغادره ليعود إليه. قصد كثيرا من بلاد المغرب والأندلس لمدح وجهائها. ففي غرناطة مدح واليها الموحدي أبا عبد الله محمد بن عبد الملك بن سعيد (ولد بغرناطة 514هـ/ 1120م) ويبدو أنه كان ينتقل معه إلى إشبيلية إذ كانت من أعماله [أنظر ق 19، الديوان 62]. ويبدو أن الشاعر قد استقر مدة في غرناطة إذ نجده يشتغل بها الرفو ويقيم العلاقات مع الوجهاء والشعراء كالكتندي وأبي جعفر بن سعيد. كما نجده خارج الأندلس في بعض البلاد كمكناسة ومسيل، ولا شك أنه كان يتصل هناك بالموحدين لمدحهم. ولكنه كان فيما يبدو غير موفق في أن يحظى بمراتب شعراء البلاط المقدمين. وهو لئن قدم الأمر في بعض شعره على أنّه زهد منه في التكسب بالمدح فإنّه في بعض منه آخر [ق 23 ص 74 ـ 76] السبب الحقيقي وهو كساد سوق المدح في عصر عرف فيه الشعراء ضائقة يقول:

متى أرسلتْ أيدي الملوك هباتِها
ولم يُوصلوا جاها ولم يجزلوا نخرا

فقد سرَّني أني حرمت علاهم
حلى محكماتٍ تخجل الانجم الزُّهرا

غير أنّ صاحب «المعجب» يلقبه بالوزير الكاتب ولسنا ندري ـ إن كان هذا اللقب صحيحا ـ من مكنه من هذه الخطّة من الموحدين.

توفي الرصافي بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من رمضان 572 هـ/ 1177م وهو لم يشارف الأربعين وقيل إنه توفي أعزب. ويشك إحسان عباس [الديوان، المقدمة، 9] وكذلك (E. Teresa Garulo /2 :8 / 652) في أن الرجل قد توفي حقا وهو في هذه السن المبكرة وحجة «تيريزا» في ذلك أن كتب التراجم قد سكتت عليه وهذا شك تضعفه الحجة وقد يقوى إن توفرت معطيات دقيقة

حول تاريخ ميلاده. ويحسن أن نختم ترجمة الشاعر ببيت يلخص مسيرته هو التالي: [ق 5 ص 31].

طُولُ ارتِحالٍ وأَحْظٍ غيرُ طائلةٍ
وغيبةٌ ناهَزَتْ عشرًا من الحِقَبِ

لئن شبّه الرصافي نفسه في بعض شعره [ق 48، ص 124] بالسريّ الرفّاء (ت 366/ 976) فإنّ النقّاد القدامى والمحدثين وجدوه أقرب إلى شعراء آخرين فمنهم من عدّه مواصلا لخطّ ابن الرومي المعروف بالوصف الفني ومنهم من جعله في خطّ ابن خفاجة في وصف الطبيعة وفي ترك مدح الملوك والرؤساء ونبذ التوشيح. غير أنّ رد شعر البلنسي إلى هذا الخط أو ذاك مجازفة لأنّ ما وصلنا من قليل شعره لا يمكن أن يقرّنا على مذهب. فليست مدحيّاته القليلة التي وصلتنا دليلا على زهده في المدح.

وبناء على النصوص المتوفرة لدينا فإن شعر الرصافي فيه المدحيّ والرثائي والوصفي والحنين إلى موطنه الأصلي بلنسية ويغلب على شعره توظيفه الطبيعة في جميع هذه الأغراض توظيفا ينسجم مع خصوصية كل غرض منها فهو في المدح مثلا يستخدمها في توليد معاني الرفعة والتعالي وفي الرثاء عادة ما تنطلق بكائياته من وصف الطبيعة الحية .

وشعره الرسمي أو الخاص مشبع بوجدانيات حميمة لكنها متداخلة تمثّل الشكوى فيها عنصرا أساسيا وهي شكوى من وطأة الزمان وآثاره. ومع الشكوى نجد الحنين وهو ضربان: أحدهما حنينه إلى بلنسية، والثاني حنين إلى زمن عربيّ قديم. عادة ما يكون هذا المعنى في المدحيات هدفه تأصيل نسب الممدوح. يتبنّى الرصافي هيكل القصيدة القديمة لكنّه يتصرّف فيها تصرّفا طريفا كأن يقحم المدح في الطلل وفي النسيب والخمري في النسيب [ق 5 ـ 31]. وعموما فإن شعر الرصافي شعر رفيع بما فيه من لغة سلسة من غير استفال، وصور مبسطة من غير ابتذال وترابط في المعاني وصدق في الوجدان وكل ذلك يجعله من شعراء الأندلس المقدمين.

■ آثاره

لم تذكر كتب التراجم للرصافي غير ديوان شعر قال ابن الأبار إنّه كان متداولا في عصره لكنه ضاع ولم يصلنا منه غير أشتات من القصائد والمقطوعات في مصنفات مختلفة. وقد جمع احسان عباس ما تيسر له جمعه من أشعار وأخرجه عام 1960 في ديوان. وذكر عباس في المقدمة [ص 20 ـ 21] أهم المصادر التي انتقى منها قصائده وهي: السفينة: لابن مباركشاه المصري (806هـ ـ 862 هـ) ج 1 وأضاف إليها ما ذكر في غيره من المصادر مثل: «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد و«المعجب في أخبار المغرب» للمراكشي، و«نفح الطيب» للمقري وغيرها. وجمع الديوان بذلك 546 بيتا بما في ذلك مقطوعتان «لم تصح نسبتهما للرصافي» [الديوان، المقدمة 21]

إلا أن Teresa Garulo قد ذكرت في مقالها في دائرة المعارف الإسلامية [8: 652/ ق. ظ] أن «ما نشره إحسان عباس يظل منقوصا» ينبغي أن يضاف إليه ما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة (القاهرة 1974، 2/ 505 ـ 515) وابن عسكر (الملحق) في

تاريخ مالقة وابن بشري في عدة الجليس.

المصادر والمراجع

● الرصافي البلنسي، الديوان، جمع وتقديم احسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت 1989؛ ● الحميدي، جذوة المقتبس، ط. القاهرة، 1372هـ ص 164؛ ● ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة ج، القاهرة، 1955. ص 520؛ ● المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط. السعادة 1324؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، ط. السعادة القاهرة 1367 2/ 8؛ ● ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب تح. د. شوقي ضيف، ط دار المعارف بمصر، 2/ 16؛ ● ابن الخطيب، أعمال الأعلام، دار المكشوف، بيروت. ص 271؛ ● الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة 1974، 2/ 505 ـ 515؛ ● المقري، نفح الطيب، ط. بولاق. ص 995، 1073؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. دار العلم للملايين، بيروت، 1992. 6/ 324؛ ● إ. عباس، مقدمة ديوان الرصافي البلنسي ط. بيروت 5 ـ 21؛

- Teresa Garulo, Art: Al-Rusafi, in Encyclopédie de L'Islam (n.e) T8 p.652.

وقد ذكرت مصادر لترجمته وشعره بلغات أجنبية منها:

- A Jouer, the Uddat al Jalis of Ali Ibn Bishri: an anthology of Andalusian Arabic Muwashshahat, CAMBRIDGE, 1992, pp 95-96.

د. توفيق قريرة
جامعة تونس

البلهوان، علي بن عبد العزيز

(1327هـ/ 1909م ـ 1378هـ/ 1958م)

علي بن عبد العزيز بن عليّ البلهوان، المربّي والسياسيّ والمؤلف والصحفي والخطيب المتميز. ولد بتونس العاصمة في 13 أفريل 1909، سليل عائلة تركية الأصل متواضعة، كان والده مؤدّب أطفال. وقد تتلمذ المترجم له بإحدى الكتاتيب القرآنية لكي يلتحق سنة 1917 بمدرسة خير الدين الابتدائية، ومنها تحصل على الشهادة الابتدائية ملتحقا إثر ذلك بالمدرسة الصادقية في أكتوبر 1924، وهي التي مثلت آنذاك موطن تخرّج النخبة الفكريّة والسياسية العصريّة بالبلاد التونسية. وقد أحرز دبلومها سنة 1931.

وعلى غرار الجيل الذي سبقه من خريجي المعهد الصادقي، التحق بكلية باريس بفرنسا سنة 1931 في قسم العربية بداية لكي يسجل

بالموازاة إلى ذلك في قسم الفلسفة أيضا، حرصا منه شأن بقية رفاقه، على الجمع في دراسته بين أكثر من اختصاص، لاستزادة التكوين والتثقيف، فضلا عمّا يمكن أن يتوفّر له من فرص أكثر للتشغيل عند العودة إلى بلاده. وقد مثلت آنذاك رسائله إلى عائلته من بلاد الغربة، سؤالا دائما عن واقع البلاد الاقتصادي والاجتماعي زمن الأزمة العالميّة، وحنينا إلى الأهل والوطن؛ فكان ذلك أوّل علامات صلة علي البلهوان بعالم السياسة والسياسيين، كما أنّ صلته بأندري جيد (André Gide) المفكر والأديب الفرنسي قد نبّهته إلى جوانب أخرى من المسألة السياسية سيّما ما يخصّ إدانة الاستعمار وسلوك الاستعماريين المتغطرسين.

ولئن لم ينخرط علي البلهوان ضمن زمرة الطلبة التونسيين الذين أقبل جلّهم على دراسة الحقوق أو العلوم السياسيّة، إلاّ أنّ التزامه السياسي كان لافتا للانتباه منذ البداية بباريس، سيّما أنه انتمى إلى مجموعة سان ميشال (Saint Michel) صحبة الزعيم صالح بن يوسف، والمنجي سليم، وهي المجموعة التي عرفت بشعبيّتها وانخراطها التلقائي في العمل السياسي ليس فقط بفعل التقاليد التي وجدت داخلها، وإنّما أيضا بفعل الجذور الاجتماعية للمنتسبين إليها.

ويبدو أنّ اقتناعه بأنّ العمل التعبويّ الاجتماعي منه أو السياسيّ هو عمل جماعي بالأساس فقد «قذفه» منذ سنته الأولى بباريس إلى الانخراط بجمعيّة طلبة شمال افريقيا المسلمين فانتخب في مؤتمر 1932 عضوا بمكتبها مدافعا عن مصالح الطلبة وشواغلهم الفكريّة والحضاريّة، مساهما في مؤتمر الجمعيّة الثاني المنعقد بالجزائر في صائفة 1932 بتقرير حول «تدريس اللغة العربية بتونس» ملتمسا الأسباب لتطويرها.

ثمّ تعدّدت نشاطاته ضمن العمل السياسي المباشر، فساهم في خريف 1934 في بعث لجنة الدفاع عن الحرّيات بتونس صحبة عدد من الطلبة التونسيين كانوا على اتصال وثيق ببعض البرلمانيين الفرنسيين، كما خطب نيابة عن طلبة شمال افريقيا في المؤتمر الدولي للطلبة المناهض للحرب والفاشية المنعقد ببروكسال في آخر ديسمبر 1934 داعيا في خطابه إلى الوقوف صفّا واحدا ضدّ الاستعمار والتمييز العنصري. وربما مثلت قدرته الخطابية أحد أهمّ خصاله السياسيّة الفرديّة ممّا آثار استقطاب مستمعيه وإقناعهم فضلا عن شدّ انتباه الشباب إليه ضمن محاضرات كان يلقيها على منابر الجمعيات (الجمعية الخلدونية ـ جمعية قدماء الصادقيّة. . .)، أو حتّى في الهواء الطلق (مقهى الناظور بسيدي بوسعيد)، بما يبعث الشعور بالنخوة نحو الوطن ويحفز الهمم. وقد واصل إبلاغ ذات الرسالة ضمن دروسه بالمعهد الصادقي منذ عودته إلى البلاد إذ تمّ تعيينه أستاذا لتدريس اللغة العربيّة منذ 1 ـ 10 ـ 1935 دون أن يقلع عن أنشطته السياسية رغم التزامه بذلك في 20 ـ 11 ـ 1935، وربّما كان لوقع نبرة صوته القويّ، ولغته الفصحى المبسّطة وانتظام أفكاره في سلاسة دون كلفة، ما جمع حوله القلوب، فكان من تلاميذه ممّن سيكونون من النخبة السياسيّة الفاعلة كالطيّب المهيري، ومصطفى الفيلالي، وعزوز الرباعي، وغيرهم كثر.

وقد تزامن انخراط البلهوان فعليًا في الحزب الدستوري الجديد سنة 1936 حيث إطلاق سراح الدستوريين المعتقلين وصعود الجبهة الشعبيّة بفرنسا ممّا وفّر له ميدانا لمزيد التعبئة فجاب البلاد (باجة، سوسة...) والضواحي (المرسي، سيدي بوسعيد...) في صائفة 1937 تمهيدًا لمؤتمر الحزب. وإذ لم تفد في المترجم له التنبيهات الشفوية والتوضيحات الكتابية المقدّمة من إدارة التعليم تمّ فصله عن التدريس في 22 مارس 1938 ممّا أوجد جوّا من الغليان بالمعاهد والمدارس كانت صدى للغليان الذي كانت تعيشه البلاد إزاء فشل المفاوضات بين قادة الحركة الوطنية آنذاك وجماعة الجبهةالشعبية.

ويمثّل شهر أفريل 1938 منعرجا هامًا في حياة عليّ البلهوان السياسيّة غدّ معه «زعيم الشباب» وقائد الحركة الفعلي سواء بفعل عمله على توحيد القوى الشبابيّة التلميذية (بعث لجنة الاتحاد الزيتوني المدرسي) مع مطلع هذا الشهر أو بقيادته يوم 8 أفريل 1938 للمظاهرة العامة التي انطلقت من أحياء تونس الشعبيّة، وجابت الشوارع لتنتهي بخطبته أمام الإقامة العامّة الفرنسية بتونس محمولا على الأعناق. وقد أدّى الأمر في الغد إلى مصادمات دامية (قتلى وجرحى) واعتقال المترجم له صحبة رفاقه من السياسيين، فانتقل جميعهم بين سجون تونس وتبرسق وبرج سان نيكولا (مرسيليا) قبل أن يفرج عنهم من قبل قوّات المحور، فعاد المترجم له إلى البلاد أواخر مارس 1943.

وقد تعاظم دور علي البلهوان السياسي بعيد خروج المحور من البلاد سواء عبر الدعوة إلى التعاون مع القوى السياسية المناهضة للاستعمار (التعاون من الشيوعيين) أو الدعوة إلى مزيد التنسيق مع الحركات الوطنية بالمغرب العربي (اتصالات 1948)، أو العمل على توحيد القوى السياسية الداخلية عبر مؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946)، والمراهنة على القوى المحلّية أفضل من استجداء عطف القوى الدولية في ضوء صراعاتها.

وقد كلّف علي البلهوان بمهمّة الدعاية والإعلام وإعادة تنظيم الحركة إثر انتخابه بالديوان السياسيّ في مؤتمر أكتوبر 1948. فأدار باقتدار جريدة الحزب «الحرية» وترأس تحريرها. وإثر عمليّة جراحيّة على الكلى، تمّ إيفاد المترجم له إلى الشرق (16 سبتمبر 1951) لينشط النضال ضدّ الاستعمار بالخارج في نطاق مكتب الحزب بالقاهرة وضمن لجنة تحرير المغرب العربي كذلك. فتنقل للغرض بين القاهرة ودمشق وبغداد ملقيا الخطب، ناشرا التآليف والمقالات، معرّفا بالقضيّة التونسية.

عاد علي البلهوان فجأة إلى الوطن في 6 فيفري 1955 أثناء المفاوضات التونسية الفرنسية ليتقلّد مهاة متعدّدة ويدعم الشقّ البورقيبي أثناء مؤتمر صفاقس (نوفمبر 1955) فينتخب عضوا بالمجلس القومي التأسيسي إثر ترشيحه رئيس قائمة منطقة الوسط الغربي وينتخب أمينا عامًا لهذا المجلس (1956) وقد كلّف ضمن وفد بإبلاغ الباي بإلغاء النظام الملكي وإقامة النظام الجمهوري (25 جويلية 1957). وكان عيّن رئيس بلديّة العاصمة شيخ المدينة في 5 ماي 1957 .

وبالإضافة إلى ذلك مثّل علي البلهوان البلاد التونسية في عديد المؤتمرات الدوليّة فيما بين 1956 و 1958 كان آخرها مؤتمر طنجة (أفريل 1958) بغاية وضع أسس الوحدة المغربية ـ وهو أحد أشدّ دعاتها ـ فكان ضمن الوفد الذي كلّف بإبلاغ القادة المغاربة بمقررات هذا المؤتمر. فقابل ملك المغرب ورئيس تونس، وفاجأته المنيّة وهو يستعدّ إلى السفر إلى ليبيا يوم الجمعة 9 ماي 1958 إثر سكتة قلبيّة.

آثاره

ويعدّ عليّ البلهوان أكثر مفكّري جيله من السياسيين إنتاجا وأغزرهم كتابة وتأليفا. ولم يتمّ له ذلك فحسب بفعل إتقانه اللغة العربية واكتسابه تقنيّاتها الإبداعية، وإنّما أيضا لاتساع معلوماته وشموليّة نظرته، فضلا عن تداخل اختصاصاته الفكريّة وأخذه من كلّ شيء بطرف. إذ ظهرت كتاباته في شكل تآليف مفردة حينا، أو شكل فصلات ومقالات حينا آخر، وربّما تمّ تجميع الفصلات إثر ذلك ضمن كتيّبات مفردة، سيّما أنّ هذه الكتابات قد ضمّت اختصاصات متعدّدة: فقد اهتمّت باكورة أعمال عليّ البلهوان التأليفية بالبعد التربوي التعليمي، وذلك بإعداد تقرير حول «دراسة اللغة العربية بتونس». وقد قدّمه صاحبه إلى المؤتمر الثاني لجمعيّة طلبة شمال أفريقيا المسلمين المنعقد بالجزائر في صائفة 1932 وبيّن فيه صاحبه أهمّية الانكباب على تدعيم اللغة العربية بتونس سواء بالمعهد الصادقي أو بالزيتونة، وضرورة تطوير طرق تدريسها حاملا على الطرق العتيقة في التدريس لاسيّما من قبل شيوخ الزيتونة، واصفا إيّاها بالعقم، منتقدا المدرّسين أنفسهم لاعتمادهم التلقين والحفظ. وقد التقى مع ما عاينه المغربي أحمد الفريج بالمغرب الأقصى (جامع القرويين). على حين أشاد البلهوان بالتجارب المنجزة آنذاك بالمشرق والتي حققت في تقديره نجاحات هائلة. ولئن لم يحظ التقرير بتأييد أغلبية المؤتمرين سواء لتحجّر أفكار البعض، ولاعتبارات تكتيكية بالنسبة للبعض الآخر (دفاع عن الهويّة أوّلا) فإننا نعتقد أنّ هذا التقرير المطوّل [أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال أفريقيا المسلمين، الجزائر 1932، مطبعة الاتحاد تونس 1932] قد بدأ مجددا في أكثر من مدخل سيّما أنه قد جاء في أوانه لاستنهاض همم التقليديين بغاية التعصير ودعم المحدثين فضلا عن إشاعة الإحباط في نفوس بعض المستشرقين (مثال وليام مرسي) الذين أفادوا آنذاك عن خطأ بموات اللغة العربية لاستبدالها بالتخاطب عبر اللهجة «العاميّة» [مؤتمر اللغة والآداب العربية، تونس، ديسمبر 1931].

كما نشر عليّ البلهوان إثر ذلك خلال سنوات 44 ـ 1946، في مجلّة «المباحث» التي ساهم في بعثها، عديد المقالات الفلسفية والأدبيّة واتصلت خاصّة بالمعرفة وصلتها بعلم النفس، وبالفيلسوف نيتشة، وبالمتنبّي، كما اتّصلت خاصّة بالفيلسوف الغزالي الذي خصّه بأكثر من مقال جمعها كلّها فيما بعد وطوّرها لكي يصدرها في كتاب مفرد ضخم (250 صفحة) حمل عنوان «ثورة الفكر أو مشكلة المعرفة عند الغزالي» [تونس، منشورات المباحث، د.ت]. ولعلّه أراد بهذا التأليف التعريف بهذا العالم الذي استعمل

الشك بغاية الوصول إلى الحقيقة مبرزا أهمّ أفكاره ومنهجه رابطا الصلة بين نظريات الغزالي وما عرف عند بعض الفلاسفة الأوروبيين (ديكارت، كانت. .) بما يفيد الاعتزاز بالفكر العربي الاسلامي المتوسّل بالنقد الموضوعي، سيما أنا علمنا أنّ هذا التأليف قد أهداه صاحبه إلى روح أخيه وصديقه الشهيد صلاح الدين بوشوشة (1912 ـ 1946) الذي عاشره صغيرا، ورافقه طالبا بباريس، وجاوره سياسيّا مناضلا.

أمّا في المجال السياسي فقد أثرى علي البلهوان المكتبة بعديد المقالات التي اهتمّت بالمسألة القوميّة في مفهومها العروبي والقطري باعتبار أنّ «الأمّة العربيّة مبعث السلم والأخوّة» وبالنظر إلى «تغلّب الروح العربية» إذكاء لحماسة المناضلين مؤكّدا في كتاباته على ارتباط المسألة التونسية بقضايا الأقطار العربيّة الأخرى (مصر. . .)، ولاسيّما بأقطار المغرب العربي، وهو من الذابين بالقلم واللسان عن وحدة هذا الكيان. غير أنّ المسألة الوطنية قد حظيت لدى المترجم له بالأولوية السياسية. فكان تأليفه الذي يحمل عنوان «نحن أمّة» [تونس، مطبعة الحريّة، د.ت، 44 صفحة] وهو بمثابة صرخة في وجه الناكرين للذاتية التونسية من الاستعماريين باسطا مقوّماتها وميزاتها الطبيعيّة وخاصّياتها الدينيّة واللغويّة وعاداتها وتاريخها. والكتاب هو في الأصل محاضرة ألقيت بعديد النوادي الثقافية، والغاية من التأليف تبسيط بعض المفاهيم لمزيد التعبئة السياسية. وما أعجب إلاّ من أولئك الذين اعتبروا الدراسة «مبسّطة وسريعة»، ولم يفهموا خلفية ذلك، ولم ينتبهوا إلى الأهداف. والحال أنّ الاستعماريين أنفسهم أفادوا بأنّهم عاينوا الشبان الدستوريين يبيعون هذا التأليف بصورة مكثّفة في مطلع 1949 (فيفري ـ مارس) بمدن الساحل والوطن القبلي وبتونس العاصمة وحتّى بملاعب كرة القدم وفي كلّ ذلك أكثر من عبرة وأعمق من هدف.

كما عُرِف عن علي البلهوان تأليفه في بعض القضايا الاقتصادية «الاقتصاد التونسي» ـ مخطوط) والعمرانية «تصميم العاصمة» ـ مخطوط) وعديد المسائل الاجتماعية، لا سيّما ما يهمّ دور المرأة والشباب والمثقّفين. ويبقى تأليفه الذي يحمل عنوان «تونس الثائرة» عصارة جهده الثابت يوم استقراره مؤقتا بالمشرق (1951 ـ 1955)، فقد جاء هذا التأليف الضخم (القاهرة 1954، 500 صفحة) ليبيّن عظمة نضال الشعب التونسي المرير ضدّ الاستعمار الفرنسي، مسجّلا بطولاته وملاحم مناضليه، ومبرزا دور الحركة السياسيّة والقمع المسلّط على القادة وبقيّة التونسيين على السواء سيّما منذ زمن انتهاء الحوار التونسي الفرنسي إلى طريق مسدود بُعيد إعلان مذكّرة ديسمبر 1951 .

ولا تمثّل إيجابيات هذا العمل في الجهد التأليفي التاريخي المنجز، وفي الكمّ الهائل من الوثائق التي اعتمد عليها فقط، وإنّما أيضا ـ وهذا هو الأهمّ ـ فيما مثله آنذاك من وقع لدى مختلف الأوساط سيّما الأجنبية بخصوص تعرية وجه الاستعمار البشع في فترة كانت فيها المسألة التونسية تمرّ بمنعرج خطير مع مطلع خمسينات القرن العشرين، فجاء هذا الكتاب ليستثير الرأي العام العربي والعالمي

ممّا ساهم جدّيا في مزيد تدويل القضيّة التونسيّة.

المصادر والمراجع

● إدريس، رشيد، ذكريات كفاح وهجرة مع علي البلهوان، الفكر، عدد 8 ماي 1979، 5 ـ 20؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، تونس، الدار التونسية للنشر 1972، 188 ـ 189؛ ● ابن يوسف، عادل، الطلبة التونسيون بالجامعات الفرنسية (1880 ـ 1956)، أطروحة دكتوراه، 1999 (مرقونة)؛ ● بالأصفر، محمد، علي البلهوان من خلال مراسلاته، الصباح، أعداد 8 ـ 9 ـ 10 ماي 1988؛ ● الجمّالي، محمد الفاضل، رسالة من علي البلهوان إلى محمّد فاضل الجمّالي، المجلّة التاريخيّة المغربية، عدد 6، 1976، 121 ـ 122؛ ● الذوادي، رشيد، عليّ البلهوان، حياته وآثاره، تونس 1974؛ ● الذوادي، زهير، الوطن والحرية مقدمة في الكتابات السياسيّة لعليّ البلهوان، تونس 1997؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت 1982، 1/ 157 ـ 162؛ ● مزالي، محمّد، دراسات، تونس 1984، 345 ـ 363؛ ● الواكدي، جليلة، التفكير التونسي في ضوء التناقضات القائمة في الفكر العربي المعاصر، دراسة في تفكير عليّ البلهوان (1909 ـ 1958)، حوليات الجامعة التونسية عدد 39، 1995، 409 ـ 426...

د. الكراي القسنطيني
جامعة تونس

بلّو محمد، بن الشيخ عثمان بن فودي

(1195هـ/1780م ـ 1253هـ/1837م)

هو العلاّمة ابن الشيخ عثمان بن فودي. ولد سنة 1195هـ/ 1780م. وقد أغفلت المراجع ذكر مكان ولادته، على أنّه إن لم يكن على وجه الخصوص في قرية مرتا (Marata) حيث ولد أبوه، فمن المرجح أنّه كان على العموم في منطقة غوبير (Gober) التابعة لولاية سوكوتو(Sokoto) من جمهورية نيجيريا. ففي هذه المنطقة استقرّ أهله الذين ينتسبون إلى قبيل توروبي (Torobi) من التكرور (Toucouleur) [كي زربو، جوزيف، تاريخ إفريقيا السّوداء من الأمس إلى اليوم، ص 361] منذ قدموا من منطقة فوتا تورو هروبا من الصّراع السياسي الذي استفحل بها.

نشأ محمد بلّو (Bello) مثل والده وعمّه عبد الله بن فودي في محيط عائلي واجتماعي

مزدهر بالعلم والثقافة الدينية والأدبية. فقد كانت لكلّ من والده وعمّه مدرسته الخاصة، ووجدت إلى جانبها معاهد أخرى عديدة في المنطقة. وكانت دورًا محتشدة بالعلماء وطلاب المعرفة [العراقي، السرسيد أحمد، وعبد الله بن فودي، ومحمد بلّو بن عثمان بن فودي من علماء غربي إفريقيا في القرن التاسع عشر، أعمال ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، ص 362].

كانت بداية تحصيله على يد أبيه، فقرأ عليه عددًا من أمهات الكتب الدينية، ثم لازم عمّه فتكوّن عنده في العلوم اللغوية من نحو وبلاغة وغيرهما كما طوّر على يده معرفته بالعلوم الدينية من تفسير، وفقه، وحديث وغيرها [م.س.].

إذن لم يكن يسيرًا تأثيرُ هذه البيئة الاجتماعية في نفسية الطفل وطبيعته. فإلى جانب الذكاء ونفاذ البصيرة وقوّة الحافظة، نشأ شديد الحرص على تحصيل العلم، شغوفًا بالقراءة والمطالعة. واستفاد في ذلك بازدهار تجارة الكتب في منطقة إفريقيا الغربية آنذاك. فقد عني بها الحجّاج فاستوردوا من كتب المشرق والمغرب العربيين ما أثرى المكتبات المحلية الكبيرة.

طالع محمد بلّو كتبًا عديدة من هذه المكتبات وشحذ بها فكره وقريحته فكان أن امتاز عن غيره من الطلاب بالفصاحة وحسن البيان.

كان بلّو صوفي النزعة مثل والده وعمّه حتى أنه كان يعتبر من أفاضل الأتقياء وأئمّة الزهد والورع والنسك والعبادة [م.س.ص 363]. وكان أن شارك في حركة الجهاد التي قادها والده مشاركة فعالة. فقد برهن فيها على شجاعته ومهارته في قيادة الجيش. من ذلك أنه قاد فتح الكلاوة (Alkalawa) عاصمة غوبير سنة 1223هـ/ 1808م [ن.م، ص 362 ـ 363؛ كي زربو، جوزيف، تاريخ إفريقيا من الأمس إلى اليوم، ص 362].

ولما قرر والده التفرغ للدعوة تولى هو حكم القسم الشرقي من الدولة الإسلامية. ودام حكمه إلى حين توفي والده سنة 1817م. عندئذ قدمه أهل الحل والعقد في سوكوتو على عمّه عبد الله بن فودي فبايعوه خليفة على المسلمين وهو في سنّ الحادي والثلاثين، [العراقي، السرسيد أحمد، م.س. ص 363].

تحلّى الخليفة محمد بلّو في حكمه بالصبر والعدل والحلم والنزاهة [أحمد، مهدي رزق الله، حركة التّجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في افريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، ص 462]. وكان حريصًا على الشورى حازمًا في تطبيق الشريعة الإسلامية. كما أبدى قدرة فائقة في تنظيم إدارة الخلافة الواسعة. لهذا اعتبر من أعظم خلفاء سوكوتو [العراقي، السرسيد أحمد، م. س. السابق، ص 363].

ويعدّ عهده (1817م ـ 1837م) العصر الذهبي للخلافة السوكوتية. فإليه يعزى تثبيت دعائم الدولة وتقوية جيشها وتنظيم حكومتها ووضع شرائعها. كما امتاز بدعمه لمختلف القطاعات الاقتصادية وبحرصه على تطوير الصحة العامة والنهوض بالمجتمع. يؤكد هذا ما يروى من أنّه طلب إلى ملك إنجلترا جورج الرابع أن يرسل له قنصلا وطبيبًا وتاجرًا لتطوير المبادلات التجارية بين بلديهما [م. س.].

وإلى جانب اهتمامه بمؤسسات الدولة، أولى

عناية خاصة بالنشاط الثقافي والفكري، إذ أسس زهاء أربعين مدرسة في جميع أنحاء الخلافة السوكوتية، وشجع الناس على طلب العلم وقرّب إليه العلماء. وكان ممن عينهم للتدريس أحمد بن الشاذلي، والشيخ عمر الفوتي مؤسس الطريقة التجانية في غرب إفريقيا [م. س. ص 363. 364].

وعلى قدر ما كان محمد بلّو المبتدئ شغوفًا بالقراءة حريصًا على سعة الإطّلاع، كان بلّو النابغ غزير الإنتاج نثرًا ونظمًا. وكانت تآليفه خاصة باللغة العربية.

يعتبر كتابه «إنفاق الميسور» من أكبر مؤلّفاته حجمًا وأعظمها نفعًا، كما يعتبر من أوثق المصادر التاريخية للحياة الفكرية والثقافية والسياسية في منطقة نيجيريا وغيرها من مناطق إفريقيا الغربية. ونجد فيه مادة غزيرة تغطي حركة عثمان بن فودي وتترجم لأعلامها البارزين. وهو كتاب منشور اعتمد عليه كثير من المؤرخين والباحثين [العراقي، السرسيد أحمد، م. س. ص 365].

أما «أصول السياسة» فقد تناول فيه الأسس التي تقوم عليها السياسة الإسلامية، وقدّم فيه الصفات اللازمة للإمام كالعدل بين الرعية والعلم بالشريعة [م.س].

ويعكس كلّ ما ألفه من كتب وهي: «الغيث الوبل في سيرة الإمام العدل»، و«ضياء العقول في بيان غلاظ تحريم الغلول»، و«تنبيه الصاحب على أحكام المكاسب»، التزامه بالنهوض ببلاده في مختلف النواحي وتكوين مجتمع متقدم قائم على شرع الله. وهي كتب في السياسة والاقتصاد والشؤون المالية حسب ما تمليه روح الإسلام وتعاليمه [م. س. ص 363 ـ 365].

هكذا كان محمد بلّو على غرار والده وعمّه فقيهًا مجاهدًا، وسياسيًا، ومصلحًا اجتماعيًا، ومفكرًا يصوّر إنتاجه حياة أمّته من نواح متعددة. منها الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد أدّى دورًا كبيرًا في تاريخ الإسلام والثقافة الإسلامية في إفريقيا الغربية في الثلث الأوّل من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي [أحمد، مهدي رزق الله، م.س. ص 465].

آثاره

لقد اختلفت المصادر حول عدد مؤلفات محمد بلّو. فذكر بعضهم أنها بلغت أثنين وثمانين مؤلفًا [أحمد، مهدي رزق الله، ن.م. السابق، ص 462] وبعضهم الآخر أنّها زادت على المائة بين منظوم ومنثور [مونتاي، فنسان، الإسلام في إفريقيا السوداء، ص 97؛ العراقي، السرسيد أحمد، م.س. ص 362]. وهي مؤلفات في مختلف فنون المعرفة والعلوم الإسلامية كالسياسة والتاريخ والتصّوف، وخصوصًا منها ما يتعلق بالطريقة القادرية.

ويؤكّد الدارس أحمد مهدي أنّ كنسديل (Kensdale) وهو من قام بنشر عناوينها وأشار إلى أماكن وجودها قد ذكر منها خمسة وعشرين [أحمد، مهدي رزق الله، م. س. ص 462] وأهمّها ستة: 1 ـ إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور؛ 2 ـ أصول السياسة؛ 3 ـ الإنصاف في ذكر ما في مسائل الخلافة

من وفاق وخلاف؛ 4 ـ الغيث الوبل في سيرة الإمام العدل؛ 5 ـ أدب المسافر؛ 6 ـ إفادة الإخوان.

ويأتي ديوانه الشعري «إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين» [هذا الديوان جمعه الوزير جنيد من مصادر عديدة من مؤلفات «محمد بلّو» ولا سيما من كتابه «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور»، وقد حقق هذا الديوان محمد نجيب التلاوي في ملحق رسالته المخطوطة للدكتوراه بمكتبة كلية الآداب بجامعة المنيا] في المنزلة الثانية من حيث الأهمية بالنسبة لمؤلفات محمد، وترجع الأهمية الثقافية من نواحٍ عديدة في هذا الديوان، أولها:

أن الشاعر يؤرخ للمواقع والغزوات الحربية التي قادها في جهاده ضد غير المسلمين، وهي غزوات كانوا يتمثلون فيها جهاد الصحابة السابقين حتى أنه في غزوة «ألوسا» كرر مقولة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مفتخرًا بنفسه وبنسبه أثناء الحرب، فقال محمد بلّو:

أنا ابْنُ عثمانَ فُودي ساعده
أدافعُ الكفار عن مقاصده

[انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، من ص 134 ـ 135]

والبَرُّ يحمي حريمَ والده
والعاق مقبور ولو في تالده

وثاني هذه المنابع أن هذه الأشعار تعكس حبًا صادقًا لرسول الله ﷺ، الذي استأثر بمدائح الشاعر فضلاً عن تخميسه لقصائد مادحة للرسول ﷺ.

وثالث هذه المنابع أن الديوان يرصد ما هو شائع آنذاك من تقليدية البناء الفني للقصيدة عند الفُوديين والتي غالبًا ما تصل إلى حدود النظم في كثير من الأعمال الشعرية، وتلاحظ حجم الترابط الأسري للفوديين فنقع على قصائد رائية لعمه عبد الله بن فودي، ولابن عمّه.

ولأهمية محمد بلّو فقد حظي بعناية الباحثين في مجال التاريخ والأدب المتصل بمنطقة جنوب الصحراء الكبرى، فضلا عن وجود عدد غير قليل من الأشعار المادحة والرائية لهذا الرجل الذي مكن للغة العربية والثقافة الإسلامية الصحيحة في نيجيريا، والنيجر، وتشاد.

المصادر والمراجع

لا تتوفر عن حياة هذا العالم إلا قليل من المراجع المفردة. لكن لارتباط حياته بحركة الجهاد التي قادها والده الإصلاحية، ترد في جلّ المراجع التي تتناول هذه الحركة معلومات مفيدة عن حياته في مختلف وجوهها. وعمومًا يمكن ترتيب المراجع المتعلقة به كما يلي:

● العراقي، السرسيد أحمد، عبد الله بن فودي ومحمد بلّو بن عثمان بن فودي من علماء غربي أفريقيا في القرن التاسع عشر، أعمال ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية (الخرطوم 28 ـ 30 يوليو/ تموز 1983م)، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر، الكويت، (د.ت)؛ ● رزق الله، أحمد مهدي، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي أفريقيا قبل الاستعمار وآثارها

الحضارية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1998؛ • مونتاي، فنسان، الإسلام في إفريقيا السوداء، ترجمة إلياس حنا إلياس، دار أبعاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983؛ • بوعزيز، يحيى، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 إلى مطلع القرن 20، الجزائر 1989؛ • الألوري، آدام، موجز تاريخ نيجيريا، بيروت 1965.

• MEUNIER (O.), les routes de l'Islam, Ed. l'Harmattan, Paris, 1967; • KIZERBO (J.), Histoire de l'Afrique Noire d'hier à demain, Ed. Hatier, Paris, 1978.

د. وليلاي كندو
جامعة بوركينا فاصو
د. محمد نجيب التلاوي
جامعة المنيا ـ مصر

بلوز، نايف

(1350هـ/1931م ـ 1419هـ/1998م)

ولد نايف بلوز في بلدة قطنا قرب دمشق بالقطر العربي السوري عام 1931م، توفي والده وهو في السابعة من عمره، وقد تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة قطنا؛ وانتقل في مرحلة التعليم الثانوي إلى دمشق حيث حصل على شهادة الباكالوريا عام 1949م، والتحق بجامعة دمشق في كليّة الآداب لدراسة الفلسفة 1950م وقد حصل على درجة الليسانس عام 1954م، وعمل موظفا بالسفارة البلغاريّة بدمشق من 1955 ـ 1958م، ثمّ مدرّسا في الزبداني قرب دمشق، وفي القامشلي شمال سوريا، ثمّ مديرا لمدرسة مشتي الحلو، وقد أدّى خدمة العلم 1958 ـ 1959م وفي نهايتها سافر إلى لبنان، ثمّ سافر إلى الصّين عام 1960م ليعمل مدرّسا للّغة العربيّة في المعهد العالي للّغات الأجنبيّة في بكين حتّى 1962م ممّا أتاح له متابعة بداية الخلاف الصّيني السوفيتي. وبعد عودته إلى سوريا، سافر إلى ألمانيا حيث تعلّم اللّغة الألمانيّة 1963 ـ 1965م وحصل على الدّكتوراه من جامعة هامبولد ببرلين ببحث عنوانه «فجر الإسلام وإرهاصاته الرّوحيّة والثّقافيّة» في يوليو 1968م، وحين عاد إلى سوريا التحق بكليّة الآداب قسم الفلسفة، جامعة دمشق سنة 1970م. وهو عضو جمعيّة البحوث والدّراسات في سوريا، وعضو اتّحاد الكتاب العرب بدمشق، لم يشارك كثيرا في النّدوات والمؤتمرات، وقد توفي بمدينة اللاّذقيّة في أغسطس 1998م، وقد خلّف من الأعمال عددا كبيرا لم ينشر بعد.

يعرّف الدّكتور نايف بلوز الفلسفة في بداية

«المدخل إلى الفلسفة» بأنّها العلم الّذي يتناول بالبحث المشاكل الكبرى للإنسان والحياة والوجود. ويقدّم في فصول أربعة بعد تمهيد في الفلسفة: الفلسفة والعلم، تطوّر مدلولات الفلسفة وتعريفاتها، مباحث الفلسفة وأقسامها، مدخل إلى نظريّة المعرفة؛ ويقدّم في الفصل الثّاني مسائل أساسيّة في مبحث الوجود حيث يعرض لهذا المبحث في تاريخ الفلسفة وعلاقته بتطوّر المعرفة البشريّة، ويتوقّف عند المذهبين المادّي والمثالي في تاريخ الفلسفة لينتقل في الفصل الثّالث إلى نظريّة المعرفة حيث يعرض للمذهبين الحسّي والعقلي كمصدرين للمعرفة، ثمّ نظريّة المعرفة وعلاقتها بمبحث الوجود.

وعلى امتداد أحد عشر فصلا يعرض «مناهج البحث في العلوم الاجتماعية» فيتناول في الفصل الأوّل العلم النّظري نشأته وخصائصه وعلاقته بالفلسفة، وفي الثّاني تمهيد مختصر لتاريخ الفكر والمنهج العلميّين، ويعرض للعلوم الاجتماعيّة في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر في الفصل الثّالث، وفي القرن التّاسع عشر وفي الفصل الرّابع، وإبستمولوجيا العلوم الاجتماعيّة اليوم في الخامس، وفي السّادس منهج البحث في علم الاقتصاد، وفي السّابع مناهج البحث في السوسيولوجيا، والثّامن نظريّات سوسيولوجيّة والتّاسع المنهج البنيوي وإبستمولوجيا العلوم الإنسانيّة، والعاشر ابستمولوجيا علم النّفس، وأخيرا مناهج البحث في علم التّاريخ وإبستمولوجيّته.

ويبيّن نايف بلوز فيما كتبه عن «الفهم والتّفسير في المعرفة العلميّة» أنّ العلاقة بين الذّات والموضوع في مجال المعرفة، وكذلك الفروق بين معرفة الطّبيعة ومعرفة الإنسان قد طرأ عليها تبدّل كبير خلال التّاريخ، وأنّها لا تزال حتّى الآن مثار جدل بين التّيّارات المختلفة. ويرى أنّ الإنسان حين يفسّر الطّبيعة تفسيرا إنسانيّا غائيا لا يستطيع أن يفصل معرفة الإنسان والمجتمع عن معرفة الطّبيعة والكون، ويؤكّد أنّ تحديد مكانة الإنسان في الوجود لا تتحقّق إلّا بالتّفسير الطّبيعي الكوني لظواهر الحياة الإنسانيّة، وإن استمدّ أصلا في نمط الوجود الإنساني الغائي، إلاّ أنّ تطوّر المجتمع الحديث أدّى إلى الفصل بين التّفسير والفهم، إلى تفسير الطّبيعة بقوانين السّببيّة، وإلى فهم الإنسان بالكشف عن مقاصده ومعنى أفعاله وغاياتها. فأخذ الفكر النّظري ينظر إلى الإنسان باعتباره مغايرا للطّبيعة، ومختلفا عنها بل وساميا عليها؛ إلاّ أنّ العلميّة في المجال الإنساني الاجتماعي التّاريخي غير متطابقة مع العلميّة في العلم الطّبيعي، وأنّها ترتكز إلى الأفراد بوجود اطراد قانوني اجتماعي خاصّ يتحقّق في قلب النّشاط البشري أو سلوك الأفراد ويكون ثمرة لها. وعلى هذا فإنّ مطلب الموضوعيّة الأساسي في المعرفة العلميّة لا يستطيع إغفال خصوصيّة المعرفة العلميّة في مجال علوم الإنسان؛ وبينما تقوم الأولى على التّفسير تقوم الثّانية على الفهم.

وفي تقديمه لكتاب «علم الجمال»، (1982م)، نجد تجسيدا للرّؤية الاجتماعيّة الواقعيّة لبلوز. فهذا العلم يندرج في إطار الفلسفة وإن كان ذلك لا يمنع أنّ علماء الجمال يسلّمون بأنّ على العلوم الأخرى أن تسهم بجدّتها المنهجيّة وبصياغتها الكمّيّة الدّقيقة بصورة أساسيّة في مشاكل علم الجمال الخاصّة. ولا يجوز أن يخدعنا ميل هذه

الاتّجاهات إلى تحويل علم الجمال، إلى فرع علمي مستقلّ تماما فيغيب عن البال ما بين التّفكير الجمالي والفلسفي من علاقة شديدة الوثوق؛ فالفلسفة بوصفها وحدة تركيبيّة تجمع ما بين طلب العلم وطلب الحقيقة والتّخليص النّظري للتّجربة والمعرفة الإنسانيّة وهي لا تستطيع أن تعالج مشاكلها الكبرى مثل: الحريّة، ومعنى الحياة، ومصير الإنسان، ونظام العالم، والوجود والصيرورة دون أن تولي اهتماما كبيرا للحياة الجماليّة والفنيّة الّتي تعبّر فيها الإنسانيّة عن ذاتها ومستقبلها تعبيرا شاملا مبدعا حرّا، وتمتلك فيها ولو إلى حين، أحلامها. فهو يرى أنّ كلا من الفلسفة والفنّ يقوم بأسلوبه الخاصّ باكتشاف الواقع ووعي حقيقة الإنسان وصراعاته وحدوده ومشاكله واقتراح مشروع لجدارته الإنسانيّة. والثّقافة الجماليّة والفنيّة عند بلوز جانب من الثّقافة الإنسانيّة يشتمل على المنجزات والوسائل الّتي يمتلك فيها الإنسان العالم بمختلف مظاهره وأحداثه وأشيائه امتلاكا روحيا ـ جماليّا؛ فالعصر الحديث لم يحرز ما بلغه من تقدّم مدني وعقلي وتقنيكاني وحضاري إلاّ عبر صراعات اجتماعيّة وتاريخيّة، وعبر تشوّهات سلبت الحياة والإنسانيّة البهجة والطّلاقة والجمال. فالثّقافة الإنسانيّة ارتقت بالثّقافة الجماليّة. لذا نجده يشيد بالشّاعر والمفكّر شللر لكونه قد أبرز دور الثّقافة الجماليّة والفنيّة والتّربية الجماليّة في تحرير الإنسانيّة ممّا يكتنفها من إزراء وقسوة وشرور، حيث عدّ الفنّ وسيلة الرّقيّ الأخلاقي وتنمية روح المواطنة وتطوير الشّعور بالمسؤوليّة الإنسانيّة. فليس سوى الإبداع الجمالي المتجلّي في الفنّ بقادر على أن يؤسّس شيئا فشيئا في قلب مملكة المسرّة واللّعب والحريّة، فنشر الجمال شرط الحياة الاجتماعيّة الأخلاقيّة الخلاّقة.

إنّ الفنّ العظيم في نظر بلوز يسهم في هزّ جمود الواقع إذ ينقلنا خياليّا من تصلّب العلاقات القائمة إلى مرونة الحياة المتحرّكة، فيقيم المدى السيّال بين الواقع التّاريخي المتحقّق والإمكانيات المفتوحة في التّاريخ والحياة. ويؤكد بهذا حدود ونسبيّة كلّ أمر واقعي ناجز، ممّا يحيي الأمل ويوقظ القدرة على الفعل والتّغيير، ويمدّ الإنسان بالشّجاعة والقوّة ويقرّب بين الأفق الإنساني نجمة الحريّة. فالهدف الأوّل للأثر الفنّي هو أن يبرز بوسائله الخاصّة معنى سيادة الإنسان على الواقع، حيث تقوم الثّقافة الجماليّة ـ الفنيّة بتنشيط عزم الإنسان بتوثّبه للظّفر بقيوده، ودفعه في طريق تخطّي العقبات والمتناقضات التّاريخيّة، وإضفاء الطّابع الاجتماعي الإنساني على وجوده الفردي والتّقدّم في عمليّة التّحكّم بمصيره، والتّطلّع إلى النموّ الأكثر حرّية وشمولا وانسجاما.

إنّ الإبداع الفنّي والمعايشة الفنيّة والمسرّة الجماليّة ـ فيما يرى ـ حالات يلتقي فيها الخيال بالواقع، والحلم بالحقيقة؛ فيعي المرء قابليّة تجدّد الحياة والسّيطرة على قواعدها وتوسيع حدودها. وهذا لا يتمّ إلاّ عبر استشفاف دروب المجالات الممكنة أو التّمرين الخيالي على بدائل الواقع؛ وهذا التّمرين الخيالي لا يبعدنا عن الحقيقة بل يفيقنا، إذ يخترق اللّعبة الفنيّة جدار الواقع.

وإذا كانت الثّقافة الفنيّة لا تزال تؤلّف الجانب الأهمّ في الثّقافة العربيّة عموما، فمن

المطلوب ألاّ تكون هذه الثّقافة الّتي تمارس اليوم تأثيرا خطيرا على تكوين شخصيّة المواطن ومثله وقدراته وسيلة لتزوير وعيه وتشويه تطلّعه إلى الحريّة والعدالة وتجديد الحياة. ومن المطلوب أن تنشله من روح الاكتفاء الشّخصي النّفعي والرّكض وراء الأغراض الأنانيّة، وأن تدفعه إلى الاشتراك في النّشاط المبدع وتذوّق الجمال وتأكيد قيمته وإحياء صورة الحياة الجميلة الأرقى والحلم بعالم حرّ رائع وشحذ روح الكفاح من أجل الحريّة والتّقدّم والتّضحية في سبيلهما، ويمثّل كتابه محاولة علميّة أولى لدراسة المبادئ والشّروط العامّة للنّشاط الجمالي والفنّي، فهو يشتمل على تسعة فصول، يدور الفصل الأوّل منها حول موضوع علم الجمال وعلاقته بالفروع العلميّة الأخرى، وما طرأ عليه من تغيّر في طرق البحث، ويقدّم في الفصل الثّاني ملخّصا تاريخيا عن أهمّ مراحل التّفكير الجمالي والفنّي والاتّجاهات الأساسيّة الّتي تميّز هذا التّفكير في مراحله المختلفة، ثمّ عرض في فصول لاحقة ثلاث خصائص: الوعي الجمالي وبنيته، والعلاقة الجماليّة بين الموضوع والذّات والواقع والمثال، والجانب المطلق والجانب النّسبي في هذه العلاقة. وقد أخذ بلوز في هذه الدّراسة بالنّظرة القيميّة الإكسيولوجيّة الحديثة لطبيعة الظّاهرة الجماليّة.

■ آثاره

بالإضافة إلى رسالته للدّكتوراه باللّغة الألمانية، نشر بلوز نايف العديد من الدّراسات والتّرجمات:

1 ـ ابن سينا ذروة تطوّر حضاري، منشورات جامعة دمشق 1971م؛ 2 ـ المدخل إلى الفلسفة، 1971م؛ 3 ـ علم الجمال، جامعة دمشق 1980م؛ 4 ـ الماركسيّة والتّراث العربي الإسلامي، بالاشتراك، 1980م؛ 5 ـ مناهج البحث في العلوم الطّبيعيّة، 1980م؛ 6 ـ مناهج البحث في العلوم الاجتماعيّة 1981م؛ 7 ـ بعض الملامح الحضاريّة للإقطاعيّة الشرقيّة في ظلّ الخلافة العربيّة، مجلّة «دراسات عربيّة» العدد الأول 1972م؛ 8 ـ سوسيولوجيا المعرفة 1982م؛ 9 ـ تاريخ الفكر الاجتماعي 1983؛ 10 ـ كتاب الإسلام وأهميّته الرّاهنة، 1986م؛ 11 ـ الفهم والتّفسير في المعرفة العلميّة، جامعة دمشق 1992م؛ 12 ـ حوار شامل حول العولمة، في العدد 54، مجلّة «النّهج» 1999م.

■ المصادر والمراجع

● نشأت الحمارنة، نايف بلوز وجهوده الفلسفيّة، أعمال النّدوة الفلسفيّة الثّانية، عمّان، الأردن، فبراير 1999م؛ ● السيد محمد البخاري بن سيد المختار، الدكتور نايف بلوز، ندوة معهد ثربانتس، دمشق، 1998م.

د.أحمد عبد الحليم عطية
جامعة القاهرة ـ مصر

البَلّوطي، أبو الحكم منذر بن سعيد

(273هـ/886م - 355هـ/966م)

منذر بن سعيد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن قاسم النَّفْزي القرطبي، أبو الحكم البلّوطي الأندلسي. يُنسب إلى قبيلة يقال لها: كُزْنَة، وهو من مكان قريب من قرطبة يقال له: فحص البَلّوط، ولذلك اشتهر باسم البَلّوطي.

ولد سنة 273هـ، وقيل سنة 265هـ، وتوفي بقرطبة سنة 355هـ [الزركلي، الأعلام، 7/ 294؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 299، 303].

كان فقيها محققا، وخطيبا بليغا مُفَوَّها، وشاعرا فصيحا، وأديبا ونحويا ومتكلما وجدليا، كثير التصانيف، قوّالا بالحق، ناصحا للخلق، غزير المثل، له الخطب المفحمة الخالصة الخارجة من قلب مخلص سليم.

زاول القضاء في أماكن كثيرة، فقد ولي قضاء «ماردة» وما والاها، ثم قضاء الثغور الشرقية كلها، فقضاء الجماعة بقرطبة سنة 339هـ إلى وفاته؛ ولذلك وُصف بقاضي قضاة الأندلس في عصره، ولم تحفظ عليه مدة ولايته قضية جور. كما كان إمام صلاة وخطبة في مسجد الزهراء [الزركلي، الأعلام، 7/ 294؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج/ 17؛ كحالة، معجم المؤلفين، 13/ 9].

سمع بالأندلس، ورحل إلى مكة ومصر، وحج سنة ثمان وثلاثمائة (308هـ)، فأقام في رحلته أربعين شهرا، أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر، فأدخل الأندلس من علم النظر ومن علم اللغة كتبا كثيرة.

ومن شيوخه: عبيد اللّه بن يحيى بن يحيى الليثي، وابن النذر، فقد أخذ عنه كتاب الإشراف [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهبي، 3/ 17؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 302].

كان ظاهري المذهب، يميل إلى مذهب الإمام داود بن علي الأصبهاني المعروف بداود الظاهري المتوفى سنة 270هـ، والذي تنسب إليه الطائفة الظاهرية، وذلك لكونه أوّل من قال بالظاهر. جاء في تاريخ بغداد أن الإمام داود هو أول من انتحل العمل بالظاهر ونفي القياس [البغدادي، 8/ 374؛ الخادمي، الدليل عند الظاهرية، 26؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج/ 17].

قال فيه ابن بشكوال في بعض كتبه: منذر بن سعيد خطيب بليغ مِصْقَعْ (أي ماهر)، لم يكن بالأندلس أخطب منه، وكان أعلم الناس باختلاف العلماء، شاعرا لبيبا أديبا، له تصانيف حسان جدا، وكان مذهبه النظر والجدل.

تُروى عنه حكايات بليغة وعظيمة، دالة على ورعه وصلاحه وحسن توجيهه ونصحه، ومن هذه الحكايات:

ـ أنه خطب يوما فأعجبته نفسه، فقال: حتّى متى أعظ ولا أتعظ، وأزجُر ولا أزدَجِر، أدل على الطريق المسْتَدلّين، وأبقى مقيما مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين. اللهم فَرِّغْني لما خلقتني له، ولا تشغَلْني بما تكفَّلْتَ لي به. وذكره محمد بن الحارث القَرَوي، فقال: كان من أهل النفاذ والتحصيل، متدربا للمناظرة، متخلقا بالإنصاف، جيّد الفهم، طويل العلم، بليغا موجزا، يميل إلى طرق الفضائل، ويُوالي أهلها، ويلهج بأخبار الصالحين.

ـ أنه أمر في آخر مدة الناصر بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فصام أياما وتأهَّب، واجتمع الخلق في مصلى الرَّبض بقرطبة، وصعد الناصر في أعلى قصره ليشاهد الجمع، فأبطأ منذر، ثم خرج راجلا متضرعا مُخبتا مُتخشِّعا، وقام ليخطب، فلما رأى الحال بكى ونَشَجَ وافتتح خطبته بأن قال: سلام عليكم، ثم سكت، ولم يكن من عادته، فنظر الناس بعضُهم إلى بعض لا يدرون ما عراه، ثم اندفع، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾... إلى قوله: ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54]، استغفروا ربكم وتوبوا إليه، وتقربوا بالأعمال الصالحة لديه، فَضَجَّ الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء والتَّضرُّع، وخطب فأبلغ، فلم ينفضّ القوم حتى نزل غيث عظيم.

ـ أن الناصر أمير المؤمنين عمل في بعض سطوح الزهراء قبة بالذهب والفضة، وجلس فيها، ودخل الأعيان فجاء منذر بن سعيد، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله: هل رأيت أو سمعت أنّ أحدا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدَّر، ثم قال: والله ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، أن أنزلك منازل الكفار، قال: لِمَ؟ فقال: قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 33 ـ 35]، فنكس الناصر رأسه طويلا، ثم قال: جزاك الله عنا خيرا وعن المسلمين، الذي قلتَ هو الحق، وأمَرَ بنقض سقف القبة.

ـ أنه استغرق مرة في خطبته بجامع الزهراء فأدخل فيها ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: 128 ـ 130]، فتخيَّر الناصر لخطابة الزهراء أحمد بن مطرّف (صاحب الصلاة بقرطبة) إذا حضر الناصر.

ومن أقواله تجاه الأمراء والملوك: إذا خَشع جبار الأرض رحم جبار السماء. وكان منذر شديد الصلابة في أحكامه، والمهابة في أقضيته، وقوة الحكومة، والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 300 ـ 303؛ المقري، نفح الطيب، 1/ 570 ـ 574].

ومن شعره في حقيقة الموت وحتميتها:

الموت حوضٌ وكلنا نَردُ
لم ينجُ ممَّا يخافه أحدُ

فلا تسكن مغرمًا برزق غد
فلستَ تدري بمَا يجيء غَدُ

وخُذْ من الدهر ما أتاك به
ويسلم الروح منك والجسدُ

والخيرُ والشرُّ لا تُذعه فما
في النّاس إلا التشنيعُ والحسدُ

وقد آذاه شخص فخاطبه بالكنية، فقيل له: أيؤذيك وأنت تخاطبه بالكنية؟ فقال:

لا تعجبوا من أنني كنّيته
من بعد ما قد سبّنا وأذانا
فالله قد كنّى أبا لهب وما
كنّاه إلا خزيةً وهوانا

[المقري، نفح الطيب، 1/ 374].

آثاره

له كتب مؤلّفة في القرآن والسنة والعقيدة والأصول، وفي الخطب والمواعظ والورع، والرد على أهل الأهواء والبدع. ومنْها:

1 ـ الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله، ويُسمّى أحكام القرآن؛ 2 ـ الإبانة عن حقائق أصول الديانة؛ 3 ـ الناسخ والمنسوخ؛ 4 ـ رسائل وخطب مجموعة [المقري، نفح الطيب، 1/ 372؛ كحالة، معجم المؤلفين، 13/ 9؛ الزركلي، الأعلام، 7/ 294؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 300].

المصادر والمراجع

● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، 8/ 374؛ ● الخادمي، نور الدين مختار، الدليل عند الظاهرية، ط1، بيروت، لبنان 1421هـ/ 2000م، دار ابن حزم، 26؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين العَمْروي، بيروت، لبنان 1417هـ/ 1997م، دار الفكر، 12/ 299، 300، 302، 303؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة، سبتمبر 1992، دار العلم للملايين، 7/ 294؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، دار الآفاق الجديدة، 3/ 17؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، لبنان، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، 13/ 9؛ ● المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، لبنان 1388هـ/ 1968م، دار صادر، 1/ 372 ـ 374، 570 ـ 576.

د. نور الدين الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

البلوي، أبو البقاء خالد بن عيسى

(ت 780هـ/1387م)

أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، أديب وعالم من علماء الحديث ورحالة أندلسي من أهل بلدة قتورية حصن من أعمال مدينة المرية تقع على نهر المنصورة الذي يخترق شمال ولاية المرية.

نشأ البلوي في أسرة علم وفقه، توارث أفرادها مشيخة العلم والقضاء ببلدته وإلى أسرته تعود مشيخة علم القراءات وتسلسلت هذه المشيخة في سبعة أجداد. والده كان قاضيًا ببلدته قتورية، وخطيبًا بمسجدها مدّة أربعين سنة، وسوف يتولّى هو كذلك قضاءها وقضاء برشانة إحدى مدن شرق الأندلس [البلوي، تاج المفرق، ص 171].

أخذ العلم عن والده في بلدته قتورية، قرأ موطأ الإمام مالك ومبادئ اللغة العربية، وعنه حفظ القرآن الكريم. وعندما بلغ سنّ طلب العلم رحل إلى أمصار الأندلس العلميّة قرطبة، وغرناطة، ومالقة. ففي غرناطة أخذ عن محمد بن محمد بن عاصم القيسي، وبمالقة سمع من أبي عبد الله محمد بن أحمد الهاشمي.

ثمّ ارتحل إلى المغرب وأخذ عن علماء كل من سبتة، وفاس، وتلمسان، وتونس. في سبتة أخذ عن عبد الله محمد، وفي فارس تتلمذ على أبي عبد الرحمن الجزولي، وابنه عبد الله محمد الجزولي، والشيخ عبد العزيز القروي، وأبي العباس بن شعيب الجزنائي، وعبد المؤمن الجناتي.

أمّا تلمسان فلقد تتلمذ بها على يد أبي موسى بن الإمام، وقاضي الجماعة أبي علي منصور بن هدية القرشي، وأبي عمران موسى المشدالي، والقاضي عبد النور [التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 173 ـ 174].

حج ودوّن رحلته في كتاب وسمه بـ «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»، وأوّل خروجه كان في الثامن عشر من صفر سنة 736هـ/ 1336 ـ 1337م. إضافة إلى ذلك له برنامج رواياته وشيوخه لم يصلنا غير أنّه ضمّن رحلته جزءًا كبيرًا من أخبار من أخذ عنهم وتتلمذ على أيديهم عندما خرج حاجًا.

وله ديوان شعر ضمّن رحلته الكثير مما نظمه. ومما جاء في الرحلة ما أنشده عندما ودّع أهله خارجًا لبلاد المشرق حاجًا فقال:

ودّعتُ قلبي يوم ودّعتهم
وقلتُ يا قلبي عليكَ السلام

وقلت للنّوم انصرفْ راشدًا
فإنّ عيني بعدهم لا تنام

محرّم يا عيني أن ترقدي
وليس في العالم نوم حرام

ومما قاله كذلك واصفًا دموع الوداع:

موقف للفراق أرخصُ فيه
كلَّ در لنا وكلَّ عقيق
بجموع كوجدنا في اجتماع
والدموع كالشمل في التفريق

[تاج المفرق، ص 144]

إضافة إلى ذلك له مختارات من أشعار ممن أنشده من شعره أو من شعر غيره من الشعراء وتأليف في الحديث.

إنّ ثقافة البلوي غلب عليها الأدب مما جعل منه شاعرًا مجيدًا فحلاً يحسن قول الشعر وينافس بنظمه كبار الشعراء، إضافة إلى ذلك كان كثير الحفظ للشعر وهذه المواهب الأدبيّة هي التي أهلته لتولي خطّة الكتابة للسلطان الحفصي، أبي يحيى أبي بكر بن أبي زكرياء بن إسحاق سنة 740هـ/ 1339م، وهو في طريقه إلى الأندلس.

وتظهر براعة البلوي الأدبية واللغويّة في السجع الذي كتب به رحلته وانتقده لسان الدين بن الخطيب على أسلوبه هذا، ويرى أنّه أكثر من الأخذ من كلام العماد الأصفهاني [ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 500].
ومن القرائن على جمال أسلوبه، وصفه مدينة المرية عندما دخلها أثناء خروجه للحج: «حتى إذا بقي من الليل حد الوصية من المال قضينا على معزول السير بالاستعمال، وسرت أحمل أنفاس الصبا حقائب الوجد، وأتمتع من شميم عرار نجد، فما طلع من الغد وجه النهار، ولا بدا فيه حاجب الأسفار، إلّا وقد أشرفنا على المرية، تطلع إلينا أجياد قصابها وغرفاتها وتبتسم من ثغور حصاها عقيق، وهواها نسيم وماؤها رحيق، مغان لها عندي معان وأماكن فسكناها للنفوس سواكن» [تاج المفرق، ص 146].
تتميّز رحلة البلوي عن غيرها من الرحلات أنّه لم يكتف فيها بوصف المدن والبلدان التي مرّ بها أو نزل فيها بل هيّ عبارة عن برنامج لشيوخه الذين التقى بهم وأخذ عنهم وأجازوه.
ومن الذين أخذ عنهم في رحلته هذه، علماء بجاية؛ وأول من لقيه، حسب تعبيره، من أرباب المحابر، وركاب أعواد الكراسي والمنابر فاضل الأفاضل وكبير الأكابر الشيخ العالم المحدث أبو عبد الله محمد بن جعفر رحمه الله، فقصدت لقاءه والأخذ عنه وقدمته... سمعت عليه تصانيف كثيرة وأجازني وكتب لي بخطه وكان رحمه الله إماما في التحديث والنقل [تاج المفرق، ج 1، ص 154 ـ 155]. ولا يكتفي البلوي بذكر ما يوصف به كل عالم من أخلاق وفضل وعلم بل أسهب في سرد أخبارهم، والمكان الذي سمع فيه سواء أكان البيت أو المسجد.
أمّا عن سير رحلته فلقد خرج في سنة 737هـ/ 1336م ـ 1337م من مدينته فتورية ونزل بمرسي هنين ومنها عبر تلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط، مثل بجاية، وقسنطينة، وبوبة إلى تونس التي ركب منها سفينة واتجه إلى مدينة الإسكندريّة.
اتجهت السفينة أولاً إلى جزيرة قوصرة ومنها إلى مالطا وكريت، وقبرص ومنها إلى الإسكندرية، في أثناء ذلك يصف البلوي أهوال البحر التي كابدها مع الركاب وكادوا أن يفقدوا حياتهم، وعندما وصلت السفينة إلى ميناء الإسكندريّة ولاحت له منارتها أنشد شاكرًا الله على سلامته:

بُشراكُم لاح المنارُ الأسعدُ
ودنا على اليأس المرام إلّا بعد
وتنفس الكربُ الذي كنا به
في حالة البلوى نقومُ ونقعد
وافتر من إسكندريّة ثغرها
الوضاح فهو منظّم ومنضّد

[تاج المفرق، ج 1، ص 196]

لقد أبدى البلوي إعجابًا كبيرًا بمدينة الإسكندرية وصرح أنّه لم ير مدينة أحسن منها ولا أبدع، لسعة مسالكها وعلو مبانيها وجمالها وسموّها وجمال أزقتها، ووصفها قائلاً:

هي القصور البيضُ لا ما حدّثوا
عن آرم وغيرها من البنا
تخطف الأبصار من لالائها
والليل قد ألقى القناع الأدكنا

[تاج المفرق، ج 1، ص 198]

ومن الإسكندرية اتجه إلى القاهرة التي زار بها، الأهرامات ومسجد عمرو بن العاص وغيره من المساجد، وكذلك مشاهد آل البيت، ومن القاهرة إلى غزة وبيت المقدس فوصف المسجد والمقاصر التي لا نظير لها غرابة صنعة وجود إنشاء، والسواري المفضضة الملوّنة من ألوان شتّى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض ناصع، ومن البجريّة الحالكة الصافية ومن جبريّة المزعجة العجيبة البديعة، كلّها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب والتبر الخالص [تاج المفرق، ج 1، ص 247]. ومن بيت المقدس إلى المدينة المنوّرة التي ما إن دخلها حتّى أنشد ارتجالاً حوالي ثلاثين بيتًا منها:

الله أكبر حبذا إكباره
لاح الهدى وبدتْ لنا أنواره
لاحت معالمُ يثْرب وربوعها
مثوَى الرسول وداره وقراره

ثمّ بعد ذلك وصف الحرم النبوي والروضة الشريفة وصفًا دقيقًا ومفصلاً لأبوابه وسواريه وبلاطاته وزخارفه ودور الصحابة الذين حوله. إضافة إلى ذلك ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم ومنهم محمد بن أسعد بن علي اليافعي اليمني الشافعي المجاور في المدينتين المقدستين، مكة والمدينة. فيذكر مؤلفاته التي سمعها منه وأذن له بروايتها منها كتاب «الإرشاد والتطريز في فضل الله وتلاوة كتابه وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين».

ومن الشيوخ الذين أخذ عنهم كذلك، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن حمو بن خلف الخزرجي المصري لقيه بالروضة الشريفة وسمع منه الحديث وأجازه.

وعندما حلّ بمكّة تحدث عن المشاهد والأماكن التي زارها مثل مشهد حمزة وبدر وعندما حج وعاد استمرّ في وصف كلّ المدن التي مرّ بها في طريقه من الحجاز إلى بلاده الأندلس. فعندما نزل بالإسكندريّة سمع من علمائها وأخذ عنهم العلم كما جلس في بعض الأحيان للتدريس. وبعد مغادرته الإسكندريّة إلى تونس على متن سفينة، نزل مدينة الحمامات ومنها اتجه إلى تونس فنزل بمدرسة الشماعين، وكعادته لم يفوت فرصة الالتقاء بالعلماء.

ثمّ ترك البلوي تونس عام 740هـ/ 1339 ـ

1340م عائدًا إلى الأندلس، فمرّ بقسنطينة وكان نزوله بمنزل صاحبه الفقيه الكاتب والأديب أبي إسحق إبراهيم بن أبي عبد الله بن الحاج النميري الغرناطي، وأخذ كلّ واحد منهما عن الآخر، كما أنشده القصائد التي حفظها في المشرق. وكتب أبو إسحق ما أنشده بخطه على مبيضة رحلته تاج المفرق عندما اطّلع عليها [تاج المفرق، ج 2، ص 137].

وعندما نمى خبر وجوده إلى أميرها الحفصي أبي زيد بن السلطان أبي عبد الله محمد، الذي كان كاتبه هو صديقه أبو إسحق إبراهيم؛ وكان هو الذي أعلمه بوجوده، أمر بأن يجهز له بيتًا يقيم فيه، وظلّ مقربًا من هذا الأمير يحضر مجالسه ويخرج معه في مواكبه، منها خروجه معه أثناء الاحتفال بعيد الفطر الذي حلّ عليه وهو ضيفًا عليه، فقال واصفًا هذا الموكب: وما أنسى لا أنسى خروج هذا النجل السعيد إلى المصلى صبيحة ذلك العيد الذي كان وجهه في عيد، في موكب نبيل من وجوه عبيد، متنافس في فخورة الملابس محففين من أداة الفوارس، يحفونه حف النجوم بالقمر الأضحيان، وقد ركب بين يديه صنوف من العبيد، وألوف من أبطال الجنود، تضيق بهم الفجاج، وتزخر في بحر الحديد منهم الأمواج.

تعدّ رحلة البلوي مصدرًا من مصادر التاريخ والجغرافيا والأدب في ذات الوقت يجد كلّ فيها غايته، إلى جانب كونها برنامجًا للعلماء الذين التقاهم وأخذ عنهم وأجازوه في المغرب والمشرق.

المصادر والمراجع

● البلوي، أبو البقاء خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح. الحسن السائح، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربيّة ودولة الإمارات العربيّة المتحدة؛ ● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلاميّة، طرابلس ليبيا؛ ● التنبكتي، أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح. أبو يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، 2002؛ ● ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عنان، ط الشركة المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 1974؛ ● ابن فرحون، برهان الدين إبراهمي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة؛ ● المكناسي، أبو العباس أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973؛ ● التلمساني، أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت 1968.

د. بوبة مجاني
جامعة قسنطينة ـ الجزائر

البلوي، أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد

(866هـ/1462م - 938هـ/1532م)

أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن داود البلوي الوادي آشي، لغوي، أديب، شاعر. ينتسب إلى قبيلة بلي اليمنية، التي دخلت الأندلس أيام الفتح العربي الإسلامي. موطنه الأصلي، مدينة وادي آش (Guadix)، التي تقع إلى الشمال الشرقي من غرناطة (Granada) بالأندلس. وقد تربى في هذه المدينة، وتلقى تعليمه الأولي فيها. وكان مؤدبه في المكتب، ومعلمه للقرآن الكريم هو الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد بن يوسف بن سلمة. ثم درس على والده أبي الحسن علي بن أحمد البلوي في المسجد الأعظم بوادي آش، وختم عليه القرآن بأكثر من قراءة كما حفظ عليه أيضا بعض المصنفات، لا سيما كتاب التيسير، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، وكتاب الجمل في النحو، للإمام أبي القاسم الزجاجي، وغيرهما. وداوم على حضور مجالس والده العلمية في الفقه والنحو واللغة في وادي آش وفي غيرها من المدن الأندلسية التي تنقلا فيها، مثل غرناطة، والمرية (Almeria)، لذلك فقد أجازه والده، وأذن له في رواية جميع مروياته، قراءة، أو سماعا، أو إجازة، أو مناولة، أو غير ذلك، إذنا تاما مطلقا، على شروط التحديث عند أئمة الحديث [ثبت أبي جعفر البلوي، 182].

انتقل أبو جعفر أحمد البلوي مع والده وأسرته إلى غرناطة حاضرة المملكة النصرية، وتابع فيها طلبه للعلم، بجدّ واقتدار، وأكبّ على التعلم، لا سيما وأن عصره كان يزخر بالمعارف والعلوم: وبالأدباء والشعراء والعلماء والأطباء، وذلك على الرغم من أن الحقبة الأخيرة من حياة هذه المملكة كانت صعبة جدّا، سواء على صعيد الفتن الداخلية، أو على صعيد الخطر الإسباني الخارجي، الذي كان يتهدد البلاد، وينذر بسقوط المدن المحيطة بالعاصمة، الواحدة تلو الأخرى. وقد ساعد مركز والده العلمي الوظيفي على سرعة اندماجه، واتصاله بالعلماء، وكبار الفقهاء في المدينة، حيث تولى والده الإمامة والخطابه في المسجد الأعظم بغرناطة. كما أنيط به قضاء الجماعة، وهو أعلى منصب قضائي في المملكة. ويبدو من متابعة دراسته على شيوخه في غرناطة، وغيرها من المدن الأندلسية، أنه استقر مع والده وأسرته في هذه المدينة، لكنه مع ذلك، كان يتنقل في الوقت نفسه بين وادي آش، والمرية، قبل الهجرة النهائية من الأندلس إلى شمال أفريقيا، ومن ثم إلى المشرق.

كانت مدينة غرناطة مركزا مهما للنشاط العلمي، يفد إليها من الأندلس ذاتها، ومن المغرب للأخذ عن علمائها، والاستفادة منهم. وكان أول شيوخ أحمد البلوي فيها، هو العالم المشهور أبو الحسن علي بن

محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي المتوفى بمدينة باجة التونسية عام 891هـ/ 1486م.

وقد وصفه البلوي بأنه فرضي العصر وعدديّه، ذو التصانيف العديدة الكثيرة، وأخذ عنه «علمي العدد والفرائض تفقها وعملا» [ثبت البلوي، 104]. ويمكن أن نستنتج من عبارة البلوي الأخيرة أن أسلوب الدراسة كان يعتمد على العنصر النظري والعنصر التطبيقي. وذلك بتقديم النظريات وقواعد علمي الحساب والفرائض، فضلا عن حل مسائل هذين العلمين، لتحصل الملكة العلمية، وليتم التهيؤ لحل المشاكل الناجمة عن شؤون الحياة الاجتماعية.

ومن شيوخه في غرناطة أيضا أبو عبد الله محمد بن يوسف الموّاق المتوفى سنة 897هـ/ 1492م، صاحب كتاب «سنن المهتدين في مقامات الدين»، الذي استفاد منه أحمد البلوي بحكم إجازته في روايته عنه. وقد قرأ على شيخه أبي عبد الله محمد بن أحمد السلمي الجعدالة المتوفى سنة 897هـ/ 1492م، بالمسجد الأعظم في غرناطة وفي المدرسة النصرية كتبا في النحو، مثل «الجمل» للأستاذ أبي القاسم الزجاجي، وكتاب «الإيضاح» لأبي علي الفارسي؛ كما قرأ عليه أيضا بمجلسه في المسجد الأعظم للتدريس في المرية أكثر مقدمة «جمع الجوامع في الأصول» لابن السبكي، وبعض كتاب «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل» لابن رشد الجد، وهو في الفقه المالكي، قراءة تفهم وتفقه ومباحثة، وقرأ عليه كتبا أخرى في التفسير، وقد أجازه الشيخ المذكور بروايته لجميع ما قرأه عليه، وسائر ما تشمله روايته عن شيوخه الأعلام.

ومن جملة شيوخه الآخرين في غرناطة، أبو محمد عبد الله الجابري الزّبعجي، المتوفى سنة 897هـ/ 1492م، الذي قرأ عليه كتبا كثيرة، وأخذ عنه علم العروض، وانتفع به في النحو نفعا عظيما. كما درس علم القراءات، وجوّد القرآن الكريم على أبي سعيد فرج بن علي بن فرج المتوفى سنة 890هـ/ 1485م. وسمع الكثير من كتب الفقه على أبي عبد الله اللخمي المعروف بالفخار سنة 897هـ/ 1492م.

وقبيل مغادرته الأندلس، درس أبو جعفر البلوي في مدينة المنكب على محمد بن محمد بن أحمد الفهري المعروف بالقرعة، علوما كثيرة، لا سيما القراءات، وعلم الحديث، النبوي الشريف؛ فقرأ عليه بقصد الرواية عنه جميع الرباعيات (التي هي من شروط المحدث ولا يكتمل إلا بها) من كلام الإمام أبي عبد الله البخاري، وجميع الثلاثيات المستخرجة من صحيحه؛ كما قرأ عليه كتاب «خلاصة الباحثين في حصر حالات الوارثين» لمؤلفه القاضي عبد الله بن يحيى الأنصاري الأوسي، وهو كتاب في الفرائض. وقد أجاز الشيخ الفهري له أن يروي ويحدث عنه، وما يرويه عن شيوخه بقراءة أو سماع، أو مناولة، أو إجازة عامة. يبدو أن هذا الشيخ قد غادر هو الآخر إلى تلمسان، إما وحده أو رفقة آل البلوي، حيث اتصل به أحمد البلوي هناك، وأخذ عنه أيضا.

كانت مغادرة أبي جعفر البلوي وأسرته الأندلس من ميناء المنكب، في حدود شهر جمادى الثانية عام 894هـ/ مايو (أيار) 1490م، متوجهين إلى تلمسان، عاصمة بني

زيان، التي كانت مركزا من مراكز العلم والثقافة في المغرب. وقد اتصلوا بعلمائها، لا سيما أبي عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف المتوفى سنة 901هـ/ 1496م. فدرس عليه أحمد البلوي في مجالس علمه كتبا متعددة، منها «صحيح مسلم»، و«الترغيب والترهيب» للمنذري، و«مقدمة ابن الصلاح»، و«صحيح البخاري»، و«الشمائل المحمدية» للترمذي، ودراسات أخرى في التفسير، وكتب الفقه، وعلوم الحديث. وقد أجازه ابن مرزوق في رواية كل شيء عنه، وذلك في عام 895هـ/ 1490م. ودرس البلوي على علماء آخرين في تلمسان، منهم أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة 895هـ/ 1489م، وعبد الجبار بن أحمد بن موسى الفجيجي، وأحمد بن محمد بن زكري المغراوي التلمساني المتوفى سنة 899هـ/ 1493م، الذي درس عليه في المسجد الأعظم بتلمسان كتبا متعددة، في الفقه وأصوله، والحديث، والنحو، وعلم البيان والمعاني، وغير ذلك؛ وطلب منه الإجازة، فأجازه في أواخر عام 896هـ/ 1491م.

ولم تدم إقامة آل البلوي في تلمسان سوى نحو من سنتين وثلاثة أشهر؛ ولكنها، كانت كافية للتعرف على علمائها والأخذ عنهم. كذلك فقد أتيح لهم الاتصال بعلماء آخرين من أقصى المغرب، مثل الشيخ محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي نزيل فاس المتوفى عام 919هـ/ 1513م، من حيث كتب إليه أحمد البلوي يطلب إجازة لنفسه ولأخويه، كما طلب أبوه أيضا الإجازة لنفسه. وقد ردّ عليهم ابن غازي موافقا على منحهم الإجازة بتاريخ 18 رجب سنة 898هـ/ 28 مايو (أيار) 1491م. وبهذه المناسبة، فقد أطرى ابن غازي أحمد البلوي، وحلاّه قائلا: إنه تلقى كتابا من «الفقيه المتفنن المشارك الحجة الجامع المصنف الناثر الناظم البليغ الأمضى الأدرى الأكمل أبي جعفر أحمد بن علي بن داود البلوي...» [التعلل برسوم الإسناد، 455]. مما يدل على وصول شهرته العلمية إلى المغرب الأقصى.

ويبدو أن أحداث الأندلس، وسقوط غرناطة بيد الإسبان في 2 ربيع الأول سنة 897هـ/ 2 يناير (كانون الثاني) 1492م، قد جعلت آل البلوي، يضربون صفحا عن العودة إلى الأندلس، أو حتى البقاء في الشمال الأفريقي. فابتدؤوا بالبحث عن آفاق في المشرق. ولهذا فقد اتهمهم البعض بأنهم خرجوا أصلا من الأندلس خوفا من استيلاء الإسبان على غرناطة [المقري، أزهار الرياض، 1/ 71] في حين برر أحد الكتّاب المحدثين هجرتهم هذه على أنها لم تكن للفرار بدينهم، لأنهم كانوا علماء متشبثين بأهداب الدين، وأن رحلتهم من الأندلس باتجاه المشرق كانت تهدف إلى أداء فريضة الحج أولا، وإلى الاتصال بالعلماء ثانيا، في طريق الرحلة سعيا وراء السند العالي [عبد الله العمراني، مقدمة ثبت البلوي، 42 - 43]. والواقع أن الشطر الثاني من تحليل الأستاذ العمراني، هو الذي تحقق فعلا، فقد كانوا طيلة وقت الرحلة يتصلون بالعلماء، ويبحثون عن السند العالي والرواية. ولكننا نجد أن أسرة البلوي لم تأخذ طريق الحج، بل غادرت إلى وهران ومنها إلى مدينة تونس، التي نزلوها لبضعة أشهر فقط، ارتحلوا بعدها إلى القسطنطينية بطريق البحر، في شهر جمادى الثانية عام 898هـ/ أبريل (نيسان) 1493م.

ولعل اختيار القسطنطينية بالذات نهاية لرحلة آل البلوي، يرجع إلى جاذبية هذه المدينة، التي كانت في صعود مستمر، وقوة متزايدة. وكانت في تلك الحقبة تحكم من قبل السلطان بايزيد الثاني (886هـ/ 1482م - 918هـ/ 1512م) ابن محمد الفاتح، فأرادوا الاستعاضة بها عن بلدهم الأصلي (الأندلس) الذي تدهورت أوضاعه وسقط أخيرا بيد الأسبان. وقد استقر أحمد البلوي وأسرته في هذه المدينة، بعد وفاة والدهم في طريق الرحلة، الذي دفنوه في إحدى مدن آسيا الصغرى الواقعة على بحر إيجة. ويبدو أن إقامة أحمد البلوي في القسطنطينية كانت طويلة، لأنه حرر أحد كتبه في إحدى ضوابطها غلطة Galata، وهو شرحه للقصيدة المعروفة بعد ذلك، وهل أنه واصل رحلته إلى المشرق، وتوجه لأداء فريضة الحج، والاتصال ببقية علماء المشرق الإسلامي، لاسيما في الحجاز، أم أنه قضى بقية عمره في القسطنطينية، متفرغا للتأليف والبحث حتى وفاته سنة 938هـ/ 1532م.

آثاره

كان أحمد البلوي شخصية علمية ذات باع طويل في فنون العلم والمعرفة، له وزنه على الصعيد العلمي في الأندلس والمغرب والمشرق.

وأهم مؤلفاته على الإطلاق هو ثبته، الذي يحتوي على المعارف وعلوم جمة، وموضوعات عديدة، منها تراجم لشيوخه وأساتذته، وأسانيد هؤلاء الشيوخ في مختلف فنون المعرفة، كما يشير أيضا إلى حياته العلمية وتطوره الثقافي وحجم معارفه، فضلا عن أسماء الكتب التي كانت رائجة في عصره، وأنواع المعارف التي كانت تسود آنذاك، كالعلوم النقلية التي تتصل بالدين واللغة، والعلوم العقلية والطبيعية. وقد درس البلوي معظم هذه العلوم مع أساتذته، لاسيما العلوم الإنسانية منها التي تختص بأهمية بالغة في هذا الكتاب. وبالإضافة إلى هذا، فإن ثبت البلوي، يُعَدُّ من آخر الكتب التي وصلتنا عن الأيام الأخيرة من حياة الإسلام في الأندلس، حيث كتبت بعض فصوله في العقد الأخير من القرن التاسع الهجري / أواخر العقد التاسع وأوائل العاشر من القرن الخامس عشر للميلاد، وهو العقد الذي سقطت فيه غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس. وقد مزج البلوي في هذا الكتاب بين طريقتين للكتابة تعتمد إحداهما على الترسل، أو النثر المرسل الذي يناسب الكتابة العلمية، ثم طريقة السجع. وكان إنتاجه متنوعا بين النثر والشعر. وتبدو شاعريته في دراسته لبعض المقطوعات الشعرية والقصائد التي قيلت في أغراض مختلفة، وفي قصيدته التي وجهها إلى أحد أساتذته طالبا منه الإجازة [ثبت أبي جعفر البلوي، 431، والمقدمة، 58 - 59].

أما كتاب البلوي الثاني، فهو شرح لعروض الخزرجية، وهي قصيدة في العروض والقوافي، منظومة في البحر الطويل، وتعرف أيضا بالرامزة، للإمام ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن محمد المالكي الأندلسي. وقد أشار حاجي خليفة إلى شرح البلوي، ووصفه بأنه «شرح مبسوط صنفه الشارح بغلطة، وأوله الحمد لله الذي شرح منا لفك رموز أمته

صدور. . . وفرغ منه في ربيع الأول سنة 908هـ» [كشف الظنون، 2/ 1136]. وغلطة، كما أسلفنا، كانت إحدى ضواحي القسطنطينية. وهذا الشرح مازال مخطوطات في مكتبة الإسكوريال في إسبانيا، تحت رقم (الغزيري 332)، وهو مخطوط تنقصه البداية، بعنوان: كتاب بحر البسيط في العروض. وقد أشار ميخائيل الغزيري إلى أنه يمتاز من حيث سعة وكبر الحجم على سائر الشروح التي ظهرت من قبل.

ويشير القرافي [توشيح الديباج، 132]، إلى كتاب آخر لأحمد البلوي بعنوان: إيضاح المكنون، عرّف فيه بشيخه القلصادي. ويفهم من هذا كتاب في تراجم الشيوخ، ولعله هو ذاته كتاب الثبت الذي سلف الحديث عنه أعلاه، والذي ابتدأه بترجمة القلصادي.

كذلك يذكر حاجي خليفة كتابا آخر للبلوي باسم: فرائد الفوائد في فنون غير واحد [كشف الظنون، 2/ 1243]. ولا تتوفر لدينا معلومات عن ماهية هذا الكتاب أو مكان وجوده، وإن كان عنوانه يدل على أنه أيضا في معارف وفنون بعض العلماء والشيوخ الذين عاصروا البلوي.

المصادر والمراجع

● البلوي، ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، بيروت 1983، دار الغرب الإسلامي، (مقدمة التحقيق، ومواضع مختلفة من الكتاب)؛ ● أبو عبد الله المجاري، برنامج المجاري، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيروت 1982، دار الغرب الإسلامي (مقدمة التحقيق؛ 32، 40 ـ 41، 55 ـ 56، 69، 71 ـ 72؛ ● أبو الحسن القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس 1985، الشركة التونسية للتوزيع، 98 (مع مقدمة التحقيق، 25، 28، 37 ـ 38، 49، 67؛ ● بدر الدين القرافي، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق أحمد الشتيوي، بيروت 1983، دار الغرب الإسلامي، 54 ـ 55 الترجمة (19)؛ ● ابن غازي، التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والمناد، نشر عبد الله العمراني ملحقات منه مع ثبت أبي جعفر البلوي المذكور أعلاه (من ص 454 ـ 455، 473، ● أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بهامش الديباج المذهب لابن فرحون، طبعة عباس بن عبد السلام شقرون، مصر، الفحامين، 1351هـ، 90؛ ● ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، باعتناء، محمد بن أبي شنب، الجزائر 1908، المطبعة الثعلبية، 141، 143؛ ● ابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت دار الكتاب اللبناني، طبعة بالأوفست عن الطبعة السلفية 1349هـ، 273 الترجمة (1016)؛ ● المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق عبد السلام الهراس، وسعيد أحمد أعراب، المغرب، المحمدية، مطبعة فضالة، 1980، 1/ 71، 103، 3/ 37 ـ 38؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت 1992، دار الكتب

العلمية، 2/ 1136، 1243؛ ● كحالة معجم المؤلفين، دمشق 1957، مطبعة الترقي، 1/ 316؛

- Pons Boigues, Los Historiadores Y Geografos Arabigo-Españoles, Amsterdam, 1972, reprint of Madrid edition, 1898, p. 334;
- Derenbourg, Hartwig, Les Manuscrits Arabes de L'Escurial, Paris, 1884: 1/212, no. 334;
- Gasiri, Miguel, Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis, Madrid, 1960-1970; 1/82, no. 332

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

البلوي، أبو الحجاج يوسف بن محمد

(529هـ/1135م ـ 604هـ/1207م)

يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن غالب، أبو الحجاج البلويّ المالقي، يكنّى أبا الحجّاج ويعرف بابن الشيخ. ولد بمدينة مالقة الأندلسية، وبها تتلمذ على أفضل شيوخها في علوم الدين وعلم اللسان. ومن أهمّ ما نذكر منهم: أبو محمد القاسم بن دحمان، وأبو إسحاق بن قرقول، وأبو زيد السهيلي، وأبو زكريا الأصبهانيّ وغيرهم؛ خرج سنة 560هـ/ 1164م إلى الحج، وفي طريقه استقر مدّة زمنية بمدينة بجاية بالجزائر فأخذ عن أبي محمد عبد الحق الأزديّ الإشبيلي، وعزم عليه في تأليف كتاب الأحكام، وقد فاوضه في ذلك.

ولمّا عاد من رحلته أقام عنده أشهرا وأخذ عنه أحكامه وكان من ألمّ الناس بأخباره. وفي طريقه أيضا استقرّ زمنا بالإسكندرية، وأخذ عن أبي محمد الديباجي، وأبي العبّاس السرقسطي، وأبي ظاهر السلفيّ، وقد لزم هذا الأخير أكثر من غيره.

عاد إلى مالقة بعد أدائه مناسك الحجّ موفور الحظّ من علم اللغة والأدب، متقدما فيهما ببلده، مشاركا في تدريس الفقه واللغة، مائلا إلى التصوّف، معدودا في العلماء العاملين، مبادرا إلى كلّ عمل صالح، من ذلك أنه بنى ببلده خمسة وعشرين مسجدا من صميم ماله، وحفر ما يزيد على خمسين بئرا. وكلّما خرج ماء من أرض ركع فيها وتنقّل بما أمكن.

كان يؤذن بالباب الغربي القريب للقبلة من جامع مالقة وهو الباب الذي يعرف بباب الرحمة. ومن مطّرد أعماله أنّه بعد أن يؤمّ الناس في فريضة الصلاة يجلس ليقرئهم القرآن ويسمعهم الحديث.

يقال إنه شارك في عدّة فتوحات إسلامية أهمّها مع المنصور بالمغرب ومع صلاح

الدين بالشام. لكن المصادر التي أرّخت لحياته لم تذكر كيفية مشاركته ولا تاريخها. له شعر كثير متفرّق كان أولع الناس باللزوم فيه ما لا يلزم لما به من طبع رشيق وبداهة يسيرة فرقّ طبعه وتنوّعت أغراضه المستحدثة مع مراعاة أدبيات طاعة الله وورعه الشديد.

من أشهر من تتلمذ على يديه: أبو محمد القرطبي، وأبو علي الرندي، وأبو جعفر بن عبد المجيد الجيّار، وابناه أبو محمد عبد الله، وأبو محمد عبد الرحيم، وحفيده أبو محمد عبد العظيم بن أبي محمد عبد الله.

عرف البلوي خاصة بكتابه «ألف باء»، وكما يسميه بعضهم «ألف باء للألبّاء». ويروى أنه ألفه لابنه عبد الرحيم بخلاف ما كان يذهب إليه العلماء من التأليف لأهل السلطة والجاه. والأرجح أنه ألفه في آخر حياته. وهو كتاب جمع فيه صاحبه معارف متنوعة من لغة وفقه وحكايات وطرائف، والكتاب يمتّ إلى المعجم بصلة، ولكنه ليس معجما حقيقيا انطلق فيه من شرح قصيدة له التزم فيها بما لا يلزم، وقد تضمن كل فصل تفسير الألفاظ ومعلومات لغوية تتعلّق بمخارج الحروف واللحن... كما يتضمن فوائد متنوعة وحكايات طريفة... والغالب على هذا الكتاب أنه جمْع لما جاء عند الآخرين من العلماء فالبلوي يعترف بأنه أخذ عن غيره اذ يقول: «إنما أخذت من تآليفهم وتطفلت على تصانيفهم».

آثاره

1 ـ كتاب ألف باء، طبع في القاهرة سنة 1287هـ، المطبعة الوهبية، طبعة قديمة دون تحقيق ولا فهرسة، وصدر مصوّرا عن الطبعة الأولى في عالم الكتب ببيروت سنة 1980، يقع في مجلدين من 1441 صفحة، قسم الكتاب إلى أبواب: أوله باب الألف مع الباء (آب، أب، إب...)، وآخرها باب الألف مع الياء (آي، أي، إي...)؛ 2 ـ تكميل الأبيات وتتميم الحكايات مما اختصر للألباء في كتاب ألف باء. ويبدو من اسم هذا الكتاب أنه استكمال ما قد فاته في كتابه الأول (ألف باء)، وتوسع في شرحه. لا يعرف من هذا الكتاب إلا اسمه، لأن المصادر والفهارس التي بين أيدينا لم تشر إلى أماكن مخطوطاته.

المصادر والمراجع

● الزبيدي، محيي الدين، تاج العروس من جواهر القاموس، الطبعة الأولى المطبعة الخيرية المنشأ بجمالية مصر سنة 1306هـ، 1/ 3 ـ 4؛ ● ابن الزبير، أبو جعفر أحمد، صلة الصلة (وهو ذيل للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس) صحّحه وعلّق على حواشيه ليفي بروفانصال طبعة المطبعة الاقتصادية بالرباط سنة 1938، 217؛ ● المالقي، أبو بكر، أدباء مالقة المسمّى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار، تح. صلاح جرار، 1999م، ط1، دار البشير نعمان ومؤسسة بيروت؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية، عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، د.ت، 5/ 355 ـ 356؛

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط10، 1992، دار العلم للملايين، 8/ 248؛
● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط1، 1993، مؤسسة الرسالة، 4/ 180؛
● رضا عبد الجليل الطيّار، الدراسات اللغوية في الأندلس، العراق 1980.

د. ممدوح خسارة
جامعة دمشق ـ سوريا
د. عبد السلام العيساوي
جامعة تونس

البلوي، أبو الحسن علي بن أحمد بن داود

(836هـ/ 1432م ـ 898هـ/ 1493م)

أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن داود البلوي الوادي آشي، فقيه، لغوي، عالم بالقراءات، مهتم بالعلوم العقلية. ينتسب إلى قبيلة بلّي اليمنية، التي دخلت الأندلس أيام الفتح العربي الإسلامي. ولد في مدينة وادي آش (Gaudix)، في حدود عام 836هـ/ 1432م. وتقع هذه المدينة إلى الشمال الشرقي من غرناطة (Granada)، على السفح الجنوبي لجبال سيرانيفادا. وتلقى فيها تعليمه الأولي، وكان أول شيوخه فيها الإمام الخطيب المقرئ، أبو عبد الله المليري، الذي قرأ عليه القرآن العزيز بحرفيْ نافع، وابن كثير، وكذلك قرأ عليه كتاب الكافي في اللغة، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري، وألفية ابن مالك، كما سمع عليه بلفظ غيره كتبا أخرى كثيرة في اختصاصات متعددة. ومن شيوخه ببلده أيضا: الشيخ الخطيب، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مسعود بن كامل الأنصاري البرشاني المتوفى سنة 888هـ/ 1483م. وقد درس عليه ألفية ابن مالك، وكتبا عديدة في الفقه والنحو، مثل تهذيب البراذعي، وجواهر ابن شاس، وكتاب سيبويه، وجمل الزجاجي، وقوانين ابن الربيع. يضاف إلى ذلك أنه أخذ عنه مقالات أبي العباس أحمد الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء المتوفى سنة 721هـ/ 1321م، في علم العدد والحساب، الأمر الذي يشير إلى اهتماماته بالعلوم العقلية.

ونتيجة لدراساته المكثفة، وتعليمه العالي في هذه المدينة، فقد أصبح مؤهلا للتدريس والإقراء في مسجدها الأعظم، حيث اتخذ له حلقة في مؤخرة المسجد لهذا الغرض. يضاف إلى ذلك، أنه ولّي الإمامة والخطابة فيه أيضا. وقد درس عليه الكثير من طالبي العلم في هذه المدينة، ومنهم ابنه أحمد البلوي، وكان يدرّس مختلف العلوم الشرعية على مدار السنة، لكنه كان يركز في شهر رمضان المبارك على إقراء القرآن الكريم، وكتب الحديث، مثل صحيح مسلم، وشمائل أبي عيسى الترمذي.

ويبدو أن طموح أبي الحسن البلوي العلمي كان أكبر من الاقتصار على بقائه في مدينة وادي آش الصغيرة الهادئة، لهذا فقد انتقل في صفر عام 857هـ/ فبراير ـ مارس(شباط ـ آذار) 1453م، هو وأسرته إلى العاصمة غرناطة، مركز الدولة النصرية. وقد أثبت هناك جدارة علمية، أهلته لأن يتولى فيها وظائف دينية وقضائية مهمة، منها تولي الإمامة بمسجد غرناطة الأعظم، ثم أسند إليه منصب قضاء الجماعة في العاصمة، وهو أعلى وظيفة قضائية في المملكة. ولكنه استقال من هذا المنصب بعد نحو شهر من توليه [السخاوي، الضوء اللامع، 5/ 167]. ومن المرجح أن إحجامه عن الاستمرار في القضاء يعود بالدرجة الأولى إلى الخشية من مسؤولية هذا المنصب، التي قد توقع صاحبها في المحذور، رغم تحفظه الشديد. وقد اكتفى أبو الحسن في القيام بأعمال أخرى توفر له راحة الضمير، والخير الوفير على الآخرين، مثل الإقراء والتدريس والإمامة والخطابة [عبد الله العمراني، مقدمة ثبت البلوي، 27].

استقر أبو الحسن نحوا من اثني عشر عاما في غرناطة، لم يكتف خلالها بالإقراء والتدريس، بل دأب على طلب العلم، والأخذ عن شيوخ هذه المدينة البارزين. فكان من جملة الشيوخ الذين درس عليهم في غرناطة، العالم أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي الغرناطي المتوفى سنة 865هـ/ 1461م، والعالم الأصولي المنطقي المتخصص في العلوم العقلية والنقلية، أبو إسحاق إبراهيم بن فتوح العقلي، المدرس بالمدرسة النصرية، التي بناها السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر سنة 750هـ/ 1349م. وقد درس عليه بشكل خاص العلوم العقلية. ومن شيوخه في هذه المدينة أيضا، قاضي الجماعة أبو يحيى بن محمد بن أحمد الحسني التلمساني. وقد قرأ أبو الحسن على هؤلاء العلماء الكثير من الكتب الخاصة بالفقه، والتفسير، والحديث، والنحو، والمنطق، وتفقه بهم. وكان اعتماده بشكل خاص على أبي إسحاق إبراهيم العقلي، وعلى أبي عبد الله السرقسطي الذي تخرج على يديه، وكتب بإذنه على بعض الأسئلة الواردة عليه.

وبالإضافة إلى هؤلاء الشيوخ، فقد أشار أبو الحسن البلوي إلى عشرات آخرين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما نقل عنه ذلك ابنه أحمد بن علي البلوي [ثبت البلوي، 183 ـ 193]. وقد كتب له جماعة من علماء المشرق بالإجازة لرواية ما يحملونه عنهم وعن شيوخهم من مؤلفات. ومن هؤلاء الذين أجازوه على سبيل المثال لا الحصر: شيخ الإسلام أبو زرعة ولي الدين أحمد بن زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي الشافعي، والحافظ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، وقاضي قضاة شيراز شمس الدين محمد بن محمد بن محمد بن الجزري الدمشقي، والشيخ أبو عبد الله محمد المطري، من شيوخ الحرم الشريف، وقاضي مكة المشرفة عبد القادر بن أبي القسم بن أحمد المالكي المكي الأنصاري السعدي.

لقد كانت ظروف العصر الذي عاش فيه أبو الحسن البلوي صعبة جدا، لأن تلك الفترة تمثل الحقبة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة الإسلامية. وكانت المدن المحيطة بالعاصمة

تسقط الواحدة تلو الأخرى بيد الإسبان. لذلك نجد أن أسرة البلوي لم تستقر في مكان واحد لمدة طويلة. وقد أشار أبو جعفر أحمد البلوي في ثبته، إلى مجالس والده للإقراء والتدريس، شملت كلا من وادي آش وحضرة غرناطة والمرية (Almeria)، الأمر الذي يشير إلى استقراره أيضا في مدينة المرية لا بأس من الزمن. وربما كانت هذه هي المحطة الأخيرة التي استقر فيها قبل التوجه إلى مدينة المنكّب (Almunecar) برسم الجواز إلى عدوة المغرب. ولكننا لا نعرف شيئا عن تلك الإقامة، وعلى أي حال، واستنادا إلى ثبت البلوي، فإن هناك نحوا من 36 أو 37 سنة، بين مغادرة أبي الحسن البلوي وادي آش إلى غرناطة (صفر 857هـ/ فبراير - مارس 1453م)، وبين هجرته الأخيرة إلى عدوة المغرب في حدود سنة 894هـ/ 1489م. ونحن نعلم أنه بقي نحو اثنتي عشرة سنة في العاصمة، لذلك من المحتمل، أنه انتقل في الفترة المتبقية، بين مسقط رأسه في وادي آش، وبين المرية، وغرناطة. ويعود هذا التنقل المستمر وعدم الاستقرار إلى القلق النفسي على مصير البلاد، والخوف من سيطرة الاسبان على غرناطة، الأمر الذي أدى أبا الحسن البلوي إلى اتخاذ قرار الهجرة من الأندلس. ويؤيد كلام شهاب الدين أحمد بن محمد المقري هذا التوجه بقوله: «وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان... ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها، وأنه آخذها لا محالة قوضوا رحالهم عنها، فنزلوا بتلمسان المحروسة، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب...» [أزهار الرياض، 1/ 71].

وهناك من يرى أن مغادرة أبي الحسن وأسرته الأندلس لم تكن نهائية للفرار بدينهم، لأنهم كانوا علماء متشبثين بأهداب الدين، وأن رحلتهم صوب المشرق كانت لأداء فريضة الحج أولا، وإلى الاتصال بالعلماء ثانيا، قصد التواصل في الأخذ والعطاء، والسعي وراء السند العالي [عبد الله العمراني، مقدمة ثبت البلوي، 42 - 43]. وقد يكون هذا صحيحا ويؤيده طبيعة تنقل هذه الأسرة في الأندلس ذاتها قبل الهجرة النهائية. ولكن تسارع الأحداث فيما بعد ذلك، سقوط غرناطة بيد الملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا في 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير (كانون الثاني) 1492م، أي بعد نحو ثلاث سنوات من مغادرة أبي الحسن وأسرته، جعلتهم يضربون صفحا عن العودة إلى الأندلس، والاتجاه إلى آفاق أخرى في المشرق. فلقد استقروا في البداية في مدينة تلمسان، التي كانت عاصمة بني زيان، ومركز العلم والثقافة، لا سيما أن بعض سلاطينها اهتموا بهذا الأمر؛ من ذلك مثلا، السلطان أبو الحسن المريني، الذي شيّد القصور والمدارس والمساجد والزوايا والرباطات، مما بهر العقول، وخلّد له الذكر الحسن. وربما كان هذا هو السبب في اختيار أبي الحسن البلوي لهذه المدينة مقصدا لهجرته.

وقد اتصل البلوي فور وصوله إلى تلمسان بعلمائها، لا سيما محمد بن مرزوق الكفيف المتوفى سنة 901هـ/ 1405م، الذي درس عليه ابن أبي الحسن، أحمد البلوي، بعض

كتب الحديث. واستمر بقاء أسرة البلوي في تلمسان نحو سنتين وثلاثة أشهر (من رجب 894هـ/ يونيو ـ حزيران 1489م حتى شهر ذي القعدة 896هـ/ سبتمبر ـ أيلول 1491م)، ثم غادروا بعد ذلك إلى مدينة وهران، التي بقوا فيها نحو شهر واحد فقط. ومن ثم توجهوا إلى مدينة تونس، التي بقوا فيها لعدة أشهر، ارتحلوا بعدها قاصدين مدينة القسطنطينية بطرق البحر في أواخر شهر جمادى الثانية سنة 898هـ/ أبريل (نيسان) 1493م. وعلى أي حال، فإن المدة التي قضاها أبو الحسن وأسرته في المغرب العربي، كانت كافية لأن يتعرف عليهم علماء المنطقة، ويتبادلوا معهم المعارف والعلوم، وطلب الإجازات. وقد أشار أحد علماء المغاربة، وهو الشيخ محمد بن غازي العثماني المكناسي المتوفى سنة 919هـ/ 1513م، إلى وصول كتاب أبي الحسن البلوي، الذي يستجيز فيه أعلام مدينة فاس لنفسه وبنيه، ووصف البلوي بقوله: «الشيخ الفقيه العالم العلامة الأكمل... الأندلسي نزيل التلمسان»، ووافق على منحهم الإجازة [التعلل برسوم الإسناد: 458 ـ 459].

ومن المرجح أن توجه أبي الحسن البلوي وأسرته إلى القسطنطينية كان بسبب جاذبيتها في ذلك الوقت، لأنها تمثل عاصمة دولة إسلامية فتية، كان نجمها في صعود مستمر، وكان يحكمها آنذاك السلطان بايزيد الثاني ابن محمد الثاني فاتح القسطنطينية. وربما أراد البلوي الاستعاضة بها عن الإقامة في الأندلس، التي سقطت بيد الإسبان بعد أن غادرها إلى بلاد المغرب العربي. ولكن يبدو أن القدر لم يسمح لأبي الحسن برؤية القسطنطينية، أو الوصول إليها، فقد فاجأته المنية في طريق رحلته إليها من تونس، في الخامس من شهر رجب سنة 898هـ/ 22 أبريل (نيسان) 1493م. وقد اضطرت أسرته إلى النزول في ميناء ششمة التركي، الذي يقع على الشاطئ الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغرى، المواجه لجزيرة كيوس (Kios) في بحر إيجة. وتمت مراسيم دفنه بتلك البلدة يوم 10 رجب / 27 أبريل، ويدل تاريخ الدفن المتأخر، على أن الوفاة حدثت في عرض البحر، فرست السفينة في أقرب ميناء للقيام بعملية للقيام بعميلة الدفن، وبعدها واصلت أسرته الرحلة إلى القسطنطينية.

المصادر والمراجع

● البلوي، ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، بيروت 1983، دار الغرب الإسلامي، 176 ـ 195 (مع مقدمة التحقيق)؛ ● السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، 5/ 167، الترجمة (572)؛ ● أبو عبد الله المجاري، برنامج المجاري، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيروت 1982، دار الغرب الإسلامي، مقدمة التحقيق 32؛ ● بدر الدين القرافي، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق أحمد الشتوي، بيروت 1983، دار الغرب الإسلامي، 130، الترجمة (126)؛ ● ابن غازي، التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والمناد، نشر عبد الله العمراني ملحقات منه مع ثبت أبي جعفر البلوي المذكور أعلاه (من

ص 454، 458 ـ 459، 473؛ • أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج بهامش الديباج المذهب لابن فرحون، طبعة عباس بن عبد السلام بن شقرون، مصر 1351 هـ، الفحامين، 210؛ • المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق عبد السلام الهراس وأحمد أعراب، المغرب ـ المحمدية 1980، مطبعة فضالة، 1/ 71.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

البلوي السالمي، أبو عامر محمد بن أحمد الطرطوشي

(ت 559هـ/1164م)

الوزير الكاتب أبو عامر «أبو عمرو» محمد بن أحمد بن عامر «ابن عمر» البلوي: من أهل العلم بالتاريخ والأدب واللغة والحديث، والطبّ والفلك. يعرف بالسالمي لأنّ أصله من مدينة «سالم Medinacelli» فنسب إليها، وهي مدينة أنشأها القائد البربري سالم بن ورعمال، وتقع في الطريق بين مدريد وسرقسطة، على بعد 135 كم من العاصمة الإسبانية. وينسب البلوي إلى مدينة «طرطوشة Tortosa» لأنّه عاش فيها مدّة. وهي مدينة تقع على نهر إيبرو «آبره» على مقربة من البحر الأبيض المتوسط. وقد سقطت هذه المدينة بيد الاسبان في حياة أبي عامر سنة 543هـ/ 1148م.

اختلفت المصادر التي ترجمت له في اسمه ونسبه، وتشابهت لديهم الأسماء واضطربوا في أمره، فسمّاه ابن عميرة الضبي (ت 599هـ/ 1202م) في كتابه «بغية الملتمس» (ص 53، رقم 31) «محمد بن أحمد البلوي ثم السالمي» وترجم له ترجمة أخرى باسم: «محمد بن أحمد بن عامر السالمي» (ص 54، رقم 35) والترجمتان مختصرتان إحداهما تكمّل الأخرى، والناظر فيهما لا يشك أنّهما لشخص واحد بل لشخصين مختلفين تشابه اسماهما. وقد وقع في هذا الوهم آخرون كابن عبد الملك المراكشي والسيوطي.

ولم تسعفنا مصادر ترجمته بشيء عن تاريخ ولادته، ولا المدينة التي ولد بها، وإذا كان أصل سلفه من مدينة سالم وينسب إلى مدينة طرطوشة؛ وعده ابن الأبار من أهلها (2/ 26) فالراجح أنه ولد في هذه المدينة ـ أي بطرطوشه ـ؛ وبها نشأ وتعلّم. وطرطوشه مدينة من أمّهات مدن شرق الأندلس إذ تقع على نهر ابره، التي أمر خلفاء بني أمية في تعميرها وتحصينها، وقامت فيها العمارات الكثيرة من مساجد وجوامع ومرافق عامة أخرى، وبها دار لصناعة السفن بناها الخليفة

عبد الرحمن الناصر في سنة (333هـ/ 945م) كما ينسب إليها بناء مسجدها الجامع في سنة (345هـ/ 956م) وظلّت لقرون مركزًا لامعًا من مراكز الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، إلى آن سقطت بيد صاحب برشلونة والقوات الصليبية المتحالفة معه في 14 شعبان 543هـ/ 3 كانون الأول 1148م.

كان البلوي السالمي على قدر من المعرفة والعلم وعليه درس الابن وتعلّم، وعنه روى ما كان يحمله عن شيوخه من مرويات، ودرس على شيوخ مدينة طرطوشه وغيرها من مدن الأندلس فسمع من قاضيها أبي جعفر بن مسعد الفقه وغيره، ومن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان المعروف بابن الصفار بعض علوم العربية والأدب، فضلاً عن الحديث والفقه؛ وأخذ القراءات عن أبي محمد بن مؤمن، وروى عن أبي علي الصدفي، وأبي بكر العربي الحديث وغيره، وسمع من أبي العرب الصقلي الشاعر، وأبي محمد بن السيد البطليوسي وآخرين. انتقل السالمي من موطنه طرطوشه إلى مدينة مرسية، ولم يشر أحد إلى الاسباب التي دعته إلى مغادرة موطنه، وهل كان بعد سقوط مدينة طرطوشه بيد الاعداء سنة 543هـ/ 1148م أم قبله؟ وقد أهّلته معارفه في العلوم وثقافته الواسعة وشهرته في الأدب إلى الالتحاق بخدمة الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، وارتسم عنده في سلك الكتّاب، ثم ارتقى إلى مرتبة الوزارة. والأمير المذكور هو أحد المغامرين الذين استقلّوا في مناطق شرق الأندلس بعد ضعف سلطان المرابطين، ودخل في سبيل الحفاظ على مناطق نفوذه في معارك عنيفة مع الجيوش الموحديه، ولم يتورّع في أغلب الأحيان من التعاون مع الممالك الاسبانية الشمالية وبعض القوى الأوروبية. وبسبب هذا التعاون لقبه البابا بصاحب الذكر الحميد، وعرف أيضًا بالملك [ابن الأبار، الحلة السيراء، 2/ 232، قيام دولة الموحدين، ص119. حاشية رقم1؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة، ص109؛ مراجع الغناي، قيام دولة الموحدين، ص 119]، وقد شغل ابن مردنيش القوات الموحّدية لسنوات تعطّلت معها فاعليتها الجهادية ضد الأعداء التقليديين للأندلس، وظلّت توجّه له الضربات حتّى تمكّنت من سحق قواته في حملة سنة 566هـ/ 1170م، ومن ثم مات في السنة التالية. وآثر ابنه أبو القمر هلال الذي ولي الأمر من بعده موالاة الموحّدين والدخول في طاعتهم، بعد أن رأى بأنّ لا جدوى من العصيان والمقارعة.

في هذه البيئة الساخنة والمشحونة بالأحداث عاش السالمي في مرسيه، ومارس وظيفته في الكتابة في ديوان ابن مردنيش، وحمل أعباء تطلبت منه قدرًا كبيرًا من المناورة والحذر، خاصة وأنّ أكثر علماء العصر والعامة من أهل شرق الأندلس كانوا على شنان سياسة واتجهات ابن مردنيش.

ولا أحد يستطيع القول أنّ السالمي كان من السذاجة بحيث يفرط بعالميته ومبادئه التي ألمح إليها في مقدمة كتابه: «درر القلائد وغرر الفوائد» إرضاء لأمير أو سلطان، أو أنه كان على الحياد، بل إنّ انتقاله إلى إشبيلية ووفاته بها [الزركلي، 6/ 212] يعطي مؤشرًا على انفصاله عن ابن مردنيش ونبذ الخدمة لديه.

واضطراب ابن عميرة الضبي في ترجمته - وهو من سكنة مدينة مرسية، وأقدم من ترجم له - وإغفاله لسنة وفاته سند آخر لهذا الاتجاه والرأي. درس عليه بمرسيه أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن الفرس وروى عنه بعض مؤلفاته مناولة، وكتب بالاجازة لأبي القاسم محمد بن علي بن البراق الهمداني [ابن الأبار، التكملة، 2/ 27].

يعتبر أبو عامر من مؤرّخي الأندلس وخاصّة للفترة الانتقالية ما بين سقوط الدولة المرابطيّة وقيام الدولة الموحّدية. كما يدلّ ما بقي من عناوين كتبه على اهتمامه بتاريخ الأدب العربي عامّة والأندلس منه بصفة خاصّة. وكانت له من ثقافة عصره ما مكّنه من الكتابة في اللغة، والطبّ، وتعبير الرؤيا والحديث. وما وصلنا من نماذج شعرية ونثرية تنسب إليه تدلّ على أنّ له نصيبا في قرض الشعر [نماذج في النفح، 3/ 288؛ الذيل والتكلمة 6/ 8؛ المطرب، ص 79] وفي الكتابة الفنّية [نماذج في النفح، 1/ 186؛ الذيل والتكملة، 6/ 8]. أمّا مختاراته من شعر غيره فتبرز ذوقه الرفيع فيه ومعرفته بالجيّد منه [نماذج في النفح، ص 4/ 141، 286].

إنّ ثقافة أبي عامر الواسعة وقدرته على الكتابة لم تمنع المراكشي في «الذيل والتكملة» من نقده قائلا: «وقفت له في هذا الكتاب - يقصد درر القلائد - على أغلاط لغوية وأوهام نحويّة، وضروب من الخلل في الهجاء الخطّي، مصدر بعضها - في ما أرى - الغفلة، ولا جواب عن بعضها إلاّ الغفلة، والجري على المألوف من عبارة العوام [الذيل والتكملة، 6/ 9].

آثاره

1 - الأزهار في اختلاف الليل والنهار، في الفلك ترجيحا؛ 2 - الأسرار في التجارب والأخبار (تاريخ، أدب)؛ 3 - الاعتذار في القصص والأخبار على نهاية التقريب والاختصار (أدب، قصص وأخبار)؛ 4 - أنموذج العلوم، لم نتمكّن من معرفة محتواه؛ 5 - بستان الأنفس في نظم أعيان الأندلس إلى هذا التاريخ، أي عهد المؤلّف (أدب، مختارات)؛ 6 - بهجة وفرحة على غرار «كليلة ودمنة» (أدب، قصص)؛ 7 - تذكرة الأزمان وتبصرة الأذهان (تاريخ، أدب)؛ 8 - التشبيهات، لعلّه نفس الكتاب عدد 11؛ 9 - الجمان، لم نتمكّن من معرفة محتواه؛ 10 - حلية الكاتب وبغية الطالب في الأمثال السائرة والأشعار النادرة (أدب، مختارات)؛ 11 - حلية اللسان وبغية الإنسان في الأوصاف والتشبيهات والأشعار السائرات (أدب، مختارات)؛ 12 - درر القلائد وغرر الفوائد في أخبار الأندلس وأسرائها وطبقات علمائها وشعرائها، ذكر في مقدمة جلّ مؤلّفاته، وقد أورد صاحب الذيل والتكملة هذه المقدّمة (تاريخ، أدب)؛ 13 - سراج الإسلام ومنهاج السلام من مجرّد كلام النبي عليه السلام (حديث)؛ 14 - الشفاء في طبّ الأدواء، طبّ؛ 15 - طبقات الشعراء الأعلام في الجاهلية والإسلام إلى هذا التاريخ، أي عهد المؤلّف، وهو مرتّب على حروف الهجاء (تاريخ، أدب)؛ 16 - العبارة، مبوّب على خمسين بابًا، استحسنه المراكشي، (لغة، أدب)؛ 17 - عبرة العبر وعجائب القدر في ذكر الفتن الأندلسية والعدوية بعد فساد الدولة

المرابطيّة، وهو مختصر للكتاب عدد 18 (تاريخ)؛ 18 ـ الفتنة الكائنة على اللمتونيين بالأندلس سنة أربعين وما قبلها وما بعدها، بدأ فيه بأحداث سنة 539هـ/ 1144م إلى سنة 547هـ/ 1153م؛ 19 ـ المنتخب من لغات العرب، مرتّب على حروف الهجاء (لغة)؛ 20 ـ منهاج الكتاب، مبوّب على خمسة عشر بابا، ورتّبه على ثلاثة رسوم، فصل إلى من هو فوقك، وفصل إلى من هو مثلك، وفصل إلى من هو دونك، وضمّن كلّ فصل ثلاث رسائل عرض بها رسائل الصاحب بن عبّاد، استحسن هذا الكتاب المرّاكشي (الترسل، أدب الكاتب).

كلّ هذه المؤلّفات مفقودة باستثناء عدد 4 وعدد 12، ذكر صاحب «الأعلام» أنّهما مخطوطان، دون أن يذكر مكانهما.

المصادر والمراجع

● ابن الأبّار، التكملة، طبعة عزّت العطار الحسيني، 1956، سلسلة من تراث الأندلس عدد 5، 2/ 495، الترجمة عدد 1368؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، مشغ، ط.الألمانية، الجزء الأوّل، ص658، والملحق الأوّل ص914، ذكر نسب البلوي إلى طرطوشة بكيفيّتين، الأولى الطرطوشي، والثانية الطرسوسي؛ ● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، المختار من التراث العربي عدد 21، اختارها عبد الإله نبهان، ط.دمشق 1983، ص217، تعليق عدد 1، وص270، تعليق عدد 1؛ ● ابن دحية، المطرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط. مصر، 1955، ص 77 ـ 79؛ ● الزركلي، الأعلام، ط.بيروت 1980، ج5، ص318؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، ط2، دار الفكر، 1979، ج3، ص37، الترجمة عدد 60، ذكر أنّ جدّه اسمه عمر؛ ● كحالة، رضا، معجم المؤلّفين، ط1، 1900؛ ● المرّاكشي، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ط. بيروت، 1978، تح. إحسان عباس، السفر السادس، ص7، الترجمة عدد 7، وص16، الترجمة عدد 34، في الترجمة الثانية ذكر أنّ جدّه اسمه «عمر» وكنيته «أبو عمرو»؛ ● المقّري، نفح الطيّب، ط. بيروت، 1968، تح. إحسان عبّاس، ج1، ص126، 288، ج3، ص141، ج4، ص286؛

● F. Pons Boigues, Los Historia dores Y Geografas Arabigo-Españoles, 800-1450, Amesterdam, 1972, pp. 226-227;

● Brockelmann, G., I, 658. S.J, 914.

د. جمعة شيخة
جامعة تونس
د. ناطق صالح مطلوب
جامعة الموصل ـ العراق

البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد

(ق 4هـ/10م)

أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني البلوي ـ نسبة لقبيلة بلي كعلي ورضي ـ وهي فرع من فروع من قضاعة ينتهي نسبها إلى قحطان من أرض الحجاز، هاجر قسم كبير منهم إلى مصر في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتفرّقت بلي في أرضها ـ ولذا كان يقال: الحجازي المصري، مؤرّخ، وفقيه، وواعظ.

ولد أبو محمد البلوي في مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ونشأ في القاهرة في بيئة علمية، تلقى العلوم الدينية على علماء عصره، وأصبح عالمًا وفقيها وواعظًا، ومؤرّخا باعتراف معاصريه له بهذه الصفة، وبلغ مكانة عالية زمن الإخشيديين. وطعن فيه أهل السنة والشيعة بأنّه وضاع للأحاديث، ولعلّه نقل الأحاديث لتأييد دعوته، وقالوا انه إمامي وقالوا إسماعيلي. عرّفه النديم في الفهرست بأنه ممّن ألّف الكتب للإسماعيلية، فعرفنا أنه من أعلام الإسماعيلية أي الشيعية، ووصفه النديم بأنه كان واعظا فقيها عالمًا. وقد وضع تاريخا لم يسبق أحد إلى وضع مثله، وما صنف بعده أحد على طريقته، لأنه طبع تآليفه في قالب ابتدعه لنفسه، ألا وهو التعليم القصصي، فأورد لأحمد بن طولون، خلال حكمه مصر في القرن الثالث الهجري، قصصًا وقعت له، عرف بها نشأته وأدبه، وحكمه وإدارته، وعدله وظلمه، وشجاعته وأريحيته، ورحمته وقسوته، وكرمه وشرهه في جمع المال، وغرامه بالنظام، وبُعده عن الفوضى، ومرامه السياسية، ودخوله في مسائل الخلافة العباسية، لأنّه بايع ولي العهد، ولا يرى أن يعبث بحقوقه وهو خليفة.

قال البلوي في مقدمة كتابه إنه طلب منه أن يكتب في سيرة آل طولون كتابًا: «يكون أكبر شرحًا، وأكمل وصفًا» من كتاب أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (ت حوالي 330هـ)، وأن الطالب قال له في كتاب ابن الداية في السيرة الطولونية: «ما هكذا أرخ الناس الأخبار، ولا عليه نظم العلماء الآثار».

كتب البلوي هذا المصنف حوالي سنة 362هـ أي بعد زوال الدولة الطولونية 292هـ بستين سنة، والذي ضمنه وثائق كثيرة مهمّة، وقد كان صريحا فيه عند ذكر مساوىء أحمد ابن طولون، وأكثر الاعتذار عن أحمد بن طولون في كل ما صدر عنه من شدّة، وما استطاع في بعض الأخبار النابية عن حد العقل أن يذيلها برأيه فسارع في روايتها، لئلاّ يسأله سائل عن رأيه فيها. وأي مؤرّخ في القديم والحديث لم تضطرّه السياسة إلى استعمال التقية؟.

ويُعَدُّ البلوي في هذا الكتاب مؤرّخًا من

الطراز الأوّل، ولولا ظهور كتابه هذا لَنَسي التاريخُ اسمه ونسيت تآليفه.

وقد نقل البلوي بعض الحكايات، وقدرها تسعون قصة، منها خمسين قصّة عن ابن الداية في سيرة ابن طولون، وردت في كتابه «المكافأة»، ومنها أربعون قصة جاء بها من عنده على ما يظهر، وعبارة البلوي إذا وضعت إلى جانب كتابة ابن الداية لا تقل عنها فصاحة وجزالة. وإذا اعتاد البلوي عدم العُزْوَ إلى ابن الداية وإلى غيره، اختلط الكلامان على ما يخالف عُرف المؤرّخين المحدثين.

وضم البلوي إلى كتابه رسائل ووثائق عديدة لا أثر لها عند ابن الداية، ووردت في كتابه تفاصيل نشأة ابن طولون، وأخبار حروبه في الثغور، وأخبار ابنه العباس وغلامه لؤلؤ، وأخبار مرضه وخنعه الموفّق، على صورة أجمع وأبرع، ومنها ما خلا منه كتاب ابن الداية كأخبار مرضه، ووفاته، وجنازته، ووصيته، وثروته وغير ذلك.

وصدق البلوي فيما ادعاه من محاولته وضع تأليف مطوّل، وأوسع من كتاب ابن الداية، وساعده على الذهاب بهذا تأخره في العصر، وانتفاعه بكتب مَن تقدّمه، وزاد أنه تفوّق بتنسيقه وترتيبه، وامتاز ببسطه وشرحه.

وما كتبه أبو محمد البلوي في كتابه هذا من الفصول ظاهر لمن ينعم النظر، والقول بأنّهما ـ ابن الداية والبلوي ـ أخذا من مصدر واحد، وهو أضابير أحمد بن طولون وجذاذاته، لا يصحّ على الإطلاق، لأنّ الموضوعات التي كان يدوّنها أمين سرّ ابن طولون بأمر سيده ليست كلّها في موضع كتاب المكافأة، بل هي عبارة عن أوامر وأحاديث صدرت من لسانه أمام جلاسه ورعيته وقصاده وعماله، وأكثرها مما يدخل في موضوع الإدارة والحكم.

أما من حيث التأليف فإنه لولا تقدّم ابن الداية أبا محمد البلوي بتأليفه لما أتى كتابه آخذًا بحظ جزيل من الإقناع وسعة المادة، ولولا أنّ تاريخ البلوي كتب في عصر نجا المؤلّف فيه من ضرورة المصانعة، لما جاء أقرب إلى الثقة من كتاب ابن الداية. وتاريخ البلوي بما تعرّض له من الحوادث سد ثلمة في تاريخنا كانت عظيمة في التواريخ التي وصلت إلينا ممّا كتبه مؤرّخو العرب.

ويعد في حسنات هذا التاريخ أن البلوي يعرض في كتابه لتفاصيل كثيرة قد يتخطّاها معظم مؤرّخينا، ولا يأبهون لها والدارسون يغتبطون بالوقوف على أشباهها، لأنها تجلي أمامهم أشياء يُعنى أهل العصر بمثلها.

وبذلك نحكم بأننا لم نعهد رجلا من رجال السياسة الإسلامية كصاحب الدولة الطولونية أن تجلّت سيرته للأعين تجلّيًا لم يكتب لغيره، وما ذاك إلا أنّ أحمد بن طولون عظيم، كيفما دار المؤرّخ يجد ما يسجّله له وهو يكتب حياته، ولأنّ ابن الداية عظيم في المؤرّخين والكتّاب، كما أن أبا محمد البلوي عظيم في المؤرّخين والمؤلّفين.

يورد أبو محمد البلوي في تاريخه الحوادث المفصّلة، وقد يُحلّلها أحيانا، ويبدي رأيه ويظهر شعوره أحيانا، يروي الأخبار بأسانيدها على النحو الذي كان يعمد إليه الروّاة وأرباب السير في القرون الأولى وعادة مؤرّخي عصره.

والبلوي بليغ يحسن الوصف، ويؤثّر السلاسة ويكتب بلا تعمّل، وإذا اقتبس من عبارة مسجوعة في كتاب مطوّل لغيره طرح الأسجاع أوّلا، ثم أتى على المكرّرات حتّى يأتي تأليفه

نسقًا واحدًا، لا يبدو فرق كبير بين ما يكتبه ويكتبه غيره. وهو يترك السجع أكثر الأحيان ويستعمل الازدواج، وما اقتبسه من ابن الداية يورده في الغالب بعبارته، أو يورد على الأقل مقدمته ويزيد عليها شيئًا من عنده.

ويمكن القول بأن كتاب أبو محمد البلوي قد استوفى عامة شروط التأليف، وكفى أن البلاغة تتدفق من صفحاته لا نعثر في سبكها وترتيبها على عيب تتعلّق به، وللقوالب التي تصاغ بها الأفكار دخل عظيم في تأثير الكلام، وما كان لصوغ أبو محمد البلوي هذه الروعة في كتابه لو لم يكن صادرًا عن نفس رويت من معين الآداب وتمثلتها تمثلا ظاهرًا.

آثاره

1 ـ الأنوار أو الأبواب، ذكره النديم؛ 2 ـ المعرفة، ذكره النديم؛ 3 ـ الدين وفرائضه، ذكره النديم؛ 4 ـ رحلة الشافعي؛ وقيل إن البلوي طولها ونمقها؛ 5 ـ سيرة أحمد بن طولون (ت 270 هـ).

المصادر والمراجع

● البلوي، أبي محمد عبد الله، 1358هـ، سيرة أحمد بن طولون، تح. محمد كرد علي، المكتبة العربية، دمشق، ص3، 31؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، ج6، ص134؛ ● كرد علي، محمد، 1404هـ، كنوز الأجداد، دار الفكر، ص162؛ ● مجموعة باحثين، موسوعة العلوم الإسلامية، دار المستقبل، ج2، ص63؛ ● النديم، أبو الفرج، الفهرست، تح. رضا تجدّد، ص243.

د. محمد هشام النعسان

معهد التراث العلمي العربي

حلب ـ سوريا

البليدي، أبو عبد الله محمد بن محمد

(1096هـ/1685م ـ 1176هـ/1763م)

أبو عبد الله محمد بن محمد البليدي ـ بفتح الباء ـ الجزائري مولدا، فالمغربي، ثمّ الأندلسي، فالتونسي الشهير بالبليدي نسبة إلى بلدة مولده: مدينة «البليدة» بالقطر الجزائري من المغرب العربي. ولد سنة 1096 هـ/ 1685 م، وقد نبّه حسن حسني عبد الوهاب في كتابه «العمر» بتحقيق ومراجعة محمد العروسي المطوي إلى صحّة هذه النسبة ـ بفتح الباء ـ وقال: «الصواب ما قاله تيمور»، وذلك بعدما اطّلع على ما جاء في الخزانة التيمورية لتيمور باشا [3/ 39] من ورود نصّ للمرادي في سلك الدرر [6/ 105] رجّح فيه تيمور أن يكون المقصود هو صاحب الترجمة [الزركلي، الأعلام، [7/ 68].

نشأ المترجم له بمسقط رأسه حيث قضى معظم شبابه في بيت عزّ وعلم وعدالة وفضل وجلالة وثراء ضمن أسرة متديّنة، ثريّة، معتدّة بنفسها، طبعته بالتديّن والإصلاح وحبّ العمل والجدّ، ووجّهته نحو المعالي، وكان سائر أصوله من كبار العلماء والوجهاء فربّي مثلهم على الفضل والعلم والكمال الأخلاقي والعقيدة السنّية على المذهب المالكي، وقد عدّه محمد مخلوف في «شجرة النور الزكيّة» من الطبقة الرابعة والعشرين من فرع مصر.

جمع القرآن الكريم وتعلّم القراءات في وقت قصير واستوعب كلّ ما يدرس بالكتاتيب من مبادىء بعض العلوم الإسلامية كالفقه والعقيدة والتفسير وعلوم الحديث؛ ولما لم يجد المزيد تعلقت همّته بالسفر إلى حيث العلم والمعرفة والبيئة المترعة بالفكر والمفكرين، وتعدّدت رحلاته في طلب العلم؛ فسافر إلى المغرب والأندلس وانضمّ إلى حلقات أشهر علماء فاس وقرطبة في زمانه؛ ثمّ انتقل إلى تونس، وفيها انتسب إلى دروس أكابر علماء الزيتونة. وأخيرا استقرّ به المقام في الجامع الأزهر بالقاهرة حيث وافاه أجله المحتوم في 28 رمضان المعظّم لسنة 1176هـ/ 1763م، وقد صار شيخ الشيوخ وعمدة أهل التحقيق والرسوخ، المحدّث، المسند الرواية، المتفنّن في كثير من العلوم.

أخذ المترجم له عن أشهر أعلام عصره ببلده وحيثما حلّ بالعواصم التي قصدها طلبًا للعلم؛ ومن أشهر شيوخه: عبد الباقي الزرقاني، وأحمد النفزاوي، وإبراهيم الفيومي، وقد أجازوه للتدريس [محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، 339].

لمّا تمهّر البليدي ولزم الفقه والحديث بالمشهد الحسيني، راج أمره واشتهر ذكره وحَسُنَ اعتقاد الناس فيه وانكبوا على تقبيل يده. جلس إلى حلقات صاحب الترجمة وأخذ عنه جلة من الأيمّة الأعلام كالسعيدي، والدريدي، وعلي بن عبد الصادق، وقد طال عمره وامتدّت به سنوات التدريس، فألحق الأصاغر بالأكابر.

قال الأمير: هو شيخنا وشيخ مشائخنا وأفاضل العلماء، مفسر، حكيم، متكلّم، بياني، نحوي، فقيه، أصولي.

تفرغ الشيخ للتدريس والتأليف فأمضى ثلثي عمره في رواية الحديث والتأليف وكثرت شروحه لكتب مشائخه ومحشياته عليها. قال محمد مخلوف: «ولم يزل مقبلا على شأنه، مواظبا على إملاء الحديث من صحيحي مسلم والبخاري، وموطإ مالك والشفاء والشامل حتى توفي في رمضان 1176هـ» [محمد مخلوف، م. س، 339]. وقال الزركلي: «محمد بن محمد بن محمد الحسني التونسي المالكي المعروف بالبليدي ـ بفتح الباء ـ كما نبه إلى ذلك حسن حسني عبد الوهاب، عالم بالعروبة والتفسير والقراءات مغربي الأصل سكن القاهرة وتوفي فيها سنة 1176هـ/ 1763م» [خير الدين الزركلي، الأعلام، 7/ 68].

آثاره

1 ـ حاشية على أنوار التنزيل في تفسير القرآن للبيضاوي، مخ.، في ثلاثة مجلدات، ذكرها له إسماعيل باشا البغدادي في إيضاح المكنون باسم حاشية لمحمد بن محمد المغربي

المعروف بالبليدي المتوفي سنة 1176 هـ؛ 2 ـ حاشية على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني؛ 3 ـ رسالة في دلالة العامّ على بعض أفراده في النحو؛ 4 ـ نيل السعادات في علم المقولات، مخ، ذكره له البغدادي أيضًا في إيضاح المكنون، 2/ 697، وقال: نيل السعادات في علم المقولات للسيد محمد بن محمد المغربي البليدي ثمّ المصري المالكي المتوفى 1176 هـ، وأوّله: يا مَنْ هدانا النيل على السعادات في إتمام المقولات؛ 5 ـ حاشية على شرح الألفية للأشموني، في النحو، مطبوع؛ 6 ـ رسالة في المقولات العشر، مخطوطة ومهيّأة للنشر كما في «دعوة الحقّ» وفي الأعلام للزركلي؛ 7 ـ تكليل الدرر على خطبة المختصر، وهو في الفقه المالكي، مخطوط أيضًا، وقد ذكره كلّ من، [رضا كحّالة في معجم المؤلفين، 1/ 275، 9/ 120، والزركلي في الأعلام، 7/ 68]، والبغدادي في إيضاح المكنون قائلا: «تأليف محمد بن محمد الحسني المعروف بالبليدي نزيل مصر، المالكي المغربي، المتوفي سنة 1176هـ وأوّله: الحمد لله الذي هدانا لهذا... الخ» [البغدادي، إيضاح المكنون، 1/ 316]؛ 8 ـ الماء الزلال في إثبات الكرامات للأولياء بعد الانتقال، وقد ذكره له البغدادي أيضًا في إيضاح المكنون، 2/ 418، قائلا: «بنسبة للشريف محمد بن محمد البليدي المالكي نزيل مصر (ت 1176هـ)»، وأوّله: «الحمد لله ربّ العالمين...».

المصادر والمراجع

● كحّالة، رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنّى بمعيّة دار إحياء التراث العربي، بيروت د. ت؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، بيروت، لبنان 1349هـ، دار الكتاب العربي؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 9، بيروت 1990 م، دار العلم للملايين؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت 1404هـ/ 1984م، دار الغرب الإسلامي؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين، بيروت 1410 هـ/ 1990 م، دار الفكر.

د. حسن مزيو

جامعة الزيتونة ـ تونس

البلّيش، أبو محمّد عبد الله بن عبد اللطيف

(ت 1252هـ/1837م)

أبو محمد عبد الله بن عبد اللطيف البلّيش الصنهاجي القيرواني. ولد بمدينة القيروان من القطر التونسي بالمغرب العربي، ولئن لم تتعرّض كتب التراجم لتاريخ ولادته فقد اتفقت على أنّه توفي مُحْرِما في طريقه إلى الحجّ ثانية، وذلك ليلة يوم الثلاثاء الرابع

عشر من ذي الحجة الحرام سنة 1252هـ الموافق لشهر أفريل، نيسان 1837م. نشأ عبد الله البلّيش شغوفا بطلب العلم، فحفظ القرآن مبكّرا وبرع في علومه ثمّ تفقّه على كثير من علماء عصره، فأخذ عنهم علوم القرآن والفقه وأصوله، والتفسير والحديث والنحو وسائر علوم اللغة. ومن أشهرهم الشيخ أبو الفضل قاسم بولجفان، والشيخ محمد بن عبيد الغرياني، والشيخ حمّودة الوحيشي، وغيرهم من علماء القيروان؛ كما اجتمع في رحلته إلى الحجّ ببعض مشائخ مصر قصد الأخذ عنهم فعرفوا قدره من الكمال الذي عليه وأجازوه [محمد بن صالح عيسى الكناني، تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان من أولياء القيروان، 195].

ذكره الحربي - أحد تلاميذه من أهل القيروان أيضًا - فقال: «هو أحد مشائخي، وكان رحمه الله فقيها فاضلا، مدرّسا حافظًا، خيّرا ورعًا متقشفا زاهدا، عابدًا متقنا لتلاوة القرآن، متفنّنا في علومه، كثير التهجّد بالقرآن في الليل والناس نيام، وانتفع به خلق كثير. وكان يحفظ رسالة الشيخ الإمام الأعظم أبي محمد سيدي عبد الله بن أبي زيد القيرواني رضي الله عنه، كما له منظومات شعريّة في تاريخ العلماء الأفاضل، وفي غيرهم.

وبعد أن ارتوى المترجم له بالعلم ونضجت عنده القراءة والرواية، صارت إليه مشيخة العلم بالقيروان في عصره فتصدّر للتدريس وإقراء الناس قراءة أبي سعيد عثمان المصري المعروف بـ«ورش» عن نافع، ولرواية الحديث وتدريس الفقه وأصوله مركّزا على شرح الشيخ عبد الباقي على العزيّة، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، كما درّس التوحيد والنحو، وكان محبّا للتدريس شغوفا به فأخذ عنه خلق كثير أشهرهم أبو عبد الله محمد بوراس الهذلي الفقيه القاضي الذي رثاه بمرثيّة ضمّنها بعض أوصافه وأشار فيها إلى تاريخ وفاته، ومنها قوله:

قف بقبر فيه حبٌّ خاشع للّه صبُّ
عارف حَبر فقيه دأبُه درس وحزبُ
قائم في الليل يتلو ريقه في الليل عذبُ
صالح حجَّ لبيت أمَّها وفْدٌ وركْبُ
ربِّي فاجعَلْه رفيقاً للذي لبّساه ضبُّ
فعليه اللَّه صلَّى سرمداً ما انهل سحبُ
لك يا عبد الإله دائما فضل وقُرْبُ
جاء للصنهاجي نوْحٌ من نعيم الأنس خصبُ
هذه أنهار عدن اسكن أرخ لك شرب؟

وقد ذكره صاحب «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» فقال: «درّس وأفاد وكان عالما فاضلا مجوّدا للقرآن، رقيق القلب جاري الدمعة، عفيفا، سالكا نحو طريق الزهد. له نظم سمّاه «إيقاظ الغافل في تاريخ

الأفاضل» جمعه من معالم الإيمان، ولم يزل محمود السيرة إلى أن توفي في ذي الحجّة سنة 1252هـ» [أحمد بن أبي الضيّاف، إتحاف أهل الزمان، 8/ 25].

عاصر عبدُ الله البلَيش أقرانه بطبقته في حاضرة تونس وعقد مع بعضهم صلات علميّة، فاجتمع بالشيخ العارف العلامة ـ مَنْ ملأ بعلومه ومعارفه النواحي ـ أبي إسحاق سيدي إبراهيم الرياحي وطلب كلّ منهما الدعاء الصالح لصاحبه.

وترجم له محمد بن صالح عيسى الكناني في «تكميل الصلحاء والأعيان» بتحقيق وتعليق محمد العنّابي، فقال: «الشيخ أبو محمد عبد اللّه بن عبد اللطيف البليش الصنهاجي زاهد ناسك ومجتهد في الليل الحالك ومتّبع للسنة بأقوى المسالك، كان على الدوام لكتاب اللّه تاليًا وبمجاهدة النفس متواليًا، وأوقاته في التدريس بين الفقه والتوحيد، وله في النحو القدر المفيد، قرأت عليه الكفاية على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح الشيخ سيد عبد الباقي على العزيّة، وهو ممن تُرجى بركاته ومن خوف اللّه سبحانه تتوالى عبراته وتلتهب زفراته» [الكناني، التكميل، م.س، 197].

ولم يزل عبد اللّه بن عبد اللطيف البلَيش كذلك محمود السيرة ونافعا بعلمه إلى أن قصد البيت الحرام، ولمّا بلغ الميقات قبل يوم بنحو شهرين وأحرم بالحجّ توفي لحينه ـ رحمه اللّه ـ مسنّا مترقبا إكرامه من اللّه تعالى، وذلك بعد صلاة العشاء الأخيرة ليلة يوم الثلاثاء الرابع عشر من ذي الحجّة عام اثنين وخمسين و مائتين وألف للهجرة، وصلّى عليه إمام الجامع الأعظم الشيخ باش مفتي أبو عبد اللّه محمد صدّام اليمني بمصلّى باب سلم.

آثاره

ذكرت كتب الرجال لصاحب الترجمة شرحين في الفقه، هما: 1 ـ الكفاية على رسالة عبد اللّه بن أبي زيد القيرواني، مخ. في الفقه؛ 2 ـ حاشية على شرح العزيّة للشيخ سيّد عبد الباقي، مخ. أيضًا؛ 3 ـ له منظومات شعرية عنوان إحداها إيقاظ الغافل في تاريخ العلماء الأفاضل، جمعه من معالم الإيمان، مخ. 4 ـ وله منظومات أخرى في غير ذلك.

المصادر والمراجع

● محمد بن صالح عيسى الكناني القيرواني، تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان سلسلة: من تراثنا الإسلامي، عدد 6، تح. وتعليق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، 61 نهج جامع الزيتونة، تونس 1292هـ؛ ● ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر ماي 1989م؛ ● محمد بوذينة، مشاهير التونسيين، ط2، منقحة، تونس 1992، الحمامات.

د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

بليغ، إسماعيل

(1079هـ/1668م ـ 1142هـ/1729م)

ولد في بورصه وتلقى تحصيلا علميا جيدا حسب مقاييس تلك الفترة. وكان يعرف اللغتين العربية والفارسية معرفة جيدة. وعمل إماما في جامع منطجي قرابة الخمسين عاما. والمعروف أن كلاً من جده سيد محمد شاهين ووالده سيد إبراهيم قاما بهذه الوظيفة في الجامع نفسه. وإلى جانب وظيفته الدائمة هذه عمل بليغ كاتبا لمفتش محكمة أوقاف الحرمين الشريفين، كما عمل كاتبا في إمارة «حضرت أمير» و«الإمارة الخضراء». وشغلَ منصب «نائب الغلة»، وعمل كذلك في وظيفة المشيخة في الإمارتين المذكورتين. وفي عام 1702 عمل لفترة قصيرة من الزمن نائبا لمحكمة طوقاط. وباستثناء هذه الوظائف نلاحظ أن جميع خدماته كانت في بورصه.

هناك اختلاف كبير في تاريخ وفاة بليغ، بيد أنه يفهم من خلال البيت الذي كتبه سليمان خالص «طير علا جنته شاهين زادم» أنه ـ ومن خلال طريق حساب أبجد ـ توفي في عام 1142هـ/ 1729م، وتم دفنه في بورصه. ونجد أن هناك ثلاثة شعراء في الأدب التركي في القرن الثامن عشر باستثناء إسماعيل بليغ حملوا الاسم المستعار «بليغ». وبالتالي يكون مجموع الشعراء الذين حملوا هذا الاسم أربعة شعراء. غير أن سيد إسماعيل هو أول من استعمل لقب «بليغ»، ويمكن تمييزه عن الآخرين من خلال تذاكره وكذلك من خلال مؤلفاته التي تحمل شكل «وفيات نامه».

هناك إشارات في بعض المصادر تقول إن إسماعيل بليغ كان موسيقارا أيضاً. واكتسب شهرة كبيرة في مجال النثر بفضل المؤلفات التي كتبها في هذا الموضوع، وفي الوقت نفسه نال تقديرا في مجال الشعر. وبسبب أنه تلقى تعليما جيدا أصبح واقفا وقوفا ممتازا على قواعد شعر الديوان وتدقيقه. وكان إسماعيل بليغ يستعمل وزن العروض بشكل جيد جدا، لذا لم يستعمل في أشعاره العبارات الصعبة المتكلفة التي توجد عادة في نثره.

ضمّن بليغ أشعاره ومؤلفاته المنظومة الأخرى زخارف تتعلق بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتعابير مأخوذة من لغة عامة الناس وكذلك بعض الأمثال والمضامين المشتركة في آداب الديوان. وتوجد أشعاره التي كتبها باللغة التركية في مجموعات (مجلات) مختلفة. وعرف إسماعيل بليغ في تلك الفترة بصورة أكثر من خلال مؤلفاته الدينية والمحلية وبصفة خاصة مؤلفاته التي تتعلق بالتراجم.

آثاره

توجد لإسماعيل بليغ ثمانية مؤلفات معروفة. ومن هذه المؤلفات هناك ثلاثة لم تصل إلينا وهي «الديوان»، و«سبعة سيارة»، و«ينج

شايقان». ومن مؤلفاته التي عثر عليها اشتهر بليغ أكثر بـ «غولدسته بليغ» و«نخبة الآثار»: 1 ـ غولدسته رياض عرفان ووفيات دانشوران نادره دان (1139هـ/ 1726م)، يتكون هذا المؤلف الذي كتبه بليغ على شكل «وفيات نامه» من خمسة أقسام ويعتبر مصدرا قيما لتاريخ بورصه. وأعطى بليغ في هذا الكتاب معلومات تتعلق بالسلاطين العثمانيين والوزراء والشيوخ والعلماء والشعراء. ولم ينقل المعلومات التي كتبها نقلا صرفا من المصادر، بل صحح الأخطاء الموجودة فيها. ويوجد ذيل لهذا المؤلف كتبه شيخ أشرف زاده أحمد ضياء الدين بعنوان «كول زار عرفان». وتوجد منه مخطوطات مختلفة [مكتبة متحف سراي طوب قابي، قسم الخزينة، رقم 1281، 1282؛ مكتبة جامع استانبول، قسم المخطوطات التركية، رقم 2382، 6195؛ مكتبة السليمانية، قسم عاشر أفندي، رقم 264، قسم لاله إسماعيل، رقم 366؛ مكتبة بورصه العامة، رقم 122]. ونشر هذا المؤلف في عام 1302 من قبل رئيس المحكمة التجارية ببورصه محمد أشرف؛ 2 ـ نخبة الآثار لذيل زبدة الأشعار (1139هـ/ 1726م)، عبارة عن تذكرة شعراء وهو ذيل لمؤلف «زبدة الأشعار» لكف زاده فائزي. وتناول فائزي في هذا المؤلف الشعراء الذين نشأوا في الفترة من عام 1030هـ/ 1620م إلى عام 1139هـ/ 1726م. واحتوى هذا المؤلف على معلومات تتعلق بـ414 شاعرا، وهو يمثل مختصرا لترجمة هؤلاء الشعراء. وتضمن كذلك نماذج كثيرة من أشعارهم. وتوجد النسخة الوحيدة المعروفة من هذا الكتاب في مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات التركية، رقم 1182]. ونشرت هذه النسخة من قبل عبد الكريم عبد القادر أوغلى (أنقرة 1985)؛ 3 ـ كول سادبيرغ (1136هـ/ 1723م)، عبارة عن مؤلف عكس شخصية بليغ الدينية والشاعرية في الوقت نفسه. وهو يحتوي على مائة حديث تتعلق بالعبادات. وتم شرح كل حديث من هذه الأحاديث ببيت من الشّعر. ولا نملك معلومات فيما يختص بالأساس الذي اعتمد عليه بليغ في هذه الأحاديث الموجودة في مؤلفه. وتوجد من هذا المؤلف نسختان معروفتان [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 2206، المكتبة الشعبية بإسكلب، رقم 1217/ 5]؛ 4 ـ بير غور زيشت نامه فقير بعزيمة طوقاط (1114هـ/ 1702م)، عبارة عن مثنوية تتكون من 149 بيتا تحدث فيها عن المشاق التي واجهته أثناء سفره من بورصه إلى طوقاط، وتعيينه في وظيفة نائب محكمة طوقاط لفترة قصيرة من الزمن وعن المشاكل التي قابلته أثناء الفترة القصيرة التي قضاها في طوقاط، وتناول أيضا موضوع عزله من هذا المنصب. وتوجد النسخة الوحيدة المعروفة من هذا المؤلف في المكتبة الوطنية [قسم علي أميري، رقم 665]. وتم نشر قسم من هذا الكتاب من قبل س. نزهت إرغون، ثم نشر في فترة لاحقة كاملا من قبل عبد الكريم عبد القادر [Türk Kültürü Arastirmalari I. Kafesoglu Hatirasina Armagan, XXII/1-2, Ankara 1985, p. 75-91]؛ 5 ـ شه رنغيزي بورصه (عايينه هُبان)، فرغ من تأليف هذا الكتاب في عام 1119هـ/ 1707م. واختار فيه بليغ عشرين من مواطن الجمال الموجودة في

بورصه، وصور كل واحد منها في ثمانية من الأبيات. ويبلغ العدد الكامل لأبيات هذه المنظومة 269 بيتا. وتوجد النسختان المعروفتان من هذا المؤلف في مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات التركية، رقم 1653، 9845]. ويفهم من بعض الأبيات الموجودة فيه [شه رنغيز، ورق 3 أ ـ ب، 9 ب] أن بليغ كتب مؤلفا في الموضوع نفسه في فترة سابقة، غير أننا لم نعثر على نسخة هذا المؤلف.

المصادر والمراجع

- صفائي، تذكرة الشعراء، مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 9583، ورق 17ب ـ 18ب؛ • سالم، تذكرة سالم، استانبول 1315، 174 ـ 173؛ • فاتن، تذكرة خاتمة الأشعار، استانبول 1271، 27؛ • أوغلي، عبد الكريم عبد القادر، إسماعيل بليغ البورصوي، أنقره 1985؛
- Agah Sirri Levend, Türk Edebiyati Tarihi, Sayfa 408; • Agah Sirri Levend, Türk Edebiyatinda sehr engizler ve sehr-engizlerde Istanbul, Istanbul 1958, sayfa 56,58;
- Abdülkerim Abdülkadiroglu, «Folklörün bilinmeyen bir kaynagi Vefeyatnameler ve Bursa Vefeyatnamesinde Bulunan Folklörle ilgili Unsurlar», Milletlerarasi Türk Folklörü ve Halk Edebiyatinda Yeni Görüsler, Ankara 1985, I. 125-137;
- Abdülkerim Abdülkadiroglu, «Bursali Ismail Belig'in Sergüzestname'sinde Tokat ve Nuhbet'l-Asardaki Tokatli Sairler», Türk Tarihinde ve Kültüründe Tokat Sempozyumu, 2-6 Temmuz 1986, Ankara 1987, p. 535-547;
- Fevziye Abdullah Tansel, «Belig», Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1940-1980, II, p. 489-491;
- Fahir Iz, «Beligh», The Encyclopaedia of Islam (new edition), I, 1165;
- Nuri Akbayar, «Belig, Ismail» Türk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, I, 390;
- Cemal Kurnaz, «Ismail Belig ve Nuhbetü'l-Asari», Divan Edebiyati Yazilari, Ankara 1997, p. 387-401;
- Mustafa Cipan, «Belig, Ismail,» Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, V, 415-416.

د. سليمان نجاتي آق جشمه
جامعة اسطنبول ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي
تونس

ابن بلّيمة، أبو علي الحسن بن خلف بن عبد الله

(427هـ/ 1036م - 514هـ/ 1120م)

هو الحسن بن خلف بن عبد الله بن بَلّيمة (بفتح الباء الموحّدة في أوّله وتشديد اللاّم المكسورة وسكون الياء بعدها ميم مفتوحة وهاء) القيرواني، المالكي، أبو عليّ، نزيل الإسكندريّة، العالم بالقراءات.

وُلد بالقيروان سنة427هـ/ 1036م، درس علم القراءات على شيوخ كثيرين منهم أبو بكر عتيق القصري، إمام جامع القيروان (ت 447هـ/ 1055م) [ر. ترجمته في الدّباغ، معالم الإيمان، 3/ 180]، وأبو عثمان بن بلال الزّاهد [ر. ترجمته في ابن الجزري، غاية النهاية، 1/ 501]، وأبو علي حسن الجلّولي [ر. ترجمته في الدباغ، 3/ 186]، وعبد الملك بن داود القسطلاّني [ر. ترجمته في ابن الجزري 1/ 468]، وأحمد الحجري [ر. ترجمته في ابن الجزري، 1/ 153] وأبو العالية البندوني [ر. ترجمته في ابن الجزري، 1/ 617]، وقرأ غيرهم.

رحل إلى مكّة المكرّمة، فقرأ على أبي معشر عبد الكريم بن عبد الصّمد بن محمد الطبري الشافعي (ت 478/ 1076)، وفي مصر قرأ على محمّد بن أحمد القزويني، وعلى عبد الباقي بن فارس، وعلى أحمد بن نفيس برواية ورش من طريق الأزرق، ورواية الدّوري عن اليزيدي.

وقرأ عليه أبو العبّاس أحمد بن الحطيئة وعبد الرّحمان بن خلف بن عطيّة، وأبو الحسن بن عظيمة، ويحيى بن سعيد القرطبي، ومحمّد بن عبد الرحمان الإشبيلي، وأخذ عنه غيرهم.

وقد استقرّ بالإسكندريّة بمصر، وتوفّي بها في الثالث عشر من رجب سنة 514هـ/ 1120م.

برز في علم القراءات رواية ودراية، وقد تجلّى ذلك في كتابه: «تخليص العبارات بلطيف الإشارات» الذي ذكره المحقّق ابن الجزري ضمن مصادر مرويّاته، وذكر الشّيوخ الذين قرأ عليهم هذا الكتاب وخاصة منهم مشايخ الإقراء بدمشق أبو المعالي محمد بن علي الشافعي [ر. ابن الجزري، طيبة النشر، 1/ 71؛ وغاية النهاية، 1/ 211، والنشر في القراءات العشر، 1/ 72].

عاش بالقيروان وذلك في عهد الدّولة الصنهاجيّة، التي جعلت من إفريقيّة قطرا ينافس الأندلس في النهضة العلميّة والأدبيّة والاقتصاديّة والعمرانيّة.

فقد شجّع المعز بن باديس وابنه تميم العلماء والأدباء، وأنشآ المدارس والجسور والطرقات ومآوي العجّز بحيث أصبحت إفريقيّة قبلة يفد إليها طلاب العلم من المشرق والمغرب، فكثر المتعلّمون والعلماء ونفقت سوق العلم والمعرفة حتى جاءت النكبة الهلاليّة سنة 449هـ/ 1057م، حين سرّح المستنصر بالله الفاطمي، حاكم مصر أعراب الصعيد على إفريقيّة انتقاما من المعزّ بن

باديس الذي خلع طاعته للفاطميين ونبذ مذهبهم الشّيعي، وحمل النّاس في إفريقيّة على مذهب مالك بن أنس [ر.ح.ح.عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، 104 ـ 105]. فهاجر كثير من العلماء إلى المشرق وإلى الأندلس، وخرّبت القيروان وطمست معالمها الثقافيّة والعلميّة. ويظهر أنّ ابن بلّيمة قد خرج من القيروان مع من خرج وقصد مكّة المكّرمة، فحطّ الرحال بها، وأخذ عن علمائها القراءات التي برز فيها، ثمّ غادرها ليستقر به المقام في الإسكندريّة بمصر يدرّس بها القراءات إلى أن توفّي بها سنة 514هـ/ 1120م.

آثاره

ألف كتابا واحدا كانت له أهميّة جليلة في علم القراءات، حيث كان من مصادر المحقّق محمد بن الجزري في طيبة النّشر [1/ 71]، وقد بيّن هذا الأخير مواطن الخلاف بين ابن بلّيمة، من جهة، والإمام الشاطبي وأبي عمرو الداني في كتابه التيسير، من جهة أخرى، وهما من أشهر أئمّة القراءات.

عنوان كتاب ابن بلّيمة «تلخيص العبارات بلطيف الإشارات»: وهو كتاب في القراءات السبع ألّفه مختصرا «ليقرب فهمه على مريده، وليسهل حفظه على مستفيده»، وقد قام بتحقيقه سبيع حمزة حاكمي، وذلك تحت عنوان: تلخيص العبارات بلطيف الإشارات في القراءات السبع، للإمام أبي علي الحسن بن بلّيمة، طبعة أولى 1409هـ/ 1988م، عن دار القبلة للثقافة الإسلاميّة، جدّة ومؤسسة علوم القرآن. ويقع الكتاب في 181 صفحة، مع دراسة قصيرة في أوّله عن ترجمة المؤلّف وتراجم القرّاء السبعة ورواتهم.

المصادر والمراجع

● إسماعيل البغدادي، هديّة العارفين، اسـتـنـبـول، ط. 1951، و 1955، 1/ 278؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون جزءان، وكالة المعارف الجليلة، 1360 ـ 62/ 1941 ـ 1942، 1/ 479؛ ● حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، تونس، 1990، 1/ 148؛ ● محمد بن الجزري، غاية النهاية، القاهرة 1351/ 1932 ج 1/ 211؛ ● محمد بن أحمد الذهبي، معرفة القرّاء الكبار، تح. بشار عواد معروف، القاهرة، 1984، 380 ـ 381؛ ● محمد بن أحمد الذهبي، تذكرة الحفّاظ، حيدر أباد، 1333/ 1334، 4 ج، 4/ 1254؛ ● محمد بن أحمد الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، لبنان 1412/ 1991، 1/ 211؛ ● جلال الدين السيّوطي، حسن المحاضرة، تح. أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1387/ 1968، 1/ 494 ـ 495؛ ● عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب، بيروت 1979، 8 أجزاء، 1/ 167 ـ 168؛ ● رضا كحّالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1379/ 1960، 15 ج، 3/ 222؛ ● محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيّين، بيروت 1981، ط 1، 5 أجزاء.

عبد الرزاق بسرور
وزارة التربية ـ تونس

بليهد، محمد بن عبد الله بن عثمان

(1310هـ/1892م - 1377هـ/1957م)

الشيخ محمد بن عبد الله بن عثمان بن سعود بن محمد بن بليهد، ولد في عام 1892 [صحيح الأخبار، ط 2]. وكانت قريته فإقليمها (غسلة) المهد الذي تقلب فيه، قضى أجمل أيام العمر في كنف أسرته التي تنتمي إلى بني خالد وتعرف برجالها الذين اشتهروا بالعلم والرياسة والتجارة؛ أما صاحبنا فقد التقت فيه التجارة والعلم والأدب فكان بهذا يمثل القمة في أسرته.

نشأ ابن بليهد محاطا بعناية أسرته، ولعل أباه. الذي كان أميرا للبلدة. كان يتوسم فيه ما يتوسم السادة في النجباء من أبنائهم، فعني به وأدناه من مجلسه ليسمع ما يدور في المجالس من حكايات وأحاديث عن الشجاعة والبطولات وما تستتبعه تلك الأحاديث من طرف ونوادر ورواية للأشعار.

وتلك هي المدرسة التي كان يتثقف فيها أبناء نجد في ذلك الزمان، وحين بلغ السادسة من العمر ألحقه أبوه بمدرسة القرية التي كان قصارى ما تطمح إليه تعليم القراءة والكتابة وشيئا من الحساب وقواعد الخط والإملاء.

أما غاية ما تصبو إليه - وهو عظيم - فقراءة القرآن وحفظه، أو شيء منه، أما ضرورات العبادات والعقيدة، فإن الصبي ينشأ عليها في البيت بين والديه وأسرته، وتطبق في البيوت بلا هوادة ولا لين. وكان محمد بن بليهد متوقد الذهن، حاد الذكاء، قوي الذاكرة، سريع الاستيعاب. وكانت مجالس العلماء أحب المجالس إليه [صحيح الأخبار، ط 2، 1972، 4].

ولقد اتصل ابن بليهد في أول حياته بستة من العلماء، أعجب بهم وجلس إليهم وسمع منهم، وهم: عبد الرحمان بن عودان، وأحمد بن عيسى، وإبراهيم بن عيسى، وعالم رابع جلس ابن بليهد إليه كثيرا، وصحبه في بعض أسفاره وسجل بعض ذكرياته معه في حياته، ثم بكاه بعد مماته وهو عبد الله بن سليمان البليهد. أما العالمان اللذان جلس إليهما وأخذ عنهما علم النحو والصرف والعروض فهما الشيخ ناصر بن سعود الملقب شويقي من علماء شقراء [الشيخ أحمد، إملاء منه على كاتبه بمنزله بالقاهرة، 30 جمادى الأولى 1397هـ/ 17 - 6 - 1976، ص 6]، والثاني هو الشيخ عبد الله بن عمار. وكان إقباله على كتب اللغة والأدب والتاريخ أكثر، وإعجابه بها أكبر.

انضم إلى جيش الملك عبد العزيز آل سعود سنة 1911م مقاتلا حينا ومزودا للجيش بالأقوات والسلاح حينا آخر. وفي عام 1920 م، أوكل إليه الملك عبد العزيز جباية الزكاة من خيبر، ثم من قبائل هيثم. وفي عام 1927م عينه مديرا لمالية الطائف وما حولها، ثم استعفى من ذلك عام 1351 هـ. وعاد إلى الاتجار والكتابة في الصحف والتأليف مع

استمرار صلته بالملك عبد العزيز وأبنائه؛ وكان جليسا محببا لدى الملك فيصل، إذ اجتمعت فيه صفات النديم، فهو حلو الحديث، حاضر البديهة، مليح النكتة، راوية للأخبار والأشعار، عالم بالأنساب، خبير بالأماكن والبقاع. ثم بعد ذلك كله هو شاعر ينظم بالفصحى والعامية.

توفي بلبنان عام 1377هـ / 1957م بعد مرض طويل فرثاه كثيرون، مثل الغضراوي وابن خميس.

آثاره

1 ـ صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، يقع في خمسة أجزاء. أوقف الأول والثاني منها على الأماكن والبقاع في الشعر العربي القديم موليا الجاهلي منه جل اهتمامه. كما احتويا على بعض المعارف الأدبية والجغرافية، والشعر العامي وصلته بالشعر الفصيح، كما تحدث عن طريق الحج من مكة المكرمة إلى الكويت، وحدد فيهما موقع سوق عكاظ. وفي الجزء الثالث والرابع والخامس أورد ما استدركه على ياقوت الحموي والبكري في معجميهما، وختم هذا الكتاب ببعض مذكراته؛ 2 ـ ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبقاعه، وهو كتاب أملاه ابن بليهد على ابنه عبد الله في عام 1954م. وتدور مادة هذا الكتاب حول الأماكن والبقاع التي اشتركت أسماؤها في مادة واحدة واختلفت أماكنها؛ 3 ـ تحقيق صفة جزيرة العرب للهمذاني، يعد هذا الكتاب أصح كتب معاجم البلدان التي تحدثت عن جزيرة العرب، وتتلخص طريقة ابن بليهد في تحقيقه أنه يحدد المكان تحديدا واضحا، إذ لم يكن حدد من قبل أو يزيد تحديده وضوحا إن كان قد ورد له تحديد ناقص أو غير واضح، ويصوب الخطأ الذي قد يقع فيه المؤلف وإذا كان المكان باقيا على اسمه ذلك، وإن كان قد تغير أو نسي فإنه لا يغفل عن الإشارة إلى هذا، ويستدل على صحة ذلك بأمرين: الأول مشاهدته، والثاني النقل عن أرباب المعاجم؛ 4 ـ ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام، ديوان شعر جلّه مدح للملوك الثلاثة: عبد العزيز وسعود وفيصل؛ وقد جاءت قصائده إلا أربعا وليدة الأحداث السياسية والتغييرات والأوضاع الاجتماعية أما القصائد الأربع فقد نظمها في مصر.

المصادر والمراجع

● ديوان الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد، ابتسامات الأيام في انتصارات الامام، مراجعة وتصحيح وتعليق وتوثيق وتكملة محمد بن سعد بن حسين، مطبعة الفرزدق التجارية، ط 1؛ ● الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد، بقايا الابتسامات من الشعر العامي، مراجعة وتوثيق وتكملة محمد بن سعد بن حسين، مطبعة الفرزدق التجارية؛ ● الشيخ أحمد، إملاء منه على كاتب في منزله بالقاهرة، 30 جمادى الآخر عام 1397هـ/ 17 ـ 6 ـ 1967 م؛ ● الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، الطبعة الثالثة عام 1418 هـ؛ ● صفة جزيرة العرب لأبي محمد الحسن الهمذاني، الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد، تصحيح وتقديم

محمد بن سعد بن حسين؛ ● ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبقاعه، للشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد، تح محمد بن سعد بن حسين - ط 3؛ ● الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد وآثاره الأدبية، محمد بن سعد بن حسين.

د. محمد بن سعد محمد آل حسين
كلية اللغة العربية بالرياض - السعودية

البنّا، شهاب الدين أحمد بن محمّد الدّمياطي

(ت 1117هـ/1705م)

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغنيّ الدمياطي المصري، الشهير بـ «البنّا» بدون همزة، وانفرد كحّالة في معجم المؤلّفين برسمه بالهمزة [ج 1/ 71]. وقال: «عالم بالقراءات و التفسير ومن فضلاء النقشبنديين»، وكذا إسماعيل باشا البغدادي في هديّة العارفين [1/ 167 - 168]، وقال: «هو أحمد بن محمّد بن أحمد بن محمد البنّاء - بالهمزة - الدمياطي الشافعي المعروف بابن عبد الغنيّ».

ولد بدمياط وبها نشأ، وعلى عادة أهل بلدته حفظ القرآن الكريم بالروايات المشهورة منذ طفولته وتعلّم العربيّة ومبادىء العلوم الشرعيّة على أشهر مشائخها في عصره، ولمّا ظهرت عليه بوادر الفقيه الجليل العارف بالأحكام، والضالع في فهم الكتاب العزيز، والميل الشديد إلى رواية الحديث ارتحل إلى القاهرة لطلب العلم والتفقّه على العلماء، فلزم الشيخين الأزهريين: سلطان المزاحي، ونور الشبراملّي، وتفقّه بهما، وسمع عليهما الحديث، واشتغل بالفنون؛ فوصل إلى ما لم يصل إليه أمثاله [خير الدين الزركلي، الأعلام، 1/ 240].

ولمّا ارتوى بالعلم في القاهرة واصل رحلته إلى الحجاز فحجّ واعتمر وزار؛ وبالمدينة المنورة لازم الشيخ البرهان الكوراني وأخذ عنه الحديث، ثمّ رجع إلى دمياط وقد ملأ وطابَه بسائر العلوم الإسلاميّة، فصنّف كتابا في القراءات سمّاه «إتحاف البشر في القراءات الأربعة عشر»، أبان فيه عن سعة اطّلاعه على التفسير وسائر علوم القرآن وزيادة اقتداره على التأليف في العلوم الشرعيّة؛ كما اختصر كتاب «السيرة الحلبيّة»، وألّف كتابا في أشراط الساعة؛ ثمّ أقام مرابطا بقرية قريبة من البحر المالح تسمّى «عزبة البرج» واشتغل بالله، وكان خاتمة مَن قام بأعباء الطريقة النقشبنديّة بها.

وفي الأربعين من عمره قصد الحجاز ثانية وجاور بالمدينة وأخذ عن علمائها وعلماء اليمن حتّى أصبح مشاركا في سائر أنواع العلوم. [يوسف سركيس الدمشقي، 1/ 885].

■ آثاره

لئن اتفقت كتب التراجم على أنّ شهاب الدين البنّا قد أمسك بزمام اللغة العربيّة وملك ناصية العلوم الإسلاميّة، فإنّ ما نسبته إليه من مصنّفات لم يتجاوز الخمسة كُتبٍ في علوم مختلفة هي:

1 - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشرة. ذكره له كلّ من سركيس وكحّالة والزركلي وقال عنه إسماعيل باشا البغدادي في إيضاح المكنون [1/ 20]: «تأليف أحمد بن محمد الشهير بالبناء، الدمياطي الشافعي المتوفّى بالمدينة المنوّرة سنة 1116 هـ، أوّله: الحمد لله الذي جمع ببديع حكمته أشتات العلوم بأوجز كتاب... الخ»، والكتاب مطبوع بالمطبعة العصريّة بالقاهرة سنة 1327هـ بتحقيق الشيخ أحمد حسن؛ 2 - منتهى الأماني والمسرّات في علوم القراءات. ذكره كلّ من سركيس في معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة ورضا كحّالة في معجم المؤلفين على أنّه تسمية ثانية لكتاب: «الاتحاف» السابق الذكر، وخصّه إسماعيل باشا البغدادي في إيضاح المكنون [2/ 510] بالتسمية، وقال: «هو لابن البنّاء الدمياطي أحمد بن محمد الشافعي (ت 1116هـ)؛ 3 - اختصار السيرة الحلبيّة، مخطوط في المكتبة الأزهريّة؛ 4 - ذخائر المهمّات فيما يجب الإيمان به من المسموعات، وهو في أشراط الساعة، ذكرته له كتب التراجم بنفس التسميّة، غير أنّ إسماعيل البغدادي أخطأ في معرض التعريف به فقال: «هو للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغنيّ الدمياطي النقشبندي الحنفي (ت 1116هـ) في حين أنّ الرجل شافعيّ وتوفي سنة 1117هـ على ما اتفق عليه أصحاب كتب التراجم؛ 5 - نُخبة الرسائل وبُغية الوسائل، وهو في شرح الحروف والأسماء، اختصّ بنسبته له إسماعيل باشا البغدادي في هديّة العارفين [2/ 630] وقال: «الابن عبد الغنيّ الدمياطي أحمد بن محمد، صاحب إتحاف فضلاء البشر...»، كما انفرد أيضا في الجزء الأول من هديّة العارفين [ص 167 - 168] بنسبة كتاب آخر للمترجم له سمّاه: السرُّ المُفيز في اسمه تعالى «عزيز». كما له حاشية على شرح جلال الدين المحلّي على الورقات لإمام الحرمين وبهامشها الشرح المذكور.

■ المصادر والمراجع

● محمد رضا كحالة، معجم المؤلّفين، مكتبة المثنّى بمعيّة، دار إحياء التراث العربي (د.ت)؛ ● خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط. 9، سنة 1990م؛ ● يوسف سركيس الدمشقي، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، مطبعة سركيس مصر 1346/ 1928؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون، دار الفكر، بيروت 1410/ 1990؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، هديّة العارفين، دار الفكر بيروت، 1410/ 1990.

د. حسن مزيو

جامعة الزيتونة - تونس

ابن البنّاء المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد

(654هـ/1256م - 721هـ/1321م)

أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البنّاء المراكشي [بروكلمان، 2/ 255] ويضيف السرقسطي الفاسي، ولد في التاسع من ذي الحجة 654هـ الموافق للثامن والعشرين من ديسمبر 1256 م، [وللدقة حسب مراجع أخرى ولد بتاريخ 639 أو 649 أو 659هـ؛ وحسب ابن القاضي في درة الحجال، وكنون في النبوغ المغربي، كانت ولادته سنة 646] بمراكش من عائلة بلدية كانت لها صلات بالأندلس، وكان أبوه بنّاء [نيل الابتهاج، 65].

تعلّم القرآن بمراكش على ابن عبد الله بن يسر [نيل الابتهاج، 66]، واللغة على القاضي محمد بن علي بن يحيى [نيل الابتهاج، 66]، الذي شرح له فيما شرح كتاب الأصول لإقليدس. ومن مشيخته أيضًا أبو إسحاق الصنهاجي العطّار [نيل الابتهاج، 66]، وأبو بكر القلاوسي [نيل الابتهاج، 66]، الذي علمه الفرائض، وأبو عمران موسى الزّناتي [نيل الابتهاج، 66]، الذي تفقّه على يديه؛ وصاحب أبا زيد الهرميري [نيل الابتهاج، 65]، فأخذ عنه طريقته الصوفية، وكان له عليه كبير الأثر. ومن مشيخته بفاس قاضي الجماعة أبو الحجاج يوسف التجيبي المكناسي [نيل الابتهاج، 66]، وأبو يوسف يعقوب بن عبد الرحمن الجزولي [نيل الابتهاج، 66]، وأبو محمد القشتالي، والعلامة ابن حجلة الرياضي الذي علمه أيضًا الطب؛ وفي الفلك والهيئة ابن مخلوف السجلماسي. يقول عنه أحمد بابا التنبكتي [نيل الابتهاج، 66] وابن القاضي [ج 1]: «وكان بارعا في دراسة الفلك وفي علم النجوم، بلغ ما لم يبلغه أهل عصره».

وكان لهذين الشيخين الأخيرين أعظم الأثر في تكوين ابن البنّاء واختيار وجهته. ثم استقر بمرّاكش منقطعًا للتدريس؛ وكان بشهادة تلاميذه حسن الأسلوب، واضح الدّرس، يميل إلى الدقّة والإيجاز، فطبع العديد من طلبته بطابع طريقته.

يعرض ابن البنّاء في نهاية القرن السابع وبداية الثامن للهجرة زبدة ما وصلت إليه العلوم العربية في الحساب والجبر، متوخّيا طريقة الإيجاز، متجنّبًا التطويل المملّ والاستطراد الذي يخرج القارىء عن الموضوع المدروس.

ومن الطريف والمهمّ أن يتعرّض ابن البنّاء، عند تحليله للمسائل، إلى ما يحسّ به بدقّة من الوجه البيداغوجي، فيقول: «ويقصد في التعليم والتعلّم مقصدان، أحدهما ما كان قريبًا للفهم وإن كان طويلاً، والثاني ما كان قريبًا في العمل وإن كان بعيدًا على الفهم؛ كمذهبي الكوفيين والبصريين في إيجاد أقلّ عدد ينقسم على أعداد، المذكور في كتب الفرائض».

ومن الطريف أيضًا اعتناؤه بالوجه التطبيقي العملي وتعليله مثلاً لعمل الضرب بكونه مركبًا مؤلفًا ناميًا، «فهو بمنزلة الأجسام المؤلفة النّامية، وكل جسم مؤلف نام فإنما نموّه إلى فوق، لا إلى أسفل»، ويعلّل بذلك وضع عمل الجمع إلى فوق.

يقول واصفًا الوضع العربي لعملية الجمع كما يلي: «العمل فيه أن تضع المجموعتين في سطرين متوازيين وتمدّ عليهما خطًا، ثمّ تضع المرتفع منهما، إن كان آحادا، على رأسهما، ومثاله...». وقد بقي هذا التعبير، مستعملا باستمرار في اللغات العلمية الأوروبية، حتّى عند تغيير الوضع في العملية.

فبقي الاستعمال: La somme s'élève à أو Le montant est... ولو صارت الكتابة الحالية للنتيجة من أسفل.

ومن أهم الموضوعات التي اهتم بها ابن البنّاء خواص الجمع على التفاضل في الكيف والكمّ، والجمع على توالي الأعداد ومربعاتها ومكعّباتها.

ويعير أهمية خاصة لدراسة قابلية القسمة على عدد معيّن، وللطروح المتعارفة حتّى اليوم (طرح التسعة وطرح الأحد عشر)، ويضيف إليها السّبعة (لما يحتاج إليه عند التطبيق لمعرفة بدايات الأسابيع في تاريخ ما)، ويضع لذلك قانونين طريفين عرفا باسمه، أحدهما أن يضع تحت كلّ منزلة من منازل العدد على التوالي الحروف (أجب وده) مكرّرة، ويضرب كلّ منزلة في قيمة الحرف العددية تحتها، طارحا السّبعات، ويجمع الحاصل (بعيار 7) ويستنتج باقي القسمة على 7.

ويعنى ابن البنّاء أيضًا بالأعداد الأولية، ويخصص دراسة مطوّلة للأعداد التّامة والناقصة والزائدة والمتحابّة وعرض قوانين لتكوينها. ثم يتطرّق إلى الأعداد المسطّحة (المثلّثات والمربّعات الخ)، والمجسّمة (النارية أو المخروطية والمكعّبة الخ)، ويضع جدولا لتكوين الأعداد المسطّحة بلا نهاية.

ومن الطريف في الفلك، تعرّض ابن البنّاء، منذ القرن الثامن للهجرة، إلى مسألة مازالت محلّ نقاش في البلاد الإسلامية حتّى اليوم، وهي مسألة التعرّف على أوائل الشهور بالحساب والجدول، فينتهي إلى الملاحظة التالية: «ورؤية الأهلة في زماننا هذا قد توافق حساب العلامة، وقد تتأخر عنه بيوم واحد كثيراً، وبيومين في الأقلّ».

وقد اشتهر ابن البنّاء بما أبقى من مصنّفات، لاسيما في ميدان الحساب، فلقّب بالعددي، وفي مجال الفلك وتعديل الكواكب.

ومن أشهر مؤلفات ابن البنّاء في الرياضيّات كتاب «تلخيص أعمال الحساب» الذي ظلّ مرجعًا في منطقة المغرب حتّى نهاية القرن السادس عشر... بل ظل المؤرخون يهتمون بهذا الكتاب حتّى القرن العشرين، إذ قال عنه المؤرخان الغربيان سميث وسرتون بأنه أفضل الكتب التي ظهرت في الحساب. وأكد سرتون في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم» أن هذا الكتاب يحتوي على نظريات حسابية وجبرية مفيدة إذ أوضح العويص منها إيضاحًا لم يسبقه إليه أحد، لذا يرى سرتون أن كتاب «التلخيص» يعتبر من أحسن الكتب التي ظهرت في علم الحساب.

ومن تلامذة ابن البنّاء بمراكش أجلّ العلماء بالمغرب في القرن الثامن الهجري، وفي المنزلة الأولى منهج أبو عبد الله الآبلي شيخ المقري وابن خلدون في الرياضيات؛ وممن

تتلمذ له ابنا الإمام، وهما على ما ذكره المقري: أبو زيد عبد الرحمان، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام، وقد تنقلا في شبابهما إلى تونس وأخذا عن ابن جماعة وابن العطّار. وكان ابن حمّو في بداية القرن الثامن، ثمّ ابن تاشفين، يكرمانهما ويرغبان في استخدامهما [الديباج، ص 152].

وفي الجملة لقد اعتنى تلامذة ابن البنّاء بطريقة شيخهم ونشروا تعاليمه، وازدهرت مدرسته، فأقبل العلماء طيلة القرون الموالية على شرح مؤلفات ابن البنّاء وتوضيح عديد نظرياته ونشر طرقه الخاصّة بالعمليات التطبيقية في الحساب.

ومن أشهر شراحه: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور، ذكره نيل الابتهاج [ص 207]، فقال: « إنه كان عالمًا بالفرائض والحساب... وله شرح على «تلخيص» ابن البنّاء وتعليقات على «رفع الحجاب»، وتوفي، على ما ذكره نيل الابتهاج سنة 816 هـ/ 1413م.

وأحمد بن رجب بن تنبغا، المعروف بابن مجدي، من أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، والمتوفى سنة 850 هـ/ 1446م ولنا منه شرح على «التلخيص» سمّاه حاوي اللباب في الحساب [خ. تونس رقم 2047 و 10507]، وفي الفلك، رسالة عنوانها إرشاد السّائل إلى أصول المسائل [خ. تونس رقم 177].

وشهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي بن الهائم [بروكلمان، ج 2، ق 125، سوتر، 423؛ نيل الابتهاج، 205؛ شذرات الذهب، 7/ 109؛ كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 137]، الشافعي المصري المولود بالقاهرة سنة 756 هـ/ 1355م، وأبو عبد الله محمد بن مرزوق، المعروف بالحفيد، من أسرة علم بتلمسان ولد سنة 766 هـ/ 1364م، وحجّ سنة 790هـ/ 1388م صحبة ابن عرفة، وعند رجوعه من البقاع المقدّسة سنة 819هـ/ 1416م لقي ابن حجر، ودرس عليه كتابه في الفرائض، ويذكر له المقري رجزا في الميقات عنوانه «المقنع الشامي»، وأرجوزة على «تلخيص» ابن البنّاء؛ توفي سنة 842 هـ/ 1438م.

وأبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن أحمد القلصادي القرشي البسطي، المتوفى بمدينة باجة التونسية سنة 891 هـ/ 1486م.

■ آثاره

ألّف ابن البنّاء عددا كبيرًا من الكتب: في الرياضيات، وعلم الفلك، والتنجيم، والفقه، وعلوم الدين، والتصوّف، واللغة، والفلسفة، والمنطق، والزراعة. وقد قدّم الباحث إدريس المرابط في كتابه حول الرياضيات المغربية 121 مؤلفًا لابن البنّاء صنفها إلى 11 صنفًا حسب الإختصاص:

1 ـ تلخيص أعمال الحساب، تحقيق محمد سويسي وتعليقه وترجمته إلى الفرنسية (الرسالة التكميلية للحصول على الدكتوراه)؛ منشورات الجامعة التونسية 1969. واعتمدت هذه النشرة لنقل كتاب «التلخيص» إلى اللغة اليابانية 1996؛ 2 ـ رفع الحجاب عن علم أعمال الحساب، يقول ابن البنّاء نفسه مبرّرا تأليفه لهذا الكتاب: «وأردت إيضاح ما تضمّنه تلخيص أعمال الحساب من العلم، وشرح ما يظنّ غير المحصّل أنّه مستغلق فيه على الفهم، وبيان أصول القواعد والمباني... وسمّيته

«رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب»، قدمه محمد أبلاّغ وحققه ودرسه (رسالة للحصول على الدكتوراه)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بظهر المهراز، فاس 1994؛ 3 ـ الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة (يعرف أيضًا باسم كتاب الجبر والمقابلة)، مخطوطة الرباط، الخزانة العامة ف94 و ط2461 (غير كامل)، أيا صوفيا رقم 286. حققه وترجمه إلى الفرنسية أحمد جبار في أطروحة الدكتوراه؛ Djebbar, A. Mathématiques et Mathématiciens du Maghreb (IXe - XVI siècles); contribution à l'étude des activités scientifiques de l'occident musulman, thèse de doctorat, universités de Nantes et Paris sud 1991. 4 ـ منهاج الطالب لتعديل الكواكب، تقديم وتعليق العالم الرياضي الإسباني خوان برناط Juan Vernet، ط تطوان 1952؛ وكذلك Renaud في مجلة Hesperis، باريس 1948. وهو زيج بنى الحركات فيه على سني العرب «وجعل أصولها لطول إحدى وعشرين درجة من الغرب [أي طول مراكش وقد حرّره الحسن المرّاكشي فيما بعد بقدر [20 ـ 21]، ولأول تاريخ الهجرة [أي يوم الخميس (إهلال ليلة الجمعة)، بمكة المكرّمة غرّة محرّم من السنة التي هاجر فيها النبي ﷺ]؛ 5 ـ رسالة في العمل بالصفيحة الزرقالية؛ نشرها الخطّابي في دعوة الحق رقم 242، نوفمبر 1985؛ 6 ـ الأشكال المساحية، تحقيق محمد سويسي، نشر مجلة معهد المخطوطات الكويت، 1984؛ 7 ـ القوانين، قدم محمد أبلاغ قطعة منه في ملتقى فاس، ديسمبر 1992؛ 8 ـ المقالات الأربع المسمّاة أيضًا جمع أصول الأعداد، خ، تونس 10301، الرباط، الخزانة العامة 1194، الخزانة الحسينية 826؛ نسخة تونس بتاريخ 1173هـ/ 1754 9 ـ رسالة في العمل بالصفيحة الشكازية، مخطوطة الرباط الخزانة العامة ط 2118، والخزانة الحسينية رقم 6667؛ 10 ـ قانون في ترحيل الشمس، مخطوطة سلا (المغرب) رقم 1137؛ 11 ـ أرجوزة في المنازل، مخطوطة الرباط، الخزانة العامة رقم 991K؛ 12 ـ مسائل في العدد التام والناقص، مخطوطة تونس رقم 2840؛ 13 ـ أشكال ومجسّمات هندسية، الرباط رقم 2215D؛ 14 ـ رفع الحجاب عن علم الحساب، مخطوطة تونس رقم 206ر و 184ر؛ 15 ـ رسالة في علم المساحة، مخطوطة برلين رقم 5945؛ 16 ـ المقالة في الحساب، مخطوطة تونس رقم 10301؛ 17 ـ رسالة في علم الحساب، مخطوطة تونس رقم 206؛ 18 ـ تأليف غريب في أحكام النجوم، خ. الرباط D2000؛ 19 ـ تنبيه الألباب على مسائل الحساب، مخطوطة الجزائر رقم 613، المتحف البريطاني رقم 420؛ 20 ـ مقالات في إقليدس؛ 21 ـ رسالة في علم الحساب؛ 22 ـ المنهاج في تقريب الأزياج لها؛ 23 ـ قانون في معرفة الأوقات بالحساب؛ 24 ـ المنهاج في رؤية الأهلّة؛ 25 ـ رسالة في علم الإسطرلاب؛ 26 ـ كتاب في الأوقات...

المصادر والمراجع

● رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب، تحقيق محمد أبلاّغ ونشره في الرباط 1994؛ ● تلخيص أعمال

الحساب، تحقيق وتعليق ونقل للفرنسية لمحمد سويسي، منشورات الجامعة التونسية 1969؛ ● أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، القاهرة 1357 هـ/ 1932 م، 65 ـ 67؛ ● ابن القاضي، جذوة الاقتباس، فاس 1309 هـ، 73، الرباط 1973 ـ 1974، 148 ـ 152؛ ● م. ن، درة الحجال، ط. القاهرة 1970، 1/ 14؛ ● ابن خلدون، المقدمة، ط. بيروت 1967، 382 ـ 383؛ ● ابن قنفذ، حظ النقاب عن وجوه أعمال الحساب، وجعل منه يوسف قرقور رسالة للحصول على الماجستير، وله: التخليص في شرح التلخيص، خ. الرباط، الخزانة العامة 939؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، ليبزيغ 1835 ـ 1858.

- BROCKELMANN: II, 255.
- Encyclopédie de l'Islam: art. Ibn al Banna (par M. Bencheneb et H. Suter 339).
- LAMRABET: Introduction à l'histoire des Mathématiques Maghrébines, Rabat, 1994, 79-90,
- MARRE, Aristide: in Atti delli acc. Dei nuovi Lincei 1865, 3 Extraits la Bibilothèque Nationale de Paris, V, p. 28775, J. A., s. VI, tome 1er 1863, 58-62.
- RENAUD, P.J : Ibn al Banna de Marrakech, sufi et mathématicien du XIIIe/XIVe, J.C, In Hesperis XXV, 1er trimestre 1938, 13-42.
- RENAUD, P.J: Le calendrier d'ibn al Banna de Marrakech, Paris, 1948.
- SANCHEZ, Perez J.A: La Ciencia Arabe en La Echerd Media, 1954, 84.
- SANCHEZ, Perez J.A: La Aritmetica en Roma, en India y en arabia, Madrid, 1949.
- SANCHEZ, Perez J.A: Biografica de los matimaticos arabos que florexieron en España; Madrid, 1921, s1.
- Sarton, G, Introduction to History of Science, II, 1000.
- Souissi, M, Talkhis a' mal al hisab, texte établi annoté et traduit; Publications de l'université de Tunis, 1969.
- Vernet, Juan, Contribution al estudio de la labor astronomica de Ibn al Banna, Tetouan 1952.
- WOEPCKE, F., Passages relatifs à la sommation des cubes, Rome, 1864.
- YOUSCHKEVITCH, Adolf P.: Les mathématiques arabes, Trad. Française par M. Cazenave et K.Jaouiche, Paris, 1976.

موقع جامعة سنت يندروز البريطانية على شبكة الإنترنت:

- http://www-history.mcs.st andrews .ac. uk/ history/Mathematicians/Al-anna html.

د. محمد السويسي
الجامعة التونسية
د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة ـ الجزائر

ابن بنان، سلمويه

(ت 225هـ/840م)

يمثل الطبيب سلمويه بن بنان نموذجا جيّدا للارتباط الوثيق بين الطبّ والسياسة في التاريخ الإسلامي، فقد اختاره الخليفة العباسي المعتصم بالله طبيبا خاصّا له، وأشركه في إدارة شؤون البلاد والعباد. يقول ابن أبي أصيبعة: «لمّا استخلف أبو إسحاق محمد المعتصم بالله، وذلك في سنة 218هـ اختار لنفسه سلمويه الطبيب، وأكرمه إكراما كثيرا يفوق الوصف، وكان يرد إلى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلاّت وغيرها بخطّ سلمويه، وكلّ ما يرد على الأمراء والقوّاد من خروج أمر وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين، بخطّ سلمويه» [عيون الأنباء، 234].

وممّا زاد من جور سلمويه بن بنان في بلاط المعتصم، أنّه نجح في تولية أخيه إبراهيم بن بنان خزن بيوت الأموال في البلاد، وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين... ولم يكن أحد عند الخليفة مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في المنزلة، ومن هنا أشار الزركلي إلى أنّ سلمويه اكتسب من خدمة الخلفاء معرفة بالسياسة [الأعلام، 3/ 114]، وإن كان سلمويه ـ فيما نعلم ـ لم يخدم من الخلفاء غير المعتصم.

وممّا زاد من أهمّية سلمويه السياسيّة أنّ زمن المعتصم شهد انتقالا جغرافيا للسلطة العباسية من مقرها الدائم (بغداد) إلى سامراء. وذلك استجابة لرغبة لدى المعتصم، أدّت إلى اضطراب في الإدارة، نجح سلمويه في التقليل منه بشكل كبير.

آثاره

الظاهر أنّ حياة السياسة، والعناية بصحّة الخليفة، عاقت سلمويه بن بنان عن التأليف الطبّي، مع أنّ الطبيب والمترجم الشهير حنين بن إسحاق شهد له بأنّه: «كان أعلم أهل زمانه بصناعة الطبّ..» وروى حنين: «لمّا مرض سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده»، وقال: «أشر عليّ بعدك بمن يصلحني»، فقال: «عليك بهذا الفضولي يوحنّا بن ماسويه، وإذا وصف لك شيئا فخذ أقلّه أخلاطا!». ولما مات، امتنع المعتصم عن الأكل في ذلك اليوم، وأمر بإحضار جنازته إلى الدار، وأن يصلّى عليه بالشمع والبخور على رأي النصارى [إخبار العلماء، 141].

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، تح. دار نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 234؛ ● القفطي، إخبار العلماء، دار الآثار، بيروت، ط مصوّرة، 141؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 8، بيروت 1989، 3/ 114.

يوسف زيدان
جامعة الاسكندرية ـ مصر

البَنّاني، عبد الرحمان بن جاد الله

(ت 1198هـ/1783م)

عبد الرحمان بن جاد الله البنّاني، بفتح الباء ثم نون مشدّدة نسبة إلى «بنّان» قرية بالساحل التونسي قرب المنستير.

لا نعلم شيئا عن نشأته الأولى؛ والراجح أنّ مولده بقريته «بنان». ثم انتقل إلى تونس، وأخذ عن أعلام عصره بالزيتونة، ثم أراد الاستزادة من العلم، فقصد القاهرة وجاور بالأزهر، ولازم به أعلامًا كالصعيدي ويوسف الحنفي والبليدي وغيرهم، وحذق عدّة فنون، ومهر فيها، وخاصة علم أصول الفقه.

وتصدّر للتدريس برواق المغاربة، ثم تولى مشيخته، وأقبل عليه الطلبة، وانتفعوا به؛ وحمدت سيرته في ولايته، وتفرغ للعلم والتدريس تفرّغا كاملا، ولم يتزوج حتى مات وذلك في صفر سنة 1198 هـ/ 1783م.

آثاره

وضع حاشيته على «جمع الجوامع» في أصول الفقه كانت متداولة في مختلف الجامعات الدينية في العالم الاسلامي، وخاصة في الجامع الأزهر، كما يفيده تعدد طبعاتها منذ ظهور الطباعة إلى وقت قريب.

المصادر والمراجع

● عجائب الآثار للجبرتي، 3/ 282 - 283؛ ● اليواقيت الثمينة، 1/ 197 - 198؛ ● شجرة النور الزكية، 1/ 342؛ ● فهرس المكتبة الأزهرية، 2/ 28 - 32؛ ● كتاب العمر، 1/ 436 - 437؛ ● تراجم المؤلفين، 1/ 170.

بشير البكوش
مجلس النواب - تونس

بُندار، أبو عمرو بن عبد الحميد بن لَزّة

(القرن 3هـ/القرن 9م)

هو أبو عمرو بُندار (بضمّ الباء وكسرها) بن عبد الحميد بن لِزّة النهدي الكرخي الأصبهاني. عالم، لغوي، نحوي خلط المذهبين. والنهدي نسبة إلى نهد بطن من قضاعة.

اختلف علماء التّرجمة في اسمه، فمنهم من

ذكره «بندار بن عبد الحميد بن لرة»، ومنهم من جعله «النهدي الأصفهاني». وجمع القفطي بين الاسمين وعدّهما مختلفين، فترجم لكلّ واحد على حدة، وأغلب الظنّ أنّ الاسمين لشخص واحد كما ورد عند باقي المترجمين، وأنّ القفطي قد خلط في ذلك. و«لِزَّة» هو لقب أبيه لذلك كان يعرف بـ«ابن لزّة».

كان بُندار من علماء بلاد الجبل (بلاد الجبل اسم يطلق على الجهات الواقعة ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور). استوطن الكرخ، ثمّ انتقل منها إلى بغداد وفيها ظهر فضله؛ إذ كان متقدمًا في علم اللّغة ورواية الشّعر، حتّى عُدّ أحفظ أهل زمانه للشّعر، وقد روي عنه أنّه كان يحفظ سبعمائة قصيدة، أوّل كلّ قصيدة «بانت سعاد»، يقول ياقوت عن ذلك نقلا عن أبي محمد الخشّاب (ت 567هـ/ 1171م): «أمعنت التّفتيش والتّنقير فلم أقع على أكثر من ستّين قصيدة أوّلها بانت سعاد» [معجم الأدباء، 4/ 128].

لقي بندار بن السكّيت (ت 244هـ/ 858م)، وروى عن أبي عبيدة معمر بن المثنّى (ت 209هـ/ 824م)، والنّضر بن شُميل (ت 203هـ/ 818م)، وأخذ عن أبي عبيد القاسم بن سلاّم (ت 224هـ/ 838م)، وقد أخذ عنه ابن كيسان (ت 299هـ/ 911م)، والخُشني (ت 286هـ/ 899م) الّذي كتب عنه الحديث كما جاء في طبقات الزّبيدي فقد عدّ بُندار من رجال الحديث فقال في ترجمته للخشني: «. . . وكتب عن رجال الحديث: أبي موسى الزّمن وبُندار. . .» [الطبقات، 290].

كان الطُّوسيُّ صاحب ابن الأعرابي يوصي أصحابه بالأخذ عنه ويقول: «هو أعلم منّي ومن غيري فخذوا عنه».

وكان بُندار دائم الصّلة بالخليفة المتوكّل؛ إذ كان يدخل عليه كلّ أسبوع فيجمع بينه وبين النّحاة. وقد أدخل معه مرّة المبرد (ت 258 هـ/ 871 م)، فكان السّبب في نبله مكانة وحظوة عند الخليفة. وكان المبرد لا ينسى ذلك لبُندار، وقد وصفه بأنّه أوحد زمانه في رواية دواوين شعراء العرب حتّى لا يشذّ عن حفظه من شعر شعراء الجاهليّة والإسلام إلاّ القليل، وأنّه أصحّ النّاس معرفة باللّغة.

المصادر والمراجع

● الزبيدي، طبقات النّحويّين واللّغويّين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع محمد سامي أمين الخانجي الكتبي، مصر، 1954م، 228؛ ● ابن النديم، الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، الدّوحة، 1985م، 164؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، 4/ 128 ـ 134؛ ● القفطي، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1952م، 1/ 257؛ ● الفيروزأبادي، البلغة في تاريخ أئمة اللّغة، ترجمة رقم 73، تحقيق محمد المصري، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، 1972 م، 42؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات النّحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964 م، 1/ 476؛ ● الخوانساري الأصبهاني،

روضات الجنات في أحوال العلماء السادات، الترجمة رقم 157، مكتبة إسماعيليان، إيران، 2/ 133؛ ● عبد الباقي اليماني، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، الرّياض، 1986م، 63.

د. مها المبارك
الموسوعة العربية ـ دمشق
سوريا

البنداري، قوام الدين الفتح بن علي بن محمد

(586هـ/ 1190م ـ 643هـ/ 1245م)

الفتح بن علي البنداري الإصفهاني، أحد كبار المترجمين من الفارسية إلى العربيّة، الشاعر الأديب، الفقيه، المؤرخ. لا نعرف من سيرته إلاّ نبذة متفرّقة، فقد ولد في إصفهان سنة 586هـ/ 1190م [الأعلام للزركلي، نقلا عن مجلة العرفان اللبنانية، 32/ 50]. ويبدو ممّا ذكره البنداري في ترجمته العربيّة لشاهنامة الفردوسي أنّه كان يختلف فترة تعلّمه إلى بعض مشايخه ممّن يقيمون ببعض القرى القريبة من مدينة إصفهان، ممّا يدلّ على أنّه تعلّم في تلك المدينة ونواحيها [الترجمة العربية للشاهنامه، تح عبد الوهاب عزام، المقدمة، 1/ 97].

ويبدو من المعلومات القليلة التي زوّدتنا بها المصادر أنّ البنداري عمل بالكتابة والإنشاء لذلك لقّب بالمنشىء، كما أنه عني بالترجمة والنقل إلى العربية.

واهتم بالأدب والتاريخ واختصار بعض الكتب كما اهتم بالحديث والفقه وهما من مكملات ثقافة ذلك العصر. ومما ساعده في هذه الاهتمامات اتّصاله بملوك عصره، وكان منهم علماء يشجّعون العلم والمعرفة.

برع البنداري في الكتابة فكان كاتبا بليغا. وقد وصفه ابن الفوطي، فقال: «ونثره كَوَشْي البرود، ونظمه كنظم العقود، وسلافة العنقود...» [تلخيص مجمع الآداب، 4/ 817 ـ 818].

لم ترفدنا المصادر بمعلومات عن دراسته وشيوخه ولا عن الأعمال التي تولاها ولا تلاميذه، ولكنّ ابن الفوطي ذكر أنّه أحد تلاميذ عماد الدين الكاتب، على أنّ مصطفى جواد يرى أنّ ابن الفوطي وهمَ في هذا القول لأنّ عماد الدين الأصفهاني كان أيام نشأة البنداري في الشام؛ وكانت ولادة البنداري قبل وفاة العماد بإحدى عشرة سنة، فكيف تصحّ التلمذة مع تباعد الديار وصغر السن! [الفتح بن علي مؤلف الشاهنامة، مجلة العرفان، 32/ 50، العدد الأول، 1954].

ثم إن البنداري انتقل إلى دمشق للعمل في خدمة الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة 614هـ، فاستمرّ فيها إلى أن توفّي. وقد شجّعه على القدوم إلى بلاد الملك المعظّم ما اشتهر عنه من تشجيعه للعلم والأدب حتّى غدا بلاطه مجمعا للأدباء والعلماء.

ويبدو أنّ البنداري قد لاحظ أنّ الجو العام الذي يسيطر على بلاط الملك المعظّم جوّ تشيع فيه روح البطولة والحماسة وتروج فيه تقاليد الفروسيّة التي اشتهر بها بنو أيّوب، فضلا عن الروح القتالية التي كانت سائدة آنذاك بسبب النزاعات الناشبة بين أبناء الملك العادل في منطقة الشام [أخبار سلاجقة الروم، 276، 279]، وهو ما يتفق مع موضوعات الشاهنامة التي أتمّ الفردوسي الطوسي نظمها سنة 400 هـ/ 1009م في نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسي، وساق فيها أخبار ملوك الفرس وسيرهم وما دار بينهم وبين غيرهم من حروب ووقائع، وما كانوا عليه من عدل وإحسان. فبادر البنداري إلى تقديم الكتاب إلى الملك المعظم الذي أمره بنقله من الفارسية إلى العربيّة، وأتمّ البنداري الترجمة في زمن قياسي، في ثمانية عشر شهرا فقط، من جمادى الأولى سنة 620هـ/ 1223م وحتّى شوال 621هـ/ 1225م.

ولا ندري هل عاد البنداري إلى وطنه إصفهان بعد أن أتمّ مهمّته بترجمة الشاهنامة، أو أنّه ظلّ مقيما بدمشق، لا سيّما أنّ المنطقة التي تقع فيها إصفهان كانت من المناطق التي لم تكن قد خضعت بعد لسيطرة المغول بعد اجتياحهم المشرق الإسلامي بقيادة «جنكيزخان» في سنة 616هـ/ 1219م، وظلّت تلك المنطقة وما حولها ميدانا للكرّ والفرّ بين المغول والسلطان جلال الدين خوارزمشاه، الذي كان يسعى إلى ردّهم على أعقابهم واسترداد ملك أبيه [عباس إقبال، تاريخ مفصل إيران، 115]. ولعلّ البنداري بسبب هذه الأحداث آثر أن يجعل من دمشق مستقرّا له، إذ نجده في سنة 623هـ/ 1225م يقدّم كتاب تاريخ دولة آل سلجوق هديّة إلى الملك المعظم.

وهكذا كان البنداري «أحد فضلاء الدهر ونبلاء العصر» [ابن الفوطي، 4/ 817 - 818]، ولم تتفق المصادر على سنة وفاة البنداري، فحاجي خليفة [كشف الظنون، 1/ 1026] لم يحدد تاريخا لوفاته، إلاّ أنّ مصطفى جواد، وجرجي زيدان والزركلي، وكحالة، حدّدوا وفاته بسنة 643 هـ/ 1245م.

آثاره

1 - تاريخ بغداد، رتبه على منهج المحدثين في تواريخ المدن، استقى معلوماته من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 463 هـ/ 1070 م، وذيل تاريخ بغداد لأبي سعد السمعاني (ت 565هـ/ 1169م)، وذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي الواسطي (ت 637هـ/ 1239م).

لم يصلنا منه إلا الجزء الأول، ويشمل تراجم من اسمه أحمد ومحمد، وحتّى هذا الجزء لم يصل كاملا، وقد فقدت بقية منه. احتوى هذا الجزء على مجموعة من التراجم بلغت 932 ترجمة، ضمت تراجم لشرائح مختلفة من المجتمع. وقد وصفه ابن الفوطي بقوله:

تاريخا تراجميا لبغداد لم يصلنا منه إلاّ الجزء الأوّل فقط [تلخيص مجمع الآداب، 4، الترجمة 3107].

ولكتاب تاريخ بغداد للبنداري أهمّية كبيرة لعدّة أمور أهمّها أنّه حفظ لنا نصوصا لمؤلفات مفقودة مثل ذيل تاريخ بغداد للسمعاني، وقد بلغ عدد الاقتباسات منه 310 فصوص، وذيل تاريخ بغداد للسمعاني من الكتب المفقودة وما وصلنا منه مختصره لابن منظور (ت 711هـ/ 1311م). والجزء الثاني فقط [مختار ذيل تاريخ بغداد، لابن منظور تح. علي عبد الحسين المظفر، ماجستير، معهد التاريخ العربي، 1995]، وكذا حفظ لنا نصوصا من الأجزاء التي لم تصلنا من ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي الواسطي (ت 637هـ/ 1239م)؛ 2 ـ كتاب تاريخ الفرس، وهو من التواريخ المترجمة إلى العربية وصلنا منه جزء واحد محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس؛ 3 ـ كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة، والكتاب في الأصل للعماد الكاتب (ت 597هـ/ 1200م) صاحب خريدة القصر وجريدة العصر، واسمه نصرة الفترة وعصرة الفطرة، فاختصره البنداري وسمّاه زبدة النصرة ونخبة العصرة، وخصّصه لأخبار الدولة السلجوقية، طبع الكتاب في هولندا بتحقيق هوتسما؛ 4 ـ كتاب سنا البرق الشامي، الكتاب في الأصل البرق الشامي للعماد الكاتب كتبه في 7 مجلّدات، فُقدَ مُعظمها عدا المجلدين الثالث والخامس [مقدمة تحقيق سنا البرق الشامي لفتحية النبراوي، رسالة دكتوراه كمبردج 1971]. اختصر البنداري هذا الكتاب للملك المعظم عيسى حاكم دمشق، ويتناول التاريخ السياسي لبلاد الشام في عصر صلاح الدين الأيوبي، وأهميته تعود إلى أنه كتب بعد وفاة صلاح الدين سنة (589هـ/ 1193م). ولما اختصر البنداري الكتاب سمّاه سنا البرق الشامي، وانتهى فيه إلى سنة 622 هـ/ 1225 م، وذكر البنداري في مقدمة سنا البرق الشامي أنه سوف يذيّل المختصر بمقتطفات من رسائل العماد الكاتب وهما: العقبي والعتبي، وخطفة البارق، وعطفة الشارق. لكنه لم يفعل لأنه لم يكمل اختصار البرق الشامي [العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر، 1/ 48 ـ 49؛ قسم العراق مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة 1955]؛ 5 ـ الشاهنامة، وهي منظومة مشهورة لأبي القاسم الفردوسي أكبر شعراء الدولة الغزنوية (ت 411هـ/ 1020م)، نظمها خلال 30 سنة، وانتهى منها عام 384 هـ/ 994 أو 390هـ/ 999م في أخبار ملوك العجم، وتضمّ 60 ألف بيت نظمها لمحمود بن سبكتكين الغزنوي (ت 421هـ/ 1030م) [كشف الظنون، 1/ 1025]، ترجمها البنداري إلى اللغة العربية للملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب (ت 624هـ/ 1226م).

ويذكر مصطفى جواد أنّ كتاب الشاهنامة نقل إلى العربية قبل ترجمة البنداري إيّاه نقله إليها مشير الملك محمد بن إسماعيل بن الحسين ابن الدهان [الفتح بن علي البنداري مترجم الشاهنامة مجلة العرفان ن. م. 32، 50]، وعدّت ترجمة الشاهنامة من أشهر ترجمات البنداري من الفارسية إلى العربية حتّى اقترنت باسمه، فلا يقال البنداري إلاّ وتذكر الشاهنامة

فيقال البنداري مترجم الشاهنامة؛ 6 ـ له أشعار ورسائل في مدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت 617هـ/ 1220م) [تاريخ بغداد للبنداري الورقة 29 ب].

■ المصادر والمراجع

● أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، ذيل الروضتين، مصر 1947؛ ● ابن الفوطي، عبد الرزاق، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تح. جواد مصطفى، 3/ 117، مطبوعات المجمع العلمي العراقي؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط. دائرة المعارف التركية، 1/ 1025 ـ 1026؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت 1969، 5/ 124؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث، 8/ 48؛ ● الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، ط. بيروت 1958، 42/ 161؛ ● الشاهنامة، الترجمة العربية للفتح بن علي البنداري، تح. عبد الوهاب عزام، ط 2، جزءان، مصر 1933، الهيئة العامة للكتاب؛ ● براون، إ. ج، تاريخ الأدب في إيران، ج 2، ترجمة إبراهيم أمين الشورابي، مصر 1954؛ ● تاريخ دولة آل سلجوق للوزير أبي نصر أنو شيروان بن خالد، الكاشاني، ترجمة عماد الدين الإصفهاني، تلخيص الفتح بن علي البنداري، دار الرائد 1974؛ ● جواد مصطفى، الفتح ابن علي البنداري، مترجم الشاهنامة، مقالة في مجلة العرفان، المجلّد الأوّل، العدد 32/ 50، 1945؛ ● النبراوي، فتحية، مقدّمة تحقيق سنا البرق الشامي، رسالة دكتوراه كمبردج، 1971؛ ● معروف، بشار عوّاد، ذيل تاريخ بغداد لابن السمعاني (459 ـ 681)، بحث في ندوة بغداد مدينة السلام، مركز إحياء التراث بجامعة بغداد، 1990.

د. نبيلة عبد المنعم داود
مركز التراث العلمي ـ بغداد
د. محمد السعيد جمال الدين
جامعة القاهرة ـ مصر

■ البندنيجي، أبو البشر اليمان بن أبي اليمان

(200هـ/815م ـ 284هـ/897م) ■ ■ ■

أبو بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي، ولد ضريرا بالبندنيج قرب بغداد، ويرجع نسبه إلى قبيلة الدهاقين الفارسية التي نزحت إلى العراق واستوطنتها أيام الفتح الإسلامي.

تعلّم أبو بشر بالبندنيج، فحفظ بها أدبا جمّا

وعلما غزيرا وأشعارا وأخبارا كثيرة. وكان بها أبو الحسن علي بن المغيرة المعروف بالأثرم صاحب أبي عبيدة، فكان يروي كتبه كلها وكتاب الأجناس الأكبر للأصمعي، ولزم أبو بشر ذلك النمط، متتلمذا على ابن الأعرابي (ت 232 هـ)، وأبي نصر الباهلي (ت 231 هـ)، وعلي بن المغيرة الأثرم (ت 232 هـ)، وابن السكيت (ت 244 هـ)، وابن إسحاق الزيادي (ت 249 هـ)، وأبي الفضل الرياشي (ت 257 هـ)، وغيرهم.

ارتحل البندنيجي إلى بغداد وسامراء متّصلا بالعلماء، فقرأ على أبي عبد الله بن زياد الأعرابي وأبي نصر صاحب الأصمعي، ثم دخل البصرة فلقي الزيادي والرياشي، لينبغ في كثير من العلوم، معتمدا على حدّة ذكائه وقوّة ذاكرته، يقول: «حفظت في مجلس واحد مائة وخمسين بيتا من الشعر بغريبه» [إرشاد، 56]، وقد حدا به ولوعه بأنواع المعارف إلى أن يصبح عالما أديبا عارفا بأسرار اللغة، وأبواب الفقه، وشاعرا ظريفا له نظم حسن وقصائد متميّزة.

وكانت للبندنيجي ضياع وبساتين خلّفها له أبوه، فباعها وأنفقها في طلب العلم وإكرام العلماء، توفي في ذي الحجة سنة 284هـ/ 897م.

وللبندنيجي اهتمامات علمية متعددة، فهو أديب راوية. وشاعر حسن النظم في الفخر والزهد والشعر السياسي، وعالم بالعروض والمعاني، ولغوي عارف بأسرار اللسان، معتدّ بنفسه. أكثر ما اشتهر بمعجمه «كتاب التقفية» حيث يعدّ أول من ألف في هذا الفن باستثناء إشارة إلى أن ابن قتيبة (ت 276 هـ) قد يكون سبقه إلى تأليف كتاب في التقفية اكبر من كتاب البندنيجي وأحسن [فهرست، 349].

«كتاب التقفية»، معجم لغوي مختص، مرتب ألفبائيا وفق نظام القوافي على أواخر الكلمات. هدف من وراء تأليفه إلى تسهيل النظم على الشعراء، والسجع على الخطباء والكتاب. ويعتبر «كتاب التقفية» أول معجم في بابه يصل إلينا من معاجم القرن الثالث الهجري، حيث احتفظت مكتبة أياصوفيا في إستنبول بنسخته الفريدة ليطبع محقّقا. وقد سلك البندنيجي في ترتيب معجمه هذا نظام القوافي ألفبائيا على الحرف الأخير مقسما إلى أبواب يضم كل باب حرف رويّ، ويتشعب الباب إلى فصول بأنواع القافية. يقول في مقدمة الكتاب: «إنه مؤلف على القوافي، والقافية البيت من الشعر...»: يعني بذلك وزن الكلمة التي توافق قافية من القوافي كما يتّضح من النموذج التالي:

فـعْـلـن = سـأْب، جـأْب، وأْب، رأْب.. حوْب، جيْب، شيْب، عيْب.. إلخ.

فعَلن = خبَب، سبَب، شبَب، صبَب... نسب، طلب، عرب، ذهب.. إلخ.

فاعلن = شَرْجب، جسرب، شوذب... غالب، قارب، لاحب، عازب.. إلخ.

فـعـولـن - شَـبـاب، ربـاب، سـحـاب، خطاب... يجوب، ينوب، يثوب، يعيب.. الخ.

متفاعلن = متضارب، متقارب، متلاعب... يتناسب، يتناعب، ينجاذب... إلخ.

وهكذا إلى أن يأتي على جميع المفردات المنتهية بحرف الروي (الباء)، لينتقل بعدها إلى التاء، فالثاء، ثم الجيم، وما يليه من حروف الأبجدية، موضحا كل ذلك بالأمثلة والشواهد والشروح.

وقد عُني البندنيجي بالشواهد عناية كبيرة، الشعرية منها والنثرية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكم والأمثال وأقوال الفصحاء. وفي الشواهد الشعرية أنشد للجاهليّين والمخضرمين والأمويين والعباسيين، كما استعاض عن الإفاضة في شرح الألفاظ الصعبة بإيراد الشواهد بعدها مباشرة حسب منهج التعريف السياقي. يقول: والمكّاء طائر لا يغرّد إلا في الربيع بين الرياض، قال أبو النجم:

حتى إذا العود اشتهى الصَّبُوحا
وسكت المُكّاء أن يصيحا
وهبّت الأفعى بأن تشيحا

[التقفية، 47]

آثاره

للبندنيجي مؤلفات عديدة، أشارت المصادر التي أثبتت ترجمته إلى ثلاثة منها هي التالية:

1 ـ التقفية في اللغة، تح. خليل إبراهيم العطية، صدر عن وزارة الأوقاف ببغداد 1970م؛ 2 ـ معاني الشعر؛ 3 ـ كتاب العروض.

المصادر والمراجع

● البندنيجي، أبو بشر، التقفية، تح. خليل إبراهيم العطية، سلسلة إحياء التراث، بغداد، 1972م، وزارة الأوقاف؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء/إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح. محمد فريد الرفاعي، القاهرة 1357هـ/ 1938م، مج 20/ 57، دار المأمون؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. مصطفى الشويمي، تونس 1406هـ/ 1985م، الدار التونسية للنشر؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، بيروت (د. ت)، دار المعرفة، 420؛ ● الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، تح. أحمد زكي، القاهرة 1911م، 312؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح. يلتقايا والكليسي، إستانبول 1941م، وكالة المعارف؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دارالعلم للملايين، 8/ 208 ـ 209؛ ● الشرقاوي، أحمد إقبال، معجم المعاجم، بيروت 1993م، دار الغرب الإسلامي، 216.

د. حلام الجيلالي
جامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر

البندنيجي، أبو الهدى صفاء الدين عيسى

(1203هـ/1788م - 1283هـ/1866م)

هو أبو الهدى صفاء الدين عيسى بن جلال الدين موسى بن جعفر البندنيجي القادري النقشبندي البغدادي، ولد في حدود سنة 1203هـ/ 1788م وعاش في بغداد واستقر بها حيث درس على علمائها.

أصله من بندنيجن أو من بندنيج، وهي مدينة مندلي الحالية في محافظة ديالي بالعراق. وبندنيجن لفظة تثنية، وهي كما ذكرها الحموي بقوله: وبندنيج بلدة بطرف النهروان من ناحية الجبل [من أعمال بغداد: معجم البلدان، 1/ 499]، وإليها نسبته. كان والده فقيهًا عالمًا مقيمًا في بندنيج، ثم رحل إلى بغداد واتصل بمجدد الطريقة النقشبندية الشيخ خالد بن أحمد النقشبندي المتوفى سنة 1242هـ/ 1827م [الأعلام، 2/ 294]. وأصبح خليفة له في بندنيج واشتهر بالقادري النقشبندي، وتوفي مقتولا أثناء الغزوات الإيرانية في بندنيج سنة 1238هـ/ 1822م [مندلي عبر العصور لعمران المندلاوي، 212].

أخذ صفاء الدين عيسى العلم عن والده أولاً، ثم عن مشائخ عصره في بغداد كعبد الرحمن الكروي الذي أخذ منه الإجازة لأول مرة، وعبد الرحمن الروزبهاني البغدادي، وكمال الدين الكركوكلي، وأحمد النقشبندي، ويحيى بن خالد العمادي المروزي، وعبد الله الحيدري البغدادي النقشبندي وغيرهم: كما تلقى العلم خلال رحلاته إلى بلاد الشام وإسطنبول والحجاز من علماء تلك البلاد. ففي الشام أخذ عن العلامة عبد الرحمن بن محمد الكزبري الدمشقي المتوفى سنة 1262هـ/ 1846م [الأعلام، 3/ 333]، وحامد بن أحمد العطار، وعن إمام الحنفية في الجامع الأموي بدمشق الشيخ عمر أفندي الكوسجي الآمدي، وأخذ في المدينة المنورة عن الشيخ علي بن يوسف الملك الباشلي المدني.

لقد أصبحت لصفاء الدين عيسى البندنيجي مكانة علمية مرموقة في العراق، وكان الوزير داود باشا يمدح علمه وذكاءه. فلما جدد الوزير المذكور جامع الحيدرخانة ببغداد أنشأ فيه مدرسة وخزانة كتب، وأقامه مدرسًا فيها، ولقبه برئيس المدرّسين. وكان يحضر صباح كل يوم للتدريس فيها، كما كان صاحب طريقة يجلس عصر كل يوم في تكية السيد علي البندنيجي القريبة من مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني للذكر والتدريس.

وبهذه المكانة تمكن البندنيجي من عقد صلات وثيقة وصداقة مع علماء بغداد ورجالها كأبي الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي المتوفى سنة 1270هـ/ 1854م صاحب تفسير «روح المعاني والسبع المثاني» [الأعلام، 7/ 176]، والشاعر عبد

الباقي بن سليمان بن أحمد الفاروقي العمري المتوفى سنة 1279 هـ/ 1862م [الأعلام، 3/ 271]، والسيد محمود بن زكريا الميلاني القادري شيخ الطريقة القادرية ونقيب الأشراف ببغداد المتوفى سنة 1258هـ/ 1840م، وغيرهم.

برز من تلاميذ عيسى البندنيجي عبد الرحمن بن علي الكيلاني نقيب الأشراف القادرية، والشيخ قاسم الغواص بن محمد بن بكر الطائي، والعلامة خير الدين نعمان بن أبي الثناء محمود الآلوسي المتوفى سنة 1317هـ/ 1899م، وأخوه عبد الباقي الآلوسي المتوفى سنة 1296هـ/ 1878م [هدية العارفين، 2/ 496، 1/ 497]، والشيخ عبد السلام الشواف، والشيخ عبد اللطيف الراوي، وازداد عدد تلامذته ومن أخذ عنه، وأصبحوا قادة الحركة الفكرية والثقافية في تلك الفترة في العراق وأبدعوا وألفوا في شتى صنوف المعرفة.

وقد وصف أبو الثناء شهاب الدين الآلوسي شخصية العلامة البندنيجي بقوله: «كان عاقلاً مدبرًا، ذا أخلاق أرقّ من النسيم، ودودًا، متواضعًا، وقورًا، أديبًا، محبوبًا، ذا حافظة قوية، ونظم لطيف... له معرفة للألسن العربي والفارسي والتركي والكردي والفرنساوي. وخطه بديع في جميع أنواع الخطوط، أخذ الخط عن أستاذ الخط العربي في بغداد في ذلك العصر سفيان الوهبي البغدادي المتوفى سنة 1267هـ/ 1850م [جمهرة الخطاطين، 2/ 644]، وأصبح من الخطاطين المجيدين، كما قال عنه العلامة محمود شكري الآلوسي المتوفى سنة 1342هـ/ 1924م [الأعلام، 7/ 172] إنه كان طويل الباع في جميع العلوم لا سيما علم النحو والصرف والمنطق والفقه والحديث والتاريخ».

كان عيسى صفاء الدين البندنيجي مقلًّا في التأليف على الرغم من غزارة علمه، وإجادته اللغات، وامتلاكه مكتبة حافلة بنفائس المخطوطات ونوادرها، ومعظم ما وصلنا من آثاره رسائل صغيرة في موضوعات مختلفة هذا أشهرها:

- تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما جاورها من البلدان. وهو مختصر في التاريخ لمرتضى نظمي زاده المتوفى سنة 1134هـ/ 1721م وضعه باللغة التركية وسماه «جامع الأنوار في مناقب الأخيار». وقد استحسن هذا الكتاب والي بغداد الوزير إبراهيم باشا الثاني فطلب الوزير من المؤلف الإزادة عليه وإكماله فأنجزه وقدمه للوزير المذكور سنة 1092هـ/ 1681م وقد عرّب هذا الكتاب أحمد بن حامد فخري زاده الموصلي المتوفى سنة 1185هـ/ 1771م بإيعاز من سعد الله نجل الوزير حسين باشا الجليلي، إلا أن ترجمته كانت مختصرة وملخصة.

ولأهمية هذا الكتاب تناول ترجمته عيسى صفاء الدين البندنيجي الذي لم يكتف بتعريبه مع أنه لازم المؤلف في ترتيبه وتسلسله التأريخي، إلا أنه هذّب وحرّر الكثير من المعلومات والنصوص وأضاف إليه زيادات كثيرة، وخالف رأي المؤلف في مواضع عديدة وتجاوز الأصل، مع أن البندنيجي رجع إلى المصادر التي نقل عنها نظمي زاده معلوماته، ليتوسع في الترجمات وتوثيق النصوص وتقويمها. وقد صرح بمخالفته

للمؤلف عندما قال: «طاويًا للكشح عن كلام المؤلف»، أو قوله: «طاوين للكشح عما ذكره المؤلف». كما أكمل البندنيجي بعض النواقص في الترجمات وأضاف تراجم عديدة لبعض الأعلام العارفين الذين لم يذكرهم المؤلف، حتى بلغ عدد الأعلام الذين ذكرت تراجمهم في الكتاب 192 علمًا.

إن هذا الكتاب، وهو من أهم آثار هذا العلامة، يعتبر تأليفًا قائمًا بذاته، متكاملاً منسجما في معلوماته، متجانسًا في أسلوبه، سلس العبارة، ينمّ عن مقدرة هذا العالم الجليل في استخدام المعلومات التاريخية لدراسة المواقع التراثية والآثارية وتعيينها خططيا، ومتابعة المصادر لتقديم معلومات دقيقة عن تراجم الأعلام وآثارهم.

لقد برز هذا العالم الجليل، المؤرخ، الفقيه، المتصوف، المنطقي، المشارك في علوم عديدة في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وأصبح علمًا من أعلام الفكر العربي الإسلامي، وعاملا مؤثرًا في الحياة الفكرية والثقافية في العراق، وقدم لنا هذه النتاجات في تلك الفترة من تاريخنا العربي الإسلامي. وتوفي في السابع عشر من رجب سنة 1283 هـ/الموافق للثاني عشر من تشرين الثاني 1866م، وله من العمر ثمانون عامًا.

■ آثاره

1 ـ تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما جاورها (أوما يليها) من البلدان؛ 2 ـ الأجوبة البندنيجية عن الأسئلة اللاهورية، وهي مجموعة أسئلة وردت إلى علماء بغداد من لاهور بالهند وقد كلف بالإجابة عنها؛ 3 ـ شرح نظم السراجية في الفرائض لسراج الدين محمد بن عبد الرشيد السجاوندي الذي كان حيًّا سنة 596هـ/ 1200م، والنظم لمحمد بن علي الرحبي المتوفى سنة 577هـ/ 1181م [معجم المؤلفين، 11/ 44]؛ 4 ـ شرح القصيدة الرائية وتخميسها لعبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري المتوفى سنة 1278 هـ/ 1861م [معجم المؤلفين، 11/ 44]؛ 5 ـ حاشية على الفوائد الجليلة في مسلسلات ابن عقيلة، في الحديث؛ 6 ـ مشيخة البندنيجي؛ 7 ـ مجموعة البندنيجي، وتضم رسائل وملتقطات من النصوص في العقائد والفلسفة والأدب واللغة والحديث والتاريخ.

■ المصادر والمراجع

● ياقوت، معجم البلدان، 1/ 499؛
● البغدادي، هدية العارفين، بيروت، د. ت، دار إحياء التراث العربي، 1/ 479، 2/ 496 ـ 497؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 71، 11/ 44؛ ● الزركلي، الأعلام، 2/ 294، 3/ 271، 333، 7/ 172، 176؛ ● عمران المندلاوي، مندلي عبر العصور، ط. بغداد 1985؛
● جمهرة الخطاطين، 2/ 644.

د. أسامة ناصر النقشبندي
دار المخطوطات ـ بغداد
العراق

بنَيس، أبو عبد الله محمد بن أحمد

(1160هـ/1747م ـ 1214هـ/1799م)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بنّيس [بنّيس، بهجة البصر، ص 11، 220؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 15 ـ 16]، وقيل: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن بنّيس المغربي الفاسي، ولد سنة 1160هـ/ 1747م. والبنّيس يطلق على الإناء المصنوع من الفخّار، وأكثر ما يستعمل للخمر [مخلوف، الشجرة، 374؛ البغدادي، هديّة العارفين، 2/ 345؛ كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 240].

فقيه، فرضيّ، حسّاب، أديب، حافظ، محقّق، جامع لعلوم عدّة، كان له شقيق يدعى العربي من العلماء الفضلاء. حجّ بنّيس ونزل بمصر ولقي أعلاما واستفاد وأفاد.

تفقّه الشيخ بنّيس بعلماء منهم: عبد الرحمن المنجرة (ت 1179هـ/ 1766م)، ومحمد بن قاسم جسوس (ت 1182هـ/ 1769م)، صاحب كتاب «الفوائد الجليلة البهيّة على الشمائل المحمّديّة»، وأبو عبد الله محمد البنّاني (ت 1194هـ/ 1780م)، ومحمد بن عبد السلام بن محمد بن عبد السلام بن العربي بن الفاسي (ت 1214هـ/ 1800م)، والقاضي عبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون الفاسي أبو محمد (ت 1219هـ/ 1805م) وغيرهم [مخلوف، شجرة، 374؛ بنّيس، بهجة البصر، 8].

تخرّج على يديه مجموعة من التلاميذ منهم: السلطان أبو الربيع سليمان، صاحب «حاشية على الموطأ على الزرقاني»، و«حاشية على شرح المخرشي»؛ وأبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون، الشهير بابن الحاج (ت 1232هـ/ 1817م)؛ وأبو العباس أحمد بن عجينة (أو عجيبة) بن محمد الفاسي، له «أزهار رياض الزمان في طبقات الأعيان» وغير ذلك؛ وعبد القادر الكوهن [مخلوف، شجرة، 374؛ بنّيس، بهجة البصر، 9].

توفّي محمد بنّيس بالوباء الذي أصاب مدينة فاس سنة 1214هـ/ 1799 ـ 1800م، ولم يذكر صاحب معجم المؤلفين تاريخ وفاته، بل اكتفى بالقول بأنّه كان حيّا سنة 1200هـ/ 1796م [بنّيس، بهجة البصر، 9؛ مخلوف، شجرة، 374؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 15؛ كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 240].

آثاره

1 ـ شرح للأربعين النوويّة، بالاشتراك مع أحمد التاودي بن سودة، والشيخ الطيب بن محمد بن كيران، وشيخه عبد القادر بن شقرون، شرح كلّ منهم ربع الأحاديث؛

2 ـ لوامع أنوار الكوكب الدرّي، في شرح همزية الإمام البوصيري، وقد انتهى منها سنة 1200هـ/ 1788م، توجد منها مخطوطة بالخزانة العلميّة بالصبيحيّة رقمها 203،

نسخت سنة 1252هـ/ 1837م، عدد أوراقها 237 [حجّي، فهرس خزانة الصبيحية، ص 302] وهو مطبوع على حاشية الشرح الموسوم بالفوائد الجليلة البهيّة على الشمائل المحمّدية لمحمّد بن قاسم جسوس، طبع في مصر عام 1296هـ/ 1879م، وفي فاس 1297هـ/ 1880م، و1317هـ/ 1900م وعدد أوراقه 389، وعلى هامش الفوائد الجليلة... في مصر سنة 1306هـ/ 1889م و1316هـ/ 1899م [مخلوف، شجرة، 374]؛ 3 ـ كتاب تلخيص وتحصيل ما للأئمة الأعلام في مسائل الحيازة الدائرة بين الحكّام، مخطوط في خزانة الملك بالرّباط تحت رقم 1447د؛ 4 ـ حاشية على بغية الطلاب في شرح منية الحساب لابن غازي؛ 5 ـ بهجة البصر في شرح فرائض المختصر، شرح على فرائض خليل، حقّقه محمد محدّة بالاعتماد على نسختين، الأولى من مكتبة خاصة بالمغرب، والثانية من المكتبة العاشورية بتونس. ويبدو أنّ هذا الكتاب قد طبع بهامش حاشية سيدي محمد بن المدني جنون سنة 1318هـ/ 1901م، وطبع طبعة ثانية موسوما بشرح على فرائض خليل في فاس مع الحاشية المذكورة د.ت [بنّيس، بهجة البصر، ص8؛ البغدادي، هديّة العارفين، 2/ 345؛ سركيس، معجم المطبوعات، 1/ 593؛ مخلوف، شجرة، 374؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 15؛ كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 240 ـ 241].

المصادر والمراجع

● بنّيس، محمد بن أحمد (ت 1214هـ)، بهجة البصر في شرح فرائض المختصر، تح. محمد محدّة، دار الهدى عين مليلة الجزائر؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا (ت 1339هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، جزآن، ط 1402هـ/ 1982م، دار الفكر؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، جزآن، نقله إلى العربيّة محمود فهمي حجازي وفهمي أبو الفضل، ط 1978م، الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ● مخلوف، محمد بن محمد (ت 1360هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكيّة، دار الكتاب العربي، لبنان؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 8 أجزاء، ط 4، بيروت 1979م، دار العلم للملايين، بيروت؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربيّة، 15 جزءًا، 7 مجلّدات، مكتبة المثنّى ودار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● حجّي محمّد، فهرس الخزانة العلميّة الصبحيّة، سلا، ط1، سلا، 1406هـ/ 1985م، منشورات معهد المخطوطات العربيّة، المنظّمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم.

د. منير بن المختار التليلي
جامعة الزيتونة ـ تونس

بهادر خان، أبو الغازي

(1012هـ/1603م ـ 1074هـ/1663م)

وفقا لما ورد في مؤلفه «شجرة تراقم» فقد ولد في شهر ربيع الأول من عام 1012هـ، أغسطس 1603م. وينحدر نسله من عائلة شيبان (شيبان)، ويعود نسب أمه وأبيه إلى عائلة جنكيز خان. وأبوه محمد خان العربى، وهو حفيد من الجيل الرابع لـ «ياديغار خان» وهو جد أحد حكام الأوزبيك الخوارزميين وأمه هي مهربانو خاتون وهي من سلالة ياديغار خان. وقد لقب بـ «أبي الغازي» لأن أباه محمد خان العربي تمكن من هزم الروس الذين هجموا على مدينة أوركنج الواقعة في غربي سيبيريا.

كانت الوظيفة الأولى المهمة التي قام بها أبو الغازي خان، هي تنصيبه واليا على «قاس» في عام 1619م. وفي العام الموالي، وعندما ثار أخواه إلبارس وحبش ضدّ أبيهما وقف هو في صف أبيه. وأثناء هذا التمرد قام أخواه بالقبض على أبيهما وسملا عينيه ثم قتلاه بعد ذلك. أما هو فقد اضطر للفرار والاستنجاد بحاكم بخارى. وعاش أبو الغازي خان في سمرقند لمدة عامين. ثم تمكن أخوه الأكبر إسفنديار سلطان من إبعاد أخويه إلبارس وحبش واستولى على الحكم في خوارزم، ثم عيّن أبا الغازي مساعدا له، وبعد ذلك عينه حاكما على العاصمة القديمة أوركنج.

ومكث أبو الغازي في هذه المدينة ثلاثة أعوام. غير أن أخاه الأكبر عمد إلى قتل كبار وجهاء تركستان ونايمان، ففرّ بعضهم ولجأ إلى أبي الغازي وحرّضوه على الثورة عليه. وهكذا دخل أبو الغازي في صراع مع أخيه الأكبر، ولكنه هزم فاستنجد بحاكم قازاخستان إيشيم (1626). وبعد أن مكث عنده ثلاثة أشهر ذهب إلى طشقند بدعوة من حاكمها دورسون محمد سلطان. وأقام في هذه المدينة سنتين، ثم لجأ بعد ذلك إلى بخارى عند إمام كولي خان. وفي عام 1629 اغتنم فرصة عدم وجود أخيه الأكبر في هيوة، فجمع قواته وهجم على العاصمة واستولى عليها. غير أن أخاه أسفنديار دخل المدينة إثر ذلك، وتمكن من اعتقاله وتم نفيه في البداية إلى قلعة أبي ورد التي تقع تحت سيطرة الصفويين، وبعد أن اعتلى العرش شاه صافي أرسله إلى همذان. وقد عامله شاه صافي معاملة حسنة، وخصّص له ريعا في أصفهان.

استمرت إقامة بهادر خان في إيران لمدة عشرة أعوام. وفي عام 1639 نجح في الفرار رفقة مجموعة من رفاقه ولجأ إلى تكة التركمانيين. وبقي أبو الغازي لمدة من الزمن ضمن مجموعة من تركمان الأرساري. وبعد عامين من ذلك رأى أن يلجأ إلى تركمان مانكشلاك الذين كانوا يوجدون في مكان أكثر أمنا. وفي عام 1641 بقي أبو الغازي لمدة عام في حماية كالموك خان هورلوك. وفي عام 1642 توفي أخوه فتم إعلانه حاكما على أوركنج في

منطقة خوارزم. غير أنه وقبل ذلك بفترة، اعتلى سدة الحكم في العاصمة هيوة قاسم سلطان وهو ابن نذير محمد خان، حاكم الأوزبكيين في بخارى. وفي عام 1645 توفي نذير محمد فاعتلى الحكم ابنه عبد العزيز، واستمر هذا الوضع إلى أن خرجت عساكر بخارى من هيوة. وفي بداية عام 1645 قدم عبد العزيز إلى عاصمة المدينة هيوة وأصبح حاكما لها.

وفي العام الموالي جمع في مدينة هزارسب الوجهاء التركمانيين بحجة إكرامهم، وقتل منهم ألفين، وبذلك اندلعت عداوة التركمانيين ضده وإثر هذه الحادثة مباشرة نشبت مجموعة من الحروب مع التركمانيين، من ذلك الحرب التي كانت مع قاهر خوجه عام 1648 وبايراج عام 1651 ثم مع أيمور وسارك عام 1653. ولم يتمكن أبو الغازي بهادر خان سوى من إخماد الثائرين في مانكشلاك. وبالإضافة إلى ذلك نجح أبو الغازي في حماية بلاده خوارزم من تيارات القالموق القادمين إليها على التوالي في الأعوام 1649 و1653 و1656. كما تصدى في عام 1655 وعام 1662 للأوزبيك القادمين من بخارى. وبعد 21 عاما ترك شؤون الحكم بيد ابنه، وما لبث أن توفي بعد فترة قصيرة.

حكم أبو الغازي بهادر خان منطقة خوارزم في أسوإ فترة من الناحية السياسية والاقتصادية. وكان صاحب معرفة جيدة بالصفويين والقازاك، والأوزبيك، والتركمان، والقالموق حتى قبل أن يتسلم الحكم، وبقي في إيران نحو عشرة أعوام، وهو ما مكنه من إتقان اللغتين الفارسية والعربية إلى حد أنه أصبح يستطيع نظم الشعر بهما. وبالإضافة إلى ذلك استطاع تعلّم اللغة المنغولية أثناء وجوده مع حاكم قالموق. وصاغ تجاربه هذه في مؤلفين اثنين. وعرف بعد ذلك بكونه حاكما مؤرخا.

■ آوثاره

ا ـ شجرة تراقم: يتناول في هذا الكتاب وجهاء التركمان، وقد أنهى تأليفه في عام 1659، ولكي يتيسّر فهمه كتبه بلغة تركية بسيطة. وتوجد في هذا المؤلف معلومات عن التركمان وعن أوغوز خان ونسله، وهو شبيه بـ «الأغوزنامه». وعند تأليفه هذا الكتاب استفاد أبو الغازي بهادر خان من المصادر المكتوبة والشفهية، واستفاد بشكل خاص من الروايات التي حصل عليها من العشائر التركمانية ومن رجالها.

وأما بالنسبة إلى المصادر المكتوبة فقد استفاد بشكل خاص من كتاب «جامع التواريخ» لمؤلفه رشيد الدين فضل الله، ومن هذا الكتاب استفاد فائدة كبيرة من القسم المسمى «أغوزنامه»، غير أن العديد من المعلومات التي نجدها في «أغوزنامه» وكتاب «شجرة تراقم» لا نعثر عليها في كتاب «جامع التواريخ». وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة منها ثلاث نسخ في مكتبة طشقند، ونسختان في عشق آباد، ونسخة في مكتبة لينينغراد. وتوجد منه نسخ أخرى لدى بعض العشائر التركمانية.

وأفضل هذه النسخ وأقدمها هي النسخة الموجودة في طشقند والتي اعتمدها أ.ن كونونوف لنشرها. كما أن النسخة الموجودة في لينينغراد سليمة وكاملة. ومن جهة المحتوى فإن الاختلاف الموجود بين النسخ يعود إلى تداول هذا الكتاب بين أيدي التركمان مدة

طويلة. وكلُّ مستَنْسِخ يضيف للكتاب معلومات حسب الرواية التي يعرفها، وعلى هذا النحو ظهرت شجرات نسب مختلفة.

تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة الروسية من قبل طومانسكي، وفي عام 1897 طبع في عشق آباد في نسخ قليلة جدا بعنوان «تركمان رودوسلوفنايا». وفي عام 1903 شرع في نشره بشكل متسلسل انطلاقا من العدد الأول في مجلة «ما وراء بحر الخزر» التي كانت تصدر باللغات التركية، والفارسية، والروسية، غير أنه لم ينشر كاملاً.

وأول من استعمل هذا الكتاب على اعتباره مصدرا هو و. بارثولد، ففي عام 1929 عندما كان يعد كتابا بعنوان «مختصر تاريخ التركمان» حيث استفاد من الترجمة التي أعدّها طومانسكي. وبالنسبة إلى نسخة مكتبة لينينغراد فقد تم نشرها نشرة طبق الأصل من قبل المجمع اللغوي التركي في عام 1937 بأنقرة.

وأفضل نشرة للكتاب هي التي قام بها عالم التركيات الروسي أ. كونونوف، فقد نشر الكتاب معتمدا على أقدم نسخة منه وهي نسخة طشقند إذ قام بمقارنتها ببقية النسخ الأخرى، وبالإضافة إلى ذلك فقد أرفقها بترجمتها الروسية. [تركمان رودوسلوفنايا، موسكو - لينينغراد 1958]. وآخر نشر تم للكتاب هو الذي قام به محرم أركين، وأرفقها بترجمة إلى تركية، وأضاف إلى الطبعة نص كونونوف [أبو الغازي بهادر خان، شجرة تراقم، استانبول، بدون تاريخ].

كما قامت زحل كاركي بإعداد رسالة ماجستير حول هذا الكتاب في جامعة حاجه تبه، معهد العلوم الاجتماعية (أنقرة 1988) بعنوان «شجرة تراقم» (النص والنحو والفهرس). ثم قامت زحل كاركي مرة أخرى بتعديل رسالة الماجستير هذه وأضافت إليها بعض الإضافات وأعدتها للنشر بعنوان «شجرة تراقم (أصل التركمان) في أنقرة عام 1996 في «سلسلة أبحاث اللغات التركية». وإلى جانب ذلك أعدت حول الكتاب رسالة دكتوراه من قبل جورج لاري بنروسة في عام 1995 بجامعة أنديانا بعنوان: The Politic of Geneology: An Historical Analysis of Abu'l -Gazi's Shejere-i Terakima؛

2 ـ شجرة الترك: ويسمّى هذا الكتاب أيضا «شجرة تركي» ويدور حول تاريخ الشيبانيين نسبة إلى شيبان الأوزبك، وهو يتناول فترة النصف الثاني من القرن الخامس عشر. حيث قدم المؤلف نسب هذه العائلة الحاكمة حتى تاريخ وفاته هو وهو عام 1663، وأما القسم المتبقي فقد أكمله ابنه أنوشه بهادر.

بالنسبة إلى الأقسام الأولى من شجرة الترك اعتمد فيها المؤلف على «جامع التواريخ» لرشيد الدين، أما بقية الأقسام الأخرى فقد استفاد فيها من كتاب بعنوان «معز الأنساب» لمؤلف غير معروف يعود إلى فترة التيموريين. وعرف هذا الكتاب في الغرب في عهد مبكر. وأصبحت له قيمة كبيرة. وعثر عليه من قبل السويدي ستراهلنبورغ في سيبيريا في عام 1717، كما قام سويدي آخر يدعى شنستروم بترجمته إلى الألمانية في عام 1721 مستعينا في ذلك بأحد الأئمة العارفين باللغة الروسية. وفي فترة لاحقة تم جلب أصل الكتاب

وترجمته إلى مدينة كوتينغن. وهناك ترجم إلى اللغة الفرنسية من قبل باران، ونشره الدكتور بنتينك في مجلدين وأضاف له بعض التوضيحات [Histoire Généalargique des Tartares, Traduit du manuscrit Tartare l'Abulgazi Bagadur Chan , La Haye 1726].

وبعد ذلك ترجم المؤلف إلى اللغتين الروسية والإنجليزية غير أنه لم يلق اهتماما كبيرا، وفي عام (1780) نشر بالألمانية في كوتنجن [Ebulgazi Bagadur Chans Geschichtsbuch der Mugalisch-Mongolischen oder Mongolischen Chane]

وفي تلك الأثناء عثر الروس على نسخة أخرى منه. وفي عام (1825) قام المؤرخ ش. فراهن والعالم القازاكي إبراهيم خلفين بنشر النسخة الأصل مرفوقة بتقديم باللغة اللاتينية. [Abulgasi Bagadur Chani Historia Monglorum et Tartarorum].

واعتمادا على هذه النشرة قام ك. صابلوكوف بترجمته إلى اللغة الروسية في عام 1905. كما ترجم إلى اللغة التركية العثمانية من قبل أحمد وفيق باشا معتمدا في ذلك على الطبعة القازاقية ونشر بشكل متفرق ومتسلسل في جريدة «تصوير الأفكار» في الفترة الممتدة ما بين 28 سبتمبر عام 1863 و23 فبراير عام 1864. وما صدر في هذه الجريدة خرج في عام 1864 في شكل كتاب في حجم 152 صفحة. وقام بارون دسمسون بمقارنة جميع النسخ الموجودة إلى ذلك التاريخ ونشره في مجلدين، أحدهما يتضمن النص التركي والثاني يتضمن الترجمة الفرنسية مع الحواشي. [Histoire des Mogols et des Tartares par Aboul-Ghâzi Behâdour Khan, St.Petersburg 1871, 1874] واعتمادا على هذه النشرة طبع الكتاب من قبل عبد السلام فيضخان أوغلي مشفوعا بنصّه باللغة التركية القزاقية، وطبع من قبل رضا نور مرفوقا بتركية تركيا. وأعدت حول الكتاب رسالة دكتوراه من قبل كاظم قره بورك في جامعة سلجوق بعنوان Secer-i Türk Uzerine bir Sentaks Calismasi تمت مناقشتها في عام 1995.

ويذكر أبو الغازي بهادر خان أنه أوّل حاكم مؤرخ، ويذكر أيضا أن جده دورسن سلطان كتب كتابا في التاريخ في عام 1550 بيد أنه لم يصل إلينا، ويذكر كذلك أنه لم يستطع الإطلاع على الكتاب الذي ألفه أوطمش حاجي والذي أنهاه في عام 1551 وتناول فيه الفترة الممتدة من ياديغار خان حتى عام 1551 وأنه عمل وزيرا لدى الحكام الأوزبكيين في خوارزم. وتتضمن مؤلفاته معلومات عن التاريخ التركي في أواسط آسيا وأنساب الأتراك وسلالتهم.

المصادر والمراجع

- Ebulgazi Bahadir Han, secerei Terakime, Istanbul 1937;
- Secerei Terakime; (nesreden Muharrem Ergin), Istanbul, tarihsiz;
- W. Barthold, Orta Asya Türk Tarihi Hakkinda Dersler, Ankara 1975;
- Nihat Sami Banarli, Resimli Türk Edebiyati Tarihi, Istanbul 1971-1979, II, p.645-647;
- Erdoğan Merçil, Fars Atabegleri Salgurlular, Ankara 1975, p.XIX, 28,30;

- Bernard Carra de Vaux, Les Penseurs de l'slam, Paris 1984, I, p.223-227;
- Zuhal Kargi, «Secere-i Terakime, deki Manzum Parçalar Üzerine» Türk Dilleri Arastirmalari, 1991, Ankara, p.80-97;
- Abdulkadir Inan, «Ebulgazi Bahadir Han ve Türkçesi» Türk Dili Arastirmalari Yilliği Belleten, 1957, Ankara, p.29-39;
- Ibrahim Olgun, Ebül- Gazi Bahadir Han» Türk Ansiklopedisi, XIV, p.291-292;
- A. zeki Velidi Togan ,«Ebülgazi Bahadir Han» Islam Ansiklopedisi (Milli Eğitim Bakanliği), IV, p.79-83;
- Ömer Faruk Akün ,«Ahmet Vefik Pasa» Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1989,II,151;
- Mustafa Kafali, «Ebulgazi Bahadir Han» Türkiye Diyanet Vakfi ?slam Ansiklopedisi, Istanbul, 1994, X, 358-360;
- Bertold Spuler, «Abul Ghazi Bahadur Khan» The Encyclopaedia Iranica, London, 1985, I, p.292-293.

د. مصطفى بيرول أولكر
جامعة مرمرا ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

البهاري، محبّ الله بن عبد الشكور

(ت 1119هـ/1707م)

القاضي محب الله بن عبد الشكور البهاري (بكسر الباء) الملقب بفاضل خان، فقيه حنفي أصولي منطقي. ولد ونشأ في كرا وهي قرية من أعمال «محب على بور» من أرض «بهار»، وهي مدينة عظيمة تعرف بالملك؛ وقرأ بهذه المدينة على الشيخ قطب الدين بن عبد الحليم الأنصاري السهالوي، وعلى العلامة قطب الدين الحسيني الشمس آبادي. ثم رحل إلى معسكر السلطان عالمكير. وكان في بلاد الدكن، فولاه القضاء بمدينة لكنهو، ثمّ نقله بعد مدة إلى حيدر آباد. ثم عزله عن القضاء وجعله معلما لرفيع القدر بن شاه عالم بن عالمكير، ولما ولي شاه عالم على بلاد كابل، وسافر إليها، استصحبه مع ولده رفيع القدر فأقام بها زمانا. ثم لما قام شاه عالم بالملك بعد والده عالمكير سنة ثماني عشرة ومائة وألف ولاه الصدارة العظمى ولقبه بـ«فاضل خان».

يعتبر محب الله البهاري أحد علماء عصره الكبار في الهند، ويعدّ باعتراف علماء الهند إماما في المعقولات وعلم أصول الفقه. فمن

مؤلفاته كتابان نالا من الشهرة ما لم يتيسّر لأي كتاب من كتب علماء الهند في موضوعهما. ومما يدلّ على أهمّية هذين الكتابين أن أحدهما يدرّس لطلاب الدرجات النهائية في المدارس النظامية في الهند وباكستان بعد الانتهاء من دراسة «أصول العثمانيين» و«نور الأنوار» وغيرهما من كتب أصول الفقه. ومما يلفت الانتباه في آرائه ذهابه إلى أن مذهب الحنفية أبعد عن الرأي من مذهب الشافعية على خلاف ما اشتهر، ومن أدلته على ذلك قول الحنفية بأن العالم من الكتاب والسنة قطعي لا يصحّ بخلافه القياس، في حين أن الشافعية يجوّزون القياس بخلافه؛ ومنها أن المراسيل من الأحاديث مقبولة عند الحنفية فيقدمونها على الرأي، بينما يقول الشافعي بتقديم الرأي عليها إلاّ أن يكون مع المرسل عاضد من إسناد أو إرسال آخر...

ومنها أن قول الصحابي إن كان فيما لا يدرك بالرأي فعند الحنفية كلّهم حجة ملحق بالسنة فيقدم على القياس، والشافعي لا يرى قوله حجة مقدمة على الرأي بل يقدم رأيه على قوله، ومنها أن زيادة جزء أو شرط في عبارة ثبت إطلاقها بالكتاب يجوز عند الشافعي بالرأي لأنه تخصيص وتقييد، وعند أبي حنيفة لا يجوز ذلك لأنه نسخ لإطلاق الكتاب.

ومنها أن الحنفية احتاطوا في إثبات صحّة الرأي فقالوا إن العلّة، وهو الوصف الجامع بين الأصل والفرع، يجب أن تكون مؤثرة أيًا ظهر تأثيرها بنص أو إجماع، والشافعية اكتفوا بمجرد الإحاطة والملاءمة العلية وإن لم يظهر تأثيره شرعا بل صححوا وإن لم تظهر المناسبة بين الوصف والحكم. ومنها أن الشافعية يثبتون الحدود والكفارات بالرأي، والحنفية لا يصححون الرأي في الحدود ولاشتمالها على حديدات (كذا في الأصل) لا تعقل، انتهى.

■ آثاره

له عدة آثار، منها:

1 ـ سلم العلوي، وهو كتاب في المنطق يوجد في المكتب الهندي 563/ 6، 589/ 2، ومنشستر 387 ج، وبطرسبرج المتحف الآسيوي / بخارى 470، والرباط 509/ 4، وبشاور 1722، ورامبور 1/ 451/ 133، وعليكره 84/ 41، وبنكور، 21/ 2312/ 4، 2331. وطبع عدة مرات [فهرس شلبنجر 1878 ـ 91، منها طبعة لكنهو 1290، وقازان 1906]، وله عدة شروح وحواش منها: المنهية، ويعد هذا الشرح مرجعا للمنطق في الهند ألفه قاضي مبارك بهرم دائم أدهمي فاروقي المتوفي سنة 1162هـ/ 1748م، رقم 4. ويوجد مخطوطا في مانشستر 388 أ، والمتحف الآسيوي بطرسبرج بخارى 474، وعليكره 83/ 20، 84/ 42، 85/ 55ز، 86/ 8، وكلكتا مدرسة 318، ورامبور 455/ 169/ 73، وبنكيبور 21/ 2315/ 6، والمكتب الهندي 567/ 70، وطبع في لكنهو 1256، وكوانبور 1298 (مختلطا مع شرح مولوي تراب علي، لسعد الله القندهاري)، وقازان 1887، وعليه حاشية لمفتي محمد يونس لكهنوي ومحمد الحسامي حافظ دار بشاوري المتوفى سنة

1263هـ/ 1847م [حد الحد 475 بيهار 308، ورامبور 1/ 440]؛ وطبع طبعة ثانية في لكهنو 1306، ثم 1316، ثم 1324؛ وعليه حاشية لمحمد مزمل بن فداء محمد يوسف زي، دهلي 1298، وهناك حاشية على الجزء الأول عنوانها، خاتم الحواشي لمحمد عبد الحق خير آبادي، دهلي 1317، 1324؛ 2 ـ رسالة في الجوهر الفرد، توجد في المكتب الهندي 581/ 9؛ 3 ـ مسلم الثبوت، في أصول الفقه عند الأحناف والشافعية، وهو أصعب الكتب في الموضوع، شرحه كثير من العلماء. وقد ذكر الشيخ عبد الحي ثمانية شروح يعود فضل التقدم فيها إلى الملا نظام الدين الفرنج محلي، فكتب شرحين كل واحد منهما يسمّى شرح مسلم الثبوت، أحدهما طويل والآخر أطول منه، وهذا لا يوجد له نسخة. أما الشرح الطويل فتوجد له نسخ عديدة في مختلف المكتبات الهندية، والشرح الأخير لهذا الكتاب الذي ظهر بعد موته بمائتي عام هو ما كتبه الشيخ عبد الحي خير آبادي ابن الشيخ فضل حق الخير آبادي ألفه سنة 1109/ 1697، يوجد في مانشستر 165، بشاور 554، كلكتا مدرسة 304، آصفيه 2/ 102/ 31، رامبور 1/ 278، 3/ 100، وبنكيبور 19/ 1/ 2/ 1530؛ وطبع في لكنهو 1263، وعليكره 1297، وأيمره 1297، ودلهي 1311، والقاهرة 1326، بولاق (على هامش المستصفى للغزالي)، وله عدة شروح أخرى وحواش بالعربية والفارسية؛ 4 ـ رسالة مغالطة عامة الورود، أو حلّ المغالطة؛ 5 ـ رسالة تتعلّق بكتاب مسلم الثبوت؛ 6 ـ رسالة جزء لا يتجزأ، توجد في المكتب الهندي 581/ 9 وبيهار 463/ 7.

■ المصادر والمراجع

● حدائق الحقائق 53؛ ● مآثر الكرام 221؛ ● سبحة المرجان 76؛ وعينه في بنكي بور 19/ 1/ 1530، انظر: 295، 1913، صباشوك؛ ● هدايت حسين، في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأوروبية الأولى، 1/ 747 أيضًا دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية، دار الفكر، بيروت، مجلد 4/ 248؛ ● معجم المؤلفين، 8/ 179؛ ● فقير محمد النهاوري، 431؛ ● صديق حسن، إتحاف النبلاء، 905؛ ● كشف الظنون، 2/ 5؛ ● نزهة الخواطر، 6/ 250 ـ 252؛ ● البغدادي، هدية العارفين، 1/ 5؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون، 1/ 382، 2/ 23، 481؛ ● المكتبة البلدية، فهرس المنطق، 30؛ ● فهرس أصول الفقه 15؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، 569؛ 595، ● زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، 3/ 337؛ ● فهرس التيمورية، 3/ 40؛ ● فهرس الخديوية، 3/ 40؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 5/ 283؛ ● زبيد، أحمد، الآداب العربية في الهند، ترجمة الشلقامي، وزارة الثقافة والفنون، بغداد 1978، 104 ـ 105؛ ● جميل، أحمد، حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي د.ت، 17، 20، 158؛ ● ثقافة الهند، المجلد الخامس، يوليو 1953م، 22 ـ 26؛

● جامعة البنجاب (مجموعة من المؤلفين)، تاريخ مسلمانان باك وهند ودوسري، جلد عربي أدب، طبع المكتبة العلمية، لاهور 1972م، 280 ـ 281.
● Brockelmann : G, II : 420 - 421; S, II : 622-624. ● Mingana: Catalogue of Arabic Manuscripts, 641 - 642.

د. سمير عبد الحميد إبراهيم
جامعة محمد بن سعود
د. جلال الدين الحفناوي
جامعة القاهرة

ابن بُهرام، أبو بكر أفندي

(ت 1102هـ/ 1691م)

كان يلقب بالمولى الفاضل أبو بكر بن بُهرام أفندي، والمولى من الموالي وهم قضاة الولايات في الدولة العثمانية، والفاضل لقب للعلماء وأرباب الأقلام في الدولة العثمانية، وأفندي هو لقب لموظفي الدولة والمسؤولين في مختلف الشؤون بالدولة العثمانية.

يعد أبو بكر بن بهرام أفندي من علماء المسلمين البارزين في الدولة العثمانية، تخصص في الجغرافيا وعلوم الأرض وله فيها كتب موسوعية ضخمة، وأتم أعمال حاجي خليفة في الجغرافيا حتّى سمي متمم حاجي خليفة. وكان أبو بكر بن بهرام أيضًا ماهرًا جدًا في الرياضيات والحساب، وإن لم تصل إلينا مؤلفات له في هذا المجال إلاّ أن الرياضيات تعد أداة أساسية في فرع الجغرافيا الرياضية.

ولد أبو بكر بن بهرام الحنفي الدمشقي بدمشق قرابة منتصف الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، وبعد أن أتم دراسته بها رحل إلى القسطنطينية (إستنبول) عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك واستوطنها، وكان ذلك في عهد السلطان محمد الرابع (محمد بن إبراهيم خان). وانتسب أبو بكر بن بهرام إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) أحمد باشا كوبريلي زاده. وكان أحمد باشا يعرف بالفاضل، وكان متّصفا بالشجاعة والإقدام وحسن الرأي وأصالة التدبير. وقد قام هو ووالده من قبله بنهضة شاملة وإصلاحات كبيرة في نظم الدولة.

عاش أبو بكر بن بهرام في زمن آل كوبريلي الذي تميّز بالاستقرار الحكومي والتصحيح السياسي واستعادة الهيبة العثمانية، وكان انضمامه لأحمد باشا كوبريلي في سنة 1072هـ/ 1661م، وظلّ ملازما له حتّى وفاة الصدر الأعظم في 24 رمضان 1087هـ/ 30 نوفمبر 1676م، وبعد ذلك لازم أبو بكر بن بهرام الوزير قره مصطفى باشا المبرزفوني الشهير.

بانتساب أبي بكر بن بهرام للصدر الأعظم سلك طريق الموالي وهم قضاة الولايات، ولازم من الموالي الشيخ محمد عزتي، ثم قام بالتدريس في مدرسة بأربعين عثماني، وترقى في المدارس إلى سنة 1099هـ/ 1687م. وفي شهر صفر من هذه السنة أعطي رتبة خامسة سليمانية. وفي جمادى الأولى من نفس السنة ارتقى إلى إحدى المدارس السليمانية. وفي هذه السنة أيضًا عُزل السلطان محمد الرابع في 2 محرم 1099هـ/ 8 نوفمبر 1687م بعد أن حكم أربعين سنة وخمسة أشهر. وفي جمادى الأولى من سنة 1101هـ/ 1690م أعطي أبو بكر بن بهرام أفندي قضاء حلب الشهباء ليحلّ محل خواجه زاده المولى لطف الله. وفي جمادى الأولى من سنة 1102هـ/ 1691م عُزل أبو بكر بن بهرام من قضاء حلب وتولى بدلا منه المولى إدريس أحد الموالي الروميّة.

أمضى أبو بكر بن بهرام معظم حياته بإستنبول وحلب، وقد امتاز باطلاعه الواسع. وكان له في مجال تخصصه الجغرافيا مؤلفات ضخمة مثل: الفتح الرحماني في طرز الدولة العثماني، ونصرت الإسلام والسرور في تحرير أطلس مايور، وغيرها مما سنذكره فيما بعد.

عاصر أبو بكر بن بهرام من مشاهير علماء الدولة العثمانية حاجي خليفة (ت 1068هـ/ 1657م) صاحب «كشف الظنون»، و«جهان نما» (وصف العالم) وغيرهما، وقد أتمّ أبو بكر بن بهرام كتاب «جهان نما» وكذلك بعض الكتب الأخرى لحاجي خليفة حتّى أُطلق عليه متمم حاجي خليفة. عاصر أبو بكر بن بهرام أيضًا أوليا شلبي (ت 1095هـ/ 1683م) صاحب كتاب «سياحت نامه»، ومصطفى نعيما (ت 1128هـ/ 1715م) صاحب «كتاب الأخبار» (تاريخ نعيما) والذي يشكل قمة الكتابة التاريخية العثمانية.

بعد حياة علمية حافلة بالمؤلفات والآثار الضخمة توفي أبو بكر بن بهرام في جمادى الآخرة سنة 1102هـ/ 1691م، ويقول عنه أبو الفضل محمد خليل بن علي المرادي صاحب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر»: «هو أبو بكر بن بهرام الحنفي الدمشقي نزيل القسطنطينة وأحد الموالي الرومية، كان فاضلا عالما مفنّنا متقنا خصوصا بالرياضيات، وكان يدخل مجالس الصدور. واشتهر سنا قدره، وسطعت شمس إقباله، وانتظم عقد سعده حتّى إنه صار معلوما للسلطان محمد بن إبراهيم خان (السلطان محمد الرابع) بسبب همّته وتربية الوزير الفاضل المذكور آنفا (يقصد الصدر الأعظم أحمد باشا كوبريلي زاده) وبعده الوزير قره مصطفى باشا الميرزفوني الشهير».

يعد أبو بكر بن بهرام أحد أعلام العلماء المسلمين في الجغرافيا وعلوم الأرض.

والجغرافيا الذي درسه أبو بكر بن بهرام وأضاف إليه وألف فيه موسوعات ضخمة، من العلوم التي ازدهرت وتطورت مع ظهور الإسلام وقيام الدولة الإسلامية. وكان الحج واتساع الإمبراطورية الإسلامية من العوامل التي دفعت إلى الاهتمام بالدراسات الجغرافية وظهور عدد من الكتب القيّمة في هذا العلم مثل: «المسالك والممالك» لابن خرداذبة، و«البلدان» لليعقوبي، و«الأعلاق النفسية» لابن رستة، و«مسالك الممالك» للإصطخري، و«صورة الأرض» لابن حوقل، و«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي الذي صنع كرة أرضية من الفضّة بيّن عليها

الأقاليم المناخية السبعة، ووضع خريطة متصلة للعالم المعروف في زمنه.
ويتضح لنا من كل ذلك أن أبا بكر بن بهرام ينتمي إلى المرحلة الثانية من المرحلتين الأساسيتين اللتين ازدهر فيهما علم الجغرافيا في تاريخ الحضارة الإسلامية: المرحلة الأولى كانت عند قيام الخلافة العباسية في بغداد أواسط القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، وخاصة في عصر الخليفة المأمون. وكان لهذا العلم أهمّية كبرى للسلطة المركزية في تحصيل الضرائب وتأمين الحدود وإنشاء الطرق وتحديد المسافات ومحطات الاتصال. والمرحلة الثانية لنضج هذا العلم في العالم الإسلامي مع قيام الدولة العثمانية المترامية الأطراف التي كان أبو بكر بن بهرام أحد مشاهير علمائها في هذا المجال.
لقد ظهر أبو بكر بن بهرام في هذا العصر الذي ازدهر فيه علم الجغرافيا حيث كان له أهمّية قصوى في الدولة العثمانية، فألف فيه عدّة موسوعات جغرافية في الفروع الرئيسية للجغرافيا الطبيعية، والبشرية، والسياسية، تطرّق فيها إلى مظاهر سطح الأرض والتربة والحياة النباتية والحيوانية والأقاليم المناخية، كما تطرّق إلى علاقة الإنسان ببيئته وأنشطة السكان وتجمعاتهم والمدن والإنتاج الاقتصادي، والجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كما درس الجغرافية التاريخية وتطور الشعوب.
كانت أعمال أبي بكر بن بهرام امتدادا لسابقيه من العثمانيين الذين ترجموا من اللاتينية إلى التركية وألفوا أيضًا كتبًا وأطالس للملاحة والرحلات مثل أمير البحر التركي «بيري رئيس» في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي الذي وصف شواطىء البحر المتوسط ورسم خريطة موضوعية على أساس خريطة كولمبس ووضع كتابًا عن الملاحة اسمه «بحريّت». وقد عاصر أبو بكر بن بهرام حاجي خليفة (ت 1068هـ/ 1657م) الذي كان من أعظم العلماء العثمانيين والذي ألف في سنة 1065هـ/ 1654م كتاب لوامع النور في ظلمة أطلس مينور وهو ترجمة تركية للأطلس الصغير الذي وضعه مركايتور وهونذياس والذي استعان حاجي خليفة في ترجمته لهذا الكتاب بفرنسي كان اعتنق الدين الإسلامي وتسمّى باسم إخلاصي شيخ محمد أفندي، وكان أبو بكر بن بهرام قد استكمل كتاب جهان نما لحاجي خليفة أيضًا. ومن مشاهير علماء الدولة العثمانية الذين عاصرهم أبو بكر بن بهرام «أوليا شلبي» (ت 1095هـ/ 1683م) الذي ألف كتابه المشهور «سياحتنامه» الذي روى فيه قصة رحلاته وأسفاره في أرجاء الإمبراطورية العثمانية كلها ووصف فيه أحوالها في مادة علمية غزيرة. وقد كان هذا الكتاب من المراجع الهامة التي استفاد منها أبو بكر بن بهرام في كتابه الفتح الرحماني في طرز الدولة العثماني.
لقد كان القرنان السادس عشر والسابع عشر الميلاديان عهد ازدهار وانتعاش بالنسبة للأدب الجغرافي التركي كما ذكر كراتشكوفسكي (ت 1951م) في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي، وقد ذكر في الفصل الحادي والعشرين في حديثه عن الأدب الجغرافي التركي أبرز الشخصيات في هذا المجال فذكر منهم أبا بكر بن بهرام الدمشقي مولدا والذي أمضى معظم حياته بإستنبول

وحلب، ولفت النظر إلى أن مؤلفات أبي بكر بن بهرام ظلّت باقية على هيئة مخطوطات وأوضح أن عددها كبير بشكل ملحوظ. كما ذكر كراتشكوفسكي أن أبا بكر بن بهرام وضع في عام 1086هـ/ 1675م بتكليف من السلطان محمد الرابع مصنفا في ستة أجزاء بعنوان «جغرافياي كبير»، اختصره فيما بعد في جزءين، وكلا المصنفين معروف في نسختين فاخرتين رُفعتا إلى الأعتاب السنية، وفي مسودات لم يبيضها المؤلف. وقد اعتمد أبو بكر بن بهرام في كتابه جغرافياي كبير على «الأطلس الكبير Atlas Major» للعلامة الهولندي W. J. Blaeu (1571 ـ 1638م) الذي نال رواجًا كبيرًا في أوروبا في ذلك العصر. وكان السفير الهولندي قد رفع نسخة من هذه الطبعة اللاتينية بالذات هدية إلى السلطان العثماني سنة 1668م.

وفي موسوعة الجغرافيا الإسلامية (جمع وإعادة طبع فؤاد سزكين) في المجلد الرابع والتسعين ص173 ذكر المستشرق الإيطالي «أتوره رُسّي» (ت 1955م) في مقالته عن الجغرافيين الأتراك حضرة الفاضل أبا بكر بن بهرام الدمشقي، وأشار إلى مؤلفاته الضخمة كما أشار إلى استكماله لكتاب «جهان نما» (Gihannuma) أي وصف العالم لحاجي خليفة.

لقد كان أبو بكر بن بهرام مثالاً احتذاه من أتى بعده من الجغرافيين الأتراك الذين تتلمذوا فكريا عليه مثل: محمد كامل بن دوامي حمص في كتابه «جغرافياي عثماني أو عروسة الدنيا»، وأحمد جواد في كتابه «معلومات الكافية في ممالك العثمانية»، وعبد الرحمن شرف في كتابه «جغرافياي عمومي»، وقدري في كتابه «مدخل جغرافيا ومفصل أوروبا».

وحينما نتحدث عن فكر أبي بكر بن بهرام فإننا لا بد أن نشير إلى نبوغه في الرياضيات كما ذكرت كتب الطبقات. فعلى الرغم من عدم ورود أسماء كتب من تأليفه في فن الرياضيات فإن صاحب «سلك الدرر» يقول عنه: «إنه كان عالما مفننا متقنا خصوصا في الرياضيات فإنه كان بذلك ماهرًا جدًا». إن علم الجغرافيا الذي نال الجزء الأكبر من اهتمام أبي بكر بن بهرام يعتمد في فرع أساسي فيه على الرياضيات وهو فرع الجغرافيا الرياضية.

لم يكن أبو بكر بن بهرام عالما في الجغرافيا والرياضيات فحسب، بل إنه كان ذا باع في بعض العلوم الأخرى مثل علم الجفر. وقد ترجم إلى اللغة التركية كتاب جفر الأقياجي وهو موجود في إستنبول.

إن النشاط الفكري والعلمي لأبي بكر بن بهرام كان سببا في شهرته لدى الصدور والسلطان العثماني وتقلده المناصب الهامة في الدولة مثل قضاء حلب.

■ آثاره

1 ـ كتاب الفتح الرحماني في طرز الدولة العثماني: مازال مخطوطا، منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة بخط أبي بكر بن بهرام نفسه، وهو مجلد كبير أوله: «الحمد لله الذي أنزل على نبيه وجاهدوا في سبيل الله...». وهو تحت رقم 94 ـ تاريخ تركي م (مكتبة مصطفى فاضل)، ومصور على ميكروفيلم برقم 59734 ومعه في بداية الميكروفيلم كتاب آخر لأبي بكر بن بهرام أيضًا بعنوان ترجمة قطعة جغرافيا (في

أوصاف مملكة الفلامنك). ويبدأ كتاب «الفتح الرحماني» في هذا المخطوط بالورقة 348 وأولها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، نصر من الله وفتح قريب.

الحمد لله الذي أنزل على نبيه وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، والصلوات الزاكيات والتسليمات الوافيات على أشرف أولي العزم والجهاد وعلى آله الذين هم سيوف قواضب لقطع عروق العناد وبعد... إلخ»؛ وكتاب «الفتح الرحماني في طرز الدولة العثماني» يحتوي على وصف جغرافية الأقاليم التابعة للدولة العثمانية والمتاخمة لها في قارات: أوروبا، وآسيا، وإفريقيا، في وقت المؤلف. مثل ما ورد في ورقة رقم 351 أ؛ فقد تحدث عن المجر وألمانيا في فصل بعنوان: «فصل در بيان ممالك بحار هونغاريا وألمان يعني جرمانيا». وفي ورقة 352ب تحدث عن المغرب وموريتانيا في فصل بعنوان: «در بيان مملكة مراكش، ومملكة ماوروتانا ومملكة فاس». وفي ورقة 392 أ تحدث بالتفصيل عن جغرافية مصر. وهكذا تناول أبو بكر بن بهرام بالدراسة جميع أقاليم الدولة العثمانية. وهذا الكتاب يعد مرجعا موسوعيا في الجغرافية السياسية والطبيعية والبشرية لهذه الأقاليم؛

2 ـ كتاب نصرت الإسلام والسرور في تحرير أطلس مايور: وهو مخطوط، منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، في تسعة أجزاء في مجلد مضغوط بالذهب، وعنوانها كالتالي: «نصرت الإسلام والسرور في تحرير كتاب أطلس مايور في الجغرافية». تأليف ويلهلم جون بلاو الهولندي J. Blaeu Wilhelm ترجمة: أبي بكر بن بهرام الدمشقي المتوفى سنة 1102هـ، فرغ من الترجمة سنة 1096هـ. وأول الموجود منه «بين أرباب علماء الهيئة... إلخ»؛ وهذه النسخة في مجلد مضغوط بالذهب، الصفحة الأولى مجدولة ومحلاة بالذهب والمداد الأخضر والباقي بالأحمر والأزرق بقلم عادي بدون تاريخ في 465 ورقة مسطرتها 23 سطرا في 16,5×26 سم بها أوراق بيضاء في مواضع متعددة، وهي محفوظة تحت رقم 122 ـ م تاريخ تركي (مكتبة مصطفى فاضل). ورقم الميكروفلم: 61288؛ وهو شرح وترجمة لكتاب «الأطلس الكبير Atlas Major» للعلامة الهولندي W. J. Blaeu (1571 ـ 1638م) الذي نال رواجا كبيرا في أروبا في ذلك العصر. يعد هذا العمل إسهاما كبيرا في تطوير وتأسيس علم الجغرافيا الحديثة كما ظهر في أوروبا في ذلك الوقت. وتوسع أبو بكر بن بهرام في فروع شتى من الجغرافيا مثل الجغرافيا الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والبشرية وغيرها، واعتمد على الصور والخرائط الجغرافية الحديثة؛

3 ـ ترجمة قطعة جغرافيا في أوصاف مملكة الفلمنك: مخطوط، منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة بخط أبي بكر بن بهرام نفسه، وبياناتها كالتالي: «ترجمة قطعة جغرافيا في أوصاف مملكة الفلمنك. تأليف حضرة الفاضل أبي بكر أفندي بن بهرام. في مجلد واحد أوله بعد البسملة: در بيان مملكت...»، وهي محفوظة تحت رقم 94 تاريخ تركي ـ م (مكتبة مصطفى فاضل)، وعدد أوراقها 554 مقاس 21×15 سم وهي مصورة على ميكروفيلم برقم 59734، ومعها

في نفس الميكروفيلم كتاب «الفتح الرحماني في طرز الدولة العثماني».
وغلاف المخطوط بالعنوان التالي: «فلمنك مملكتن بيا در جغرافيادن». ويبدأ بالورقة رقم 1 وأولها: «بسم الله الرحمن الرحيم يا مسهل كل عسير: در بيان مملكت بلجيا يعني فلمنك... إلخ».
ويحتوي هذا المخطوط على وصف جغرافية الأقاليم في قارة أوروبا بدءا بمملكة الفلمنك (هولندا)، ثم وصف جغرافية الأقاليم الواقعة في قارة آسيا بدءا بالورقة رقم 188 من المخطوط تحت عنوان: أقسام آسيا؛ ومنهجه يقوم على الوصف الجغرافي من حيث التضاريس الطبيعية، والحدود السياسية، والثروات الحيوانية والنباتية والمعدنية، والأنهار، والسكان بأجناسهم وتوزيعهم. وكان في هذا السياق يذكر أيضا بعض الحوادث التاريخية، بحيث شمل الجغرافية الطبيعية والسياسية والتاريخية؛ 4 ـ ترجمة الجغرافيا الكبرى (جغرافياي كبير): مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة، وبياناته كالتالي: «ترجمة الجغرافيا الكبرى (جغرافياي كبير)». تأليف المولى الفاضل أبي بكر أفندي بن بهرام الدمشقي، وهو من علماء القرن الحادي عشر. وهي نسخة في خمسة مجلدات بجلد أصفر داخل مظروف مجزع، وبها خروم؛ عدد أوراق الجزء الأول 554، والثاني 559، والثالث231، والرابع 67، والخامس 269، ومسطرتها مختلفة بخط المؤلف وهي تسويدة. وهذا المخطوط محفوظ تحت أرقام الميكروفيلم التالية: 60945، 57027، 57053. وهو كتاب موسوعي في أصول الجغرافيا يتضمن التعريف بعلم الجغرافيا وأهدافها، ومقدمة عن الجغرافيا الفلكية بوصف الكرة الأرضية ووصف فصول السنة وأيامها، ثم يتطرق إلى التضاريس والجغرافيا الطبيعية والبحار والمحيطات، وتوزيع السكان وأجناسهم، والثروات الحيوانية والنباتية والمعدنية في دول العالم المعروفة آنذاك في قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا واستراليا التي كانت تسمّى «فلمنك جديد» نظرا لأن الهولنديين هم أول من اكتشفوها. فهو كتاب موسوعي شامل عن جغرافيا العالم السياسية والطبيعية والبشرية؛ 5 ـ جغرافية بهرام في بيان قسم أوروبا. وهو مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة وبياناتها كالتالي: «جغرافية بهرام في بيان قسم أوروبا. تأليف المولى الفاضل بهرام أفندي. أولها باب در بيان قسم أوروبا..». وهي نسخة في مجلد بجلد أحمر مذهب داخل ظرف مجزع بدائر مذهب، عدد أوراقها 264 ومسطرتها 31 بقلم تعليق بخط السيد أحمد نجيب. تمّ تحريرها في 29 صفر سنة 1269هـ. وهي محفوظة تحت رقم 145 ـ تاريخ تركي م (مكتبة مصطفى فاضل)؛ 6 ـ تكملة كتاب جهان نما لحاجي خليفة. ذكر كراتشكوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي أن حاجي خليفة كان قد بدأ في وضع مصنفه الشهير «جهان نما» (Gihannuma) أي «وصف العالم» في حوالي سنة 1058هـ/ 1648م وبقيت المسودة الأولى للمصنف غير مكتملة، رغم أن المؤلف رفعها إلى السلطان محمد الرابع وحال دون إتمامها اشتغال حاجي خليفة بوضع مؤلفات أخرى ذات طابع جغرافي أيضًا، ولكنها تنتمي إلى اتجاه آخر يرتبط بتعرفه على الأدب الجغرافي

الأوروبي في تلك الآونة، ثم عاد حاجي خليفة ليكتب المسودة الثانية لـ «جهان نما» والتي لم تكتمل أيضًا. ولكن أبا بكر بن بهرام قام بإجراء تصحيحات ووضع ملاحظات بخطه على هذه المسودة وأكملها، وهي مخطوطة موجودة بفيينا كما ذكر كراتشكوفسكي. وبذلك يكون أبو بكر بن بهرام قد أتمّ هذا الكتاب الشهير. وقد طبع كتاب «جهان نما» ونشره «إبراهيم متفرقة» (مؤسس الطباعة في الدولة العثمانية) في عام 1145هـ/ 1732م واحتوت الطبعة على الزيادات الكبيرة التي كتبها أبو بكر بن بهرام. من هنا يتبيّن لنا أن أبا بكر بن بهرام هو الذي أكمل المسودة الثانية من كتاب «جهان نما» لحاجي خليفة وذلك في غضون القرن الذي عاش فيه حاجي خليفة نفسه. وجميع الدلائل تشير إلى أنه هو الذي أعطاها صورتها النهائية، وعلى أية حال فإنها هي التي اعتمدت عليها طبعة عام 1145هـ/ 1732م التي تنسب الزيادات العديدة الواردة في المتن إلى أبي بكر بن بهرام، وهذه الطبعة تحتوي على القسم المخصص لآسيا مضافا إليه التكملة التي عملها أبو بكر بن بهرام. ؟

7 ـ جفر الأقياجي. ذكر صاحب «سلك الدرر» [الجزء الأول، 51] أن أبا بكر بن بهرام قد ترجم بالتركية الكتاب المشهور المسمى جفر الأقياجي. وعلم الجفر والجامعة ـ كما يعرفه طاش كبري زاده في كتابه «مفتاح السعادة» ـ هو عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على ما كان وما يكون كليا وجزئيا. والجفر عبارة عن لوح القضاء الذي هو عقل الكل، والجامعة لوح القدر الذي هو نفس الكل.

وقد ذكر أن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريق البسط الأعظم في جلد الجفر يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة ألفاظ مخصوصة يستخرج منها ما في لوح القضاء والقدر. وهذا علم توارثه أهل البيت ومن ينتمي إليهم ويأخذ منهم من المشايخ الكاملين. وفيه يقول أبو العلاء المعري (ت 449هـ) في ديوان اللزوميات [من الوافر]:

لقد عجبوا لأهل البيت لما
أتاهم علمهم في مسك جفر
ومرآة المنجم وهي صغرى
أرته كل عامرة وقفر

ويتبين لنا من ذلك أن أبا بكر بن بهرام كان ذا اطلاع واسع، وقد تطرق إلى أنواع شتّى من العلوم والمعارف.

ومخطوطة كتاب «جفر الأقياجي» الذي ترجمه أبو بكر بن بهرام إلى التركية، موجودة في إستنبول؛ فقد ذكر صاحب «سلك الدرر» أنه وضع بعد ذلك في الخزينة السلطانية لنفاسته.

المصادر والمراجع

• أبو الفضل محمد خليل بن علي المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، (ت 1206هـ) الطبعة الثالثة 1408هـ/ 1988م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان، 1/ 50 ـ 51، ذكر ترجمة لحياته وبعض أعماله وذكر منها

كتاب جفر الأقياحي؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إستنبول سنة 1366هـ/ 1947م، 2/ 165؛ ● المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف ببيروت 1877م/ 1294هـ، 2/ 9؛ ● عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 3/ 60؛ ● أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان 1408هـ/ 1987م، دار الغرب الإسلامي؛ ● فؤاد سزكين بالتعاون مع كارل إبرج - إيجرت، مازن عماوي، إيكهارد نويباور، الجغرافيا الإسلامية، المجلد الرابع والتسعون، نصوص ودراسات حول جغرافيا وطبوغرافيا آسيا الصغرى، 1412هـ/ 1993م، ج1؛ ● محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، جامعة القاهرة، مصورة من الطبعة الثانية بمطبعة محمد أفندي مصطفى، قدم بمصر المحمية ربيع الثاني سنة 1314هـ/ 1896م؛ ● روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة - باريس، صدر هذا العدد بالتعارن مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون - قسم الترجمة - القاهرة؛ ● طاش كبري زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، مراجعة وتحقيق كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ج1؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت 1414هـ/ 1994م، دار الفكر؛ ● محمد كامل بن دوامي حمص، جغرافياي عثماني أو عروسة الدنيا، طبع في إستنبول سنة 1290هـ، عن أمر وتنسيب مجلس كبير معارف؛ ● كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، بيروت 1988، دار العلم للملايين؛ ● رشدي راشد، موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج3، الجغرافيا وعلوم الأرض؛ ● طلعت أحمد محمد عبده ودكتورة حورية محمد حسين جاد اللّه، أصول الجغرافية العامة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 1995؛ ● الموسوعة العربية الميسرة، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان؛ ● سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة عبد الرزاق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1421هـ/ 2000م؛ ● دكتور مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، القاهرة 2000م، دار غريب للطباعة والنشر.

- Rossi, Ettore, Galata e I Geografi Tur-chi, Studi Bizantini (Roma) 2, 1977, 65-74, Imp, 69.

د. ابراهيم مصطفى الصعيدي
كلية العلوم - جامعة القاهرة
مصر

بهران، محمد بن يحيى

(883هـ/1478م - 957هـ/1550م)

هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد التميمي اليماني الصعدي، الشهير ببَهْران أو بابن بهران، أحد علماء اليمن المشاهير. كان في بداية أمره يشتغل بالتجارة متنقلا بين اليمن والحبشة، وهو خلال ذلك يطلب العلم في كل محل يتجر فيه، وتتلمذ على كثير من المشائخ، من أشهرهم السيد المرتضى بين قاسم، فمهر في جميع الفنون حتى أصبح من العلماء المبرزين خاصة في علوم الاجتهاد ولا سيّما علوم الحديث. كما تفرَّد برئاسة العلم في عصره، أيضًا كان شاعرًا أديبًا له شعرٌ جيد ورسائلُ بليغة. تتلمذ عليه الكثير ومنهم العلاّمة يحيى بن محمد بن حسن بن حمر بن مسعود المقري المتوفى (990هـ/1582م) [الأكوع، هجر العلم، ج1، ص 29؛ الشوكاني، البدر الطالع، ص 859؛ حسين العمري، مصادر التراث اليمني، ص 241؛ والحبشي، مصادر الفكر العربي، ص 52].

له مصنفات كثيرة «كشرح الأثمار» في الفقه، وفي الأصول صنّف «الكافل» كما صنّف في المعاني والبيان والعروض والقوافي، وله «جواهر الأخبار» في تخريج «البحر الزاخر» للإمام المهدي وهو من الكتب المعتمدة حيث أسند إلى أحاديثه أمهات الست واستخرجه من «جامع الأوصال» لابن الأثير (ت 606هـ) وغيره [حسين العمري، المرجع المذكور، ص 241 - 242؛ الحبشي، المرجع المذكور، ص 52].

توفي صاحب الترجمة حيث ولد في صعده في اليمن يوم السبت في 12 شهر رمضان [الأكوع: المرجع المذكور، ج1، ص 29].

آثاره

1 - جواهر الأخبار والآثار المستخرجة من لُجَةِ البحر الزاخر. مخطوط (خ) 981 بمكتبة المتحف البريطاني 3034 أخرى (خ) 1090 الجامع الكبير في صنعاء 291 حديث، ثالثه (خ) 1044 برقم 31 حديث، ونسخ أخرى متعددة. طبع مع كتاب (البحر الزاخر) في القاهرة سنة 1366هـ/ 1947م؛ 2 - كتاب الكافل بنَيل السُّؤل في أصول الفقه (خ)؛ 3 - إبتسام البرق في شرح منظومة (القَصَص الحق في مدح خير الخَلق) للإمام شرف الدين؛ 4 - الإنكار على متصوفة هذا الزمان، رسالة؛ 5 - بداية المهتدى في علم الطّريقة؛ 6 - بهجة الجمال، ومحجة الكمال في المذموم والممدوح من الخصال من الأئمة والعُمَّال؛ 7 - تُحفة الطلاب في النحو وشرحها؛ 8 - شرح الأثمار الجامع لأدلة علماء الأمصار، في ثمانية أجزاء؛ 9 - التفسير الجامع بين تفسير الزمخشري وتفسير ابن كثير؛ 10 - التكميل الشاف في معنى الكشاف «حاشية على تفسير الكشاف»

(خ) خط قديم في 199 صفحة، الجامع الكبير 79 تفسير، وذكره بنفس الاسم، وأن صاحب الترجمة جمع فيه بين الرِّواية والدِّراية، في ثمانية مجلدات؛ 11 ـ قُوت الأرواح المنتزع من تلخيص مختصر المفتاح في علم المعاني والبيان؛ 12 ـ المختصر الشافي في علم العروض والقوافي؛ 13 ـ معتمد ذوي العقول المنتزع من جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير جمع فيه الأمهات الست ورتبه على أبواب الفقه، في مجلدين كبيرين؛ 14 ـ الملاحة في علم المساحة، وله رسائل وبحوث كثيرة.

[الأكوع، المرجع المذكور، ج1، ص 30؛ حسين العمري، مصادر التراث اليمني، ص 241 ـ 244؛ الحبشي، المرجع المذكور، ص 25، 52، 210].

المصادر والمراجع

• الأكوع، إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، الطبعة الأولى دار الفكر المعاصر، بيروت، 1995م؛ • الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تح. د. حسين عبدالله العمري، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، 1998م؛ • العمري، حسين بن عبد الله، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار، دمشق، 1980م؛ • الحبشي، عبدالله محمد، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، بدون تاريخ.

د. محمد عبدالله بن هاوى باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

ابن بهريز، أبو سعيد عبد يشوع حبيب

(184هـ/800م ـ 246هـ/860م)

هو أبو سعيد عبد يشوع حبيب بن بهريز. رئيس دير مار إيليا (دير سعيد) بالموصل. وهو منافس إيليا الطيرهاني على الجثلقة. أصبح مطرانا على آثور منطقة الموصل. ويعتبر ابن البهريز إلى جانب كوركيس مطران آثور، قانوني كنيسة المشرق. ألّف في الفلسفة واللاهوت. لم يرد له ذكر كثير في مراجعنا العربيّة عن الترجمة. ويقول لوسيان ليكلارك في كتابه تاريخ الأطبّاء [الجزء الأوّل، 176] إنّ أبا يشوع بن بهريز ابن مطران الموصلي كان صديق جبرائيل بن يشوع. وقد عمل له عدّة ترجمات. كما قام بترجمات أخرى كثيرة للخليفة العبّاسي المأمون بناء على طلبه.

آثاره

يذكر ليكلارك [المخطوط رقم 1028 من

الخزانة العبريّة للمخطوطات في باريس] أنّ حبيب بن بهريز ترجم من السريانيّة إلى العربيّة كتاب الحساب لنيكوماخوس.

ويذكر له عبد يشوع الصوبابي صاحب كتاب «فهرس المؤلّفين» كتابين هما: «تقسيم المواريث» و«تفسير الخدم». ويظنّ السمعاني أنّ «كتاب الخدم» هو الذي نشره كونولي باسم كوركيس الأربلي. وفي الحقيقة هو من تأليف ابن البهريز.

ونشر له ونسب: كتابا في الزواج.

أمّا ابن النديم فقد ذكره في الفهرست باسم حبيب أو عبد يشوع بن فهريز أو بهريز في الكلام على كتاب «قاطيغورياس» أي «المقولات» لأرسطو، فقال: «ولهذا الكتاب مختصرات وجوامع مشجرة وغير مشجرة لجماعة منهم ابن المقفع، ابن بهريز...» [انظر كذلك حاجي خليفة، كشف الظنون، 1810]. كما يذكره ابن النديم من بين الذين ألّفوا المختصرات لكتاب «باري أرمينياس» أي كتاب «العبارة» لأرسطو. وهو ما جعل ابن البهريز يمتاز بكونه «أحد الأوائل الذين كتبوا نصًا منطقيًا عربيًا» [نيقولا ريشر، تطوّر المنطق العربي، 256].

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، ليبزج، 1872؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، إستنبول، 1941؛ ● لوسيان ليكلارك، تاريخ الأطبّاء (باللغة الفرنسيّة) في جزئين؛ ● نيقولا ريشر، تطوّر المنطق العربي، ترجمة ودراسة وتعليق محمد مهران، دار المعارف، القاهرة 1985، 255ـ 256؛

- Moritz Steinschneider, Die arabischen Uebersetzungen aus dem Griechischen, Leipzig, 1893;
- George Graf, Geschichte der christlichen arabischen Litteratur, Series, Vatican City, 1944-1953.

د. سيمون الحائك

الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البهشتي، رمضان عبد المحسن الفيزوي

(ت 979هـ/ 1571م)

ورد ذكر هذا العالم في المصادر باسم رمضان عبد المحسن الفيزوي. وذكر بهذا اللقب لأنه ولد في مدينة «فيزة». واستقر في مدينة چورلو بعدما أكمل تعليمه، وعمل واعظا دينيا وعرف بـ «واعظ چورلو». وذكره من قبل بروكلمان بلقب الوزيري وهو لقب خاطىء [Geschichte der Arabischen Litteratur Supplementbant,I, 759]، أما لقب «البهشتي» فأطلق عليه لاستخدامه له في أبيات شعرية. ولأجل الحيلولة دون حدوث خلط بين من يحملون هذا اللقب، قام بإضافة كلمة «الواعظ» وأحيانا «الثاني» على هذا

اللقب. ولكن المصادر الحديثة تتحدث عنه على شكل رمضان البهشتي أفندي.

انتقل البهشتي إلى استانبول لتلقي العلم، وهناك تلقى دروسا من الملا سنان، ومرحبا چلبي، وشيخ الإسلام صادي أفندي. وانتسب بعد وفاة الأخير إلى حلقة مركز الأفندي الدراسية. وهذا العالم كان من كبار علماء عصره. وأكمل البهشتي رحلته الدراسية لدى هذا العالم وأخذ منه الخلافة. ومن ثم ارتحل من استانبول متوجها إلى چورلو ليستقر فيها. وبدأ يمارس وظيفة الإمامة والخطابة في جامع أحمد باشا من ناحية ويمارس نشاطات التصوف في بيته الذي حول قسماً منه إلى زاوية للتصوف من ناحية أخرى. وبالإضافة إلى إلقائه دروسا في التصوف على بعض الطلبة الذين أسكنهم في غرف بناها حول زاويته.

ويذكر من طلبته الظريفي الذي كان شاعرا فحلا ونصيرا قيّما لمذهبه. واستمر البهشتي يمارس وظيفته التعليمية والتربوية في چورلو لسنوات طويلة حتى توفي فيها. ودفن في حديقة الزاوية التي كانت تعرف باسمه. وذكر الرحّالة أوليا چلبي زاوية البهشتي ضمن معالم مدينة چورلو التي ذكرها في رحلاته.

يعتبر البهشتي حسب التقييم للمصادر عالما كبيرا حاز على مكانة فريدة بين علماء عصره قبل أن ينتسب إلى الطرق الصوفية. أما بعد ذلك فقد أصبح عارفا وكاملا ومرشدا ذا تأثير على مريديه، وواعظا وخطيبا وشاعراً مبتكرا لخيالات تعبر عن المعاني التي كان يرنو إليها. وكان شاعرا مقتدرا على نظم الشعر. ويؤكد ما كتبه على أسبقيته في الشعر. وكان دمث الأخلاق، لطيف المعشر، وظريف الشخصية. وتناول كبار المؤلفين مثل عهدي، وعاشق چلبي، هذه الجوانب من شخصيته من خلال تعرفهما عليه مباشرة. كما ذكرا بعض المواقف والطرائف التي عاشاها معه. وأصبح البهشتي موضوعا لبحثين مهمين خلال السنوات الأخيرة [انظر: المصادر والمراجع]. وكان ذا شخصية متعددة المواهب، وقد نشأ البهشتي في عهد السلطان سليمان القانوني وهو جدير بالبحث والدراسة.

آثاره

أ ـ الحواشي والتعليقات:

1 ـ حاشية الحاشية على شرح عقائد النّسفي للخيالي: هذا المؤلف مسجل في أدلة (كاتالوجات) المكتبات بأسماء مختلفة. وهو عبارة عن حاشية على الشرح الذي كتبه التفتازاني لكتاب «العقائد» لعمر النسفي. ويذكر قنالي زاده وعطائي «أنه لم تكتب أجمل من هذه الحاشية على هذا المؤلف». وهذا الكتاب يعكس قناعاته المختلفة في تلك الفترة. وجدير بالذكر أن كتاب البهشتي هذا يذكر ضمن المؤلفات التي نشرت حول «شرح العقائد» والتي يتجاوز عددها الخمسين مؤلفا بين شرح وتعليق [أنظر: يورداكور ص. 52]. وتوجد من المؤلف نسخ عديدة في المكتبات المختلفة [أنظر مثلا: مكتبة السليمانية، لاله لي، رقم 2196؛ الفاتح، رقم 2968؛ رشيد أفندي، رقم 1024/1، 1030؛ مكتبة رشيد أفندي في قيصري، رقم 470]، كما أن بروكلمان عثر له على عدد من المخطوطات

[Geschichte der Arabischen Litteratur Supplementbant I,759].

وفي كاتالوج مخطوطات مكتبة كوبريلي ذكرت مؤلفات الكاتب، وذكر اسمه على النحو التالي: رمضان بن محمد الحنفي الماتريدي المعروف بـ «بهشتي». / أحمد بن رمضان بن حسن الغزوي البهشتي. ويمكن أن يكون ذكر على هذا النحو خطأ أو أن الاسم الأول هو كاتب الشرح رمضان أفندي، والثاني يعود إلى شخص آخر. [انظر: بالنسبة إلى الكنية الأولى، I، 393، رقم 807؛ وبالنسبة إلى الكنية الثانية انظر III، 320]. وطبع الكتاب مرات كثيرة [استانبول 1265، 1308، 1320، 1326هـ]، ونشر أيضا مع حاشية الكستلي والخيالي (استانبول 1927)؛ 2 ـ حاشية آداب المسعودي: ذكر محمد طاهر البورصوي هذا المؤلف بهذا الاسم، أما كاتب چلبي فقد ذكره بعنوان «تعليقات»، [كشف الظنون، I، 40]. وبهذا الاسم أيضا ذكره بروكلمان ويقول إن هناك نسخة منه في برلين [Geschichte der Arabischen Litteratur,I,616]. وحسب ما يفهم فإن هذا المؤلف هو عبارة على تعليق البهشتي على الشرح الذي كتبه كمال الدين مسعود بن حسين الشيرواني الرومي (905هـ/ 1499م) على «رسالة في آداب البحث» وهي حول آداب المناظرة لصاحبها شمس الدين محمد بن أشرف الحسيني السمرقندي.

ويورد محمد طاهر البورصوي أن للبهشتي مؤلفا بعنوان «تعليقات على شرح المفتاح»، غير أن كاتب چلبي وبروكلمان لا يذكران أي مؤلف للبهشتي ضمن المؤلفين الذين كتبوا تعليقات أو حواشي على هذا المؤلف المشهور في البلاغة للسكاكي.

كما أن هذا الكتاب لم يعثر عليه في المكتبات، ولذلك فبالإمكان القول إنه ليس من تأليف البهشتي. ومن جانب آخر يذكر محمد طاهر البورصوي أيضا مؤلفا آخر للبهشتي بعنوان «تعليقات على الجامي». وهو تعليق على الشرح الذي كتبه الملاّ الجامي على كتاب «الكافية» لجمال الدين بن الحاجه والذي أسماه «الفوائد الضيائية»، بيد أنه لم يتم العثور على هذا التعليق سواء في «كشف الظنون» أو ما شابه ذلك من المصادر.

ولكننا نعثر للمؤلف على رسالتين أخريين في مكتبة السليمانية هما «العشر الكاملة» [رشيد أفندي، رقم 2/ 1030] و«تفسير لآية ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 158] [رشيد أفندي، رقم 3/ 1030]

ب - الآثار الأدبية :

1 ـ الديوان : هذا الكتاب يورده كاتب چلبي في [كشف الظنون، I، 780]، غير أن سعيد الدين نزهت أركون يقول إنه لم يتمكن من العثور عليه، أما عهدي، وهو معاصر لكاتب چلبي فيقول إنه قرأ هذا الديوان وهو في حوالي 1000 إلى 2000 بيت.

وبالإضافة إلى ذلك فإن رياضي يذكر أنه رأى هذا المؤلف. لكن المعروف أنه وحتى وقت قريب لم يتم العثور على نسخة من هذا «الديوان». وقام يشار آيدمير بإعداد رسالة دكتوراه حول «الديوان» ثم نشرها (أنقرة 2000). وفي هذه الرسالة توجد 4 قصائد (kaside) وتركيب - بند واحد، و561 غزلا

و9 نظم و7 مقطوعات (kita) و3 مربعات و8 مخمسات، و3 تخميسات (tahmis) و38 مطلعا (matla) و30 مفردا. ويلاحظ أن هناك قصائد أخرى لم تدرس في هذه الرسالة وقد عثرت عليها أمينة يني تارزي في المكتبة الوطنية في قيصري، وعند النظر في النسخ الموجودة في باريس والقاهرة يتبيّن أن عدد القصائد يقارب الألف قصيدة. أما ما هو مسجل في مكتبة السليمانية بعنوان «ديوان بهشتي» [أسعد أفندي، رقم 2614] فهي مثنوية عن جمشاه وعالمشاه. ويلاحظ أن هناك في هذه المجموعة عددا من القصائد والغزليات والمخمسات والمسدسات، ويلاحظ كذلك أن ما كتب منها في موضوع التصوف وموضوع الغزل كان بلغة بسيطة وصادقة؛ 2 ـ جمشاه وعالمشاه : كتبت هذه المثنوية على وزن «فاعلات مفاعلن فاعلن»، وتتكون من حوالي 2500 بيت، وتدور حول قصة العشق بين جمشاه وعالمشاه، وهي مثنوية أصلية من حيث الموضوع. وفي آخر كل بحث (موضوع) ينتقل بواسطة مجموعة من الأبيات الشعرية، وقد اعتبر ذلك تجديدا بالنظر إلى تلك الفترة. وتوجد من المؤلف نسختان في مكتبة السليمانية [أسعد أفندي، رقم 2614؛ ألماللي رقم 1/ 2596]، غير أن ثمة نقصًا في بداية كلتا النسختين، وقد قام محرم دينذار بإعداد رسالة ماجيستر حول هذه المثنوية [جامعة ألو داغ، معهد العلوم الاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة، بورصة 1999]؛ 3 ـ هشت بهشت : كُتبت هذه المثنوية على وزن «مفاعيلن مفاعيلن فعول»، وهي تتكون من 1130 بيتا حسب ما ذكر هو نفسه. ومن خلال العنوان يفهم أنها عبارة عن رسالة نصحية (في النصائح) مقسمة إلى ثمانية أقسام. وهناك اثنتان من النسخ الموجودة في مكتبة السليمانية في نهاية مخطوطة جمشاه وعالمشاه، والنسخة الأولى منهما منقوصة بعض الشيء. أما النسخة الموجودة في المكتبة الوطنية [علي أميري، منظوم، رقم 861] فهي ناقصة أيضا وعثرت أمينة يني تارزي على أربع نسخ أخرى ناقصة وهي موجودة في السليمانية، والمكتبة الوطنية، ومكتبة أنطاليا (ألمالي)، ومكتبة السليمية في أدرنة، وقد أعدت حولها دراسة نقدية [مثنوية هشت بهشت للبهشتي، استانبول 2001]؛ 4 ـ شرح منظومة المعلا (شرح منظومة معلا): هي شرح لمنظومة الملاّ جامي التي هي بعنوان «المعمى الصغير». وتوجد منها نسخة في مكتبة السليمانية [طارلان، رقم 52/ 8]، وهي باللغة التركية وقد أتمها في عام (977هـ/ 1569 ـ 1570م).

يورد كتاب «المؤلفون العثمانيون» أن للبهشتي مؤلفا بعنوان «سليمان نامه» لكن المصادر الأخرى لا تؤيد هذا الكلام. ويذكر يشار آيدمير أن هناك جدلا كبيرا في نسبة «جهرنكيز» و«المولد» للبهشتي.

المصادر والمراجع

● عاشق چلبي، مشاعر الشعراء، ورق 58أ-59أ؛ ● لطيفي، التذكرة / 105؛ ● عهدي، غلشن شعراء، مكتبة السليمانية، خالد أفندي، رقم 107، ورق 72أ-75أ؛ ● قنالي زاده، التذكرة، I، 226 ـ 228؛ ● عطائي، ذيل الشقائق، I، 156-157؛ ● رياضي، رياض الشعراء، مكتبة نور عثمانية، رقم 3205/

3724، ورق 41ب-42ب؛ • كاتب جلبي، سلم الوصول، مكتبة السليمانية، الشهيد علي باشا، رقم 1887، ورق 96أ؛ • كشف الظنون، I، 40، 780؛ II، 1146، 2055؛ • أولياء جلبي، سياحت نامه، III، 298، السجل العثماني، II، 34؛ • حسين وصاف، السفينة، III، 277؛

- Osmanli Müellifleri, I, 42-43;
- Ergun, Türk Sairleri, I, 787-794;
- Brockelmann, Geschichte Der Arabischen Litteratur, I, 616; Geschichte Der Arabischen Litteratur Supplementbant., I, 759;
- Türkçe Yazma Divanlar Kataloğu, II, 526;
- Hediyyetü'l-ârifîn, I, 370;
- Türkiye Yazmalari Toplu Kataloğu 07/III, p. 181, 190; 34/I, p. 75; III, p. 84;
- Levend, Türk Edebiyati Tarihi, p. 135;
- Köprülü Kütüphanesi Yazmalar Kataloğu, Istanbul 1406/1986, I, 393; III, 320;
- Metin Yurdagür, Bibliyografik Bir Kelâm Tarihi Denemesi, Istanbul 1989, p. 50-52, 55;
- TA, VI, 20, Yasar Aydemir, Behistî Divani, Ankara 2000 p. 84-86, 88-90;
- Emine Yeniterzi, Behistî'nin Hest Behist Mesnevîsi, Istanbul 2001, p. 35-39, 57-60.

د. مصطفى أوزون
استانبول ـ تركيا
ترجمة : أنعم محمد عثمان الكباشي
السودان

البهكلي، عبد الرحمن بن أحمد الضمدي

(1182هـ/1768م ـ 1248هـ/1832م)

هو عبد الرحمن بن أحمد الضمدي التهامي اليمني الملقب بالبهكلي ولد بصبيا سنة 1182هـ/ 1768م وتنقل بينها وبين صنعاء، وينتمي إلى أسرة البهاكلة التي تسكن منطقة المخلاف السليماني باليمن. وقد تولى الكثير من أفراد تلك الأسرة العديد من الوظائف، منها الإفتاء والقضاء واشتهر منهم شعراء وأدباء ومؤرخون ولهم تآليف عديدة وخاصة في علوم الدين منهم الشيخ عبدالرحمن البهكلي.

عاصر البهكلي الشيخ أحمد بن إدريس مؤسس الطريقة الإدريسية المعروف [انظر ترجمته بنفس الموسوعة] وشهد قدومه إلى اليمن. وقال في مدحه شعرًا طويلا ، وكانت منطقة

صبيا قبل قدوم أحمد بن إدريس إليها مفتقرة إلى الإصلاح العلمي والديني، وكما وصفهم أحد المؤرخين بقوله: «يغلب عليهم الجهل وقد تركوا أمور الدين ولم يبق لهم من الإسلام إلّا الاسم». فاجتمع ابن إدريس والبهكلي على إصلاح المنطقة وتوعيتها دينيًا، وقد تقاطب الناس عليهم ثم أخذت تصلهم الوفود من خارج صبيا بطلب العلم والمعرفة.
ويمكن اعتبار البهكلي أحد طلاب المدرسة الإدريسية باليمن، وله فضل على نشر تلك الدعوة في كثير من مدن اليمن، ومما هو متفق عليه أن البهكلي كان من أكثر علماء اليمن حبًا بالإدريسي، وكان معظم وقته قد قطعه في تدوين مجالس شيخه ودروسه وفتاويه، ويعتقد بعض المؤرخين أن البهكلي لم يلتق مع ابن إدريس، ولم يأخذ عنه مباشرة، وإنما سمع به وتأثر عن بعد ثم أخذ يسجل دروسه وتعاليم الإدريسية ويبدأ بنشرها.
وكان البهكلي من علماء اليمن المشهورين الذين عرف عنهم الاهتمام الكبير بالشرع وأصوله بالإضافة إلى الاهتمام بالتصوف.
وكان ممن عرف بالتشريع والتحقيق، وقد قاده سلوكه هذا إلى حفظ القرآن الكريم. وكان منذ نشأته العلمية الأولى يدرس الفقه والنحو يتلقى دروسه على أكبر علماء عصره باليمن، وخاصة في مدينة صنعاء منهم العلامة محمد ابن علي الشوكاني الذي درس على يده النحو والصرف والبلاغة والمنطق وأصول التفسير. كما أخذ العلم عن الشيخ علي بن عبد الله الجلال الحسين المغربي.
تولى البهكلي عددًا من الوظائف الدينية وكان في معظمها يقوم بتدريس العلوم الدينية في جامع صنعاء الكبير. وأستاذًا للفقه والتفسير في المدرسة الأميرية، ثم تولى منصب قاضي بيت الفتية في سنة 1211هـ/ 1796م بأمر من الأمير المنصور علي بن العباس، وقد نجح في وظيفته وحمدت سيرته في القضاء.
لقد كان البهكلي عالمًا مشهورًا في عصره وعرف بالشعر أيضًا إضافة إلى معرفة بالعلوم الشرعية والتصوف، وكان من جملة قصائده التي ذكرها متأثرًا بالتصوف قوله:

علمت شوقًا إليها فزارت
وأشارت أن ثمّ ودّ صحيح

وخاتمتها بقوله:

فاشملوه بما يكون به لي
جنة الخلد داره البجوح

وقد توفي الشيخ عبدالرحمن البهكلي سنة 1248هـ/ 1832م متأثرًا من سم دسّ له في طعامه، ولم تشر المصادر صراحة إلى الجهة التي اغتالته ويبدو أنه كان يعيش صراعًا فكريًا مع بعض علماء عصره، وأن بعض العلماء أرادوا إبعاده من السلطة اليمانية التي أولته ثقتها وعينته قاضيًا في دولتها - كما مرّ - مما دفع بعض حسّاده للعمل على قتله وإبعاده من الصدارة في المجتمع.

آثاره

للرجل مؤلفات عدة منها:
1 - نفح العود في أخبار دولة الشريف محمود، الذي أرّخ فيه لسنوات من تاريخ الجزيرة العربية؛ 2 - الثقات بمعرفة طبقات رجال الأمهات؛ 3 - تيسير اليسرى بشرح المجتبى من السنن الكبرى؛ 4 - الأفاويق بمعرفة رجال التعاليق، وله أيضا كتاب «الأنساب».

المصادر والمراجع

● الزركلي، خيرالدين، الأعلام، قاموس تراجم (مادة بهكلي)، بيروت 1969؛ ● الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، بيروت، د.ت؛ ● العقيلي، محمد أحمد، مقدمة نفح العود لعبد الرحمن البهكلي، الرياض، 1989؛ ● الميرغني، محمد عثمان، المناقب؛ ● اليمني، الصنعاني محمد، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، القاهرة، 1350هـ.

أ. د. دريد عبد القادر نوري
قسم التاريخ ـ كلية الآداب
ـ جامعة الموصل ـ العراق

البهكلي، عبد الرحمن بن حسن بن علي

(1148هـ/1735م ـ 1224هـ/1809م)

عبد الرحمن بن حسن بن علي البهكلي، التهامي.

مؤرخ، كان حاكم مدينة أبي عريش في تهامة اليمن، وقاضي الأشراف فيها [الزركلي، خير الدين، الأعلام، 3/ 304؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 5/ 134].

آثاره

1 ـ خلاصة العسجد في أيام الشريف محمد بن أحمد، مخطوط موجود في المكتبة العقيلية بجازان جنوب المملكة العربية السعودية، ويقع في مائة صفحة؛ 2 ـ نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف، مخطوط أيضًا، موجود في العقيلية بمدينة جازان بجنوب المملكة العربية السعودية [الزركلي، الأعلام، 3/ 304؛ كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 134].

المصادر والمراجع

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 3/ 304؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن بهلول، الحسن

(ق 4هـ/10م)

ولد في أوانا في الطيرهان على مسافة ستين كيلومترًا شمالي بغداد، وكان ذلك في النصف الأوّل من القرن الرابع للهجرة. تعلّم في مدارس بغداد. وعلّم فيها، وفي صغره كان مولعًا بالتصاوير. ودرس الطب وصار طبيبًا وفلكيًا. وفي بغداد وضع معجمًا أشبه بموسوعة جمعت ما جاء في آثار اليونان، وزاد عليها شروحًا استقاها من المصادر السريانية، ودبّجه بالسريانية والعربية. هذا المعجم نشره روبنس دوفال في باريس (1886 ـ 1903).

ويقول مانفريد أولْمان: إن الحسن بن بهلول، وموسى بن إبراهيم الحديثي قاما بترجمة كتاب في الطب ليوحنا سرابيون لعلّه المختصر في سبع مقالات، منه شذرات في مخطوطة أياصوفيا المرقّمة 3716 (ص 1 ـ 7)، ومخطوطة الأسكوريال 818/ 4 حسبما ذكر فؤاد سيزكين في كتابه. وذكر يوسف حبّي إنه: كان له دور في انتخاب الجاثليق عبد يشوع الأوّل عام 967 ميلادية.

آثاره

كتابه الموسوم «الآثار العلوية» الذي حققه وقدم له د. يوسف حبّي الكاتب المتخصّص بالكتابات السريانية، وقد نشره في مجلّة المجمع العلمي العراقي ـ الهيأة السريانية ـ المجلّد الثامن (ص 165 ـ 195)، 1984، وهو في واقعه باب من أبواب كتابه الكبير الموسوم «الدلائل».

ولعل «كتاب الدلائل» هو أبرز كتبه وقد وصلتنا منه عدّة مخطوطات هذا تفصيلها:

آ ـ مخطوطة خزانة حكيم أوغلي بالآستانة ضمن مجموع برقم 1/ 572، الورقة 1 ـ 300، فرغ من نسخه موفق الدولة شرف الحكماء أبو علي الحسن بن عيسى النجمي في جمادى الأولى سنة 556هـ.

ب ـ مخطوطة مكتبة الفاتح بالآستانة، وهي نسخة مختصرة ضمن مجموع برقم 5411 من الورقة 115آ ـ 138آ، منقولة سنة 679هـ عن نسخة كتبت سنة 616هـ.

ج ـ مخطوطة مكتبة رئيس الكتاب بالآستانة ضمن مجموع برقم 1163 من الورقة 28ب ـ 92آ، كتبت في القرن الثامن الهجري.

وكتاب الدلائل ضمّ تسعة وأربعين باباً في دلائل الأشياء، منها: دلائل الشهور، والأعياد، والأصوام، والفرائض، والآثار العلوية، والفراسة، والخيل، والسموم، والأمراض، والأبدان. وينتهي بالباب التاسع والأربعين، وهو باب تعبير الرؤيا.

وباب تعبير الرؤيا هذا نشره محققًا د. يوسف حبي في مجلّة «المورد» العراقية عام 1984، وهو يشكّل كتابًا صغيرًا اعتمد مصنّفه بالدرجة الأساسية على كتابين:

أوّلهما: «كتاب الرؤيا» لأرطاميدورس الأفسسي نقله من اليونانية إلى العربية حنين بن إسحاق (ت 260هـ)، وقابله بالأصل اليوناني وحققه وقدم له توفيق فهد ونشر في دمشق عام 1964، ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية.

وكان النص اليوناني الأصلي قد نشر في أوروبا عام 1518، وترجم إلى اللاتينية سنة 1529، وإلى الإيطالية سنة 1547، وإلى الألمانية سنة 1554 ثم إلى الفرنسية عام 1624م.

وقد استخدم أساسًا لكتب تعبير الرؤيا في العصر الوسيط في أوروبا وترجمة حنين كانت دقيقة وصحيحة، كما يقول محقّق الكتاب رغم الألفاظ اليونانية والسريانية القليلة المستعملة. ومخطوطة الترجمة العربية محفوظة في مكتبة جامعة استانبول برقم 4726 وهي بعنوان كتاب تعبير المنامات للحكيم أرطاميدورس على مقالات.

وثانيهما: كتاب «تعبير الرؤيا» لابن سيرين (ت 110هـ)، وتعبير الرؤيا معناه: تفسير الأحلام. وفي مقدّمة هذا الباب يؤكّد الحسن بن بهلول بأنّ تعبير الرؤيا علم جليل. وأن أهل الديانات جميعًا يعترفون بذلك. وهو يفسّر الأحلام برأي قريب من آراء علماء القرن العشرين. فيقول: وإن كان قدماء الأطباء ينسبون ما يراه الإنسان في منامه إلى الأخلاط الغالبة على بدنه وما يديم الفكر فيه. وقد تحدّث عن الرأي الطبّي العلمي الشائع في عصره إذ قسّموا الأحلام إلى ثمانية أقسام: أربعة منها تتبع أخلاط البدن وهي المرة السوداء، والمرة الصفراء، والبلغم، والدم، والأربعة الأخرى تصدر عن الفكر والنفس والأنذار والمأكل. وهو لا ينسى أن يشير إلى تأثير القمر والنهار والليل والسحر.

لم يتطرّق ابن البهلول لتشخيص الأصول خلافًا لما ذهب إليه أرطاميدورس، واكتفى بذكر العنوان ثمّ تناول حال رؤية الله تعالى والقيامة والجنّة والنار والملائكة والصالحين والطالحين والقبلة والكعبة والصلاة والقضاء والإمام. وهي مواضيع ورد بعضها عند ابن سيرين ولا شيء منها لدى أرطاميدورس. فاليوناني لا يؤمن به ابن سيرين المسلم وابن البهلول وإن كان مسيحيًا لكنه كان يعيش في بيئة إسلامية، ولأنّه كان يتحلى بروح منفتحة، كما يتّضح من كتابه، نراه لا يهمل القبلة والكعبة ودلائلهما، هذا بالإضافة إلى تناوله تعبير رؤيا الله تعالى والملائكة والصالحين والجنّة والنار.

وكان أرطاميدورس قد افتتح كتابه بالتمييز بين الرؤيا والأضعاث، كما تحدّث عن أسباب المنامات، أي البدن والنفس. وفي الرؤى الظاهرة وفي ذوات التأويل ثم في أنواع الرؤيا. ولم يتناول ابن البهلول شيئاً من ذلك.

وقد رفع ابن البهلول الرؤيا إلى مصاف النبوءة شرط أن تكون صادقة، وكان ابن سيرين قد قال إن الرؤيا جزء من ستّة وأربعين جزءًا من النبوءة. وينتقل ابن البهلول إلى تعبير رؤية الشمس والقمر والنجوم وثمّة ما يناظر ذلك لدى ابن سيرين وأرطاميدورس. وخصّص ابن البهلول فقرة لدلائل رؤيا الأموات، في حين تحدّث أرطاميدورس عن مجامعة الموتى في الرؤيا، بينما تناول ابن سيرين تأويل رؤيا

الموتى وأخبارهم وتطرّق ابن البهلول إلى دلائل الأبنية والمنازل، وتناول أرطاميدورس شيئًا من ذلك، ويختلف ذلك عمّا جاء لدى ابن سيرين.

وتحدّث ابن البهلول عن دلائل التلال الجبال وهو ما نلقاه لدى ابن سيرين، ونقل ابن البهلول ما جاء لدى ابن سيرين بشأن دلائل الأمطار، وتناول ابن البهلول دلائل الأشربة ودلائل الأشجار والثمار والنبات وثمّة أشياء منها لدى أرطاميدورس وابن سيرين. وتناول ابن البهلول دلائل الأروقة والفساطيط ومنه طفيف لدى ابن سيرين. كما تناول ابن البهلول دلائل الثياب والفرش وهذه الدلائل وردت مفصّلة لدى أرطاميدورس، ووردت موجزة لدى ابن سيرين. ثم تناول ابن البهلول دلائل السلاح وهو موجود لدى ابن سيرين ومفقود عند أرطاميدورس وتناول ابن سيرين دلائل الجوهر والحلي والفضة والذهب مستهشداً بابن سيرين صراحة، وهو موضوع نلقاه أيضًا عند أرطاميدورس. وتناول ابن البهلول دلائل الطيران والوثوب، وله ما يشبهه لدى أرطاميدورس، وخصّص ابن البهلول فقرات عدّة لدلائل رؤية الحيوان مفصّلاً القول في لحيوانات الأليفة والوحشية البريّة والبحرية، كما لدى ابن سيرين ولا وجود لهذه الموضوعات لدى أرطاميدورس.

ثم ذكر ابن البهلول دلائل الصناع وأصحاب الحِرَف، وهو موجود لدى ابن سيرين. وختم ابن البهلول كلامه بشيء من النوادر، وهو ما نجده لدى ابن سيرين. ويبدو من هذا العرض الموجز المركز المقارن، أن الحسن بن البهلول قد جمع مادة كتابه من كتاب «تعبير الرؤيا» لابن سيرين بشكل أساسي، لكنه رجع أيضًا إلى كتاب تعبير الرؤيا لأرطاميدورس، وربّما نقل عن مصدر آخر يرجح أنه كان مصدرًا سريانيًا. ورغم أنه جمع مادّته من كتب غيره، فإنه رتّبها وفق نظام خاص فقدم وأخر، وغيّر وعدّل واختصر وأضاف، فجاء عمله علميًا ودقيقًا وهو في كل الأحوال عمل علمي جيّد لم تحفظ لنا المصادر المتاحة تاريخ وفاته كما لم تحفظ تاريخ مولده، وعلى أيّة حال فإنّنا على ثقة من أنّه من رجال القرن الرابع الهجري مولدًا ووفاةً.

المصادر والمراجع

● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1995. المجلد الأوّل، ص 305؛ ● ششن، رمضان، نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا، 431 ـ 432؛ ● حبّي، يوسف، مجلّة المجمع العلمي العراقي، الهيئة السريانية، المجلد الثامن، بغداد 1984؛ ● كحالة، معجم المؤلّفين. 210/3؛ ● الصوباوي، عبد يشوع، فهرس المؤلفين، حققه وترجمه إلى العربية يوسف حبّي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1986؛ ● حبّي، يوسف، تعبير الرؤيا للحسن بن بهلول، مجلّة المورد، ع 1، م 13، بغداد 1984.

هلال ناجي
باحث في التراث ـ العراق

بهمنيار، أبو الحسن بهمنيار بن مرزبان العجمي

(ت 458هـ/1066م)

ليست هناك معلومات كافية تسلط الضوء على حياته. والمعروف أنه ولد من عائلة مجوسية ثم اعتنق الإسلام بعد ذلك. ويعتبر من بين طلاب ابن سيناء البارزين الذين تلقوا عنه العلم أثناء وجوده في همذان (1015م - 1024م) وفي أصفهان (1024م - 1037م)، بيد أن بهمنيار لم يكن يعرف اللغة العربية معرفة جيدة. وفي عهد علاء الدولة (1008م - 1041م) دارت نقاشات مختلفة بين ابن سيناء وبهمنيار، وفي هذه الأثناء جمعت الأجوبة التي أجاب عليها ابن سيناء على أسئلة طلبته المتميزين مثل بهمنيار، وأبي منصور بن زيله، وأبي جعفر محمد بن حسين بن مرزبان، وقد وصلت إلينا هذه النقاشات في شكل كتاب بعنوان «المباحثات»، وهو يمثل مصدرا مهما لفهم أفكار ابن سيناء ونظرياته.

توجد نسخة من هذا المؤلف في مصر، وقد أضيفت إليها في نهايتها رسالتان يخاطب فيهما ابن سيناء طرفا ما بقوله «الشيخ الفاضل»، وليس هناك شك في أن المقصود به هنا هو بهمنيار.

وبالاعتماد على هذه المعلومات يتبين لنا أن أستاذه كان يوليه احتراما كبيرا. وبالرغم من كل هذا فإنه لم يثبت جدارة وتفوقا كبيرين في مجال الفلسفة. توفي في عام 1066م. ويذكر علي بن زيد البيهقي أنه توفي بعد ابن سيناء بثلاثين عاما، وعلى هذا النحو يكون التاريخ الذي ذكره بروكلمان عن وفاته وهو عام 1038م غير صحيح.

عرف بهمنيار بكثرة شروحه لأستاذه وتعليقاته على منهجه الفلسفي. ويلاحظ أنه كان يختلف مع ابن سيناء من حيث وجهة النظر في بعض المسائل، فالمادة الأولى التي لا شكل لها هي عبارة عن مجرد مفهوم، ومن هذه الناحية فالهيولى لا تعتبر جوهرا بالمعنى الكامل [بهمنيار، ما بعد الطبيعة، القاهرة 1329، ص. 8].

وحسب رأي بهمنيار فإن الله تعالى حي لا لأنه واحد وخالق كل شيء وإنما لأنه سبب وجود العالم، ولذلك فهو واجب الوجود ووجوده بلا سبب. فلا يصح الحديث بشأنه عن سبب ومسبب (علة ومعلول)، ولا يوجد هناك سابق ومسبوق من حيث الزمن. وفي هذه الحالة فإن وجود الله تعالى سابق عن وجود العالم من حيث كونه ذاتا لا من حيث الزمن.

وانطلاقا من هذه الفكرة يقول بهمنيار إنه ينبغي إطلاق ثلاث صفات على الله تعالى. ونظرا لذلك فالله تعالى هو الأول بذاته، وقائم بذاته، وواجب الوجود. وبتعبير آخر فذات الله تعالى شرط ضروري لوجوده تعالى، ذلك أننا عندما نفكر بشكل مطلق في

الوجود لا نقصد الشدّة والضعف والقلة والكثرة والكمال والنقص، وإنما ينظر فقط في موضوع البداية والنهاية والاحتياج وعدم الاحتياج والضرورة والإمكان وهي صفات كلية، وما إذا كان الله تعالى يمتلكها أم لا. وهو في هذا الموضوع وفي موضوع تشكل الكوزميك وفي التحليلات التي أتى بها تعليقا على هذه المسائل التزم بخط ابن سيناء التزاما كبيرا.

حسب بهمنيار فإن الموجودات تنقسم إلى قسمين: الموجودات البسيطة، والموجودات المعقدة. فالموجودات البسيطة تكتسب صفة الأبدية بعد أن تنتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل وذلك بهدف ألاّ تفسد وتندثر. وكمثال على ذلك فالهيولى تكتسب شكلا بعد أن تخرج إلى الوجود من حيّز الإمكان والقوة وذلك حتى لا تفسد وتزول، إذ إنه لم يتبق فيها حالة القوة والإمكان. وبتعبير آخر، ليس من الممكن زوالها. وبلا شك فإن المعنى المقصود من هذا الفهم أن المادة وبالتالي العالم لا فناء لهما، فهما أبديان خالدان. وهذا المنطق يقود إلى القول بأن نفس الإنسان أيضا تكون نهايتها الخلود.

آثاره

1 ـ كتاب التحصيل: يذكر في المصادر هذا الكتاب تحت عنوان «التحصيلات»، وقد ألفه بهمنيار أثناء وجوده في أصفهان [1024 ـ 1037] وأهداه إلى عمّه زردشت أبي منصور بن بهرام بن خورشيد بن يزان. ويتألف الكتاب من ثلاثة أبواب وهي المنطق، والفيزيقا، والميتافيزيقا. وهو عبارة عن اختصار لكتب ابن سيناء «الشفاء» و«النجاة» و«الإشارات والتنبيهات». كما يحتوي على خلاصة النقاشات التي درات بينه وبين أستاذه. وفي كتابه هذا اتخذ كتاب ابن سيناء المسمى «دانشنامه علائي» نموذجا ومثالا له. ونشر الكتاب لأول مرة في القاهرة عام 1329 ثم في طهران [نشر مرتضى مطهري، 1349/ هجري شمسي/ 1970]، وترجمت بعض أقسام كتاب «التحصيل» إلى اللغة الروسية ثم نشرت من قبل أ. ف. صاغاديفا (باكو 1983)؛ 2 ـ رسالة في مراتب الموجودات؛ 3 ـ رسالة في موضوع العلم المعروف بما بعد الطبيعة: قام س. بوبر بنشرها مرفوقة بالرسالة السابقة مع ترجمتها الألمانية، كما أجرى حولها دراسة نقدية [Behmenjar ben El-merzuban, der persische Aristotelker aus avisennas Schule: Zwei metaphysische Abhandlungen von ihm Arabisch und Deutsch mit Anmerkungen, Leipzig 1851]. وبالإضافة إلى ذلك قام عبد الجليل سعد بنشر هذه الرسائل بعنوان «بهمنيار، ما بعد الطبيعة» [القاهرة 1329]؛ 4 ـ التعليقات: هو عبارة عن ملاحظات سجّلها بهمنيار من الدروس التي كان يتلقاها عن ابن سيناء، وهي تدور حول المصطلحات الأساسية في الميتافيزيقا والفيزيقا والمنطق. وليس معروفا ما إذا كان ألّفه في همذان في عهد سلطنة شمس الدولة (997 ـ 1021) وكانت عبارة عن خلاصة المناقشات التي جمعته بابن سيناء، أم أنه ألفها في عهد علاء الدولة. وقد نشر كتاب «التعليقات» من قبل عبد الرحمن بدوي، القاهرة 1392هـ/ 1973م.

بالإضافة إلى ذلك توجد له مؤلفات أخرى لم تنشر إلى حد الآن نشرة علمية، وهي على النحو التالي: «مقالة في آراء المشائين في أمور النفس وقواها» [مكتبة السليمانية، قسم نافذ باشا، رقم 1316، ورق 54أ ـ 57ب] و «في إثبات العقول الفاعلة والدلالة على عددها وإثبات النفوس السماوية» [مكتبة كوبرلي، رقم 1604، ورق 72أ ـ 83ب] و«كتاب الرتبة في المنطق» و«كتاب الزينة في المنطق» و«كتاب البهجة».

المصادر والمراجع

• بهمنيار بن مرزبان، كتاب التحصيل، القاهرة 1326؛ • المؤلف نفسه، ما بعد الطبيعة، القاهرة 1329، ص. 8، 10؛ • المؤلف نفسه، رسالة في مراتب الموجودات، نشر س. بوبر، ليبزك 1851، ص. 12 ـ 13؛ • المؤلف نفسه، التعليقات، نشر عبد الرحمن بدوي، القاهرة 1392هـ/ 1973م؛ • نظامي عروضي، جهار مقالة، ترجمة محمد طاود، الرباط 1403هـ/ 1982م، ص. 201؛ • البيهقي، علي بن زيد، تتمة صوان الحكمة، نشر محمد الشاوي، لاهور 1351، ص. 91 ـ 92؛ • الشهرزوري، محمد بن محمود، نزهة الأرواح وروضة الأفراح، ترجمة مقصود علي التبريزي، طهران 1365 هجري، ص. 385، 398، 448؛ • سركيس إليان، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، I ـ III، القاهرة 1928 ـ 1930، I، 598؛

- Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur I, 599-600;
- Brockelmann, Supplementband., I, 828;
- Abdurrahman Bedevî, Aristo inde'l-Arab, Kahire 1947, Giris, p. 35-40, 119-239;
- De Boer, Târihu'l-felsefe fi'l-Islâm (trans. Muhammed Abdûlhâdî Ebû Rîde), Kahire 1948, p. 270-272.
- Bagdatli Ismail Pasa, Hediyyetü'l-ârifîn, (nsr Kilisli Muallim Rifat Ibnulemîm Mahmut Kemâl) Istanbul 1951-1955, I, 244;
- Abdullah Ni'met, Felâsifetü's-Sîa, Beyrut 1987, p. 295-296;
- F. Rahman, «Bahmanyar», Encyclopaedia of Islam (new edition) Leiden 1954, (Ing.), I, 926;
- Hans Daiber, «Bahmanyar, Kia», Encyclopaedia Iranica, London 1985-, III, 501-503.

د. محمود قايا
جامعة مرمرا ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

البهوتي، منصور بن يونس

(1000هـ/1591م ـ 1051هـ/1641م)

هو منصور بن يونس بن صلاح الدين البُهوتي الحنبلي، نسبة إلى «بهوت» في غربية مصر، شيخ الحنابلة بمصر في عصره وأحد الأعلام المبرّزين في الفقه الحنبلي، وصاحب التآليف الكثيرة والمحررة فيه؛ جمع ـ مع التبحر في الفقه ـ فنونا شرعية كثيرة كالتفسير والأصول والفرائض.

ولد بمصر سنة ألف هجرية وبها نشأ وتعلم، أخذ عن كثير من المتأخرين من الحنابلة منهم الجمال يوسف البهوتي، والشيخ عبد الرحمان البهوتي، والشيخ محمد الشامي المرداوي وأكثرُ أخْذِه عنه، والشيخ يحيى بن الشرف موسى الحجاوي الدمشقي، والنّور علي الحلبي والشهاب أحمد الوارثي، وصرف جل وقته في البحث والنظر وتحرير المسائل الفقهية حتى برز فيها وانفرد في عصره بالإحاطة بمذهب أحمد بن حنبل حتى رحل إليه الناس من الآفاق، من الشام والحجاز وبيت المقدس وغيرها من البلاد؛ وكثر الآخذون عنه، أشهرهم: ابن أخته الشيخ محمد بن أحمد الخلوتي، ومحمد بن أبي السرور البهوتي، وإبراهيم بن أبي بكر الصالحي، ويوسف الكرمي، وعبد الباقي الدمشقي وغيرهم [المحبي، خلاصة الأثر، 4/ 426].

كانت له مكارم دارّة تأتيه الهدايا والصدقات، فيفرقها على طلبة العلم ولا يأخذ منها شيئا، وصولا لأهل بلده. وكان في كل ليلة جمعة يقيم ضيافة، ويدعو إليها جماعته وطلبته، وإذا مرض منهم أحد عاده وأخذه إلى بيته وتولى تمريضه، وكان له نظم لطيف، منه قوله [من الوافر]:

كأنَّ الدهر في خفض الأعالي
وفي رفع الأسافل واللئام
فقيه عنده الأخبار صحّت
بتفضيل السجود على القيام

[محمد إسماعيل شعبان، أصول الفقه، 520].

وكانت وفاته بمصر في العاشر من شهر ربيع الثاني سنة إحدى وخمسين وألف للهجرة، ودفن في تربة المجاورين [سركيس، معجم المطبوعات، 1/ 599].

آثاره

1 ـ كشاف القناع عن متن الإقناع، مطبوع في ستة أجزاء، شرح فيه كتاب «الإقناع» لأبي النجا موسى بن أحمد الحجاوي الصالحي الدمشقي الحنبلي (ت 960 هـ)، وقد مزج المتن بالشرح فتآلفت ألفاظهما ومعانيهما حتى أصبحا كالشيء الواحد. وقد بذل المؤلف في تحريره وتحقيق أصوله جهدا

واسعا حتى بلغ به الأمر إلى تتبع أصول المتن التي اقتبس منها «كالمقنع» لعبد الله بن قدامة المقدسي (ت 620هـ) و«المحرر» لعبد السلام بن تيمية (ت 652هـ) و «الفروع» لمحمد بن مفلح (ت 763هـ)، و«المستوعب» للسامري (ت. 610 هـ) وما تيسر له الاطلاع عليه من شروح تلك الكتب وحواشيها كـ «الشرح الكبير على المقنع» لعبد الرحمان بن قدامة (ت 682هـ)، و «المبدع» و«الإنصاف» وكلاهما لعلاء الدين المرداوي (ت 885هـ)، وغيرها. وكان تعويله أكثر على« «شرح المنتهى» و«المبدع»، كما اهتم بذكر ما أهمله المتن من قيود، وتكلم عن علل الأحكام وأدلتها على طريق الاختصار غير المردود، وبيّن المعتمد من المواضع التي تعارض كلامه فيها، وما خالف فيه كتاب «المنتهى» [عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية، 379]؛ 2 ـ دقائق أولي النّهى لشرح منتهى الإرادات، في فقه الحنابلة. والمنتهى لتقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي (ت 972 هـ) والمعروف بابن النجار، ويتميز هذا الشرح بالعرض المفصل والتدليل والتعليل لما يذكره من مسائل في أسلوب سهل ومبسّط خالٍ من التعقيد، ذكر في مقدمة الكتاب اصطلاحه فحيث يقول (في شرحه) فالمراد به شرح المؤلف للمنتهى، وفي (الشرح) فالمراد به شرح المقنع الكبير [م.ن، 380]؛ 3 ـ الرّوض المربّع بشرح زاد المستقنع، لأبي النجا الحجاوي، مطبوع في مجلد؛ فرغ من تأليفه سنة 1043 هـ، والتزم فيه البهوتي الاقتصار على القول الراجح في المذهب الحنبلي ولم يتعرّض فيه للخلاف طلبا للاختصار؛ 4 ـ منح الشفا الشافيات في شرح المفردات، لمحمد بن عبد الهادي المقدسي (ت 820 هـ) وهو شرح قيم في مجلد على ما انفرد به الإمام أحمد من المسائل الفقهية؛ 5 ـ عمدة الطالب لنيل المآرب، وهو كتاب لطيف في الفقه (في مجلد)، شرحه الشيخ عثمان بن أحمد النجدي من علماء القرن الحادي عشر وسماه «هداية الراغب لشرح عمدة الطالب»، فرغ من تأليفه سنة 1095هـ كما قام الشيخ صالح بن حسن البهوتي الحنبلي ـ من علماء القرن الحادي عشر أيضا ـ بنظم عمدة الطالب وسماه «وسيلة الراغب لعمدة الطالب»؛ 6 ـ حاشيتان إحداهما على الإقناع، والثانية على المنتهى؛ وهما عبارة عن تعليقات ولطائف على الكتابين اللّذين شرحهما؛ 7 ـ كتاب في المناسك، مختصر.

المصادر والمراجع

● البهوتي، منصور (ت 1051 هـ) الروض المربع بشرح زاد المستنقع (في مجلد)، بيروت، ط. 9، 1408هـ/ 1988م، دار الكتب العلمية؛ ● حاجي خليفة، (ت 1067 هـ) كشف الظنون، 6 مج، بيروت، 1410هـ/ 1990م، دار الفكر؛ ● المحبي، محمد أمين (ت 1111هـ) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 4 مج، دار صادر، بيروت؛ ● الحجوي محمد، (ت 1376هـ) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ط 1، 1396 هـ، دار

التراث، القاهرة، عن المكتبة العلمية، المدينة المنورة؛ ● الزركلي خير الدين، (ت 1976هـ)، الأعلام، بيروت، ط 8، 1989 م، دار العلم للملايين؛ ● الثقفي سالم علي، مفاتيح الفقه الحنبلي (في مجلدين)، ط 1، 1398هـ/ 1978م، قطر، وزارة الأوقاف.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة - تونس

ابن البواب، أبو الحسن علي بن هلال

(350هـ/ 961م - 414هـ/ 1023م)

لقب بـ«ابن البواب» لأنّ أباه كان بوّابا، والبواب يلازم ستر الباب، ولهذا نسب إلى الستر فلقب: ابن الستري.

لم تحفظ المصادر تاريخ مولده ولكن الثابت أنّ الكبر والضعف لم يدركاه، كما يدل على ذلك قول الشريف المرتضى في رثائه:

قالوا قضَى غَير ذي ضُعف ولا كِبر
فقلت: ما كل أسباب الردى كِبَر

ولما كان المشهور أنه توفّي بين عامي 413 - 414هـ فيكون مولده في حدود عام 350هـ.

شيخه في الكتابة الكاتب المشهور محمد بن أسد بن علي القارىء الكاتب البغدادي المتوفى سنة عشر وأربع مائة [وفيات الأعيان، 3/ 342 - 343]، وفي بعض المصادر أنه أخذ الكتابة أيضا عن محمد بن السمسماني [تحفة أولي الألباب، ص49؛ حكمة الاشراق، ص 71]. وقرأ الأدب وأخذ العربية عن ابن جني [ذيل تاريخ ابن النجار، 4/ 290] وسمع من أبي عبد الله المرزباني، صاحب الموشح ومعجم الشعراء وأشعار النساء [المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ص 357].

كان في بواكير شبابه مزوقا دهانا في السقوف، ثم صار يذهّب الختم وغيرها، وبرع، في ذلك. ثم عني بالكتابة ففاق فيها الأوائل والأواخر، وإليه انتهت الرئاسة في حسن الخط وجودته وضرب بخطه المثل [العبر، 3/ 113] واشتغل واعظا في جامع المنصور ببغداد [تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، ج4، ق4، ص 734].

وعبّر الرؤيا إذ كانت له قدرة على تفسير الأحلام من القرآن الحكيم. وقد روى ابن النجار خبرًا مفصلا في هذا [ذيل ابن النجار، 4/ 290 - 291].

وكان إلى جانب هذا شاعرا وكاتبا. قال ابن الفوطي عنه: «ورزق مع ملاحة الكتاب محاسن الأدب، من الفضل الظاهر والنظم الباهر كأنّما ألفاظه الفصيحة مدامة تعلّ بماء المزن»، حتّى قال: «ولما قدم الوزير فخر الملك أبو غالب محمد بن علي بن خلف،

كان لا يفارق صاحبنا لفضائله التي اجتمعت فيه من حسن الخط والإنشاء والشعر».

وقال ياقوت: وكان لابن البواب يد باسطة في الكتابة أعني الإنشاء، وفصاحة وبراعة، ومن ذلك رسالة أنشأها في صنعة الكتابة كتبها إلى بعض الرؤساء، أوردها ياقوت [معجم الأدباء، 15/ 130 ـ 132] أما شعره فقد ضاع ولم يبق منه غير رائيته في الخط، وغير قصيدة وردت له ضمن رسالة مطلعها:

ولو أنّي أهديتُ ما هو فرض
للرئيس الأجل من أمثالي

ذكرت المصادر علما واحدا أخذ عنه الخط هو: محمد بن منصور بن عبد الملك [صبح الأعشى، 3/ 14؛ حكمة الاشراق، 85 ـ 86]. غير أنها جاءت بأسماء كثيرين من أعلام الخط ممّن تقبّلوا خطه وترسّموه وحاكوه وأشبهوه واتبعوا طريقته، فمنهم:

ـ خالد بن محمد بن نصر المخزومي المعروف بابن القيسراني الحلبي [تكملة إكمال الإكمال، ص244 ـ 245]

ـ إقبال بن عبد الله الخادم [بغية الطلب، ص 1953].

ـ فخر الكتاب الحسن بن علي الجويني البغدادي (ت 586هـ) [خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج3، م2، ص 59].

ـ عز الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن محمد بن علي الدمشقي الأديب الكاتب الحاسب استوطن بغداد أيام المستعصم بالله العباسي وتوفّي في همذان سنة 678هـ [بغية الطلب، 1953].

ـ ابن محمد البغدادي الناسخ استشهد في سقوط بغداد سنة 656هـ [ابن الفوطي، ق1، ج4، ص223 ـ 224].

ـ علم الدين علي بن حمزة بن طلحة البغدادي، ولي حجبة الباب في أيام المستضيء بالله هاجر إلى مصر واستوطنها ومات بها سنة 599هـ [إرشاد الأريب، 5/ 204].

ـ زكي الدين عبد الله بن حبيب الكاتب (ت 683هـ) [ابن الفوطي، حوادث 683هـ].

ـ عبد الكافي الهاروني اليهودي، كان حيّا بعد الأربعمائة [معجم الأدباء، طبعة إحسان عباس، ص 1569].

ـ علي بن الحسن بن علي بن صدقة وزير وابن وزير توفي سنة 554هـ [معجم الأدباء، ط. احسان عباس، ص 1689].

ـ المبارك بن المبارك الكرخي أوحد زمانه في حسن الخط على طريقة ابن البواب (ت 585هـ) [معجم الأدباء، طبعة إحسان عباس، 2261 ـ 2262].

ـ أبو سعيد عبد الكريم بن عمر النيسابوري شيخ الشيوخ (ت 632هـ) [العسجد المسبوك، ص 467].

ـ عبد الواحد بن إبراهيم المعروف بابن الفقيه الموصلي المحولي [العسجد المسبوك، ص 486].

ـ محمد بن أحمد بن محمد بن بريك الأنصاري الدسكري المعروف بابن البرفطي (566 ـ 625) خلف خمسا وعشرين قطعة بخط ابن البواب لم تجتمع في زمانه عند كاتب، وكان يغالي في شرائها، وهو أوحد

عصره في حسن الخط على طريقة ابن البواب [إرشاد الأريب، 6/ 365].

- ياقوت بن عبد الله الرومي نزيل الموصل، كان واحد عصره في جودة الخط وإتقانه على طريقة ابن البواب، فقصده الناس من البلاد وكتب عليه خلق لا يحصون كثرة. (ت 618هـ) عن سن عالية [الإرشاد، 7/ 267].

- الحسن بن علي بن أبي جرادة كان يكتب الرقاع على طريقة ابن البواب (ت 551هـ) [معجم الأدباء، طبعة إحسان عباس، ص 2072].

- محمد بن القاضي هبة الله من آل أبي حرارة العقيلي، كان حيا سنة 620هـ [معجم الأدباء، طبعة إحسان عباس، 2081 - 2082] أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة قال: كان عند أبي خط ابن البواب، فكان يريني أصونه إلى أن أتقنت منه ما أردت [معجم الأدباء، إحسان عباس، ص 2085].

- عمر بن الحسين الخطاط غلام ابن حرنقا، كان يكتب على طريقة علي بن هلال البواب ويجيد في ذلك (ت 552هـ) [إرشاد الأريب، 6/ 47].

- فاطمة بنت الحسن المعروفة ببنت الأقرع الكاتبة صاحبة الخط المليح المعروف على طريقة ابن البواب (ت 480هـ) [إرشاد الأريب، 6/ 115].

- الفضل بن عمر المعروف بابن الرائض الكاتب، كان خطه في غاية الجودة على طريقة ابن البواب (ت609هـ) [إرشاد الأريب، 6/ 141].

كلّ هؤلاء وسواهم كثيرون أغفلت ذكرهم المصادر، أو ضاعت المصادر التي ذكرتهم، ترسموا خط ابن البواب، وتابعوا طريقته ونسجوا على منواله، وتقيلوا خطاه الفنية، فشكلوا بحق مدرسة فنية في الخط كان إمامها ابن البواب. من الجدير بالذكر الإشارة إلى ما قاله المؤرّخ ابن كثير (ت 774هـ) عبر حديثه عن طريقة ابن البواب في الكتابة إذ قال: «وعلى طريقته الناس اليوم في سائر الأقاليم إلا القليل» وظلّت طريقته الفنية متبعة عند الخطاطين العرب، وإلى هذا أشار زين الدين الآثاري (ت 828هـ) في ألفيته في الخط إذ قال:

وانقسمَتْ مِنْ بعده الطرائقْ
على ثلاثٍ أمُّها الخلائقْ
لابنِ هلال عربا وللعجَمْ
ياقوتُ والعمادُ بالوضع اتّسمْ

[العناية الربانية في الطريقة الشعبانية، ألفية في الخط، زين الدين شعبان الآثاري]

وفي بواكير القرن العاشر الهجري صنّف محمد بن الحسن الطيبي كتابه «جامع محاسن كتابة الكتاب» وقد تضمّن فيما تضمّن نماذج قلمية على طريقة ابن البواب وهي ستة عشر قلما وفي مقدمته ذكر الطيبي أركان الكتابة على طريقة ابن البواب.

كان ابن البواب من أهل السنة، يدلّ على هذا دفنه في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل، وقال الخطيب البغدادي: كان رجلا ديّنا وقد أثنى غير واحد على ابن البواب في دينه وأمانته [البداية والنهاية، 12/ 14].

وقد اشتهر ابن البواب في زمنه بطول لحيته،

ممّا جعل طولها موضعا لتندرهم فقد ذكر: أنه كان في الديوان كاتب يعرف بأبي نصر بن مسعود فلقي يوما أبا الحسن ابن البواب علي بن هلال ذا الخط المليح في بعض الممرّات فسلم عليه وقبّل يده، فقال له أبو الحسن: الله الله يا سيدي ما أنا وهذا !! فقال له أبو نصر: لو قبلت الأرض بين يديك لكان قليلا قال له: ولم ذلك يا سيدي وما الذي أوجبه واقتضاه؟ قال له: لأنّك قد تفرّدت بأشياء، ما في البغداديين كلهم من تفرد بها غيرك: الخط الحسن، وإنني لم أر في عمري كاتبا من طرف عمامته إلى طرف لحيته ذراعان ونصف، غيرك !! فضحك أبو الحسن منه وجزاه خيرا وقال له: أسألك أن تكتم هذه الفضيلة علي، ولا تكرمني لأجلها ولا تبح بها عني، فقال: ولم تكتم فضائلك ومناقبك؟ فقال له: أنا أسألك هذا ! فبعد جهد ما أمسك [الهفوات النادرة، ص 310]. ويرى المرحوم محمد بهجة الأثري أن هذا صورة من شذوذ الفنانين [تحقيقات وتعليقات الأثري على كتاب الخطاط البغدادي علي بن هلال، ص 16].

■ آثاره

1 ـ رائية ابن البواب في الخط والقلم: وهي في أدوات الكتابة أوردها ابن خلدون في مقدمته، طبعة كاترمير 2/ 346 ونشرها الأثري في تعليقاته على كتاب الدكتور سهيل أنور الموسوم «الخطاط البغدادي علي بن هلال» ص 31 ـ 33، كما نشرها محمد طاهر الكردي المكي في كتابه «تاريخ الخط العربي وآدابه» ص 511 ـ 512، وأوردها محمد حسن الطيبي في كتابه «جامع محاسن كتابة الكتاب» ص 19 ـ 20، وقد ترجمت هذه القصيدة إلى التركية والفارسية والانكليزية، وأشار اسماعيل باشا البابانى في [إيضاح المكنون، 2/ 231] إلى شرحي الجعبري وابن الوحيد لها. وكنت قد نشرت شرح ابن الوحيد ـ شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف الزرعي (647 ـ 711هـ) في تونس سنة 1967 محققة بعنوان «شرح ابن الوحيد على رائية ابن البواب». ثم ظفرت بمخطوطة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنوّرة عنوانها «شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة» صنفها مجهول، جمع فيها بين شرحي ابن الوحيد وابن بصيص، فحقّقتها ونشرتها في العدد الرابع من المجلّد الخامس عشر من مجلّة «المورد» التراثية البغدادية سنة 1986، ثمّ ظفر الخطاط العراقي الشهير الأستاذ يوسف ذنون بالنص الكامل لشرح ابن بصيص (محمد بن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن بصيص) في مكتبة بايزيد في الاستانة ومصنّف الشرح من وفيات النصف الأوّل من القرن الثامن الهجري، فنهد بتحقيق النص المشروع ونشره في مجلة «المورد» في عام 2001م، وأهدى هذا النص إلى كاتب هذه الترجمة. أما شرح الجعبري فما زال مجهول المصير؛ 2 ـ المصحف الكريم الذي كتبه في بغداد عام 391هـ المحفوظ في مكتبة جستربتي في دبلن بارلندة. وقد نشر الباحث د. س. رايس دراسة قيّمة عن هذا المخطوط وعده الأثر الصحيح الوحيد الباقي لابن البواب، ترجم هذه الدراسة إلى العربية السيد أحمد الارفلي ترجمة رديئة، وصدرت عن نادي الكتاب في باريس، ويشير رايس في كتابه إلى أنّ زخرفة هذا المصحف لا تقل

روعة عن كتابتها وهي من عمل ابن البواب وأن كل الزخارف التي في مصحف ابن البواب تتسم بتجانس رائع وبراعة فائقة في التنفيذ؛ 3 ـ كتاب عنوانه «أخبار وإنشادات وحكم وفقر ونوادر مختارة منتخبة»، ظفر بمخطوطته المحقق الاستاذ الدكتور جليل العطية ونشره في مجلّة «عالم المكتبات» السعودية، وكانت مخطوطته الفريدة في مكتبة بريطانية؛ 4 ـ بمتحف سراي طوب كابي بالاستانة مخطوط برقم 125 عنوانه «فيه شعر سلامة بن جندل السعدي» عن أبي سعيد الاصمعي ونفس الرواية عن أبي عمرو الشيباني وقرىء على عمارة رواية أبي العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول. وفي آخره عبارة «كتبه علي بن هلال في شهر رمضان من سنة ثمان وأربع مابة حامد الله ومصليا على نبيه محمد وآله»، وفي مكتبة آياصوفيا بالاستانة نسخة أخرى بخط ابن البواب رقمها 4904؛ 5 ـ رسالة الجاحظ في مدح الكتب والحث على جمعها: ومخطوطتها محفوظة في خزانة متحف الآثار التركية الاسلامية بالاستانة برقم 2014 كتب في آخرها: «كتبه علي بن هلال حامد الله تعالى على نعمه، ومصليا على نبيّه محمد وآله وعترته» بدون تورخة وقد شك رايس في أمر هذه المخطوطة وزعم أنّ الورق والحبر والكتابة تدل على أنّ المخطوط مزوّر يرجع إلى العصر المملوكي، ونشر الرسالة د. ابراهيم السامرائي في مجلّة كلية الآداب بجامعة بغداد؛ 6 ـ ديوان شعر الحادرة، وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية برقم 2145 وفي آخره أنه بخط ابن هلال نشره الدكتور ناصر الدين الأسد؛ 7 ـ رسالة أحمد بن الخليفة الواثق إلى محمد بن يزيد الثمالي النحوي، المبرد، يسأله عن أفضل البلاغتين، شعرا ام نثرا، منها مخطوطة في دار بغداد للمخطوطات نسبها المفهرسان: كوركيس عواد وأسامة ناصر النقشبندي لابن البواب، وقد وقفت على هذه المخطوطة فوجدتها مختلفة الأوراق مبتورة الآخر وفيها سقط في وسطها وأحسن منها وأكمل نسخة أخرى محفوظة في مكتبة ميونيخ في المانيا برقم 791 نسبت لابن البواب نشر هذه الرسالة الدكتور رمضان عبد التواب في القاهرة سنة 1965م.

خصائص طريقة ابن البواب في الكتابة:

المؤرّخون يرون أنّ ابن البواب هذب طريقة ابن مقلة وكساها طلاوة وبهجة [وفيات الأعيان، 3/ 342] ويرى القزويني: «ان ابن البواب نقل طريقة ابن مقلة إلى طريقته التي عجز عنها جميع الكتاب من حسنها وحلاوتها وقوّتها وصفاتها فانه لو كتب حرفا واحدا مائة مرّة، لا يخالف شيء منها شيئا، كأنها قلبت في قالب واحد، والناس كلهم بعده على طريقته» [آثار البلاد وأخبار العباد، ص 327]. والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي خصائص طريقة ابن البواب في الكتابة التي هذبت طريقة ابن مقلة؟ وما كنه هذا الرونق وتلك البهجة اللذان كسا بهما طريقة ابن مقلة؟

ربّما كنا نستطيع معرفة ذلك من خلال أمرين:

أوّلهما: دراسة واستبطان النماذج القلمية التي وصلتنا الثابتة النسبة إلى ابن البواب وقد تقدّم ذكرها.

وثانيهما: تأمّل واستيعاب ما خلفه ابن البواب من آراء في الخط والقلم أبرزها قصيدته الرائية، ثم شروحها التي ذكرناها، ثم آراء ابن البواب في الخط المتناثرة عبر المصادر، ثم رسالة في الكتابة أثبت ياقوت مقدّمتها في معجمه ولم تصلنا. وأخيرا النماذج القلمية التي خلفها الخطاطون على طريقة ابن البواب، وهي كثيرة، وأبرزها النماذج التي أثبتها الطيبي وهو من رجال القرن العاشر في كتابه «جامع محاسن كتابة الكتاب».

لكنني من خلال جولة واسعة عبر أراجيز الخط العربي التي حفظت لنا قواعده، ظفرت بأرجوزة في غاية الأهمّية كتبها عراقي هو الإمام محمد بن حسن السنجاري الذي كان حيّا سنة 846هـ فقد استطاع الوقوف على آراء بالغة الأهمّية لإمامين من أئمّة الخط هما: علي بن هلال وياقوت ـ وأرجح أنه ياقوت المستعصمي ـ لأنه صنف رسالة في الخط فضمن أرجوزته تلك آراء أصيلة في قواعد الخط للإمامين المذكورين. وابتدع الناظم طريقة للفصل بين هذه الآراء ورد كل منها إلى صاحبها، خلاصتها: أنه رمز لابن البواب بالحرف هـ، ولياقوت بالحرف ي، وكان يضع الرمز في أوّل البيت على هامشه الأيمن لبيان اسم الخطاط صاحب الرأي، فإذا ما اتّفق الخطاطان على رأي واحد كان يقرن الرمزين معا هكذا: ي هـ.

ومن دراسة الأرجوزة المذكورة اتّضح لنا ما يلي:

(1) أنّ ابن البواب انفرد ببعض الآراء.

(2) وأن لابن البواب ولياقوت معًا آراء متماثلة في بعض قواعد الخط، ولأن ابن البواب أسبق تاريخا بكثير من صاحبه فيصح القول بأنّ هذه الآراء هي لابن البواب أصلا وقد تابعه ياقوت عليها.

(3) وان ياقوت انفرد بالقليل من الآراء الخاصّة.

في ضوء ما تقدّم سأحاول الوصل إلى الخصائص الفنية لطريقة ابن البواب في الخط والكتابة. من خلال دراسة النص الفريد الذي خلفه لنا الإمام محمد بن الحسن السنجاري نستطيع التعرّف على بعض خصائص طريقة ابن البواب في الخط والتي استنبطها من النص المذكور ويمكن إجمالها في الآتي:

(1) قال ابن البواب عن حرف «الألف» إنه قائم معتدل مفرد مغترب لا ينسب إلى حرف، وشبهه بالراهب في محرابه، السابل الشّعر على أثوابه، وأنه مؤلّف من سبع نقط، وذكر أنّ الاصابة في كتابته بأن يسلب كالحية سلبا وأن كل الخطوط ترجع إلى الالف.

(2) وفي كتابة الباء قال ابن البواب: إنك إن ركبتها في ألف تصير كافًا وقال: إن أصلها من ذنب الحية في التجريد، ومقدار انسطاحها كالالف، ففيها يكمن سر اليبس والرطوبة.

(3) وان الجيم خطان باليمين والشمال، من فوق تقويس على الكمال، وأن بياضه مثلث الاضلاع.

(4) وإن الدال خطان من فوق ومن تحت لها حلاوة بالغة.

(5) والراء تتألّف من خط مقوّس كربع محيط دائرة في رأسها سنينة مقدرة في الالف.

(6) وفي كتابة السين قال: إنها تتألّف من أربعة منتصب مقوّس. وفي قول إنها تكتب من ميمين بلا تعريق، وصدر نون حسن التعريق.

(7) وإن الصاد تتألّف من مقوسين ثم منتصب قد ألصقت بشكل نون.

(8) وان الطاء كرأس الصاد.

(9) والعين جاءت بخطين مقوسين، وإنها تارة تشبه شكل نعل، وتارة تشبه الصاد، وثالثة تشبه بفك سبع ضارٍ، أو فكّ ثعبان، وإنها تشبه أحيانا أذن فيل، وإنها في العين المركبة وقد تشبه الشفرة.

(10) وإن الفاء ياء ركبت في واو وإن بياضها العجمة من تفاحة (والعجمة: النواة من كل فاكهة) وإنها حين تكتب مركبة فبياضها بشكل حمصة.

(11) وإن القاف واو ركبت في نون معرق، وإن بياضها العجمة من سفرجلة وصدر واو.

(12) وان الكاف صدرها صاد وشكل منسطح وإنها إن جاءت في أول الكتابة فتكون بشكل دال ألصقت بألف بياضها أجاصة، وانها إن جاءت مفردة معلقة، باء ولام كتبت محقّقة.

(13) وإن اللام شكل قائم ومنسطح متكوّن من ألف ونصف نون.

(14) وإن الميم مؤلف من سين وراء أرسلت.

(15) وإن النون شكل مدوّر كنصف دائرة، في رأسه سفينة مقدرة، وهو معرق كالحاجب المقوّس.

(16) الهاء تكتب أشكالا: فهي تكتب دالا عقفت خصية بغل او أذن فحل، وحين تكون الهاء مركبة تشبه خرطوم نملة او صادين بلام.

(17) وان حرف الواو مؤلف من خط منكب، ومن مستلق ثم مقوّس. وشبهها أيضا براء شرفت هامته، وانعطفت عند ثلثه شمرته، وأن الشمرة تسلب في قلم المحII وأنها في خط النسخ والريحان تشبه القنفذ اذا ما اجتمعا، والسبع اذا أقعى عاجزا.

(18) اللام الف: قال هي تشبه المقص اذا ركبت، أسفلها الهاء بياضه مثلث، وأن اللام ألف اذا أتت مركبة في لام فأقبلهما لامين في النظام، او اجعلهما الفا ولاما فوق عين أشبه شيء بالشفرة.

(19) أما الياء فانها مؤلفة من دالين مقلوبين أشبه بالشفرة اللطيفة.

تلك هي أبرز آراء ابن البواب في الخط والتي تجسّد الخصائص الفنية لطريقته في الكتابة.

وثمّة آراء له شكلت في مجملها بعض خصائص خطه في الحروف المفردة والمركبة في وضع الحروف تجب مراعاة خمسة أشياء: الاشباع، والاتمام، والارسال، والاكمال، وتقسيم البياض في الترتيب. وأوصى بأن يعطى الحرف حظه من الاتمام من غير توقّف ولا احجام. وأن على الكاتب أن يمنح الحرف ذي التقويس والتصحيح والانكباب جودة التصحيح، وإن ورد مستلقيا كمل له موفيا. فان لكل حرف قسمة أشبعها بصدر قلمك محافظا على نسبة التساوي، حتّى لا تتنافر الحروف فيجيء في بعضها غلظ، وفي بعضها سقم، أو نحول. وأسرع في كتابة المرسل بلا توقّف، وفي المفصّل أوصى بتحسين المدات وبانتظام السطور دون تعويج.

ثم إني وجدت أجود خصائص خطه الفنية قد جسدها قوله: «المط نصف الخط والتسوية شرط» هذا ما استطعت استنباطه من خصائص الكتابة عند ابن البواب، الذي لقبه ابن الفوطي بـ«قلم الله في أرضه».

قال ابن خلكان عنه: «لم يوجد في المتقدّمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه» وقال ياقوت: «ثم تعانى الكتابة ففاق فيها المتقدّمين وأعجز المتأخّرين» وقال ابن النجار يصفه: «إليه انتهت الرئاسة في حسن الخط وجودة الكتابة واتّخذ لنفسه طريقة اقتدى الناس به فيها وشبهوا بخطه، ونال من رفيع الذكر وسمو المرتبة في الخط ما لم ينله أحد من أبناء جنسه، ورزق من حلاوة الخط، وعزّته، وغلاء قيمته وتهافت الناس عليه ما لم يرزقه من كان قبله من الكتاب». وقال ابن كثير: لم يكن بعد ابن مقلة أكتب منه. وقال القزويني عنه: كان عديم النظير في صنعته، والناس كلّهم بعده على طريقته. وقال ابن تغري بردي: فاق أهل عصره في الخط المنسوب حتّى شاع ذكره شرق وغربا، ولقبه بملك الكتابة.

توفّي ابن البواب ببغداد، فطويت بموته صفحة من أنصع صحائف تاريخ فنّ الخط في عصوره الاسلامية ووقع خلاف في تاريخ وفاته في اليوم والشهر والسنة، وإن وقع الاتفاق على المكان والمدفن فأما مكان وفاته فبغداد، ودفن في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل. وأما التاريخ فتأرجح بين عامي 413 و423هـ، وبالتاريخ الأخير أخذ ابن خلكان في أحد قوليه، واليافعي، والقزويني، واسماعيل البغدادي. وقد أوردت مصادره بيتين لشاعر مجهول رثاه فيهما وهما:

استشعر الكتّاب فقْدك سالفا
وقضت بصحّة ذلك الأيّام

ولذاك سودت الدوي كآبة
أسفا عليك وشُقّت الاقلام

ولعل أصدق وأبلغ ما رثي به هذا الخطاط الخالد الذكر قصيدة صديقه الشريف المرتضى نقيب الأشراف العلويين ببغداد وهي تنضح أسى ولوعة مطلعها:

من مثلها كنت تخشى أيّها الحذر
والدهر إن همَّ لا يُبْقي ولا يذر

حتّى قال:

رديت يابن هلال والرّدى عرضٌ
لم يَحم منه على سخطٍ له، البشرُ

فللقلوب التي أبهَجْتها حزن
وبالعيون التي أقررتها سهَر

وما لعيش وقد ودعتّه أرج
ولا لليل وقد فارقته سَحر

المصادر والمراجع

● ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج3، ص340 ـ 343، تح. إحسان عباس، بيروت؛ ● ابن الصائغ، تحفة أولي الألباب، تح. هلال ناجي، تونس 1967، ص49؛ ● الزبيدي، حكمة الاشراق، تح. عبد السلام محمد هارون، ص85 ـ 86، 71؛ ● ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج4، ص290 ـ 291؛ ● الدمياطي، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ص357، تح. محمد مولود المشهداني؛ ● الذهبي، العبر، ج3،

ص113، الكويت؛ ● ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب، ج4، ص374، حققه مصطفى جواد، ق1، ج4، ص223، دمشق؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، ج15، ص130 ـ 132، طبعة الرفاعي، القاهرة؛ ● القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة، ج3، ص14؛ ● الصابوني، تكملة إكمال الاكمال، ص244 ـ 245، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد؛ ● ابن العديم، بغية الطلب، ص1953، حققه سهيل زكار؛ ● العماد الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق، ج3، المجلد 2، ص59، الأثري، بغداد؛ ● ياقوت، إرشاد الأريب، القاهرة، ط. مرجليوث، 5/ 204، 6/ 47، 115، 141، 365، 7/ 267، ● ياقوت، معجم الأدباء، طبعة احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص1569، 1689، 2261، 2262، 2072، 2081، 2085؛ ● الخزرجي، العسجد المسبوك، ص467، 486؛ ● الآثاري، زين الدين شعبان بن محمد، العناية الربانية في الطريقة الشعبانية، مجلة المورد 1979، تح. هلال ناجي؛ ● غرس النعمة الصابي، الهفوات النادرة، تح. صالح الأشتر، مجمع دمشق، ص 310؛ ● ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير، ج2، ص346؛ ● سهيل أنور، الخطاط البغدادي علي بن هلال، بغداد 1958، المجمع العلمي العراقي، تعريب أبو صميم عزيز سامي والأثري، ص31 ـ 33؛ ● الكردي المكي، محمد طاهر، تاريخ الخط العربي وآدابه، ط2، ص511 ـ 512؛ ● محمد حسن الطيبي، جامع محاسن كتابة الكتاب، ص19 ـ 20، تح. صلاح المنجد، بيروت؛ ● اسماعيل الباباني، إيضاح المكنون، ج2، ص231؛ ● ابن الوحيد، شرح ابن الوحيد على رائية ابن البواب، تح. هلال ناجي، تونس 1967؛ ● مجهول، شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة، حققها هلال ناجي، المورد 1986، بغداد؛ ● شرح ابن البصيص على رائية ابن البواب، تح. يوسف ذنون، مجلة المورد، بغداد 2001؛ ● ديوان الشريف المرتضى، تح. رشيد الصفار المحامي، القاهرة 1958، جزآن.

هلال ناجي
كاتب محقق ـ بغداد
العراق

البواردي، محمد بن ابراهيم بن سعد

(1319هـ/1901م - 1404هـ/1983م)

علماء الإسلام لم يكونوا في عصورهم الأولى يقتصرون في معارفهم، على علم معين بل يأخذون من كل فن مما توفر حولهم، ويرحلون إلى كل معرفة، يجدون اليها سبيلاً، فإذا أخذوا هذه المعارف الموجودة حولهم، وجلسوا للقضاء، انشغلوا به عن التأليف، واكتفوا بما يتوفر من وقت بالجلوس للطلبة. و شيخنا المترجم له: محمد البواردي، نموذج من تلك الأجيال: فهو عالم شاعر، وهو قاضٍ مرح، وهو ممن يستعمل الفراسة في السياسة الشرعية.

ولد الشيخ محمد بن إبراهيم بن سعد بن عبد الكريم البواردي عام 1319هـ/ 1901م، في شقراء حاضرة أقليم الوشم، وفيها نشأ حيث أخذ مبادىء القراءة و الكتابة، في كتاتيب عبد اللّه بن عبد الرحمن البواردي، وحفظ قسطاً كبيرًا من كتاب اللّه، ثم بدأ الدرس في حلقة الشيخ عبد اللّه بن عمار، والشيخ عبد اللّه ابن حمد الدوسري، المعروف بـ «الحجي»؛ وفي اللغة العربية درس القواعد والصرف، والعروض على الشيخ ناصر بن سعود بن عيسى، المعروف بـ «شويمي».

ينتمي الشيخ محمد إلى قبيلة بني زيد من قحطان، وقد بدأت عليه علامات النجابة والذكاء، وحب العلم من حداثة سنه، ولما كان أبوه يتعاطى التجارة، فقد حرص على أن يسلك به مسلك أترابه من أبناء التجار، حتى ينتهجوا طريق آبائهم .. فأرسله أبوه بعدما كبر، مع رجل من التجار لكي يتعلم أساليب التجارة، حيث كانت المواصلات ذلك الوقت على الإبل، كما هي عادة الآباء في توجيه أبنائهم، وتهيئتهم للمهنة المتوارثة، حيث يُجرئه على الأسفار والغربة، والتعرض للمخاطر وذلك قبل استباب الأمن على يد موحد الجزيرة الملك عبد العزيز.

وبذلك يتعود على أسلوب التعامل مع الآخرين، لأن غير الأب لا تسوقه العاطفة فيحنو عليه، أو يراعي أحاسيسه بعدم الإثقال عليه في الأوامر.

هذا ما أراده والده له، ولكن الله أراد لهذا الشاب طريقًا آخر، طريقًا ترنو إليه نفسه، ويتطلّع إليه فؤاده، الذي يريد شيئًا غير التجارة المادية، فهو يريدها تجارة أكثر نفعًا، وأعظم فائدة.

ولما كان الشيخ لم يتهيأ للتجارة، إذ كان هاجس العلم يراوده، منذ تفتحت عيناه، ونما عقله في بلده شقراء، حيث جلس في حلقات المساجد المتيسّرة، برغبة في المعرفة، تسوقه إلى البحث عن منابع العلم فسمت نفسه، وهو لا يزال صغيرًا، وأدرك منه والده هذه الرغبة، فشجّعه على الرحيل للرياض، حيث مجالس العلماء، وحلقات المشايخ الكبار في علمهم، عاملاً بالحكمة: اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

كانت أول رحلة للشيخ محمد البواردي بطلب العلم في الرياض عندما بلغ من العمر اثني عشر عامًا، لكن الغربة شقت عليه مع صغر السن فضجر بعد أشهر من وصوله للرياض، وعاد لمسقط رأسه، ثم مازال به والده ترغيبًا في العلم، وتشجيعًا إليه بعدما أحس فيه الرغبة الملحة، فخاف عليه من النكوص بعد التجربة في الرحلة الأولى للرياض، حتى حنّ مرة أخرى لطلب العلم مستسهلاً للصعب، لأنه لا يدرك إلا بالتحمل والصبر.

فأحسّ برغبة تحدوه إلى العلم وطلبه في مظانّه، ففرح والده بهذا الشعور منه، وحرص أن يتلمس له واحدًا من العقلاء المسافرين للرياض وراء الرزق، وتلمّس لقمة العيش، ليبعثه معه، حتى يأنس بقربه، وليبحث له عن زملاء يوصيهم عليه في السكن والمعيشة، وكان ذلك بعد عام من عودته، بعد السفرة الأولى.

وقد رتب له المشايخ في الرياض، سكنًا في بيت طلبة العلم، من البيوت المتعددة التي خصصها الملك عبد العزيز، للطلاّب الغرباء عن أوطانهم، واختاروا له أن يسكن مع الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان، لأنهما من بلد واحدة، وذلك بحي دخنة، لأنّ هذا الحي هو مكان تجمع طلبة العلم ومشايخهم.

وتسمى هذه البيوت آنذاك «بيوت الإخوان»، وكان ذلك قبل إيجاد رباط الطلبة بدخنة. ولما كان في شقراء قد طلب العلم الأول ـ بعد حفظ القرآن الكريم ـ في كتاتيب عبد الله البواردي، ثم على يد الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف، إمام جامع شقراء، وخطيبه لأكثر من أربعين عامًا، ثم أصبح من عام 1342هـ، قاضيًا في شقراء وتوابعها إلى أن توفي عام 1352هـ.

كما قرأ على المشايخ الذين مر ذكرهم في نشأته، عندما كان في شقراء، مبادئ العلوم في الفقه، والتوحيد، واللغة العربية والحديث. فالشيخ محمد البواردي، منذ حداثة سنه، قد منحه الله نباهة وحافظة جيدة عوضه الله بها عما أصابه من نقص في البصر، إذ كان يركز على الحفظ أكثر، مع ما يعينه الله عليه من الإطلاع، فبعد حفظ القرآن الكريم، اهتم بحفظ المتون.

وانتظم في الرياض حلقات المشايخ عبد الله ابن عبد اللطيف آل الشيخ، كبير علماء الرياض، ثم لازم الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الذي أسندت إليه فيما بعد مهمات الإشراف على القضاء، وطلبة العلم.

ومع ذلك كان من المنظّمين في حلقة الشيخ سعد بن حمد بن عتيق، وهؤلاء الثلاثة هم أكبر وأشهر علماء الرياض، وأكثرهم جلوسًا للطلبة. كما قرأ اللغة العربية وعلومها على الشيخ حمد بن فارس.

وعن حرصه على طلب العلم، فقد كان يدرس بعد صلاة الفجر على الشيخ محمد بن إبراهيم، مع مجموعة من الطلبة، في الفقه والتوحيد والفرائض، كما كان ينتظم في حلقة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، والشيخ سعد ابن عتيق، في الأوقات الأخرى.

وكان معروفًا لدى مدرسيه بالجديّة وقت الجد، والمفاكهات عندما يدبّ السأم، ويستملحون ذلك منه، بل يطلبون منه ذلك، من باب: روّحوا عن أنفسكم ساعة فساعة فإن النفوس إذا كلّت ملت.

ومن ذلك أن مكافأة الطلبة، كانت ضئيلة وكانت وقت دراسته عبارة عن مقدار من الأرز والتمر، تصرف شهريًا أو فصليًا. فأعطي ورقة للمالية بالرياض ليأخذ بها هذه «البروة» وهي المكافأة المخصصة لطلبة العلم أمثاله، فذهب وراءها أيامًا، متابعة وتعقيبًا، فقيل له إنها لدى فلان، لكنه لم يجد من يعطيه عنها خبرًا.. فخشي الضياع، فدخل يومًا عليه، وبعد السلام وسؤاله عن حاجته، قال على الفور:

لقد أصيبت بداء السل أوراقي

فهل لها يا عباد الله من راقي

فضحك الموظف ومن حوله، وقال له: اجلس يا ابني، ولن تذهب من هنا، إلا بعد إنجاز موضوعك.

ثم زيد هذا المخصص للطلبة فعين لكل دارس مبلغًا من النقد، بالعملة الدارجة ذلك الوقت، حيث لم يضرب عبد العزيز عملة في البلاد، لانشغاله بدور التأسيس ولعدم وجود موارد للدولة.

فكان كل طالب قد عين له الملك ست روبيات، وهي عملة انجليزية هندية، كانت دارجة في الخليج، وكان هذا قبل الحرب العالمية الأولى.

وقد أثبت الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مفتي الديار السعودية، في إجازته للشيخ محمد البواردي، التي منحها له بعد خدمته الطويلة في أعمال القضاء، والمحاكم العليا «التمييز»، وفيها توضيح لبعض مشايخه. فممن ذكر: الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، كبير علماء الرياض ذلك الوقت، تلقى عنه العلم في الفرائض. وحمد الفارس في القواعد والعروض، وسعد بن عتيق في الحديث والفقه، وعبد الله بن راشد في الفرائض، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في العقائد والفقه.

بدأ أعماله بعدما أخذ قسطًا وافرًا من العلم، عام 1341هـ/ 1922م عندما وجهه الملك عبد العزيز، بترشيح من شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم، ومشايخه في الرياض، مرشدًا لقبيلة العجمان في هجرة بلد حنيذ، ليتولى الأمور الدينية عندهم من قضاء وإرشاد، وفتيا وإمامة، وكتابة العقود والأنكحة إلى غير ذلك. وقد استمر في هذا العمل مدة ستة أشهر.

ثم دعي لعمل أكبر في مدينة الجبيل على الخليج، إمامًا لأكبر جوامعها مسجد القصابا، وداعية بين البادية والحاضرة، واستمر في هذا العمل ثلاث سنوات.

وفي عام 1345هـ/ 1926م عين قاضيًا في مدينة الجبيل، خلفًا لقاضيها ابن عكاس، وقد استمر في هذا العمل أحد عشر عامًا.

وفي عام 1356هـ/ 1926م، انتقل عمله بالرياض، بأمر من الملك عبد العزيز، حيث تعين في مدينة ساجر بمنطقة السر، قاضيًا حتى نهاية عام 1360هـ/ 1931م.

بعد ذلك تعين مساعدًا للشيخ عبد الله بن زاحم، إمام الحرم النبوي، ورئيس المحكمة في المدينة فيما بعد، في قضاء الرياض، وانتظم في هذا العمل عامًا ونصف، حيث انتقل عمل الشيخ عبد الله بن زاحم إلى المدينة المنورة.

بعد ذلك تعين قاضيًا في شقراء مكان زميله

في الدراسة الشيخ عبد الرحمن بن عودان، الذي نقل إلى عنيزة، واستمر في قضاء شقراء حتى عام 1366هـ/ 1937م.

ثم أعيد في قضاء ساجر عام 1367هـ/ 1938م، ولم يمكث فيها سوى سنة ونصف تقريبًا.

بعد ذلك عودًا على بدء نُقل للرياض، قاضيًا في المحكمة المستعجلة بحي دخنة، وكان يقضي بين الناس في مدخل بيته، حيث لم يخصص للمحاكم أمكنة خاصة بالقضاء، واستمر في عمله هذا مدة طويلة.

وبعد إحداث محكمة التميز للقضايا الشرعية، لأول مرة في الرياض تعين فيها، وكان من أوائل قضاة محكمة التميز بالرياض إلى أن طلب في عام 1393هـ/ 1972م، الإحالة على التقاعد، بعدما تقدم به السن مع خدمة بلغت 51 عامًا.

ولمكانته وعلمه وهدوئه في معالجة الأمور، فإن الملك عبد العزيز، يعهد إليه مرافقة عمال جباية الزكاة مع البادية للفتيا، ولتوضيح أنصبة الزكاة وللوعظ والإمامة، في كثير من الأعوام، مع عمله المعهود به إليه، وهذه المهمة ذات وقت محدّد من السنة.

وقد ذكر لي، رحمه الله، أنه طوال عمله في القضاء لم يكن له مجلس قضاء خاص في جميع الأماكن التي تنقّل فيها، بل كان كشأن القضاة قبله يجلسون للخصماء والسائلين، في المسجد أو في الطريق، أو في مدخل بيته، ولا يتحدد عمله بدوام معين، بل يأتي إليه الخصماء متى شاؤوا ليلاً أو نهارًا، وفي الفجر وبعد طلوع الشمس، وبنهاية الصلوات الخمس، ويجلس لهم في أقرب مكان يلتقون به فيه، حيث تتمثل البساطة بأجلى صورها.

من ذكاء القاضي الذي يتعامل مع نوعيات من البشر، قد ضعف الوازع من قلوبهم، أن يستعمل السياسة الشرعية، التي تبين له ما يعينه على إيصال الحق إلى صاحبه، وفق العدالة التي تقتضيها أحكام الإسلام المنصفة للناس بعضهم من بعض.

فكان الشيخ محمد البواردي يتفرس في الخصمين وفي الشهود من جوانب عديدة: طريقة الكلام الإدلاء بالحجة، أو الدفاع من الجانب الثاني طلب الإعادة من كل منهما، مرة أو أكثر، للتأكيد من صحة الإدعاء أو الدفاع لعله يجد تباينًا ينفذ منه، ملامح الوجوه، تتبع السيرة لكل منهما في التعامل، إن أمكن، وغير هذا مما يجده القاضي معينًا له في استجلاء الحقيقة. ومن واقع القضايا والخصومات الكثيرة التي مرت به، فإنه كان ذا فراسة نافذة، في كل ما يعرض عليه من قضايا شرعية في المحكمة، ويدرك بحاسته لهجة الصادق من الكاذب، والمتحايل من سليم الطوية، يذكرنا بفراسة وذكاء إياس بن معاوية القاضي.. ومن ذلك:

1 ـ عندما كان في الجبيل: كان يوجد أخوان أحدهما اسمه محمد، والآخر اسمه أحمد وهما توأمان وشبههما واحد، ولكل منهما سفينة شراعية صغيرة يرتزق عليها، سعيًا ما بين البصرة والكويت والبحرين، والجبيل. فأخذ أحمد دينًا من تاجر بالجبيل، وماطله الوفاء، فاشتكاه إلى قاضي الجبيل محمد البواردي، فلما حضر أنكر أحمد المدعى عليه، وأن الحاضر في مجلس القضاء محمد،

والأمر اشتبه على المدعي، فأخذ محمدًا بدل أحمد، وأنا يا محمد ليس بيني وبين هذا الرجل معاملة، ولا مداينة، فسأله الشيخ عن أخيه أحمد أين هو الآن؟ قال: هو في البصرة. ومع طول الأخذ والرد بين الخصمين، لم يقتنع القاضي، وكأن لديه هاجسًا بان أحمد هذا غير صادق، لكنه لم يجد مبررًا للحكم، فلا بد من بينة يقطع بها الشك. وبفراسته طلب من المدعي إحضار من يشهد له، بأن هذا هو أحمد وليس محمدًا ما دمت مقتنعًا.

فذهب المدعي وبقي المدعى عليه عند الشيخ.. فتشاغل الشيخ بأصحاب الدعاوى الآخرين، كأنه غير عابىء به، فلما أحسَّ منه غفلة قال له: أحمد فالتفت إليه وقال: نعم يا شيخ، فقال: ما هي العلامة التي تعرفكما بها أمكما وزوجتاكما، وأنت مع أخيك في مسكن واحد؟ فأخبره بالفارق. ثم سكت الشيخ وتشاغل عنه مع المتخاصمين عنده مرة أخرى، حتى أيقن أنه قد غفل مرة ثانية، فقال له: يا أحمد. فرد قائلاً: نعم يا شيخ، قال: أنت مع محمد في سفينة واحدة، أو لكل منكما سفينة خاصة؟ فأجاب: محمد له سفينة وماله الخاص به، وأنا كذلك، وإنما شراكتنا في البيت لأجل الوالدة، ونتوزع مصروف البيت بيننا.

وخلق الشيخ حالة ثالثة بسؤاله عن عمل محمد هذه الأيام، ومتى يرجع؟ فأجابه بما برهن للقاضي أن هذا أحمد، وأن المسافر هو محمد، واتفقت القرائن الثلاث...فقال له الشيخ: يا أحمد، إما أن تعطي التاجر حقه وإلا أودعتك السجن، فانتبه وقال: أنا محمد وليس بيني وبين الرجل مداينة ولا تعامل.

فقال الشيخ: لقد تحقق عندي بقرائن ثلاث، وباعترافك أنك أحمد، فاختر لنفسك الوفاء أو السجن؟ فقال: خدعتني يا شيخ، أمهلني، وأنا أجعل كفيلاً غارمًا. وإنما دفعني لذلك عدم قدرتي هذه الأيام على الوفاء. فأمهله وكتب عليه بعد إحضاره للكفيل والتوثق منه، فلما عاد المدعي إذا القضية قد انتهت بالكفالة.

2 ـ وفي شقراء عندما كان قاضيًا بها اشترى رجل أكياس جراد، من بدوي فادعى المشتري أنه وجد الجراد ميتًا، وأنكر البائع قائلاً: الجراد حي، ولما تنازعا ولم يقبل كل منهما الصلح والتنازل عن شيء من حقه، عند ذلك قال الشيخ محمد: تفتح الكياس، وينثر ما فيها على الأرض، فما طار منها فهو للمشتري، وما بقي في الأرض فهو للبائع لأنه ميت، فوافق المشتري لكن البائع امتنع. فرد القاضي محمد البيع كله، وأمر البائع بإعادة القيمة للمشتري.

وغير هذا من المواقف المشهور بها ذكاءً وفراسة. كما كان له مداعبات مع إخوانه للتسلية مع زملاء العمل في القضاء، وأشعار وكلمات مستملحة يجعلها بمقدار الملح في الطعام.

انتابته أمراض عديدة في أخريات حياته، وكل طبيب يعالجه كان يهديه قصيدة، تمجيدًا وثناء. فالشافعي في مستشفى شقراء، عندما عالج زوجته أهداه قصيدة، وبركير طبيب العيون في اسبانيا مدحه عندما عالج عينيه بقصيدة، أما مرضه الأخير فإنه كان يتجلّد حتى اشتد عليه، فأدخل المستشفى العسكري بالرياض، ومكث فيه حتى وافاه الأجل

المحتوم، رحمه الله، وذلك في يوم الأحد 21/ 3/ 1404هـ، حيث صلى عليه جمع غفير من العلماء والأعيان وطلاب العلم، ودفن في مقبرة العود بالرياض عن 85 عامًا، قضاها في طلب العلم ثم في نشره، قضاء وفتيا وتعليمًا، وقد رُثي كثيرًا بقصائد ونثر.

آثاره

أعمال القضاء والبحث والإطلاع، والتكليف بمهمات أخرى كل هذه الأمور تمنع القاضي من التفرغ للتأليف، وكما هي عادة قضاتنا وعلمائنا، الزهد في التأليف، حتى لو وجدوا فرصة، ويقتصرون بالدروس على طلابهم، وبالوعظ وبالخطب وبالفتيا، مع القيام بأعمال دينية كثيرة، علاوة على القضاء، أما الشعراء منهم كالشيخ محمد البواردي، فلا يجمعون شعرهم، لاعتقادهم أن الاشتغال بالشعر والأدب، يزري بالعلماء، ولذا يرددون دائمًا قول الشافعي، رحمه الله، إذا سئلوا في هذا المجال:

ولولا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد

فكانوا زيادة على ما ذكرنا، يكتفون بالهوامش التي يعلقونها على الكتب بعد مطالعتهم لها، من باب الفائدة، نظرًا لانشغالهم بالقضاء، وحل ما يعترض الناس.

وما أكثر ما لدى الناس لمن يتبسط معهم، ويخفض لهم الجناح، من قضايا ومشكلات تريد حلاً، فهذا يشغل القاضي بتوزيع تركة من مات منهم، أو ذاك أو تلك يسألان في الرضاعة لحالة مرت بهم، وغيرهم يريد عرض قضية وقف من أحد موتاهم، ورابع عنده وصية لوالده أو لوالدته، ويستوضح عن كيفية أداء ما جاء فيها وما إلى ذلك، وغيرهم كثير، كل يعرض ما اختلج في صدره، وما يريد له حلاً فلا يترك للقاضي فرصة يرتاح فيها، فكيف بالتأليف وما يحتاج إليه من صفاء ذهن واستجماع الحواس، وقراءة في المصادر.

والشيخ محمد البواردي، شأنه شأن غيره القادرين من القضاة ذلك الوقت، في الحديث مع الناس وتنظيمهم، وفي حضور أسواق البيع والشراء مرة في الأسبوع او مرتين للوعظ والإفتاء، فقد يترك الناس حركتهم في السوق لحضور مجلس القاضي. وهو يعظ أو يفتي.

حيث كان من مهمات القاضي ذلك الوقت الجلوس في مكان معين للناس: يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع في الضحى، فبعد الدرس، وما طرح من استفتاءات، يبدأون، في الفصل بالقضايا والمشكلات التي تعترض الناس في سوقهم وبيعهم وشرائهم، علاوة على استقبالهم لأي أمر يتعلّق بشؤون عباداتهم ومعاملاتهم، وأحوالهم الشخصية، ويقصدهم البعيد: من البادية والأماكن المحيطة بهم في القرى، علاوة على القريب الذي يستشرف لهذا التجمّع الذي يحضره القاضي، ويفصّل للناس ما التبس عليهم في أمورهم الشرعية.

كما كان الشيخ محمد البواردي جريًا على عادة مشايخه، يحرص على تنظيم الدروس لطالبي العلم، ففي شقراء حاضرة منطقة الوشم، عندما كان قاضيًا بها، نظّم دروسًا في الجامع الكبير في الفرائض والفقه، وكان ينتظم في حلقته التي وقتها بعد صلاة العشاء أكثر من ثلاثين دارسًا منهم الشيخ عبد الله بن سليمان ابن منيع، عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة،

ورئيس محكمة التمييز بمكة، سابقًا، والشيخ الدكتور عمر بن عبد العزيز المترك، المستشار بالديوان الملكي سابقًا، والشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، رئيس شؤون المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ والشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن الحصين، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن إدريس، والشيخ عبد العزيز بن صالح بن مقرن، والشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن عيفان. وغير هؤلاء كثير من الطلاب الذين نالوا من الشيخ محمد البواردي علمًا كثيرًا.

ولما فتحت المدرسة الابتدائية بشقراء بآخر عام 1359هـ/ 1940م، فقد خص مع مديرها وأساتذتها مجلسًا علميًا وأدبيًا، كل يوم بعد صلاة العصر، يرتادون مجلسه حتى أذان المغرب، ويحضر لحضورهم مجموعة من طلبة العلم من اهل البلد للسؤال والفائدة.

وهذا الاجتماع بمثابة ندوة علمية ثقافية، تناقش فيه القضايا العلمية والأدبية، وتقرأ فيها الأشعار وكتب المتفرقات، وما يرد للبلد من صحف، فيستفيد الجميع بحثًا ونقاشًا، والشيخ هو الذي يديرها. ثم تحولت هذه الندوة إلى مجلى العلم: نظّمت فيه الدروس في الفقه، والتفسير، والفرائض، واللغة العربية من نحو، وصرف، وعروض مع قراءة المعلقات السبع، ثم العشر والمطولات الشعرية وأيام العرب، كما كان للشيخ مقالات تنشر بين حين وآخر في الصحف داخل البلاد وخارجها.

ومجمل القول: إن من آثار الشيخ ما تركه في طلابه من دروس، وفي الأهالي من علم بالوعظ والفتيا، والمجالس العلمية مع الطلبة ليلاً، ومع المشايخ والمدرسين عصرًا، ومع العامة بالذكر بعد الصلاة وخاصة العصر والعشاء، وبالوعظ والفتيا، وفي سوق البيع والشراء، ضحى الاثنين والخميس.

فكان وقته مسخرًا للعلم ولطلبته، كما كان يستغل أوقاته وحضور المناسبات بالتذكير والوعظ، ويحلّي مجالسه بالنوادر والمفاكهات التي تقرب القلوب، وتزيل السأم، لبتجدد النشاط، حسب القول المأثور في هذا المجال.

المصادر والمراجع

● العقيل، عبد الكريم، شعراء العصر الحديث في جزيرة العرب، الطبعة الأولى ج. 1/ 47 ؛ ● الشويعر، د. محمد بن سعد، شقراء مدينة وتاريخ، الطبعة الثانية، عام 1424هـ، الرياض ص 289-290؛ ● العقد الفريد في نسب الحراقيص من بني زيد للشيخ عبد الله بن سليمان المنيع، الطبعة الأولى، ص 34 ـ 41؛ ● مجلة الدعوة، الرياض 6/ 4/ 1404هـ مقال للشيخ إبراهيم بن سيف ص 35؛ ● المجلة العربية، الرياض، ثلاث مقالات عن الشيخ في ثلاثة أعداد لعام 1418هـ؛ ● لامية ابن الوردي في حسن الخلق، مطبوع في القاهرة برسالة صغيرة؛ ● الشويعر، د. محمد بن سعد، من مشاهير علمائنا، الطبعة الأولى، بالطائف، عام 1421هـ/ 200م ص 223-268.

د. محمد بن سعد الشويعر
المستشار ورئيس تحرير
مجلة البحوث الإسلامية
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

بوبي، أبو بكر بن عبد القادر

(ت 1350 - 1351هـ/1932م)

الشاعر أبو بكر بن عبد القادر الملقب بـ «أبو بكر بوبي» لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده، لكن الإجماع على أنه توفي 1932 في بلدة «مسام» شرق «غواندو» بولاية صكتو بجمهورية نيجيريا.

وقد تتلمذ لأحمد بن ساد وأفاد من علماء عصره فأجاد علوم اللغة والعقيدة وأمور الفتوى بخاصة.

وقد شغل منصب القضاء والإمامة في «غُنذُ» ثم ترك القضاء وتفرغ للإمامة، وتعلق به الناس، ولما جاء الاستعمار الانجليزي إلى شمال نيجيريا 1903 رغب في الهجرة إلى مكة، لكن أهالي «صكتو» تمسكوا به وتتلمذوا على يديه ومن أشهر تلاميذه الوزير جنيد.

ومؤلفات «أبو بكر بوبي» كلها مخطوطة وأكثرها في مكتبات خاصة مثل مكتبة «عبد الله بابو حباري» ومكتبة «لادن نليمن» بصكتو ومكتبة «الوزير جنيد».

وأول جمع لأشعار «أبو بكر بوبي» قام به د. محمد نجيب التلاوى وحقق مجموعة من قصائده في رسالته المخطوطة للدكتوراه بكلية آداب المنيا بجمهورية مصر العربية.

ولأبي بكر بوبي بعض المؤلفات المخطوطة القليلة نحو كتاب «الرسوخ» وتخميسه لقصيدة «عبد الرحمن الشنقيطي».

وعلى الرغم من أن الشاعر كان في النصف الأول من القرن العشرين إلا أن النشأة والتعلم على يد شيوخ الرعيل الأول للخلافة الفودية قد أثر في الشاعر تأثيراً كبيراً جداً حيث كتب قصائده بشكل تقليدي توحدت فيها القافية، ودار في فلك الأغراض التقليدية من مدح ورثاء وفخر.

لكن أشعار «أبو بكر بوبي» تميزت بميزتين واضحتين: أما الميزة الأولى فهو قد احترف التخميس، وهى ظاهرة تنمو في عصور الضعف الأدبي، ومن أشهر تخميساته تخميسه لقصيدة أستاذه «عبد الرحمن الشنقيطي» بالإضافة إلى تخميسه لبعض لقصائد المدائح النبوية. والميزة الأخرى تتمثل في التعبير عن كراهيته للاستعمار الانجليزي والدعوة لمقاومته... ولما خشي على نفسه اضطر إلى اللجوء إلى معجم شعري خاص ليختبئ وراء كلماته الصعبة غير المتداولة والتي تمثل صعوبة في النطق، ولأن قدراته الشعرية والفنية محدودة، فقد لجأ للألفاظ الصعبة كبديل عن الرمز الفني مثل هذه المنظومة التي ينتقد فيها الحكام والأمراء والاستعمار ولكن باستخدامه لألفاظ لا يدرك معناها إلاّ خواص الخواص:

يا أيهنات غوجوا عن وتاوتكم
إلى البوابي لهلتات الامـاليت

إن القداميس أضواتن كرطكرة
في جعر فرشنة لا كالفواخيت

يعنى (أيها الناس) غوجوا = ابتعدوا؛

وساوسكم = وتاوتكم؛ هلتات = أخداش لإسالة الدماء؛ القداميس = الأمراء؛ الفواخيت = الحمام المطوق.

ويذكر لأبي بكر بوبي دوره الرائد في رأب الصدع الذي أوجده الاستعمار عندما عمد إلى الايقاع بين الطريقتين الصوفيتين القادرية والتيجانية ونجح الشاعر في استمالة الشيخ «الشنقيطي التيجاني» ومدحه بقصيدة مطلعها:

سر يا بريدي لدار سميت بغدا
ولا تبالِ بمن عن همها غدا

وانعكست ممارسة السياسة على شعره فجمع ببراعه بين الرثاء والتهنئة في قصيدة واحدة لـ «عمر وخضر» وجاء في مطلعها:

يا دار ويحك ما أخلاك من عمر
نجل الخليل وما أخلاك عن خضر

ولأهمية أبي بكر بوبي ومكانته الاجتماعية والثقافية فالنبجيريون يلقبونه بـ «المعلم». وكان لنشاطه الشعري والسياسي أثره في نشر الثقافة العربية والإسلامية في وقت اشتدت فيه محاربة الاستعمار الانجليزي للثقافة العربية الإسلامية في تلك البلاد.

د. محمد نجيب التلاوى
كلية الآداب بالمنيا ـ
جمهورية مصر العربية

أبو حاجب، أبو النجاة سالم

(1244هـ/1828م ـ 1342هـ/1925م)

هو شيخ الشيوخ أبو النجاة سالم بن عمر أبو حاجب، ولد بقرية «بنبلة» إحدى قرى الساحل التونسي. تعلّم بقريته القرآن الكريم وأصول اللغة العربيّة، ثمّ في سنة 1258هـ/ 1843م انتقل إلى تونس الحاضرة، والتحق بجامع الزيتونة حيث أتمّ دراسته، فأخذ علوم الشريعة وعلوم اللغة العربيّة عن شيوخ أفذاذ أمثال إبراهيم الرياحي المالكي (ت 1266هـ/ 1850م)، ومحمد الخضار المالكي (ت 1276هـ/ 1860م) ومحمد بيرم الرابع الحنفي (ت 1325هـ/ 1907م) وغيرهم كثير.

وانخرط الشيخ سالم أبو حاجب للتدريس بجامعة الزيتونة سنة 1848م، واستمرّ في ممارسة هذه المهنة إلى سنة 1912م، وفي أثناء ذلك ارتقى من طبقة المدرّسين المتطوّعين إلى الطبقة الثانية، ثمّ إلى الطبقة الأولى بدءا من سنة 1864م. وكان إلى جانب التدريس يقوم بأعباء مشيخة المدرسة المرجانيّة بالحاضرة. وهي المدرسة التي كان أحدثها الوزير مصطفى خزنة دار (ت 1295هـ/ 1878م). واستمرّ الشيخ سالم أبو حاجب يدير هذه المدرسة إلى سنة 1292هـ/ 1876م، إذ سمّي مكانه في تلك السنة شيخ من آل

النيفر، وأسندت له بتوصية من الوزير خير الدين التونسي (ت 1307هـ/ 1890م) مشيخة المدرسة المنصورية بالحاضرة، فاستمرّ يدير شؤونها، ويتصرّف في أوقافها إلى سنة 1310هـ/ 1892م). وفي سنة 1306هـ/ 1888م) كانت قد أسندت إليه إمامة جامع سبحان الله بالحاضرة، فكان يلقي به الخطب الجمعيّة وختمًا في صحيح البخاري يوم 29 رمضان من كلّ سنة. ويحضر هذا الختم أمير البلاد في موكب مشهود.

إلى جانب هذا النشاط العلمي والديني كان لسالم أبو حاجب نشاط إداري وسياسي، فقد تمّ تعيينه كاتبًا أوّل بالمجلس البلدي بتونس العاصمة عند تأسيسه في محرّم سنة 1275هـ أوت سنة 1858م، وفي ذلك المجلس تعرّف على رئيسه أمير الأمراء حسين التونسي (ت 1304هـ/ 1887م)، وبواسطته تعرّف على الوزير خير الدين التونسي. وسرعان ما قويت أواصر العلاقة بين ثلاثتهم، وخاصّة بين سالم أبو حاجب والوزير خير الدين التونسي الذي استعان به على تحرير كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» وتنقيح مسودّاته، كما صرّح بذلك في خاتمة هذا الكتاب إذ قال: «مستعينًا في تحريره ببعض أبناء الوطن». ولقد اصطحبه الوزير خير الدين إلى الآستانة سنة 1871م في مهمّة التقريب بين تونس والدولة العلية العثمانيّة. وفي سنة 1874م سافر إلى إيطاليا مصاحبًا صديقه أمير الأمراء حسين الذي كلّف بمأموريّة تصفية حساب أملاك القائد نسيم شمّامة (ت 1289هـ/ 1873م)، وكان هذا القائد قبل فراره إلى إيطاليا القابض العام للدولة التونسيّة. ومن أجل تصفية هذه القضيّة بقي أمير الأمراء حسين مقيمًا بالقرنة (ليفورنيا) ومعه سالم أبو حاجب إلى أواخر جمادى سنة 1298هـ/ أواخر ماي سنة 1881م. واغتنم صاحب الترجمة تلك الإقامة التي امتدّت بإيطاليا ستّ سنوات لتعلّم اللغة الإيطاليّة والارتحال إلى فرنسا حيث زار معرض باريس سنة 1295هـ/ 1878م.

ولعلّ أهم حدث طبع حياته هو حرصه الدّؤوب على مدّ الجسور بين الإسلام والحداثة قولا وفعلا، وظهر ذلك في نشاطه العلمي ونشاطه السياسي ونشاطه الإداري، وخاصة في نشاطه الصحفي والخطابي، حيث كان من مؤسسي جريدة الحاضرة (1888 ـ 1911م) ومن المحرّرين فيها، ومن مؤسّسي الجمعيّة الخلدونيّة، حيث ألقى في 15 مايو 1897م محاضرته الشهيرة، وهي تفسير الآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، جاعلا مدارها على أنّ المسلمين إنّما تأخّروا على نسبة تفريطهم في العلوم الحكميّة والكونيّة.

وقد كان الشيخ سالم أبو حاجب يعدّ من زعماء الإصلاح في عصره، وكان وثيق الصلة بحركة جمعيّة «العروة الوثقى»، ولقد كان في مقدّمة المحتفين بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لدى زيارتيه إلى تونس سنة 1884م و1903م [المنصف الشنوفي، مصادر عن رحلتي الشيخ محمد عبده إلى تونس، حوليات الجامعة التونسيّة، عدد 3، ص ص 71 ـ 102].

■ آثاره

مؤلّفات الشيخ سالم أبو حاجب قليلة مقارنة بما ترك من مخطوطات، وبما ألقى من خطب وأختام ومحاضرات ودروس، ونذكر منها:

1 ـ محاضرة الجمعيّة الخلدونيّة في 15 مايو 1887م [محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص ص 103 ـ 112، تونس 1967م؛ جريدة الحاضرة، 15 مايو 1897م]؛ 2 ـ مجموعة خطب منبريّة، ط. تونس 1331هـ/ 1913م؛ 3 ـ رسائل أدبيّة وأختام نبوية، مخ. عدد 6511، ق.م.د.ك.و؛ 4 ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، مخ. عدد 1499، ق.م.د.ك.و.

المصادر والمراجع

● محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، القاهرة 1349هـ/ 1930م؛ ● محمد باش طبجي، خاتمة روضة الاستنباط في تحقيق المناط، تونس 1928هـ/ 1947م؛ ● محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، تونس 1967م؛ ● محمد الفاضل بن عاشور، أركان النهضة الأدبيّة في تونس، تونس 1961م؛ ● محمد الفاضل بن عاشور، تراجم الأعلام، تونس، 1970م؛ ● محمد العزيز بن عاشور، سالم أبو حاجب، دائرة المعارف التونسيّة، بيت الحكمة 1992م؛ ● علي الشابي، الشيخ سالم أبو حاجب مصلحًا مجدّدًا، رحاب المعرفة، عدد1، السنة الأولى، ص 8 ـ 22، 1 جانفي 1998م؛ ● المنصف الشنّوفي، مصادر عن رحلتي الشيخ محمد عبده إلى تونس، حوليّات الجامعة التونسيّة، عدد 3، ص 71 ـ 202، تونس، 1966م.

د. علي الشنّوفي

د. المنصف الشنّوفي

الجامعة التونسية

البورصوي، إسماعيل حقي

(1063هـ/ 1653م ـ 1137هـ/ 1725م)

ولد في عام 1063/ 1653 في آيدوس الموجودة اليوم داخل حدود بلغاريا.

ونسبة إلى أنه عاش فترة طويلة في بورصه استعمل لقب البورصوي، وعندما قضى فترة من الزمن في أسكدار استعمل لقب الأسكداري، كما استعمل لقب الجلوتي عند انتمائه إلى الطريقة الجلوتية. واشتهر بصفة خاصة بلقب البورصوي. ولد والده مصطفى أفندي وترعرع في منطقة آق سراي باستانبول.

وبعد احتراق بيته قبل عام من مولد ابنه إسماعيل حقي انتقل إلى آيدوس واستقر فيها، وهناك توطدت علاقته مع أط بازاري عثمان فضلي، شيخ الطريقة الجلوتية، الذي كان يقوم بنشاطات الإرشاد. وعندما بلغ إسماعيل حقي سبعة أعوام توفيت أمه فكفلته جدته وأصبح تحت رعايتها.

تلقى إسماعيل حقي دروسا في اللغة العربية

على يد أحمد أفندي خليفة عثمان فضلي أفندي. وفي عام 1074هـ/ 1664م ذهب إلى أدرنة برفقة سيد عبد الباقي أفندي خليفة عثمان فضلي في أدرنة. وأثناء تلقيه العلوم الدينية في أدرنة، كان في الوقت نفسه مشغولا بالخط الجميل. وقرأ بعض الكتب المتعلقة بالفقه وعلم الكلام على يد أحد خلفاء عثمان فضلي. وبعد أن أكمل تحصيله العلمي أرسله عبد الباقي أفندي إلى استانبول حيث يوجد عثمان فضلي.

وفي ربيع الأول عام 1083هـ الموافق يوليو عام 1672م انضم إسماعيل حقي إلى هذا الشيخ ودرس على يديه علوم الكلام والفرائض. وفي الوقت الذي كان يعد فيه حاشية «المطول»، قرأ مؤلف «تنقيح الأصول» الذي يدور حول أصول الفقه. وقد دقق في الدواوين الفارسية للشعراء المشهورين، بالإضافة إلى بعض المؤلفات الأخرى. وفي عام 1086هـ/ 1675م تم إرساله إلى أوسكوب بعد أن عُيِّن خليفة.

في ربيع الآخر عام 1086هـ الموافق يوليو عام 1675م توجه إسماعيل حقي إلى أوسكوب يرافقه ثلاثة من الدراويش. وبدأ في مختلف الجوامع الوعظ وإعطاء الدروس المتعلقة بالعلوم الظاهرية للراغبين في ذلك. وخصصت له تكة خربة. وبعد أن مكث هناك فترة من الزمن انتقل إلى زاوية جديدة واصل فيها نشاطه في الإرشاد. وفي عام 1087هـ/ 1676م تزوج ابنة الشيخ مصطفى عشاقي. وعندما لاحظ مفتي أوسكوب وبعض أعيان المنطقة أن إسماعيل حقي يأتي بتصرفات مخالفة للدين انتقد وقُدِّم إلى المحكمة من قبل مخالفيه. وذهب هو والذين رفعوا عليه الدّعوى إلى استانبول والتقوا بشيخ الإسلام جتال جالي علي أفندي والصدر الأعظم قره مصطفى باشا ميرزفوني. وفي عام 1096هـ/ 1685م تم استدعاؤه إلى أدرنة من قبل عثمان فضلي الموجود هناك من أجل تقديم النصيحة إلى محمد الرابع. ومكث في بيت شيخه قرابة ثلاثة أشهر، ووجد في ذلك مناسبة لقراءة مؤلف «فصوص الحكم». وفي جمادي الآخرة عام 1096هـ الموافق مايو عام 1685 عينه عثمان فضلي خليفة على بورصه بعد وفاة خليفتها صنع الله أفندي. وبدأ الوعظ في جامع «ألو» وبعض الجوامع الأخرى اتباعا لنصيحة شيخه. وبدأ اعتبارا من شعبان من عام 1096هـ الموافق يوليو من عام 1685م في تفسير القرآن الكريم، كما بدأ في كتابة دروس الوعظ باللغة العربية. وبهذا الشكل أكمل في جمادى الأولى عام 1117هـ الموافق سبتمبر عام 1705م تفسيره المسمى «روح البيان»، وكان في الوقت نفسه يكتب في بعض المؤلفات الأخرى. غير أنه واجه في الفترات الأولى من إقامته في بورصه مشكلة توفير البيت الذي سوف يستقر فيه، وكذلك واجه مشكلة المعيشة، وكان ذلك بسبب انشغاله برياضة النفس. وبعد عام ونصف من تعيينه خليفة على بورصه، قام بزيارة شيخه في استانبول. وعقب هذه الزيارة ذهب إلى استانبول أربع مرات للغرض نفسه. وفي عام 1102هـ/ 1690 - 1691م قام إسماعيل حقي بزيارة شيخه في منفاه في قبرص. وأثناء هذه الزيارة عينه شيخه في مكانه.

في عامي 1107 - 1108هـ/ 1695 - 1696م اشترك إسماعيل حقي في حملتي النمسا

الأولى والثانية بدعوة من مصطفى الثاني، وقد عاد إلى بورصه جريحا. وفي عام 1111هـ/ 1700م ذهب إلى الحج ومكث قرابة سبعة أشهر في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتعرض في رحلة العودة من الحج إلى عصابات النهب والقتل، فاستطاع أن ينقذ نفسه منهم بصعوبة بالغة. وفي هذه الأثناء فُقِدَ مؤلفه «أسرار الحج». وفي شهر محرم من عام 1122هـ الموافق شهر مارس عام 1710م سافر بنية أداء الحج للمرة الثانية. وبعد أن مكث شهرا في استانبول اتجه عبر البحر إلى الأسكندرية ومنها توجه إلى القاهرة. وبقي في مصر أكثر من شهرين. وخلال هذه الفترة أقام صِلات مع العلماء وأرباب التصوف وكذلك مع عامة الناس. وفي هذه الأثناء منح إجازات لبعض مدرسي الأزهر. وبعد عودته من الحج بقي شهرين ونصف في استانبول ومنها ذهب إلى بورصه. وفي جمادى الآخرة عام 1126هـ الموافق يونيو عام 1714م ذهب إلى تكرداغ وواصل فيها نشاطه الإرشادي. وفي عام 1129هـ/ 1717م عاد مرة أخرى إلى بورصه. وفي العام نفسه ذهب إلى الشام بسبب ما أحس به من حب لمحيي الدين بن عربي. وفي الشام كتب إسماعيل حقي عشرة مؤلفات. وقدم مؤلفه «التحفة الرجبية» إلى رجب باشا، والي الشام. ويفهم أن علاقته في هذه الفترة مع عبد الغني النابلسي الموجود في هذه الأثناء في الشام قد ضعفت بسبب النقاش الذي كان يدور حول ما إذا كان شرب الدخان حلالاً أم حراماً.

في شعبان عام 1132هـ الموافق يونيو عام 1720م عاد إسماعيل حقي من الشام واستقر في أسكدار. ومنحه داماد إبراهيم باشا بيتا هدية وأجزل عليه نعمه. وتم تعيينه في جامع الأحمدية في أُسكدار واعظا في يوم الجمعة، وأثناء عمله هذا تناول مسألة وحدة الوجود. ووقعت متابعته بسبب الادعاء الذي يقول بأنه يأتي بكلام مناف للعقيدة الإسلامية. ويفهم من خلال شهادة عدد كبير من الناس عدم صحة هذه التهمة. وعقب هذه الحادثة غادر استانبول واتجه إلى بورصه. وبنى فيها جامعا على نفقته الخاصة. وكرس سنواته الأخيرة في الإرشاد وكتابة المؤلفات. وفي يوم 9 ذو القعدة عام 1137هـ الموافق 20 يوليو عام 1725م توفي إسماعيل حقي. ويوجد قبره في بورصه في جهة قبلة الجامع الذي بناه في توزبازاري.

يلاحظ أن إسماعيل حقي البورصوي تأثر بمجموعة من المشايخ على رأسهم شيخه عثمان فضلي ومحيي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي وصدر الدين القونوي وعفتاده وعزيز محمود هداي.

ارتبط إسماعيل حقي بفكرة وحدة الوجود وشبه ظهور الحقيقة المحمدية بحركة القمر طوال الشهر. ووفقا لرأيه فإن الحقيقة المحمدية تتضمن النبوة والولاية المطلقة. ولكل نبي وولي مقدار معيّن من النبوة والولاية. والنبوّة التي هي نور إلهي كانت وقت سيدنا آدم، عليه السلام، مثل الهلال وفي عهد سيدنا إبراهيم، عليه السلام، مثل ليلة الرابع عشر. واكتمل هذا الظهور في عهد سيدنا محمد ﷺ مثل ظهور البدر في ليلة الخامس عشر، وتجلت هذه الحقيقة بمفهومها الكامل.

لقي إسماعيل حقي البورصوي قبولا واسعا من جميع الأوساط الصوفية باستثناء فرع

الشمس من الطريقة المولوية وكذلك الملامية البيرمية. وطبع عدد كبير من مؤلفاته وتم تداوله على شكل كبير. وتعرض للنقد اللاذع من فرع الشمس في الطريقة المولوية والملامية البيرمية بسبب أنه ذكر في مؤلفه «سلسلة نامه جلوتي» رواية تقول إن والدي النبي عليه الصلاة والسلام ماتا كافرين، وكذلك بسبب قوله إن أبا طالب عمّ النبي ﷺ، مات كافرا، وفي الوقت نفسه لا تجوز زيارة قبره. وإذا كان قد ذكر أن إسماعيل حقي هو مؤسس شعبة الحقية في الطريقة الجلوتية، فإنه لم تكون طريقة بهذا الاسم.

آثاره

يذكر إسماعيل حقي البورصوي أنه كتب أكثر من مائة مؤلف. غير أنه اختلف اختلافا كبيرا في عدد مؤلفاته، وذلك بسبب أن بعضها يحمل أكثر من اسم، كما حدث خلط كبير بين كتبه ومجموعاته. ومعظم مؤلفاته باللغة التركية. وهناك حوالي أربعين مؤلفا باللغة العربية. وكان إسماعيل حقي في الوقت نفسه ملحّنا، حيث قام بتلحين مجموعة من الأناشيد الدينية يعود بعضها إليه ويعود البعض الآخر إلى عزيز محمود هداي. وهناك صعوبة كبيرة لعمل تصنيف لمؤلفاته حسب المواضيع وذلك بسبب أن دراساته هذه احتوت على مواضيع تتعلق بمختلف العلوم.

أ ـ التفسير:

1 ـ روح البيان في تفسير القرآن: مؤلف أكمله في عام 1117هـ/ 1705م. وفي البداية أعطى أهمية كبيرة للموعظة، وفي الفترات اللاحقة مثل مصدرا مهما لها. وتوجد نسخته في مكتبة الآثار القديمة والمخطوطة والمطبوعة ببورصه [عام، رقم 12 ـ 27]. وطبع طبعات مختلفة [استانبول 1255؛ 1285، 1286، 1306؛ 1330، 1333هـ؛ بولاق 1255، 1264، 1276، 1278، 1287هـ]. وقد اختصره علي الصابوني تحت عنوان «تنوير الأذهان من تفسير روح البيان» [دمشق 1988]. وترجمه عبد الله أوز بمعية أشخاص آخرين إلى اللغة التركية [استانبول 1995 ـ 1996]؛ 2 ـ تعليقه على أوائل تفسير البيضاوي [مكتبة الآثار القديمة والمخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 31 (خط المؤلف)]؛ 3 ـ شرح على تفسير الجزء الأخير للقاضي البيضاوي [مكتبة الآثار القديمة والمخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 28 ـ 30 (خط المؤلف)]؛ 4 ـ تفسير سورة الفاتحة [مكتبة الآثار القديمة والمخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 83، ورق 32ب ـ 57أ]؛ 5 ـ تفسير آمن الرّسول: [مكتبة الدولة ببايزيد، عام، رقم 3507، ورق 44أ ـ 56ب، مكتبة السليمانية، خالد أفندي، رقم 414، ورق 153ب ـ 157ب]؛ 6 ـ تفسير سورة الحشر: [مكتبة الدولة ببايزيد، عام، رقم 3507، ورق 63أ ـ 64ب]؛ 7 ـ تفسير سورة الزلزلة: [مكتبة الدولة ببايزيد، عام، رقم 3507، ورق 116أ ـ 121أ]. وألف الكاتب آخر ثلاث رسائل عند ذهابه إلى الحج للمرة الثانية بطلب من بعض علماء مصر ومشايخها؛ 8 ـ لوائح تتعلق ببعض الآيات والأحاديث [داخل مقالات إسماعيل حقي(استانبول 1288هـ)]؛ 9 ـ كتاب المرآة تحقيق بعض الأحاديث والآيات: [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة

والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 40 خط المؤلف]. وبالإضافة إلى ذلك قام إسماعيل حقي بتفسير مطنب لبعض الآيات، كما شرح كذلك بعض الأحاديث. وتوجد مجموعة تحتوي على عدد من المؤلفات بخط المؤلف [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصة، عام، رقم 32، 33؛ مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات العربية، رقم 1363، المخطوطات التركية، رقم 3706].

ب ـ التصوف:

10 ـ روح المثنوي: (شرح المثنوي): عبارة عن شرح لأول 738 بيت من مثنوية مولانا جلال الدين الرومي [I ـ II استانبول 1285هـ، 1287هـ]؛ 11 ـ شرح المحمدية: (فرح الروح): عبارة عن شرح لمؤلف «المحمدية» ليازجي أوغلي محمد أفندي. وتمت طباعته عدة مرات [بولاق 1252، 1255، 1256، 1258هـ؛ استانبول 1274، 1294هـ]؛ 12 ـ تمام الفيض في باب الرّجال: مؤلف تناول في بدايته منشأ الطرق وأهدافها والبيعة والانتساب والأوراد وصفات المرشد. وخصص قسما كبيرا من هذا المؤلف لحياة عثمان فضلي وكراماته وآثاره والملاحظات التي تم تدوينها من مختلف أحاديثه مثل ماجاء في «السلسلة الجلوتية»؛ 13 ـ سلسلة نامه جلوتية (كتاب السلسلة الجلوتية): مؤلف يحتوي على معلومات تتعلق بمشايخ الجلوتية. وتناول في الجزء الأخير منه آداب الطريقة وأركانها. وطبع عام 1291هـ/ 1874م في استانبول؛ 14 ـ كتاب الخطاب: يحتوي هذا المؤلف على مختلف المسائل والمفاهيم الصوفية بجانب مواضيع الاعتقاد والعبادة. وتمت طباعته في عام 1256هـ وكذلك في عام 1292هـ في استانبول؛ 15 ـ كتاب النجاة: كتب إسماعيل حقي هذا المؤلف في الشام. ويشتمل على مواضيع مثل الطريقة والمعرفة والحقيقة والوحدة وشروط ثبوت الله والملائكة الأربعة الكبار وبعض الأنبياء الكبار والخلفاء الراشدين وأئمة المذاهب الأربعة والكرامات وأحوال القبر والقيامة والجنة وجهنم [استانبول 1290]؛ 16 ـ شرح الأصول العشرة: هو عبارة عن شرح وترجمة لمؤلف «الأصول العشرة» لنجم الدين كبري [استانبول 1256، 1291]؛ 17 ـ التحفة الرجبية: عبارة عن مؤلف تناول فيه شرح بعض الأسماء الحسنى. وقدم إلى رجب باشا والي الشام [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 1374 (خط المؤلف)]؛ 18 ـ رسالة شرح الأسماء السبعة (شرح كلمة التوحيد، كتاب شجرة التوحيد): هو عبارة عن رسالة شرح فيها لا إله إلا الله والله وهو والحق والحي والقيوم والقهار. وتمثل هذه الأسماء أساس السلوك عند الطريقتين الخلوتية والجلوتية [المكتبة الوطنية، الشرعية، رقم 1252]؛ 19 ـ رسالة الحضروت: عبارة عن شرح لمادة «الحضرات الخمس الإلهية» ومادة «الإنسان الكامل» اللتين توجدان في مؤلف «التعريفات» للسيد الشريف الجرجاني [مكتبة السليمانية، مهرشاه سلطان، رقم 189، ورق 136أ ـ 164ب]؛ 20 ـ الكنز المخفي: تناول فيه حديث «كنت كنزا مخفيا»: [استانبول 1290، 1307هـ]؛ 21 ـ كتاب الحجة البالغة: مؤلف يتناول أوصاف الإنسان واسم «هو» والوجود المطلق والروح والفنا

في الله والأسماء الإلهية والأرباب الظاهرة وأوصاف السالكين ومراتب السلوك وغيرها من المواضيع. وقد طبع في حاشية مؤلف «الرشحات» [استانبول 1290هـ، ص 2 ـ 123]؛ 22 ـ التحفة الإسماعيلية: يحتوي هذا المؤلف ـ بجانب مواضيع الإيمان والعمل ـ على بعض النصائح في التصوف. وتمت كتابته بطلب من ليفكوي زاده حاجي إسماعيل بياده، وهو زميل الكاتب في حملات تمجه وإردل [استانبول 1292، 1303هـ]؛ 23 ـ التحفة الخليلية: مؤلف حول الإيمان [استانبول 1256، 1293هـ]؛ 24 ـ التحفة البحرية: مؤلف أهداه إسماعيل حقي إلى بحري حسين أفندي الذي كان يشارك في مجالس الذكر [مكتبة السليمانية، بيرتيف باشا، رقم 637/ 9]؛ 25 ـ الرسالة الحسينية: مؤلف تم إهداؤه كذلك إلى بحري حسين أفندي. ويدور حول تفسير اسم حسين صوفيا [مكتبة السليمانية، بيرتيف باشا، رقم 637/ 10]؛ 26 ـ سلوك الملوك (التحفة العلية): مؤلف يحتوي على مواضيع مثل الصراط المستقيم ومرتبة الوزارة ودعاء سيدنا علي رضي الله عنه وكيفية عبادته. وتم تقديمه إلى علي باشا [مكتبة عاطف أفندي، رقم 1412/ 1]؛ 27 ـ التحفة الخصكية: مؤلف أهدي إلى السير خصكيان طوبا زاده محمد أغا [مكتبة DTCF، إسماعيل صائب سنجر، رقم 2029 (خط المؤلف)]؛ 28 ـ كتاب السلوك (التحفة الوسيمية): مؤلف كتب من أجل سيد أحمد وسيم أحد أغوات الأندرون [استانبول 1240هـ]؛ 29 ـ شرح أبيات الفصوص: هو شرح للأبيات التي توجد في نهاية فصل الكلمة الإسحاقية من «فصوص الحكم» [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 1474/ 3]؛ 30 ـ التحفة العطائية: مؤلف يحتوي على مواضيع مثل الإنسان الكامل ووحدة الوجود والطريقة الجلوتية والقطب والشريعة والطريقة [استانبول 1304هـ]؛ 31 ـ التحفة العمرية: هو مؤلف يتناول مواضيع التوحيد ووحدة الوجود وأقسام التوحيد والأسماء السبعة والإيمان والإحسان والولاية والنبوة والذكر وغيرها من المواضيع [استانبول 1240هـ]؛ 32 ـ الرسالة البهائية: مؤلف صغير كتبه من أجل ابنه محمد بهاء الدين [مكتبة حاجي سليم أغا، عزيز محمود هداي، رقم 476، ورق 70 ـ 75]؛ 33 ـ كتاب الشَّجو: يتناول في هذا المؤلف البلاء وأسبابه والحزن [مكتبة السليمانية، خالد أفندي، رقم 789/ 1 (خط المؤلف)]؛ 34 ـ مجيء البشير لأجل التبشير: مؤلف باللغة العربية يدور حول أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بشيرا [مكتبة السليمانية، خالد أفندي، رقم 789/ 2 (خط المؤلف)]؛ 35 ـ وسيلة المرام: مؤلف يشتمل على الشروط الثمانية الضرورية التي ذكرها جنيد البغدادي من أجل السلوك والخلوة وتوضيح هذه الشروط. وتناول فيه كذلك الفرق بين الأنبياء والأولياء وطبقات العاملين كما جاء في الشريعة والطريقة والصفات الإلهية وغيرها من المواضيع [مكتبة السليمانية، حاجي محمود أفندي، رقم 2260، ورق 58 ـ 97]؛ 36 ـ رسالة نفس الرحمن: مؤلف تم إهداؤه إلى شخص يسمى سيد عبد الرحمن. ويحتوي الكتاب على مواضيع غير مرتبة ويعتبر من آخر ما كتب إسماعيل حقي البورصوي [مكتبة عاطف أفندي، رقم

1405/ 2]؛ 37 ـ شرح صلوات ابن مشيش: هو عبارة عن شرح وترجمة لصلوات عبد السلام بن مشيش الحسني [استانبول 1256هـ بولاق 1279هـ]؛ 38 ـ نخبة اللطائف: مؤلف باللغة العربية كتبه صاحبه أثناء وجوده في أوسكوب. وضمنه مختارات من مؤلف «نوابغ الكلم» للزمخشري، كما احتوى كذلك على شرح مؤلف «مرآة الشيب» للحريري [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 138 (خط المؤلف)]؛ 39 ـ مجموعة الأسرار: مؤلف يحتوي على بعض المختارات من مؤلفات محيي الدين بن عربي وصدر الدين القونيوي وعبد الله البوسنوي وعثمان فضلي أفندي. ويتضمن كذلك الملاحظات التي كتبها إسماعيل حقي باللغة العربية أثناء زيارته لعثمان فضلي بعد أن عين خليفة [مكتبة عاطف أفندي، رقم 1500 (خط المؤلف)]؛ 40 ـ الرسالة الشمعية: عبارة عن شرح للشعر الذي يبدأ بـ «آدم من دم» [مكتبة السليمانية، مهر شاه سلطان، رقم 217/ 2]؛ 41 ـ الأسئلة الصحفية والأجوبة الحقية: مؤلف يحتوي على أجوبة الأسئلة التي تقدم بها إسماعيل حقي للشيخ محمد الصحاف [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 2208/ 1]؛ 42 ـ أسئلة لشيخ مصري أجوبة إسماعيل حقي: هو عبارة عن شرح لأحد أشعار نيازي المصري. وطبع ضمن مقالات إسماعيل حقي [استانبول 1288هـ، ص. 3 ـ 8]؛ 43 ـ كتاب الفصل في الأسرار: رسالة صغيرة تتضمن توضيح بعض المصطلحات الصوفية [مكتبة عاطف أفندي، رقم 1501/ 2]؛ 44 ـ أسرار الحروف: [مكتبة السليمانية، حاجي محمود، رقم 2537، ورق 21ب ـ 30ب]؛ 45 ـ رسالة التهجي في حروف التهجي: [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 162 (خط المؤلف)]؛ 46 ـ حقائق الحروف: [المكتبة الوطنية، الشرعية، رقم 1182، ورق 73ب ـ 79ب]؛ 47 ـ كتاب زبدة المقول: [مكتبة حاجي سليم أغا، عزيز محمود هداي، رقم 449]؛ 48 ـ مقالات شيخ إسماعيل حقي: [مجموعة الخطاب والواردات]. وهي تحتوي على شروحها وارداتها الموجودة بين الأعوام 1118 ـ 1124هـ/ 1706 ـ 1712م. ونجد في هذا المؤلف الذي كتب باللغة العربية والذي يمكن وصفه بدفتر المذكرات أشعار الكاتب وأفكاره وتفسيره لبعض الآيات والأحاديث والمعلومات التي تتعلق بحياته ومكاتباته [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 85/ 2]؛ 49 ـ المجموعة: هي عبارة عن شروحه وارداته في عام 1122هـ/ 1710م أثناء وجوده في مصر والحجاز. وهو مؤلف باللغة العربية. وضمن في أحد أقسامه الرسائل التي أهداها له علماء مصر ومشايخها [مكتبة الدولة ببايزيد، عام، رقم 3507 (خط المؤلف)]؛ 50 ـ كتاب النتيجة: مؤلف يحتوي على وارداته التي توجد بين التواريخ صفر وشوال من عام 1136 الموافق لـ نوفمبر من عام 1723 ويوليو من عام 1724 ويوجد لإسماعيل حقي مؤلفات من هذا النوع في مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 66، 71، 79، 84، 86، 87 وكذلك في بعض المكتبات الأخرى.

ج ـ الحديث:

51 ـ شرح نخبة الفكر [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 35 ـ 37 (خط المؤلف)]؛ 52 ـ شرح الحديث الأربعين [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 38، ورق 1أ ـ 14أ (خط المؤلف)]؛ 53 ـ شرح الأربعين حديثا: هو الترجمة التركية للأربعين حديثا للإمام النووي وكذلك شرحه [استانبول 1253، 1313، 1317هـ].

د ـ الفقه وعلم الكلام:

54 ـ شرح الفقه القيداني [مكتبة عاطف أفندي، رقم 873 (خط المؤلف)]؛ 55 ـ رسالة المسائل الفقهية [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصة، عام، رقم 161، ورق 34أ ـ 48أ (خط المؤلف)]؛ 56 ـ الرسالة الجامعة للمسائل النافعة [مكتبة السليمانية، حاجي محمود، رقم 2902]؛ 57 ـ كتاب الفضل والنوافل [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 83 (خط المؤلف)]؛ 58 ـ الاختيارات [مكتبة السليمانية، خالد أفندي، رقم 414، ورق 34ب ـ 148ب]؛ 59 ـ الأجوبة الحقية عن وسيلة الشيخ عبد الرحمن [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 1521/ 3 (خط المؤلف)]؛ 60 ـ شرح شعب الإيمان [استانبول 1304]؛ 61 ـ شرح الكبائر «رموز الكنوز» [استانبول 1257].

هـ ـ آثار أخرى:

62 ـ شرح مقدمة الجزري: [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصة، عام، رقم 38/ 7 (خط المؤلف)]؛ 63 ـ كتاب الفروق: مؤلف يحتوي على توضيح بعض المفاهيم والمصطلحات التي تتعلق بالعلوم المختلفة [استانبول 1251، 1291، 1310هـ]؛ 64 ـ شرح رسالة في آداب المناظرة لطاش كوبري زاده [استانبول 1273هـ]؛ 65 ـ مجالس الوعظ والتذكير: مؤلف باللغة العربية يحتوي على نشاطات الوعظ والنصائح التي قام بها في أوسكوب [استانبول 1266، 1303هـ]؛ 66 ـ كتاب الخطباء «خطيب الخطباء» [مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 85/ 1 (خط المؤلف)]؛ 67 ـ رسالة كول «الرسالة الوردية» [مكتبة أتاتورك ببلدية استانبول، عثمان إرجن، رقم 975/ 7].

وتوجد كذلك مجموعة أخرى لإسماعيل حقي البورصوي وهي في]مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، رقم 482، المخطوطات التركية، رقم 1999، مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 41. وتحتوي هذه المجموعة بصورة عامة على أشعاره وخطاباته وبعض مؤلفاته التي قام باستنساخها. وكذلك تشتمل على ملاحظاته وتفاسيره وشرح الأحاديث، كما يحتوي قسم منها على وأرداته.

و ـ آثاره الأدبية:

68 ـ الديوان: يذكر إسماعيل حقي في ديباجة هذا المؤلف أنه يتضمن الأشعار التي كتبها منذ عام 1098هـ/ 1687م. وتمت طباعته مرتين اعتمادا على النسخة الموجودة في مكتبة الدولة ببايزيد [بولاق 1257هـ؛ استانبول 1288هـ]. وأعد مراد يورت سوير رسالة

دكتوراه حوله بعنوان "ديوان إسماعيل حقي تدقيق النص، بورصه 1990" ل؛ 69 ـ المعراجية: مؤلف كتبه في عام 1121هـ/ 1709م في بورصه. ويحتوي على 477 بيتا منظوما. ونسبة لإفاداته الجميلة ومحتواه الغني وعذوبة لغته تم اعتباره أبرز مؤلف بين بقية المعراجيات. وطبع في عام 1267هـ/ 1851م في استانبول؛ 70 ـ المنظومات: كتب إسماعيل حقي هذا المؤلف في عام 1117هـ/ 1705م. وتوجد له في مكتبة السليمانية [خالد أفندي، رقم 789، ورق 222ب ـ 252ب] أكثر من 150 منظومة مكتوبة بخط يده.

ز ـ شروحه:

71 ـ فرح الروح: هو عبارة عن شرح ضخم وموسع لمؤلف "المحمدية" ليازجي حمد أفندي. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه [ام، رقم 59 ـ 61] وتمت طباعته ستة مرات [بولاق 1252، 1255، 1256، 1258هـ، ستانبول 1274، 1294هـ]؛ 72 ـ روح المثنوي: هو شرح لأول 738 بيت من مثنوية مولانا جلال الدين الرومي. وطبع هذا الشرح مرتين في مجلدين [استانبول 1285، 1287هـ]؛ 73 ـ كتاب الأنوار: مع الشرح الذي قام به هو بنفسه للمصطلحات الصوفية التي ورد ذكرها في هذه القصيدة التي تتكون من 99 بيتا. وتم تأليف هذا الكتاب في عام 1121هـ/ 1710م. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة السليمانية [هرشاه سلطان، رقم 189]؛ 74 ـ شرح نظم السلوك: هو شرح لأول أربعة أبيات من قصيدة "نظم السلوك" (التائية) لابن الفارض. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة السليمانية [هرشاه سلطان، رقم 189/ 1]؛ 75 ـ شرح بند عطار: هو شرح مؤلف "بند نامه" لفريد الدين عطار. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 68 ـ 69. وتمت طباعته مرتين [استانبول 1250، 1287هـ]؛ 76 ـ شرح أبيات حاجي بيرام ولي: هو عبارة عن شرح لمنظومة حاجي بيرام ولي. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة السليمانية [أسعد أفندي، رقم 152/ 1]؛ 77 ـ شرح أبيات يونس أمره: هو شرح لشطحتين ونشيدين دينيين ليونس أمره [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 1521/ 2، 4، 6، 7 (خط المؤلف)]؛ 78 ـ شرح نظم أحمدي: ذكر إسماعيل حقي أنه لا يعرف ما هو الأحمدي المقصود هنا. وهذه الشطحة المتكونة من سبعة أبيات والتي شرحها على وزن المقطع هي لدكاكين زاده أحمد بك]القرن العاشر الهجري/ القرن السادس عشر الميلادي]. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة السليمانية [مهرشاه سلطان، رقم 189/ 1، ورق 103أ ـ 106أ؛ أسعد أفندي، رقم 1521، ورق 81ب ـ 86أ]، وكذلك في مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات التركية، رقم 33339/ 3؛ كما توجد نسختان أخريان في مكتبة السليمانية].

المصادر والمراجع

● صحافلر شيخي زاده أسعد أفندي، ترجمة حال إسماعيل حقي (ضمن شرح بند عطار)، استانبول 1287؛ ● خوجه

زاده احمد حلمي، زيارة الأولياء، استانبول 1325، ص 141؛ ● محمد شمس الدين، يادي كار شمسي، بورصة 1332، ص 126 ـ 135؛ ● حسين وصاف، كمال نامه حقي، مكتبة الآثار القديمة المخطوطة والمطبوعة ببورصه، عام، رقم 129؛ ● محمد طاهر البورصوي، مولانا الشيخ إسماعيل حقي الجلوتي، استانبول 1329؛ ● داود القلبي، مخطوطات الموصل، بغداد 1927، ص 89 ـ 231؛

• Mehmet Ali Ayni, Türk Azizleri I: Ismäil Hakki, Istanbul 1944; • Abdülbâki Gölpinarli, Yunus Emre ve Tasavvuf, Istanbul 1961, p.144 229-230; • H. Kämil Yilmaz, Aziz Mahmud Hedäyi ve Celvetiyye Tarïkati, Istanbul 1982, p. 240-241P; • Mustafa Kara, Bursa'da Tarikatlar ve Tekkeler, Bursa 1993, II, 143-149, 152-161; • Günay Kut, «ismä'il Hakki», Encyclopaedia of Islam (new edition), IV, 191-192; • Ali Namli, «Ismail Hakki Bursevî»., Turkiye Diyanet Vakfî islam Ansiklopedisi, XXIII, 102-107.

إعداد: نهاد عزمات

ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي - تونس

البورصوي، محمد طاهر

(1278هـ/1861م - 1344هـ/1925م)

ولد في بورصه. ووالده هو رفعت بك كاتب بلدية بورصه، وهو حفيد سيد محمد طاهر باشا الأسكداري، أحد قادة الألاي الخاص للسلطان عبد المجيد. وبعد أن أنهى رشدية الملكية؛ التحق في عام 1875 بالإعدادية العسكرية في بورصه، وبدأ تحصيله فيها. وبجانب ذلك تلقى دروسا خاصة في مدرسة خراج چي أوغلي أثناء وجوده في الرشدية. وبدأ شغف طاهر البورصوي في هذه الفترة بالتصوف، وارتبط قلبه بمحيي الدين بن عربي.

في عام 1877 استشهد والده في جبهة تيلش في بليونه وذلك عندما التحق بالجيش عند بداية الحرب التركية الروسية. وأكمل طاهر مدرسته بنجاح كبير. وفي سبتمبر من عام 1880 دخل الحربية. وفي هذه الفترة ازداد ولعه بالتصوف، كما ازداد حبه لمحيي الدين بن عربي. وأخذ يتنقل في تكايا إستانبول في أيام الجمعة باحثا عن مرشد له. وانتسب أثناء هذا التنقل إلى حريري زاده شيخ الملامية ومؤلف «تبيان وسائل الحقائق في بيان سلاسل الطرائق»، وهو عبارة عن

موسوعة في الطرق. وواصل اتصاله بحريري زاده حتى وفاته في عام 1882 وهو في ريعان شبابه.

في يوليو من عام 1883 تخرّج ملازما في المشاة من الحربية. وتم تعيينه مدرسا للجغرافيا في الرشدية العسكرية في مناستر. وبجانب هذا كان يعطي دروسا في التاريخ والخطابة في الرشدية الملكية والإعدادية الملكية التي تم افتتاحها حديثا. وقام في عامه الأول من مجيئه إلى مناستر بمبايعة شيخ مرشده سيد خوجة محمد نور العربي الملامي، وذلك عندما زاره في استرومجه. وأصبح من الذين يعدون في طليعة الملاميين في المنطقة عند وفاة سيد خوجة في عام 1888.

بعد أن عمل طاهر البورصوي أربعة عشر عاما في مناستر، تم نقله في عام 1897 إلى الرشدية العسكرية في أوسكوب. وفي عام 1898 عين مرة أخرى في الرشدية العسكرية في مناستر، ولكن هذه المرة في وظيفة مدير، وذلك عند ترقيته من نقيب إلى قول أغا قبل أن يكمل عاما واحدا. وفي عام 1904 تم تعيينه مديرا في الرشدية العسكرية في سالونيك قبل أن يكمل في هذه المرة ستة أعوام في مناستر. وتم ترفيع رتبته في العام التالي إلى رائد. وكان منذ أول مقدمه إلى مناستر قد تبنى الاتجاه السياسي الذي يعمل على أن تدار البلاد عبر المشروطية. ولهذا السبب أصبح في شهر سبتمبر من عام 1906 عضوا مؤسسا في جمعية سياسية سرية تأسست في سالونيك تحت اسم «جمعية الحرية العثمانية». وفي عام 1906 أعفي من وظيفته مديرا للرشدية وذلك نتيجة بلاغين صدرا بشأنه فيما يتعلق بموقفه السياسي ونشاطاته الملامية. ونجا من النفي في مكان بعيد بمساعدة أصدقائه. وفي عام 1907 عيّن على قيادة طابور ألاي الشهير الاحتياطي في مانيسا. وبعد أن مكث طاهر البورصوي هناك ما بين خمسة إلى ستة أشهر تم توظيفه في إزمير عضوا في ديوان الحرب في مركز تومن مع وظيفة التحقيق. وقد اعتبرت هذه المناسبة فرصة جيدة بالنسبة إليه للاطلاع على مختلف المكتبات التي توجد في المنطقة.

في عام 1908، وعند إعلان المشروطية الثانية، اختير مرشحا من قبل حزب الاتحاد والترقي ودخل مجلس المبعوثان كنائب برلماني عن بورصه. وأثناء عمله في مجلس المبعوثان، شغل كذلك عضوية الجمعية العسكرية وعضوية لجنة التنسيق بنظارة الحربية وجمعية الأسطول الحربي. وتم تكليفه بإلقاء المحاضرات في المنطقة التي تمتد من إزمير إلى قونية، وكذلك في بورصه من أجل توضيح أهداف المشروطية للشعب. غير أن محمد طاهر البورصوي دخل في بعض الخلافات مع حزبه بسبب عدم توافق مزاجه مع الحياة السياسية. وترك العمل في البرلمان بعد إغلاق مجلس المبعوثان في نهاية عام 1911. وفي العام نفسه تم ترفيع رتبته إلى قائمقامية الألاي الاحتباطي، وأصبح عقب هذا عضوا في ديوان الحرب ودائرة المحاكمات. وفي عام 1913، وبعد أن أصبح عضوا في ديوان الحرب للمرة الثانية، تقاعد عن العمل في 24 يناير من عام 1914 وهو برتبة مقدم.

عندما جاء طاهر البورصوي إلى إستانبول كعضو في مجلس المبعوثان وجد ضالته المتمثلة في المكتبات وظروف العمل الجيدة التي كان يبحث عنها منذ أعوام وذلك للقيام بأبحاثه. وأنشأ علاقات صداقة مع بعض من اشتهر باهتمامه بالكتب مثل إسماعيل باشا البغدادي، وإسماعيل صائب خوجه (أمين كتب مكتبة بايزيد العمومية)، وعلي أميري، وابن الأمين محمود كمال، وأحمد توحيد، وفائق رشاد. كما اكتشف مكتبات إستانبول الغنية بالمصادر والكتب التي يحتاجها في كتابه «المؤلفون العثمانيون» والذي مكث فترة طويلة في إعداده.

وفي عام 1910 تم تأسيس «جمعية التاريخ العثماني»، واختير طاهر البورصوي عضوا ضمن أعضائها التسعة عشر (أعضاء مساعدون). وفي عام 1915 أصبح عضوا فخريا في «جمعية الأبحاث الإسلامية والوطنية» والتي شارك فيها أربعة عشر عضوا فخريا محليا وأجنبيا.

واصل محمد طاهر البورصوي منذ مجيئه إلى إستانبول أعماله في كتابه «المؤلفون العثمانيون»، وقد أصدر بعض الكتيبات والرسائل كما دأب على ذلك من قبل. وكان يكتب في مجلات مثل «الصراط المستقيم»، و«سبيل الرشاد»، و«الجريدة الصوفية»، و«الكلمة الطيبة»، و«مجلة الإسلام». وكانت معظم كتاباته تدور في موضوع التراجم. وفي عام 1913 تم تعيينه من قبل نظارة الأوقاف رئيسا للجنة عهد إليها تفتيش مكتبات الأوقاف التي توجد في إستانبول، واختيار المخطوطات المهمة وفصلها، وتم تكليفه كذلك بتحديد النسخ الفريدة أو تلك التي بخط المؤلف. وبجانب ذلك تمكن من المحافظة على عشرات الآلاف من المخطوطات من الضياع. وبعد أن أمضى طاهر البورصوي عاما ونصف العام في هذا العمل، تم تعيينه مديرا على مكتبة سراي طوب قابي.

في عام 1915 صدر المجلد الأول من كتاب «المؤلفون العثمانيون»، وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى بعد أبحاث استمرت عشرين عاما. وتوقف طاهر البورصوي في سنوات عمره الأخيرة عن الكتابة في المجلات بسبب تدهور حالته الصحية. وأثناء طباعة المجلدين الثاني والثالث في عامي 1922 و1924 مرض مرة أخرى وضاق به العيش. وبعد اكتمال طباعة هذا المؤلف المهم توفي محمد طاهر البورصوي في 10 ربيع الثاني 1344هـ الموافق 28 أكتوبر عام 1925م، وتم دفنه في مقبرة عزيز محمود هداي في أسكدار.

احتل طاهر البورصوي موقعا رياديا ضمن الباحثين فيما يتعلق بالتراجم في تركيا، وبصفة خاصة تعتبر دراساته حول المصادر والمراجع قيمة وثرية. وقد وجد المؤلف في فترة كانت الأعمال المتعلقة بالثقافة الوطنية بسيطة وغير مثمرة، وقد رأى المؤلف أنه من الضروري إعداد ببلوغرافيا غنية لإحياء الميراث الحضاري المنسي والثقافة الوطنية المهجورة. وقد أعد محمد طاهر البورصوي كتابه «المؤلفون العثمانيون» قبل أن تظهر أبحاث متخصصين في مجال الببلوغرافيات والتراجم مثل إسماعيل باشا البغدادي، وعلي أميري، وابن الأمين.

اعتبر البورصوي أن معرفة التراجم تمثل مقياسا لمستوى ثقافة الشعوب، وقد عبر عن رأيه هذا فعليا من خلال تلبية هذه الحاجة عبر مؤلفه هذا في تركيا. وقد عرض كتبه المخطوطة للاستفادة منها دون أي مقابل، كما أهدى العديد منها إلى المكتبات العامة بهدف حفظها من الضياع. وأهدى هذه الكتب إلى مكتبة الإسحاقية في مناستر، ومكتبة ألو جامع في بورصه، ومكتبة عزيز محمود أفندي، ومكتبة نصوحي أفندي في أسكدار.

آثاره

أ ـ مؤلفات مطبوعة:

1 ـ مساهمات الأتراك في العلوم والفنون (إستانبول 1314، 1327هـ)، يعتبر أول كتاب لطاهر البورصوي. وهو المؤلف الذي حمل اسمه إلى دنيا العلم. وبيّن فيه الكاتب أن قسما كبيرا من الذين قدموا خدمات جليلة للحضارة من علماء الإسلام ومفكريه هم من الأتراك. ومن العلماء الذين ذكر أنهم من أصل تركي، وأنهم لقوا قبولا في العالمين العربي والأعجمي نجد: الفارابي، والزمخشري، وابن سيناء، والجوهري، والبخاري، والترمذي، وحكيم السنائي، وشوكت البخاري، وأمير خسرو الدهلوي، وغيرهم من العلماء، وقد ظن أن هؤلاء العلماء ليسوا أتراكا لأن مؤلفاتهم كتبت إما بالعربية أو بالفارسية. وعمل الكاتب على إظهار الدور الفعال الذي لعبه الأتراك في الحضارة الإسلامية.

احتوى هذا الكتاب على أسماء نحو 163 مؤلفا تركيا عاشوا في فترة الدولة العثمانية أو قبلها، وقدم نبذا عنهم وعن أسماء مؤلفاتهم. وتم نشر المؤلف في فترة لاحقة بالأحرف اللاتينية من قبل ياووز أونات، ورمزي دمير (أنقرة 1995)، وسعيد أوزتورك (إستانبول 1996)؛ 2 ـ ترجمة حال الشيخ الأكبر محيي الدين عربي وفضائله (إستانبول 1316، 1329هـ)، هو عبارة عن كتيب صغير. ودافع فيه عن ابن عربي ضد ما يشاع خطأ بشأنه، وبين فيه كذلك أهدافه. وأعطى قائمة بأسماء الشروح التي كتبت لمؤلفاته مثل «فصول الحكمة» و439 مؤلفا آخر. وقد تمت طباعة المؤلف مرة أخرى مع بعض الملاحظات في نهاية كتاب «البرهان الأزهر في مناقب الشيخ الأكبر» (القاهرة 1326هـ) لصاحبه رجب حلمي أفندي؛ 3 ـ ترجمة أحوال 12 شخصية من كبار المشايخ والعلماء (إستانبول 1316هـ)، يتناول في هذه الرسالة ترجمة حال كل من محيي الدين بن عربي، وصدر الدين الكنوي، وعبد الرحمن البسطامي، وجمال الخلوتي، وبالي صوفياوي، وعزيز محمود هداي، ونيازي المصري، وإسماعيل حقي البورصوي، وقره باش ولي، وصلاحي الشاكي، وحريري زاده، وغيرهم من المتصوفة. وتناول فيه كذلك ترجمة حال سيد مرتضى الزبيدي؛ 4 ـ ترجمة أحوال ثماني شخصيات من المشايخ العثمانيين (إستانبول 1318هـ)، تضمن هذا المؤلف ترجمة شخصيات معظمها من المتصوفة، مثل شمس الدين السيواسي، وعلي دده البوسنوي، وعلي چلبي الأزنيقي، وإسماعيل الأنقروي، وعبد الله البوسنوي، وعبد الأحد نوري، ومستقيم زاده سليمان سعد الدين، وغازي زاده عبد اللطيف البورصوي وغيرهم. وأورد كراماتهم

ومناقبهم. كما قام بالتعريف بمؤلفاتهم التي تعرض الجوانب الفكرية والمعنوية عندهم؛ 5 ـ ترجمة حال ستة من العلماء العثمانيين (إستانبول 1321هـ)، عبارة عن رسالة تناول فيها ترجمة حال محمد محيي الدين الكافيجي، وكمال الدين إبراهيم دده جونجي، وبرغوي محمد أفندي، ومحمد عايشي، ويوسف زاده عبد الله حلمي أفندي، وأبو سعيد الخادمي؛ 6 ـ ترجمة حال عالي وكاتب چلبي من المؤرخين العثمانيين (سلانيك 1322هـ)، يعتبر هذا الكتاب أول محاولة جادة في ترجمة سيرة اثنين من المؤرخين الذين تم إهمالهم رغم شهرتهم الكبيرة. وأصبح مرجعاً للدراسات التي أجريت حول هذين المؤرخين. وفي نهايته أعطى قائمة ضافية للذيول التي تم القيام بها لمؤلفات كاتب چلبي، وكذلك كتابه «كشف الظنون». كما قدّم قائمة بثلاثة وأربعين مؤلفاً للعلماء العثمانيين تمت ترجمتها إلى اللغات الغربية؛ 7 ـ ترجمة أحوال المشايخ والعلماء والشعراء والمؤرخين والأطباء المنتسبين إلى ولاية آيدن (إزمير 1324هـ)، تناول في هذا الكتاب ترجمة حال 139 من المؤلفين الذين ولدوا أو ماتوا في مقاطعة آيدن داخل ولايات موغلا (منتشا)، ودينزلي، ومانيسا، وإزمير اليوم، والتي كانت ضمن التشكيلات الإدارية العثمانية القديمة.

ويعتبر هذا الكتاب أضخم مؤلف لطاهر البورصوي قبل أن يكتب مؤلفه «المؤلفون العثمانيون». ونشر هذا الكتاب من جديد بأحرفه اللاتينية من قبل محمد عاكف إردوغري (إزمير 1993)؛ 8 ـ دليل التفسير، معلومات إجمالية تدور حول علم التفسير ومفردات القرآن (إستانبول 1324، 1325هـ)، يبدأ هذا المؤلف بتعريف علم التفسير وغايته وتصنيفه، ثم يقوم بتقسيم علوم القرآن الكريم. ويتناول عدد حروفه وكلماته وسوره وآياته. ويفسر بشكل جوهري مسائل مختلفة مثل الترتيب الذي يوجد في سور القرآن. وأعطى فيه قائمة ببلوغرافية تعتبر الأطول في التفاسير التي تمت للقرآن الكريم عبر العصور؛ 9 ـ كتبنا في الأخلاق (إستانبول 1325هـ)، كتاب يبدأ بمقدمة تتناول أحاديث النبي التي تتعلق بالأخلاق. ثم يبين الكاتب بعد ذلك أن العلماء العثمانيين اهتموا بكتابة مؤلفات في مجال الأخلاق مثل اهتمامهم ببقية العلوم. ويعطي قائمة بـ 108 من المؤلفين. وبالإضافة إلى ذلك يقدم قائمة تحتوي على المؤلفات التي كتبها أو ترجمها مؤلفو الفترة الحديثة والكتاب المعاصرون في هذا المجال؛ 10 ـ منتخبات المصارع والأبيات (إستانبول 1328هـ)، مؤلف ضخم تناول ضرب الأمثال والشعر الحكمي الذي يوجد في الاشعار التركية عبر التاريخ. وقد ألفه صاحبه بعد أن نظر في كتب التراجم وفي المنتخبات الشعرية القديمة والحديثة إضافة إلى أكثر من مائة ديوان من الشعر. وقد نشر هذا المؤلف من قبل أورخان كمال طاوو كچو بحروفه القديمة مرفوقاً بالحروف اللاتينية الحديثة (أرضروم 1997م)؛ 11 ـ الفقر في نظر الإسلام (إستانبول 1330هـ)، هي إحدى الدراسات التي تعكس الاتجاه التصوفي لطاهر البورصوي. وهو مؤلف يدور حول مفهوم الفقر في التصوف؛ 12 ـ حاجي بيرام ولي [إستانبول 1329هـ، 1331هـ، 1925م/

1341هـ]؛ 13 ـ رسالة مختصرة تحتوي على المؤلفات المطبوعة وغير المطبوعة مع تراجم الحال لمولانا إسماعيل حقي الجلوتي [قدس سره] (إستانبول 1329هـ)؛ 14 ـ كاتب چلبي (إستانبول 1331هـ)؛ 15 ـ الآثار الإسلامية المتعلقة بالسياسة (إستانبول 1332هـ)، تحتوي هذه الرسالة على 172 مؤلفا تمت كتابته أو ترجمته في السياسة. ونشر هذا المؤلف من جديد بالأحرف اللاتينية من قبل كورون دينز [الدراسات الإسلامية، XII/1، أنقرة 1999، ص. 58 ـ 64]؛ 16ـ مناقب الحرب (إستانبول 1333هـ)، قام أولا بإلقاء الضوء على بعض البطولات في التاريخ العثماني، ثم أعطى بعد ذلك ببلوغرافيا تشتمل على 38 مؤلفا كتبها المؤلفون العثمانيون في فضائل الجهاد؛ 17 ـ مؤلفو القرم الذين عاشوا في زمن الإدارة العثمانية (إستانبول 1335هـ)، هو عبارة عن مؤلف يعطي ترجمة حال لـ 42 مؤلفا تركيا من أصل قرمي. وهم من المتصوفة والعلماء والشعراء والمؤرخين والأطباء والرياضيين. وتم نشره بالأحرف اللاتينية من قبل محمد صاري (أنقرة 1990)؛ 18 ـ المؤلفون العثمانيون [I، ـ III إستانبول 1333هـ/ 1915م ـ 1342هـ/ 1924م]، يعتبر آخر مؤلف كتبه محمد طاهر البورصوي، وفي الوقت نفسه يمثل أضخم كتبه. واستغرق العمل في هذا الكتاب مابين عشرين إلى خمسة وعشرين عاما. وتضمن الفترة التي تمتد من قيام الدولة العثمانية إلى الربع الأول من القرن العشرين. وفيه تناول ترجمة حال 1691 مؤلفا تركيا. ونظم طاهر البورصوي كتابه وفقا للأحرف الألفبائية حتى يسهل التعامل مع ترجمة المؤلفين في مختلف ساحات العلم، كما وزعهم حسب تخصصاتهم ووظائفهم. وتناول في تراجم الحال هذه 288 من المشايخ أو كما أسماهم الكاتب أرباب التصوف، و465 من علماء العلوم الشرعية واللغوية، و510 من الشعراء والأدباء، و237 من المؤرخين، و84 من الأطباء، و107 من المؤلفين الذين خلفوا مؤلفات في العلوم الرياضية. ووصل عدد المؤلفات في هذا الكتاب إلى 9000 مؤلف.

ب ـ مؤلفات غير مطبوعة:

19 ـ مناقب شيخ حاجه محمد نور العربي وبيان الملامة والأحوال الملامية؛ 20 ـ تراجم أحوال المشايخ والعلماء والشعراء المنسوبين لمناستر؛ 21 ـ مجموعة طاهر؛ 22 ـ الأحاديث الشريفة المتعلقة بالحسنين وتراجمهما؛ 23 ـ الأحاديث الشريفة المتعلقة بالإمام علي وفضائله وترجمته؛ 24 ـ ترجمة رسالة «الأحاديث الشريفة في السلطنة المنيفة» للإمام السيوطي؛ 25 ـ مجموعة ضرب الأمثال العربية والفارسية.

المصادر والمراجع

• Mualim Vahyi, Müslümanlik ve Türklügü Yükseltmeye Çalisanlar-dan: Bursali Tahir Bey, Istanbul 1335; • Franz Babinger, Osmanli Tarih Yazarlari ve Eserleri, (trans. Coskun Üçok), Ankara 1982, p. 441-444; • Osman Nuri Ergin, Muallim M. Cevdet'in Hayati, Eser-leri ve Kütüphanesi, Istanbul 1937, p. 392-398; • Abdülbaki Gölpinarli,

Melamilik ve Melamiler, Istanbul 1931, p. 328-330, 357; • Vasfi Mahir Kocatürk, Büyük Türk Edebiyati Tarihi, Ankara 1970, p. 788-789; • Agah Sirri Levend, Türk Edebiyati Tarihi, Ankara 1973, p. 446-447; • Nihad Sami Banarli, Resimli Türk Edebiyati Tarihi, Istanbul 1978, II, 1078; • Ömer Faruk Akün, «Bursali Mehmed Tahir», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1992, VI, 452-461.

د. أحمد أوزال
هيئة الموسوعة الإسلامية ـ اسطنبول ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي
تونس

البوزجاني، أبو الوفاء محمد بن محمد

(328هـ/940م ـ 388هـ/998م)

يأتي أبو الوفاء محمد بن محمد بن يحيى إسماعيل البوزجاني في طليعة علماء المسلمين في علمي الرياضيات والفلك، واشتهر بلقبي المهندس والحاسب إلاّ أنه لا توجد معلومات ضافية بشأن حياته. ولد في قصبة بوزجان التي تقع بين نيسابور وهيرات في خراسان (تعرف اليوم بتربة جام) وذلك في 1 رمضان 328هـ / 10 يونيو 940م وتوفي في عام 388هـ/ 998م في بغداد، إلا أنّ بعض المصادر تذكر عام 387هـ/ 997م تاريخا لوفاته.

تعلّم مبادئ الرياضيات وأسسها من عمّه أبي عمرو المغازلي وخاله أبي عبد الله محمد بن عنبسة. وفي عام 348هـ / 959م ذهب إلى بغداد وأكمل تعليمه مع العلماء المعروفين في تلك الفترة، وبدأ بإعطاء الدروس في بغداد ومواصلة أبحاثه في علمي الرياضيات والفلك، واشتهر بصفة خاصة في السنوات 365 ـ 366هـ/ 975 ـ 976م، أي في عهد الأمير عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة، أحد الأمراء البويهيين بملاحظاته العلمية في علم الفلك. وكما اشترك في الإرصادات الفلكية التي أقيمت في بغداد في قصر شرف الدّولة. وكان يكاتب البيروني للاستفادة من آرائه في هذا المجال. وفي هذه الأثناء قام كل من البيروني في خوارزم وأبي الوفاء في بغداد بمقارنة المشاهدات الإرصاديّة التي قاما بها لظاهرة الكسوف في كلا المنطقتين.
وقد تحدث البيروني في بعض مؤلفاته عن الإرصادات التي قام بها، والمعروف أنّ أبا الوفاء كان يراسل معاصره أبا علي الحبوبي مستفسراً عن بعض القواعد في موضوع مساحة المثلثات، وقد ألّف الحبوبي رسالة

في ذلك. ويتناول معاصره أبو نصر بن عراق في مقدمة رسالته"رسالة في معرفة القيس الفلكية" (حيدر آباد1367هـ/ 1984م الرسالة الثامنة ضمن رسائل أبي نصر منصور إلى البيروني). وهي إحدى الرّسائل التي أرسلها أبو الوفاء إلى الحبوبي. ويبيّن ابن خلّكان أنّ أبا الوفاء كان عالماً رياضياً مشهوراً "حاسب"، ويأتي في طليعة علماء الجبر، ولا يضارعه أحد في هذا المجال، وقد أشاد أستاذه كمال الدّين بن يونس بمؤلفاته ويرى أنّه بالإمكان الاعتماد على مؤلفاته وآرائه.

لقد ثبت بالتّأكيد أن ريكيومونتانوس (ت 1476م) لم يكن مؤسّساً لعلم المثلثات كما كان معروفاً. وهذا العلم نال اهتماما كبيرا لأوّل مرّة في عهد الخليفة المأمون وبالذات مع العالم حبش الحسيب المروزي، ولكنّه هو أيضا لا يعتبر مؤسّساً له، بل إنّ العالم أبا الوفاء هو الذي يعتبر أوّل من جعل علم المثلثات علماً له أصول وقواعد واضحة. وأثبت ضمن أبحاثه العلميّة نظريات عديدة في المثلثات، وعرّف"الظّل" و"قطر الظّل" ووضع جدولاً للمعادلات المثلثية بفارق 15 دقيقة بين كلّ قيمة وأخرى لمشتقة القوس. وفيما يتعلّق بهذه الجداول فإنّها وضعت من قبل المروزي الذي سبقه ولكنّه لم يذكر "الظّل" و"ظلّ التّمام" كمشتقة للقوس فضلاً عن افتقادها للدقة. واستطاع أبو الوفاء أن يتوصّل إلى حل المُتراجحة (المتباينة) الرّياضية لقوسين مجموعهما وفرقهما أقل من 90 درجة، وليكن القوسان س، ص بحيث س < ص فإنّ جا (س + ص) ـ جاس < جاس ـ جا (س ـ ص). وهذا الحل الرياضي أصبح فيما بعد نظرية مثلثية باسمه، وقد استخدم هذه النظرية في التّوصل إلى قيمة جا30؟ دقيقة حتى المرتبة الثامنة بعد الفارزة وبذلك أثبت أن جا30؟ = 0,2763562780.

ومن المعادلات الأخرى التي توصل إلى حلها المعادلة التالية:

2. حا 2 2/ س = 1 ـ جْتاس حاس ـ 2 حا2/س جتا /س 2 على فرض أن جاس وجاص مُعطيان، وبعد بالخطوة جا (س ، ص). وبهذه المعادلة الأخيرة استطاع أن يحسب قيمة الجيب وجيب التّمام للزّاوية النّصفية. واستخدم هذا العالم أيضاً أساليب مبتكرة لإيجاد الحلول المناسبة للمسائل الخاصة بالزّوايا الكروية. فقد جعل الحروف الكبيرة أداة للتعبير عن الزّوايا والحروف الصّغيرة للتعبير عن الأضلاع، واستخدم حرف (أ) للتّعبير عن الزّاوية القائمة، وباستخدامه هذا الأسلوب وجد حلاً للمتراجحة الخاصة بالمثلث قائم الزاوية داخل كرة وكالآتي: ظاس/ظاس = حاب، ظاب / ظاب = حاس إلى جانب ذلك أثبت نظرية الجيب الخاصة بالمثلّث الحادّ الزوايا داخل كرة. وقد نجح أبو الوفاء في ابتكار وسيلة لرسم القطع المكافئ نقطة فنقطة، ولم يكتف بذلك بل اقتبس شيئاً من الأساليب الهنديّة في رسم الأشكال الهندسية.

ومن هذه الأساليب استخدام الفرجال أو إحدى ذراعي الفرجال في رسم مربّع داخل دائرة أو رسم مثلث متساوي الأضلاع داخل مربّع. ويعتبر أبو الوفاء أوّل من أوجد هذه الأساليب المبتكرة في الرسم الهندسي. وله أيضاً بحوث علمية في مجال حلّ المسائل المتعلقة بالمضلّعات المنتظمة، منها كيفية

الرّسم التقريبي لمضلع ذي سبعة أو تسعة أضلاع.

كان علم الجبر قد نال اهتماماً كبيراً من قبل علماء كبار عاشوا قبل أبي الوفاء. ومن هؤلاء محمد بن موسى الخوارزمي، وأبو كامل شجاع بن أسلم المصري، ومحمد بن حسن القرجي، وتلميذه السَّموأل بن يحيى المغربي. وكانت اهتمامات هؤلاء العلماء منصبة على كيفية إيجاد الحلول لمعادلات من الدّرجة الأولى والثانية وعلى المفاهيم الجبرية الأساسية. وأمّا المعادلات من الدّرجة الثالثة والرّابعة فلم تنل حظها من الاهتمام إلاّ في حالات خاصة خلال تلك الفترة المبكّرة من تاريخ الإسلام. وتميّز أبو الوفاء بنشاط واضح في هذا المجال، فعلى سبيل المثال استطاع أن يتوصّل إلى أنّ حل المعادلة: س4+أس3 =نق، هو تعبير رياضي عن نقطة تقاطع قطعين متكافئين. وهذا ممّا يسترعي الانتباه لمقدرة أبي الوفاء العلميّة وطريقة بحثه العلمي.

آثاره

وضع ابن النّديم في كتابه «الفهرست» قائمة مفصلة بمؤلفاته إلاّ أنّ جزءاً منها لم يعثر عليه، وأمّا القسم الآخر فلم يخضع لدراسة علمية. ومن بين الكتب التي فقدت كتابه الذي يحتوي على آرائه وتعليقاته حول دراسات أوقليدس وديفينتوس وشرحه الذي كتبه لمؤلف أبي جعفر الخوارزمي المسمى «الجبر». ومن بين أهم كتبه الموجودة نذكر ما يلي:

1 ـ الزّيج الشامل، توجد منه نسخ عديدة بين مخطوطات متنوعة [سزكين، ب، 324] شرحه الطّوقاطي سيّد بن علي القُمناطي تحت عنوان «الزّيج الكامل»، وأهداه إلى السلطان محمد قلبي. وتوجد نسخة أخرى من هذا الشّرح في مكتبة السّليمانية [لا له لي، رقم 2137]، كما توجد منه نسخة أخرى في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2530، كما كتب أمير الدّين الأبهري شرحاً آخر للكتاب؛ 2 ـ كتاب فيما يحتاج إليه الكُتّاب والعمّال من علم الحساب، يتكون هذا الكتاب من سبعة أقسام: وسمّي كل باب منزلا، وقد كتب في الفترة من عام 961 إلى976 بطلب من عضد الدّولة أحد الأمراء البويهيين ليساعد الكتّاب وموظّفي الضّرائب في أداء عملهم، ولذلك عرف بكتاب «المنازل السّبع»، ويتكون كلّ قسم من سبعة أبواب. وقد رتّب الأساليب التي كان يتّبعها التّجار والكتّاب وموظفو الضّرائب في حساباتهم ببلاد المشرق الإسلامي ترتيباً ممنهجاً، وانتقد المناهج الخاطئة وطوّر مناهج عمليّة لحل الكسورغيرالعشرية. وبيّن المؤلف في كتابه هذا كيفية الوصول إلى حساب عملية رياضية مثل: $(b + 10a) (c + 10a)$. ويعتقد أنّه تأثر بعلم الرّياضيات في الهند فأطلق على الأعداد السالبة اسم «دين». وتناول في الأقسام الثلاثة الأولى النّسبة والضّرب والقسمة والمساحة وغيرها من المواضيع الرّياضية، واحتوت الأقسام الأربعة الأخيرة من الكتاب على حلول لمسائل عملية مثل: دفع الأجور وبيع الحبوب المختلفة ومبادلتها، وقد نشره أحمد سليم سعيدان ضمن كتابه «تاريخ علم الحساب العربي» [عمان1971، ص64 ـ 368]؛ 3 ـ كتاب فيما يحتاج إليه الثاني في الهندسة؛ ألّف هذا

الكتاب في عام990م، ويحتوي على أشكال هندسية ذات بعدين وثلاثة أبعاد أعدّه لأصحاب الحرف، كما أنّه يعتبر في الآن نفسه كتاب جبر، ويشكّل أهمية خاصة فيما يتعلق بالتطبيق العملي للجبر. وقد أخذ قسما من هذه الأشكال الهندسيّة من أوقليد وأرخميدس وهيرون الإسكندراني وثيودوسيوس وباكبوس، وأرفق مع هذه الأشكال الهندسيّة جملة من الأمثلة الأصلية. استنسخت من هذا المؤلّف لمكتبة أولوغ بك، وتوجد منه نسخة أنيقة في مكتبة السليمانية [قسم آيا صوفيا، رقم 2753]، وترجمه س. أ. كراسنوفا إلى اللغة الرّوسية.

[Fiziko-matematisceskie nauki v stranakh vostoka Moscow 1966, I,42-140]

وتوجد للكتاب ترجمتان مختلفتان باللّغة الفارسيّة [للاطلاع على نسخ الكتاب المخطوطة انظر قرباني، ص161 ـ 162]. وقام ووبكه Woepke بترجمة قسم مهم من إحدى هذه النسخ إلى اللّغة الفرنسية [Journal Asiatique. V.1855, S. 218-258, 309-359]، وقام صالح أحمد العالي بنشر الكتاب (بغداد 1979). وقد تمّ شرح هذا الكتاب باللّغة العربية من قبل كمال الدين بن يونس، وباللّغة الفارسية من قبل محمد باقر يزيدي [للاطلاع على نسخ الكتاب المخطوطة انظر قرباني، ص 163]، وقام أوتو نيكباور ورشدي راشد بدراسة شكلين هندسيين متعلقين بـ: «المرايا المحدّبة» مرفوقين بالنّص العربي للكتاب.

[«Sur une construction du miroir parabolique par Abu al-Wafa al-Buzjani», Arabic sciences and Philosophy, IX [Cambridge 1999], s.261-277].

4 ـ المجسطي (كتاب الكامل) أضخم مؤلّف لأبي الوفاء في علم الفلك، ويكتسب هذا الكتاب أهميته من عدة جوانب حيث شرح المعلومات المتعلقة بعلم الجبر في تلك الفترة وقدّم نظريات وإثباتات جديدة متعلقة بالمثلثات المسطّحة والكرويّة، ولم يصل إلينا المُؤلّف كاملاً، وقد يكون هو نفسه كتاب «الزيج الواضح» أو جزءا منه، وهو أيضاً كتاب لم يصل إلينا. وتوجد نسخة ناقصة من الكتاب في المكتبة الوطنية في فرنسا تحت الرقم 1138. وكان ل.أ. سدللو الذي شرح قسماً من الكتاب شرحاً خاطئاً يقول بأن أبا الوفاء هو الذي اكتشف تعديل «العين» [أنظر الببليوغرافيا]. وقد انتقد «كرّا دو فو» هذا الادّعاء [انظر الببليوغرافيا]. وقد كان يعتقد حتّى بدايات القرن التاسع عشر أنّ كتاب المجسطي هو عبارة عن ترجمة لكتاب بطليموس المسمّى «المجسطي» أيضاً، إلاّ أنّ الأبحاث أثبتت بعد ذلك أنّه دراسة مستقلة وكتاب قائم بذاته. ويوجد في الكتاب مواضيع قيمة أخرى مثل علم الفلك وعلم المثلّثات وأقسام متعلقة بنظرية «حركة العين». (للإطلاع على الإضافات التي أضافها أبو الوفاء في هذا الكتاب في مجال علم المثلثات الكروي انظر:

[M. Delambre, Histoire de L'astronomie du Moyen Age, Paris 1819, s.156-166; P.Luckey, «Zur entestehungder Kugeldreiecksrechung», Deutsche mathematik, v1940, s. 405-446].

5 ـ رسالة في ترتيب (تركيب) عدد الوفق في

المربّعات هو كتاب ألّف حول الوفق في المربعات شرحه جاك ساسيانو ونشره مع ترجمته الفرنسية.

[«Le Traité d'Abu'l-wafā sur les carrés magiques», Zeitschrift f'r Geschichte der Arabisch-Islamischen wissenchften, Fuat Sezgin, Frankfurt am Main 1998.s. 121-244.]

6 ـ جواب أبي الوفاء محمد بن محمد البوزجاني عمّا سأله الفقيه أبو علي الحسن بن حارث في مساحة المثلث: هو عبارة عن الجواب المتعلق بقاعدة حساب مساحة المثلث والتي طلبها أبو محمد علي الحبوبي من أبي الوفاء. وقد نشرت صورة طبق الأصل من النسخة الأصلية مرفوقة بتحليل باللّغتين العربية والإنجليزية من قبل س. كينيدي ومصطفى موالدي وذلك في مجلّة تاريخ العلوم العربية [III/ 1، ص19، ـ 30، 50 ـ 53]؛ 7 ـ رسالة في إقامة البرهان على الدّائر من الفلك من قوس النّهار وارتفاع نصف النّهار وارتفاع الوقت؛ وهي رسالة موضوعها معرفة الوقت من خلال ارتفاع الشمس، وتمثّل أساساً لعلم الفلك الكلاسيكي، وكتبها بناءً على طلب من أبي علي أحمد بن علي بن السّكر، وهي مطبوعة وتمثّل الرسالة الخامسة ضمن الرسائل المتفرّقة في الهيئة [حيدر آباد، 1362هـ/ 1943م]. وقد درس ن. نادر هذه الرسالة دراسة تحليليّة.

[«Abu al-Wafā on the Solar Altitude», the Mathematics Teacher,1960,LIII,460-463].

8 ـ المدخل إلى الأرتماتيك؛ 9 ـ رسالة في النسب والتعريفات؛ 10 ـ براهين العمل الهندسيّة، ترجمه إلى الفارسية وكتب له شرحاً محمد باقر زين العابدين؛ 11 ـ رسالة في جمع الدّلائل المربعات والمكعبات؛ تتضمن هذه الرسالة السّؤال الذي وجّهه له أبو بشر حسن بن سهل وجوابه عليه [للاطلاع على مزيد من المعلومات حول مؤلفات أبي الوفاء انظر: سزكين، V/ 323 ـ 325؛ VI، 223 ـ 224؛ قرباني، 161 ـ 167؛ دافيد بنكري، I/ 393 ـ 394].

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، نشر رضا تجدّد، طهران بدون تاريخ، 341؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان، V/ 167 ـ 168؛ ● ابن القفطي، إخبار العلماء، القاهرة 1326، 64/ 287 ـ 288؛ ● صالح زكي، آثر باقية، إستنبول 1326، I/ 162 ـ 165؛ ● مجلة تاريخ العلوم العربية، III/1، (حلب 1979، 19 ـ 30، 50 ـ 53)؛

- Fuat Sezgin, Geschichte der Arabischen Schrifttums, Leiden,1967-1984, VI,222-224; VIII, 408;
- Aydin Sayili, The Observatory in Islam, Ankara1960,s.109-112;
- E.P. Yousch Kevitch, «Abu'l wafa al-Buzjani», Dictionary of Scientific Biography, New York 1981, I,39-43;
- Ebū'l Kasim Kurb,nÓ, Zinde-gÓn,me-i Riy,zÓd,n,n-i Devre-i Islam,Tahran 1365 HicrÓ, s.154-169;
- L. Sedillot, «DÉcouverte de la var-

iation par Aboul-Wafa», Journal Asiatique, XVI,(1853),s.420-438;

- F. woepcke, «Analyse et Extrait d'un receuil de constructions géométriques par Aboul Wafa», Journal Asiatique, V,série: V (1855),s.218-256, 309-359;
- Carra de Vaux, «L'almageste d'Abu'l Wafa Al-Buzdjani», Journal Asiatique, XIX, (1892),s. 408-471; A.S. Saidan, «The Arithmetic of Abu'l-Wafa», ISIS, sy. 65 (1974), s.367-375;
- E.S. Kennedy and Mustafa Mawaldi, Abu'l Wafa and the Heron Theorems;
- Pervîz Sehriyary, «ZindegÓn me.ve, s,r-i Eb,'l-Vef, Buzjani», Tahkikat-i Islami, Tahran 1993, VIII/1-2, s. 225-233;
- Jafar Aghayani-Chauoshi, «Abu'al-Waf, innovateur de la géométrie pratique dans le monde Islamique», La Science dans le monde iranien? l'Époque, «Tehéran 1998, s.95-116;
- Heinrich Suter, «Abu'l-Wafa al Buzjani», Encyclopaedia of Islam, I,159;
- D. Pingree «Abu'l Wafa Buzdjani» Encyclopaedia Iranica, I,392-394;
- Cengiz Aydin, «Eü'l-Vef, el-Buzjani, Türkiye Diyanet Vakfî Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1994, X, 343-349;
- Yvonne Dold-Samplonius, «Abu'l-Wafa», Encyclopaedia of the History of Science, Technology and Medicine in Non Western Cultures, Dordrecht 1997,s.8-10.

د. أحمد أوزال
ترجمة: مصطفى بن الطّاهر الستيتي
د. علي مصطفى بن الأشهر
جامعة الفاتح - طرابلس

بوشامة، الربيع بن الصديق

(1335هـ/1916م - 1379هـ/1959م)

الربيع بن الصديق بوشامة، ولد ببلدة قنزات بمنطقة بني يعلى ولاية سطيف بالشرق الجزائري.

استهل تعلمه في الكتّاب بحفظ القرآن الكريم فختمه حفظًا في الثانية عشرة من عُمره على يد شيخه الصديق بن عبد السلام، وكان في الوقت ذاته يتعلم في المدرسة الفرنسية، فأكمل بها تعلمه الابتدائي، ثم اختلف إلى

مجالس علماء المنطقة فأخذ عنهم، وكان من بينهم: الشيخ السعيد صالحي، والشيخ العياشي مرغيش، والشيخ الهاشمي بن المُولود وغيرهم. كما التحق من بعد، بدروس الإمام عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، إلا أن الوقت لم يطل به في هذه المجالس لوفاة الإمام ـ رحمه الله ـ سنة 1940، فرجع حينئذ إلى بلدته. وكانت منطقة بني يعلى في هذه الفترة من بين أهم المناطق في الجزائر التي أصبحت تتوفر على بيئة صالحة ومناخ مُلائم لانتشار الفكرة الإصلاحية، وكانت بذور هذه الفكرة قد بدأت تأخذ طريقها إلى صدر الشاب الربيع منذ أيام طلبه العلم في مجالس شُيُوخه الأوائل، وقد ازدادت هذه الفكرة في قلبه وفي عقله تمكنا بعد التحاقه بدروس الإمام ابن باديس وتوطيد صلته المباشرة به وبأفكاره.

دخل الربيع وهو في ربيع عُمره مُعترك الحياة العملية من بوابة الحركة الإصلاحية، مُنطلقًا مما انطلقت منه هذه الحركة في مشروعها الدعوي التربوي عن طريق الوعظ والإرشاد، والتربية والتعليم، والتهذيب والتثقيف، فعكف على إلقاء دروس بمسجد القرية، وأسس ناديًا ثقافيًا فتح أبوابه للشباب، وكان يلتقي فيه بهم في حلقات توعية وتكوين.

وفي سنة 1937 أصبح عُضوًا عاملاً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رائدة النهضة.

وفي سنة 1938 أوفدته هذه الجمعية رفقة شيخه السعيد صالحي إلى فرنسا للمشاركة فيما تقوم به بعثة هذه الجمعية هنالك من نشاط دعوي وتربوي في أوساط المغتربين، ولكنه لم يمكث في هذه المهمة إلا حوالي سنة واحدة رجع بعدها إلى بلدته قنزات لِيُواصل نشاطه الإصلاحي التربوي بها. بيد أن سُلطات الاحتلال لم تُمهله ليصل إلى أهدافه في ذلك، فمضت ترصد حركاته وتتبع خُطواته، مما اضطره إلى تغيير مواقع جهاده، فانتقل إلى مدينة خراطة إحدى مدن المنطقة، وأصبح مُعَلمًا بمدرستها، إلا أنه وجد العدو الذي كان يُلاحقه في قريته ينتظره في موقعه الجديد بأشد مما كانت عليه مُضايقته له من قبل.

كانت الجزائر قد شهدت في هذه الآونة ما يُعرف في تاريخ نضالها في العصر الحديث بحوادث الثامن من مايو 1945 التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، وتمثلت تلك الحوادث في خروج الجزائريين في مظاهرات سلمية، مُطالبين باسترجاع حُقوقهم المغتصبة، وكان الحلفاء قد وعدوا قبل الحرب وأثناءها الشعوب المضطهدة بذلك، إلا أن المُعتدين لا يعرفون للوفاء عهدًا، فتنكروا لوُعودهم وقاموا بإخماد تلك الانتفاضة الشعبية بالحديد والنار، أحرقوا القُرى، ودمروا الديار، وأزهقوا الأرواح، وبلغ عدد الشهداء من الجزائريين يومئذ حوالي خمس وأربعين ألف شهيد ـ رحمهم الله ـ.

وكانت أحداث هذه الواقعة قد تركزت بخاصة في ثلاث مُدن هي قالمة وسطيف وأخيرا خراطة حيث كان يقيم الشاعر، فأصابه من ذلك بلاء عظيم، فقد ألقى القبض عليه بتُهمة المشاركة في هذه الانتفاضة والتحريض على الثورة ضد المحتلين، فقُدِّم للمحاكمة، فحُكم عليه بالإعدام ثم استأنفت المحكمة حكمها

فبَرأت ذِمته فخرج من السجن سنة 1946، فتوجه إلى العاصمة وأصبح مُعلما بها في مدرسة جمعية الهُدى بحي العناصر.
وفي سنة 1948 أسندت له جمعية العلماء الإشراف على مدرسة الثبات بحي الحراش بالعاصمة.

كان طوال نهوضه برسالته التربوية يجمع في ذلك بينها وبين إسهاماته الإصلاحية الدعوية، فكان لذلك يقوم بدروس نظامية للتلاميذ في المدارس، ويُواظب في الوقت ذاته على إلقاء دروس دعوية في الوعظ والإرشاد للعامة في المساجد.

وفي سنة 1952 قامت جمعية العلماء بإيفاده ثانية إلى فرنسا ليُصبح رئيسًا مُعتمدًا لشعبتها المركزية بباريس، فنهض بهذه المهمة على أحسن وجه، بقيامه بتوسيع نشاط الجمعية بين المغتربين، ونشره بينهم دعوتها ومبادئها وتعريفهم بأهدافها، فعرف بذلك عدد المنخرطين في الجمعية، زيادة مُطردة، كما حرص من نحو آخر على توطيد الصلة بين المنضوين تحت لواء الجمعية، وبين إخوانهم العرب والمسلمين المقيمين بفرنسا، فكان لهذه الجهود الاثر الطيّب في جمع الكلمة وتوحيد الصف والإسهام في إعطاء شيء من الفاعلية اللازمة للعمل الإسلامي في بلاد الغرب.

إلا أن الربيع لم يستمر في هذه المهمة ـ لأسباب غير واضحة ـ لأكثر من سنة عاد بعدها إلى الجزائر، ليُواصل مرة أخرى رسالته التربوية والإصلاحية في أرض الوطن على رأس إدارة مدرسته السابقة الثبات بحي الحراش بالجزائر العاصمة.

واستمر ينهض بهذه المهمة إلى أن اندلعت الثورة المباركة في الفاتح من نوفمبر 1954 فانضوى مُناضلاً تحت لوائها ومضى يدعو الشعب إلى الالتفاف حولها، يُجنّدُ الشباب، يجمع الأموال، يُوَثّق صلاته بجيش التحرير الوطني، يُواكب بشعره مسيرة الثورة، تصويرًا لملاحمها، وتخليدًا لمآثرها إلى أن سقط شهيدًا في ميدانها.

وترجع صلة الربيع بالثورة إلى أيّامها الأولى، وذلك عن طريق صديقه القائد الشهيد عميروش ـ رحمه الله ـ، الذي كانت تربطه به صلة النضال في صفوف جمعية العلماء أيّام كان الربيع في فرنسا يرأس شعبتها المركزية، وكان عميروش يرأس شُعبتها بباريس القسم 15، ثم أصبح بعد اندلاع الثورة أحد قادتها البارزين في الميدان.

واستمر الربيع في نضاله بصفوف الثورة متنقِلاً ما بين الجزائر العاصمة ومدينة سطيف وغيرها شرقًا، إلى أن ألقى المحتلون القبض عليه يوم 16 جانفي 1959، وهو في مكتبه بإدارة المدرسة واقتادوه إلى السجن، وظل به طوال خمسة شهور، يلقى من الوان التعذيب وصُنوف التنكيل ما يلقى، حتى سقط شهيدا ـ رحمه الله ـ تحت سياط التعذيب على أيدي الجلادين يوم 13 مايو 1959، فكان الأديب الشهيد الربيع واحدًا من بين كثير من شهداء الكلمة في الجزائر.

لقد تضافرت عدّة عوامل: الموهبة، والثقافة ومؤثرات البيئة وملابسات الواقع وغيرها، على طبع الشخصية الأدبية للشهيد الربيع بطوابع الأصالة والصّدق والوطنية، مما ساعده على الاندماج في واقع الأمة،

والالتزام بالدّفاع عن قضاياها، والذّود عن قيمها ومقوّماتها، فجمع كل ذلك في اهتماماته الشعرية ما بين التمكين للفكرة الإصلاحية وتصوير مشكلات المجتمع، وبين الدعوة إلى التحرر الوطني، ومواكبة مسيرة الثورة وتخليد مآثرها، والحض على الالتفاف حولها.

وكان شعوره عميقًا بهذه الرّسالة النّضالية للأدب، فكان لذلك متعدّد الإسهام بالكلمة المناضلة في كل هذه الميادين: شاعرًا وخطيبًا وكاتبًا. إلاّ أنّ موهبة الشاعرية عنده كانت أوضح من غيرها من الميول الأدبية الأخرى.

ونحسب أن ليس من اليسير تحديد الفترة الزمنية التي يكون الشاعر قد بدأ فيها تعاطيه قرض الشعر، بيد أنّ ما يمكن تقريره في هذا الصدد أنّ أقدم ما وصلنا من شعره، قصيدته "يا شهابًا قد تجلى" التي نشرها في جانفي 1947 [ديوانه، ص 249].

وبهذا يكون الشاعر قد أسهم بإبداعاته الشعرية في عطاء مرحلتين من مراحل تاريخ الشعر الجزائري الحديث: أولاهما ـ مرحلة الإعداد للثورة ما بين 1945 ـ 1954. وثانيتهما ـ مرحلة مواكبة الثورة 1954 ـ 1962 وهو بذلك يعدّ من شعراء الرّعيل الثاني من جيل النهضة في الجزائر.

ويذكر الدكتور محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية [رسالة دكتوراه ـ مخطوطة جامعة الجزائر 1983م الملحق، ص 09] أنّ الشاعر الربيع كان ينزع في فنّه منزع "المهجريين وجماعة أبولو".

وقد يكون الشاعر بحكم المعاصرة قد قرأ للمهجريين وغيرهم من شعراء العربية في العصر الحديث، ولكن ذلك قد لا يصل به إلى درجة التأثر بهؤلاء والنسج في عمله الشعري على منوالهم، وذلك لما بينه، وبين هؤلاء من وجوه الافتراق في مؤثرات البيئة، وملابسات المحيط، وظروف المجتمع، ونوعية الثقافة، وطبيعة الأهداف المتوخاة.

ومما يمكن قوله عن صنعته الفنية أنه كان يحرص فيها على فصاحة اللغة وبلاغتها، ويسر العبارة وسهولتها، مركزا عنايته فيها على القيم التبليغية التوصيلية، أكثر من عنايته فيها بالقيم الفنية الجمالية، وذلك مراعاة لمقتضى الحال [الرسالة، المرسل إليه، الغاية المتوخاة].

■ آثاره

إن أهم آثار الشهيد الربيع بوشامة شعره، وقد ضاع معظمه في جملة ما ضاع من آثار الجزائريين طوال فترة الاحتلال، وبخاصة أثناء الثورة.

وإن أهم ما وصلنا من ذلك ديوانه، جمع وتقديم الدكتور جمال قنان، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر 1994.

■ المصادر والمراجع

● إنّ أهم مصدر يحتوي على نتائج الشاعر هو الصُّحف الوطنية، وبخاصة منها جريدة "البصائر" السلسلة الثانية (1947 ـ 1956م)، ثم ديوانه السالف الذّكر.

المراجع: وهي نوعان:

1 ـ كتب التراجم:

● ديوان الشهيد الربيع بوشامة من ص 3 إلى 35؛ ● د. ناصر محمد: الشعر الجزائري الحديث: اتجاهاته وخصائصه

الفنية، مصدر سابق، الملحق ص 60؛ ● د. بوصفصاف عبد الكريم وآخرون، معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، جامعة قسنطينة 2002 ج 1، ص 270؛ ● السانحي محمد الأخضر عبد القادر، روحي لكم، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986، ص 113.

2 ـ مراجع عامة:

● د. خرفي صالح، الشعر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1970، ص 370؛ ● مجموعة مقالات في الصحف.

د. محمد بن سمينة

جامعة الجزائر ـ الجزائر

البوشنجي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد

(204هـ/819م ـ 291هـ/903م)

محمد بن إبراهيم بن سعيد بن عبد الرحمن بن موسى العبدي، البوشنجي، أبو عبد الله.

فقيه كبير على مذهب الإمام مالك بن أنس، شيخ المحدثين في زمانه بنيسابور، ومن أئمة اللغة وكلام العرب.

ارتحل شرقا وغربا، فكانت له رحلات علمية التقى فيها بكبار العلماء والفقهاء والمحدثين واللغويين، جمع وصنف التصانيف الكثيرة.

توفي بنيسابور في غرة شهر المحرم. وقيل: مات في سلخ ذي الحجة، وصلى عليه إمام الأئمة ابن خُزَيْمَة [كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 202؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 294؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 1/ 342].

وفي هذه السنة توفي شيخ القراء محمد بن عبد الرحمن قنبل المكي، وشيخ الأدب أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، ومحدث مكة محمد بن علي الصائغ، ومحمد بن أحمد بن البراء العبدي، ومحمد بن أحمد بن النضر ابن بنت معاوية بن عمرو الأودي، وهارون بن موسى الأخفش مقرىء دمشق، [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 659].

أثنى عليه المُترجمون، فقال فيه ابن العماد الحنبلي: كان رأسا في علم اللسان، حافظا علامة من أئمة هذا الشأن. قال في العبر: البوشنجي الإمام الحبر أبو عبد الله شيخ أهل الحديث بخراسان [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 1/ 205].

حضر مرة عند الإمام داود الظاهري إمام المدرسة الظاهرية فأكرمه، وقال: جاءكم من يفيد ولا يستفيد [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 658].

قال أبو زكرياء العنبري: شهدت جنازة الحسين القباني فصلى عليه أبو عبد الله البوشنجي، فلما أراد الانصراف قدمت دابته فأخذ الحافظ أبو عمرو الخفاف بلجامه، وأخذ الإمام ابن خزيمة بركابه، وإبراهيم بن أبي طالب والجارودي يسويان ثيابه، فلم يمنعهم من ذلك [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 658].

روى عن أحمد بن يونس، ومسدد بن مسرهد، وسمع من يحيى بن بكير، ويوسف بن عدي، والنفيلي، وروح بن صلاح، ومحمد بن سنان العوقي، وإسماعيل بن أويس، وسعيد بن منصور، وأحمد بن يونس، وأبي نصر التمار، وأمية بن بسطام، ومحمد بن المنهال، وكثير من الكبار [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 657؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 1/ 205].

روى وحدّث عنه محمد بن إسحاق الصاغاني، وأبو عبد الله البخاري، وابن خزيمة، وأبو حامد بن الشرقي، وأبو بكر الصبغي، ودعلج السجزي، وإسماعيل بن نجيد، وخلق كثير [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 658؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 1/ 205].

المصادر والمراجع

● الذهبي، شمس الدين (ت 748هـ/ 1347م)، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992، دار العلم للملايين؛ ● الصفدي، صلاح خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، باعتناء محمد الحُجيري، 1404 هـ/ 1984م، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، ألمانيا؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، لبنان، مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي.

د. نور الدين مختار الخادمي

جامعة الزيتونة ـ تونس

البوصيري، أبو عبد الله محمد بن سعيد

(608هـ/ 1213م ـ 696هـ/ 1297م)

أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي، شرف الدين؛ محدّث متميّز ومقرىء ومتصوّف وشاعر وإخباري ولغوي ينسب إلى دلاص وأبوصير من أعمال بني سويف بمصر، فيقال الدلاصي والبوصيري، ويقال أحيانا الدلاصيري. أصله من بلاد الجزائر من قبيلة بربريّة من قلعة بني حمّاد تعرف ببني حينون. ولد يوم الثلاثاء فاتح شوّال سنة

608 هـ/ 7 مارس 1213م في بهشيم من ضواحي البهناويّة ونشأ في دلاص وبها حفظ القرآن ودرس الحديث والنحو والصرف والفقه والتصوّف وأيّام العرب والأنساب والأخبار والفلسفة والمنطق وسائر الديانات السماويّة وتعمّق في كتبها، وعاش في بلبيس، وكان خطّاطا ماهرًا، وقد تتلمذ على جماعة من معاصريه وتأثّر بمعارفهم وآرائهم وحاكاهم في سلوكهم؛ وأبرزهم أبو العبّاس أحمد المرسي (ت 686 هـ/ 1287م)، وعمر بن الفارض (ت 632هـ/ 1235م)، ويحيى بن مطروح (ت 649هـ/ 1251م)، والبهاء زهير (ت 656هـ/ 1258م).

شهد مختلف الصراعات التي نشبت في عهد بني أيّوب وتصدّى فيها المسلمون للحملة الصليبيّة ونافحوا في سبيل إحياء ما اندرس من علوم الدين وحرصوا على نشر الفقه والذبّ على مذاهب أهل السنّة وإخماد جذوة الدعوة الشيعيّة. وانخرط في الطريقة الشاذليّة وقضى عشر سنوات بمدينة القدس. ثمّ أقام بالمدينة ومكّة قبل أن يستقرّ نهائيّا ببلبيس حيث تولّى منصبًا إداريًا متواضعا. وقد بدأ في أغلب الأحيان سنّيّ المنزع، غير منحاز إلى مذهب بعينه، متعاطفا مع آل البيت، مجلاً للخلفاء الراشدين ورافضا لبني أميّة.

ولمّا ذاع صيته انضمّ إلى مجلسه للأخذ عنه كثيرون منهم العزّ بن جماعة (ت 733 هـ/ 1332 ـ 1333م) واثنان من أئمّة العلم بالأندلس وهما أبو حيّان (ت 754هـ/ 1354م)، وابن سيّد الناس (ت 734هـ/ 1334م). وكانت وفاته بالإسكندرية سنة 696هـ/ 1297م استنادا إلى قول ابن شاكر [فوات الوفيات، 2/ 205] في حين ذكر السيوطي أنّه توفّي سنة 695هـ/ 1296م. أمّا دفنه فكان قريبا من ضريح الإمام الشافعي.

آثاره

كان البوصيري، كما قال ابن حجر الهيثمي (ت 973هـ)، متصوّفا، عارفا، عالما، محقّقا، بليغًا، إمام الشعراء، وأشعر العلماء، وأفصح البلغاء والحكماء [الشرح على متن الهمزيّة، المطبعة العامرة 1292 هـ، 3 ـ 4].

وقد ترك آثارا عدّة منها:

1 ـ مؤلّف في الردّ على النصارى حول عقيدة الصلب وحول اعتقادهم في ألوهيّة المسيح، مستدلاً على بطلانه بافتقاره إلى الأكل والشرب والنوم والراحة وغيرها، وبالتالي انتفاء الكمال والغنى المطلق؛ 2 ـ فقرات نثريّة أكّد من خلالها سعة اطّلاعه على سائر الأديان وأوضح فيها آراءه ومواقفه ممّا تضمّنته مختلف الكتب السماويّة وأبرز من خلالها فضل الإسلام على سائر الأديان وتناول مسائل من العقيدة؛ 3 ـ ديوان شعر ذكر ابن شاكر الكتبي أنّه «في غاية الحسن واللّطافة، عذب الألفاظ، منسجم التراكيب» [فوات الوفيّات، 2/ 414]. وقد ساير واضعه في جزء منه عبد الله الشقراطسي في انتهاجه منحى الشعر التاريخي ولا سيّما في قصيدتي البردة والهمزيّة متخلّصا بذلك من الصبغة الغنائية إلى الملحميّة.

وقد نظم البوصيري نصوصا شعريّة، على وجه الخصوص، نالت لأهمّيتها شهرة واسعة فتناولها الناس بالشرح والمعارضة والتشطير والتخميس والتعشير والترجمة وغيرها. وهي ثلاثة نوردها كالتالي:

أ ـ البردة أو الكواكب الدرّيّة في مدح خير البريّة وهي مدحيّة من البحر البسيط ميميّة عدد أبياتها 163. وقد قال ناظمها في شأن الظروف الحافّة بنشأتها: «قد كنت نظمت قصائد في مدح رسول الله، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثمّ اتّفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي ففكّرت في عمل قصيدتي هذه، فعملتها واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكرّرت إنشادها ودعوت وتوسّلت، ونمت فرأيت النبي، فمسح وجهي بيده المباركة وألقى عليّ، فانتبهت ووجدت فيّ نهضة، فقمت وخرجت من بيتي» [ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 2/ 412]. وكان لهذه الحادثة الفضل في إكساب البردة شهرة واسعة وحمل أشياع الطريقة الشاذلية على الاعتناء بها إلى حدّ التقديس. ومن ذلك أنّهم كانوا يقرؤونها على طهارة مع استقبال القبلة ويقرؤون معها دعاء.

ويروى أنّ النبيء أكمل بيتا من البردة، وذلك حينما قال صاحبها صدر البيت: «فمبلغُ العِلم فيه أنّه بشر» وعجز عن الإتيان بالعجز فجاء ما أكمل به الرسول على نحو ما يلي: «وأنّه خير خلق الله كلّهم». وكان تأثّر البردة بلامية أبي محمد عبد الله الشقراطسي (ت 466هـ/ 1074م) بيّنا في مستوى الشكل والمضمون، كما أوضحه الشيخ الشاذلي النيفر [مجلة جمعيّة الاتّحاد الصفاقسي الزيتوني، ط. الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1952]. وحظيت القصيدة المذكورة بعناية فائقة من قبل العديدين منهم محمد بن مرزوق التلمساني (ت 781 هـ/ 1379 م)، وقد خصّها بثلاثة شروح متوفّرة بمكتبة آل النيفر أوّلها عنوانه صدق المودّة في شرح البردة، وآخر متوسّط، وثالث صغير موسوم بالاستيعاب لما في البردة من البيان والإعراب. وعني أيضًا بهذه القصيدة إبراهيم بن يجبش التازي فقام بتشطيرها [ديوان ابن يجبش التازي، 9 ـ 10].

ب ـ الهمزيّة أو أمّ القرى، وهي من الخفيف وأبياتها 456 ومطلعها:

كيفَ ترقى رقيَّكَ الانبياءُ
يا سماءً ما طاولتْها سماءُ

وقد تطرّق فيها البوصيري إلى الحقيقة المحمّديّة، فمولد الرسول، ثمّ رضاعه ونشأته وزواجه وتلقّيه الرسالة وقيامه بالدعوة وما لقيه جرّاء ذلك من أذى المشركين، واستعرض معجزاته وغزواته، ومنها ولج باب الجدال مع الخصوم معتمدًا العقل والمنطق، وختم بمناجاة النبي وسؤاله الشفاعة. وقد تناول البردة بالمعارضة والتخميس والشرح، فكانت لمحمّد بن زكري (ت 1144 هـ) معارضة مطلعها:

ربُّنا للنبيء منكَ الجزاء
تقتضيه الارواحُ والاجزاءُ

كما كانت ليوسف النبهاني معارضة استهلّها بقوله:

نُورك الكلُّ والورَى أجزاءُ
يا نبيًا من جنده الأنبياءُ

[طيبة الغرّاء في مدح سيّد الأنبياء أو الهمزيّة الألفيّة، ط بيروت 1314هـ]. وقد عارضها أيضًا الزمزمي، والقيراطي وغيرهما. أما مخمّسوها فمنهم أسعد محمد بن إسماعيل

(ت 1166هـ). وقد بدأ شارحوها أوفر عددا وأبرزهم:

ـ محمد الصومعي، له شرح توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنيّة بتونس، رقم 4065 .

ـ أحمد بن حجر الهيثمي، له شرح عنوانه المنح المكّية في شرح الهمزيّة أو أفضل القرى لقرّاء أمّ القرى، ط بولاق سنة 1212هـ وبهامشه حاشية على الشرح لمحمد سالم الحنفي (ت 1181هـ) عنوانها أنفس نفائس الدرر.

ـ أحمد البرسلي (ت 1001هـ)، له شرح عنوانه النخبة السنيّة في شرح الهمزيّة.

ـ محمد المكّي البيضاوي، له شرح بعنوان لمحات المريّة من نفحات الهمزيّة.

ـ محمد المعروفي، له شرح عنوانه نهاية الأمنيّة في شرح الهمزيّة.

وقد شرح الهمزيّة آخرون منهم محمد بن عبد المنعم الجوجري (ت 889هـ)، ومحمد بن زكري، ومحمد الحضيكي (ت 1189هـ)، وأحمد بن الوزير (ت 1146هـ)، وأحمد بن محمد الفاسي (ت 1021هـ)، ومحمد بن جنون (ت 1302هـ)، وأحمد بن أحمد بن عبد الحقّ السنباطي (ت 990هـ)، وغيرهم.

ج ـ قصيدة بعنوان المخرج والمردود أسّست على ما جاء في الإنجيل بشتّى نسخه وأجزائه وعلى ما جاء في الزبور بمختلف أسفاره وكان يعمد فيها إلى الحجاج فيما يقوله غير المسلمين وما تقوله كتبهم مبرزا تناقضاتهم ومتعرّضًا في الآن ذاته إلى قضايا بالغة الأهمّية منها التثليث والطعن في الذات الإلهيّة والنيل من الأنبياء ومسألة الصفات وتبشير الكتب السماوية برسول الإسلام.

المصادر والمراجع

● السيوطي، حسن المحاضرة، ط بيروت 1293هـ، 1/ 260؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، ط بيروت د. ت، 5/ 432؛ ● الزركلي، الأعلام، ط بيروت 1999م، دار العلم للملايين، 6/ 139؛

- Basset, René : Introduction à la traduction de la Burda, pp. 1-12, Paris 1894;
- Brockelmann, Karl: G. A. L., I/264-265, SI/467-472;
- Encyclopédie de l'Islam, nouvelle éd. (Suppl.), art. Büsïrï, Leiden-Paris 1981 .

د. محمد الأزهر باي
جامعة تونس

بوكسة، أبو الكساء محمد بن الحاج محمد أحمد

(ت قبل 1139هـ/1726م)

هو أبو الكساء محمد (بوكسة) بن الحاج محمد أحمد بن المختار العلوي الشنقيطي. عالم فرّغ نفسه لتدريس العلم لتلامذته الذين يبدو أنه كان يخصص لهم خباء منعزلا عن بيته. وكان يبقى معهم لفترة طويلة لا يتذكر الأكل ولا الشرب حتى تنتبه إليه زوجته فتدعوه إلى الطعام.

وتؤكد مصادر مختلفة أن حياته كلها كانت مكرسة للتدريس. وأغلب الظن أنه تضلع في علوم عصره، كاللغة العربية والفقه والقرآن والشعر الجاهلي وغيرها.

ولد مُحمّد بُوكسة (أبو الكساء) في مدينة شنقيط. ولا نعرف التاريخ الذي ولد فيه ولا الذي مات فيه، لأن المصادر الشحيحة التي تتحدث عنه لا تتطرق لذلك. ولكن تقول بعض المصادر إنه ولد في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وإنه توفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري / أواخر السابع عشر الميلادي. ولكننا لا نطمئن إلى هذه المعلومات. وكل ما يمكن قوله هو أنه توفي قبل 1139هـ/ 1726م.

نشأ أبو الكساء في بيئة معروفة بالعلم والثقافة. فمدينة شنقيط التي ولد فيها كانت مصدر إشعاع ثقافي وعلمي في المنطقة، حتى غلب اسمها على جميع البلاد الموريتانيا.

وكانت قبيلته كذلك معروفة بعلمها. أما أسرته الخاصة فقد كان أبوه محمد أحمد عالما، وكان جده لأمه محم بن القاضي (الغاظي) عالما أيضا، وقد خلف والده القاضي (ت 1103هـ/ 1691م) [انظر القاضي، سيدي عبد الله] في التدريس في محظرته بشنقيط عندما هاجر إلى القبلة (الترارزة حاليا)، وكان خاله سيدي عبد الله بن محم، المعروف بابن رازكة (ت 1144هـ/ 1731م) عالما وشاعرا كبيرا.

ولذلك تربى محمد أبو الكساء في محيط علمي وثقافي متميز.

تلقى أبو الكساء العلم على يد والده محمد أحمد الذي عرف بعلمه وكرمه. ومن المرجح أنه أخذ عن جده لأمه، محم بن القاضي وعن خاله سيدي عبد الله (ابن رازكة). بعد ذلك هاجر من شنقيط إلى العصّابة (بالوسط الشرقي لموريتانيا) استجابة لوصية أبيه له بمغادرة شنقيط. وكان والده قد خرج من شنقيط قبل نشوب الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين العلويين وأوصى ابنه أبا الكساء أن يلحق به بعد ذلك.

وفي العصّابة استقر بمنطقة قصر السلام قرب جبل كنديكه حيث التقى بالطالب مُصطفى (ت 1139هـ/ 1726م) بن عثمان القلاّوي، وأسّس معه زاوية قصر السلام، غربي مدينة بومديد (بالعصّابة) على بعد 7 كلم منها.

وقد استقطبت هذه الزاوية عددا كبيرا من الطلبة وتخرج فيها معظم علماء العصابة. وتفرغ الرجلان للتدريس فيها. وكان أبو الكساء يوجه الطلبة الذين يأتون إلى هذه المحظرة إلى الطالب مصطفى رغبة منه في ظهور صديقه وتواضعا.

وهكذا ذاع صيت أبي الكساء في المنطقة وأصبح لآل بوكسة دور كبير ونفوذ بارز في المنطقة؛ واشتهروا بالكرم والعلم.

وقد ذكر أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت 1331هـ/ 1913م) في كتابه «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» [انظر قائمة المصادر] إن «الحاج محمد والد أبي الكساء حجّج أربعين نفسًا من غير عياله أنفق عليها وكساها لله» ويقول إن ذلك هو سبب تسمية ابنه محمد بأبي الكساء.

غير أن مصادر أخرى تقول إن سبب تسمية محمد بن الحاج أحمد بـ «بوكسة» هي أنه كان يلبس كساء عندما يبدأ في تعليم تلامذته. وكان ينقطع للتدريس وينسى الأكل والشرب حتى تنتبه زوجته إلى ذلك فتدعوه «بوكسة» حياء منها من ذكر اسم زوجها صراحة، على عادة المرأة الشنقيطية.

وعلى أي حال، فإن هاتين الروايتين تدلان على كرم أبي الكساء وعلمه. ولذلك بلغت أسرة آل بوكسة شهرة كبيرة في العلم والكرم. يقول سيدي بن الزين في كتابه «نسب قبائل الزوايا والعرب»: «اعلم أن إدوعل (العلويين) مجمعون على أن آل أبي الكساء هم برامكتهم في كل خصلة (..) لا يرى فيهم بخيل ولا جاهل... عملُهم تعليمهم لغيرهم».

توفي محمد أبو الكساء قبل 1139هـ/ 1726م ودفن في مقبرة ميلْ ميلْ بمنتصف الطريق بين كيفة وبومديد (بولاية لعصابة)، على بعد 45 كم شمال مدينة كيفة. وقد دفن في هذه المقبرة كثير من الأعلام الآخرين: نذكر منهم الطالب مصطفى القلاّوي، رفيق أبي الكساء وصديقه، ومحمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني (ت 1335هـ/ 1915م).

المصادر والمراجع

● ابن محمد الهادي، إسلمُ، موريتانيا عبر العصور، مطبعة أطلس، انواكشوط د. ت؛ ● ابن مولاي الزين، سيدي، كتاب النسب في قبائل الزوايا والعرب، مرقون؛ ● ابن الأمين، أحمد، الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ط. 4، القاهرة، 1409هـ/ 1989م، مكتبة الخانجي؛ ● نسب العلويين (ورقة واحدة ـ مخطوط) بحوزة محفوظ بن الجيد، وهو فقيه ومدرس محظرة في أطار ومفتش مدارس ابن عامر الإسلامية؛ ● ابن الجيد، محفوظ، روايات شفوية، نقلا عن الأستاذ محمد خالد بن علي، أستاذ اللغة العربية والمفتش العام لمدارس ابن عامر الإسلامية.

محمد بن محمد عالي
جامعة انواكشوط ـ موريتانيا

بولس، سركيس بهنام خبازي

(1335هـ/1916م - 1421هـ/1999م)

اسمه سركيس بهنام خبازي الموصلي، ولد في قرية قره قوش، التابعة للموصل عام 1916م، والتحق بدير مار متى القريب من المنطقة، عام 1929، وسمي بولس عند رسامته راهبًا، في 15/ 8/ 1935. درس في الدير اللغتين العربية والسريانية، فيما بين الأعوام 1929 - 1934، وفيما بعد أتقن الفرنسية والإنكليزية.

أقبل بنهم وشوق كبيرين على تحصيل العلوم، ولأنه كان مطالعا من الدرجة الأولى، فقد عبّ من مكتبة الدير الغنيّة، ما استطاع، وساعده في ذلك جوّ الدير الهادي، والعابق بشذى القداسة.

دخل المدرسة الإكليريكية الأفرامية بزحلة - لبنان عام 1936؛ ثمّ عُيّن معلما، ثم مديرا لها. وهنا بدأت أولى محاولاته، في كتابة المقالات، ونظم الأشعار، وقد نشرت بعض المجلات قطوفه الفكرية الأولى، وبعد سنوات تفجّرت طاقاته العلمية، وطفق يعطي بغزارة عجيبة.

أما مصادره الفكرية العربية، فقد جاءت نتيجة ولعه الكبير، في تتبّع مؤلّفات الشيخ الرئيس ابن سينا، والفارابي، والكندي، أضف إلى ذلك شغفه الزائد، بمطالعة الآداب العربية، شعرا ونثرًا، ولا سيما نتاج أدباء المهجر، كجبران الذي تأثّر بأسلوبه المتميّز، والقروي، وإيليا أبو ماضي، وفيما بعد مي زيادة. ولا ننسى اطّلاعه الواسع على مجرى الحياة الفلسفية لدى فلاسفة العرب والهند، والصين، والإغريق، وكان في كلّ ذلك، يعدّ نفسه لأن يكون علمًا من أعلام الثقافة العربية.

في عام 1946 أصدر مجلته «المشرق»، التي احتجبت في أواسط عام 1947، فأصدرها من جديد باسم «لسان المشرق»، واستمرّت حتى بداية عام 1952 .

أما رحلاته فكانت كما يلي: رحلته الأولى في سنة 1959 حصل على منحة دراسية، من «السيميناري المتحد» وهي كلية لاهوتية في نيويورك،، فصرف فيها سنة دراسية، وفي طريق عودته، عرج على بعض البلدان الغربية، حيث أمضى هناك ثلاثة أشهر، بين المكتبات والمؤسسات الدينية والعلمية، يستزيد من المعلومات التاريخية والحضارية، المحفوظة في المخطوطات هناك، عاد بعدها إلى موطنه العراق، وشرع بتهيئة كتاب «دائرة المعارف السريانية» باللغة الإنكليزية، وأخذ يواصل سواد الليل ببياض النهار في سبيل إنجاز ذلك العمل الجبّار، وقطع في هذا المشروع الثقافي شوطًا عظيمًا، لكن الموت لم يمهله لإتمامه، إذ توفي في بغداد يوم الجمعة 21/ 2/ 1999 .

رحلته الثانية: كانت بدعوة من رئيس أساقفة اليونان، لحضور مؤتمر رودس الأرثوذكسي، في تشرين الأول عام 1991، وقد ألقى في حفلة افتتاح المؤتمر، كلمة باللغة الإنكليزية، كان لها وقع جميل لدى الوفود.

رحلته الثالثة: كانت في 15/ 5/ 1964 برفقة البطريرك يعقوب الثالث إلى الهند.

أمّا رحلته الرابعة فكانت في صيف عام 1965 حيث قام بها إلى أوروبا، لحضور بعض المؤتمرات هناك.

آثاره

أ ـ الأبحاث الدينية: كتب المطران بهنام في هذا المجال كتبًا عديدة باللغة العربية نذكر منها: 1 ـ مبادىء الإيمان لكنيسة السريان؛ 2 ـ البنفسجة الذكية؛ 3 ـ مسرحيّة دينيّة سمّاها: الموت في سبيل الإيمان؛ 4 ـ تسع مقالات موجزة نشرها في مجلّته «لسان المشرق»؛

ب ـ الدراسات السريانية، وتتناول الموضوعات التالية: 1 ـ اللغة السريانية: كان المطران يفاخر بها، ويشيد بمحاسنها، في كلّ مناسبة، وبالرغم من هذا كلّه، فإنّ إنتاجه وكتاباته بها قليلة جدا، وله قصيدتان في هذه اللغة فقط؛ 2 ـ تاريخ الأدب السرياني: وله في هذا المجال بعض البحوث نشرها في مجلّته «المشرق».

ج ـ بحوث لغوية، وله في هذا المجال بحثان هما: 1 ـ تحقيقات تاريخية، في حقل اللغات السامية، طبعه في كتاب يحمل نفس العنوان عام 1953 في الموصل؛ 2 ـ العلاقات الجوهرية، بين اللغتين السريانية والعربية، نشر في مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق.

د ـ نقده الأدبي، اقتصر المطران بولس في نقده الأدبي، على الفكر دون اللغة، وصبّ كلّ اهتماماته على معطيات الأدب والفلسفة، أما المواضيع الأدبية التي اختارهاوحلّلها ودرسها، فهي: 1 ـ الإلياذة والأوديسية، في المراجع السريانية؛ 2 ـ الفردوس المفقود، في الأدبين السرياني والإنكليزي؛ 3 ـ سمعان العمودي في أشعار السروجي؛ 4 ـ ابن العبري الشاعر؛ 5 ـ الشعر والفلسفة يتعانقان عند ابن المعدني؛ 6 ـ قصة أحيقار الحكيم؛ 7 ـ الرمالة عند السريان.

هـ ـ دراساته الفلسفية: تناول المطران بولس، أحد أئمة الفلاسفة السريان، الفلسفة بدراسات مستفيضة، وعرف كلّ دلالات الفلسفة اليونانية القديمة، وتطرق إلى شرح مواقف فلاسفة العرب، كالغزالي، وابن رشد، وابن سينا، وأهمّ كتبه في هذا المجال نذكر: 1 ـ الفلسفة المشائية، طبع بالموصل عام1958؛ 2 ـ الفيلسوف اللاهوتي سويريوس موسى بن كيفا، وهي أطروحته التي نال بها لقب ملفان؛

و ـ أبحاثه في العلوم الطبيعية: لقد وجه علامتنا بعض اهتمامه إلى هذه الأبحاث، وله في هذا المجال: 1 ـ دراسة علم الهيئة عند العلامة أبي الفرج بن العبري، والمؤلفات التي تركها؛ 2 ـ بحث ممتع، عن علوم الكيمياء والفيزياء، عند السريان.

ز ـ أبحاثه التاريخيّة، لقد كتب أبحاثا تاريخية متعدّدة، يتّسم بعضها بصبغة أدبية، وأهمّ بحوثه في هذا المجال: 1 ـ تاريخ دير مار

متي؛ 2 ـ تاريخ دير ما دانيال؛ 3 ـ دير المعلق أسكي موصل؛ 4 ـ تاريخ دير مار برصوم؛ 5 ـ تاريخ دير مار مرقس؛ 6 ـ تكريت في التاريخ؛ 7 ـ الكنائس القديمة في العراق.

ح ـ سير العلماء والأدباء، وله في هذا المجال: 1 ـ خمائل الريحان؛ 2 ـ نفحات الخزام؛ 3 ـ سيوسقوروس الإسكندري؛ 4 ـ رواية تيودورة؛ 5 ـ المفان ايوانيس الداري؛ 6 ـ أثناسيوس الجمّال؛ 7 ـ يوحنا بن افتونيا.

ط ـ ترجماته، كان عمل علامتنا في مجال الترجمة قليلا إذ إنه ترجم من السريانية إلى لغة الضاد ما يلي: 1 ـ كتاب الإيثيقون لأبي الفرج بن العبري؛ 2 ـ كتاب تاريخ طور عبدين، للبطريرك أفرام الأول برصوم؛ 3 ـ عرّب مقدّمة كتاب الصعود العقلي، لأبي الفرج بن العبري؛ 4 ـ عرّب قصيدة الحكمة الإلهية لابن العبري، نظما بلغة عربية صافية متينة السبك.

ي ـ شعره العربي، لقد هوى علامتنا الشعر العربي، وأغرم به، وتأثر بشعراء المهجر كثيرًا، ودبّج قصائد كثيرة، في مجلّتيه «المشرق»، و«لسان المشرق»، ومجلة «الضاد الحلبية» وغيرها. ومع قلّة الشعر الذي تركه، بالمقارنة مع آثاره العلمية، فقد برزت شاعريّته، وبرهن على طول باعه. في هذا الفنّ ومقدرته الأدبية، ويدخل في إطار الشعراء، وتحفل قصائده برقّة الطبع، ورفاهة الحسّ، وتزخر بالعاطفة الصادقة المتدفّقة. أما أسلوبه فسلس أخّاذ، وألفاظه رقيقة، وفي منتهى الجزالة، وعلى العموم، يتّسم شعره بالوضوح والسهولة، وينحو منحى الشعر المهجري، وله في هذا المجال، ديوان شعري عربي سماه: «القيثارة النارية».

وأهمّ قصائده، تلك القصيدة الطويلة، التي نظمها ردًّا على طلاسم الشاعر الكبير، إيليا أبو ماضي، وهذه بعض أبيات لإيليا أبو ماضي ورد المطران عنه:

ـ كلمة شك للشاعر إيليا أبو ماضي (في الصدر)

ـ كلمة إيمان للمطران بولس بهنام (في العجز)

جئتُ لا أعلم من أينَ ولكني أتيتُ
«أنا في الدنيا وأدري كيف للدنيا أتيتُ»
ولقد أبصرتُ قدامي طريقًا فمشيتُ
«قد رأيتُ الدرب قُدامي ضياءً فمشيتُ»
وسأبقَى ماشيًا إن شئتُ هذا أم أبيتُ
«وسأبقَى ماشيا في النور هَذَا ما رأيتُ»
كيف جئتُ كيف أبصرتُ طريقي
«أنا أبصرتُ بعين العقل والقلبِ طريقِي»
لستُ أدري «أنا أدري»
أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود
«ولئنْ كنتُ جديدًا أم قديمًا في الوجود»
هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود
«فأنا حرّ طليق منذ حطمت قيودي»
هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مَقُودُ
«كيف لا أدري سبيلي وأنا في النور أمشي»

أما نثره، فلم يستطع، أن يصل إلى مستوى شعره، لكنه مصوغ بعبارات عربية فصيحة، خالية من التكلّف والزخرف، و تعبيره قوي، بليغ. وقد ترك لنا في هذا المجال، مقالات كثيرة وعديدة، حيث يفتتح معظم مقالاته

التاريخية والفلسفية وغيرها، بمقدمات هي قطع أدبية من النثر المتميّز.

المصادر والمراجع

● الشماس أوكين برصوم، أضواء على أدبنا السرياني الحديث؛ ● الأب ألبير أبونا، أدب اللغة الآرامية؛ ● المطران إسحق ساكا، صوت نينوى وآرام؛ ● الأب الخوري يوسف سعيد، حياة المطران بولس بهنام؛ ● المطران أفرام منوفر برصوم، عِبرٌ في سير.

جوزيف أسمر ملكي
المركز الثقافي ـ القامشلي ـ سوريا

البوني، أحمد بن علي بن يوسف

(ت 622هـ/1225م)

أحمد بن علي بن يوسف، أبو العباس القرشي، منصوف مغربي الأصل، نسبته إلى بونة (عنابة بالجزائر)، لم يعرف تاريخ ميلاده. نزح إلى مصر. وأقام بالقاهرة. وهو عالم بعلم الحروف وهو علم من العلوم الروحانية ويندرج تحت علم الحكمة أو السيمياء. وهو من العلوم البرزخية وبها يعبر عما في الظاهر فتوصل إلى الباطن. وقد أخذ البوني هذا العلم عن عدد كبير من العلماء. وقد انتمى إليه جمع جم منهم المرسي، وانتفع بكلامه أرباب الأذواق، وطارت مؤلفاته في جميع الآفاق وسائر البلدان. وكان صاحب كرامات ومقامات ظاهرة، وله أفعال خارقة وبصائر باهرة. وقد صحب خلقا من أعيان مشايخ المغرب ومصر. وتوفي بالقاهرة سنة 622هـ/ 1225م، ودفن في القرافة.

آثاره

للبوني مصنفات عديدة في علم الحروف منها:

1 ـ لطائف الإشارات في أسرار الحروف العلويات؛ 2 ـ هداية القاصدين ومنايات الواصلين؛ 3 ـ أسرار الأرواح في قوالب الأشباح؛ 4 ـ أسرار الأدوار وتشكيل الأنوار؛ 5 ـ مواقف الغايات في أسرار الرياضيات؛ 6 ـ قبس الاهتداء إلى وفق السعادة ونجم الاهتداء إلى شرف السيادة؛ 7 ـ اللمعة النوارنية في الأوراد الربانية؛ 8 ـ البرقة اللامعة والهيئة الجامعة؛ 9 ـ علم الاهتداء وأسرار الاقتداء؛ 10 ـ المقصد الأسنى في سلوك أسماء الله الحسنى؛ 11 ـ التوسلات الكتابية والتوجهات الخطابية؛ 12 ـ شمس المعارف الكبرى، ويسمى شمس المعارف ولطائف العوارف في علم الحروف والخواص؛ 13 ـ شمس المعارف الوسطى وشمس المعارف الصغرى.

ويعتبر كتاب شمس المعارف الكبرى من أهم مؤلفات البوني حيث تناول في فصوله الأربعة

لطائف التصريفات وعوارف التأثيرات ومداخل علم الحروف وما فيها من أسرار وإضمارات، وأحكام منازل القمر والبروج، وأسرار البسملة، وخواص أوائل القرآن والآيات البينات، شرح أسماء الله الحسنى وخواص الآيات، والأدعية المفردة وغير ذلك من الحقائق التي كان يؤمن بها ووهب حياته لها، وهو في ذلك يقول: «واعلم أن كتابي هذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... واعلم أن الأمر فيه كما وجدته وبالله أقسم لا ألقيه لك إلا ظاهرا، ولا .... فيه متفكرا، فإن كنت تنكره وتلقيه، فللبيت رب يحميه، وكن فطنا لتلقيه، فمن كان ذا عقل كان الله شاهده، ومن كان ذا نفس كان الجسم شاهده». طبع هذا الكتاب عدة مرات (وفي المكتبة الشعبية، بيروت، لبنان، 1970)، وصدرت خلاصته عن مكتبة القاهرة، 1979، تحت عنوان «منبع أصول الحكمة البوني».

المصادر والمراجع

● ابن الزيات، الكواكب السيارة، 268؛ ● النبهاني، جامع كرامات الأولياء، 1/ 306 ـ 307؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، 1/ 607 ـ 608؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 25 ـ 26؛ ● كشف الظنون، 82 وما بعدها؛ ● الزركلي، الأعلام، 1/ 174؛ ● هدية العارفين، 1/ 90؛ ● عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية بتحقيقنا 2/ 35 ـ 38؛ ● عبد الحميد صالح حمدان، علم الحروف وأقطابه، 55 ـ 57؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول 497 ـ 498؛ ● التكملة له 1/ 910؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، التكملة 1/ 156، مادة Al-Buni بقلم A. Dietrich.

د. عبد الحميد صالح حمدان
خبير دولي ـ جنيف

بو يحيى، الشاذلي

(1337هـ/1918م ـ 1418هـ/1997م)

الشاذلي بو يحيى باحث ناقد أستاذ جامعي ولد يوم 20 أكتوبر 1918 بمدينة سوق الأربعاء (جندوبة حاليا) الكائنة بالشمال الغربي من البلاد التونسيّة من أب أصله من الجريد التونسي وأم من أصل جزائري. بعد الدراسة الابتدائيّة في مسقط رأسه انتقل إلى تونس العاصمة وتلقى تعليمه الثانوي بالمدرسة الصادقيّة التي أسسها خير الدين باشا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وتخرّج منها عدد هام من رجالات تونس في الفكر والسياسة والإدارة؛ بعد ذلك التحق بجامعة الصربون حيث حصل على الإجازة في اللغة والآداب العربيّة فانخرط في سلك التدريس بالمدارس الثانويّة من سنة 1943 إلى

سنة 1953؛ وأثناء تلك المدّة استعدّ لاجتياز مناظرة التبريز التي غايتها انتقاء أبرز أساتذة التعليم الثانوي، فنجح فيها سنة 1949. وفي سنة 1953 عيّن للتدريس بمعهد الدراسات العليا بتونس، وهو فرع لجامعة الصربون أنشئ بعيد الحرب العالميّة الثانية لتمكين الطلبة من الدراسة في بعض مجالات الآداب والعلوم، وبعد استقلال البلاد وإنشاء دار المعلمين العليا عيّن بها مدرسا قبل أن يعين في كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة عندما بعثت الجامعة التّونسيّة سنة 1959.

وفي سنة 1969 ناقش بباريس أطروحة دكتورا دولة، وكان المترشّحون إذاك لهذه الدرجة العلميّة يقدّمون بحثا أساسيّا وبحثا تكميليّا، فكان بحثه الأوّل حول الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في العصر الصنهاجي، أمّا البحث الثاني فتمثّل في تحقيق «قراضة الذهب في نقد أشعار العرب» لابن رشيق.

يعتبر الشاذلي بو يحيى أحد باعثي الدراسات العربيّة الحديثة الأوائل، وقد قضى كامل حياته المهنيّة في التدريس والتأطير، اتجه تدريسه أساسا إلى الأدب العربي القديم؛ الأدب الأندلسي والمغربي بصفة خاصّة، وكانت أطروحات الدكتور التي أشرف عليها مركزة خاصّة على الأدب التّونسي في العصر الأغلبي والفاطمي والحفصي، كما أنّه اختير في مناسبات مرموقة لرئاسة بعض اللجان، فكان أوّل رئيس للجنة التبريز التونسيّة، ورئيس لجنة مناقشه أوّل دكتورا دولة تقدّم إلى الجامعة التّونسيّة سنة 1978. وانتدب من سنة 1982 إلى سنة 1984 للتدريس بجامعة باريس (الصربون)، كما اضطلع بتدريس مؤقت في جامعة الجزائر (1965)، وجامعةالرباط، وفاس بالمغرب (1968)، وجامعة باريس الثامنة (1973 و 1976)، والجامعة اللبنانيّة، وجامعة بيروت العربيّة (1974)، ودار المعلمين العليا بنواكشط بموريتانيا (1975). وشارك أيضا في بعض مؤتمرات المستشرقين، وكان من مؤسّسي مجلّة «حوليات الجامعة التّونسيّة» سنة 1964 وأدارها من سنة 1969 إلى سنة 1985.

وبجانب ما كان ينشره في هذه المجلة من بحوث أكاديميّة نشر عديد المقالات في المجلات الأدبيّة وفي الصفحات الأدبيّة من الصحف اليوميّة. واضطلع بتكليف من دائرة المعارف الإسلاميّة بالمداخل الخاصّة بعلي وابراهيم الحصري، وابن رشيق، والقزاز، وحسن حسني عبد الوهاب.

عرف الشاذلي بو يحيى في دروسه وكتاباته بتذوقه للأدب العربي وقدرته الفائقة على النفاذ إلى دقائقه وأخصّ خصائصه، كما عرف بروحه النقديّة وصراحته في إبداء رأيه.

■ آثاره

1 ـ الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في العصر الصنهاجي، نشرته بالفرنسيّة الشركة التّونسيّة للنشر سنة 1963، بعنوان: La vie littéraire en Ifriquiya sous les Zirides؛ 2 ـ قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق تح. الشركة التّونسيّة للنشر 1972؛ 3 ـ حادثة جوّية على الاستطلاعات الباريسيّة لمحمد القروي تح. الشركة التونسيّة للنشر 1984؛ 4 ـ ابن شهيد الأندلسي، حياته، شعره ونثره،

رسالة المتوابع والزوابع، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس 1993؛ 5 ـ 28 مقالا في حوليات الجامعة التونسيّة من سنة 1964 إلى سنة 1982؛ 6 ـ ثماني مقالات في مجلة الفكر من سنة 1959 إلى سنة 1981؛ 7 ـ حوالي عشرين مقالا بالعربيّة أو بالفرنسيّة في دوريات وصحف مختلفة.

■ المصادر والمراجع

• حوليات الجامعة التونسيّة عدد 28 لسنة 1988، وعدد 41 لسنة 1997.

د. عبد القادر المهيري

جامعة منوبة ـ تونس

■ البُوَيْطي، يوسف بن يحيى القرشي

■ ■ ■

(ت 231هـ/846م)

يوسف بن يحيى القرشي، أبو يعقوب البُوَيطي المصري الفقيه، وهو من أهل مصر نسبته إلى بُويط من أعمال الصعيد الأدنى، روى عن أبي وهب والشافعي.

من تلامذته الذين أخذوا عنه الربيع بن سليمان المرادي، وأبو الوليد بن أبي الجارود المكّي، وأحمد بن منصور المرادي، وأبو إسماعيل الترمذي، ومحمد بن عامر المصيصي، وأبو سهل محمود بن النضر بن واصل البخاري، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، ويحيى بن عثمان بن صالح المصري، وغيرهم. قال أبو حاتم عنه: صدوق، وقال أبو الوليد بن أبي الجارود: كان البويطي جاري فما كنت أنتبه ساعة من اللّيل إلاّ سمعته يقرأ أو يصلّي.

وقال أبو نعيم الجرجاني عن الربيع بن سليمان: كان أبو يعقوب أبدا يحرك شفتيه بذكر الله تعالى.

وقال الربيع: وما رأيت أحدا أنزع حجة من كتاب الله تعالى من أبي يعقوب. ويبدو أن البويطي قد نال منزلة خاصة عند الشافعي، فقد كان الرجل ربّما يسأل الشافعي عن المسألة فيقول: سل أبا يعقوب، وربّما جاء إلى الشافعي رسول صاحب الشرطة فيوجهه الشافعي إلى أبي يعقوب ويقول: هذا لساني.

كان البويطي متقشّفا، وقد وصفه ابن عبد البر، بأنّه كان من أهل الدين والعلم والفهم والثقة، صلباً في السنة، فيرد على أهل البدع؛ وكان حسن النظر. وقال الخطيب عنه: كان صالحا متعبدا زاهدا.

قال الشافعي عن البويطي: ليس في أصحابي أعلم من البويطي. قيل إن أصحاب الشافعي سألوه في مرضه الذي مات فيه عمن يجتمعون

إليه بعده، فسمى لهم البويطي وقال عنه: البويطي لساني.

وقد نافسه على مجلس الشافعي، محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، غير أنّ هذه المنافسة حسمت لصالح البويطي الذي شهد له تلميذ من تلاميذ الشافعي، هو عبد الله بن الزبير القرشي الحميدي (ت 219 هـ) الذي ذكر أنّ الشافعي قال قبل موته: ليس أحد أحق بمجلسي من البويطي، وليس أحد من أصحابي أعلم منه، وقد انتهت رئاسة مجلس الشافعي إلى البويطي.

ويظهر أنّ قاضي مصر محمد بن أبي اللّيث الحنفي كان يحسد البويطي، فسعى به إلى الخليفة الواثق أيام المحنة بخلق القرآن، فأمر بحمله إلى بغداد مغلولا مقيدا، وأريد منه القول بذلك فامتنع، فسجن وقيد حتّى مات سنة 231هـ.

ويتّضح أن البويطي كان حريصا على علمه العقدي متبعا للسنة على وفق قناعته الفكرية، فقد ورد عن الربيع بن سليمان قوله عن البويطي في المحنة: رأيت البويطي على بغل، في عنقه غلّ، وفي رجليه رطلان، وهو يقول: «إنما خلق الله سبحانه الخلق بـ «كن»، فإذا كانت «كن» مخلوقة، فكأن مخلوقا خلق مخلوقا، فوالله لأموتن في حديدي حتّى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنّه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أدخلت عليه لأصدقنّه (يعني الواثق)». كما يتّضح تماسكه الروحي وحرصه على أداء واجبه الديني حتّى وهو في سجنه، إذ قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب «طبقات الفقهاء»:

«كان أبو يعقوب البويطي إذا سمع المؤذن وهو في السجن يوم الجمعة اغتسل ولبس ثيابه ومشى حتّى بلغ باب السجن فيقول له السجان: أين تريد؟ فيقول: أجيب داعي الله، فيقول: ارجع عافاك الله، فيقول له أبو يعقوب: اللّهم إنك تعلم أني قد أجبت داعيك فمنعوني».

وقد تمتّع البويطي بضمير يقظ، ونزاهة وموضوعية، يشهد على هذا أنّه رغم خلافه مع محمد بن عبد الحكم ومنافسته له على مجلس الشافعي، فإنّه قد رشحه إلى منصب قضاء مصر حين شغر المنصب آنذاك، أي أنّ المنافسة بينهما لم تمنع البويطي من ترشيح ابن عبد الحكم الذي كان رئيسا لمذهب مخالف للمذهب الشافعي، هو المذهب المالكي.

وقد روي عن الشافعي أنّه قد توقع له بأن يمتحن ويموت في الحديد، ولعلّ هذه الرواية قد جاءت عن فترة لاحقة بعد وقوع الحدث، إلا أنها مؤشر على صلابة البويطي وحرصه على السنة.

كما يبدو أنّ البويطي بقي حريصا على متابعة علمه الديني، متبعا لأمور الفكر رغم وجوده في السجن، إذ ورد عن الربيع قوله: كتب إلي البويطي من السجن يوصيني بأهل حلقتي ويقول: أصبر نفسك عليهم فإنّي كنت أسمع الشافعي يقول:

أهينُ لهم نفسي لكيْ يكرمونها
ولنْ يكرم النفسَ الذي لا يُهينها

آثاره

للبويطي من الكتب: 1 ـ المختصر الكبير، في الفقه؛ 2 ـ المختصر الصغير؛ 3 ـ الفرائض.

المصادر والمراجع

● عياض، القاضي عياض بن موسى (ت 455هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح. أحمد بكير محمود، بيروت 1965، دار مكتبة الحياة، 3/ 66؛ ● ابن تغري بردي (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة 1963 م، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، 1/ 260؛ ● السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين (ت 771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، ط 1، القاهرة، 1324هـ، المطبعة الحسينية، 1/ 242؛ ● الشيرازي، إبراهيم بن علي (476هـ)، طبقات الفقهاء، تح. إحسان عباس، ط2، بيروت 1981، دار الرائد العربي، 98؛ ● السيوطي (ت 911هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1967، دار إحياء الكتب العربية، 1/ 306 ـ 307؛ ● ابن حجر (ت 852هـ)، تهذيب التهذيب، حيدر آباد الدكن، 1325 هـ، مطبعة دائرة المعارف النظامية بالهند، 10/ 462؛ ● الذهبي (ت 748هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح. علي محمد البجاوي، بيروت، دار الفكر، 4/ 286؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، حيدر آباد الدكن، الهند 1377هـ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 2/ 420؛ ● ابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط 2، بيروت 1979، دار المسيرة، 2/ 82، 261.

أ.د. نجمان ياسين
جامعة الموصل ـ العراق

البياتي، عبد الوهاب

(1343هـ/ 1924م ـ 1420هـ/ 1999م)

ولد الشاعر عبد الوهاب أحمد البياتي عام 1924، في ريف قريب من بغداد، ونشأ في محلّة «باب الشيخ» الشعبية قريبًا من مسجد الصوفي الشيخ عبد القادر الجيلاني وضريحه.

وبعد أن أكمل دراسته الثانوية التحق عام 1944 بكلية دار المعلّمين العالية ببغداد، وتخرّج فيها عام 1950، متخصصا باللغة العربية وآدابها، ليعمل مدرسا في مدينة هيت بمحافظة الرمادي، لكنه فصل من وظيفته عام 1954، واعتقل بسبب الأحداث والتظاهرات ضد دخول العراق حلف بغداد، ثم اضطر لمغادرة العراق متجوّلا بين دمشق، وبيروت،

والقاهرة، لاجئا سياسيا، وعمل في الصحافة المصرية، وزار عدة دول وحضر مؤتمرات وندوات أدبية وشعرية، حتّى عاد إلى العراق بعد قيام ثورة 1958، وإعلان الجمهورية، حيث تولّى إدارة مديرية التأليف والترجمة والنشر بوزارة المعارف (التربية)، وأسهم في تأسيس اتّحاد الأدباء العراقيين، وانتخب عضوًا في أول هيئة إدارية له، كما مثل العراق ضمن وفد الأدباء العراقيين في مؤتمر الأدباء العرب في الكويت عام 1958م.

عمل في السلك الدبلوماسي، فكان مستشارا ثقافيا لسفارة العراق في موسكو عام 1959، لكنه ترك العمل بالسفارة، ليشتغل أستاذًا في جامعة موسكو عام 61، وأقام في القاهرة عام 64 بدعوة من الرئيس جمال عبد الناصر، وزار عددًا من العواصم العربية والعالمية، حتّى عاد إلى العراق عام 1969، وعمل مستشارًا في وزارة الثقافة، ثمّ استقرّ عام 1980 في مدريد عشر سنوات، حيث عمل مستشارا لسفارة العراق في اسبانيا، وتقاعد من هناك وعاد إلى العراق عام 1990، واضطرّ في العام نفسه للسفر لتشييع ابنته المتوفاة في أمريكا، وكتب فيها قصائد حزينة أسماها «مراثي نادية»، وبقي هناك ستة أشهر، عاد بعدها ليستقرّ في عمّان، العاصمة الأردنية، وغادرها عام 98، إلى دمشق التي توفي فيها يوم 3/ 8/ 1999م.

ارتبط البياتي بعلاقات مهمة مع عدد كبير من الشعراء والكتاب العرب والأجانب، من أبرزهم ناظم حكمت وبابلو نيرودا، ورفائيل البرتي، وماركيز، وأكتافيو باز، والسياب، ونازك الملائكة، وخليل حاوي، وصلاح عبد الصبور، وجيلي عبد الرحمن، وحسين مردان، وغائب طعمة فرمان، وهي علاقات أتاحتها له أسفاره المتعدّدة وسنوات منفاه وإقامته خارج العراق، وتحدّث عنها بإسهاب في تدوينه لسيرته وتجربته الشعرية، وخصّها بكتاب «حدائق الشعراء» ضمنه مذكراته عن أصدقائه، صدر عام 1993، لكن الخط الشعري للبياتي يبدأ عند سنوات دراسته بدار المعلّمين العاملية التي سبقه إليها زميلاه في ريادة الشعر الحر: نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب.

وكانت بدايته الشعرية بديوان من الشعر التقليدي هو: «ملائكة وشياطين» الذي لفت إليه الأنظار عند صدوره عام 1950، وتبلور اتجاهه صوب الكتابة الشعرية الجديدة مع تبلور وعيه الوطني والقومي، وإسهامه في قضايا وطنه السياسية والاجتماعية، مما تأكد في ديوانه التالي «أباريق مهشّمة» عام 1954م.

كان الأسلوب الشعري للبياتي يعتمد الجملة الشعرية الواضحة، والأبيات القصيرة، ويحرص على موسقة أبياته بالقافية التي تتردّد في شعره بكثرة، مستكملا بها إيقاع قصائده ذات النفس الخطابي المتجه إلى القارىء، وبالتقاط المشاهد اليومية والحياتية، إيمانا منه بأنّ الشعر وسيلة كفاح ووعي ومقاومة، ولذا حرص على هذه البساطة والمباشرة في المرحلة الأولى التي كتب فيها أشعاره الحرة، منذ «أباريق مهشّمة» وما كتب من قصائد بعد قيام الجمهورية في العراق، الأمر الذي جعل الأحزاب اليسارية والثوريين يتخذون شعره نموذجا لهم، ويعدونه

شاعرهم، وهو ما تسبّب من بعد في ملاحقته ونفيه.

وفي منتصف الستينات تتحوّل قصيدة البياتي إلى بحث في الأعماق، وسبر أغوار الفكرة، وتأمل الحقائق الوجودية المحيطة بالإنسان، مرتفعا بذلك عن اليوميات الأرضية التي شُغل بها في رحلته الأولى..

ويتعرّف البياتي في هاته المرحلة على التراث الصوفي العربي، ليعزّز بأدبياته تلك التأملات التي أعطت قصيدته رصانة وعمقًا. وقد بدأت تلك المرحلة بديوانه «سفر الفقر والثورة» عام 1965، وانعكست فنّيا في قصائد طويلة استخدم فيها «الأقنعة» في استلهام حياة الصوفيين ومعاناتهم، كقصائده عن عذاب الحلاج، والسهروردي وعن ابن عربي، وحافظ شيرازي، واتخذ من عائشة رمزًا للمرأة، الفكرة التي تعيش عبر الأزمان، والأمكنة وتتجدّد في أسماء ووجوه كثيرة، وعصور وأزمنة متباعدة، رمزًا للانبعاث والحياة فيقول عنها:

كانَ يراها في كلِّ الأسفار
في كل المدن الأرضية بينَ الناس
ويناديها في كلِّ الأسماء
كان يراها في الحلم كثيرا منذ سنين، كانت صورتها تهرب منه إذا استيقظ أو ناداها في الحلم، وكان بحمّى العاشق يبحثُ عنها في كل مكانٍ، كان يراها في كلّ عيون نساء المدن الارضية، بالازهار مغطّاة..

وقد نقلته تجربة استلهام الحس الصوفي إلى عالم رمزي فسيح، كرسته أشعاره الأخيرة التي ظلّ يكتبها بغزارة، حتّى عام موته الذي أصدر فيه ثلاثة دواوين تعكس اهتماماته الرمزية، واحتفاءه بأشياء الطبيعة ورموزها؛ وبالعالم الباطني للشخصيات التي اختارها كرموز شخصية له، لا سيّما عائشة التي أخذ أحد دواوينه الأخيرة اسمها «تحوّلات عائشة».

حظي البياتي باهتمام نقدي كبير، وكان أوّل كتاب نقدي ينشر عن الشعر الحر عام 1955، مخصّصا لتجربته المبكّرة، وهو من تأليف الناقد إحسان عباس، وترجم شعره إلى أهمّ اللغات الحية في العالم، وكتبت عنه عشرات الرسائل الجامعية في الوطن العربي والعالم شرقًا وغربًا.

آثاره

أ ـ دواوينه:

1 ـ ملائكة وشياطين، بيروت، 1950؛ 2 ـ أباريق مهشّمة، بغداد، 1954؛ 3 ـ المجد للأطفال والزيتون، القاهرة، 1956؛ 4 ـ رسالة إلى ناظم حكمت وقصائد أخرى، بيروت، 1956؛ 5 ـ أشعار في المنفى، القاهرة، 1957؛ 6 ـ عشرون قصيدة من برلين، بغداد، 1959؛ 7 ـ كلمات لا تموت، بيروت، 1960؛ 8 ـ النار والكلمات، بيروت، 1964؛ 9 ـ سفر الفقر والثرة، القاهرة، 1965؛ 10 ـ الذي يأتي ولا يأتي، بيروت، 1969؛ 11 ـ الموت في الحياة، بيروت، 1968؛ 12 ـ عيون الكلاب الميّتة، بيروت، 1969؛ 13 ـ الكتابة على الطين، بيروت، 1970؛ 14 ـ يوميات سياسي محترف، بيروت، 1970؛ 15 ـ قصائد حب على بوابات العالم السبع، بغداد، 1971؛ 16 ـ سيرة ذاتية لسارق

النار، بغداد، 1974؛ 17 ـ كتاب البحر، بيروت، 1975؛ 18 ـ قمر شيراز، بغداد، 1975؛ 19 ـ الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، 1975، ثلاثة مجلّدات؛ 20 ـ مملكة السنبلة، بيروت، 1979؛ 21 ـ بستان عائشة، القاهرة، بيروت، 1989؛ 22 ـ كتاب المراثي، بيروت، 1995؛ 23 ـ البحر بعيد أسمعه يتنهّد، بيروت، 1998م؛ 24 ـ بكائية إلى حافظ شيرازي، بيروت، 1999؛ 25 ـ نصوص شرقية، دمشق، 1999م.

ب ـ كتبه النثرية:

26 ـ محاكمة في نيسابور، مسرحية، بيروت، 1963؛ 27 ـ تجربتي الشعرية، بيروت، 1968؛ 28 ـ حرائق الشعراء، بيروت، 1993م؛ 29 ـ ينابيع الشمس، السيرة الشعرية، دمشق، 1999م؛ 30 ـ تحوّلات عائشة، بيروت، 1999م.

المصادر والمراجع

● البياتي، ما بقي بعد الطوفان، إعداد عدنان الصائغ ومحمد تركي النصار، لندن، 1996؛ ● شمسي، محمد، سارق النار، رحلة في حياة الشاعر عبد الوهاب البياتي، بغداد، 1985؛ ● صالح، وليد غائب، البياتي من باب الشيخ إلى قرطبة، بيروت، 1992؛ ● العكش، منير، أسئلة الشعر، حوارات، بيروت، 1979، ص15، 228؛ ● عباس، إحسان، عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث، بيروت، 1955؛ ● صبحي، محيي الدين، الرؤيا في شعر البياتي، بغداد، 1988؛ ● مرتاض، عبد الملك، قراءة النص، تحليل سيميائي لقصيدة قمر شيراز للبياتي، الرياض، 1997؛ ● حافظ، صبري، الرحيل إلى مدن الحلم، دراسة ومختارات من شعر البياتي، دمشق 1973؛ ● عباس، محمود جابر، البياتي من مرقد الشيخ عبد القادر إلى مرقد الشيخ ابن عربي، عمّان، 2001؛ ● شرف، عبد العزيز، الرؤيا الإبداعية في شعر البياتي، بغداد، 1972؛ ● مبارك، محمد (وآخرون)، النموذج الثوري في شعر البياتي، بغداد 1972؛ ● الكبيسي، طراد، مقال في الأساطير في شعر البياتي، دمشق، 1974؛ ● الشمعة، خلدون، الشمس والعنقاء، دراسة لقصيدة عين الشمس للبياتي، دمشق 1974؛ ● خميس، شوقي، المنفى والملكوت في شعر البياتي، بيروت، 1971؛ ● مونتابث، بدور، 3 مدن أسبانية في شعر البياتي، ترجمة وليد صالح، دمشق، 1998م.

د.حاتم الصكر
جامعة صنعاء ـ اليمن

البياضي، كمال الدين أحمد بن الحسن

(ت 1098هـ/1687م)

هو الشّيخ كمال الدين أحمد بن الحسن بن يوسف البياضي، الرّومي الحنفي البسنوي الأصل، ووصفه بـ «الرّومي» ليس نسبًا له، بل إلى بلاد الرّوم. وهو من أجلاّء علماء الرّوم في القرن الحادي عشر الهجري.

لا يعرف بالضّبط تاريخ مولده، وإن قيل إنّ وفاته كانت في إحدى الجمادتين سنة ثمان وتسعين وألف للميلاد.

اتّفق المؤرّخون للبياضي على أنّه كان عالمًا وقورًا جسيمًا ذا مهابة، عليه رونقُ العلم، شاعت فضائله، وانتشرت في النّاس محاسنه. وصفه الشّيخ «زاهد الكوثري» بأنّه «الحبْر البحرُ الهمام، عمدة المتأخّرين في علم الكلام». كان واسع الاطّلاع، واضح العبارة، في سرد الدّلائل، ذا ذهن ثاقب، يميل إلى الغوص الدّقيق في المسائل الكلاميّة بين أئمّة الأشعريّة والماتريديّة ليكون المطالع على بيّنة من أمر مسائل الوفاق والخلاف. أفاد طلاّبه، ونال شهرة عظيمة بين أفاضل عصره. والعلاّمة البياضي من بيت قضاء وفقه، وعلم. وكان متكلّما وفقيها بارعا.

درس البياضي كمال الدين ببلاد الرّوم، وأخذ العلم ببلاده عن والده، وعن العلاّمة «يحيى المنقاري». وحضر دروس «الشمس البابلي» بمكّة عندما كان والده قاضيا بمكّة. وأجازه في العلوم شيخه العلاّمة «محمد بن علي الآمدي» المعروف بـ«مُلاّ جلبي».

شغل البياضي منصب القاضي لفترة طويلة في الدّولة العثمانيّة، وتنقّل في مختلف حواضرها، وعرف بعدله في حكمه الّذي لا تأخذه في الحقّ لومة لائم.

أسند إليه منصب القضاء بحاصرة حلب عام 1077 هـ، وجرى له مع مفتيها العلاّمة «محمد بن حسن الكواكبي» العديد من المناقشات والمباحثات، ثمّ ولّي قضاء بورصه، فمنصب قضاء مكّة عام 1083 هـ، وكان يعقد بمجلس الحكم درسًا. ويذكر أنّ من بين ما قرأه شرحه على الفقه الأكبر، وغيره من كتب الإمام أبي حنيفة الّذي أسماه «إشارات المرام من عبارات الإمام»، وقد وصف هذا الشّرح بأنّه «لم يسبق إليه في حسن العبارة وجودة السّبك»؛ كيف لا وقد شهد المحبّي للبياضي في «خلاصة الأثر» بأنّه جبل من جبال العلم، راسخ القدم.

وبعد أن صرف عن قضاء مكّة، قدم دمشق، ثمّ ولّي قضاء العسكر بالرّوم، وهي أرفع المناصب القضائيّة في المملكة العثمانيّة.

وممّا يذكر أيضًا في هذا الصّدد أنّ يوم ولاية البياضي لقضاء العسكر كان يومًا كثير الثّلج، فأنشد المحبّي لبعض حفدته، قائلاً:

والأرض سُرت به لهذا
قد لبست حلّة البياض

ويمكننا الوقوف على جوانب من آراء وأفكار كمال الدين البياضي من كتبه المشار إليها آنفا وبخاصّة كتابه الشّهير «إشارات المرام من عبارات الإمام». وقد شرح البياضي بهذا الكتاب مختصره المسمّى «الأصول المنيفة للإمام أبي حنيفة» وهو الكتاب الّذي جمعه من نصوص كتب الإمام أبي حنيفة الّتي أملاها على أصحابه.

والمطالع لكتاب «إشارات المرام» للعلاّمة البياضي يجده مقسّمًا إلى ثلاثة أبواب تدور حول الذّات الإلهيّة: ذاتًا وصفاتٍ، فتحدّث على التّوالي على وجوب معرفة اللّه بالاستدلال، وأتبعها ببيان الصّفات الذّاتيّة، واختتم حديثه في هذا الكتاب ببيان الصّفات الفعليّة.

ومعرفة اللّه عند البياضي واجبة بالنّظر والاستدلال، وفي ذلك يقول: «فأوّل الواجبات على المكلّف النّظر والاستدلال المؤدّي إلى المعرفة باللّه وبصفاته وتوحيده، وعدله وحكمته، ثمّ النّظر والاستدلال المؤدّي إلى جواز إرسال الرّسل، وتكليف العباد، ثمّ الاستدلال المؤدّي إلى ثبوت الإرسال بدلالة المعجزات، وثبوت الأحكام والواجبات، ثمّ الاستدلال المؤدّي إلى تفضيل أركان الشّريعة لأهله، ثمّ العمل بما يلزمه على شروطه فيهما».

ويرى كذلك أنّ معرفة اللّه تعالى بدليل إجمالي يرفع النّاظر من حضيض التّقليد فرض عين على جميع المكلّفين، وأنه أوّل الواجبات المقصودة بالذّات [إشارات المرام، 76، 84].

والعقل - كما يقول البياضي - آلة لمعرفة الوجوب الثّابت للّه تعالى، ولمعرفة الحسن اللاّزم له. لا موجب كما قالت المعتزلة، وهو معتبر وآلة لمعرفة ذلك بدون السّمع، بل والعقل عنده هو النّفس النّاطقة من حيث توجّهها أو قوّة لها، فعلى الأوّل: هو جوهر يدرك به الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة، كما في أصول الإمام «أبي القاسم اللامشي».

وعلى الثّاني بيّنة الإمام «فخر الإسلام البزدوي» بقوله: إنّه نور يبتدأ به من منتهى درك الحواس فيبدو به المدرك للقلب والنّفس النّاطقة، فلا يردّ أنّ الجوهر المذكور هو النّفس النّاطقة بعينها، والنّفس والقوّة متغايران عرفًا ولغة، وأنه لو كان جوهرًا لجاز أن يكون عقلا بلا عاقل، ومحلّه القلب، كما دلّ قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: 46].

يوضّح البياضي أنّ ما ذكره صدر الإسلام محمد البزدوي من أنّ محلّه الرّأس عند عامّة أهل السّنّة، فالمراد محلّه بمعنى مبتدئه، كما بيّنه أخوة فخر الإسلام لا محلّ أصله، واختاره الإمام «أبو المعين النسفي» كما في شرح التحرير [إشارات المرام، ص 78].

أمّا الوجود فهو عين الموجود فيما يرى البياضي، يؤكّد ذلك بقوله: «إنّ الوجود عين الموجود كالوجوب، فإنّه المتبادر من التّمثيل، وإنّه معلوم بداهة، وقد ينبّه عليه بأنّه التحقّق حقيقة مخصوصة، وأنّه الثّابت العين، وأنّه ما يعلم ويخبر عنه، وأنّه المنقسم إلى فاعل ومنفعل». والوجود كذلك هو التّحقّق في الأعيان دون الأذهان، لذا قيل: «الأشياء

في الخارج أعيان، وفي الذهن صور» [إشارات المرام، 95 - 96].

ومعرفة اللّه تعالى في رأي البياضي، تقتضي الإيمان بشريعته عزّ وجلّ. وإذا كانت الشّريعة في الأصل هي المورد إلى الماء، فهي نقل إلى الأحكام الجزئيّة الّتي يتهذّب بها المأمورون معاشًا ومعادًا لكونها موردًا لما هو سبب الحياة الأبديّة سواء كانت منصوصة من الشّارع أو راجعة إليه. ولذلك قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، 48].

والنّسخ والتّبديل يقع فيها، ويتجوّز فيطلق عليه الأصول الكليّة إطلاقًا شائعًا.

ويذهب البياضي إلى القول بأنّ الإسلام في الأصل الطّاعة والانقياد، فيلازم الإيمان باعتباره نقلا إلى الانقياد في الأعمال الظّاهرة؛ ومن ثمّ كان نسبة الإسلام إليه كالظّهر مع البطن، ولم يعتبر بدونه.

أمّا الصّلاة فإذا كانت في الأصل: الدّعاء بخير فهي أيضًا نقل إلى أفعال وأقوال مخصوصة غالبًا مفتتحة بالتّكبير ومختتمة بالتّسليم كذلك. والأصل في الاعتقاد عند البياضي هو الإيمان بالمبدإ والمعاد.

وعند حديث البياضي عن أصل التّوحيد وما يصحّ الاعتقاد به، يرى ضرورة الإيمان باللّه والإقرار بصفاته الذّاتيّة والفعليّة، يؤكّد ذلك بقوله: «يجب أن تقول: آمنت باللّه، الواجب لذاته، المبدئ لكلّ ما عداه، المتّصف بصفات الكمال الذّاتيّة والفعليّة، الرّاجعة إلى تكوينه الشّامل لإرسال الرّسل، وإنزال الكتب بالملائكة، والقدر من الخير والشّرّ، وغير ذلك (واليوم الآخر) من البعث والحساب، وغير ذلك ممّا ثبت في المعاد» [إشارات المرام، 69].

ويثبت البياضي الألوهيّة والوحدانيّة للّه تعالى لا من طريق العدد، ولكن من طريق أنّ لا شريك له، فالوحدة من طريق العدد أمر لازم بين كلّ جزئي حقيقي، وغير مختصّ به تعالى. فاللّه لا حدّ له، ولا ندّ له، ولا مثل له، ولا ضدّ له، ولا يتّصف بشيء من الكيفيّات المحسوسة، ولا يجري عليه ما يجري على الموجودات من التّفسير والانتقال.

والصّفات الذّاتيّة للّه عزّ وجلّ مستندة إليه تعالى بالإيجاب لئلاّ يلزم حدوثها ومحلّيته للحوادث لامتناع استناد القديم إلى الفاعل المختار، فإنّ فعل المختار مسبوق بالقصد إلى الإيجاد.

والحسن والقبح، في رأي البياضي، مدلولان بالأمر والنّهي إجمالاً، وهما بمعنى كون الشّيء ملائمًا للطّبع والفرض أو منافرًا له، وكونه صفة كمال أو نقصان فعقليّا اتّفاقًا من الكلّ.

وفي حديث البياضي عن الصّفات الذّاتيّة للّه تعالى، يقول إنّه تعالى لمّا لم يكن كالأشياء، فلا يتّحد بها بالطّرق الأولى ذاتًا أو صفة، كما زعمه النصارى، حين قالوا إنّ اللّه سبحانه جوهر واحد، أي قائم بنفسه له ثلاثة أقانيم أي صفات وخواص هي الوجود والعلم والحياة، وعبّروا عنها بالأب والابن والرّوح القدس، وأرجعوا سائر الصّفات إليها، وقالوا إنّ الكلمة وهي أقنوم العلم اتّحدت بجسد المسيح، وتدرّعت بناسوته

بالإشراق أو الامتزاج أو الانقلاب على نحو ما ذهبت إليه الفرق المسيحيّة المختلفة.
وذهب البياضي أيضًا إلى القول بأنّ الله تعالى لا يحلّ في الأشياء ذاتًا كما زعم المتصوّفة وأنّه تعالى لا يحلّ فيها ذاتًا أو وصفًا كما زعم بعض غلاة الشّيعة حين قالوا: «إنّه لا يعدّ ظهور الباري في صورة بعض الكاملين وأولى النّاس بذلك عليّ وأولاده المخصوصون الّذين هم العلم في الكمالات العلميّة والعمليّة، ولهذا كان يصدر عنهم في العلم والأعمال ما هو فوق الطّاقة البشريّة».
ويرى البياضي أنّ قول الفرق الثّلاثة: النّصارى والصّوفيّة والشّيعة ناشئ عن الجهل العظيم بامتناع اتحاد الاثنين، ولزوم كون الواجب هو الممكن، والممكن هو الواجب، وأنّه محال بالضّرورة وبأنّ الحال في الشّيء يفتقر إليه في الجملة سواء كان حلول جسم في مكان، أو عرض في جوهر، أو صفة في موصوف، والافتقار ينافي الوجوب، وبأنّه لو حلّ في جسم، فإمّا في جميع أجزائه فيلزم الانقسام، أو في جزء فيه فيلزم أن يكون أصغر الأشياء وكلاهما باطل بالضّرورة؛ وبأنّه لو حلّ في محلّ، فإمّا مع وجوب ذلك فحينئذ يفتقر إلى المحلّ ويلزم إمكانه وقدم المحلّ بل وجوبه، لأنّ ما يفتقر إليه الواجب أولى بأن يكون واجبًا، وإمّا مع جوازه، وحينئذ يكون غنيًا عن المحلّ، والحال يجب افتقاره إلى المحلّ، فيلزم انقلاب الغني عن الشّيء محتاجًا إليه، وهو باطل بالضّرورة [إشارات المرام، 112 ـ 113].
وفي إشارة البياضي إلى مسألة العلم الإلهي ذهب إلى القول بإثبات علمه تعالى الشامل لجميع الأشياء بوجوه ثلاثة، هي:

ـ الوجه الأوّل: إثباته بخلقه للأشياء، فإنّه يقتضي معلوميّة الأشياء قبل أن تخلق.

ـ الوجه الثّاني: إنّه يدلّ على قدرة الخالق أي كونه فاعلاً بالقصد والاختيار، لأنّ الخلق إيجاد عن عدم، ولا يتصوّر الفعل بالقصد والاختيار إلاّ مع العلم بالمقصود.

ـ الوجه الثّالث: إنّ الخلق البديع يدلّ على علم الخالق.

وفي رأيه أنّ خلقه تعالى متقن مشتمل على الصّنع الغريب والتّرتيب العجيب، وكلّ من كان فعله كذلك فهو عالم، والإقرار بذلك أمر ضروري، وهو أمر ظاهر لمن نظر في الآفاق والأنفس وارتباط العلويّات بالسّفليّات، وما أعطى الحيوانات من الأسباب والآلات المناسبة لمصالحها، وما أعطى النّحل والعنكبوت من العلم بما يفعله من البيوت بلا آلة، كما دلّ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النّحل: 68].

وفي معرض تفرقة البياضي بين الواجب والممكن يرى أنّ الله هو الواجب لذاته والممكنات موجودة ولا بدّ لها من علّة، وهو في تقريره على طريقة الإمكان يقول إنّ الممكنات موجودة، ويستحيل وجودها من نفسها وقيامها بلا موجد أو محدث، بل لا بدّ من وجود واجب، لأنّه إن كان ممكنًا فلا بدّ له من علّة وهكذا، فيستمرّ الدّور أو التّسلسل وكلاهما باطل، وإليه يشير إطلاق استحالة قيام العالم بنفسه لشموله القيام بالتّسلسل أو الدّور على نفسه.

وقدرة الله تعالى في رأي البياضي شاملة

للممكنات وغير متناهية، وحجّته في ذلك أنّ قدرة الله تعالى لا تعتبر بحيث يمتنع تعلّقها، لأنّ ذلك عجز ونقص، ولأنّ كثيرًا من مخلوقاته أبديّ كنعيم الجنان، وذلك بتعاقد جزئيّات لا نهاية لها بحسب القوّة والإمكان، والمقتضى للقادرين هو الذات، والمصحّح للمقدوريّة هو الإمكان، ولا انقطاع لهما بخلاف قدرة المخلوقات، وفي كونه تعالى قادرًا على جميع الممكنات تعني، وفقًا لرأي البياضي، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لا يفترق عن الموجب افتراقًا ظاهرًا؛ فإنّ الموجب هو الّذي يجب صدور الفعل عنه بحسب مشيئته، وعدم الضّرورة غير ممكن؛ لكن هو إذا لم يشأ لم يفعل، وصدق الشّرطيّة لا يقتضي صدق الطّرفين، فيتحقّق صدق هذه، وإن امتنع عدم المشيئة منه [إشارات المرام، 130].

يؤيّد البياضي القول بحدوث العالم، فالعالم عنده حادث لأنّه متغيّر أموره وأعماله، ولا بدّ له من محدث أو مؤثّر صانع، ولا يكون حادثًا متغيّرًا وإلاّ لاحتاج إلى مؤثّر آخر ودار أو تسلسل وكلاهما باطل. والله مؤثّر واجب قديم يحدث العالم ويحفظه، وهو يبرهن على صدق مقولته من مسلك سيّدنا إبراهيم عليه السّلام حيث استدلّ قبل أن يجري عليه القلم بالظّهور بعد أن لم يكن، والأفول بعد الطّلوع، وآثار العجز عن التّدبير.

وأشار البياضي أيضًا إلى النّبوّة وشروطها فقال إنّ هداية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أفضل من سائر الأنبياء، لأنّه تعالى وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة، ثمّ أمره عليه الصّلاة والسّلام بأن يقتدي بهدايتهم، وقد امتثل به، وأتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة، واجتمع فيه ما كان متفرّقًا فيهم، فيكون أفضل منهم كما في كتاب «التّفسير الكبير»، و«المعالم» للرازي. ولعلّ ما يؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]. وهذه الآية في رأي البياضي من أقوى الدّلائل على أنّه ﷺ معصوم في جميع الأوامر والنّواهي، وفي كلّ ما يبلغه إلى الخلق عن الله تعالى، لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله، وأيضًا وجب أن يكون معصومًا في جميع أفعاله.

وعن شروط النّبوّة يقول البياضي: «شرط النّبوّة الذّكورة، وكمال العقل، وقوّة الرّأي والسّلامة عن كلّ ما يخلّ بحكمة البعثة» [إشارات المرام، 328 - 329]. فالرّسول صلّى الله عليه وسلّم مبعوث إلى النّاس كافّة، قائدًا لجميع خلقه من الجنّ والإنس، وإلى الأخذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33، الصف: 9، الفتح: 28].

هذه قطوف من آراء وأفكار كمال الدين البياضي، وهي تكشف من قريب أو بعيد عن التزامه بأحكام الشّريعة الإسلاميّة وطريقة أهل السنّة والجماعة، فضلاً عن تمسّكه بآراء الإمام أبي حنيفة وهو ما اتّضح لنا من كتابه «إشارات المرام من عبارات الإمام».

آثاره

صنّف البياضي كمال الدين العديد من المؤلّفات، لعلّ أهمّها:

1 ـ كتاب «الأصول المنيفة للإمام أبي حنيفة»، وهو متن في اعتقاد أهل السنّة جمع فيه نصوص الإمام أبي حنيفة في الفقه الأكبر، والفقه الأبسط، والرّسالة، وكتاب العالم والوصيّة مرتّبة ترتيبًا دقيقًا، ومحافظًا على ألفاظ الإمام استنادًا إلى رواية الإمام «حماد بن أبي حنيفة»، و«أبي يوسف الأنصاري»، و«أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي»، و«أبي مقاتل حفص بن مسلم السمرقندي».

2 ـ كتاب «سوانح العلوم»، تناول فيه ستّة من الفنون.

3 ـ كتاب «إشارات المرام من عبارات الإمام»؛ وقد حقّق هذا الكتاب وعلّق عليه الأستاذ يوسف عبد الرزّاق، وقدّم له الشّيخ محمد زاهد الكوثري الوكيل السّابق للمشيخة الإسلاميّة في دار الخلافة العثمانيّة والّذي إليه يرجع الفضل في التّنويه بهذا الكتاب وبيان محاسنه وفضله في مجال علم الكلام، وذلك فيما علّق عليه الكوثري في كتاب «تبيين كذب المفتري»، وكتاب «اللّمعة»، وكتاب «التّبصير في أصول الدّين».

والبياضي كما يقول الشّيخ الكوثري، عالم بارع في علم الكلام خضع لتحقيقاته كلّ من جاء بعده من العلماء الأعلام، وخاصّة أولئك الّذين كتبوا في مسائل الخلاف بين الأشعريّة والماتريديّة؛ ومنهم المقبلي؛ فبالرّغم من جموحه وغلواته، وشذوذه، وكبريائه، فإنّه لم يتجاهل البياضي، بل يحسب له حسابًا في كتابه «العلم الشّامخ» [انظر مقدّمة الكوثري، كتاب إشارات المرام، 9].

■ المصادر والمراجع

● البياضي، إشارات المرام من عبارات الإمام، ط. 1، تحقيق يوسف عبد الرازق، مصطفى البابي الحلبي، 1949م؛ ● المحبي، خلاصة الأثر، 1/ 181 ـ 182؛ ● اغابزرك، الذّريعة، 2/ 97؛ ● علي عبد الفتاح المغربي، الفرق الكلاميّة الإسلاميّة مدخل ودراسة، 345 ـ 366؛ ● خير الدين الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين 1/ 112.

د. مرفت عزت بالي
جامعة حلوان ـ مصر

ابن أبي البيان، الشيخ السديد أبو الفضل داود

(556هـ/1161م - 634هـ/1236م)

هو الشيخ السديد (سديد الدين) أبو الفضل داود بن أبي البيان سليمان الإسرائيلي المتطبب - رئيس الأطبّاء في العاصمة المصريّة في زمانه. وُلد بالقاهرة عام 556هـ، وعاش فيها وعمّر طويلاً وتوفي سنة 634هـ وقيل 637هـ [هدية العارفين، 5/ 360]. وكان شيخا محقّقا للصناعة الطبية، متقنًا لها، متميزا في علمها وعملها، خبيرًا في الأدوية المفردة والمركّبة.

ومن أهمّ شيوخه الذين تمرّن عليهم: أبو الفضائل بن الناقد المهذب، كان يهوديا أيضًا فاشتهر طبيبًا جرّاحًا وكحّالاً. خدم بين تلاميذه راكبًا وقت مسيره أو في زيارة المرضى حتى وفاته في عام 584هـ [عيون الأنباء، بيروت، مكتبة دار الحياة، 580].

وكذلك على الشيخ المتطبب أبي المكارم هبة الله بن جُميع الإسرائيلي المولود في الفسطاط، صار طبيباً للسلطان الناصر صلاح الدين الأيّوبي (ملك بين 565 - 589هـ)، كما وزر لعبد الرحمان بن علي البيساني حيث أكمل كتابه «الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد»، ورافق تلميذه داود بن أبي البيان حتى وفاة معلّمه في عام 594هـ [عيون الأنباء، بيروت، دار الحياة، 576 - 579].

ثم إنّ الشّيخ السديد أبا الفضل داود بن أبي البيان عالج، في البيمارستان الناصري (الصلاحي) بالقاهرة، أمراضا عديدة بعضها عسيرة الشفاء. ومن حسن تأنّيه وتعرّفه على الأمراض وتحقيقها والتبحّر في ذكر مداوانها والاطلاع على ما ذكره اليونان لا سيما أبقراط (460 - 373 ق.م) وجالينوس (130 - 200م) ما يعجز عنه الوصف. وكان من أقدر أهل زمانه من الأطباء المصريين على تركيب الأدوية ومعرفة مقاديرها وأوزانها وأنواع استعمالها ومنافعها على ما ينبغي حتى أنّه كان في أوقات يأتي إليه من المرضى والمستوصفين من به أمراض مختلفة أو قليلة الحدوث وعسيرة البرء، فكان أكثرهم ينالون أحسن العلاجات والعناية والرعاية الصحية، والمعالجات كانت في نهاية الجودة وأبدع التأليف وأبلغ النجاح.

وممن خدمهم ابن أبي البيان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فأكرمه وأنعم عليه كثيرا.

ثم في عام 632هـ حضر الحفيد موفق الدين أبو العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة بن أبي أصيبعة (ت 668هـ) إلى القاهرة، فشاهد حيث كانا يعالجان المرضى في البيمارستان الناصري (الصلاحي) مدى تأنيه لمعرفة الأوجاع والأسقام وسُبل تحقيقها وطرق المداواة وأوزانها، واطلاعه على ما ذكره جالينوس فيها، فكان أبو الفضل داود بن أبي البيان يملي على مريضه وصفات الأدوية المركّبة بحسب ما يحتاج إليه ذلك المريض

وما ينفعه من الأشربة أو السفوف أو الأقراص أو غير ذلك آنذاك، مما عجب له ابن أبي أصيبعة. وفي ذلك قال الشاعر [من المتقارب]:

إذا أشكلَ الداءُ في باطنٍ
أتى ابنُ بيان له بالبيان
فإن كنت ترغبُ في صحة
فخذ لسقامكِ منه الأمان

وفي آخر أيام الشيخ السديد أبو الفضل داود بن أبي البيان ضعف بصره حتى وفاته.

آثاره

1 - تعاليق على كتاب العلل والأعراض لجالينوس؛ 2 - كتاب الأقراباذين، (الدستور البيمارستاني)، في اثني عشر بابًا. وقد أجاد ابن أبي البيان في جمعه، مقتصرًا على الأدوية المركبة التي كانت تستعمل في التداوي ببيمارستان مصر وبلاد الشام والعراق ودكاكين الصيادلة وهذه هي الأبواب:

أ - في المعاجين والإطريفلات (وهي الأدوية المتخذة من الاهليلجات كالأملج، والبليلج، وغيرهما)؛ ب - في الجوارشنات (الجوارشن بالفارسية هاضم الطعام) وفيها الأفاويه والفلافل الثلاثة والزنجبيل، وأدوية أخرى مثل جوارشن السفرجل الممسك مع خلّ؛ ج - في الحبوب والأيارجات والمطبوخات(مثلا حبّ الأيارج ينفع من الصداع والشقيقة وأوجاع العين)؛ د - في أن قرص الورد ينفع من الحميات؛ هـ - في الأشربة والمربّيات واللعوقات والرّبوبات؛ و - في الغراغر والسّعوطات. أمّا الغراغر فلعلاج أوجاع الحلق والخوانيق وأورام اللهاة واستعمال اللبن الحليب، وأما السعوطات فلتنقية الدّماغ والخياشيم وفي اللقوة والصّداع؛ ز - في الأكحال والشيافات(الشياف دواء للعين)؛ ح - في الحقن والفتائل والفزرجات، في الحميات والقولنج ووجع الظهر والوركين والمفاصل وعرق النسا والفالج وقروح الأمعاء؛ ط - في الأطلية والضمادات، في طلاء الجرب والسّعفة والبهق والبرص والأورام. أما الضمادات فللفتوق والحفر، وللكلف والنّمش وآثار الجدري؛ ي - في الأدهان والنّطولات؛ ك - في أدوية الفم والشنونات، ينفع في عفونة اللثة والحفر؛ م - في المراهم وأدوية النواسير والخرّاجات؛ وذكر ابن أبي أصيبعة أنه قرأ على أبي البيان هذا الكتاب وجمعه معه [عيون الأنباء].

المصادر والمراجع

• ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بولاق القاهرة 1299هـ، 1/ 161، 259 - 277، 2/ 46 - 48، 112 - 119، وبيروت (د.ت)، منشورات دار مكتبة الحياة، 584؛ • ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، وداد القاضي وعز الدين أحمد موسى، بيروت 1392هـ/ 1972م، دار صادر، 2/ 217 - 218، 5/ 157 - 161، 6/ 77؛
• القفطي، تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، 8 - 14، 90 - 95، 122 - 131، 171 - 184، 207، 271 - 276، 340 - 389، 430 - 434؛
• حاجي خليفة، كشف الظنون، بيروت دار إحياء التراث العربي، 1/ 753؛

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 5/ 360؛ ● بولس سباط، الدستور البيمارستاني لابن أبي البيان (الناصري)، القاهرة 1357هـ/ 1933م، 13 ـ 78؛ ● حمارنة، سامي خلف، فهرس المكتبة البريطانية: الطب والصيدلة، القاهرة 1385هـ/ 1975م، دار النشر للجامعات المصرية، 1 ـ 7، 11 ـ 13، 16 ـ 25، 52 ـ 59، 131 ـ 135، 138 ـ 140، 146 ـ 149، 167 ـ 171؛ ● خوزي لويس فالفردا، وكارمين بينا مونيز، الدستور البيمارستاني، جامعة غرناطة 1401هـ، 113 ـ 223؛ ● حمارنة، سامي، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، عمان 1406هـ، المطبعة الوطنية، 1/ 160 ـ 175، 323 ـ 327؛

● Brockelmann, Car., Geschichte der Arab. Litteratur, Leiden , Vol. 1/ 642-8; and Supplement, Vol. 1/ 891-7 (Brill, 1348-51 A.H./1943-1973 C.E);

● Hamerneh, Sami Khalaf, Bibliography on Medicine and Pharmacy in Medieval Islam, Stuttgart, Germany, 1370 A.H./ 1964, pp. 30-34.

د. سامي خلف حمارنة
واشنطن

البياني، قاسم بن أصبَغ بن محمد

(244هـ/859م ـ 340هـ/951م)

هو قاسم بن أصْبَغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، ولد يوم الاثنين وقت العصر في يوم عشرين من ذي الحجّة سنة أربع وأربعين ومائتين في بانة من أعمال قرطبة، وتوفي ليلة السّبت لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة أربعين وثلاث مائة، فكان يوم مات ابن ستّ وتسعين سنة وخمسة أشهر غير ستّة أيّام.

سمع بقرطبة على جمع من علمائها منهم: أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد الأندلسي (ت 276هـ)، وكان عالما فقيها من تلامذة أحمد بن حنبل وله مسنده، وكذلك من أبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن مسرة (ت 319هـ)، وكان هذا عالما متفلسفا متصوّفا، له طريقة في البلاغة وتدقيق في غوامض إشارات الصّوفيّة.

رحل البياني إلى المشرق مع أبي عبد اللّه محمد بن عبد الملك بن أيمن (252 ـ 330هـ)، وكان هذا فقيها له كتاب في «السّنن»

احتوى من صحيح الحديث وغريبه، كما رحل معه محمد بن زكريا بن أبي عبد الأعلى، وكان ذلك سنة أربع وسبعين ومائتين في إمارة المنذر.

في مكّة، سمع البياني من أبي جعفر محمد بن إسماعيل الصّائغ(ت 276هـ) وآخرين غيره من علماء الفقه والحديث. ثمّ دخل العراق، فلقي من أهل الكوفة أبا إسحاق إبراهيم بن أبي العنبس(184 ـ 277هـ)، وكان هذا عالما فقيها ولد في الكوفة ورحل إلى بغداد وولّي قضاء مدينة المنصور وله كتب عديدة في الجغرافية، أهمّها: كتاب «المدخل إلى علم النّجوم»، وكتاب «عجائب البحر»، وغيره. ثمّ دخل البياني بغداد فسمع من إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الازدي(199 ـ 282هـ) قاضي قضاة بغداد، وأبي العبّاس أحمد بن محمد بن عيسى بن الأزهر أبي العبّاس البرتي القاضي(ت 280هـ) المولود بغداد وقاضي واسط وقضاء الشّرقيّة ببغداد. وسمع البياني كذلك من أبي بكر أحمد بن زهير بن حرب بن شداد بن أبي خيثمة (185 ـ 279م)، وعبد الله بن أحمد بن حنبل(ت 303هـ)، وكان هذا فقيها وله من الكتب كتاب «العلل»، وكتاب «التّفسير»، وكتاب «النّاسخ والمنسوخ»، وكتاب «الزّهد»، وكتاب «المسند». وسمع كذلك من أبي محمد الحارث بن أسامة التّميمي(186 ـ 282هـ)، وجعفر بن محمد الطيالسي(ت 282)، وأبي محمد جعفر بن محمد بن شاكر الصّائغ (190 ـ 279هـ)، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213 ـ 276هـ) العالم الفقيه صاحب التّصانيف العديدة، مثل «غريب القرآن»، و«غريب الحديث»، و«مشكل القرآن»، و«أدب الكاتب»، و«عيون الأخبار»، وله في الجغرافية أيضا.

وسمع البياني كذلك من محمد بن يزيد المبرد (210 ـ 285هـ) صاحب كتب الجغرافية: كتاب«الأنواء»، وكتاب «الأزمنة»، وغيره من كتب الفقه واللّغة؛ وسمع أيضا من أحمد بن يحيى بن يزيد ثعلب (200 ـ 291هـ) إمام الكوفيّين في النّحو واللّغة، ومن أبي عبد الله محمد بن الجهم السمري (ت 277هـ).

ثمّ سافر البياني بعد ذلك إلى مصر وسمع من علمائها ومشاهير الرّواة فيها نذكر منهم ابن حيان مطلب بن شعيب (ت 282هـ)، وآخرين غيره. وتذكر بعض المصادر من هؤلاء أبا الزنباع روح بن فرج، غير أنّنا نشكّ في ذلك، فقد توّفي أبو الزنباع عام 258هـ، أي قبل أن يبدأ البياني رحلته إلى الشّرق وفي الوقت الّذي كان عمر البياني فيه أربعة عشر عاما.

ثمّ دخل البياني إلى القيروان، وسمع من بعض علمائها؛ وانصرف بعد ذلك إلى الأندلس بعلم كثير، ومال النّاس إليه في تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة دون صاحبه محمد بن أيمن، وابن أبي عبد الأعلى. وسمع منه جمع كثير منهم أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد قبل ولايته الخلافة، ثمّ سمع منه وليّ عهده الحكم وإخوته؛ وسمع منه كذلك قاسم بن أبي الفتح (284 ـ 338هـ)، وكان هذا فقيها حافظا للرأي ونحويّا لغويّا وشاعرا متقدّما؛ وكان يخطب أهل قلسانه وصاحب صلاتهم؛ وكان في الشّعر سابقا لا يشقّ غباره ولا يقرب ميدانه، وتخلّى عن الدّنيا في آخر عمره وصار

في هيئة الأبدال، وأكثر شعره في الزّهد وذمّ الدّنيا وفي شواهد الحكم والتّذكير والوعظ. وسمع من البياني كذلك ابن ابنه قاسم بن محمد بن قاسم البياني وآخرون غيرهم.

كان البياني بصيرا في الحديث والرّجال، نبيلا في النّحو والغريب في الشّعر، وكان يشاور في الأحكام، وكان ممتعا بذهنه، لا ينكر عليه شيء حتّى سنة سبع وثلاثين وثلاث مائة. ومن هذا التّاريخ تغيّر حاله وحال ذهنه إلى أن مات.

إنّ نظرة عامّة إلى حياة البياني تظهر لنا تفانيه في طلب العلم والتّرحال لأجله في أقاصي البلاد، وفي تعمّقه في الفقه واختياره الأفضل من بين مدارس العلم والفكر الّتي تنقل بينها ولهذا نجد تميّزا واستحسانا لمصنّفاته عن سابقيه.

ولا تظهر لنا المصادر توجها عند البياني للكتابة في أحوال البلاد الّتي زارها وأحوال أهلها غير كتابي «الأنساب» و«فضائل قريش» من الّتي يمكن تصنيفها ضمن النّتاج المباشر لرحلاته في المشرق العربي.

■ آثاره

للبياني مصنّفات كثيرة ورد من أخبارها منها:

1 ـ أحكام القرآن، على أبواب كتاب إسماعيل بن إسحاق؛ 2 ـ المجتبى، على أبواب كتاب ابن الجارود «المنتقى»، وقد ذكر أنّه خير منه انتقاء، وأنقى حديثا، وأعلى سندا، وأكثر فائدة؛ 3 ـ فضائل قريش؛ 4 ـ في النّاسخ والمنسوخ؛ 5 ـ في غرائب حديث مالك بن أنس، ممّا ليس في «الموطأ»؛ 6 ـ في الأنساب، ذكر أنّه كان في غاية الحسن والإيجاب؛ وتذكر بعض المصادر منها مصنّفات أخرى منها؛ 7 ـ كتاب «الخمر»؛ 8 ـ كتاب «الصّحيح».

■ المصادر والمراجع

● ابن الفرضي، الحافظ أبو الوليد عبد الله محمد بن يوسف الأزدي (ت 403هـ)، تاريخ العلماء والرّواة للعلم بالأندلس، تحقيق عزت العطّار الحسيني؛ ● العسقلاني، الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت 852هـ)، لسان الميزان، منشورات مؤسّسة الأعلمي، بيروت؛ ● جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس 488هـ، تح. محمد بن تاويت الطنجي، مكتب نشر الثّقافة الإسلاميّة، القاهرة؛ ● ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن محمد بن علي (ت 597هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

د. صبري مصطفى البياتي
جامعة بغداد ـ العراق

بيبرس المنصوري، الأمير ركن الدين

(645هـ/1247م - 725هـ/1325م)

الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري، الداوادار الخطائي.
أخذ صغيرًا إلى مصر عام 659هـ. وهو لا يزيد على خمسة عشر عامًا، وهو مملوك، فاشتراه الأمير «سيف الدين قلاوون الألفي» الذي صار سلطان دولة المماليك، ورتّبه في المكتب، فتعلّم قراءة القرآن. وفي سنة 663هـ كان يجرّ الجُنب وهو في سنّ المراهقة لمخدومه «قلاوون» في غزوة قيسارية وأرسوف بفلسطين. وفي سنة 671هـ نقله من النقدية أصحاب المرتّبات إلى الإقطاعية، وفي سنة 682هـ أصبح من جملة أمراء السلطان قلاوون، وظلّ يترقّى من طبقة إلى طبقة إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة فارس وتقدمة ألف، وسلّمه ديوان الإنشاء والنظر عليه والحديث فيما يصدر عنه ويرد إليه، ما يعني أنه امتلك ناصية اللغة والكتابة الديوانية، فأجاد العربية وقواعدها، ونَظَم الشعر، وقرأ وطالع، ووجد الوقت الكافي لينصرف إلى التأليف في التاريخ، والتفسير، فنافس في مصنّفاته المؤرّخين العرب من معاصريه، وتناول في كتبه تواريخ الأنبياء وملوك بني إسرائيل، وتاريخ ملوك الروم واليونان، وتاريخ الخلفاء من العهد النبويّ، وتاريخ الفاطميّين والأيّوبيين والمماليك.

وهو معاصرٌ لغيره من المؤرّخين ذوي الأصول التركية، مثل «قرطاي العزّي الخزنداري» (ت بعد 708هـ) و«أيدغو القُرْه سُنقُري» (ت 729هـ)، و«ابن أَيْبَك الدواداري» (ت 735هـ) و«بكتاش الفخري» (ت 745هـ)، و«شمس الدين الشُجاعي» (ت بعد 745هـ)، وغيرهم.
ورغم تركيّته، فقد تفوّق على أمثاله في كتابة التاريخ، وامتلك موهبة متفتّحة، وجمع تحت يده مكتبة عامرة صاغ منها مؤلّفاته وما جادت به قريحته، واشتهر بتاريخه الضخم «زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة»، الذي يظنّه القارىء لأول وهلة أنه يقصد «الهجرة النبوية»، وهو في حقيقة الأمر يتحدّث عن بداية هجرة الأتراك المماليك إلى الشام ومصر منذ أن بدأ ملوك بني أيوب بشراء شُبّانهم وفتيانهم لِما لمسوه من شجاعتهم وإقدامهم ودُربتهم برياضة الخيول وتحمّل المشاق، فاهتمّ بتحصيلهم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وأخوه الملك العادل.
وفي مقدّمة «الزُبدة» عرّف «بيبرس» بالأتراك وبلادهم، وقبائلهم، وكيفية وصولهم إلى مصر، وبداية ظهور أمرهم مع تولية عزّ الدين أيبك الصالحي النجمي السلطنة في عام 605هـ. وبه يبدأ التاريخ حتّى وصل إلى حوادث عام 721 هـ.
اتّبع المؤلّف المنهج الحوليّ في تدوين كتابه «الزبدة» فأرّخ على السنين، وهو يبدأ بما وقع في السنة من حوادث، ثمّ يذكر الوفيات

باختصار. وأهمّ ما يميّزه أنه يروي أخبارًا حدّثه عنها السلطان قلاوون بنفسه، فتفرّد بذلك عن «محيي الدين بن عبد الظاهر» (ت 689هـ) صاحب «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، و«شافع بن علي» (ت 730هـ) صاحب «الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور»، وأتى على ذكر أمراء من المماليك كان لهم دورهم في وقائع المرحلة التي يؤرّخ لها، لم نجد لهم ذِكرًا عند غيره من مُعاصريه، فأثرى بذلك معارفنا بأسماء أعلام وتراجم تضاف إلى المعروف منها. وهو لا يتوانى عن سياقة الشواهد الشعرية من أبيات ومقطعات يوردها في صُلْب الموضوع مصرحا بأسماء قائليها تارة أو ينسبها لأحدهم من الفضلاء الشاميين، أو لقائل غير معروف، تارة أخرى، ويحفل الكتاب بنصوص الرسائل السلطانية والوثائق، التي تقدّم أفضل صورة عن نماذج المكاتبات الرسمية والرسائل الأدبية المتبادلة بين الملوك والسلاطين في عصر المماليك.

ويتناول الكتاب علاقات سلاطين المماليك بملوك الفرنج وحروب الفريقين، وكذلك العلاقات المملوكية بالمغول والروم، وطوائف الإسماعيلية، والنُصيرية. ولا يقتصر «بيبرس» في تاريخه على دولة المماليك في مصر والشام، فحسب، بل هو يشمل العراق، وديار بكر، والأناضول، وخراسان، واليمن، والحجاز، وتونس، وبني مرين بفاس والمغرب، والأندلس، بل هو يزيد إلى التأريخ معلومات جغرافية مهمّة عندما يعرّفنا بأسماء بلاد أرمينية الكبرى وأعمالها، فيسمّي مدنها ومواقعها، ما يدلّ أنّه زارها وعرفها عن كثب، وكذلك الأمر بإقليم خُراسان وما فيه من مدن، وعراق العجم وعراق العرب.

وفي تاريخه ثروة من المعلومات الاجتماعية، والثقافية، والعمرانية، والاقتصادية، والصناعية، وأخبار الغلاء، والسيول، والزلازل.

ويكتسب تاريخه أهمّية خاصّة لكونه كان معاصرًا وشاهدًا للفترة التي أرّخ لها، فقد كان حاضرًا في غزوة قيسارية وأرسوف بفلسطين، والقُليعات بساحل لبنان وذلك عام 663 هـ، وشارك في فتح أنطاكية عام 666هـ، وفي غزو سيس قاعدة الأرمن عام 673 هـ. ويقدّم لنا معلومات فريدة عن المماليك السلطانية القدماء، من الأعيان الذين كانوا في خدمة المنصور قلاوون عند تولّيه السلطنة سنة 678هـ، والمؤلّف واحد منهم. أما الوقائع التي لم يشهدها بنفسه فكان يأخذها من أفواه من حضرها واشترك فيها شخصيًا، كما حدث في فتح طرابلس الشام سنة 688هـ. وحين أتى على ذِكر وقعة قلاوون بالتتار على حمص، وصف كيفية تعبئة جيش السلطان وصْف الحاضر المشاهد، فعدّد أسماء أمراء الميمنة، وأمراء الميسرة، وأمراء القلب، ومكان وقوف السلطان، ووقائع المعركة بالتفصيل، وما قيل فيها من أشعار.

ونظرا لِما كان يتمتّع به من ثقة السلطان قلاوون، فقد كان يطّلع على نصوص المكاتبات التي تأتيه من الملوك والسلاطين، ويقوم بإثباتها في كتابه، بحيث أضفى عليه صنعة التأريخ الوثائقيّ، لكثرة ما جمع فيه من وثائق، ونصوص رسائل، أو نصوص مهادنات، أو نصوص تقليد مناصب ووظائف، ويمكن الاستعاضة بها عمّا ضاع من كتابات «محيي الدين بن عبد الظاهر»، حيث لم يصلنا كتابه

«تشريف الأيام» كاملاً، وشارك في فتح عكا مع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام 690هـ فتحدّث عن وقائع المعركة مشاهدًا ومشاركًا. وأسهم في فتح قلعة الروم عام 691هـ وأقام بحمص أشهرا، وجُرّد إلى ثغر الإسكندرية فحفظ ساحله وشوانيه، وعندما عاد إلى القاهرة عام 695هـ وجد أنّ المرض والموت قد عمّ أهلها، وعاد فجرّده السلطان إلى برقة. وذكر غير ذلك من الأخبار التي كان مشاركًا فيها بنفسه، الأمر الذي أكسب كتابه أهمّية بالغة، وجعله مصدرًا أساسًا اعتمده المؤرّخون من بعده، ونجد فقرات كثيرة منه في «عُقد الجُمان» لـ «بدر الدين العَيْني» (ت855هـ) وغيره.

وصفه «الحافظ الذهبي» (ت 748 هـ) بأنه «كان عاقلاً، وافر الهيبة، كبير المنزلة فقد تبحّر في دراسة مذهبه الحنفي، وتفقّه في الدين وعلومه حتّى أجيز بالإفتاء والتدريس، وكان يلازم الصلاة في الجماعة ويمضي نهاره في سماع الحديث ويقضي ليله في تلاوة القرآن والتهجّد».

ومَن تكن هذه صفاته لا غرو أن يكون ثقةً في عِلمه وفي مدوّناته التاريخية.

آثاره

1 ـ التحفة الملوكية في الدولة التركية، يؤرّخ لدولة المماليك البحرية من 648 ـ 711 هـ، وفيه خبر من سنة 721 هـ؛ 2 ـ مختار الأخبار، يؤرّخ للدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتّى سنة 702 هـ، وهو مختصر، يُسمّى أيضًا، اللطائف في أخبار الخلائف؛ 3 ـ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة؛ 4 ـ مواعظ الأبرار، في تفسير القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

• الأعلام، 2/ 5 ـ 60؛ • معجم المؤلّفين، 3/ 85؛

• Brockelmann, G 2/244

د. عمر عبد السلام تدمري

الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

ابن بيبش، محمد بن محمد بن محمد

(680هـ/ 1281م ـ 753هـ/ 1352م)

كنيته أبو عبد الله، ويعرف بابن بيبش. كان مضطلعا بعلوم العربية، عاكفا على تحقيق اللغة، وله مشاركات في الطب، حتّى عدّ من أطبّاء الأندلس. ولد في غرناطة وانتقل إلى سبتة وسكنها، وقد احترف تجارة الكتب فحسنت حاله وأثرى. فلما حط ابن الخطيب بسبتة رسولا إلى السلطان ملك المغرب عام اثنين وخمسين وسبع مائة، استدعاه إلى غرناطة مسقط رأسه، فقعد للإقراء بها، وجرت عليه جراية من أحباسها (أوقافها) وأقبل عليه الناس، غير أنّ مدّته لم تطل فمات في العام الذي يليه في بلده، ودفن

بباب البيرة، من أبواب غرناطة الاسلامية، مازال قائما حتى اليوم، وتبعه من الناس ثناء حسن.

وكان قد قرأ على شيخ بغرناطة، أبي جعفر بن الزبير، وعلي الخطيب أبي عبد الله بن رشيد، والوزير أبي محمد بن المؤذن المرادي، وعلى الأستاذ عبد الله بن الكماد. وسمع على الوزير المسن أبي محمد عبد المنعم بن سماك. وبعد انتقاله إلى سبتة قرأ على الأستاذ أبي إسحاق الغافقي.

وصفه ابن الخطيب بأنه كان: معلما، مدربا، وشاعرا وأديبا مجيدا، وورد في [نفح الطيب، 2/ 599] أن المترجم له روى عن ابن معد الاقليشي، قلت: وابن معد الاقليشي هذا من رجال القرن السادس الهجري، والمترجم له من رجال القرن الثامن الهجري، لم يعاصره ولم يدركه، فلا بد أن تكون روايته عنه بالاجازة. ووصف ابن الخطيب إياه بأنه كان «عاكفا عمره على تحقيق اللغة» [الاحاطة، 3/ 27]، وقوله عنه في [الكتيبة الكامنة، ص 90]:

واشتهر بالالحاح على كتاب الصحاح، يعني صحاح الجوهري، تدعمه الأبيات التي قالها في ترتيب حروف الصحاح، ونصها:

أساجعة بالواديين تبوئي
ثمارا جنتها حاليات خواضبُ

دعي نكرَ روض زانه سقيُ شربه
صباح ضحى طير ظماء عصائبُ

غرامُ فؤادي قانف كلُّ ليلة
متى ما نأى وهْنًا هواه يراقبُ

[الكتيبة، 92]

كما تكشف عبارة ابن الخطيب في الكتيبة الكامنة ونصها: عاني صناعة النحو بين الاثبات والمحو، فيا شد ما اتّكل خطره بـ «أم» وكم خير من عزيز علمه فقده في «كم». أقول تكشف هذه العبرات عن شديد اهتمام المترجم له بعلم النحو أيضًا.

لقد ترجم لابن بيبش عدة مصنفين، وكانت أوسع ترجماته تلك التي أوردها ابن الخطيب في «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وكان عيبها الأساس ما لحق نصوصها الشعرية من تحريف وتصحيف وأغلاط. ومترجموه الذين جاؤوا بعد ابن الخطيب، اعتمدوا ما أورده في الإحاطة، واختصروا ترجمته اختصارا مخلاً، كما صنع ابن حجر العسقلاني في [الدرر الكامنة، 4/ 338]، والسيوطي في [بغية الوعاة، 1/ 233]، وكذلك صنع محمد العربي الخطابي في كتابه [الطب والاطباء في الأندلس الإسلامية، 1/ 76].

وأما المقري التلمساني فقد نقل في ترجمته له، جل ما ورد في الإحاطة. جماع القول في هذا، أنّ كل من ترجموا لابن بيبش نقلوا عن الاحاطة واستقَوْا من نَميرها.

ويكفي للتدليل على المكانة العلمية الرفيعة لابن بيبش أنّ لسان الدين بن الخطيب عدّه من شيوخه، وممّن روى عنه [النفح، 5/ 604].

كما ذكر أنّ أبا محمد عبد الله بن أبي القاسم بن جزْي العالم المعمر، شيخ العلوم اللسانية في الاندلس في زمنه، كان ممّن أخذ العلم على الشيخ المقرىء أبي عبد الله بن بيبش [النفح، 5/ 540].

ويمكن أن نضيف إلى هذين العلمين، علما ثالثا من أعلام الشعر والأدب في الأندلس

وهو محمد بن يوسف الصريحي الشهير بابن زمرك، فقد كان ممّن درس على المترجم له وروى عنه.

وقد وقع الوهم في اسم جدّه الأعلى بيبش فسمّاه ابن حجر والسيوطي وابن القاضي المكناسي: محمد بن بليش. والصواب بيبش، كما ورد في الاحاطة ونفح الطيب وهم به أعرف.

ولقبه في الكتيبة الكامنة ابن بيبش وهو وهم وقع فيه محقق الكتاب.

آثاره

لم تحفظ لنا مصادره ذكرًا لشيء من آثاره، غير أبيات من الشعر أوردها ابن الخطيب في كتابيه: الاحاطة، والكتيبة الكامنة، فنقلها مترجموه عنهما. والأبيات في جملتها تغلب عليها صفة شعر العلماء.

المصادر والمراجع

● ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة، تح. احسان عباس، بيروت، دار الثقافة، مطبعة عيتاني الجديدة، د.ت، والمقدمة مؤرّخة 1963، ص90 ـ 93؛ ● ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1397هـ/ 1977م، ج3، ص27 ـ 31؛ ● ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، حققها محمد سيد جاد الحق، ج4، ص338، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ط2، مطبعة المدني، 1385هـ/ 1966م؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، حقّقها محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1384هـ/ 1964م، ج1، ص233؛ ● ابن القاضي المكناسي، لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، تح. محمد حجي، الرباط، 1396هـ/ 1976م، ص206؛ ● المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حقّقه احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1388هـ/ 1968م، ج2، ص599، ج5، ص384، 540، 604، ج6، ص244 ـ 245، ج7، ص147، 166؛ ● الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الاسلامية، تأليف محمد العربي الخطابي، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ط1، 1988م، ج1، ص76.

هلال ناجي
باحث ـ بغداد ـ العراق

البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي

(490هـ/1096م - 555هـ/1160م)

أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق، ولد حوالي 490هـ/ 1096م بمواطن قبيلة صنهاجة المنتشرة بربوع المغرب الأوسط وإفريقيا، التحق في شبابه الباكر بمحمد بن تومرت ولازمه وأصبح من المقربين إليه في حله وترحاله. وانتقل معه في طريق عودته من المشرق إلى المغرب الأوسط، فتعرف على تونس، وقسنطينة، وبجاية، وملالة، والونشريس، والخضراء، والشلف، والبطحاء، وتلمسان، ووجدات، وأجرسيف، وأمليل دشرملال المقرمدة، وفاس، ومكناس، وسالا، ومراكش، وأغمات.

كان البيدق ضمن المجموعة الأولى التي لازمت ابن تومرت وأخلصت لدعوته والتي تتكون من عبد المؤمن، وعبد الواحد، والحاج عبد الرحمان، والحاج يوسف الدكالي، وعمر بن علي، وعبد الحق بن عبد الله، وقد كان البيدق يتفانى في خدمة شيخه ابن تومرت رغم صغر سنه، فهو الذي يقوم بمسك سراج شيخه وقت القراءة، ويأخذ لجام فرسه عند امتطاء صهوته.

ظلّ البيدق في صحبة ابن تومرت بمراكش وبجبال الأطلس وكان من الداعين له بين القبائل المصامدة، وساعده على ذلك حفظه للقرآن الكريم، وإلمامه بالمسائل الفقهيّة وحرصه على تطبيق الشريعة الإسلاميّة.

شارك البيدق في معظم غزوات عبد المؤمن بن علي خليفة في تومرت، فحضر معه معركة البحيرة بمراكش 524هـ/ 1129م. ورافقه في غزواته بالمغربين الأقصى والأوسط، وكان معه لدى فتحه مراكش وفاس، غير أنه ظل بعد ذلك بعيدا عن بلاط الموحدين إلى أن وافته المنيّة حوالي سنة 555هـ/ 1160م عن عمر يناهز خمسا وستين سنة.

آثاره

اشتهر البيدق بتقاييده المعروفة بـ«أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين».
وقد نسب له المؤرخ والمحقق المغربي عبد الوهاب بن منصور كتاب «الأنساب في معرفة الأصحاب» الذي وصلت إلينا منه نبذة بعنوان المقتبس، وقد أدرج منه فقرات في كتاب أخبار المهدي تتعرض لنسب ابن تومرت، وذكر الرجال السابقين إلى الأخذ بتعاليمه والإيمان بدعوته مع ذكر قبائلهم.
يشتمل مصنف «أخبار المهدي بن تومرت وبداية تأسيس دولة الموحدين» على قسمين: الأول يتناول دعوة ابن تومرت ورحلته إلى بلاد المغرب وبداية دعوته واشتهار أمره، والثاني يتضمن الحديث عن حركة عبد المؤمن بن علي الكومي وتأسيسه الدولة الموحّدية، وما ارتبط بها من غزوات وحركات تمرد، وما انجرّ عن ذلك من إيقاع العقاب بالثائرين، وتعرض القبائل

المعادية لدعوة الموحدين إلى مبدإ التصفية الذي كان يطلق عليه مصطلح «الاعتراف» وهو في الواقع تصفية جسدية للمعارضين من رجال قبائل مصمودة.

ومما يلاحظ على القسم الأخير من كتاب أخبار المهدي، وخاصة ما يتعرض فيه لوفاة عبد المؤمن وبيعة ابنه يوسف يعقوب المنصور والتي تعود إلى ما بعد سنة 555هـ/ 1160م أنّها مسجلة بصيغة الغائب وبأسلوب مقتضب يختلف عن باقي ما كتبه البيدق في الفصول الأولى من كتابه، وهذا ما يرجح أنّها من وضع مؤرخين متأخرين، كما أنّ الفقرات التي أضيفت للكتاب والتي تتضمن ذكر الحصون التي بناها المرابطون كانت من تسجيل كاتب مغمور يدعى ابن جوهر.

ومن خلال ما أورده البيدق في كتابه هذا يمكننا التعرف على شخصيّة محمد بن تومرت المهدي الذي يصفه البيدق بالفقيه السوسي، ويلقبه بالمعصوم ويقدمه للقارئ في صورة شاملة ومتكاملة سواء في سلوكه مع العامة وعلاقته بالطلبة ومناظراته مع الفقهاء، أو في جهوده في نشر دعوته وبداية غزواته ضدّ المرابطين، وجلب الأعوان والأنصار. وهذا ما يجعل كتاب «أخبار المهدي» من المصادر الأساسيّة لدولة الموحدين فهو يحتوي على معلومات في غاية الأهميّة خاصّة منها ما يتصل بحالة المجتمع ونوعيّة الحياة وأوضاع القبائل وطبيعة التفكير.

يوجد ما وصلنا من كتاب البيدق «أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين» مع نبذ من مختصر كتابه الآخر وكتاب الأنساب في معرفة الأصحاب المعروف بالمقتبس، ضمن مخطوطات مكتبة ديرسان لورانثو بالأسكوريال (إسبانيا) بخطّ الناسخ إبراهيم بن محمد الهرغي الذي نقلها سنة 714هـ/ 1314م، ونشرها أوّلا بباريس سنة 1929 المستشرق ليفي بروفنصال، ثمّ أعاد إخراجها محققة بعناية المؤرخ عبد الوهاب بن منصور بالرباط (1971)، وقد قام أخيرا الأستاذ عبد الحميد حاجيات بالتعليق عليها ونشرها في الجزائر عام 1974.

المصادر والمراجع

● البيدق، أبو بكر علي الصنهاجي، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق ليفي بروفنصال، باريس 1928؛ ● البيدق، أبو بكر علي الصنهاجي، كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1974، الشركة الوطنيّة للنشر؛ ● بورويبة، رشيد، ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1982، ديوان المطبوعات الجامعيّة؛ ● علام، عبد الله علي، الدعوة الموحدية بالمغرب، القاهرة 1964، المعرفة؛ ● أعلام المغرب، الجزء الأول، 237 ـ 239؛ ● ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي «تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين»، بيروت 1999، دار الغرب الإسلامي، 61 ـ 67.

● Lévi - Provençal (E), Documents inédits d'histoire almohade, Paris, 1928.

د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر

بيرم الأوّل، محمد بن حسين بن أحمد

(1130هـ/1718م ـ 1214هـ/1800م)

أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرام (شهر بيرم)، وأصل اللفظة من اللّغة التركية، ومعناها: العيد.

قدم جدّه بيرام من القسطنطينيّة إلى تونس مع الجند العثماني الذي قدم صحبة سنان باشا لفتح قلعة حلق الوادي، بالضاحية الشرقيّة من العاصمة التونسيّة واستنقاذ البلاد من الاحتلال الاسباني سنة 981هـ / 1574م [السنوسي، المسامرات، 2/ 30؛ محفوظ، تراجم المؤلّفين، 1/ 174]. قال أرنولد قرين إنّ جدّ البيارمة وفد إلى تونس ضابطا في الجيش العثماني [العلماء التونسيون، 105]، وقال أحمد بن أبي الضياف إن جدّ البيارمة رجل من الجند الذي قدم متطوّعا مع سنان باشا [الإتحاف، 7/ 305].

وطاب له المقام، فتزوّج من أهلها ابنة عالم تونسي، وصارت الأسرة منذ ذلك التاريخ متخصّصة في الشؤون الدينيّة، وتعاطى أبناؤها العلم ما عدا حسين بيرم والد الشيخ محمد بيرم الأوّل، فإنّه لم يكن من علماء البيارمة، [المسامرات، 2/ 30].

ولد مترجمنا في شوال 1130 هـ/ 1718م بتونس. وأمّه حسبما جاء عند الصادق الزمرلي: «السيدة الشريفة الحسنيّة ابنة أحد السّادة الأشراف القادمين إلى تونس، وبناء على ذلك النّسب الشريف، فقد كان الذكور من ذريتها يحظون باحترام خاص من قبل أهالي تونس المتعلّقين شديد التعلّق بآل البيت، والذين تولّوا مدّة تزيد على التسعين سنة نقابة الأشراف ومشيخة الإسلام اعتبارا لمقامهم الدّيني، وقيمتهم العلميّة» [أعلام تونسيون، 87].

وفي تونس تلقّى الشيخ محمد بيرم الأول العلم على والده [علي الغراب، حياته وأدبه، 44]، ولقد ترجم له ابنه الشيخ محمد بيرم الثاني في شرح منظومته للمفتين على المذهب الحنفي من لدن الفتح عندما شرح قوله:

قفاه حسين الباردي وقرينه
أبو من غدا في جمعهم ينظم الشّعرا

[الإتحاف، 7/ 30].

وقرأ في جامع الزيتونة المعمور «المغني» لابن هشام، و«تسهيل الفوائد» لابن مالك و«صحيح البخاري» بشروحه على الشيخ علي السويسي، وأخذ المقدّمة والمغني والماكودي والأشموني على الألفيّة، وشرح الخزرجيّة والقلصادي في الحساب، والشنشوري على الرحبيّة عن الشيخ أحمد اللّعلاع [المسامرات، 2/ 30 ـ 31].

وقرأ على الشيخ أحمد المكودي الفاسي نزيل تونس (ت 1171هـ) [المسامرات، 2/ 176؛ مخلوف، الشجرة، 346]، وكتب المنطق

بأسرها، والأشموني على الألفيّة والتصريح والمحلّي ومختصر السّعد ومطوّله، وعصام على السمرقنديّة والكبرى وألفيّة العراقي، وروى عنه صحيح البخاري، وأجازه بمرويّاته [الإتحاف، 7/ 33؛ عنوان الأريب، 1/ 618؛ المسامرات، 2/ 30 ـ 31؛ محفوظ، 1/ 174].

وقرأ على الشيخ حسين البارودي الحنفي (1186هـ) [المسامرات 2/ 25]، الشنبرلالي في العبادات ومختصر القدوري، والعيني على الكنز، وابن فرشتة على المجمع وصدر الشريعة [المسامرات، 2/ 30 ـ 31]. وقرأ على قاسم المحجوب المالكي (1190هـ) مختصر السّعد ومطوّله في البلاغة، والماكودي على الألفيّة.

كما قرأ الشيخ محمد بيرم الأوّل على الشيخ محمد بن عبد العزيز المالكي الماكودي على الألفيّة والأشموني عليها أيضا، والتصريح على التّوضيح للشيخ خالد الأزهري الجرجاوي، والمحلّي على جمع الجوامع في الأصول، ومختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص الخطيب القزويني في البلاغة، وعصام على الاستعارات بحواشيها، والعقيدة الكبرى للسنوسي بحاشيتي المنجور واليوسي، وألفيّة العراقي في مصطلح الحديث بشرحي مؤلّفها والقاضي زكرياء الأنصاري [الإتحاف، 7/ 33؛ محفوظ، 1/ 174]. وقرأ أيضا على الشيخ أحمد الشريف الثاني [المسامرات، 2/ 30 ـ 31].

ولما استكمل الشيخ محمد بيرم الأول تعليمه، عدّ مؤسّس المجد العلمي للبيت البيرمي وتفنّن في علوم كثيرة أبرزها الفقه الحنفي، وعلوم النّحو والبلاغة، وتصدّر للتدريس فجلّى في ميدانه، وكثر الآخذون عنه وهو ما يزال حدثا [ح.ح. عبد الوهاب، كتاب العمر، 1/ 928 ـ علي الغراب، 44]. حتّى قال فيه تلميذه الشيخ حمودة بن عبد العزيز الذي ترجم له في تاريخه الباشي في الجماعة الذين قال فيهم: «لا يشقّ غبارهم ولا يجارى مضمارهم، وإليه تضرب أكابد الإبل بقوله: وشيخنا المحقّق المفتي الأكبر أبو عبد الله محمد بن حسين بيرم عالم الحنفيّ بالمغرب غير مدافع، ومن لم يوجد مثله منذ زمن شاسع [الإتحاف، 7/ 34؛ عنوان الأريب، 1/ 619].

وتتلمذ على الشيخ محمد بيروم الأوّل جماعة من أعيان المذهبين المالكي والحنفي، كالشيخ حمودة بن محمود والشيخ حمودة باكير والشيخ أبو الحسن علي الشندرلي، وهؤلاء من الحنفيّة؛ والمفتي المالكي بالحاضرة الشيخ محمد المحجوب والشيخ محمد الدمبني قاضي مدينة الكاف، وعبد الرحمن الفراتي قاضي صفاقس، والوزير الكاتب حمودة بن عبد العزيز الذي ترجم له في تاريخه الباشي [الإتحاف، 7/ 34؛ محفوظ، 1/ 174].

كما درّس الشيخ محمد بيرم الأوّل علي الغراب (ت 1185هـ/ 1771م) ضمن طبقة من العلماء الذين كانوا يدرّسون العلوم الشرعيّة في جامع الزيتونة المعمور وهم: الشيوخ حمودة الرّيكلي قاضي تونس (1161هـ/ 1748م) والمفتي محمد سعادة (1171هـ/ 1758م) ومحمد الشحيمي الذي توفّي بعد سنة 1190هـ/ 1776م، ومحمد الغرياني

(1195هـ/ 1781م)، [علي الغراب، 30]. ولقد ذكر المترجمون لعلي الغراب الشيخ محمد بيرم الأوّل ضمن مشائخه الذين أخذ عنهم وإن كان أصغر منه سنّا [السنوسي، مجمع الدواوين التونسيّة، مخطوط بدار الكتب الوطنيّة رقم 16633].

ومن تلاميذ الشيخ محمد بيرم الأوّل كذلك، الشيخ أحمد بن حسين البارودي (ت 1229هـ) الذي انفرد بالقراءة عليه، فقرأ عليه قطعة من الأشموني، وقطعة من المنتقى [المسامرات، 2/ 64؛ عنوان الأريب، 1/ 656]، كما قرأ الشيخ حسونة الشهير بالتركي (1222 هـ) بالمدرسة الباشية [عنوان، 1/ 648]، والشيخ محمد الطيب الرياحي (1266هـ) [عنوان، 2/ 800]، والشيخ محمد الخضّار (1267هـ) [عنوان، 2/ 816]، وأبو العبّاس أحمد سميّة القيرواني (كان حيّا سنة 1172هـ) الذي هنّأ الشيخ بيرم بالبرء من مرض أشفق عليه [عنوان، 1/ 561 ـ 563].

ولقد درّس الشيخ محمد بيرم الأوّل الفقه الحنفي في المدرستين العنقيّة والباشيّة، قال صاحب معالم التوحيد: «أسست الأميرة فاطمة بنت الأمير أبي زكرياء الحفصي في سنة 733هـ/ 1332م المدرسة العنقيّة بالحاضرة التونسيّة، وفي عهد الدولة الحسينيّة كانت مشيختها بيد الجماعة الحنفيّة مع أربع مدارس أخرى، وهي المدرسة الشماعيّة والمدرسة اليوسفيّة والمدرسة الباشيّة ومدرسة السّواري. وممن تولّى مشيخة هذه المدرسة في العصر الحسيني مشائخ الإسلام من آل بيرم الأعلام، فقد تولّوها بتواصل من الشيخ الأول حتى حفيده الشيخ الرابع [تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، 294]، وقد نقل أحمد بن أبي الضياف عن الشيخ محمد بيرم الثاني كيف وصل الفقه الحنفي إلى والده الشيخ محمد بيرم الأوّل فقال: «فأوّل علم بثّ المذهب الحنفي بالديار التونسيّة هو أحمد الشريف الأندلسي الذي أخذ عنه مصطفى بن عبد الكريم، وعنه أخذ علي الصوفي، وعنه أخذ عبد الكبير الصوفي، وعنه أخذ حسين البارودي، وعن هذا الأخير أخذ الشيخ محمد بيرم الأوّل» [الإتحاف، 7/ 34].

ومن كتب الفقه الحنفي التي أقرأها مترجمنا شرح محمود العيني على كنز الدّقائق للنّسفي. ولمّا ختمه في المدرسة الباشيّة، هنّأه بذلك الشيخ أبو الحسن علي الغراب في قصيدة طويلة فيها إشادة بعلم الرجل وبتفنّنه في سائر فروع المعرفة، وفيها أيضا دفاع للشاعر عن نفسه وتعليل لمذهبه في الشعر، وتعريض بالحسّاد والمناوئين الذين حاولوا على ما يظهر زرع بذور الشقاق بين الشاعر علي الغراب وشيخه محمد بيرم الأوّل، وهي من الطويل وبها 39 بيتا، وكان مطلعها [من الطويل]:

كفى الإثم بعض الظنّ كيف التّوهّم
أيرضى لبيب بالمظنة يأثم

[ديوان شعر علي الغراب الصفاقسي، 169/ 172؛ علي الغراب حياته وأدبه، 44/ 67؛ المسامرات، 2/ 33 ـ 34].

تولّى الشيخ محمد بيرم الأوّل الخطط النبيهة مثل الخطابة والإمامة بالجامع اليوسفي بالحاضرة مكان الشيخ محمد درغوث، وتولّى الشيخ حسين البارودي الفتوى مكان الشيخ

أرنؤوط في عهد محمد بن حسين باي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وخرجت بذلك الفتوى والخطبة عن بيت الدرغوثيين بعد أن أقامتا بها من عام 1075هـ إلى 1269هـ متداولتين بين أربعة منهم، ولقد ذكر ابن أبي الضياف نقلا عن الشيخ محمد بيرم الثاني أسباب عزل المفتين [الإتحاف، 7/ 31].

كما تقلّد الشيخ محمد بيرم الأوّل منصب الإفتاء وهو صغير في محرم 1170هـ/ 1756م [سركيس، معجم المطبوعات، 612]. قال ابنه: «وكان الذكاء وسرعة البديهة وقوّة الذاكرة من الصفات التي أهّلته إلى تولّي هذا المنصب» [شرح منظومة المفتين الحنفيّة: مخطوط بدار الكتب الوطنية رقم 18656].

وفي عهد علي باشا الأوّل انقلبت به الأحوال فدخل السّجن، والتجأ بإحدى الزّوايا؛ ثمّ خاف السجن من جديد فانحجز في زاوية سيدي منصور بن جردان (904 هـ). وأقام هناك ملازما بثّ العلم ومطالعة الكتب، واستمرّ على التدريس إلى سقوط دولة علي باشا، وقيام دولة أبناء حسين بن علي، وبتولّي الأمير محمد الرشيد الحسيني الحكم أوائل ذي الحجة سنة 1169هـ/ 1756م، أمر بإخراج الشيخ محمد بيرم الأوّل من الزّاوية وقدّمه مفتيا ثانيا. ذكر صاحب المسامرات أسباب سجنه أيام الحكم الباشي، فقال: وطلع الشيخ محمد بيرم الأوّل شمسا في أفق العلوم، فوضح طريق المنطوق والمفهوم. غير أنه أصابته محن الدولة الباشيّة، وذلك أنّ الباشا لم يسمح له بإخراج والده من السجن بعد وفاته، إلاّ أنّه سجن عوضه ولده صاحب الترجمة، فأقام في السجن صابرا يطالع الكتب ويحرّر المسائل، ثمّ خرج من السجن وأولاه الباشا تدريس مدرسته الحنفيّة عند عزل الشيخ محمد المحجوب سنة 1167هـ، فختم بها صحيح البخاري؛ وهنّأه بذلك الشيخ أبو محمد حمودة بن عبد العزيز، بقصيدة من البحر الكامل بها 22 بيتا مطلعها [من الكامل]:

زمن الوصال وعهد أيام الصبا
يسقيك عهد الغيث ساقته الصّبا

[المسامرات، 2/ 32 ـ 33].

وأقام على الإفتاء بتحرير المسائل والتأليف، إلى أن توفّي شيخ الإسلام حسين البارودي، فقدّمه الأمير علي باشا لمشيخة الإسلام الحنفيّة في ذي القعدة من سنة 1186هـ/ 1773م، [المسامرات، 2/ 36؛ ابن الخوجة، صفحات من تاريخ تونس، 216؛ ح.ح. عبد الوهاب، كتاب العمر، 1/ 928؛ محفوظ، 1/ 174]. قال قرين: واستمر منصب رئاسة المجلس الشرعي الحنفي حكرا على أبناء أسرة البيارمة إلى وفاة الشيخ محمد بيرم الرابع سنة 1861م [العلماء التونسيون، 105].

وقد امتحن الشيخ محمد بيرم الأوّل عدّة محن في حياته، منها ابتلاؤه بمرض في سنة 1184هـ، وعوفي به وهنّأه تلميذه الشيخ أحمد سميّة القيرواني بقوله في الطويل [من الطويل]:

علوم الهدى أضحى كمال كمالها
منيرا وأمسى سيفها غير مغمد

وقد عادت الفتيا لعادتها على
منصّتها في ثوب حسن مجدّد
تبسّم من بعد التّعبّس ثغرها
فلاح لتاريخي (شفاء محمد)

كما امتحن الشيخ محمد بيرم الأوّل بفقده ولده حسين في مبدإ شبابه، فأرّخه الشيخ محمد الورغي بقوله في قصيدة من سبعة أبيات، قال في أوّلها:

ترحّم إن وقفت هنا وسلّمْ
وعاين بالتراب فتى مكرّمْ

وقال في البيت الأخير:

لذلك قال من يدريه أرّخ
عزيز النّاس مات حسين بيرم

[المسامرات، 2/ 36 ـ 37]، وامتحن كذلك بفقد ولده الشيخ محمد بيرم الثاني خمسة أولاد وزوجة وأخت، فزوّجه والده إمرأة رزقته بالشيخ محمد بيرم الثالث [المسامرات، 2/ 50 ـ 51].

ومن المحن التي مرّ بها الشيخ محمد بيرم الأوّل في حياته، وفاة زوجته، فزوّجه علي باشا باي بن حسين بجارية بعد أن أعتقها وجهّزها، فرزقته بالشيخ مصطفى بيرم، المفتي الحنفي وإمام الجامع اليوسفي [الإتحاف، 7/ 35].

يقول قرين: في باب رسوخ القدم والعلم، عدت الأسرة البيرميّة من الخمس أو الستّ أسر العلميّة التونسيّة المرموقة أكثر [العلماء التونسيون، 105]، وقد ترجم له الشيخ ابن أبي الضياف ترجمة موسّعة اعتمد فيها ما ذكره ابنه الشيخ محمد بيرم الثاني، واستغرقت ترجمته ستّ صفحات، قال الشيخ محمد الشاذلي النيفر: «هي من التراجم المعتنى بها عند صاحب الإتحاف [محقّق المسامرات، 2/ 30؛ بيرم الخامس، صفوة الاعتبار، 1/ 95 ـ 96].

ولقد حرص خير الدين التونسي في كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك على ذكر بعض الشخصيات المبجّلة لدى العلماء التونسيين، مثل الشيخ محمد بيرم الأوّل، والشيخ إبراهيم الرياحي [أرنولد قرين، 145].

توفي الشيخ محمد بيرم الأوّل يوم الأربعاء آخر شوال 1214 هـ، الموافق لـ 26 مارس 1800، وله من العمر 84 سنة، ودفن بالعاصمة التونسيّة [محفوظ 1/ 174؛ سركيس، معجم المطبوعات 612]، قال الشيخ السنوسي: كان ورعا ثبتا، عمدة حاملا لراية مذهب أبي حنيفة على طريقة بديعة ومكرّمة شريفة إلى أن توفي. ورثاه الشيخ عمر المحجوب قاضي المالكية في قصيدة تضمّ 15 بيتا من الكامل منها:

وانظر إلى مفتي الأنام محمد
أضحى رهين التّرب والأكفان

لهفي على البحر ابن بيرم غيّضت
منه علوم الدّين والأبدان

لقد كان للمفتين منه هداية
ونقابة ووقاية اللهفان

وقال في آخرها:

يا ربّ قدّس سرّه ومقامه
واخلع عليه ملابس الغفران

أحسن عزاء القائلين وأرّخوا
لهفا لحامل مذهب النّعمان

[المسامرات، 2/ 37؛ عنوان الأريب، 1/ 619؛ الإتحاف، 7/ 35]، قال ابن أبي الضياف: «وتغيّرت البلاد لوفاته، ولم يتخلّف عن جنازته إلاّ من عاقه العجز، وحضر الباي وبنوه وسائر رجال الدولة، وتبرّكوا بحمل نعشه، وتقدّم ابنه الشيخ محمد بيرم الثاني لرئاسة الفتوى والشيخ محمد بيرم الثالث لخطة الفتوى» [الإتحاف، 3/ 231].

ولأبنائه ثلاثة عقب من العلماء هم على التوالي: محمد بيرم الثاني ستّة علماء، وأحمد بيرم ثلاثة علماء ومصطفى بيرم أربعة علماء، ولقد قدّم أرنولد قرين شجرة نسب الأسرة البيرميّة من سنة 1800 إلى سنة 1943، وبلغت 15 عالما، وكان آخر البيارمة الشيخ محمد الطيب بيرم [العلماء التونسيون، 108]. ولقد أعدّ لاري باري من جامعة بوسطن دراسة حول عائلة بيرم التونسيّة [قرين، 132].

آثاره

للشيخ محمد بيرم الأوّل عدّة آثار منها:

1 ـ بغية السائل في اختصار أنفع الوسائل لتحرير المسائل في الفروع الحنفيّة للقاضي إبراهيم بن علي الطرسوسي (758هـ) [كشف الظنون، 1/ 183]، شرع في تأليفه في السنة التي تولّى فيها رئاسة الفتوى الحنفيّة سنة 1186هـ/ 1773م، قال في مقدّمته: «لما رأيت كتاب أنفع الوسائل مشتملا على تحريرات مسائل عديمة النّظير، غير أنّه يميل في تعبيره إلى التطويل، عزمت على اختصاره، ثمّ رأيت أثناء المطالعة أنّ العلامة عمر بن نجيم قد اختصره، وسمّى مختصره «إجابة السائل». وكذلك رأيت الفاضل خير الدين الرّملي اختصره أيضا ففتر العزم، ثمّ إنّ والدي قال لي: إنّ هذين المختصرين لا وجود لهما بهذه البلاد. «فاختصرته اختصارا يعرف فضله من تدبّره مراجعا لأصله، فجاء في نحو ثلثي الكتاب، مع زيادات من ذكر قيد أو تصحيح مع ذكر ما عليه الفتوى». توجد منه نسخة بدار الكتب الوطنيّة بتونس في 193 ورقة من القطع المتوسّط [محفوظ، 1/ 174 ـ 178]، ورقمها 4100، وهناك نسخ أخرى ضمن مجموع وأرقامها: 18156 ـ 9476 ـ 1581 [كتاب العمر، 1/ 929]، وتوجد منه نسخة أخرى بمكتبة آل النيفر [محقق المسامرات، 2/ 36] ر: أيضا [الإتحاف، 7/ 34؛ الزركلي، 6/ 336؛ هديّة العارفين، 2/ 352؛ كحّالة، 9/ 233]؛ 2 ـ رسالة في السياسة الشرعية: ألّفها الشيخ بيرم بطلب من حمودة باشا باي تونس (1229هـ/ 1813م)، الذي طلب منه فتوى شرعيّة يمكن الاعتماد عليها في الأحكام بالبلاد الإسلاميّة، فألّف له الشيخ محمد بيرم الأوّل رسالة اشتملت على مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة.

عرّف الشيخ بيرم في المقدّمة المسائل الشرعيّة، واستعرض في الفصل الأوّل أقوال وأعمال العلماء في مسألة الاجتهاد في تجديد السياسات الشرعيّة. وتناول الفصل الثاني ما للوالي أن يفعله دون القاضي. وتحدّث في الفصل الثالث عن الدّعاوي والتّهم والعدوان والمدّعى عليه. وناقش

الشيخ بيرم في الفصل الرابع مسألة التعزير الذي هو تأديب دون الحدّ، وختم رسالته بثلاثة بحوث:

- البحث الأول: في القضايا بما تدلّ عليه القرائن والأمارات الظاهرة.

- البحث الثاني: في الفراسة،

- البحث الثالث: في الحسبة [الاتحاف، 3/ 106؛ بو علي محمود، القضاء في تونس، 63]. وطبعت هذه الرّسالة بالمطبعة الإعلاميّة بمصر، سنة 1306 هـ، وتوجد منها عدّة نسخ بدار الكتب الوطنيّة بتونس منها: 18/ 402 - 470 - 3914 - 2/ 8076 - 3/ 256 [كتاب العمر، 1/ 929؛ عنوان الأريب، 1/ 619؛ المسامرات، 2/ 45؛ محفوظ، 1/ 174 - 176]؛ 3 - تقريظ على الشيخ مصطفى الطرودي على الرّسالة العباديّة في العروض، أورده بنصّه شيخ الإسلام محمد بيرم الثاني في شرح منظومته للمفتين على المذهب الحنفي، وفيها فوائد طبّية للنساء والرجال والبنات [الإتحاف، 7/ 34؛ عنوان الأريب، 1/ 621 - 622؛ محفوظ، 1/ 174 - 176]؛ 4 - نظم في تقريظ «مقدّمة ابن هشام» كتبه قبل موته بسبعة أيّام، وذلك لمّا رأى هذه المقدّمة بين يدي حفيده محمد بيرم الثالث، أمره فكتب البيتين التاليين على ظهرها وهما [من البسيط]:

لله درّ إمام حاز كلّ الثّنا
وكلّ فخر ونال الفضل أكمله

سمّى القواعد هذا الجمع قلت إذا
إنّ القواعد جمع لا نظير له

[الإتحاف، 7/ 31؛ عنوان الأريب، 1/ 619]. 5 - الشجرة النبويّة وتعرف بالحمامات المعدنيّة بالديار التونسيّة والمقصود بها حمام الأنف، طبعت هذه الرّسالة بالمطبعة الإعلاميّة بالقاهرة سنة 1302هـ / 1885م [العمر، 1/ 929]، وتوجد منها عدّة نسخ بخط المؤلّف بدار الكتب الوطنيّة تحت الأرقام التالية: 510 - 22682 - 16504 - 18763 [وتحتوي الرسالة على تسع صفحات]؛ 6 - نبذة في بعض القواعد الشرعيّة لحفظ الإدارة الكليّة، طبعت بالمطبعة الإعلاميّة بالقاهرة سنة 1306هـ، في 34 صفحة؛ 7 - رسالة في موضوعات الحديث، طبعت بآخر نبذة في بعض القواعد الشرعيّة في 12 صفحة [الزركلي، 6/ 336؛ برنامج المكتبة الصادقيّة (العبدلية)، 4/ 69 - 70؛ سركيس، 612]؛ 8 - رسالة في حسن الخط على توهّم الاحتجاج عندنا بالخط، مخطوطة بدار الكتب الوطنيّة بتونس رقم 18156 ضمن مجموع، وتضمّ الرسالة 15 ورقة من ص 183 إلى ص 197. ويلاحظ أنّ المؤلّف استشهد بفتوى الشيخ محمد قاسم المحجوب، وقد أورد نص الفتوى كاملا؛ 9 - رسالة حول توجيه أصابع الرجل للقبلة عند الصلاة، تشمل الرسالة خمس أوراق ضمن مجموع رقم 18156 مخطوطة بدار الكتب الوطنيّة بتونس؛ 10 - رسالة في العقب، مخطوطة رقم 463 ضمن مجموع بدار الكتب الوطنيّة بتونس؛ 11 - رسالة في بيع الوفاء، نسخت سنة 1312هـ، 31 ورقة مخطوطة ضمن مجموع ب.د.ك.و، تونس رقم 18156؛ 12 - رسالة مخطوطة في القضاء رقم 3914؛ 13 - تقريظ على رسالة

ألّفها ابنه الشيخ محمد بيرم الثاني تحت عنوان الفلاّح على المتحيّر في أجر الملاّح [المسامرات، 2/ 45 - عنوان الأريب، 1/ 621 - 622]؛ 14 - رسالة فيما يرجع به إلى المدفوع عنه وما لا يرجع، مخطوطة ضمن مجموع، وتضمّ ثلاث عشرة ورقة؛ 15 - أرجوزة في صفة الإيمان، وهي رسالة أولى ضمن مجموع تحت رقم 23068 دار الكتب الوطنية بتونس؛ 16 - رسالة في أحكام الطهارة نسخت سنة 1252 هـ، 4 أوراق مخطوطة رقم 924؛ 17 - تأليف في المغارسة والاستنزال، نسخ سنة 1313هـ، يضمّ 7 أوراق مخطوطة ضمن مجموع رقم 18156؛ 18 - تحقيق المناط في عدم إعادة السّاباط، نسخ سنة 1313هـ ضمن مجموع يضمّ 10 أوراق برقم المخطوط 18156؛ 19 - رسالة في القضاء نسخت سنة 1289هـ ضمن مجموع رقم 187 ب.د.ك.و؛ 20 - إجازة للشيخ محمد المحجوب في خمسة أبيات، جاء في طالعها:

اجـزت أبـا عـبـد الإلـه مـحـمـدا
بـمـحـجوب يدعى فخر مذهب مالك

21 - مجموعة قصائد شعريّة [المسامرات، 2/ 36؛ عنوان الأريب، 1/ 621 - 622؛ الإتحاف، 7/ 35؛ برنامج المكتبة الصادقيّة (العبدلية) بدار الكتب الوطنيّة بتونس؛ محفوظ، 1/ 175 - 176]؛ 22 - ختم شرح العيني على الكنز [علي الغراب، 44]، وفي الزركلي للشيخ محمد بيرم الأوّل نظم التّعريف بنسب الأسرة البيرميّة، والحال أنّ هذه المنظومة لابنه الشيخ محمد بيرم الثاني [الأعلام، 6/ 336].

المصادر والمراجع

● برنامج المكتبة الصادقيّة (العبدليّة) مخطوطات دار الكتب الوطنيّة، تونس؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين أسماء المؤلّفين، بيروت 1402 هـ، دار الفكر؛ ● بيرم، محمد الثّاني، شرح منظومة المفتين الحنفيّة، مخ بدار الكتب الوطنيّة رقم 18656، تونس؛ ● بيرم، محمد الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار، دار صادر، بيروت، د.ت، المطبعة الإعلاميّة، مصر، 1303هـ؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، 1402هـ / 1982م، دار الفكر، والصحافة، د.ت؛ ● الغراب، علي الصفاقسي، ديوان شعر ونثر، تحقيق عمر بن سالم ومحمد الهادي المطوي، ط. تونس، 1973؛ ● قرين، أرنولد، العلماء التونسيون (1873 - 1915)، ترجمة حفناوي عمايرية وأسماء معلّى، قرطاج 1416 هـ، بيت الحكمة؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، دار إحياء التراث العربي؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلّفين التونسيين، بيروت، د.ت، دار الغرب الإسلامي، 1982، بيروت؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، بيروت، د.ت، دار الفكر؛ ● مكتبة آل النيفر، مخطوطات خاصة، تونس العاصمة؛ ● النيفر، محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسيّة من عالم

أديب، تكميل علي النيفر، بيروت 1996، دار الغرب الإسلامي؛ • النيفر، محمد الشاذلي، تقديم كتاب مسامرات الظريف بحسن التعريف للسنوسي، بيروت 1994، دار الغرب الإسلامي.

د. محمد بوزغيبة
جامعة الزيتونة ـ تونس

بيرم الثّاني، محمد بن محمد بن حسين

(1162هـ/1748م ـ 1247هـ/1831م)

هو محَمدُ بن محمد بن حُسَين المعروف ببَيْرَم الثّاني، وهو شيخ نجل الإسلام بَيْرَم الأوّل. ولد بتونس في 16 ذي القعدة 1162هـ، ونشأ بين يدي والده، وعنه أخذ الفقه والحديث، وأخذ التّجويد عن محمد قَاره بَاطَاق، وأبي إسحَاق الحَميدي، وأبي العَبّاس أحْمد الزّافي.

وأخذ مختصر السعد، ومختصر ابن الحاجب، والقطر، والفاكهي، عن الشّيخ المحقّق صالح الكَوّاش، والشّيخ أحْمَد التّعالبي الشّهير بالبرانيسي، ومحمد الدّرْنَاوي، والنّحوي أحمدِ السُّويسِي، وعالم المعقول محمد الشَّحْمي، وأخذ صحيح البخاري عن والده محمد بَيْرَم الأوّل.

برَع في مختلف العلوم وخاصّة في الفقه، والأصول، وتدرّج في الخطط، فدرّس وأفتى وبلغ درجة الإفتاء على المذهب الحنفي.

جلس للتّدريس وعمره ثماني عشرة سنة، بالمدرسة الباشيّة أوّلا عوضا عن والده، ثمّ بالجامع الأعظم، وخطب بجامع يوسف داي نيابة عن أبيه أيضا.

وتقلّد القضاء بعد عزل الشّيخ قَاره بَاطَاق عنه سنة 1192هـ/ 1778م، واستقال منه بعد حوالي سنة، فتولّى الخطّة حَسن التّرجُمان، وعزل هذا الأخير ليكلّف بالقضاء ثانية، وذلك سنة 1194هـ/ 1780م.

وتولّى خطّة الإشراف على الأشراف، أي نقابة الأشراف لأنّه شريف من جهة أمّه، تولاّها سنة 1206هـ/ 1792م، وتوارثها ذرّيته إلى حين وفاة بَيْرَم الرّابع سنة 1378هـ/ 1861م.

ثمّ تولّى خطّة الفتوى عوضا عن والده في محرّم 1215هـ/ جوان 1800م. وتولّى رئاسة الفتوى في 6 ربيع الثّاني 1216/ 16 أوت 1801م، وبقي في هذه الخطّة إلى وفاته في غرّة جمادى الأوّل سنة 1247هـ/ 1831م.

أخذ عنه الكثير، منهم على الخصوص المؤرّخ أحمد بن أبي الضّياف، الذي قرأ عليه صحيح البخاري في أبواب منه، وأجازه فيه بسنده.

كان مشهورا بعدله في القضاء والتّحرّي قبل إصدار الأحكام والفتاوى، وهو غزير الحفظ،

ثاقب الفكر، واشتهر بالاجتهاد مع اطّلاع كبير على المذهب المالكي يستند إليه في بعض الفتاوى مع مهابة وتواضع وتقوى [ابن أبي الضّياف، الإتحاف، 4/ 160].

يعدّ محمد بَيْرَم الثّاني من محقّقي المذهب الحنفي بتونس: «فتحريراته في المذهب النّعماني بالدّيار التّونسيّة هي الّتي عليها العمل، وكم له في ذلك ممّا يبلغ به المتحرّي في دينه غاية الأمل» [السّنوسي، محمد، مسامرات الظّريف، 2/ 45].

وقد كتب تحريرات علميّة وشروحا على مصنّفات كثيرة، وأفتى في مسائل عديدة نظمها في رسائل، وقد بلغ في بعضها درجة الاجتهاد. من ذلك ما جاء في رسالته «في صحّة الرّجوع عن الوصيّة الملتزم فيها عدمه» [مخطوط بدار الكتب الوطنيّة، بتونس، رقم 8/ 187، أحمديّة، 8/ 2533] جمع في التّدليل على آرائه فيها بين المذهبين الحنفي والمالكي. ولمّا عرضها على علماء عصره من المالكيّة قرظوها ومدحوا علمه وشكروا له انفتاحه على المذاهب الفقهيّة الأخرى بالرّغم من تمسّكه بالمذهب الحنفي.

وقد كان إلى ذلك قويّ الحجّة في مناظراته مع علماء عصره. من ذلك مناظرته الشّهيرة للشيخ «محمد المَنَّاعِي المالكِي»، في مسألة عدوى مرض الطّاعون. فقد تفشّى هذا الوباء في عهد الأمير «محمود باشا» وذلك حوالي سنة 1236هـ فثار جدل بين العلماء حول التّصدّي له بسنّ قوانين تمنع أن يُختلط بالنّاس. ذهب جماعة منهم إلى ضرورة الاحتفاظ والوقاية من العدوى بالدّعوة إلى عدم الاختلاط، وقد ذهب إلى هذا الشّيخ «محمد بَيْرَم الثّاني». وقال بمنع هذا الاجراء الشّيخ «المنّاعي المالكي».

وألّف كلّ واحد رسالة حافلة بالاستدلال على رأيه [رسالة الشّيخ بَيْرَم حُسْنُ النّبإ في جوَازِ التّحَفُّظِ من الوَبَاءِ، طبع المطبعة الرّسميّة، تونس].

ووقعت مناظرة ثانية بينه وبين الشّيخ المنّاعي المذكور حول كرويّة الأرض وبسطها. وقد ذهب الشّيخ بَيْرَم إلى القول بكرويّتها في حين قال المنّاعي ببسطها [مخلوف، شجرة النّور الزّكيّة، 2/ 170]، وبهذه الآراء تدرك قيمة الشّيخ محمد بَيْرَم الثّاني العلميّة، وحصافة ذهنه وتقدّميّة أفكاره حيث أثبت التّقدّم العلمي رجحان آرائه وسداد مواقفه.

■ آثاره

1 ـ حاشية على شرح الشّيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي المصري على مختصر المنار لابن حبيب الحلبي المتوفّى سنة 808هـ/ 1406م على «الأنوار» للإمام النسفي، توجد نسخ مخطوطة منها بدار الكتب الوطنيّة، رقم 1947، 3695، 18169 (عبد الوهاب)، 14959 (أحمديّة، 2625)؛ 2 ـ حُسنُ النبإ في جواز التّحفّظ من الوَباء، وقد ألّفها بعد محاورة بينه وبين الشّيخ محمد المناعي المالكي في موضوع عدوى مرض الوباء (الحجر الصّحّي)، وقد ذهب الشّيخ بَيْرَم الثّاني إلى القول بالعدوى على عكس الشّيخ المنّاعي، وقد أشار «رفاعة رافع الطهطاوي» إلى هذه المحاورة في مقدّمة رحلته. طبع بمطبعة الإعلام، القاهرة، 1302 هـ؛ وطبع

بالمطبعة الرّسميّة، تونس؛ مخطوطاته بدار الكتب الرّسميّة، تونس، رقم 1/ 1394، 10/ 18156؛ 3 ـ حسنة المنزع فيما يُرجع به على المدفوع وما لا يرجع، مخطوطاته بدار الكتب الوطنيّة، بتونس، رقم 6/ 187، 5/ 12086، أحمديّة، 5/ 2533، أحمديّة، 5956، 4/ 18151؛ 4 ـ رسالة في التّعقيب على البحث الّذي نقله الشربلالي في موضوع سجود التّلاوة من شرحه الصّغير عن العلاّمة الكمال بن الهمام. مخطوطة بدار الكتب الوطنيّة، بتونس، رقم 9/ 187، 10/ 12086؛ 5 ـ رسالة في صحّة الرّجوع عن الوصيّة الملزم فيها عدمه، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 8/ 187، 8/ 12086، أحمديّة، 8/ 2533؛ الرّباط، الخزانة العامّة، رقم 1/ 2272 د؛ 6 ـ رسالة في الطّلاق، ضمن مخطوط بدار الكتب الوطنيّة، رقم 16/ 187؛ 7 ـ شرح رسالة لطف الله الأعجمي الازميري التّركي، مخطوطة ضمن مجموع بدار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 14/ 402، تحت عنوان «شرح رسالة لطف الله الأعجمي في تحرير كلام الحنفيّة في باب صلاة الفوائت»؛ 8 ـ شرح شفاء الغليل في وقف العليل لابن نجيم، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 5/ 402، 19/ 12086، أحمديّة، 19/ 2533؛ 9 ـ عقد الدرّ والمرجان في سلاطين آل عثمان، منظومة في 117 بيتا من البحر الطّويل في سلاطين الدّولة العثمانيّة إلى سلطان عصره عبد الحميد الأوّل (ت 1203هـ/ 1789 م)، ثمّ أكملها حفيده بَيْرَم الرّابع بعده بذكر السّلاطين المتوالين إلى أواسط القرن 13 هـ، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 3991، 1/ 4809، 18770 (عبد الوهاب)، ضمن كنّش رقم 357 لبَيْرَم الرّابع، وتولّى نشرها بَيْرَم الخامس سنة 1311هـ ضمن كتابه صفوة الاعتبار، 5/ 46 ـ 51؛ 10 ـ قلادة اللآل في نظم حكم رؤية الهلال، منظومة في 463 بيتا، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 6/ 402، 20/ 12086، 8/ 18156، أحمديّة، 20/ 2533؛ 11 ـ القول الأسدّ في حكم نصيب الميّت من غير الولد، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 3/ 187، 9/ 12086، أحمديّة، 9/ 2533؛ 12 ـ نظم في التّوحيد في 78 بيتا، دار الكتب الوطنيّة، بتونس، رقم 4/ 14103؛ 13 ـ نظم في عيوب الأضحية، دار الكتب الوطنيّة، بتونس، رقم 11/ 4349؛ 14 ـ نيل المُنى من مسألة استحقاق المشترى بعد البناء، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 1/ 402، 5/ 1208، أحمديّة، 15/ 2533؛ 15 ـ الوفا، بما يتعلّق ببيع الوفاء، دار الكتب الوطنيّة، تونس، رقم 198، 3642، 23/ 187، 6/ 12086؛ 16 ـ منظومة في المفتين بتونس من عهد الفتح التّركي إلى عصره، مع شرحها، دار الكتب الوطنيّة، بتونس، رقم 58، 509، 18676؛ 17 ـ منظومة في التّعريف بالولاة المعيّنين من قبل الدّولة العثمانيّة بتونس (بايات تونس)، دار الكتب الوطنيّة، بتونس، رقم 18257.

المصادر والمراجع

● ابن أبي الضّياف، الإتحاف، 8 ج، تونس 1963، 7/ 158 ـ 162؛ ● ابن الخوجة، محمد، تاريخ معالم التّوحيد، تونس، 1358هـ/ 1939م، 137 ـ 138؛

● السنوسي، محمد، مسامرات الظّريف، 4 ج، تح. محمد الشاذلي النيفر، بيروت 1994، 2/ 43 ـ 62؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط4، بيروت، 7/ 72؛ ● كحالة، رضا، معجم المؤلّفين، 15 ج، دمشق، 1397هـ/ 1960م، 11/ 209؛ ● حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، 2 ج، تونس، بيروت، 1410هـ/ 1990م، 2/ 934 ـ 939؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلّفين التّونسيّين، ط 1، 5 ج، بيروت، 1982، 1/ 177 ـ 179؛ ● النيفر، محمد، عنوان الأريب، 2 ج، تونس 1351 هـ، 1/ 195 ـ 196.

عبد الرزاق بسرور

متفقد للتعليم ـ تونس

بيرم الثالث، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد

(1201هـ/1786م ـ 1259هـ/1843م)

أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن حسين بيرم، أصيب والده الشيخ محمد بيرم الثاني في الطاعون الذي اجتاح البلاد التونسيّة سنة 1199هـ/ 1784م، بفقد جميع أولاده، وعزم على عدم التزوّج حتّى زوّجه والده الشيخ محمد بيرم الأوّل بزوجة أخرى، رزقته بصاحب الترجمة سنة 1201هـ بتونس.

نشأ الشيخ محمد بيرم الثالث تحت رعاية والده، وأخذ عنه وعن علماء الزيتونة في أيّامه [المسامرات، 2/ 87؛ قابادو، 29؛ ديوان قابادو، 256؛ محفوظ، 1/ 182؛ الكتاني، فهرس الفهارس، 1/ 173].

قرأ على أعلام ذلك العصر مثل والده (1247هـ) والشيخ حسن الشريف (1234هـ/ 1819م) [المسامرات، 2/ 60؛ كتاب العمر، 1/ 940]، وقرأ على الشيخ أحمد بن الخوجة (1241 هـ) [المسامرات، 2/ 80 وما بعدها] كلاً من المغني والمحلّى والمطوّل والدّرر، وحصل على الرّتبة العالية في العلوم النقليّة والعقليّة، وظهر نبوغه مبكّرا، وأتقن طريقة الإلقاء التي سنّها الشيخ إبراهيم الرياحي (1266هـ/ 1850م). وتصدّر بعد التخرّج للتدريس في المدرسة الباشيّة نائبا عن والده، وفي جامع الزيتونة المعمور حيث أقرأ بالإضافة إلى الكتب الشرعيّة، كتب البيان والمنطق، وفي المدرسة العنقيّة، أقرأ مختصر السعد على التلخيص، أسّستها الأميرة فاطمة بنت الأمير أبي زكرياء الحفصي سنة 733هـ/ 1332م، وقرأ عليه فيها أحمد بن أبي الضياف صاحب الإتحاف.

وفي عهد الدولة الحسينيّة، كانت مشيختها بيد الجماعة الحنفيّة مع أربع مدارس أخرى،

وهي المدرسة الشمّاعيّة والمدرسة اليوسفيّة والمدرسة الباشيّة ومدرسة السواري، وممن تولّى مشيخة هذه المدرسة في العصر الحسيني مشائخ الإسلام من آل بيرم. ذكر صاحب الإتحاف أنّ الشيخ محمد بيرم الثالث دخلها ذات يوم فوجده، أي ابن أبي الضياف، مع الشيخ محمد بن سلامة ببيت ابنه الشيخ محمد بيرم الرابع، وبيدهم كتاب «روض الآداب»، والأصوات عالية في نقد بيت من الشعر، فجلس حذوهم وشارك في الكلام، ثم أخذ الكتاب من يد ابنه، وكتب على ظهره ارتجالا قائلا:

إنّ الزمان الذي تقضيه في الأدب
يراه أهل النّهى في جملة اللعب
فاصرفه في شرف ترجى عواقبه
تأتيك آثاره تنهلّ كالسّحب
وذا مقالي عن نصح أفوه به
وليس يرجى لنصح المرء غير أب

ثمّ وضع الكتاب وقام وقال: الخطاب لكلّ واحد منكم، لأنّي أرى أبناء الإفادة كأبناء الولادة [الإتحاف، 8/ 54 - 55]، وفي كتاب ابن الخوجة: ثمّ دفع لهم الكتاب وعاد من حيث أتى [معالم التوحيد، 294 - 295].

وصف الشيخ النيفر كفاءته العلميّة فقال: «نشأ الشيخ محمد بيرم الثالث في طلب العلم مقبلا عليه، منقطعا بكليّة إليه؛ فلم يبلغ سنّ الشباب حتّى أبدر هلاله، وبهر كماله وزاحم العلماء الفحول، وأحرز قصب السبق في علمي المعقول والمنقول.

تصدّر للتدريس، فنشر الدر النّفيس؛ وتزاحمت على منهله العذب، وروض تحريره الخصب؛ طلاّب المعارف، ومنتجعو غيث الفوائد والعوارف؛ وكانت له اليد الطولى في علمي المعاني والبيان والمنطق.

أقرأ الشيخ محمد بيرم الثالث مختصر السّعد مرّات وكانت دروسه غاية تنقطع دونها الأطماع، ويقصر عنها كلّ ذي باع ومع ذلك كان يقدّر قدر التآليف وينزّلها منزلتها، ويراعي منافع الطالبين فيما يقري من التآليف، ولا يطوح بتلاميذه بما لا يتناولون ثماره عن كثب [عنوان الأريب، 2/ 717].

وقال فيه الشيخ السنوسي: «وكان يقرئ أوّلا في جامع الزيتونة والمدرسة الباشيّة مع مواظبة كليّة وتحرّ في أوقات الدّرس، وقد ظهرت مزيّته على أترابه، وتقدّم عليهم في شرخ شبابه». [المسامرات، 2/ 88].

وقال فيه أحمد بن أبي الضياف: «وله ولوع بالتدّريس وبثّ النّفيس، ويقول: إنّي في حال التدريس أخاطب قوما يفهمون مقاصدي، وأستفيد من أذكيائهم في البحث ما لا أستفيده من الخصوم، وله كيفيّة في إلقاء الدّرس، تسهّل ما صعب من المرام وتبعث في النفوس الغرام، وعنايته بأبناء درسه أشدّ من عناية الغارس بغرسه» [الإتحاف، 8/ 54 - 55].

وأثنى الشيخ ابن أبي الضياف على أستاذه ثناء كبيرا يثبت تعلّق الطالب بشيخه، فقال في إتحافه: «وكان رحمه الله بحر معارف لا يغيض، وصاحب فنون يأخذ منها ويفيض. ويرمي الشوارد بالسّهم المصيب، فيأخذ أوفر نصيب، فاضلا تقيا عزيز النّفس، عالي الهمّة

محبّبا إلى النّاس، طلق المحيّا، حسن اللّقاء، سليم الصّدر، مطبوعا على ما يحمد من السياسة وأخلاق الرئاسة، ما شئت من كرم طباع وبداهة تدلّ على طول باع، وسبق في مضمار الأنظار وبلاغة تزري بالنّضار؛ ولذيذ محاضرة تسبي الأحلام وتقود الأعلام» [المسامرات، 8/ 55].

ومن بين الشيوخ الذين تتلمذوا للشيخ محمد بيرم الثالث ابنه الشيخ محمد بيرم الرابع (1278هـ)، الذي أقرأه كتب مبادئ النحو، وختم عليه الألفيّة وإيساغوجي والسمرقنديّة، وشيئا من الفقه والتوحيد [المسامرات: 2/ 98].

وتتلمذ له الشيخ محمود قابادو (1288هـ/ 1870م)، واغترف من فيض أدبه وله فيه مرثيّة طويلة، أرّخ فيها وفاته، وأقرّ له بالإمامة والسّبق على أقرانه في ميداني العلم والأدب [ديوان قابادو، 2/ 94 - 96]. ومن بين طلبة مترجمنا الشيخ محمد النّيفر (1277هـ) الذي أثبت أنّ الشيخ محمد بيرم الثالث كان معجبا به، وكان كثيرا ما يأتي لسماع درسه، وكان يقرئ شرح المحلّي على جمع الجوامع، فيجلس الشيخ محمد بيرم الثالث خلف الحلقة من غير علم تلميذه الشيخ محمد النيفر، فيقوم مبتهجا ويقول: ما رأيت مثل طريقته في إلقاء الدرس راحة وترتيبا وإيضاحا وتحريرا، لو ملك التلميذ نفسه ولم يستعجل بالسؤال، لم يحتج إليه [عنوان الأريب، 2/ 839].

ومن تلاميذه أيضا الشيخ محمد الطيب الرياحي (1266 هـ) [المسامرات، 1/ 339]، الذي قام بتقريظ الشيخ محمد بيرم الثالث عندما ختم المختصر المنطقي للشيخ محمد السنوسي، بقصيدة من الكامل بها أحد عشر بيتا أوّلها:

يا سيّدا سعد الزمان بسعده
وغدا الكمال حليف خدمة مجده

[المسامرات، 2/ 88]، كما تتلمذ للشيخ البيرمي مصطفى بن محمد البارودي (1279هـ) [المسامرات، 2/ 62]، والشيخ محمد عبّاس (1269هـ) [المسامرات، 2/ 117]، والشيخ محمد معاوية (1294هـ) [المسامرات، 2/ 119 وما بعدها]، والشيخ محمد البارودي (1293 هـ) [المسامرات، 2/ 142]، والشيخ حسين بن الخوجة (1289هـ) الذي درّسه صدر الشريعة والدّرر [المسامرات، 2/ 144]، والشيخ مصطفى بن محمد بن حسين بيرم (1286هـ) وهو ابن أخي شيخ الإسلام محمد بيرم الثالث [المسامرات، 2/ 123]. ومع تبحّر الشيخ البيرمي في العلم، تولّى الخطابة بجامع صاحب الطابع بالعاصمة وهو سابع الجوامع الحنفيّة وآخرها عهدا بتونس، أسّسه الوزير يوسف صاحب الطابع في سنة 1229هـ/ 1813م، وأوّل صلاة أقيمت به فريضة الجمعة الموافقة ليوم المولد النبوي الشريف من ذلك العام، وحضرها حمودة باشا باي، وأهل دولته وشيوخ العلم ورجال الشريعة، وكان الشيخ محمد بيرم الثالث أوّل خطيب به [معالم التوحيد، 214؛ عنوان الأريب، 2/ 718]. وكان أوّل إمام خمس بجامع يوسف صاحب الطابع هو الشيخ أحمد الأبّي [الإتحاف، 3/ 80 - 81].

وتقدّم الشيخ محمد بيرم الثالث للفتوى في حياة والده، وعندما توفّي هذا الأخير سنة

1247هـ/ 1831م، قام مقامه في رئاسة المجلس الشرعي الحنفي وخطة نقابة الأشراف، [عنوان الأريب، 718؛ ديوان قابادو، 256]. قال الشيخ السنوسي: «لما توفّي الشيخ أحمد البارودي، وولّي عوضه الشيخ أحمد بن الخوجة، قدّمه الأمير عثمان باشا مفتيا سنة 1229 هـ، وكان عندما دخل على الأمير هو وشيخه الخوجي، أراد الأمير أن يقدّمه مفتيا، ويجعل شيخه المذكور مفتيا ثالثا، فصاح به شيخ الإسلام والده محمد بيرم الثاني، وقال للأمير: كيف يتقدّم ولدي على رجل طال جلوسه بين يديه للتعليم. وأمر ولده بالتأخر على شيخه فتأخّر وصار يومئذ مفتيا ثالثا، وكان سنّه يومئذ دون الثلاثين سنة» [المسامرات، 2/ 89]. وأصبح الشيخ محمد بيرم الثالث شيخ الإسلام الحنفي عند وفاة والده، وخلفه ابنه الشيخ محمد بيرم الرابع في الإفتاء [صفحات من تاريخ تونس، 216].

وأثبت محمد بن الخوجة أنّ الشيخ محمد بيرم الثالث كان نقيب الأشراف حيث عثر على وثيقة تاريخيّة مختتمة بطابعها في ثبوت شرف أهل البيت الخوجي وهذا نصّها: «الحمد لله ثبت شرف الشيخ العلامة السيد محمد بن الخوجة القاضي الحنفي بتونس وعملها في التاريخ، وأعلم بذلك الفقير إلى ربّه محمد بيرم الثالث نقيب الأشراف بتونس في التاريخ الواضع ختمه بالمحوّل في 27 ذي الحجة الحرام 1257هـ/ 1841م» [صفحات من تاريخ تونس، 234].

وكان الشيخ محمد بيرم الثالث من العلماء الذين انتصبوا لمباشرة النظارة (أي إدارة مشيخة جامع الزيتونة المعمور) عند تأسيس قانون دراسة العلوم به في سنة 1258هـ/ 1842م، بصفته شيخ الإسلام الحنفي بمعيّة الشيخ إبراهيم الرياحي باشا مفتي المالكيّة، والشيخ محمد بن الخوجة القاضي الحنفي، والشيخ محمد بن سلامة القاضي المالكي [مخلوف، الشجرة، 386؛ معالم التوحيد، 100؛ صفحات من تاريخ تونس، 300].

ومن المناقب التي تثبت برّ الشيخ محمد بيرم الثالث بوالده الشيخ محمد بيرم الثاني، ما رواه السنوسي أنّ الشيخ محمد بيرم الثالث أتاه في شهر رمضان خبر تجاسر أحد الأعراب على فلاحته بالسّرقة، فأتى به وسجنه، فأرسل الأعرابي من السجن يشكو لوالده شيخ الإسلام محمد بيرم الثاني، فخرج والده، فصادف الشيخ الثالث داخلا وهو المفتي الثاني، فرام أن يقبّل يده فمنعه من ذلك وصاح عليه: كيف تظلم مسلما في شهر رمضان، فأخبره ولده بقصّة ما صنع معه الأعرابيّ، فلم يتريّث الشيخ أن قال له: وما تقول بين يدي اللّه إذا قال لك كيف تقضي لنفسك، وهلاّ أرسلته إلى القاضي، وترافعت معه كسائر آحاد المسلمين؟ وأعرض عنه، وقال له: إنّي لا أسامحك حتّى يحضر بين يديّ الأعرابيّ ويعلمني بأنّه سامحك فيما ظلمته به، فخرج الشيخ محمد بيرم الثالث وأرسل للأعرابي وأتى به واسترضاه ودخل به على والده ليعلمه بمسامحته إيّاه، ولم يزل الشيخ الثالث بارّا بوالده إلى أن أدركته المنيّة، فقدّمه الأمير حسين باشا إلى خطة مشيخة الإسلام ونقابة الأشراف [المسامرات، 2/ 92].

وقال فيه الشيخ السنوسي واصفا مناقبه: «بلغ

به الفضل إلى غاية أمله ما شئت من علم مسبوك بالسياسة الشرعيّة وعمل يرضي الله ورسوله وأهل الشريعة المحمّديّة، ووقار تخرّ دونه الشمّ الباذخ، وكرم نفس وقدم على صراط التثبّت راسخ، وحسن أخلاق عذبة المذاق تجمّلت به الرئاسة حين عطرتها أنفاسه؛ إذا خطب أبدع، وإذا تلا القرآن حنّ إليه كل من يسمع؛ وإن روى الحديث الشريف، أيّد القلب الوجيف، وإن أملى دروس المعقول من بعد، خلت نفسك في حضرة السيّد والسعد؛ وإن أملى الفقه والأصول، أبلغ سامعه غاية المأمول؛ وإن نظم أو نثر، أراك كيف نشر الزّهر وقلائد الدّرر؛ وشعره لطيف، ونثره جيّد» [المسامرات، 2/ 93].

لم يزل الشيخ محمد بيرم الثالث في خدمة العلم الشريف إلى أن جاء أجله، فتوفّي ليلة الأربعاء 27 ربيع الأوّل سنة 1259 هـ/ 27 أفريل 1843م، ولم يحضر الباي جنازته لعذر منعه يومئذ، وبعث سائر أهل بيته وكبير الوزراء مصطفى صاحب الطابع، وأعيان رجال الدولة، ولقد تفنّن الشعراء في مراثيه وتسابقوا في ذكر ما أودع الله فيه، وصلّى عليه ابنه الشيخ محمد بيرم الرابع، وهو الذي تقدّم عوضه لرئاسة الفتوى والمجلس الشرعي [الإتحاف، 4/ 78]، وكتب على قبره إرضاء لجميع الشعراء ما نصّه: . . . «كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام، هذا مشهد الفقير إلى ربّه الشيخ محمد بيرم الثالث، أفتى على مذهب أبي حنيفة بالقطر الإفريقي 30 سنة، ثمّ لحق بربّه راجيا غفرانه» [الإتحاف، 8/ 55؛ محفوظ، 1/ 183].

ولقد رثاه عدّة شيوخ من بينهم الشيخ محمود قابادو والشيخ محمد بن سلامة والشيخ محمد الخضار الذي رثاه بقصيدة من الطويل تحوي 24 بيتا [المسامرات، 2/ 94 ـ 96].

ولقد أوردت صحيفة الرائد التونسي في عدد 28، س 12، 13 رجب 1288هـ/ 24 سبتمبر 1871م مرثيّة كان الشيخ محمود قابادو قد قالها في الشيخ محمد بيرم الثالث، وذلك قصد مقارنتها بقصيدة المفتي الشيخ محمد الخضّار (1237هـ/ 1851م)، التي قالها في نفس الشخص هو أيضا، مطلعها:

ألا فجع الإسلام وارتجّ جانبه
وضجّت من الخطب المهول جوانبه

[قابادو، 77]، والمرثية البيرميّة هي قصيدة في رثاء الشيخ الثالث وتهنئة ابنه الشيخ محمد بيرم الرابع بولاية الفتيا خلفا لوالده من بعده. ولقد أفردت هذه القصيدة بالذكر رغم اندراجها في ديوان الشيخ محمود قابادو الذي جمعه الشيخ محمد بن عثمان السنوسي (1900م)، لأنّ الرائد التونسي نشرها عند وفاة قابادو كنموذج من شعره المتين رغم السنّ المبكّرة التي قالها فيها، وقد أوردها محرّر الرّائد التونسي مقارنا إيّاها بقصيدة الشيخ محمد الخضّار في رثاء بيرم الثالث نفسه [الرائد التونسي، عدد 28، س 12، قابادو، 99]، جاء في المرثيّة:

يا أيّها النّاعية دونك درّة
شنّف بها آذان أهل المجمع

بيتا يقال لسامعيه تأمّلوا
كم من خبايا في الزّوايا الأربع

يحوي بنصفيه ومهمله ومعـ
جمه من التّاريخ أيّ مصنع
مشواك بيرم في ربيع الأوّل
روض من الجنات أنكه مربع

[السنوسي، ديوان قابادو، 2/ 86؛ ابن سالم، عمر، قابادو، 173].

توفّي الشيخ محمد بيرم الثالث تاركا ولدين محمد بيرم الرابع (1861م)، الذي أنجب محمد السلامي بيرم (1926م) ومصطفى بيرم (1863م) والد الشيخ محمد بيرم الخامس (1889م) وهو جدّ أحمد بيرم (1353هـ/ 1935م) آخر شيخ الإسلام الحنفي من الأسرة البيرميّة [قرين، 108 ـ بلخوجة، محمد، مسند الرئاسة الحنفيّة، المجلّة الزيتونيّة، ج 10، م3/ 16؛ ابن سالم، ديوان قابادو، 260].

■ آثاره

1 ـ له شروح على متن إيساغوجي في علم المنطق نحا فيه منحى الأعاجم، وهو متن لإيساغوجي فورفريوس من علماء اليونان الذين دونوا علم المنطق، شرحه شمس الدين محمد الفناري (834 هـ) وعرف ببلاد الهند ببيكرروزي شرح إيساغوجي [سركيس، 146]، وشرحه أيضا ميرزا أبو الفتح الكلبوني (1205 هـ) طبع في الأستانة سنة 1275 في 52 صفحة [سركيس، 1566]، وافتتح الشيخ محمد بيرم الثالث شرحه بقوله: «الحمد لله لوليّه والصلاة والسلام على صفيّه». فرغ من تأليفه ثامن عشر ذي الحجّة سنة 1258هـ/ 1843م، طبع في تونس سنة 1289هـ/ 1872م، في 28 صفحة من القطع الصغير، وطبعته المطبعة الإعلاميّة بالقاهرة سنة 1302هـ في 24 صفحة [سركيس، 613؛ صفحات من تاريخ تونس، 171؛ كتاب العمر، 1/ 940؛ محفوظ، 1/ 183؛ عنوان الأريب، 2/ 718؛ المسامرات، 2/ 94؛ كحالة، 11/ 276]؛ 2 ـ له ذيل على نظم والده في سلاطين آل عثمان: المسمى بعقد الدّرر والمرجان، نظم الشيخ محمد بيرم الثاني (1247هـ/ 1831م)، قصيدة عنوانها: «عقد الدّرر والمرجان في سلاطين آل عثمان» جمع فيها أسماء سلاطين آل عثمان من بداية ظهورهم سنة 699هـ/ 1299م إلى سلطان زمانه سليم خان الثالث، وتناقل الأدباء هذه القصيدة من بعده. ولقد عثر محمد بن الخوجة على نسخة من قصيدة «عقد الدّرر والمرجان» بخطّ مؤلّفه ومتبوعة من خطّ غيره بذيل لابن المؤلّف الشيخ محمد بيرم الثالث يستفاد من تعليق عليه أنّ الشيخ الثالث كتب هذا الذّيل باقتراح من السلطان محمود خان الثاني. لقد ابتدأ الشيخ بيرم الثاني قصيدته بذكر أوّل السلاطين وهو عثمان خان الذي تولّى الملك في سنة 699هـ/ 1299م، فقال:

فأولهم عثمان باكورة العلا
مذيق الرّدا من بأس كلّ مجرم

وختم نظمه بدولة معاصرة السلطان سليم خان الثالث الذي جلس على العرش العثماني في سنة 1203هـ/ 1789م، فقال:

سليم ابن خاقان الخواقين
مصطفى لديك يا مولاي صنه وسلّم

فلا زال منها قائم إثر قائم
إلى زمن المهدي وعيسى بن مريم

ثمّ ذيّل الشيخ محمد بيرم الثالث قصيدة أبيه مبتدئا بالسلطان مصطفى خان الرابع الذي تقدّم لكرسيّ الخلافة سنة 1223هـ/ 1806م، فقال قصيدة بها ثمانية أبيات مطلعها:

ومن بعده قد قام بالأمر مصطفى
همام به ثغر العلا ذو تبسّم

ثمّ ألحق الشيخ محمد بيرم الثالث لهذا الذّيل الأوّل ذيلا ثانيا عند وفاة السلطان محمود خان الثاني، وجلوس السلطان عبد المجيد خان الأوّل على الأريكة العثمانيّة في سنة 1255هـ/ 1839م فقال قصيدة بها سبعة أبيات أوّلها:

ولمّا تناهى في الكمال ونفسه
تؤمّ المعالي من نظيم فاعظم

قال محمد بن الخوجة: «إلى هنا انتهى ما ألحقه الشيخ الثالث بنظم الشيخ الثاني، ولم يكن له أن يزيد على ذلك لالتحاقه بربّه سنة 1259هـ/ 1843م، على عهد معاصره السلطان عبد المجيد خان الأوّل، ولم نقف لابنه الشيخ محمد بيرم الرابع على شيء في هذا الموضوع رغم وفاة هذا السلطان في زمنه، وقيام أخيه السلطان عبد العزيز خان مقامه سنة 1287هـ/ 1870م، ولكنّ حفيدهم الشيخ محمد بن مصطفى بيرم الخامس نظم في سنة 1297هـ/ 1879م، ذيلا مستكملا لعقد الدّرر والمرجان ابتداه من حيث انتهى جدّه صاحب النظم الأوّل الشيخ محمد بيرم الثاني، وختمه بدولة معاصره السلطان عبد الحميد خان الثاني» [صفحات من تاريخ تونس، 39 ـ 143]؛ 3 ـ طرر على حاشية والده الشيخ محمد بيرم الثاني على شرح ابن قطلوبغا لمختصر المنار في الأصول [المسامرات، 2/ 94؛ كتاب العمر، 1/ 940 ـ 941]؛ 4 ـ شرح الفواكه البدريّة في أطراف القضايا الحكميّة لابن الغرس المصري (932 هـ)، مخطوط بدار الكتب الوطنيّة تحت أرقام: 2/ 105 ـ 2/ 8143 ـ 3/ 537 ـ 2/ 9978 ـ 2/ 9467. قرظها عمّه وتلميذه الشيخ مصطفى بيرم في قصيدة من البحر الكامل تضمّ 14 بيتا جاء في وسطها:

فهي النّتائج لا نظير لجمعها
جمعت لنا المعقول والمنقولا

سخت على غرس ابن غرس فاغتدى
لا يشتكي طول الزمان محولا

قد أنتجتها فكرة من حدّها
تنسي لديها الصّارم المصقولا

وأبان غرّتها بيانا تحتوي
لبيانها التشبيه والتّمثيلا

ذاك الهمام محمد من قد غدا
عقد العويص بلفظه محلولا

[المسامرات، 2/ 93].

5 ـ رسالة في كرويّة الأرض والعلم بالغيب عند المنجّمين، مخ د.ك.و. رقم 2/ 97 ـ 8979 ـ 314 وتوجد نسخة بالمكتبة الأزهريّة، القاهرة، 6/ 299 [كتاب العمر، 1/ 941؛ وأيضا: فهرس المكتبة الخديويّة، 6/ 60]؛ 6 ـ شرح نيل الأماني على مقدّمة القسطلاني، مخ د.ك.و. رقم 1/ 619؛ 7 ـ رسالة في سقوط الحق في الوقف، مخ.

د.ك.و، ضمن مجموع رقم 256؛ 8 - شرح تعريف الملكة من مختصر شرح السعد على التلخيص، د.ك.و، ضمن مجموع 2562؛ 9 - رسالة في بيان حزر الأعشار، مخ. ضمن مجموع 613؛ 10 - رسالة في حزر الزرع في سنبله قبل حصده وبعد، نسخت سنة 1243هـ، مخ د.ك.و. 610 [برنامج المكتبة الصادقيّة]؛ 11 - شعر قرّظ به الدرّ المختار للعلاّمة العنّابي مفتي الجزائر يضمّ 11 بيتا مطلعه:

أكوكب لاح أم بدر التّمام بدا
أيام طالع الحقّ في افق الهدى صعدا

12 - شعر يؤرّخ لوفاة فاطمة زوجة حسين باي من 11 بيتا مطلعه:

حدث عليه دلائل الخيرات
يسفيه وبل الفضل والحسنات

13 - ومن شعره ما قرّظ به رسالة الشيخ إبراهيم الرياحي المسمّاة: «مبرّد الأسنّة في الردّ على من أخرج الشيخ التيجاني عن دائرة أهل السنّة»، والقصيدة تحتوي على تسعة أبيات شعريّة، جاء في مطلعها:

أزهر تبدّى نافحا عن كمائم
أم الدرّ منظوما بنحر النواعم

14 - له تقريظ لرسالة الشيخ إبراهيم الرياحي في الأعذار، في قصيدة بها ثمانية أبيات، مطلعها:

نسخت بحكمة حكمها الأنظار
رفع النّزاع وحقّق الأعذار

15 - له تقريظ آخر للشيخ إبراهيم الرياحي في الردّ على النّحلة الوهابيّة في ثمانية أبيات جاء في أوّلها:

روض العلوم تدفّقت أنواره
وتفتّقت بعبيره أزهاره

16 - ترك تقريظا نثرا وشعرا لختم الشيخ محمد بن الخوجة للحديث الشريف بجامع محمّد باشا المرادي، قال فيه:

لا تنكروا ولهي وفرط غرامي
ومزيد أشواقي لها وهيامي

[عنوان الأريب، 2/ 720 - 722].

17 - كان له تحاور مع الشيخ إبراهيم الرياحي باش مفتي المالكيّة في نازلة، وأرسل له بعد المحاورة فيها النص من مختصر المنار، وعندما حمله كتب إليه بقوله في الوافر ثلاثة أبيات، جاء في البيت الأوّل منه:

أحطت بما بعثت إليّ خبرا
من الصّور المدارة كالقلادة

18 - تحاور مع الشيخ محمد السنوسي الجدّ صاحب كتاب لقط الدرر (1839م) في مسألة أصوليّة شاع فيها بيت من الشعر، ولما رجع إلى داره أرسل إليه الكمال بن الهمام حجّة لما اختاره، فكتب إليه الشيخ السنوسي قصيدة نوّه فيها بمكانته العلميّة [المسامرات، 2/ 90]؛

19 - له شعر جيّد في كنّش ضمن مجموع، وبه أيضا شعر إبراهيم الرياحي وإسماعيل التميمي مخطوط رقم 18489.

ولقد نسب له البغدادي وكحّالة خطأ رسالة بعنوان: «حسن الحط على توهّم الاحتجاج عندنا بالخط»، وهي رسالة لأبيه الشيخ محمد بيرم الثاني [إيضاح المكنون،

1/ 404؛ هديّة العارفين، 2/ 370؛ معجم المؤلّفين، 11/ 276].

المصادر والمراجع

● برنامج المكتبة الصادقيّة (العبدليّة)، مخطوطات دار الكتب الوطنيّة، تونس؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، 1402 هـ/ 1982م؛ ● البغدادي، هديّة العارفين في أسماء المؤلفين، بيروت، 1402هـ/ 1982م، دار الفكر؛ ● ابن الخوجة، محمد، صفحات من تاريخ تونس، مراجعة حمادي الساحلي، بيروت 1986م، دار الغرب الإسلامي؛ ● ابن الخوجة، محمد، مسند الرئاسة الحنفيّة، المجلة الزيتونيّة، ج10، م3، 1359هـ/ 1940م؛ ● ابن الخوجة، محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، مراجعة حمادي الساحلي، بيروت 1985، دار الغرب الإسلامي؛ ● ابن سالم، عمر، ديوان قابادو، سلسلة الدراسات الأدبيّة، الجامعة التونسيّة، 1984، عدد 5؛ ● ابن سالم، عمر، قابادو، حياته، آثاره، تفكيره الإصلاحي، سلسلة الدراسات الأدبيّة عدد1، الجامعة التونسيّة، 1975؛ ● سركيس، إليان يوسف، معجم المطبوعات العربيّة؛ ● السنوسي، محمد بن عثمان، ديوان محمود قابادو، ط1، تونس 1294هـ؛ ● السنوسي، محمد بن عثمان، مسامرات الظريف بحسن التّعريف، تح. محمد الشاذلي النيفر، 1994، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛ ● ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 1990، الدار التونسيّة للنّشر؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلّفين التونسيين، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، قرطاج، 1990، بيت الحكمة؛ ● فهرس المكتبة الأزهريّة، القاهرة، مصر؛ ● فهرس المكتبة الخديوية، القاهرة، مصر؛ ● قرين، أرنولد، العلماء التونسيون (1873 ـ 1915)، ترجمة حفناوي عمايريّة وأسماء معلّى، قرطاج، 1416 هـ، بيت الحكمة؛ ● الكتّاني، عبد الحي، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، ط. الجديدة المغرب، 1346هـ؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، بيروت، د.ت، دار إحياء التراث العربي؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلّفين التونسيين، بيروت، 1982 دار الغرب الإسلامي؛ ● مخلوف، محمّد، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكيّة، بيروت، د.ت، دار الفكر؛ ● النيفر، محمد، عنوان الأريب، عمّا نشأ بالبلاد التونسيّة من عالم أديب، تكميل الشيخ علي النّيفر، بيروت 1996، دار الغرب الإسلامي.

د. محمد بوزغيبة
جامعة الزيتونة ـ تونس

بيرم الخامس، محمّد بن مصطفى بن محمد الثالث

(1256هـ/1840م ـ 1307هـ/1889م)

هو أبو عبد الله محمّد بن مصطفى بن محمد الثالث بن محمد الثاني بن محمد الأول بن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرام الذي حضر إلى تونس قائدا على إحدى فرق الجيش العثماني لإنقاذها من الإسبانيول على يدي الصدر الأعظم سنان باشا سنة 981هـ/ 1574م.

ولد محمد بيرم الخامس في محرّم 1256هـ/ مارس 1840م بمدينة تونس، وبها نشأ وتعلّم وتربّى في دار والده مصطفى (ت 1280هـ/ 1863م)، ودار عمه بيرم الرابع (ت 1278هـ/ 1861م)، ودخل الكتّاب حيث حفظ القرآن الكريم. ثمّ التحق بجامع الزيتونة حيث تتلمذ لمشاهير علماء عصره أمثال: أحمد بيرم (ت 1280هـ/ 1864م)، والطاهر بن عاشور (ت 1284هـ/ 1868م)، ومحمود قابادو (ت 1288هـ/ 1871م)، وعلي العفيف (ت 1292هـ/ 1876م)، ومحمّد معاوية (ت 1294هـ/ 1877م)، ومحمّد بن صالح (ت 1308هـ/ 1890م)، ومحمد بن الخوجة (ت 1325هـ/ 1907م). وتحصّل محمد بيرم الخامس سنة 1278هـ/ 1861م على شهادة التطويع وهو شابّ ابن إحدى وعشرين سنة. فتولّى مشيخة المدرسة العنقية عقب وفاة شيخها عمّه بيرم الرابع. وفي نفس السنة تصدّر للتدريس بجامع الزيتونة حيث نجح بعدُ في مناظرة التدريس بالطبقة الثانية. ثمّ ارتقى إلى الطبقة الأولى سنة 1284هـ/ 1867م.

وقد اهتمّ محمد بيرم الخامس بالسياسة منذ حداثة سنّه، وخاصة منذ اندلاع الفتنة العمومية بالقطر التونسي سنة 1280 هـ/ 1864م بزعامة علي بن غذاهم (1284 هـ/ 1867 م)؛ فتألّم لإقفال المجالس الشورية بتونس واشتدّ منذ ذلك الحين اتّصاله بالوزير المصلح خير الدين التونسي رئيس المجلس الأكبر الذي ألغي سنة 1280هـ/ 1864م. وكانت مناسبة الوصلة بينه وبين هذا الوزير المصلح حبّهما للحرّية والشورى القوّتين الوحيدتين لحفظ كيان تونس والبلاد الإسلامية من التلاشي. ولذلك لمّا تولّى هذا الوزير الوزارة الكبرى بتونس في رمضان سنة 1290هـ/أكتوبر سنة 1873م، كان محمد بيرم الخامس من أكبر أنصاره، وتظاهر بذلك علنًا بنشره في «جريدة الرائد التونسي» مقالا بيّن فيه غلط المنتصرين للوزير المُقال مصطفى خزنة دار (ت 1295هـ/ 1878م)؛ فكان أول تونسي جاهر على صفحات الجرائد بآرائه وإمضائه.

وبهذه المؤازرة استعان به خير الدين التونسي في مشاريعه الإصلاحية مثل تكليفه بإدارة جمعية الأوقاف في 17 صفر سنة 1291هـ/ 5 أفريل سنة 1874م، والمشاركة في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، وفي إصلاح المحاكم الشرعية، وتأسيس المكتبة الصادقية بجامع

الزيتونة. ثم في جمادى الثانية سنة 1292هـ/ 1875م، أسند إليه إدارة المطبعة الرسمية بتونس وجريدة «الرائد التونسي» ونظارة المطبوعات، وفي تلك الأثناء حرّر محمد بيرم الخامس ثلاث رسائل:

- تحفة الخواص في حلّ صيد بندق الرصاص.
- مختصر في فنّ العروض.
- رسالة في جواز إسدال شعر الرأس.

على أنّ وفرة الأعمال التي كان محمد بيرم الخامس يضطلع بها قد أنهكت قواه وأثّرت في صحّته اختلالا كان السبب الرئيسي في ابتداء أسفاره إلى أوروبا للتداوي. فكانت سفرته الأولى إليها في 19 شوّال سنة 1292هـ/ 7 نوفمبر1875م، ورجع منها في أوائل محرّم سنة 1293 هـ/ أوائل جانفي سنة 1876م. وفي تلك السفرة زار إيطاليا ثمّ فرنسا.

وعاد محمد بيرم الخامس إلى أوروبا ثانية سنة 1295 هـ/ 1878 م، فشهد معرض باريس العام، ولقي الإكرام لدى المارشال ماكماهون رئيس الجمهورية الفرنسية (من سنة 1873 إلى 1879، وتوفي سنة 1893 م). أمّا سفرته الثالثة إلى أوروبا، عن طريق إيطاليا ومنها إلى فرنسا فإلى إنقلترة، فكانت في رجب سنة 1296هـ/ سبتمبر سنة 1879م. وفي باريس قدّم تقريرًا سرّيا إلى رئيس مجلس النواب الفرنسي غامبيتا (ت 1882م) بغرض تبديل قنصل فرنسا العام بتونس روستان (ت 1906م)، وذلك استجابة لما كلفه به سريا الوزير الأكبر بتونس مصطفى بن إسماعيل (ت 1897م). فكانت هذه السفرة الثالثة مزدوجة الغرض بين التداوي من المرض والقيام بمساع سياسية. وقد لاقى في كلا الغرضين الإخفاق إذ زادت صحّته اختلالا ولم يلاق نجاحا في مسعاه السياسي، فعزم إذّاك على هجران القطر التونسي طلبا لمجال أصلح لتنفيذ مبادئه الإصلاحية في قطر آخر من الأقطار الإسلامية. وهكذا غادر القطر التونسي في شوّال سنة 1296هـ/ أكتوبر سنة 1879م متوجّها لأداء فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام، ولم يعد بعدها إلى مسقط رأسه.

قصد أولا مالطة، ومنها إلى الإسكندرية فالقاهرة. وفيها تقابل مع الخديوي توفيق (ت 1892م). وبينهما دار الحديث عن كيفية نظام الكوميسيون المالي الدولي في تونس، وعن النتائج التي حصلت. وكان ذلك الحوار بسبب ما اقترحته إنقلترا وفرنسا على الحكومة المصرية من إقامة لجنة للمراقبة المالية. ثمّ واصل سفره فسار إلى الحجاز. وبعد أداء فريضة الحجّ بمكّة المكرّمة زار المدينة المنوّرة، ومنها توجّه إلى بيروت مارّا على خليج السويس. وفي بيروت تلاقى مع الوزير مدحت باشا (ت 1884 م). ثمّ توجّه إلى الآستانة حيث استقرّت إقامته، فأعان الوزير خير الدين التونسي على تقديم تقرير بشأن الإصلاحات للحضرة السلطانية، وتفرّغ لتدوين كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» وإتمام الجزءين الأوّلين منه.

وفي تلك الأثناء انتصبت في 12 ماي 1881م الحماية الفرنسية بتونس، فعزم إذّاك على استقدام عائلته من تونس إلى الآستانة. وكان ذلك مناسبة لتجواله في بلدان سويسرة والنمسا والمجر والصرب ورومانيا وبلغاريا، وأبقى في جينيفا من بلاد سويسرة ابنه محمّد الهادي يزاول تعلمه في إحدى مدارسها المعتبرة.

وأثناء إقامته بالآستانة ألّف الجزء الثالث من كتابه صفوة الاعتبار، وحرّر رسالة سمّاها: التحقيق في مسألة الرقيق. كما حرّر رسالتين في ما يجب للنبيّ، وفي ما يجب لآله. وحرّر أيضا رسالة في سكنى دار الحرب. ثم في محرم 1302 هـ/ نوفمبر 1884 م، انتقل بعائلته إلى مصر معرّجا على بلاد اليونان، واستوطن القاهرة.

ثم أصدر، في 25 ربيع الأوّل 1302 هـ/ 11 جانفي 1885 م، جريدة «الإعلام» التي توقّفت عن الصدور في غرّة جمادى الأولى 1306 هـ/ 3 جانفي 1889. وإذّاك تولّى خطّة القضاء في محكمة مصر الابتدائية الأهلية في يوم 12 جمادى الأولى 1306 هـ/ 14 جانفي 1889م. وكان قبل ذلك زار فلورنسا بإيطاليا، ثم باريس، ثم لندرة، ثمّ برلين، ثمّ فيينا. وكان ذلك في سنة 1304 هـ/ 1887م.

وألّف أيضا رسالة «تجريد السنان للردّ على الخطيب رونان» (ت 1892م). وكان رونان ألقى في جامعة السربون بباريس محاضرة عنوانها «الإسلام والعلم» بيّن فيها عدم التلاؤم بين الدين الإسلامي والفكر العلمي. فردّ عليه جمال الدين الأفغاني (ت 1897) مبيّنا نفس عدم التلاؤم بين العلم والمسيحية الكاثوليكية.

ثم أتمّ الجزء الرابع وأوّل الجزء الخامس من كتابه «صفوة الاعتبار». وكان يقصد التوسّع في هذا الجزء الخامس بذكر بلاد النمسا وسويسرة وألمانيا ورومانيا والبلغار والصرب واليونان، وهي البلاد التي زارها وشاهدها. كما كان ينوي تحرير خاتمة له؛ لكنّ أجله حال دون ذلك إذ توفّي في 25 ربيع الثاني 1307 هـ/ 18 ديسمبر 1889م بمدينة حلوان، ونقل جثمانه إلى القاهرة حيث حضر جنازته رئيس الحكومة المصرية ودفن بقرافة الإمام الشافعي. وقد كان رحمه الله من محبّي الإصلاح وتقريب المسلمين إلى عوامل التمدن الحديث وإزالة ما قد يعترضهم من أشباه الموانع الدينية.

كان محمد بيرم الخامس حسب تكوينه متضلّعا في الفقه الحنفي، وقد غلبت على إنتاجه التحارير السياسية والتاريخية. وهو يعدّ من الرعيل الأوّل للصحفيين التونسيين من زعماء الإصلاح في البلاد التونسية، وإن حالت السياسة دون مبتغاه.

■ آثاره

أ ـ المطبوع:

1 ـ صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، القاهرة 1302هـ (4 أجزاء)، 1311هـ (ج. 5)؛ 2 ـ رسالة رائقة المعاني سهلة المباني قد احتوت على أحكام الأشراف آل بيت رسول الله، المطبعة الإعلامية بمصر، 1302 هـ/ 1885 م؛ 3 ـ تحفة الخواص في حلّ صيد بندق الرصاص، القاهرة 1302هـ/ 1885م؛ 4 ـ ملاحظات سياسية حول التنظيمات اللازمة للدولة العليّة، قدّمها للسلطان عبد الحميد الثاني سنة 1298هـ/ 1881م، ط. مصر؛ 5 ـ مجموعة من الفتاوى والتحقيقات العدلية، ط. مصر؛ 6 ـ التحقيق في مسألة الرقيق. ذيل كتاب محمد بيرم الخامس، ببليوغرافية تحليلية، إعداد المنصف بن عبد الجليل وكمال عمران، بيت الحكمة قرطاج 1989م.

ب ـ المخطوط:

1 ـ رسالة في جواز إسدال شعر الرأس؛

2 - مجموع مختصر مفيد في فن العروض؛
3 - رسالة في صورة سؤال حول شراء أوراق الديون التي تصدرها الممالك الإسلامية؛
4 - تقرير مسهب في شأن التعليم بمصر؛
5 - تجريد السنان للردّ على الخطيب رونان؛
6 - رسالة في سكنى دار الحرب؛ 7 - إيضاح القصر المبني على حواشي المغني؛
8 - رسالة فيما يجب للنبي ﷺ.

المصادر والمراجع

● بيرم الخامس، محمد، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، الجزء الأوّل، تر. محمد بيرم الخامس، تح. علي بن الطاهر، الشنوفي، ط. سنة 2000 م، نشر بيت الحكمة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون؛ ● السنوسي، محمد، جريدة الحاضرة، عدد 24 ديسمبر 1889؛ ● دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، 1/ 140 - 141؛ ● الزركلي، الأعلام، 7/ 322؛ ● أحمد عبد السلام، المؤرّخون التونسيون في القرون 17 - 18 - 19 م، رسالة في تاريخ الثقافة، قرطاج 1993 م، بيت الحكمة، 445 - 461؛ ● م. ف. ابن عاشور، أركان النهضة الأدبية بتونس، 21 وما بعدها؛ ● فتحي القاسمي، الشيخ محمد بيرم الخامس، حياته وفكره الإصلاحي، قرطاج 1990 م، بيت الحكمة؛ ● محمّد بن الشنب، بيرم الخامس، دائرة المعارف الإسلامية، ط 1 (باللسان الفرنسي)، 3/ 731 - 732؛ ● محمد محفوظ، تراجم المؤلّفين التونسيين، 1/ 191 وما بعدها؛ ● رشيد الذوادي، رواد الإصلاح، 40/ 59.

د. علي الشنوفي
الجامعة التونسية

بيرم التونسي، محمود بن محمد بن مصطفى

(1311هـ/ 1893م - 1381هـ/ 1961م)

ولد محمود بن محمد بن مصطفى بيرم يوم 23 مارس 1893 بحي الأنفوشي بالإسكندرية، من عائلة تونسية الأصل، استقر عميدها مصطفى عندما كان في طريق عودته من أداء فريضة الحج بمدينة الاسكندرية. وهناك اقترن بسيدة مصرية من العائلات التركية الميسورة، وصلا لجذوره التركية القديمة.

ومن تلك الزوجة المصرية رزق الجدّ مصطفى ولدان هما محمد ومحمود اللذان ورثا عن والدهما ملكية مصنع الحرير الذي أنشأه. ولم يلبث أن توفى الأخ الأكبر محمود ليؤول المصنع الى محمد والد محمود بيرم الذي تسمّى باسم عمّه. وفي هذا الوسط المترف ولد محمود بيرم من زوجة ثانية لوالده، ولم

تكن له إلاّ أخت واحدة شقيقة من الزوجة الأولى، وأبناء عمومته وقد نشبت بينه وبينهم خلافات بعد موت والده، فاستحوذوا على المصنع وأخرجوه من أملاك والده.

عاش محمود الفترة الأولى من حياته حتى سن الثانية عشرة في رعاية والده؛ وقد وصف بأنه مثقف فنان حيث كان يحضّه على التعلم، وأرسل به إلى الكتاب وهو صغير لحفظ القرآن والاندماج في أجواء العلم. وفي كلّ مساء كان الوالد يقيم حفلات شعبيّة يحضرها العازفون والمغنون والمنشدون الشعبيون في مصنعه، ويُجلس ابنه الى جانبه لإنشائه على التذوق الفني وتهذيب أذنه وتدريبه على الإصغاء والتمثّل وحفظ الأدب الشعبي.

وما إن توفي الوالد الفنان حتى وجد بيرم نفسه في مهب الرّيح سيما وقد زاد هذه الوحشة قتامة رحيل الوالدة بعد خمس سنوات من غياب الوالد ممّا أظلم الحياة أمامه.

وابتدأت حياة الضياع، «فقد انتقلت للإقامة مع أختي لأبي المتزوجة من خالي، وكانت تعد علي الأنفاس والحركات والسكنات، وتضيق ذرعا بأي خدمة لي» [مذكراتي، 24].

أجبرت الحياة بيرم وهو في سن المراهقة على ممارسة أعمال يدوية مختلفة: مهنة النجارة في محل المعلم (شريدي)، فتح محل للبقالة بما آل اليه من إرث والده، بيع صفائح السّمن، مشاركة أحد الصيادين في صيد السمك وبيعه. . .

وإذن فإن بيرم لم يتلقّ تعليما منظّما عدا التردد على الكتاب وهو صغير السن وما حدث له مع مؤدب الكتّاب جعله ينفر من الكتّاب ويهجره قبل أن يتم حفظ القرآن الكريم. . . إنما اكتسب ثقافته بجهده الشخصي وعصاميته الفذة وإدمان المطالعة، والتردد على مكتبات الإسكندرية العامة، ومقهى بلبل بحي السيالة؛ ومسجد المرسي أبي العباس، حيث كان التباري والتنافس على الخطابة وارتجال الشعر. وهكذا تخلقت عبقرية بيرم، من استظهار القرآن الكريم، وما وعاه من كتب التراث العربي، التي كان يحفظ بعضها عن ظهر قلب، ومن استيعابه دواوين شعراء العربية في مختلف العصور، ممّا أكسبه قدرة خارقة على الإلمام بالعربية من كلّ أطرافها ومستوياتها وتطويعها بسهولة نادرة.

كما امتلك ناصية اللهجة العامية المصرية مما كان يسمعه في حلقات الإنشاد التي كان يعقدها والده في مصنعه، ومن الحواري والشوارع ومن أفواه الباعة الذين اختلط بهم وأناشيد الصيادين وقد كان واحدا منهم.

آنس بيرم منذ حداثة سنه في نفسه القدرة على الكتابة بأسلوب لم تألفه الصحافة ولا القراء، فكان ظهوره مبهرا ومثيرا للاهتمام، وفوجئت الصحافة والوسط الأدبي والسياسي بظاهرة هذا الشاعر الجديد الذي يكتب شعرا فصيحا بلغة بسيطة وفي موضوعات حساسة وشديدة الأهمية وبالغة الجرأة، فضلا عن الأسلوب الساخر الذي توخاه الشاعر لينفرد به عن سائر الشعراء الآخرين، وليكون أداته الخاصة للنفاذ في مشاعر الناس، والاستحواذ على اهتماماتهم.

بدأ بيرم بنشر أشعاره سنة 1916 في جريدة «الأهالي»، وكانت قصيدته «المجلس البلدي»

الشهيرة واحدة من بين القصائد التي كانت سببا في ذيوع صيته بين جمهور القراء، كما لفتت القصيدة انتباه السلطات الانكليزية إلى ما يمثله هذا الشاعر من خطورة في تعميق وعي الناس وإثارتهم.

ولم يلبث هذا النجاح أن حفز بيرم على إنشاء جريدته «المسلة» في سنة 1919 التي حظيت برواج منقطع النظير، أغراه بالانتقال إلى مدينة القاهرة بحثا عن أوسع شريحة اجتماعية تستجيب لدعواته، وحملاته المناهضة للاستعمار الأنكليزي والعائلة الحاكمة وعلى رأسها الملك فؤاد ملك مصر. وتمّ الأمر بنقل نشاطه إلى القاهرة، لكن السلطات هناك كانت له بالمرصاد فعطلت «المسلة» ولكن بيرم لم يذعن للقرار، فأصدر جريدة «الخازوق» التي كانت القطرة التي أفاضت الكأس، مما حمل السّلطة بعد تفاقم تطاول بيرم عليها وبلوغه الحدّ الذي لا يسمح فيه بتجاوز النقد الى إصدار قرار بإبعاد بيرم خارج مصر، باعتباره تونسي الجنسية، ويتبع الحماية الفرنسية التي أشعر ممثلها بالقرار وطلب منه الإشراف على هذا الإبعاد.

وجلب بيرم إلى مدينة الاسكندرية وبحضور قنصل فرنسا بهذه المدينة أركب متن الباخرة المسماة «تشيلي» التي كانت تقل عائلات من بلاد الشام كانت مهاجرة إلى أمريكا اللاتينية. ليتم ترحيله يوم 17 أوت 1919 [نص برقية قنصل فرنسا بالإسكندرية من محفوظ الأرشيف الوطني بتونس] إلى موطن أجداده تونس. وبعد أن أرست الباخرة المذكورة بميناء مرسيليا تمّ وضع بيرم مرّة أخرى على متن الباخرة «السترافائيل» يوم 31 أكتوبر 1919 ليحط ركبه في تونس التي كان يدخلها لأوّل مرّة بعد أن خرج منها جدّه مصطفى في القرن التاسع عشر.

أقام بيرم بضعة أسابيع في تونس، حاول خلالها ربط صلاته بالعائلة التي ينتسب إليها فلم يفلح. ولما خاب أمله قفل عائدا إلى فرنسا، وبدأ رحلة عذابه في المنفى التي استغرقت نحو عشرين سنة، انطلاقا من مدينة مرسيليا، إلى باريس، فبوردو، فالآرل بحدود إسبانيا، متعاطيا جميع ألوان الأعمال الشاقة والمهينة، متعرضا لضروب الخصاصة والجوع والشقاء، دون أن يثنيه كلّ ذلك عن متابعة الكتابة نثرا وشعرا ومراسلة الصحف والمجلات المصرية للإبقاء على روابطه الأدبية بمصر التي لم تبرح خياله، وقد ترك فيها ذكرياته، وفلذات كبده، وأجبر كرها على مفارقتها.

مكث بيرم في منفاه بفرنسا ثلاث عشرة سنة وإن قيل إنه عاد في إحدى المرات خلسة إلى مصر وانكشف أمره، إلاّ أن أوّل مرة غادر فيها فرنسا كانت لدى عودته الثانية إلى تونس أواخر سنة 1932 بعد أن اتصل به نفر من التونسيين وربطوا صلة له مع بعض الصحف التونسية ليتولى رئاسة تحريرها. وقد كان في هذه المرة محل حفاوة وتبجيل وترحيب من كلّ التونسيين الذين استقبلوه بالمقالات التي تشيد بنبوغه، واصفين هذه العودة بأنها عودة الابن إلى حضن أمّه، إلاّ أن شهر العسل بينه وبين جريدة «الزمان» سرعان ما انفض، وحصلت القطيعة التي لم يكن منها بدّ، فمنهج الجريدة المهادنة للاستعمار كان على غير منهج بيرم وخطه النضالي.

ولما حانت الفرصة في سنة 1936 بإطلاق الحريات لشعوب ما وراء البحار في عهد حكومة الواجهة الشعبية التي تولت السلطة في فرنسا، لم يجد بيرم بدا من اهتبالها لإصدار جريدة أسماها «الشباب»، صدر عددها الأوّل في 29 أكتوبر 1936. واستمرت لأكثر من خمسة شهور إلى أن عيل صبر السلطات الاستعمارية عليها بسبب شدّتها في النقد والمناهضة والتحامل على الاستعمار الفرنسي وتحريض التونسيين على الثورة. كما كانت الجريدة صوت المناضلين الليبيين للانتفاض على الاستعمار الإيطالي حين كانت تشنّ الحملات المتتالية عليه. ومن ثمّ صدر قرار السلطات بتعطيل «الشباب»، وكالعادة فإن بيرم الذي تمرس بمثل هذه القرارات، واعتاد عليها، احتال مرّة أخرى واستأجر امتياز جريدة لم يكن هو صاحبها وأصدرها باسم «السردوك»، ومعناه الديك باللهجة التونسية. ونفس التاريخ يعيد نفسه إبان إبعاده من مصر في سنة 1919، فقد عطلت جريدة «السردوك» وتقرر إبعاد بيرم إلى بلاد عربية أخرى تقع في مجال الاستعمار الفرنسي وسلطاته، فكان الاختيار على بلاد الشام، لبنان وسوريا محطة جديدة للابعاد. ووضع بيرم مرة أخرى يوم 20 أفريل 1937 على متن باخرة في طريقها إلى مرسيليا ثمّ لبنان بعد إقامة دامت خمس سنوات. ويبدو أن بيرم اغتنم فرصة وجوده في سوريا إبان هذه الإقامة التي دامت أقل من سنة واحدة بقليل، فأعاد صلاته بالكتّاب والفنانين في مصر، واستشعرت السلطات المصرية والملك فاروق أن وجود بيرم في سورية يمثل خطرا عليها، فتدخلت لدى فرنسا لتقوم بترحيله إلى مكان آخر. وأذعنت فرنسا لهذه الرغبة وأركبت بيرم باخرة لتقله الى السنغال وهي أحد مستعمراتها؛ وفي طريق الرحلة تتوقف الباخرة في مدينة بورسعيد حيث يهتبل بيرم الفرصة وينِدس بين المغادرين ليختفي في مدينة القاهرة برهة من الزمن، إلى أن تتم تسوية وضعيته مع القصر، ويعفو عنه الملك فاروق. إلاّ أنه لم يمنح الجنسية المصرية إلاّ سنة 1954 في عهد الرئيس المصري جمال عبد الناصر، ليواصل بعدئذ حياته مواطنا عاديا ومجرد صحفي في عدد من الصّحف المصرية.

وممّا تقدّم يمكن القول بأن بيرم التونسي توفرت في شخصيته القدرة المزدوجة على الكتابة باللغة العربية واللهجة العامية. وقد توفق في التعبير بكلتيهما بنفس القدر والإجادة والتمكن، وقد كان يستعمل اللهجة العامية في المناسبات والأغراض والأوساط التي تفهم هذه اللهجة وتستسيغها، بينما كان يكتب باللغة العربية الموضوعات التي لا تكتب إلاّ بهذه اللغة وللفئات الاجتماعية التي تطرب لذلك، وللدواعي التي كان لا يرى محيدا عنها.

وبقدر ما كانت اللغة العامية أداته الأولى للقارئ المصري الذي لا يستشعر خطرا يهدد لغته العربية الأم، فإنه امتنع عن الكتابة بالعامية في تونس لما كان يحسّه من الخطر على هذه اللغة في مواجهة المستعمر الذي كان يشجع على الكتابة باللهجة العربية لدواعي استعمارية استلابية.

كما يمكن القول بلا موّاربة بأن بيرم شخصيّة قلّ نظيرها بين جميع المثقفين العرب في القرن العشرين، إذ تحمّل وحده عبء مناهضة

جميع أنواع المستعمرين: الإنكليز في مصر، والفرنسيين في تونس والجزائر، وبلاد الشام، والإيطاليين في ليبيا، وكان جزاؤه الإبعاد والسجن والتشريد وتعريض أبنائه للإهمال والجوع طيلة عشرين سنة.

وأخيرا فإن بيرم الذي ما يزال يتربع على عرش عمادة الزّجل في مصر ستظل آثاره مصدر إلهام الفنانين والملحنين، وسيظل أدبه العامي والفصيح مثار اهتمام ودراسة وتحليل، ربما إلى عشرات السنين اللاحقة.

آثاره

1 ـ الأعمال الكاملة لشاعر الشعب، بيرم التونسي، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة 1973، وهي إعادة لنشر الديوان الذي كان نشر لأول مرة سنة 1948؛ 2 ـ مذكراتي، والديوان الأول، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت (د.ت)؛ 3 ـ الأعمال الكاملة لبيرم التونسي، إشراف رشدي صالح، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب (1976 ـ 1986)، (12 جزءا). وقد تضمنت هذه الأعمال أزجاله، وأغانيه، ومقاماته، ومسرحياته (السيد ومراتو في باريس)، و(عزيزة ويونس)؛ 4 ـ أوبريتات: شهرزاد (1921)، ألف ليلة وليلة (1931)، عقيلة (1931)، يوم القيامة، ومايسة (1946)، ومدام بترفلاي (1946).

المصادر والمراجع

● أبو فاشا، طاهر، مقامات بيرم، مكتبة مدبولي القاهرة، د. ت؛ ● أحمد، يوسف أحمد، فنان الشعب محمود بيرم التونسي، القاهرة، أفريل 1962، دار النهضة العربية؛ ● أحمد عبد اللّه، عبد اللّه، بيرم ثائرا ساخرا، كتاب الشعب، القاهرة 1975، مؤسسة دار الشعب للصحافة والنشر والتوزيع؛ ● البنّا، محمد كامل، بيرم كما عرفته، مطابع جريدة (الصباح)، القاهرة 1965؛ ● قيثارة الأدب الشعبي، تونس ـ طرابلس 1983، الدار العربية للكتاب؛ ● سعد كمال، صفحات ضائعة من حياة بيرم التونسي، صيدا، بيروت (د.ت)، المكتبة العصرية؛ ● الساحلي، حمادي، الصحافة الهزلية في تونس، تونس 1977، دار ابن شرف للنشر؛ ● العزب، يسري، محمود بيرم التونسي، دراسة فنية، القاهرة 1985، الهيئة العامة المصرية للكتاب؛ ● القباني، عبد العليم، محمود بيرم التونسي، القاهرة 1969، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر؛ ● الجابري، محمد صالح، محمود بيرم التونسي في المنفى، بيروت (ج I ـ II) 1987، دار الغرب الإسلامي؛ ● بيرم التونسي في ذكراه المئوية (مجموعة كتاب)، 1893 ـ 1993، مصر (د. ت)، الهيئة العامة لقصور الثقافة؛ ● ماريني، زهير، بيرم التونسي، نهاية شاعر، بيروت 1992، دار إقرأ؛ ● ندوة بيرم التونسي وفعالية شعر العامية، مارس (آذار) 1993، المجلس الأعلى للثقافة مصر 1993؛ ● بيرم التونسي، مائة عام (عدد خاص)، مجلة «ابن عروس» ع3، س1، يونيو 1993.

د. محمد صالح الجابري
مدير موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

البِيرُوني، أبو الريحان محمد بن أحمد

(362هـ/973م - 442هـ/1051م)

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في 3 ذي الحجة عام 362هـ / 15 سبتمبر 973م بضواحي مدينة خوارزم أو كاث أو كازة أو خيفا في دلتا آمور دايا على الشاطئ الجنوبي لبحر الخزر (القزوين)، والمنطقة المعروفة باسم شيخ عباس ولي، أو كارا - كاليا كايا في بوابة خُوز أو تركستان، أي ما وراء النهر.

والبيروني التي ينسب إليها أبو الريحان، وهي بكسر الباء الموحدة وضم الراء، تقع في ضواحي خوارزم حسب ما ذكره الحافظ أبو سعد تاج الإسلام عبد الكريم بن محمد السمعاني [كتاب الأنساب، 2/ 363].

ويبدو أن أباه قد توفي وهو صغير، مما دفع بأمه إلى العمل في البيوت لتوفّر لابنها الوحيد القوت اليومي والكسوة والتعلم على أيدي أشهر شيوخ خوارزم أبي نصر منصور بن علي بن عراق الجيلاني الرياضي المنجم، وصديقه عبد الصمد بن عبد الصمد. ولنبوغه المبكر وجد عندهما، كل الترحيب والإكرام، والودّ والإخلاص وطيب الضيافة، ولا سيما عند الأول إذ كان ذا حسب ونسب وأميرا في خوارزم.

وحين بلغ البيروني السابعة عشرة بدأ في البحث والاستقراء على الرغم من صغر سنه. فمنذ نعومة أظفاره وطيلة حياته (ويبدو أنه لم يتزوج أبدا) كان ناجحا متميزا، وفي الرعيل الأول بين أقرانه، ومن أعظم العلماء المسلمين أصالة وإبداعا وإنتاجا ليس في زمنه فقط بل عبر القرون، لا سيّما في عدد كبير من المعارف والعلوم مثل: الأخبار، والفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، والصيدلة، والطب، وعلم الهيئة، والتنجيم، والرياضيات، والعلوم الطبيعية، وما إليها من العلوم المعدنية والفلزات والتقنيات.

وبعد أن أطيح في ثورة جارفة بعرش آخر السلاطين الخوارزمشاهية الأمير أبي عبد الله محمد واستشهاده عام 385هـ/ 995م، وقد كان يساعده أبو نصر منصور بن علي الجيلاني، ذهب البيروني إلى الري حيث وجد منجّما معتبرا، فتناقشا في مواضيع فلكية لم يتفقا حولها. فتأثر البيروني لذلك كثيرا، ولكنهما عادا إلى الوئام بعدها واصطلحا. وفي هذه الأثناء ربما زار منطقة جيلان، وبعدها رجع عام 387هـ إلى خوارزم لخدمة الأمير منصور بن نوح الساماني (387هـ/ 389م). وحين سقطت دولة السامانيين في خوارزم قام البيروني بزيارة الأمير أبي الحسن قابوس بن وشمكير شمس المعالي في جرجان، كما ذهب إلى الري وطبرستان، فاستقبله الأمير، وقد كان ميالا إلى الأدب والفلسفة والرياضيات، بحفاوة مع أنه وجده في طبعه قاسيا، وإليه أهدى عام 390هـ/

1000م أهم كتبه في موضوعها وهو «الآثار الباقية عن القرون الخالية» [الآثار].

وفي عام 394هـ/ 1003م وحتى مطلع 407هـ/ 1017م، لا سيما في السنين السبع الأخيرة، أقام البيروني في مسقط رأسه خوارزم ليخدم الأميرين: أبا العباس المأمون، وأبا الحسن علي بن مأمون المأموني؛ فكانت هذه الأيام من أزهى أيامه حفاوة وحظوة، وعلما وإبداعا . . . ولما دخل الغازي يمين الدولة محمود بن سبكتوكين خوارزم فاتحا منتصرا، حصل أن نجا البيروني بأعجوبة. وذلك أن السلطان محمود لما أراد الخروج للغزو خاطبه أحد مساعديه قائلا: «لِمَ تُبقي البيروني؟، فإننا نحتاج إليه ليكون منجّما، فيهتم بأمر رمضان». فوافق السلطان محمود على مضض، ونقله رأسا إلى غزنة. ومن هناك، أخذه في غزوات شمالا وغربا لمدة حوالي 13 عاما (407هـ ـ 419 هـ)، إلى الهند، وأفغانستان (سجستان)، وباكستان، وخراسان الفارسي. وهو ما أتاح له أن يتعلم شيئا من السنسكريتية وعددا من اللهجات الهندية، ويعرف الطبقات الاجتماعية كالبراهمة والمنبوذين، والعادات والتقاليد، والفلسفة، والديانة الإسلامية. وكانت نتيجة كل ذلك أن صنف البيروني كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، وغيره من الكتب والرسائل.

ثم نجده في مطلع عهد السلطان أبي سعيد مسعود بن محمود يؤلف عام 421هـ/ 1030م «القانون المسعودي» وغيره؛ وفي عهد السلطان شهاب الدين أبي الفتح مودود بن مسعود بن محمود الغزنوي يضيف حوالي سنة 436هـ/ 1045م كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر».

وبعد وفاة هذا السلطان عام 441 هـ. تولى مكانه أخوه السلطان جمال الدولة فروخزاد ابن مسعود (ت 443هـ/ 1052م)، وكان البيروني وقتئذ في آخر عمره إذ توفي بغزنة في ما قيل أواخر ذي الحجة 442هـ/ أبريل ـ نيسان 1051م (وقيل سنة 440هـ أو سنة 441هـ). بعد حياة حافلة بالأحداث والتنقلات والتصانيف الدالّة على عبقريّة علمية فذّة جعلته من أعظم العلماء المسلمين، ومن أكبر كتّاب العلم بالعربية على الرغم من إجادته الفارسية، لأنه كان يعتبرها أدقّ وصفا وتعبيرا وأداء للمعاني. ونشير لإبراز هذه العبقرية الفذة إلى أن البيروني قد توصّل في «القانون المسعودي» إلى اكتشاف نظرية الجاذبية قبل إسحق نيوتن (1642م/ 1727م)، وإلى تعيين الثقل النوعي لثماني عشرة مادة من المعادن والأحجار الكريمة بدقة قريبة مما هو معروف في عصرنا، وإلى استخراج مقدار محيط الأرض فيما يسميه العلماء اليوم «قاعدة البيروني». كما عمل على تبسيط رسم الخرائط الفلكية . . . إلى آخره.

درس البيروني علم المثلّثات وعرف قانون تناسب الجيوب، بالنسبة للمثلث الكروي، واشتغل بحساب الجداول الرياضية للجيب وجيب التّمام، والظل وظل التّمام، استنادا إلى جداول وضعها أستاذه أبو الوفاء البوزجاني فأتت حساباته على جانب كبير من الدّقة والإتقان لم يبلغهما أحد قبله [البيروني، القانون المسعودي، 1/ 308، طبعة حيدر آباد

الدكن 1947م - و - ت]. أمثال ابن يونس وحبش الحاسب، ويفسّر هذا بكون ابن يونس مثلا قرّب حساباته باستعمال ما يعرف بقاعدة التّقويم الخطي (Interpolation Linéaire) بينما لنفس الغرض استعان البيروني بقاعدة أرقى تسمّى التقويم التّربيعي. يقال إنّه أخذها عن مؤلف لبراهما كويت الهندي. ولكنّ القاعدة بعينها استعملها العالم نيوتن عند القرن السابع عشر للميلاد. وهذا الأمر حيّر الباحثين المحدثين [تاريخ العلوم عند العرب، إشراف رشدي راشد، 2/ 193 (الطبعة الفرنسية 1997)].

وعمل البيروني على استخراج الثقل النوعي للأجسام، وذلك بوزنه الجسم أوّلا في الهواء، ثمّ وزنه نفسه في الماء. فصمّم لذلك جهازا بسيطا مثقوبا على علو معيّن. وقد استطاع بهذا الميزان الخاصّ به، أن يتوصّل إلى قياس الوزن النوعي لأجسام عديدة، فقاربت الأرقام التي حصل عليها الخازني أحيانا والأرقام الحديثة المعتمدة في أحيان أخرى، ومنها الذهب 19.26 وهو الوزن النوعي المعتمد اليوم. وقاعدة الوزن النوعي المعروفة بالكتلة الحجميّة هي من وضع البيروني، ولم يسبقه إليها العلماء القدامى أو علماء العرب من أصحاب نفس التّخصّص.

وفي ميدان رسم الخرائط، قاس البيروني خطوط العرض والطول وحدّد أماكن أهمّ البلدان، وكان همّه في ذلك تحديد موقع الكعبة الشريفة بالنسبة إلى غزنة عاصمة أفغانستان وقتئذ. ولذا استند إلى عمله سائر المشرقيين في الجغرافية، واستمد منه أبو الفداء مواقع البلدان في جداول الأطوال والعروض، وكذا أبو علي الحسن المراكشي. وبما أنّ الوسيلة الوحيدة لأخذ الأطوال كانت الاستعانة بالكسوفات الشمسيّة أو الخسوفات القمريّة، ابتكر البيروني وسيلة جديدة تستعمل على الدّوام وبدون الارتباط بقانون الحركات السماويّة. وقاعدته الرياضيّة تتطلّب معرفة عرضي البلدين، طول إحداهما ثمّ المسافات الفاصلة بينهما. وهذه القاعدة ظلّت مستعملة إلى حدود القرون المتأخرّة أي قبل ظهور خدمات الأمواج اللاّسلكيّة.

يقول البيروني: «... إذا كان بلدان معلومي العرض والمسافة التي بينهما بأجزاء الدور وأردنا معرفة ما بينهما في الطول ضربنا جيب العرض الأقلّ في جيب المسافة ...» [مصدر سابق، 2/ 507 - 509].

أمّا أهمّ إضافة أضافها البيروني في هذا المجال فهي ابتكار طريقة المدّ الكروي في رسم الخرائط، وورد وصف هذه الطريقة في كتابه «تسطيح الصور وتبطيح الأكر». وعلى مقتضى مذهب البيروني تظهر خطوط الطّول والعرض على الكرة الأرضيّة مثلما نراها اليوم على الخرائط الحديثة. نظريّته في رسم الخرائط، عمل بها الجغرافي التونسي علي بن أحمد الشرفي الصّفاقسي من رجالات القرن (10هـ/ 16م)، وبعد مضي قرن كامل وجدت النّظرية عند الإيطالي «جيانبا تيستا»، وفي عام 1794 رسم الانجليزي خريطة للعالم مستعينا بتسطيح البيروني [تاريخ علوم العرب، 1/ 228 - 229].

وقد سجّل في كتابه الفلكي «القانون المسعودي» عدّة ملاحظات وإشارات قيّمة عن حركة الأجرام السّماويّة، وأشكال مداراتها،

وتحدث عن الجاذبيّة الأرضية والجاذبية العامة بين الكواكب، وأشار إلى جملة من الأخبار، تخصّ علم المساحة الأرضيّة والفضائيّة.

في المحور الأوّل وصف البيروني النّظام الفلكي الذي وضعه أريستاخ اليوناني، والنظام الفلكي الذي وضعه فيما بعد اليوناني إبراخس، وبيّن أنّ أريستاخ كان يعتقد أنّ الشمس هي مركز الكواكب السيّارة، دون أن يذكر إمكانيّة حومان الأرض حول الشمس، الشيء الذي جعل إبراخس بعده يرفض نظريّته ليبدلها بأخرى تقوم على كون الأرض هي مركز العالم وجميع السيّارات تحوم حولها بما في ذلك كوكب الشمس وابراخس المعروف بمؤسس علم الفلك الموضوعي، وضع الأرض بدلا من الشمس في مركز العالم، بعدما اكتشف أهمّ قوانين التّثاقل العام، ورغم أنّه يعلم بأنّ الشمس أكبر من الأرض بكثير فإنّه كان يعتقد بأنّ الأرض هي الجسم الموزون الوحيد في هذا العالم، وحول هذه المسألة علّق البيروني: «وإذا تقرّر هذا من أمر الأثقال، والأرض أعظمها، علم أنّ وقوفها في الوسط ضروري» [البيروني، القانون، ج/ 47 م ـ و ـ ت]. وللمزيد من التوضيح، طالع البيروني نظريّة إبراخس عبر رسالة محمد بن زكريا الرّازي (في سبب وقوف الأرض في مركز العالم).

لكن مع هذا كلّه، أظهر البيروني عدم اقتناعه بمذهب إبراخس الذي تبنّاه فيما بعد تلميذه بطليموس، فلمّح إلى تفوّق نظام أريستاخ بقوله: «. . . ثمّ الذين أنعموا النظر منهم استجازوا من جهة الحركات الموجودة لها أن يكون وضع المتحيّرة كلّها فوق الشمس. . . ولم يقع فيه شيء مستحيل ممتنع من تداخل وتصادم وتمانع. . .» [البيروني، المستقرّ في تحديد معنى الممرّ، 1/ 22 (طبعة حيدرباد الدكن) م ـ و ـ ت]. هذه الإشارة إلى رأي أريستاخ في هيئة العالم، لها أهميّة كبرى في تاريخ العلوم، وعلى عكس ما تروجه بعض المؤلّفات الغربيّة من أنّ أريستاخ قال بحركة الأرض حول الشمس وحول نفسها، وأنّ كتابه المتضمّن لهذه النظريّة قد ضاع، بينما نجد أنّ هذا الأخير كان قد ترجمه إلى العربيّة قسطا بن لوقا وعنه آخذ البيروني، ونفس الكتاب قام بتحريره الطوسي نصير الدّين: (كتاب تحرير أريستاخ في جرمي النيرين). أمّا نظريّة حومان الأرض حول الشمس فلم تكن معلومة البتّة، ولم يذكرها أريستاخ كما يزعم المؤرّخون الغربيّون [تاريخ علوم العرب، 1/ 23 (الطبعة الفرنسيّة 1997)]. صحيح أنّ الفلاسفة العرب أمثال محمد بن زكريا الرّازي، وأبو نصر الفارابي ثمّ ابن سينا والبيروني، نقلوا عن اليونانيين دراسة حركتين للأرض، ذكرهما الفارابي في رسالته: في أنّ الأرض لا تتحرّك في مكانها وعن مكانها، ومعنى هذه الرّسالة يوضّحه البيروني بما فيه الكفاية، ملاحظا أنّه وليد أفكار بطليموس، وهذا الأخير، يقصد بحركتي الأرض، واحدة حول نفسها بدون الانتقال عن مركز العالم، وأخرى التنحّي عن المركز والانتقال على استقامة في الفضاء.

وبفضل مقارنته للنظامين الفلكيين: الشمس مركز العالم والأرض مركز العالم، يكون البيروني قد سبق الإيطالي غاليليو إلى هذه النظريّة، ولا يستبعد أنّ غاليليو تأثّر بدروس

البيروني واقتبس منه عنوان رسالته المشهورة: محاورات حول النّظامين الفلكيين (Dialogue des deux systèmes) والشيء الذي يبعث على الدهشة أنّ البيروني لم يكن راضيا عن نظريّة الأرض مركز العالم، بل علّق بكونها أقرب إلى التصوّر العامي، وبرهن على رأيه هذا، بإثارة مفهوم النسبيّة في العالم وذلك لأوّل مرّة في التاريخ، وتبين هذه النظريّة أنّ الإنسان أينما كان على سطح الأرض أو القمر، يشعر بالحسّ أنّه في وسط العالم. وهذا قول البيروني في النّسبية: «. . . واستبان أنّ العلوّ هو التّباعد عن المركز وأنّ السفل هو الدنوّ منه وإليه أقدام من على وجه الأرض لكن ما حكيناه أوّلا هو أقرب إلى التصوّر العامي، فلهذا يظنّ بما نذهب إليه في وسط العالم أنّه السفل بالحقيقة أنا نأخذه بالأماني والهوى أو نتبعه اتّباع مذهب ورأي معتقد، وإنّما يضطرنا إليه الوجود عند قياس موجب بعض البقاع إلى بعض» [البيروني القانون، 1/ 44 طبعة حيدرباد الدكن 1947 م ـ و ـ ت]. نظريّة النسبيّة في العالم وجدناها أيضا، عند القزويني من علماء القرن الهجري السابع، فليس من العدل أن ننسب هذه النظريّة إلى البولوني كوبرنيكس.

وفي نفس الاتّجاه من بحوثه، حول الشمس مركز العالم، وضع البيروني القوانين الفلكيّة الثّلاثة، المشهورة حاليا باسم قوانين كبلر الألماني؛ فتحدّث عن المدار البيضاوي للكواكب معتمدا على أقوال جعفر الخازن [البيروني، القانون، 2/ 631]. أمّا القانون الثاني فيبدو أنّه اقتبسه من بعض المراجع الهنديّة، قال: «إنّ حركة جميع الكواكب واحدة بالمسافة وإنّها تتحرّك في الأزمان المتساوية مسافات مساوية بالمساحة. . .» [البيروني، نفس المرجع، 3/ 1301]. أمّا القانون الثالث فذكر البيروني أمثلة لاستعماله، فاتّضح لنا أنّه يستعمل لنفس الغرض الذي نجده عند الفلكيّين اليوم [البيروني، المرجع السابق، 1301 ـ 1302]. ومع أنّ البيروني لم يتفطّن إلى نقص هذا القانون، فقد أصاب لما أشار إلى أنّ تطبيق القانون الثالث يتطلّب ضرورة دوران مركزي لجميع السيارات حول الشمس. ومن هذه الضرورة نشأت لأوّل مرّة فرضيّة حومان الأرض حول الشمس، فعلى هذا الأساس اعتمدت المستشرقة زيغريد، وذكرت أنّ البيروني أوّل من قال بحركتي الأرض حول نفسها وحول الشمس [زيغريد، شمس العرب، ط 1993، 153].

والواقع أنّ جملة الأفكار التي أثارها البيروني، تناولها من بعده علماء كثيرون، والحلّ الكامل لم يتحقّق إلاّ في القرن الهجري الثّامن عن طريق ابن الشاطر الذي يعتبر من أهمّ من تتلمذ على دروس البيروني.

أمّا فيما يتعلّق بحركة الأرض حول نفسها، فيكفي أن نقول إنّه لولا البيروني، لضاع عنّا برهان أحمد السجزي على دورانها، ولضاع عنّا أوّل استعمال لقانون تحليل الحركة الذي ينسبه الغربيّون الآن إلى ديكارت الفرنسي [البيروني، المرجع السابق، 1/ 50].

ومن تصريحات البيروني، يتبيّن أنّ سبب عدم قبول القدامى أي حركة للأرض يرجع بالدرجة الأولى إلى قلّة إحكامهم لمبادئ علم الجاذبيّة، لهذا استنجد البيروني بمعارف الفيلسوف الهندي أرجيهد، فوجد ما يقنعه

ومن ثمّة ترك وصيّته حول دوران الأرض: «ليست حركة الأرض دورا بقادحة في علم الهيئة شيئا، بل تطرد أمورها معها على سواء...» [البيروني، تحقيق ما للهند، 232، ط حيدرباد 1958م - و - ت]. وعلى مقتضى هذا الخيار، أصلح البيروني أقوال بطليموس في جاذبيّة الأرض، وعمل بكون الأجسام الموجودة على سطح الأرض أو في جوّها، تعتبر طبيعيًا ملتحمة بها لا تفارقها. وهذا ما قاده إلى وضع قانون الجاذبيّة بقوله إنّ حركة الأجسام المنفصلة نحو الجسم المركزي يقرّرها كبر الجسم المركزي لا ثقل الجسم المتحرّك، وفي كتابه التنجيم قارن البيروني الجاذبيّة الأرضيّة بجاذبيّة بين كرة اصطناعيّة كبيرة ودبيبة صغيرة جدّا تقع عليها، وبصراحة هذه الفكرة يبدو أنّ الخازني لم ينتبه إليها، في حين نسبها إلى نفسه نيوتن الألماني.

وبفضل هذا التّعليل الجديد للجاذبيّة بين الأجسام، لم يمتنع البيروني من تفسير اكتشاف أستاذه أبو الوفاء البوزجاني لاضطراب كوكب القمر، ولئن عبر أبو الوفاء عن هذا الخلل بلفظة: اختلاف القمر La variation فإنّ البيروني كان أدقّ منه حين عبّر عنه باختلاف اختلاف القمر [البيروني، القانون، 2/ 789، طبعة حيدر آباد 1947] ومصطلح «اختلاف اختلاف» يقصد به البيروني التّسارع أو التباطؤ حسب ملاحظات أستاذه البوزجاني: «... وجدنا موضعه [القمر] بالحساب الذي صحّحناه بالاختلافين اللّذين قدمنا ذكرهما في أكثر من ذلك الموضع أو أقلّ منه بنحو من نصف وربع جزء...». ومن غريب الصدف نعاين أنّ إسحاق نيوتن بدوره ترجم نفس المصطلح تقريبا لتعريف تسارع القمر [David Bergamimi, Variation de la Variation, Les Mathématiques, p. 101, ED 1995] ولئن أيّد سيديوت المستشرق الفرنسي هذا الرأي فإنّ بعض المستشرقين في موسوعة رشدي راشد يرفضونه بدون تقديم الحجّة.

أمّا في خصوص شكل الأرض وأخبار أبعاد الأجرام السّماويّة فهي مسائل معلومة، مثل أنّ الأرض كرويّة الشكل وأنّ الشمس أكبر من الأرض، وأنّ الأرض أكبر من القمر وما إلى ذلك، نجده بالتّفصيل في أكثر كتب علماء العرب وحتّى في كتب الغربيّين أمثال كوبرنيكس وتيخوبراهي في القرن السادس عشر ميلادي ولا أحد منهما تعدى محاولات البتّاني أو البيروني، لكن ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ البيروني لم يقتنع بالنّظرية القائلة بأن شكل الأرض كروي بل بيّن أنّ لها شكل البيضة تماما [البيروني، القانون، 1/ 46].

وقد اعتمد البيروني في إنجاز أعماله العلميّة الكثيرة على ما كان متوفّرا في عصره من أدبيات معاصريه، ومن سبقهم من علماء العرب والمسلمين، وغيرهم من علماء الأمم السابقة التي نقلت علومها ومعارفها إلى اللّغة العربيّة، ولا ننسى طبعا أنه ساهم هو نفسه في نقل هذه العلوم والمعارف لمعرفته المعمّقة بالعديد من لغات الشعوب المجاورة والبعيدة. وتميّز أبو الريحان في ذلك كلّه بأمانة النقل، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، فيرجع كلّ معلومة علميّة وكلّ حقيقة يستند إليها في أبحاثه إلى أصحابها الحقيقيّين،

معترفا «لهم بالفضل أو منتقدا ما توصّلوا إليه بأسلوب علمي منطقي ودقيق». وقد عبّر البيروني عما يقتضيه المنهج السليم للنظر في خلفه السلف من «تنزيه النفس عن العوارض الرديئة والأسباب لأصحابها عن الحقّ، وفي ذلك ينبغي ترك التعصّب والتظاهر وأشباه ذلك ابتغاء للحقيقة».

آثاره

وضع البيروني عددا ضخما من المصنفات يتجاوز عددها المائة والعشرين، منها:

1 ـ الآثار الباقية عن القرون الماضية، حققه المستشرق الألماني الدكتور إدوارد سخاو عام 1878، وقد يكون هذا الكتاب من أشهر مؤلّفات هذا العالم وأغزرها مادة، فقد درس فيه: الأيام والشهور والسنين عن الأمم القديمة، والتقاويم وما أدخل عليها من تغيير وتعديلات، وجداول تفصيليّة للأشهر الفارسيّة، والعبريّة، والروميّة، والهنديّة، والتركيّة. وقد بيّن استخراج التواريخ بعضها من بعض، وفيه أيضا جداول لملوك آشور، وبابل، والكلدان، والقبط اليونان، قبل النصرانيّة وبعدها، وكذلك لملوك الفرس قبل الإسلام على اختلاف طبقاتهم. وفي هذا الكتاب فصل عن تسطيح الكرة، ولعلّ هذا الفصل الأوّل من نوعه، وضع فيه: أصول الرسم على سطح الكرة، ولذلك فقد كان له أثر كبير في تقدّم الجغرافيا والرسم. [تراث العرب العلمي، 317؛ استخراج الأوتار في الدائرة، 310]؛ 2 ـ «تاريخ الهند» وفيه درس البيروني لغات أهل الهند وعاداتهم وتقاليدهم. ترجمه «سخاو» إلى الإنجليزيّة، وطبع الأصل في لندن سنة 1887 م، والترجمة سنة 1888م؛ 3 ـ كتاب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم، وقد طبعته دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر أباد الدكن عام 1954 محققا لفظيا؛ 4 ـ استخراج الأوتار في الدائرة بخواصّ الخط المنحني فيها، تح. أحمد سعيد الدمرداش، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر؛ 5 ـ كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، طبعته دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر أباد الدكن سنة 1355 هـ، والتحقيق كان لفظيا وليس علميّا، وكان قد نشره إدوارد سخاو في لندن عام 1887، وطبع من جديد في لندن سنة 1910م؛ 6 ـ رسائل البيروني وهي أربع رسائل. طبعة دائرة المعارف العثمانيّة، بحيدر أباد الدكن عام 1948، والتحقيق لفظي فقط؛ وهذه الرسائل مجموعة نادرة محفوظة؛ 7 ـ كتاب تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، وقد نشر المخطوط كاملا بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي في أنقره عام 1958، كما حقّقه المستشرق الروسي الدكتور بولجاكوف ونشره معهد المخطوطات العربيّة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1962؛ 8 ـ كتاب استيعاب الوجوه الممكنة في صفة الإسطرلاب، وتوجد منه نسخة في خزانة مجلس الشوري الوطني بطهران؛ 9 ـ مقاليد علم الهيئة وما يحدث في بسيطة الكرة، وفيه بحث في شكل الظل، معترفا بفضل أبي الوفاء البوزجاني في استنباط الشكل الظّلي؛ 10 ـ كتاب استشهاد باختلاف الأرصاد، وقد ألّفه البيروني لأنّ أهل الرصد عجزوا عن ضبط أجزاء الدائرة العظمى بأجزاء الدائرة الصغرى؛ 11 ـ كتاب الصيدلة في الطب استقصى فيه معرفة ماهيات الأدوية،

ومعرفة أسمائها، واختلاف آراء المتقدّمين فيها، وما تكلّم كلّ واحد من الأطبّاء وغيرهم فيه، وقد رتّبه على حروف المعجم؛ 12 ـ كتاب الإرشاد في أحكام النّجوم؛ 13 ـ كتاب تكميل زيج حبش بالعلل وتهذيب أعماله بالزلل؛ 14 ـ مقالة في نقل ضواحي الشكل القطاع إلى ما يغني عنه؛ 15 ـ كتاب اختلاف الأقاويل لاستخراج التحاويل؛ 16 ـ كتاب مفتاح علم الهيئة؛ 17 ـ كتاب تهذيب فصول الفرغاني؛ 18 ـ كتاب في تهذيب الأقوال في تصحيح العرض والأطوال؛ 19 ـ مقالة في تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض؛ 20 ـ مقولة في تعيين البلد من العرض والطول كلاهما؛ 21 ـ مقالة في استخراج قدر الأرض برصد انحطاط الأفق عن قمم الجبال؛ 22 ـ كتاب في اختلاف ذوي الفضل في استخراج العرض والميل؛ 23 ـ كتاب إيضاح الأدلّة على كيفيّة سمت القبلة؛ 24 ـ كتاب إستكمال صناعة التسطيح؛ 25 ـ مقالة في استخراج الكعاب والإضطلاع ما وراء من مراتب الحساب؛ 26 ـ مقالة في تصفح كلام أبي سهل الكوهي في الكواكب المنقضية؛ 27 ـ كتاب تصور أمر الفجر والشفق من جهة الشرق والغرب من الأفق؛ 28 ـ كتاب امتحان الشمس؛ 29 ـ كتاب جدول التقويم؛ 30 ـ كتاب جداول الدقائق؛ 31 ـ كتاب رؤية الأهلة؛ 32 ـ كتاب القسي الفلكيّة؛ 33 ـ كتاب كرية السماء؛ 34 ـ كتاب المسائل الهندسيّة؛ 35 ـ كتاب مواقع السمت؛ 36 ـ كتاب إصلاح شكل منلاوس؛ 37 ـ كتاب منازعة أعمال الاسطرلاب؛ 38 ـ كتاب دوائر السماوات في الاسطرلاب؛ 39 ـ كتاب العمل بالاسطرلاب؛ 40 ـ كتاب إفراد المقال في أمر الظلال؛ 41 ـ مقالة في التحليل والتقطيع للتعديل؛ 42 ـ كتاب جمع الطرق السائرة في معرفة أوتار الدائرة؛ 43 ـ كتاب جلاء الأذهان في زيج البتاني؛ 44 ـ كتاب التطبيق إلى تحقيق حركة الشمس؛ 45 ـ كتاب في تحقيق منازل القمر؛ 46 ـ تمهيد المستقرّ لتحقيق معنى الممر؛ 47 ـ كتاب ترجمة ما في براهين سدهانه من طرق الحساب...

المصادر والمراجع

● البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام؛
● الدمرداش، علم الفيزياء عند العرب؛
● فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام؛
● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء؛
● رشدي راشد، تاريخ علوم العرب، ج 1 ـ ج 2 (طبعة فرنسيّة)؛ ● علي بن الأشهر وآخرون، تاريخ العلوم الأساسيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس 1996؛ ● قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيّات والفلك، دار الشروق، القاهرة/بيروت؛ ● جلال شوقي وعلي الدفاع، العلوم الرياضية في الحضارة الإسلاميّة، الجزء الأوّل دار جون وايلي وأبنائه، نيويورك 1925؛ ● رينيه تاتون (إشراف)، تاريخ العلوم العام، ترجمة علي مقلد، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1988؛ ● السويسي، محمد، أدب العلماء في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس: البيروني وعمر الخيام،

تونس 1977هـ/ 1397م، الدار العربية للكتاب.

- Sami K. Hamarneh : The Rise of Professional Pharmacy, Medical History, Vol. 6 (1962), pp. 59-64;
- Origins of Pharmacy and Therapy, The Naito Foundation, Tokyo, Japan, 1973, 42-51, 92-4;
- D.J. Boilot : L'oeuvre d'al - Beruni, Mélanges, Vol. 2 (1955), 12, 161-241 and Vol. 3 (1956), 391-6;
- E.S. Kennedy, D.S.B., Vol. 2 (1970), pp. 147-158;
- H. Beverige, An Unknown Work of Al-Biruni, journal Royal Association Society, 1904, pp. 333-5;
- Julius Ruska, Al-Birúni als Quelle für das Leben und die Schriften al-Razi, Isis, 5 (1923), pp. 16-50;
- Encyclopédie de l'Islam, NED, Leyden - Brill, 1960, pp. 1273-1274.

د. سامي حمارنة
معهد التراث العلمي ـ واشنطن ـ أمريكا
د. علي مصطفى بالاشهر
جامعة الفاتح ـ الجماهيرية
المهندس حسين بن عبد العزيز
تونس

■ ابن بيري، إبراهيم بن حسين بن أحمد

(1023هـ/1614م ـ 1099هـ/1688م) ■ ■ ■

إبراهيم بن حسين بن أحمد بن محمد بن أحمد بن بيري مفتي مكّة وأحد كبار فقهاء الحنفيّة المشهورين، انفرد في الحرمين بعلم الفتوى، ولد بالمدينة المنوّرة سنة 1023هـ/ 1614م. كان مفتي مكة، جاء في خلاصة الأثر: «الشيخ إبراهيم بن حسين بن أحمد بن محمد بن أحمد بن بيري مفتي مكّة أحد أكابر فقهاء الحنفيّة وعلمائهم المشهورين ومن تبحر في العلوم وتحرى في نقل الأحكام وحرّر المسائل وانفرد في الحرمين بعلم الفتوى» [المحبي، خلاصة الأثر، ج 1، ص 19].

كان محبا للمعرفة مولعا بالاطلاع على آراء العلماء حتى أصبحت له شهرة بين فقهاء عصره وصار مرجعا وعمدة. قال المحبي: «وجدّد من مآثر العلم ما دثر له الهمّة العليّة في الانهماك على مطالعة الكتب الفقهيّة وصرف الأوقاف في الاشتغال ومعرفة الفرق والجمع بين المسائل. سارت بذكره الركبان أنّ علماء كلّ إقليم يشيرون إلى جلالته» [م. ن].

أخذ إبراهيم بيري العلم عن كبار علماء عصره مثل عمّه محمد بن بيري وعبد الرحمان المرشدي وعلي بن الجمال وابن علان. قال المحبّي: «أخذ عن عمّه العلامة محمد بن

بيري وشيخ الإسلام عبد الرحمن المرشدي وغيرهما، وقرأ في العربيّة على علي بن الجمال وأخذ الحديث عن ابن علان، وأجازه كثير من المشايخ، وكتب له بالإجازة جمع من شيوخ الحنفيّة بمصر، واجتهد حتّى صار فريد عصره» [خلاصة الأثر، م1، ص 19].

تعلّم عن ابن بيري كثير من العلماء مثل الحسن بن علي العجيمي، وتاج الدين الدهان وكثير غيرهما. قال المحبّي: «وأجاز كثيرا من العلماء ومنهم شيخنا الحسن بن علي العجيمي وتاج الدين الدهان... وكثيرا من الوافدين إلى مكّة» [خلاصة الأثر، م1، ص 19 ـ 20].

جمع إبراهيم بن بيري بين المشيخة في العلم والافتاء حيث تولّى الافتاء في مكّة المكرّمة على المذهب الحنفي وله عديد المؤلفات. قال كحالة: «إبراهيم بن حسين بن أحمد بن محمد بن أحمد بن بيري الحنفي مفتي مكة ولد وتوفي بالمدينة، مؤلفاته ورسائله كثيرة تنيف على سبعين» [م.س، ج1، ص 22]. وذكر صاحب خلاصة الأثر أنّ ابن بيري تولى هذه المهمّة لمدّة ثم عزل عنها لمّا تولّى شرافة مكّة الشريف بركات لما كان بين ابن بيري ومحمد بن سليمان المغربي من عدم الوفاق. قال: «وولي إفتاءها ـ مكة ـ سنين ثم عزل عنها لمّا تولّى شرافة مكّة الشريف بركات لما كان بين المترجم وبين محمد بن سليمان المغربي من عدم الألفة. وكانت أمور الحرمين في أوّل دولة الشريف بركات منوطة به والشريف بمنزلة الصفر الحافظ لمرتبة العدد وكان له ولد نجيب مات في حياته» [م.ن، ص 20].

توفّي إبراهيم بن الحسين بن بيري سنة تسع وتسعين وألف جاء في خلاصة الأثر: «وتوفي يوم الأحد سادس عشر شوال سنة تسع وتسعين وألف وصلّى عليه عصر يومه بالمسجد الحرام ودفن بالمعلاة بقرب تربة السيدة خديجة رضي الله عنها» [م.س، ص 20].

■ آثاره

1 ـ الإتحاف بالأحاديث الواردة في فضل الطواف؛ 2 ـ إزلة الضنك في المراد من يوم الشك؛ 3 ـ الاستدلال في حكم الاستبدال؛ 4 ـ إظهار الكنز المخفي في عدم ضمان الصيرفي؛ 5 ـ إعلاء الرتب في حكم الإيثار بالقرب؛ 6 ـ إفراغ الجهد في دعوى اليد إنالة الأرب في حكم استعمال أواني الفضة والذهب؛ 7 ـ بلوغ الأرب في بيان أرضي الحجاز وجزيرة العرب؛ 8 ـ تبليغ الأمل في عدم جواز التقليد بعد العمل؛ 9 ـ رفع الضلال في بيان حكم التعزيز بأخذ المال؛ 10 ـ السؤال والمراد في جواز استعمال المسك والعنبر والزباد؛ 11 ـ السيف المسلول في جواز دفع الزكاة لآل الرسول؛ 12 ـ شرح تصحيح القدوري لابن قطلوبغا؛ 13 ـ شرح المنسك الصغير برحمة الله؛ 14 ـ شرح منظومة ابن الشحنة؛ 15 ـ شرح الموطأ للشيباني؛ 16 ـ عمدة ذوي البصائر بحلّ مهمّات الأشباه والنظائر لابن نجيم في الفروع؛ 17 ـ الفوائد المهمّة الفريدة في إيضاح الألفاظ الغريبة؛ 18 ـ القول الأزهر فيما يفتي به بقول الإمام زفر؛ 19 ـ القول البات في إيصال الثواب للأموات؛ 20 ـ القول التام في عدم انفساخ الدار

المستأجرة بالانهدام؛ 21 ـ القول السار في حكم فناء الدار؛ 22 ـ القول الصواب في حكم الباب بمنقول الأصحاب؛ 23 ـ القول الفاصل الماضي في بيان حكم عزل السلطان للقاضي؛ 24 ـ اللمعة في حكم صلاة الأربع بعد الجمعة؛ 25 ـ النقول المنيفة في حكم شرف ولد الشريفة؛ 26 ـ الواضح من النقول في حكم الفراغ والنزول؛ 27 ـ الوثيق من العروة في بيان أقسام الرشوة [البغدادي، هدية العارفين، ج5، ص 34].

وقدم صاحب خلاصة الأثر بعض التوضيح حول أسماء المؤلفين للمؤلّفات التي شرحها ابن بيري في عرض قائمة مؤلفاته قال: "ومع ذلك فهو مجدّ في الاشتغال بالمطالعة والتحرير وله مؤلفات ورسائل كثيرة تنيف عن سبعين".

من هذا الكمّ من المؤلّفات المنسوبة إلى إبراهيم بن حسن بن بيري ذكر الكشاف أربع منها قال: «السيف المسلول في دفع الصدقة لآل الرسول للشيخ إبراهيم بن حسين بن أحمد بن محمد بن بيري الحنفي المفتي بمكّة (ت 1099هـ) تسع وتسعين وألف» [البغدادي، إيضاح المكنون، م4، ص 36]. وعمدة ذوي البصائر بحل مبهمات الأشباه والنظائر المنسوبة لأبي نجيح في الفقه تأليف إبراهيم بن حسين بن محمد بن أحمد الحنفي المعروف بابن بيري مفتي مكة المعظمة (ت 1099هـ) تسع وتسعين وألف أوّلها: الحمد لله الذي أعلى منارة الفقهاء [إيضاح المكنون، م.ن، ص 121]. وشرح الموطأ، شرحه إبراهيم بن حسين بن بيري الحنفي المفتي بمكّة (ت 1099 هـ) تسع وتسعين وألف [م.ن، ص 606]. النقول المنيفة في حكم شرف ولد الشريفة لابن بيري إبراهيم بن حسين المفتي بمكة [م.ن، ص 676]. إنّ هذا العدد من التآليف يدلّ على اهتمام ابن بيري بكبرى قضايا مجتمعه في أمور الدين ممّا مكّنه من أن يكون مفتيا ناجحا ومعلّما قادرا ومؤلفا متمكّنا.

■ المصادر والمراجع

● المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، م1، دار صادر بيروت؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج4، دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ ● البغدادي، هدية العارفين، ج6، دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ ● إيضاح المكنون، ج4، دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج1، دار إحياء التراث بيروت؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم، ج1، دار العلم للملايين، بيروت.

د. حزاث بوعلاّقي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن محمد، محيي الدين أحمد (الملقب بـ «بيري ريس»)

(ت 958هـ/ 1552م)

هو محيي الدين أحمد بن محمد الملقّب «بيري رئيس»، عالم ملاحة، وقائد البحريّة المصريّة والأسطول المصري في عصر الخلافة العثمانيّة، اشتهر في القرن العاشر الهجري / السّادس عشر الميلادي بالبراعة في البحريّة، وفنون القتال البحري، ويعدّ علامة مميّزة في تاريخ علم الجغرافيا، والفلك، ورسم الخرائط.

ولد بمدينة كاليبولي التّركيّة الواقعة على خليج بحر إيجه، وهي ميناء هامّ كان المركز الإداري للبحريّة العثمانيّة. لا يعرف تاريخ مولده بالضّبط إلاّ أنّ المؤرّخين يرون أنه ولد بين 871هـ/ 1465م و 876هـ / 1470م. نشأ في أسرة عرفت بالعسكريّة، فقد كان أبوه الحاج محمد وعمّه من رجال البحريّة العاملين في أسطول الرّئيس كمال. وكان عمّه قد عمل بحّارا وهو في الحادية عشرة من عمره، ثمّ التحق بخدمة الأسطول العثماني مع الرّئيس كمال ما بين عامي 893هـ/ 1487م و899هـ/ 1493م حيث اشترك في الكثير من المعارك البحريّة ضدّ البرتغال والأسبان، قام فيها بالاستيلاء على بعض الموانئ والإغارة على سواحل جنوب فرنسا، وسردينيا، وكورسيكا. ولقد اشترك الرّئيس كمال في حركة نصرة مسلمي غرناطة عندما طلب أهلها العون والمساعدة من الدّولة العثمانيّة ضدّ الظّلم الواقع عليهم من القوط عام 892هـ/ 1486م.

فقاد سفنا عثمانيّة تطوّعت لذلك، وتوجّه بها إلى غرب البحر المتوسّط. ولمّا مات الرّئيس كمال خلفه في القيادة خير الدين الّذي اشتهر في أوروبا باسم بارباروس.

وكان بيري رئيس قد اشترك مع عمّه في الحرب البحريّة الطّويلة الّتي دارت بين العثمانيّين والبنادقة من عام 904هـ/ 1498م حتّى 908هـ/ 1502م، وقد استفاد بيري من هذا خبرة حربيّة بحريّة كبيرة حصل بها عام 906هـ/ 1500م على لقب «ريّس» ومكّنه ذلك من قيادة سفينة عسكريّة أثناء حصار العثمانيّين لقلعة مودون، وهي واحدة من أهمّ قلاع مدينة البندقيّة. وعندما توفّي عمّه عام 917هـ/ 1511م هجر بيري رئيس البحر وعاد إلى كليبولي حيث انكبّ على رسم الخرائط فترة من الوقت، ثمّ عاد لينضمّ إلى أسطول القائد البحري العثماني خير الدين برباروس.

وعندما نجح خير الدين في الاستيلاء على مركب فرنسي كبير وأراد إرساله إلى إستانبول مع بعض الهدايا إلى السّلطان العثماني ليعلمه بنشاطه في البحر المتوسّط، لم يجد خير الدين غير الرّئيس بيري رسولا إلى إستانبول. فأعجب السّلطان بايزيد الثّاني ببيري، وأنعم عليه بسفينتين. ثمّ ضمّه السّلطان إلى القوّات البحريّة النّظاميّة العثمانيّة فلم يعد بحّارا متطوّعا. وعندما عاد كليبولي عام 919هـ/ 1513م أتمّ رسم خريطة العالم وقدّمها إلى

السّلطان سليم الأوّل الّذي كان قد اعتلى العرش، واشترك معه بيري رئيس في العمليّات العسكريّة للدّولة أثناء الحرب العثمانيّة الّتي قادها السّلطان عامي 923هـ/ 1517م ـ 924هـ/ 1518م ضدّ المماليك في بلاد الشام ومصر. كما اشترك في الفتح العثماني لمصر ورسم خريطة لمصبّ نهر النّيل. وبدأ في تلك الآونة تأليف كتابه الشّهير البحريّة. وعندما اعتلى السّلطان سليمان القانوني العرش انضمّ مرّة أخرى إلى خدمة الأسطول العثماني عام 927هـ/ 1521م.

وفي عام 930هـ/ 1524م ظهر تمرّد ضدّ اليد الطّولى العثمانيّة في مصر، فاصطحب الصّدر الأعظم العثماني إبراهيم باشا معه الرّئيس بيري مرشدا له إلى مصر، في زيارته لها لكي يحلّ الخلاف الّذي قام بين واليها ودفتر دارها، فتحرّك من العاصمة العثمانيّة بأسطول قوامه عشر سفن حربيّة لإخماد هذا التّمرّد. ولكنّ العواصف جعلت السّفن تجنح وألجأتها إلى شواطئ رودس، ثمّ نقلت الحملة برّا عن طريق الشام. وأثناء الطّريق وجد بيري رئيس الفرصة مواتية ليكمل ملاحظاته الّتي ضمّنها كتابه البحريّة، وعند عودته إلى إستانبول كان قد أتمّ الكتاب فقدّمه إلى السّلطان سليمان القانوني وضمّنه الخريطة الثّانية للعالم، الّتي أطلق عليها اسم خريطة أمريكا الشّماليّة ولكن للأسف لم يصل إلينا منها إلاّ قطعة.

وأثناء زيارة الصّدر الأعظم إبراهيم باشا لمصر أعطاه سلمان ـ وكان قبطانا تركيّا يعمل في مصر ـ تقريرا هامّا يقول فيه: «إنّ البرتغاليّين قد استولوا على تجارة منطقة الخليج العربي وحرموا الأهالي هناك من العمل بها، بل إنّهم أخذوا الموادّ التّجاريّة هناك وأرسلوها إلى بلادهم وأنّ هؤلاء البرتغاليّين يتحكّمون في تجارة البهارات، وأنّهم استولوا أيضا على تجارة الخليج العربي مع الهند والبلاد الأخرى، وأنّ هؤلاء البرتغاليّين قد بعثوا بأسطول قويّ إلى مياه الهند، وقال الرّيّس سلمان في هذا التّقرير إنّ من الممكن بسهولة إنهاء النّفوذ البرتغالي هناك». بعد ذلك بمدّة صدر مرسوم بتعيين فرهاد بك قائد الأسطول البحري المصري واليا على اليمن، ومرسوم آخر بتعيين بيري رئيس محلّه، قائدا للقوّات البحريّة المصريّة العثمانيّة، وكان هذا التّعيين عام 953هـ/ 1547م.

أبحر الرّيّس بيري من ميناء السّويس عام، 957هـ/ 1551م، بمنصبه الجديد وفتح ميناء عدن واستولى على قلعتها بعد هجوم بحري عنيف، وترك فيها حامية بريّة وعاد إلى السّويس، فأعجب ذلك كلاّ من داود باشا والي مصر، وكذلك السّلطان العثماني في إستانبول.

وقد دفع هذا النّجاح البحري بيري، إلى أن يقوم في نفس العام، بقيادة ثلاثين سفينة من مختلف الأحجام، من أسطول مصر البحري؛ وتوجّه إلى جدّة، ثمّ إلى عدن؛ ثمّ تمكّن من فتح قلعة مسقط، ثمّ حاصر هرمز وضربها ضربا شديدا بالمدافع؛ لكنّ المقاومة البرتغاليّة كانت أشدّ، وبالتّالي استعصت هرمز على الفتح بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى منه. فاتّجه الرّيّس بيري بأسطوله هذا من مياه هرمز إلى البصرة ومكث هناك مدّة. وإذا به يعلم فجأة أنّ الأسطول البرتغالي في طريقه

إلى البصرة، ولم يكن يتوقّع هذا، ولم يكن يملك القوّة البحريّة الكافية لمواجهته فأسرع بالانسحاب من مياه البصرة بثلاث سفن كانت هي القريبة من أوامره، ولم يتمكّن من استدعاء بقيّة سفنه الّتي كانت تتجوّل في مياه الخليج. وأمام ميناء البحرين تحطّمت واحدة من سفنه الثّلاث وغرقت، وعاد إلى قاعدته مصر بسفينتين فقط عليهما ما استطاع نقله من غنائم معاركه في الخليج قبل انسحابه.

ترتّب على انسحاب بيري رئيس وخسارته أمام البرتغاليّين أن أرسل قوباز باشا رسالة إلى والي مصر يخبره بالواقعة، وبأنّ بيري رئيس قد ترك السّفن الباقية من أسطوله تواجه مصيرها، فقام والي مصر بدوره بإبلاغ النّبأ إلى إستانبول، وقال أيضا في بلاغه إنّه قبض على بيري رئيس بعد عودته إلى السّويس. فجاء ردّ إستانبول سريعا وحاسما: «يأمر السّلطان سليمان بدقّ عنق قائد البحريّة الرّيّس بيري، وتصادر كلّ ثروته لصالح بيت المال»، وعلى ذلك أعدم في مصر عام 958هـ/ 1552م، وكان قد بلغ من العمر حوالي ثمانين سنة.

■ آثاره

تعود شهرة بيري ريس العلميّة إلى أنّه قدّم أهمّ عمل خرائطي عثماني يشمل خارطة للعالم، اعتمد في وضعها على 34 خريطة منها عشرون من عهد بطليموس وما بعده، وثمانية منها كانت خرائط تسمّى جعفريّة من صنع جغرافيّين مسلمين، وأربعة منها كانت خرائط جديدة رسمها البرتغاليّون وإحداها كانت خريطة كولومبوس المفقودة الّتي كانت بصحبة أحد البحّارة الأسبان الّذين صحبوا كولومبوس ووقع أسيرا في يد الرّيّس كمال وتعرّف عليه بيري رئيس وأفاد منه في نقل هذه الخريطة. وقد قدّم بيري رئيس خريطته إلى السّلطان سليم في مصر عام 933هـ/ 1527م. وهي الخريطة الّتي وصلت إلينا كاملة تظهر فيها سواحل غربي أوروبا وشمال غربي إفريقيا ووسط أمريكا وجنوب غربيها، وبيّن فيها الأنهار والجبال مميّزا إيّاها بالخطوط والألوان، كما رسم بعض الحيوانات والنّباتات في المناطق الزّراعيّة ممّا أكسبها أهميّة اقتصاديّة. ومن أهمّ خصائصها الدقّة في بيان التّضاريس والمنهج العملي الّذي يذكر فيه: «أنا أعرف معنى الخطأ في الخرائط فأيّ خطأ وإن كان صغيرا سوف يجعلنا نفقد الثّقة في الخريطة ولا نعتمد عليها».

أمّا الخريطة الثّانية وهي أشهر خرائطه فهي الخريطة الّتي قدّمها إلى السّلطان سليمان القانوني مع كتابه «البحريّة» تظهر جزءا من الأمريكتين، وهي أوّل خريطة دقيقة عن العالم الجديد ترسم بهذا الشّكل. وقد اتّبع فيها بيري ريس المنهج السّابق، إلاّ أنّه كان أكثر دقّة في إبراز تعرّجات السّواحل والخلجان لشمال الأطلنطي ووسط أمريكا وجزر الكاريبي بلغت من الدقّة ما يطابق الخرائط الحديثة، وقد أثبت فيها بيري رئيس وجود خمسة مراكز بارزة على المحيط الأطلنطي، بعد أن حوّل جميع الخرائط إلى مقياس رسم واحد، كما رسم جبالا على شكل كروكي والأنهار مبيّنة بخطوط سميكة. أمّا المناطق المنخفضة فقد وضّحت بنقط

حمراء، ولون المدن والقلاع باللّون الأحمر، والأماكن الخالية من النّاس بخطوط. كما استعمل وردتي بوصلة واحدة في الشّمال والأخرى في الجنوب، بدلا من خطوط الطّول والعرض، وجعل كلّ وردة مقسّمة إلى 32 جزءا. أمّا الخطوط الّتي تمتدّ بين أقطار الوردتين والمقاييس فتستخدم في قياس المسافات بين الموانئ. وممّا يؤسف له أنّ هذه الخريطة لم تصلنا إلاّ قطعة تبلغ 68/ 69 سم.

وأخيرا يأتي كتابه «البحريّة» الّذي اشتمل على كافّة ملاحظات بيري ريس الّتي دوّنها أثناء سفره والّتي وصف فيها سواحل البحر المتوسّط وبحر إيجه، والبلاد، والموانئ الواقعة عليهما، كما تناول اكتشافات البرتغال وتفاصيل لم تكن معروفة عن قصّة كولومبوس، كما عرض لعادات وتقاليد الصّين.

وله من الأعمال المحقّقة:

Terçuman Gaz, 1973. - Kitab Bahriyye, Peri Reis. - حققه Yavuz Senem Oglu, ونشرته جريدة الترجمان تحت عنوان: Kitab Bahriyye, Terçuman Gaz 1973.

المصادر والمراجع

- محمد حرب، العثمانيّون في التّاريخ والحضارة، القاهرة، 1994م؛ ● محمد حرب، الدّولة العثمانيّة: تاريخ وحضارة، ج 2، مركز الأبحاث للتّاريخ والثّقافة والفنون، منظّمة المؤتمر الإسلامي، إستانبول، 1999م.
- Islam Ensiklopedisi, Muhiddin Mad., Sevim Tekeli, Piri Reis, Ankara, 1997.

أ. د. محمد عبد اللّطيف هريدي
جامعة القاهرة

البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد

(568هـ/1172م - 685هـ/1286م)

عبد الله [عمر، امتحان الأذكياء، 7؛ علي، بروكلمان، 738، I .S] بن عمر بن محمد بن علي أبو الخير [المطري، 206ب؛ السبكي، 5/ 59] أبو سعيد [كشف الظنون، 1/ 186] أبو سعد [بروكلمان، 738، I .s]، ناصر الدين البيضاوي الأشعري الشافعي، قاضي القضاة، الشيخ العلاّمة، المفسّر الأصولي، الفقيه، المتكلّم، النحوي، المتصوّف.

لم تمدّنا المصادر بذكر تفاصيل حياة البيضاوي، فلم تذكر سنة ولادته ولا مكانها ولم تهتمّ بنشاطه إلاّ بملاحظات بدت هنا وهناك كانت هي الأساس في إعطاء فكرة

عامّة عن حياة هذا الشيخ. ذكر الإسنوي أنه من قرية يقال لها البيضاء من عمل شيراز بفارس [طبقات الإسنوي، 1/ 259]. انتقل مع أبيه إمام الدين أبي القاسم عُمَر (675هـ/ 1276م) إلى شيراز عندما عيّنه أبو بكر بن سعد، حاكم فارس، قاضي القضاة بها، ثمّ استقرّ بتبريز حيث كانت وفاته.

ويتعذّر تعيين تاريخ وفاة البيضاوي بالدقّة المطلوبة لأن المصادر اختلفت في ذلك على قرابة ثمانية أقوال تقع بين سنتي 681هـ/ 1282 و719هـ/ 1319م. وأورد المطري (765هـ/ 1363م) تاريخين هما: 691هـ/ 1291م ومحرّم 692هـ/ 1292م أخبره بالأخير عمر بن عبد الرحمن سراج الدين القزويني (745هـ/ 1344م) صاحب «الكشف على الكشاف»، مؤكدا على ذلك بقوله: "بيقين"، وهو التاريخ الذي ذكره اليافعي (768هـ/ 1366م) [مرآة، 4/ 220]. والذي عليه الأكثرون وتبنّاه الباحثون المتأخرون أن وفاة البيضاوي كانت بتبريز سنة 685هـ/ 1286م [الصفدي، ابن كثير، السيوطي، الزحيلي] ودفن إلى جانب شيخه الكحتائي [كشف الظنون، 1/ 187].

يظهر أن شيوخ البيضاوي كانوا متعدّدين، جمع في الأخذ عنهم بين العلوم النّقلية والعلوم العقلية، لكن الذين دوّنوا حياة هذا العلم لم يهتموا باستعراضهم كما مرّ، إلاّ ما كان من الإمام عبد الله بن محمّد المطري (765هـ/ 1363م) في الذيل الذي وضعه على طبقات الفقهاء الشافعية لابن كثير، فإنه قد أطنب في ذكر عدد منهم. ونظرًا إلى عدم اعتماد الباحثين هذا الكتاب المخطوط في التعريف بالبيضاوي. ونظرا إلى تفرّد المطري باستعراض شيوخ البيضاوي على النحو الذي فعله، فإنه من المفيد إيراد ما ذكره المطري في الموضوع. يقول المطري: تفقّه (يعني البيضاوي) بأبيه، وتفقّه والده بالعلاّمة مجير الدين محمود بن أبي المبارك البغدادي الشافعي، وتفقّه مجير الدين بالإمام معين الدين أبي سعيد منصور بن عمر الرزاز البغدادي، وتفقّه هو بالإمام زين الدين أبي حامد الغزالي، وتفقّه هو بالإمام ضياء الدين أبي المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمّد عبد الله بن يوسف السنبسي(؟) الطائي المعروف بإمام (هكذا) الحرمين بسنده المعروف إلى الشافعي، وتفقه القاضي ناصر الدين أيضًا، مشاركا لأبيه في التفقّه بالعلاّمة الأوحد مخلص الدين أبي أحمد معمر بن عبد الواحد بن الفاخر القرشي العبشمي الاصبهاني. وسمع منه الحديث كثيرا وأجاز له.

وسمع من أبي أحمد عبد الوهاب بن علي بن سكينة الصوفي البغدادي.

قلت: وإسناده عن هذين الشيخين فيه نظر، لأن مخلص الدين معمر بن الفاخر توفي سنة أربع وستين وخمسمائة، وعبد الوهاب بن سكينة توفي سنة ستّ وستّمائة. وإنما رأيت سماعه عنهما في التعريف بخطّ الشيخ معين الدين أحمد بن أبي الخير بن الحسين بن مودود سبط الشيخ زركوب(؟) الشيرازي يرويه عن شيخه العلامة تاج الدين محمد بن إبراهيم البكري الزنجاني عن القاضي ناصر الدين. كتب إليّ بذلك من شيراز في سنة ستّ وأربعين وسبعمائة والله أعلم.

وتفقّه القاضي ناصر الدين أيضًا بالإمام شرف الدين زكيّ البوشجاني، وهو تفقه بالشيخ المفتي كريم الدين أبي ميمون الرشيد بن أحمد الشاشي.

وأخذ القاضي ناصر الدين أيضًا من الإمام العلاّمة تقيّ الدين أفضى القضاة أبي الحسن علي بن الحسن بن أحمد الشيرازي. وتفقّه هو وأخذ العلم والحديث عن الإمام العلاّمة رضيّ الدين عليّ بن عليّ بن سعادة بن الحنبس الفارقي، وهو عن الإمام عدة الدين أبي منصور محمد بن أسعد العطاري الطوسي المعروف بحفَدة.

ويروي القاضي ناصر الدين أيضًا عن الشيخ نجم الدين عبد الواحد، عن الشيخ موفق الدين الكازرياتي، عن أبي الفرج مسعود بن الحسن الثقفي.

ويروي أيضًا عن العلاّمة قاضي القضاة سراج الدين أبي العزّ مكرم بن العلا بن نصر الفالي، وهو عن الإمام فخر الدين أبو (هكذا) عبد الله نصر بن عليّ المعروف بأبي مريم، وهو عن تاج القرّاء أبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني، عن أبي سهل محمد بن عبد الرحمن بن أبي الفضل النيسابوري، عن الإمام أبي الحسن الواحدي.

وذكر الخوانساري أنّ البيضاوي لازم الشيخ الكيخاني [روضات، 435؛ في حاشية الشهاب، 1/ 2: الكحتائي، في كشف الظنون، 1/ 187: محمد بن محمد الكحتائي] وكان من أهل الذوق والعرفان.

إن معظم هؤلاء الشيوخ غير معروفين رغم الألقاب السامية التي أُسندت إليهم. وكأن البيضاوي لم يقم برحلته العلميّة كغيره من العلماء فلم تذكر المصادر أنّه التقى بمشاهير علماء عصره في سائر البلاد الإسلامية، ولعلّ ذلك يعود إلى الأوضاع السيّئة التي كان يعيشها العالم الإسلامي شرقا وغربا في ذلك العصر.

وتبيّن من استعراض هؤلاء الشيوخ أنّه تكوّن على أساتذة برزوا في العلوم الشرعية والنقلية والروحية كذلك، وإن كان يتعذر أخذه عن بعضهم كالعبشمي (564هـ/ 1168م) وابن سكينة «المطري» (606هـ/ 1209م) وشهاب الدين السهروردي (ت 587هـ/ 1191م) بسبب تقدّم وفاتهم، كما يستبعد أخذه عن نصير الدين الطوسي (672هـ/ 1273م) لمعاصرته له، غير أنه شرح كتابه الفصول في علم الفلك والهيئة [هدية العارفين، 1/ 463].

لم تمدّنا المصادر بتلاميذ البيضاوي إلاّ ما كان من إشارات عابرة أثناء بعض الترجمات. ولا شكّ أن الذين تلقّوا عنه كثر ممّا جعل اليافعي يقول: «وتخرّج به أئمة كبار» [مرآة الجنان، 4/ 220]. وممّا تمّ تصيّده من تلاميذ البيضاوي نذكر: كمال الدين عمر بن الياس المراغي (كان موجودا سنة 729هـ/ 1329م) [الخوانساري، 436]، أحمد بن الحسن الجاربرديّ (746هـ/ 1345م) شارح منهاج البيضاوي [مفتاح السعادة، 1/ 142]؛ زين الدين الهنكي [السبكي، مفتاح السعادة، 6/ 108؛ الهبكي، 1/ 211؛] عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني [الزحيلي، 47]؛ جمال الدين العاني (المطري)؛ قوام الدين مسعود بن

محمد الخبيصي الكرماني (المطري) وكان عالما في الفقه والنحو والأصلين واللغة؛ تاج الدين محمد بن إبراهيم البكري الزنجاني (721هـ/ 1321م) شارح الطوالع والغاية القصوى ومصباح الأرواح وكذلك المنهاج للبيضاوي [هدية العارفين، 2/ 144]. وكما نلاحظ فإن هؤلاء التلاميذ لم ينالوا الحظّ من الشهرة المتوقّعة.

إن شخصية البيضاوي تبدو غامضة، وقد تكون متناقضة. فبينما يظهر من خلال ترجمة الخوانساريّ حريصًا على التقرّب من السلطان المغولي ليحقق رغبته في تولّي القضاء بإهدائه كتابه في التفسير، وفي رواية يرفع هذا الكتاب على علم طويل والطواف به حتّى تقع عين السلطان عليه، أو بالتوسّل بالمقرّبين من السلطان [روضات الجنات، 435]، نرى المطري يجعله من أهل الكرامات والأخلاق الرفيعة [المطري، 211 ب ـ 212 أ]. كما وصفه السبكي بكونه صالحا، متعبّدا، زاهدًا [طبقات، 5/ 59]. ولعلّه قد صار الى ذلك بعدما التقى بالشيخ الكحتائي المتصوّف، الزاهد ولازمه فتغيّر بذلك منهج حياته [كشف الظنون، 1/ 187].

تنحصر نشاطات البيضاوي في ثلاثة أمور: التدريس، القضاء، التأليف.

أ ـ التدريس: لا معلومات لدينا عن هذا المجال إلاّ ما لاحظه بعضهم من وفرة من تخرّج على يد البيضاوي من الطلبة، وقد تمّ فيم سبق ذكر بعضهم.

ب ـ القضاء: لا نملك معلومات ضافية عن نشاط البيضاوي فيه، وما علمناه من ذلك أنه تولّى خطّة قاضي القضاة كأبيه وجدّه [المطري]. اتّفق مترجموه على تولّيه قضاء شيراز، وانفرد الخوانساري بذكر طلبه قضاء البيضاء من السلطان أرغون المغولي معلّلا طلبه بقوله: «لكي أترفّع به بين أهل دياري الذين كانوا ينظرون إليّ بعين التحقير» [روضات، 435]. فهل كان ذلك بعدما صُرف عن قضاء شيراز الذي لم يبق فيه سوى ستّة أشهر [الزحيلي، 58] فأراد أن يستعيد مكانته بتولّيه قضاء البيضاء .

وذكر المطري أنّه كان مشاركا في قضاء شيراز لمجد الدين القالي وكان بينهما شيء في ذلك.

وما لبث البيضاوي أن ترك القضاء زاهدا فيه متأثرا بكلام الشيخ الكحتاني، من رجال التصوّف والعرفان، ليبقى زمنا في خدمة ذلك الشيخ [روضات، 435].

ج ـ التأليف: فاق عدد كتب البيضاوي العشرين مؤلفا [الزحيلي، 78] موزّعة على عدّة اختصاصات: التفسير، الأصول، الفقه، أصول الدين وغيرها من العلوم كالحديث والتاريخ، والنحو، والمنطق، وعلم الفلك والهيئة والتصوّف.

1 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ألّفه على ما يبدو بعد ما انتقل إلى تبريز بإشارة من الشيخ الكحتائي. اقتفى البيضاوي في هذا الكتاب آثار الجماعة، معتمدا الصفوة من روايات الصحابة والتابعين والسلف الصالح، وأبرز ما في القرآن من نكت ولطائف مما استنبطه ومن قبله من المحققين، كما اهتمّ فيه بذكر وجوه

القراءات، المشهور منها والشواذّ [أنوار التنزيل، 1/ 6]. وقد ضمّ إلى هذا معالم منهج جديد ابتدأه الفخر الرازي، « وأورثه أخلافه من بعده، رجالَ الأصلين، أصول الدين وأصول الفقه» [التفسير ورجاله، 95]، والبيضاوي أحدهم. والناظر في هذا التفسير يلاحظ اعتماده الكبير على الكشاف للزمخشري ومفاتيح الغيب للرازي، كما يتبيّن أثر كتاب مفردات الأصبهاني بوضوح. وممّا حبّب للناس هذا التفسير أنّ مؤلّفه جمع فيه ما تفرّق عند السابقين وخلّصه من الشوائب العقدية وإن كان قد ساير الزمخشري في بعضها [التفسير ورجاله، 98؛ الإتحاف بتمييز ما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف، محمد بن يوسف الشامي].

وضبط العاملي أقوالا للبيضاوي متناقضة في التفسير [الكشكول محمد بهاء الدين العاملي، دار الكتاب اللبناني، ط. أولى، 1403هـ/ 1983م، 1/ 174] من ذلك انه ذكر في سورة هود (الآية 97) أن التوراة كانت قبل إغراق فرعون، وقال في سورة المؤمنين (الآية 46) نقيض ذلك. وذكر في سورة مريم (الآية 54) أنّ الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، وقال في سورة الحجّ (الآية 52) نقيض ذلك. وممّن انتقد البيضاوي أيضًا ومعه الزمخشري أحمد بن إسماعيل الكوراني (893هـ/ 1487م) في كتابه: «غاية الأماني في تفسير الكلام الربّاني» [مكتبة السليمانية، خالد أفندي، رقم 26]. وقد ردّ مجهول على هذا الكتاب في رسالة بعنوان: «الفتوحات الربانية في دفع الشبهات القرآنية» [لا له لي، رقم 5/ 3653]. وآخذ البيضاوي بكونه أورد الأحاديث الضعيفة وخاصّة تلك التي في فضل الآيات والسور ممّا أتى به في آخر تفسير كلّ سورة، وقد التمس بعضهم له الأعذار في ذلك [كشف الظنون، 1/ 188] ولعلّ هذا مما حمل العلماء على الاهتمام بتخريج أحاديث التفسير كما فعل عبد الرؤوف المناوي، نشر أحمد مجيبي بن نذير السلفي، الرياض، 1409 .

انتشر هذا الكتاب عبر العصور وتعدّدت حواشيه والتعليقات عليه ومختصراته [انظر كشف الظنون، 1/ 188 ـ 194؛ Brockelmann, S, 1, 738 - 741]. ومن أشهر الحواشي المؤلفة عليه حاشية مصطفى بن إبراهيم المشهور بابن التمجيد (842هـ/ 1438م)، [ط. إستانبول، 1283]؛ حاشية محمد بن عبد الوهّاب المعروف بشيخ زادة (975هـ/ 1568م) [ط. القاهرة 1271]؛ حاشية شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (1069هـ/ 1659م) وعنوانها: عناية القاضي وكفاية الراضي [ط. بولاق، القاهرة 1283] ومن المفسرين الذين اعتمدوا البيضاوي في تفسيره أبو الثناء محمود بن عبد الله الآلوسي (1270هـ/ 1854م)، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (1393هـ/ 1973م). وقد ترجم أجزاء منه إلى اللغة الإنجليزية بعض الباحثين الغربيين [A. Rippin, II, 8].

2 ـ منهاج الوصول إلى علم الأصول، كتاب مختصر في أصول الفقه جمع فيه مؤلفه بين المشروع والمعقول. فاقت شروحه الثلاثين شرحا منها: شرح تلميذ البيضاوي وهو أحمد بن حسن الجاربرديّ (746هـ/ 1345م) وعنوانه: السراج الوهّاج [نشر أكرم بن محمد أوزيكا، الرياض (1416هـ/ 1996م)، وشرح جمال الدين الإسنوي (772هـ/ 1370م)

بعنوان: نهاية السول في شرح منهاج الأصول، وهو من أشهر الشروح، ط. القاهرة، 1343هـ]. وقد اهتمّ الإسنوي في هذا الشرح بتوضيح معاني المنهاج ونبّه على ما وقع فيه البيضاوي من الغلط في النقل أو خالف فيه كلام بعض الأئمة كالآمدي وابن الحاجب [نهاية السول، 3].

وكتاب المنهاج مأخوذ من كتاب الحاصل للأرموي (656 هـ/ 1258م) الملخّص من كتاب المحصول للرازي (606هـ/ 1209م). وهكذا نرى تأثير الرازي في البيضاوي حاضرا كذلك في أصول الفقه.

واهتمّ عدد من العلماء بتخريج أحاديث المنهاج [انظر شروح المنهاج وغير ذلك في: القاضي البيضاوي، الزحيلي، 110 ـ 117]؛
3 ـ الغاية القصوى في دراية الفتوى؛ وهو في فروع الشافعية، مختصر من كتاب: الوسيط المحيط بأقطار البسيط للغزالي. ولم يحظ هذا الكتاب، على أهمّيته، بما حظي به تفسير البيضاوي ولا كتابه: المنهاج، ولعلّ ذلك يعود إلى انتشار مولفات الإمام النووي (676هـ/ 1277م) في هذا الفنّ [الزحيلي، 9]. ومع ذلك فقد ظهرت للكتاب عدّة شروح منها: شرح عبد الله (عبيد الله) بن محمد الفرغاني (743هـ/ 1342م) [مكتبة متحف طوب قابي سراي، قسم كوغوشلار، رقم 76؛ نشر الكتاب بتحقيق علي محيي الدين الكره داغي، القاهرة، 1402هـ/ 1982م].

وشرح الكتاب أيضًا بدر الدين محمد بن أسعد التستري (735هـ/ 1334م) [مكتبة متحف طوب قابي سراي، قسم أحمد الثالث، رقم 1059]؛ كما نذكر شرح محبّ الدين علي بن محمّد بن دقيق العيد(716هـ/ 1316م) [نفس المكتبة، قصر روان، رقم 648].

4 ـ طوالع الأنوار من مطالع الأنظار، وهو في علم الكلام، أقامه البيضاوي على منهج مستحدث، التبست فيه مسائل الكلام بمسائل الفلسفة، فتجاوز بذلك طريقة المتأخرين من علماء الكلام كما قرّرها أبو بكر الباقلاّني وأبو المعالي الجويني [مقدّمة ابن خلدون، الفصل العاشر، في علم الكلام، 465 ـ 466].

اختصر البيضاوي كتابه هذا في كتاب مصباح الأرواح [كشف الظنون، 2/ 1704]، وضعت على هذا الكتاب شروح وحواش. من ذلك شرح شمس الدين بن محمود الأصفهاني (749هـ/ 1348م) سماه: مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار. وعلى هذا الشرح حاشية للشريف الجرجاني (816هـ/ 1413م) [كشف الظنون، 2/ 1116 ـ 1117؛ القاضي البيضاوي، 157].

لم يقتصر البيضاوي في كتابه على ترديد مقالة السابقين بل كانت له مواقف شخصية وسلك فيه مسلك المنهج النقدي [ناصر الدين البيضاوي وآراؤه الكلامية، 247 ـ 248]؛
5 ـ كتاب تحفة الأبرار، وهو شرح كتاب مصابيح السنة للإمام حسين بن مسعود الفراء البغوي (516هـ/ 1122م). [أخطأ بروكلمان، 743، I، S] إذ نسب للبيضاوي شرح كتاب مشكاة المصابيح، فهذا الكتاب قد كمّل به محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي (737هـ/ 1396م) كتاب مصابيح

السنة، والخطيب التبريزي متأخر على البيضاوي؛ 6 ـ كتاب لبّ الألباب في علم الإعراب، وهو مختصر كتاب الكافية في النحو لعثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (646هـ/ 1248م). وقد ضمّن البيضاوي مختصره استدراكات على ابن الحاجب.

عني العلماء بهذا المختصر وشرحوه، من ذلك شرح محمد بن بير عليّ المعروف ببركلي (أو البركوي) (981هـ/ 1573م) وعنوانه: امتحان الأذكياء (مطبعة حجرية، الآستانة، 1271)؛ 7 ـ كتاب نظام التواريخ؛ وهو كتاب يتناول أهمّ الأحداث التاريخيّة منذ آدم عليه السلام إلى أيّام الكاتب، فذكر تاريخ الأنبياء، وتكلّم عن دولة الأمويين، والعباسيين، والسامانيين، والغزنويين، والديلميين، والسلاجقة، والمغول. ألّفه باللغة الفارسية وترجم إلى اللغة التركية من قبل مصطفى بن عبد الرحمن بأمر من السلطان العثماني محمد الثالث وسمّي: أنيس الملك. كما ترجمه إلى التركية أبو الفضل محمد أفندي البتليسي.

وللبيضاوي مؤلفات في علوم أخرى. من ذلك: 8 ـ شرح مطالع الأنوار لسراج الدين الأرموي (682هـ/ 1283م) وهو في المنطق؛ 9 ـ شرح الفصول لنصير الدين الطوسي (672هـ/ 1273م) وهو في علم الفلك والهيئة؛ 10 ـ رسالة في موضوعات العلوم وتعريفها.

إن أغلب مؤلفات البيضاوي كانت إمّا مختصرات أو شروحا لكتب الآخرين، ولا يعتبر ذلك نقطة ضعف في هذا الإنتاج إذ إنّ طبيعة الظروف السائدة في تلك الفترة قد دعت إلى ظهور مثل هذا النوع من التأليف. لقد عبثت الأيدي بالمكتبات، واندثر عدد من الكتب فكان لا بدّ من إيجاد وسيلة لتعويض ما فقد منها، ومن اختصار ما بقي ليسهل تلقيه والإلمام به، مع الحرص على توفير شروح تقوم مقام الشيوخ إن تعذّر الجلوس إليهم.

وهذه المهمّة لا يضطلع بها إلاّ من كان ذا اطّلاع واسع، وفكر حصيف، والبيضاوي ممّن توفّر فيهم ذلك، فقد كانت لديه القدرة على استيعاب المسائل، والغوص فيها، والتفوّق في بيان معمّياتها، يثبت ذلك مشاركاته في المناظرات العلميّة وتفوّقه فيها [السبكي، 5/ 59]، واصطفاؤه مع بعض العلماء أمثاله كالحسين بن يوسف بن المطهّر الحلّي (726هـ/ 1325م) ليكون في مجلس السلطان محمد المغولي الملقّب بشاه خدا بنده [روضات الجناة، 175].

ولولا أن مؤلفات البيضاوي كانت ذات قيمة عالمية لما اهتمّ بها العلماء في حياته وفي العصور اللاحقة.

■ آثاره

1 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، طبعات متعددة [القاضي البيضاوي للزحيلي، ص 139]، ط. بولاق، مصر، 1282 ـ 1283؛ 2 ـ تحفة الأبرار، مخطوط السليمانية، الحاج بشير آغا رقم 149؛ الفاح، رقم 968؛ حسن حسني باشا، رقم 235؛ 3 ـ طوالع الأنوار، ط. القاهرة 1411هـ/ 1991م [بروكلمان، 742، I، S]؛ 4 ـ الغاية القصوى، تح. علي محيي الدين علي القره داغي، دار النصر للطباعة الإسلامية بمصر 1982؛ 5 ـ لبّ الألباب،

إستانبول 1270، مخ، دار الكتب المصريّة بالقاهرة، رقم 640 نحو تيمور، ورقم 364 نحو؛ 6 ـ منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى [بروكلمان، 743، I، S]؛ 7 ـ منهاج الوصول إلى علم الأصول، ضبطه وحققه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة 1951م [بروكلمان، 741، I، S]؛ 8 ـ مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام [بروكلمان، 743، I، S]؛ 9 ـ نظام التواريخ، بالفارسية: نشر السيد منصور، حيدر آباد، 1930، بالتركية، ترجمة مصطفى بن عبد الرحمن، المكتبة السليمانية، الحميدية رقم 8، مجهول جامعة إستانبول، الكتابات التركية.

المصادر والمراجع

● الإسنوي، جمال الدين عبد الرحيم، طبقات الشافعية، تح. عبد الله الجبوري، ط. اولى، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1390هـ/ 1970م، 1391هـ/ 1971م، جزءان؛ ● البشري، عبد الرحمن، البيضاوي ومنهجه في التفسير، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1404؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، إستانبول 1955؛ ● جلال بن عبد الرحمن، القاضي ناصر الدين البيضاوي وأثره في أصول الفقه، القاهرة 1401هـ/ 1981م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، مكتبة المثنى، بيروت؛ ● الخوانساري، محمد باقر الموسوي، روضات الجنّات، ط. ثانية، 1347؛ ● الزحيلي، محمد القاضي البيضاوي، ط. اولى، دار القلم، دمشق 1408هـ/ 1988م؛ ● السبكي، عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، ط. اولى، المطبعة الحسينية، مصر 1324، 3 مجلّدات، 6 أجزاء؛ ● السعفي، حمودة، ناصر الدين البيضاوي وآراؤه الكلامية والفلسفية، مرقونة، جامعة الزيتونة، تونس 1402هـ/ 1982م؛ ● السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. اولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1384هـ/ 1965م، جزءان؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز ستايز بفيسبادن 1401هـ/ 1981م؛ ● طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة، مراجعة وتحقيق كامل كامل بكري، عبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، 3 أجزاء؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، التفسير ورجاله، دار الكتب الشرقية، تونس 1966؛ ● عباس محمود حسين سليمان، تصنيف العلوم بين ناصر الدين الطوسي وناصر الدين البيضاوي، بيروت 1996؛ ● ابن العماد، عبد الحي، شذرات الذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت د.ت، 4 مج.، 8 أجزاء؛ ● فاندي، سعيد سالم سعيد، التفسير بين البيضاوي وابن عرفة، مرقونة، جامعة الزيتونة، تونس 1415هـ/ 1995م؛ ● ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، ط. اولى، مكتبة المعارف، بيروت، 1966؛

● المطوي، عبد الله بن محمد بن أحمد، ذيل طبقات الفقهاء الشافعية لابن كثير، مخ. رقم 6448، دار الكتب الوطنية، تونس؛ ● اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان، ط. أولى، حيدر آباد الدكن، 1337 ـ 1339، 4 أجزاء؛ ● دائرة المعارف الإسلامية باللغة العربية، فصل البيضاوي، بقلم بروكلمان، 4/ 418 ـ 419؛

- Encyclopédie de l'Islam: AL-BAYDAWI. J.ROBSON, I 2, 1163;
- Encyclopaedia Iranica: BAYZAWI. E. KOHLBERG, New York, 1990, IV, 15-17;
- Islam Ansiklopedisi: Beyzavi
- Yusuf Sevki Yavuz, Türkiye Diyanet Vakfi, istanbul, 1992, VI, 100-103;
- The Encyclopaedia of Religion: Baydâwî, Andrew Rippin, New york, 1987, II, 85-86;
- Brockelmann, Geschichte, Brill, 1937, S, I, 738-743.

د. أحمد أوزال
الموسوعة الإسلامية ـ إسطنبول
د. هند شلبي
جامعة الزيتونة ـ تونس

البيطار، أبو بكر بن بدر الدين

(ت نحو 741 هـ/1340م)

ورد اسمه في بعض المصادر أبو بكر بن البدر المنذر [كحالة، الأعلام، 2/ 70؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم 6، ص 568]، والواقع أن كلمة «المنذر» هي تحريف لكلمة «البدر». ولد بمصر في الربع الأخير من القرن السابع الهجري تقديرا، ونشأ في أسرة اشتهرت بالبيطرة، فهو يروي عن عمّه الجمّال محمود حادثة استطاع فيها إنقاذ حياة فرس غالية لأحد الأمراء. أما والده بدر الدين فكان بيطريا بارعا ذكر عنه الكثير من التجارب والمشاهدات البيطرية العلمية. كلف أبو بكر البيطار بتدبير أمور الخيل في الإسطبلات السلطانية، مما أتاح له مرافقة السلطان الناصر محمد في تنقلاته وأسفاره وحروبه فتجول في بلاد الشام والجزيرة العربية واستفاد من خبرات البياطرة الذين صادفهم بالإضافة الى ما قرأه وسمعه من المصادر اليونانية والعربية المكتوبة ومشاهداته المستمرّة الواسعة، مما أهّله لاكتساب خبرة رائعة ومهارة عظيمة فاصبح كبير البياطرة لدى السلطان الناصر. ولعدم وجود ترجمة يُعوَّل عليها سوى ما ذكره عن نفسه في مصنفه الهام «كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة» قُدِّرت وفاته في عام (741هـ) نسبة إلى وفاة ربيبه السلطان الناصر.

استحدث أبو بكر بن بدر الدين لإدارة الإسطبلات وظيفة (ناظر الإسطبلات) وموضوعها: الحديث في أموال الإسطبلات والمناخات وعليقها وأرزاق من فيها من المستخدمين وما بها من الاستعمالات والإطلاق [ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 9/ 166]، وقد امتلك السلطان الناصر ثلاثة آلاف فرس كانت موجودة في المراعي، أما في الإسطبلات السلطانية فكان يوجد أكثر من أربعة آلاف فرس ممّا أدّى إلى ظهور طبقة جديدة ثرية استفادت ماديا من تجارة بيع وشراء الخيول، وكما يقول (ابن تغري بردي): «كان يكرم العرب ويبذل لهم الرغائب في خيولهم، فكان إذا سمع العربان بفرس عند بدوي أخذوها منه بأغلى القيمة، وأخذوا من السلطان مثلي ما دفعوا فيها.. فعظم العرب في أيامه لجلب الخيل، وشمل الغنى عامتهم ولبسوا في أيامه الحرير الأطلس المعدني... ولم يكن لبسهم قبل ذلك الا الخشن من الثياب على عادة العرب» [النجوم الزاهرة، 9/ 170]، واشتهرت مدينة القاهرة بوجود أسواق تجارية متخصّصة لمنتجات ذات علاقة بالفروسية، كما يذكر المؤرخ تقي الدين المقريزي؛ منها «سوق السلاح» يُباع فيه السلاح من القِسيّ والنشّاب والزرديات وغير ذلك، و«سوق المهامزين» مُعدّ لبيع المهاميز المصنوعة من الحديد أو الذهب، و«سوق اللّجميين» ويباع فيه آلات اللُجُم ونحوها مما يصنع من الجلد وكذلك السروج المتنوّعة [المقريزي، الخطط المقريزية، 2/ 97 ـ 198].

آثاره

ـ كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة، وهو كتابه الوحيد، ويعتبر من أهمّ ما نشر في الثلث الأول من القرن الثامن الهجري في العلوم البيطرية وتربية الخيول وصفه حاجي خليفة: «من أفضل ما جمع في فضائل الخيل وأنسابها ونعوتها وشياتها وألوانها وأعمارها وأخلاقها وعاداتها وأعلافها» [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1368]؛ ويوجد من هذا الكتاب نسخ مخطوطة عديدة في مكتبات العالم المتخصصة، معظمها يحمل اسم «كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة»، وبعضها يحمل عنوان «كاشف هم الويل في معرفة أمراض الخيل»، كما يعرف عادة بالناصري [بروكلمان، 6/ 568] أو «القنطير» أو «فن البيطرة وأشكال الخيل» [حمارنة، فهرس الظاهرية، 350]. والمقصود بكامل الصناعتين، أن البيطرة صناعة (صنعة أي فن) وكذلك الزردقة (الزرطقة)، فقد كان العرب يطلقون كلمة الصناعة على كل ما يحتاج الى مهارة ذهنية ويدوية ومن بين ذلك الطب، فعلم البيطرة Hippiatree: يبحث فيه عن أحوال الخيل من جهة ما يصحّ ويمرض أو تحفظ صحته ويزال مرضه وهذا في الخيل بمنزلة الطب في الانسان.

أما الزردقة (الزرطقة) Hippologie فهي كلمة مولدة تعني علم تربية الخيل في تعليمها وسائر لوازمها، فالبيطرة تهتمّ بالنواحي الصحّية والطبية للحيوان، والزردقة تختصّ بالنواحي التربوية للحيوان وتقنيته، وعرف الكتاب أيضا بـ «الناصري» لأن المؤلف كتبه لخزانة الملك الناصر (محمد بن قلاوون) حيث يقول في مقدمته «فأحببت ان أجمع لخزانته كتابا كاملا شافيا لجميع ما يحتاج إليه من أراد علم البيطرة والزردقة والفروسية، ولم أغفل عن شيء مما يحتاج إليه في ذلك». ويتألف

الكتاب من جزأين: جزء نظري (علمي) ويضمّ خمس مقالات تبحث في الجهاد وأنساب الخيل وأعمارها وأخلاقها وعاداتها وتكوينها الجسماني من العروق والعظام والمفاصل وتأديبها وأضمارها وأعلافها ووضعها الخارجي وكسوتها، وكذلك في معرفة ألوانها وصفاتها وأصواتها وعيوب أعضائها من الرأس حتى الذنب، ثم يخصص المقالة الخامسة للأمراض والأعلال التي تصيبها وهي تمهيد للجزء الثاني: أي جزء البيطرة العملي المخصص للمداواة حيث يورد تشخيصًا دقيقًا للأمراض العديدة مثل: البرص، والبهق، والجرب، والجراحات المختلفة... التي قد تصيب مختلف أعضاء وأجزاء جسم الخيل، أما المقالة التاسعة فمخصصة لأنواع الأدوية ومقاديرها المستخدمة في المعالجات مثل: اللُّطوخات والضمادات والذرورات والحُقن وغيرها، ولم يُغْفِل المؤلف أدقّ التفاصيل في كلّ ما يتعلّق بالمعالجات الدوائية والجراحية، فهو يصوّر أشكال وأنواع المكاوي (ج. مكواة) المستخدمة لعلاج خلع المفاصل والإخصاء، كما يعرض مثلا صورة لأداة معدنية لقلع الضرس الزائد ويسمّيه «ضرس الفضول»، يعرض للحيوان فيمنعه من العلف وبالتالي يؤثر على صحته، ويفرق بينه وبين «الضرس الزائد» وهو الناب الذي ينبت في موضع واحد هو الحنك العلوي فقط. إنّ هذا الكتاب يعتبر موسوعة في الطبّ البيطري تضمّ كلّ ما يخصّ الخيل في ذلك العصر من مداواة وجراحة وتوليد ويتميز بالدقة العلمية وهو مرتب وشامل في بحثه يثبت حصافة المؤلف وخبرته الواسعة في أحوال الخيل وكل ما يتعلّق بصحّتها وشؤون تربيتها وتدريبها.

ومن الأبواب الهامه التي يعرض فيها المؤلف الوصايا التي ينبغي للبياطرة أن يلتزموا بها: «أن يحسنوا لمعلّميهم، ويحسنوا مكافأتهم ويشكروهم على فعلهم وتعليمهم، بالإحسان لهم، والترحم عليهم» [كامل الصناعتين، 2/ 14]. كما يوصيهم بالتقوى والمروءة والخلق الحسن «وأن يكونوا محافظين على صلواتهم، فاعلين للخير في جميع أوقاتهم، وإذا رأى صاحب حيوان فقير، وصف له ما يصلح له من غير أن يأخذ منه شيئا».

ويلفت النظر أيضًا الحس الإنساني العميق الذي يجب أن يتمتّع به البيطري، ويؤكّد عليه أبو بكر البيطار في العديد من أبواب كتابه، منها أن الفرس يشارك الإنسان في بعض الأمراض مثل: الطرَش، الرُعاف، وَرَم اللثة... وغيرها. ومن ثمّ وجب أن يكون البيطار خبيرا لطيفا رحيما في معالجاته لأن الخيل تتّصف حسب قوله برقة الأبدان، كما يوصي ألاّ تُضْرب في كلّ وقت بالسوط: «فإنك متى فعلت ذلك في كلّ وقت سقطت نفسه وحَرَنَ وزاغ»، وكذلك «إياك أن تنخسه في وقت حبسك له أو تضربه فيعتاد بذلك المنازعة»، فتربية الخيول وترويضها تحتاج لصفات معيّنة من المروض فَصَّلها أبو بكر البيطار في كتابه، الذي قام بترجمته الى الفرنسية [بيرون Perron] في القرن التاسع عشر اعتمادا على المخطوطة المحفوظة في دار الكتب الوطنية في باريس، ونُشِرت الترجمة في ثلاثة مجلدات ضخمة صدر أولها عام 1852، وهو يحتوي على تمهيد ومقدمة استعرض فيها بيرون كلّ ما يتعلّق بالفروسية العربية من عادات وتقاليد، وتحدّث عن مرحلة

المماليك في مصر، وركّز على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون فأسهب في شرح التدريبات العسكرية والتدابير الخاصة في السباقات والألعاب، وتهيئة الخيول لأجل الحرب ممّا ورد عند المؤرخين العرب، وكذلك عن منشآت وميادين الفروسية، ومن خلال المعطيات التقليدية للكتّاب والمؤلفين العرب تناول الحصان العربي وأنواعه، ثمّ انتقاله من الجزيرة العربية إلى كافة البلدان العربية والأوروبية، واهتمام العرب بسلالات الخيول وعلم أنساب الخيل. ثم صدر المجلد الثاني عام 1859 وهو في علم الخيل (Hippologie) ويتضمّن ترجمة المقالات من (1 ـ 4)، وتبعه المجلد الثالث في عام 1860 وهو في علم البيطرة (Hippiatrie) ويضمّ ترجمة بقية المقالات من 5 ـ 10، وبسبب عدم استعانة بيرون بمهني مختص يتقن اللغة العربية، فإن عمله لازمه الكثير من الأخطاء والشكوك ممّا أدى إلى اعتبارها ترجمة غير أمينةكما أوضح المستشرق الالماني (فروهنر R. Froehner) [كامل الصناعتين، 1/ 3].

المصادر والمراجع

● البيطار، أبو بكر البدر، كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة المعروف بالناصري، تح. عبد الرحمن إبريق، منشورات جامعة حلب، 1413 هـ/ 1993م، معهد التراث العلمي العربي؛ ● ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 9، القاهرة، 1951، مطبعة دار الكتب المصرية؛ ● الانطاكي، داود بن عمر، تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، بيروت د. ت، المكتبة الثقافية؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، (مترجم إلى العربية)، القسم السادس، القاهرة 1995، الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بيروت 1413هـ/ 1992م، دار الكتب العلمية؛ ● حمارنة، سامي خلف، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الطب والصيدلة، دمشق ـ 1389 هـ/ 1967م مطبعة الترقي، ● حمارنة، سامي خلف، تاريخ الصيدلة والطب العربي، القاهرة 1967 م، مطبعة دار التجليد الفني؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة 14، بيروت، 1999 م، 2/ 70، دار العلم للملايين؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت د. ت، مكتبة المثنى ودار احياء التراث العربي؛

- Leclainche, Emanuel, Histoire Illustrée de la Médecine Vétérinaire, Office du livre, Toulouse, 1936.
- M. Perron, La Nacerie, La Perfection Des Deux Arts, Au Titre Complet D'hippologie et D'hippiatrie, 3 Volumes, Paris, 1852-60.

د. محمد فؤاد الذاكري

باحث في التراث العلمي العربي

حلب ـ سوريا

البيطار، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم

(1253هـ/1837م - 1335هـ/1916م)

العلامة المؤرخ المصلح الأديب الشيخ عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم، من أسرة البيطار المعروفة في دمشق، يقال إنها قدمت من المغرب.

ولد في حيّ الميدان، موطن أسرته بدمشق. كان والده الشيخ حسن البيطار من جلة علماء دمشق، وكانت له منزلة سنيّة في بلده وخارجها، وكان له أربعة من الأولاد كلّهم كانوا من أهل العلم والفضل، أكبرهم الشيخ محمد، وكان من جلّة علماء دمشق وقد تبوّأ منصب أمين الفتوى بها ما يزيد على ثلاثين سنة. وثانيهم الشيخ عبد الغني، كان من العلماء المقرئين. وثالثهم الشيخ عبد الرزاق، ورابعهم الشيخ سليم، وكان كإخوته منصرفا إلى العلم و التفقّه في أمور الدين.

اتجه الشيخ عبد الرزاق منذ حداثة سنّه إلى التحصيل العلمي، فكان يحضر مجلس الشيخ الملاّ أبي بكر، وبعد أن أجاد القراءة والكتابة حفظ القرآن الكريم مع تجويده على يد شيخ قرّاء الشام آنئذ الشيخ أحمد الحلواني. على أنّ أستاذه الأوّل كان والده الشيخ حسن، فقد حفظ على يديه المتون في مبادئ العلوم. ولمّا توفي والده سنة 1272هـ لازم الشيخ عبد الرزاق أخاه الشيخ المقرئ عبد الغني، فأخذ عنه علم القراءات. وكان للشيخ محمد الطنطاوي (ت 1306هـ) اليد الطولى في إتمامه علوم الشريعة، وأخذ عنه إلى جانب ذلك علم الميقات والحساب والفلك.

ومن شيوخه كذلك الشيخ يوسف بدر الدين الحسني، والد علاّمة الشّام الشيخ محمد بدر الدين الحسني. وقد قال عنه المترجم في حلية البشر: «وقد أجازني بجميع ما تجوز له روايته عن مشايخه العظام وقادته الكرام، وقد انتفعت بفوائده، وارتضعت من ثدي عوائده. وأجازني أيضا بسند عال ينتهي فيه إلى القاضي شمهورش عن النبي صلّى الله عليه وسلّم. وكان كثير الالتفات إليّ، حسن الثناء عليّ، يذاكرني في مشكلات المسائل، ويعرض لي لأتولّى جواب أجلى الرسائل. وكان يطلب منّي كثيرا قراءة حصة من القرآن، على طريقة التجويد والاتقان». [حلية البشر، 3/ 1607].

وقد تحدّث الشيخ البيطار عن جميع شيوخه في برنامجه فقال: «وإنني بحمد الله، قد أخذت عن مشايخ كثيرين، واتصّل سندي بهم بسيّد المرسلين، سيّدنا محمد، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين. منهم، بل أفضلهم لدي، وأجلّهم منة علي، سيدي الوالد الشيخ حسن بن إبراهيم بن حسن البيطار، تغمّده الله برحمته...» ثم أخذ يعدّد شيوخه وما أخذ عنهم، ومنهم شقيقه الشيخ محمد، وأخوه الشيخ عبد الغني، ومحمد عمر الغزي مفتي الشافعية، والشيخ عبد الغني

الميداني، وخطيب الجامع الأزهر الشيخ إبراهيم السقا، والشيخ سليم العطار، وغيرهم. ثم ختم حديثه عن مشايخه بقوله: «وإن الجميع، بحمد الله، قد أجازوا لي بالإجازة العامة بما تجوز لهم روايته عن مشايخهم الكرام وأساتذتهم السّادة العظام، من جميع الكتب والفنون والعلوم الشرعية والحديثيّة والتفسيريّة والآليّة».

وقد قامت بينه وبين الأمير عبد القادر الجزائري ـ الذي اختار دمشق وطنا له بعد إخفاق ثورته ـ صداقة وطيدة، وكان البيطار يلازمه، وحين كان الناس يحتكمون إلى الأمير في بعض شؤونهم كان يحيل بعض القضايا إلى الشيخ عبد الرزاق ليفصل فيها، فيكون قوله الفصل. وقد قرأ عليه الأمير جملة من الكتب منها «الفتوحات المكية» وعهد إليه تربية أولاده وتعليمهم، ومنذ ذلك الحين انعقدت أواصر الصداقة بين الأمير محيي الدين ابن الأمير عبد القادر، وبين الشيخ البيطار.

ومنذ أن تمّت للشيخ عبد الرزاق أدوات العلم والتدريس تصدّى لتدريس العلوم الشرعية، وكان يلقي دروسه العامة في جامع كريم الدين المعروف بجامع الدقّاق في حيّ الميدان، موطن أسرته، وكان يلقي دروسه الخاصّة في حجرته المخصّصة له في ذلك الجامع وكذلك منزله، وكانت دروسه تتناول الفقه والحديث والتفسير، وكان والده الشيخ حسن البيطار على التدريس والخطابة فيه، ومنهم الشيخ محمد بهجة البيطار حفيد المترجم.

كان الشيخ عبد الرزاق يجري في تعاليمه ودروسه على طريقة شيوخ عصره، وكان ذلك العصر عصر جمود فكري، يسيطر فيه على عقول الناس نفر من الشيوخ البعيدين في تفكيرهم وآرائهم الدينيّة عن جوهر الدين، وكان الاجتهاد في أمور الدين أمرا غير سائغ في نظرهم، ومن هنا كانوا يعارضون الأئمّة المجتهدين من أمثال محمد عبده والشيخ رشيد رضا وأمثالهما، وحين قدم الشيخ رشيد رضا إلى دمشق أثاروا عليه العامة وألصقوا به تهمة الخروج عن الدين، فاضطرّ إلى أن يعود إلى مصر من غده، تلك كانت هي الأفكار السائدة في زمن الشيخ البيطار، وكانت الدولة العثمانية تشجّع هذا التخلّف الفكري، ولا تنظر بعين الرّضى إلى أفكار التجديد والتنوير، لأن يقظة البلاد العربية من شأنها أن تؤدّي إلى رفض الهيمنة العثمانية، وقد عاشت بلاد الشام في ظل هذه الهيمنة أربعة قرون، فلم يسع الشيخ البيطار إلاّ السّير في ركاب هؤلاء الشيوخ في تدريسه وتعاليمه وظلّ على هذا حتّى الخمسين من عمره، حسبما يذكر حفيده الشيخ بهجة البيطار، ونجد في بعض تراجمه في كتابه «حلية البشر» مديحا وثناء على السلطان عبد الحميد ودعاء لدولته بطول البقاء، نحو قوله في ترجمة الأمير محيي الدين الجزائري: «حضرة مولانا بهجة الأنام وروح جسم الليالي والأيام، السلطان عبد الحميد خان، أيّد الله صولته وأيّد دولته» [حلية البشر، 7/ 1443].

ثمّ شاء الله أن يفتح بصيرة الشيخ على حقائق الدين، ويبصّره بأمور الجهالات والضلالات التي سادت في زمنه، ولعلّ لتعاليم الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا وأمثالهما من المصلحين أثرها في هذه الصحوة. فإذا به

ينقلب مصلحا دينيا ينفر من الضلالات ويتشبّث بأقوال السلف الصالح، فلا يرضى عن قول إذا لم يدعمه دليل الكتاب أو السنّة، ويصدع بما يراه حقّا ولا يبالي بسخط من يخالفه في نهجه الإصلاحي، ولهذا كثر أعداؤه والناقمون عليه ممّن عشّشت في عقولهم الضلالات، فأخذوا يدسّون له ويرمونه بالتهم الباطلة، فاتّهم هو وصديقه جمال الدين القاسمي وجماعة من العلماء المتنوّرين بأنّهم يجتهدون في أمور الدين، وكان الاجتهاد في ذلك الحين أمرا منكرا، وأنهم يفسرون القرآن والحديث برأيهم، وأخذوا يؤلّبون عليه ولاة السلطة العثمانية فأشاعوا أنّه أنشأ مذهبا جديدا يخالف ما عليه الناس، وأنه يعمل في أمور سياسيّة تخالف سياسة الدولة العثمانية، فاتّهم سنة 1324هـ بأنّه يريد تسليم سورية لنجد ومصر للإنكليز، ولكن والي سورية إذ ذاك شكري باشا كان رجلا عاقلا، فاستدعاه ليسأله عمّا يشاع عنه، فقال له: «وهل سورية ومصر، يا حضرة الوالي، تفاحتان في جيبي حتى أسلّمهما؟ ثم إن كان في إمكاني أن أتصرّف بهما وأسلمهما لغيري، فلم لا أبقيهما لنفسي؟ ووراء ذلك فإن كان يتيسّر لمثلي تسليمهما فرجل أقدر مني يسلم البلاد العثمانية كلّها للأجانب، وأين الحكومة وقوّتها؟». فطمأنه الوالي إلى أنّه لم يصدّق ما نقل إليه من وشايات كاذبة، ودعاه إلى الإفطار معه، وكان ذلك في شهر رمضان من عام 1324هـ.

وقد فتّشت داره وكتبه مرات، علّهم يعثرون على أوراق تدلّ على عدائه للسلطة، فخاب أملهم ولم يجدوا عنده ما يبتغون.

لقد ظلّ منذ صحوته الدينية والفكرية ينشر أفكاره الإصلاحية ولا يعبأ بما يلاقيه من عداوة المتشبّثين بالأفكار الرجعيّة وجامدي العقول حتى وافاه أجله في العاشر من ربيع الأوّل سنة 1335هـ/ 1916م.

قام الشيخ البيطار أثناء حياته برحلات إلى مدن عدّة، منها القاهرة والآستانة والقدس وبيروت، وكانت رحلته إلى القاهرة سنة 1321هـ/ 1903م، وكان رفيقه في هذه الرحلة صديقه الحميم الذي لازمه طوال حياته وتتلمذ له، وهو الشيخ جمال الدين القاسمي، وكانت هذه الرحلة مناسبة لالتقائه كبار العلماء في مصر، فقد لقي الشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، وغيرهما، وذكرت الصحف المصرية نبأ حضورهما إلى القاهرة.

وقد أعجب الشيخ محمد عبده بالشيخ البيطار ولقيه بمزيد من الإجلال والتوقير، وكانا بعد ذلك يتبادلان الرسائل، وقد تحدّث عن صداقتهما الشيخ محمد بهجة البيطار فقال: «أخبرني عمّ والدي المفضال، شقيق المترجم الشيخ محمد سليم البيطار، أنهم لّما كانوا في مصر سنة 1321هـ، كان مفتي الديار المصرية الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، رحمه الله تعالى، يجلّ الأستاذ المرحوم، أي الشيخ عبد الرزاق، كثيرا، ولا يتقدّمه أبدا، حتى ظنّ بعض أفاضل العلماء في مصر بأنّ الأستاذ الإمام قد تلقّى العلم عن المرحوم، أيّام كان في بلاد الشام» [مقدّمة كتاب حلية البشر].

وقد قام الشيخ عبد الرزاق بزيارة الآستانة ـ إستنبول ـ أكثر من مرّة، زارها مرّة تلبية لدعوة وجّهها إليه صديقه الأمير محيي الدين الجزائري، ابن الأمير عبد القادر، وكانت

بينهما صداقة وطيدة منذ كان الأمير مقيما في دمشق، ولمّا استقرّ بالآستانة استجابة لطلب السلطان عبد الحميد فأرسل إلى صديقه الشيخ عبد الرزاق يدعوه إلى زيارته وأرسل إليه نفقات سفره ونفقات عياله، فشدّ الشيخ عبد الرزاق الرّحال إليه سنة 1306هـ/ 1888م، فاحتفى به الأمير أعظم احتفاء واستبقاه في الآستانة عاما كاملا.

ثمّ قام برحلة أخرى إلى الآستانة عام1315هـ، وزيارة أخرى عام 1324هـ، وفي أثنائها عرضت عليه مشيخة الإسلام أن يتولّى الإفتاء أو القضاء في أيّ مدينة يختارها من مدن سورية، فاعتذر من عدم قبول ذلك، لزهده في الوظائف العامة وإيثاره الانصراف إلى التدريس وطلب العلم، وقام برحلة أخرى إلى الآستانة عام 1326هـ بعد خلع السلطان عبد الحميد وتولّي محمد الخامس بعده، فقد أوفد أهل دمشق نخبة من علمائها لمبايعة السلطان الجديد وتهنئته، وكان المترجم في عداد هذا الوفد.

جرى الشيخ عبد الرزاق على الأسلوب الذي كان شائعا في زمنه وقبل عصره بقرون، من التزام السجع والمبالغة في الوصف والإطراء والتمجيد، والعناية بتزويق الكلام وتزيينه والتأنق في اختيار الألفاظ، مع جودة لغته. وقد خضع النثر الأدبي العربي لهذه القيود اللفظية زهاء عشرة قرون. فأسلوب الشيخ عبد الرزاق، وهو في القرن الثالث عشر، لا يكاد يختلف اختلافا كبيرا عن أسلوب الكتّاب في القرون الماضية.

وشهد له العلامة الأمير شكيب أرسلان ولصديقه جمال الدين القاسمي في مقدمته لكتاب القاسمي «قواعد التحديث» بقوله: «كان هذان الجهبذان فرقدين في سماء الشام. يتشابهان كثيرا في سجاجة الخلق، ورجاحة العقل، ونبالة القصد، وغزارة العلم، والجمع بين العقل والنقل، والرواية والفهم، ولم يكن في وقتهما أعلى منهما فكرا، وأبعد نظرا، وأثقب ذهنا في فهم المتون والنصوص، والتمييز بين العموم والخصوص، وكان وجودهما ضربة شديدة على الحشوية، وتلك الطبقة الجامدة».

آثاره

لم يدع الانصراف إلى التدريس للمترجم وقتا كافيا لتصنيف الكتب، وقد خلّف مجموعة من الرسائل في موضوعات دينيّة وصوفيّة وأدبيّة. ومؤلّفاته أكثرها رسائل صغيرة، منها: «المنّة في العمل بالكتاب والسنة»، و«المباحث الغرر في حكم الصور» و«اللّمعة في الاقتداء حال التشهّد من صلاة الجمعة» وقام بشرح كتاب العقيدة الإسلامية الذي ألّفه محمود حمزة مفتي دمشق.

على أنّ مؤلفه الذي أذاع شهرته إنّما هو كتابه المطوّل «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» وهذا المؤلّف يجري فيه على سنن مؤلفين قبله أرّخ كلّ منهم لعصره، ومن هذه المؤلّفات كتاب العلامة ابن حجر«الدرر الكامنة في أعيان السنة الثامنة»، وجاء بعده السخاوي محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ) فألّف كتابه «الضوء اللاّمع في أعيان القرن التاسع»، وألّف بعد ذلك محمد أمين المحبي الدمشقي كتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» في أربعة مجلّدات، وألف بعده محمد خليل المرادي الدمشقي (ت 1206هـ)

كتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» في أربعة أجزاء.

وقد تحدث الشيخ بهجت البيطار عن هذا الكتاب في مقدمته وقال فيها: «إنّ هذا الكتاب يقع في ثلاثة مجلّدات، ويبلغ نحو (1800) صفحة، وقد كتبه مؤلّفه في أدوار من عهود شبابه وكهولته. ثم ترك الكتابة والتصحيح فيه قبل وفاته بأكثر من عشر سنين، لما أضر بيده اليمنى من الأسى والشلل القليل».

وقد ترجم المؤلّف لعدد جمّ من رجال القرن الثالث عشر، منهم من لا شأن لهم ولم تعرف لهم آثار ومصنفات، ومنهم من كانوا من الصوفيّة، ممّن لبس خرقتهم، وترجم لبعض أهل الطرق المعروفة، وقد نقل بعض ما يرونه من أمور مبتدعة ليست في كتاب ولا سنّة، لأنه بدأ تأليفه منذ عهد الشباب، وكان آنئذ يسير في ركب مشايخ عصره الجامدي التفكير. على أنه ترجم إلى جانبهم لجلّة من أعيان عصره. منهم الأمير الثائر عبد القادر الجزائري، وقد أورد له ترجمة مطوّلة تزيد على الثلاثين صفحة، تخلّلها بعض ما قيل فيه من الشعر وما قيل في رثائه. وترجم والد الأمير السيد محيي الدين بن مصطفى بن محمد الجزائري، وترجم للشاعر المجيد أمين بن محمد الجندي وأورد طرفا من شعره، وترجم لوالده العالم جليل الشيخ حسن بن إبراهيم البيطار، ولضياء الدين النقشبندي أبي البهاء، ولتوفيق باشا بن إسماعيل باشا بن محمد علي باشا الخديوي، ولجمال الدين بن صفتر الأفغاني شيخ الإمام محمد عبده، ولشيخ الإسلام أحمد عارف حكمت. وعني إلى ذلك بترجمة المحدثين في جامع بني أمية، ولشاعر إيران الشيخ سعدي الشيرازي والشهيد المناضل عبد الحميد الزهراوي، كما ترجم لبعض سلاطين آل عثمان منهم السلطان محمود بن السلطان عبد المجيد. ولم يفته أن يترجم لصديقه الأمير محيي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري. وضمّن الكتاب بعض الأحداث الهامّة مثل استيلاء الفرنسيّين على الجزائر عام 1245هـ/ 1830م. وقد أخلّ بتراجم بعض أعلام عصره فاستدركها حفيده الشيخ بهجة البيطار.

المصادر والمراجع

● القاياتي، محمد عبد الجواد، نفحة البشام في رحلة الشام، مصر 1319هـ؛ ● الفاسي، عبد الحفيظ، معجم الشيوخ، الرباط 1350؛ ● علي، محمد كرد، مجلة المقتبس، 9 ج، 1/ 81 ـ 82؛ ● الحصيني، محمد أديب التقي، منتخبات التواريخ لدمشق، دمشق 1927؛ ● العجمي، محمد بن ناصر، الشيخ عبد الرزاق البيطار؛ حياته وإجازته، بيروت 2000م؛ ● البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، 3 أجزاء، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، طبعة أولى 1961، طبعة ثانية 1993.

د. محمد إحسان النص
مجمع اللغة العربية ـ دمشق
سوريا

البيطار، محمد بهجت بن محمد

(1311هـ/1894م - 1396هـ/1976م)

علم من أعلام الإسلام، أصولي فقيه مصلح لغوي محقق. ولد بدمشق سورية في أسرة عريقة أصلها من «بليدة» الجزائر، اشتُهرت بالعلم والأدب والتقوى. فوالده محمد بهاء الدين البيطار عالم شاعر، وجدّه لأمه عبد الرزاق البيطار عالم لغويّ محدّث. تلقى محمد بهجة علوم الدين واللغة على أيدي والده وجدّه، وتابعها في المدرسة الريحانية الأدبية والمدرسة الكاملية والمدرسة العازارية، وأكملها على أيدي جمال الدين القاسمي ومحمد الخضر حسين التونسي نزيل دمشق آنذاك، ومحمد بدر الدين الحسني، فنال منهم الإجازة في العلوم العقلية والنقلية كلها. بيد أن تأثره بجدّه عبد الرزاق البيطار وصديق جدّه جمال الدين القاسمي كان عميقًا، فالرجلان عالمان مصلحان صدّاعان بالحقّ عزوفان عن المناصب، يُعدّان من أعلام التوحيد والتفسير والحديث والمصطلح والأصول والبلاغة. وقد لزمهما محمد بهجة، وفقه منطلقهما الإصلاحي، وتمسكهما بمذاهب السلف الصالح، وصبرهما على المحن، وتمرُّسهما بالبحث والنظر.

وزاده رسوخًا على هذه المبادئ تلمذته على يدي الإمام محمد الخضر حسين الذي نزل دمشق بعد أن أبعده عن وطنه تونس المستعمرون الفرنسيون. فنشأ وهو يملك أسباب العلم وأدواته، إضافة إلى الخلق الكريم، وتوقُّد القريحة، ونفاذ البصيرة، وحسن التأتّي، والقدرة على الاحتجاج والإقناع والتعبير. وهذا ما جعله تلميذًا نجيبًا لمبادئ الإصلاح، وخليفة صالحًا اجتمع حوله الشباب ذوو المنزع السلفي، يقرؤون عليه ويقتدون به.

حرص الشيخ محمد بهجة البيطار طوال حياته على أن يعمل مدرّسًا، عازفا عن أي عمل آخر، لأنه كان مؤمنًا بأن التعليم الصحيح هو السبيل إلى نهضة الأمة العربية الإسلامية. ومن ثمّ تولى الخطابة والإمامة والتدريس في جامع القاعة خلفًا لوالده عام 1910 وهو بعدُ في السابعة عشرة من عمره، ثم في جامع الدقاق خلفًا لخاله إلى أن عيّنته مديريتا المعارف والأوقاف مدرّسًا في مدارسهما في دمشق حتى بلوغه سن التقاعد عام 1953. وعمل في أثناء ذلك مدرّسًا للتفسير والأخلاق في الكلية الشرعية التابعة لمديرية الأوقاف، ومدرّسًا للتفسير والحديث في كلية الآداب بجامعة دمشق. وأسّس بتكليف من الملك عبد العزيز آل سعود المعهد العلمي السعودي عام 1926، وتولى إدارته والتدريس فيه خمس سنوات تسنّم فيها أيضا مناصب عدّة، هي: عضو محكمة مكة الشرعية، ومفتّش التعليم في مدارس الحجاز، وأستاذ مادتي التوحيد والتربية، وعضو مجلس المعارف العمومية، ومدرّس في الحرم المكّي، وعضو هيأة مراقبة

التدريس في الحرم المكّي. كما أسّس بتكليف من الملك عبد العزيز دار التوحيد السعودية في الطائف عام 1944، وتولى إدارتها والتدريس فيها ثلاث سنوات. ووضع عام 1961 منهاجًا للجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة بتكليف من الملك عبد العزيز نفسه. وعمل عام 1934 مدرّسًا في كلية المقاصد الإسلامية ببيروت (لبنان).

ولم يكن الشيخ محمد بهجة البيطار الذي اشتهر بورعه وقدراته التربوية وميوله الإصلاحية بعيدًا عن خدمة اللغة العربية. فقد انتخب عام 1923 ـ وهو بعد شاب ـ عضوًا عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية بعد ذلك)، فألقى المحاضرات، وحقّق الكتب، وأشرف على لجنة المطبوعات، ونشر المقالات في مجلة المجمع. كما انتخب عام 1954 عضوًا مراسلاً في المجمع العلمي العراقي، وأسهم في توحيد مجمعي دمشق والقاهرة عام 1961. وكانت له من بداياته الأولى صلة قوية بالسيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) بالقاهرة. إذ كلّفهما الملك فيصل عام 1920 بتبليغ الأمير عبد العزيز آل سعود رسالة خاصة بعقد اتفاق عام بين أمراء الجزيرة العربية دفعًا للعدوان الأجنبي. وقد دوّن محمد بهجة، بعد ذلك، خبر هذه الرحلة إلى نجد والحجاز في كتاب خاص. ولكن صلته بمحمد رشيد رضا لم تنقطع بعد الرحلة، بل استمرت قوية حتى إنه أكمل تفسيره «سورة يوسف» وكتابًا آخر بعنوان «المعاملات في الإسلام وتحقيق ما ورد في الربا» كان محمد رشيد رضا بدأه ولم يكمله لأنه توفي فُجاءة عام 1935. كما كانت له صلة علمية قوية بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي العالم الجزائري الفذّ. فقد التقيا عام 1916 عندما قدم البشير إلى دمشق وأقام فيها أربع سنوات حافلة بالمجالس العلمية والمباحثة والمذاكرة. وقد كتب البشير عن مكانة الشيخ محمد بهجة البيطار في جريدة (البصائر) بعد ذلك بثلاثين سنة عام 1949، وكان يُحدّث الناس دائمًا عن سعة علمه واطلاعه الواسع على آراء المفسّرين والمحدّثين.

آثاره

للشيخ البيطار كتب ومقالات منشورة في مجلة «التمدّن الإسلامي» بدمشق، إضافة إلى شعر إخواني يُشكّل ديوانًا صغيرًا لم يُطبع. أما المؤلفات المطبوعة، وعددها 21 كتابًا، فهي: 1 ـ نقد عين الميزان، دراسة، دمشق 1311هـ/ 1914م؛ 2 ـ نظرة في النفحة الزكية، دراسة، دمشق 1922؛ 3 ـ النفحة على النفحة والمنحة، دراسة، دمشق 1922؛ 4 ـ الثقافتان الصفراء والبيضاء، محاضرة، ط. 2 ضمن كتاب كلمات وأحاديث، 1974؛ 5 ـ قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لجمال الدين القاسمي، تح. دمشق 1925؛ 6 ـ مسائل الإمام أحمد لأبي داود السجستاني، تح. القاهرة 1353هـ/ 1934؛ 7 ـ سورة يوسف، تكملة التفسير الذي بدأه محمد رشيد رضا، القاهرة 1354هـ/ 1935م؛ 8 ـ البخلاء للجاحظ، تح. بالاشتراك، دمشق 1938؛ 9 ـ الكوثري وتعليقاته، دراسة، القاهرة 1938؛ 10 ـ المعاملات في الإسلام وتحقيق ما ورد في الربا لمحمد رشيد رضا، تكملة الكتاب

ووضع المقدمة والخاتمة، القاهرة؛ 11 ـ الموفي بالنحو الكوفي لصدر الدين الكنغراوي، تح. دمشق 1950؛ 12 ـ علاوة ثانية في اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة، دمشق، ط. 2، القاهرة 1953؛ 13 ـ أسرار العربية لأبي البركات بن الأنباري، تح. دمشق 1957؛ 14 ـ الاشتقاق والتعريب، محاضرة، دمشق 1961؛ 15 ـ حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة، دمشق 1961؛ 16 ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار، دمشق 1961 ـ 1963، 3 ج؛ 17 ـ حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، دراسة، القاهرة 1962؛ 18 ـ الإسلام والصحابة الكرام بين السنة والشيعة، دراسة، بيروت 1966؛ 19 ـ الرحلة النجدية الحجازية، رحلات، دمشق 1967؛ 20 ـ الإنجيل والقرآن في كفتي الميزان، دراسة، دمشق 1967؛ 21 ـ كلمات وأحاديث، مقالات ومحاضرات، بيروت 1974.

■ المصادر والمراجع

● فارس، جورج، من هو في سورية، سنة 1949، 125؛ ● نعيمة زيدان، عالمنا العربي، سنة 1956، 568 ـ 569؛ ● فارس، جورج، من هم في العالم العربي، سنة 1957، 104 ـ 105؛ ● الجندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، سنة 1958، 2/ 137؛ ● قدامة، أحمد، معالم وأعلام في بلاد العرب، سنة 1965، 1/ 166 ـ 167؛ ● الإبراهيمي، محمد البشير، عيون البصائر، سنة 1971، 2/ 638 ـ 643؛ ● الخطيب، عدنان، الشيخ محمد بهجة البيطار. حياته وآثاره، سنة 1976؛ ● النفاخ، أحمد راتب، كلمته عن سلفه البيطار في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة 1978، 53/ 211 ـ 245؛ ● الطنطاوي، علي، رجال من التاريخ، سنة 1986، 412 ـ 420؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين 1993؛ 3/ 172، والمستدرك على معجم المؤلفين، سنة 1988، 614 ـ 615؛ ● أبي زيد، بكر بن عبد الله، النظائر، سنة 1992، 64؛ ● العلاونة، أحمد، ذيل الأعلام، سنة 1998، 167 ـ 168.

د. سمر روحي الفيصل
جامعة العين ـ
الإمارات العربية المتحدة

ابن البيطار، أبو محمد عبد الله بن أحمد

(ت 646هـ/1248م)

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك المشهور بابن البيطار. وُلد بمالقة في الأندلس في السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، في عائلة علميّة «من أهل الرواية والعناية» [ابن البار، المعجم، 48] أصلها من وادي الحجارة ثم استوطنت مالقة. وكان منها علماء جلة منهم من ولي القضاء.

لا نعرف عن نشأة ابن البيطار العلميّة شيئا، والذي لا شك فيه هو أنّه قد أخذ الطبّ وعلم النبات عن ثلاثة من الشيوخ كان لهم في تكوينه أثر بارز، هم: أبو العباس أحمد بن محمد النباتي الإشبيلي المعروف بابن الرومية (ت 637هـ/ 1239م)، وابن الحجّاج الإشبيلي، وعبد الله بن صالح الكتامي، على أنّ صلته بهذين العالمين مازالت غامضة، إذ لا نعلم هل أخذ عنهما في الأندلس أم في المغرب الأقصى؟

وبعد أن تمكن من معرفة النباتات الطبيّة غادر الأندلس في رحلة علمية طويلة ـ لم يرجع بعدها إلى الأندلس ـ حوالي سنة 617هـ/ 1219م، فمرّ بالمغرب الأقصى، فالمغرب الأوسط (الجزائر) فإفريقيّة (تونس)، ثم طرابلس الغرب، فبرقة التي أخذ منها حسب المرجح طريق البحر إلى آسيا الصغرى في أواخر سنة 620 هـ/ 1223م أو في بداية السنة التي تلتها، فزار تركيا وبلاد اليونان؛ ووصل به المطاف إلى أقصى بلاد الروم (بيزنطة الشرقيّة)، ثم اتجه إلى المشرق الإسلامي فزار بلاد فارس، والعراق، ثم بلاد الشام، ومصر التي نزل بها فاستقرّ حوالي سنة 622هـ/ 1226م. وقد عناه في كل البلاد التي زارها البحث عن النّبات، فكان يقيم في كلّ بلد يحل به مدّة ينصرف أثناءها إلى التعشيب وملاقاة أصحاب الاختصاص من العلماء، فيأخذ عنهم ويتدارس معهم مسائل النبات، وقد حصلت له من كل ذلك معرفة معمّقة بالنبات حتى صار «أوحد زمانه وعلاّمة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوّعها» [ابن أبي أصيبعة، عُيون الأنباء، 2/ 133]. وتميّزه هو الذي جعله يحظى عند سلطان مصر الملك الكامل محمد بن أبي بكر الأيّوبي (615هـ/ 1218م ـ 635هـ/ 1238م) بمنزلة رفيعة، إذ ألحقه بخدمته و «عينه في الديار المصريّة رئيسا على سائر العشابين وأصحاب البسطات» [عيون الأنباء، 2/ 133]، وعندما أصبح الملك الكامل سلطانا على سوريا أيضا سنة 633 هـ/ 1237م رافقه ابن البيطار إلى دمشق التي التقى فيها سنة 633 بأجلّ تلاميذه، أبي العباس أحمد بن أبي القاسم ابن أبي أصيبعة (ت 668هـ/ 1270م)، ثم بأبي إسحاق إبراهيم بن

التويدي (ت 690هـ/ 1291م)، وعندما توفي الملك الكامل لحق ابن البيطار بخدمة ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت 647هـ/ 1249م)، فحظي عنده بما كان يحظى به عند والده من المكانة، وكان ينتقل معه بين القاهرة ودمشق. وبدمشق كانت وفاته سنة 646هـ/ 1248م.

آثاره

ترك ابن البيطار مؤلفات في الطبّ والصيدلة، ولا نعلم أنّه قد ألف في غيرهما. والمؤلّفات الصحيحة النسبة إليه سبعة، لم ينشر منها إلا كتابان هما:

1 ـ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، وهو أجلّ وأهمّ ما ألّف العربُ في علم الأدوية المفردة. ألفه ابن البيطار في أخريات حياته ـ بعد 640 هـ/ 1242م ـ للملك الصالح نجم الدين. وقد حظي الكتاب منذ زمن تأليفه باهتمام الأطباء والصيادلة العرب والمسلمين، فأقبلوا عليه إقبالا كبيرا يعتمدون مادته، أو يلخّصونه، أو يختصرونه، أو ينتخبون منه. وقد نشر في العصر الحديث في طبعة أولى ببولاق (مصر) سنة 1291هـ/ 1874م في أربعة أجزاء مليئة بالتصحيف والتحريف. وقد اهتم به الأوروبيون أيضا فترجم منه أندريا الباغوس Andrea Alpagus (ت 1522م) إلى اللاتينيّة مادة «الليمون» ونشرت الترجمة بباريس سنة 1602 م، وترجمه الفرنسي أنطوان غلان Antoine Galland (1646 ـ 1715م) إلى اللاتينيّة ترجمة مختصرة لم تنشر؛ وترجمه إلى الألمانيّة في القرن التاسع عشر يوسف سونثايمر Joseph Sontheimer ترجمة تامة نشرت بين 1840 و 1842م في جزئين، ثمّ ترجمه إلى الفرنسيّة ترجمة جيّدة لوسيان لكلرك Lucien Leclerc (1816 ـ 1893م) ونشرت الترجمة في ثلاثة أجزاء كبرى بباريس بين 1877 و 1883م بعنوان «Traité des simples»، وهذه الترجمة هي التي رفعت من منزلة ابن البيطار في العصر الحديث، ونشرت ذكره في الأوساط العلميّة الاستشراقيّة خاصّة.

والكتاب معجم في الأدوية المفردة مرتب على حروف الهجاء، وقد قصد فيه المؤلف إلى استيعاب القول في الأدوية المفردة فاشتمل على 2353 مادّة منها 1422 مادّة في التعريف بخصائص الأدوية وأفعالها، و 931 مادّة في تفسير الأسماء [المصطلح الأعجمي، 1/ 201 ـ 207]؛ 2 ـ تفسير كتاب دياسقوريدوس: وقد حقّقناه عن المخطوطة الفريدة الموجودة له في مكتبة الحرم المكي الشريف، رقم 36 (2) طبّ، وصدر التحقيق في نشرة مشتركة بين دار الغرب الإسلامي ببيروت وبيت الحكمة بتونس سنة 1990. وقد حقق الكتاب أيضا ـ عن المخطوطة نفسها ـ وترجمه إلى الألمانيّة ألبرت ديتريش (Albert Dietrich)، ونشر عمله بغباسبادن سنة 1988.

والكتاب كما يدلّ عليه عنوانه في «تفسير» كتاب «المقالات الخمس» للعالم الطبيعيّ الطبيب اليوناني بدانيوس ديوسقريديس العين زربيّ الذي عاش في القرن الأوّل الميلاديّ. و«المقالات» معجم في الأدوية المفردة ـ أو المادّة الطبيّة Materia medica ـ مرتّب بحسب المواضيع، مشتمل على خمس مقالات مختلفة المواضيع. وقد ترجم الكتاب في بغداد اصطفن بن بسيل وأصلحه حنين بن

إسحاق، لكن الترجمة لم تخل من النقائص المصطلحيّة إذ فاتت اصطفن وحنينا معرفة المقابلات العربيّة لمصطلحات يونانيّة كثيرة، ولذلك تعدّدت مراجعات الكتاب وتفاسيره [دراسات في المعجم العربيّ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، 217 ـ 270]، ومن أهمّ التفاسير «تفسير» ابن البيطار.

والكتاب معجم في الأدوية المفردة ثنائي اللّغة يونانيّ ـ عربي إذ ترجم فيه المؤلّف المصطلحات اليونانيّة المداخل في كتاب المقالات الخمس، وهو شاهد بالجهد العلمي الذي بذله في نقل مصطلحات ديوسقريديس إلى العربيّة، وخاصة ما كان قد استعصى على العلماء السّابقين نقلُه.

وأمّا الكتب الخمسة الباقية فمنها ثلاثة معلومة، وإثنان غير معروفين. والمعلومة هي: 3 ـ الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام، يوجد مخطوطا في نسخة فريدة بمكتبة الحرم المكي الشريف، رقم 36 (1) طبّ، وهو معجم في الأدوية المفردة قد ألّفه ابن البيطار بمصر قبل سنة 633هـ/ 1237م، وانتقد فيه الأخطاء التي وقعت في كتاب «منهاج البيان فيما تعمله الإنسان» لأبي علي يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي (ت 493هـ/ 1100م). والأخطاء التي انتقدها ابن البيطار ثلاثة أنواع: (أ) في التسميات وخاصّة في تحريف بعض المصطلحات أو الخلط بينها بسبب الإشتراك في الأسماء؛ (ب) في التحليات، وذلك بوصف الدواء بما ليس له من الصفات؛ (ج) في المنافع، وذلك بأن يعطى دواء ما ليس له من المنافع العلاجية، وقد حللنا مادة هذا الكتاب من قبل وحققنا منها ثمانية مداخل [ينظر: بحوث في تاريخ الطبّ والصيدلة عند العرب، 472 ـ 542]؛ 4 ـ المغني في الأدوية المفردة، منه مخطوطات كثيرة أقدمها مخطوطة فاتح رقم 3633، بمكتبة سليمانيّة بتركيا، التي يعود تاريخ نسخها إلى سنة 637هـ/ 1239م. وهذا التاريخ يعطي فكرة عن زمن تأليف الكتاب. فإن المؤلّف قد أهدى كتابه إلى الملك الصالح نجم الدين الذي تولّى السّلطة إثر وفاة أبيه سنة 635هـ/ 1237م، وقد أشار المؤلّف في مقدّمة الكتاب إلى وفاة الملك العادل. وبذلك ينحصر تاريخ تأليف الكتاب بين سنتي 635 و 636 هـ.

والكتاب معجم في الأدوية المفردة مثل كتاب الجامع، إلا أنّه مرتّب بحسب الأعضاء الآلية؛ فقد قسم المؤلّف الكتاب إلى عشرين بابا بحسب الأعضاء: وضمن كلّ باب الأدوية المفردة النافعة لأمراض العضو المتحدّث عنه؛ 5 ـ ميزان الطبيب، توجد منه نسخة فريدة في مكتبة جامعة أبسالا (Upsala) بالسويد، رقم53. وهو كتاب في المداواة والعلات أساسا، قد وضعه المؤلّف بطلب من الأمير شهاب الدين أحمد بن عيسى وقسّمه إلى ثمانين بابا مرتبة بحسب الأعضاء الآلمة.

وأمّا الكتابان اللذان مازالا مجهولين فهما: 6 ـ رسالة في تداوي السّموم، وقد نسبها إليه كارل بروكلمان Carl Brockelmann في تاريخ الأدب العربي؛ 7 ـ الأفعال الغريبة والخواصّ العجيبة، وقد نسبه إليه ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء.

والناظر في كتب ابن البيطار المعروفة ـ وخاصة في «الجامع» و «التفسير» و«الإبانة»

و«المغني» - يخرج بجملة من الاستنتاجات حول دور ابن البيطار في علم الأدوية المفردة، وفي تاريخ الطب والصيدلة عامّة، وأهمّ تلك الاستنتاجات ثلاثة:

(1) اطلاع ابن البيطار اطلاعا معمقا على ما كتبه سابقوه في الأدوية المفردة، وما ألفه علماء اللّغة في المواليد الطبيعيّة. وقد بلغ عدد العلماء الذين اعتمدهم في كتاب «الجامع» مثلا حوالي مائة وخمسين عالما من أمم مختلفة. إلاّ أنّه لم يسجل في كتابه من أقوال السّابقين إلاّ ما صحّ عنده «بالمشاهدة والنظر»، وثبت «بالخبر لا بالخبر» [الجامع، 1/ 3].

(2) معرفته الفائقة بصفات الأدوية المفردة وخصائصها، وخاصّة بدقائق أعيان النبات وأحواله، وقد أطلقت عليه من أجل ذلك صفة «العشاب». ومن أهمّ الأدلّة على تلك المعرفة نقده العلميّ لأخطاء العلماء العرب الذين أخذ عنهم والتراجمة الذين نقلوا الكتب اليونانيّة إلى العربيّة. ومن العلماء الذي انتقدهم وأصلح أخطاءهم حنين بن إسحاق بن عمران، وأبو بكر الرازي، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وابن سمجون، وابن سينا، وابن وافد، والشريف الإدريسي، وأبو جعفر أحمد الغافقي. والنقود التي وجّهها ابن البيطار إلى أولئك العلماء دالّة أيضا على قدرته الفائقة على التمييز الصحيح بين أصناف النبات وأنواعه وفصائله التي خلط فيها السّابقون وأزال هو اللبس عنه.

(3) إضافة ابن البيطار نباتات جديدة كانت من محض اكتشافه إلى النباتات التي عرفها العرب من قبل. وإضافاته صنفان: يمثل أوّلهما نباتات تامّة جديدة كلّ الجدّة، وعددها عشرة، ويمثل ثانيهما أصناف جديدة من نباتات معروفة من قبل، وعدد هذه الأصناف سبعة عشر [بحوث في تاريخ الطبّ والصيدلة، 285 - 286].

وقد تضافرت في شخصية ابن البيطار العلميّة خاصيات العلم وخاصيات التأليف فيه لتجعل منه آخر المؤلّفين العرب الكبار في علم العقاقير، أي في علم الصيدلة وخاصة في قسم الأدوية المفردة منها، فقد بسط القول فيها وبوّبه ووضحه وتوسّع فيه وصحّحه وأضاف إليه، فكان - بالنسبة إلى اللاحقين - ما كانه ديوسقريدس وجالينوس بالنسبة إلى السّابقين على ما وصفهما به ابن البيطار نفسه في مقدّمة كتاب «الإبانة والإعلام» (ص2 و) «فإنّهما مدد هذا العلم لكلّ من انتحله وقدوة لمن علمه وحجّة على من جهله».

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. أوغست ملّر (August Muller)، القاهرة 1299هـ/ 1882م، 2/ 133؛ ● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح. إحسان عبّاس، بيروت، 1973 - 1974، 2/ 159 - 160؛ ● السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1967 - 1968، 1/ 542؛ ● ابن مراد، إبراهيم، المصطلح الأعجمي في كتب الطبّ والصيدلة العربيّة، بيروت، 1985، دار الغرب الإسلامي، 1/ 169 - 226؛ ● إبراهيم ابن مراد، مقدّمة تحقيق

«تفسير كتاب دياسقوريدوس» لابن البيطار، 1990، دار الغربي الإسلامي، بيروت، وبيت الحكمة، تونس، 17 - 41؛ ● ابن مراد، بحوث في تاريخ الطبّ والصيدلة عند العرب، بيروت، 1991، دار الغرب الإسلامي، 37 - 41، 281 - 287، 465 - 556 (وفي المراجع الثلاثة توسّع في ترجمة ابن البيطار وفي مراجعها).

- L. Leclerc M., Histoire de la médecine arabe, Paris, 1876, 2/235-237; •Brockelmann: Gal, Leiden, 1937 - 1949, 1/646-647, Supplement, 1/896-897;
- J. Vernet: Encyclopédie de l'Islam, nouvelle éd. vol. III. Leyde, Paris, 1971, pp. 759 -760

د. إبراهيم بن مراد
جامعة تونس

البِيكَنْدي، أبو الفضل أحمد بن علي بن عمرو

(311هـ/923م - 404هـ/1013م)

هو أبو الفضل أحمد بن علي بن عمرو السليماني البيكندي، نسبته إلى بيكند (بكسر الباء الموحدة، وسكون الياء وفتح الكاف، وكسر الدال المهملة) بلدة على مرحلة من بخارى، كبيرة، حسنة، كثير العلماء، كانت عاصمة لبلاد ما وراء النهر لفترة من الزمن [ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2/ 533؛ النرشخي، تاريخ بخارى، 35]. والسليماني، نسبة إلى جده لأمه أحمد بن سليمان [الذهبي، تذكرة، 3/ 1036؛ ابن الأثير، اللباب، 1/ 199].

ولد سنة 311هـ/ 923م، من حفاظ الحديث المكثرين، رحل إلى العراق والشام وديار مصر [السمعاني، الأنساب، 2/ 405]، سمع من أبي نصر محمد بن حمدويه بن يزداد المروزي (ت 329هـ/ 940م) الحافظ الثقة [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 323]؛ وعلي بن ابراهيم بن معاوية؛ ومحمود بن اسحاق الخزاعي وغيرهم [الذهبي، العبر، 2/ 208].

آثاره

كان البيكندي، إماما حافظا من الثقات، لم يكن له نظير في زمانه ببخارى، إسنادا وحفظا ودراية وإتقانا وكثرة تصنيف [السبكي، طبقات، 4/ 41؛ الصفدي، الوافي، 7/ 216 - 217]. كان يصنف كل جمعة شيئا، ثمّ يدخل من قرية بيكند إلى بخارى، ويحضره في الجامع يوم الجمعة ويحدث به، وله أكثر

من أربعمائة مصنف صغار منها كتب في أسماء الرجال [السمعاني، الأنساب، 2/ 45؛ البغدادي، هدية العارفين، 1/ 71].

عاش البيكندي في بخارى التي كانت من أهمّ المراكز العلميّة الإسلاميّة على عهد الإمارتين السامانيّة والغزنوية، بسبب ما كان يغدقه أمراؤهم على العلماء من عطاء وتشجيع، فضلا عن أنّ بخارى كانت في أوانها «عديمة المثل وفيها من كلّ فنّ من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها، ولا سمع باسمه فضلا عن معرفته» [ابن خلكان، وفيات، 1/ 152 - 153]، فجذبت إليها كثير من العلماء والأدباء.

روى عنه جعفر بن محمد بن المعتز المستغفري (ت 432هـ/ 1040م) محدث ما وراء النهر، كان حافظا مصنفا ثقه [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 3/ 249؛ السيوطي، طبقات، 409].

توفي البيكندي، في شهر ذي القعدة سنة 404هـ/ 1013م وله ثلاث وتسعون سنة [الذهبي، العبر، 2/ 82].

المصادر والمراجع

● الذهبي، تذكرة الحفاظ، مكة المكرمة، إحياء التراث العربي، 1474هـ، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد، بيروت، دار الكتب، 1985؛ ● السبكي، طبقات الشافعيّة، تحقيق محمد محمود الطناحي، القاهرة، عيسى البابي، 1964؛ ● ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، اعتناء احسان عباس، بيروت، دار صادر، 1967؛ ● اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، استانبول، 1951؛ ● جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة وهبه، 1973؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، مطبعة الترقي، 1975؛ ● محمد طاهر الهندي، المغني في ضبط أسماء الرجال، بيروت، دار الكتاب، 1982.

د. نزار محمد قادر
جامعة الموصل - العراق

بيليك الكبجاكي

(ق7 هـ/13م)

لا توجد معلومات بشأن حياته في كتب التراجم الكلاسيكية. وعاش بيليك (بيلغ، بيلك: ومعنى كيچاك في اللغة التركية هو المعرفة والعلم) في القاهرة وحماة. وأكمل في ربيع الآخر عام 681هـ الموافق يوليو عام 1282م مؤلفه المسمى «كتاب كنز التجار في

معرفة الأحجار». وتوجد نسخة هذا المؤلف في المكتبة الوطنية بباريس رقم 2779، ورق 88، غير أن الصفحات الأولى منه سيئة جدا. وتوجد فيها عبارة إهداء بهذا الشكل: «إلى السلطان الملك المعز (؟) محيي الدين يعقوب بن أبي بكر (.......) بن أيوب رحمهم الله». بيد أننا في شك إلى من أهدي إليه هذا الكتاب، ذلك لأن الصفحة الرابعة منه احتوت على هذه العبارة: «نقدم كتابنا هذا إلى مكتبة حضرة سيدنا سلطان حماة الملك المنصور ناصر الدين محمد بن المظفر تقي الدين محمود بن المنصور نصير الدين محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهن شاه بن أيوب» [فترة حكم السلطان من عام 1244 إلى عام 1284].

آثاره

تضمن كتاب «كنز التجار» اقتباسات لعشرين من مفكري العصور القديمة وعلمائها مثل هرمس طيانالي أبوليونس، وأرسطو، وبطلميوس، ومن علماء المسلمين نجد علي ابن حسين المسعودي، والفارابي، وجابر بن حيان، والبيروني، والغزالي. أما أكثر شخص اقتبس منه فهو أحمد بن يوسف التيفاشي (ت 651هـ/ 1253م)، وهو عالم في علم المعادن عاش في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي. وفي الأساس فإن كتاب بيليك اعتمد على كتاب التيفاشي «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» [فلورنسا 1818؛ بولونية 1906؟؛ القاهرة 1977]. وبالإضافة إلى ذلك كرر بيليك الخطة وأسلوب التقديم والأقسام وعناوينها نفسها الموجودة في كتب المؤلفين القدامى. غير أنه وفي الوقت الذي يتكون فيه كتاب التيفاشي من خمسة وعشرين قسما، نجد أن بيليك أضاف خمسة أقسام أخرى لكتابه فأصبح يتألف من ثلاثين قسما.

من خلال إحدى المعلومات التي احتوى عليها كتاب «كنز التجار» نعرف أن بيليك سافر في عام 640هـ/ 1242م عبر البحر من طرابلس الشام إلى الأسكندرية. وأثناء هذه الرحلة قام في ليلة مظلمة وسماؤها ملبدة بالسحب بصناعة آلة في شكل صليب من إبرة مغناطيس القبطان. وذكر أنه قام بتعويم هذه الآلة في الماء الموجود داخل الكأس. ولاحظ أنه عندما يحرك عود المغناطيس الموجود جوار الآلة، تتحرك الإبرة في اتجاهه. وعندما يسحبه تبقى الإبرة ثابتة في اتجاه الشمال والجنوب، وقد شرح ذلك في كتابه. وهكذا يكون بيليك أول كاتب في العالم الإسلامي يتناول استعمال الإبرة المغناطيسية كبوصلة للسفن. وقام جويس كلابروث وج. كلمنت-مولت (مع النص العربي) ودي ساوثر (نشرها من جديد مع تصحيح قابريل فراند) بترجمة هذه المعلومات التي ذكرها بيليك في هذا الموضوع إلى اللغة الفرنسية، كما ترجمها إ. ويدمان إلى اللغة الألمانية [انظر: Dictionary of Scientific Biography, I, 533].

ومن جانب آخر فإن رسالة ويجين الكوخي المسماة «رسالة في البركار التام والعمل به» [مكتبة قوجه راغب باشا، رقم 569/ 5، ورقة 219-258؛ منشورات Frantz Woepcke، Trois Traités Arabes sur le compas parfait, Notice et extraits des manuscrits.

XXII/1, 1874, p.1-21, 68-111, 145-175].

قد طبقها والد فخر الدين بن الساعاتي في عام 649هـ/ 1251م وعلقها في دمشق على باب جيرون (باب الساعات). وإذا كان بيليك الرياضي هو الذي كتب «علم الساعة والعمل بها» [مع مجموعة أخرى من الرسائل، نشر محمد أحمد دهمان، دمشق 1402هـ/ 1981م] هو الذي استنسخ هذه الرسالة في عام 658هـ/ 1260م [مكتبة كوبريلي، رقم 949] هو نفسه مؤلف «كنز التجار» بيليك الكبجاكي فهذا يعني أنه كتب على الأقل في ثلاثة مواضيع في علم الرياضيات والعلوم الطبيعية [ششن وآخرون، I، 483]. وإذا كان اسم والده يذكر باسم محمد في كتاب «كنز التجار» فإن هذا الاسم في النسختين السابقتين لم يكن محمدا بل عبد الله.

المصادر والمراجع

- Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden 1943, I, 652;
- Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur Supplementband, Leiden 1937, I, 904;
- George Sarton, Introduction to the History of Science, New York, 1975, II, 780, 1072;
- Ramazan Sesen and others, Fihrisü Mahtûtâti Mektebeti Köprülü, Istanbul 1406/ 1986, I, 482-483;
- Mongia Mensia, «Un Traité inédit de Minéralogie au 13 ème siècle Baylak Qabǧâ-qî: Kitâb Kanz al-Tuǧǧâr fî Ma'rifat al-Ahǧâr», Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes, XL/140 (1977), p. 281-295;
- E. Wiedemann, «Maghnâtîs», The Encyclopaedia of Islam (new edition), Leiden 1979, V, 1169;
- Martin Plessner, «Baylak al-Qibjaqî», Dictionary of Scientific Biography, New York 1981, I, 532-533;
- Ferruh Müftüoğlu, «Beylek el-Kipçâkî», Türkiye Diyanet Vakfi Islâm Ansiklopedisi, Istanbul 1992, VI, 68-69;
- Mahmut Kaya, «Ibnü's-Sââtî, Fahreddin», Türkiye Diyanet Vakfi Islâm Ansiklopedisi, Istanbul 2000, XXI, 190.

د. قاسم كربييك
استانبول - تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي - تونس

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين

(384هـ/994م - 458هـ/1066م)

أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، أبو بكر البيهقي، الخُسْروجِرْدِيّ الإمام الحافظ المحدّث، الأصولي، الفقيه الشافعي، شيخ خراسان. وبيهق التي ينتسب إليها ناحية كبيرة كثيرة القرى بنواحي نيسابور. وخُسْروْجِرْد كانت أم تلك القرى، ثم أصبحت نيسابور.

وُلد البيهقي في خسرو جرد في شهر شعبان من سنة 384هـ/ سبتمبر 994م. واتّجه منذ صغره إلى طلب العلوم الشرعية من علماء عصره، متجشما مشاق الوصول والرحلة إليهم في حواضر العلم، متنقلا بين نيسابور وبغداد والكوفة والحجاز، غير قانع بعلماء وطنه رغبة في الاتصال بأئمّة هذه الأقطار، لتوسيع معارفه، والإفادة من علومهم ومناهجهم في البحث والدراسة وطرق التفكير؛ إذ كانت الرحلة لطلب العلم وملاقاة علماء العصر شرطا لكلّ من يريد التعمّق في العلوم وتنقيح ما تلقاه في وطنه، وطريقا للنبوغ والإمامة.

وقد تمكّن البيهقي في رحلته الطويلة من الاتّصال بعدد كبير من العلماء في مختلف الفنون الدينية، تجاوز عددهم المائة. وأشهرهم أبو بكر بن فورك الإمام في علم الكلام، وأبو الحسن محمد بن الحسين العلوي الذي يعدّ أوّل شيوخه في الحديث، وأبو عبد الرحمان السلمي الحافظ، وأبو عبد الله بن البيّع الحاكم صاحب «المستدرك على الصحيحين»، وهو من أكبر شيوخه في الحديث وأعظمهم أثرا فيه، وأبو الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي الفقيه الشافعي.

كما تمكّن البيهقي من تحصيل علم واسع في العقائد، والفقه والأصول والحديث واللغة والتفسير والسِّيَر؛ اعترف له علماء عصره في حياته بإمامته فيها؛ فحاز لقب الحافظ في علم الحديث، وسلم له بالاجتهاد، حتّى قالوا: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته باختلاف الفقهاء.

وقد انصبّ اهتمام البيهقي على علمين حظيا منه بالنصيب في دراسته العلمية هما علم الفقه وعلم الحديث.

ففي الفقه قام على جمع نصوص الإمام الشافعي بالاستدلال عليها والاحتجاج لها والدفاع عنها وردّ ما انتقده به الشافعي. وقد عرف له علماء المذهب الشافعي مزيته وفضله بذلك على المذهب، وقدّروا جهده الكبير في جمعه وتحرير أدلّته، يعبّر عن هذا التقدير ما قاله إمام الحرمين الجويني في حقّه: ما من شافعي إلاّ وللشافعي عليه منّة، إلاّ أحمد البيهقي، فإن له على الشافعي منّة، لتصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه [تذكرة الحفاظ، 3/ 328].

وفي علم الحديث، فقد انفرد البيهقي في عصره بالحفظ والاتقان والضبط. وكانت له مرويات في السنة النبويّة وأسانيد عالية فيها، كما كانت له معرفة بعلل الحديث سندا ومتنا. فكان بذلك محلّ ثناء علماء الجرح والتعديل وتوثيقهم. وقد جمع البيهقي مروياته في كتابه المشهور «السنن الكبير» أضاف به لبنة في صرح تدوين السنّة النبوية.

ومثل البيهقي فيما وصل إليه في المجال العلمي لا بدّ أن يكون له تلاميذ كثر، فكان تلاميذه العلماء قبل الطلبة المبتدئين، فقد طلب منه أئمّة نيسابور الانتقال إليهم من بيهق لسماع كتابه «معرفة السنن والآثار» وبقية كتبه، فرحل إليهم، وأعدّوا له مجلس العلم، وحضره العلماء والأئمّة.

ومن أشهر من أخذ عنه الحديث وتفقّه به وأفاد من علمه، مباشرة أو بالإجازة، زاهر الشحمي، ومحمد الفراوي وعبد المنعم القشيري، وشيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري، وولده إسماعيل بن أحمد، والحافظ أبو زكريا بن مندة، والحافظ ابن عساكر، وابن السمعاني.

ومع ما عرف به البيهقي من نبوغ علمي وتفوّق في الحفظ والفهم، فقد عرف أيضًا بورعه وزهده وتقواه، شأن علماء هذه الأمّة، ما يزيدهم الصعود في مدارج المعرفة إلاّ قربا من الله تعالى واستعلاء عن ملذّات الدنيا ومظاهرها.

وقد توفّي بنيسابور في 10 جمادى الأولى سنة 458 هـ. ونقل تابوته إلى بيهق - رحمه الله تعالى -.

يؤكّد الأسنوي أنّ البيهقي بدأ التأليف في سنّ مبكّرة، سنة 406هـ/ 1016م أي في سنّ العشرين. وقد تنوّعت مؤلفاته بحسب اختلاف العلوم الشرعية - عقيدة، فقه، حديث، تفسير، سير، لغة -. وهي تختلف بين الطويل بالغ الطول، والقصير، حتّى قيل إنها بلغت ألف جزء. وهو ما يدلّ أبلغ الدلالة على موسوعيّته، وكثافة المادّة العلمية التي يتصرّف فيها، وطول نفسه في التأليف، والجهد الكبير الذي بذله في جمعها وتنظيمها. وقد نفع الله بها المسلمين شرقا وغربا، وعجما وعربا، وقديما وحديثا.

ومن منهجه أنّه جعل السنة النبوية وآثار الصحابة قاعدة التأليف في مختلف العلوم الشرعية التي ألف فيها. فالملاحظ أنها محور استدلاله على القضايا والأحكام التي يوردها، عقيدة أو فقها، أو غير ذلك. لذلك فهو يصنّف ضمن المدرسة الأثرية في الدراسات الشرعية. ومن أجل هذا الاتّجاه اشتهر البيهقي لدى المترجمين بكونه قد غلب عليه الحديث، وقالوا: إنه صنّف فيه كثيرا. والحق إنه صنّف في الحديث كعلم مستقل، وفي غير الحديث - كما سيأتي -، ولكن على منهج المحدّثين الذي يقوم على ذكر الروايات بأسانيدها واختلاف ألفاظها.

آثاره

1 - كتاب السنن الكبير، المعروف بالسنن الكبرى، وهو أهمّ مؤلفاته في الحديث، دوّن فيه ما وصل إليه جهده في جمع السنة النبوية، وآثار الصحابة، بالأسانيد التي تلقّاها عن محدّثي عصره الذين سمع منهم. وقد شهد له العلماء فيما بعد بجودة التهذيب والترتيب في الكتاب، وبأنه لم يصنّف أحد مثله، لاستيعابه

أكثر أحاديث الأحكام. فهو موسوعة حديثية يغني عن غيره في باب الأحكام. فقد ذكر ابن الصلاح أنه أحق بالتقديم على سائر كتب السنن ـ أي سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ـ لولا تقدّم مصنّفيها في الزمن عنه، ومزيد جلالتهم.

والجدير بالذكر أنّ هذا الكتاب لم يخل من أحاديث ضعيفة تساهل البيهقي في إيرادها، وقد تعقبها وكشف عنها الشيخ علاء الدين علي بن عثمان المعروف بابن التركماني (ت 750هـ/ 1549م) في كتاب سمّاه «الجوهر النقي في الردّ على البيهقي» طبع على هامش «السنن الكبرى» كما اعتنى به غيره من العلماء، فاختصره كلّ من إبراهيم بن علي المعروف بابن عبد الخالق الدمشقي (ت 744هـ/ 1344م)، والحافظ الذهبي (ت 748هـ/ 1347م)، والشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت 974هـ/ 1567م) [مقدمة تحقيق «بيان خطأ من أخطأ على الشافعي»، ص41 ـ 42]. والكتاب مطبوع في عشرة مجلّدات في مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط1، 1352هـ؛ 2 ـ كتاب «معرفة السنن والآثار»، وهو كتاب جمع فيه بين الفقه والحديث، وكان مقصده فيه نصرة المذهب الشافعي. فقد بيّن فيه معرفة الإمام الشافعي بالسنن والآثار، وبعللها، وأنه لم يبن حكما على غير الصحيح من السنّة النبويّة. وتكلّم على الروايات التي أوردها بالجرح والتعديل والتصحيح والتعليل. وقد رتّبه على أبواب الفقه، معتمدا ترتيب كتاب المزني الفقيه الشافعي. وسلك فيه مسلك المقارنة بين أقوال الإمام الشافعي وأقوال مخالفيه، وخاصة من المذهب الحنفي، وهو بذلك يعدّ من كتب الفقه المقارن. وكما كان البيهقي منتصرا فيه للشافعي فقد كان أيضًا منصفا لمخالفيه إذا رأى الصواب في غير جانب إمامه [مقدمة تحقيق «معرفة السنن والآثار»، 1/ 9 ـ 10، ومقدمة تحقيق «بيان خطأ من أخطأ على الشافعي»، ص 43] وقد طبع الكتاب في خمسة مجلّدات بتحقيق سيد كسروى حسن بدار الكتب العلمية ببيروت سنة 1991م؛ 3 ـ كتاب «المبسوط»، وهو كتاب فقه في المذهب الشافعي، جمع فيه نصوص الإمام الشافعي وكلامه بكل دقّة وضبط، ، بعد ما أقلقه اختلاف فقهاء المذهب في أقوال إمامهم وإيرادهم لها دون تثبّت [مقدمة تحقيق «بيان خطأ من أخطأ» على الشافعي، ص 44]؛ 4 ـ كتاب «الأسماء والصفات»، وهو كتاب في العقيدة، بيّن فيه أسماء الله تعالى وأدلّتها من الكتاب والسنّة والإجماع، وقد طبع بدار إحياء التراث العربي بلبنان باعتناء وتعليق محمد زاهد الكوثري. وطبع أيضًا بالهند، بتحقيق محمد محيي الدين سنة 1313هـ [مقدمة تحقيق «بيان خطأ من أخطأ» على الشافعي، ص 44]؛ 5 ـ كتاب «الاعتقاد»، وهو أيضًا في العقيدة، وقد ذكر مؤلفه أنه أودعه اعتقاد أهل السنّة والجماعة وأقوالهم، «وهو كتاب نفيس في موضوعه، يتسم بسلاسة الأسلوب، والنقاش الهادىء وقوّة الأدلّة»، وهو مطبوع بتحقيق أحمد محمد مرسي سنة 1320هـ، دون ذكر للمؤسّسة والمكان [مقدّمة تحقيق «بيان خطأ من أخطأ» على الشافعي، ص 45]؛ 6 ـ كتاب «دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة»، وهو في سيرة

الرسول محمد ﷺ، وبيان مولده ونشأته، وشرف أصله ونسبه، وذكر أسمائه وصفاته الخَلْقية والخُلُقية، وما كان من جهاده ودعوته وغزواته وأخلاقه، وآدابه، فهو كتاب يصنَّف ضمن كتب السِّيَر والشمائل النبوية. ويقوم على منهج المحدِّثين في إيراد المعلومات، بذكر الروايات والأخبار، والتزم فيه، حسب ما صرّح به في المقدّمة، بالصحيح دون السقيم من الروايات، إلاّ عند عدم اتّضاح المراد من الصحيح، مع التنبيه على ذلك. ويمتاز هذا الكتاب بأنّ فيه نصوصا كثيرة نقلها البيهقي من أصول مفقودة مثل «سيرة النبي» لمحمد بن شهاب الزهري (ت 124هـ/ 742م)، و«سيرة النبي» لمحمد بن إسحاق. وقد اختصر «الدلائل» أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقّن (804هـ/ 1401م) في كتاب سمّاة «غاية السؤل في خصائص الرسول». كما اختصره عالم آخر ـ مجهول ـ في كتاب عنوانه «بغية السائل عمّا حواه كتاب الدلائل» يوجد منه الجزء الثاني في المكتبة الظاهرية بدمشق [مقدمة تحقيق «دلائل النبوّة»، 1/ 8 ـ 11]. وقد طبع الكتاب بتحقيق أحمد صقر بمطابع الأهرام التجارية سنة 1389هـ/ 1970م. كما طبع بتحقيق وتقديم عبد الرحمان محمد عثمان بدار الفكر للطباعة والنشر ببيروت سنة 1418هـ/ 1997م؛ 7 ـ كتاب «شعب الإيمان»، وهو كتاب كبير في ستة مجلّدات في بيان شعب الإيمان المشار إليها في حديث النبي: «الإيمان بضع وسبعون شعبة». فتكلّم عليها مفصّلا مستوفيا أدلّتها وشرحها ذاكرا الأسانيد التي عليها مدار الروايات. وقد اختصره أبو جعفر عمر القزويني (ت 699هـ/ 1300م) في كتاب «مختصر شعب الإيمان» والمختصر مطبوع بتحقيق محمد منير الدمشقي في إدارة الطباعة المنيرية سنة 1355هـ. والأصل توجد صورة منه في أربع عشرة مجلّدة في مكتبة السيد حبيب أحمد بالمدينة المنوّرة، وصورة في مكتبة الشيخ عبد الرحيم صديق بمكّة المكرّمة [مقدمة تحقيق «خطأ من أخطأ» على الشافعي، ص 46]؛ 8 ـ كتاب «مناقب الشافعي»، وهو أجمع ما كتب في مناقب الإمام الشافعي. وقد اعتمد فيه على من كتب قبله في الموضوع كابن أبي حاتم (ت 327هـ/ 939م) وأبي الحسين محمد الرازي (ت 454هـ/ 1062م)، وهو مطبوع بتحقيق أحمد صقر ونشر دار التراث سنة 1391هـ؛ 9 ـ كتاب «الدعوات الكبير»، جمع فيه ما ورد من الأخبار في الأدعية التي دعا بها رسول الله ﷺ أو علمها أحدا من أصحابه، وقد ذكرها بأسانيدها [مقدمة تحقيق «خطأ من أخطأ» على الشافعي، ص 48]؛ 10 ـ كتاب «الزهد الكبير»، ذكر فيه أقوال السلف والخلف في فضيلة الزهد وكيفيته [مقدمة تحقيق «خطأ من أخطأ»، على الشافعي، ص 48]؛ 11 ـ كتاب «أحكام القرآن»، جمع فيه نصوص الشافعي المتعلّقة ببيان المعاني الدقيقة في القرآن [مقدمة تحقيق «خطأ من أخطأ» على الشافعي، ص 49]، وقد طبع بدار الكتب العلمية، بيروت عام 1395هـ بتحقيق عبد الغني عبد الخالق؛ 12 ـ كتاب «إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين»؛ 13 ـ كتاب «المدخل إلى كتاب السنن»، وهو يعتبر مقدمة لكتاب «السنن الكبرى» تحدث فيه مؤلّفه عن العلم والعلماء؛ 14 ـ كتاب «البعث والنشور»؛ 15 ـ كتاب

«تخريج أحاديث الأم»؛ 16 ـ كتاب «الخلافيات بين الشافعي وأبي حنيفة»؛ 17 ـ كتاب «الآداب»؛ 18 ـ كتاب «الأربعون الكبرى»، وهو في الأخلاق، مطبوع؛ 19 ـ كتاب «الردّ على الانتقاد على الشافعي في اللغة»، وفي هذا الكتب دافع البيهقي عن فصاحة الإمام الشافعي، وردّ ما رماه به بعض مخالفيه من الخروج عن العربية واستعمال بعض الكلمات في غير المألوف عند علماء اللغة [مقدمة تحقيق «الرد على الانتقاد على الشافعي في اللغة»، ص19 ـ 20]، وهو مطبوع، دار البخاري، جدّة؛ 20 ـ كتاب «بيان خطأ من أخطأ على الشافعي»، بيّن فيه الأخطاء التي وقعت في كتب الإمام الشافعي بسبب النقل، وهو مطبوع بتحقيق وتقديم الشريف نايف الدعيس، نشر مؤسسة الرسالة سنة 1986م.

المصادر والمراجع

● ابن الأثير الجزري، عز الدين، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، 1/ 202؛ ● البيهقي، أحمد بن الحسين، الأربعون الصغرى، تح. محمد نور المراغي، دار إحياء التراث الإسلامي، 1983م؛ ● بيان خطأ من أخطأ على الشافعي، تح. وتقديم الشريف نايف الدعيسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ/ 1986م، ص35 ـ 78؛ ● دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تح. أحمد صقر، مطابع الأهرام التجارية، مصر، 1389هـ/ 1970م، 1/ 6 ـ 11، ● الردّ على الانتقاد على الشافعي في اللغة، تح. وتعليق عبد الكريم بكار، دار البخاري للنشر والتوزيع، جدّة، 1/ 19 ـ 80؛ ● معرفة السنن والآثار، تح. سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، 1/ 9 ـ 10؛ ● ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، 5/ 77؛ ● ابن الجوزي، عبد الرحمان، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الثقافة، بيروت، 8/ 242؛ ● ابن خلكان، أبو العباس أحمد، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1/ 75 ـ 76؛ ● الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، اعتنى به مصطفى علي، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، 3/ 328؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم، ط2، 1/ 113؛ ● السيوطي، عبد الرحمن، طبقات الحفاظ، تح. علي محمد عمر، مكتبة وهبة، مصر، ط1، 1393هـ/ 1973م، ص433؛ ● شاكر، أحمد محمد، دائرة المعارف الإسلامية، 4/ 430؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات، اعتناء س. ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاينز بفيسبادن، 1392هـ/ 1972م، 2/ 354؛ ● طاش كبرى زادة، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط1، مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر اباد الدكن، 2/ 15؛ ● ابن العماد الحنبلي، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 3/ 304، 305؛ ● أبو

الفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 2/ 185؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، 1/ 206؛ ● وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1971، 2/ 513، 514؛ ● اليافعي اليمني، عبد الله، مرآة الجنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط2، 1390هـ/ 1970م، 3/ 81 - 82 .

الحبيب بن طاهر

وزارة الشؤون الدينية - تونس

البيهقي، أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي صالح

(470هـ/1077م - 544هـ/1150م)

أحمد بن علي بن أبي صالح الإمام أبو جعفر البيهقي السيزواري [هدية العارفين، 1/ 84]، وفي معجم الأدباء أحمد بن علي بن أبي جعفر محمد بن أبي صالح البيهقي، وفي الوافي وبغية الوعاة أحمد بن علي بن محمد بن أحمد أبو جعفر، وفي إنباه الرواة أحمد بن علي أبو جعفر بن أبي صالح. نحوي مقرىء ومفسر، معروف ببوجعفرك. تفيد الكاف المزيدة في آخر الاسم الفارسي مقولة التصغير، وتقابل كلمة «بو» الفارسية كلمة أبو العربية الدالة على الكنية [إنباه الرواة، 1/ 90].

والبَيْهقي بفتح الباء وسكون الياء نسبة إلى بيهق وهي مجموعة قرى مجتمعة بنواحي نيسابور، فهو نزيل نيسابور وعالمها. وتقدمه دائرة المعارف الإسلامية على أنه لغوي عربي [4/ 34].

جاء على لسان صلاح الدين الصفدي أن تاج الدين محمود بن أبي المعالي الخواري قال عن البيهقي في مقدمة كتاب «ضالة الأديب» إنه كان إماما في القراءات والأدب [الوافي بالوفيات، 7/ 215]، وكان علما في النحو واللغة وجيّد القياس وصنف في ذلك التصانيف الكثيرة.

ولد البيهقي في حدود سنة سبعين وأربع مائة هجريا الموافق لسنة سبع وسبعين وألف ميلاديا بواحدة من قرى البيهق، وتوفي في مشيخة أبيه عن مرض قليل يوم الثلاثاء بعد العصر آخر أيام شهر رمضان 544هـ/ 1150م [بغية الوعاة، 1/ 364؛ إنباه الرواة، 1/ 89]؛ وصلي عليه يوم العيد في الدهليز المتصل بالجامع القديم، وحضر جنازته خلق كثير تزاحموا عليه، ودفن بمقبرة نوح [إنباه الرواة، 1/ 90]. كان البيهقي متديّنا فاضلا وزاهدا ملازما لبيته لا يخرج منه إلاّ في أوقات الصلاة إلى المسجد العتيق بنيسابور،

لأنه كان إماما وكان لا يزور أحدا بل يزوره الناس للتبرّك به والتعلّم منه.

سمع أحمد بن علي البيهقي من القاضي أبي نصر أحمد بن محمد بن صاعد، وأبي الحسن علي بن الحسين ابن العباس الصندلي، وقرأ على أبي الفضل أحمد بن محمد الميداني كتاب الصحاح في اللغة للجوهري وكتبا كثيرة أخرى، ويذكر أنّه حفظ الصحاح على ظهر قلب بعد ما قرأه على أستاذه الميداني.

ظهر للبيهقي أصحاب نجباء وتخرّج عنه تلاميذ كثيرون ودوّنت بعض الأقلام مكانته العلمية، فمدحه علي بن محمد بن علي الجويني بقصيدة ذكر فيها كتابه المشهور «تاج المصادر» [الوافي بالوفيات، 7/ 215؛ معجم الأدباء، 4/ 51]. يقول الجويني في مطلع قصيدته:

أيا جعفريًا من جعافر فضله ... مواردُ منها قد صفتْ ومصادر

كتابك ذا غِيلٌ تأشّبَ نبتُه ... وأنت به ليثٌ بخفّان خادِر

لبستَ صدار الصدر يا خير مصْدر ... مصادر لا ينهى إليها المصادر

آثاره

له مؤلفات مشهورة بقي منها:

1 ـ المحيط بلغات القرآن؛ 2 ـ ينابيع اللغة، جرد فيه صحاح اللغة من الشواهد وضمّ إليه من تهذيب اللغة لمحمد الأزهري (ت 370هـ/ 981م) ومن الشامل لأبي منصور الجبان، والمقاييس لأحمد بن فارس (ت 395هـ/ 986م)، قدرًا من الفرائد والفوائد [الوافي بالوفيات، 7/ 215؛ كشف الظنون، 2/ 2052]. وجاء ينابيع اللغة في حجم الصحاح للجوهري. قال عنه ياقوت الحموي: «هو كتاب صالح كبير الحجم يقرب حجمه من الصحاح» [معجم الأدباء، 4/ 50]؛ 3 ـ تاج المصادر، جمع فيه الإمام البيهقي مصادر القرآن ومصادر الأحاديث وجردها عن الأمثال والأشعار وأتبعها الأفعال التي تكثر في دواوين العرب [إنباه الرواة، 1/ 89؛ كشف الظنون، 1/ 269]، يفتتح الكتاب بقوله: «الحمد لله ربّ العالمين حمدا يفوق حمد الشاكرين» [كشف الظنون، 1/ 269]. وقد بقي من مؤلفاته تاج المصادر وعليه شروح باللغة الفارسية.

المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت (ت 626هـ)، معجم الأدباء، 20 جزءا، مطبوعات دار المأمون، الطبعة الأخيرة د.ت؛ ● القفطي، جمال الدين (ت 646هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، مطبعة دار الكتب المصرية 1952؛ ● الصفدي، صلاح الدين (ت 764هـ)، الوافي بالوفيات، 22 جزءا، الجزء 7، مطبعة دار النشر فرانز شتايز فيسبادن باعتناء إحسان عباس؛ ● الذهبي، الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت 774هـ)، تذكرة الحفاظ، 4 أجزاء، دار التراث العربي؛ ● السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ)، بغية الوعاة، جزءان، تح. أبو الفضل ابراهيم، ط2، 1979، دار الفكر؛ ● الداودي، شمس الدين محمد بن علي بن محمد (ت945هـ)، طبقات المفسرين، جزءان، تح. علي محمد

عمر، ط 1، القاهرة 1976، مكتبة وهبه؛ ● حاجي خليفة (ت 1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 4 أجزاء، دار الفكر؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين، جزءان، بيروت 1955، منشورات مكتبة المثنى؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دمشق 1960، مطبعة الترقي؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت 1976، ط 14، دار العلم للملايين، 1/ 173؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت أفندي وأحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، المجلد الرابع.

د. زكية السائح دحماني
الجامعة التونسية

البيهقي، أبو الحسن بن أبي القاسم علي بن زيد

(499هـ/ 1106م - 565هـ/ 1170م)

هو أبو الحسن بن أبي القاسم، علي بن زيد بن محمد بن الحسين، ظهير الدين البيهقي، الشّافعي، عالم، أديب، ناثر، شاعر، مشارك في الفقه، وعلم الأصول، والفرائض، والحساب، واللّغة، والعروض، والطبّ، والحكمة، وعلم الكلام، والتّاريخ، وغيرها. وقد كتب جزءًا من سيرته في كتابه «كتاب مشارب التّجارب»، ونقل ذلك ياقوت الحموي في معجم الأدباء، نقدّمها مختصرة فيما يأتي.

ذكر أنّ نسبه ينتهي إلى الصّحابي «خزيمة بن ثابت» ذي الشّهادتين، صاحب رسول الله ﷺ، ومن الأوس من الأنصار. ولد يوم السّبت سابع وعشرين من شعبان في قصبة السابزوار من ناحية بيهق، وهناك أسلمه أبوه للكتّاب، ثمّ رحلوا إلى ناحية ششتمند من قرى تلك النّاحية، وحفظ عددًا من الكتب في صباه، منها «كتاب الهادي» للشاوي، و«تصنيف الميداني»، و«كتاب السّامي في الأسامي» له، و«كتاب المصادر»، للقاضي الزوزني، و«كتاب غريب القرآن» للعزيزي، و«كتاب إصلاح المنطق»، و«كتاب المنتحل» للميكالي، وأشعار المتنبّي والحماسة وغيرها. وحضر في شهور سنة 514هـ كتّاب «أبي جعفر المقرئ» إمام الجامع القديم بنيسابور مصنّف «كتاب ينابيع اللّغة»، وحفظ من كتبه وقرأ عليه غيرها. ثمّ حضر درس الإمام أحمد بن محمد الميداني في محرّم سنة 516 هـ، وصحّح عليه عددًا من الكتب من تأليفه، وتأليف غيره، واختلف إلى الإمام إبراهيم الحرّار المتكلّم، والإمام محمد الغزاوي. ومات والده سلخ جمادى الآخرة سنة 517 هـ، ثمّ انتقل إلى مرو في ذي الحجّة سنة 518 هـ. وقرأ على أبي سعيد يحيى بن

عبد الملك بن صاعد، وخاض في المناظرة والمحاولة، سنة جرداء، حتّى رضي عن نفسه، ورضي عنه أستاذه. ثمّ انصرف عن مرو في ربيع الأوّل سنة 521هـ، بعد أن تزوّج زواجًا صدّه عن التّحصيل صدًا، ثمّ عاد إلى نيسابور فمسقط رأسه زائرًا والدته ببيهق وأقام بها ثلاثة أشهر. وصاهر شهاب الدين محمد بن مسعود المختار والي الرّيّ، الّذي فوّض إليه قضاء بيهق في جمادى الأولى سنة 526هـ فضاق ذرعًا بذلك، فقصد كورة الرّيّ في أوّل شوّال سنة 526هـ وتلقّاه الوالي وأكابرها بالإجلال، وأقام بها إلى 27 جمادى الأولى سنة 527هـ.

في هذه المدّة صار ينظر في الحساب، والجبر، والمقابلة، وطرف من الأحكام، وأتمّ هذه الصّناعة على أستاذ خراسان عثمان بن جاذوكان، وصار فيها مشارًا إليه، ثمّ انتقل إلى سرخس، ودرس على قطب الدين محمد المروزي الملقب بـ «الطبسي»، و«النّصيري» لمدّة سنتين، ثمّ انتقل معه إلى نيسابور لأربع سنوات أخرى، وعاد بعدها لأشهر إلى بيهق، ثمّ إلى نيسابور يدرس في مساجدها وأقام بها من رمضان سنة 537هـ إلى غرّة رجب سنة 549هـ ثمّ ارتحل عنها لزيارة والدته الّتي ماتت في هذه السّنة ومات ولده أحمد، وأخيرًا وافته المنيّة سنة 565هـ في مرو.

آثاره

أ ـ المطبوعة:

1 ـ تاريخ حكماء الإسلام، نشرة محمد شفيع، لاهور، 1935م؛ ونشره محمد كرد علي، المجمع العلمي العربي، دمشق، 1946م، و ط. 2، 1976م؛ 2 ـ تاريخ بيهقي، (بالفارسيّة)، نشره غني وفياض، طهران، مطبعة البنك ملي، طهران، 1945م.

ب ـ المخطوطة:

ذكر البيهقي فيما كتبه عن نفسه في كتاب «مشارب التّجارب»، أنّه صنّف:

1 ـ كتاب أسولة القرآن مع الأجوبة؛ 2 ـ كتاب إعجاز القرآن؛ 3 ـ كتاب الإفادة في كلمة الشّهادة؛ 4 ـ كتاب المختصر من الفرائض؛ 5 ـ كتاب الفرائض بالجدول؛ 6 ـ كتاب أصول الفقه؛ 7 ـ كتاب قرائن آيات القرآن؛ 8 ـ كتاب معارج نهج البلاغة؛ 9 ـ كتاب نهج الإرشاد في الأصول؛ 10 ـ كتاب إيضاح البراهين في الأصول؛ 11 ـ كتاب الإفادة في إثبات الحشر والإعادة؛ 12 ـ كتاب تحفة السّادة؛ 13 ـ كتاب التّحرير في التّذكير؛ 14 ـ كتاب الوقيعة في منكر الشّريعة؛ 15 ـ كتاب تنبيه العلماء على تمويه المتشبّهين بالعلماء؛ 16 ـ كتاب أزاهير الرّياض المريعة، وتفسير ألفاظ المحاورة والشّريعة؛ 17 ـ كتاب أشعاره؛ 18 ـ كتاب درر السّحاب ودرر السّحاب في الرّسائل؛ 19 ـ كتاب طرق الوسائل إلى حدائق الرّسائل؛ 20 ـ كتاب الرّسائل، (بالفارسيّة)؛ 21 ـ كتاب رسائله المتفرّقة؛ 22 ـ كتاب عقود اللآلي؛ 23 ـ كتاب غرر الأمثال، (مجلّدان)؛ 24 ـ كتاب الانتصار من الأشرار؛ 25 ـ كتاب الاعتبار بالإقبال والإدبار؛ 26 ـ كتاب وشاح دمية القصر، (مجلّد ضخم)؛ 27 ـ كتاب أسرار الإعتذار؛ 28 ـ كتاب شرح مشكلات المقامات

الحريريّة؛ 29 ـ كتاب درّة الوشاح، تتمّة كتاب الوشاح؛ 30 ـ كتاب العروض؛ 31 ـ كتاب أزهار أشجار الأشعار؛ 32 ـ كتاب عقود المضاحك، (بالفارسيّة)؛ 33 ـ كتاب نصائح الكبراء، بالفارسيّة؛ 34 ـ كتاب آداب السّفر؛ 35 ـ كتاب مجامع الأمثال وبدائع الأقوال، (أربعة مجلّدات)؛ 36 ـ كتاب مشارب التّجارب، (أربعة مجلّدات)؛ 37 ـ كتاب ذخائر الحكم؛ 38 ـ كتاب شرح الموجز المعجز؛ 39 ـ كتاب أسرار الحكم؛ 40 ـ كتاب عرائس النّفائس؛ 41 ـ كتاب أطعمة المرضى؛ 42 ـ كتاب المعالجات الاعتباريّة؛ 43 ـ كتاب تتمّة صوان الحكمة، (وهو كتاب تاريخ حكماء الإسلام المنشور)؛ 44 ـ كتاب السّموم؛ 45 ـ كتاب في الحساب؛ 46 ـ كتاب خلاصة الزّيجة؛ 47 ـ كتاب خواص الأدوية ومنافعها، مجلّد ضخم؛ 48 ـ كتاب جوامع الأحكام، (ثلاثة مجلّدات)؛ 49 ـ كتاب أمثلة الأعمال النّجوميّة؛ 50 ـ كتاب في مؤامرات الأعمال النّجوميّة؛ 51 ـ كتاب غرر الأقيسة؛ 52 ـ كتاب معرفة ذات الحلق والكرة والاضطراب؛ 53 ـ كتاب أحكام القرانات؛ 54 ـ كتاب ربيع القرانات؛ 55 ـ كتاب رياحين العقول؛ 56 ـ كتاب الإراحة عن شدائد المساحة؛ 57 ـ كتاب حصص الأصفياء في قصص الأنبياء على طريقة البلغاء، (بالفارسيّة، مجلّدان)؛ 58 ـ كتاب المشتهر في نقض المعتبر الّذي صنّفه الحكيم أبو البركات؛ 59 ـ كتاب الأنس ودساتين الحدس في براهيم النّفس؛ 60 ـ كتاب مناهج الدّرجات في شرح كتاب النّجاة، (ثلاثة مجلّدات)؛ 61 ـ كتاب الامارات في شرح الإشارات؛ 62 ـ كتاب التّشبيهات على خفايا المختلطات بالجداول؛ 63 ـ كتاب شرح رسالة الطيور؛ 64 ـ كتاب شرح الحماسة؛ 65 ـ كتاب شرح الرّسالة العطارة في مدح بني الزّيارة؛ 66 ـ كتاب تعليقات فصول بقراط؛ 67 ـ كتاب شرح شعر البحتري وأبي تمّام؛ 68 ـ كتاب شرح شهاب الأخبار للقضاعي؛ 69 ـ كتاب لباب الأنساب. . . إلخ.

المصادر والمراجع

- جبري، شفيق، مجلّة المجمع العلمي العربي، مجلّد 23/ 74ك؛ ● جواد مصطفى، مجلّة المجمع العلمي العربي، مجلّد 22/ 181 ـ 186، 380 ـ 381؛
- حسن سعد محمد، مجلّة الثّقافة، سلسلة 10، عدد 51/ 22 ـ 23؛
- صليبا، جميل، مجلّة المجمع العلمي العربي، مجلّد 21/ 548 ـ 550؛
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 290؛
- Hussain, Islamic Culture, XXVIII, 297, 318.

د. عبد المجيد نصير

جامعة العلوم والتكنولوجيا ـ الأردن

البيهقي، محمد بن أحمد المعموري

(ت 485هـ/ 1092م)

محمد بن أحمد المعموري، البيهقي الأصل والمولد، حكيم وأديب ونحوي ورياضي وفلكي وراصد، ليست لدينا معلومات وافية عن سيرته سوى الإشارات القليلة التي أشارت إليها المصادر التي ترجمت له، فقد ذكرت أنه عاش أيام الخليفة العباسي، أبي العباس عبد الله المقتدي بالله (ت 487هـ/ 1094م) أيام تسلّط السلاجقة.

واتفق أنّه ارتحل إلى أصفهان بسبب الرصد الذي أمره بعمله السلطان ملكشاه، جلال الدولة محمد ألب أرسلان (ت 485هـ/ 1092م)، فبقي في أصفهان إلى أيام ولده محمد بن ملكشاه (ت 511هـ/ 1117م)، وصادف في تلك الأيام حركات الباطنية في مناطق الجبال حيث أحرق السلطان محمد قلاع الباطنية، فلمّا رأى المعموري تسيير درجة طالعه التي هي الهيلاج متّصلة بجرم نحس وشعاع نحس، والهيلاج أحد الهيالج الخمسة هي الشمس والقمر والطالع وسهم السعادة وجر الاجتماع أو الاستقبال، وهي أدلّة العمر، وذلك أنها تسير إلى السعود والنحوس، ومعنى التسيير أن ينظر كم بين الهيلاج وكم بين السعد والنحس فيؤخذ لكل درجة سنة، فيقال تصيبه السعادة أو النكبة إلى كذا وكذا سنة [تاريخ حكماء الإسلام، 164] فخاف ذلك الاتصال، فخرج من دار السلطان، وكان فيها محترما مقدرا من السلطان مكفي المؤونة، ودخل دار صديق له وانزوى في زاوية بيته، فلمّا أخذوا باطنيا وجرّوه إلى موضع الإحراق علت الناس السطوح للنظر إليه، فعثرت امرأة على سطح ذلك البيت الذي فيه المعموري فغضبت وصاحت وقالت: معاشر الناس في هذا البيت قرمطي؛ فدخلوا الدار وأخذوه وقتلوه على سبيل الغلط سنة 485هـ/ 1092م. أما الصفدي فيذكر أنه انتقل إلى إصبهان لخدمة تاج الملك أبو الغنائم بن المرزبان الوزير الذي تولّى الوزارة بعد الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي المعروف بنظام الملك (ت 485هـ)؛ وكان قد نظر في زيجه طالعه، فرأى من التسييرات إلى القواطع وشعاع النحوس ما يدلّ على الخوف، فأغلق باب داره فأخرج وقتل [الوافي بالوفيات، 2/ 75].

ويقول البيهقي ظهير الدين علي فلمّا أخرج مقتولا عرفه أولياء السلطان، فلاموا الناس وما نفع اللوم ولا الحذر من القضاء المحتوم ولا تأخير الأجل المسمّى ولا مفرّ من العواقب [تاريخ حكماء الإسلام، 164]، كان للمعموري كما تذكر مصادر ترجمته مكانة علمية كبيرة، وصفه ياقوت فقال: كان من علية الحكماء والأئمة، وقد ألقت العلوم إليه أطراف الأزمّة [معجم الأدباء، 6/ 335].

وقال البيهقي: «وكان تلو بني موسى بن شاكر في الرياضيات، والأعمال التي تتعلّق بالحيل والأثقال وغير ذلك، والإمام عمر الخيام

يعترف بتبريزه ومتانته في تلك العلوم» [تاريخ حكماء الإسلام، 163].

ومن أقواله: القدر من سر الله الأعظم. كل ما يصلح جانبا ويفسد جانبا آخر ليس بحسن. كل ما يزيد في العلم ينقص من الجهل.

وقال: الغاية إما ناموسية، وإما طبيعية، وإما صناعية، وإما اتفاقية. فالناموسية هي التي تبلغ إليها بالرأي الثاقبة، والطبيعة ما تبلغ إليها الطبيعة في زمان، والصناعية هي مقصود الصناعة كالكن للبيت، والغاية التي هي بالبخت والاتفاق هي التي يصادفها الإنسان من غير قصد. وقال: لكل علم موضوع ومبادىء ومسائل، فالموضوع هو المنظور فيه، والمبادىء المبرهن عليها، والمسائل مبرهن عليها [تاريخ حكماء الإسلام، 165]

والمعموري أديب وشاعر ومن شعره:

دعـــاك الـــربيـــعُ وأيـــامُـــه
ألا فـاسـتـمـع قـولَ داعٍ نـصـوحْ

يـقـول اشـرب الـراح وردیـة
ففـي الـراح يـا صـاح روحٌ وراحْ

وغـنـى البـلابـل عـنـدَ الصـبـاح
لأهـل الشـراب الصبـوحِ الصبـوحْ

آثاره

ألف المعموري عدة كتب ذكرتها المصادر التي ترجمت له منها:

1 ـ كتاب دقائق المخروطات، يقول البيهقي ما سبقه به أحد. ويسمّيه الصفدي في المخروطات والهندسة [الوافي، 2/ 75]؛ 2 ـ كتاب التصريف، مجدول؛ 3 ـ كتاب في النحو؛ 4 ـ كتاب في الحيل والأثقال.

المصادر والمراجع

● البيهقي، ظهير الدين علي أبو الحسن، تاريخ حكماء الإسلام، تح. محمد كرد علي، دمشق 1988، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 163 ـ 165؛ ● ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، طبعة حيدر آباد الدكن، 9/ 64، 69، 196؛ ● ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم الأدباء، طبعة مرجليوت، 6/ 335؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، باعتناء س. ديدرينغ، فيسبادن 1981، 2/ 75؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، 6/ 208؛ ● عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 9/ 22؛ ● زهير حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة 1995م، 2/ 260.

د. نبيلة عبد المنعم داود
مركز التراث الحضاري ـ بغداد

بيهم، محمد جميل

(1305هـ/1887م - 1399هـ/1978م)

هو محمد جميل بيهم، مؤرّخ، ومفكّر، وسياسي. ولد العام 1887م في منطقة المصيطبة في بيروت. تلقّى علومه الابتدائيّة في المدرسة العثمانيّة، ثمّ في مدرسة «الليسه» الفرنسيّة. وتابع دراساته العليا في باريس حيث حصل على شهادة الدّكتوراه.

تبوّأ مراكز علميّة، وثقافيّة، واجتماعيّة عديدة، أبرزها:

- عضو في جمعيّة المقاصد الخيريّة الاسلاميّة، 1905م.
- عضو في أكاديميّة التّاريخ العالمي في باريس، 1927م.
- رئيس المجمع العلمي اللّبناني، 1929م.
- رئيس جمعيّة إخوان الثّقافة في لبنان، 1942م.
- عضو المجمع العلمي العراقي، 1952 - 1964م.
- عضو اللّجنة التّنفيذيّة لمجلس أرميكان العالمي في لاهور، 1952م.
- عضو مجمع اللّغة العربيّة في دمشق، 1964م.
- عضو في المكتب العالمي لإلغاء الاتّجار بالانسان في لندن، 1964م.

في العام 1908م انتخب عضوًا في الجمعيّة الخيريّة الاسلاميّة الّتي تشكّلت في الآستانة. ثمّ انتخبت الجمعيّة مؤسّسين لفرعها في بيروت كان بيهم من بينهم.

وفي العام 1919م انتخب لعضويّة المؤتمر السوري الّذي عقد في دمشق. وفي العام التّالي انتخب عضوًا في «لجنة القانون الاساسي الّتي تؤكّد انفصال سوريا عن لبنان»، لكنّه رفض لتمسّكه بالوحدة السّوريّة - اللّبنانيّة.

انتخب العام 1929م رئيسا لاتّحاد الشّبيبة الاسلاميّة الّتي كان هدفها المطالبة بحقوق المسلمين. وكان في الوقت نفسه عضوًا في حزب الاصلاح السّوري.

استمرّ بيهم في عمله ضمن الإطار الاسلامي من خلال الكتلة الاسلاميّة التي نشأت العام 1942م وانتخب رئيسًا لها. وقد تألّفت من مجموعة من المفكّرين والأدباء وكانت مهمّتها إظهار وجهة نظر الطّوائف الاسلاميّة كلّها من النّواحي الحقوقيّة، والمعنويّة، والسّياسيّة.

على الصّعيد السّياسي: دافع بيهم عن الوحدة العربيّة الشّاملة وأكّد عروبة لبنان منذ عهد الأمير فخر الدين المعني الثّاني. وتجلّت عروبته ووحدويّته عندما أعلن الانتداب الفرنسي دولة لبنان الكبير العام 1920م. فقد رفض الانضمام إلى لجنة القانون الأساسي الّتي أوجدها الفرنسيّون بعد انفصال سوريا عن لبنان. وطالب بالعودة إلى الوحدة السّوريّة على أساس المركزيّة عام 1922م.

كما رفض تولّي مناصب أو وظائف في الدّولة المنتدبة إيمانًا منه بأنّ هذا يعتبر تكريسًا للتّجزئة بين سوريا ولبنان.
وفي العام 1923م طالب مع بعض السّياسيّين المسلمين بالعودة إلى الوحدة السّوريّة على أساس اللاّمركزيّة.
واستمرارًا لموقفه الدّاعم للوحدة السّوريّة شارك في العام 1933م في المؤتمر الّذي عقد في منزل سليم علي سلام وطالب فيه المجتمعون بالوحدة السّوريّة العامّة. كما شارك للغاية عينها في مؤتمر السّاحل العام 1936م.
حارب بدعة إحلال اللّغة العاميّة محلّ الفصحى في عهدي الانتداب والاستقلال واعتبارها صالحة للحصول على شهادة البكالوريا أسوة باللّغتين العربيّة والفرنسيّة. فقد جابهها بكثير من الاحتجاجات على المستوى الشّخصي والجماعي وبرئاسته.
عمل بيهم من أجل القضيّة الفلسطينيّة منذ بدء نشاطه العام، وقد أدرك خطورة الصّهيونيّة وأبعادها، فكتب، وحاضر، وتحرّك، وشارك في اجتماعات ومؤتمرات محليّة، وقوميّة خارجيّة. وراسل عددًا من زعماء العالم للاهتمام بالقضيّة الفلسطينيّة وللعفو عن بعض الفلسطنيّين المحكوم عليهم بالاعدام.
وفي آب من العام 1944م تألّف «اتّحاد الاحزاب اللّبنانيّة لمكافحة الصّهيونيّة» برئاسة بيهم، وضمّ شخصيّات من مختلف الهيئات والأحزاب في لبنان للعمل من أجل القضيّة الفلسطينيّة. واستمرّ بيهم يدافع عنها حتّى أواخر العام 1973م.
وعلى الصعيد الاجتماعي: آمن بيهم بحقوق المرأة وبقدرتها على العطاء، فراح يدافع عنها وينادي في مؤلّفاته ومحاضراته ومقالاته حولها بتحريرها وتثقيفها وإتاحة الفرصة لها لتصبح عنصرًا فعالاً في المجتمع.
وكانت أوّل مبادرة له اشتراكه في المؤتمر النّسائي في الجامعة الأميركيّة العام 1919م، ثمّ في أوّل مؤتمر نسائي عام عقد في بيروت العام 1921م. وفي العام 1922م شارك في حفلة أقيمت لتكريم الأديبة ميّ زيادة. كما دعي إلى بغداد لإلقاء محاضرة حول المرأة العام 1927م. طالب بيهم بالمساواة الكاملة بين الرّجل والمرأة سواء في الفطرة والانسانيّة أو في الحريّة الذّاتيّة أو في طلب العلم، والعمل، والكسب.
توفّي محمد جميل بيهم في شهر آيار من العام 1978م عن عمر يناهز الحادية والتّسعين.
يعتبر محمد جميل بيهم من المؤرّخين المعروفين في التّاريخ اللّبناني والعربي الحديث والمعاصر. كما يعتبر مصلحًا اسلاميًا وداعية وطنيًا وقوميًا، ونصيرًا للمرأة الملتزمة بثوابت الخلق والدّين. فقد حاول فتح عيون العرب على المشاكل والمخاطر الّتي تتعرّض لها الأمّة العربيّة وتهدّد مصيرها، متطلّعًا إلى مستقبل أفضل متحرّرًا من كلّ الرّواسب الّتي تعيق تقدّمها وتطوّرها.
وظلّ على إيمانه يدافع بالفكر والعمل، بالكتابة والقول، حتّى آخر لحظات حياته، وكانت مؤلّفاته وأعماله صدى لما يعتمل في الوطن العربي وما يجري فيه من أحداث.
وصرف معظم حياته في الدّراسة والكتابة والتّأليف، وترك حوالي ثلاثين مؤلّفا بالعربيّة وأبحاثًا باللّغة الأجنبيّة وبعض المخطوطات القيّمة.

آثاره

مؤلّفاته:

أ ـ في تاريخ لبنان:

1 ـ العهد المخضرم في سوريا ولبنان 1918 ـ 1922م، طبع في بيروت، 1962م؛ 2 ـ عروبة لبنان: تطوّرها في القديم والحديث، طبع في بيروت، 1969م؛ 3 ـ لبنان بين مشرّق ومغرّب 1920 ـ 1969م، بيروت، 1969م؛ 4 ـ النّزعات السّياسيّة بلبنان عهد الانتداب والاحتلال 1918 ـ 1945م، جامعة بيروت العربيّة، 1977م.

ب ـ في تاريخ العالم العربي:

5 ـ الانتدابان في العراق وسوريا، بيروت، 1931م؛ 6 ـ فلسطين أندلس الشّرق، بيروت، 1946م؛ 7 ـ قوافل العروبة ومواكبها خلال العصر، صدر في جزأين، الجزء الأوّل، بيروت، 1948م؛ الجزء الثّاني، بيروت، 1949م؛ 8 ـ الحلقة المفقودة في تاريخ العرب، بيروت، 1950م؛ 9 ـ العروبة والشّعوبيّات الحديثة، بيروت، 1957م؛ 10 ـ عالم حرّ حديث في آسيا وافريقيا والعالم العربي، بيروت، 1964م؛ 11 ـ الوحدة العربيّة بين المدّ والجزر والعرب ما بين التّقارب والتّباعد 1868 ـ 1972م، بيروت، 1973م؛ 12 ـ دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل، بيروت، 1974م.

ج ـ في تاريخ الدّولة العثمانيّة والتّرك:

* في السّياسة الدّوليّة:

13 ـ واشنطن تعبّد الطّرق لموسكو في بلاد العرب والمسلمين، بيروت، 1954م؛ 14 ـ أسرار ما وراء السّتار: الاتّحاد السّوفياتي والصّين الشّعبيّة كأنّك تراهما.

* في تاريخ المرأة:

15 ـ المرأة في التّاريخ والشّرائع، بيروت، 1921م؛ 16 ـ المرأة في التّمدّن الحديث، بيروت، 1927م؛ 17 ـ فتاة الشّرق في حضارة الغرب، بيروت، 1952م؛ 18 ـ المرأة في حضارة العرب والعرب في تاريخ المرأة، بيروت، 1962م.

* في تاريخ الاسلام:

19 ـ فلسفة تاريخ محمد، بيروت، 1961م.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب

● محمد جميل بيهم، عروبة لبنان وتطوّرها في القديم والحديث، ص 206 ـ 209، بيروت، 1969م؛ ● محمد جميل بيهم، فلسطين أندلس الشرق، ص 60، بيروت، 1946م. ● مذكّرات سليم علي سلام (1868 ـ 1938م)، مع دراسة للعلاقات العثمانيّة ـ العربيّة والعلاقات الفرنسيّة ـ اللّبنانيّة، ص 59، 86، 121 ـ 122، 301، قدّم لها وحقّقها وعلّق على هوامشها الدّكتور حسن علي حلاق، الدار الجامعيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1981م؛ ● مجموعة من الباحثين، مؤرّخون أعلام من لبنان، بإشراف الدّكتور مسعود ضاهر، ط. 10، ص 391 ـ 436، دار النّضال، بيروت، 1997م؛ ● المؤرّخ العلاّمة محمد جميل بيهم (1887 ـ 1978م)، حسان حلاق،

ص 19 ـ 37، بيروت، 1980م؛ ● محمد جميل بيهم، النّزاعات السّياسيّة بلبنان عهد الانتداب والاحتلال 1918 ـ 1945م، ص 34 ـ 35، جامعة بيروت العربيّة، 1977م؛ ● محمد جميل بيهم، الوحدة العربيّة بين المدّ والجزر والعرب ما بين التّقارب والتّباعد 1868 ـ 1972م، ص 6 ـ 7، بيروت، 1973م.

2 ـ الجرائد والمجلاّت:

● ألف باء، بيروت، 10 كانون الأوّل 1928م؛ ● جريدة الأحرار، 25 تشرين الثّاني 1925م؛ ● جريدة الأحوال، 6 نيسان 1961م؛ ● جريدة البرق، 8 أيلول 1921م؛ 14 أيار 1931م؛ ● جريدة الجوائب، 2 أيار 1928م؛ ● جريدة العالم العراقي، 21 نيسان 1927م؛ ● جريدة العراق، 19 نيسان 1927م؛ ● العهد الجديد، 12 تشرين الثّاني 1929م؛ ● النّواء، 1 حزيران 1978م؛ ● مجلّة الفجر، المجلّد الأوّل، عدد 3، 1919م؛ ● مجلّة الفكر العربي الاسلامي، العدد الثّاني، بيروت، شباط 1979م.

د. جوزاف لبكي
الجامعة اللّبنانيّة ـ لبنان

بيوض، إبراهيم بن عمر

(1313هـ/1899م ـ 1401هـ/1981م)

هو الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، ولد سنة 1313هـ/ 1899م في أحضان والدة من عائلة الحكم بالقرارة بالجزائر، ووالده يعد من أعيان البلد.

دخل كتاب القرية فاستظهر القرآن قبل سن البلوغ. ثم أخذ مبادئ العلوم الشرعية واللغوية على يد مشايخ القرارة المشهورين آنئذ الحاج ابراهيم لبريكي (ت 1911م)، الحاج عمر بن يحيى أمليكي (ت 1921م)، أبو العلا عبد الله (ت 1960م).

حباه الله منذ الصغر مواهب جمة منها الذكاء الوقاد، والحافظة القوية، والفصاحة والبيان، وهو ما أهّله رغم صغر سنه ليخلف شيخه الحاج عمر بن يحي في التدريس، ويتبنى الحركة العلمية، والنهضة الإصلاحية في القرارة.

أصبح عضوا في حلقة العزابة، وهي الهيئة الدينية العليا في القرارة، وما لبث أن اعتلى منبر الوعظ بمسجدها. ثم انتخب رئيسا لحلقتها وهو في الأربعين من عمره.

في 18 شوال 1343هـ/ 21 ماي 1925م أسس معهد الشباب للتعليم الثانوي، وهو

المعروف بمعهد الحياة، و اتخذ له شعارا «الدين و الخلق قبل الثقافة، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد»، وأصبح قبلة للطلاب من داخل الجزائر وخارجها، تخرج منه المئات من طلاب العلم المتخصصين في العلوم الشرعية واللغوية.

في سنة 1931م شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وساهم في صياغة قانونها الأساسي، وانتخب عضوا في إدارتها الأولى، إذ أسندت إليه نيابة أمين المال.

في سنة 1937م أسس جمعية الحياة بالقرارة للإشراف على التعليم الابتدائي والثانوي، وعلى الحركة الفنية والرياضية، والجمعيات الأدبية بها، وما تزال تؤدي رسالتها تلك حتى يومنا هذا.

في سنة 1940م حكمت عليه الإدارة الاستعمارية بالإقامة الجبرية داخل القرارة لا يبرحها، لمدة أربع سنوات، تفرغ خلالها لتكوين ثلة من الطلاب المتفوقين، وهم الذين أصبحوا من رجالات الأمة المحليين، وقادة الحركة الإصلاحية بالجنوب الجزائري.

وفي سنة 1947م دخل معترك الحياة السياسية، فطالب برفع حكم الإدارة العسكرية عن الصحراء و إلحاقها بالشمال.

وفي يوم 20 أبريل انتخب بالأغلبية الساحقة ممثلا لوادي ميزاب في المجلس الجزائري، وأعيد انتخابه سنة 1951م، فكان الصوت المدوي دفاعا عن مقومات الشخصية الجزائرية دينا ولغة.

وما بين 1954 و1962م أصبح محور النشاط الثوري في ميزاب بعامة، والقرارة بخاصة، يعاونه في ذلك زملاؤه في الحركة الإصلاحية، وأبناؤه الطلبة. وقد وقف وقفة بطولية ضد مؤامرة فصل الصحراء عن الجزائر.

وفي مارس 1962م عين عضوا في اللجنة التنفيذية المؤقتة، وأسندت إليه مهمة الشؤون الثقافية إلى يوم تسليم السلطة لأول حكومة جزائرية في سبتمبر من سنة 1962م

وفي سنة 1963م أحي نشاط (مجلس عمي سعيد) الهيئة العليا لمجالس عزابة وادي ميزاب وورجلان، فانتخب رئيسا له إلى يوم وفاته.

كان المجتمع الميزابي في أوائل القرن العشرين يعيش تحت وطأة الحكم الاستعماري العسكري، ووطأة الفقهاء الجامدين؛ أولئك يرهقونه بحكم مستبد، وهؤلاء يعرقلون مسيرته بفكر متزمت، مما أدى إلى ظهور سلبيات عديدة في جميع مجالات الحياة.

وكان على العالم المصلح أن يواجه كل ذلك بحكمة وصبر، فالناس أو بالأحرى العامة غير مؤهلة لتقاوم الحاكم الاستعماري، ولا أن تجابه النفوذ الديني؛ وكان الشيخ بيوض، العالم اليقظ، المتفتح على العالم الإسلامي من حوله يتابع بحرص دعوات الإصلاح التي أخذت ترتفع من هنا وهناك من أطراف العالم العربي ولا سيما حركة العلماء المصلحين في الشرق من أمثال الشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ورشيد رضا، والكواكبي، وشكيب أرسلان، وغيرهم ممن أعجب الشيخ بيوض بمنهجهم، وتشرب أفكارهم من خلال آثارهم وكتبهم، وقد جمعته الصدف ببعضهم مثل شكيب أرسلان الذي التقى به في الحج سنة (1929)، فكان دائم الإشادة بفكره ومواقفه.

وكان قد أحكم الصلات بينه وبين العلماء المصلحين الآخرين في محيط القطر الجزائري من أمثال المشايخ عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، وغيرهم.

وكانت خطته في هذا السبيل واضحة وهي التعاون الجاد لإحياء اللغة العربية لغة القرآن، وتربية الناشئة الجزائرية تربية إسلامية صحيحة والوقوف صفا واحداً أمام مخططات الاستعمار الفرنسي الرامية إلى تفريق الشعب الجزائري على أساس المذهبية، أو الطائفية، أو الجهوية .

وقد برز هذا التعاون داخل جمعية العلماء مدارس تنتشر في كل أنحاء القطر الجزائري وتعطي دروس وعظ وإرشاد، وخطط تفكير وتوجيه على خطى المصلحين حولها كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

نشأ الشيخ بيوض في عهد كانت الصحراء الجزائرية فيه تخضع لنير حكم عسكري فرنسي عتيد يعرقل أو يقضي علنا على كل ما من شأنه تقوية روح الدين الإسلامي، ومقومات حضارته في النفوس .

وباعتباره عضوا في الحلقة الدينية ثم رئيسا لها، وباعتباره رئيس الحركة العلمية الرافعة لراية لغة القرآن، كان لابد أن تكثر بينه وبين الحكام العسكريين المواجهات والاستجوابات والمضايقات، وسجل في تقارير أولئك الحكام أن هذا الشاب مشاغب. ثم تطورت الأحداث ليصبح عندهم عدواً لدوداً بل أصبح أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها وما بعدها العدو رقم واحد لفرنسا، هكذا كان يسمى لديهم.

شارك الشيخ بيوض مشاركة فعالة في الثورة التحريرية، بما قام به من خدمات جليلة سواء في إطار الحركة في الصحراء أو في اتصالاته المباشرة مع الحكومة المؤقتة في المنفى بواسطة تلامذته وإخوانه .

أما المجال الذي برز فيه الشيخ بيوض سياسيا محنكا، ومفاوضا لبقا، ووطنيا ثابتا، فهو موقفه الذي يشهد به الخاص والعام من القضية الصحراوية إذ حاولت فرنسا حين علمت أن الجزائر مستقلة لا محالة أن تمكر بالجزائريين بفصل الصحراء عن الشمال لما في الصحراء من خيرات أهمها البترول والغاز الطبيعي، وقد حاولت السلطات الفرنسية سواء على مستوى الجزائر، أو على مستوى فرنسا، أن تستميل الشيخ بيوض لعلمها بمنزلته العظيمة ولتيقنها بالدور العظيم الذي يقوم به الميزابيون في الاقتصاد الجزائري، ولكن الشيخ بيوض الذي رفض هذه المحاولات، وأفشل هذه الخطط قبل الثورة، ما كان له أن يتلجلج أو يتردد في قول كلمة «لا» قوية صارخة في وجه الاستعمار الفرنسي إيمانا منه بأن الصحراء أرض جزائرية، وجزأ لا يتجزأ منها.

وكان الشيخ بيوض على صلة وثيقة بالحكومة المؤقتة في تونس ينسق معها الخطط ويطلعها على مؤامرات الفرنسيين أولا بأول، ويتبادل مع بعض أعضاء الحكومة الرسائل والمعلومات.

آثاره

إن الشيخ بيوض مثل غيره من رجال الإصلاح الذين كان أغلب وقتهم ينقضي في تكوين الرجال، والاعتناء بمشاكل المجتمع مما لا يبقى معه وقت كثير للانكباب على الكتابة

والتأليف، ومع ذلك فقد كتب بعض المقالات الاجتماعية ذات الطابع التحليلي في العشرينيات والثلاثينيات نشرت في صحافة أبي اليقظان، كما ترك فتاوى كثيرة، ومراسلات ذات أهمية قصوى طبع بعضها ونشر، وبعضها الآخر ما يزال مخطوطا .

غير أن أهم ما ترك الشيخ بيوض هو تفسيره القيم لكتاب الله مستخدما المنهج الإصلاحي الذي عرفت به المدرسة الإصلاحية العبدوية، فكان يعرض المجتمع على كتاب الله تربية وتوجيها؛ وقد استمر مواظبا حريصا على تلك الدروس لا يتخلف عنها إلا لمرض أو سفر . وكانت الآثار التي تركتها دروسه التي غطت قرابة خمسين سنة عميقة عظيمة، فبفضلها عمّت الثقافة الإسلامية البيوت وعرف المجتمع وجه الإسلام الحقيقي، وبفضل دروس الشيخ التي تمتاز بالتحليل والتبسيط في آن واحد، وتملك المستمع بما فيها من فصاحة، وعقل، وأدب وتراث، ومعاصرة .

أ ـ فمن آثاره الفكرية:

1 ـ تفسير كامل للقرآن الكريم، المسجل منه يبدأ من سورة الإسراء إلى سورة الناس، يقع في حوالي 1500 ساعة، حررت في 12497 صفحة؛ 2 ـ مئات الأشرطة لدروس في الدين، والتربية، والاجتماع، والسياسة، والثقافة، وكان يلقيها في المسجد أو في المناسبات والحفلات، وقد نشر بعض منها بعد تحريرها وتحقيقها، من ذلك: 3 ـ المجتمع المسجدي، من تحرير الدكتور محمد ناصر بوحجام، صدرت الطبعة الثانية منه عن دار أبي الشعثاء، عمان، 1409هـ/ 1988م (المقدمة)؛ 4 ـ حديث الشيخ الإمام، في جزأين، من تحرير الشيخ محمد سعيد كعباش، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1996م؛ 5 ـ البدعة: مفهومها و أنواعها وشروطها، تحرير الطالب إبراهيم أبو الأرواح، (مرقون) معهد الحياة، 1998م؛ 6 ـ فضل الصحابة و الرضا عنهم، تحرير الطالب بهون حميد أوجانة، مطبوع، المطبعة العربية، غرداية، 2000م؛ 7 ـ فتاوى الإمام الشيخ بيوض، يقع في جزأين، جمعه و حققه وقدم له الأستاذ الشيخ بالحاج بكير، طبع مرتين في كل من الجزائر وعمان، دار الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1990م؛ 8 ـ ثبوت الهلال بين الرؤية البصرية والمراصد الفلكية، حرره عمر إسماعيل، وقدم له محمد ناصر، صدر عن مكتبة معالي السيد محمد بن أحمد، سلطنة عمان، 1992م؛ 9 ـ مقالات كثيرة في موضوعات مختلفة نشرت بصحف الشيخ أبي اليقظان، ينظر محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، جزءان، نشر (ش،و،ن،ت) الجزائر، 1398هـ/ 1978؛ 10 ـ مذكرات الشيخ بيوض (مخ)، صدر منها «أعمالي في الثورة»، إعداد وتقديم محمد ناصر، نشر جمعية التراث، القرارة، 1990م.

المصادر والمراجع

● في رحاب القرآن، الأجزاء 1 ـ 10، نشر جمعية التراث، القرارة، (1992 ـ 2002م)؛ ● في رحاب القرآن، مختصر تفسير الشيخ بيوض (سورة الكهف، مريم، طه، الأنبياء) تحرير الشيخ الناصر بن محمد المرموري، سلطنة عمان، 1417هـ/ 1996م؛ ● فتاوى الإمام

الشيخ بيوض، جزءان، عمان، 1998م، مكتبة الضامري للنشر و التوزيع، سلطنة؛ ● أعمالي في الثورة، إعداد وتقديم محمد ناصر، القرارة، 1990م، نشر جمعية التراث؛ ● المجتمع المسجدي، إعداد محمد ناصر بوحجام، عمان، 1409هـ/ 1988م، نشر مكتبة أبي الشعثاء؛ ● حديث الشيخ الإمام، إعداد الشيخ محمد سعيد كعباش، غرداية، الجزائر، 1996م، المطبعة العربية؛ ● محمد صالح ناصر، الشيخ بيوض إماما وزعيما، (معد للطبع)؛ ● محمد صالح ناصر، في رحاب القرآن، الإمام الشيخ بيوض، (المهرجان والتأبين)، غرداية، 1989م، نشر جمعية التراث، العطف؛ ● محمد ناصر بوحجام، الشيخ بيوض والعمل السياسي، غرداية، 1412هـ/ 1991م، المطبعة العربية؛ ● جمعية الحياة، الملتقى الأول لفكر الإمام الشيخ بيوض، القرارة، 1421هـ/ 2000م، نشر جمعية التراث؛ ● محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، الأجزاء 1 ـ 5، قسنطينة، 1976 ـ 1982م، مطبعة البعث؛ ● معجم أعلام الإباضية، بيروت، 2000م، دار الغرب الإسلامي، 20 ـ 22.

د. محمد صالح ناصر

مجمع اللغة العربية ـ الجزائر

بيومي أفندى، محمد

(1224هـ/ 1809م ـ 1268هـ/ 1852م)

محمد بيومي، العالم الرياضي. ولد بالقاهرة، وأصله من دهشور (بمحافظة الجيزة). أرسل إلى فرنسا فى بعثة سنة 1241هـ/ 1826م، وبقى فيها تسع سنوات، التحق خلالها بمدرسة الهندسة الفرنسية، وكان ثاني اثنين أرسلا للتخصص فى قوى المياه (الهيدروليكا/ Hydraulique)، وحصل على شهادة الدبلوم.

وفور عودته إلى مصر فى 14 من ذي الحجة 1250هـ/ 13 من أبريل 1835م بدأ نشاطه في ترجمة كتب العلوم الرياضية. وفي الوقت نفسه صدر أمر من محمد على باشا بتعيينه أستاذاً بمدرسة المهندسخانة بالقناطر الخيرية، نظراً إلى تخصصه فى أعمال القناطر فى أثناء بعثته.

وفى شوال 1251هـ/ يناير 1836م انتقل بيومي إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق، بعد أن انضمت إليها مدرسة الهندسة بالقناطر الخيرية. وفي العام نفسه تألف مجلس عام للنظر في تنظيم المدارس وكان بيومي أحد أعضائه، فأولى عناية خاصة بمدرسة المهندسخانة ببولاق، ووضع للدراسة بها

نظاماً متطوراً، يتفق مع نظام مدرسة الهندسة بباريس.

وسرعان ما أصبح بيومي كبيراً للأساتذة بمدرسة المهندسخانة، فتولى الإشراف على عدد من المعيدين الذين عادوا من فرنسا سنة 1836 دون إتمام دراستهم، حتى أصبحوا من أساتذة المهندسخانة، وكان أبرزهم أحمد دقلة وأحمد طائل. وفى العام نفسه كُلِّف بيومي بتنظيم دروس الرياضيات بمدرسة الطوبجية (المدفعية)بطرة، عند إعادة تنظيم المدرسة.

وفي سنة 1255هـ/ 1839م اختير بيومي معاوناً بديوان المدارس (وزارة التربية والتعليم حالياً)، وكان عمله مالياً، يختص بتسلُّم مرتبات المدارس كل شهر. وكان من جملة مهام عمله أن يقوم بترجمة الكتب وتصحيح ما ترجمه الآخرون.

وتعد ترجمة كتب العلوم الرياضية عن الفرنسية هي أبرز إنجازات محمد بيومي. وقد انفرد بترجمة بعض الكتب لتكون في متناول طلاب المهندسخانة، وشارك تلاميذه في ترجمة كتب أخرى؛ كما راجع ما ترجمه زملاؤه وتلاميذه، وكان لا يكتفي بالترجمة بل يطبع كتبه على الحجر في المطبعة التابعة للمدرسة، ويجعل منها كتباً وكراسات للطلاب.

وعند إنشاء قلم الترجمة سنة 1258هـ/ 1841م قُسِّم إلى أربعة أقلام، كان أولها خاصاً بترجمة الكتب الرياضية، وكان بيومي رئيساً له، وعُيِّن لمساعدته ملازم من خريجي الألسن، وخمسة من طلاب فرقتها النهائية، وكانت مهمتهم الإشراف العلمي على ما يترجمه المترجمون من خريجي مدرسة الألسن الذين كانوا مترجمين عامين غير متخصصين في العلوم الرياضية، فتحتاج ترجماتهم إلى مراجعة المتخصص.

ويعد محمد بيومي أستاذاً لجيل كامل من المهندسين والرياضيين، تتلمذ له بالإضافة إلى أحمد دقلة، وأحمد طائل كل من أحمد فايد، وإبراهيم رمضان، وإسماعيل محمد، ومحمود حمدي الفلكي. وقد أطراه معاصره علي مبارك فقال إنه كان «حسن الأخلاق مهيباً جليلاً ذا رأي حسن».

وبقدر ما لقي بيومي من تقدير في عصر محمد علي (1849 ـ 1805) تعرض للاضطهاد في عهد عباس الأول (1854 ـ 1849)، ففي سنة 1267هـ/ 1850م صدر أمر بنقله إلى الخرطوم مدرساً للحساب بمدرسة ابتدائية مع زميله في البعثة إلى باريس رفاعة الطهطاوي الذي نفي إلى السودان كذلك ناظراً لتلك المدرسة الابتدائية.

وفي السودان تأثرت صحة بيومي، وأصابه المرض، فمات ودفن هناك وهو في الحادية والأربعين من عمره.

وذكر أمين سامي في تقويم النيل [2/ 434] أن حكومة فرنسا أرسلت في 1267هـ/ 1850م أحد زملاء بيومي الفرنسيين ليزوره في منفاه، وقام هذا الصديق بكتابة كتاب عنوانه: «بيومي أفندي في منفاه». لكن أحداً غير أمين سامي لم يُشر إلى هذا الكتاب.

آثاره

مترجمات فى مجملها تعليمية، تتضمن مباحث تأسيسية فى العلوم الرياضية:

1 ـ الهندسة الوصفية، وهو ترجمة لكتاب Géometric Descriptive تأليف دوشين

Duchesne، ترجمه بيومي عن الفرنسية، وطبع في مطبعة بولاق، سنة (1252هـ/ 1838م). وهو أول كتاب ترجمه عقب عودته من باريس، ويقع في 79 صفحة، وفي آخره 18 لوحة إيضاحية.

ويتضمن هذا الكتاب تعريفاً بالهندسة الوصفية، وتحديداً لمجالات دراستها، وهي:

(أ) رسم الأجسام على سطوح مستوية، بمعنى أن الجسم الذي له ثلاثة أبعاد يمكن رسمه على سطح مستوٍ ليس له إلا بعدان.

(ب) رسم البلاد على سطح بسيط واحد.

(ج) معرفة الأشياء من بعد رسمها.

ثم يعقد جزءاً يعرف فيه بمصطلحات الهندسة الوصفية:

« ـ الخط الرأسي هو العمود الواقع على سطح الماء الراكد كماء المحيط، والخط العمود على الخط المذكور يسمى خطاً أفقياً».

« ـ الخط المنسوب لنقطة أو جملة نقط مكلفة بقاعدة واحدة يسمى رسماً هندسياً، مثلا الرسم الهندسي المنسوب لمراكز الدوائر المتقاطعة بنقطتين معلومتين هو الخط العمود على الخط الواصل بين النقطتين المذكورتين».

ويعرف بيومي السطوح الظلية أو المماسة للأجسام، والخطوط العمودية على السطوح الظلية هذا بالإضافة إلى تدريبات للطلاب، ومشكلات تحل بطرق الهندسة الوصفية.

2 ـ علم الجبر، وهو كتاب في الجبر والمقابلة، ترجمة لكتاب Cours complets d'Algèbre، تأليف ماير Mayer وقد صدر عن بولاق 1256هـ/ 1840م في 571 صفحة و13 لوحة إيضاحية. ويتناول العمليات الحسابية الخاصة بالكميات الصحيحة والكسرية، والمعادلات، وجذور الكميات الحرفية وحل المعادلات والمسائل المحللة بواسطتها، والدعاوى النظرية للأعداد والمتناسبات والمتواليات والكسور المتسلسلة، والحل غير المحدود للمعادلات بدرجة أولى، ويتضمن 12 باباً منها:

- التوافيق والتراتيب والتباديل.
- اللوغاريتمات وقضاياها.
- الدلالات المتماثلة.
- تقسيم الكميات الجبرية إلى مضاريب أولية، وإيجاد القاسم المشترك الأعظم الجبري.
- البحث عن الجذور الحقيقية للمعادلة الرقمية المشتملة على مجهول واحد.
- مبحث حل معادلتين بمجهولين وبدرجة ما.
- القواسم بدرجة ثانية وتنقيص درجة معادلة وإيجاد المعادلات المنعكسة وحل المعادلات ذات حدين وذات ثلاثة والمعادلات الجذرية.

3 ـ ثمرة الاكتساب في علم الحساب، مترجم عن الفرنسية، صدر عن مطبعة بولاق 1263هـ/ 1847م في جزأين، و400 صفحة. يتناول أهمية علم الحساب، ويشير بيومي في المقدمة إلى أن الكتاب تُرجم من قبل ترجمة غير متقنة، وأنه أعاد ترجمته. ويقدم تعريفاً ببعض المصطلحات المستخدمة، فعلم الحساب «علم به تعرف الأعداد وإجراء الأعمال المتعلقة بها». أما الأعداد فيرى بيومي أنه «لتصور الأعداد تصوراً صحيحاً يلزم أن يعرف أولاً أن الكم أو الكمية كل ما قبل الزيادة والنقصان، وأن الأحد ما يقدر به

الكم ليتعين مقداره لكن لايمكن تقدير كميات مع بعضها إلا اذا كانت من جنس واحد، فحينئذ يتغير الأحد نوعاً واسماً بحسب الكميات المجعول هو لها، إما مقارنة وإما قياسا».

ويعالج الكتاب مباحث تأسيسية في علم الحساب، ككتابة الأعداد والتلفظ بها، والأقيسة القديمة والحديثة، وفي مسائل العد، وفي الجمع والطرح، وطرح الكسور الأعشارية والضرب، وجدول فيثاغورس، والقسمة، بالإضافة إلى تمرينات وأسئلة للطلاب.

4 ـ جامع الثمرات في حساب المثلثات، مترجم عن الفرنسية، تأليف Legendre، صدر عن مطبعة بولاق 1264هـ / 1848 م، ويقع في 112 صفحة. يتضمن تعريفاً بحساب المثلثات وتعريفات أخرى مهمة، يقول إن حساب المثلثات «هو علم به تعرف الطرق السهلة لحل جميع المثلثات، وهي مركبة من ستة أشياء: الأضلاع الثلاثة والزوايا الثلاث، فإذا علمت ثلاثة منها تعلم الثلاثة الباقية بالسهولة، وحينئذ يكفي لحل مثلث ما معرفة ثلاثة منها فقط» [المقدمة، 2].

ـ ويتضمن الكتاب مباحث عن بيان طريقة عمل جدول الجيوب والقواعد المستعملة فى حل المثلثات المستقيمة الأضلاع، وحل المثلثات القائمة الزاوية، وحل المثلثات الكروية، وملحقات تتضمن جميع الحالات المتنوعة لحل مسائل حساب المثلثات، وحل المثلثات المستوية التي فيها زاويتان حادتان جداً، وحل المثلث الكروي الذي ضلعان منه لا يختلفان عن مائة درجة إلا قليلاً وحل المثلثات الكروية التي أضلاعها صغيرة جداً بالنسبة إلى نصف كرة القدم، وحل المثلثات الكروية التي فيها زاويتان حادتان جداً، وطريقة رسم الشكل ذي السبعة عشر ضلعاً المنتظم.

المصادر والمراجع

● الشيال، جمال الدين، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، القاهرة، 1951؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 6/ 61؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، 622؛ ● عبد الكريم، عزت، تاريخ التعليم فى عصر محمد علي، القاهرة، 1938؛ ● مبارك، علي، الخطط التوفيقية، 11/ 68؛ ● طوسون، الأمير عمر، البعثات العلمية في عهد محمد علي، الإسكندرية، 1934.

د. إيمان السعيد جلال
جامعة عين شمس ـ القاهرة

ث

تأبط شراً - ابن التين

تأبط شرّا، ثابت بن جابر بن خالد

(ت 85ق.هـ /540م)

هو ثابت بن جابر بن خالد بن سفيان أحد بني فهم بن عمرو بن قيس عيلان، وأمه من بني القين أحد بطون فهم. ويلحّ ابن الأعرابي على أنه كان صعلوكا زنجيا ممن أطلق عليهم العرب عبارة «غربان العرب» أو «الأغربة السود». وتتوسّع الروايات في ذكر أسباب اشتهاره بلقب تأبّط شرّا. وهي روايات بتفسير قابل للتصديق إذ تقع الإشارة إلى أن الشاعر تأبّط يوما سيفه وخرج، ويقال أيضا تأبّط جفير سهامه تحت إبطه وحمل القوس، ولما رأته أمّة قالت: لقد تأبّط شرًّا.

لكن البعض الآخر يمعن في التعجيب والإغراب فتقع الإشارة إلى أنّ أمه سألته أن يجني لها الكمأة مثل فتيان الحيّ وهي نبات يشبه الفطر فحمل جرابا وملأه لها أفاعي من أكبر ما قدر عليها ثم طرحه أمامها فقالت لقد تأبّط شرّا.

يبلغ التعجيب ذراه في بعض الروايات الأخرى التي يلحّ أصحابها على أن الشاعر رأى كبشا في الصحراء فاحتمله تحت إبطه، فجعل يبول طول الطريق عليه، فرماه فإذا هو الغول. فقال قومه لقد تأبّط شرّا. ومن الرواة من يزعم أنه أتى الغول فألقاه بين يدي أمّه فلهجت بلقبه ذاك فشاع ولزمه .[الأغاني، 18/ 215 ـ 259؛ الاشتقاق، ص. 473؛ اللآلئ في شرح أمالي القالي، ص. 254-255 ؛ المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، ص. 34 ؛ المذاكرة في ألقاب الشعراء، ص. 34 ؛ خزانة الأدب، ص. 254].

سيشكّك العديد من مؤرخي الأدب في هذه التفاسير التي تحيط شخصية تأبّط شرّا بهالة من المهابة ويذهبون إلى أنها محض أكاذيب ابتدعها خيال الرواة. وفي حين يكتفي البغدادي بنعت هذه التفاسير بكونها «حكايات يتعجّب منها العقل لغرابتها» .[خزانة الأدب، ص. 255] سيصنّف النشابي الإربلي هذه الحكايات في دائرة «ما يأباه العقل». [المذاكرة في ألقاب الشعراء، ص. 34]، ويقول عنها ابن حمدون إنها «من أكاذيب العرب ودعاويهم» [التذكرة الحمدونية، ص. 4821]، أمّا أبو العلاء المعرّي فإنه سيجعل تأبّط شرّا نفسه يقول مجيبا ابن القارح: «لقد كنّا في الجاهليّة نتقوّل ونتخرّض، فما جاءك عنّا ممّا ينكره المعقول فإنّه من الأكاذيب». [رسالة الغفران، ص. 168].

غير أن الميل إلى التعجيب لن يقف عند تفسير لقب الشاعر، بل سيشمل أغلب أخباره وصفاته ووقائع حياته، إذ يلحّ العديد من الرواة على أن تأبّط شرّا كان صعلوكا من الشذّاذ الذين يستأنسون بالوحدة حتى أنه كثيرا ما كان يغير على الأحياء والقبائل وحيدا في الليل والنهار فيبطش بالقوم ويغنم، ثم يسرع

فارّا على قدميْه فلا تدركه الخيل. يكتب صاحب الأغاني: «إن تأبّط شرّاً كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة فكان ينظر إلى الظباء فينتقي على نظره أسمنها ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه ثم يشويه». [الأغاني، 18/ 215]. كان تأبّط شرًّا على صلة بالصعلوك الشهير الشنفرى (ت 70ق. هـ/ 554م) وقد رثاه حين قتل ونذر على نفسه أن يثأر له.

لم يكن تأبّط شرّا من الصعاليك الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم وتبرّأت منهم من أمثال قيس ابن الحدادية (ت 15 ق. هـ/ 612م)، وحاجز الأسدي (تاريخ وفاته مجهول) بل ظلّ يؤوب إلى قومه بعد كلّ غاراته ويقيم بين ظهرانيهم. والثابت تاريخيا أن ظاهرة الصعلكة في مجتمع ما قبل الإسلام كانت منتشرة، وسواء كان الصعلوك خليعا طريدًا نبذته قبيلته مثل حاجز الأسدي، وقيس بن الحدادية أو كان من الأغربة السود مثل تأبّط شرّا، والسليك بن السلكة (17 ق. هـ/ 656م)، والشنفرى، فإنه لم يكن ينظر إليه نظرة دونيّة، بل كان مهاب الجانب ممجّدا. فهو فتى يرفض الظّلم ويجمع إلى الشّجاعة ورباطة الجأش، الإقدام وحبّ المغامرة.

وهو شاعر له على الكلمات سلطان واقتدار. لذلك أحاطت الذاكرة الجماعية هؤلاء الصعاليك بهالة من المجد وجنحت أثناء سرد أخبارهم إلى الإغراب والتعجيب.

ولذلك أيضا ستتوسّع الروايات في ذكر أمجاد تأبّط شرّا وتصل إلى حدّ القول بأنه كان يلاقى الغول في الليالي الحالكة القارسة فينازلها ويصرعها أو يلاقيها ويتمكّن لشدّة بأسه ورباطة جأشه من نكاحها ثم يقول في ذلك شعرا [الأغاني، ص. 18/ 215 ؛ الديوان، ص. 77، 222-227].

قُتل تأبّط شرّا في غارة من غاراته على قبيلة بني هذيل فرموا جثّته في غار يقال له رَخْمان. والروايات الواردة في الأغاني تحيطه بهالة من المهابة حتى بعد موته، إذ يقول الأصفهاني إن تأبّط شرّا أصيب في القلب بسهم ومات بين أيدي صحبه الذين أغاروا معه على بني هذيل ويذكر أنه «مات في أيديهم، فانطلقوا وتركوه، فجعل لا يأكل منه سبع ولا طائر إلا مات، فاحتملته هذيل، فألقته في غار يقال له غار رخمان» [الأغاني، ص. 18/ 211].

لا تتجاوز قصائد تأبّط شرّا ومقطّعاته 85 قصيدة ومقطوعة وعدد أبياتها كلّها 381 بيتا. وهي موزّعة في المفضّليات، والشعر والشعراء، والعقد الفريد، والأغاني وغيرها من كتب الأدب. والراجح أن أغلب قصائده تجاوز فيها الستة أبيات لا نكاد نعثر إلا على مقطّعات لا يتعدّى الكثير منها حدود البيت والبيتين. وهي جميعها أشعار تصوّر حياته وما كان من أمره وأمر غاراته وفتكه.

غير أن الناظر فيها من جهة الأغراض التي عليها جريان الشعر العربي يلاحظ أن تأبّط شرّا قد التزم بسنن القول الشعري التي درج الشعراء على اتّباعا في زمانه. فلم يخرج عن الأغراض التي انتظمت الشعر العربي بل تناول أغلبها.

فالتزم بالقيم التي مجّدتها الجماعة وعدّتها علامة الفتوّة باعتبار الفتوّة هي جماع قيم

الشجاعة والفتك والكرم ومكارم الأخلاق. لكنه تصرّف في المعاني التي عليها جريان بعض تلك الأغراض، وغيّر منها وفق ما يتماشى مع نظرة شخص صعلوك خارج على المجتمع القبلي ونظمه. لم يطرق الشاعر غرض المدح إلاّ مرّة واحدة في القصيدة التي مدح بها ابن عمٍّ له يدعى ابن مالك. يقول من الطويل: [ديوانه، ص. 148].

وإنّـي لَـمُـهـدٍ مِـن ثَـنـائِـي فَـقـاصِـدٌ
بِهِ لابْنِ عَمِّ الصِّدقِ شَمسِ بنِ مالِكِ

لكن الناظر في هذه القصيدة المدحية يلاحظ أنها تعدل عن سنن المدح المتعارفة في الشعر العربي منذ الجاهلية. فلقد أسقط الشاعر عنصر النسيب الذي درج الشعراء على الابتداء به في المدح. يزداد هذا العدول عن سنن المدح وضوحا عندما ننظر في القيم التي أسندها الشاعر إلى ممدوحه. فهو يسند إليه جميع خصال الصعلوك العامل الذي يبيت بالفلوات والمفازات وحيدا ويركب ظهور المهالك غير هيّاب من الموت. وينعته بالتباعد عن الناس لأنه يأنس بالوحشة ويهتدي ليلا بالنجوم الطوالع. يقول: [ديوانه، ص. 152-156]

يَـظَـلُّ بِـمَـوْمَـاةٍ ويُـمـسـي بِـغَـيْـرِهـا
جَـحِـيـشًـا وَيَـعْـرَوْرِي ظُـهُـورَ الـمَـهـالِكِ

....

....

يَرى الوَحشَةَ الأُنسَ الأَنيسَ ويَهتَدي
بِحَيثُ اهْتَدَت أُمُّ النُّجومِ الشَّوابِكِ

حتى كأن تأبّط شرّا إنما يصف صعلوكا من أصحابه أو كأنه لا يرى غير صفات الصعلوك جديرة بالثناء والتمجيد فأسندها إلى ابن عمّه الذي لم يكن صعلوكا ولم يتحلّ بخصال الصعلوك، أو كأن الشاعر يصف نفسه ويعدّد خصاله هو ويسندها إلى ممدوحه. فلقد اشتهر تأبّط شرّا بأنه «كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عنين»، وهو يسند هذه الخصلة إلى ممدوحه قائلا: [ديوانه، ص. 152].

وَيَسبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ مِن حَيثُ يَنتَحِي
بِـمُـنْـخَـرِقٍ مِـن شَـدِّهِ الـمُـتَـدارِكِ

وعلى هذه الخصال التي تحلّى بها الصعاليك جريان مجمل قصيدته المدحيّة الوحيدة. حتى أنه حين يصف نوم ممدوحه يحدّث عن خصال صعلوك لا ينام إلاّ وقلبه متيقّظ متحفّز. نقرأ: [ديوانه، ص. 152].

إذا خاطَ عَينَيهِ كَرى النَّومِ لَم يَزَل
لَـهُ كـالِـئٌ مِـن قَـلـبِ شَـيْـحـانَ فـاتِـكِ

هذا التصرفّ في المعاني التي عليها جريان المدح عادة سيطال غرض الفخر ومعانيه أيضا. إذ أسند تأبّط شرّا إلى نفسه القيم المتداولة في الفخر فيحدّث عن بطشه وإقدامه ورباطة جأشه وكرمه. لكنه أورد العديد من المعاني المبتدعة التي لم يسبق إليها. فوسّع من فكرة البطش بالكائنات الوحشية الخارقة والمتخيّلة. إذ افتخر في أكثر من قصيدة ومقطوعة بمنازلته الغول وبطشه بها، وتعدّى ذلك إلى الفخر بأنه ممن تمكّن من الغيلان وضاجعها. وهو يلجأ في قصيدته الشهيرة التي زعم فيها أنه بطش بالغول إلى اعتماد القصّ والتمثيل وسيلة ليقلب سمع المتلقّي بصرا ويخيّل دقائق المشاهد التي يبتنيها. يقول من

الوافر: [ديوانه، ص. 222-226].

أَلا مَنْ مُبلِغٌ فِتْيانَ فَهْمٍ
بِما لاقَيتُ عِندَ رَحَى بِطَانِ

بِأَنّي قَد لَقيتُ الغُولَ تَهْوي
بِسُهبٍ كَالصَحيفَةِ صَحْصَحانِ

فَقُلتُ لَها: كِلانا نِضْوُ أَيْنٍ
أَخو سَفَرٍ فَخَلّي لي مَكاني

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَى
لَها كَفّي بِمَصْقولٍ يَماني

فَأَضرِبُها بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ
صَرِيعًا لِليَدَينِ ولِلْجِرانِ

فَقالَت: عُدْ. فَقُلتُ لَها: رُوَيدًا
مَكانَكِ! إِنَّني ثَبْتُ الجَنانِ

وهو يعمد إلى وصف الغول وصفا مدقّقا فرسم لها صورة متخيَّلة. ويجتذب خيال المتلقّي إلى النهايات التي يكاد يصبح التخيّل حين يبلغها صعبا او مستحيلا، إذ يشير إلى أن للغول رأسا كرأس الهرّ، ولسانا مشقوقا كلسان الحيذة، وساقين تشبهان لدقّتهما ساقي خديج لم يكتمل خلقه، وقحف رأسها كرأس الكلب. أما جلدها فكأنه قربة بليت. ههنا تظهر براعة تأبّط شرّا في توليد الصور المتخيّلة قصد إقناع السامع. غير أن الإقناع الذي ينشد الكلام تحقيقه لا يمكن أن يكون عقليا، بل نفسيّا. وذلك عن طريق إثارة الجميل الآسر، والفاتن المدهش، والمهيب المخيف. يقول: [ديوانه، ص. 226-227].

فَلَم أَنفَكَّ مُتَّكِئًا لَدَيها
لِأَنظُرَ مُصبِحًا ماذا أَتاني

إِذا عَينانِ في رَأسٍ قَبيحٍ
كَرَأسِ الهِرِّ مَشقوقِ اللِسانِ

وَساقا مُخدَجٍ وَشَواةُ كَلبٍ
وَثَوبٌ مِن عَباءٍ أَو شَنانِ

وله في الفخر أيضا من البسيط: [ديوانه، ص. 77].

أَنا الَّذي نَكَحَ الغيلانَ في بَلَدٍ
ما طَلَّ فيهِ سِمَكِيٌّ وَلا جادا

في حَيثُ لا يَعمِتُ الغادي عمايَتَهُ
وَلا الظَليمُ بِهِ يَبغي تَهَبّادا

وقَد لَهَوتُ بِمَصقولٍ عَوارِضُها
بَكرٍ تُنازِعُني كَأسًا وعِنقادا

ويقول في المعنى ذاته مصوّرا هلع الغيلان منه ومن قدرته على الفتك من المتقارب: [ديوانه، ص. 164-165].

فَأَصبَحتُ وَالغولُ لي جارةٌ
فَيا جارَتا أَنتِ ما أَهوَلاَ

وَطالَبتُها بُضْعَها فَالتَوَتْ
بِوَجهٍ تَهَوَّلَ فَاسْتَغْوَلاَ

فَقُلتُ لَها: يا انظُري كَي تَرَيْ
فَوَلَّت فَكُنْتُ لَها أَغْوَلاَ

غير أن هذا التبديل في معاني الفخر لم يقف عند هذا الحدّ في شعر تأبّط شرّا فلقد عمد الشاعر إلى زحزحة قيمة القوّة نفسها. والفتى كما رسمه الشعراء في الجاهلية هو المقدام الذي يختار الموت على الفرار من ساحات الوغى. وليس لفعلة الفرار من المواجهة شبيهة يمكن أن يشين الفتى. لكن تأبّط شرّا سيحوّل هذا المعنى ويعتبر الهروب خصلة لا يقدر

عليها إلاّ من كان حكيما. بل إن رجاحة العقل تتجلّى عند الغارة في تدبّر منفذ الهروب والفرار إذا «جدّ الجدّ». فممّا يروى عنه أنه تسلّل إلى غار عسل في ديار بني هذيل ولمّا حوصر نفذ من شقّ في الغار يؤدّي إلى واد سحيق فشدّ زقّا إلى صدره بالحبل ولم يزل يزلق على العسل حتى فاتهم ونجا من موت محقّق. يقول معتبرا المقدرة على الفرار حنكة وحكمة، من الطويل:

[ديوانه، ص. 86 ـ 91].

إذا المَرءُ لَم يَحتَل وَقَد جَدَّ جِدُّهُ
أَضاعَ وَقاسى أَمرُهُ وَهوَ مُدبِرُ

وَلَكِنْ أَخو الحَزْمِ الَّذي لَيسَ نازِلاً
بِهِ الخَطْبُ إلاّ وَهوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ

فَذاكَ قَريعُ الدَّهرِ ما عاشَ حُوَّلٌ
إذا سُدَّ مِنهُ مِنْخَرٌ جاشَ مِنْخَرُ

....

....

فَرَشتُ لَها صَدري فَزَلَّ عَنِ الصَّفا
بِهِ جُؤْجُؤٌ عَبلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ

فَخالَطَ سَهلَ الارضِ لَم يَكدَحِ الصَّفا
بِهِ كَدحَةً والمَوتُ خَزْيانُ يَنظُرُ

فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ وَما كِدْتُ آيِبا
وَكَمْ مِثلُها فارَقتُها وَهيَ تَصفِرُ

هذا التصرّف في معاني الفخر وفي القيم التي عليها جريانه عادة هو الذي جعل تأبّط شرّا يمجّد فكرة المقدرة على الهرب ذاتها وكثيرا ما يصور لحظات هروبه وإفلاته من أيدي أعدائه ويسند إلى نفسه خصلة المقدرة على العدو حتى لا نظير ولا شبيه.

يقول مصوّرا لحظات هروبه من ديار قبيلة بجيلة مشبّها سرعته في الهرب بسرعة الظبي وطير الجبل، من البسيط:

[ديوانه، ص. 129-133].

إنّي إذا خُلَّةٌ ضَنَّتْ بِنائِلِها
وَأَمْسَكَتْ بِضَعيفِ الوَصْلِ أَحْذاقِ

نَجَوْتُ مِنها نَجائي مِن بُجَيْلَةَ إذ
أَلْقَيتُ لَيلَةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أرواقي

لَيلَةَ صاحُوا وَأَغرَوا بي سِراعَهُمْ
بِالعَيْكَتَيْنِ لَدى مَعْدَى ابْنِ بَرّاقِ

كَأَنَّما حَثْحَثُوا حُصًّا قَوادِمُهُ
أَو أُمَّ خِشفٍ بِذي شَثٍّ وَطُبّاقِ

لا شَيءَ أَسرَعُ مِنّي لَيسَ ذا عُذَرٍ
وَذا جَناحٍ بِجَنْبِ الرَّيْدِ خَفّاقِ

طرق تأبّط شرّا غرض الرثاء أيضا فرثى الشنفرى بقصيدة مطلعها، من الطويل:

[ديوانه، ص. 78].

عَلى الشَّنْفَرى ساري الغَمامِ ورائِحٌ
غَزيرُ الكُلى وَصَيِّبُ الماءِ باكِرُ

واتّبع في مرثيته السنن التي عليها جريان المراثي في عصره فاستمطر على قبر الشنفرى السحاب الكثير الماء ثمّ عدّد خصاله فذكر إقدامه وشجاعته وكرمه واختتم مرثيته، على عادة الشعراء القدامى بكلام في الحكمة.

لكن اللاّفت في أشعار تأبّط شرّا أنها تدور جميعا حول غزواته وغاراته وأمجاده. وهي أشعار لا تكتفي برسم صورة البطل المقدام الذي نازل الأبطال فصرعهم ونازل الغيلان فبطش بها وتمكّن من مضاجعتها، بل ترسم

وجها آخر للشاعر يجعله أقرب إلى الإنسان العادي الذي يعرف الخوف والضعف، بل إن بعض هذه الأشعار يصوّر لحظة من لحظات العجز الجنسي التي عاشها هذا الشاعر البطل الذي تمكّن من الغيلان [الأغاني، 18/ 211].

لم يطرق تأبّط شرّا غرض الغزل حتى أن موضوع المرأة لديه جاء عرضيا فعلا. وباستثناء القصيدة التي خاطب بها زوجته حين لامته على فراره من المعركة بعد أن قتل أعداؤه من قبيلة بجيلة صاحبَه، والقصيدة التي عاتب فيها امرأة خطبها فنصحوها بأن لا تفعل خشية أن تترمّل حين يقتل، لا نكاد نعثر على ذكر للمرأة او تحرّق عليها.

ولعلّ اللافت أيضا في شعر تأبّط شرّا أنه كثير ما يجمع إلى سهولة اللفظ وقرب المعنى الميل إلى استخدام الغريب الذي يعسر على القارئ تبين معانيه دون التجاء إلى المعاجم. يقول في القصيدة التي عاتب فيها زوجته بعد أن عنّفته على تركه صاحبه، من الطويل: [ديوان، ص. 212-213].

أَلا تِلْكُما عِرسِي مَنيعَةُ ضَمَّنَتْ
مِنَ اللهِ إثْمًا مُسْتَمِرًّا وَعالِنا

تَقولُ تَرَكتَ صاحِبًا لَكَ ضائِعًا
وَجِئتَ إِلَينا فارِقًا مُتَباطِنا

لكنه يعمد بعد استخدامه لهذه الألفاظ السهلة والمعاني القريبة إلى وصف غريب اللفظ وحوشيّه. فيعمد في القصيدة نفسها إلى تصوير هروبه من قوم يطاردونه مشبّها نفسه بالظليم السريع النجري وبدل عبارات: أسرعت، ومجنون، والظليم المسنّ، وسرعة الجري، والظليم السريع، والغبار، والصحراء، وباطن الأفخاذ، والنعام المتباعد الخطو والسريع، والنوق السريعة، يستخدم عبارات: حثحثت، ومشعوف، والعفاء، والفيفاء، والمغابن، والأزج، والهزرفي، وزفازف، والناجيات الصوافن. نقرأ: [ديوان، ص. 216-217].

وَحَثْحَثْتُ مَشْعُوفَ النَّجاءِ كَأَنَّني
هَجِيفٌ رأى قصْرًا سِمالا وداجِنا

مِنَ الحصْرِ هَزْرُوفٌ يَطيرُ عُفاءَهُ
إذا استَدرَجَ الفَيْفاءَ وَمَدَّ المَغابِنا

أَزَجُّ زَلوجٌ هِزرِفِيٌّ زُفازِفٌ
هِزَفٌ يَبُذُّ النّاجِياتِ الصَّوافِنا

كان تأبّط شرّا شاعرا صعلوكا فذّا عنيت بشعره وبشخصيته كتب التراجم والأنساب وكتب الأدب والتاريخ ونسجت من حوله الأقاصيص. وهو واحد من أشهر صعاليك العرب الذين ضجروا من الفقر وأرغمتهم الفاقة على التطواف في البلاد طلبا للغنم والرزق والغارة. وهو واحد من الشعراء الذين آمنوا بأن الدنيا إنما تؤخذ غلابا وأن ليس للمرء من ذكر بعد موته غير أمجاده وأخلاقه. يقول من البسيط: [ديوانه، ص. 143-144].

سَدِّدْ خِلالَكَ مِن مالٍ تُجَمِّعُهُ
حَتّى تُلاقِي الَّذي كُلُّ امْرِئٍ لاقِ

لَتَقرَعَنَّ عَلَيَّ السِنَّ مِن نَدَمٍ
إذ تَذكُرتَ يَوْمًا بَعضَ أَخْلاقِي

إشارة

ديوان تأبّط شرّا وأخباره، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1984، نشر ديوان

تأبّط شرًا على شبكة الأنترنيت وعلى قرص مرن: - شبكة الانترنيت، الموسوعة الشعرية، ضمن موقع المجمّع الثقافي (أبو ظبي)، على شبكة الإنترنيت:

http//www.cultural.org.ae، - قرص مرن: الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي. الإصدار الأول سنة 2000، الإصدار الثاني سنة 2001، الإصدر الثالث، سنة 2003.

المصادر والمراجع

● ديوان تأبط شرًا وأخباره، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1984؛ ● الإربلي، النشابي (ت 632هـ/1235م)، المذاكرة في ألقاب الشعراء، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ ● الأصفهاني، أبو الفرج (ت 356هـ/898م) الأغاني، نسخة مصوّرة عن طبعة بولاق الاصلية، بيروت: نشر صلاح يوسف الخليل ودار الفكر للجميع، 1395هـ/ 1970م؛ ● البغدادي، عبد القادر (ت 768هـ/ 1367م) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ ● ابن جني، المبهج في تفسير ألقاب شعراء الحماسة، قرص مرن الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ ● ابن حمدون، محمد بن الحسين (ت 562هـ/ 1167م) التذكرة الحمدونية، قرص مرن: الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي. الإصدار الثالث سنة 2003، باب المراجع ؛ ● ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسين الأزدي (ت 321هـ/ 932م) الاشتقاق، قرص مرن: الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي، أبو ظبي، الإصدار الثالث، سنة 2003، باب المراجع؛ ● المعرّي، أبو العلاء (ت 449هـ/ 1057م) رسالة الغفران، تحقيق محمد عزّت نصر الله، بيروت، نشر المكتبة الثقافية (د.ت).

د. محمد لطفي اليوسفي
الجامعة منوبة - تونس

تاج الدين أحمدي، إبراهيم بن خضر

(735هـ/1334-35م - 815هـ/1412-13م)

يعتبر أحمدي تاج الدين إبراهيم بن خضر أشهر وأكبر الشعراء العثمانيين الذين عاشوا في القرن الرابع عشر الميلادي. ويعتقد أنه ولد في عام 735هـ/ 1334-1335م واسمه إبراهيم ولقبه تاج الدين ووالده يدعى خضر. واستعمل الاسم المستعار أحمدي بعد أن بدأ يقول الشعر. وأما المعلومات الموجودة في المصادر والمتعلقة بحياته فهي متفرقة وغير كافية. وتوجد في المصادر روايات مختلفة، يقول بعضها إن أحمدي من أماسيا، وبعضها الآخر يقول هو من جرميانللي. وهناك قسم ثالث يذهب إلى أن أصله من سيواس. ولا نعرف أين وكيف تلقى تحصيله العلمي الأول، بيد أننا نعلم أنه ذهب إلى مصر من أجل مواصلة تعليمه هناك.

تتلمذ أحمدي في مصر على يد الشيخ أكمل الدين، كما أقام علاقة صداقة مع حاجي باشا والملاّ فناري. وبعد عودته من مصر انضم في فترة من الزمن إلى أبناء آيدين. ونفهم أن له مؤلّفين باللغة الفارسية كتبهما في شكل قصيدة، ويدوران حول الصرف والنحو في اللغة العربية، وقد وضعهما للتدريس، وعنوان الكتاب الأول هو «ميزان الأدب»، بينما يحمل الكتاب الثاني عنوان «معيار الأدب». وكتب أحمدي هذين المؤلفين من أجل حمزة ابن عيسى بك (1360 ـ 1391م) من أبناء آيدين.

لا نعرف بالضبط متى انتسب أحمدي إلى أبناء آل عثمان وأبناء جرميانللي، غير أننا نفهم أنه انضم إلى أمير جرميانللي سليمان شاه بفضل الأشعار التي قدمها له. ويفهم كذلك أنه ـ وبسبب أن أحمدي أهدى معظم مؤلفاته إلى الأمير سليمان- استمرت علاقته معه حتى وفاة الأمير في عام 1410. ويحتوي ديوانه على مدحيات للأمير سليمان. وفي الوقت نفسه كتب مؤلفه «ترويح الأرواح» و كذلك كتابه «جمشيد هرشيد» بأمر من الأمير سليمان. وكتب قسم «المولد» الذي يوجد في مؤلفه «اسكندر نامه» في عام 810هـ/ 1407م في بورصه وذلك في عهد الأمير سليمان.

بعد وفاة الأمير سليمان بحث أحمدي عن حام له. وحاول الدخول إلى حيث يوجد محمد الأول الذي جاء في هذه الأثناء إلى بورصه. وتميز أحمدي بأنه كان شخصا ظريفا ومحبوبا. وتوفي في أماسيا وذلك أثناء عمله في وظيفة كاتب الديوان وكان قد تجاوز من العمر الثمانين عاما وكان شاعراً كتب الكثير من المؤلفات. وإلى جانب ديوانه، فإن له العديد من المثنويات التي كتبها في مواضيع مختلفة. ونلاحظ أنه تأثر بشعراء إيران مثل: نظامي، وكمال هوجندي، وسلمان صاوجي. وتأثر عند تشكّل شخصيته الأدبية بكل من كول شهري، وخواجه مسعود، وشيخ أوغلي. أما في الشعر الصوفي فيظهر تأثره بوضوح

بكل من يونس أمره، وعاشق باشا. وكان أحمدي عارفا معرفة كبيرة بالآداب الإيرانية والتركية واستفاد منهما استفادة كبرى. وهو بلا شك يعتبر أفضل شاعر في القرن الرابع عشر الميلادي.

رغم أن أحمدي كتب مؤلفاته في نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، ورغم أنه قضى قسما كبيرا من حياته في حماية أبناء جرميانللي في القرن الرابع عشر، إلا أن مؤلفاته، من حيث بنية قواعد اللغة، يمكن تمييزها عن اللغة التركية التي كانت سائدة في عهد السلاجقة وكذلك في عهد الإمارات، وكانت هذه اللغة تقترب أكثر من اللغة العثمانية. ومن أجل الاطلاع على مخطوطات مؤلفاته الموجودة في مكتبات تركيا وأوروبا يمكن الاستفادة من الدراسات التي قام بها كل من بابنجر ونهاد سامي بنارلي [انظر البيبلوغرافيا]. وبجانب الشعر فقد كان أحمدي خطاطا أيضا وكان له أخ مشهور في تلك الفترة.

آثاره

1 ـ الديوان، يعتبر «الديوان» أفضل مؤلف لأحمدي من الناحية الفنية. ويحتوي على مواضيع مثل التوحيد والنعت وترجيع بند وتركيب بند والمُسماة والقصائد والغزل. ويتضمن حوالي 9000 بيت. غير أنه لم ينشر حتى الآن سواء كاملا أو ناقصا. وتم نشر مختارات من الأشعار الموجودة في الديوان من قبل يشار أق دوغان [انظر البيبلوغرافيا]. وتوجد نسخته المخطوطة في مكتبة السليمانية [قسم الحميدية، رقم 1082؛ قسم دوغوملو بابا، رقم 401]. وبالإضافة إلى ذلك أجريت حوله مجموعة من الدراسات في شكل أطروحات دكتوراه من قبل كل من طونجا كورتان نامر، ويشار أق دوغان [انظر البيبلوغرافيا]؛ 2 ـ اسكندر نامه، يعرف أحمدي في الآداب التركية بصورة أكثر من خلال هذا المؤلف. ألف هذا الكتاب بالأسلوب المثنوي فقرأه حتى الأتراك الذين يوجدون خارج حدود الدولة العثمانية في القرن السادس عشر. وكتب أحمدي هذا المؤلف في عام 792هـ/ 1390م. وفي الوقت الذي استعد فيه لتقديمه إلى أمير جرميانللي سليمان شاه، توفي الأمير. وبعد وفاته قدمه إلى سليمان چلبي بن يلدرم بايزيد.

ويحتوي هذا الكتاب الذي رتبه صاحبه ترتيبا متناسبا مع المثنويات الإيرانية على 10000 بيت. ولم يرتبط أحمدي أثناء كتابة هذا المؤلف بالفردوسي ونظامي، بل استفاد من الروايات الأخرى التي تتعلق بالاسكندر. وبالإضافة إلى المعلومات الموسوعية، كان أثناء شرحه للأحداث يقدم بعض النصائح الأخلاقية. وبهذا الشكل استطاع أن يجعل كتابه مؤلفا غنيا.

ويعود السبب إلى وجود فروقات في مختلف مخطوطات المؤلف إلى الاعتقاد بأن الكاتب أضاف بعض الإضافات حتى عام 813هـ/ 1410م. ويوجد باب «المولد» وقسم «داستان تواريخ ملوك آل عثمان» في النسخ القديمة. ويعكس وجود عدد كبير من مخطوطات هذا المؤلف داخل تركيا وخارجها مدى الإعجاب الذي لقيه كتاب «اسكندر نامه». وقام إسماعيل أنور بنشر النسخة طبق الأصل لنسخة الكتاب الموجودة في مكتبة جامعة استانبول

[المخطوطات التركية، رقم 921] مع دراسة تدقيقية، كما أُعدّ عدد كبير من الرسائل العلمية حول المؤلف. وبالإضافة إلى ذلك تم نشر مختارات من «اسكندر نامه»؛ 3 - جمشيد هرشيد، كتب أحمدي هذه المثنوية نزولا عند رغبة الأمير سليمان. وهي تمثل مثنوية سلمان صاوجي (ت 778هـ/ 1376م) نفسها، غير أنّ أحمدي قام بترجمتها إلى اللغة التركية مع الاحتفاظ باسمها. وكان أحمدي أثناء تأليف هذا العمل يضيف بعض الأقسام الجديدة، وهكذا أخرج عملا جديدا. وتم الفراغ من هذا الكتاب في عام 806هـ/ 1403م. وكان مؤلف صاوجي يتألف من 2700 بيت، فأخرج أحمدي هذا المؤلف في 5000 بيت وبالتالي أكسبه قيمة كبيرة. وفي الأصل كان هذا الكتاب يتم إعداده ليقدم إلى محمد الأوّل، غير أنه قدم إلى الأمير سليمان. وفي عام 847هـ/ 1444م تم استنساخ هذه المثنوية.

توجد نسخته الوحيدة في مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات التركية، رقم 921]. وكتبت هذه المثنوية على قالب العروض وهي تمثل قصة الحبّ التي جمعت بين جمشيد، ابن ملك الصين، وهرشيد، ابنة قيصر الروم. ويعتبر هذا المؤلف من أوائل المثنويات الموجودة في الآداب التركية من حيث فنّ كتابة القصة. وتحتل الزخارف مكانا في هذه المثنوية شأنها في ذلك شأن بقية مثنويات الشرق الكلاسيكية الأخرى. وأعد أحمدي مؤلفه هذا بخيال ثقافي واسع، كما أنّ الغزل الذي وضعه في مختلف أقسام المؤلف صبغه بصبغة جمالية رائعة. وتم التعريف بهذا الكتاب علميا لأول مرة من قبل نهاد سامي بنارلي، ثم نشره بعد ذلك محمد أكالن؛ 4 - ترويح الأرواح، عبارة عن كتاب في الطب كتب بالأسلوب المثنوي. وتم تأليفه في الأعوام بين 1403 - 1410م وذلك بطلب من الأمير سليمان. ثم قدم فيما بعد مع بعض الإضافات إلى محمد الأول. وهو مؤلف يتكون من 4000 بيت. ويحتوي على معلومات في موضوعات علم التشريح وصحة الإنسان وعلم الصيدلة. وتوجد منه مخطوطة من مجلدين في مكتبة سراي طوب قابي [قسم روان، رقم 1681] وهي تحتوي على 10100 بيت. ويتألف المجلد الأول من 344 صفحة، ويتناول أربعة من السوائل والأغذية التي توجد في الكائن الحي، أما المجلد الثاني فيعطي معلومات تتعلق بمختلف الأمراض وعلاجها. وتوجد بقية المخطوطات الأخرى في مكتبة السليمانية [قسم آياصوفيا، رقم 3595] والمكتبة الشعبية بمانيسا [رقم 1852]؛ 5 - بدائع السحر في صنائع الشعر، كتب أحمدي هذا المؤلف من كتاب «حدائق السحر» لرشيد الدين الوطواط (ت 573هـ/ 1177-1178م) وهو مؤلف باللغة الفارسية. وقام أحمدي باختصار التوضيحات التي تتعلق بالفنون الأدبية، كما زاد من الأمثلة الفارسية. وبهذا الشكل تم إخراج هذا المؤلف. وتوجد النسخة الوحيدة من هذه الرسالة ضمن مجموعة في متحف مولانا بقونية [رقم 2540/ 1، ورق 1ب-71أ]. وبالإضافة إلى هذا، فإن لأحمدي كتابا آخر ضمن هذه المجموعة يسمى «مرقاة الأدب» وهو باللغتين العربية والفارسية، وقد كتبه في شكل معجم منظوم من أجل حمزة بك بن عيسى بك من أبناء آيدين. وكان قبل ذلك قد كتب له - دون

علمه - قصيدة باللغة الفارسية تشتمل على الصرف العربي بعنوان «ميزان الأدب» ورسالة أخرى باللغة الفارسية حول النحو العربي بعنوان «ميار الأدب». وتم التعريف بهذه المجموعة في الوسط العلمي لأول مرة من قبل نهاد م. چتين. وقام علي ألب أرسلان بتدقيق نسخة أخرى من «مرقاة الأدب» [أنظر البيلوغرافيا]، وحسب رأيه فإن هذا المؤلف هو مؤلف فارسي يتكون من ثلاثة وثلاثين بيتا، ويبدأ بمقدمة من ثلاث صفحات. وفي فترة لاحقة أصبح يتكون من قسمين مختلفين. وهو مؤلف كتب منظوما بشكل كامل. ويتكون القسم الأول منه من 77 صفحة، وهو عبارة عن قاموس عربي-فارسي. ويتألف القسم الثاني من 15 صفحة و27 قسما صغيرا، وهو يشتمل على قواعد الصرف والنحو والأبراج والأعداد وأخبار الأنبياء والعشرة المبشرين بالجنة.

يوجد مؤلف لأحمدي لم يذكر من قبل أي مصدر من المصادر وهو «معراج نامه». ويوجد هذا المؤلف المنظوم ضمن أوراق «اسكندر نامه» [16ب-28ب] الموجودة في مكتبة السليمانية [قسم تكة شاذلي، رقم 110]. وهو يتألف من 497 بيتا. وتحمل هذه المعراجية خصائص تختلف عن بقية المعراجيات التي كتبت في مجال الآداب التركية. وأهم هذه الخصائص هي أنها تعتبر أول معراجية معروفة في مجال الآداب التركية. وبالإضافة إلى ذلك فإن الكاتب يعمد في القسم الثاني منه على عمل شرح تمثيلي. وقد كتب يشار أق دوغان مقالا حول مؤلف «معراج نامه».

وإلى حدّ اليوم لم نتمكن من الحصول على مؤلفي أحمدي وهما «شرح قصيدة الثرثري» و«خيرة العقلاء». وحسب ما يذكره عبد الواصي چلبي، فإن أحمدي توفي قبل أن يكمل مثنوية «ويس رامين»، غير أن هذا المؤلّف غير موجود بين أيدينا اليوم.

المصادر والمراجع

- Franz Babinger, Osmanli Tarih Yazarlari ve Eserleri (tercüme. Coskun Üçok), Ankara 1982, s.12-14;
- Ạhmedî, Cemsîd ü Hursîd (nsr. Mehmed Akalin), Ankara 1975;
- Ahmedî, Iskendernâme (nsr. Ismail Ünver), Ankara 1983;
- Bursali Mehmed Tâhir,
- Osmanli Müellifleri, Istanbul 1333, II, 735;
- Nihad Sami Banarli, «Ahmedî ve Dâsitani Tevârih-i Mülûk-i Âl-i Osman», Türkiyat Mecmuasi, Istanbul 1939, VI, 49-176;
- Nihad Sami Banarli, XIV üncü Asir Anadolu Sairlerinden Ahmedî'nin Osmanli Tarihi: Dâsitan-i Tevârîh-i Mülûk-i Âl-i Osman ve Cemsîd ve Hursîd Mesnevisi, Istanbul 1939;
- Tunca Kortantamer, «Yeni Bilgilerin Isiğinda Ahmedî'nin Hayati», Ege Üniversitesi Sosyal Bilimler Fakültesi Dergisi, Izmir 1980, sayi:1, s. 165-166;
- Melike Erdem Günyüz, Ahmedî Divani'nin Tahlili, Istanbul 2001, Istanbul Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Doktora Tezi;
- Serpil Bağci, Minyatürlü Ahmedi

- Nihat Azamat, «Yeni Bir Ahmedî ve Iki Eseri: Yûsuf u Zelîha, Esrarnâme Tercümesi», Osmanli Arastirmalari, Istanbul 1988, VII-VIII, s. 347-364;
- Mehmet Akalin, «Ahmedi'nin Dili», Türk Dili Arastirmalari Yilliği Belleten, Ankara 1989, s.9-153;
- Kemal Silay; «Ahmedi'nin Osmanli Tarihinde Arasöz (Digression) Tekniğinin Kullanimi ve Islevi», Türkoloji Dergisi, Ankara 1991, cilt:IX/sayi:1, s.153-162;
- Aysegül Demirhan Erdemir, Hekim Ahmedî (Tâcüddin Ibrahim Bin Hizir) (1334-1413)", Türk Dünyasi Tarih Dergisi, Istanbul 1995, sayi:104, s.18-19;
- «Ahmedî», Türk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, Istanbul 1977, s.79-80;
- M. Fuad Köprülü, «Ahmedî», Islâm Ansiklopedisi, Istanbul 1978, I, 216-221;
- Orhan Sâik Gökyay, «Iskendernâme», Islâm Ansiklopedisi, Istanbul 1987, V/2, s. 1088-1090;
- G. L. Lewis, «Ahmadi», The Encyclopaedia of Islam (new edition), Leiden 1960, I, 299-300;
- Günay Kut, "Ahmedî", Türkiye Diyanet Vakfi Islâm Ansiklopedisi, Istanbul 1989, II, 165-167;

د. مصطفى بيرول الكر
جامعة أتاتورك ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي ـ السودان

Iskendernameleri: Ikonografik bir deneme, Ankara 1989, Hacettepe Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Doktora tezi;
- Yasar Akdoğan, Ahmedî Divanindan Seçmeler, Ankara 1988;
- Yasar Akdoğan, Iskendernâme'den Seçmeler, Ankara 1988;
- Yasar Akdoğan, «Mi'rac-nâme ve Ahmedî'nin Bilinmeyen Mi'racnâmesi», Osmanli Arastirmalari, Istanbul 1989, IX, s. 263-310;
- Necib Âsim, «Osmanli Tarihnüvisleri ve Müverrihleri», Târîh-i Osmânî Encümeni Mecmuasi, Istanbul 1329, I, 41-52;
- Nihad M. Çetin, «Ahmedî'nin Bilinmeyen Birkaç Eseri», Tarih Dergisi, Istanbul 1952, II/3-4, s. 103-108;
- Nihad M. Çetin, «Ahmedî'nin Mirkatü'l-Edeb'i Hakkinda», Türkiyat Mecmuasi, Istanbul 1965, XIV, s. 217-230;
- Ali Alparslan, «Ahmedî'nin Yeni Bulunan Bir Eseri «Mirkat-i Edeb», Türk Dili ve Edebiyati Dergisi, Istanbul 1960, X, s. 35-40;
- Ismail Ünver, «Ahmedî'nin Iskendernâmesindeki Mevlid Bölümü», Türk Dili Arastirmalari Yilliği Belleten, Ankara 1977, s. 355-411;
- Ismail Ünver, «Ahmedî'nin Cemsîd ü Hursîd Mesnevisi Üzerine», Türkoloji Dergisi, Ankara 1977, VII, s.171-180;

التاجر، سلمان بن أحمد بن عباس آل نشرة

(1307هـ/1889م - 1342هـ/1923م)

سلمان بن أحمد بن عباس التاجر، ولد بمدينة المنامة في أسرة عربية اشتهرت بحب العلم، والدراسة والتحصيل بجانب اشتغال الكثير من أفرادها بتجارة اللؤلؤ، مما حتم عليهم التنقل بين البحرين، والهند، وكان والد سلمان من أولئك المترددين على (بومبي)، فاصطحبه معه وهو ابن تسع عام (1316هـ/ 1905م)، وهناك حفظ القرآن الكريم على يد والدته في أقل من ثلاثة أشهر، ويقال إنه «عالج الخط والحساب بلا أستاذ» [منتظم الدرين]، وتتلمذ في بومبي على يد السيد أحمد بن السيد علوي البنادرة البحراني، ومن ثم على يد أبي القاسم عبدالله بن محمد حسن، وبعد رجوعه إلى البحرين تتلمذ على يد الشيخ محمد صالح بن أحمد بن صالح آل طعان البحراني (1333هـ/ 1914م)، ومن بعده على يد الشيخ سلمان بن أحمد بن سلمان آل عصفور (1338هـ/ 1919م)، فقرأ على الثاني كتاب «مغني اللبيب» ثم بعض الحواشي النحوية والبلاغية، سافر بعدها إلى كربلاء بالعراق (1333هـ/ 1914م) لانتهال العلم، وصفه أقرانه بتوقد الذكاء، وسرعة البديهة، يحكي عن ذلك أخوه محمد علي التاجر (1387هـ/ 1967م): «كنت مسافراً معه إلى بومبي سنة (1338هـ/ 1919م) وكنا أقمنا فيها ستة أشهر، فكان في هذه المدة يومياً يزورنا فيها الأديب السيد عبدالحميد العراقي ويلقي عليه لغزين غالباً أو ثلاثة نظماً، الواحد تلو الآخر، في برهة وجيزة من التفكير يحلها حلولاً صحيحة، ولم يخطئ في واحد منها، حتى ظن السيد أنه كان مطلعاً على شيء من ذلك» [منتظم الدرين].

لم يذكر من ترجم لسلمان التاجر . ولا حتى أخيه - مريديه وتلامذته، إلا أن إبراهيم العريض (2002م) يرجع فضل إلمامه بقواعد اللغة العربية لسلمان التاجر الذي تتلمذ على يديه بداية أول عهده بالمجيء إلى البحرين. [فصيلة كتابات/ 7 - 1981].

أما في مجال التأليف فقد شرع في عدة موضوعات، لكنه لم يتم شيئاً منها، فلم يتجاوز بعضها «المقدمة»، وتجاوزها في البعض الآخر بمقدار، والنادر الذي أشرف به على الانتهاء من ذلك رسالته في جواب مسألة عبدالقادر الزواوي المسقطي قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86]. ورسالة تتضمن شرح المزمور الخامس والأربعين، من «الزبور» كشف فيها النقاب وأتى فيها بالعجب العجاب قد شارف فيها الإتمام [أنوار الدرين - خ]، إضافة إلى رسالة صغيرة في علم الخط لم يتمها، وأرجوزة تربو على الأربعمئة بيت نظم فيها بعضاً من «جوامع الكلم» للكاتب الفرنسي «غوستاف لوبون» (ت 1930م) ومن ترجمة الحقوقي الشهير أحمد فتحي زغلول (ت 1914م)،

وقد نهج في نظمه ذاك موازياً لمعاني الترجمة، مما يدل على مقدرته على تطويع المعاني المعرّبة للنظم دون أن تفقد روحها، أو يطغى عليها الجانب التخيلي المقرون بالعاطفة سمة الشعر الغنائي، من ذلك ما ورد في مقدمة الترجمة الأصل: كان الغرض من هذا الكتاب تلخيص الأفكار المنثورة في مؤلفاتي على اختلاف أنواعها، وإبرازها في صورة قضايا جامعة، لأن الصيغ المختصرة تأخذ باللب، وتبقى في الذاكرة، ولذلك شاعت جوامع الكلم في عالم الأدب [لوبون، جوامع الكلم ص4، ترجمة أحمد فتحي زغلول] ونظمها سلمان التاجر في قوله: (رجز)

القَصْدُ من تأليفِ هذا السَفْرِ
تَلْخيصُ أفْكَارِي التي في النَّثْرِ
أوْدَعْتُها في كُتُبي المشْهُورَهْ
عَلَى اختلافِ نوعِهَا مَنْثُوره
وحَيْثُ للنَّاسِ أراهَا نافِعَةْ
أبْرَزْتُهَا شَكلَ قَضَايَا جَامِعَةْ
فالصِيَغ المُوجزة العِبَاره
تَأخُذُ باللُّبِّ وتَبقَى شارهْ
تَظَلُّ في ذَاكِرَةِ الجِنَانِ
مَرْسُومَةً كَصُورَةِ الإنْسَانِ
لِذاكَ قَدْ شَاعَتْ جَوامِعُ الكَلِمْ
في عالَمِ الآدَابِ ما بَيْنَ الأمَمْ

[عبدالجليل العريض، نظم جوامع الكلم، تحقيق ومقارنة وتوثيق ـ بحث قيد النشر]

كما وضع سلمان التاجر مشروع كتابي «منتظم الدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين» و«عقد اللآل في تاريخ أوال» ولم يتمهما تاركاً ذلك لشقيقه محمد علي التاجر، وعلى الرغم من قيمة الكتابين الأدبية والتاريخية، فمازالا مخطوطين.

شارك سلمان في الكثير من منتديات عصره الثقافية، فهو أحد مؤسسي «نادي إقبال أوال» أول نادٍ أدبي ينشأ في البحرين عام 1913 والذي ما لبث أن أغلق بسبب عدم استحسان القضاء الشرعي لفكرته آنذاك [الخاطر، القاضي الرئيس ص136 ـ 138].

ولقد كان حريصاً على المشاركة في كل مناسبة أدبية أو اجتماعية تقام في البحرين، من ذلك مشاركته في تكريم الرحالة أمين الريحاني أثناء زيارته للبحرين عام 1922 بقصيدة منها (وافر):

وجَدْتُكَ للعُلَى كَنْزاً ثَمِيناً
فكُنْتَ لِسِرِّها الغَالِي (أمِينا)
فَلا عَجَبٌ إذا أمَّتْكَ شَوْقاً
قُلُوبُ العَالَمِينَ العَالِمِينَا
فَإنكَ عَالِمُ الشَّرْقِ المُفَدّى
وإنَّكَ فَيْلَسُوفُ العَصْرِ فِينَا
وإنَّكَ ثالِثُ البَحْرَيْنِ عِلْماً
وإنَّكَ ثَالِثُ البَدْرَيْنِ زَيْنَا
لِتَحْيَى أمَةٌ عَرَفَتْكَ كُفْؤاً
ويَحْيَى الشَّرْقُ طُرّاً أجْمَعِينَا

[شعر سلمان التاجر، مخطوط]

وله في الاحتفاء بمقدم الداعية المصري محمد علي السعيد، أثناء زيارته للبحرين بدعوة من النادي الأدبي عام 1923، قوله: (مجزوء الكامل)

وَافَى السَّعِيدُ و جَفْنَا
مَا كَانَ نَامَلُ مِنْ سَعَادَه
وتَشَرَّفَتْ بَحْرَيْنُنَا
فِيهِ وأكْرَمَتَ الوِفَادَه
لمحت عَلَيْهِ شِيمَةٌ
غُرِسَتْ عَلَى طِيبِ الوِلادَه
زَهَرَتْ بِطَلْعَتِهِ أوَّال
ونَالَهَا مِنْهُ شَهَادَه

وسلمان التاجر من الشعراء المكثرين المجيدين، وعلى الرغم من ضياع الكثير من شعره، إلا أن الذي مازال باقياً يزيد على الخمسة آلاف بيت جلها في مدح آل البيت ورثائهم، من ذلك تخميس معارضته لهمزية البوصيري في مدح الرسول ﷺ: (خفيف)

لَهَجَتْ فِي مَدِيحِكَ
الشُّعَرَاءُ فَغَشَاهَا من الجمَالِ سَنَاءُ
ولِذَا قُلْتُ حَيْثُ طَابَ الثَّنَاء
فَبِكَ زَانَ المَدِيحُ والإطْرَاءُ
يا وَصِيّاً سَمَتْ بِهِ الأنْبِيَاءُ
بُلْبُلُ المدحِ مَنْ بِحُسْنِكَ غَنَّى
صَرَّحَ القَوْلَ فِيكَ وَصْفاً وكَنَّى
وعَلِمْنَا ما فَوقَ مغْنَاكَ مَغْنَى
كُلُّ فَضْلٍ يَعنُو لِفَضْلِكَ فالَنَا
سِنٌّ ثَرَاءٌ و أنْتَ فِيْهِمْ سَمَاءُ

[شعر سلمان التاجر، جمع وتحقيق: عبد الجليل العريض وأنيسة المنصور، مخطوط]

ومن ذلك تخميسه لمعارضة الشاعر طه العرادي للقصيدة «الأزرية» في مدح آل البيت نسبة لناظمها كاظم بن محمد الأزري (ت 1211هـ/ 1796م)، وقد بلغت مقاطعها أكثر من 128 مقطعاً من البسيط، بالإضافة إلى معارضاته الأخرى وهي كثيرة منها معارضته لرائية أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي (ت 214هـ/ 829م) والتي رثى فيها والده: (طويل)

أيَفْتُرُ مِنِّي الثَّغر أوْ يُحْمَدُ الصَّبْرُ
وقد غَالَنِي في وَالِدِي أحْمَدُ الدَّهْرُ
فَتًى تَسْتَمِدُّ الشَّمْسُ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ
وتُسْتَطِرُ الأنْوَاءُ إذ أعْوَزَ القَطْرُ
فَتًى لِشُرُوقِ الشَّمْسِ فِي حُرِّ وَجْهِه
غُرُوبٌ ومِنْهُ الضَّوءُ يَكْتَسِبُ البَدْرُ

وله أيضاً نظم على نمط الرّباعيات، منه قوله في وصف تسيير نساء الحسين من كربلاء إلى الكوفة: (طويل)

سَلِ الطَّفَّ عَنْ رَكْبٍ بِهِ حَفَّ مَوْكِبُ
مِنْ المَلاِ الأعْلَى يَنُوحُ ويَنْدِبُ
وبالرَّغمِ هَلْ طَيَّفْتَ بِمصرعِ قَتْلاهَا؟
مَتَى سُيِّرَتْ فِيهِ لِكُوفَانِ زَيْنَبُ

طرق سلمان التاجر بشعره جميع الأنماط، من معارضات، ورباعيات وتخميسات، ونوع في القوافي، لكنه ظل أميناً على اقتفائه طريق شعراء العربية الكبار من أمثال طرفة بن العبد وأبي تمام والمتنبي والشريف الرضي، ملتزماً عمود الشعر العربي وموسيقاه المتمثلة في بحوره التقليدية، واقفاً موضوعاته كل ما يعتقده حقاً، متجنباً الهجاء والذم كما في قوله: (بسيط)

وقَفْتُ رُوحِي لِرُوحِ الحَقِّ مُعْتَرِفاً
أنْ لَيْسَ مِنْ عَاجِزٍ يَسْتَحْسِنُ الوَصْفُ
لِذَاكَ لَمْ يُرَ فِيمَا نَظَمْتُ من الأشعـ
ـارِ هَـجْـوٌ ولا ذَمٌّ ولا قَـذَفُ

توفي سلمان التاجر وهو ابن خمس وثلاثين بوباء الطاعون الذي حلّ بالبحرين عام 1342هـ/ 1923م دون أن يكمل جلّ مشاريعه الثقافية.

المصادر والمراجع

● الأنصاري، محمد جابر، لمحات من الخليج العربي، الشركة العربية للوكالات، البحرين، ط1. 1970؛ ● البلادي، حسين بن علي بن حسن، رياض المدح والرثاء، انتشارات مكتبة الحيدري، قم، ط1، 1995هـ/ 1416م؛ ● التاجر، محمد علي، أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، صورة مخطوط بخط المؤلف؛ ● الخاطر، مبارك، القاضي الرئيس الشيخ قاسم بن مهزع، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 1975؛ ● شبّر، جواد، أدب الطف، ج9، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط1، 1978؛ ● العريّض، إبراهيم، إبراهيم العريض بقلمه، مجلة كتابات، العدد 17، أسرة الأدباء والكتّاب البحرينية، 1981؛ ● العريض، عبدالجليل والمنصور، أنيسة، شعر سلمان التاجر، تحقيق وجمع وتوثيق، مخطوط؛ ● المنصور، أنيسة، بين رائيتي أبي تمام وسلمان التاجر، بحث قيد النشر في مجلة العلوم الإنسانية، كلية الآداب.

د. عبد الجليل منصور العريض
جامعة البحرين

التاجر، محمد علي بن أحمد

(1304هـ/ 1887م - 1387هـ/ 1967م)

محمد علي بن أحمد بن عباس بن علي بن الشيخ إبراهيم آل نشرة التاجر ولد في البحرين في عام 1305هـ/ 1887م في أسرة ذات اهتمامات علميّة وأدبيّة، فجدّه الشيخ إبراهيم الشاعر، دوّنت أشعاره في كتب التراجم [الأميني، معجم رجال الفكر والأدب في النجف، 1/ 203؛ الخاقاني، شعراء الغري 1/ 124؛ شبر، أدب الطف 6/ 318]، والمترجم يصف والده بأنّه أديب واسع الاطلاع، يحفظ الكثير من أخبار العرب وأيامهم وأشعارهم [المنتظم، ترجمة 62]. وشقيقه سلمان التاجر شاعر. وأصهر المترجم إلى أسرة ربّها شاعر وأديب هو عبد الله بن عبد الإمام الجمري، وترجم له في المنتظم [ترجمة 552]، وأورد نماذج شعريّة له.

في سنّ الثامنة أدخل الكتّاب، وبقي فيه سنتين لم يحصل فيها على غير حروف الهجاء، وفي عام 1316هـ/ 1898م، سافر والده برفقة الأسرة إلى الهند بغرض التجارة في اللؤلؤ، وانشغل فيها الصغير باللهو واللعب مع أترابه. وفي سنّ البلوغ أحسّ بقصوره العلمي إزاء رفاقه من أبناء الهنود، فانفجرت في نفسه رغبة شديدة للعلم والتعلّم. فبدأ بتعلّم القرآن الكريم على يد والدته هو وإخوته وأتمّه في ثلاثة أشهر. وتولّى والدهم تشجيعهم ورعايتهم وتحبيب القراءة إليهم؛ فكان يحضر الكتب إليهم، ويشوقهم إلى قراءاتها، رغبة منه في إكسابهم القدرة على التعبير؛ وصحّة اللفظ، وقوّة الأسلوب. وخلال ذلك كان يتابع تطوّر قراءاتهم في الكتب من الأدنى إلى الأعلى، حتّى ترسّخت عادة حبّ الكتاب وقراءاته ـ في نفسه ـ إلى حدّ الإفراط كما يقول [المنتظم، ترجمة المؤلّف].

وفي البحرين، وإبّان شبابه، ساهم في إنشاء العديد من المشاريع الثقافيّة الحديثة التي كان لها دور في تأسيس الحياة الفكريّة الجديدة.

فقد أنشأ مع ثلّة من شباب المنامة المتعلّمين في عام 1913 مكتبة عامة أسموها «مكتبة إقبال أوال»، لتجمع شتاتهم، ولتكون لهم وللشباب الآخرين ملتقى فكريًا، يتصدون في ذات الوقت ومن خلالها لأنشطة المبشرين، والتي كانت تضطلع بها الإرسالية الأمريكيّة، وكانت آخذة في التزايد ثم استبدلوا اسمها فيما بعد باسم نادي إقبال أوال، إلاّ أنّ هذا المشروع أجهض، فقد أمر الشيخ قاسم بن مهزع ـ قاضي البحرين آنذاك بإغلاقه [الخاطر، القاضي الرئيس، ص 136؛ المنصور، الأندية في البحرين، ص 115؛ النويدري، أعلام الثقافة، 2/ 769].

استعاض التاجر عن المشروع المجهض بإنشاء مكتبة في المنامة مارس من خلالها تجارة بيع الكتب، وكانت من أوائل المكتبات في البحرين، فجعلته أكثر التصاقا بالكتب وممارسة القراءة والكتابة، وشكلت هذه المكتبة منتدى فكريًا يرتاده مثقفو البلاد وأدباؤها يجتمعون فيها ويتحاورون في موضوعات الأدب والفكر، فأتاحت تغذية نهمه في العلم، إذ لا يوجد كتاب فيها لم يستوعبه قراءة واطلاعا كما يذكر. وتركزت أكثر اهتماماته حول التاريخ والأدب وتاريخ الأدب في منطقة البحرين [الأنصاري، لمحات من الخليج العربي، ص 170؛ النويدري، أعلام الثقافة، 2/ 766].

اقتضت طموحاته في التأليف وتذوق الشعر دراسة النحو والصرف والمنطق والبيان، وكان عاريا منها وإن لم يجهلها تماما كما يقول، فاعتمد على نفسه في تحصيل هذه العلوم عن طريق التعليم الذاتي. فبعد وفاة شقيقه الشاعر سلمان التاجر في 1342هـ/ 1923م عثر على رسالة أدبيّة لأخيه اشتملت على الكثير من التضمين والاقتباس، والاستعارة وغيرها من فنون البديع والبيان وكان قد بدأ في كتابتها قبل وفاته، فرغب في شرحها شرحا أدبيا وافيا يسلك فيه مسلك الصفدي في شرحه للامية العجم، فألزم نفسه بالاطلاع في كل مادة من موادها الأدبيّة والبلاغيّة، ومضى في شرحها حتى أنجز فيها مجلّدا يربو على الأربعمائة، ولم يتجاوز ثلثها. وقد استنفذت منه جهدا واسعا ووقتا كبيرا حتى أنّه عدل عن

إتمامها. ومثلت هذه المحاولة الخطوة الأولى في مجال التأليف، فقد وضعته على بداية السلم وبعدها انطلق إلى التأليف.

آثاره

1 ـ عقود اللآل في تاريخ جزائر أوال، وكان أخوه سلمان التاجر قد بدأ جمع بعض مواد الكتاب وشرع في الكتابة إلاّ أنّ المنية وافته وهو في بداية المشروع. فأخذ محمد علي على عاتقه إنجاز المهمة وإكمالها. وقد اشتمل الكتاب ـ كما يقول ـ على ثمانمائة صفحة من الحجم المتوسط، واحتوى على قسمين، اشتمل القسم الأول منهما على أربعة أبواب، واختصّ الباب الأول ـ بفصوله السبعة ـ على تعريف البحرين (أوال) ووصفها وصفا جغرافيا واقتصاديا. وتحدّث في الباب الثاني عن لؤلؤها ومغاصاته ووضعها العلمي. وتضمن الباب الثالث تقسيمات البحرين وجزرها وقراها. وتناول في الباب الرابع أحوال عرب البحرين في الجاهليّة. أمّا القسم الثاني فعنونه بـ «تاريخ البحرين من العصور الأولى»، واختصّ الباب الأوّل بفصوله السبعة عشر، بالتاريخ القديم لإقليم البحرين منذ عصوره الضاربة في القدم متوقفا عند الفتح الإسلامي. وجعل موضوع الباب الثاني في الفتح الإسلامي، واحتوى على تسعة عشر فصلا. وعنون الفصل الثالث بـ «استيلاء آل خليفة على البحرين»، وفي خمسة وخمسين فصلا. أمّا الباب الرابع والأخير فعنونه بـ «في انقلاب سنة 1923»، وفيه خمسة فصول، وطبع الكتاب في البحرين، وعدد صفحاته 164 صفحة من الحجم المتوسّط، فربّما تكون هذه النسخة مختصرة من الكتاب الأصلي «كتاب عقود اللآل»؛ 2 ـ كتاب منتظم الدرين في أعيان القطيف والأحساء والبحرين، ولهذا الكتاب قيمة وثائقيّة كبيرة على صعيد الحياة الأدبيّة والفكريّة بالنسبة لمنطقة البحرين القديمة. وصاحب فكرة الكتاب هو أيضا شقيق المؤلف سلمان التاجر. إلاّ أنّ معالجة المنية له حالت دون المضي فيه وكان في بداية الطريق. وتبنّى محمد علي التاجر شقيقه مهمّة إكماله. ويتضح من المسودّات المختلفة الجهد الشاق والطويل الذي بذله المؤلّف لإخراج الكتاب.

فقد أمضى ما يربو على الثلاثين عاما في جمع مادته وكتاباتها، كان ينتقل خلالها بين البحرين، والعراق، وإيران، والهند، والقطيف، والأحساء. كما لجأ إلى أسلوب مراسلة العلماء والشعراء في هذه المناطق وبشكل مستمر، ولم يتمكّن من إكماله إلاّ قبل سنوات قليلة من وفاته في عام 1387هـ/ 1967م. وترجم فيه التاجر لعلماء منطقة البحرين القديمة، القطيف والأحساء والبحرين (أوال) وأدبائها من العصر الجاهلي وحتى عصر المؤلف، وبلغ عدد التراجم فيه حوالي ألف وأربع عشرة ترجمة، علاوة على تدوين المؤلّف لسيرته الشخصيّة. ورتّب التراجم فيه حسب حروف الهجاء. وحرص على ذكر اسم المترجم كاملا ولقبه، وتاريخ المولد والوفاة حسبما يتسير له، وعني بذكر المصنّفات مع إيراد شواهد شعريّة ونثريّة لمن يترجم له.

وأبرز كتاب «منتظم الدرين» شخصيّة التاجر كمصنف ومؤرّخ وأديب يتبع المدرسة القديمة في التأليف. كما أظهر اطلاعه الواسع على المصادر المتعلقة بأدب البحرين وتاريخها في

مختلف عصورها وخاصة العصر الحديث [الأنصاري، لمحات من الخليج العربي، ص170]؛ 3 ـ التهذيب والإصلاح للإيضاح، وهو كما يقول في ألف صفحة، وذيّله بكتاب آخر أسماه التهتك الفضاح، وله مجموعة من الخواطر، في كراستين عن منتظم الدّرين، ترجمة جامع الكتاب، ولا يعرف حتى الآن مصير هذه المصنفات.

وللتاجر محاولات شعريّة محدودة في موضوعات الشعر العربي المعروفة وله مقطوعات في تقريظ بعض الكتب المؤلّفة في عصره. وشعر في مدح بعض الأعيان، ونتف في الغزل والمجون، وبعض التخميسات. [المنتظم ترجمة المؤلف؛ النويدري 2/ 767].

المصادر والمراجع

● الأميني، محمد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف، مجهول الناشر، ط2، 1992، 1/ 203؛ ● الأنصاري، محمد جابر، لمحات من الخليج العربي، الشركة العربيّة للوكالات، البحرين، 1970، ص 170؛ ● التاجر، محمد علي، عقود اللآل في تاريخ أوال، إعداد وتقديم إبراهيم بشمي، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر، 1994، البحرين؛ ● منتظم الدّرين في تراجم علماء القطيف والإحساء والبحرين، نسخة مخطوطة مصوّرة بخط المؤلّف، ترجمة رقم 552، إضافة إلى ترجمة المؤلّف وهي بلا رقم؛ ● الخاطر، مبارك، القاضي الرئيس الشيخ قاسم بن مهزع، مطبعة حكومة الكويت، 1975، ط1، ص 136؛ ● الخاقاني، علي، شعراء الغري أو النجفيات، مكتبة آية اللّه المرعشي، قم، 1408 هـ، 1/ 124؛ ● شبّر، جود، أدب الطف أو شعراء الحسين، دار التراث الإسلامي، بيروت، 1393/ 1973، 6/ 318 ـ 319؛ ● المنصور، أنيسة، الأندية في البحرين، بحث منشور ضمن كتاب، دراسات في أدب البحرين، المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة 1979، ص 116 ـ 115؛ ● النويدري، سالم، أعلام الثقافة الإسلاميّة في البحرين، مؤسسة المعارف، بيروت، ط 1، 1992، 2/ 766 ـ 770.

عبد الجليل منصور العريّض
جامعة البحرين

التاجوري، عبد الرّحمان بن محمد بن أحمد

(ت 960هـ/1553م)

هو عبد الرحمان بن محمد بن أحمد أبي زيد التاجوري، ولد ونشأ بقرية «تاجورة» التي تقع قرابة 20 كلم شرقي مدينة طرابلس الغرب بليبيا. وبعد أن أتم دراسته القرآنية الأولية انتقل إلى مدرسة الجامع الأعظم بطرابلس حيث يتلقى الطلبة العلم في حلقات دروسًا حول علوم القرآن والفقه والحديث وأصول الشريعة، بعضًا من العلوم التطبيقية مثل علم الهيئة (الفلك) وعلم الغبار (الحساب) والطبّ والأدوية، وغيرها.

وتتلمذ على شيوخ عصره ومن لقيهم بهذه المدينة في مدارسها ومساجدها من علماء وفقهاء تلك الفترة التي شهدت أعلامًا تركوا آثارًا مهمة سواء في الفقه والشريعة، أو التصوف الإسلامي، أو في العلوم العامة. ومنهم: الخرّوبي (ت 863 م)، والحطاب (ت 982م)، وعبد السلام الأسمر (ت 981م)، وزرّوق (ت 988 م)، وغيرهم.

ودفعه حبّه للعلم وشغفه بالاستزادة من المعارف إلى الترحال والتنقّل بين العديد من عواصم العالم الإسلامي والعربي، يتعرّف في كلّ قطر على عُلمائه والبارزين من أعلامه، فيتحاور معهم ويتبادل ويستفسر ويفيد فيما يسأل عنه.

كانت له رحلة علم إلى مصر حيث اجتمع بالأزهر الشريف مع علمائه واستفاد ممن لقيه من علماء الأزهر في تلك الفترة. منهم: الشيخان محمد ناصر الدين اللقاني، ومحمد شمس الدين اللقاني؛ كما تصدّر بهذا الجامع لتدريس طلبة العلم، فنهل من معارفه العديد منهم ممن ترجم له في مؤلفاته نذكر منهم: بدر الدين القرافي العالم العادل الناسك الجامع بين الحقيقة والطريقة في مؤلفه توشيح الديباج، وأحمد التنبكتي علامة الزمان في علم الميقات في نيل الابتهاج وكفاية المحتاج.

وخلال إقامته بمدينة القاهرة وفد عليه جماعة من المغرب وطلبوا رأيه في موضوع قبلة المساجد في مدينة فاس التي تتّجه نحو الجنوب بدل اتّجاهها نحو الشرق حيث كعبة المسلمين. ومن ذلك المسجد الكبير الذي بناه إدريس الثاني حيث نصبت قبلته نحو الجنوب الجغرافي وتبعه في ذلك العديد من المساجد الأخرى، ونشأ عن ذلك بعض الجدال والاعتراض. وهذا ما دعا جماعة المغرب لطلب فتوى من "شيخ الجماعة في الفلك والتوقيت" كما كان يلقب عبد الرحمان التاجوري الطّرابلسي، وجاء ضمن رده كتابيا لهم: «الكعبة بالنسبة إلى العراق والشام وفلسطين وشمال مصر هي في الجنوب، ولكنها بالنسبة إلى شمال إفريقيا وكل المغرب هي في الشرق، ويجب تغيير كل المحاريب التي هي على غير ذلك».

وفي سنة 955 هـ/ 1548م أرسل التّاجوري رسالة إلى أمير فاس أحمد الوطّاس شرح فيها خطأ توجيه المصلين في المغرب إلى الجنوب ما دامت مكّة تقع جهة الشّرق، ونبّه التاجوري أمير فاس إلى أنه تقع عليه تبعية الضلال إن هو لم يأمر بتوجيه وتصحيح المحاريب المنحرفة وجعلها إلى بيت الله الحرام.

وله رحلات أخرى إلى المغرب ومكة والمدينة، وأيضا إلى الشام والأناضول والآستانة زمن حكم السلطان العثماني سليمان القانوني، وهذه الزيارة أتاحت له فرصة الاطلاع على عمائرها الإسلامية والتعرّف إلى علمائها في علوم الفلك، كما زار بعض المراصد الكبيرة التي ترصد حركات النجوم فتعيّن بشكل دقيق الأزياج والأشهر وفصول السنة ومواقيت المناسبات الدينية الإسلامية بشكل محدّد دقيق.

كما زار التاجوري خلال إقامته بالآستانة (القسطنطنية) المساجد الكبيرة بها حيث لا يخلو واحد منها من ساعة شمسية لتعيين مواقيت الصّلاة، فتعرّف بشكل عملي على حرفة الرخامة وفن وضعها واتّجاه الإبرة وتحديد زوايا الميول والانحراف حسب موقع الساعة ونسبة اتجاهها إلى الشمس، وهو الموضوع الذي كتب فيه العديد من الكتب والرسائل فيما بعد.

ولا تزال إلى الآن بعض الملتقيات الأدبية تروي طريقة شائعة عنه حيث إنه عندما كان الشيخ التّاجوري بمكّة في أحد مواسم الحجّ جاء لزيارته مجموعة من حجّاج طرابلس وسألوه الدّعاء فرفع يديه وقال: «اللهم خفّف حساب أهل مصر»، فقاموا من عنده ولم يراجعوه لهيبته ومكانته، ثم جاؤوه في اليوم الثاني وأعادوا عليه السؤال فأعاد الدعوة ثانية لأهل مصر، ثم في اليوم الثالث كذلك، فقال له أحدهم: «يا سيدي نحن أهل بلدك، وسألناك الدّعاء لبلدك وأهلها فدعوت لأهل مصر»!

فأجابه: أهل طرابلس غير محتاجين إلى الدّعاء، فهم يأكلون الشعير ويلبسون الصوف ولا يحتاجون للدعاء، وإنما المحتاجون له هم أهل مصر وغيرهم من أهل الرفاهية والترف.

وبعد هذه الرّحلات رجع إلى بلده وما زال يشع نور العلم ويقرئ الطّلبة بالمدارس والمساجد، ويسهر على تصنيف الكتب وتحرير الرسائل ونشرها حتى وافاه الأجل قرابة سنة 960 هـ.

وقد توزعت مخطوطاته بين العديد من دول العالم. ومنها مجموعات بمكتبات المغرب والجزائر وتونس وطرابلس (مكتبة الأوقاف)، والقاهرة ومكة والمدينة وطهران ودمشق وإستانبول والعديد من العواصم الأوروبية: برلين، ودبلن، ومانشستر، على أن ما أمكن التعرف عليه إلى الآن من مخطوطاته إنما هو حول علم الميقات والفلك فقط.

آثاره

1 ـ رسالة في اتجاه القبلة في بعض البلدان، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 6999 (مجموع)؛ 2 ـ رسالة في معرفة بيت الإبرة الحسنية، الرباط، رقم 4936، ومكتبة حسن حسني عبد الوهاب، تونس؛ 3 ـ تقدمة في المواقيت الحسنية، الحسنية، الرباط رقم

5910، وأيضا دبلن وطهران وغيرها؛ 4 ـ رسالة في الفصول الأربعة وأوقات الصلاة، مكتبة شيخ الإسلام، المدينة المنوّرة؛ 5 ـ رسالة في العمل بربع المقنطرات، الحسنية، الرباط رقم 938 (مجموع)؛ 6 ـ رسالة في التوطئة في حساب السنة الشمسية، السليمانية / إستانبول؛ 7 ـ تنبيه الغافلين عن قبلة الصّحابة والتابعين، الحسنية الرباط، 10153؛ 8 ـ الدرر المنتشرات على ربع المقنطرات، مكتبة شيخ الإسلام، المدينة المنوّرة؛ 9 ـ شرح الرسالة الفتحية للمارديني في العمل بالربع المجيب، المكتبة المركزية، جامعة قاريونس، بنغازي؛ 10 ـ شرح المطلب، أشار إليها بروكلمان دون ذكر اسم المكتبة؛ 11 ـ رسالة في مناسك الحج، مكتبة علي النوري بتونس، وغوته بألمانيا؛ 12 ـ رسالة في علم الهيئة، مكتبة السليمانية/ إستانبول؛ 13 ـ تنبيه بشأن مساجد طرابلس، مكتبة الأوقاف/ مركز الجراد بطرابلس؛ 14 ـ حاشية على رسالة سبط الماريديني، الخزانة العامة، الرباط رقم 1009 (مجموع)؛ 15 ـ رسالة في العمل بالربع المجيب، الخزانة الحسنية، الرباط رقم 9262 (مجموع)؛ 16 ـ ورقات في وضع الإبرة على الجهات الأربع، الحسنية، الرباط رقم 6666 (مجموع)، ومكتبة علي النوري بتونس؛ 17 ـ نور الأحداق (عمدة الحذاق) أشار إليها بروكلمان.

■ المصادر والمراجع

● القرافي، بدر الدين، توشيح الديباج، 122؛ ● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بإشراف عبد الحميد الهرامة، 1989، 263؛ ● الزاوي، طاهر محمد، أعلام ليبيا، 1961، 158؛ ● حجر، محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في ذكرى السعديين، 1967، 290؛ ● الخطابي، محمد العربي، فهارس الخزانة الحسنية (الرياضيات والفلك)، 1988؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 1980، 3/ 331 ـ 332؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، II/ 385، الملحق II/ 485.

د. عبد الكريم أبو شويرب
جامعة الفاتح، ليبيا

■ التادلي، يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمان

(ت 866 هـ/1461م) ■ ■ ■

هو الإمام الولي السالك العارف الرباني المكاشف القطب السيد الشريف سيدي يحيى التادلي بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن يحيى البكاء. كان سيدي يحيى من علماء تمبكتو الأجلاّء، قدم إليها في أوائل دولة التوارق، فتلقّاه بها كثي محمد

نض، فأحبّه وأكرمه غاية الإكرام، وابتنى له المسجد المعروف باسمه (مسجد سيدي يحيى)، وجعله إماما فيه [الولاتي، فتح الشكور، 217].

وكان سيدي يحيى معروفا بانتمائه إلى أهل البيت نسبا، خاصة عند السودان الذين كانوا يتعاملون معه بهذه الحقيقة الجليلة عندهم، إلاّ أنّ الولاتي ـ صاحب «فتح الشكور» ـ كان يشكّ في هذا النسب، مع إقراره بفضله وبعلوّ كعبه في العلم والمعرفة، لذلك عندما ساق نسبه إلى النبيّ، استدرك قائلا: «وقد ساق صاحب تاريخ السودان ـ عبد الرحمن السعدي ـ نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، والله أعلم» [الولاتي، فتح الشكور، 217].

كان سيدي يحيى بن عبد الرحيم رجل علم ومعرفة، وشهد له ذلك كلّ من عاصره، فقد بلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح والولاية، وشاع ذكره في الآفاق والأقطار، وظهرت بركاته للخاصة والعامة. قال فيه محمود بن عمر أقيت: «ما وطئت قدم تنبكت قطّ، إلاّ وسيدي يحيى أفضل من صاحبها».

وقال ابنه الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه القاضي محمود: «واجب على أهل تنبكت أن يزوروا روضة سيدي يحيى للتبرّك به كل يوم، ولو كانت بينهم ثلاثة أيّام» [الولاتي، 218]. كما يقول فيه «صاحب الفتح» في مكان آخر بأنّ له كرامات ومكاشفات، «حكي أنّ جواريه طبخن حوتا طريا من الصبح إلى العشاء، فلم تؤثر فيه النّار شيئا، فتعجبن من ذلك، فسمعهنّ، فقال لهنّ: إنّ رجلي مسّت شيئا مبلولا حين خرجت لصلاة الصبح، ولعلّه هو، ولعلّ النار لا تحرق ما مسّ من جسدي، والله أعلم» [الولاتي، 218].

توفي سيدي يحيى بن عبد الرحيم عام 866هـ، ودفن بتمبكتو، ومازالت روضته مزارا إلى اليوم.

آثاره

لم تصل إلينا مؤلفاته، كما لم يشر إليها أيّ مصدر من المصادر التي اطّلعنا عليها، ولعلّ ذلك يعود إلى حالة المكتبات في المنطقة، وهي تحول دون اكتشاف كثير من المخطوطات العلمية، فالظروف غير مناسبة لبلوغ هذه المخطوطات. وهنا يأتي المجهود الفردي والتعامل المباشر مع الأهالي للوصول إلى الكشف عن المؤلّفات القديمة، مثلما فعل هنويك في السنوات الأخيرة حين تمكّن من العثور على آلاف النصوص التي لم تكن معروفة من قبل [جون هنويك، تومبكتو وامبراطورية سنغاي، 1989].

المصادر والمراجع

أ ـ العربية:

- الولاتي، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

ب ـ الأعجمية:

- John Hunwick O, Tmbuktu and the songhay empire, Al-sa dis Tarikh al-sudan down to 1613, and

other contemporary documents, E.J. Briel, Leiden, 1999;

- Robert W July, Histoire des peuples africains, Paris, nouveaux horizons, E., 1977,
- Lewis, Adrian James Webb JR, Shifting sands: an economic history of the Mauritanian Sahara (1550-1850) Gohn Hopkins university, 1984.

الحسن سعيد جالو

جمهورية غامبيا

التاشدبيتي، محمد عبد الله بن المختار

(ت 1413هـ/1993م)

هو محمد عبد الله بن المختار بن محمد آسكر التاشدبيتي. يرجع نسبه، حسب موسوعة المختار بن حامد، إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. كان أبوه فقيها ورعا، حتى لقبه قومه بالفاروق لثباته وتحرّيه الشهادة بالحق. كما كان جده محمد آسكر ذا خبرة بفقه النوازل.

توفي أبوه ـ وهو في الخامسة من عمره ـ فتربى في أحضان جده لأمه القاضي محمد الكبير، صاحب التآليف المشهورة، مثل: نظم الفرائض (شرحه أحمد بن انجاي)، والخصائص في علم الفرائض، وموضح الشهادتين، ونظم حقوق الوالد والولد.

قرأ محمد عبد الله بن المختار بن محمد آسكر أجزاء من القرآن على فاطمة بنت حبيب الله، وهي امرأة حسنية تربطها صلة خؤولة بقومه، وقرأ أجزاء أخرى على جدته لأمه منت الطلبه بنت أحمد بن العتيق؛ ثم التحق بالقارئ المشهور الصالح عبد الله بن أحمد المجلسي، فكان شيخه الأخير في القرآن العظيم.

التحق بخاله القاضي أحمد بن محمد الكبير. ولزمه في حله وترحاله، يأخذ عنه بعض النصوص. ولما توفي التحق بالشيخ محمد آسكر بن محم، الذي أكمل عليه دراسته، وصاهره.

كان وقورا، حليما، حاد الذهن، فطنا، غزير المادة، منتصرا للأصول، رافضا التقليد الأعمى والتعصب، يستضيء بنور الدليل المعتبر شرعا، وفق ما هو مسطور في أمهات أصول الفقه، وطبقا لما كان عليه السلف الصالح من التحاكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه عند التنازع. وله في ذلك صولات وجولات معروفة، وضع فيها أنظاما مفيدة. منها رائيته التي تضمنت جملة من التساؤلات التقريعية يخاطب بها قوما صرفوا هممهم عن الأصول، وضربوا بالدليل عرض الحائط

تعصُّبا لمذهبهم، وتقليدا لأسلافهم. نذكر منها النموذج التالي:

ومرسِل الرسل بالتبشير والنذُر
عمَّت رسالتهُ في البيدِ والحضَر

كانت مدرسته الأدبية الشعبية امتدادا لمدرسة قومه التي عرفت بالتركيز - في مضمونها - على التوحيد، والنصائح، والإرشاد، والتوجيه، والابتهال. أما إنتاجه الفصيح فقد عالج قضايا دينية مهمة مستقاة في الغالب من واقع الناس وما تطرحه عليهم المدنية الحديثة من تحديات.

من ذلك قصيدته التي وجهها إلى علماء عصره عندما ظهر في موريتانيا المذياع. وفيها يتساءل عن أمور تتعلق به، وتدعو الحاجة إلى معرفة حكم الله فيها؛ منها الأنموذج التالي:

يا ليت شعري هل إذا المذيع تلا
يسن للحاضر الإنصات ممتثلا؟

وهل علينا إذا حيًا تحيَّته
ردَ عليه، أو التشميت إنْ نزلا؟

وهل على الحاضر الإصلاح للجلّسا
إن غيَّر القارئُ المذياعَ حيث تلا؟

وهل عليه سجود عندَ آيتِه
إذا المذيع به أذاع أو غفلا؟

وهل يفيد يقينًا ما يذيع به
بعض المذيعين ممّن حالُه جهلا؟

ما حُكم غانيةٍ تشدُو لتطربَنا
في «الرجو» من بعد وشخصها أفلا؟

وقد رد عليها جماعة من العلماء منهم المختار بن حامد، ومحمد بن باركل، والمختار بن باباه، وعبد الحي بن انتاب.

ومنها قصيدته في شأن الصلاة في الطائرة؛ يقول في مطلعها:

يا راكبين لحجِّ البيتِ طيارًا
صَلوا صلاتكم في الوقتِ إن طَارا

توفي محمد عبد الله بن المختار بن محمد آسكر ضحوة السبت السابع عشر من ذي القعدة 1413هـ/ الثامن من مايو 1993م، ودفن بمقبرة ابنينعج التي تبعد ثلاث كيلومترات غربي كرمسين. خلف أبناء منهم الأستاذ الخديم بن محمد آسكر.

آثاره

ترك محمد عبد الله بن المختار بن محمد آسكر ثروة علمية هائلة في شتى المعارف؛ منها مؤلفات بالأدب الشعبي الحساني مثل: «تحفة الجمهورية الإسلامية في نظم السيرة النبوية» في ألفي بيت، و«فتح الرحمن في الزكاة بكلام حسان»، و«مفتاح الفتح» الذي يحاذي فيه «المرشد المعين على الضَرُوري من علوم الدين» لابن عاشر، والتركة.

ومنها مؤلفات باللغة العربية، جلها منظوم، تدور حول تبسيط المعارف الدينية وتقريبها إلى النشء، والدعوة إلى السنة والانتصار لها في وجه المتشبثين بالتقليد:

1 - «مفتاح باب الجنة في نصرة السنة والأنمة»، (نظم)؛ 2 - «تحفة الإخوان في نظم فهارس الإتقان»؛ 3 - «صون العرض في حجة القبض». يقع في اثنين وأربعمائة بيت؛ 4 - «فرحة الأولاد في تاريخ السيرة بالميلاد». يقع في مائة وثمانية عشر بيتا؛

5 ـ «بداية الأصول ومنتهى قواعد الفحول»؛ 6 ـ «تحفة الأحباب في حل مشكل بعض الكتاب». يقع في سبعمائة وستين بيتا؛ 7 ـ «تحفة أهل الاصطفا في فقه غزوات المصطفى». يقع في مائتين وستة أبيات؛ 8 ـ «مواهب الرحمن في أوجه الإقسام في القرآن». يقع في ستمائة واثنين وثمانين بيتا؛ 9 ـ «نيل المنى المستطاب في ذكر أهل الكنى من الصحاب». يقع في ألف وأربعين بيتا؛ 10 ـ «شفاء المريضة والمريض من داء جهل أحكام المحيض»؛ 11 ـ «جواب السائل عن ثلاث مسائل». وهو نثري يقع في ورقات يسيرة، تتناول بعض المسائل مثل ختم القرآن، والقدوات، أي الإطعام الذي يصاحب ختم القرآن... الخ؛ 12 ـ «سبل الرشاد إلى فتاوى أفضل العباد». يقع في ألف وثلاثمائة بيت؛ 13 ـ «حاشية على قواعد الزقاق»؛ 14 ـ «تحريم الوصل في الشعر من الأصل والفرع»؛ 15 ـ «الترغيب في الصلاة على النبي الفائض الصلات». يقع في أربعمائة وخمسة وستين بيتا؛ 16 ـ «فتح العلام في قواعد الأحكام»؛ 17 ـ نظم عقد به حكم ابن عطاء الله الاسكندراني؛ 18 ـ نظم في الفرق بين البدعة وبين المصلحة المرسلة.

المصادر والمراجع

● ابن حامد المختار، الموسوعة: جزء الاقلال؛ ● النحوي الخليل، بلاد شنقيط والمنارة والرباط؛ ● الخديم، ابن محمد آسكر، معالم حياة محمد عبد الله المختار بن محمد آسكر، 2002.

د. محمد المختار ولد سيدينا
نواكشوط ـ موريتانيا

التافلاتي، محمد بن محمد بن أبي الطيب

(ت 1191هـ/1777م)

ولد العلامة المفتي محمد بن محمد أبي الطيّب الشهير بالتافلاتي المالكي ثمّ الحنفي المغربي، (تحنّف بعد أن كان مالكي المذهب). ولد بالمغرب الأقصى، وحفظ القرآن على طريق الإمام الداني وهو ابن ثماني سنين، ثمّ انكبّ على حفظ المتون على يد والده الذي كان متوسطا في العلم، ثم انقطع للأخذ عن علماء أجلاّء منهم الشيخ محمد بن سالم الحنفي، وأخيه الشيخ يوسف الحنفي، والشيخ أحمد الملوي، والشيخ علي العروسي، والشيخ أحمد الجوهري، والشيخ أحمد الاثيولي نزيل الحرم المكي، والشيخ أحمد الدمنهوري، وغيرهم كثير.

درّس السنوسية للطلاب قبل أوان الاحتلام، ورحل من بلاده إلى طرابلس الغرب، وهو

صغير السن قصد الاستزادة من العلوم والمعارف. ومن طرابلس توجه بحرا إلى مصر ليدرس على شيوخ الأزهر الشريف، وبعد سنتين وثمانية أشهر سافر بحرا لزيارة والدته، فأسره الفرنج وذهبوا به إلى مالطة، ثم نجاه الله تعالى بعد سنتين وأيام، وخلال هذه المدة التي أقامها بمالطة ناظرَهُ رهبان النصارى مناظرة واسعة، وكان فيهم راهب له دراية بالمسائل المنطقية والعربية ودامت هذه المناظرة ثمانية أيام.

من جملة مناظرتهم معه مسألة ألوهية عيسى عليه السلام، ويذكر كبيرهم قال له: يا محمدي إن حقيقة عيسى امتزجت مع حقيقة الإله، فصارتا حقيقة واحدة. قال: فقلت له: لا يخلو الأمر فيهما قبل امتزاجهما إما أن تكونا قديمتين أو حادثتين أو إحداهما قديمة والأخرى حديثة، وكلّ الاحتمالات باطلة، فالامتزاج في كلّ الاحتمالات باطل. أما على الأول فإن الامتزاج مفض للحدوث قطعا، لأنه تركيب بعد إفراد، وكل تركيب كذلك لا محالة حادث، والحادث لا يصلح للألوهية. وأما الثاني: فظاهر البطلان. وأما الثالث: بوجهيه فباطل أيضًا، لأن القديمة منها بعد الامتزاج يلزم حدوثها، والحادثة منهما بعده يلزم قدمها فيؤدي إلى قلب الحقائق، وقلبها محال، ويلزم أيضًا اجتماع الضدين، وهو باطل باتفاق العقول.

ولما أسقط في أيديهم ورأوا أنّهم قد ضلّوا في هذا الطريق قال لي كبيرهم: عقولنا لا تصل إلى هذا الأمر الدقيق، فقلت له: هذا عندنا من علوم أهل البداية لا من علوم أهل النهاية، فبهت الذي كفر وعبس واكفهر، ثمّ قلت لكبيرهم: بالله عليك أعيسى كان يعبد الصليب؟ قال: لا، وإنما ظهر الصليب بعد قتله على زعمهم ونحن نعبد شبيه الإله، فقلت له: بالله عليك: ألله شبيه؟ قال: لا؛ فقلت له: يجب عليكم حرق هذه الصلبان بالزفت والقطران، فاستشاط غيظًا.

وقال لي: كنت أوقعك في المهالك وأجعلك عبرة، لكن الله أمرنا بحبّ الأعداء، فقلت له: لكن الله أمرنا ببغض الأعداء، فقال لي: إذا شريعتنا كاملة، فقلت له: على طريقة الاستهزاء: شريعتكم كاملة لأنها تعبد الأصنام، والصلبان، وشريعتنا ناقصة لأنها تعبد الله وحده لا شريك له، فاشتدّ غضبه، حتّى كاد أن يبطش بي، ولكن الله سلم لمزيد اللطف بي. ثم إن كبيرهم قال لي: يا محمدي، إني رأيت في كتبكم الحديثة أن نبيّكم انشق له القمر نصفين، فدخل نصفه من كم ونصفه من الكم الآخر، وخرج تاما من جيب صدره، ومساحة البدر مثل الدنيا ثلاث مرات، وثلث، وهي ثلاثمائة وثلاث وثلاثون سنة وثلث، فما هذه الخرافات.

فقلت له: أما ورد أن إبليس جاء لسيدنا إدريس وهو يخيط الإبرة وبيده قشرة بيضة وقال له: أيقدر ربك أن يجعل الدنيا في قشرة هذه البيضة؟ فقال لي: نعم، وردد ذلك. فقلت له كيف يقدر؟ فقال إما أن يكبر القشرة أو يصغر الدنيا، فقلت له: سبحان الله تحلونه عاما وتحرمونه عاما، وإذا سلمت هذا فلم لا تسلمه لنبينا، فغص بريقه واصفر وعبس وتولى، فقتل كيف قدر، وهذا الجواب مني من باب إرخاء العنان للإلزام وإلا فدخول نصفي البدر في الكمين باطل عند جميع المحدّثين الأعلام.

ونظائر هذه المسائل مع الرهبان كثيرة، وهي مبسطة في مضامينها.

ثم يقول المترجم له: «ولما رآني صغير السن وكان سني إذ ذاك نحو تسع عشرة سنة قال لي: تصلح أن تكون مثل ولد ولدي، فمن أين جاءتك هذه المعرفة التامة؟ فقلت له: جميع ما سألتني عنه هو من علوم البداية، ولو خضت معي في علوم النهاية لأسمعتك ما يصمّ أذنيك، وفي هذا القدر كفاية؛ فترك المناظرة ورجع القهقرى، وشاع صيتي في مالطة بين الرهبان والكبراء، وكنت إذا مررت في السوق يحترمونني وما خدمت كافرا قط. وكان سبب خلاصي رؤيا مبشرة؛ ومن يومها ركبت سفينة النجاة متوجها للإسكندرية، ثمّ منها إلى القاهرة بمصر، ثمّ سافرت للحجاز مرارا، ودخلت اليمن وعمان والبحرين والبصرة وحلب ودمشق وتوجهت للروم، ثمّ ألقيت عصا التسيار في بيت المقدس، وسكنت بها، وتأهلت سنة 1172هـ/ 1758م». وبقي بها إلى أن توفي لابسا ثوب الأبرار الصالحين، وتلقاه أهلها بالتكريم والإجلال والتعظيم، وأقام بها عاكفا على درس التفسير والحديث النبوي الشريف بالحرم القدسي داخل القبة الصخراء المشرفة فأقبل عليه الناس من جهة، وازدحموا حول دروسه.

وكان يفر من الموالي والحكام، ويتباعد عنهم وهم يترجّون التقرب منه ويقفون على بابه مرارا ولا يجتمع عليهم، ولا يلتفت إليهم، فزاد مقامه عند الناس، وارتفع قدره عندهم. وقد قدم الوزير عبد الله بن إبراهيم الشهير بالجنجي إلى القدس الشريف وأراد الاجتماع بالشيخ، وجدّ في ذلك وترجاه أعيان هنالك، فلم يقبل وامتنع وردع الوسائط ومنع.

وجاءته الفتيا وهو لها كاره، وأنشد قول من قال:

إذا انتَ لم تنصف أخاكَ وجدته
على طرف الهجران إنْ كان يعقِلُ
ويركب حدَّ السيف من أنْ تضيمه
إذا لم يكن عن ساحةِ السيفِ مزحلُ

أما نظمه فهو رائق جيد كقوله مذيلا على بيت امرىء القيس:

قِفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ
قفا بربُوع العامريةِ إنني
كلِفتُ بها من حين عهدِ التحمّلِ
ولُوذَا بها ثم انْشقا طيب عرفها
وقصَّا حديثا لِلاسيفِ المعلِّلِ
فيا سائق الاضْعان يطوي فدًا فدًا
إلى دوحة الجرعى رويدك فانزلِ
بحيرة نجْد سادةِ الحي كم روت
ثقاةٍ لهم طيب الحديث المسلسلِ
فحيتُهم من جيرة لا عَدمتُهم
حماة زمام للنزيل المململِ
لنارهم تعشو السراةُ وترتوي
بحوضهم الأصفى على كل منهلِ
سقتهم غريقاتِ التهاني كرامةً
وأخصب واديهم بندٍّ ومندلِ
ونادى بشوق مذ غَدا الركب سائرًا
قِفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

■ **آثاره**

1 ـ أحاديث البلاد؛ 2 ـ ما ورد في الفصد والحجامة؛ 3 ـ المولد النبوي؛ 4 ـ الإسراء والمعراج؛ 5 ـ أسرار البسملة، ناقصة ورقة؛ 6 ـ حسن التبيان في معنى مدلول القرآن؛ 7 ـ الصلح بين المجتهدين؛ 8 ـ القهوة والدخان؛ 9 ـ الاستقصا لما صح وثبت في المسجد الأقصى؛ 10 ـ صخرة البيت المقدس، ناقصة الآخر توجد في المكتبة الخالدة بالقدس؛ 11 ـ تحرير الإصابة في أوس بن قيظي والد عرابة، مخطوط في دار الكتب المصرية؛ 12 ـ الدر الاغلى بشرح الدور الأعلى، مخطوط في سرشستربثي 4409؛ 13 ـ غاية الإرشاد في أحاديث البلاد؛ 14 ـ القول المصون في حديث الناس: هلك إلا العاملون، توجد تحت شريط رقم 385 صورت في الأصل المخطوط في جامعة برنستون رقم 2025 مجموع جاريت؛ 15 ـ التحريرات الرائقة والرسالة الفائقة؛ 16 ـ تحفة المجدين بنصرة خير الدين؛ 17 ـ الخبر الوابل في تحصيل المطالب السائل؛ 18 ـ منحة الودود بشرح ما ألهمه الأخ أبو السعود؛ 19 ـ هواتف أسرار البسملة في إدحاض استنباط المسيحي المهلهلة؛ 20 ـ ديوان شعر.

■ **المصادر والمراجع**

● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1988، 7/ 69؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، 1/ 221، 257، 441، 449، 2/ 557، 579؛ ● ابن عبد اللطيف، الحسني حسن، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري، دراسة وتحقيق سلامة صالح النعيمات، مطبعة كتابكم، عمان 1985، 267؛ ● المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثالث عشر، 4/ 102؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، مكتبة المثنى، بغداد، 1958م، 6/ 341.

د. أحمد متفكر
جامعة القاضي عياض ـ مراكش

■ تال، الحاج عمر بن سعيد بن عثمان

(1213هـ/1797م ـ 1280هـ/1864م)

ولد عمر بن سعيد بن عثمان تال في بلدة «هلوار» بفوتاتورو (السنغال) عام 1797م، وكان عاشر إخوته الاثني عشر من أبيه [محمد علي تيام، حياة الحاج عمر، القصيدة الفلانية، 1 ـ 3]. درس القرآن الكريم على والده فحفظه عن ظهر قلب،

وتحوّل داخل فوتاتورو من شيخ إلى شيخ آخر. وقيل إنّه وصل إلى بلاد «غنّار» (بلاد شنقيط) حيث درس على علمائها مسائل في النحو والبلاغة وغيرهما من الفنون والعلوم.

تنقسم حياته الفكرية إلى ثلاث مراحل:

1 ـ المرحلة الأولى: تسمّى المرحلة الفوتية، وهي مرحلة إقامته في فوتاتورو، وفوتاجالون بين عامي 1820 ـ 1825م. وكان التقى خلالها بعدد كبير من العلماء، ومن بينهم الشيخ سعد دالين (من فوتاجالون) الذي ناقشه في مسائل الدين والحياة بصفة عامة. تذكر الروايات الفلانية حول لقائهما أساطير كثيرة لا يقبلها العقل ولا المنطق. وقد انتهى نقاشهما إلى اعتراف الشيخ سعد دالين بأن الحاج عمر أعمق منه دراية في المسائل اللغوية العربية والشرعية الأصولية، كما اعترف الحاج عمر بأن سعد دالين أعمق منه علما في الحكمة وفي قضايا إفريقيا، وخاصة منها قضايا اللغة والتاريخ [محمد علي تيام، 120].

2 ـ المرحلة الثانية: هي مرحلة السفر إلى مكّة المكرّمة عبر سوكتو (نيجيريا) حيث التقى بالشيخ محمد بلّو بن عثمان دان فودي الذي زوّجه ابنته، وقد تأثر به الحاج أيّما تأثر، وخاصة في الأمور الشرعيّة العلميّة. إذ ذاك اقتنع الحاج عمر بأنّ الشريعة لا يمكن تطبيقها في غياب السلطة. من هنا بدأ هاجس الجهاد يراوده.

انتقل من سوكتو إلى فزّان، ومنها إلى مصر، فالتحق بجامعة الأزهر حيث جرت بينه وبين علمائها مناقشات علميّة معمّقة أفضت إلى الاعتراف به أحد علماء السودان الأجلاّء [محمد علي تيام، 73].

ترك مصر إلى الحجاز حاجّا، فالتقى في المدينة المنوّرة بالشيخ المغربي محمد الغالي التيجاني الذي أعطاه إجازة الطريقة التيجانية، وجعله مقدّما في بلاد السودان. ومن المدينة المنوّرة انتقل إلى بيت المقدس، فإلى مصر من جديد، ثمّ إلى السودان الغربي. وقد تعلّم الحاج عمر خلال هذه الرحلة أشياء كثيرة منها أن التهديد الأوروبي خطر على العالم الإسلامي كلّه، وأن السبيل الوحيد لمواجهة هذا التهديد هو إعلان الجهاد على القوى الأوروبية [محمد علي تيام، 125].

3 ـ المرحلة الثالثة: مرحلة الجهاد ونشر التيجانيّة، فقد وجد في فوتاتورو مسقط رأسه نفوذ فرنسا متزايدا حتى أصبحت الزعامات المحلية متواطئة مع القوى الأوروبية، فأعلن الجهاد ضدّها عام 1852م، لكنه سرعان ما أدرك اختلال توازن القوى. هذا ما جعله يسحب قواته من فوتاتورو متجها نحو الشرق، ومناديا أحرار بلاده إلى اتّباعه في هذه الهجرة. فهاجر معه عدد كبير من الفوتيين، لكنه لم يوفق في هذه الرحلة، إذ اصطدم بالقوى الفلانية المحافظة التي فشل في إقناعها بترك الطريقة القادرية واتّباع الطريقة التيجانيّة، فنتجت عن ذلك معركة أودت بحياته في مغارة «دانما مبري» بمالي.

أمّا تلاميذه في المنطقة فهم كثيرون، كما أن أتباع الطريقة التيجانية هم اليوم أكثر المسلمين في غرب افريقيا. ومن هؤلاء التلاميذ الكبار نذكر: الحاج مالك بن عثمان سي في مدينة تيراوون، ومحمد بابا تال في فوتاتورو، وغيرهما من العلماء.

آثاره

على الرغم من انشغاله بالجهاد، كان الحاج عمر من الكتّاب المكثرين والمجيدين، فقد

ترك لنا عددا كبيرا من المؤلفات منها: 1 ـ رماح حزب الرحيم على نحور حراب الرجيم، الذي جعله شرحا لجواهر المعاني، وهو أهمّ كتاب في الدفاع عن الطريقة التيجانية؛ 2 ـ السيوف؛ 3 ـ سفينة السعادة، وغيرها مما نشر بعضه كالرماح، ولم ينشر بعضه الآخر بعد.

المصادر والمراجع

- خالد، بابكر، العلاقة التاريخية بين اللغة البولارية (الفلانية) واللغة العربية عبر التاريخ في كتاب العلاقات بين اللغات الإفريقية واللغة العربية، الألكسو، تونس، 1992م.
- Mouhammad Ali Tyam: La vie d'El hadj Omar, Qacida en poular, transcription et traduction, notes et glossaire par Henri Gadem, Paris, I, E XXI, 1933

الحسن سعيد جالو
جمهورية غامبيا

تاودوروس، أبو قرّة

(القرن 2هـ/8م)

من المعروف أن السريان، وهم مسيحيّو سوريا والعراق، أسهموا إسهاما أساسيا في تكوين الثقافة العربية والإسلامية منذ بدايتها. فهم الذين بدؤوا بمهمة الترجمة من الأصول اليونانية إلى السريانية، وحفظوا من الضياع والاندثار التراث اليوناني في مجالات العلم والفلسفة والأدب. أما بعد الفتح الإسلامي، وبعد أن اندمج المسيحيون في المجتمع السياسي الجديد وأتقنوا لغته، بفضل التسامح والانفتاح اللذين أشاعهما الخلفاء والمثقفون المسلمون، فإنهم وضعوا جميع إمكانياتهم الفكرية والعلمية في خدمة النظام الجديد، وحملوا مسؤولية ثقافية بارزة من خلال الترجمات التي قاموا بها، والمراكز العلمية التي عملوا في إطارها على نقل الفكر الغربي، المتمثل باليونان آنذاك، إلى اللغة العربية.

وبالإضافة إلى أعمال الترجمة، فإن الفرق اللاهوتية المسيحية التي نشأت منذ القرن الرابع الميلادي، كانت السبب الرئيسي في قيام حركة فكرية فلسفية ولاهوتية وأدبية تركت آثارها الإيجابية في الأوساط الثقافية العربية عموما، والإسلامية بنوع خاص، لا سيما بعد أن أخذ العلماء المسيحيون والمسلمون يقيمون المناظرات والمناقشات الفكرية التي أغنت الثقافة العربية بالمفردات والمصطلحات المستحدثة، وأنماط التفكير المنطقي، بحيث أثمرت إنجازات فلسفية وعلمية وأدبية وفقهية ارتقت بفضلها الحضارة العربية إلى مصاف

الحضارات الكبرى في ذلك العصر. ففي هذا المناخ الثقافي المتفتح نشأ تاودوروس أبو قرة. فمن هو هذا الرجل؟ وما هي إنجازاته الفكرية؟.

اسمه ثاوذوروس، وبعض المؤرخين يكتبه بصيغة ثاودوريكوس، وبعضهم ثاوذوريطوس، وكلها صيغ تدل باليونانية على معنى: عطاء الله أو كما نلفظها اليوم: عطاالله. أما لقب «أبو قرة» فقد نسبه إليه الكتاب العرب. وقد اعتقد بعض المستشرقين أن هذا الاسم ينسب صاحبه إلى المدينة التي عرف بها، وهي حران. فطالما أنه كان أسقفا على هذه المدينة، وأن حران تلفظ باليونانية كراي أو كران، فإنه من المحتمل أن يكون لقب «أبو قرة» يعني الأب أو أسقف مدينة حران. ولكن هذا التفسير يبدو في نظر المتخصصين في تاريخ اللاهوت المسيحي أنه ليس دقيقا. وهم يردّون هذه اللفظة، ليس إلى أصلها اليوناني وإنما إلى العادة التي كانت سائدة بين العرب في إطلاقها على كثير من الحرانيين. وهذا يعني أن هذا اللاهوتي قد اندمج في المحيط الحراني، وأصبح معروفا هناك في الأوساط العربية والإسلامية. ولكن المؤرخين القدماء، كانوا يطلقون عليه اسم أسقف حران، وأحيانا المعلم اللاهوتي، أو المعلم الفيلسوف. وهو من كبار الأئمة الخلقيدونيين الملكيين (أو الملكانيين)، أي من الطوائف المسيحية المنضوية تحت مبادئ المجامع المسكونية الرسمية في الكنائس المسيحية، وخصوصا المجمع المسكوني الذي عقد في خلقيدونية عام 451م وصدر عنه الإيمان الخلقيدوني.

يميل المؤرخون اليوم إلى التأكيد على نشأته بمدينة الرها، في بلاد ما بين النهرين. أما مولده فهو غير معروف بالضبط، إلا أنه من المؤكد أنه ولد في أواسط القرن الثامن الميلادي، أي بين سنة 740 وسنة 750م. واعتنق الحياة الرهبانية في دير مار سابا، في فلسطين، والتابع لكنيسة أورشليم. أما ثقافته الدنيوية قبل الرهبنة، فليس من مراجع أو مخطوطات حتى اليوم تستطيع الإجابة على ذلك. ولكن من المؤكد أنه كان يتقن اللغة العربية، ومطلعا عليها وعلى أصول الإسلام بصورة عميقة. وهذا يعني لدى بعض المؤرخين، بأنه اكتسب هذه الثقافة عندما كان لا يزال طالبا للعلم بين الرها وبغداد، حيث كانت تسود الثقافة العربية والإسلامية، ومختلف التيارات الفكرية والدينية. وكان ثاودوروس يتقن الفلسفة والمنطق، وقد ترجم إلى العربية كتب ارسطو في المنطق. كما تدل كتاباته على أنه كان يلم بعلوم الطب. أما اللغات التي كان يتقنها فهي اليونانية، والسريانية، والعربية. أما بعد ترهبه في الدير، فقد تعمق في علم الكتاب المقدس وأفكار الآباء القديسين، وخصوصا القديس يوحنا الدمشقي.

إنّ مدينة حران مجاورة لمدينة الرّها موطن أبي قرة. وكانت لا تزال في ذلك الوقت مركزا فكريا ودينيا هاما. وكانت تنتشر فيها الثقافة اليونانية، بكل ما تحتويه من علوم الفلك والرياضيات، والطب، والفلسفة، والمنطق. أما المسيحيون الذين كانوا يسكنون حران، فكانوا على مذهبين: اليعاقبة والخلقيدونيين الملكيين. فعندما عين أبو قرة أسقفا على حران، أخذ يحاول رأب الصدع بين الطائفتين، وذلك من خلال مواعظه وعلاقاته مع رجال الكنيسة اليعقوبية، كما

كان يعنى بشؤون جميع الناس من مسيحيين ومسلمين ويهود. ولكنه عندما وجد صعوبة تحقيق هدفه في رأب الصدع بين المسيحيين، ويئس من جمود السلطات الكنسية، ولم يتمكن من تحقيق الإصلاحات التي ابتغاها، عاد إلى دير مار سابا يتابع دراساته اللاهوتية ومواعظه. ويقول بعض المؤرخين إن البطريرك ثاودوريطس استهجن أسلوب أبي قرة في مخالطة الأمراء والفقهاء المسلمين، وفي تجوله الدائم خارج أبرشيته، فأوقفه عن إدارة تلك الأبرشية. ولكن البطريرك أيوب، خليفة ثاودوريطوس، أعاد أبا قرة إلى أبرشيته في حران، حيث التقى الخليفة المأمون عام 824م. أما بالنسبة إلى تاريخ وفاته فإن الباحثين يتأرجحون في تحديده بين عامي 820 و830م.

لم ينحصر نشاط أبي قرة في البيئة المسيحية، إذ إنه استفاد من الانفتاح الفكري الذي أتاحه الخليفتان هارون الرشيد والمأمون، فأخذ يتقرب من الأوساط الإسلامية المثقفة، ويخالطها ويناقش معها العديد من القضايا الفلسفية واللاهوتية. وفي مواقفه تلك، لم يكن يتصدى بالنقد للعقيدة الإسلامية، بل كان يقوم بإيضاح دفاعي للإيمان المسيحي، ويصوغه في مقالات موجهة إلى المثقفين المسلمين، فيضمنها أجوبة على الاعتراضات التي كان يثيرها بعضهم أمامه على عدد من مبادئ العقيدة المسيحية. ولذلك غلبت على كتاباته القضايا المشتركة بين الديانتين، بحيث أخذ الجدال يثار حولها في مدارس البصرة وبغداد. أما الموضوعات التي كان يطرحها فكانت تتعلق عموما بحرية الإنسان، وخلق كلام الله، وصفات الله، وتشبيه الله أو تنزهه عن التشبيه. وفي كل هذه المواقف والكتابات، كانت تبرز نزعته العقلانية في ثقته بالعقل، وطموحه إلى ترسيخ ديانة تتوافق ومعطيات العقل. من هنا، كان هناك شبه عميق بينه وبين المعتزلة، الذين كانوا يتمتعون بمكانة مميزة لدى الخليفة المأمون. ويظن المؤرخون أنه التقى بأبي هذيل العلاف المعتزلي (752 ـ 840م) وبالنظّام المعتزلي الذي توفي ما بين سنة 835 وسنة 845م. أما آخر أيام أبي قرة فقد قضاها، على الأرجح، في أبرشيته حران حوالي عام 825م.

إن هدفه الأول هو الدفاع عن الإيمان المسيحي، وكان يجمع في شخصه بين الفيلسوف واللاهوتي، بحيث تتعلق المسائل التي يطرحها بهذين المجالين معا. أسلوبه يقترب من القياس الفلسفي المنطقي ومن التأمل اللاهوتي. ولذلك فإن مؤرخ اللاهوت يجد فيه حلقة تربط بين آباء الكنيسة القديسين (كليمان وأوريجين واوغسطينوس) واللاهوت السكولاستيكي في الغرب. ومؤرخ الفلسفة يجد فيه إحدى المحاولات الأولى للتوفيق بين الارسطوطالية والمسيحية، تلك المحاولة التي ستبلغ أوجها في مؤلفات القديس توما الاكويني. ولكنه، من جهة أخرى، لم يكن يهدف إلى البحث الفلسفي، ولا إلى التعمق في اللاهوت. ولم يكن يهدف إلى استقصاء سر الوجود والكيان الإنساني على ضوء العقل، ولا كشف المعاني الكامنة في كلام الله والحياة الدينية. صحيح أنه تطرق إلى كل ذلك، ولكن ذلك كان وسيلة لبلوغ هدف أبعد من ذلك: إنه الإيمان ضمن كنيسة المسيح. هذا الإيمان هو انصياع حر لكلام الله، بإنارة الروح القدس. وهو يفوق أي معرفة فلسفية

محضة. إنه حقيقة مطلقة، وغير مرتبطة بوجهات النظر والأهواء، لأنه وجهة نظر الله، الأساس الثابت لكل حقيقة. وهو ليس مجرد معرفة نظرية مجردة، بل هو معرفة خلاصية، وبالتالي ضرورية لكل الناس لكي يحققوا كمال كيانهم الإنساني بعون علوي يأتي الإنسان بشكل الوحي والفداء. وهذا الإيمان قيمة مطلقة. إنه هبة من الله تبلغنا بواسطة خدمة الكنيسة. إنه يسمو على العقل، على الرغم من أنه يخاطب فينا العقل الذي هو العنصر الأكثر تجردا في الإنسان، بحيث يتيح الحوار مع الآخرين. ففي العقل انفتاح على الإيمان. والإيمان، بالرغم من معارضته للعقل بعض الشيء، يشبع تطلعاته. هذه النظرة إلى الإيمان، عند أبي قرة، هي التي سمحت له بمخاطبة الذين هم خارج الكنيسة، مخاطبة ذات أبعاد عقلانية.

يتلخص موقف ثاودوروس أبي قرة بهذه العبارة: إنه لمن المناسب للعقل أن نؤمن. فإيضاح العقيدة، لا يهمه مباشرة. بل المهم عنده هو أن يستخرج من العقيدة ما هو مطابق للعقل. لقد ناضل أبو قرة على جبهتين: فعلى الجبهة الداخلية، حاول إعادة الوحدة بين المسيحيين حول تحديد المجمع الخلقيدوني. وعلى الجبهة الخارجية، تجاه الدين الإسلامي المنتصر، حاول إظهار حقيقة الديانة المسيحية، وإيضاح عقلانية معتقداتها. وإذ لم يتمكن من إقناع محاوريه المسلمين، فإنه تمكن من أن يفرض عليهم احترام المعتقد المسيحي.

إن موقف أبي قرة من هذه القضية يشبه إلى حد بعيد موقف القديس أوغسطينوس، إذ إنه يعتبر أن الإيمان ضروري لأنه نعمة من الله. والعقل ضروري لمعرفة هل كان الإيمان في محله؟ يقول أبو قرة عن علاقة الإيمان بالعقل، في مقال له بعنوان «في التوحيد والتثليث»:

«إن الإيمان هو اليقين بما قد غاب من المعرفة، كما تحيط به المعرفة. فالإيمان لا يتولى إلا بحب، كما قال مار بولس: إن الإيمان هو من سماع الأذن. فالناس كافة، في الإيمان بما جاء من عند الله، ثلاثة: منهم من يعطل الإيمان بتاتا، متعظما عن أن يكون عقله تبعا لخبر لم يُحط به معرفته. ومنهم من قد بذل عقله لقبول خبر يأتيه من الله لا تحيط به معرفته، غير أنه يهمل إيمانه، ولا يوكل به عقله أن يحتاط له نظرا، حتى يجعله في مكانه. ومنهم من يخضع ذهنه للتصديق بخبر يسند إلى الله ولا يستند إلى الله، ولا يخلي إيمانه أن يعود كالسفينة التي لا ربان فيها ولا نوتية، بل يدبر عقله حتى يضعه في مكانه، ثم يرخيه بكل ما خرج من ذلك الموضع، الذي قضى له العقل بالحقيقة أن يستحق أن يصدق في ما أسند من الكلام إلى الله».

فالناس في موقفهم من الإيمان هم، إذًا، ثلاث فئات: منهم من يرفضون الإيمان بما لم يحيطوا بمعرفته شخصيا. ومنهم من يؤمنون بما يقال لهم أنه من الله، دون أن يُمعنوا النظر ليعرفوا هل هو حقيقة من الله. ومنهم من يؤمنون بعد أن يعملوا الروية، ويدركوا صحة نسبة هذا القول إلى الله. فالذي يرفض أن يؤمن، لا بد أن يبقى جاهلا، لأن هناك أمورا كثيرة لا نصل إليها إلا بالشهادة والتصديق. وطالما أن الإنسان يصدق الكثيرين ويطمئن إليهم، فلم لا يصدق من يرسلهم الله؟ أما الذي يؤمن دون أن يمعن

التفكير في موضوع إيمانه، فهو أشبه بمن يغمض عينيه، ويمكّن بن يده مَنْ يَهديه في الطريق، من غير أن يعلم إن كان هاديه ناصحا له أو غاشا، وهاديا بالطريق أو ضالا. وأما الذي يخضع لعقله التصديق بالخبر عن الله، فيكون عدلا في تدبير إيمانه، إذ يجعله في موضعه. ويسهب أبو قرة في عدة مقالات في البراهين على صحة الديانة المسيحية، وضرورة تصديق ما جاء في الإنجيل، بيد أنّه لا يدعي أن أسرار الديانة المسيحية تعرف بالعقل. فهو يستند إلى شهادات الكتب. لكن براهينه العقلية يستخدمها لدعم معتقد الضعفاء، ورد هجمات الأعداء، وإثبات عدم التناقض فيها.

يعتبر تاودوروس أبو قرة أن الإنسان يملك وسيلتين متميزتين للمعرفة: الحواس الخارجية والعقل الباطن. فالعقل ينطلق من معطيات الحواس الجزئية والوضعية، ولكنه يتعدى نطاقها بعمليتين: في الأول، يتوصل العقل إلى إصدار أحكام شاملة حول الأنواع، وإلى معرفة طبيعة الأشياء ومجمل الوجود الحسي والواقعي المعطى لنا. ويبدو هنا دور العقل وكأنه تعميم لمعطيات الحواس الأولية. وهذه المعطيات هي جزئية وفردية. والعقل ينتقل من الجزء إلى الكل، ومن الفرد إلى النوع، ومن الأنواع المتشابهة إلى الجنس، ومن مختلف الأجناس إلى الوجود. يقوم دور العقل إذًا على الاستقراء والتعميم المتزايد الشمول. ولكنّ أبا قرة لا يتعمق في تحليل جوهر المعرفة العقلية وإثبات شرعيتها، فكأنها لا تتميز جوهريا عن معرفة الحواس، لا سيما أن دور العقل يظهر كأنه مجرد انفعال. أما تميز العقل عن الحواس فينحصر فقط في قدرته وإمكانيته على التعميم. وعلى الرغم من أنه يتكلم عن المعرفة العقلية باعتبارها نوعا من الانفعال، فإنها تتوصل إلى إصدار أحكام شاملة تتعدى معطيات الاختبار الحسي. هذه النتيجة تحتاج فلسفيا إلى إثبات وحجج، وموقف نقدي من المعرفة لم يقم به أبو قرة. أما في الثانية، فإن العقل يتوصل، انطلاقا من النتائج والآثار، إلى معرفة الأسباب التي لم تدركها الحواس من قبل. إن العقل يستشعر بنوعية الفعل، ومن ثم صفات الفاعل.

إن هذا الانفتاح غير المحدود، الذي ينعم به العقل، يمكّنه من السمو، ليس فقط بالنسبة إلى الواقع الحسي، بل بالنسبة أيضا إلى العالم بأكمله، فيبلغ إلى معرفة الله. إنها محاولة تظهر كيف يقدر الإنسان، بالقياس العقلي، أن يصل إلى معرفة الخالق. ولكن يبدو واضحا أن العقل يملك فكرة الخالق، قبل أي تحليل فلسفي. ومحاولته هذه ليست إلا جهدا فكريا للبلوغ، بواسطة المنطق، إلى معطيات الإيمان. هناك إذن خلفية إيمانية حاصلة، ولكن أبا قرة يستخدم العقل وأساليبه الخاصة، وبموجب قواعد المنطق لإبراز هذا المعطى الأولي. فإذا حاولنا أن نحدد ما هو دور كل من الإيمان والعقل في هذه المحاولة لإثبات وجود الخالق، يمكن القول بأن الإيمان يعمل على مثال العلة الغائية، بينما العمل الفعلي هو كله من العقل الفلسفي.

إلا أن أبا قرة يعارض أرسطو في مسألة المادة الأزلية والصانع الأزلي. فالله بالنسبة إلى أرسطو هو الصانع، أو العلة الفاعلة؛ بمعنى أن المادة، أو الهيولي أزلية، والصورة المحضة أزلية. وبالتالي فالكون صنع من مادة

أزلية. أما أبو قرة، فإنه يرى أن كل شيء ثابت ولا يتغير هو أزلي، أما ما هو متغير فهو فان ومخلوق. ثم يتابع أبو قرة منطقه ويقول إن الكون ليس مصنوعاً، كما يصنع النجار مصنوعاته من الخشب، بل إنه مخلوق من لا شيء. فملاحظة التغيير والفساد في هذا العالم جلية. ولذا فالاستنتاج بأن العالم محدث وقد بدأ يوماً ما، هو أمر ملزم للعقل. فالعالم مخلوق، وأن منظم الكون هو أيضاً خالقه.

آثاره

هناك عدد ضخم من المؤلفات التي تنسب إلى تاودوروس أبي قرة، ولكن نسبة بعضها إليه ليست مؤكدة، لا سيما أنه كتب باللغات الثلاث: العربية، والسريانية، واليونانية. لذلك سنقتصر هنا على ذكر أهم ما هو ثابت له، دون أن نذكر التي تنسب إليه دون دليل:

1 ـ في إكرام الأيقونات، مع ترجمة إلى اللاتينية، بون، 1897؛ 2 ـ ميامر تاودوروس أبي قرة أسقف حران، بيروت، 1904؛ 3 ـ في وجود الخالق والدين القويم، جونيه (لبنان)، 1982.

وهناك العديد من المؤلفات الأخرى التي تم نشر قسم منها في مجموعات قام بها عدد من المستشرقين، وقسم آخر لا يزال مخطوطاً ينتظر من يحقق في صحة نسبته إلى أبي قرة. وقد وضع الأب الدكتور أغناطيوس ديك لائحة مفصلة بها؛ وذلك في دراسته القيمة التي وضعها كمقدمة للنص الذي عني بتحقيقه ونشره لأبي قرة وهو بعنوان: «ميمر في وجود الخالق والدين القويم». وقد استندنا إليه بشكل أساسي واقتبسنا منه بعض ما جاء في هذا المدخل، نظراً إلى أهمية وسعة اطلاع مؤلفه.

د. أدونيس العكرة
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

التاودي، محمد بن الطالب أبو عبد الله بن سودة

(حوالي 1118هـ/1707م ـ 1209هـ/1795م)

محمد التاودي بن الطالب عبد الله بن سودة المري الفاسي. فقيه من بيت علم، ومحدث وصوفي، وشيخ الجماعة بفاس؛ جمع بين العلوم الشرعية، والمعارف الصوفية.

ولد بفاس حوالي 1118هـ/1707م بعد وفاة أبيه، فكفلته والدته، وتوفي عام 1209هـ/1795م.

حفظ القرآن العظيم، وأتقن جودة الخط، وحفظ المتون، وأخذ عن المغاربة والمشارقة. فمن شيوخه المغاربة في العلم: محمد بن أحمد بن خلدون، في النحو

والفقه؛ وأحمد بن علي الوجاري، في النحو؛ وأحمد بن أحمد الشدادي، في التفسير والفقه؛ ومحمد بن الحسين الجندوز، في النحو والمنطق والأصول؛ ويعيش بن الرغاي، في الفقه والحديث؛ ومحمد بن أحمد بن التمّاق، في التفسير والفقه والصرف؛ وأحمد بن مبارك السجلماسي المكي، في التفسير والحديث والسيرة والكلام والأصول والبيان والمنطق، ولازمه، وأجازه، وأذن له في التدريس؛ وأحمد بن فهد العزيز الهلالي، في الحديث؛ وأحمد بن عبد الله الدكالي الغربي، في الحديث؛ ومحمد بن قاسم جسوس، في الفقه والحديث والتصوف. أما شيوخه المغاربة في التصوف، فيزيد عددهم على الثلاثين [الحوات، الروضة المقصودة، 105 ـ 109، 204، 312، 346، 687]. أما شيوخه المشارقة الذين أخذ عنهم بالإجازة بالمرويات العلمية فهم: محمد بن خالد الجعفري، وإبراهيم السعد، وعلي السندي المدني، وعلي بن أحمد الصعيدي العدوي المالكي، وعيسى الشبراوي الشافعي؛ وأخذ الطريقة والخرقة والأدعية والأوراد والمصافحة والمشابكة، عن عبد الرحمن بن محمد الحسني الحسيني، وحسين بن عبد الشكور الطائفي، ومحمد بن عبد الكريم السمان الشافعي القرشي، وعبد الرحمان بن مصطفى العيدروسي الحسيني اليمني، ومحمود بن أبي زيد الكردي الشافعي؛ ـ كذلك أخذ عن شيوخ القرآن بقراءة مؤلفاتهم، وهم: حسن بن إبراهيم بن حسن الجبرتي، وأحمد بن عوض المقدسي [الحوات، الروضة المقصودة، 110 ـ 111، 312 ـ 345].

رحل الشيخ التاودي إلى المشرق سنة 1191هـ/ 1778م، بقصد الحج، ولما حلّ بالقاهرة ألقى درسا في «الموطأ» بالجامع الأزهر، وتبادل الإجازة مع العلماء والمتصوّفة [الحوات، الروضة المقصودة، 112، 115 ـ 116].

وقد طال عمره، فعاصر الثلث الأخير من العهد الإسماعيلي، وعهد الأزمة بعده، وعهد محمد بن عبد الله، وعهد اليزيد وأوائل عهد سليمان. وكانت تَربطه علاقة طيبة مع السلطان محُمد بن عبد الله، وبلغ من الرئاسة معه ما لم يبلغه غيره؛ حتّى اكتسب من ذلك هو وأولاده أموالاً كثيرة، وأكسبوا غيرهم، واجتمع له ولأولاده من المناصب والولايات، والأخذ من وفر الأوقاف، ما لم يتفق لغيره قط؛ ومع ذلك فإنه لم يكن يتوانى عن الصدع بما يراه الحق، ولو خالف هوى السلطان. ولما مات السلطان المذكور، أقره ولده السلطان اليزيد على ما كان له، وبعد وفاة اليزيد، كان للشيخ دور حاسم في بيعة تلميذه السلطان سليمان، الذي بنى لشيخه المسجد الذي أقبر فيه قرب داره بفاس [الحوات، ثمرة أنسي، 72؛ والروضة المقصودة، 76 ـ 102، 113، 116 ـ 119].

لقد تصدر للتدريس، قبل بلوغ سن العشرين، بإذن من أشياخه، وابتدأ بعلم النحو، ثم أقرأ المنطق والأصول والبيان والعروض والحساب والتعديل والمواقيت؛ ثم تصدّى للمقصود من الفقه بتدريس فقه العبادات والمعاملات وأحكام القضاء والتوثيق ونوازلهما؛ ثم أسند إليه كرسي الحديث بجامع القرويين، فكرسي التفسير بها. وقد

نجح إلى حدّ كبير في تكوين أبنائه وأحفاده، وخرّج جيلا من المؤلفين والأئمة والخطباء والوعاظ والمدرسين والمفتين والقضاة، ومارس إلى جانب ذلك الإمامة والخطابة والإفتاء [الحوات، الروضة المقصودة، 688 - 699، 707 - 757].

كان مولعا منذ صباه بزيارة الصالحين، وكان يلقن أوراد الطريقة الناصرية، والقادرية، ويزور ضريح المولى عبد السلام بن مشيش سنويا [الحوات، الروضة المقصودة، 212 - 213، 557 - 558، 595 - 599، 705 - 706].

■ آثاره

1 - إتحاف الناظر والسامع بشرح مسائل الجامع، طبعة الحجر بفاس 1307هـ/ 1889م؛ 2 - حلي المعاصم، لبنت فكر ابن عاصم، في القضاء، طبع على الحجر بفاس سنة 1284هـ/ 1867م، وسنة 1294هـ/ 1877م ومع حاشية محمد المهدي الوزاني عليه سنة 1310هـ/ 1892م؛ 3 - شرح لامية الزقاق، في أحكام القضاء، طبع على الحجر بفاس، بهامش حاشية التسولي عليه 1314هـ/ 1896م؛ وبهامش حاشية محمد المهدي الوزاني عليه 1315هـ/ 1897م؛ وبهامش حاشية عبد السلام الهواري عليه سنة 1321هـ/ 1903م؛ 4 - كشف الحال، عن الوجوه التي ينتظم بها بيت المال، منشور ضمن: النوازل الكبرى باسم المعيار الجديد لمحمد المهدي الوزاني، المطبعة الحجرية الفاسية سنة 1328هـ/ 1910م، السفر 11/ 255 - 268؛ 5 - أسئلة وأجوبة، وبهامشها أسئلة وأجوبة لعبد القادر الفاسي، تصحيح محمد التهامي بن المدني كنون، طبع على الحجر بفاس سنة 1301هـ/ 1883م؛ 6 - الروضة المقصودة، تح. تيلاني، فاس، 1415هـ/ 1994م جزآن ضمنهما الدراسة والفهارس؛ 7 - البدور الضاوية، تح. كظيمي، مرقون بكلية آداب الرباط، 1412هـ/ 1992م، خمسة مجلدات الأول للتقديم والخامس للفهارس العامة، التقديم: 155، 158 - 162؛ 8 - فهرسة، الكبرى الجامعة لأشياخه المغاربة والمشارقة، منها نسخ مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط: د725، د 2018، د952، ك3251، وبالحمزاوية 178؛ 9 - فهرسة، الصغرى في من لقيهم من الصالحين، مخطوط الحمزاوية 178؛ 10 - زاد المجد الساري، في مطالع البخاري، فاس 1328هـ/ 1910، أربعة أجزاء؛ 11 - شوارق الأسرار على مشارق الأنوار، مخطوط الخزانة العامة بالرباط: ك 415؛ 12 - شرح الأربعين النووية، طبع على الحجر بفاس: 1309هـ/ 1981م؛ 13 - مناسك الحج، مخطوط الخزانة العامة بالرباط: ك 2159؛ 14 - نوازل، مخطوط الخزانة العامة: ك 2259؛ 15 - شرح قصيدة: «بانت سعاد»، مخطوط الخزانة العامة بالرباط: د 2008؛ 16 - الزبيدي، تاج العروس، مصر 1306هـ/ 1888م، مادة: سود، 2/ 387.

■ المصادر والمراجع

● التاودي، الروضة المقصودة [الآثار]؛ ● الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، تح. البوزيدي، الدار البيضاء 1408هـ/ 1988م، 1/ 177؛ ● الكتاني، سلوة الأنفاس، طبعة حجرية بفاس 1316هـ/ 1898، 1/ 112 - 115؛ ● مخلوف،

شجرة النور الزكية، القاهرة 1349هـ/ 1930م، 333؛ • غريط، فواصل الجمان، فاس 1347هـ/ 1928م، 72؛ • الحجوي، الفكر السامي، تح. القاري، المدينة المنورة، 2/ 294؛ • بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، تعريب الخلادي، الرباط 1397هـ/ 1997م، 238؛ • ابن ابراهيم، الإعلام، تح. ابن منصور، الرباط 1397هـ/ 1977م، 6/ 136 ـ 143؛ • الكتاني، عبد الحي، فهرس الفهارس، باعتناء إحسان عباس، بيروت 1402هـ/ 1982م، 1/ 256 ـ 263؛ • سركيس، المطبوعات العربية، مصر 1346هـ/ 1930م، 2/ 1643؛ • المنوني، المصادر العربية، الرباط 1410هـ/ 1989م، 2/ 30، 68؛ • فوزي، المطبوعات الحجرية، الرباط 1410هـ/ 1989م، 27، 42، 46، 48، 63 ـ 64، 68.

د. عبد الرحمان كظيمي
كلية اللغة العربية ـ مراكش

ابن التبان، أبو محمد عبد الله بن اسحاق

(311هـ/924م ـ 371هـ/981م)

عبد الله بن إسحاق، يعرف بابن التبان، أبو محمد، فقيه قيرواني، مالكي المذهب، عالم بالجدل مطلع على مذاهب الفرق وآراء أصحابها.

مولده بالقيروان سنة 311هـ (924م) وأخذ عن كبار علمائها كابن اللباد وأضرابه؛ وكان هو المعوّل عليه من أهل القيروان في مناقشة أهل الفرق ـ وخاصة الشيعة ـ والمنافحة عن رأي أهل السنة، وله في مناقشة دعاة الشيعة مجالس مشهورة أوردت المصادر التاريخية نماذج منها.

كما كانت له مناقشات في مسألة الإيمان مع طائفة من معاصريه من علماء المالكية وخاصة ابن أبي زيد. وكان لكلّ منهما أنصار وأتباع.

وكانت وفاته بالقيروان سنة 371هـ (981م).

آثاره

1 ـ فتاوى ونوازل فقهية أوردت المصادر نماذج منها؛ 2 ـ فضائل أهل البيت من وجهة نظر أهل السنة.

المصادر والمراجع

• ترتيب المدارك، 6/ 248؛ • معالم الايمان، 3/ 88، 96؛ • كتاب العمر، 1/ 641 ـ 642؛ • تراجم المؤلفين، 1/ 202 ـ 204.

بشير البكوش
مجلس النواب ـ تونس

التبّاني، جلال بن أحمد بن يوسف الرومي

(ت 793هـ/ 1391م)

جلال بن أحمد بن يوسف الرومي الثيري القاهري، جلال الدين التباني، والتباني نسبة إلى موضع سكنه، خارج القاهرة بالقرب من باب الوزير، يُقال له: التّبانة.

فقيه حنفي وأصولي ونحوي، أصله من بلدة في الروم يقال لها: «ثيرة». قدم القاهرة قبل سنة 750هـ، واستقرّ في محلة «التبانة» خارجها، وكان يُقام فيها سوق للتبن. وقد أخذ في القاهرة عن جماعة من أهلها في فنون عديدة، وبرع في الجميع مع حسن التدين وفعل الخير. كان إماماً عالماً بفنون كثيرة، أفتى وأقرأ ودرّس عدّة سنين. برع في الفقه وفي اللغة واجتهد فيهما. [الزركلي، الأعلام، 2/ 132؛ كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 209؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12/ 124].

كان محبا للحديث النبوي الشريف، حسن الاعتقاد والإيمان، شديدا على المبتدعة والزنادقة، وانتهت إليه الرئاسة في الفقه الحنفي.

عُرض عليه قضاء القضاة فامتنع عفّة وتورعا، وقال: هذا أمر يحتاج إلى دراية ومعرفة اصطلاح، ولا يكفي فيه مجرد الاتساع في العلم. توفي بالقاهرة في شهر رجب سنة 793 عن بضع وستين سنة [الزركلي، الأعلام، 2/ 132؛ الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 186؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12/ 124].

أخذ الفقه عن الإتقاني، واللغة العربية عن ابن هشام [الزركلي، الأعلام، 2/ 132].

آثاره

صنف عدة تصانيف، منها:

1 ـ شرح منار الأنوار، في أصول الفقه، للشيخ أبي البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي (ت 710هـ) [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1824]؛ 2 ـ اختصار شرح البخاري للحافظ مُغُلْطاي، أو «مختصر التلويح في شرح الجامع الصحيح» [ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12/ 124]؛ 3 ـ شرح مختصر ابن الحاجب، في الأصول؛ 4 ـ شرح المشارق والمنار والتلخيص؛ 5 ـ منظومة في الفقه وشرحها، في أربعة مجلدات؛ 6 ـ له مختصر في ترجيح مذهب أبي حنيفة؛ 7 ـ تعليق على البزدوي، لم يكمله؛ 8 ـ العناية بشأن الهداية، وهي نكت على الهداية في فروع الفقه الحنفي، مخطوط بخطه، ويوجد بخزانة الرباط، وهو غير كامل؛ 9 ـ رسالة في عدم جواز صحة الجمعة في مواضع؛ 10 ـ مصنف في أن الإيمان يزيد وينقص [الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 186؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 132؛ كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 209؛

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 12/ 124].

■ المصادر والمراجع

• ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة، وزارة الثقافة بمصر؛ • خليفة، حاجي، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992، 2/ 132؛ • الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج2، سنة 1250هـ؛ • كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

التبريزي، أمين الدين المظفر بن إسماعيل

(558هـ/1163م ـ 621هـ/1224م)

أبو الثناء (أو أبو سعد) المظفر بن محمد (ويقال ابن أبي الخير محمد)، بن إسماعيل بن علي الراراني.. الشيخ أمين الدين التبريزي، وفي «المختصر» المشهور في الفقه، يكنى أبا الخير، ويبدو أنّه كان محسنا، عالي الهمة والخلق فاقترن اسمه بالخير.

كان المظفر بن إسماعيل التبريزي، من أجل مشايخ العلم في مصر على حد وصف السبكي في طبقات الشافعيّة، وكان فقيها أصوليا بمعنى أنّه كان يتبع السنة والحديث بالدرجة الأساس؛ كما كان عابدا زاهدا، كثير العبادة وإماما مناظرا مبرزا. ولا شكّ أنّ صفة الزهد عند التبريزي كانت إحدى سمات الفقهاء المحترزين المحترسين في عصره وترفعهم عن دنايا وآثام وجاذبية المادة. فهي بهذا المعنى شكل من أشكال حماية النفس وتحصين الذات من الوقوع في حبائل الحاجة إلى السلطان آنذاك. بينما تؤشر صفة الإمام المناظر المبرز علامة واضحة على قدرة التبريزي العقليّة العالية وسعة أفقه وقوّة حجته وغزارة علمه واحترامه للحوار وصولا إلى المعرفة التي اختص بها هذا العالم.

تفقه التبريزي ببغداد على أبي القاسم بن فضلان وسمع الحديث من أبي الفرجة بن كليب، وأبي أحمد بن سكينة، وقرأ كثيرا من الكتب الكبار، وقد روى عن التبريزي الحافظ زكي الدين المنذري وغيره.

ويظهر أنّ هذا العالم الجليل المحبّ للحوار والمناظرة، كان قد أعاد بالمدرسة النظاميّة، وأفتى وناظر، كما أنّه حين قدم مصر درس بالمدرسة الناصريّة المجاورة للجامع العتيق إذ استوطن مصر زمنا طويلا، يفتي ويفيد. ويلاحظ هنا أنّ التبريزي معني بنشر العلم الديني أينما حلّ، وأنّه كان يقوم بمهام الإفتاء ويناظر ويحاجج إعلاء لشأن العقل في الإسلام.

وتشير الروايات التي بحوزتنا إلى أنّ التبريزي قد حجّ من بغداد، ثمّ قدم مصر، ثمّ سافر إلى العراق، ومن العراق إلى شيراز حيث مات بها سنة إحدى وعشرين وستمائة (621 هـ). ويبدو أنّ التبريزي، كان يأخذ العلم ويمنحه أينما حلّ سواء أكان في الحجاز أم بغداد، أم كان في مصر أو شيراز، ذلك أنّه ابن عصره، هذا العصر الذي أكّد وحدة الثقافة العربيّة الإسلاميّة وحيويّة الفكر العربي الإسلامي؛ بقدر ما أكّد التواصل الحضاري، والاتصال وحريّة انتقال الأفكار في دار الإسلام.

ويتّضح جليّا أنّ عناية التبريزي، كانت منصبة بالدرجة الأساس على الفقه، وإن كنا لا نعدم اهتمامه بأمور علميّة سيما الطبّ، وهو أمر كان طبيعيّا في عمل وتطوّر الفكر العربي الإسلامي ضمن تلك المرحلة التاريخيّة التي رافقت بين ما هو إنساني وما هو علميّ في عمل العلماء العرب المسلمين الذين قرنوا الفكر النظري بالعمل الميداني التطبيقي.

آثاره

يبدو أنّ التبريزي قد كتب وألّف الكثير من الكتب وصنّف التصانيف، بيد أن ما وصلنا من أسماء كتبه لا يتجاوز الكتب الآتية:

1 ـ سمط الفوائد، في الفقه في ثلاثة مجلّدات؛ 2 ـ التنقيح، اختصر فيه «المحصول لفخر الدين الرازي» في أصول الفقه؛ 3 ـ سمط المسائل، في الفقه في مجلّدين وأكثر؛ 4 ـ المختصر في الفروع، لخّصه من الوجيز؛ 5 ـ بسط الوافي في شرح مختصر الإيلافي في الطبّ.

المصادر والمراجع

● السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين، ت 771هـ، طبقات الشافعيّة الكبرى، المطبعة الحسينيّة، القاهرة، ط 1، 1324هـ، 8/ 373 ـ 374؛ ● السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 1، القاهرة، 1967م، 1/ 410؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 1955م، 2/ 463؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، 2/ 1002؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، 7/ 257.

أ. د. نجمان ياسين
جامعة الموصل ـ العراق

التبريزي، أبو زكرياء يحيى بن علي

(421هـ/1030م - 502هـ/1109م)

أبو زكرياء يحيى بن علي بن محمد الشيباني، يعرف بابن الخطيب؛ قال الحموي: «وربما يقال الخطيب، وهو وهم». ولد بتبريز، وهي من أكبر مدن أذربيجان، وفيها قضى سنوات حياته الأولى، يتعلّم الأدب واللغة، وكان كثير التنقّل إلى الحواضر طلبا للعلم، فأخذ في بغداد عن أبي القاسم الرقي، والدهّاني اللغوي؛ وفي البصرة عن أبي الجوائز الحسين بن علي؛ وفي جرجان عن عبد القاهر؛ وفي دمشق عن الخطيب البغدادي؛ وفي صور عن الفقيه أبي الفتح الرازي والدلال الساوي. وتتلمذ في الشام لأبي العلاء المعرّي، فقرأ عليه مؤلفاته كلّها، وكثيرا من أمّهات المصادر، مثل تهذيب اللغة للأزهري، ويروى أنه ذهب إلى المعرّة يحمل نسخة التهذيب على كتفه، فأثّر فيه البلل بعد أن نفذ العرق إليها، فإذا رآها أحد ظنّ أنّها غريقة. وزار التبريزي مصر في عنفوان شبابه، وفيها قرأ عليه اللغويون من مثل طاهر بن بابشاذ النحوي؛ واشتغل بالتعليم وصار شيخا يأخذ عنه أرباب العلم المعارف والشروح. وانتهى به الترحّل إلى بغداد، فاستوطنها وعمل فيها مدرّسا بالمدرسة النظامية، وقيّما لخزانة كتبها إلى أن توفّي. وكان تخرّج عليه كثيرون رووا عنه، من أشهرهم أبو منصور الجواليقي والحافظ السلامي وسعد الخير الأندلسي، فكان أحد الأئمّة القلائل الذين جمعوا بين علوم القرآن والحديث والتاريخ وعلوم النحو واللغة والأدب، وعرفوا بالصدق والتثبّت والتوثّق في النقل، فشاع ذكره في البلدان، وقصده الراغبون في العلم.

والطريقة الغالبة على مؤلفاته أن يشرح كلّ قصيدة أو مقطوعة بيتا بيتا على التتابع، ومزيّة ذلك عنده التعرّف على إشكالات كلّ بيت والتوصّل إلى الغرض الذي يقصد إليه الشاعر؛ وذلك خلافا لما درج عليه الشرّاح قبله، إذ كانوا يوردون كل مقطوعة، ثمّ يشرحونها جميعها مجملة؛ وعاب التبريزي إغراقهم في الغريب والنحو والأخبار والإطالات والمعاني البعيدة عن الصواب، وذكر في مقدمة شرحه للمفضّليات أنّ هدفه «الإيجاز والاقتصار على ما يعرف به ما في الشعر من الغريب والإعراب والمعاني، دون ما يتشعّب من اللغة والإعراب لئلاّ يشغل القارىء له والناظر فيه عن الغرض المقصود»، وأكّد هذه المعاني في مقدمة شرحه لديوان أبي تمام، قال: «فخير الشروح ما قلّ ودلّ، ولم يطل فيملّ. . . واجتهد في التلخيص والاختصار من غير إخلال بالغرض»، مع التخلّص من الأغلاط التي وقع فيها الضعفة من الرواة والجهلة من الناسخين الذين بدّلوا وغيّروا وصحّفوا، وترجيح ما يستحقّ الترجيح من أقوال العلماء، فبعضهم أنصف أبا تمام أو تعصّب له، وبعضهم زيّفه أو عابه وأنحى عليه، أغراهم بذلك أنه أبعد

وأغرب في معانيه واستعاراته ومطابقاته ومجانساته ممّا أفضى إلى التأويلات والتصحيفات.

وقد أحسن التبريزي اختيار ما يقوم بشرحه، ورأى أنّ الناس متفقون «على أنّه ليس فيما اختير من المقصدات أحسن ممّا اختاره المفضّل، كما أنه ليس في المقطّعات أحسن من اختيار أبي تمام». وهو ـ لمزيد من التوثيق ـ حريص على أن يشير إلى الرواة، ومن ذلك قوله إنه قرأ شعر أبي تمام سنة 454هـ بالبصرة على الشيخ القصباني عن أبي علي السكري عن الآمدي عن السجستاني عن أبي سعيد السكري عن أبي تمام، وهو حريص أيضًا على أن يعوّل على من سبقه من الشرّاح، وأن يتبع كل بيت بما فسّروه به، ويضيف إليه بعد ذلك من عنده أو يكتفي بما قالوه، وقد لحظ أن شرحه على الحماسة يتشابه مع شرح المرزوقي في مواضع كثيرة، وأنّ شرحه على سقط الزند منقول عن أستاذه أبي العلاء، كما اعتمد في شرحه لديوان أبي تمام على ما ذكره الصولي والقالي والآمدي وأبو العلاء أيضًا.

ويظهر في شروحه واثقا قادرا على التذوّق وإحسان التمييز، يقول: «ربّما احتمل البيت معنيين، ويكون أحد المعنيين أقوى من الآخر، فلا يميّز بينهما إلا من حسن فهمه وصفا ذهنه لأنّ نقد الشعر أصعب من نظمه».

وبهذا قدّم التبريزي بما جمع ودقّق وحقّق للتراث الأدبي أيادي لا تجحد، مع ما أضافه من آراء حافلة بالتحليلات اللغوية ومسائل الاشتقاق والتصريف، والنظرات النقديّة واللمحات التاريخية، فكانت شروحه ـ بدورها ـ مصدرا للشراح بعده، مثل ابن المستوفي (ت 637هـ/ 1239م) في كتابه «النظام في شرح ديواني المتنبي وأبي العلاء»، وأبي العباس الأزدي (ت 644هـ/ 1246م) في «مآخذ على أبي زكرياء التبريزي في تفسير شعر أبي الطيب».

آثاره

اشتهر ـ خاصة ـ بشروحه وتنقيحاته للشعر القديم والمولّد، فحفلت المكتبة العربية بمصنّفاته في هذا الميدان الذي تفوّق فيه، وأشبع به حاجة العلماء في كلّ عصر. من هذه الشروح: 1 ـ شرح على المعلّقات، عنوانه: شرح القصائد العشر، جمع فيها بين الروايات المختلفة، وممّن سبقه إلى شرحها: الزوزني، تح. فخر الدين قباوة، حلب 1389هـ/ 1969م؛ 2 ـ شرح المفضّليات، وهي القصائد التي تنسب إلى جامعها: المفضّل الضبيّ (وممّن سبقه إلى شرحها الأنباري، وابن النحاس، والمرزوقي)، تح. محمد علي البجاوي، القاهرة، دار نهضة مصر؛ 3 ـ شروح ثلاثة (صغير ومتوسط وكبير) لديوان الحماسة لأبي تمام، وهو مقطوعات مختارة لشعراء جاهليين وأمويين وعباسيين (وممن سبق إلى شرحها أبو بكر الصولي والآمدي، وابن جني، وأبو هلال، والإسكافي، والمرزوقي، وابن سيدة، والشنتمري)، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1357هـ/ 1938م؛ 4 ـ شرح ديوان أبي تمام (وممّن شرحه من قبل: أبو بكر الصولي، وأبو منصور الأزهري، والحسين الخالع، وأبو الريحاني الخوارزمي، والمرزوقي، والخارزنجي، وأبو العلاء)، تح. محمد عبده عزام، القاهرة

1972م، دار المعارف، ط3؛ 5 ـ شرح سقط الزند لأبي العلاء، تح. لجنة إحياء آثار أبي العلاء، القاهرة 1365هـ/ 1945م.

المصادر والمراجع

● الكافي في العروض والقوافي، تح. الحساني حسن عبد الله، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج12، مايو 1966م؛ ● كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق (ابن السكيت)، عناية لويس شيخو، بيروت 1313هـ/ 1795م، الكاثوليكية؛ ● ما يقرأ من آخره كما يقرأ من أوله، عناية إبراهيم العلوي، بغداد د.ت؛ ● الوافي في العروض والقوافي، تح. عمر يحيى وفخر الدين قباوة، حلب 1390هـ/ 1980م، المكتبة العربية؛ ● شروح على ديوان امرىء القيس، وديوان النابغة الذبياني، ولامية العرب للشنفري، وديوان الأخطل، وديوان المتنبي؛ وتفسير القرآن، والمخلص في إعراب القرآن، وتهذيب غريب الحديث، والبديع، ومقاتل الفرسان؛ ومقدّمة في النحو (وصفت بأنها حسنة عزيزة الوجود، فيها إبانة عن أسرار الصنعة)؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، القاهرة، دار المأمون 1936م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت 1972م، دار صادر؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي (القسم الثالث)، تر. السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، إشراف محمود فهمي حجازي، القاهرة 1993، الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999م، دار العلم للملايين 8/ 157 ـ 156؛ ● فاطمة محجوب، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، القاهرة 1993م، ج8، دار الغد العربي.

د. محمد يونس عبد العال
جامعة القاهرة ـ مصر

التبسي، الشيخ العربي بن بلقاسم

(1312هـ/1895م ـ 1376هـ/1957م)

هو العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات ولد سنة 1312هـ/ 1895م في ناحية السطح، وسميت بذلك لارتفاعها وهي في شمال الجبل الأبيض وفي الجنوب الغربي لمدينة تبسة في الجزائر. تبعد عنها بنحو مائة وسبعة عشر كيلو مترا. جده مبارك كان من الأعيان حافظا للقرآن تولى تربية الصغار وقام بثورة ضد الاستعمار سنة 1901 وتغلبت عليه فرنسا واعتقلته مدة عامين، ثم أطلقت سراحه. وأبوه بلقاسم حفظ القرآن بدوره عن

أبيه، ثم أرسله إلى زاوية نفطة حيث تلقى فيها مبادئ العلوم والعربية والدين. ثم رجع إلى بلده، فخلف والده في تربية الصغار وتحفيظ القرآن وتوفي سنة 1903، تاركا وحيده العربي صغيرا. فأراد عمه عمار بن مبارك أن يضم أسرة أخيه إليه لتعيش في أحضانه فتزوج من والدة الشيخ العربي، فنشأ الابن وهو في سن الثامنة في كفالة عمه زوج أمه، وقد رزق منها أولادا منهم الشيخ الحفصي.

اتخذت عائلته من اسم الجد الثاني فرحات لقبا وهي تنتمي إلى قبيلة آجدور بطن من بطون قبيلة النمامشة الكبرى وموطنها منذ القديم الجبال الممتدة بين خنشلة وتبسة.

ولقد كانت مرحلة التعليم في حياة العربي التبسي من أهم فترات حياته إذ قضى 27 عاما وهو يتلقى العلم عبر ستة مراحل: اثنتان في الجزائر، وثلاثة في الخارج، ثم مرحلة الرجوع إلى تونس فالجزائر، وهذا تفصيلها:

المرحلة الأولى 1901 ـ 1907:

بدأ حياته العلمية على يد والده الذي يدرس القرآن في بلده السطح، وواصل تعلمه بعد وفاة أبيه برعاية عمه.

المرحلة الثانية 1907 ـ 1910:

قرر عمه إرساله إلى خنقة سيدي ناجي الرحمانية في الجنوب الغربي لجبال النمامشة. وفي خنقة سيدي ناجي كانت هناك زاويتان: الناصرية التابعة لعائلة ابن حسين، والرحمانية التي أنشأها الشيخ عبد الحفيظ؛ وكلتاهما نشرتا التعليم في البلدة وفي الناحية. وكانت السياسة الفرنسية تقضي بالتعامل على أساس «الصفوف» أو العداوة بين الساكنين. ولما كانت زاوية عبد الحفيظ قد مالت إلى السياسة المعادية لفرنسا بدعمها للثورات كثورة الزعاطشة وثورة الصادق بن الحاج بالأوراس فإن الفرنسيين اتكؤوا على الزاوية الناصرية ووظفوا منها بعض الرجال في وظائف قيادية وفعلوا معها مثلما فعلوا تقريبا مع زاوية شلاطة في منطقة زواوة، ولكن نشر التعليم كان مبدأ محترما من الزاويتين. ومن تلاميذ خنقة سيدي ناجي الشيخ العربي التبسي الذي بقي فيها ثلاث سنوات حفظ فيها القرآن ومبادئ الدين والعربية [سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 3/ 218]. لم يحدد الدكتور أبو القاسم سعد الله الزاوية التي انتسب إليها الشيخ العربي، ولم يرد عند الشيخ الدبوز هذا التفصيل الذي يميز بين الزاويتين الناصرية والرحمانية، ولكنه يشير إلى انضمامه إلى زاوية الرحمانية المعادية للفرنسيين. وقد يفسر تلك المواقف المتشددة التي عرفت عن الشيخ العربي من الاستعمار، فإن للزاوية الرحمانية دورا في تربيته الوطنية وتنمية الشعور المعادي للاستعمار الذي لازمه طول حياته، وكان السبب في إعدامه فيما بعد.

المرحلة الثالثة: 1910 ـ 1913:

كان عمره خمسة عشر عاما حين بدأت الهجرة إلى خارج الجزائر سنة 1910، ومن نفطة جنوب تونس، فإلى مصر سنة 1927. وقضى بذلك في الغربة من أجل التعليم سبعة عشر عاما. وكان وراء سفره إلى نفطة عمه الذي أراد للابن أن يقتفي أثر والده بلقاسم ويتعلم حيث تلقى أبوه من قبلُ العلمَ في الزاوية نفسها التي أصبحت من الشهرة بحيث طغت

على زوايا بسكرة ونواحيها، سيما في عهد الشيخ مصطفى بن عزوز... ومن العلماء الذين درسوا في نفطة قبل الزيتونة الشيخ عبد القادر الياجوري، وكان الشيخ العربي التبسي من تلاميذها أيضا. واستمرت دراسته في الزاوية ثلاث سنوات استظهر في بدايتها القرآن وكان شرطا لدخول الزاوية وتلقى فيها العلوم على أيدي شيوخ الزاوية «وكان منهم الشيخ إبراهيم بن الحداد، والشيخ محمد بن أحمد، والشيخ التابعي بن الوادي».

المرحلة الرابعة: 1913 ـ 1920:

أعجب مدير المعهد والأساتذة بنبوغه فوجهوه إلى تونس حيث جامع الزيتونة لمتابعة دروسه، وقصدها سنة 1913.

وكان قد خصص المحسنون في مدينة تونس دورا أوقفوها للطلبة الغرباء، وهي التي تسمى مدارس. وسكن في إحداها وكان ينفق من الشيء القليل الذي يأتيه من عمه، لكنه عوّد نفسه التقشف والاكتفاء بالقليل والاهتمام بالتحصيل والتزود من العلوم. يورد الشيخ محمد علي دبوز هذه الحادثة الطريفة فيقول: «حدثني الشيخ العيد بن أحمد مطروح عن أستاذه الشيخ العربي أنه كان في عهد التلمذة هو وزميله الشيخ مبارك الميلي، وكان مثله في الشعور والمنظر (في ثياب نظيفة وبرنوس وعمامة بيضاء يبالغ في نظافتها ورصفها). كانا جالسين في مقهى في تونس فوقف عليهما سائل، فلم يكن عند أحدهما ما يعطيه فصرفاه، فألح السائل معجبا بمنظرهما يعتقد فيهما الغنى، وأبى أن ينصرف، فقال له الشيخ المبارك: يا هذا لعلك اغتررت بلباسنا ونظافتنا ومظهرنا إننا أكثر منك حاجة لا فرق بيننا وبينك إلا أننا نستحي وأنت لا تستحي».

ومكث في الزيتونة سبع سنوات تحصل فيها على شهادة الأهلية، ووصل إلى مستوى شهادة التحصيل؛ ولكنه لم يتقدم إلى الامتحان مفضلا الذهاب إلى مصر لسبع سنوات أخرى.

المرحلة الخامسة 1920 ـ 1927:

يربط الشيخ محمد علي دبوز قراره بالسفر إلى مصر بخبر وفاة أمه التي كان متعلقا بها كثيرا، وكان يزورها من حين إلى آخر. ولما توفيت حزن عليها حزنا شديدا، وتركت في قلبه فراغا وكأنه أراد الهروب من واقعه. ويؤكد هذا ما أقدم عليه حين وصل مصر، فقد أخفى عنوانه ولم يراسل أهله مدة عامين. ولعل الشيخ محمد علي دبوز الذي روى الخبر قد تأثر بالشيخ العربي وتصرف مثله حين كان طالبا في مصر، إذ كان يخفي الرسائل التي ترده من أهله مدة أربع سنوات، لا يفتحها ولا يريد معرفة ما بها من أخبار قد تجعله يعدل عن الدراسة ويعود إلى بلده.

قرر السفر إلى مصر في الوقت الذي ترشح فيه لامتحان التحصيل في الزيتونة، ولكنه عدل عن المشاركة، ودخل في مغامرة أخرى جديدة بدأت بنجاحه في الدخول خلسة إلى السفينة في ميناء تونس: ولم يكن يملك جواز سفر. ونجح أيضا بنفس الأسلوب في الدخول إلى الإسكندرية، ومن محطة القطار في باب الحديد بالقاهرة توجه مباشرة إلى شيخ رواق المغاربة بالأزهر الذي استقبله بحفاوة وإكبار، ووفر له المسكن وأجرى عليه ما يخصص للطلبة المغاربة في كل شهر.

وبذلك توافرت للشيخ العربي كل أسباب التحصيل، فتفرغ للعلم في رحاب الأزهر. يقول الشيخ محمد علي دبوز عند ذكر وصول الشيخ إلى القاهرة: «لعلي من أحسن من يعرف شعور العربي وهو يصل مصر لأنني قمت بمثل مغامرته، وأنا في مثل سنه في صيف 1944، في الذهاب إلى مصر من تونس للتعلم من البر بدون جواز سفر وبدراهم قليلة؛ فقطعت الحدود كلها مشيا على الأقدام، فسلكت طريقه من الاسكندرية إلى القاهرة في القطار، ومازلت أذكر ذلك اليوم العظيم الحبيب والحمد لله على فضله» [دبوز، أعلام الإصلاح، 1/ 61]. وتابع دراسته في الأزهر لمدة سبع سنوات متواصلة في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والأصول والفقه الإسلامي وكذلك العلوم العربية، «وتخصص في الشريعة وحصل على العالمية» [سعد الله، تاريخ الجزائر، 3/ 218].

المرحلة السادسة: العودة 1927:

وبعد مرور سبع سنوات أمضاها بين الأزهر والمكتبات العامة، وخاصة دار الكتب المصرية التي وجد فيها ضالته، وكان يقضي فيها أوقات فراغه، ولم يكن منعزلا في مصر عن الحياة العامة، وكان يتابع الحركة العلمية والأدبية وحتى السياسية فتكون عنده وعي وازداد معرفة بأساليب النضال والصراع السياسي، وكأنه يعد نفسه للصراع مع الاستعمار في الجزائر. وقد اتخذ ضده موقفا عدائيا منذ صغره يقول أبو القاسم سعد الله بأنه «في سنة 1927 رجع مباشرة إلى الجزائر دون أن يزور أي مكان آخر».

أما الشيخ محمد علي دبوز فيقول: «ولما أتم دراسته العالية في مصر رجع إلى تونس فشارك في امتحان التحصيل ففاز فوزا عظيما» [سعد الله، تاريخ الجزائر، 1/ 61].

التربية والإصلاح 1927 ـ 1956:

أ ـ في مدينة تبسة:

لم تكن منطقة تبسة في معزل عن النهضة الإصلاحية التي بدأت تنتشر، ولها مظهران بارزان: بناء أو إنشاء المدارس يوازيه تأسيس المساجد الحرة التي عادة ما تكون ملازمة ومجاورة للمدرسة. هذه الازدواجية في العمل الإصلاحي دليل على وعي شعبي ورد فعل عملي لمسح غشاوة الجهل الذي شجع على ظهور أمراض خطيرة ظهرت في المجتمع الجزائري وعمل الاستعمار الفرنسي على تنميتها بمحاربة المدرسة وغلقها حتى يفعل الجهل فعله التي يريدها في الشعب. وفي سنة 1913 تأسست بمدينة تبسة «أول مدرسة قرآنية عصرية. وكان وراء المشروع السيد عباس بن حمانة، فقد اجتمعت إرادة المحسنين ورواد الأفكار النيرة على تأسيس جمعية خيرية باسم «الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي» برئاسة ابن حمانة. وبعد أشهر صدر الأمر بغلق المدرسة من السلطات الفرنسية، كما حلت الجمعية الخيرية ونفت المعلمين وشردت التلاميذ وزج بابن حمانة في السجن» [سعد الله، تاريخ الجزائر، 3/ 242].

ونفس المحاولة وقعت في مدن عدة، وتكررت المحاولة في مدينة تبسة بعد سنوات عند رجوع الشيخ العربي التبسي من مصر.

بدأ نشاطه في أول الأمر في مسجد صغير في قلب المدينة يعرف بمسجد ابن سعيد بمجموعة صغيرة، وفي وقت قصير أصبحت حركته في التعليم والوعظ تعرف انتشارا وإقبالا حتى غص المسجد الصغير، وحين استجاب لرغبات الناس الذين كانوا يطالبونه بالانتقال إلى الجامع الكبير عمل الذين يقلقهم صوته على منعه من الوعظ فيه، فرجع مرغما إلى مسجده الصغير ولكن المساعي استمرت في مضايقته والعمل على منع الناس وصدّهم عن دروسه، واشتكى إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس فأشار عليه بالذهاب إلى مدينة «سيق» لأن البقاء في تبسة أصبح خطرا. وفي مقامه القصير في سيق (1932 ـ 1930) استطاع أن يكسب قلوب أهل المنطقة. وكان يحثهم على إنشاء المدارس والمساجد والعمل على نشر التعليم العربي. وصدق المثل: «وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر»، فقد شعر أهل مدينة تبسة بالفراغ الكبير الذي تركه خروج الشيخ من المدينة، وشكلوا وفدا بهدف إقناع الجمعية الخيرية في سيق والإذن برجوع الشيخ إلى مدينة تبسة، وقد مر عام على إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حينها تبين للناس في مدينة تبسة مكانة الشيخ بعد أن غادرهم وما لقيه في سيق من حفاوة ونجاح في الأوساط الشعبية، لذلك تولت جماعة من المصلحين إنشاء مدرسة واسعة تولى إدارتها الشيخ العربي، وأصبحت ضيقة بعد مرور فترة قصيرة من افتتاحها. وفي هذه الأثناء وفقت الجماعة إلى إنشاء «جمعية تهذيب البنين والبنات» تساعد الشيخ العربي في جهوده، وحتى لا يقع تعطيلها من طرف الاستعمار لم يذكر اسم الشيخ العربي في إدارتها، وتولاها الحاج حواس بن إسماعيل، وكان المؤسس الفعلي هو السيد الصادق بوذراع الذي تولى إدارتها بعد وفاة رئيسها سنة 1942. وظهر أثر الجمعية حين قامت ببناء المدرسة الجديدة الواسعة والمسجد بجوارها، يقوم الشيخ العربي بدروس الوعظ والإرشاد فيه وبإدارة المدرسة. ونجحت الجمعية في هدفها واستمرت على نشاطها حتى أغلقت السلطات الفرنسية المدرسة في بداية الثورة، واحتلها الجنود سنة 1956. وفي المسجد الجديد شرع الشيخ العربي في دروس التفسير، بدأها في مدينة تبسة من آخر القرآن الكريم صاعدا ووصل سورة النساء عندما غادرها إلى مدينة قسنطينة لإدارة معهد الشيخ ابن باديس.

ب ـ في مدينة قسنطينة 1947 ـ 1956:

عندما أنشأت جمعية العلماء المسلمين معهد ابن باديس الثانوي سنة 1947 اختارت له الشيخ العربي التبسي مديرا، فانتقل إلى مدينة قسنطينة ليقوم بمهمة الإدارة نظرا إلى خبرته وكفاءته وإخلاصه، وكان بالإضافة إلى عمله الإداري يلقي دروسا على كبار الطلبة في الشريعة والأخلاق واللغة العربية، ويواصل دروس التفسير في الجامع الأخضر كما كان يفعل الشيخ عبد الحميد بن باديس. كما واصل رسالته الإصلاحية ومواقفه ضد «الطريقة باعتبارها أداة في يد الإدارة الفرنسية وليست ضد التصوف من حيث هو» [سعد الله، تاريخ الجزائر، 4/ 338]. أما التجنيس فكان الموقف ضده مطلقا سواء للنخبة فقط أو لكل الجزائريين.

لم يعرف عن الشيخ العربي كثرة الأسفار إلى

الخارج. وفي هذه الفترة وفي عام 1945 أدى فريضة الحج وزار دمشق ومصر، وفيها التقى بالشيخ الإبراهيمي والفضيل والورتلاني والشاذلي المكي، واجتمع بكثير من الأدباء والعلماء والصحفيين، ورجع من حجه ورحلته إلى المشرق العربي في 5 أكتوبر 1954.

ج ـ في مدينة الجزائر 1956 ـ 1957:

تجمعت عدة عوامل جعلت الشيخ العربي التبسي يقرر الانتقال إلى العاصمة الجزائر ومواصلة عمله. أهمها عاملان: الأول يتعلق بالظروف الأمنية الصعبة التي أصبحت عليها مدينة قسنطينة حيث استهدف الاستعمار مراكز الإصلاح ورجاله كالأديب الشهيد رضا حوحو. وفي هذه الظروف قررت الجمعية غلق المعهد وتفرق الأساتذة ومنهم الشيخ العربي. أما السبب الثاني فهو الحاجة إليه في العاصمة لإدارة شؤون جمعية العلماء المسلمين بعد سفر الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ أحمد توفيق المدني إلى مصر والاستقرار هناك، وحين استقر في الجزائر واصل القيام بمهامه في إدارة شؤون جمعية العلماء المسلمين وإلقاء الدروس في مسجد حي محمد بلوزداد المعروف في ذلك الوقت بحي بلكور. وهناك واصل التفسير وختمه قبل إعدامه واستشهاده بأشهر قليلة بعد أن استمر تفسيره للقرآن اثنين وعشرين عاماً.

وعلى الرغم من الإشارات القوية عند الشيخ محمد علي دبوز إلى مواقفه المعادية للاستعمار منذ صغره، وما صاحبه من عناء ومضايقات وسجن عدة مرات، ونفي إلى الصحراء، فإنّ البحث لم يستنفد في هذا الموضوع بعد؛ وسيكتشف الدارسون الكثير من آثاره وآرائه التي لم تكن تخفى عن الاستعمار، وقد كان يتابع نشاطه في كل محطة حلّ بها منذ رجوعه من مصر.

ويربط الشيخ محمد علي دبوز إعدامه بحادثة إعدام الفدائيين لرئيس بلدية بوفاريك (إيف روجيه) بدليل اغتياله في المدينة نفسها بعد خطفه من داره ليلا في 17 أفريل 1957 [دبوز، أعلام الإصلاح، 2/ 70 ـ 72].

آثاره

يتمثل الإنتاج الفكري للشيخ العربي في المقالات الصحفية التي كان ينشرها في مجلة الشهاب، وفي البصائر، وفي الخطب التي كان يلقيها ارتجالا، وفي التفسير للقرآن الكريم كله؛ ولكنه لم يتفرغ لتأليف الكتب إذ انقطع للتدريس والعمل الإصلاحي وهو يعلم أنه لا يستطيع الجمع بين العملين، ولعله كان قد فعل لو أمهله القدر. وكان عليه أن يختار، فوقع اختياره على العمل الميداني لمتطلبات الظروف في تلك الفترة التي تقضي بالتفرغ للمجتمع والتصدي بصفة متواصلة للاستعمار وإحباط خططه، يظهر هذا من هذا النموذج لبعض العناوين لمقالات نشرها في مجلة الشهاب:

1 ـ أرزفت الجماعة وتحرم عصر الفرد، 17 جوان 1926، م1، ع 31، ص 616؛ 2 ـ نداء إلى رجال الدين في الجزائر، 24 جوان 1926؛م 2، ع 32، ص 8؛ 3 ـ الجزائر: يصيح بك أيها الجزائري أينما كنت، 1 جويلية 1926،م 2، ع 34، ص 30؛ 4 ـ صدى الاعتداء على الأستاذ في الأزهر الشريف، 3 فيفري 1927،م 2، ع

82 ص 793؛ 5 ـ أريد حياته ويريد قتلي، 10 فيفري 1927،م. 2، ع 83 ص 802؛ 6 ـ لا ضرار بالدين، باسم الدين ووجوب ثبات المصلحين، 29 سبتمبر 1927، م3، ع 115، ص 296؛ 7 ـ الخلوة العليوية هل هي من الإسلام؟ 20 أكتوبر 1927،م 3، ع 118، ص 363؛ 8 ـ لقد سمعنا باطلك فأين حقك؟ 1 ديسمبر 1927،م 3، ع 124 ص 476؛ 9 ـ قد ضل من كان مثل هذا يهديه، 26 جويلية 1928،م 4، 157، ص147؛ 10 ـ قد ضل من كان مثل هذا يهديه، 2 أوت 1928،م 4، ع 158 ص 169؛ 11 ـ بدعة الطرائق في الإسلام، 4 أكتوبر 1928،م 4، ع 166، ص 320؛ 12 ـ بدعة الطرائق في الإسلام، 18 أكتوبر 1928،م 4، ع 168 ص 352؛ 13 ـ بدعة الطرائق في الإسلام، 25 أكتوبر 1928،م 4، ع 169 ص 372؛ 14 ـ إن كنت حاملا فلدي غلام، 20 ديسمبر 1928،م 4، ع 177، ص 529.

المصادر والمراجع

- دبوز، محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر، قسنطينة 1974، 1/ 35 ـ 76؛ وقسنطينة 1976، 2/ 13 ـ 72؛
- سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت 1998، 3/ 255 ـ 256.

د. محمد موسى عيسى

مجمع اللغة العربية ـ الجزائر

التتائي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم

(855هـ/1451م ـ 52م ـ 942هـ/1535م)

محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي المالكي [التتائي، تنوير المقالة، ج1، ص31؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج1، ص334، 431؛ الزركلي، الأعلام، ج5، ص 302]. وقال غيرهم: أبو عبد الله شمس الدين المالكي المصري التتائي [القرافي، توشيح الديباج، ص186 هامش 11؛ التنبكتي، النيل، ص 335؛ ابن القاضي، درّة الحجال، ج2، ص 162؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛ كحالة، المعجم، ج4، ص 194] وقيل: شمس الدين محمّد بن إبراهيم الثنائي المالكي [ابن العماد، الشذرات ج8، ص 224]، وقيل: محمّد بن إبراهيم بن علي بن محمد بن سليمان الأنصاري الخزرجي التتائي، أبو عبد الله شمس المصري [ابن دياب، تنوير المقالة، ص25، 30] والتتائي نسبة إلى تتاء من قرى المنوفيّة بمصر [الزركلي، الأعلام، ج5، ص 302].

فقيه أصولي، فرضي، ميقاتي، قاض، إمام [القرافي، التوشيح، ص186؛ التنبكتي،

النيل، ص335؛ مخلوف، الشجرة، 272]. قال عنه القرافي: «كان ذا يد طولى في الفرائض» [القرافي، التوشيح، ص 186]. تولّى منصب قاضي القضاة بمصر، ثمّ ترك القضاء، وأقبل على الاشتغال والتصنيف [القرافي، توشيح الديباج، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ ابن العماد، الشذرات، ج8، ص224؛ ابن القاضي، درّة الحجال، ج2، ص162؛ الزركلي، الأعلام، ج5، ص 302]. عاش التتائي في أواخر عهد دولة المماليك بمصر، حيث عمّ الغلاء، وكثر الفساد والظلم، وانعدم استتباب الأمن وسادت الفوضى. وقد كان العلماء في تلك الفترة يعتنقون مذهب التقليد، فنجدهم يختصرون المطوّلات ثم يشرحونها ثمّ يحشّون ويعلّقون عليها [شبير، تنوير المقالة للتتائي، ص12 - 15].

أخذ صاحب الترجمة عن النور السنهوري والشيخ داود بن علي القلتاوي وأحمد بن يونس القسنطيني وزكرياء بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري الشافعي، وسبط الدين المارديني وشرف الدين يحيى المغربي المعروف بالعلمي وبرهان الدين إبراهيم بن محمد اللقاني [التتائي، تنوير المقالة، ص33؛ التنبكتي، النيل، ص336؛ مخلوف، الشجرة، ص 272].

أما تلاميذه فمنهم: عبد القادر البقلي المالكي وأبو عبد الله محمد الفيشي والسيّد عبد الرحيم العبّاسي ومحمد بن عبد الكريم الدميري [القرافي، توشيح الديباج، ص186 هامش 11؛ ابن العماد، الشذرات، ج8، ص224؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛ شبير، تنوير المقالة للتتائي، ص17 - 18].

توفّي التتائي سنة 942هـ/ 1535م [ابن القاضي، درّة الحجّال، ج2، ص162؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج1، ص201، 334، 431؛ مخلوف، الشجرة، ص 272] وقيل: بعد الأربعين وتسعمائة [التنبكتي، النيل، ص 335] وقيل: توفّي بعد الأربعين وسبعمائة وهو خطأ لعلّه مطبعي [القرافي، توشيح الديباج، ص 187].

آثاره

1 - «فتح الجليل في شرح مختصر خليل» [القرافي، التوشيح، ص186؛ خليفة، كشف الظنون، ص1628؛ مخلوف، الشجرة، ص 272]، وقيل: «فتح الجليل في حلّ جواهر درر ألفاظ الشيخ خليل» [البغدادي، إيضاح المكنون، ج2، ص 449] وهو شرح مطوّل [الزركلي، الأعلام، ج5، ص 302]، يقول التنبكتي: «على أنّه شرحه الكبير على خليل فيه مواضع كثيرة جدًا حصل له فيها الوهم نقلا وتقريرا وبحثا، تتبّعها سيدي والدي، ثمّ شيخنا الفقيه محمّد بغيغ» [التنبكتي، النيل، ص335 - 336]. توجد منه مخطوطات بدار الكتب الناصرية أرقامها: 739، 1010، 1167، 1410، 1411، 1415 [المنوني، دليل مخطوطات دار الكتب الناصريّة، ص61، 69، 72، 79]؛

2 - «جواهر الدرر في حلّ ألفاظ المختصر»، وهو شرح صغير لمختصر خليل [القرافي، توشيح الديباج، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ ابن القاضي، درّة الحجال، ج23، ص162؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج2، ص449؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛

الـزركـلـي، الأعـلام، ج5، ص 302]؛ 3 ـ «شـرح ابـن الحـاجـب الـفرعـي»، في سفرين، لخصه من التوضيح [القرافي، توشيح الديباج، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛ كحالة، المعجم، ج8، ص 194]؛ 4 ـ «شرح الجلاّب»، في فروع الفقه المالكي [التنبكتي، النيل، ص335؛ مخلوف، الشجرة، ص 272]؛ 5 ـ «شرح الإرشاد لابن عسكر»، والإرشاد لوالده عبد الرحمن وهو في فقه مالك [القرافي، التوشيح، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛ كحالة، المعجم، ج8، ص 194]؛ 6 ـ «شرح القرطبية» [القرافي، توشيح الديباج، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ مخلوف، الشجرة، ص 272]؛ 7 ـ «شرح الشامل»، لم يكمله [القرافي، توشيح الديباج، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ مخلوف، الشجرة، ص 272]؛ 8 ـ «شرح خطط السداد والرشد بشرح (لشرح) نظم مقدمة ابن رشد» أو «شرح مقدّمة ابن رشد» وهو ابن رشد الجدّ (ت 520هـ/ 1126م) صاحب كتاب المقدّمات والفتاوى والبيان والتحصيل.

أوّله: الحمد لله ربّ العالمين وأتمّ الصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين إلخ... في مجلّد، وأصل الكتاب هو نظم على وزن الرجز نظمه عبد الرحمن بن علي الرقعي (ت859هـ/ 1454م).

يقول في أوّلها:

قال الفقيرُ عابدُ الرحمن
من بعدِ اسمِ اللهِ ذي الإحسان
الحمدُ لله العظيمِ الخالق
باري الوَرَى من غيرِ شكلٍ سابق

ويقول في أثنائها:

وأسألُ اللهَ بلوغَ القصد
لنَظْمِنا رواية ابن رشد
وربَّما لغَيرِه زياده
نزيدُها كي تَحصُل الإفاده

ويقول في أواخرها مثبتا تاريخ نظمها:

وشهرةُ التمام في الزمان
بغُرّةِ شهرِ ربيع الثاني
في ثالثِ الأعوامِ مَع خَمْسينا
بعدَ ثمانمائةٍ عدينا

[القرافي، التوشيح، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ البغدادي، إيضاح المكنون، ج1، ص431؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛ كحالة، المعجم، ج8، ص194؛ التليلي، ابن رشد وكتابه المقدّمات، ص17، ص573 ـ 574]، توجد من شرح الخطط نسخة بدار الكتب الوطنية رقم 403، ومخطوطة بالكويت صورتها رقم 250، ومخطوطات بدار الكتب الناصرية رقم 1565 / هـ، 1581 /أ، 1627 / ي [منصور، فهرس المخطوطات المصوّرة بالكويت، ص212؛ المنوني، دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية، ص90 ـ 91، 93، 97]؛ 9 ـ «تنوير، أو تسفير، المقالة بحلّ ألفاظ الرسالة» [القرافي، التوشيح، ص186؛ ابن القاضي، درّة الحجّال، ج2، ص162؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص 288] أو «تنوير المقالة في شرح

الرسالة» [البغدادي، إيضاح المكنون، ج1، ص334؛ الـزركـلـي، الأعـلام، ج5، ص 302] توجد منه مخطوطات بدار الكتب الوطنية رقم 2527، 2529، وبالقاهرة: أوّل 158، وبالإسكندرية: 9 فقه مالك، وبالجزائر: أول 1062، وبالرباط: 152، وبباريس: أوّل 4548، وبشستر بيتي: 4656، وبخزانة معهد المخطوطات العربية رقم: 1847، وبالمكتبة الناصرية رقم: 733 [بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج3، ص288؛ المنوني، دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية، ص61؛ محفوظ، فهرس المخطوطات المصوّرة، ص198 ـ 199]، طبع في القاهرة سنة 1370هـ/ 1951م، طبعة ثالثة بهامش «الدر الثمين شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر» تأليف ميّارة [التليلي، ابن رشد وكتابه المقدّمات، ص573 ـ 574]، كما طبع هذا الكتاب طبعة جديدة محقّقة من الدكتور محمد عايش عبد العال شبير سنة 1409هـ/ 1988م؛ 10 ـ «حاشية على التدريب للجزيري» [القرافي، التوشيح، ص186]؛ 11 ـ «فهرست»، اشتملت على إسناد الحديث المسلسل بالأولية [مخلوف، الشجرة، ص272؛ الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، ص 263]؛ 12 ـ «البهجة السنيّة في حل الإشارات السنيّة»، [البغدادي، إيضاح المكنون، ج1، ص201؛ كحالة، المعجم، ج8، ص 194]؛ 13 ـ «شرح التتائي على فرائض مختصر خليل»، توجد منه نسختان بجامعة الملك سعود رقم: 2/ 1249، 4/ 5337 [فهرس مخطوطات جامعة الملك سعود، ص 279]؛ 14 ـ «السلسبيل الفائض في علم الفرائض»؛ 15 ـ «حاشية على شرح جمع الجوامع» في أصول الفقه [القرافي، التوشيح، ص186؛ مخلوف، الشجرة، ص272؛ كحالة، المعجم، ج8، ص 194]. وأنكر بعض الأصحاب أن يكون قد حشيَ على المحلّي، يقول صاحب النيل: «سمعت بعض أشياخي يقول: أخذ ما تعب فيه أبو الحسن الشاذلي ممّا جمعه في شروحه على الرسالة الستّ ووضعه في شرحه.. قلت: ما قاله بعض شيوخه غير مسلّم به، بل من وضع شرحه على خليل وغيره لا يصعب عليه وضع شرحه على الرسالة حتّى يستعين بما ذكر، وإنّما هو تحامل وعصبية [التنبكتي، النيل، ص335 ـ 336]؛ 16 ـ «شرح ألفية العراقي» [القرافي، التوشيح، ص186؛ التنبكتي، النيل، ص335؛ مخلوف، الشجرة، ص 272].

المصادر والمراجع

● التتائي، محمد بن إبراهيم (ت 942هـ)، تنوير المقالة في حلّ ألفاظ الرسالة، 3 أجزاء، تح. د. محمد عايش عبد العال، شبير، ط1، 1409هـ/ 1988م؛ ● القرافي، بدر الدين (ت 946هـ)، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تح. أحمد الشتيوي، ط1، 1403هـ/ 1983م، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان؛ ● ابن القاضي، أحمد (ت 1025هـ)، درّة الحجّال في أسماء الرجال، 3 أجزاء، الجزء الثالث، تح. محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، ودار

التراث، القاهرة؛ ● التنبكتي، أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أبو العباس التنبكتي (ت1032هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بهامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون، ط1، 1329هـ، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر؛ ● ابن العماد، أبو الفلاح شهاب الدين عبد الحي بن عماد الحنبلي (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 8 أجزاء، دار الفكر، بيروت؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي (ت 1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 6 أجزاء، ط1402هـ/ 1982م، دار الفكر؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا (ت 1351هـ)، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزءان، ط 1402هـ/ 1982م، دار الفكر، بيروت؛ ● مخلوف، محمد بن محمد (ت 1360هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربيّ، بيروت، بينان؛ ● ابن دياب، محمد بن دياب بن شحادة بن دياب المالكي، مقدّمة للتعريف بمحمّد التتائي، 5 صفحات، موجودة ضمن مخطوط كتاب تنوير المقالة المذكور سالفا؛ ● منصور، عبد الحفيظ، كنّة عبّاس عبد الله، فهرس المخطوطات المصوّرة، الفقه وأصوله، الجزء الأوّل، مراجعة د. خالد عبد الكريم جمعة، ط1، 1407هـ 1986م، معهد المخطوطات العربية، المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم؛ ● التليلي، المختار بن الطاهر، ابن رشد وكتابه المقدّمات، ط 1988م، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا ـ تونس؛ ● المنوني، محمد، دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت، ط 1405هـ/ 1985م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 8 أجزاء، ط6، 1984م، دار العلم للملايين، بيروت؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، 15 جزء في سبعة مجلّدات، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات، 3 أجزاء، ط2، 1402هـ/ 1982م، دار الغرب الإسلامي؛ ● فهرس مخطوطات جامعة الملك سعود

د. منير بن المختار التليلي
جامعة الزيتونة ـ الجامعة العربية للعلوم
تونس

التّجاني، الحاج عمر الفوتي

(1206هـ/1791م ـ 1281هـ/1864م)

كانت حركة الحاج عمر الفوتي هي آخر الحركات (الجهاديّة) في أفريقيا الغربيّة والوسطى. وقد بدأ حركة الجهاد هذه الشّيخ عثمان بن فودي، في عام 1802م. وأسّس بذلك دولة إسلاميّة في سوكوتو في نيجيريا الحالية، ثمّ مدّ نفوذه بعد ذلك على مدن وجهات أخرى في الشّمال النّيجيري، وقد تبعه في حركة جهاديّة مماثلة الشّيخ أحمد الماسيني (شيخو أحمادو) في عام 1818 م، والذي اتّخذ من مدينة (حمد الله) الواقعة على نهر النّيجر الأعلى (في منطقة ماسينا الحالية بجمهوريّة مالي) عاصمة له، وفي تلك الفترة كانت منطقة تشاد ـ بورنو تحكمها أسرة الكانميّين على الطّريقة القادرية بمثل ما هو الأمر في إمارتي سوكوتو وماسينا.

ولقد كانت الطّريقة القادريّة (نسبة إلى الشّيخ عبد القادر الجيلاني الصّوفي المعروف)، قد انتشرت في بلدان السّودان عن طريق الدّعاة القادريين في وقت مبكّر، أمّا الطريقة التّيجانية فقد كانت فكرتها جديدة، وكان التّيجانيّون يعتبرون أنفسهم، لهذا السّبب مجدّدين ومصلحين، كما هو الحال بالنّسبة للطّريقة الخلواتية في مصر والطّريقة الوهابيّة في الجزيرة العربيّة، ومن هنا كانت حركة الشّيخ عمر الفوتي (الجهاديّة) بمثابة ثورة على الدّول القائمة في المنطقة، وذلك لاستبدال الطّريقة القادريّة التي تقوم على أساس الدّين الإسلامي «الصّحيح» كما كان في عهد الخلفاء الرّاشدين، والذي لا يقوم على أقوال الفقهاء فقط، وإنّما يفتح المجال واسعا للاجتهاد الشّخصي الذي يقوم على تصفية القلب واستيحاء الضّمير.

ولد الحاج عمر الفوتي (نسبة إلى منطقة فوتا في السنغال الحالي) في عام 1791م على الأرجح في قرية «هالوار»، وكان أبوه متعلّما فاستفاد عمر من ذلك في البداية، وحفظ القرآن الكريم وهو في الثانية عشرة من عمره، ثمّ تنقّل بعد ذلك في طلب العلم إلى جهات عديدة بالسّودان الغربي وفي موريتانيا أيضا وفي عام 1822م التقى في فوتاجالون بالشّيخ عبد الكريم النّاقلي مقدم الطّريقة التّيجانيّة في تلك المنطقة وتلقّى منه دروسا في الصّوفية، والشّيخ عبد الكريم هو الذّي كان له في البداية الدّور الأكبر في اختيار الشّيخ عمر للطّريقة الإصلاحية الجديدة هذه، فقد صاحبه عمر لمدّة تزيد عن السّنتين وتلقى على يده أذكار التيجانية وأورادها، كما بدأ الرجلان معا التّحضير للحجّ، إلاّ أن المنيّة عجّلت بالشّيخ عبد الكريم، فقام عمر بالحج دون أن يكون الشّيخ عبد الكريم في صحبته.

أخذ الشّيخ عمر طريقه للحجّ في عام 1824م. فمرّ أوّلا بماسينا ثمّ مرّ بسوكوتو قبل أن يذهب إلى مصر مارّا بفزّان، وفي هذه الأثناء كان يراقب أنظمة الحكم (السّنية ـ

القادريّة) في كلّ من ماسينا وسوكوتو وبورنو ـ تشاد، والتي هي نتائج لحركات جهاديّة كانت قد قامت بها الأسر الحاكمة في تلك البلدان.

وفي المدينة المنوّرة بقي الحاج عمر ثلاث سنوات إلى جانب الشّيخ محمّد الغالي ممثّل التيجانية في الحجاز، فتعمّقت معارفه أكثر بهذه الطّريقة وأذكارها، ثمّ أعطاه الشّيخ محمّد الغالي تفويضا ليكون ممثّل التيجانيّة في بلاد التّكرور كلّها، وأثناء عودته إلى القاهرة أكثر الشّيخ عمر لقاءاته بعلماء الأزهر، وكانت الطّريقة الخلواتية آنذاك لها أتباع كثيرون بين علماء الأزهر، وهي قريبة في أهدافها العامّة من حيث فكرة التّجديد، مع الطّريقة التيجانية كما هو معروف.

وبمجرّد العودة إلى بلاد السّوادين بدأ الحاج عمر بالدّعوة للتيجانية، ففي بورنو ـ تشاد جمع حوله مجموعة صغيرة إلى حدّ ما، وبدأ التّهجم على الجهل والجمود وانضمّ إليه بعض أفراد العائلة المالكة الناقمين على الحكم، ممّا أدخله في خلاف أيديولوجي شديد مع الشّيخ محمّد الكانمي حاكم تلك البلاد، فانتقل إلى سوكوتو وبقي بها عدّة سنوات، ويبدو أنّ أخذ درسا من الهجوم المباشر الذي قام به في بورنو ـ تشاد، وكذلك قبله محمّد بلّو بن عثمان فوديو واتّخذه صديقا له، وفي سوكوتو تزوّج الشّيخ عمر للمرّة الرّابعة وكوّن له مريدين، وكتب وهو في سوكوتو عددا من الرّسائل في أوراد الطّريقة التيجانيّة وأذكارها ومفاهيمها.

وعند مغادرة سوكوتو كان صيته قد ذاع وكثر أتباعه، ولكنّه لم يستطع البقاء في ماسينا إلاّ تسعة أشهر فقط، حيث ضاقت العائلة المالكة (القادرية) بدعوته وعمله للطّريقة التّيجانيّة، وذلك قد يؤدّي إلى إحداث الاضطرابات والشّغب، فعزم بعض أفرادها على قتله، فغادر «حمد اللّه» في طريقه إلى بلاده «فوتا»، ومرّ بمملكة «سيغو» الوثنية، فلم يجد الاحترام منذ البداية، ولكنّه لم يبق بها إلاّ وقتا قصيرا، وفي بلاده «فوتا» اتّخذ الحاج عمر مقرا لأتباعه المتكاثرين ولعبيده، وذلك في بلدة «ديبقونكو» فعمل هناك مدّة على تثقيفهم وتمكينهم من مبادئ التّيجانيّة وأهدافها واعتمادها على حصافة الرأي والإيمان بالأولياء الصّالحين، ثمّ حدث أنّ هذا المقرّ لم يعجبه. فاشترى قرية «دينقيرايي» من ملك «تامبا» ليتّخذ منها قلعة عسكريّة له ولأتباعه، وهذا على غرار ما فعله الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم حين هاجر إلى المدينة المنوّرة واتّخذ منها قاعدة عسكريّة وبدأ منها هجوماته على الكفّار، ففي دينقيرايي كوّن الحاج عمر جيشه ونظّم تجارته مع المراكز التّجاريّة الأوروبيّة في سان لوي وفي غمبيا لاقتناء الأسلحة، ومن دينقيرايي هذه بدأ الحاج عمر حركته «الجهاديّة» هذه في عام 1854م. فاكتسح بسهولة منطقة الوثنيين في الغرب، ثمّ اتّجه إلى الشّمال عند مجرى نهر السّنغال، فوجد الفرنسيين أمامه فتراجع، وبعد ذلك اتّجه نحو الشّرق فقضى على دولة سيغو أوّلا في عام 1858م. ثمّ احتلّ ماسينا في عام 1862م وبعد هذا اتّجه نحو تمبكتو فدخلها جيشه ويقال إنّه عاث فيها فسادا كما فعل في بقيّة المدن التي احتلّها في السّابق، غير أنّ زعيم تمبكتو الشّيخ البكّاي استطاع أن يجمع بعد ذلك حوله الأنصار وخاصّة من التوارق، ويخرج جيش الحاج عمر منهزما من تمبكتو،

فاختبأ الحاج عمر بنفسه أثناء هذه الهزيمة في مغادرة «باندیا غارا» عند نهر النّيجر وفيها وافته المنية في شهر فيفري سنة 1864م.

لقد كان الحاج عمر يريد أن يؤسّس دولة إسلاميّة مركزيّة تشمل كلّ الغرب الإفريقي، وتستوحي في ذلك مبادئ الطّريقة التّيجانيّة في الاجتهاد، ولكنّ رجال الطّريقة القادريّة التي كانت متأصّلة في المنطقة قبل التّيجانيّة، تصدّوا لطموحاته، وكانت النّتيجة أن المعارك التي شنّها الحاج عمر قد أضعفت تلك المنطقة وسهّلت مهمّة الفرنسيّين الذين كانوا يراقبون ويخطّطون للاحتلال، ولم يستطع الشّيخ ساموري توري الذي قام في منطقة غينيا الحاليّة بالمقاومة لعدّة سنوات، من ردّ العدوان فتابعوه حتّى ساحل العاج وليبيريا الحاليتين، وقتلوه، وقد كان ساموري توري يتنقّل في معاركه ضدّ الفرنسيين من مكان إلى آخر، فحين يتغلّبون عليه في موضع، ينظّم ضدّهم القتال في موضع آخر، واستطاع بهذه الطّريقة أن يقاومهم لعدّة سنوات، أمّا الحاج عمر قبله فإنّه لم يقاتلهم إمّا لكونه كان يعتبرهم أهل ذمّة، حسب بعض الأقوال، أو لكونه كان يريد تكوين دولته الإسلاميّة أوّلا، وعلى كلّ حال، فإنّ الفرنسيّين في ذلك الوقت كانوا لا يزالون يراقبون الأوضاع عن قرب، ويخطّطون للاحتلال فيما بعد.

المصادر والمراجع

- الحاج عمر الفوتي، رماح حزب الرحيم ـ مخطوط بمكتبة IFAN في داكار؛
- الحاج عمر، رماح السّعيد، وهو على هامش كتاب سيدي أحمد التّيجاني، مؤسّس الطّريقة التّيجانية، وعنوانه «جوهر المعاني»، نشر بالقاهرة في عام 1383هـ؛
- أحمد بن بدي، الدّرع والمغفر، مخطوط بمكتبة IFAN في داكار؛
- أ. د. عبد القادر زبادية، الحضارة العربيّة والتأثير الأوروبي في أفريقيا الغربيّة جنوب الصّحراء. الجزائر 1989؛ ● محمّد حافظ المصري، سلطان الدّولة التّيجانيّة، مخطوط في مكتبة IFAN بداكار.
- Charles André Julien et all, les Africains - Paris 1977.

د. عبد القادر زبدية
جامعة الجزائر

التجاني، أبو العباس أحمد بن محمد

(1150هـ/1737 ـ 38م ـ 1230هـ/1815م)

ولد الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد (فتحا) بن المختار بعين ماضي مقر أسلافه المتأخرين، وبالتحديد جده الرابع السيد محمد بن سالم الذي انتقل من قبيلة عبدة أحواز مدينة آسفي بالمغرب مع أسرته إلى عين ماضي وتوطن بها، وتزوج من تجان، وصار أولاده وأحفاده يعرفون بالتجانيين. وبذلك يتضح أن الشيخ التجاني انتسب إلى إخوانه في هذا اللقب فكانوا أخوالا له، ولهذا ينتسب إلى التيجانية عن طريق المصاهرة. وتختلف الآراء حول نسبه الشريف بين مؤكد، ومشكك.

نشأ بعين ماضي في أحضان أسرة معظم أفرادها من خيرة العلماء والصلحاء وترعرع على العفاف والأخلاق الكريمة، منكبا على العلم والتعلم، فحفظ القرآن الكريم برواية الإمام ورش وهو ابن سبعة أعوام، ثم اشتغل بطلب العلوم الأصولية والفرعية والأدبية حتّى تعمّق فيها، وأدرك أسرارها. ثم مال إلى الزهد والانعزال والتأمل، وحبب إليه قيام الليل حتّى صار يضرب به المثل في إحياء السنة، واتباع المحجة البيضاء.

ثم رحل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى سنة 1171هـ/ 1758م، ولم تسعفنا المصادر والوثائق للتعرف على دراسته بمدينة فاس، وبدأ يبحث عن أهل الخير، وأول من لقي حينئذ من المشايخ القطب مولاي الطيب الوزاني بوزان، وتبرك به وأخذ عنه، وأذن له في تلقين الأوراد. ثم التقى بالشيخ السيد العربي بن عبد الله معن الأندلسي وتبرك به ودعا له بخير، وأخذ الطريقة القادرية ثم تركها بعد حين، ثم أخذ الطريقة الناصرية عن الولي الصالح السيد محمد بن عبد الله التزاني الشهيد بالريف، ثم تركها بعد حين أيضًا، ثم أخذ طريقة القطب سيدي أحمد الحبيب السجلماسي الصديقي عن بعض من له الإذن فيها ثم تركها بعد مدة.

ثم انتقل من المغرب قاصدًا بلد الأبيض في ناحية الصحراء حيث زاوية الشيخ الكبير سيدي عبد القادر بن محمد المعروف بسيدي الشيخ، القطب الصديقي، فاختارها منزلا وقرارا، وانقطع فيها للعبادة والتدريس والإفادة لمدة خمس سنوات زار خلالها بلدة عين ماضي مسقط رأسه ودار آبائه وأجداده. ثم ارتحل إلى تلمسان عام 1186هـ/ 1772م وأقام بها مدّة يدرس فيها التفسير والحديث وغيرهما.

ثم انتقل من تلمسان قاصدًا بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج سنة 1186هـ/ 1772م، فمر بتونس فحبسته الأقدار هناك سنة كاملة بعدها حج وزار سنة 1187هـ/ 1773م، ولم يزل يبحث في طريقه عن العلماء الأخيار والصلحاء ويتبرّك بهم في سائر النواحي والأقطار حتّى تبرك بعدد كبير منهم، فلقي

بزواوة الشيخ محمد (فتحا) بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة الخلوتية، وبتونس الشيخ عبد الصمد الرحوي، وبمصر الشيخ محمود الكردي المصري العراقي وأخذ عنه. ثم لما كان بالمدينة المنورة لقي بها القطب سيدي محمد الشهير بالسمام أحد تلاميذ سيدي مصطفى البكري الصديقي فأخذ عنه وتبرك به. وبعد إيابه من الحج قصد تلمسان التي أقام بها مجتهدا في العبادة والدلالة على الله تعالى، ثم سافر منها لناحية الصحراء سنة 1196هـ/ 1781م، ونزل بقرية القطب سيدي أبي سمغون ومنها سافر إلى بلاد توات، فلقي بعض الأولياء، وأخذ عنهم بعض الأمور الخاصة، واستفادوا منه علوما وأسرارا في الطريق، ثم رجع إلى قرية أبي سمغون وأقام بها واستوطنها. وفيها وقع له الفتح الكبير.

وفي سنة 1213هـ/ 1798م رحل إلى مدينة فاس مع جماعة من ذويه ومساعديه وكان في رفقته خليفته الحاج علي حرازم برادة، وبعد استقراره بدأ يلقي دروسا علمية بمسجد الديوان. ومع مرور الأيام بدأ نجمه يسطع، وأخباره تنتشر في كل أنحاء المدينة، فقصده عدد كبير من الطلبة، وانخرط في طريقه الكثير من المريدين من مختلف الشرائح الاجتماعية، من علماء وفقهاء ووزراء وعامة الناس. ولما أصبح من المقربين من السلطان المولى سليمان العلوي بادر هذا الأخير إلى منحه دارا من ملكه الخاص ليسكنها مع أسرته.

وفي سنة 1215هـ / 1800م شيد زاويته التي أصبحت تستقطب أتباعه الذين يتزايدون يوما بعد يوم. وقد عرفت هذه الزاوية عدة زيادات بسبب كثرة المريدين على الزاوية.

وقد تضافرت مجموعة من العوامل ساهمت في انتشار الطريقة التجانية، وتزايد إقبال الناس على الانخراط فيها سواء من فاس أو من أنحاء المغرب، وبعض الدول الإفريقية.

آثاره

1 - وصية لجميع الخلان، مخ. بالخزانة العامة بالرباط رقم 2106د؛ 2 - إملاءات، مخ بالخزانة العامة بالرباط رقم 1699د؛ 3 - رسائل موجهة إلى بعض الفقراء والفقهاء والأمراء، مخ بالخزانة العامة بالرباط 2425د؛ 4 - أجوبة عن الحروف اللفظية والرقمية والفكرية، مخ بالخزانة العامة بالرباط 2106د؛ 5 - ياقوتة المحتاج في الصلاة على صاحب المعراج، مخ بالخزانة العامة بالرباط 2447د؛ 6 - فصل القضية في مسألة المعية، مخ بالخزانة العامة بتطوان 50/ 460.

المصادر والمراجع

● الشنقيطي، أحمد بن عبد الله، بلوغ الأماني في مناقب الشيخ أحمد التجاني، تونس 1878م؛ ● الحفناوي، أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1985، القسم 2/ 38؛ ● برادة، علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، دار الجيل، بيروت 1988 (جزآن)؛ ● المكّي، أحمد أديب، رسالة بلوغ الأماني في مناقب الشيخ سيدي أحمد التجاني، مطبعة الحاج الأزرق، فاس 1315هـ؛ ● ابن المشري، محمد، روض المحب الفاني فيما تلقيناه من أبي العباس، مخ بالخزانة

العامة بالرباط رقم 1047؛ ● الكتاني، محمد بن جعفر، سلوة الأنفاس، طبعة حجرية، 1/ 180؛ ● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية، دار الكتاب العربي، بيروت 1349 هـ، 378؛ ● الشنقيطي، محمد السيد المختار، غاية الأماني في مناقب وكرامات الشيخ سيدي أحمد التجاني، دار العلم للجميع، د.ت؛ ● الحاج، إبراهيم نياس، كاشف الألباس عن فيضة الختم أبي العباس، مطبعة مصطفى الحلبي مصر 1952م؛ ● سكيرج، أحمد، كشف الحجاب عمّن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، المطبعة الشعبية، بيروت 1988؛ ● الجوسقي، محمد علوان، النفحة القدسية في السيرة الأحمدية التجانية، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت.

د. أحمد متفكر
جامعة القاضي عياض ـ مراكش

التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد

(ت 710هـ/1310م)

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم التجاني. أديب وكاتب رسائل القصر في العهد الحفصي. ولد بمدينة تونس في عائلة مخزنية وعلمية توارثت المجد والعلم أكثر من ثلاثة قرون [ح. ح. عبد الوهاب، ورقات، 3/ 160]. وهو والد صاحب الرحلة أبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني.

كان المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب أوّل من ضبط نسبه بعد أن أثبت شجرة نسب عائلته التي دلّت على وجود جملة من العلماء والأدباء في عائلته.

تنتسب عائلته إلى قبيلة تجان الموجودة بالمغرب الأقصى، وكان جدّه أبو القاسم أوّل من قدم إلى إفريقية في جيش الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي الذي وحّد كامل بلاد المغرب سنة 555هـ/ 1160م وخلّص إفريقية وتونس من الخطر المسيحي النورماني ومن خطر الانقسام الداخلي.

أبوه أحمد التجاني من كبار موظفي الدّولة، استخدمه مؤسس الدولة الحفصية أبو زكرياء (625 ـ 647هـ/ 1228 ـ 1249م) في قصره كما استخدم أخاه إبراهيم (عم مترجمنا) في قصره أيضاً.

تعلّم محمد التجاني على والده بتونس، ثم على كبار علماء إفريقية وعلى العلماء الوافدين من الأندلس والمغرب مثل الشاعر محمد بن الأبار (ت 685هـ/ 1286م)، وأبي محمد بن برطلة، وأحمد الغماز البلنسي قاضي الجماعة بتونس (ت 693هـ/ 1293م)، والحسن بن عمر الهواري الطرابلسي، وغيرهم.

ولما برع في الكتابة عُيّن منذ شبابه في سلك ديوان الإنشاء المختص في كتابة المراسلات الرسمية للدولة وتحرير الوثائق العمومية والتصديق عليها. ويبدو أنّ شيخه الشاعر الأندلسي ابن الأبار الذي طوّر فنّ كتابة الرسائل لدى الحفصيين هو الذي أثّر في منهج الترسل لديه.

وبعد سنوات قليلة طلبه أمير بجاية الواثق بالله أبو زكرياء يحيى بن أبي إسحاق فتحوّل إليه وتولى لديه كتابة العلامة السلطانية منذ سنة 684هـ/ 1285م، وهذه العلامة هي «الحمد لله والشكر لله» وتكتب بين البسملة والتصلية، ونص الرسالة. ولما تولى الأمير أبو يحيى زكرياء بن أحمد المشهور باللحياني خطة شيخ الموحدين وهي أعلى سلطة سياسية بعد سلطة الحاكم الحفصي، أعاده إلى تونس وأسند إليه خطة عالية في ديوان الرّسائل الذي كان تحت إشراف أحمد بن الخباز المهدوي. وذلك زمن السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد أبي عصيدة (694 ـ 709هـ/ 1295 ـ 1309م). وبقي التجاني في وظيفته في ديوان الرسائل رغم خروج الأمير زكرياء بن اللحياني إلى المشرق لأداء فريضة الحج سنة 706هـ/ 1306م بعد أن تدنّت مكانته السياسية إثر فشله في تخليص جزيرة جربة من الحصار الذي فرضه عليها الإسبان الأرغون القادمون من صقلية. وقد يكون التجاني قد واصل أداء مهمته إلى تاريخ وفاته رغم الهزات السياسية التي طغت على العصر آنذاك.

وبالنسبة إلى قيمة التجاني العلمية والأدبية فنعرفها من خلال توظيفه في ديوان الرسائل لأن ابن اللحياني الذي استخدمه كانت له مشاركة في العلوم والأدب وكان يألف أهل العلم [ابن القنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تونس 1968، 160]. كما نعرف مكانته الأدبية وقدرته البلاغية في كتابة الرسائل من خلال التعريف الذي وضعه له الأمير الأندلسي إسماعيل بن السلطان يوسف النصري الغرناطي في كتابه مستودع العلامة قائلا: «ومنهم ـ أي كتّاب العلامة ـ الكاتب الأديب صاحب القلم الأعلى محمد بن أحمد التجاني التّونسي، صاحب الشعر النفيس، المجرى واديه كنفيس، الممتطي صهوة النثار، والخائض في نقعه المثار، وربّ الأحاجي المرموزة، ومعدن سرّ الآداب التي ليست بمغموزة، ومثبت حروفها الساكنة والمهموزة» [مستودع العلامة، 34]. ومن قدراته الأدبية كذلك قوله الشعر وتنظيمه. فلما كان ابنه أبو محمد عبد الله غائبا في الرحلة في ركب السلطان تشوّق إليه وكتب أبياتا شعريّة أرسلها له قائلا:

حمّلتُم القلبَ إذ جدّ الرّحيل بكُمْ
مِن الصّبابة ما لا تحمِل الإبلُ

فلو سلكتُم سبيل الحزم ما عجزت
إذ ذاك مِنّي على دفع النّوى الحيَلُ

لكن عزائي ذهولٌ يومَ بينكمُ
كما يكابِد مَنْ أحبابه رحلوا

فالله يجمع منا الشمل عن عجَلٍ
فالخير أجملُ ما في نيلهِ العجَلُ

وتوفي محمد بن أحمد التجاني بمدينة تونس سنة 710هـ/ 1310م، وتواصل الإبداع العلمي والأدبي في أعقابه.

آثاره

ترك التجاني مكتبة كبيرة استفاد منها ابنه صاحب الرحلة أبو محمد عبد الله (ت717هـ/ 1317م). الذي اشتهر أكثر من والده، إذ وضع ما لا يقلّ عن تسعة تآليف، منها الرحلة ومنها كتاب تحفة العروس ونزهة النفوس الذي أخطأ الناشرون الجدد في نسبته إلى مترجمنا محمد بن أحمد [مثلا طبعات بيروت لبنان، وطبعة بريطانيا العظمى بتاريخ 1992 نشر وتحقيق الباحث جليل عطية والذي سماه تحفة العروس ومتعة النفوس].

المصادر والمراجع

● الغرناطي، إسماعيل بن السلطان يوسف النصري، مستودع العلامة، تح. محمد التركي ومحمد بن تاويت، تطوان 1384هـ/ 1964م، 34؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، جمع وإشراف محمد العروسي المطوي، تونس 1972، 159 - 162؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، مقدمة رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981؛ ● الطويلي، أحمد، الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي، تونس 1996، 1/ 166 - 167.

د. منير رويس
جامعة الزيتونة - تونس

التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد

(670 - 75هـ/ 1272 - 76م - نحو 717هـ/ 1317م)

أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني. أديب، مؤرّخ، فقيه ورحّالة من قبيلة بالمغرب الأقصى. وكان أبو القاسم التجاني أوّل رجال هذه القبيلة حلولا بتونس وقد جاءها رفقة جيش الموحّدين بقيادة عبد المؤمن بن علي. وقد اختلف في اسم صاحب الترجمة فجاء في كتابه «تحفة العروس» أنّ اسمه هو أبو عبد الله محمد بن أحمد، وقالت الأغلبيّة بأنّه أبو محمد عبد الله. ولد بمدينة تونس ما بين سنتي 670 و675هـ/ 1272 و1276م ونشأ في بيئة راقية بين أحضان أسرة علميّة متألّقة. وقد تلقّى مبادئ القراءة والكتابة على يدي والده أحد أبرز أدباء عصره وكتّاب العلامة لدى المعتضد بالله عبد العزيز الحفصي ملك بجاية. ثمّ ظلّ يحضر دروس التفسير والحديث وسائر علوم الدين واللّسان والأدب على مشاهير العلماء، منهم: أبو بكر بن عبد الكريم العوفي العلاّمة المغربي وقد حلّ بتونس سنة 698هـ/ 1298م، وأبو القاسم بن أبي محمد عبد الوهّاب بن فائد الكلاعي، وأبو الحسن علي بن إبراهيم التجاني وقد درس عليه الحديث والأدب، وأبو

علي عمر بن إبراهيم التجاني، وأبو علي عمر بن محمد بن علوان الهذلي (ت 710هـ/ 1311م)، وأبو فارس عبد العزيز بن عبيد السبّائي. وقد تعرّف التجاني، إلى جانب هؤلاء، على ثلّة من الكتّاب المرموقين أمثال أبي إبراهيم بن حسينة، وأبي زيد عبد الرحمان بن نزار، وأبي عبد الله محمد الهوّاري، ومحمد البلوي، ومحمد بن يعيش، وأحمد الرصافي وغيرهم.

ولمّا اكتملت معارف التجاني انخرط في ديوان الإنشاء. ولم تكد تظهر عليه علامات النبوغ حتّى اصطفاه لنفسه أحد أمراء بني حفص وهو أبو يحيى زكرياء بن أبي العبّاس أحمد اللّحياني (711 - 717هـ/ 1311 - 1317م) وقرّبه. ولمّا أزمع أداء فريضة الحجّ وتفقّد شؤون البلاد ومحاربة الإسبان المغتصبين لجزيرة جربة انتدبه لمصاحبته، وفوّض إليه الإشراف على رسائله. وكان انطلاق الركب في 13 جمادى الأولى سنة 706هـ/ 1 ديسمبر 1306م. بيد أنّ التجاني قد اضطرّ لأسباب صحّيّة وسياسيّة إلى التراجع في صفر 708هـ/ جويلية - أوت 1308م ولما يتجاوز طرابلس الغرب بعد، ممّا يفيد أنّه كان يطيل المقام بكلّ موضع يصله حتّى يتسنّى له استكشاف معالمه والتعرّف على أعلامه. وقد دامت غيبته سنتين وثمانية أشهر وبضعة أيّام ظلّ أثناءها محلّ ثقة وتقدير من مخدومه وقد وجّه لوالد خادمه كتابا بخطّه يعرّفه فيه بخصاله وعلوّ شأنه عنده. وعاد التجاني إلى تونس وباشر خطّته في ديوان الرسائل، ولكن بوفاة السلطان الواثق بالله المعروف بأبي عصيدة سنة 709هـ/ 1309م تواترت الثورات. في هذه الأثناء رجع الأمير أبو يحيى زكرياء من الحجّ واستقرّ في البدء بمدينة طرابلس. ثمّ انقضّ على تونس وتمّت له البيعة في 2 رجب 711/ 14 نوفمبر 1311م، وتلقّب بالقائم بأمر الله وعهد لعبد الله التجاني برئاسة دواوين رسائله. غير أنّ الظروف أكرهت هذا السلطان على مغادرة البلاد فغادرها سنة 717هـ/ 1317م وحلّ محلّه ابنه محمد المعروف بأبي ضربة، وعندها انقطعت أخبار التجاني، وقد يكون قتل في غمرة تلك الأحداث.

آثاره

وضع التجاني مؤلّفات عديدة ومتنوّعة المواضيع اشتهر منها ما يلي:

1 - أداء اللاّزم في شرح مقصورة حازم، ألفيّة نظمها أبو الحسن حازم القرطاجنّي (ت684هـ/ 1285م) مادحا بها الخليفة المستنصر بالله بن أبي زكرياء الحفصي. وكان التجاني قد وضع شرحه لها في محرّم عام 699هـ/ سبتمبر - أكتوبر 1299م، وهو شرح مفقود اليوم؛ 2 - الوفا ببيان فوائد الشفا، وضعه على كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض. ويعدّ عمل التجاني من أهمّ شروح الشفا، وقد حرص فيه على صحّة النقل ودقّة المرويّات مشيرا إلى الأحاديث الضعيفة والمرسل منها. توجد نسخة مخطوطة من هذا المؤلّف في المكتبة الوطنيّة بتونس تحت رقم 1321؛ 3 - الدرّ النظيم، وهو مصنّف في الأدب والتراجم كتبه قبل كتابة الرحلة وجمع فيه أخبار أدباء العهد الحفصي ممّن سبقوه فكانت له أهمّيّة خاصّة

بيد أنّه أتلف؛ 4 ـ تقييد على صحيح مسلم، مفقود أيضا؛ وقد كتبه في غضون إقامته بطرابلس سنة 708هـ/ 1308م زمن دراسته بها على الشيخ عبد العزيز السبّائي؛ 5 ـ تقييد على صحيح البخاري لم نقع له على أثر، وقد وضعه أيضا بطرابلس سنة 707هـ/ 1307م بعد أن فرغ من قراءة صحيح مسلم على شيخه السبّائي؛ 6 ـ نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين، وهو مفقود؛ ويقع في سفر كبير ضمّنه صاحبه مراسلات أدبيّة دارت بينه وبين الأديب الأندلسي محمد بن أحمد بن شبرين (ت747هـ/ 1348م)، وقد التقى به في تونس عام 703هـ/ 1303م؛ 7 ـ علامة الكرامة في كرامة العلامة، مفقود أيضا؛ ومضمونه تنويه بوظيفة العلامة وهي ما يوضع بالقلم الغليظ في أعلى الظهائر السلطانيّة والأوامر الرسميّة لملوك بني حفص وسائر ملوك المغرب، ومتقلّدها يشغل منصب الرئاسة العليا لدواوين الإنشاء. واشتمل الكتاب أيضا على تراجم لمن تعاقبوا على هذه الخطّة؛ 8 ـ أحكام مغيب الحشفة، ألّفه في زمن الشباب استدراكا على مؤلّف شيخه أبي علي عمر بن محمد بن علوان الهذلي بعد أن قرأه سنة 702هـ/ 1302 ـ 1303م؛ وقد وقف عليه الشيخ أبو علي فأكبره [تحفة العروس، ط. القاهرة 1301هـ، 61]؛ 9 ـ تحفة العروس ونزهة النفوس، وهي رسالة في 25 بابا تطرّق فيها إلى طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وأوصاف النساء، وأبدى فيها الرأي في شأن اختيار الزوجة، وقدّم عرضا مفصّلا لمواطن الجمال. ثمّ أسدى إرشادات حول أساليب معاملة المرأة وأدلى بتفاصيل عن الحياة الزوجية مقتبسا لذلك الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة ومضمّنا الشواهد الشعريّة وأقوال الفقهاء والحكماء. وهذا الكتاب ليس من كتب الفحش والتصابي، كما وهم بروكلمان وغيره، بل هو عمل أراد المؤلّف من خلاله إبراز سعة إلمامه بالأدب العربي ومدى فهمه للقرآن والحديث. طبع بالقاهرة سنة 1301هـ منسوبا خطأ إلى الشيخ أحمد التيجاني مؤسّس الطريقة التيجانيّة. ونقله ألفونس روسّو Alphonse Rousseau إلى الفرنسيّة نقلا مختصرا ونشره بالجزائر وباريس سنة 1848م تحت عنوان Touhfat al-Arous ou Cadeaux des Epoux؛ 10 ـ رحلة تعدّ أهمّ ما كتب عن تونس في أوائل القرن الثامن الهجري في عصر أحيط بكثير من الغموض فيما يتّصل بتاريخها الاجتماعي والسياسي. وقد ضمّنها المؤلّف معلومات ضافية عن المدن التي مرّ بها وعرّف بأبرز أعلامها وأدرج فيها وثائق ونصوصا على غاية من الأهمّية، ولكنّها مفقودة اليوم. وقد ترجم ألفونس روسو إلى الفرنسيّة مقتطفات من الرحلة ونشرها في المجلّدين الرابع والخامس من المجلّة الآسيويّة، س 1852 ـ 1853م. ونشر ميكالي أماري Michèle Amare أجزاء هامّة من الرحلة باللّغة الإيطاليّة في الباب 45 من مؤلّفه Biblioteca Sicula-Arabo، وذلك سنة 1880م بمدينتي توران وروما. ثمّ نقل الكتاب إلى العربيّة بعنوان المكتبة العربيّة الصقلّية. طبعت الرحلة كاملة أوّل مرّة بتونس سنة 1345هـ/ 1927م بعناية وليام مارسيه، ثمّ طبعت ثانية بتونس محقّقة مع مقدّمة لحسن حسني عبد الوهّاب سنة

1378هـ/ 1958م. ونشر ألفريد بال Alfred Bel نبذة وجيزة من الرحلة مشفوعة بترجمة فرنسيّة بعنوان Les Banu Ganya (بنو غانية) وذلك ضمن مطبوعات مدرسة الآداب بالجزائر، م 27، س 1905، (التذييل).

وللتيجاني أيضا أشعار جيّدة منها قصيدة في مدح شيخه أبي فارس عبد العزيز بن عبيد مطلعها:

سقى ربوعك يا مغنّى طرابلس
حيًّا يحيّيك منه كلّ منبجس

المصادر والمراجع

● ابن الأحمر، مستودع العلامة، ط تطوان 1964م، 34؛ ● محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة، ط. القاهرة 1930م، 206؛ ● محمد النيفر، عنوان الأريب، ط تونس 1351هـ، 1/ 62 ـ 64؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، مقدّمة رحلة التجاني، ط تونس 1958م، 3م ـ 46م؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة، ط مصر 1933م، 4/ 591 ـ 593؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلّفين التونسيّين، ط بيروت 1982م، 1/ 209 ـ 213.

د. محمد الأزهر باي
جامعة تونس

التجاني، يوسف بشير

(1331هـ/1912م ـ 1356هـ/1937م)

هو أحمد التجاني بن يوسف بن بشير بن الإمام جزرى الكتيابي. والكتياب بيت مشهور من فروع قبائل الجعليين بالسودان. والجعليون ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بـ «جعل» وهو ـ حسب الروايات ـ ابن سعد بن فضل بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم.

ولد أحمد التجاني في «الركابية» بمدينة أم درمان سنة 1912م، وجاء اسمه تيمناً بصاحب الطريقة الصوفية المعروفة بـ «الطريقة التيجانية» المنسوبة إلى الشيخ أحمد التجاني.

وأبواه جعليان من «الكتياب» الذين هاجروا من موطنهم قرب شندي بشمال السودان، إلى العاصمة المثلثة (الخرطوم)، واستقروا في أم درمان، حيث أنشأ شيوخهم الخلاوي لتعليم القرآن الكريم، والخلوة (أو الكتاب) هي دار لتحفيظ القرآن الكريم، تكون ملحقة بأحد المساجد أو مستقلة بذاتها، والخلاوي تنتشر في مختلف بقاع السودان.

نشأ التيجاني في أسرة فقيرة، نشأة تتسم بالبساطة والقناعة، في بيئة دينية صوفية محافظة، وعاش طفولته بين أقرانه في «حي

الركابية» بأم درمان، يلعب معهم أحياناً فيما يروق له من ألوان اللعب، ويعتزلهم أحياناً، منزوياً عنهم، فيما لا يعجبه أو يروق له.

دفعته أسرته إلى «الخلوة» حيث حفظ القرآن الكريم، ومن ثم انتقل سنة 1924م إلى المعهد العلمي بجامع أم درمان الكبير حيث تلقى علوم العربية والفقه، ومبادئ الحساب إلا أن التيجاني لم يكمل دراسته بالمعهد العلمي الذي كان يسير على منهج الأزهر.

كان أول عهد الشاعر بالحياة العملية، التحاقه بالعمل مصححاً بالجريدة التجارية، وهو لما يزل طالباً بالمعهد العلمي. والجريدة التجارية أنشأها سليمان داود منديل عام 1926م، وكان التجاني يكتب بها بعض المقالات. وفي عام 1931م تحولت الجريدة التجارية إلى «ملتقى النهرين». ثم ترك التجاني العمل بالجريدة، وعمل بشركة «سنجر» محصل أقساط، ولكن ما لبث أن ترك العمل بالشركة، واتجه مرة أخرى للعمل الصحفي في مجلة «الفجر» التي أسسها عرفات محمد عبد الله. فقد بدأت هذه المجلة في تجميع الأقلام الشابة المثقفة، في حملة استهدفت النهوض بالأدب السوداني، وإتاحة الفرصة للأدباء الشباب، فكتب بها التجاني بعض مقالاته، إلا أنه تركها في عام 1935م. في هذه الفترة كانت جريدة «النيل» قد بدأت في الصدور، فعمل بها التجاني بعض الوقت. وأخيراً دعاه الأستاذ محمد عبد الرحيم المؤرخ السوداني المشهور، وصاحب «نفثات اليراع» لتولي تحرير «مجلة أم درمان» التي صدرت في عام 1936م، فعمل بها فترة من الزمن، ولكن ما لبث أن ترك العمل بها أيضاً.

أظهر التيجاني، منذ صغره، ذكاء ونبوغاً وسعياً حثيثاً للتزود بالمعرفة في مختلف العلوم والفنون. حفظ القرآن الكريم يافعاً، وبدأ يقرض الشعر، وهو ما يزال تلميذاً بالخلوة، وتمكن في وقت مبكر من إتقان اللغة العربية وأساليبها. ونعرض فيما يلي شيئاً عن مراحل حياته الأدبية :

كان التيجاني، منذ صغره محباً للحرية وقد تجلى ذلك في نظرته للخلوة، إذ كانت فترة التحاقه بها - كما كان يرى - قيداً على حريته وانطلاق تفكيره، وقد لازمه هذا الشعور حتى وجد طريقه للكلمة التي تعبر عن إحساسه، فنقل لنا شعوره تجاهها في قصيدته الخلوة التي صور فيها خلجاته النفسية ومعاناته التي عاشها مع تسلط شيخه، فقال :

قَامَ مِن نَومه يُدغدغ عَينيه
مشيحاً بِوَجهِهِ في الصَباحِ
ساخِطاً يَلعَن السَماء وَما في الأ
رض مِن عالم وَمِن أَشباح
حَنقت نَفسه وَضاقَت بِهِ الحيلة
وَاهتاجه بَغيض الرواح
وَأَهابَت بِهِ الظلال وَقَد نَشرن
في جَلوة القرى وَالبِطاح
طَوفت في خَياله ذِكرَيات الر
وع وَاعتاده مطيف الجِماح
وَمَشى بارمًا يَدفَع رجليه
وَيَبكي بِقَلبِهِ الملتاح
ضَمَّخت ثوبه الدواة وَروَّت
رَأسَهُ مِن عَبيرها الفَيّاح

ثـورة صَـوَّرت خـوافـي مـا بَـيـن خـنـايـا صَـبـيُـنـا مِـن رِيـاح

ولعل الصورة التي صورها التيجاني للطفل في هذه القصيدة ما هي إلا الصورة الحقيقية لنفسيته، عندما كان يهب من نومه ساخطاً في مسار رحلته إلى خلوة عمه، صورة فتى كئيب المنظر تلطخت ثيابه بحبر دواته، يسير في طرقات الحي، مطرقاً رأسه وبين حناياه ثورة مكبوتة.

التحق التيجاني بالمعهد العلمي بأم درمان سنة 1924م، تبعاً للمخطط الديني الذي رسمته أسرته ليسير على هديه. وفي المعهد بدأت مواهبه تتفتح، مما جعل الشيخ أبا القاسم أحمد هاشم شيخ علماء السودان، وعميد المعهد - آنذاك - يعجب بنجابته ونبوغه وفرط ذكائه. وقد كانت الفترة التي قضاها التيجاني في المعهد - رغم قصرها - فترة خصبة من حياته، أوجدت له نوعاً من الاستقرار، ومكنته من أن يجد حلاً مؤقتاً لمشكلته المادية، إذ كانت إدارة المعهد تصرف له ولغيره من الطلاب إعانة شهرية تعرف باسم «الجراية». فاندفع يفكر في تنمية مواهبه، بدلاً من أن يجهد نفسه في تحصيل سبل معيشته وتدبيرها، نظراً لظروف أسرته المادية.

لقد أفاد التيجاني بوجوده في المعهد العلمي كثيراً، خاصة باتصاله بالأستاذ المصري حسين منصور، الذي أحضر لتدريس الرياضيات، ولكنه كان شاعراً مجيداً، بث في تلاميذه حب الشعر، وشجعهم على نظمه والاطلاع عليه، وقد وجد التيجاني في أستاذه حسين منصور ضالته وموجهه ومرشده، فاندفع ينظم الشعر برعاية أستاذه الذي شجعه على كتابة الشعر التقليدي - وفق عمود الشعر العربي- بل ساعده على نشر قصائده على صفحات الصحف، خاصة الجريدة التجارية المسماة لاحقاً «ملتقى النهرين» التي كان يصدرها سليمان داود منديل، ونشر فيها التيجاني قصيدة وجدانية، بتاريخ 13/ 9/ 1931 بعنوان : «وحي الحب»، مطلعها :

لـمَ لا يَـغـنِّـيـنـا الـهَـوى بِـلـبـانـه
أنـا فـي الـشَّـبـاب وَأنـتَ فـي رَيـعـانِـهِ

ومن أبيات هذه القصيدة :

قُـم فـاسـقِـنـي خَـمـر الـهَـوى وسُـلافـه
وَاشـرَب بِـكَـأسٍ مِـن رَحـيـق بِـنـانِـهِ

يـا ابـن الـبَـلابـل رَددت أَلـحـانَـهـا
وَأخـا الـهـزار يَـجـدّ فـي تـحـنـانِـهِ

غَـرِّدْ تَـجِـد أذنـاً صـغـت وَمَـشـاعِـراً
أذنـت وَقَـلـبـاً عـادَ مِـن خَـفـقـانِـهِ

وَتَـغـنَّ يـا ابـن الـصـادِحـات مِـن الـجَـوى
وَالـنـازِلات عَـلـى مَـعـاطِـف بـانِـهِ

هَـذا الـهَـوى وأولاء نـحـنُ بِـرَوضِـهِ
أفـلا نُـغـرّد فـي ذُرى أفـنـانِـهِ

هكذا سار التيجاني على نهج أستاذه حسين منصور في التزام عمود الشعر العربي التقليدي، وظهرت ملامح هذا النهج على إنتاجه الشعري الأول. ولكن التجاني ما لبث بعد أن تفتحت مواهبه، وقوي عوده، واطلع على الثقافة العربية الحديثة، عن طريق مجلة «الرسالة» ومجلة «الثقافة»، وتابع مقالات العقاد والمازني وطه حسين، وإنتاج جماعة

«أبولو»، وقرأ لبعض الشعراء المحدثين، حتى ترك الشعر التقليدي، وبدأ يبحث عن نفسه في طريق جديد، وقالب طيع يستطيع أن يستوعب تجاربه الشعرية. وقد بدأ هذا النهج الجديد، وهو مازال طالباً بالمعهد العلمي، مما عرضه لكثير من النقد الحاد، والاتهام بالخروج عن جادة الطريق، طريق الأسلاف، بل وصل به الأمر أن اتُّهم في عقيدته عندما انتصر لشعر شوقي على شعر حافظ إبراهيم، عندما قال إن مستوى شعر شوقي في مستوى فصاحة القرآن الكريم، مما أدى إلى فصله من الدراسة، مؤقتاً - في عهد عمادة الشيخ محمد أحمد أبي دقن للمعهد العلمي، وقد رفض التجاني العودة إلى المعهد حتى بعد أن هدأت النفوس. وقد عبّر عن مشكلته في قصيدته «المعهد العلمي» نافياً ما اتُّهم به، فقال :

هُوَ مَعهَدي وَلَئِن حَفظتُ صَنيعَهُ
فَأنَا ابن سرحتِه الَّذي غنى بِهِ
فَأعيذ ناشئة التُّقى أن يرجفوا
بِفتًى يَمتُّ إلَيهِ في أحسابه
ما زِلت أكبر في الشباب وَأغتدي
وَأروح بَينَ نجٍ وَيا مَرحى بِهِ
حَتّى رَميت وَلستُ أول كَوكَب
نَفث الزَمان عَلَيهِ فَضل شِهابِهِ
قالوا وَأرجفت النُفوس وَأوجفت
هلعاً وَلست بِعابِئ أو آبِهِ
قالوا أحرقوه، بل أصلبوه، بل أنسـ
ـفوا للريح ناجس عظمه وإهابِهِ
وَلَو ان فَوق المَوت مِن مُتلمس
لِلمَرء مدَّ إلَيَّ مِن أسبابِهِ

القصيدة، على الرغم من أنها تصور الحادثة تصويراً حيّاً، فإن شيئاً ما يبرز لنا من خلال كلماتها، يحمل في ثناياه روح التمرّد الظاهرة على ملامح الشاعر، مما يجعلنا نستشف بوضوح هذه الهزة العنيفة التي اجتاحته، وهو يواجه التهمة.

ترك التجاني المعهد العلمي - على الأرجح - في عام 1933م وفي نفسه رغبة جامحة إلى إتمام تعليمه بمصر، إلاّ أن ظروف أسرته، وإصرار أبيه على بقائه في السودان، كل ذلك حال دون سفره إلى مصر لتحقيق رغبته، على أن قصائده عن مصر، لم تكن خافية على الحكومة الاستعمارية، إذ إنها كانت تحمل مفهوماً معادياً لها هو مفهوم «وحدة وادي النيل»، ولكن التجاني كان يؤثر الوحدة الثقافية مع مصر، دون الوحدة السياسية، ولعل هذا الاتجاه كان من إفرازات ثورة سنة 1924م، السودانية. يقول في إحدى قصائده :

يا ابن مَصر وَعِندَنا لَكَ ما نا
ل تَبليغه مِن الخَير مَصرا
قُل لَها في صَراحة الحَق وَالحـ
ـق بِأن يُؤثر الصَراحة أحرى
وَثقي مِن عَلائق الأدَب البا
قي وَلا تَحفلي بِأشياء أخرى
وَقِفي بِالصِّلات مِن حَيث لا تَعـ
ـرف إلا مَسالك الفكر مَجرى
كل ما في الورى عدا العلم لا يكـ
ـبر شعباً، ولا يمجِّد قطرا

رغم كل هذا، كان حنين التجاني لمصر عنيفاً، سواء أكان عن نضال سياسي، أو عن رغبة في الاتصال بمناهل الفكر، على أبواب

الرسالة والثقافة ومجالس الأدباء والشعراء. لهذا، فإن خيبة شاعرنا كانت عظيمة، حين أرجعه والده من محطة الخرطوم، وهو يهمُّ بالسفر إلى مصر. وقد عبّر عن هذه الخيبة في قصيدة حزينة، صوّر فيها لوعته وحرقته وآماله التي تحطّمت، قبل أن تحلّق في أبعادها الرحبة الأصيلة، فقال :

أمل مَيِّتٌ على النَّفْس ألحدْ
تُ لَهُ مِن كَلاءةِ النَّفس قبرا
زَهِقت روحهُ وَغاضَت شُعاعاً
قَبلما يَنفذُ الطُفولة عُمرا
كُنتُ أَحيا عَلى نَدى مِنهُ يُسا
قط بَرداً عَلى يَديَّ وَعطرا
في ظِلال مَطلولة أفرغ الشعـ
ـر عَليها مِن الهَناءة فَجرا
ثُمَّ أودى يا وَيحَهُ ضاقَت الدُّ
نيا بِهِ جُهداً واحتِمالاً وَصَبرا
بَعدَما نَضر الحَياة بَعَيـ
ـي مضى جاهِداً وَأعقَب أسرا
أَمَلي في الزمان مصر فحيا الـ
ـله مُستودَع الثقافة مصرا
نَضر اللَه وَجهَها فَهيَ ما تز
داد إلا بُعداً عَلَيَّ وَعُسرا

بهذه الأبيات التي تفيض حزناً، ودّع الشاعر أمنيته في الذهاب إلى مصر، وأمله الطموح إلى الحرية، والانعتاق، وعاد إلى عزلة قاتمة كئيبة، صاحب فيها كتابه ولازمه فترة من الزمان، خرج بعدها لحياة شاقة عسيرة، يطلب الرزق، ويسعى إليه.

نشأ التجاني وترعرع في بيئة دينية، كان لها أثرها في توجيه فكره نحو التصوف، إذ إن مفهوم الدين في كثير من أنحاء السودان، كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالطرق الصوفية.

ولعل التجاني الذي عاش شقاء العقل، بكل زعزعته، كان أقرب مثقفي عصره للانتماء والانصهار في رحاب التصوف. وإذا أضفنا أزمة التجاني لأزمة المجتمع الروحية التي عاشها جيل التحول في السودان، وإذا تتبعنا حياته الدراسية، رأينا الاختلاف الكبير الذي نشأ بينه وبين أساتذة المعهد العلمي، مما أدى لتكفيره وفصله من المعهد.

ولعل من مظاهر تأثر الشاعر بالتصوف الإسلامي ما يتجلى في قصيدته «الصوفي المعذب» والتي تمثل عودته إلى رحاب الله، بعد اضطراب حاد بين العقل والإيمان، أدى به إلى متاهات عميقة، عبّر عنها الشاعر بحيرته وعجزه عن ارتيادها، يقول في هذه القصيدة :

هَذِهِ الذرّة كَم تَحـ
ـمل في العالم سرّا
قف لَدَيها وَامتَزج في
ذاتِها عُمقاً وَغورا
وانطَلق في جَوِّها الـ
ـمَملوء إيماناً وَبرّا
وَتَنقّل بَينَ كُبرى
في الذراري وَصُغرى
تَرَ كُلَّ الكَون لا يَفـ
ـتر تَسبيحاً وَذِكرا

بعد أن قوي عود الشاعر في الشعر، وهمّ

بطبع ديوانه «إشراقة»، أحرق قصائده التي اعتقد ألا فضل له فيها غير ترداد تعابير أصبحت في متناول كل الشعراء، واستثنى بعض القصائد التي كانت لها مكانة خاصة في نفسه، كقصيدة «ملاحن فيها الهوى والألم»، وقصيدة «مدامع ومحاجر».

أما غير هذه القصائد في ديوانه، فنجدها تحمل طابعاً لم يعهده الشعر السوداني حينذاك، قبل التجاني، فهي تحمل بداية مرحلة جديدة متشبّعة بثقافة مغايرة لثقافته المعهدية، فأغلب قصائد «إشراقة» كانت نتاجاً لثقافة جديدة، ومفاهيم حديثة، غزت العالم العربي، وانفعل بها الشاعر، فعبّر عنها. أما هذه الثقافة فمنبعها واحد، ولكنها وفدت إليه من مجريين، أحدهما مصر والآخر المهجر.

وقد عرف الأدباء السودانيون عن قادة النهضة الأدبية في مصر، أمثال العقاد، وطه حسين، والمازني، وعبد الرحمن شكري، مما تنشره على صفحاتها المجلات الأدبية : الهلال، المقتطف، البلاغ الأسبوعي، مجلة أبولو، الرسالة، الثقافة.

وقد نشرت مجلة «الرسالة» لبعض الأدباء السودانيين : الأستاذ عبد الله عشري الصديق، والأستاذ المبارك إبراهيم، والأستاذ عبد الله عبد الرحمن. وكان شاعرنا التجاني ضمن من كتبوا في «الرسالة» مقالات نقدية، وقصائد شعرية.

وقد انحصر تأثر التجاني بهذه التيارات الأدبية التي كانت تعج بها الحياة الثقافية في مصر، في :

1 ـ اتجاهات «مدرسة الديوان» التي برزت على أيدي ثلاثة شعراء هم : العقاد، المازني، شكري.

2 ـ مدرسة «مجلة أبولو» التي أنشأها الدكتور أحمد زكي أبو شادي، والتي كانت معرضاً لشعراء الجيل الجديد ، وعلى صفحاتها عرف التجاني الشاعر التونسي أبا القاسم الشابي، وفتن به، ورثاه عند وفاته بقصيدة رائعة حزينة ـ كما ذكر الأستاذ حسن نجيلة في كتابه: «دراسات في شعر التجاني» ـ كما كانت المجلة منفتحة على شعراء المهجر.

بعد أن ترك التجاني العمل بمجلة «أم درمان»، اعتكف في منزله، يقرأ كتب الأدب العربي القديم، وكتب التصوف والفلسفة، ويطلع على ما تيسر له من كتابات المعاصرين والمجدّدين من أدباء وشعراء العربية، وغيرهم من أدباء الغرب، عبر ما ترجم لهم إلى العربية. ثم ثقلت عليه العلّة، واشتد عليه المرض، فمات بداء الصدر عام 1937م عن خمسة وعشرين عاماً هام فيها على وجهه في ربوع وطنه الذي منحه أغلى ما عنده، ولم يأخذ منه شيئاً يذكر.

وقد رثاه أستاذه وصديقه الأستاذ حسين منصور، في كتابه «الشاطئ الصخري»، فقال: «فقد الأدب السوداني الحديث شخصية فذّة، كان يرجى منها الخير الكثير لهذا الأدب عامة، وللشعر خاصة، ذلك هو الأديب الشاب التجاني يوسف بشير، صاحب ديوان إشراقة الذي لم يطبع بعد، وما أظنّني جزعت على أحد جزعي عليه، فقد لزمني ـ رحمه الله ـ منذ التحاقي بالتدريس في المعهد العلمي بأم درمان، ملازمة الطالب وملازمة الصديق. ولمست فيه من الصفاء وقوة الطبع، ما لم

ألمسه في كبار الكتاب والشعراء، فالخسارة التي خسرها الأدب بفقده، لا يعرفها إلا من عرفه كما عرفته. ويكفيني لكي أحمل القارئ على مشاركتي في هذا الجزع، وأقنعه بجزالة الشعر الذي رزئناه، أن أجتزئ هذه الابيات من قصيدة طويلة بعث لي بها في خطاب بتاريخ 23 مارس عام 1934م بعد مغادرتي السودان، يقول في ختامه: ما نظمت قبل ذلك قصيدة كان لها في نفسي وقع كما لهذه.

يقصد قصيدة التجاني «ملاحن فيها الهوى والألم»، التي جاء فيها:

حسين أناتك أن تستخف
وريث فؤاد أن يضطرم

منازع ذي مذهب في الوجود
خطير وذي شرعة في القلم

أراك تفكر ماذا لديك
لعلك تمخر في كل يم

يطل بعينيك جو يشيع الـ
ـلجاج به ويشيع القم

ويمضي حسين منصور، فيقول: هكذا، ومضى التجاني كالشهاب، في سماء الأدب، فكان كما قال في رثاء صغير من أقاربه:

كالخاطر الوهمي جال محمد
في البيت، ثم مضى مضي الخاطر

هذا، وقد رثاه أستاذه حسين منصور بهذه الأبيات :

رحم الله صاحب الإشراقة
رحم الله بشره والطلاقة

عبقريّ أعيد من ميعة العمر
وشيكاً ودمعة مهراقةْ

رحمته السماء وهو يغنّي
لأناس لم يبلغوا آفاقةْ

فاستعادته ساخراً من زمان
ما اصطفاه كما اصطفى أبواقةْ

ممسكاً بالكثير من شعره العالي
وفي الجو ناثراً أوراقةْ

كان لي بسمة من الزهر حباً
وابتسام الزمان يخفي نفاقةْ

لم يطلها ولم أطل في عتابي
بعد لؤم ابدى لنا مصداقةْ

آثاره

1 - إشراقة (ديوان شعر): ط1 (1) - سنة 1942م، ط(2) سنة 1947م، ط (3) سنة 1955م، ط (4) سنة 1964م؛ 2 - الآثار النثرية الكاملة، للتجاني يوسف بشير، جمع الكتاب، وأعده للنشر، الأستاذ بكري بشير الكتيابي، التقديم والحواشي: للدكتور محمد عبد الحي. (من ضمن الآثار النثرية، نقد التجاني لمسرحية شوقي : مجنون ليلى) .

المصادر والمراجع

● عابدين عبد المجيد، التجاني شاعر الجمال؛ ● أبو القاسم، بذر الدين هاشم، التجاني يوسف بشير، الشاعر السوداني، دراسة نقدية في تجربته الشعرية؛ ● سامي، أحمد عبد الله، الشاعر السوداني، التجاني يوسف بشير؛ ● البشير، عبد الله الشيخ، دراسات في

شعر التجاني؛ • رياض هنري، التجاني يوسف بشير، شاعراً، وناثراً؛ • الصديق عبد الهادي، قراءة في قصيدة الجمال؛ • علي محمد محمد، الغموض في شعر التجاني (كتاب: محاولات في النقد)؛ • هدارة، محمد مصطفى، تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان؛ • عبد الحي محمد، الرؤيا والكلمات ـ قراءة جديدة في شعر التجاني يوسف بشير، مجلة الثقافة السودانية؛ • عبد القادر، شيخ دريس أبو هالة، الترجمة الذاتية في شعر التجاني يوسف بشير، مجلة الخرطوم؛ • بشارة، مصطفى عوض، زورق المشاعر، دراسات أدبية؛ • صدوق، راضي، ديوان الشعر العربي في القرن العشرين ـ الجزء الأول ـ (أورد شيئاً عن حياة التجاني ونماذج من شعره)؛ • مصطفى، ابراهيم رضوان، التجاني يوسف بشير؛ • بدري، أبو القاسم محمد، الشاعران المتشابهان: الشابي والتجاني؛ • عباس، إحسان، التجاني، مقال نشر بمجلة الثقافة المصرية، عدد 666، عام 1951م.

د. حديد الطيب السراج
جامعة السودان ـ السودان

التجيبي، أبو إبراهيم، إسحاق بن إبراهيم

(277هـ/891م ـ 352هـ/963م)

إسحاق بن إبراهيم بن مسرة أبو إبراهيم الطليطلي. فقيه مالكي، عرف بأبي إبراهيم.

ولد بطليطلة سنة 277هـ. وتلقى العلم على شيوخها: عمر بن حفص بن أبي تمام (ت 316هـ/ 928م)، ووهب بن عيسى الأنصاري (ت 342 هـ/ 953م)، وعثمان بن يونس، ووسيم بن سعدون القيسي، وعندما استكمل ما عند شيوخ أهل بلده من العلم والرواية، سافر إلى قرطبة لطلب المزيد، فلازم مجالس أبي عبد الله محمد بن عمر بن لبابة (ت 314 هـ/ 927 م) وهو يومذاك إمام وقته في الفقه، وحفظ الرأي، والبصيرة في الفتيا؛ فدرس عليه وسمع منه أمهات الكتب في الفقه المالكي، كالموطأ للإمام مالك بن أنس، والمدونة لسحنون بن سعيد (ت 240هـ/ 854م)، والمستخرجة للعتبي، محمد بن أحمد (ت 255هـ/ 868م)، وحمل عنه الكثير من مروياته [الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، مدريد 1992، 146]، وتردد كثيرا على مجالس أبي عمر أحمد بن خالد (ت 322هـ/ 933م) وعلى هذين الشيخين كان اعتماد التجيبي، وعنهما أكثر الرواية، وبهما تفقه [عياض، المدارك، 6/ 127]، وسمع من شيوخ قرطبة الآخرين، أبي عبد الله محمد بن أيمن (ت 303هـ/ 915م) وأبي

الجعد أسلم بن عبد العزيز (ت 317هـ/ 929م)، وأبي عبد الله محمد بن قاسم (ت 327هـ/ 938م)، وأبي محمد قاسم بن أصبغ البياني (ت 340هـ/ 951م)، وعبد الله بن محمد أبي الوليد الأعرج (ت 310هـ/ 922م) وكان الطلبة يقصدونه لأجل تبويبه مستخرجة العتبي على تبويب المدونة فرغبوا في سماعها منه. ودرس على آخرين من شيوخ قرطبة والوافدين إليها. واكتفى بشيوخ الأندلس، ولا نعرف له رحلة إلى المشرق لطلب العلم، أو لأداء فريضة الحج.

عاصر أبو إبراهيم التجيبي ثلاثة من حكام بني أمية، أولهم: الأمير عبد الله بن محمد (275هـ/ 888م - 300هـ/ 912م)، وحفيده عبد الرحمن الناصر (300هـ/ 912م - 350هـ/ 961م) وهو الذي اتخذ ألقاب الخلافة في سنة 316هـ/ 929م وصدر دولة ولده الخليفة الحكم المستنصر (350هـ/ 961م - 366هـ/ 976م).

ويعد عصر الخلافة من أزهى عصور الدولة العربية في الأندلس، والأكثر تقدما ورخاء على كافة المستويات باتفاق المؤرخين. ويشيد النقد الحديث إشادة كبيرة بمناقب الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر، فالخليفة الناصر هو الذي استطاع بعد جهود ونضال مرير من إقامة وحدة الأمة، ووحدة السلطة معا، وأشاد بواسطة معاهداته نوعا من التوازن السياسي، والأجدر به أن يعد قرينا لملوك العصر الحديث لا حاكما من حكام العصور الوسطى. وإذا كانت دولة الناصر دولة العظمة والبهاء، فإنّ دولة ولده الحكم المستنصر كانت دولة العلوم والآداب والحضارة، ومناقب الحكم في مجال الاهتمام بالعلوم ورعاية العلماء واستقطابهم من بلدان المشرق والمغرب، والشغف بجمع الكتب معروفة، ومدونة في كتب المؤرخين.

وفي هذا العصر الذي ساده الهدوء والاستقرار، وفي هذه البيئة العلميّة المشرقة المحفوفة برعاية أولي الأمر بدأ التجيبي حياته العلميّة، فآثر سكنى مدينة قرطبة، وكان في البداية يتجر في سوق الكتان في دكان له. ثمّ بدأ بتدريس علم الفقه، فظهر نبوغه وعلا على أقرانه علما وعملا؛ فكان كما يقول ابن الفرضي [1/ 72] حافظا للفقه على مذهب مالك وأصحابه، متقدّما فيه، صدرا في الفتيا، وكان يناظر في الفقه فيأتي بأجوبة حسان، ومسائل تدلّ على طول باعه وحدّة ذهنه. وكان من أهل الفضل والدين المتين، زاهدا متقشفا؛ ولم يكن في عصره أكثر منه خيرا، ولا أكمل منه ورعا، شديد البر بوالدته وإخوانه معينا لهم عند الحاجة، مواصلا للرحم، تكفل بتربية قريبه قاسم بن أرفع رأسه وإخوته بعد وفاة والدهم، فعلمهم ورعاهم رعاية الأب لأبنائه؛ فكان قاسم من أكثر تلاميذه ملازمة له، وحرصا على خدمته في حله وترحاله.

جلس التجيبي للتدريس في أكثر من مكان في العاصمة قرطبة، وكانت مجالسه حافلة بالطلبة، ولازم في شيخوخته المسجد المنسوب إلى أبي عثمان المجاور لداره بجوفي قصر قرطبة، فكان يؤدي به الصلوات، ويجتمع إليه الطلبة بين الصلاتين لقراءة الفقه، ورواية الحديث النبوي فيقيدونه عنه [المقري، 1/ 361]. أمّا قول ابن الفرضي: «ولم يكن له بالحديث كبير علم» فليس فيه ما

يعيب ولا ينقص من علم الرجل، فالتخصص العلمي سمة لازمت العدد الأكبر من علماء الأندلس ومشاهيرهم. والتجيبي فقيه، وبهذا العلم عرف واشتهر، وليس بالضرورة أن يكون الفقيه عالما بالحديث كعلمه بعلم الفقه، أو أن يكون المحدث عالما بالفقه علمه بالحديث. وفي كتب التراجم من الأمثلة ما يعزز هذا القول وعلى سبيل المثال: كان عبد الملك بن حبيب السلمي.(ت 238هـ/ 852م) من كبار فقهاء الأندلس وعلمائها، ولجلالة قدره ومكانته وما خلفه من مؤلفات لقب بعالم الأندلس، ومع ذلك لم يكن له علم بالحديث، وما كان يعرف صحيحه من سقيمه. وكان محمد بن وضاح القرطبي (ت 287هـ/ 900م) عالما بالحديث، بصيرا بطرقه، متكلما على علله؛ وبه وبالشيخ بقي بن مخلد (ت 276هـ/ 889م) أصبحت الأندلس دار حديث وإسناد، ولكن ما كان ذا علم بالفقه أو بالعربيّة. وابن لبابة شيخ التجيبي هو أيضا كان إماما في الفقه، مقدما على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفتيا، درس كتب المذهب مدّة ستين سنة، ولكنه لم يكن ذا علم بالحديث، ولا ذا معرفة بشيء منه [ابن الفرضي، 1/ 270 ـ 271هـ؛ 2/ 17، 35]، وإذا لم يكن للتجيبي علم بالحديث من حيث كونه علما فإنّ ذلك لم يمنعه من رواية الأحاديث النبويّة في مجالسه وإملائها على الطلبة، خاصّة أنّ روايته للحديث عن شيخه أحمد بن خالد كانت من الروايات المرغوبة لدى الطلبة.

قدم للشورى سنة 326هـ/ 937م في ولاية القاضي ابن أبي عيسى محمد بن عبد الله القرطبي (ت 339هـ/ 950م) بتوصية من ولي العهد الأمير الحكم فكان من جملة المشاورين الستة عشر في قرطبة [عياض، 6/ 127]؛ وطلبه القاضي منذر بن سعيد البلوطي (ت355هـ/ 965م) للإشراف على أموال اليتامى فأبى كما ورد في رواية ذكرها النباهي [ص 73].

نال التجيبي حظوة ومكانة لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وولده الحكم؛ فكثيرا ما كان الناصر يستدعيه إلى بلاطه للمشاورة أو لحضور المناسبات أسوة بكبار رجال دولته والرواد من العلماء، وظاهر النصوص يوحي بأنّ التجيبي كان يتثاقل عن حضور مثل هذه المناسبات، ويعتذر للخليفة بما يليق من الأعذار. وكان من تعظيم الحكم له أنّ التجيبي إذا دخل عليه مد رجليه أمامه ويعتذر بشيخوخته فيقول له الحكم: «لا مؤونة عليك منا اقعد كيف شئت». وقال القاضي عياض: «جالس يوما الحكم فذاكره أبوابا من العلم وأخبار السلف، إلى أن وقع الحكم بذكر رجل من القرطبيين وثلبه، فسكت عنه أبو إبراهيم ونكس رأسه، ولم يأخذ معه في شيء مما ذكره، فوجم الحكم لذلك، ثمّ رجع إلى ما كانوا فيه من ذكر الصالحين فانبعث معه أبو إبراهيم، ثمّ عاد إلى ذكر الرجل، فأقصر أبو إبراهيم وعاد إلى حاله الأوّل من الإطراق والوجوم، فأقصر الحكم عن ذكره وراقه أمر أبي إبراهيم، فأنشد متمثّلا بالبيتين المشهورين في مدح مالك بن أنس:

يأبَى الجوابَ فما يُراجع هيبةً
والسائلون نواكسُ الأذقانِ
هديُ العلوم وعزُّ سلطان التقى
فهو المطاعُ وليس ذا سلطان»

وللتجيبي آراء واختيارات فقهيّة وفتاوى في مسائل مختلفة في أمور الدين والدنيا تدلّ على سعة علمه، وعلو مقامه بين معاصريه. وقد وقع في زمانه اختلاف بين فقهاء قرطبة في مسألة حكم الحاكم (القاضي) بعلمه وما سمعه في مجلس نظره، فذهب التجيبي في آخرين إلى أنّ القاضي له أن يقضي بعلمه من دون شهود، ومال آخرون من الفقهاء إلى خلاف ذلك، وقالوا: إنّما لم يقض بعلمه من دون بينة، لأن فيه تعريض نفسه للتهم، وإيقاعها في الظنون. قال القاضي أبو الأصبغ عيسى بن سهل صاحب كتاب الأحكام (ت 486هـ/ 1093م): وهذا عندي القياس الصحيح المطرد لمن قال لا يقضي القاضي بعلمه ولا بما سمع في مجلس نظره، ولكن الذي قاله أبو إبراهيم وابن العطار، وجرى به العمل وهو عندي الاستحسان، ويعضده قول مطرف، وابن الماجشون، وأصبغ في كتاب ابن حبيب، أنّ القاضي يقضي على من أقرّ عنده في مجلس نظره بما سمع منهم وإن لم تحضره بينة [النباهي، 7 ـ 8].

ولما كملت الزيادة التي أجراها الخليفة الحكم على المسجد الجامع بقرطبة، استدعى العلماء للمشاورة في تحريف القبلة نحو الشرق حسبما فعله والده الخليفة الناصر في قبلة جامع الزهراء، لان أهل التعديل كانوا يقولون بانحراف قبلة جامع قرطبة نحو الغرب. فقال التجيبي للخليفة الحكم: «يا أمير المؤمنين، إنّه قد صلّى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمّة من أجدادك الأئمّة وصلحاء المسلمين وعلمائهم، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت، متأسّين بأوّل من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم... وإنّما فضل من فضل بالاتباع، وهلك من هلك بالابتداع، فأخذ الخليفة برأيه وقال، نِعْمَ ما قلت وإنّما مذهبنا الاتباع» [المقري، 2/ 98 ـ 99].

وكان التجيبي صُلبا في الحق يدور معه حيث دار، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فعندما أخذت الشهادات على أبي الخير المسمى بأبي الشرّ الزنديق أفتى بعض فقهاء قرطبة بالأعذار له فيمن شهد عليه، وأفتى التجيبي، والقاضي البلوطي، وابن المشاط أحمد بن مطرف (ت 352هـ/ 963م) بطرح الأعذار وتجريمه، فأخذ الخليفة الحكم بفتوى التجيبي وأصحابه وأمر بإعدامه. وشاوره صاحب الردّ في أصحاب السوق الذين يؤدون الصلوات في دكاكينهم بإمام ويتثاقلون عن الحضور إلى المساجد فأفتى بمنع ذلك. وأفتى بإخراج ذباحي المجازر اليهود من مجازر المسلمين، ومن مذهبه أنّه كان لا يمسح على الخفين في حضر ولا سفر، ويفتي بجواز ذلك لمن استفتاه، وكلمه في ذلك تلميذه قاسم بن أرفع رأسه في بعض الحملات العسكريّة الجهاديّة ضدّ الممالك الإسبانيّة الشماليّة في ليلة شديدة الريح والبرد، وقد ضجر من فعله فقال له التجيبي، لا أدفع ما تقول بحجة ولكن شيء ألفته، ولا أستطيع تركه؛ ولعلي أموت الليلة فأتناقض في مذهبي، وما احتطت فيه لنفسي.

قرأ عليه وروى عنه أكثر طلبة العلم في قرطبة وغيرها، واشتهر من تلاميذه عيسى بن سعادة الفاسي (ت 355هـ/ 965م)، ومحمد بن عبيد الله المعيطي (ت 367هـ/ 977م)، وعبد الله بن عبد الوارث الطنيطلي (ت 373هـ/

983م)، وكان اسمه منتيل، فسماه التجيبي عبد الله [عياض، 7/ 31] وعبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (ت 380هـ/ 990م)، والقاضي محمد بن يبقى بن زرب القرطبي (ت 381هـ/ 991م)، والأصيلي عبد الله بن إبراهيم (ت 392هـ/ 1001م)، وقريبه قاسم بن أحمد المعروف بابن أرفع رأسه (ت 393هـ/ 1002م)، وابن الشرفي، إبراهيم بن الحضرمي (ت 396هـ/ 1005م) وابن أبي زمنين، محمد بن عبد الله المري (ت 399هـ/ 1008م)، وابن المكوي، أحمد بن عبد المالك الاشبيلي (ت 401هـ/ 1010م) وصحبه كثيرا وبه تفقه، وعبد الرحمن بن أحمد التجيبي (ت 409هـ/ 1018م)، وحمل عنه مؤلفاته وعنه رويت.

توفي أبو إبراهيم بطليطلة، وكان قد خرج مع الخليفة في حملة عسكرية وذلك ليلة الجمعة لعشر بقين من رجب سنة 352هـ/ الثالث عشر من آب سنة 963م عن خمس وسبعين سنة. وقيل سنة 354هـ/ 965م، والأول أصحّ. وخلف ولدا وحيدا اسمه أحمد لم يبلغ مبلغ الرجال عند وفاته.

آثاره

صنف التجيبي كتابين في الفقه المالكي:

1 ـ كتاب النصائح، وهو كتاب مشهور متداول لدى أهل العلم آنذاك [القاضي عياض، 6/ 128؛ ابن خير الاشبيلي، فهرسته، 252؛ ابن فرحون، الديباج، 1/ 128؛ الذهبي، 16/ 108؛ حاجي خليفة 2/ 1467؛ مخلوف، شجرة النور، 1/ 90؛ كحالة، 1/ 229].

2 ـ كتاب معالم الطهارة والصلاة، ذكره القاضي عياض، وابن فرحون، وعنوانه عند ابن خير معالم الطهارة، وروى ابن خير الكتابين عن شيخه أبي محمد بن عتاب عن أبيه عن أبي بكر عبد الرحمن بن أحمد التجيبي، سمعهما منه سنة 406 هـ/ 1015 م، وحدثه بهما عن أبي إبراهيم مؤلفهما، ومازال الكتابان في عداد المفقودات، ولم نقف لهما على أثر.

المصادر والمراجع

● ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف، 1966م، 1/ 72؛ ● الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف، 1966م، 168؛ ● القاضي عياض، ترتيب المدارك، تح. سعيد أحمد أعراب، الرباط، 1981، 6/ 133126؛ ● ابن خير، فهرسة ما رواه عن شيوخه، بيروت 1979، 252؛ ● الضبي، بغية الملتمس، دار الكتاب العربي، 1967م، 235؛ ● ابن الحاج الفاسي، المدخل، القاهرة 1960، 1/ 255؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة 1972، 1/ 296 ـ 297؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. أكرم البوشي، بيروت 1986، 16/ 79 ـ 80 و107 ـ 108؛ ● النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، تح. ليفي بروفنسال، بيروت، 7 ـ 8، 73؛ ● المقري، نفح الطيب، تح. البقاعي، بيروت 1986، 1/ 359 ـ 361، 2/ 99؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، منشورات مكتبة المثنى بغداد،

2/ 1467، ووفاته خطأ سنة (311 هـ)؛ ● مخلوف، شجرة النور، دار الكتاب العربي بيروت، 1/ 90؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1957، 1/ 299.

د. ناطق صالح مطلوب
جامعة الموصل ـ العراق

التجيبي، أبو بكرعتيق بن خلف

(...هـ/...م ـ ...هـ/...م)

عتيق بن خلف التجيبي، أبو بكر.

فقيه مالكي، مؤرخ، حافظ، له عناية بالتقييد والضبط، أخذ عن جماعة من علماء القيروان أبرزهم القابسي وابن أبي زيد.

رحل إلى المشرق حيث لقي جماعة من العلماء وروى عنهم. ثم عاد إلى بلده بعلم وافر، وتصدّر للتدريس ونفع طلاب العلم.

عني بالتأليف عناية بالغة؛ وتتبّع أخبار العلماء والصالحين، وسجّل عنهما في تآليفه قطعة صالحة كانت مرجعاً لمن جاء بعده من المؤرخين وخاصة الدباغ في المعالم، فهو عمدته الأولى في ما كتبه عن علماء القيروان.

آثاره

ـ الافتخار: يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي لم تصلنا عن أعلام القيروان في الفقه والتصوّف والأدب والأخبار. وقد احتفظت لنا كتب التاريخ التي جاءت بعده بنصوص هامة تدلنا على غزارة مادته وسعة معلوماته، وممن اعتمده الدباغ في معالمه كما سبق ذكره، وكذا الحافظ ابن الأبّار في كتبه التاريخية المشهورة، وابن الشباط في صلة الشمط.

المصادر والمراجع

● معالم الايمان؛ ● ترتيب المدارك؛ ● شجرة النور الزكية، 1/ 106؛ ● كتاب العمر، 3؛ ● تراجم المؤلفين؛ ● النقائش العربية القيروانية.

بشير البكوش
مجلس النواب ـ تونس

التُّجِيْبي، أبو حفص حرملة بن يحيى

(166هـ/783م - 243هـ/858م)

حرملة بن يحيى بن عبد الله بن عمران بن قُراد التجيبي أبو حفص، أبو عبد الله، أبو نجيب، الزُّمَيْلِيُّ، المصريُّ، مولى سلمة بن مخرمة. والتجيبي نسبة إلى امرأة نسبت أولادها إليها. وقيل: هو اسم قبيلة نزلت مصر. أما الزُّمَيْلي فهي نسبة بني زُمَيْل، وهو بطن من تُجَيْب.

كان إماما، جليلا رفيع الشأن، فقيها، حافظًا للحديث النبوي الشريف [كحالة، ج3، ص190؛ اليافعي، ج2، ص143؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص174؛ ابن خلكان، ج2، ص65؛ الذهبي، ج1 ص487؛ ابن العماد الحنبلي، ج2، ص103؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص 214].

هو حفيد حرملة بن عمران التجيبي المتوفي في شهر صفر سنة ستين ومائة للهجرة الشريفة، ومولده كان سنة ثمانين للهجرة، وقد كان محمود السيرة موصوفًا بالثقة والأمانة ورجاحة العقل [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج2، ص229؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج3، ص190؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص435؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص 64].

كما كان معروفا بكثرة تعبده وسمو خلقه مما أكسبه ثقة واحترام الكثيرين، قال هارون بن سعيد: سمعت أشهب نظر إلى حرملة فقال: هذا خير أهل المسجد [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 9/ 567 - 568].

وُلد التُجيبي أبو حفص في سنة ست وستين ومائة للهجرة النبوية الشريفة، وتوفّي بمصر ليلة الخميس لتسع بقين من شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وقيل سنة أربع وأربعين ومائتين [اليافعي، ج2، ص143؛ كحالة، معجم المؤلّفين، ج3، ص190؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص174؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص435؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج2، ص230؛ ابن خلكان، وفيات الزعيان، ج2، ص 65].

وروى عنه عبد الله بن وهب مائة ألف حديث، وتفقّه بالإمام الشافعي وروى عنه. قيل: وكان أكثر أصحابه اختلافا إليه واقتباسا منه. كما روى عن أيوب بن سُوَيْد الرَّمْلي، وبشر بن بكر التِّنّيسيّ، وسعيد بن أبي مريم، وأبي صالح عبد الغفار بن داود الحراني، ويحيى بن عبد الله بن بكير، وغيرهم [اليافعي، مرآة الجنان، ج2، ص143؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج2، ص229؛ السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، ج2، ص 127].

قال الدوري: حرملة كان أعلم الناس بابن وهب. وقال أحمد بن صالح: صنف ابن وهب مائة ألف حديث وعشرين ألف حديث،

عند بعض الناس النصف يعني نفسه وعند بعض الناس منها الكل يعني حرملة. وقال العقيلي: عبد العزيز بن عمران المصري يقول: لقيت حرملة بعد موت الشافعي فقلت له أخرج إليّ فهرست كتب الشافعي، قال: فأخرجه إليّ، فقلت: ما سمعتم من هذه الكتب، قال: فسمى لي سبعة كتب أو ثمانية، فقال: هذا كل شيء عندنا عن الشافعي عرضًا وسماعًا. قال أبو عبد الله البوشنجي: فروى عنه الكتب كلّها سبعين كتابا أو أكثر وزاد أيضًا ما لم يصنفه الشافعي، وذلك أنه روى عنه فيما أخبرنا بعض أصحابنا كتاب الفرق بين السحر والنبوة وأنه قيل له في ذلك فقال: هذا تصنيف حفص الفرد وقد عرضته على الشافعي فرضيه [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج2، ص230 ـ 231].

قال عنه أبو عمر الكِنْديّ: كان حرملة فقيها ولم يكن بمصر أحد أكتب منه عن ابن وهْب، وذلك لأنّ ابن وهب أقام في منزلهم سنة وستة أشهر، مستخفيا من عبّاد لما طلبه يوليه قضاء مصر [السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، ج2، ص128؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 9/ 567؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، 1/ 472؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 486].

وقال محمد بن موسى الحَضْرَمِيّ: حديث ابن وهب كله عند حرملة، إلا حديثين. وقال هارون بن سعيد: سمعت أشهب، ونظر إلى حرملة فقال: هذا خيرُ أهلِ المسجد.

وأنصف ابن عدي فقال: قد تبحّرت حديث حرملة، وفتّشته الكثير، فلم أجد في حديثه ما يجب أن يُضعّف من أجله. قال السبكي: هذا هو الحق، وحرملة ثقة ثبْت إن شاء الله [السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، ج2، ص 128].

روى عنه الإمام مسلم بن الحجاج فأكثر في صحيحه من ذكره، والإمام ابن ماجة صاحب سنن ابن ماجة، وروى له الإمام النَّسائي بواسطة أحمد بن الهيثم الطرسوسي، وأبو دجانة أحمد بن إبراهيم المصري، وحفيده أحمد بن طاهر بن حرملة، وأبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان النسائي الكبير رفيق أبي حاتم في الرحلة، وإبراهيم بن الجنيد، وبقي بن مخلد، والحسن بن سفيان، وأبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، ومحمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني، وبقي بن مخلد، وخلق آخرون [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج2، ص229 ـ 230؛ ابن خلكان، أبو العباس، وفيات الأعيان، ج2، ص65؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 11/ 34].

توفّي حرملة ليلة الخميس لتسع بقين من شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين هجريا، ولم يرحل ولا عنده عن الحجازيين شيء [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 9/ 568؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 159؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 103؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 1582، 1630؛ البغدادي، هدية العارفين، 1/ 246].

آثاره

1 ـ المبسوط في فروع الشافعية؛

2 ـ المختصر في فروع الفقه الشافعي [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج3، ص190؛ اليافعي مرآة الجنان، ج2،

ص143؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص174؛ السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، ج2، ص128؛ ابن خلكان، أبو العباس، وفيات الأعيان، ج2، ص 164.

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، من كتاب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، دار الفكر؛ ● العسقلاني، ابن حجر، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى بمطبع مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند بمحروسة حيدر أباد الدكن، 1325هـ، دار الفكر، ط.أولى 1402هـ/ 1984م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين العَمْرَوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1417هـ/ 1997؛ ● الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح. علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1963م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992؛ ● السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، تح. محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط. أولى سنة 1382هـ/ 1964م؛ ● السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.أولى 1403هـ/ 1983م؛ ● الصَّفَدي، كتاب الوافي بالوفيات، اعتناء س.ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، الطبعة الثانية 1394هـ/ 1974م، واعتناء شكري فيصل، ط. 1401هـ/ 1981م؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية تح. الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسيات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، 1419هـ/ 1998م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، طبع دائرة المعرف النظامية، حيدر آباد، طبعة أولى 1338هـ.

د. نور الدين مختار الخادمي
د. صادق كرشيد
جامعة الزيتونة ـ تونس

التُّجيبي، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن

(540هـ/1145م ـ 610هـ/1213م)

أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التّجيبي المرسي الإشبيلي الأندلسي المالكي [كحالة، معجم المؤلفين، 10/ 145؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 2/ 164]. هو محدث تلمسان ونزيلها، حافظ، مقرئ، برع في الحديث النبوي؛ له تصانيف مفيدة، ولا سيما في الأربعينات النبوية. من العلماء بالتراجم والسير. كما كان عالما عاملا، عمدة، فاضلا.

ولد بلقنت (من أعمال مرسية) سنة أربعين وخمسمائة، ونشأ بأوريوله، وأخذ القراءات بمرسية عن جماعة، وتجول في بلاد الأندلس، ورحل إلى المشرق رحلة واسعة فأدى فريضة الحج، وأطال الإقامة هنالك، واستوسع في الرواية، وكتب العلم عن جماعة كثيرة، ثم نزل تلمسان، وحدّث بها، ورحل إليه الناس [كحالة، معجم المؤلفين، 10/ 145؛ البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، 6/ 108 ـ 109؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، 2/ 164؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 191؛ مخلوف، شجرة النور الزكية، 172].

سمع من نحو مائة وثلاثين شيخا، منهم أبو طاهر السلفي الذي صحبه واختص به وأكثر عنه، وحين وفاته دعا له بطول العمر حتى يؤخذ عنه ما أخذه عنه، كما دعا له وقال: تكون محدث المغرب إن شاء اللّه تعالى [الصفدي، الوافي بالوفيات، 1/ 234]. وممن سمع منهم كذلك، أبو محمد العثماني، وأخوه أبو الفضل، وأبو الحسن علي بن حميد الطرابلسي، وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي، وأبو جعفر بن مضا، وأبو عبد اللّه بن الفخار، وأبو زيد السهيلي.

وأخذ القراءات عن أبي عبد اللّه بن الفرس، وأحمد بن معطى اللّه، وأبي معيط وذلك في سنة خمس وستين وخمسمائة [ابن الجزري، غاية النهاية، 2/ 164؛ مخلوف، شجرة النور الزكية، 172].

أخذ عنه الكثير، وأجاز ابن الأبار بما رواه وألفه [مخلوف، شجرة، 172].

توفي بتلمسان في شهر جمادى الأولى سنة عشر وستمائة للهجرة النبوية الشريفة [كحالة، معجم المؤلفين، 10/ 145؛ الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، 3/ 234؛ ابن الجزري، غاية النهاية، 2/ 164].

آثاره

صنّف التُّجيبي عدة تصانيف في فن الحديث الشريف والتراجم والسير والمواعظ والرقائق وغير ذلك. من هذه التصانيف: 1 ـ معجم شيوخه (في مجلد كبير، رتبه على وفق حروف المعجم، وقد أكثر فيه من الآثار والحكايات

والأخبار)؛ 2 - معجم شيوخ شيخه الحافظ السلفي؛ 3 - أربعون حديثا في المواعظ؛ 4 - أربعون حديثا في الحب في الله؛ 5 - أربعون حديثا في فضل الصلاة على النبي؛ 6 - أربعون حديثا في الفقه وفضله. وجاء عنوانه في الوافي بالوفيات للصفدي (أربعون حديثا في الفقر وفضله)، [3/ 234]؛ 7 - فضائل الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان؛ 8 - فضل عشر ذي الحجة؛ 9 - الفوائد الصغرى في الحديث؛ 10 - مناقب شيخه السلفي؛ 11 - مناقب السبطين الحسن والحسين رضي الله عنهما؛ 12 - الفوائد الكبرى (في مجلد)؛ 13 - الترهيب (أو الترغيب) في الجهاد؛ 14 - المواعظ والرقائق (في سفرين) [البغدادي، هدية العارفين، 6/ 108 - 109؛ كحالة، معجم المؤلفين، 10/ 145؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 191؛ مخلوف، شجرة النور، 172]؛ 15 - مخطوط صغير يشتمل على بعض شيوخه وقراآته موجود بخزانة الرباط (3110 كتاني). وهو ناقص الأول والآخر [الزركلي، الأعلام، 6/ 191؛ مخلوف، شجرة النور، 172].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية بإستنبول سنة 1951، وأعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى - بغداد، د.ت؛ ● ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (المتوفى سنة 833 هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالث سنة 1402هـ/ 1982م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة، سنة سبتمبر 1992؛ ● الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، كتاب الوافي بالوفيات، اعتناء من ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، الطبعة الثانية سنة 1394هـ/ 1974م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بغداد، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر د.ت.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة - تونس

التّجيبي، أبو القاسم بن يوسف السبتي

(666هـ/1267م - 730هـ/1329م)

هو أبو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي بن القاسم التجيبي السبتي. أصله من بلنسية. ولد بسبتة سنة 666هـ/ 1267م ونشأ بها [فهرس الفهارس، 1/ 265].

حفظ القرآن بمسقط رأسه على الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الورياغلي القصري، المعروف بابن صاف رزقه [برنامج، 16]، وتفرغ لدراسة العلوم بها على كبار علمائها والوافدين عليها من الأندلس، منهم أبو الحسن بن أبي الربيع الإشبيلي إمام نحاة العصر المتوفى سنة 688هـ/ 1289م الذي أجازه في القراءات القرآنية.

وتخصص في دراسة الحديث وروايته أكثر من باقي العلوم فلازم شيوخه ما بين سنة 686 و694هـ/ 1287 و1294م. وقد وردت الإشارة إلى زيارته لفاس في فهرسة السراج، دون ذكر أسماء العلماء الذين أخذ عنهم بها.

وكان يراسل علماء الأندلس والمشرق ويطلب إجازاتهم قبل رحلته. ومنهم أبو جعفر بن الزبير [برنامجه، 133 - 139]. وكانت له رحلة علمية إلى الاندلس، ثم المشرق وأخذ عن شيوخ العلم بها. فقد زار الاندلس سنة 694هـ/ 1294م، وأخذ بمالقة على أبي عبد الله بن عياش، وأبي الحسن علي بن يوسف الصنهاجي المعروف بابن مصامد؛ الذي أخذ عنه الموطأ [برنامجه، 59].

بينما أخذ علوم التفسير بالمرية على أبي عبد الله محمد بن سعيد القيسي المرّوي [برنامجه، 47]. وكانت له رحلة مشرقية دامت زهاء سنتين، زار خلالها عددا من المدن وأخذ عن علمائها. وفي بجاية، أخذ عن ابن رحيمة الكناني المتوفى سنة 699هـ/ 1299م، وأبي علي ناصر الدين منصور المشدالي المتوفى سنة 731هـ/ 1330م. وفي تونس أخذ عن أبي عبد الله الخلاسي البلنسي نزيل تونس المتوفى سنة 697هـ/ 1297م. وبمصر أخذ على أبي الحسن الغرافي الإسكندري المتوفى سنة 704هـ/ 1304م، وعبد المؤمن بن خلف الدمياطي المعروف بابن الجامد المتوفى سنة 705هـ/ 1305م، وابن دقيق العيد المشهور، المتوفى سنة 702هـ/ 1302م. وبالشام أخذ عن العلامة الشهير شيخ الإسلام ابن تيمية، وبمكة عن إبراهيم الرضى الطبري المتوفى سنة 725هـ/ 1324م.

وقد زاد عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم على المائة شيخ.

وبعد هذه الرحلة العلمية الموفقة عاد التجيبي إلى مسقط رأسه سبتة، ولقي بها أحد شيوخه المتأخرين، وهو أبو بكر القلوسي الاصطبوشي المتوفى سنة 707هـ/ 1307م.

وتصدر بها للتدريس والتأليف، وكانت له علاقات طيبة مع السلطان الذي طلب منه جمع «أربعين حديثا في الجهاد والحث عليه»، وذلك أثناء مواجهته للمد المسيحي، والحرب التي كان يشنها الإسبان على أطراف الأندلس مستغلين في ذلك المشاكل الداخلية التي كان يعاني منها المرينيون وما ظهر على المسلمين من فتور وجمود، وخصوصا بعد هزيمة العُقاب في بداية القرن السابع الهجري.

وقد اشتهر التجيبي بمكانته العلمية البارزة في عصره، خاصة في علوم الحديث رواية ودراية، قال عنه الذهبي: «خرجت له مائة حديث عن مائة شيخ، وله فضيلة جيدة»، [الدرر الكامنة لابن حجر، 3/ 240].

تصدر للتدريس بسبتة، وقصده طلبة العلم من المغرب والأندلس، فتخرج على يديه الكثيرون، منهم: أبو عبد الله محمد بن سعيد الرعيني الفاسي؛ وأبو سعيد محمد بن عبد المهيمن الحضرمي؛ وأبو الحجاج المنتشاقري؛ وابن خميس الجزيري؛ وأبو عبد الله الأنصاري الشديد [الإحاطة، 3/ 185 ـ 199، 4/ 388].

قال ابن حجر نقلا عن الذهبي في المعجم الصغير: «أظنه بقي إلى نحو الثلاثين وسبعمائة» [الدرر الكامنة، 3/ 240]، وفعلا فقد توفي التجيبي سنة 730هـ/ 1329م.

آثاره

خلف التجيبي عددا لا يستهان به من المؤلفات، أهمها:

ا ـ فهرسته المسماة: برنامج التجيبي، نشر بتونس سنة 1981 بتحقيق عبد الحفيظ منصور، وهو يشبه برنامج ابن خير في اعتماد مادته على المرويات، إلا أنه يختلف عنه في اشتراط التجيبي حصولها عن طريق القراءة أو السماع خلافا لغيره ممن يذكرون المرويات بالإجازة العامة أو الخاصة. وقد بوّب التجيبي مروياته بحسب العلوم المنتمية إليها، وهي كالتالي:

أ ـ مرويات في القرآن وعلومه: عرض فيها 16 مصنفا في القراءات والضبط والتجويد والتفسير وإعراب القرآن؛

ب ـ مرويات في الحديث وعلومه: ذكر فيها زهاء 180 مصنفا في علوم الحديث والسيرة النبوية والمغازي ما بين مؤلفات مشرقية وأندلسية ومغربية. وقد ظهر من خلال هذا العدد الكبير من الكتب علو كعبه في الثقافة الحديثية، إذ كان كثير الوقوف عند المؤلفات لمناقشة أسانيدها وضبط أسمائها، مع الإكثار من الفوائد والاستطرادات؛

ت ـ مروياته في كتب الزهد والتصوف والوصايا: ذكر فيها 19 مصنفا أغلبها من تأليف الأندلسيين والمغاربة؛

ث ـ مروياته في المعاجم والمشيخات والفهارس والبرامج: أورد فيها 28 مصنفا مرتبة ترتيبا موضوعيا؛

ج ـ مرويات الفقه وأصوله: عرض منها 21 مصنفا معظمها يخص الفقه المالكي، جمع فيها بين كتب الفقه العامة، وعلم الكلام وأصول الدين؛

ح ـ مروياته في مصنفات الرجال والتاريخ: عرض فيها 19 مصنفا أغلبها من تأليف علماء

الغرب الإسلامي وبعضها خاص بالتعريف برواة الحديث؛

خ ـ مروياته في الفرائض: أورد فيها ستة مصنفات ما بين أراجيز ومؤلفات لمغاربة ومشارقة؛

د ـ مروياته في اللغة والأدب: ذكر فيها 22 مصنفا، منها قصائد في مدح الرسول، ومنظومات، ومؤلفات أدبية معروفة، ككتب ابن قتيبة والمبرد وابن جني وأشعار الجاهليين ومقامات الحريري وغيرها؛

ذ ـ مروياته في النحو: ذكر فيها خمسة كتب هي أهم المصنفات المعتمدة في عصره في هذا العلم، وعلى رأسها الكتاب لسيبويه [فهارس علماء المغرب، 231 ـ 249]. وقد روى برنامج التجيبي عددًا من المهتمين بالفهارس ورواية العلوم منهم محمد عبد الحي الكتاني الذي قال إنه يرويها عن أبي زكرياء السراج، عن أبي عبد الله محمد بن سعيد الرعيني... إلى المؤلف، [فهرس الفهارس، 1/ 265]؛

2 ـ رحلة التجيبي المسماة مستفاد الرحلة والاغتراب في ثلاثة مجلدات، نُشر قسم منها وهو المتعلق بالرحلة بين تونس والحجاز، بتونس سنة 1975، بتحقيق عبد الحفيظ منصور. وهي رحلة حجازية تشبه رحلة ابن رشيد، انطلق فيها المؤلف من المرية، ووصف مراحل الحج والمدن التي زارها وما أخذه بها من علوم، وما لقيه من شيوخ العلم. وأكثر فيها من إيراد روايات الحديث وأسانيده لذلك جاءت ضخمة الحجم متعددة الأجزاء. وقد تميزت بالحس النقدي لمؤلفها الذي كان دقيق الملاحظة شديد الانتقاد لما يراه مستهجنا من عادات ومعاملات وروايات وأحداث. وقد قال ابن حجر عن هذه الرحلة: «وقفت على رحلته وهي في ثلاثة مجلدات ضخمة، حذا فيها حذو ابن رشيد، وزاد عليها... بتضمين الرحلة مشيخة له مستوعبة بذكر ترجمة الشيخ وما يمكن من مروياته، ويبين ما سمعه منه بأسانيده، ويخرج عنه بعد ذلك شيئا من حديثه وفوائده وإنشاداته، ويفعل ذلك في كل بلد دخلها»، [الدرر الكامنة، 3/ 240]؛ 3 ـ أربعون حديثا في فضل الجهاد والحث عليه، جمعها للسلطان المريني، وبطلب منه [بلغة الأمنية، 173]؛ 4 ـ تأليف في الأدب، [برنامجه، 128]؛ 5 ـ استدراكات على كتاب الذيل والتكملة، وهي مجموعة من التراجم أضافها بهامش الكتاب من نسخته، مخطوطة دار الكتب المصرية، 61؛ والمكتبة الوطنية بباريس، 2156 [فهارس علماء المغرب، 231].

المصادر والمراجع

● الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تح. محمد عبد الله عنان، د.ت؛ ● برنامج التجيبي، أبو القاسم بن يوسف السبتي التجيبي، تح. عبد الحفيظ منصور، تونس سنة 1981؛ ● الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، بيروت، دار الجيل؛ ● فهارس علماء المغرب، محمد المرابط الترغي، منشورات كلية الآداب بتطوان رقم 2، 1999، دار النجاح الجديدة؛ ● فهرس

الفهارس والإثبات، محمد عبد الحي الكتاني، تح. إحسان عباس، ط. بيروت 1982، دار الغرب الاسلامي؛ ● مستفاد الرحلة والاغتراب، أبو القاسم بن يوسف السبتي التجيبي، تح. عبد الحفيظ منصور، تونس سنة 1975.

د. حسن جلاب
كلية اللغة العربية ـ مراكش

■ التجيبي التّونسي، أبو عمر خالد بن أبي عمران

(ت حوالي 127هـ/745م) ■ ■ ■

هو خالد بن أبي عمران التجيبي التّونسي، نسبة إلى تجيب من جهة الولاء. كنيته أبو عمر، وقيل أبو محمد. محدّث، وفقيه، وشاهد مغازي كثيرة بإفريقيّة.

قدم أبوه مع جيش حسّان بن النّعمان، وكان ممّن صحب قديما عبد الله بن سلام الصحابي في زمان عثمان، واستقرّ بمدينة تونس.

قرأ خالد على أبيه وعلى حنش الصنعاني نزيل إفريقيّة. ثمّ رحل إلى المشرق وروى عن عروة بن الزبير، ووهب بن منبه، ونافع مولى ابن عمر، وسعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، والقاسم أبي عبد الرحمان الشامي، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وسليمان بن مهران الأعمش الّذي يعتبر من أقرانه. إلاّ أنّ تفقّهه كان خاصّة عن مدرسة المدينة الّتي يمثّلها آنذاك الفقهاء السّبعة. فقد أخذ عن سالم بن عبد اللّه بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسليمان بن يسار.

وروى عنه غير واحد من كبار الأئمّة مثل يحيى بن سعيد الأنصاري، وعبيد اللّه بن أبي جعفر، والليث بن سعد، وأبي شجاع سعيد بن يزيد القتباني، وعبد اللّه بن زحر، وخلاد بن يحيى، وعمرو بن الحرث، وعبد اللّه بن لهيعة، وعبد القاهر بن عبد اللّه، وحيوة بن شريح. وروى له مسلم في صحيحه والتّرمذي والنّسائي وأبو داود؛ كما روى له مالك بن أنس في الموطأ بسند يحيى بن سعيد الأنصاري.

أخذ عنه بإفريقيّة عبد الرحمان بن زياد بن أنعم، وعبد الملك بن أبي كريمة، وعبد اللّه بن غانم، وعلي بن زياد التّونسي.

أجمعت المصادر على ثقته في نقل الحديث. قال فيه ابن سعد: «كان ثقة إن شاء اللّه، وكان لا يدلّس»؛ ونعته الذهبي بالصّدوق.

أكّد أبو العرب أيضا عناية التجيبي بالفقه رغم صعوبة التّميز بين الفقه والحديث آنذاك. قال فيه: «كان عالم أهل المغرب وفقيههم»، بينما قال فيه ابن يونس: «كان فقيه أهل المغرب ومفتي أهل مصر والمغرب»، وهو دليل على مدى توسّع شهرته شرقا وغربا.

والرّاجح أنّه تفقّه خاصّة على أيدي فقهاء المدينة. فقد كلّفه أهل إفريقيّة بأن يسأل لهم

علماء المدينة في مسائل استعصت عليهم أجوبتها. فعرضها على سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، فأبيا أن يجيباه، فقال لهما: «أنا بموضع جفاء في هذا المغرب، وإنّهم حمّلوني هذه المسائل، وقالوا لي: إنّك تقدم المدينة وبها أبناء أصحاب النبيّ عليه السّلام، فسلهم؛ وإنّكما إن لم تفعلا، كانت حجّة لهم فما شئتما». فقال القاسم: «سل»، فسألهما فأجاباه. واتّجه بعد ذلك إلى سليمان بن يسار، فجمع عنه المسائل، فاجتمعت له من هؤلاء الثّلاثة حصيلة وافرة من قضايا الفقه وأحكامه، دوّنها في كتاب.

ويعتبرالتجيبي من الروّاد في إفريقيّة في إدخال فقه المدينة عن ذلك الثّالوث. وقد نسب إليه الشّيخ محمد الشاذلي النيفر نشر العلم هناك قبل دخول بعثة عمر بن عبد العزيز إليها. لذلك اعتبره ذلك الباحث «من أوّل المؤسّسين للمدرسة الإسلاميّة» يعني مدرسة مدينة تونس. وبفضله تفوّقت تونس علميّا على القيروان. وتواصل ذلك التّفوّق بفضل أحد تلاميذه، نعني علي بن زياد. فقد كان الطّلبة ينتقلون من القيروان إلى تونس للتعلّم عليه.

عادلت تونس القيروان عسكريّا وربّما نافستها. فقد كانت تقيم بها حامية عسكريّة قويّة تتكوّن أساسا من الجند العربي، ويتولّى رئاستها سنة 102هـ/ 721م محمد بن أوس الأنصاري. والرّاجح أنّ التجيبي كان من المشاركين في نشاطها العسكري. يؤيّد ذلك ما ذكره المالكي. فقد كانت للتجيبي «مقامات في الدّين شهد بها مغازي كثيرة، وأبلى فيها بلاء كثيرا».

وعندما قتل والي إفريقيّة يزيد بن أبي مسلم سنة 102هـ/ 721م، استنجد أهل القيروان بابن أوس وعيّنوه واليا على إفريقيّة. وقد كلّف ابن أوس، على الأرجح، التجيبي بقيادة سفارة إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك تعلمه بما حدث بإفريقيّة. «فلمّا وصل إليه قرّبه (الخليفة) وأدنى مجلسه واستشاره فيمن يوليه، فأشار عليه، فقبل قوله وولّى الّذي أشار به». وبذلك ولّي إفريقيّة بشر بن صفوان. والرّاجح أنّ هذا الحدث جعل التجيبي مرهوب الجانب لدى بشر بن صفوان، ولدى من أتى بعده من الولاة. وفي هذا الإطار تأتي محاولة الوالي عبيد الله بن الحبحاب ليعيّنه على القضاء.

فقد ذكر الذّهبي وابن العماد الحنبلي أنّ التجيبي ولّي قضاء إفريقيّة، في حين أنّ الخشني لم يذكره ضمن قضاة القيروان. ويحتمل أن ارتقى إلى ذلك المنصب، على الأقلّ خلال مدّة وجيزة. وربّما يؤيّد ذلك مساهمته في محاربة الصفريّة يوم القرن. ويقال إنّه قتل قائدهم ابن عم عبد الواحد الزّناتي الصفري.

ومهما يكن من أمر، فالرّاجح أنّ التجيبي كان موصوفا بالورع عند تعامله مع السّلطان. من ذلك أنّه رفض هديّة بعثتها إليه أمّ ولد موسى بن نصير. أكّدت المصادر أيضا ميله إلى التّعبّد. فقد وصفه الذّهبي بأنّة «فقيه عابد»؛ بينما قال فيه المالكي إنّه «كان من العلماء الرّاسخين في العلم، والعباد المجتهدين، اشتهرت إمامته بالمشرق والمغرب».

ذكر أيضا المالكي «أنّة كان مشهورا بإجابة الدّعوة». كما عرفنا بدعاء «كان يدعو به لا يكاد يفارقه». وقد حفظه عنه عباد إفريقيّة. وقد شاهد المالكي نصّ ذلك الدّعاء بالمنستير بخطّ محمد السبائي.

توفّي التجيبي بمدينة تونس حوالي سنة 127هـ/ 745م، وقيل سنة 125هـ/ 743م أو سنة 129هـ/ 747م.

آثاره

نسب إليه أبو العرب كتابا «كبيرا»، يحتوي مجموع الأسئلة الّتي كان أهل إفريقيّة كلّفوه بطرحها على تابعي المدينة، نعني سالما والقاسم وسليمان بن يسار. لم يصلنا هذا الكتاب، إلاّ أنّ أبا العرب ذكر أنّ عبد الله بن أبي زكريّاء الحفري كان حدّثه به. وقد أخذه الحفري عن أبيه عن عبد الملك بن أبي كريمة عن خالد بن أبي عمران. ويذكر أنّ كثيرا من تلك المسائل أدخلها سحنون في «المدوّنة»، وهو أمر استبعده ميكلوش موراني. فهو يرى أنّ تلك المسائل الّتي في «المدوّنة» ترجع إلى رواية عبد اللّه بن وهب الّذي روى عنه سحنون موطّأه وجامعه بالقيروان.

المصادر والمراجع

● ابن سعد، الطّبقات الكبرى، دار صادر، دار بيروت، بيروت 1377هـ/ 1958م، 7/ 521؛ ● أبو العرب، طبقات علماء إفريقيّة وتونس، تح. علي الشّابي ونعيم حسن اليافي، تونس، 1968م، 212 ـ 215؛ ● المالكي، رياض النّفوس، تح. بشير البكوش، بيروت 1983م، 1/ 162 ـ 166؛ ● القاضي عياض، ترتيب المدارك، تح. أحمد بكير محمود، بيروت ـ طرابلس، 1976م، 1/ 316 ـ 326؛ ● ابن حجر العسقلاني، تهذيب التّهذيب، دار صادر، مطبعة حيدر آباد، الدكن، 1325هـ/ 1907م، 3/ 110 ـ 111؛ ● الذهبي، شمس الدين، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السّتّة، ط 1، القاهرة 1392هـ/ 1972م، 1/ 272؛ ● السّيوطي، جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط. 1، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، 1387هـ/ 1967 م، 1/ 299؛ ● الخزرجي، صفي الدين، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرّجال، ط. 2، حلب ـ بيروت، 1391هـ/ 1971م، 102؛ ● ابن العماد، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، بيروت، د. ت، 1/ 176؛ ● النيفر، محمد الشاذلي، مقدّمة موطأ الإمام مالك برواية علي بن زياد، ط. 5، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1984م، 17 ـ 28؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، الإمام المازري، دار الكتب الشّرقيّة، تونس، د. ت، 15 ـ 17؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلّفين التّونسيّين، بيروت 1984 م، 1/ 222 ـ 223؛ ● ميكلوش، موراني، رواية كتب أهل المشرق بالقيروان في القرن الثّالث للهجرة، ضمن محاضرات ملتقى القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتّى نهاية القرن الخامس للهجرة، ط. 1، القيروان، 1995 م، 205 ـ 228؛ ● موسوعة مدينة تونس، أشرف عليها توفيق بشروش، انظر مقالنا تحت مادّة «مذهب»، تونس 1999م، 417 ـ 423.

د. نجم الدّين الهنتاتي
جامعة تونس

التحتاني قطب الدين الرازي، محمد بن محمد

(694هـ/1294م ـ 766هـ/1364م)

محمد بن محمد أبو عبد الله البويهي الرازي المعروف بقطب الدين التحتاني الشافعي. الفقيه والمتكلّم، من علماء الإمامية في العلوم العقلية والشرعية، وصاحب التصانيف في الفلسفة والمنطق.

لا نعرف الكثير عن حياته سوى أنّه ولد ونشأ بدامين من أعمال الريّ بفارس، وتتلمذ على العلاّمة جمال الدين بن مطهّر الحلّي وكتب بيده قواعد العلاّمة وقرأها عليه. وقدم إلى دمشق سنة 763 هـ/ 1361 م، وأقام بها، وأخذ عن العضد، وسكن في المدرسة الظاهرية. وتوفّي بدمشق سنة 766 هـ/ 1364م ودفن بالصالحيّة.

آثاره

1 ـ تحرير القواعد المنطقيّة في شرح الرسالة الشمسية، وعرفت بالرّسالة القطبية، والشمسية وهو المتن المختصر الشهير في المنطق لنجم الدين عمر بن علي القزويني الكاتبي تلميذ نصير الدين الطوسي. ألّفه التحتاني سنة 753هـ/ 1352م. وقد كان مشهورا متداولا في التدريس. طبع بمطبعة فرج الله الكردي، سنة 1325هـ. وعلى هذا الشرح حاشية للسيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفّى سنة 816هـ/ 1413م [حاجي خليفة، كشف الظنون، 1063]؛ 2 ـ تحرير المحصورات؛ 3 ـ تحفة الاشراف في حاشية الكشّاف، أي الكشاف في حقائق التنزيل للزمخشري (المتوفى سنة 538هـ/ 1143م)؛ 4 ـ درّة الأصداف على الكشّاف، وهي حاشية على الكشّاف؛ 5 ـ رسالة أقوى وأشرف في الاستدلال؛ 6 ـ شرح الحاوي في فروع الفقه الشافعي، لم يكمله. والمتن هو الحاوي الصغير في الفروع لنجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني الشافعي المتوفى سنة 665 هـ/ 1266م. ولم يكمل التحتاني هذا الشرح [حاجي خليفة، كشف الظنون، 625 ـ 626]؛ 7 ـ رسالة في الكلّيات وتحقيقها، رتّبها على مقدّمة وسبعة فصول وخاتمة [حاجي خليفة، كشف الظنون، 886]؛ 8 ـ رسالة في تحقيق معنى التصوّر والتصديق، أو رسالة في التصوّرات والتصديقات في المنطق. طبع بتونس سنة 1281هـ؛ وعليها شروح عديدة [حاجي خليفة، كشف الظنون، 853؛ وبروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 281 ـ 282]؛ 9 ـ رسالة في النفس الناطقة؛ 10 ـ شرح الكشاف إلى سور الأنبياء، يقول حاجي خليفة [كشف الظنون، 1478] عن هذا الشرح: "وعليه اعتراضات أوردها جمال الدين محمد بن محمد الأقسرايي. وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبّار . . . ذكر فيها أنّ شرح الكشاف للعلامة قطب الدين الرازي

كتاب جليل الشأن، لكن المولى جمال الدين محمد بن محمد الأقسرايي اعترض عليه اعتراضات فكتبت الأجوبة وسمّيتها بالمحاكمات... وأمّا شرح الرّازي فلأنّه غير تامّ وبتقديره هو خلاصة الطيبي لم يزد عليه سوى التنقيح في كلّ باب واعتراضات تنادي بأنّ موردها ليس من رجال هذا الكتاب»؛ 11 ـ شرح مفتاح العلوم للسكّاكي؛ 12 ـ غرّة التاج [حاجي خليفة، كشف الظنون، 1197]؛ 13 ـ لطائف الأسرار، في المنطق [البغدادي، ايضاح المكنون، 2/ 403]؛ 14 ـ لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار في المنطق. ومطالع الأنوار للقاضي سراج الدين محمود الأرموي المتوفى سنة 682هـ/ 1283م «شرحه قطب الدين... التحتاني لغياث الدين الوزير فصار عظيم القدر كثير النفع... أوّله الحمد للّه فياض ذوارف العوارف إلخ وسمّاه لوامع الأسرار» [حاجي خليفة، كشف الظنون، 1715]. وقد نشر «لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار» مع «مطالع الأنوار» بمطبعة البسناوي، بالقاهرة، 1303هـ/ 1885م؛ 15 ـ المحاكمات بين شارحَي الإشارات (والتنبيهات) لابن سينا. وهي محاكمة أقامها التحتاني بالأساس بين شارحي الإشارات وهما الإمام فخر الدين الرازي (المتوفى سنة 606 هـ/ 1209م) والخواجة نصير الدين الطوسي (المتوفى سنة 676هـ/ 1277م). وقد اعترض الفخر الرازي على أقوال ابن سينا في الإشارات، وأجاب الطوسي في شرحه على بعض اعتراضات الرازي. وألّف التحتاني محاكمته المشهورة بين شارحي الإشارات سنة 557هـ/ 1161م. «كتبها بإشارة من العلامة قطب الدين الشيرازي لمّا عرض عليه ماله من الأبحاث والاعتراضات على كلام الإمام». وللمولى شمس الدين أحمد بن سليمان الشهير بابن كمال باشا المتوفى سنة 940هـ/ 1533م حاشية على محاكمات القطب [حاجي خليفة، كشف الظنون، 95].

المصادر والمراجع

● ابن عماد، شذرات الذهب، 6/ 207؛ ● السبكي، طبقات الشافعيّة، 6/ 31؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، مطبعة السعادة، مصر، 1326هـ، 339؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 11/ 87؛ الخوانساري، روضات الجنات، 530؛ ● ابن حجر، الدرر الكامنة، 4/ 339؛ ● العاملي، أعيان الشيعة، 45، 343؛ ● طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ط. حيدر آباد الدكن، 1/ 246؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، إستنبول، 1941؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، إستنبول، سنة 1955، 2/ 163؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون، استنبول، 1945؛ ● الزركلي، الأعلام، 7/ 268؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1380هـ/ 1960م، 11/ 215؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربية، القاهرة، 1928، 918 ـ 919؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية بإشراف محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1995، القسم السابع (12)، 281 ـ 283؛ ● ريشر، نيقولا، تطور المنطق العربي، ترجمة

ودراسة وتعليق محمد مهران، دار المعارف، 1985، 480 ـ 483.

- Brockelmann (Carl), Geschichte der arabischen Litteratur, Leiden, Brill, II, 1944, p.271 (209), Suppl. II. Brill, 1938, p. 293

د. مقداد عرفة
الجامعة التونسية

■ التِّدْلاوي، الحسن بن رحال بن أحمد

(ت 1140هـ/1728م)

الحسن بن رحال بن أحمد بن علي التدلاوي، ثم المعداني، أبو علي، من فقهاء المالكية، من أهل المغرب الأقصى. ويُدعى بصاعقة العلوم. عالم مشارك في أنواع من العلوم. إمام، علامة، مفضال، نظار، خاتمة العلماء المحققين الأخيار، كان من أهل الفضل وقضاة العدل.

تولى القضاء بالدار البيضاء وبفاس، ونُحي عنه. ثم ولي في آخر أمره قضاء مكناسة واستمرّ إلى أن توفي فيها في 3 رجب 1140هـ [الزركلي، الأعلام، 2/ 190؛ كحالة، معجم المؤلفين، 3/ 224].

أخذ عن الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي، والقاضي ابن سوده، والمجاصي، واليوسي، وغيرهم [مخلوف، شجرة النور الزكية، 334، ترجمة رقم 131].

أخذ عنه العلم والفقه التادلي، وابن عبد الصادق، وجماعة آخرون [مخلوف، شجرة النور الزكية، 334، ترجمة رقم 1313].

■ آثاره

1 ـ شرح مختصر خليل، وهو مخطوط، ويقع في خمسة عشر جزءًا، ومختصر خليل هو كتاب في فروع الفقه المالكي؛ 2 ـ حاشية على شرح الخرشي، مخطوط، ويتكوّن من أربعة مجلدات؛ 3 ـ حاشية على شرح الشيخ ميارة، مطبوع، ويقع في أربعة مجلّدات ضخام؛ 4 ـ الإرفاق في مسائل الاستحقاق؛ 5 ـ حاشية على شرح تحفة ابن عاصم؛ 6 ـ اختصار شرح الشيخ الاجهوري على مختصر خليل؛ 7 ـ يتيمة العقدين في منافع البدين؛ 8 ـ تأليف في الأدعية؛ 9 ـ رفع الالتباس على الخماس، في المزارعة

■ المصادر والمراجع

- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992، 2/ 190؛
- كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بغداد، بيروت؛ ودار إحياء

التراث العربي، بيروت، لبنان، 3/ 224؛ ● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، 334، ترجمة رقم 1313.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

التدمري، تاج الدين إسحاق بن إبراهيم بن أحمد

(ت 833هـ/1430م)

تاج الدين إسحاق بن إبراهيم بن أحمد بن كامل التدمري، ولادته مجهولة التاريخ؛ كان أحد فضلاء الشافعيّة، من أسرة عرفت بالزهد، انتقل إلى مسجد إبراهيم الخليل بفلسطين وصار خطيبا له، توفّي ليلة التاسع من رمضان 833 هـ.

آثاره

ألّف إسحاق كتاب «مثير الغرام في فضل زيارة سيدنا الخليل عليه السلام»، استهلّه بقوله: «باسم اللّه الرحمن الرحيم، اللّهم يسّر وأعن، الحمد للّه ربّ العالمين وصلواته على سيّدنا محمد وعلى سيّدنا أبيه إبراهيم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وسائر الصالحين» أوله فهرس الكتاب وفيه 27 فصلا:

ـ في نسب إبراهيم ومبلغ عمره عليه السلام، ـ في مولده عليه السلام؛ ـ في خروجه عليه السلام من السرب ومحاجته قومه وألقيه في النار؛ ـ هجرته؛ ـ ذكر مولد إسماعيل (عليه السلام) وهجرته مع أبيه (عليه السلام) وقصّة زمزم؛ ـ في بدء بناء الكعبة وصفتها، ومن بناها إلى وقتنا هذا؛ ـ في قصّة ذبح إسماعيل (عليه السلام) وهجرته مع أبيه (عليه السلام) وقصّة زمزم؛ ـ في قصّة إسحاق (عليه السلام) وما ورد من الخلاف في ذبحه؛ ـ في البشرى به عليه السلام وقصّة أبيه مع الملائكة؛ ـ في قصّة يعقوب عليه السلام ومبلغ عمره ووفاته؛ ـ في قصّة يوسف وصفته وعمره؛ ـ في ذكر أولاد سيدنا الخليل (عليه السلام) وزوجاته وزوجات أولاده وأولادهم (عليه السلام)؛ ـ في ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام؛ ـ في ذكر المغارة التي فيها القبور الشريفة، ومن فيها من الأنبياء وصفتهم وصفة قبورهم؛ ـ في بناء سليمان بن داود (عليه السلام) الحيز على المغارة بوحي من اللّه وذكر سليمان؛ ـ في رؤيا مقامات الصالحين والأولياء فيما تقدّم من صفات الأنبياء (عليه السلام) وصفة قبورهم؛ ـ في قبر يوسف الصدّيق (عليه السلام) وحمل تابوته من مصر ودفنه بقرب آبائه إلخ . . .

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون، 1598؛
● الزركلي، خير الدين، الأعلام؛

● الحنبلي، الأنس، 483؛ ● كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين؛ ● الموسوعة الفلسطينيّة، مج 2، ط 1، 1984، 364 ـ 366؛ ● النجار، عبد الوهاب، قصص الأنبياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، فهرس دار الكتب المصريّة، التاريخ، ج 5، القاهرة 1348هـ؛ ● موسوعة الجغرافيا الإسلاميّة، مج 74، 2/ 353، إصدار معهد العلوم العربيّة الإسلاميّة، فؤاد سزكين، فرانكفورت، ألمانيا.

د. محمود عصام الميداني
جامعة دمشق ـ سوريا

■ التُّدميري، أبو العباس أحمد

(ت 555هـ/ 1160م) ■ ■ ■

هو أبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميري.

أصله من تدمير (توجد بشرقي قرطبة)، ونشأ بالمرية، وحمل إلى مدينة مرّاكش فتولى تأديب أبناء السلطان فيها، وسكن بجاية وقتا. [الزركلي، الأعلام، 1/ 143؛ كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 260].

كان عالما بالعربية واللغات، عارفا بالآداب، له حظ من قرض الشعر، [ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، 1/ 65].

توفي بمدينة فاس في عودته من المهدية بعد أن حضر فتحها سنة خمس وخمسين وخمسمائة [كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 260، الزركلي، الأعلام، 1/ 143، ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، 1/ 65].

روى عن أبي علي الصّدفي، وأبي محمد بن عطية، وأبي الحجاج بن يسعون، وأبي محمد الدبيري، وأبي عبد الله محمد بن عمر، وأبي الوليد بن الدّباغ [ابن الأبار، التكملة كتاب الصلة، 1/ 65].

■ آثاره

من مؤلفاته: 1 ـ التوطئة في النحو، أو النوطئة في العربية؛ 2 ـ شفاء الصدور في شرح أبيات الجمل للزجاجي، وهو كتاب مفيد كبير الحجم، كثير الإمتاع؛ 3 ـ المختزل، مختصر شفاء الصدور؛ 4 ـ الفوائد والفرائد؛ 5 ـ شرح كتاب الفصيح لثعلب الكوفي، في اللغة؛ 6 ـ شرح شواهد الغريب للعزيزي، أو التصريح لشرح غريب الفصيح (مخطوط في نور عثمانية بإستنبول رقم 3992)؛ 7 ـ نظم القرطين وضم أشعار السقطين، جمع فيه أشعار الكامل للمبرد والنوادر لأبي علي البغدادي، وقد ألفه لمحمد بن علي بن حمدون وزير بني الناصر الصنهاجيين [كحالة، معجم المؤلفين،

1/ 260؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 143؛ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، 1/ 165.

المصادر والمراجع

● ابن الأبار (595هـ - 659هـ)، التكملة لكتاب الصلة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، العراق، سنة 1956م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (طبعة عاشرة سنة سبتمبر 1992)؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بغداد، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة - تونس

الترجمان، عبد الله

(758هـ/1357م - 832هـ/1430م)

اسمه الأصلي فراي آنسالمو ترمودا (Fray Anselmo Turmeda)، قسّيس إسباني، ولد بمدينة بالما (Palma) بجزيرة ميّورقة من جزر البالبار شرقيّ الأندلس حوالي سنة 758هـ/ 1357م، وهاجر إلى تونس حيث أسلم بحضرة السلطان أبي العبّاس أحمد بن المستنصر الحفصي (ت 796هـ/ 1393م)، وخدمه وخدم ابنه أبا فارس عبد العزيز (ت 837هـ/ 1433م) إلى وفاته بها حوالي سنة 832هـ/ 1430م. وقبره المعروف بباب سوق السرّاجين والمرمّم بعناية بلديّة بالما الميّورقيّة وبحجر مجلوب منها.

اشتهر الترجمان باسم سيدي تحفة نسبة إلى كتابه «تحفة الأريب في الردّ على أهل الصّليب». ففي الفصلين الأوّل والثاني استعرض حياته باختصار قائلا: «اعلموا - رحمكم اللّه - أنّ أصلي من مدينة ميورقة - أعادها اللّه تعالى للإسلام - (. . .)، والمدينة تسمّى باسم جزيرة ميورقة (. . .). وكان والدي محسوبا من أهل الحاضرة في ميورقة، ولم يكن له ولد غيري. ولمّا بلغت ستّ سنين من عمري سلّمني إلى معلّم من القسّيسين، فقرأت عليه الإنجيل حتّى حفظت أكثر من شطره في مدّة سنتين. (ثمّ) أخذت في تعلّم لغة الإنجيل وعلم المنطق في مدّة سنتين. ثمّ ارتحلت من بلدتي إلى مدينة لاردة من أرض القطلان، وهي مدينة علم عند النصارى في ذلك القطر (. . .)، فقرأت فيها الطبيات والنجامة مدّة سنتين. ثمّ تصدّرت فيها لإقراء الإنجيل بلغته ملازما ذلك مدّة أربع سنين. ثمّ ارتحلت إلى مدينة تيونية من الأزدية (. . .) وهذه مدينة علم عند جميع ذلك القطر، ويجتمع بها كلّ عام من الآفاق أزيد من ألفي رجل يطلبون العلم (. . .) فسكنت بها كنيسة لقسيس كبير

السنّ، وعندهم كبير القدر اسمه نقولا مرتيل (. . .) فقرأت على هذا القسّيس علم أصول الدين النصرانيّة وأحكامه (. . .)، فلازمته على ما ذكرت من القراءة عليه والخدمة له عشر سنين». ويبدو أنّه يقصد مدينة بولونيا الإيطاليّة حيث أسست بها جامعة في ق 11م.

ثمّ يستعرض المؤلّف ظروف تعلّقه بالإسلام وبنبيّه محمد ﷺ بتوجيه من القسّيس المذكور وتوصيته إيّاه بالكتمان ونصحه بالتوجه إلى بلاد المسلمين. ويستأنف قائلا: «وركبت البحر منصرفا إلى بلدي مدينة ميورقة، فأقمت بها ستّة أشهر، ثمّ سافرت منها إلى جزيرة صقليّة وأقمت بها خمسة أشهر، وأنا أنتظر مركبا يتوجّه إلى أرض المسلمين، فحضر مركب يسافر إلى مدينة تونس، فسافرت فيه».

وفي ميناء تونس هبّ من سمع به من النّصارى لاستقباله واستضافته. وبعد أربعة أشهر سأل عن أقرب خواص السلطان أبي العباس، فدلّ على طبيبه يوسف، وتعرّف عليه وأخبره بحاله وبرغبته في إعلان إسلامه في القصر. فأخذه إليه وأحسن السلطان استقباله، ووافقه على اشتراطه إشهاد النصارى على علمه في دينهم قبل أن يفاجئهم بالشهادة. واختار اسم عبد اللّه له ولوالده. وقد بلغ آنذاك الخامسة والثلاثين من العمر.

ثمّ صاهر الحاج محمد الصفّار على ابنته فأنجبت له ولدا سمّاه محمدا تبرّكا بالرسول ﷺ. وأسكنه السلطان أبو العباس وأجرى له راتبا وحثّه على تعلّم العربيّة لتوظيفه ترجمانا يرافقه في تنقّلاته وناظرا على الدّيوانة. وكذلك كان أمره مع خلفه وولده السلطان أبي فارس. ولم تنفع محاولة القسّيس فرنسيس صديقه القديم المبعوث إليه من صقليّة - استعادته - بالإغراء - إلى حظيرة الكنيسة.

آثاره

ألّف أوّل أمره بالكاطالونيّة: 1 - كتاب التعاليم الصالحة؛ 2 - رباعيّات مملكة ميّورقة؛ 3 - كتاب النبوءات، 4 - مجادلة الحمار. وهي في أغراض مسيحيّة أوصى فيها بالمثابرة على الاعتقاد في الثالوث المقدّس، وأعرب عن أسفه لما انتاب بلده من تمزّق سياسي وأبرز فضل الإنسان على الحيوان، وحثّ على وحدة الكنيسة المسيحيّة ووجوب التعلّق بها. وظلّ كتابه الأوّل يدرّس في جهة كاطالونيا. كما ترجم كتابه الرابع إلى الفرنسيّة والألمانيّة. ولكنّه في آخر أمره - وقد اعتنق الإسلام وحذق العربيّة - انقلب بكلّ حماس إلى مدافع عن دينه الجديد ومتهجّم على المسيحيّة التي حرّفتها الكنيسة عن أصلها، مبتدئا بسيرته الذاتيّة كأنموذج لأزمة الضمير التي انتابته وبعض إخوانه الفرنسيسكان بما في ذلك الرّاهب نقولا مرتيل، وإن فضّلوا الاحتفاظ بالجاه والنفوذ بين النّصارى على الإسلام المخلّص من تلك الأزمة خوف عواقب المغامرة. ولم ينس المؤلّف الثناء على وليّي نعمته أبي العبّاس وأبي فارس خاصّة بإبطال المكوس بأسواق تونس؛ 5 - تحفة الأريب، اعتبر هذا الكتاب مصدرا للعصر الحفصي أفاد منه المؤرّخون كالزّركشي، وابن أبي دينار.

فرغ الترجمان من تأليف كتابه سنة 823هـ/

1420م، وتعدّدت نسخه في القرون الموالية، وإحداها ترجمها إلى التركيّة محمد شعبان وأهداها أبو الغيث القشّاش إلى السلطان أحمد الأوّل. وطبع بتونس سنة 1290هـ/ 1873م، وبمصر سنة 1295هـ، وبرومة سنة 1971م. وهو في ثلاثة فصول: الأوّل في حياته بإسبانيا وسبب إسلامه، والثاني في حياته بتونس، والثالث في الردّ على النصارى، وينقسم بدوره إلى أبواب:

- الأوّل في ذكر الأربعة الذين كتبوا الأناجيل وبيان كذبهم.
- الثاني في افتراق النصارى.
- الثالث في فساد قواعد دين النصارى والردّ عليهم.
- الرابع في عقيدة شريعتهم والردّ عليهم بأصل الإنجيل.
- الخامس في بيان أنّ عيسى ليس بإلاه كما افترته النصارى وأنّه آدمي نبيّ مرسل بنصّ الإنجيل.
- السادس في اختلاف الأربعة الذين كتبوا الأناجيل الأربعة وبيان كذبهم.
- السابع فيما نسبوا إلى عيسى عليه السلام من الكذب.
- الثامن فيما يعيب به النصارى على المسلمين.
- التاسع في ثبوت نبوّة نبيّنا محمد ﷺ بنصّ الزّبور والتوراة والإنجيل من صحّة بعثته وبقاء ملّته.

ويتبيّن أنّه سلك في الردّ على النصارى مسلك العقل والنقل، وتميّز باستقراء كتبهم لتفنيد ما يدّعون.

إنّ تجربة هذا الرجل الدينيّة ثريّة وطريفة إلى حدّ يثير اهتمام الباحثين الإسبان والتونسيّين في الجدل الإسلامي المسيحي خاصّة، وأوّلهم الأستاذ بالنثيا.

■ المصادر والمراجع

● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيّين، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، 1/ 225 ـ 231؛ ● النيفر، محمد الشاذلي، عبد الله الترجمان، مجلّة معالم ومواقع، ع 9، جانفي 2001، 4/ 16؛ ● الشرفي، عبد المجيد، عرض «تحفة الأريب»، حوليات الجامعة التونسيّة، ع 12، سنة 1975، 283 ـ 290.

- Palencia (Angel Gonzalez), Historia de la literatura arabigo española, Madrid.
- DeEpalza (M.): «L'auteur de la Tuhfa al Arib», Auselme Turmeda, Abdallah Al-Tarjuman, in: IBLA, nº 111, 1965, p. 261-290.

أحمد الحمروني

كاتب ـ تونس

ابن ترك، أبو الفضل عبد الحميد بن واسع

(... هـ/... م - ... هـ/... م)

هو أبو الفضل عبد الحميد بن واسع بن ترك الختّلي (وقيل الجيلي)، عاش أيّام المأمون وكان معاصرًا لمحمد بن موسى الخوارزمي (حوالي 240هـ/ 866م). له كتاب في الجبر والمقابلة، يسميه «الصيرورات في المقترنات من كتاب الجبر والمقابلة». ويقول بروكلمان إنّ مكتبة جار الله تحوي مختصرًا منه (1505، رقم 2)، وقد نشر الباحث التّركي إيدين سايلي Sayili صفحات منه سنة 1985م مع ترجمة إلى التّركيّة والانجليزيّة، ويقول أحمد سعيدان إنّه ليس في الصّفحات المنشورة أثر للخوارزمي أخذًا أو عطاء، كما أنّ لابن ترك بعض المصطلحات الخاصّة به مختلفة عن مصطلحات الخوارزمي، مثل كلمة «الصيرورات» الّتي تعني الصّيغ القياسيّة الّتي تصير إليها المعادلات وقراءة الضّرورات خطأ.

وعمل ابن ترك في الجبر والمقابلة دفع حفيده «ابن برزة» (وقرئ خطا ابن بردة عند حاجي خليفة وقدري طوقان) إلى أن يدعي أنّ جدّه عبد الحميد، وليس الخوارزمي، صاحب السّبق في موضوع الجبر والمقابلة، وقد دحض هذه الدّعوى الرّياضي المصري «أبو كامل شجاع بن أسلم» كما ذكر في كتابه «كتاب الوصايا بالجبر والمقابلة» إذ قال: «ألّفت كتابًا معروفًا بكمال الجبر وتمامه والزّيادة وأصوله، وأقمت الحجّة في كتابي الثّاني بالتّقدمة والسّبق في الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى الخوارزمي والرّدّ على المحترف المعروف بأبي برزة ينسب إلى عبد الحميد الّذي ذكر أنّه جدّه. رأيت أن أؤلّف كتابًا في الوصايا بالجبر والمقابلة».

ويقول رشدي راشد: تطوّرت الأبحاث الّتي تناولت المعادلات نفسها في اتّجاهات متعدّدة. وأوّل هذه الاتّجاهات هو ذلك الّذي رسمه الخوارزمي بنفسه لكن مع تحسين في البراهين المعتمدة على نموذج هندسي وهو الاتّجاه الّذي اتّبعه ابن ترك. ويقول بايارد دودج في ترجمته للفهرست لابن النديم إنّ لابن ترك جداول فلكيّة (زيجًا).

آثاره

1 - كتاب الصيرورات في المقترنات من كتاب الجبر والمقابلة، نشر جزءًا منه ايادين سايلي، ومنه مختصر في مكتبة جار الله، 1505، رقم 2؛ 2 - كتاب الجامع في الحساب، وهو من ستّة أجزاء، ذكره القفطي؛ 3 - كتاب المعاملات؛ 4 - زيج ذكره بايارد دودج.

المصادر والمراجع

- ابن النديم، الفهرست، ضبطه وحققه يوسف علي طويل، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1416هـ - 1996م، 46؛

● بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، 2/ 565، نشر المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم والهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1993م؛ ● حمدان، زهير، أعلام الحضارة العربيّة الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، وزارة الثّقافة السوريّة، دمشق، 1995م، مج 2/ 196؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج 2/ 506، دار الفكر، بيروت، 1402 هـ/ 1982م؛ ● راشد، رشدي، تاريخ الرّياضيّات العربيّة بين الجبر والحساب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1986م؛ ● سعيدان، أحمد، قاموس الرّياضيّات الابتدائيّة، مجمع اللّغة العربيّة الأردني، عمّان، 1408هـ/ 1987م؛

● القفطي، جمال الدين، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح جوليوس ليبرت، لايبزيغ، 1903م.

- DODGE, Bayard, The Fihrist of Ibn al Nadim, Vol. 11, Columbia Univ. Press, New York, 1970, p. 565.
- SEZGEN, Fuat, Geschichite der Arabischen Schriffttum, Leiden, E. J. Brill, 1967 - 1982, Vol. 5.
- SAYILI, Aydin, Mehmed, Logical Nescessity in Mixed Equations by Abd-Al-Hamid Ibn Turk and the Algebra of its time, Tur Tarih kumura Basimevi, Ankara, 1962.

د. عبد المجيد نصير
جامعة العلوم والتكنولوجيا ـ الأردن

الترك، نقولا بن يوسف

(1176هـ/ 1763م ـ 1244هـ/ 1828م)

نقولا بن يوسف بن ناصيف آغا الترك، كاتب وشاعر ومؤرخ من الممهّدين للنهضة العربية في مطلع القرن التاسع عشر.

أبصر نقولا النور سنة 1176هـ/ 1763م في قصبة دير القمر من أعمال جبل لبنان، عاصمة الإمارة الشهابية حينذاك.

ينتسب إلى عائلة يونانيّة الأصل، قدمت إلى لبنان من الآستانة في أوائل القرن الثامن عشر، فعرفت بالتركيّة. ومن هنا لزمها لقب الترك. والده يوسف كان على اتّصال بالشهابيين على عهد الأمير يوسف، الذي شنقه أحمد باشا الجزار سنة 1790م، فسهر الترك على العناية بأولاده. وكانت ليوسف الترك حظوة كبيرة لدى جرجس باز مدبّر الأمير يوسف شهاب، لهذا أمر الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير بقتله سنة 1807م بعد قضائه على جرجس باز

وشقيقه، ضاربا عرض الحائط بالخدمات التي قدّمها له ابنه نقولا.

مال نقولا منذ الصغر إلى الأدب، وتعاطى النظم والنثر، وقضى شطرا من شبابه، قبل التحاقه بخدمة الأمير بشير، في تعليم أبناء الأسر الغنية القراءة والكتابة، فأطلق عليه لقب «المعلّم».

سنة 1789م قام نقولا بزيارة مصر حتّى سنة1793م. هناك أقام علاقات وطيدة مع العديد من اللبنانيين والسوريين، نزلاء القاهرة خاصّة، وجلّهم من التجار الناجحين وأهل العلم والأدب المعروفين، الأمر الذي أتاح له فرصة الاطّلاع على شؤون مصر وقضاياها، وواقعها الاقتصادي والعسكري.

لهذا كلّفه الأمير بشير بالسفر إلى مصر مجدّدا سنة 1798 يوم احتلّها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت، لمراقبة الوضع المستجدّ عن كثب، وارسال التقارير عن واقع الحملة الفرنسية وتحرّكاتها، ونتائج أعمالها.

أدّى نقولا الترك هذه المهمّة خير أداء، وبقي في مصر حتّى سنة 1804م، كان من نتيجتها أن وضع تاريخا ذكر فيه الأحوال وتطوّراتها هناك في تلك الحقبة. ويعتبر هذا التاريخ أجلّ أثر تركه الترك من مؤلفات. كما كان من نتائج المهمّة أيضًا التمهيد لقيام تحالف قويّ بين محمد علي باشا والي مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها، وبين الأمير اللبناني بشير شهاب.

رجع نقولا من مصر إلى مسقط رأسه دير القمر، فعاد إلى مزاولة مهنة التعليم، وخدمة الأمير. وفي الوقت نفسه أخذ في تدوين الأخبار والحوادث التي جرت وتجري في المنطقة، وهو الشاهد حينا والسامع أحيانا، والتي شكّلت مضمون تاريخه المخطوط «حوادث الزمان في جبل لبنان».

استقر نقولا في بلاد الأمير بشير، الذي أنعش الأدب العربي في أيامه؛ فكان جليسه ونديمه، وموقفا معظم شعره على مدحه إلى درجة أنه عرف بـ«شاعر الأمير». كذلك مدح أولاده وأنسابه، والأمير بشير جنبلاط والوجهاء الاقطاعيين، حتى بات ديوانه بما فيه المقامات التي وضعها على غرار بديع الزمان والحريري مرجعا هامّا لمعرفة الحياة الإقطاعية يومذاك. وكان هذا المديح باب الرزق الذي ولجه نقولا ليأمن شرّ الدهر، إذ لم يكن له مرتّب خاصّ يرتاح إليه. كان يطلب وكان يجد.

أصيب نقولا سنة 1816 بمرض ذهب بعينيه، فأصبح كفيفا يملي على ابنته وردة أشعاره، ثمّ أصيب في السنة نفسها بنوع من الفالج شلّ جنبه الأيمن، إلاّ أنّه على ما يبدو، أبلّ منه، «فراح ينظم المزامير شعرا تقربا إلى الله، وتسهيلا لنشرها على أفواه الناس، فينشدها العابدون، ويرتلها المرتّمون، ويألفها أولاد المدارس...».

كانت وفاته، على الأرجح، سنة 1827م، ودفن في ساحة كنيسة النبيّ الياس للروم الكاثوليك في دير القمر. وكان قد رزق ولدا دعاه فتح الله، توفّي يافعا، فانقطع به نسله. أمّا ابنته وردة الشاعرة المعروفة، فقد تزوّجت من أحد أبناء دير القمر، ورزقت ولدين توفّيا دون عقب.

كان نقولا الترك طيّب القلب، دمث الأخلاق، مرحا تجد في مقاماته الجدّ إلى جانب الهزل، كما تجد في ديوانه

المداعبات، إلى جانب المديح والتهاني والرثاء والصلاة.

في أدبه، نظمه ونثره، حاول الترك التجديد والوصول إلى أدب رفيع في بداية عصر النهضة، فأدرك ما قدر عليه، على حدّ قول مارون عبود الذي اعتبره أبرز معاصريه شخصيّة في شعره وإن قاله ركيكا.

أمّا في كتابة التاريخ، فقد اتّبع الطريقة التقليديّة، أي تسجيل الحوادث سنة فسنة، إلاّ أنّه امتاز بالدقّة في النظر، والصواب في الحكم، والتدقيق في المعلومات، واللباقة في الوصف، إنّما أسلوبه كان ضعيفا، ممّا زاد في ضعفه وثقله اعتماده السجع، فكادت لغته تكون عاميّة.

آثاره

1 ـ ديوان المعلم نقولا الترك، صدر الديوان في طبعتين: الأولى في مجلّد واحد عن مطبوعات مديريّة الآثار «نصوص ووثائق تاريخية». المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1949م، ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد أفرام البستاني. والثانية صدرت في جزئين عن منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات الأدبيّة، 1970م، ضبط نصوصه ووضع مقدّمته وفهارسه فؤاد أفرام البستاني. وطبعتا الديوان متماثلتان في أرقام الصفحات وعددها؛ 2 ـ ذكر تملّك جمهور الفرنساوية الأقطار المصريّة والبلاد الشاميّة، ترجمه وحقّقه ونشره باللغتين العربية والفرنسية إينيه ديغرانج Aine Desgranges في باريس سنة 1839م، والنص العربي صدر سنة 1990 عن دار الفارابي، حقّقه وقدّم له ووضع حواشيه العميد الركن ياسين سويد؛ 3 ـ تاريخ نابليون، قال الأب شيخو إنّ الترك وضع مصنّفا تاريخيّا عن نابليون يبدأ من سنة مقتل الملك لويس 16، وينتهي بموت نابليون 1861م، وبقي النصف الثاني مخطوطا، كذلك ذكره جرجي زيدان وقال: «طبع جزء منه ينتهي بخروج الفرنسيين من مصر مع ترجمة فرنسية في باريس سنة 1839م»؛ 4 ـ مجموع حوادث الحرب الواقع بين الفرنساوية والنمساوية في أواخر سنة 1805م، طبع في باريس في سنة 1839م؛ 5 ـ مذكرات نقولا الترك، حققها وترجمها ونشرها غاستون فييت Gaston Weit سنة 1950م في القاهرة؛ [Nicolas Turc, Chronique de l'Egypte 1798-1804, éditée et traduite par Gaston Wiet, Le Caire, 1950] 6 ـ تاريخ أحمد باشا الجزار، ذكره الأب شيخو إذ قال في الصفحة 24 من الجزء الأوّل من الآداب العربية في القرن 19: «ولنقولا الترك تاريخ آخر ضمنه أخبار أحمد باشا الجزار، منه في مكتبتنا الشرقية نسخة في 126 صفحة، (مخ)، كذلك ذكره كلّ من الشيخ طنوس الشدياق بين المصنّفات التي أخذ عنها في تأليف كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان وجرجي زيدان (مخ)»؛ 7 ـ حوادث الزمان في جبل لبنان (مخ)، توجد نسخة منه بخطّ الشيخ ناصيف اليازجي في الظاهرية في دمشق تحت رقم 4724 (مخ).

المصادر والمراجع

- شيخو، الأب لويس، الآداب العربية في القرن 19، المطبعة الكاثوليكية،

بيروت 1924م، 23 ـ 24 و40 ـ 44؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط6، دار العلم للملايين، بيروت 1984م، 8/ 47؛ ● الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، ط4، دار النار للنشر، بيروت 1978م، 170؛ ● المعلوف، عيسى اسكندر، تواريخ الامبراطور نابليون بونابارت باللغة العربية ولا سيما تاريخ نقولا الترك اللبناني، المشرق 29/ 281؛ ● عانوتي، أسامة، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1971م، 6 ـ 8 و25 و103 و200 ـ 201 و211 ـ 212؛ ● عبود، مارون، روّاد النهضة الحديثة، دار الثقافة، بيروت د.ت، 65 ـ 70؛ ● اليازجي، كمال، روّاد النهضة الأدبية في لبنان الحديث، مكتبة رأس بيروت، لبنان 1962م، 44 و49 ـ 54؛ ● الخازن، وليم، الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية من مطلع النهضة إلى عام 1939م، دار المشرق، بيروت 1979م، 377 و 488؛ ● عمر، عبد العزيز عمر، عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك، جامعة بيروت العربية، 1978م؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، منشورات جمعيّة أهل القلم، بيروت 1956م، 2/ 217 ـ 219؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس، مصر 1928م، 630؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، 13/ 118؛ ● البستاني، فؤاد أفرام، مقدمة ديوانه. ● سويد، الحميد الركن ياسين، مقدمة كتابه «ذكر تملك جمهور الفرنساوية...»؛ ● المنجد في اللغة والأعلام، ط 16، دار المشرق، بيروت 1988م، 170.

أنطوان القوّال
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

التركماني، أبو الحسن علي بن عثمان

(683هـ/ 1284م ـ 750هـ/ 1349م)

علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى المارديني الأصل، الحنفي المذهب المعروف بعلاء الدين التركماني. ولد سنة ثلاث وثمانين وستمائة هجريا.

لغوي، نحوي، مفسر، محدث، فقيه، أصولي، فرضي، أديب، شاعر. درس وأفتى وولي القضاء في شوال سنة ثمان وأربعين وسبعمائة هجريا واستمر في تولي هذا المنصب إلى أن توفي في المحرم سنة خمسين وسبعمائة هجريا.

آثاره

كان لأبي الحسن إلى جانب تصدره للتدريس وتوليه القضاء دور كبير في إثراء المكتبة العربية بجملة من المصنفات المتميزة:

1 ـ بهجة الأريب في بيان ما في الكتاب العزيز من الغريب، كما يسمى أيضًا على ما يبدو بغريب القرآن الكريم [الدرر الكامنة، 3/ 84 ـ 85؛ كشف الظنون، 256، 1208؛ هدية العارفين، 5/ 722؛ معجم المؤلفين، 7/ 145]؛ 2 ـ تخريج أحاديث الهداية [الدرر الكامنة، 3/ 84 ـ 85]؛ 3 ـ التصحيف والوهم للإمام الحافظ أبي بكر علي الخطيب البغدادي [كشف الظنون، 473؛ هدية العارفين، 5/ 722؛ معجم المؤلفين، 7/ 145 ـ 146]؛ 4 ـ الجوهر الفرد في المناظرة بين النرجس والورد [هدية العارفين، 5/ 722]؛ 5 ـ الجوهر النقي في الرد على البيهقي [الدرر الكامنة، 3/ 84 ـ 85؛ كشف الظنون، 763، 1007؛ هدية العارفين، 5/ 722]؛ 6 ـ الدرر السنية في العقيدة السنية [هدية العارفين، 5/ 722؛ معجم المؤلفين، 7/ 146]؛ 7 ـ السعدية في أصول الفقه [كشف الظنون، 19؛ هدية العارفين، 5/ 722؛ معجم المؤلفين، 7/ 146]؛ 8 ـ شرح الهداية للمرغناني في الفروع، لم ينهه فكان لابنه جمال الدين عبد الله (ت 769هـ) الفضل في إكماله [كشف الظنون، 2035؛ هدية العارفين، 5/ 722؛ معجم المؤلفين، 7/ 145 ـ 146]؛ 9 ـ الضعفاء والمتروكون من رواة الحديث [كشف الظنون، 1087؛ هدية العارفين، 5/ 722]؛ 10 ـ الكفاية في معرفة أحاديث الهداية [كشف الظنون، 2035؛ هدية العارفين، 5/ 722]؛ 11 ـ الكفاية في مختصر الهداية [الدُرر الكامنة، 3/ 84 ـ 85؛ هدية العارفين، 5/ 722]؛ 12 ـ مختصر تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم للإمام الحافظ أبي بكر علي الخطيب البغدادي [كشف الظنون، 473]؛ 13 ـ مختصر علوم الحديث لابن الصلاح [الدرر الكامنة، 3/ 84 ـ 85؛ كشف الظنون، 1162]؛ 14 ـ مختصر محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين للإمام فخر الدين الرازي [الدرر الكامنة، 3/ 84 ـ 85؛ كشف الظنون، 1614؛ هدية العارفين، 5/ 722]؛ 15 ـ المختلف والمؤتلف في أنساب مشتبه أسماء الرجال [كشف الظنون، 1673]؛ 16 ـ المختلف والمؤتلف في العرب [هدية العارفين، 5/ 722]؛ 17 ـ المنتخب في علوم الحديث [معجم المؤلفين، 7/ 146؛ هدية العارفين، 5/ 722].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا (1339هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى، بغداد د.ت؛ ● خليفة، حاجي (1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ ● العسقلاني، ابن حجر، (852هـ)،

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، منشورات دار الجيل، بيروت د.ت؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، دار العلم للملايين، بيروت 1999، 4/ 311.

د. الصادق كرشيد
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن التركماني، أبو العباس تاج الدين أحمد

(681هـ/ 1283م ـ 744هـ/ 1343م)

هو أبو العباس، تاج الدين، أحمد بن عثمان بن إبراهيم المارديني الأصل، المصري المعروف بابن التركماني، الإمام الفقيه، المشارك في كثير من العلوم. أصله من تركمان، ولد بالقاهرة سنة إحدى وثمانين وستمائة للهجرة، وبها عاش وتوفي سنة أربع وأربعين وسبعمائة للهجرة.

نشأ في بيت من العلم والرياسة، فقد كان أبوه شيخ الأصحاب في وقته، وإليه انتهت رئاسة الحنفية بالديار المصرية. وكان أخوه علاء الدين إماما فاضلا، وقد ذكرهم السيوطي جميعا فيمن كان بمصر من فقهاء الحنفية وترجم لهم في كتابه [حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 1/ 469].

طلب العلم واجتهد وسمع من الدمياطي، وابن الصواف، والحجار وتفقه بأبيه خاصة وأخيه، ولزم العلماء إلى أن برع في الفقه، والأصول، والعربية، والمنطق، والمعاني، والبيان وغير ذلك؛ وتصدر للإفتاء والتدريس وانتفع به الناس مدة طويلة، وناب في الحكم، فقد تولى منصب قاضي القضاة بمصر [ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 1/ 383].

صنف كتبا كثيرة ومفيدة، بلغت سبعة عشر تصنيفا في مختلف العلوم والفنون المتداولة في عصره، ولكن كثيرا منها لم يكمل، وله نثر ونظم حسن، ومن نظمه ما كتبه في رسالة بعث بها إلى القاضي شهاب الدين بن فضل الله:

مَلَكتُ عذارَ الجامحاتِ وعونَها
وفجرت من عقم المعاني عيونَها
رددتُ وجوهَ الشاردات أوانساً
وذللت باللفظ البليغ متونَها
وما كان ممن هزّه نشوةُ الصبا
فكيف وقد عمَّ المشيب شؤونَها
ولكنها سحرُ البلاغة والنُّهى
وأنت شهاب الدين بانٍ حصونَها

[الصفدي، الوافي بالوفيات، 7/ 183].

وغالب أعمال ابن التركماني، تعاليق وتقييدات على تصانيف مهمة للمتقدمين في علوم الشريعة والعربية، وكذلك في علوم الهيئة والحساب والمنطق، مما بوأه دور المبلغ والموضح لهذه العلوم والفنون لأهل عصره، خصوصا وأنه قد اشتغل بالتدريس والفتوى والقضاء، ثم إن الغالب في المصنفين المتأخرين، عنايتهم بالعلوم كانت في هذه الحدود لقصور الهمم عن مراتب الاجتهاد، وتنوع المعارف الحائلة دون النبوغ والتميز، وافتقار أهل تلك الأزمان للملكة اللسانية التي هي أساس الاجتهاد، ولذلك اقتصروا على ما اقتصروا عليه من التعاليق والتقييدات والتوضيحات للألفاظ والمعاني، بعد أن استقرت العلوم، ودونت الدواوين وضبطت اللغة، وحصلت مفاهيم الشريعة وقواعدها.

واعتبر ابن التركمان في عداد الطبقة السادسة من فقهاء الحنفية، وهي طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقوى والقوي والضعيف، وظاهر المذهب، وظاهر الرواية، والرواية النادرة، شأنه في ذلك، شأن المتأخرين من أصحاب المتون والشروح الذين لا ينقلون في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة.

وكان رضي الله عنه موصوفا بالمروءة وحسن المعاشرة، ولم يزل في خدمة العلم إلى أن فارق الحياة بالقاهرة ودفن بتربة أبيه، خارج باب النصر بعد أن ترك تصانيف في غير ما فن أبان فيها، كما قال الصفدي، عن فقه جيد، وأدب مفيد [الوافي بالوفيات، 7/ 182].

آثاره

1 ـ شرحه للجامع الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ) صاحب أبي حنيفة وأحد المجتهدين في المذهب، ولا يكاد يوجد فقيه حنفي من طبقة المجتهدين في المسائل أو من أصحاب التخريج أو الترجيح من المقلدين، أو من أصحاب المتون أو الشروح، لم يعتن بالجامع الكبير، شرحا أو تعليقا أو اختصارا لما اشتمل عليه هذا الكتاب من أمهات المسائل وعيون الروايات التي تأسس عليها الفقه الحنفي؛ 2 ـ شرح على الهداية للمرغيناني (ت 593هـ) وهو تأليف في فروع الحنفية، جليل القدر، اعتنى به كثير ممن جاء بعده؛ 3 ـ له ثلاثة تعاليق على «خلاصة الدلائل في تنقيح المسائل» لعلي بن أحمد الرازي المكي (ت 598هـ) وهو شرح لمختصر القدوري (ت 428 هـ) في فروعه الحنفية؛ وهي:

الأولى: في حل مشكلاته وشرح ألفاظه وتفسير معانيه.

والثانية: فيما أهمله من المسائل.

والثالثة: في أحاديثه والكلام عليها وحل متونها وتصحيحها وتخريجها [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1632]؛ 4 ـ وله كتابان في علم الفرائض، أحدهما مبسوط وآخر متوسط ويعرفان بفرائض التركماني [م. ن، 2/ 1246]؛ 5 ـ وله تعاليق مفيدة على كتب النحو، والأصول، والعروض، كتعاليقه على شرح «المقرب» لابن عصفور (ت 663 هـ) في النحو، وعلى شرح الأتقاني (ت 758هـ) المسمى «بالتبيين» على «المنتخب» في أصول

الفقه الحنفي لحسام الدين الأخسيكثي (ت 644هـ)، والتبصرة في الهيئة لمحمد الخرقي (ت 533 هـ) [ابن قطلوبغا، تاج التراجم، 13].

المصادر والمراجع

● الصفدي، خليل بن أيبك (ت 764هـ)، الوافي بالوفيات، اعتناء إحسان عباس، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن، ألمانيا ط. 2 ـ 1402هـ/ 1982م، 7/ 182 ـ 184؛ ● ابن تغري بردي، يوسف (ت 874هـ)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح. محمد أمين، وتقديم سعيد عاشور، مركز تحقيق التراث، مصر، 1985 م، 1/ 382 ـ 385؛ ● ابن قطلوبغا، قاسم (ت 879هـ)، تاج التراجم في طبقات الحنفية، مكتبة المثنى بغداد، 1962، ترجمة رقم 31، 13؛ ● السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي، مصر ط. 1، 1387هـ/ 1967م، 1/ 469؛ ● حاجي خليفة (ت 1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 6 مج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. هشام قريسة

جامعة الزيتونة ـ تونس

الترمذي الحكيم، أبو عبد الله محمد بن علي

(230هـ/845م ـ 320هـ/932م)

أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي، صوفي ومحدّث وفقيه حنفي؛ له مؤلفات كثيرة في التصوف وفي الحديث، مع غلبة الطابع الصوفي عليها.

ولد بترمذ (على الضفة الشمالية لنهر جيحون/ آموداريا شمالي إيران)، من أب فقيه وراوية للحديث، يُرجع محقق كتاب «نوادر الأصول» تسميته بالحكيم إلى مجموعة من الاحتمالات، منها لكونه على دراية كبيرة بتركيب الجسم، أي أنّ له علاقة بالطب، أو لأنه مزج بين التصوّف والنظر، أو لأنه من الأوائل الذين اطّلعوا على الفلسفة اليونانية [نوادر الأصول، مقدمة، 11].

يروي الحكيم الترمذي جزءًا هاما من سيرة حياته يذكره محققو كتبه، ويرجع فضل اكتشاف هذه الترجمة الذاتية، حسب كوربان، إلى المستشرق هلموت ريتّر [كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية].

نشأ الحكيم في ترمذ، وتعلّم فيها على والده، وكانت اهتماماته منصبّة على علمي الآثار

والرأي. وعند بلوغه السابعة والعشرين اتجه إلى مكة قاصدا الحج وطالبا علم الحديث، فوجد شيئا من ذلك عند مروره بالعراق ومكة، ولخواطر نفسية صحّح توبته ـ على حد قوله ـ وسأل الله الزهد في الدنيا، وسعى إلى ذلك بالفعل مبتدئا بحفظ القرآن ثم البحث عن مشايخ يأخذون بيده إلى علم الباطن. ولما تعذّر عليه ذلك في بادئ أمره بحث في الكتب، فوقع إليه كتاب الأنطاكي، ومنه تعلم شيئا عن رياضة النفس، وراح يمارس الخلوات في الفيافي. ثم صحب بعض أعلام الصوفية وتتلمذ عليهم مثل الثلاثة الذين ذكرهم كل من السلمي والقشيري والشعراني، وهم: أبو تراب النخشبي، وابن الجلاء، وابن خضرويْه.

حين تضلّع في التصوّف التفّ حوله التلاميذ، منهم: أحمد بن محمد بن عيسى، والحسن بن علي الجوزجاني، وأبو بكر محمد بن عمر الوراق، وغيرهم. ويعدّ الترمذي رائد ابن عربي [دائرة المعارف الإسلامية، 5/ 228].

وفي أواخر حياة الحكيم الترمذي تعرض إلى محنة بسبب كتابه «ختم الولاية والنبوّة»، فقد أنكر عليه أهل ترمذ أفكاره الصوفية عن الولاية والنبوة ورموه بالكفر والزندقة، فحمل إلى بلخ فأكرموه (أي أهلها) لموافقته لهم في المذهب... عاش إلى حدود العشرين وثلاث مائة... [لسان، 5/ 308، 310].

أحصى له محقق كتابه «الأمثال» ثمانية وخمسين كتابا لا يزال أغلبها مخطوطا، نذكر منها: كتاب إثبات العلل، أجوبة مسائل، الاحتياطات، الحج وأسراره، الحكمة، وكتاب الفروق. وهذا الأخير وُصف في دائرة المعارف الإسلامية بالمصنف العجيب، لاشتماله على شيء طريف من فلسفة اللغة وفقهها حيث يستنتج عدم وجود الترادف بمعناه الحقيقي [دائرة المعارف، 6/ 227]، ومن أمثلة التفرقة بين المفاهيم يميز الترمذي بين: المداراة والمداهنة، المحاجة والمجادلة، المناظرة والمغالبة، الفؤاد واللب، الصدر والقلب... [الزركلي، الأعلام، 157]. ومن كتبه أيضا: أدب النفس، الأمثال من الكتاب والسنة، رياضة النفس، ختم الولاية، المنهيات، ونوادر الأصول.

لقد جاءت كتابته لهذه المؤلفات، كما يخبرنا، نتيجة بواعث صوفية؛ وليس لإرادة في التأليف، أو للافتخار والتباهي، حيث يقول: «ما صنفت حرفا عن تدبير ولا لينسب إليّ شيء منه، ولكن كان إذا اشتدّ عليّ وقتي أتسلى به» [الرسالة القشيرية، 22].

أما كتابه «نوادر الأصول في أحاديث الرسول»، وهو كتاب في أربعة أجزاء، فتكسوه صبغة صوفية واضحة، صنّف فيه أحاديث الرسول بحسب موضوعاتها إلى 853 أصلا. وأما كتابه: «الأمثال من الكتاب والسنة»، فهو في الحكمة والتصوّف، جمع فيه الأمثال التي ضربها القرآن مع شرحها وإعطائها البعد الصوفي، ثم خصّص الجزء الأكبر منه للحكم والأمثال التي تخدم منحاه العرفاني، كالتي تتعلّق بالصدق والقلب والتربية والأخلاق الحميدة؛ فعن القلب قال: «مثل القلب مثل حدقة العين، فإن أدنى شيء يشغل العين، والقلب أيضا يشغله أدنى شيء» [الأمثال، 45]. وهذا دليل على حساسية القلب وضرورة العناية به وشغله بما هو مفيد. وعن أهمية العلم والعلماء قال: «مثل العالم

مثل العطّار، إن مررتَ به وجدت رائحة الطيب، وإن جالسته أصابك اللّطخ من العطر، وإن صاحبته تناولت منه الطيب وترجع إلى أهلك بذلك» [م.س، 45]. ومن الأمثال التي يضربها أن النفس في ترويضها وتطويعها كي تستقيم وتسعى إلى ربها مثلها كمثل الدابة التي لم تربط إلى آري، يُتدرَّج في ترويضها حتى تعتاد على القيد واللجام وعلى الرضوخ التام لاستعمالها في ما هي مسخّرة له [م. س، 124].

ويصنف الترمذي الناس بحسب أعمارهم وجنسهم ويحدِّد صلاحهم في خمس، فيقول: «صلاح الصّبيان في الكتّاب، وصلاح القطّاع في السجن، وصلاح النّساء في البيوت، وصلاح الفتيان في العلم، وصلاح الكهول في المساجد» [الشعراني، الطبقات الكبرى، 78]. وأصلح الناس في رأيه هو الصوفي العارف الذي جمع بين العقل والقلب، أو بين العقل والعمل. فالعقل يتعجّب والقلب يتقلّب، بمعنى أن العقل له الإدراك، والنظر والقلب له العمل. ومما قاله في هذا الصدد: «العاقل من اتّقى ربه وحاسب نفسه» [السلمي، طبقات الصوفية، 219]؛ وليست العبرة عنده في الأخلاق بكثرة الأعمال بقدر ما هي في الإخلاص فيها، يقول: «ليس الفوز هناك بكثرة الأعمال، إنما الفوز هناك بإخلاص الأعمال وتحسينها» [م. س، 218].

ومن أبرز ما ميّز فكر الترمذي الصوفي هو نظرته لمفهوم الولاية، حيث جعلها أساس التصوف في الوقت الذي نظر إليها باقي المتصوفة على أنها مقام سام وغاية يصبو إليها العارف، فهو يجعلها جوهر الطريق إلى الله، بمعنى أن الصوفي وليّ بالضرورة، وبالاختيار الإلهي مع إبداء الاستعداد الخلقي والعملي لذلك، يقول: «الله تعالى أولياء اصطفاهم من بين الخلق، وقد انقطعت همتهم عن المتعلّقات، وتنصّلوا من قبول دعاوى النفس والهوى... وفتح عليهم بابا من المعاني».

ويميّز الترمذي بين معنيين للولاية، ولاية عامة لكل مسلم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فتولاه الله في مقابل ذلك برعايته، لأن الشهادة ولاء له. وولاية خاصة بالمتصوفة الذين تميزوا عن العامة بأخلاقهم ومجاهداتهم ورياضاتهم وخلواتهم، فاصطفاهم الله بعناية خاصة، فهم أولياء الله بالحقيقة.

ومن الأفكار التي اختُلف في فهمها، وتعرّض الترمذي للمحنة بسببها في مفهوم الولاية: العلاقة بين النبوة والولاية، وتفضيله للثانية على الأولى. وسبب هذا التفضيل لا يفهم منه حسب المدافعين عن وجهة نظره ـ كابن عربي ـ إنقاص من قيمة النبي، ذلك لأن كل الأنبياء أولياء. والفرق يكمن في أن النبوة محكومة بأمكنة وبأزمنة منتهية، إلا بالأشكال التي حدّدها النص، بينما الولاية مستمرة باستمرار وجود العبد والرب ووجود العلاقة بينهما.

■ آثاره

أ ـ المطبوعة:

1 ـ الأمثال من الكتاب والسنة، تح. مصطفى عبد القادر عطا، بيروت / لبنان 1409هـ/ 1989م، مؤسسة الكتب الثقافية؛ 2 ـ نوادر الأصول في أحاديث الرسول، حقق أصوله وخرّج أحاديثه عبد الرحمان عميرة، بيروت 1412هـ/ 1992م، دار الجيل؛ 3 ـ أدب

النفس، ط. وتح. أ. ج. آربري وعلي حسن عبد القادر، القاهرة 1366هـ/ 1974م؛ 4 ـ رياضة النفس، ط. وتح. أ. ج. آربري وعلي حسن عبد القادر، القاهرة 1366هـ/ 1974م؛ 5 ـ كتاب معرفة الأسرار، تح. ودراسة محمد إبراهيم الجيوشي، سنة 1977، دارالنهضة العربية؛ 6 ـ الفرق بين الصدر والقلب، تح. نقولا هير؛ 7 ـ حقيقة الآدمية، تح. عبد المحسن الحسيني، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مج. 3/ 1946، ص 50 ـ 108؛

ب ـ المخطوطة:

8 ـ إثبات العلل، مكتبة بريل ـ ألمانيا، رقم 3504، وبمكتبة ولي الدين ـ تركيا، رقم 770؛ 9 ـ الحج وأسراره، المكتبة الوطنية بباريس ـ فرنسا، رقم 5018؛

■ المصادر والمراجع

• ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، 2/ 308 ـ 310 (نسخة من طبعة حيدر أباد الدكن 1330/ 1912)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع؛ • السلمي، المقدمة في التصوف وحقيقته، تح. يوسف زيدان، 1407هـ/ 1987م، مكتبات الكليات الأزهرية، 58؛ • م. ن، طبقات الصوفية، تح. نور الدين شريبة، ط. 2، القاهرة 1406هـ/ 1986م، مكتبة الخانجي، 217 ـ 220؛ • الشعراني، الطبقات الكبرى، القاهرة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، 1/ 78؛ • القشيري، الرسالة القشيرية، بيروت، دار الكتاب العربي، ص 22؛ • الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تح. عبد الحليم محمود، دمشق 1407هـ/ 1986م، دار الإيمان، 32؛ • الهجويري، كشف المحجوب، تر. وتح. إسعاد عبد الهادي قنديل، سنة 1972، دار النهضة العربية، 709؛ • حاجي خليفة، كشف الظنون، بيروت د.ت، دار إحياء التراث العربي، مج 1/ 9 ـ 10؛ • دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالعربية أحمد الشنتاوي وآخرون، انتشارات جهان بودر حمبري، مج. 5/ 227 ـ 228؛ • كحالة، عمر، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 315؛ • كوربان، هنري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، تر. نصير مروة وحسن قبيسي، بيروت 1966، منشورات عويدات، 292 ـ 294؛ • الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية، القاهرة 1414هـ/ 1992م، 78، دار الرشد؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 6/ 272؛ • الحسيني، عبد المحسن، المعرفة عند الحكيم الترمذي، القاهرة (د. ت.)، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر؛ • الجيوشي، محمد إبراهيم، الحكيم الترمذي، آثاره وأفكاره، مصر، (د.ت.)؛

- Massignon, L., Recueil de textes inédits, Paris 1929, p. 33-39;
- Essai sur les origines du lexique technique, Paris, 1929, p.286-294.

د. ساعد خميسي
جامعة قسنطينة ـ الجزائر

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرَة

(209هـ/824م - 279هـ/892م)

هو محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك السُّلَمِيّ البوغي أو عيسى التِّرمِذِي، أصله في بني سُلَيم من غيلان. هذا هو المعتمد لدى المحقّقين في ضبط نسبه. وتختلف المصادر في تسمية من هو فوق سورة من أجداده.

محدّث علم مشهور من أصحاب الكتب الستّة، مهر في نقد الحديث وفقهه، وتميّز بطريقته التّطبيقيّة في أبحاثه، وأسهمت جهوده في تطوّر علوم الحديث: مصطلحا، وعللا، وفي تدوين السنّة، وتركيز المنهج الفقهيّ للمحدّثين.

ولد في ذي الحجّة سنة تسع ومائتين (209هـ) بقرية بوغ أو بلدتها ترمذ، وتباينت الرّوايات في تحديد مسقط رأسه لعدم وجود نصّ صريح في ذلك، ولورود نسبة المترجم له إلى البلدتين معا؛ والأقرب أن يكون من بوغ الواقعة في أحواز ترمذ فنسب إليها أو إلى مدينتها ترمذ تجوّزا إذ يبعد أن يكون من أبناء المدينة المذكورة فينسب إلى قرية من قراها من غير أن تكون له بها صلة. وتقع ترمذ في أقصى جنوب جمهوريّة أزبكستان على الشّاطئ الشّرقي لنهر جيحون (وهو نهر أموداريا اليوم) على خطّ عرض 37ب شمالا وخطّ طول 67ب شرقا.

ومعلوماتنا قليلة عن حياة التّرمذي قبل اشتهاره، والصّحيح أنّه ولد أكمه وإنّما ضرّ في آخر عمره. نشأ في بيئة ثقافيّة متميّزة لأنّ خراسان وقتئذ كانت تنعم بوضع فكري نشيط، وتفخر برصيد كبير من علماء نيسابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند الّذين غذّوا بجهودهم النّهضة العلميّة العظيمة في علوم الحديث، الّتي بلغت أوجها في القرن الثّالث، وكان من ثمارها ظهور الكتب الستّة.

طاف في رحلته العلميّة في أقاليم خراسان والعراق والحجاز، وأكثر من السّماع والجمع، وأهمّ أساتذته من كانوا من طبقة الشّيخين، والّذين أدركهم ممّن هم أقدم منهم، كما تتلمذ للبخاري، ومسلم، وأبي داوود السجستاني، ولأقرانهم.

واشترك مع الأئمّة الخمسة في تسعة شيوخ، هم:

- محمد بن بشار «بندار» (ت 252هـ).
- محمد بن المثنى «أبو موسى» (ت 252هـ).
- زياد بن يحيى «الحسّاني» (ت 254هـ).
- عباس بن عبد العظيم «العنبري» (ت 246هـ).
- نصر بن علي «الجهضمي» (ت 250هـ).
- «أبو سعيد الأشجّ» عبد الله بن سعيد الكندي (ت. 257هـ).
- أبو حفص عمرو بن علي «الفلاس» (ت 249هـ).

ـ يعقوب بن إبراهيم «الدّورقي» (ت 252هـ).

ـ محمد بن معمّر القيسي «الحرّاني» (ت 256هـ).

واشترك مع «بقي بن مخلد» (ت 276هـ)، شيخ حفّاظ الأندلس في خمسة وخمسين شيخا (55)، روى التّرمِذي عن سبعة منهم بواسطة [معمّر، بقيّ، 1/ 234].

وشيوخه يتفاوتون في مراتبهم، وهو يتنزّل في التّخريج إلى رواة الطّبقة الرّابعة الّذين لا يسلمون من الجرح، وتفرّدوا بقلّة ممارستهم لحديث شيوخهم [الحازمي، شروط الأئمّة، 58]. وهو عموما لا يروي عن متّهم بالكذب ـ اتّفق على اتّهامه ـ حديثا بإسناد منفرد، وإذا خرّج عن سيّء الحفظ ونحوه بيّن ذلك غالبا.

وأكثر الرّواية في سننه عن ثمانية من شيوخه ـ وهم من الثّقات ـ بلغ مجموع ما أخذه عنهم ثلاثة أرباع كتابه، وهم:

ـ «هنّاد» بن السريّ بن مصعب التّميمي الكوفي (ت 243هـ).

ـ أحمد بن منيع بن عبد الرحمان «أبو جعفر الأصمّ» البغدادي (ت 244هـ)، وأحاديثه في الكتب السّتة.

ـ «أبو كريب» محمد بن العلا بن كريب الهمداني (ت 247هـ)، كان مكثرا وروى له الجماعة سوى النّسائي بواسطة.

ـ محمد بن بشار بن عثمان أبو بكر البصري «بندار» (ت 253هـ)، وكان عنده ما ليس عند غيره من الحديث.

ـ محمود بن غيلان العدوي مولاهم «أبو أحمد المروزي» (ت 239هـ).

ـ عبد بن حميد بن نصر «الكشي» أبو محمد المروزي (ت 249)، روى له مسلم أيضا وأكثر عنه التّرمِذي في كتاب التّفسير من سننه.

ـ علي بن حجر بن إياس السعدي «أبو الحسن المروزي» (ت 244هـ)، روى له الشّيخان والنّسائي.

ـ قتيبة بن سعيد بن جميل أبو رجاء «البغلاني» (ت 248هـ)، خرّج له الشّيخان.

وللبخاري أثره الكبير في توجيه التّرمِذي وإعداده، فهو شيخه الّذي مرّن بين يديه وأخذ عنه أصول النّقد وفقه الحديث، وتخرّج به حتّى برّز على الأقران وتميّز في علمه وشهد له البخاري نفسه بذلك لما قال له: «ما انتفعتُ بك أكثرُ ممّا انتفعتَ بي»، وعدّه الشّيوخ خليفة البخاري في خراسان في العلم والحفظ والورع [الذهبي، تذكرة، 2/ 639].

واستقرّ التّرمِذي ببلدته بعد أن استكمل رحلته العلميّة، وعكف على التّأليف والمراجعة حتّى توفّي ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة 279هـ، بعد أن سجّل حضورا علميّا إيجابيا في تاريخ الحديث، يبرز في ثلاثة جوانب، هي:

1 ـ تصنيفه لكتابه «الجامع»، الّذي أسهم به في مشروع تدوين السنّة في القرن الثّالث، وعدّ من الأمّهات في مكتبة الرّواية لنفاسته ورجحانه على كثير من المؤلّفات في موضوعه.

2 ـ تركيزه لتقسيم ثلاثيّ للحديث من حيث الحكم، يشتمل على ثلاث درجات تقويم، هي: الصحّة، والحسن، والضّعف، واهتمّ

كثيرا بالدّرجة الوسطى فحدّد مفهومها وشروط روايتها وفنّنها واشتهر أمرها على يديه حتّى اعتبرت من إضافاته. وأفاد عمله هذا في تجويد مقاييس النّقد وتدقيق أنواع الحديث الأساسيّة.

3 ـ عنايته الكبيرة بفقه الخلاف، تتبّع موارده من النّصوص النّبويّة، ونبّه إلى مواضعه، وعرض مذاهب العلماء وأوجه استدلالهم في تخريج مسائل هذا الموضوع.

آثاره

تدلّ كتبه الموجودة وكذلك أسماء كتبه المفقودة على أنّ اهتمامه الأساسيّ اتّجه إلى علوم الحديث، وتوصف كتبه بأنّها تصنيف رجل عالم متقن [السمعاني، الأنساب، 3/ 42]. ولعلّ ما ساعده على ذلك ما اشتهر به من ضبط وحفظ وسعة اطّلاع، ومن تآليفه:

1 ـ كتاب السّنن، سمّي بذلك لغلبة أحاديث الأحكام عليه مرتّبة ترتيبا فقهيّا، ويعرف بجامع التّرمذي وهو بهذا أشهر، لأنّه جمع فيه مع أبواب أحاديث الفقه أبوابا أخرى كالعقائد والآداب والمناقب والتّفسير، وقد توسّع في هذين البابين الأخيرين، وهذا التّوجّه تخلو منه بقيّة السّنن الأربعة الّتي ركّزت على ما له صلة بالتّشريع فقط، ولما كانت أغلب أحاديثه صحاحا سمّاه الحاكم النيسابوري والمتقدّمون «الجامع الصّحيح» تجوّزا وتغليبا.

رتّبت مادّته على الموضوعات واشتمل على 3956 حديثا يقلّ فيها المكرّر، ووزّعت على خمسين كتابا حسنة التّبويب، وبآخره كتاب «العلل الصّغير»، وهو جزء من الجامع ومدخل له وبيان لمنهجه.

وقدّم التّرمذي كتابه على أنّه تحرّى فيه قدر وسعه؛ وعرضه على نقّاد المشرق الإسلامي، فأقرّوه عليه، واعتبر أنّ من عنده هذا الكتاب فكأنّما في بيته نبيّ يتكلّم [الذهبي، م. س، 2/ 633]. ووافقه على هذا التّقويم علماء القرون اللاّحقة فعدّوا جامعه إحدى الكتب السّتّة الأصول، ويرى البعض أنّه مُغنٍ للمجتهد كاف للمقلّد، وأنّه أنفع عمليّا من الصّحيحين لسهولة انتفاع القارئ العادي به، بينما لا يقف على الفائدة من الصّحيحين إلاّ المختصّ المتمرّس [ابن طاهر، شروط الأئمّة، 20 ـ 21].

وانفرد الكتاب بخصائص لا توجد فيما سواه من كتب السنّة أكسبته قيمة إضافيّة في مجال الفقه والمنهجيّة وعلم المصطلح موازية لقيمته ككتاب في الرّواية، وتبرز شخصيّة صاحبه بصورة واضحة، وهي:

ـ الدّلالة على رواة أحاديث الباب: بذكر أسماء الصّحابة الّذين لهم روايات في باب الحديث الّذي أخرجه، وهذه درجة من التّخريج تفيد في تطريق الأحاديث وفهرستها الموضوعيّة. وهي تدلّ على سعة اطّلاع التّرمذي وقوّة ملكته الفقهيّة.

ـ التّعليل: بالتّعقيب على الأحاديث بملاحظات نقديّة تفصيليّة تبيّن أحوال الرّواة وتحدّد درجات المرويّات وهي غنيّة بالمفاهيم والمصطلحات الحديثيّة.

ويعدّ الجامع أوّل كتاب وضع على الأبواب المعلّلة، وللتّرمذي فيه عناية كبيرة ببيان مسائل العلل والمختلفة، وذيّله ببحث مركّز في هذا الموضوع يعرف بكتاب العلل الصّغير

وضّح فيه مقاصده من تأليفه للجامع وكشف فيه عن منهجه في الرّواية والدّراية ومصطلحاته نقدا وتعليلا وتحدّث فيه عن مصادره الحديثيّة، وقد استفاد فيه من جهود سابقيه فجاء عمله أشمل وأدقّ، ويعدّ العلل الصّغير مفتاحا للمعرفة الأوسع بشرط التّرمذي في جامعه وتصرّفه فيه.

- العناية بالفقه المقارن: بالتّعليق الفقهيّ على أحاديث الأحكام، مع ذكر الرّوايات المتعارضة والتّنبيه على اختلاف المذاهب فيها، ووجوه الاستدلال عندها، وعرض ما أثر عن الصّحابة والتّابعين في هذا النّوع من المسائل. وهو يوازن بين كلّ هذه النّقول ويبدي رأيه الخاصّ فيها. ويعدّ الجامع من هذه النّاحية من المصادر الأولى الّتي اهتمّت بالخلاف الفقهيّ.

- تبيين أنواع الحديث: بالمواظبة على تحديد حكم الحديث عقب روايته، واشتهر عن التّرمذي عنايته بالحديث الحسن الّذي أوضح حدّه في جامعه في أواخر كتاب العلل منه، ومثّل له بنماذج متعدّدة وأكثر منه حتّى قال ابن الصلاح إنّ كتاب التّرمذي أصل في معرفة الحسن، وهو الّذي نوّه باسمه وأكثر من ذكره في جامعه. فالتّرمذي هو الّذي شهر هذا القسم من الأحاديث وأدخله في علم المصطلح.

- توخّي الطّريقة التّطبيقيّة في التّصنيف: من خلال تفصيل أحكام التّصحيح والتّضعيف، والدقّة في وصف الرّواة جرحا وتعديلا، وبيان أسباب التّرجيح بين الأحاديث والآراء الفقهيّة الّتي رويت في كتاب السّنن. وهذا ما جعله تطبيقا عمليّا لقواعد علوم الحديث مشبعا بالأمثلة التّوضيحيّة الّتي تكشف عن دقائق علم العلل وتقرّب للأذهان مباحث المصطلح.

وممّا انتقد على الكتاب اشتماله على بعض الأحاديث الضّعيفة والواهية خاصّة في الفضائل، وروايته عن عدد من المجروحين، لذلك عدّ في الطّبقة الثّانية من طبقات كتب الحديث، وبيّنت الدّراسات الإحصائيّة للسّنن الأربعة ولمذاهب أصحابها في الرّواية أنّ جامع التّرمذي يأتي في الدّرجة الثّالثة بعد سنن أبي داود ثمّ سنن النّسائي لأنّه يخرّج أحاديث رجال الطّبقة الرّابعة من الرّواة في حين لا ينزلهما عن الطّبقة الثّالثة، ولأنّ عدد ما انتقد على كلّ واحد منهما من أحاديث أقلّ ممّا انتقد عليه، فصار بهذا كتاب التّرمذي سادس الكتب السّتّة.

وأشهر رواياته الّتي وصلتنا كاملة رواية أبي العباس محمد بن أحمد بن محبوب المروزي «المحبوبي»، وأجود طبعات السّنن المحقّقة المتقنة الدّراسة هي تلك الّتي أعدّها المحدّث أحمد محمد شاكر وتضمّنت تحقيقا جيّدا للنّصوص مع ترقيم الأبواب والمواد وهوامش ثريّة بالتّعليقات المتنوّعة. وقد تحدّث في المقدّمة عن قيمة مخطوطات السّنن وطبعاته السّابقة. وله مختصرات وشروح كثيرة أشهرها عارضة الأحوذي لأبي بكر محمد بن عبد الله «ابن العربي» (ت 543هـ). وللوقوف على الدّراسات المتعلّقة بالسّنن يراجع أحمد عمر هاشم في كتابه «السّنّة النّبويّة وعلومها» [258].

2 - الشّمائل النّبويّة والخصائص المصطفويّة: وهو في أخلاق النّبيّ وصفاته،

وهو أوعب ما كتب في بابه وأصحّه، له شهرة واسعة بين العلماء، رتّبت أحاديثه على ستّة وخمسين بابا، بدأت بعرض الرّوايات الّتي تقدّم صورة وصفيّة لخلقة الرّسول وهيأته العامّة، ثمّ الحديث عن لباسه ثمّ ما يتعلّق بحياته اليوميّة وعاداته الشّخصيّة، ثمّ أخلاقه الكريمة ومناقبه وآدابه.

لم يذكر فيه مؤلّفه درجات الأحاديث. ومن أحسن طبعاته الطّبعة الّتي أخرجها وعلّق عليها محمد عفيف الزعبي؛ وطبعة المكتبة الإسلاميّة بعمّان الّتي اختصره فيها محمد ناصر الألبان وخرج أحاديثه تخريجا علميّا دقيقا وعلّق عليه؛ وله شروح كثيرة ذكرها حاجي خليفة [كشف، 1/ 1059 ـ 1060]، وإسماعيل البغدادي [إيضاح المكنون، 2/ 52].

3 ـ التّاريخ، وأقدم من ذكره ابن النديم في فهرسته [289]. وذكره السمعاني باسم «التّواريخ» [الأنساب، 3/ 42]، ونقل عنهما من جاء بعدهما، وهو مفقود.

4 ـ كتاب العلل الكبير، وهو غير كتاب العلل الصّغير الّذي ألحقه بجامعه، وفيه توسّع كبير في ذكر مسائل هذا الفنّ وشوارده، ومعظم مادّته منتزعة من كتابه الجامع، وهو روايات ذكرت عللها أوردها مفرّقة غير منتظمة على نسق ما، ومنه ما لا يوجد في الجامع وهو قليل.

والكتاب عبارة عن دراسة تطبيقيّة متخصّصة في العلل، مجالها الأغلب الأحاديث المشهورة المتداولة بين الرّواة، اعتمد فيه التّرمذي أساسا على مراجعة شيخه البخاري في العلل ومعرفة الرّجال، حتّى أنّ الكتاب في معظمه تسجيل لآراء الشّيخ في هذا الشّأن تبعا لما طرحه تلميذه من أسئلة. ويكتسب الكتاب أهميّته المتميّزة من كونه بحثا مستقلاّ شاملا في بابه أنجزه اثنان من أفذاذ علماء الرّواية والعلل.

ورتّب مادّة «العلل الكبير» على أبواب جامع التّرمذي أبو طالب القاضي عقيل بن عطيّة بن أبي أحمد جعفر القضاعي (ت 608هـ)، فزاد هذا إلى قيمته لأنّه سهّل الوقوف على مئات الأحاديث المعلّلة في أبواب محدّدة منظّمة.

والكتاب نشرته مكتبتا عالم الكتاب، والنّهضة العربيّة، ببيروت، سنة 1409هـ، بتحقيق صبحي السامرائي، وأبي المعاطي النوري، ومحمود الصّعيدي؛ 5 ـ كتاب الأسماء والكنى، لم يذكره غير ابن حجر [التّهذيب، 9/ 389]؛ 6 ـ كتاب الزّهد، ذكره ابن حجر وعلّق عليه بأنّه كتاب مفرد، ولم يطلع عليه [م. ن.، 9/ 389]؛ 7 ـ تسمية أصحاب الرّسول ﷺ، ذكر له سزكين مخطوطة بمكتبة شهيد علي، مجموع رقم 1/ 2840، ورقة 10 ـ 26، منسوخة سنة 776هـ؛ ومخطوطة أخرى بـ لا له لي، 1/ 2089، ورقة 1 ـ 11أ، في القرن السّابع [تاريخ التّراث، 1/ 299].

المصادر والمراجع

● الذهبي، تذكرة الحفّاظ، بيروت، د. ت، 2/ 633؛ ● شاكر، أحمد محمد، جامع التّرمذي (تحقيق)، 2/ 1519 ـ 1528، بيروت، د. ت؛ ● البنّوري،

محمد يوسف، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، عدد 2، سنة 1957م؛ ● عتر نور الدين، الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1390هـ/ 1970م؛ ● هاشم، أحمد عمر، السنة النبوية وعلومها، القاهرة، 1989م، 253 - 270.

د. محمد الناصر الزعايري
جامعة الزيتونة - تونس

التستاوتي، أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب

(1045هـ/1635م - 1127هـ/1715م)

أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب، أبو العباس المباركي الزعري التستاوتي الحسني، من بيت صوفي.

عالم أديب صوفي، من كبار كتاب وشعراء التصوف في المغرب، يتسم أدبه بصدق ذاتي، يجمع بين الحرارة الصوفية والغرابة الذاتية [الطريبق، أدب التستاوتي، 3/ 713].

ولد حوالي سنة 1045هـ/ 1635م ببادية منطقة «أم الربيع»، وتوفي بمدينة مكناس سنة 1127هـ/ 1715م.

حفظ القرآن الكريم، وبعض المتون العلمية المتداولة، وأخذ في طلب العلم.

ومن الشيوخ الذين ذكر أنه أخذ عنهم:

- عبد القادر بن علي الفاسي، قرأ عليه علم المعاني بفاس عام 1068هـ/ 1657م.

- محمد بن أحمد ميارة، قرأ عليه في السنة نفسها بجامع اللبارين بفاس رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

- محمد بن ناصر الدرعي، أجازه بزاويته في مختصر خليل، ورسالة ابن أبي زيد، وعقيدة السنوسي، وألفية ابن مالك، وتنبيه ابن عباد على الحكم العطائية، وبعض كتب الحديث والسيرة.

ولم تذكر المصادر غير هؤلاء، ويدخل في باب التكوين احتكاكه وتفاعله مع أصدقائه من علماء الزاوية الدلائية، والزاوية الناصرية، والزاوية الفاسية، وغيرهم.

ويبدو أن سلسلة حياته الدراسية لم تكن موصولة الحلقات في الزمان والمكان. تنقل في طفولته بين عدد من الأماكن قبل أن ينزل بمنطقة «زْعَيْرْ» وطن جده الشيخ الصوفي: محمد بن مبارك الزّعري، وبها شرع في القراءة، ثم رحل إلى ناحية القصر الكبير، لكسب الرزق، بعيدا عن الأهل والوطن، بسبب العسر المادي، واضطرام نار الفتنة بين أولاد الشيخ ابن مبارك، وكلما عاد ليستقر بها، اضطر إلى الرحيل عنها، فاتجه إلى الزاوية الدلائية للأخذ عن علمائها، ثم ارتحل

عنها متحسّرا على ما خلف وراءه من علومهم، وجودة آدابهم، ثم نزل بفاس، وأخذ عن بعض شيوخها، ثم نزل بزاوية «خلفون» بنواحي «خنيفرة» وأقام بها عند صديقه الحسن بن مسعود اليوسي الذي يقدره التستاوتي، ويعتبره قدوته علما وأدبا وسلوكا، إلى درجة أنه زوّج اليوسي إحدى بناته طمعا في افتداء رقبته من النار، وعندما أجبر اليوسي على الرحيل من زاوية «خلفون»، من قبل السلطان إسماعيل، تألم التستاوتي لهذا الحدث، ورحل عن «خلفون»، وظل يرحل من مكان إلى مكان إلى أن وصل إلى «سلا» ثم «شالة» [الطريبق، أدب التستاوتي، 2/ 35 ـ 79؛ شهبون، شعر التستاوتي ـ التقديم: 71 ـ 77].

عاصر التستاوتي فترة دقيقة من تاريخ المغرب، وتفاعل مع أحداثها السياسية، فترة بدأت بتقلص ظل الدولة السعدية، وبروز زعامات تتحارب في ما بينها من أجل الاستئثار بالحكم، بين العلويين والزعامات السياسية الأخرى، وبين أفراد الأسرة العلوية نفسها، وكان موقف الحاكمين من الطبقة المثقفة ـ خصوصا في العهد الإسماعيلي ـ يتسم بالحيطة والحذر وعدم الاطمئنان، فكل من لاحت عليه مخايل الزعامة السياسية أو الصوفية تعرض للمطاردة أو السجن أو الاغتيال، خاصة إذا كانت له صلة بالزعامات والأطراف المناوئة لوجود الحكم أو لسياسته.

من هنا جاءت محنة التستاوتي التي بدأت سنة 1095هـ/ 1684م حين أمر بالشخوص الأول للحضرة السلطانية، وتستمر المحنة إلى حين اعتقاله سنة 1104هـ/ 1693م ليقضي سنتين في حبس فاس الجديد، بأمر من السلطان إسماعيل، وبعد خروجه من السجن أمر بالإقامة بمكناس حتى يظل تحت سمع وبصر السلطات.

بدأ مسلسل المحنة بعد أن أصدر التستاوتي «الرسالة المهدوية» التي ينتقد فيها الوضع، ويحدد الخطوط العريضة للبرنامج السياسي الذي يقترحه للخروج من الأزمة، ويعتبر أن المهدي المنتظر، هو الذي سيقوم بالتنفيذ، محددا زمان ظهوره ومكانه، وفسّر عدم ذكر السلطان في الرسالة بأنه إنكار لشرعيته، وعزم على القيام عليه تحت غطاء المهدوية.

[الطريبق، أدب التستاوتي، 1/ 114 ـ 138؛ التستاوتي، شعر التستاوتي ـ التقديم: 53 ـ 57، 85 ـ 78؛ الترغي، حركة الأدب، 1/ 23 ـ 24].

استقطبت مؤسسة الزاوية ـ في أواخر عهد السعديين ـ النخبة الموجهة في المجتمع المغربي، بعد أن استحكمت جذورها فيه، وأصبح لها نفوذ روحي تنازع به السلطة، فانخرط التستاوتي في نشاط الزاوية الناصرية بإرشاد من صفيه اليوسي، الذي كان صلة وصل بينه وبين شيخها محمد بن ناصر الدرعي، بدأ الاتصال بينهما بالمراسلة، ثم وفد على الشيخ في زاويته بـ «تمكروت» مرتين: الأولى عام 1081هـ/ 1670م والثانية عام 1084هـ/ 1673م. وخلال كل مراسلة، وأثناء كل وفادة، كان يكاشف الشيخ، ويشهده على حقيقة نفسه، معلنا أمامه التوبة حتى يتمكن من الدخول في زمرته، وكان ملحاحا في خطابه للشيخ وذويه، حريصا على

تحقيق ما يرغب فيه، من قبول الانتماء، والإذن في تلقين الأوراد، والبشارة، والاعتراف له بأنه من أهل الأنس والإدلال، وبعد وفاة الشيخ ظل التستاوتي وفيا للزاوية الناصرية، على الرغم مما وقع بينه وبين الخليفة أحمد بن ناصر من وحشة.

أنشأ التستاوتي زاوية له في كل من تستاوت ومدينة سلا، وكانت له مراسلات توجيهية مع أتباعه هنا وهناك [الطريبق، أدب التستاوتي، 1/ 81 ـ 113؛ التستاوتي، شعر التستاوتي ـ التقديم: 86 ـ 87؛ الترغي، حركة الأدب، 1/ 258 ـ 260].

آثاره

1 ـ نزهة الناظر، وبهجة الغصن الناضر، مجموعة أدبية وعلمية وتاريخية، كادت تستوعب ما أنتجه التستاوتي، وقد جمعت هذه المجموعة وألفت مرتين: الأولى ـ قام بها التستاوتي نفسه، حين ألف كتابا سماه نزهة الناظر، وصدره بطليعة، وقسمه إلى خمسة أبواب: الباب الأول في ذكر ما حفظناه من الأذكار، ونقلناه عن السادات الأخيار. الباب الثاني فيما أجراه الله على أيدينا من مراسلات كالأزهار، وكاتبات تحاكي نسمات الأسحار. الباب الثالث في أسئلة وأجوبة تشفي الغليل، وتكشف الأضرار عن العليل ملحوظة كواكبها من سماوات الأخيار. الباب الرابع من أبواب هذا الكتاب الشامخ المقدار، في ذكر ما فتح الله علينا به من مستملحات الأشعار. الباب الخامس في ذكر ملحونات مثل نغمات الأوتار، تطرب الأرواح، وتحرك الأشباح، وتلبس القلوب ملابس الانكسار؛ الثانية، وتعتبر تأليفا جديدا لكتاب نزهة الناظر مزيدا ومنقحا، أشرف عليه أحمد بن عاشر الحافي السلوي الذي جمع في كتاب واحد بين تأليفين لشيخه التستاوتي، يسمى أحدهما: «نزهة الناظر، وبهجة الغصن الناضر»، ويسمى الثاني «شوارق الأنوار، وطوالع الأسرار» على أن يضيف إلى ذلك ما تيسر مما وقف عليه من أعمال الشيخ، دون أن يغير التبويب. وبذلك يكون الحافي قد جمع بين تأليفين وسمى الجميع من جديد «نزهة الناظر»، فأدمج «شوارق الأنوار»، وهو خاص بالأذكار، في الباب الأول من «نزهة الناظر»، وأدمج المنظومات التاريخية وشروحها وما تيسر من الرسائل إلى الباب الثاني، وأدمج ما تيسر من الأشعار و«نظم ألقاب الحديث» في الباب الرابع. يدور إنتاج التستاوتي في كتابه «نزهة الناظر» في شكلها الجديد حول أدب الرسائل والأشعار، وعلم الفقه ومصطلح الحديث، ومنظومات وشروحها في تاريخ رجال التصوف، وقد استطاع في هذا الإنتاج أن يصهر أدبه وعلمه وتصوفه وذاته وعصره في بوتقة واحدة، فكان إنتاجه وعاء لفكره الصوفي، وهمومه الذاتية، وقضايا عصره، وقد جعل من الرسالة أداته المفضلة للتواصل مع الجميع، نظرا إلى ما كان يجده من صعوبة في التنقل، لكونه كان مصابا بعاهة العرج؛ 2 ـ إجازة أحمد بن عبد القادر التستاوتي، كتبها لأحمد بن بوعسرية الفاسي الفهري، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم: ك 597 ضمن مجموع؛ 3 ـ شعر أبي العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتي، جمعه عبد اللطيف شهبون وحققه وقدم له، وخصص مجلدا للتقديم، وآخر للشعر، مرقون بكلية آداب الرباط

1411/ 1990؛ 4 ـ نزهة الناظر، وبهجة الغصن الناضر، أعاد تأليفها بالزيادة والتنقيح أحمد بن عاشر الحافي السلوي، مخطوطة الخزانة العامة بتطوان رقم 10 و11 في مجلدين، وللكتاب نسخ مخطوط ناقصة أو مبتورة في خزائن كل من الرباط وسلا ووزان.

المصادر والمراجع

● القادري، نشر المثاني، تح. حجي والتوفيق، الرباط 1407/ 1986، 3/ 227 ـ 228 ● م.ن، التقاط الدر، تح. هاشم العلوي، بيروت 1403 ـ 1983، 310 ـ 311؛ ● الناصري، طلعة المشتري، طبعة حجرية بفاس 1309هـ/ 1891م، 1/ 265، 274، 280، 289، 2/ 23، 39، 45، 54، 57، 59، 95؛ ● مخلوف، شجرة النور، القاهرة 1349/ 1930، 331؛ ● ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، الرباط 1347/ 1929، 1/ 329 ـ 334؛ ● ابن ابراهيم، الإعلام، مراجعة ابن منصور، الرباط 1414/ 1993، 2/ 353 ـ 357؛ ● الطريبق، أدب التستاوتي، مرقون بكلية آداب الرباط 1406هـ/ 1985م؛ ● م.ن، الخطاب الصوفي، مرقون بكلية آداب الرباط 1416هـ/ 1995م، البابان الرابع والخامس؛ ● م.ن، خطاب الملحون، بحث منشور في حوليات كلية اللغة العربية بمراكش عدد 4، 1994هـ/ 1415م، 68 ـ 103؛ ● الترغي، حركة الأدب، مرقون في كلية آداب تطوان، 1413هـ/ 1992م، 4/ 1271 ـ 1284.

د. عبد الرحمان كظيمي
كلية اللغة العربية ـ مراكش ـ المغرب

التستري الجزائري، نعمة الله بن عبد الله بن محمد

(1050هـ/ 1640م ـ 1112هـ/ 1701م)

السيد نعمة الله بن عبد الله بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمود، المشهور بالسيد الحسيني الجزائري، يرجع في أرومته الى عبد الله بن موسى الكاظم (الإمام السابع عند الإمامية الاثني عشرية) [القمي، الكنى والألقاب، 2/ 302]؛ وهو مشهور بالتستري (وقد عرف على الششتري، والششتري والشوشتري)، نسبة الى مدينة «تستر» في عربستان، تقع على نهر دجيل (كارون) ضمن حدود خوزستان [مادة تستر، دائرة المعارف الاسلامية، 5/ 241]، المعروفة أيضًا بجزائر البصرة ـ الأحواز. ومن هنا قد يعرف أحيانا بالسيد نعمة الله الجزائري [الأعلام، 8/ 39].

ولد السيد نعمة الله في قرية الصباغية من

نواحي تستر سنة 1050هـ/ 1640م، ونشأ وتعلّم فيها، ورحل في طلب العلم وهو في الخامسة والعشرين 1075هـ/ 1665م إلى شيراز، ثم أصفهان، وربّما البحرين، وعاد الى تستر 1090هـ/ 1680م بعد خمسة عشر عامًا من الدرس والتحصيل على مجموعة من علماء عصره البارزين، مثل الخوانساري، والمجلسي، والفيض، والشولستاني، والعروسي الحويزي، وميرزا محمد الجزائري، وحسين بن محيي الدين، وكانت ملازمة السيد نعمة الله لأستاذه المجلسي هي الغالبة على تحصيله الثقافي العام.

وليس صحيحا ما أورده ماجد فخري [تاريخ الفلسفة الإسلامية، 422] أنه كان من تلاميذ صدر الدين الشيرازي (المعروف ملا صدرا) الذي توفي سنة 1050هـ/ 1641م سنة ميلاد نعمة الجزائري التستري والصحيح أنه كان من تلاميذ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الشيرازي، وهو ابن ملا صدرا، [الكنى، 2/ 378] حتّى أصبح يوصف بـ «السيد الجليل والمحدث النبيل، واحد عصره في العربية والآداب والفقه والحديث والتفسير» [القمي، الكنى، 2/ 302 ـ 303]. وتاريخ وفاته سنة 1701م [الزركلي، الأعلام، 8/ 39] وقارن: .Al-asam, Ibn ar-Riwandi p. 359, no. 37 لأنه أصلاً وقع في 23 شوال 1112 هجرية [الكنى، 2/ 304] الذي يصادف 2 نيسان/ أبريل 1701، وليس كما أرّخه علي الجابري [الفكر السلفي، 396، ويبدو أنها متابعة واضحة للشيبي في الصلة، 538؛ الفكر الشيعي، 467].

توفّي السيد نعمة الله في قرية جايدر من نواحي جزائر البصرة وتستر سنة 1112هـ/ 1701م) عن عمر ناهز الستين عامًا (وليس كما ورد عند بروكلمان أنها سنة 1130هـ/ 1718م) [S - II ،586]. وقد ذكرت كارمّيلا بافيوني Carmela Baffioni أنه توفي سنة 1691م [Storia della filosofia islamica, p. 388]وبعدهُ كانت وفاة المجلسي 1700م؛ والصحيح أنه توفّي بعد المجلسي (بسنتين وليس قبله) قضاها في سعي دائم لتحصيل الحديث والفقه على نحو خاص، والأدب وعلومه على نحو عام. وترك آثاره في مجموعة من رجال عصره ابتداءً من ولده السيد نور الدين بن نعمة الله، وحفيده السيد عبد الله بن نور الدين، ومجموعة أخرى من المحدثين والفقهاء خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي [قارن القمي، الكنى، 2/ 304 ـ 305].

ومن خلال سيرته، يبدو السيد نعمة الله مصابًا بهواجس القلق واضطراب البال لكثير من دواعي الصراعات الفكرية في عصره بين الأصوليين (أهل الاجتهاد) والإخباريين (أهل الحديث)، وهي صراعات معروفة لدارسي الفكر الشيعي السلفي المتأخر. وقد ذكر في خاتمة كتابه «منبع الحياة»، قبيل وفاته بسنتين 1100هـ/ 1669م (وليس كما ذكر الجابري انها سنة 1668)، أنه «اتفق في تأليف هذه الرسالة في زمن غريب ودهر عجيب، ترى كلاً يبكي على حاله، كأنّما أوتي كتابه بشماله، خصوصًا طلاب العلوم...» [منبع الحياة، 86؛ قارن الجابري، الفكر السلفي، 369]. وقد تعرض عندما اختلّت موازنة القوى بين الأصوليين والسلفيين إلى نهب

مكتبته في أواخر عمره، ورمى الناهبون مؤلفاته في البئر [التنكابني، قصص العلماء، 319]. ولعل أبرز المؤثرات السلبية في خصومه هو هذا الاتجاه في التناقض بين التديّن والإباحة، والعقل والنقل، وأدب الدين وأدب الدنيا المكشوف، حتّى أنه ذيل كتابه زهر الربيع [ط. حجر، 375 ـ 398] بأسوإ ما يمكن وصفه من خلط جنسي في الأدب القصصي المكشوف الذي تجاوز حتّى (ألف ليلة وليلة)!

ومن استعراض مؤلفاته نعرف أن نعمة الله كان مؤلفا موسوعيًا في علوم عصره في الحديث، والفقه، والتفسير، واللغة، والأدب، والكلام حتّى وصف أنه "كان عالمًا فاضلاً محققًا مدققًا جليل القدر" [القمي، الكنى، 2/ 303].

وقد تناول أخباره وسيرته مدحا وقدحا مجموعة من العلماء، أبرزهم:

البحراني، لؤلؤة البحرين، ط. طهران 1263هـ/ 52 ـ 1853م، التنكابني، قصص العلماء، ط. طهران 1330هـ/ 1912م، الخوانساري، محمد باقر، روضات الجنات، ط. إيران 1307هـ/ 89 ـ 1890م.

الاخوندي، الشيخ علي، هامش الحدائق النضرة، للشيخ يوسف البحراني، النجف 1957م.

كما ذكر هو جوانب من معاناته في عصره في مؤلفه «منبع الحياة» وتشدّد الاجتهاديين (الأصوليين). فمن جهة رأى أن الفقه لا يصدر إلا عن الحديث شرحًا وتفسيرًا، ومن جهة أخرى ألغى جميع الوسائل المنطقية والعقلية في تفسير وتأويل النصوص عند الأصوليين؛ وقال بتخطئة المجتهدين إذا هم أخذوا بمبدأ الإباحة لعدم توفر دليل التحريم، ومال إلى ما ذهب إليه الإخباريون من أن الأصل هو التحريم. وهو بهذا المعنى ألغى دور العقل والمنطق في فهم النصوص واعتبارها غير وافية بالغرض طالما أن النص يتحدّث عن نفسه، وهذا تشدد في إدراك المعرفة على نحو ينتظم في أربعة مراتب أولها معرفة الإنسان بمدبّر العالم، ثم يتجه إلى توحيده، فيؤمن به واحدًا يخلو من الصفات التي تضيفها المدارك إلى الله لأنها ليست منه، وهو أمر يجب أن يتفاداه العلماء على سياق الإخباريين من السلفية اضطرارا لكن أيضًا ساقه قلقه المنهجي إلى متابعة الأصوليين الاجتهاديين. وعلى هذا الأساس يعدّ من الإخباريين السلفيين المعتدلين إزاء الاجتهاديين الأصوليين [الجابري، الفكر السلفي، 369 ـ 376]، وهو في الحقيقة لم يكن كذلك.

كما أنه لم يكن من الناحية الفلسفية إشراقيًا كما حسبه ماجد فخري [تاريخ، 424] بالرجوع إلى براون [Browne, Lit. Hist. of pers. p.p. 411f, 408f, 432f]. وهو أمر وقعت فيه بوفياني خطأ عندما أدرجته ضمن الإشراقيين من أتباع صدر الدين الشيرازي (الملا صدرا) [Boffiani ،388] لمتابعتها براون أيضًا [Ibid.p 389]. ومن نافلة القول إن نعمة الله الجزائري الموسوي التستري لم يكن إشراقيا، كما أنه لم يكن من العقليين، بل كان إخباريا سلفيا قلق المنهج بين الحديث والتفسير على نحو يتضح من النصوص التي وصلت إلينا منه وهي تتحدّث

عن رجل جماعة للنصوص دون تمحيص للخبر، كما يظهر لنا أنه أصيب بهوس الأخبار على علاّتها أواخر عمره حتّى ألف زهر الربيع الذي أدى إلى مصادرة مؤلفاته من متعصبي السلفيين الاخباريين.

آثاره

من مؤلفاته الكثيرة التي تركها [القمي، الكنى، 2/ 303]:

1 ـ تعليقات على القرآن الكريم؛ 2 ـ حواش على كتاب الاستبصار؛ 3 ـ شرح تهذيب الحديث؛ 4 ـ شرح تهذيب النحو؛ 5 ـ شرح الصحيفة السجادية؛ 6 ـ روضة الكافي وغوالي اللآلىء؛ 7 ـ توحيد الصدوق؛ 8 ـ عيون الأخبار؛ 9 ـ الاحتجاج؛ 10 ـ كافية ابن الحاجب؛ 11 ـ الأنوار النعمانية؛ 12 ـ المقامات؛ 13 ـ قصص الأنبياء؛ 14 ـ رياض الأبرار في مناقب الأئمة الأطهار؛ 15 ـ زهر الربيع؛ 16 ـ مسكن الشجون؛ 17 ـ غرائب الأخبار.

وقد ذكر الزركلي مؤلفات أخرى، منها عنوانات محرفة أو معدلة مما ذكرنا أعلاه:

1 ـ زهر الربيع؛ 2 ـ الأنوار النعمانية في معرفة النشأة الانسانية؛ 3 ـ مقصود الأنام في شرح تهذيب الأحكام؛ 4 ـ غاية المرام [مختصر رقم 3 السابق]؛ 5 ـ نور الأنوار في شرح كلام خير الأخيار؛ 6 ـ لوامع الأنوار في شرح عيون الأخبار؛ 7 ـ مقامات النجاة؛ 8 ـ نور الأنوار في شرح الصحيفة السجادية؛ 9 ـ فروق اللغة.

كما ينسب إليه كتاب منبع الحياة في حجّية قول المجتهدين من الأموات، وكتاب ربيع الأبرار، وكتاب الرجال. وقد ذكر له الجابري (10) عنوانات من مؤلفاته [الفكر السلفي، 370، هـ 3].

أ ـ ومن مؤلفاته المطبوعة:

1 ـ منبع الحياة، تح. محمد علي الخطيب، ط 1، مطبعة النجاة، بغداد 1930م.

2 ـ الأنوار النعمانية في بيان النشأة الإنسانية، تقديم محمد علي الطباطبائي، طبع إيران، حجر، 1280هـ/ 1863، وط 1378هـ/ 1960 [الشيبي، الفكر الشيعي، ط بغداد، 467؛ الصلة، ط مصر، 538]

3 ـ زهر الربيع، ط حجر [بومبي؟] 1291هـ/ 1874م، و ط حجر، إيران 1341.

4 ـ نور الأنوار في شرح الصحيفة السجادية [الزركلي، الأعلام، 8/ 39].

5 ـ فروق اللغة [الزركلي، الأعلام، 8/ 39].

المصادر والمراجع

● البحراني، لؤلؤة البحرين، ط. طهران، 1263هـ/ 53 ـ 1852، وط النجف 1386 هـ/ 1966م؛ ● التنكابني، قصص العلماء، ط. طهران، 1330 هـ/ 1912م؛ ● الخوانساري، روضات الجنات، ط. إيران، حجر 1307 هـ/ 1889م؛ ● القمي، عباس، الكنى والألقاب، 2/ 302 ـ 306؛ ● الأعسم، الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ط2، بيروت 1980م؛ ● أغابزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الأجزاء 1 ـ 6، النجف، طهران، 1355 ـ 1384هـ/ 1936 ـ 1965م؛ ● الجابري، علي

حسين، الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشرية، بيروت 1977؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 8/ 39؛ ● الشيبي، كامل مصطفى، الصلة بين التصوف والتشيّع، ط ثانية، القاهرة 1969م؛ ● م.ن، الفكر الشيعي والنزاعات الصوفية، بغداد 1386هـ/ 1966م؛ ● فخري، ماجد، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كمال اليازجي، بيروت 1974م؛

• Al-A'asam, A.: Ibn ar-Riwnadi's Kitab Fadihat al-Mu'tazilah, Beirut-Paris, 1975-1977
• Baffioni, Carmela: Storia della filosofia islamica, Milano 1991.
• Brockelmann. C., Supplementband, III, 1948 index.
• Browne, E.G.: Literary History of Persia, cambridge 1924 .

د. عبد الأمير الأعسم
بيت الحكمة ـ بغداد ـ العراق

التُّستري جلال البغدادي، أبو الفتح نصر الله

(733هـ/ 1333م ـ 812هـ/ 1409م)

جلال الدين أبو الفتح نصر اللّه بن أحمد بن محمد بن عمر التستري الحنفي، المعروف بجلال البغدادي.

والتُّستَري، بالتاء المضمومة، ثالث الحروف، وسكون السين المهملة، وفتح التاء الثانية والراء المهملة، نسبة إلى التستريين، وهي محلة كانت ببغداد في الجانب الغربي بين دجلة وباب البصرة، يسكنها أهل تستر، وتعمل بها الثياب التسترية.

ولد ببغداد سنة 733هـ/ 1333م، ومات أبوه وهو صغير، فرباه الشيخ الصالح أحمد السقاء، وأقرأه القرآن، واشتغل بالفقه على ولده الشمس محمد بن السقاء، وسمع الحديث من جمال الدين الحضري، وقرأ الأصول، على بدر الدين الأربلي، وأخذ عن شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرماني، عالم الحديث، صاحب كتاب «الدراري في شرح صحيح البخاري».

ولّي تدريس الحديث في المستنصريّة والمجاهدية، وغيرها من مدارس بغداد، وأكثر من الاشتغال بالحديث، وذكر ببغداد وانتفع الناس به.

خرج من بغداد سنة 789هـ/ 1387م، لما شاع أنّ تيمورلنك قصدها، فوصل إلى دمشق، فبالغوا في إكرامه. ولم يستقر فيها بل غادرها إلى القاهرة سنة 790هـ/ 1388م، باستدعاء ابنه المحب أحمد وكان قد دخلها قبله.

وكانت مصر في هذا العصر دار هجرة لكثير من العلماء والفضلاء وأصحاب الفكر، هربا من اضطهاد الغزاة، فصارت وبلاد الشام محل سكنى العلماء ومحط رحال الفضلاء. فازدهرت حركة الفكر، إذ اتّسم هذا العصر بكثرة فحول العلماء والمشايخ في كلّ الميادين، وقد نشطوا إلى التأليف والفتوى والتدريس والوعظ، وشغلوا بالمحاورات والمناظرات في علوم الدين وعقائده، فكان من وراء ذلك حركة فكريّة نافعة.

تصدّى التستري للتدريس والافتاء، وتقرّر في تدريس الحنابلة بمدرسة «الظاهر برقوق»، وحدث بالقاهرة بجامع «المسانيد» لابن الجزري.

كان مقتدرا على النظم والنشر. قال العسقلاني: «اجتمعت به، واستفدت منه، وسمعت من إنشائه». ومن نظمه في مدح بعض القضاة:

شريح ويحيي لو قضاياه شاهدا
لكان له بالفضل أعدل شاهد

ولو شاهد الحبران درْسا من دروسه
لأثنى وأولاه جميل المحامد

وكانت وفاته بالقاهرة في العشرين من صفر سنة 812 هـ/ 1409م.

آثاره

من تآليفه: 1 ـ حاشية على تنقيح الزركشي، في الفروع؛ 2 ـ حاشية على فروع ابن مفلح؛ 3 ـ شرح منتهى السؤال والأمل، لابن الحاجب؛ 4 ـ مختصر النقود والردود، لمحمد بن يوسف الكرماني؛ 5 ـ نظم غريب القرآن، 6 ـ منظومة في الفقه، تزيد على سبعة آلاف بيت؛ 7 ـ أرجوزة في الفرائض، في مائة بيت، جيدة في بابها؛ 8 ـ مدائح نبوية...

المصادر والمراجع

● السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل، القاهرة، دار إحياء الكتب، 1967، 1/ 482 ـ 483؛ ● السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، مكتبة الحياة، د. ت، 9/ 198؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار المسيرة، 1979، 7/ 99؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، دار الكتب، 1929، 13/ 175 ـ 1976؛ ● المقريزي، السلوك، ج4، ق 1/ 128؛ ● الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع، القاهرة، مطبعة السعادة، 1348، 2/ 316؛ ● البغدادي، هدية العارفين، إستنبول، 1951، 2/ 493؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، مطبعة الترقي، 1975، 13/ 94.

د. نزار محمد قادر
جامعة الموصل ـ العراق

التُّستري، أبو محمد سهل بن عبد الله يونس

(200هـ/815م - 283هـ/896م)

هو أبو محمد سهل بن عبد الله يونس التُّستري ولد بتُستير من أعمال الأهواز، وتوفّي بالبصرة. أحد أئمة القوم، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع. وكان صاحب كرامات [الرسالة القشيرية، 400]. وكان إمام وقته، ممدوحاً بكلّ الألسن. وله رياضات كثيرة، ومعاملات طيّبة، وكلام لطيف في الإخلاص وعيوب الفعال. وهو ممّن جمعوا بين الشريعة والحقيقة [الهجويري، كشف، 301]. سلك سهل الطريق في سنّ مبكّرة بتأثير من خاله المحدّث محمد بن سوّار الذي لازمه في حداثته. وحسب ما أوردته المصادر القديمة، فإن سهلاً قد تعرّض، وهو ابن اثني عشر عامًا، إلى أزمة روحية حيّرته؛ فسأل علماء البصرة في شأنها فلم يجد عندهم الجواب الشافي. فخرج إلى عبادان حيث لقي بها أحد الشيوخ أطلعه على سر محنته، فأقام عنده مدة. ثمّ رجع إلى تستر ليواصل حياة التقشف والصوم. فكان، كما يقول هو عن نفسه، يفطر على أوقية من خبز الشعير بغير ملح أو أدام. ثم عزم على أن يطوي ثلاثًا بدون أكل ثم يفطر ليلة، ثم خمسًا فسبعا فخمسًا وعشرين ليلة، وسار على هذا النظام عشرين سنة خرج بعدها إلى السياحة في الأرض عدّة سنوات [الرّسالة القشيرية، 401].

وتعتبر السياحة بالنسبة إلى أهل الطريق من المحطات المهمة والضرورية أحيانا لاستكمال عدته. ففي الوحدة تصفو النفس، وبالوحشة تجرّد من هموم الدنيا وشواغلها. وقد تكون السياحة أيضا للبحث عن شيخ يهدي السالك الطريق. وكانت سياحة سهل سياحة علم وعبادة معًا [عبد الحليم محمود، العارف بالله سهل التستري ...].

صحب سهل ذا النون المصري المنظّر الأول للتصوّف الإسلامي أثناء إقامته في مكة. ورغم أنه لم يكن يرقى إلى مستوى أستاذه، لكنه كان زاهدًا يحدوه إيمان عميق، ومنطقيًّا عقلانيا شديد التمسك بالسنة لا يحيد قيد أنملة عن قواعد الخلق؛ كما كان متكلما تزوّد من العلوم العقلية بزاد وافر [الموسوعة الإسلامية، مج 12/ 314]. وتقوم طريقة سهل في التصوف على المجاهدة، ورياضة النفس، وقتل شهواتها.

من تلامذته أبو عبد الله محمد سالم (ت 297هـ/ 909م) الذي قيّد أقواله التي أصبحت أساسًا قامت عليه المدرسة الدينيّة والزهديّة المسماة السالمية نسبة إلى ابن سالم، وابنه أبي الحسن الذي خلفه عليها.

كما يعدّ الحلاج من تلامذته أيضا، فقد قضى بصحبته عامين قبل أن يتركه فجأة [ماسينيون، عذاب الحلاج، (بالفرنسية)، 104]. وقد تأثّر به الحلاج، فنسج على منواله في

المجاهدة والصوم المتواصل وطريقة تفسير القرآن.

آثاره

ترك سهل، مثل كل الصوفيين، أقوالاً كثيرة بلغت الألف هي التي جمعها تلميذه أبو عبد الله محمد بن سالم. وقد أورد عبد القادر الجيلاني عشر مقالات منها، وردّ عليها واصفًا فرقة السالمية بالضالة [الغنية، 94 - 95]. وتتّصل هذه المقالات وغيرها بمسائل شائكة ومثيرة للجدل مثل رؤية الله، والتجلّي، والحقيقة المحمدية؛ وبمفاهيم دينية وصوفية عامة كعلم التوحيد والأخلاق والتوبة والإخلاص والتقوى والذكر والحمد والشكر والصبر والولاية والمحبّة والكرامات، بالإضافة إلى حكم ومواعظ ونصائح كان يسديها إلى مريديه وأتباعه.

إلى ذلك كان التُّستري من المناهضين للمتكلمين والمعتزلة، ولاسيما فيما يتعلق بقضية خلق القرآن. وقد سار مع التجربة الرّوحية في مسالكها ومعارجها ومدارجها، وكان يحياها حياة المتبصّر العالم [عبد الحليم محمود، م. س، 47].

هذا وقد أورد أبو نعيم الإصبهاني في حليته أقوالا كثيرة لسهل التُّستري منها قوله: «إن أصولنا ستة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة وأداء الحقوق» [حلية، 190].

وقوله: «من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، ومن طعن في التكسب فقد طعن في السنة» [م. س، 195].

وقوله: «المؤمن أكرم على الله من أن يجعل رزقه من حيث لا يحتسب» [م، س، 94 - 95].

وقوله: «الغضب أشدّ في البدن من المرض. إذا غضب دخل عليه من الإثم أكثر ممّا يدخل عليه في المرض» [م. س، 96].

ومن آثاره أيضا:

1 - تفسير القرآن، مختصر مطبوع؛

2 - رقائق المحبين، ... الخ.

المصادر والمراجع

● الهجويري، أبو الحسن علي، كشف المحجوب، طبعة مصر 1974؛ ● الأصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1967؛ ● محمود، عبد الحليم، العارف بالله سهل التستري، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت؛ ● الموسوعة الإسلامية، الطبعة العربية، ج. 12؛ ● القشيري، أبو القاسم، الرسالة القشيرية، تح. معروف زريق وعبد الحميد بلطه جي، دار الجيل، بيروت، د.ت.؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، دار العلم للملايين، بيروت، 1999، 3/ 143.

- MASSIGNON, Louis: La passion de Huseyn Ibn mansour HALLAJ, Tome 1, Gallimard, 1975.
- J. Virier, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, Paris 1954.

محمد الخالدي

كاتب - تونس

التُّسولي، ابن أبي يحيى إبراهيم بن عبد الرحمان

(ت بعد 749هـ/1348م)

هو إبراهيم بن عبد الرحمان بن أبي بكر التّسولي، المغربي المالكي ويعرف بابن أبي يحيى (أبو سالم، أبو إسحاق). الفقيه المالكي الكاتب البليغ. وأهمّ من ترجم له هو القاضي إبراهيم بن نور الدّين المعروف بابن فرحون (ت 799هـ/ 1396م).

أصله من مدينة تازى المغربية التي تقع بين الريف والأطلس الأوسط. عاش بفاس عاصمة الدولة المرينية. وعاصر اثنين من أقوى سلاطينها هما أبو السعيد عثمان (709هـ/ 1310م ـ 731هـ/ 1331م) وابنه أبو الحسن علي (731هـ ـ 1331م / 749هـ ـ 1338م). وقد اعتنى كل من هذين السلطانين بالحياة العلمية والثقافية، وذلك بإقامة المدارس التي اشتهرت منها مدرسة الصهريج، ومدرسة العطارين، ومدرسة المصباحية وغيرها. ومثلّت المدارس ـ بالإضافة إلى المساجد ـ أماكن للتعليم ونشر العلم والمعرفة واستفاد منها عدد كبير من الطلبة منهم التّسولي.

أخذ التّسولي عن جملة من الشيوخ ذكرت المصادر البعض منهم. فقرأ على القاضي الفقيه علي بن محمد عبد الحق الزرويلي، المعروف بأبي الحسن الصغير (ت 719هـ/ 1319م) [مخلوف، شجرة النّور، 1/ 215] ولازمه وتفقه عليه. وكان أبو الحسن يُقرئهُ رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومدوّنة الإمام سحنون. وقد نقل ابن فرحون في الديباج حديث التّسولي عن هذه المرحلة في حياته، قال: «حضرت مجالسه (أبو الحسن الصغير) بمدرسة عدوة الأندلس من فاس ولم أر في متصدّري ملّته أحسن تدريسا منه» [ابن فرحون، الديباج، 146]. كما روى التّسولي عن أبي زكرياء بن ياسين، قرأ عليه الموطأ إلى كتاب المكاتب الدّية فإنه سمعه بقراءة الغير. وروى عن أبي عبد الله محمد بن عمر الفهري السّبتي المعروف بابن رُشيد (ت 721هـ/ 1321م) [مخلوف، شجرة النّور، 1/ 217]، قرأ عليه الموطأ، وكتاب الشفاء للقاضي عياض. وروى عن أبي الحسن بن عبد الجليل السّدراني، قرأ عليه الأحكام الصغرى لعبد الحق. ثم روى أيضا عن أبي الحسن بن سليمان، قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

ويتبين الناظر في الكتب التي درسها التّسولي مدى اهتمام علماء وطلبة ذلك الوقت بالعلوم الشرعية من فقه وحديث. بالإضافة إلى الاهتمام بقواعد اللغة العربية والنحو والصرف والبلاغة لفهم العلوم الشرعية والاستفادة منها بدرجة مطلقة. لذلك جمع طلبة وعلماء العصر، منهم مترجمنا: بين اللغة العربية والتبحر في الفقه وعلوم الحديث النّبوي. وبما أنّ ذلك العصر اشتهر باقتصار المؤلفين

في الفقه على وضع شروح وحواش على الكتب القديمة دون اجتهاد وكتابة مؤلفات جديدة فإنّ التّسولي قام بنفس هذا العمل ووضع تصنيفين فقهيين تأثرا بمنهج شيوخه في التأليف.

قضى الإمام التّسولي أيامه في التّدريس مشتهرا بفصاحته وقدرته على الإلقاء وجلب انتباه المستمعين، ومختصًا في تدريس الفقه؛ وكان مجلسه وقفا على التهذيب والرسالة.

وبالإضافة إلى التدريس اشتغل مدّة طويلة من حياته في خدمة السّلطان أبي الحسن علي الذي استعمله في كتابة الرسائل. وكان بذلك من المقربين من الحكام، وقد لامه ابن فرحون لصحبته للسلطان واعتبر أنّ ذلك يمثّل محنة وابتلاء. وقال في ذلك: «امتحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله في الرّسائل، فانصرف في ذلك حظ كبير من عمره، لا في راحة دنيا ولا نصيب الآخرة. وهذه سنة اللّه فيمن خدم الملوك، ملتفتا إلى ما يعطونه، لا إلى ما يأخذون من عمره وراحته، لطف اللّه بنا، وبمن ابتلي بذلك، وخلصنا خلاصا جميلا» [ابن فرحون، الديباج، 146].

أما تلاميذه فلم تسعفنا المصادر بذكر أسمائهم رغم كثرتهم ما عدا أحد الأعلام البارزين في التاريخ، وهو المؤرخ والأديب البارع لسان الدّين أبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن سعيد التلمساني الغرناطي المعروف بابن الخطيب (ت 776هـ/ 1344م) [مخلوف، الشجرة، 1/ 230، الزركلي، الأعلام، 6/ 235]. وقد كان ابن الخطيب قد خرج من الأندلس في سنّ متقدمة ودخل إلى مدينة فاس بالمغرب، وصار أحد أفراد مجلس السلطان المريني. ولم يكن شغله السياسي داخل القصر ليحول دون توجّهه إلى مجلس الإمام التّسولي وحضور دروسه. وتحدّث ابن الخطيب عن شيخه في كتابه المسمّى عائد الصلة قائلا: «الشيخ الفقيه، الحافظ القاضي، من صدور المغرب، له مشاركة في العلم، وتبحّر في الفقه، كان وجيها عند الملوك، استعمل في السّفارة، وكان حسن العهد، مليح المجالس، كريم الطّبع» [نقله ابن فرحون عن ابن الخطيب في الدّيباج، 146].

مرض التّسولي في آخر حياته، وحدّثنا عن ذلك الفقيه ابن مرزوق (ت 781هـ/ 1397م) عرضا في كتابه المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن. وقال إنّه من بين الذين اختارهم السلطان أبو الحسن المريني لمرافقته في حملته على إفريقية مع مجموعة من الفقهاء المغاربة البارزين. إلا أنّه مرض في الطريق وأصيب بالفالج واعتقد النّاس قرب موته حتى أمر السلطان بإرجاعه إلى فاس. وبعد مدّة تحسّنت حاله دون أن يسترجع كامل صحّته إذ فقد القدرة على استعمال يده اليمنى في الكتابة. وأخبرنا الفقيه ابن مرزوق أنّه اتّصل منه برسالة كتبها بشماله وحدّثه فيها أنّه توجّه إلى الراحة وتحسّنت حالته الصحية. وأعلم ابن مرزوق السلطان المريني بتحسن حالة إبراهيم ابن أبي يحيى (التّسولي) مما يفيد مكانته في البلاط المريني [ماريا خيسوس فيغيرا، «أخبار إفريقية» في «المسند» لابن مرزوق، الكراسات التونسية، عدد 103 - 104، 1978، 61 - 87]. وأكمل الإمام التّسولي حياته في فاس ولازم منزله بسبب المرض الذي أصابه.

وكان يتلقى زيارة السلطان فمن دونه. وتوفي بعد عام تسعة وأربعين وسبعمائة للهجرة/ 1348م حسب ما ورد في كتب التّراجم، إلا أنّ ابن فرحون ذكر أنّه توفي عام ثمانية وأربعين وسبعمائة، [ابن فرحون، الديباج، 146] وهو أمر غير مؤكّد.

آثاره

ترك الإمام التّسولي بعض التصانيف منها:
1 ـ شرح لرسالة ابن أبي زيد القيرواني [البغدادي، إيضاح المكنون، 1/ 557، كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 4]. وهو شرح «عظيم الفائدة» حسبما ذكر ابن فرحون على لسان ابن الخطيب. لكنّ صاحب شجرة النور الزكية يعتبر هذا التصنيف مجرد تقييد على الرّسالة [مخلوف، شجرة النور، 1/ 220]؛ 2 ـ كما ترك تقييدا على التّهذيب للبراعي [مخلوف، ن. م]؛ 3 ـ وترك تصنيفا آخر هو عبارة عن أجوبة على المسائل كتبها في سفر، وهي ـ حسب الشيخ مخلوف ـ أجوبة شيخه القاضي أبي الحسن الصغير. وقد قام فيما بعد الشيخ إبراهيم بن هلال بشرح هذه الأجوبة في تصنيف أطلق عليه اسم «الدّر النّثير».
وأضاف الباحث عمر رضا كحالة إلى تصانيف الإمام التّسولي كتابا آخر هو تقييد على مدوّنة سحنون. وقال: «إنّه قيّد على المدوّنة كتابا» [كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 44]. وهذا أمر غير مؤكد حسب المعلومات المتوفّرة في المصادر.

المصادر والمراجع

● المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عبّاس، م 2، دار صادر بيروت 1408/ 1988، 3/ 198 ـ 199؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدّين الجنّان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1417هـ/ 1996م، 146؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، 1/ 557؛ ● كحالة، رضا عمر، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1/ 44؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النّور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1/ 220.

د. منير رويس
جامعة الزيتونة ـ تونس

التُّسولي، أبو الحسن علي بن عبد السلام

(ت 1258هـ/1842م)

أبو الحسن علي بن عبد السلام بن علي، التُّسولي، السّيراري [حسبما ذكر عن نفسه في كتابه شرح التحفة] المدعو مديدش [البغدادي، هديّة العارفين، 1/ 775؛ الزركلي، الأعلام، 4/ 299]، «الفقيه النوازلي الحامل لواء المذهب . . . المحقق المتفنّن المؤلّف المتقن» [مخلوف، شجرة النور، 1/ 397].

ولد بتُسول إحدى مدن المغرب الأقصى المنسوبة إلى قبيلة تُسول من قبائل البربر. ولم تقدّم كتب التراجم تاريخا محددا لولادته. نشأ وترعرع بمدينة فاس التي كانت منارة العلم في تلك الحقبة من الزمن، حيث كان يوجد فيها جامع القرويين.

عاش التُّسولي في عهد الدولة العلوية وتزامن عيشه مع الحاكم سليمان بن محمد (1206 ـ 1238هـ)، والحاكم عبد الرحمن بن هاشم (1238 ـ 1276هـ). وقد اختصّ هذا العصر بالاضطراب السياسي بسبب الصراع على الحكم، والاضطراب الاقتصادي والاجتماعي بسبب تدهور صناعة السّلع التقليدية أمام منافسة السلع الأروبية العصرية، لا سيّما منها المنسوجات الصوفية والقطنية الشيء الذي أدّى إلى انهيار البنى التقليدية للاقتصاد والمجتمع المغربيين. أما الأوضاع الخارجية المؤثرة في المغرب فقد طغى عليها حدث احتلال فرنسا للجزائر سنة 1246هـ/ 1830م مما أربك الأوضاع الدّاخليّة.

ومقابل ذلك شهدت الحياة الثقافية نشاطا وحيويّة نسبية انطلاقا من جامع القرويين بفاس الذي كان يعجّ بالعلماء وتتعدّد فيه الحلقات العلمية مما سمح بتكوين نخبة مثقّفة مغاربة منهم صاحب هذه الترجمة.

أخذ التُّسولي عن عدد من الشيوخ تذكر كتب التراجم منهم اثنين فقط: الأوّل هو الشيخ محمد بن محمد بن إبراهيم الدكالي الفاسي (ت 1241هـ/ 1825م)، وهو عمدته إذ لازمه مدّة طويلة وانتفع به. والثاني هو الشيخ حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون الشهير بابن الحاج (ت 1232هـ/ 1816م) الذي انتفع بفقهه وقدرته على التحقيق.

وترك الإمام التُّسولي عددا من التلاميذ لم يقع تحديد عددهم بالضبط. والأمر الثابت هو أنّهم كثيرون لقوله في مقدّمة كتابه البهجة: «طلب مني كثير من طلبة الوقت أن أضع لهم شرحا عليها. . .»، مما يدل على انتفاع كثير من طلبة العلم بعلمه. ولم تذكر المصادر سوى تلميذين له هما: أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الصادق الرجراجي، القاضي الفقيه؛ وأبو الحسن علي بن محمد السوسي الفاسي، النحوي والنوازلي المشارك في عدّة علوم [الكتاني، سلوة الأنفاس، 2/ 351 ـ 352].

جمع التُّسُولي ثقافة متنوّعة ظهرت في مصنّفاته. فهو «فقيه مشارك مطلع محرّر له اليد الطولى في النوازل والأحكام» [الكتاني، سلوة الأنفاس، 1/ 238]، ويدلّ على ذلك الكتاب الذي وضعه وعنوانه: «الجواهر النفيسة فيما يتكرّر من الحوادث الغريبة»، الذي جمع فيه نوازل الزياتي (ت 1055هـ/ 1645م)، وفتاوى شيخه الدكالي المذكور، وكذلك فتاوى علماء المغرب. ويدلّ على ذلك أيضا أجوبته عن مسائل الأمير عبد القادر التي تدلّ على تضلّعه وتبحره في الفتاوى الفقهية عامّة والمالكية خاصّة.

وكان لعنايته الفائقة بالعلوم الفقهية وتمكّنه في الفقه المالكي أن ولي خطّة القضاء مرتين: الأولى بفاس سنة 1247هـ/ 1831م، والأخرى بتطوان بعد سنة 1250هـ/ 1834م. كما كان عالما بالوثائق فجمع وثائق الزياتي ورتّبها أحسن ترتيب، فاشتهر بذلك واحتلّ مكانة مرموقة حتّى وصف بالموثق [الكتاني، سلوة الأنفاس، 1/ 238].

وقد تمكّن من علوم العربية ونبغ فيها وظهر ذلك في شرحه للعاصميّة، فقال في مقدّمة شرحه: «إنّه يحتوي على إعراب كلّ ألفاظها ليتدرّب المبتدىء بعلم النحو» وقال: «إنّ علم النحو عليه المدار في الفهم والإفهام» [التُّسُولي، البهجة في شرح التحفة، طبعة 1991، 1/ 2].

ونظرا إلى ممارسته التأليف والجمع والتحقيق والترتيب، وقيامه بشرح الكثير من المسائل الفقهيّة، فقد تكوّنت لديه خبرة علميّة أهّلته للتدريس والإقراء، فكان يدرّس بفاس وصار «علما بارزا من أعلام جامع القرويين»، [التازي، جامع القرويين، 3/ 810]. واشتهر بتدريس العاصميّة وشرحها وتبيان ما خفي منها. وقيل عنه: إنّه «درس ودرّس وألّف، وانتهت إليه راية المذهب المالكي في المغرب» [الكتاني، سلوة الأنفاس، 1/ 238].

واختصّ التُّسُولي من بين علماء عصره بمكانته الجهادية، وهو ما تجلّى بعد احتلال الجزائر سنة 1246هـ/ 1830م. فقد تأثّر بالحدث وألّف خطبة جهادية راقية متمثّلة في التحريض على الجهاد والاستعداد له، مضمّنا إياها بعض الأحكام الجهادية، ومنكرا على المتقاعسين المتثاقلين إلى الأرض. وكان داعيا إلى مقاتلة العدوّ دون رأفة. وطاف التُّسولي بالمغرب حاثا الناس على الجهاد في سبيل الله. ولمّا وجه الأمير عبد القادر الجزائري مسائله في الجهاد إلى حاكم المغرب، اصطفى سلطان المغرب الإمام التُّسولي للإجابة عنها مما يدلّ على ثقة السلطان به واشتهاره لديه بالنبوغ والعناية بالجهاد ومسائله.

آثاره

للإمام أبي الحسن التُّسُولي تآليف عديدة اتّصفت بدقّة التوثيق والتحرير، منها ما هو شرح لبعض الوثائق المهمّة أو هو تأليف جديد. وقال السلاوي إنّها «من التآليف الحسان» [السلاوي، الاستقصا، طبعة 1956، 9/ 47]. وأهم تصانيفه هي الآتية:

1 ـ البهجة في شرح التحفة، (جزآن)، المطبعة الخيرية، مصر الطبعة الأولى، 1304هـ. وهو شرح الأرجوزة المسمّاة بتحفة الحكام للقاضي أبي بكر محمد بن محمد بن

عاصم الأندلسي (ت829هـ/ 1425م) التي تعتبر من أجلّ ما ألّف في علم الوثائق. وقد راعى في شرحه لها إبراز ما خفي من معانيها وإظهار فروع تناسبها، وإعراب كلّ ألفاظها، وبيان معانيها لتسهل الاستفادة بها. وقال: «طلب منّي الكثير من طلبة الوقت أن أضع لهم شرحا عليها يشفي الغليل ويكمل المرام، ويكشف ما خفي من معانيها من وراء اللثام ويحتوي على إعراب كلّ ألفاظها ليتدرّب المبتدىء بعلم النحو الذي عليه المدار في الفهم والإفهام، وعلى بيان منطوقها ومفهوم الكلام، وعلى إبراز فرائد الفوائد وفروع تناسب المقام مبيّنا فيه ما به العمل عند المتأخرين من قضاة العدل والأئمة والكرام...» [التُّسولي، البهجة في شرح التحفة، 1/ 3 ـ 4]. وقد فرغ من تأليف هذا الشرح سنة 1256هـ، وطبع في البداية على الحجر بفاس سنة 1290هـ، كما طبع مرارا بمصر عام 1304هـ و 1305هـ بالمطبعة الجديدة الخيرية وعلى هامشه شرح التاودي على التحفة، وطبع أيضا في عام 1318هـ؛ 2 ـ الجواهر النفيسة فيما يتكرر من الحوادث الغريبة، ونصّه مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، ويوجد منه أربعة أجزاء فقط أرقامها هي: 1/ 5354، 2/ 5355، 3/ 5356، 4/ 5357 .ذكره الباحث محمد الكتاني وسماه النوازل [الكتاني، سلوة الأنفاس، 1/ 238] وذكره مخلوف وقال عنه: «جمع فيه فتاوى شيخه الدكالي وفتاوى الزياتي وفتاوى عدد من متأخري فقهاء المغرب. وهي فتاوى مبوّبة حسب تبويب كتاب مختصر خليل الفقهي»؛ 3 ـ حاشية على شرح التاودي للامية الزقّاق، هي حاشية الإمام التّسولي على شرح محمد بن سودة التاودي (ت1209هـ/ 1794م) للامية فقيه فاس أبي الحسن علي بن قاسم بن محمد التجيبي، الشهير بالزقاق (912هـ/ 1506م)، حيث جمع فيها كلّ ما قيّده على هذا الشرح حينما كان يدرّسه للطلبة. وقد فرغ من تأليف هذه الحاشية آخر الربيع النبوي الأنور عام 1250هـ. وقد طبعت على الحجر بفاس عام 1303هـ. كما طبعت وهامشها شرح التاودي عام 1304هـ بالمطبعة التونسية في 231 صفحة؛ 4 ـ أجوبة التّسولي على مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، وهي التي أشرنا إليها آنفا. وذلك أنّه في سنة 1252هـ/ 1836م بعث الأمير الحاج عبد القادر بن محيي الدين سؤالا لعلماء فاس في شأن الخطب الذي حلّ بالقطر الجزائري، وأجابه عنه برسالة في عدة كراريس، وهذا الخطب تسبب عنه استيلاء فرنسا على الجزائر سنة 1246هـ وعلى بقية القطر شيئا فشيئا [مخلوف، شجرة النور، 1/ 397]. وتحدث الإمام التّسولي عن هذا التأليف في كتابه البهجة في شرح التحفة، في فصل الغصب والتعدّي قائلا: «وقد بسّطنا الكلام على ذلك بما يشفي الغليل إن شاء اللّه في الفصل الثالث والسادس من أجوبتنا لأسئلة الإمام الأمير عبد القادر بن محيي الدين» [البهجة، 2 / 351 ـ 352]. وطبعت هذه الأجوبة ونشرت لأوّل مرّة في طبعة حجرية بالمغرب دون تاريخ، وتتكوّن من ثلاث وثمانين صفحة وعنوانها أجوبة الإمام العلامة النوازلي أبي الحسن التّسولي للشيخ عبد القادر بن محيي الدين.

كما كانت هذه الأجوبة موضوع أطروحة

دكتوراه الحلقة الثالثة، درسها وحققها الباحث عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، تحت إشراف الأستاذ رشيد التليلي، بالكلّية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس (1407 ـ 1408هـ/ 1987 ـ 1988م)؛ 5 ـ شرح الشامل لبهرام (بهرام بن عبد الله الدميري ت 805هـ/ 1402م)، وقد ذكره التسولي في كتابه البهجة في شرح التحفة في مسائل معرفة أركان القضاء حيث قال: «وانظر شرحنا للشامل أول باب الصلح» وهذا مما يدل على أنّ شرحه للشامل كان قبل شرحه لتحفة ابن العاصم. وذكر مخلوف هذا الكتاب وجعله من جملة مصنّفات التسولي وقال: إنّه «في عدّة أسفار» [مخلوف، شجرة النور، 1/ 397].

المصادر والمراجع

● الكتاني، سلوة الأنفاس، طبعة حجرية بفاس، 1/ 238؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، د.ت، 1/ 775؛ ● مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1/ 397؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، 1986، 4/ 299؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 7/ 122.

د. منير رويس
جامعة الزيتونة ـ تونس

التشيتي، أحمد الصغير بن حمى الله

(1224هـ/1809م ـ 1272هـ/1855م)

أحمد الصغير بن حمى الله، التشيتي المسلمي. عرف بالصغير تمييزا له عن سميٍّ أكبر منه. وينتهي نسبه إلى محمد مسلم. وهو من ذرية ولي الله عقبة بن نافع الفهري، فاتح إفريقية، وباني القيروان.

أسرته أسرة علم وصلاح، حتّى أنه أثر عن جدّه محمد مسلم أنّه دعا لذريته أن لا يفقد منهم العلم والولاية، ولم يزل ذلك مشاهدا فيهم حتّى يومنا هذا. أمّا أمّه فهي عائشة بنت الشيخ، وتنتمي هي الأخرى إلى أسرة ذات علم وفضل وصلاح. وينتهي نسبها إلى الحسن بن علي كرم الله وجهه.

نشأ أحمد الصغير في مدينة تيشيت التاريخيّة التي أسّسها الشريف عبد المومن بن صالح، تلميذ القاضي عياض السبتي. وتعتبر المدينة آنذاك من أرقى حواضر بلاد شنقيط في مجال نشر العلوم والمعارف. وقد تلقّى فيها دراساته. وبعد أن توفي والده، تلقفته تلك البيئة الثقافيّة الواسعة لتجعل منه عالما فقيها، نحويّا، لغويّا، بيانيا، أصوليّا منطقيّا،

عروضيا، وشاعرا. تصرف في مجمل تلك الفنون، واشتغل بها منذ صغره. وساعده في ذلك ثروة مطالعته ومدارسته لتلك العلوم، تدريسا وتصنيفا، حيث لم تفارقه الكتب في سفر أو حضر.

تنقل أحمد الصغير في معظم حواضر البلاد، والتقى بأشهر علماء المنطقة وأجازوه في تدريس معظم الاختصاصات والمتون المدروسة في محاضرهم.

ومن أبرز تلك المتون: صحيح البخاري وصحيح مسلم، وموطأ مالك، والشفاء للقاضي عياض، وكتب ابن الأثير، وتفسير الجلالين، ومختصر الشيخ خليل، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني وشروحها، ومختصر ابن الحاجب، ومجموع الشيخ الأمير، وتحفة ابن عاصم، وعقائد السنوسي، وحرز الأماني للشاطبي، والدرر اللوامع لابن بري، وكتب ابن مالك في النحو، وعقود الجمان للسيوطي، وتلخيص المفتاح للقزويني، ومؤلفات عبد الله بن الحاج حمى الله القلاوي الشنقيطي، وسيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي، وجمع الجوامع لابن السبكي وشرحه للمحلي، والتنقيح للقرافي وأنوار البروق له أيضا، والمنهج للزقاق وتكميله لميارة، وجمل الخونجي وإيساغوجي، ومختصر السنوسي، وشرح ميارة عليه، وكلها في علم المنطق. وكذلك مؤلفات القلصادي وابن سعيد في علم الحساب.

وقد تمت إجازة أحمد الصغير بالإفتاء والتدريس والمرويات من جماعة كبيرة من الشيوخ.

وقد دوّنت هذه الإجازات وأثبتت في كتاب ألفه ابن المؤلف الشيخ محمد بن أحمد الصغير وسماه «منن العلي الكبير بفوائد أحمد الصغير». كان أحمد الصغير في أواخر حياته قد اشتغل بفنّ الطب حتّى برع فيه.

لقد كانت لتلك المطالعات والقراءات والإجازات أثرها البالغ في حياة الرجل العلميّة، حيث خلدها بجملة من المؤلّفات.

آثاره

1 - منة العلي بما أخبر به الولي، تعقب فيه قول الشيخ المختار بن بونه في وسيلة السعادة؛ 2 - فتح المولى في حكم المولى؛ 3 - وقاية الجسم والعرض من إثم زكاة العرض؛ 4 - المفيد في تصرف العبيد؛ 5 - فتح الكريم في حكم الموات والحريم؛ 6 - فتح المقيت في حكم مكوس أهل تيشيت؛ 7 - فتح القدوس في إبطال أسوس المكوس؛ 8 - نزهة أفكار أهل الإنصاف والسالمين من التعصب والاعتساف؛ 9 - نصائح الأران في التنبيه على قبائح مقران؛ 10 - مصباح الفقيه من كل بؤس يقيه؛ 11 - فتح المجيد في دفع وسواس التوحيد؛ 12 - فتح المقال في شرح توحيد الأقفال؛ 13 - منة الوهاب في تأثير الأسباب؛ 14 - سلم السعادة في شرح كلمة السعادة؛ 15 - الياقوت والمرجان في عقائد الإيمان؛ 16 - كشف الجهالة في التوحيد والرسالة؛ 17 - مختصر الرسالة القدسيّة للشعراني؛ 18 - الدرة الفاخرة في مصالح الدنيا والآخرة؛ 19 - تنوير القلوب وتيسير المطلوب وتفريج الكروب في الصلاة على النبي المحبوب، وله شرح عليه سماه «الكنز

المرغوب»؛ 20 ـ فتح الرحيم، وهو نظم في علم التشريح الطبي.

وله مؤلفات كثيرة غير ما ذكر، وأنظام نافعة في شتّى العلوم. ولأحمد الصغير مشاركة واسعة في ميدان الشعر. مدح النبي ﷺ بقصائد غرر، كما مدح شيخه الشيخ محمد الحافظ العلوي، والشيخ التجاني وسمّى تلك القصيدة «ميسرة الأماني»، وله في شيخه أحمد الولي قصائد حسنة.

كان أحمد الصغير صاحب دور كبير في نشر الطريقة التجانيّة بين أتباعه ومريديه وتلامذته. وقد حصل على درجة التصرف في جميع أحوال الصوفيّة. وصحب قطبين هما: أحمد الولي، والشيخ محمد فاضل، ونال عندهما الحظوة والمحبّة. وعمل على تطهير النفس والاشتغال بالطاعات. وكانت مجالسه تذكره بالله، وما اجتمع معه أحد إلاّ انتفع به. وعمت بركاته الخاصة والعامة والفساق والجهلاء، وحسن إسلام كلّ من ثبتت له معه صحبة. وكان يلقن الصبيان كلمة الشهادة ويكرّرها عليهم حتّى يتعوّدوا عليها.

نال أحمد الصغير سمعة واسعة، واكتسب شهرة وثقة عند وجهاء المنطقة، وغدا بذلك رمزا سياسيًا، له دوره البارز في صنع القرار. نجح في استرداد حرّية بنات امبارك اللّواتي استرقهن الشيخ عمر الفوتي في الحرب التي دارت بينه وبين أبناء امبارك. وقد ساعدته هذه الوساطة في أن يأخذ الأمان لأهل تيشيت وقوافلهم من أبناء امبارك الذين كانوا يهاجمونهم ويعترضون سبيلهم عندما يدخلون في أرضهم.

ولعلّ فكرة قيام الدولة الإسلاميّة على أرض بلده لم تفارقه قط. فكان يعتبر أنّ المجتمع لا بدّ له من عقد اجتماعي ينتظم فيه، ولا بدّ له من سلطة تنظم أموره وتعطي لكلّ ذي حق حقّه. ومنطقه في ذلك أنّ الإسلام دين، ودولة، وشريعة، وعمل.

وقد أثبت هذه الفكرة في عدّة مراسلات، من بينها رسالته للشيخ سيد المختار ابن الشيخ سيد محمد الكنتي، شرح فيها ضرورة وجود البيعة للمسلمين، إيمانا بالحديث الشّريف «من مات وليس تحت بيعة مات ميتة الجاهليّة».

ولد أحمد الصغير في 28 من جمادي الأولى في الثالث أو الرابع والعشرين بعد المئتين والألف، وتوفي وهو عائد من سفره من عند الشيخ عمر الفوتي، في ربيع النّبوي سنة 1272 هجريّة، ودفن عند موضع يدعى «احسي أحمد» رحمه اللّه تعالى.

المصادر والمراجع

● ابن أحمد الصغير، محمد، منن العلي الكبير في فوائد أحمد الصغير (مخطوط)؛ ● م.ن، فتح الكريم في حكم الموات والحريم، تح. الشريف بن شبخنا، المعهد العالي للدّراسات والبحوث الإسلامية، السنة الجامعيّة 1988 ـ 1989؛ ● المحجوبي الدلاتي، منح الرب الغفور في ذكر ما اهمل صاحب فتح الشكور، الطالب ببكر بن أحمد المصطفى، تح. محمد الأمين بن حمادي، جامعة انواكشوط، السنة الجامعية 1992 ـ 1993.

أ. أسلمو ولد السبتي
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

التطواني، محمد بن الحاج أحمد بن داود

(ت 1405هـ/1984م)

محمد بن الحاج أحمد بن محمد داود التطواني الأندلسي، الفقيه الأستاذ والمؤرّخ والصّحفي.

ولد محمد بن أحمد بن محمد داود التطواني بمدينة تطوان، شمال المغرب، في عائلة محترمة وورعة. حفظ القرآن وما تيسّر من المتون العلميّة على شيوخ مدينته، وعلى رأسهم الفقيه محمد بن تاويت والفقيه محمد المرير. ولازم الفقيه المؤرّخ أحمد الرهوني، والفقيه أحمد الزوافي بدون انقطاع، وعنهما آخذ سائر الفنون والعلوم المتداولة. ثمّ التحق بجامعة القرويّين بفاس عام 1338هـ/ 1920م حيث تتلمذ مدّة سنتين على يد أشهر علمائها أمثال الفقيه أحمد بن الخياط، والفقيه أبي شعيب الدكالي، ومحمد بن العربي العلوي، وغيرهم. ثمّ عاد إلى مسقط رأسه للاشتغال بالتّعليم والعدالة.

وفي سنة 1929م تزوّج بالسيّدة رقيّة ابنة الأستاذ الحاج عبد السلام بنونة «أبي الحركة الوطنيّة المغربيّة بالشّمال»، وهي والدة جميع أبنائه: حسن، وإحسان، ولسان الدين، ومصطفى، وحسناء.

في عام 1349هـ/ 1930م عيّن عضوا سكرتيرا في لجنة إصلاح التّعليم الإسلامي بالمنطقة الخليفيّة، وهو الّذي وضع مشروع الإصلاح المذكور.

وفي هذه الفترة كان على اتّصال بالأستاذين علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني بفاس، حيث عمل معهما على وضع قانون أوّل جمعيّة وطنيّة بالمغرب، وذلك قبل ظهور الأحزاب السّياسيّة.

كما كان عضوا عاملا في لجنة المطالب الوطنيّة الأولى الّتي قدّمها شمال المغرب للجمهوريّة الإسبانيّة عام 1350هـ/ 1931م. وفي نفس السّنة انتخب عضوا في المجلس البلدي بتطوان باقتراع حرّ على عهد الجمهوريّة الإسبانيّة. وفي سنة 1933م انتخب عضوا في اللّجنة العلميّة المكوّنة لدرس قانون تنظيم محاكم العدليّة المخزنيّة. وعيّن عضوا في لجنة تنظيم قانون المحاكم الخزنيّة بالمنطقة الخليفيّة سنة 1934.

وفي نفس العام أيضا عيّن عضوا بالمجلس الأعلى للتّعليم الإسلامي بشمال المغرب، وكان عمله في هذين المنصبين الأخيرين مجانيّا.

وفي عام 1355هـ/ 1937م عيّن مفتّشا عاما للتّعليم الإسلامي بالمنطقة الخليفيّة. وهو أوّل وظيف حكومي تولاّه في حياته. وبفضل مجهوداته تمّ تأسيس سبعة معاهد دينيّة وكثير من المدارس العصريّة، ووضع مناهجها الدّراسيّة. وفي سنة 1939م تمّ تعيينه نائبا لرئيس المجلس الأعلى للتّعليم الإسلامي،

وعضوا بالمجلس الأعلى للأوقاف الإسلاميّة بشمال المغرب.

وفي عام 1361هـ/ 1942م عيّن مديرا للمعارف بالمنطقة الخليفيّة، وهو أعلى منصب في التّعليم حيث وجد الفرصة سانحة لتنفيذ آرائه ومقترحاته عندما كان مفتّشا فقط، ولذلك قدّم عدّة تقارير إلى الجهات العليا المختصّة لإصلاح التّعليم وتطبيق مناهج عصريّة متطوّرة مقتبسة من أحدث مناهج الشّرق وأوروبا. وقد قدّم استقالته من هذه الوظيفة سنة 1948م، واقتصر على التّدريس إلى أن نال المغرب استقلاله.

وفي فجر الاستقلال (عام 1376هـ/ 1956م) عيّن مدرّسا بالمعهد الدّيني العالي بتطوان ثمّ عضوا في لجنة مدوّنة الفقه الإسلامي.

وفي نفس السّنة عيّنه الملك محمد الخامس عضوا في المجلس الوطني الاستشاري، ولقد انتخب مستشارا في مجلسه الإداري، وبتلك الصّفة بعث لتمثيل المجلس الوطني الاستشاري في عيد استقلال تونس.

وفي نفس السّنة عيّن عضوا في لجنة امتحان شهادة العالميّة بالقرويّين بفاس، كما عيّن عضوا في اللّجنة الملكيّة لإصلاح التّعليم بالمغرب وفي لجنة وضع مدوّنة الأحوال الشّخصيّة.

وحينما أنشئ المجلس الأعلى للتّربية الوطنيّة سنة 1959م كان هو من بين أعضائه أيضا. وفي سنة 1969م أسند له الملك الحسن الثّاني مديريّة المكتبة الحسنيّة (الملكيّة) بالرّباط حيث شرع في فهرسة محتوياتها إلى أن قدّم استقالته من هذه الوظيفة سنة 1974م، وذلك لأسباب صحيّة اضطرّته للرّجوع إلى مسقط رأسه تطوان، حيث اشتغل بأبحاثه ومؤلّفاته إلى أن وافته المنيّة يوم الاثنين 4 يونيه 1984م.

عُرف محمد داود بكونه «أستاذ الجيل» لارتباط مسيرة حياته بوضع اللّبنات الأولى للمدرسة المغربيّة الوطنيّة، وبكونه أحد الرّوائد الأوائل للحركة الوطنيّة المغربيّة في ميدان التّربية والتّعليم والصّحافة والتّدوين التّاريخي.

فقد قام - مع جملة من رفاقه - بتأسيس «المدرسة الأهليّة» بتطوان سنة 1343هـ/ 1925م. وهي أوّل مدرسة عربيّة إسلاميّة حرّة عاملة على تعليم النّشء تعليما عربيّا إسلاميّا وطنيّا على الطّريقة الحديثة. وعمل مديرا لها ومدرّسا بها متطوّعا حوالي اثنتي عشرة سنة. ومن هذه المدرسة الوطنيّة تخرّج أغلب - إن لم نقل كلّ - قادة الحركة الوطنيّة بالمنطقة الشّماليّة، فتلامذتها هم مؤسّسو حزب الإصلاح الوطني وقادته، وجلّ روّاد الصّحافة الوطنيّة بالمنطقة. كما أنّها كانت بداية الانتعاشة الثّقافيّة بالمنطقة والّتي تُوّجت بإرسال البعثات الطّلاّبيّة إلى الشّرق، سواء إلى نابلس في أكتوبر 1928م أو إلى مصر خلال نفس السّنة حيث كانت خطوة أساسيّة في طريق الانفتاح الثّقافي والسّياسي على الشّرق العربي.

وفي عام 1347هـ/ 1928م قام محمد داود بتأسيس شركة «المطبعة المهديّة» صحبة وطنيّين آخرين، بهدف كسر الاحتكار الثّقافي والصّحافي للدّولة الإسبانيّة الحامية في مجال الطّباعة والإعلام. وكانت أوّل مطبعة عربيّة

كبرى في الشّمال. وإليها يرجع الفضل في نشر الوعي عموما وترسيخ أسس الثّقافة بطبعها الآلاف من المنشورات والمطبوعات والجرائد والمجلاّت والصّحف الوطنيّة خلال نصف قرن من الزّمان.

وانتقل محمد داود إلى الكتابة الصّحفيّة لوعيه بأهمّيتها كعلامة ربط أساسيّة بين العمل الوطني والمسألة الثّقافيّة. فأنشأ عام 1352هـ/ 1933م مجلّة «السّلام» وتولّى إدارتها وتحريرها، وهي أوّل صحيفة عربيّة حرّة وطنيّة صدرت بالمغرب، وجعل شعارا لها: «العروبة - الإسلام - المغرب». وقد صدر منها عشرة أعداد من فاتح أكتوبر 1933م إلى غاية شهر نوفمبر 1934م. وكانت مجلّة «السّلام» تجربة رائدة في مجال الصّحافة والنّشر، وفي مجال حريّة التّعبير. فقد ساهمت بشكل كبير في إنضاج الوعي الوطني والثّقافي، وقد أولت عناية خاصّة لقضيّة الأمّة العربيّة - الإسلاميّة ونهضتها، وكانت تطرق موضوعات سياسيّة في غاية الأهميّة لدرجة أنّ السّلطة الاستعماريّة الفرنسيّة أصدرت الأمر بمنعها وعدم ترويجها بالمغرب الخاضع للحماية الفرنسيّة بقرار نشر بالجريدة الرّسميّة بتاريخ 18/ 05/ 1934م بحجّة إخلالها بالأمن العامّ والإضرار بقوّات الاحتلال. وعرف شمال المغرب انطلاقة فريدة من نوعها على المستوى الصّحفي لا يمكن إنكار أنّ فضلها يعود إلى محمد داود الّذي شارك بقلمه سواء باسمه الحقيقي أو باسمه المستعار في إغناء أغلب الصّحف الوطنيّة والمجلاّت الصّادرة بالمنطقة، وكذا مراسلة جريدة «الأهرام» المصريّة.

إنّ الأهميّة الّتي أولاها محمد داود للصّحافة كسلاح سياسي وثقافي وكعامل تغيير دفعته إلى إنشاء صحيفة «الأخبار» سنة 1936م إلّا أنّها لقيت نفس مصير مجلّة «السّلام» إذ تمّ منعها بعد صدور خمسة أعداد منها آخرها بتاريخ 12 أبريل 1936م.

وفي عام 1353هـ/ 1934م أصدرت مندوبيّة طنجة وحاكمها قرارا بنفي محمد داود من منطقة طنجة الدّوليّة، وإخراجه من المنطقة السّلطانيّة معتبرا وجوده بها خطرا على الأمن العامّ. وفي نفس السّنة كان هو الممثّل الرّسمي لجمعيّة طلبة شمال افريقيا بفرنسا في عهد محمد الفاسي لها.

وفي سنة 1935م توجّه إلى المشرق العربي في رحلة استغرقت ستّة أشهر، أدّى خلالها الفريضة، وزار نجدا والعراق وشرق الأردن وفلسطين ومصر. ومنعته فرنسا من دخول سورية ولبنان لكونهما كانتا تحت انتدابها يومئذ. وفي سنة 1937م سافر إلى مصر بصفة رسميّة لدراسة ما يتعلّق بالتّعليم، وفيها مرّ بفرنسا وإيطاليا، وزار سويسرا واجتمع بالأمير شكيب أرسلان في جنيف.

يعرف داود بأنّه «مؤرّخ تطوان». فقد كرّس جلّ حياته لكتابة «تاريخ تطوان». ويعدّ هذا الكتاب إحدى المساهمات الهامّة ضمن المدرسة المغربيّة «التّقليديّة» الّتي ظهرت أواخر القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين. ونذكر من أبرز أعلامها أحمد النّاصري صاحب كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، والمؤرّخ عبد الرحمان بن زيدان صاحب كتاب «إتحاف أعلام النّاس بجمال حاضرة مكناس»،

والمؤرّخ المرّاكشي القاضي العبّاس بن إبراهيم مؤلّف كتاب «الإعلام بمن حلّ بمرّاكش وأغمات من الأعلام». وكان لمحمد داود اتّصال مباشر ببعض هؤلاء الأعلام واطّلع على مؤلّفاتهم. وكان لبعضها خصوصا كتاب «عمدة الرّاوين في تاريخ تطاوين» للفقيه أحمد الرهوني تأثير مباشر في انكباب محمد داود على كتابة تاريخ مدينته.

وتتجلّى أهميّة موسوعة «تاريخ تطوان» في تسطيرها لتاريخ المدينة منذ نشأتها وربطه بإطارها الوطني وبالتّطوّرات الدّوليّة، فضلا عن التّأريخ لأهمّ الأحداث التّاريخيّة المغربيّة وخصوصا خلال القرن التّاسع عشر. فقد وجد داود حين اشتغاله مديرا للمكتبة الملكيّة بالرّباط ضالّته المنشودة واغترف من الوثائق الّتي لها صلة بتطوان وبتاريخها، سواء كانت رسائل مخزنيّة أو كنانيش أو رسوم عدليّة أو حوالات حبسيّة أو غيرها من الوثائق، مقدّما للباحثين بذلك مادّة أوّليّة غنيّة. ولهذا الكتاب مختصر أحرز جائزة المعهد الحسني بتطوان لسنة 1953م.

ولقد وسّع داود نظرته لموضوع التّاريخ وانكبّ على دراسة النّواحي الاجتماعيّة لتاريخ تطوان، كما يتّضح ذلك في كتابه «تكملة تاريخ تطوان» الّذي خصّصه لدراسة خطط المدينة وعوائد أهلها وعناصرهم الإثنيّة ولهجاتهم وأمثالهم واحتفالاتهم... إلخ. ممّا يدلّ على وعيه بأهميّة التاريخ الحضاري العام الّذي يستعرض عناصر حضارة المدينة، الرّوحيّة والمعماريّة والثّقافيّة والدّينيّة والماديّة. وقد أفرد لبعض هذه المواضيع مؤلّفات قائمة بذاتها كما يتجلّى من لائحة مؤلّفاته.

آثاره

1 - مختصر تاريخ تطوان، الطّبعة الأولى، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1375هـ/ 1955م، 357 صفحة. طبعة ثانية، جزآن، المطبعة المهديّة، تطوان، 1955م.

2 - تاريخ تطوان: أ - المجلّد الأوّل، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1379هـ/ 1959م. ب - المجلّد الثّاني، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1384هـ/ 1965م. ج - المجلّد الثّالث، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1382هـ/ 1962م. د - المجلّد الرّابع، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1384هـ/ 1964م. هـ - المجلّد الخامس، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1386هـ/ 1966م. و - المجلّد السّادس، مطبوعات وزارة الدّولة المكلّفة بالشّؤون الثّقافيّة والتّعليم الأصلي، تطوان، 1390هـ/ 1970م. ز - المجلّد السّابع، الجزء الأوّل منه، المطبعة المهديّة بتطوان، 1395هـ/ 1975م؛ والجزء الثّاني منه: المطبعة المهديّة بتطوان، 1396هـ/ 1976م. وأخرج المجلّد بأجزائه الثلاثة في المطبعة الملكيّة، الرّباط، 1411هـ/ 1990م. ح - المجلّد الثّامن، المطبعة الملكيّة، الرّباط، 1399هـ/ 1979م. ط - المجلّد التّاسع، منشورات الخزانة الدّواديّة، تطوان، 1419هـ/ 1998م.

3 - على رأس الأربعين، الجزء الأوّل،

منشورات جمعيّة تطاون أسمير، مطبعة الشويخ (ديسبريس)، تطوان، 1421هـ/2001م. وهو عبارة عن مذكّرات شخصيّة بدأ الفقيه داود بكتابتها منذ سنة 1915م ولم يتجاوز عمره 14 سنة. ويمكن اعتبارها، بالنّظر إلى محتواها، نوعا من التّأليف التّاريخي. وتقع في جزأين (الجزء الثّاني ما يزال مخطوطا)؛ 4 ـ الأمثال العاميّة في تطوان والبلاد العربيّة، إصدار المجموعة الحضريّة بتطوان، مراجعة وتنسيق حسناء داود، الجزء الأوّل، تطوان. والكتاب عبارة عن مجموعة من الأمثال والحكم والتّعابير العاميّة السّائدة في تطوان، مشروحة ومقارنة مع ما يقابلها في باقي البلاد العربيّة (وبقي منه جزء ثان يشتمل على شروح الأمثال المنشورة واستطرادات كثيرة)؛ 5 ـ النّور البراق في ترجمة الشيخ محمد الحراق، تطوان، 1968م، هو منقول من الفصل الثّاني من الباب الثّامن من المجلّد السّادس من كتاب «تاريخ تطوان»؛ 6 ـ من قضاة تطوان وعدولها ووثائقها في القرنين العاشر والحادي عشر، فصلة من مجلّة (تطوان)، العدد الثّاني، 1957م؛ 7 ـ ألف مثل ومثل من أمثال تطوان، فصلة من مجلّة البحث العلمي، يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي، الرّباط، العدد 2، السّنة الأولى، 1964م.

أمّا مؤلّفاته المخطوطة فهي:

1 ـ تاريخ تطوان، المجلّد العاشر والحادي عشر والثّاني عشر والثّالث عشر؛ 2 ـ المجتمع التّطواني من خلال أمثاله ودعواته وتعابيره، مخطوط غير مكتمل؛ 3 ـ معجم اللّغة العاميّة في تطوان؛ 4 ـ عائلات تطوان، مخطوط في نحو ستّمائة صفحة، وقد ترجم فيه داود لما يزيد على 1200 عائلة؛ 5 ـ كتاب التّكملة في وصف خطط تطوان وسكّانها والحياة الاجتماعيّة بها، مخطوط غير مكتمل؛ 6 ـ العملة المغربيّة في مائة عام.

وجميع المؤلّفات المخطوطة المشار إليها أعلاه توجد بالخزانة الدّاوديّة بتطوان الّتي حبّسها صاحبها على طلبة العلم، وهي من الخزائن العامرة، إذ تزخر بذخائر من أمّهات الكتب والوثائق والمجلاّت، وصحافة قديمة وحديثة وطنيّة وشرقيّة، ومجموعة من الطّوابع البريديّة والعملات القديمة. وتشرف على المكتبة حاليّا الأستاذة حسناء داود.

المصادر والمراجع

● داود، محمد، ترجمته الشّخصيّة بقلمه بآخر المجلّد الأوّل من تاريخ تطوان، طبعة تطوان، 1375 هـ؛ ● م.ن، على رأس الأربعين (مذكّرات)، الجزء الأوّل، تقديم وتعليق حسناء داود، منشورات جمعيّة تطاون أسمير، تطوان، 1421هـ/2001م؛ ● أستاذ الجيل الرّائد الكبير المرحوم محمد داود في مهرجانه التّأبيني، منشورات جمعيّة قدماء معهد مولاي المهدي، إعداد مصطفى الشعشوع، تطوان، 1404هـ/1984م؛ ● أعمال ندوة، محمد داود، الحركة الوطنيّة في الشمال والمسألة الثّقافيّة، منشورات اتّحاد كتاب المغرب، الرّباط، 1990م؛ ● السلمي، محمد بن الفاطمي، الشّهير

بابن الحاج، إسعاف الإخوان الرّاغبين بتراجم ثلّة من علماء المغرب المعاصرين، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، 1412هـ/ 1992م؛ ● تأبين الفقيه محمد داود، تنظيم جمعيّة الطّالب المغربي، منشورات جمعيّة تطاون أسمير، سلسلة شخصيّات تطوان، 1996م.

د. محمد الشريف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان ـ المغرب

■ تعاسيف، قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني

(574هـ/ 1178م ـ 649هـ/ 1251م)

قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر الرئيس علم الدين تعاسيف السلمي الدمشقي الحنفي الكاتب، رياضي ومهندس اشتهر في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. ولد عام 574 هـ/ 1178م في مصر بأصفون من صعيد مصر، وإليها نسب.

نشأ تعاسيف في أصفون، وكان أبوه قد ورد إليها، فتزوج بامرأة وتركها حاملا، ثم إنّ أباه أرسل فأخذه إلى القاهرة. وتلقى قيصر معظم تعليمه على كبار علماء القاهرة، فسمع القرآن من محمد بن محمد بن بيان الأنباري ومحمد بن يوسف الغزنوي، وسمع وروى عنه الدمياطي. ثمّ عمل في ديوان المال، وأثناء عمله سجل كثيرا من الملاحظات والانتقادات لنظام الدواوين في مصر، فولي نظر الدواوين المصرية، فعكف على تنظيمها وإدارتها. وكان شديد النقد، عنيف الطبع، فلم تشكر سيرته وكثر تعسفه وظلمه، فعرف بها لقبه، ولكن أفكاره الإداريّة ظلت متبعة مدّة طويلة في الديوان القاهري.

وأثناء ولايته الديوان عهد إليه الأمير علي أمير جاندار بتكليف من الملك الظاهر بيبرس بحفر خليج الإسكندريّة، وكان قد أمر بحفره سنة 404هـ الحاكم بأمر الله أبو منصور بن العزيز وأنفق فيه خمسة عشر ألف دينار، ثمّ إن فوهته امتلأت بالطين وقل الماء في الإسكندريّة، مما دعا إلى الحفر مرّة أخرى عام 662 هـ، وقام بها قيصر خير قيام.

وكان قيصر ولعا بالمعرفة، وكان قد أتقن العلوم الشرعية والرياضية في القاهرة وتاقت نفسه إلى المزيد، فترك عمله في الديوان، وانتقل إلى الموصل حيث تتلمذ هناك على يد كمال الدين أبي عمران بن يونس في علمي الفلك والموسيقى، فقرأ عليه أكثر من أربعين كتابا في مقدار سنة، ثمّ ارتحل إلى الشام واستقرّ في حماة، فأقبل عليه ملكها وأحسن إليه وولاه تدريس النورية.

اهتم قيصر اهتماما كبيرا بالمصادرة الخامسة من مصادرات إقليدس التي لم يبرهنها إقليدس، فبذل قيصر قصارى جهده لإثباتها وكتب رسالة متكاملة فيها وأهداها إلى نصير الدين الطوسي الذي سجل ملاحظاته على بديهيات إقليدس وأضاف عليها إضافات جوهريّة. ولقد استخدم قيصر معلوماته الهندسية الهائلة في تصميم ساقية حماة الشهيرة على نهر العاصي عندما أراد أن يظهر براعته الهندسية لحاكم حماة المظفر الثاني تقي الدين محمود (626 هـ) وذلك تلبية لرغبة المظفر. وكان لهذه الساقية أثر كبير في انتشارها في أنحاء الدولة الإسلاميّة. فقد انتقلت هذه التقنية إلى أسبانيا، إذ يوجد ناعورة شبيهه بنواعير حماة كانت مستخدمة في طليطلة تعود إلى نفس القرن. ثمّ شاع استعمالها بعد ذلك في أسبانيا، وانتشرت منها في أجزاء أخرى من أوروبا، وهذه الساقية مازالت قائمة حتى أيامنا هذه.

كما قام قيصر ببناء أبراج فلكيّة عندما طلب حاكم حماة ذلك لكي يتمكن طلاب العلم من رصد الكواكب والأجرام السماوية في بلاد الشام. فصارت حماة بذلك مركز إشعاع في علم الفلك. وفي عام 622 هـ/ 1225م عمل قيصر كرة سماوية من الخشب الفاخر وأهداها لحاكم حماة ورسم عليها جميع الكواكب التي رصدها العلماء الأوائل. وبقيت هذه الكرة السماوية معمولا بها في جميع أنحاء المعمورة حتى 1224هـ/ 1809م.

عاش قيصر معظم حياته في حماة، وفيها عاصر فتنة ابن المشطوب، وفي ذلك يروي الذهبي في تاريخ الإسلام: «لما كان المعظم بديار مصر عام أول، بلغه أن الملك الفائز أخاه قد اتفق مع الأمير عماد الدين بن المشطوب أحد الأمراء الكبار على أخيه الكامل، وقد استحلف للفائز العساكر. فعرف الكامل فرحل إلى أشموم، وهمَّ بالتوجه إلى اليمن، ويئس من البلاد، فقال له المعظم: لا بأس عليك، وركب وجاء إلى خيمة ابن المشطوب، فخرج إلى خدمته بغير خف، وركب معه، فسير معه، فأبعد به، وقال: أخي الأشرف قد طلبك فسر إليه مسرعا. فقال: ما معي غلماني ولا قماشي، فوكل به جماعة، وقال: هؤلاء في خدمتك. وأعطاه نفقة خمسمائة دينار، وقال: كل شيء تريد يلحقك في الحال، فسار، وجهز المعظم جميع أحواله خلفه، ثمّ رجع إلى مخيمه، فجاء الكامل إليه وقبل الأرض بين يديه. وأمّا الفائز فخاف خوفا، واجتاز ابن المشطوب على دمشق وحماة، وعدى الفرات إلى الأشرف فتلقاه وأكرمه، فصار يركب بالشبابة، ويعمل له موكبا كالأشراف، فأعطاه أرجيش، فتجبر، وخامر على الأشرف، وطمع إلى ماردين. ثمّ قصد سنجار في هذه السنة، وساعده صاحب ماردين، فسار لحربه الملك الأشرف، فدخل ابن المشطوب إلى تلعفر، فأنزله بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثمّ قيده وبعث به إلى الأشرف، فألقاه في الجب، فمات بالقمل والجوع. وكان عماد الدين أبو أنور الدين صاحب قرقيسيا مع الأشرف، فكاتب ابن المشطوب، فعلم الأشرف، فحبسه وبعث به مع العلم قيصر تعاسيف إلى قرقيسيا وعانة، فعلقه تحت القلعتين وعذبه، وتسلم تعاسيف جميع بلاده، وأراد الأشرف أن يرميه في الجب، فشفع فيه الملك

المعظم، فأطلقه، فسار إلى دمشق فأحسن إليه المعظم، واشترى بستان ابن محبوس بنواحي العقيبة، وبنى فيه قبة، وأقام به إلى أن مات، ودفن بالقبة، وهي على الطريق في آخر عمارة العقيبة من شمالها بغرب».

ولقد توفي قيصر تعاسيف يوم الأحد ثالث عشر رجب من سنة تسع وأربعين وستمائة عن عمر يقارب خمسة وسبعين عاما.

■ المصادر والمراجع

● ابن رافع السلامي، الوفيات، حققه صالح مهدي عباس، بيروت، 1982 م، مؤسسة الرسالة؛ ● سارتون، جورج، مقدمة في تاريخ العلم، بالتيمور، 3 مجلدات، 1929 ـ 1948؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، القاهرة، 1987 م، دار الكتاب العربي؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، حققه دوروثيا كرافولسكي، بيروت، 1982 م، دار الأندلس، ج 17؛ ● الدفاع، علي عبد الله، روائع الحضارة العربية والإسلامية في العلوم، الرياض، 1991 م، دار عالم الكتب.

د. هاني محي الدين عطية
جامعة القاهرة ـ مصر

■ التعاليمي ، أبو زكريا، يحيى بن أحمد بن هذيل

(ت 753هـ/1352م) ■ ■ ■

يحيى بن أحمد بن إبراهيم بن هُذَيْل التُّجيبيُّ الغَرْناطيُّ، أبو زكريا، الطبيب، الرياضي، الأديب.

لم تُفْصِح مصادر ترجمته عن تاريخ ولادته، وبداية حياته الأولى، ولم تذكر شيئا ذا بال عن تلك المرحلة. وإن كان لنا من عتب على تلك المصادر فعتبنا على تلميذه الوفي العلامة المؤرخ لسان الدين بن الخطيب الذي لازمه ملازمة الظل حتى وفاته ودفنه ، وكان قد تفرد بترجمة شيخه أبي زكريا بن هذيل ترجمة حافلة، فأصبح المؤرخون عيالا عليه في هذه الترجمة.

كان أصل أبي زكريا بن هذيل من أرجُذُونَة (أو أرشُذُونَة: قاعدة كورة رَيَّة، ومن مدنها مالقة بينهما ثمانية وعشرون ميلا) في بيت يدل على الأصالة والثروة.

كان أبو زكريا ميالا إلى العلوم العقلية، شغوفا بها فسعى جاهدا إلى طلب هذه العلوم من الشيوخ المشهورين بالأندلس فأكثر من ملازمة شيخه الأستاذ العلامة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسي المعروف بابن الرّقام (ت 715هـ/ 1315م) الذي استخدمه ثاني ملوك غرناطة محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه (ت 701هـ/ 1302م) فأقرأ

التعاليم والطب والأصول بغرناطة، فانتفع به الناس، وله مصنفات جليلة في هذه العلوم. قرأ عليه أبو زكريا بن هذيل الحساب والهندسة والأصول والجبر والمقابلة والنجوم، وبه تخرج وعنه أخذ الصنعة.

وأخذ عن الشيخ العلامة الفقيه اللغوي المقرىء أبي بكر محمد بن علي بن محمد بن الفخار الجذامي المالقي (ت723هـ/ 1323م) العربية والأدب وقرأ عليه كثيرا من الكتب.

ودرس على الأستاذ الفقيه الأصولي أبي محمد القاسم بن عبد الكريم بن جابر الأنصاري الغرناطي (ت714هـ/ 1314م) كراسة الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت 606هـ/ 1209م) المسماة بـ«الآيات البينات» ولتعلقه بهذه الكراسة قام بشرحها شرحا غريبا يدل على فَهْم وإدراك.

وقرأ الأصول على الأستاذ النظّار أبي القاسم قاسم بن عبد الله بن محمد بن الشاط الأنصاري (ت723هـ/ 1323م) وحيد دهره، وفريد عصره في الأصول والفرائض.

وأخذ المنطق عن شيخه المتفنن أبي عبد الله محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن خميس الحجري التلمساني (ت708هـ/ 1308م).

ودرس الهندسة على شيخه العلامة أبي إسحاق يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطي وانتفع منه كثيرا.

ودرس الحساب على العالم الرياضي أبي الحسن بن راشد وتعلم منه كثيرا.

وتاقت نفسه إلى الرحلة للمغرب ولقاء الأطباء والمذاكرة معهم والأخذ عنهم، فقرأ الطب على شيخ الأطباء بالمغرب أبي عبد الله الأركشيّ، وأبي زكريا القصري وكانا من أعلام الطب البارزين، ذاعت شهرتهما وبَعُدَ صيتهما مما توجب على أبي زكريا بن هذيل الرحلة إليهما والأخذ عنهما، كما أخذ عن جملة من الإسلاميين بالعدوة.

وعند عودته من عدوة المغرب، أقام بغرناطة طبيبا مشهورا، وأصوليا بارعا، وأديبا فاضلا، وتصدر للتدريس بالمدرسة النصرية بغرناطة، وكان يدرس الأصول والفرائض، والطب.

وكان أبو زكريا بن هذيل من أهل المعرفة بصناعة الطب وتدقيق النظر فيها، فانتدب بأَخَرَة إلى خدمة باب السلطان بهذه الصناعة، فأصبح من جملة أطباء الدار السلطانية لملوك غرناطة. ولا يمارس الطب في الدار السلطانية ويتولى طبابة الملوك إلاّ من عُقدت الخناصر على تفضيله، وشهد له العلماء بالتقدم في الصناعة الطبية تشخيصا وعلاجا. فزاد تقربه إلى ملوك غرناطة بهذه الصنعة، فضلا عما يتمتع به من مشاركة حسنة في الفنون وخصوصا في الأدب.

كان في تدريسه بالمدرسة النصرية، وخدمته طبيبا بالدار السلطانية خير دليل على مكانته العلمية بين علماء عصره، فقد كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها من طب وهندسة وهيئة وحساب وأصول وأدب. ويشهد له في جميع ما أتقن من علوم ومعارف تلميذه لسان الدين بن الخطيب الذي يقول فيه: «درة بين الناس مغفلة، وخزانة على كل فائدة مقفلة، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة أبدع من رتب التعاليم وعلمها، وركّض في الألواح قلمها،

وأتقن من صور الهيئة ومثلها، وأسس قواعد البراهين وأثَلَّها، وأعرف من زاول شكاية، ودفع عن جسم نكاية، إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم، والوصول من المجهول إلى المعلوم...».

وأثنى على تقدمه بالعلوم ومشاركته الحسنة للفنون الأمير أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر الغرناطي بقوله: «وتكلّم من مفاصل التكلم في التعاليم لما هو حكيم بالتحكيم. حكم بأقلام الأقاليم، وقام بالاقتصاد في الأرصاد، وتصرف في صناعة البرهان بما حسن المقالات في الأذهان. وهو حسنة من حسنات الزمن في رياضيات أبي معشر والمؤتمن، وهو طب أحسن علاج النفوس في أجسادها، وأصلح بدلائل الصحة ما استبان من فسادها».

وأبو معشر: هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي الفلكي الرياضي (ت272هـ/ 886م) عالم مشهور، عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم وكان أعلم الناس بتاريخ الفرس وأخبار الأمم. صنّف مجموعة من الكتب في عدة فنون.

والمؤتمن: هو يوسف بن أحمد بن سليمان ابن هود (ت478هـ/ 1085م) صاحب سرقسطة. كان بارعا بالعلوم الرياضية، شديد الشغف بها، له مؤلفات جليلة فيها. ولهذه الشهرة العلمية التي تمتع بها أبو زكريا بن هذيل لازمه عدد من الطلبة يأخذون عنه ما أتقن من علوم ومعارف، وكان منهم: أبو جعفر أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري الحبالِيُّ الغرناطيُّ (كان حيا سنة 763هـ/ 1362م)، قرأ على أبي زكريا بن هذيل الطب وتخرج به وأصبح من المشهورين بصناعة الطب والتعديل وجداول الأبراج وله بصر بالمساحة والحساب وأحكام النجوم؛ ولسان الدين محمد بن عبد الله السلماني بن الخطيب الغرناطي (ت776هـ/ 1374م)، علامة الأندلس ومؤرخها الشهير وأديبها البارع ووزيرها الحازم، طالت ملازمته لشيخه أبي زكريا بن هذيل، وبه تخرج في الطب، وعليه درس، ولم يفارقه حتى وفاته وقام بتجهيزه ودفنه؛ وأبو عبد الله محمد بن علي ابن عبد الله اللخمي الشقوري (ت بعد 770هـ/ 1369م)، قرأ الطب على أبي زكريا ابن هذيل ولازمه وانتفع به. وكان طبيب الدار السلطانية لملوك غرناطة، متصدرا للعلاج في زمن المراهقة، مُخَوَّلاً في الصناعة الطبية له كتب طبية جليلة منها «تحفة المتوسل وراحة المتأمل»، و«تحقيق النَبَأ عن أمر الوَبَأ»، و«مقالة في الطب».

أقام أبو زكريا علاقات طيبة مع معاصريه من ملوك غرناطة ووزرائها الكبار، وعلمائها الأجلاء، لما يتمتع به من حلو الفكاهة وإمتاع المجالسة والمحاضرة، وسلامة الصدر، وحسن النية، وحسبك من شاب يحضر هذه المجالس وهو في مقتبل العمر، إن لم يكن ملحوظا من الناس، مشهورا بينهم، مؤهلا لحضور هذه المجالس المهمة، ومنها:

قدوم أبي زكريا بن هذيل إلى الدار السلطانية بغرناطة عندما أحرز أبو الوليد إسماعيل بن فرج خامس ملوك بني الأحمر النصرَ المُؤَزَّر في الاستيلاء على حصن أشْكُر شمالي مدينة بَسْطَة في رجب 724هـ/ 1324م واستعمال الآلة العظمى المتخذَة بالنفط في حصاره،

وفد عليه مهنئا بهذه المناسبة العظيمة، ورفع إلى مقامه قصيدة رائعة أولها:

بحيث البُنُود الحُمر والأُسد الورد
كتائب سُكّان السَّماء لها جُنْدُ

وتحتَ لِواء النَّصر مَلك هو الوَرَى
تَضِيقُ به الدُّنيا إذا راحَ أو يَغْدُو

تآمَنتِ الارواح في ظلِّ بَنْدِهِ
كأنَّ جَناحَ الروح مِنْ فَوْقِه بَنْدُ

فلَو رَامَ إدْرَاكَ النُّجوم لنا لها
ولَو هَمَّ لانْقَادَتْ له السِّنْدُ والهِنْدُ

ومنها في وصف آلة النَّفط:

وظنُّوا بأنَّ الرَّعْدَ والصَّعْق في السَّما
فحَاقَ بِهِم من دُونِها الصَّعْقُ والرَّعْدُ

عجائِبَ أشكال سَمَا هِرْمِس بها
مُهَنْدَمَة تأتي الجِبالَ فَتَنْهَدُّ

ألا إنَّها الدُّنيا تُريكَ عَجَايِبًا
وما في القوى مِنها فلا بُدَّ أن يَبْدُو

وكان أبو زكريا كثير الاختلاف إلى مجلس ذي الوزارتين الأديب الكاتب أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحكيم اللخمي (ت708هـ/ 1308م) لما كان بينهما من صداقة أكيدة تجمع بينهما رابطة الأدب. وحضر مرة هذا المجلس، فأعجب بذكاء أبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن عرفة اللخمي (ت707هـ/ 1307م) الفقيه، الرئيس، حامل راية الشعر في وقته، فوصفه بقوله: «حضرت بمجلس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الحكيم، وأبو العباس بدر هالته، وقطب جلالته، فلم يجر بشيء إلاّ ركض فيه، وتكلم بملْءِ فيه، ثم قمنا إلى زَبَّارين يصلحون شجرة عنب، فقال لعريفهم: حق هذا أن يقصر، ويطال هذا، ويعمل كذا، فقال الوزير: يا أبا العباس ما تركت لهؤلاء أيضا حظا من صناعتهم، يستحقون به الأجرة. فعجبنا من استحضاره وَوَسَاعَة ذَرْعِه، وامتداد حظ كفايته» [الإحاطة، 1/ 278].

وكانت علاقته وطيدة مع الأديب البليغ والمؤرّخ الشهير أبي محمد عبد الله بن سعيد ابن عبد الله السلماني والد لسان الدين بن الخطيب (ت741هـ/ 1340م) كانت بينهما صداقة حميمة، وصحبة أكيدة، استمرت أعواما طويلة، لمشاركتهما في أكثر الفنون وبخاصة الأدب نظما ونثرا، فلما توفي أبو محمد عبد الله السلماني، وأخبر أبو زكريا بن هذيل بوفاته حزن عليه كثيرا، وتألّم لفقده، لما كان بينهما من محبة وأخوّة فرثاه بقصيدة رائعة منها:

إذَا أنا لم أرْثِ الصَّديق فما عُذْرِي
إذا قُلْتُ أبياتًا حِسانًا من الشِّعْرِ

ولَوْ كان شِعْرِي لم يَكُنْ غَيْرَ نَدْبة
وأجريت دَمْعِي لليَرَاعِ عنِ الحِبرِ

لما كُنْت أقْضِي حقَّ صُحْبَته التي
تَوَخَّيْتُها عَوْنًا على نُوَب الدَّهْرِ

رمَاني عبدُ الله يَومَ وداعِه
بداهِية دَهْياء قاصِمَة الظَّهْرِ

قَطَعْتُ رَجائي حِينَ صَحَّ حَدِيثُه
فإن لَمْ يَفِ دَمْعي فقد خانَنِي صَبْرِي

وهل مُؤْنِس كابن الخَطيب لِوَحْشَتِي
أَبُثُّ لَه هَمِّي وأُودِعُه سِرِّي

ولم تكن هذه العلاقات وطيدة لولا أنّ أبا زكريا بن هذيل كان يتمتع بأخلاق حميدة، وصفات حسنة، ونفس زكية، وقد أبلغ لسان الدين بن الخطيب في الثناء عليه ووصفه بكل جميل، إذ يقول: «فما شئت من نفس عذبة الشيم، وأخلاق كالزهر من بعد الديم»، ويقول أيضا: «سابقا في كل ما أعاده وأبداه، ما لم يزاحم في مداه، ولا ظفرت به إلاّ يداه، إلى تحسين المجالسة وبيان الإلقاء، والجمع بين معاملة الآباء ومعاملة الأصدقاء. ظفرت منه يدي بالنهر الذي آمن غائصه الدرك، وجمع فيه القوم بين آخذ ومن ترك، هذا يندم لزهده، وهذا لما ترك من جهده، فقل أن أتَبَجَّحَ بغريبة إلاّ وهي له اليوم منسوبة وعلي له محسوبة، تعاهده الله تعالى من الرَّحمة له بسحاب ومن الملائكة الكرام بترحاب».

لقد عاش أبو زكريا بن هذيل حياته كما وصفه لسان الدين بن الخطيب بقوله: «... إلى حُسْنِ العهد، وسلامة الصدر، وحفظ الغيب، والبراءة من التصنع والسّمت، مؤثرًا للخمول، غير مبالٍ بالناس مشغولاً بخاصة نفسه ...» ومع هذا فقد تعرض أبو زكريا إلى محنة أثيرت حوله، فالرجل قد أغرم بالعلوم العقلية درسا وتأليفا، وقد أربى على من تقدم من العلماء، فهو خاتمة علماء الأندلس بالعلوم العقلية من طب وهندسة وهيئة وحساب ونجوم حتى لقب بالتعاليميّ لتعاطيه هذه العلوم وكثرة اشتغاله بها فكثر حساده وخصومه وقويت شوكتهم، وساعدهم على الطعن فيه ابتعاده عن العلوم النقلية، فنسبوا إليه جملة من التهم التي أزرَت به، وشنّعت عليه، وجرحت عدالته، فاتُّهم بالخروج على شريعة الإسلام، دخل السجن بسببها، أو بسبب آخر نسب إليه، وابن الأحمر خير من يصف تلك الحالة فيقول: «وفيه تقوّل وعلى الطعن فيه عول، وبه غُمزت الأندية، وأُجريت الأودية في مجال الطعن الشينية لا في رجال المعاني الزينية، ولاستغراقه في العقليات واطراحِه النجاة بالنقليات، قيل بما شانه لما أعمل في الشيء الذي شأنه، والله يعلم ما في طيّ الصُّدور وما هو عليه المرء في الورود والصدور».

ولم يسلم أبو زكريا بن هذيل من هذه التهم حتى بعد وفاته بأكثر من عشرين سنة، فعندما تعرض تلميذه الكاتب والمؤرخ الأندلسي الشهير لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله السلماني (ت776هـ/ 1374م) إلى محنة أشبهت محنة شيخه أبي زكريا من الاتهام بالإلحاد والزّندقة والخروج على شريعة الإسلام، نرى هذا الاتهام واضحا في الكتاب الذي رفعه أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي (كان حيا سنة 793هـ/ 1391م) إلى مقام سلطان غرناطة، ويقول فيه: «فإني أخاف عليكم (على لسان الدين بن الخطيب) من الإفصاح بالطعن على الشريعة، ورمي علمائها بالمنقصة، على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم، منكر علم الجزئيات، القائل بعدم قدرة الرب جل اسمه على جميع الممكنات».

كان أبو زكريا بن هذيل من أعظم شعراء عصره، بل هو من أعظم شعراء الأندلس وكتابها، قد بلغ في النظم ذروة التفوق وفاق أقرانه في تنوع شعره وتفنن موضوعاته، وكثرة

قصائده التي اشتمل عليها ديوانه المُسمَّى «السُّلَيمانيَّات والعربيات» الذي أجاد فيه الإجادة التامَّة بما يرجع إلى توقُّد قريحة، وذكاء فطنة وسعة أُفُق. ولعلَّ في وصف لسان الدين بن الخطيب لشعره ما يغني عن الإطالة في مدحه، إذ يقول: «له أدب ذهب في الإجادة كل مذهب، وارتدى من البلاغة بكل رداء مذهب، والأدب نقطة من حوضه، وزهرة من زهرات روضه، وسيَمُرُّ له في هذا الديوان ما يبهر العقول، ويُحاسِنُ بِرُوائه ورائق بهائه الفِرِنْد المصقول»، وقال أيضًا: «وكان يشعر وينثر، ويعثر من المعاني ما لا يمر به غيره ولا يعثر، وقدر هذا الشيخ أقل من أن تستوعبه هذه الأسطر، أو يفي به خاطر يخطر، فسبحان الذي حَجَبَ الفضائل بالتراب، وشبَّه هذا المتاع الفاني بلمع السراب».

لقد اختار من ديوان أبي زكريا بن هذيل المعروف بـ«السليمانيات والعربيات» تلميذه الأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب في كتابيه: «الإحاطة في أخبار غرناطة» و«الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة»، وأبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر النصري الغرناطي في كتابه «نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان»، وشهاب الدين أحمد بن محمد المقري في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب». لقد اختار هؤلاء الأعلام قصائد رائعة كثيرة في أغراض شعرية متعددة، لا يمكن الإحاطة بها في هذا البحث نقتطف منها:

نام طِفل النَّبت في حِجْر النُّعامَى
لاهتِزازِ الطَّلِّ في مَهْدِ الخُزَامَى

وسقَى الوَسْمِيُّ أغصانَ النَّقا
فهَوَتْ تَلْثِمُ أفْواهَ النَّدامَى

كَحَلَ الفَجْر لهم جَفْنَ الدُّجَى
وغَدَا في وجْنَة الصُّبْح لِثَامَا

تحسَب البدرَ مُحيًّا ثَمِلٍ
قد سَقَتْه راحَة الصُّبح مُدامَا

حوْلَه الزُّهر كُؤوس قَدْ غَدَتْ
مِسْكَة اللَّيْل عليْهُنَّ خِتَامَا

يا عليلَ الرِّيح رِفْقًا علَّني
أَشْفَ بالسُّقْمِ الذي حُزْت سِقامَا

أبلغنْ شَوقي عُرَيْبًا باللِّوى
همت في أرض بها حلُّوا غراما

فَرشُوا فيها من الدُّرِّ حَصًى
ضربوا فيها من المِسْك خِياما

كنت أشفِي غُلَّةً من صَدِّكُم
لو أَبَيْتُمْ لِجُفُوني أن تَنامَا

قال لسان الدين بن الخطيب: وتذاكرنا يوما أساليب الشعراء وأفضنا في ذكر أبي نواس الحسن بن هانيء فنظم لي أبو زكريا بن هذيل في طريقته هذه الأبيات مساجلا لمثلها مما ثبت في موضعها من شعره:

طَرَقنا دُيورَ القوم وَهْنًا وتَغْليسا
وقد شَرَّفُوا النَّاسُوتَ إذ عَبَدُوا عِيْسى

وقد رفَعُوا الإنجيلَ فوقَ رؤُوسِهم
وقد قَدَّسُوا الرُّوحَ المُقدَّس تَقْدِيسَا

فما استيقظوا إلاَّ لِضَكَّة بَابِهم
فأدْهَش رُهْبَانَا ورَوَّعَ قِسّيسَا

وقام بها البَطْريقُ يسْعَى مُلَبِّيًا
وقد لَيَّنَ النَّاقُوسَ رِفْقًا وتَأنِيسَا

فقُلنا له: آمِنًا فإنَّا عِصَابَةٌ
أتَيْنا لِتَثْليثٍ وإنْ شِئْتَ تَسْديسَا

وما قَصدنا إلاَّ الكُؤُوس وإنَّمَا
لحنًا له في القول خُبْثًا وتدْليسَا

فَفُتِّحَتِ الابوابُ بالرَّحْبِ منهم
وعَرَّسَ طُلاَّبُ المُدامَةِ تَعْريسَا

فلمَّا رأى زِقِّي أمامي ومِزْهَري
دَعاني أتَأنِيسًا لَحنت وتلْبيسَا

وقامَ إلى دَنٍّ يَفُضُّ خِتامَه
فلبس أجْرامَ الغَيَاهِبِ تَكْبيسَا

وطافَ بها رطبُ البَنَانِ مُزَنَّرٌ
فأبْصَرْتُ عَبْدًا صيَّرَ الحُرَّ مَرْؤُوسَا

سُلافًا حَوَاهَا القارُ لبسا فَخِلتُها
مِثالاً من الياقُوتِ في الحِبْرِ مَغْمُوسَا

إلى أن سَطَا بالقَوْمِ سُلْطانُ نَوْمِهِم
ورأسُ فَتِيلِ الشَّمْعِ نُكِّسَ تَنْكيسَا

وثَبْتُ إليه بالعِنَاقِ فقال لي:
بِحَقِّ الهَوَى هَبْ لي مِنَ الضَّمِّ تَنْفيسَا

كَتَبْتُ بدمعِ العيْنِ صَفْحَةَ خَدِّهِ
فطَلَّسَ حِبرُ الشَّعْرِ كُتْبي تطليسَا

فَبِئْسَ الذي احْتَلْنَا وَكِدْنا عَليهم
وبِئْسَ الذي قد أضْمَرُوا قَبْلَ ذَا بيسَا

فَبِتْنَا يَرانَا اللهُ شَرَّ عِصَابَةٍ
تطِيعُ بِعِصيانِ الشَّريعَةِ إبْليسَا

أصيب أبو زكريا بن هذيل بالفالج ممّا استوجب على تلميذه الوفي لسان الدّين بن الخطيب نقله إلى بيته والإشراف عليه بِرًّا بأستاذه، ولْنُصْغِ إلى الأديب لسان الدين بن الخطيب وهو يحدثنا عن حالة شيخه أبي زكريا قبل أن يفارق الحياة وبعدها فيقول: "فُلِجَ فالتزم المنزل عندي لمكان فضله، وَوُجوب حقّه، وقد كانت زوجته توفيت، وصحبه عليها وجدٌ شديد، وحزن ملازمٌ، فلمّا ثَقُلَ وقرُبَت وفاته، استدعاني، وقد كان لسانه لا يُبِين القولَ، وأملى عليَّ فيما وصّاني به من مُهِمّ أمره:

إذا متُّ فادفنِّي حِذَاءَ حَليلَتِي
يُخالِطُ عَظْمي في التُّراب عِظامُها

ولا تَدفِنَنِّي في البَقِيعِ فإنَّنِي
أريدُ إلى يَوْمَ الحِسَاب التِزامُها

ورتِّب ضَريحِي كَيْفَ ما شاءَكَ الهَوَى
تكونُ أمامي أو أكون أمامَها

لعلَّ إله العَرْش يَجْبُرُ صَدْعَتِي
فيُعْلِي مَقَامِي عِنْدَهُ ومُقامُهَا

ومات في ليلة الخامس والعشرين من ذي القَعْدَة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، ودفَنْتُه عَصْرَه بباب إلْبِيْرَة حِذاءَ حليلته كما عهد".

آثاره

ألّف أبو زكريا بن هُذَيْل مجموعةً من الكتب النَّفيسة، وذكرت مصادر ترجمته أربعة منها،

ولم نقف على هذه الكتب، إلاّ ما كان من ديوانه الذي نقلت عنه المصادر قصائد رائعة. ومن كتبه:

1 ـ الاختيار والاعتبار في الطّبّ؛ 2 ـ التذكرة في الطب؛ 3 ـ السليمانيات والعربيات، ديوان شعره؛ 4 ـ شرح الآيات البيّنات لفخر الدين الرازي، وهو شرح غريب المأخذِ جَمَعَ فيه بين طريقتي القدماء والمُتأخّرين من المنطقيين.

المصادر والمراجع

● ابن الأحمر، الأمير أبو الوليد، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتح. الأستاذ محمد رضوان الداية، بيروت، دار الثقافة، 1967م، ص320-323؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طهران، المطبعة الإسلامية، 1387هـ/ 1967م، ج1/ 206؛ ● ابن حجر، شهاب الدين، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح. الأستاذ محمد سيد جاد الحق، القاهرة، مطبعة المدني، 1385هـ/ 1966م، ج5/ 187؛ ● الخضيري، صالح مهدي عباس، الحياة الفكرية في مملكة غرناطة الإسلامية، رسالة دكتوراه غير منشورة، بغداد 1995م، ص 124، 387-388، 408؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم، بيروت، ط4، دار العلم للملايين، 1978م، ج8/ 136؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، دمشق، 1376هـ/ 1957م، ج13/ 182؛ ● لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1393هـ/ 1973م، ج4/ 390-401؛ ● ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تح. الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1401هـ/ 1981م، ص394-395؛ ● الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح. الدكتور إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963م، ص73-80، تحت عنوان «الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن شقرال» والترجمة ليست له، إنّما هي ترجمة أبي زكريا بن هذيل بالمقابلة مع الإحاطة ونثير فرائد الجمان ونفح الطيب؛ ● المقري، شهاب الدين، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، ج8/ 4 ـ 12.

د. صالح مهدي عباس
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

التَّعزي، علي بن محمد العُقبي

(ت 1101هـ/1690م)

هو علي بن محمد العقيبي الأنصاري التّعزي الشافعي كما ورد عند الشوكاني، وعند الأكوع: علي بن محمد العَفيف العقيبي التّعزي، عالم محدث أصولي نحوي (محدثُ الديار اليمانية).

ولد في اليمن بمدينة تَعِز، وقرأ بها على يد جماعة من علمائها وصلحانها، ومنهم محمد بن عبد العزيز المفتي، وقرأ في جهات أخرى من بلاد اليمن على يد محمد بن علي مطير وجماعة آخرين، ورحل إلى الحرمين الشريفين وهناك استفاد من علمائها ومنهم ابن علاّن وغيره، وبرع في فنون مختلفة، وتصدر لإقراء الحديث والإجازة بالأمهات السبع. ومن الطبيعي أنه أفاد الكثير بعلمه، ومنهم السيد الهادي بن أحمد الجلال المتوفي في أول القرن الثاني عشر (عالمًا محققًا) [الشوكاني، البدر الطالع، ص 497 ـ 498، 837؛ الأكوع، هجر العلم، ج2، ص 787].

توفي صاحب الترجمة في ثالث ربيع الآخر، الثالث عشر من يناير/جانفي 1690م بمدينة تعز، وقد خلف العديد من المصنفات [الشوكاني، المرجع المذكور، ص 498].

آثاره

1 ـ إعراب مُلحمة الإعراب للحريري؛ 2 ـ حاشية على تفسير الجلالين؛ 3 ـ حاشية على فتح الجواد لابن حجر الهيتمي؛ 4 ـ سلوان الامتنان في شرح منظمة شُعَب الإيمان؛ 5 ـ شرح على الفية ابن مالك؛ 6 ـ شرح منظومة أحمد بن فرج الإشبيلي المتوفي سنة 699هـ في قواعد الحديث التي أولها:

غرامي صحيحٌ، والرجا فيك معضل
وحُزني ودَمعي مُرسَلٌ ومُسَلْسَلُ؛

7 ـ شرح منظومة "نخبة الفكر" (نظمها الإمام العلامة محمد بن إسماعيل الأمير وسماها قصب السُكر، ثم شرحها وسماها: إسْبال المطر على قصَب السكر، وعند القاضي اسماعيل بن علي الأكوع نسخة منها) لابن حجر نظمها الشمني الحنفي، 8 ـ عنوان القبول إلى تيسير الوصول؛ 9 ـ فتح المنّان شرح المدخل في المعاني والبيان؛ 10 ـ الفتاوى مبوبةً على أبواب الفقه؛ 11 ـ مختصر فتح الرحمن على زيد بن رسلان [الشوكاني، المرجع المذكور، ص498؛ الأكوع، المرجع المذكور، ج2 ص 787 ـ 788؛ عبد الله الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص 28، 224].

المصادر والمراجع

• الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،

تحقيق د. حسين عبد الله العمري، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، 1998م؛
● الأكوع، إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1995م؛
● الحبشي، عبد الله محمد، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، بدون تاريخ.

د. محمد عبد الله بن هاوى باوزير
اليمن ـ جامعة عدن

ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف

(812هـ/1409م ـ 874هـ/1469م)

أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله اليَشْبُغَاوي الظاهري الحنفي أتابك العساكر بالديار المصرية، مؤرخ مصر والنيل، وصاحب «النجوم الزاهرة»، موسوعته الكبرى في تاريخ مصر الإسلامية. وهو تلميذ المقريزي (ت 845هـ/1441م)، وأعظم أساتذة مدرسته من بعده.

ولد جمال الدين أبو المحاسن يوسف في القاهرة بدار الأمير منجك اليوسفي في حي الأمراء، بجوار مدرسة السلطان حسن، على مقربة من القلعة، في أواخر سنة 812هـ/1409م (ذكر السخاوي في الضوء اللامع أن مولده في شوال 813 هـ، وتابعه في ذلك ابن إياس)، في عهد الملك الظاهر برقوق، لأب موظف كبير في بلاط المماليك، وأم مملوكة تركية للسلطان برقوق.

كان والده الأمير الكبير سيف الدين تغري بردي ـ وهو اسم تركي معناه هبة الله ـ مملوكًا، رومي الجنس على حد قوله في المنهل الصافي حيث ترجم أباه تحت حرف «التاء» اشتراه الملك الظاهر وأعتقه، وقربه لذكائه، ورفعه إلى أرقى المناصب حتى صار أتابك العسكر (أي أميرا للسلاح)، وهي أرفع مناصب الجيش، واختاره مع من اختار لوصاية المملكة بعد وفاته. وفي أوائل عهد الملك الناصر بن الظاهر وخلفه، ثار نائب الشام، وحالفه على الثورة جماعة من قادة الجيش منهم تغري بردي، فحاربهم الناصر ومزقهم، وفرَّ تغري بردي واختفى حينًا في المشرق. وفي أثناء غيبته تزوج الناصر من ابنته فاطمة أخت مؤرخنا، ثم عفا عنه واستقدمه في سنة 808هـ، وأنعم عليه وعينه قائدًا للمسيرة. وتوفي تغري بردي في محرم سنة 815هـ وكان ولده يوسف طفلا لم يبلغ فطامه، فرباه زوج أخته الثانية قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم الحنفي؛ فلما توفي سنة 819هـ تولى تربيته زوجها الثاني شيخ الإسلام قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني الشافعي (ت 824هـ).

حفظ أبو المحاسن القرآن في صغره، ودرس الفقه والكلام والنحو والأدب وعلم الهيئة (علم الفلك) على جماعة من أعلام هذا العصر منهم ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ/ 1448م)، وبدر الدين العيني (ت 855هـ)، وشهاب الدين بن عربشاه (ت 854هـ). غير أنه شغف بالتاريخ منذ حداثته. وكان من حسن طالعه أن درس على المقريزي أعظم مؤرخي عصره، وصادقه ولازمه، واقتبس من مناهجه وأساليبه في البحث والرواية. ودرس التاريخ أيضًا على العيني المذكور آنفا. ولم يغادر مصر إلاّ للحج سنة 863هـ/ 1458م.

وكانت حياة ابن تغري بردي الناعمة الهادئة، ونشأته في حجر الإمارة والجاه والثراء، واتصاله بالمصاهرة والصداقة مع رجالات الدولة وكبراء البلاط، من أهم العوامل التي ساعدته على إطلاق العنان لشغفه بالبحث والدرس، والانقطاع إلى التنقيب والكتابة، وتعرف الشؤون والنظم، والوقوف على أسرار الدولة والبلاط في عصره، الذي تعاقب فيه على عرش مصر أكثر من عشرة سلاطين. وقد استقى أبو المحاسن من هذه النشأة ذاتها، بعض خلاله ومواهبه، وصفه السخاوي رغم حملته عليه، بأنه «كان حسن العشرة، تام العقل والسكون، لطيف المذاكرة». ووصفه تلميذه وصديقه أحمد بن حسين التركماني بأنه «نادرة الزمان، وعين الأعيان، وعمدة المؤرخين، . . . لاختباري ما اشتمل عليه من المحاسن التي لم توجد في مثله من أبناء عصره، من لطف المحاضرة، وفكاهة المنادمة، والعقل التام، وكرامة الأصالة الكريمة، والحرمة الوافرة، والعظمة الزائدة، وحسن الخلق، وبشاشة الوجه، وحسن الملتقى». وكان يتقن الفنون الأميرية التي كانت ذائعة في عصره فكان بارعًا في الفروسية وألعابها، وكان موسيقيًا بارعًا في النغم والضرب والإيقاع. كما كان يكتب الشعر أحيانًا، ومن نظمه في الغزل قوله:

طَرْفُه الأحمَرُ زاهٍ شاقني
وبه قد ضاع عِلْمِي بالوَسَنْ
جَوْرُهُ عدْلٌ علينا في الهوى
كلُّ فِعْلٍ منه لي فهو حَسَنْ

وكان يجيد اللغة التركية وهي لغة البلاط والخاصة والقادة يومئذ، واستطاع بذلك أن ينفذ إلى دقائق الدولة، والسياسة، وأن يفهم نفسية هذا البلاط، وأن يتعرف أحوال طوائف المماليك المختلفة، التي كانت تموج بها مصر يومئذ. ومعرفته التامة باللغة التركية أتاحت له فهمًا صحيحًا وتفسيرًا دقيقًا لكثير من الحوادث ومجريات الأمور في العصر المملوكي، وقد امتاز في ذلك عن زملائه من كبار مؤرخي مصر المملوكية، حتّى أستاذه المقريزي الذي لم يكن يعرف اللّغة التركية.

وقد عاش ابن تغري بردي في عصر حافل بالسلاطين وعاصر أكثر من عشرة سلاطين، من عهد الملك الناصر فرج إلى عهد الملك الأشرف قايتباي، وشهد أكثر من ثورة سياسية، وأكثر من محنة عامة. وفي أواخر حياته انقض الوباء على مصر، فحمل من أهلها مئات الألوف، وأصيب مؤرخنا نفسه بالوباء حسبما يذكر في النجوم الزاهرة، ولكنه نجا. وقد ظل أبو المحاسن يمارس نشاطه العلمي، ويواصل مباحثه التاريخية، على مدى

ثلث قرن حتى أصيب في عامه الأخير بالقولنج، وفي أيامه الأخيرة بإسهال دموي تمنى معه الموت، وتوفي في شهر ذي الحجة سنة 874 هـ/ 1469م عن اثنين وستين عامًا.

آثاره

تفرغ أبو المحاسن للدرس والتحقيق في ميدان واحد تقريبا هو تاريخ مصر الإسلامية؛ فمؤلفاته تعد في مجموعها موسوعة لتاريخ مصر حتى أواخر القرن التاسع الهجري. وبهذه المؤلفات يرتفع ابن تغري بردي إلى صف أكابر مؤرخي الإسلام. وأشهر هذه المؤلفات جميعًا تاريخه العام لمصر الإسلامية «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، فهو أهم أعماله وهو خاتمتها وفيه يضع خلاصة بحثه وسيرة عصره حتى أيامه الأخيرة. وعلى الرغم من اهتمامه الشديد بأحوال النيل ورصد تقلباته في الوفاء والنقص على مدى ثمانية قرون ونصف قرن، فإن المستشرق الروسي العظيم كراتشكوفسكي (ت 1956م) لم يدرجه ضمن الجغرافيين في مؤلفه الضخم «تاريخ الأدب الجغرافي العربي». ومن هذه المؤلفات:

1 ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، وهو أول آثاره الضخمة، هو معجم تراجم أكثرها للسلاطين والأمراء وفيها أيضًا تراجم لبعض الأعلام من سنة 650 هـ/ 1252م حتى عام تأليفه، أراد به أن يكون ذيلاً على «الوافي بالوفيات» تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت 764 هـ/ 1363 م). والمنهل كتاب ضخم يترجم فيه أبو المحاسن أعلام الإسلام منذ أول دولة المماليك، ويبدأ بالمعز أيبك التركماني زوج شجرة الدر وملك مصر (648 ـ 655هـ)، أي منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى منتصف القرن الخامس عشر، أي إلى عصره، وفيه تراجم طائفة كبيرة من معاصريه وأساتذته وأقرانه، ويفيض بوجه خاص في سير أعلام مصر والشام التي كانت يومئذ ولاية مصرية، من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء. وقد رتبه على حروف المعجم، ويتقدم فيه إلى القارىء بفاتحة بليغة يشكر الله فيها على: «أن أخرنا عن كل الأمم، وتلك لعمري من أجمل المنن وأتم النعم، لنشاهد ما تقدم من آثارهم، ونعاين منازلهم وديارهم، ونسمع كما وقعت وجرت أخبارهم». ويقول إنه وضع كتابه: «غير مستدعًى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان، ولا مطالب به من الأصدقاء والإخوان، ولا مكلف لتأليفه وترصيفه من أمير ولا سلطان، بل اصطفيته لنفسي وجعلت حديقته مختصة بباسقات غرسي، ليكون لي في الوحدة جليسًا، وبين الجلساء مسامرًا وأنيسًا». وقد تابعت دار الكتب المصرية نشر هذا الكتاب، فظهر الجزء الأول منه بتحقيق أحمد يوسف نجاتي 1375هـ/ 1956م، وتوالى ظهور باقي أجزائه، حتى الجزء الثامن ثم التاسع بتحقيق: محمد محمد أمين. وقد اختصر ابن تغري بردي كتابه هذا في كتاب سماه: «الدليل الشافي على المنهل الصافي»، ونشرته دار الكتب المصرية في جزءين بتحقيق: فهيم محمد شلتوت؛ 2 ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، هو ذيل على كتاب أستاذه المقريزي «السلوك لمعرفة دول الملوك» يبدأ فيه حيث انتهى المقريزي. فكتاب السلوك يسرد فيه المقريزي تاريخ الدولة الأيوبية ثم دولة سلاطين المماليك إلى

سنة 844 هـ، أي إلى قبيل وفاة مؤلفه بأشهر قلائل. وأراد أبو المحاسن أن يتم رواية أستاذه فوضع كتاب حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور مبتدئا فيه بسنة 845هـ/ 1442م، وهو عام وفاة أستاذه، ودوّن فيه تاريخ مصر بإسهاب حتّى سنة 860هـ/ 1456م، وهو عصر الملك الظاهر جقمق العلائي، ورتبه على السنين. وفي مقدمته يعرب عن عرفانه وإجلاله للمقريزي، فيسميه «شيخنا الإمام الأستاذ، العلامة، المتفنن رأس المحدثين وعمدة المؤرخين». كما أعرب عن مثل هذا الإجلال في ترجمة المقريزي في المنهل. ويقول إنه أراد بوضع حوادث الدهور أن يحيي سنة أستاذه. ولما كان ابن تغري بردي يحيل قارئه في هذا الكتاب في تفاصيل التراجم، إلى المنهل الصافي، فمن الواضح أنه قد كتب المنهل قبل حوادث الدهور؛ وقد نشر المستشرق الأمريكي وليم بوبر (1874 ـ 1963) أجزاء منه في كاليفورنيا 1930 ملحقًا بالجزء السابع من نشرته لكتاب النجوم الزاهرة. ويقول فيهم محمد شلتوت محقق الجزء الأخير (ج 16) من النجوم الزاهرة إنه قام بتحقيق الجزء الأول من حوادث الدهور لينشر في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة؛ 3 ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وهو أجل وأنفس ما أخرج مؤرخنا، فقد كتبه بعد أن كتب «المنهل الصافي» و«حوادث الدهور»، لأنه إذا كان يحيل في حوادث الدهور على المنهل، فإنه في النجوم الزاهرة يحيل على حوادث الدهور؛ والنجوم الزاهرة موسوعة كبيرة في تاريخ مصر الإسلامية وتقلبات نيلها، منذ الفتح الإسلامي لها على يد عمرو بن العاص سنة 20 هـ/ 640م إلى سنة 872 هـ/ 1468م، أي قبيل وفاة المؤلف بعامين فقط، وهو أتم وأطول تاريخ لمصر الإسلامية؛ ويلخص ابن تغري بردي في مقدمته القصيرة محتويات مؤلفه وطريقة كتابته في العبارات التالية: «استفتحته بفتح مصر... وعلى أي وجه فُتحت... وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار... ثم أذكر من وليها مِنْ يوم فُتِحَتْ، وما وقع في دولته من العجب... ثمّ أذكر أيضًا... ما بُني فيها من المباني الزاهرة، كالميادين والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة... على أني أذكر من توفي من الأعيان في دولة كل خليفة وسلطان باقتصار، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك مع ذكر بعض الحوادث في مدة ولاية المذكور في أيما قطر من الأقطار» [ص 2 ـ 3]. ويقول أيضًا: «وشرط كتابنا هذا ألاّ نذكر فيه إلا من ملك مصر في الإسلام» [ص 60]. وأبو المحاسن يبدأ كتابه بعد المقدمة بذكر فتح مصر لابن عبد الحكم وغيره [ص 4]، ثم ذكر ما ورد في فضل مصر من الآيات الشريفة والأحاديث النبوية [ص 27]، ثم يبدأ تاريخه بذكر ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر [ص 61]، والسنة الأولى من ولايته وهي سنة عشرين من الهجرة [ص 74]. وفي آخرها يذكر: «أمر النيل في هذه السنة، الماء القديم أربعة أذرع وتسعة أصابع، مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعًا وإحدى وعشرون إصبعًا» [ص 75]؛ فأبو المحاسن يقدم إلينا، في النجوم الزاهرة، موسوعة حافلة بحوادث التاريخ الإسلامي بوجه عام، وتاريخ مصر

بوجه خاص، رتبت على السنين. ويبدو هذا واضحًا في القسم الأول، أيام كانت مصر ولاية إسلامية، في عهد الخلفاء الراشدين أو بني أمية أو بني العباس، ولكنه يتقدم نحو التركيز على تاريخ مصر والتوسع فيه، حتّى إذا بدأت دول مصر الإسلامية المستقلة، بلغ هذا التوسع حد الإفاضة، ولاسيما في عصر الدولة الفاطمية. وقد أفاض في أصل الخلفاء الفاطميين وبلاطهم ورسومهم في القصر، وفي الركوب في الاحتفالات العامة، وفي الحكم، وفي الخطابة. والمجتمع الفاطمي وسير الخلفاء الفاطميين تجري قلمه بعرض جزل شائق ربما كان أبلغ قطعة في مؤلفه. أما العصر المملوكي الذي عاش فيه فإنه يبلغ في مؤلفه أوفر حظ من الشرح والإفاضة، ويتخذ في أواخر كتابه صورة السجل اليومي، لا تفوته كبيرة أو صغيرة، خصوصًا إذا ذكرنا ما كان له من صلات وثيقة بالبلاط والكبراء وأهل الرأي وهم مصادر التحقيق والرواية، كما كان يعنى بالمشاهدة الواقعية في كثير من الحوادث، وهو ما يذكره في مواضع كثيرة؛ ولنيل مصر من عناية أبي المحاسن حظ أوفر، فهو يحصي تقلباته في الوفاء والنقص عامًا فعامًا ـ من سنة الفتح 20هـ إلى سنة 872 هـ، معتمدًا فيما تقدم من العصور على طائفة كبيرة من الرواة والمؤرخين وبخاصة ابن عبد الحكم، وابن زولاق، والمقريزي؛ وبذلك يقدم لنا أتم جدول عن تقلبات النهر على مدى ثمانية قرون ونصف قرن. ويعرض أبو المحاسن تاريخ مصر في بيان سلس جزل، يرى ماثلاً في أقسامه الأولى، غير أنه في القسم الأخير منه، أي القسم المعاصر، ينحدر إلى شيء من الركاكة. والسر في ذلك لا يرجع إلى ضعف في بيان المؤرخ، ولكنه يرجع إلى حوادث العصر ذاتها، وإلى غلبة الأساليب الضعيفة يومئذ في التعبير، عن شؤون الحرب والسياسة ومهام الدولة. فالمؤرخ إنما يخرج صورة عصره بأساليب عصره ولغة عصره؛ وقد استفاد ابن تغري بردي في أبحاثه التاريخية من مؤرخي مصر السابقين، وأولهم ابن عبد الحكم صاحب كتاب «فتوح مصر وأخبارها» وأول مؤرخ لمصر الإسلامية (187هـ ـ803م/ 257هـ ـ 871م). ويقتبس من الحسن بن زولاق (306هـ ـ 919م/ 387هـ ـ 997م) صاحب كتاب «فضائل مصر»، لكنه يكتفي بالإسناد إلى ابن زولاق دون تعيين اسم كتابه. كما نقل عن المسبحي ـ الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل المعروف بالمسبحي (366هـ ـ 977م/ 420هـ ـ 1029م) صاحب كتاب «التاريخ الكبير» أو «أخبار مصر»، عن عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي. كما ينقل عن القضاعي ـ هو القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت 454هـ/ 1063م) ـ صاحب كتاب «المختار في ذكر الخطط والآثار». وإذا كان ابن تغري بردي قد اعتمد بالنسبة إلى الفترات الأقدم، على مؤلفات سابقة فإنه حاول أن ينقد مادتها نقدًا تاريخيًا، كما أن عرضه لتاريخ عصره يتمتع بقيمة كبرى. ويذكر بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية ـ نقلا عن نشرة جوينبل ـ أن النسخة المنقحة من هذا الكتاب تمت بين عامي 860هـ ـ 1456م/ 862هـ ـ 1458م. وقد قام المستشرق الهولندي تيودور وليم جوينبل (1802 ـ 1886م) بتحقيق ونشر المجلدين

الأول والثاني من «النجوم الزاهرة» (ويشملان تاريخ مصر من الفتح إلى سنة 365هـ) وذلك بالتعاون مع المستشرق ماتس، ظهر المجلد الأول بقسميه في 1852 م، ثم المجلد الثاني بقسميه في 1861 م؛ ثم واصل نشر بقية الكتاب المستشرق الأمريكي وليم بوبر، في سبعة أجزاء مع ترجمة إنجليزية، ضمن مطبوعات جامعة كاليفورنيا (1909 ـ 1930م). هذا وقد قامت دار الكتب المصرية في نفس الوقت، بإيعاز من عبد الخالق ثروت رئيس وزراء مصر سنة 1922م، بإخراج كتاب النجوم الزاهرة، فصدر في ستة عشر مجلدًا؛ وقد ذكر بروكلمان أن لكتاب النجوم الزاهرة مختصرًا عنوانه «الكواكب الباهرة» وقد اقتصر فيه على مصر ووفياتها حتى سنة 856 هـ/ 1452م. وأن هذا المختصر يوجد مخطوطًا في لندن حتى سنة 867هـ/ 1462م، والتكملة في باريس؛ 4 ـ مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، وهو تاريخ موجز للسيرة النبوية مع قائمة بالصحابة وحكام مصر ووزرانها حتى سنة 842هـ/ 1348م، وقد نشر المستشرق الانجليزي جوزيف كارليل (1759 ـ 1804م) جزءًا منه مع ترجمة لاتينية وطبع في كمبردج في سنة 1792م؛ ومنه مختصرات ثلاثة، وله ملحق عنوانه: «منهل الظرافة بذيل مورد اللطافة»، يتناول حكام مصر حتى سنة 884هـ/ 1479م ألفه محمد بن عبد العزيز (ت 954هـ/ 1547م)؛ وقامت بنشره كاملاً دار الكتب المصرية، بتحقيق نبيل محمد عبد العزيز، سنة 1997م. وينتهي بذكر سلطنة الملك الأشرف قايتباي سنة 872هـ؛ 5 ـ منشأ اللطافة في ذكر من ولي الخلافة، هو تاريخ لمصر من أقدم العصور حتى سنة 842هـ/ 1438م، مع إكمال له حتى سنة 932هـ/ 1526م. ويوجد مخطوطًا في باريس وسراي؛ 6 ـ نزهة الرائي في التاريخ، كتاب كبير في التاريخ مرتب وفق السنين والأشهر والأيام، ويوجد الجزء التاسع منه وبه السنوات 678هـ ـ 1279م/ 747هـ ـ 1346م ويوجد مخطوطًا في بودليانا؛ 7 ـ البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر، كتاب كبير في التاريخ أيضًا. ويوجد منه القسم الخاص بالسنوات 32هـ ـ 652 م/ 71هـ ـ 690م مخطوطًا في باريس، ومنه في القاهرة ومنه مختصر لعلي بن محمد الحلبي في مكتبة دحداح 45/ برلين بريلم 181؛ 8 ـ البشارة في تكملة الإشارة، ذيل مختصر على كتاب الإشارة للحافظ شمس الدين الذهبي (ت 748هـ/ 1348م)، ذكره تلميذه وصديقه أحمد بن حسين التركماني، وكذلك السخاوي، وابن العماد الحنبلي، ولم يشر إليه بروكلمان. وهو في التاريخ أيضًا من سنة 700 إلى سنة 870 هـ؛ 9 ـ حلية الصفات في الأسماء والصناعات، وضعه ابن تغري بردي مرتبًا على الحروف، ويوجد مخطوطًا في بطرسبرج؛ 10 ـ الشُّكّر القادح والعطر الفانح، كتاب يضم شعرًا صوفيًا، ويوجد مخطوطًا في الأسكوريال؛ 11 ـ رسالة صغيرة في الموسيقى، ذكرها ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (طبعة القاهرة، 2/ 260).

المصادر والمراجع

● المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول ـ القسم الأول ـ تح. محمد مصطفى زيادة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة

1956م؛ ● السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، المجلد الخامس، الجزء العاشر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء السابع، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة القديمة، المجلد الأول، ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين، القاهرة 1933م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 8/ 222 ـ 223 . . الخ.

د. ماجد مصطفى إبراهيم
جامعة عين شمس ـ مصر

التغلبي، الأخطل، أبو مالك غياب بن غوث

(20هـ/640م ـ 92هـ/710م)

هو الشّاعر غياث بن غوث بن الصّلت بن الطّارفة التغلبي ويكنّى أبا مالك وغلب عليه لقب الأخطل وهو لقب وسمه به شاعر آخر للتغلبيّين في عصره هو كعب بن جعيل (ت55هـ) تحقيرا لشأنه فغلب عليه.

لم تحدّد كتب التّراجم تاريخ ميلاده لكن بلاشير يرجح أن يكون سنة 20هـ/ 640م [بلاشير، 2/ 537]. على أن الزركلي يذكر تاريخا آخر هو (19هـ/ 639م) في حين يذكر سركيس تاريخا ثالثا هو 629م وهذا التّاريخ أبعد وأقل تواترا. وقد يكون الأخطل ولد بالرّصافة في الشام أو في نواحي الحيرة في جماعة بني إيّاد وهم آل أمّه. لم يتخلّ الأخطل ـ شأنه شأن غالبية بني تغلب ـ عن ديانته النصرانية عند مجيء الإسلام ولقد حاول عبد الملك بن مروان أن يجعله يعتنق الإسلام لكنه رفض بل إنّه كان يحرص أن يلبس صليب الذهب وهو يمدح بني أمية فقيل إنه عرف لذلك «بذي الصليب».

يعود الفضل في شهرة الأخطل إلى كعب بن جعيل فهو الذي سمح له بمبارزته حتّى تغلّب عليه. ولمّا قصده بنو أميّة لهجاء الأنصار الذين تشيعوا لعلي بن أبي طالب اعتذر ودلّهم على من يقدر على هذا الهجاء وهو الأخطل بما أنه «نصراني كافر» [ابن سلام، 160] فهجاهم الأخطل بالرائيّة التي يقول فيها:

ذهبت قريشٌ بالسماحة والنّدى
واللؤمُ تحتَ عَمَائم الأنْصَار

[ابن قتيبة، 1/ 394]

وكاد يقطع لهذا القصيد لسانه على يد النعمان بن بشير الأنصاري ذي الأثرة عند معاوية وصاحب الكوفة على عهده، لولا أنّ يزيد بن معاوية قد تدخل لفائدته وفتح له أبواب ملك أبيه وملكه. لكنّ مكانته اهتزت

بعد وفاة يزيد بن عبد الملك فاستفاد بعد ذلك من وقوف بني تغلب مع الأمويين ضد القيسيّين الذين أيّدوا ابن الزبير فعاد ثانية إلى بلاط بني أموية وفيه عبد الملك بن مروان فلازمه مدّة تقرب عن العقد والنصف ولكن لم يصلنا من مدحه له إلا قصائد ثلاث [مقدمة الديوان، 51]. ومدح بشر بن مروان أخو عبد الملك ووالي الكوفة والبصرة وقد أجزل له هذا الوالي العطاء وقدمه كما مدح خالد بن يزيد الأوّل (ت 85هـ/ 704م) وغيرهما من الأمراء والولاة أمثال زفر بن الحارث و ابن عبّاد التغلبيّ والحجّاج بن يوسف وغيرهم.

وبالإضافة إلى اشتهار الأخطل بمدح الأمويين حتى عدّ شاعرهم الرسمّي فإنّ شهرته مدينة للنقائض التي جرت بينه وبين جرير (ت 114هـ/ 728م) والفرزدق (ت 110هـ/ 733م) ولهذا السبب يذكر الأخطل في هذا اللفيف الثلاثي من الشعراء وإن كان قد التحق بحلبة المنافرة متأخرا. وقد يكون بشر بن مروان هو الذي أقحمه في دائرة المنافسة التي كانت ثنائية بين جرير والفرزدق حين طلب منه أن يحكم بين هذين المتهاجيين وقد كانا حسب بعض الروايات حاضرين لديه فقال: «الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر» فأغضب جريرا [ابن سلام، 162 ـ 163] وفي رواية أخرى أن جريرا هو الذي «أغرى بين جرير والأخطل» حتى هجاه الأخطل [ابن سلام، 156 ـ 157]. ومن المرجح أن يكون الأخطل دخل حلبة التنافس رغبة منه في مزيد من الشهرة لا سيّما أنّ قصائد جرير كانت تسير بها الركبان لشدّة شهرة صاحبها.

ولئن عدّ ابن سلام جريرا والفرزدق في الطبقة الأولى من الإسلاميين (114 وما بعدها) فإنّه لم يذكر معهما الأخطل إلا في آخر الباب دون أن يصرّح بأنّه في طبقتهما. وفي هذا الثالوث كان يحكم للأخطل بالقدرة على المدح والفخر أو على «نعت الملوك والإصابة في وصف الخمر» [ابن قتيبة، 1/ 77].

كان جرير يتّهم الأخطل بأنّه ينتحل شعر غيره كي يردّ عليه إذ قال: «إنه والله ما يهجوني الأخطل وحده وإنّه ليهجوني معه خمسون شاعرا يقول هذا بيتا وهذا بيتا حتى يتموا القصيدة وينتحلها الأخطل» [الموشح، 140 ـ 141]. ويبدو أنّ جريرا كان الأكثر تأثرا بهجاء الأخطل فلقد قال لأبنه: «أدركت الأخطل وله ناب واحد، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلني به» [الأغاني 8، 285].

توفي الأخطل حسب ابن كثير سنة 92هـ/ 710م أي في آخر خلافة الوليد بن عبد الملك (بين 86هـ/ 696م ـ 96 هـ/ 706م) [البداية والنهاية، 9/ 84] ويرجح بلاشير أن تكون وفاته حوالي سنة (91هـ 709 م) [بلاشير 1، 542] وفي معجم سركيس أنه توفي 94هـ/ 712م، وفي أعلام الزركلي أنه توفي 90هـ/ 708م.

ترك الأخطل ديوان شعر جمعه منذ عهد متقدّم أبو سعيد السكريّ (القرن 3هـ/ 9م) ومحمد بن العبّاس اليزيدي، ونشر الديوان أوّل مرة الأب انطون صالحاني اليسوعي سنة 1891م (مطبعة اليسوعيين ـ بيروت) اعتمادا على نسخة مخطوطة عثر عليها في بطرسبورغ. وبعد أن عثر الأب انطون على نسخة أخرى في بغداد نشر ما حققه فيها عام 1907 ببيروت. ثم نشر عام 1909 ملحقا فيه أشعار أخرى للأخطل. وذيّل ذلك بآخر نشر عام 1925. ثم نشر

«الشذر الذهبي في ديوان الأخطل التغلبي» عام 1925، وأخيرا التكلمة لشعر الأخطل عام 1938 بطهران. وطبع الديوان على الحجر بعناية د. غريفيني عن نسخة عثر عليها في اليمن، صدرت في بيروت عام 1907. وفي عام 1968 أعد إيليا الحاوي شرحا للديوان نشره بعنوان «شرح ديوان الأخطل التغلبي» في دار الثقافة بيروت رتبه بمراعاة الأغراض ترتيبا زمنيا.

كما نشرت قصيدة للأخطل في مدح بني أميّة ألقاها أمام عبد الملك بن مروان مطلعها:

خفّ القطين فراحوا منك وابتكروا
وأزعجتهم نوًى في صرفها غِيَرُ

نشرها هوتسما بـ ليدن سنة 1878م مع ترجمة لاتينية [سركيس، 1/ 409].

أغلب شعر الأخطل في المديح يلتزم في معظمه المقدّمات التي ألحّ عليها واضعو عمود الشعر من أمثال ابن قتيبة. في المقدّمات تتنوّع المواضيع وتختلف فنجد وصف الطلول والرحلة والراحلة وبقر الوحش ومشاهد الصيد، وقد يضيف إليها وصف الخمرة وبعض النسيب. وفي المتن المدحيّ يركّز الأخطل على رفعة النّسب فيمدح القبيلة وقد يعرّض بغيرها، وقد يذكر معاني الحرب والبطولة والكرم. ويمكن أن تكون رائيته في مدح عبد الله ويزيد ابني معاوية نموذجا نظاميا للقصيدة المدحية [شرح الديوان، 114 ـ 124]. لكن الدالية التي مدح بها يزيد بن معاوية (94 ـ 102) تمثل خرقا للنظام إذ نجد معنى المدح يتخلّل المعاني المقدمة له في الأصل، ولعلّ ذلك الخلل كان في الرواية لا في القصيد الأصلي. والمدح يمثل في ديوان الأخطل ملتقى بقية الأغراض ففيه نجد الفخر الذاتي والقبلي والهجاء الفرديّ والجماعي وكذلك النسيب الذي بدا في أكثره برما بأحوال الزمان شاكيا من إعراض المرأة عنه. وعموما فإن شعر الأخطل الذي يبدو أقرب إلى الروح البدوية والجاهلية لم يكن غريب اللفظ ولا وحشيّه، ولا كان فيه من التكلّف ما يجعله عسير المأخذ بعيد التخييل بقدر ما كان صاحبه واضح المعنى شيّق الصّورة لطيف العبارة يصدق عليه ما قاله هو في جرير من أنه «يغرف من بحر» وليس كالفرزدق «ينحت من صخر».

المصادر والمراجع

● الجمحي، طبقات، 158 ـ 179؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 404 ـ 393؛ ● الاصفهاني، الأغاني 8، 303 ـ 304، 310؛ ● السيّوطي، شرح شواهد المغني، 46؛ ● البغدادي، خزانة الأدب، 1/ 219 ـ 221، المبرّد، الكامل، 1/ 178 ـ 179؛ ● أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 170؛ ● المرزباني، الموشح، 138 ـ 141؛ ● ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 133؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، 1/ 408 ـ 409؛ ● الأب شيخو، شعراء النصرانية بعد الاسلام، 80؛ ● الزركلي، الإعلام، 5/ 123؛ ● بلاشير، تاريخ الأدب العربي، 2/ 537 ـ 546؛ ● إيليا الحاوي، شرح ديوان الأخطل، 5/ 60؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، 1/ 515.

د. توفيق قريرة
الجامعة التونسية ـ تونس

التّغلبي، الأخنس بن شهاب بن بني تغلب

(ت 555م)

الأخنس بن شهاب من بني تغلب، شاعر جاهلي قبل الإسلام بدهر [المفضليات، ابن الأنباري، 1/ 203؛ ديوان الحماسة، التبريزي، 299؛ خزانة الأدب، 7/ 37].

فهو الأخنس بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن عدي بن معاوية بن عمرو بن غَنَم بن تغلب بن وائل [المؤتلف والمختلف، 31؛ الأعلام، 1/ 277؛ معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين، 15]، ويروى: الأخنس بن شهاب بن ثمامة بن أرقم بن حُزابة بن الحارث بن نمير بن أسامة بن بكر بن معاوية بن غنم بن تغلب [خزانة الأدب، 7/ 73].

وقد أخطأ الفيروزآبادي حين عده صحابيًّا [القاموس، خنس] ولربّما شبه عليه بالأخنس ابن عمرو بن وهب بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه «أبي» ولقب بالأخنس لأنه خنس أي رجع ببني زهرة من بدر دون قتال مع المشركين، وتزعم ثقيف أنه أحد الرجلين اللذين ذكرهما الله عز وجل في الآية الكريمة ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31] وهما: الأخنس بن شريق الثقفي والوليد بن المغيرة [الاشتقاق، 43].

كما أخطأ أبو عبيد البكري حين ظن أن بكير بن الأخنس، شاعر إسلامي، هو ابن الأخنس التغلبي وروى له شعرًا في آل المهلب:

نزلْتُ على آل المهلب شاتيًا
غريبًا عن الأوطان في زمن المحلِ
فما زال بي إكْرامُهُمْ وافتقادُهُمْ
وألْطافُهُمْ حتّى حسبتهمُ أهلي

[سمط اللآلي، 2/ 720]

واستدرك عليه ابن الأنباري قائلاً: إن الأخنس جاهلي، وكون البيتين في آل المهلّب يعني حدوث إشكال، فإن ثبت أنهما لابنه فهذا يعني أنه متأخر، ثم قال: «ولم يعدّ أحد بكيرا من الصحابة»، وقال أيضا: «وبكير هذا ليس بكير بن الأخنس السدوسي الكوفي التابعي أحد رواة الحديث، وقد يكون بكير هو ابن الأخنس بن شريق الثقفي السابق الذكر» [المفضليات، 203].

والأخنس بن شهاب أحد فرسان تغلب المعدودين شجاعة وشرفًا [الأعلام، 1/ 277] فقد كان رئيسًا وشاعرًا [معجم البلدان، 4/ 368] عرف بصاحب العصا، والعصا: فرسه قيل: العصا: فرس جذيمة بن الأبرش، وفي بني تغلب فرس يقال له العصا، فارسه الأخنس بن شهاب [الاشتقاق، 336؛ أمالي القالي، 3/ 185].

وتروى في فروسيته روايات وأشعار، منها: أنه كان يغير على كلب وغيرهم، فقال حَمَل بن بدر الفَزاري، وعنده أناس من النَّمِر: أبلغوا

عني الأخنس بن شهاب أن فزارة ليست كمن يغير عليه من كلب وغيرها. وسخر من بني تغلب الذين أعطوا الأخنس مقادهم، وتكلّم فيه بكل قبيح، فلما بلغه الخبر غزا بني فزارة فقاتلوه قتالا شديدًا لكنه حمل على فارسهم يزيد بن بدر أخي حَمَل بن بدر فطعنه وأسره، أما حمَل فولى هاربًا فناداه الأخنس: إلى أين يا حَمَل؟ ثم قال:

عودي فزارُ ولا تجزعي
فإنا أناسٌ لنا مرجعُ

أما تكملة الخبر فتدل على أنه كان بطلاً في الحرب وبطلاً في العفو والتسامح، ذلك أن فزارة بذلت في يزيد من الدية ألف بعير، فقال الأخنس: «ما الذي بذلتم في صاحبكم بأغنى من ذباب خيلكم» فبكى القوم يزيدَ لظنهم أنه قاتله، لكنه دعا به وأطلقه منّا عليه، ثم قال من قصيدة:

ألم ترني مننتُ على يزيد
ولم أُشمِت به حَمَل بنَ بدرِ

رفعتُ به نمامَ أبي شهابٍ
ولم يكُ أسرُه عندي بأسرِ

فقال يزيد بن بدر يشكر الأخنس:

جزى الله عني والجزاءُ بكفه
أبا الغمرِ أعني الأخنس بنَ شهابِ

تداركني من بعد بؤس بنعمةٍ
وكنتُ أسيرًا في جناح عُقابِ

[الأنوار ومحاسن الأشعار، 1/ 169 ـ 172]

ونسب لفروسيته بعض الأمثال، من ذلك قولهم «هذا أوان الشد فاشتدّي زِيَم» وهذا مثل يتنازعه أكثر من شاعر قديم، ذُكِرَ منهم الأخنس بن شهاب، وأصله شطر من أرجوزة، وكان الحجاج قد استشهد به في خطبته المشهورة [نشوة الطرب، 2/ 804]، ونسبت إليه أمثال أخرى مأخوذة من بعض شعره في الفروسية، من ذلك قولهم: «وعند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقينُ». ورد هذا المثل في شعر للأخنس ـ وكانا فاتكين ـ فوثب الجهيني على الكلابي فقتله وسلب ما معه من مال، وكانت للحصين أخت تدعى صخرة تبكيه وتسأل عمّن قتله، فقال الأخنس:

كصخرةَ إذا تسائل في مراحٍ
في جَرم وعلمهما ظنونُ

تسائل عن حُصَيْنٍ كلَّ ركْبٍ
وعند جُهَيْنَةَ الخبرُ اليقينُ

وقيل: جهينة اسم امرأة، وقيل اسم قبيلة، وقيل: اسم خمار [المزهر، 1/ 498 ـ 499].

والبيتان في الحماسة البصرية 1/ 16 من مقطوعة حماسية منسوبة للأخنس بن شهاب، منها:

وكم من فارسٍ لا تَزْدَريه
إذا شَخَصتْ لموْقِفهِ العيونُ

يَذِلُّ لهُ العزيزُ وكلُّ ليثٍ
حديدِ النابِ مسْكَنُهُ العرينُ

علوتُ بياضَ مَفْرِقِه بِعَضْبٍ
يطيرُ لوقْعِهِ الهامُ السكُونُ

وفي شعره شواهد أخرى على بعض معاني الفروسية، كالأبيات الآتية التي رويت على ما

قيل في الإطراق حتى تُمَكِّنَ الفرصةُ، قال:

لَعَمْري لقد جاوَرْتُ في حيِّ عامرٍ
لأُدرِكَ ثأري منهُمُ حِجَجًا
أبيتُ إذا نام الخليُّ كأنّني
سليمُ أفاعٍ لا يلاقي له أُنسا
ولما رأيتُ الثارَ قد حيلَ دونه
مشيتُ لهُم قطْوًا وكنتُ لهُمْ جِلْسَا
ولاحظتُ ثأري فيهِمْ لا أنالَه
متى ما أنلْه أَشْفِ من عامرٍ نفْسَا

[حماسة البحتري، 16]

وشهد الأخنس حرب البسوس وكان شاعرها وقال فيها شعرًا ولم يصلنا منه إلا القليل. توفّي بعد حرب البسوس 555م، ويعد من شعراء الطبقة الثالثة [شعراء النصرانية، 1/ 184].

ولربّما في هذا القول إشارة لما ذكره معجم البلدان [4/ 368] في مادة (قِضَة) قال: وبِقِضَة كانت وقعة بكر وتغلب العظمى في مقتل كليب، والجاهلية تسميها حرب البسوس، وفيه كان يوم التحالق فكانت الدائرة لبكر بن وائل على تغلب فتفرقوا من ذلك اليوم، وبعد تلك الوقعة كانت الوقائع التي جرّها قتل كليب بن ربيعة حين قتله جساس بن مرة، فشتّتهم أخوه في البلاد، فقال الأخنس بن شهاب:

لكل أناس من معدٍّ عمارةٌ
عروضٌ إليها يلجؤون وجانبُ
لُكَيْزٌ لها البحران والسِّيفُ كلُّه
وإنْ يأتها بأسٌ من الهند كاربُ
وبكْرٌ لها ظهرُ العراق وإن تشأ
يحُل دونَها من اليمامة حاجبُ
وكلْبٌ لها خَبْتٌ فرمْلةُ عالجٍ
إلى الحَرَّة الرَّجْلاءِ حيث تحاربُ
وغسّانُ حيٌّ عِزُّهمْ في سواهُمُ
يجالدُ عنهمْ مِقْنَبٌ وكتائبُ
وبَهْراءُ حيٌّ قد علمنا مكانَهمْ
لهم شَرَكٌ حول الرُّصافة لاحبُ
وغارت إيادٌ في السَّواد ودونها
برازيقُ عُجْمٌ تبتغي مَنْ تُحاربُ
ولَخْمٌ ملوكُ الناس يُجْبَى إليهِمُ
إذا قال منهمْ قائلٌ فهو واجبُ
ونحنُ أناسٌ لا حَجازَ بأرْضِنا
من الغيث ما نُلْقَى ومَنْ هو غالبُ

[هذه الأبيات، وكل ما سيأتي من أبيات، برواية المفضليات - شرح ابن الأنباري، 204 - 208].

وخلاصة معناها: إذا كان لكل قبيلة من قبائل العرب مكان يحتمون به أو يغيرون منه فنحن لا نملك مكانًا يحجز عنا الغارات، لكننا - لعزتنا وقوّتنا - ننزل كل أرض أخصبها المطر: حيث نغلب عليها أهلها حتى لو كانت لهم عادة الغلبة على غيرهم، أو فلا نلتقي مع غالب إلا غلبناه [كتاب المعاني الكبير، 1/ 551].

وقال في المعنى نفسه من قصيدة أخرى:

ونحن أناس لا حصونَ بأرضنا
نلوذ بها إلاّ السيوفُ القواطعُ

[نشوة الطرب، 1/ 84]

والأبيات السابقة من قصيدته البائية الشهيرة التي رواها كثير من المصادر القديمة ومطلعها الأشهر كما في [المفضليات، 204]:

لابنةِ حطّانَ بنِ عوفٍ منازلٌ
كما رقش العنوان في الريف كاتب

لكن المصادر جعل مطلعها بيتًا يسبق هذا البيت هو:

فمن يكُ أمسى في البلاد مُقامه
يُسائلُ اطلالا بها لا تُجاوبُ

[ديوان الحماسة، التبريزي، 1/ 299؛ المرزوقي، 1/ 720]

أما القصيدة فهي المفضلية الحادية والأربعون، وعدد أبياتها سبعة وعشرون بيتًا.

وأما الشاعر فيتحدّث فيها عن وقوفه بأطلال المحبوبة ووصفها بعد رحيل أهلها وقد سكنها النعام الذي غدا يجول فيها كالإماء يرحن عشاء حاملات للحطب، ويستعيد ـ كذلك ـ أيام الصبا والشباب، ثم يذكر صحوته منها بعد أن أصبح راشدًا يكسب المال ويرعاه:

فأديتُ عني ما استعرتُ من الصّبى
وللمال عندي اليومَ راعٍ وكاسبُ

ثمّ يستعرض أماكن سكنى كثير من قبائل العرب ومواطنهم ـ كما ذُكر ـ وذلك كي يقول: إن قومه يستعرض أماكن ليس لهم موطن خاص، فهم ـ لعزتهم ـ يتتبعون مساقط الغيث أينما كان لا يمنعهم أحد ولا يُرهبهم غازٍ، ولتأكيد ذلك يقول: إن خيولهم ترود الأمكنة الخلاء حول بيوتهم كأغنام لم تتّسع لها الزرائب، وكان في ذكره الخيول سبب لنعت فرسانها، قال:

ترى رائداتِ الخيلِ حول بيوتنا
كمِعزَى الحِجَازِ اعْجزَتْها الزرائب

فوارسُها من تغلبَ ابنةِ وائلٍ
حُماةٌ كُماةٌ ليس فيها أشايبُ

وقد ركز بعض المصادر التي روت القصيدة كلها أو جزءًا منها على أبيات بأعيانها، لما لها من أهمّية فكرية أو اجتماعية، من ذلك البيت التالي الذي تداولته أكثر المصادر:

وإن قَصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها
خُطانا إلى القوم الذين نضاربُ

قال ابن الأنباري في ترجمة الأخنس «هو أول العرب وصل قصر السيوف بالخطى» ثم ذكر البيت وقال: ومنه استرق كعب بن مالك الأنصاري صلة السيوف فقال:

نصلُ السيوفَ إذا قصُرْن بخَطونا
قُدُمًا ونُلحِقُها إذا لم تلحق

وأخذه قيس بن الخطيم بلفظه تقريبا:

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كا وصلُها
خُطانا إلى أعدائنا فنضاربُ

ثم قال: «قال ثعلب: هذا البيت تتنازعه الأنصار وقريش وتغلب، وزعمت علماء الحجاز أنه لضرار بن الخطاب الفهري أحد بني محارب من قريش» [المفضليات، 203].

وبيت قيس بن الخطيم السابق هو الشاهد الخامس بعد الخمسمائة من شواهد سيبويه، والرواية هناك «فنضاربِ» بكسر الباء؛ على أن «إذا» جازمة للشرط والجزاء في ضرورة

الشعر، بدليل جزم نضارب بالعطف على جملة كان الواقعة جوابًا لـ «إذا» [خزانة الأدب، 7/ 25].

ووصل السيوف بالخطى معنى تداوله الشعراء والناثرون بعد الأخنس، وعليه أقوال وحكايات [انظر الأشباه والنظائر، 1/ 41 ـ 43، 121].

وشبيه بهذا بيته الذي أنهى به القصيدة، وهو قوله الذي جعل فيه فحلهم ـ لقدرتهم ـ مطلق القيد يسرح في الأرض حيث يشاء، في الوقت الذي يحرص سواهم على تقريب القيد لفحلهم:

أرى كلَّ قومٍ قاربوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ
ونحنُ خلعْنا قَيْدَه فهو ساربُ

فقد استحوذ هذا البيت على اهتمام عدد من المصادر لقيمة المنعة التي يفصح عنها وينعت بها قومه [المعاني الكبير، 1/ 551؛ أمالي القالي، 2/ 243]. وعلق الخالديان على البيت وعلى غيره من القصيدة بقولهما: «هذا شعر نهاية في الفخر، ووصف الشرف» وله نظائر [الأشباه والنظائر، 2/ 284].

وكان بعض شعر الأخنس موضعًا لشواهد لغوية، منها: أن الأصمعي اتّخذ بيته:

تظل بها رُبْدُ النعام كأنها
إماءٌ تُزَجّي بالعشيّ حواطبُ

الذي يشبه فيه النعام بالإماء في رواحهن بالحطب، شاهدًا على خطأ النابغة في وصفه الإماء غاديات بالحطب: «مشي الإماء الغوادي تحمل الحُزَما»، فقال: «وإنّما توصف الإماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو... ومثله قول الأخنس بن شهاب: البيت» [الشعر والشعراء، 101؛ الحيوان، 4/ 414].

والملاحظ على شعر الأخنس أنه مثال صادق على موضوع الفخر القبلي والذاتي الصادر عن إحساس عميق بالقيمة المعنوية التي على الإنسان أن يتحلّى بها في مجتمع يقدر هذه القيمة ويرهبها في آن. وشعره ـ على صعيد آخر ـ يمتاز بعراقة المعنى وكثرة التشابه المجلوبة من البيئة الجاهلية، وقوّة اللغة، وتماسك البناء ووحدة القصيدة، وهذا لا يلغي قطعًا تميز البيت الواحد داخل هذه الوحدة بفرادته الخاصة التي تؤلف جزءًا مهمًا وأساسيًا في ذلك البناء المتماسك. وقد يكون من أسباب تماسك بنائه الشعري أيضًا التماسك النفسي الداخلي والعفوي الذي أوحى له النظم على بحر شعري واحد منسجم النغمات، وقافية واحدة تنتهي إليها الذبذبات دون أن يدري وعيه كيف يتأتى له ذلك وهو الذي لا يعرف ماذا يعني البحر، وما هو كنه القافية، وهو في هذا كله مثال حي للنظام الداخلي التلقائي للقصيدة الجاهلية بشكل عام.

المصادر والمراجع

● الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم، تح. ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت، 1991؛ ● البحتري، أبو عبادة، الحماسة، تح. كمال مصطفى، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، 1929؛ ● البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج، الحماسة البصرية، تح. عادل

جمال سليمان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1978؛ ● البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، تح. عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979؛ ● البكري، أبو عبيد، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تح. عبد العزيز الميمني، دار الحديث، بيروت، 1984؛ ● أبو تمام، ديوان الحماسة، شرح التبريزي، دار القلم، بيروت، 1331هـ؛ ● الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تح. عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ط3، 1969م؛ ● الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1969؛ ● الخالديان، أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدّمين والجاهليين والمخضرمين، تح. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1958م؛ ● ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن، الاشتقاق، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1991؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1984؛ ● ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تح. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، 1982؛ ● السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح. محمد أحمد جاد المولى ورفيقه، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، د.ت؛ ● الشمشاطي، أبو الحسن علي بن محمد العدوي، الأنوار ومحاسن الأشعار، تح. السيد محمد يوسف، مراجعة عبد الستار أحمد فراج، الكويت، 1977؛ ● عفيف، عبد الرحمن، معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين، دار العلوم، الرياض 1983؛ ● الفيروزآبادي، مجد الدين، القاموس المحيط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1913؛ ● القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، الأمالي، دار الحديث، بيروت، 1984؛ ● المفضل الضبي، المفضليات، تح. أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 1942؛ ● ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تح. عمر الطباع، دار الأرقم، بيروت، 1997؛ ● ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م؛ ● لويس شيخو، شعراء النصرانية، القسم لأول، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، د.ت؛ ● المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة، تح. أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991؛ ● ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، 1988م.

د. عبد القادر أحمد الرباعي
جامعة اليرموك ـ الأردن

التغلبي، أبو سعيد فرج بن قاسم بن لب

(710هـ/1310م - 782هـ/1380م)

فرج بن قاسم بن لب الغرناطي الأندلسي، أبو سعيد، وفي بعض المصادر «الثعلبي» وهو تصحيف. من علماء الفقه والعربيّة والقراءات والتفسير، والأصلين.

ولد بغرناطة، ونشأ في بيت علم وجلالة، فقد كان والده على قدر من المعرفة والاهتمام بالعلوم، موصوفا بالمشيخة والفضل، وعلى هذا درج الابن، فسلك طريق العلم، وبدأ بقراءة القرآن بالسبع على أبي الحسن علي بن عمر الكناني القيجاطي (ت 730هـ/ 1329م)، وتفقه عليه في أنواع العلوم، وأجازه إجازة عامة، وعليه اعتمد في كثير من مروياته، وظلّ ملازما له إلى أن مات، وقرأ بقراءة نافع بن نعيم إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 36] على إبراهيم بن محمد بن أبي العاصي التنوخي (ت 727هـ/ 1326م)، وحضر مجالس عبد الله بن علي بن سلمون (ت 741هـ/ 1340م) في القراءات وغيرها، ودرس علوم العربية من لغة ونحو على إمام وقته في هذا الشأن محمد بن علي بن الفخار البيري (ت 754هـ/ 1353م)، والحديث على محمد بن جابر الوادي آشي (ت 749هـ/ 1348م) وعنه روى الكثير من الأحاديث النبويّة، وسمع على قاضي الجماعة بغرناطة محمد بن يحيى بن أبي بكر الأشعري (ت 741هـ/ 1340م) صحيح البخاري، وتفقه عليه فيه، ودرس عليه عقيدة المقترح، وقسما من كتاب الإرشاد لأبي المعالي الجويني، والتهذيب في اختصار المدونة للبراذعي، وأخذ عن أحمد بن الحسين الزيات (ت 728هـ/ 1327م) أكثر مؤلفاته ومروياته، وعن محمد بن أحمد الهاشمي الطنجاني (ت 732هـ/ 1331م).

ولم تسجل له كتب التراجم رحلة إلى بلاد المشرق، واكتفى بمراسلة مشاهير الشيوخ، فأجازه من المغرب العربي محمد بن محمد بن عبد النور التونسي الذي كان حيّا سنة 726هـ/ 1325م، والناصر المشذالي منصور بن أحمد الزواوي (ت 731هـ/ 1330م)، وإبراهيم بن عبد الرفيع التونسي (ت 733هـ/ 1332م)، وعبد الله بن محمد بن البراء التنوخي (ت 737هـ/ 1336م)، ومحمد بن أبي القاسم بن حماد اللبيدي. وأجازه من مصر قاضي الإسكندريّة فخر الدين عبد الواحد من المنير (ت 733هـ/ 1332م)، وتاج الدين الفاكهاني عمر بن علي بن سالم الإسكندري (ت 734هـ/ 1333م)، وأثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت 745هـ/ 1344م) نزيل القاهرة.

عاش التغلبي في ظل مملكة غرناطة، في وضع سياسي دقيق، شهدت خلاله الأندلس

جسام الأحداث الداخليّة والتحدّيات الخارجيّة، مما زاد تاريخ الأمة في البلاد إرهاقا، وانعكس ذلك على طبيعة البيئة الاجتماعيّة، وخصائصها العنصريّة، فاستحال المجتمع الأندلسي بمرور الزمن وتعاقب الحوادث والدول، والمؤثرات المختلفة إلى أمّة عربيّة إسلاميّة ذات طابع مستقل ومميزات خاصّة، تدعمها مجموعة من الخلال الرفيعة، وتصقلها حضارة راقية زاهرة.

وكان سلاطين غرناطة جريا على سنن أسلافهم من حماة العلوم والآداب، وكانوا هم أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء والشعراء، وقد بلغت الحركة العلميّة ذروتها في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل (733هـ/ 1333م - 755هـ/ 1354م)، وولده السلطان محمد الغني بالله (755هـ/ 1354م - 793هـ/ 1390م)، وفي عصر هذين السلطانين ظهرت عالميّة التغلبي ومكانته بين علماء العصر.

عرف التغلبي بالدين المتين، والتزام مذهب الجماعة، ومن ثمّ فقد كان من أهل الخير والطهارة والفضل وحسن الخلق، موصوفا بالذكاء، رأس بنفسه، وعلا بفضل ذاته، وبرز بمزية إدراكه وحفظه، وبرع في علوم العربيّة من نحو ولغة، وفي علوم القرآن من قراءات وتفسير. أمّا الفقه فهو فيه إمام وقته، وعليه مدار الفتوى، وإليه المرجع في المسائل المعضلة بغرناطة وغيرها من مدن الأندلس، وله في علوم الفرائض والتوثيق والأصلين تقدّم ونبوغ، فضلا عن جودة الخط وحسن النظم والنثر، وقد سلّم له معاصروه بالمهارة والإتقان حتّى صار المعول عليه في كثير من العلوم، ولقب باستحقاق عال بشيخ الشيوخ وأستاذ الأساتذة.

ومع ذلك فقد كان حافظا لمقام الآخرين من علماء العصر، يراسل أبا عبد الله محمد بن أحمد بن علي الشريف الحسني التلمساني (ت 771هـ/ 1369م) كلما أشكلت عليه مسألة من مسائل العلم، ويطلب منه بيان ما أشكل عليه [المقرّي، 8/ 172].

تصدّر للتدريس بغرناطة على وفرة الشيوخ، ودرس بالمدرسة النصْريّة في الثامن والعشرين من رجب سنة 754هـ 29 آب 1353م، وولي خطابة الجامع الأعظم، وظلّ في منصبه معظما عند الخاصّة والعامّة إلى أن مات.

قضى التغلبي سني عمره كلها في التدريس والتأليف وخدمة أهل العلم، وكانت دروسه منقحة الإيراد، يحضرها الشيوخ ونبهاء الطلبة، فيجري معهم على منهج البحث والنظر والتحليل والمذاكرة [نيل الابتهاج، 221].

وكانت له في الفقه بحوث وآراء تجري في الميدانين النظري والتطبيقي في آن واحد، وكلاهما مطلوب، فالميدان النظري وهو (التفقه) يعد البداية لينتهي إلى ميدان التطبيق وليصبح (فقها) يقوم عليه العمل فيما ينفع الناس، وفيما شجر بينهم. وله في ذلك قواعد في الفتاوى مشهورة، واستنباطات أخذت عنه، منها: جواز الفتوى بمراعاة اللفظ والميل إلى جانبه، وعدم التشديد على السائل إن جاء مستفتيا.

ووقع في زمانه خلاف بين علماء الأندلس حول جواز ضرب الخراج على الناس عند

ضعفهم وحاجتهم، لضعف بيت المال القيام بمصالح الناس فأفتى، بعدم جواز ذلك، وخالفه تلميذه الشاطبي، وعدّ توظيف الخراج على المسلمين من المصالح المرسلة، مستندا إلى الظروف التي كانت تجوزها الأندلس نتيجة للغارات العسكريّة التي كانت تشنها الممالك الإسبانيّة عليها. ومثل ذلك: أنّ خراج بناء الأسوار والتحصينات في بعض مواضع الأندلس في زمانه كان موظفا على أهل الموضع، فأفتى التغلبي بأنّه لا يجوز ولا يسوغ، وأفتى الشاطبي بسوغه، مستندا إلى المصلحة المرسلة التي إذا لم يقم بها الناس فيعطوها من عندهم ضاعت. وقد تكلّم في هذه المسألة عدد من الفقهاء المتقدّمين مثل: أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت 474هـ)، وأبي عبد اللّه بن يحيى بن الفراء (ت 514هـ) وغيرهما. وللفراء مع يوسف بن تاشفين في هذه المسألة كلام مشهور، ومن المسائل أيضا: مسألة مراعاة الخلاف في المذهب، ومسألة الأدعية بعد الصلوات، وغير ذلك من المسائل التي أثارت في الوسط العلمي جدلا ونقاشا طويلا، أفضى عن ولادة مؤلفات ورسائل نافعة.

وللتغلبي شعر نبيل الأغراض حسن المقاصد، ومن ذلك قوله في قصيدة للرد على القائلين بخلق الأفعال، مطلعها:

قضى الرب كفر الكافرين ولم يكن
لبرضاه تكليفا لدى كلّ ملة

ثمّ استشهد على كلّ بيت منها بآيات من القرآن الكريم، والبيت المذكور مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الانعام: 107]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الانعام، 112]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: 7] وبقية القصيدة في [الديباج، 2/ 140؛ وطبقات المفسرين، 2/ 26، 27]، وتمام الخبر في [درة الحجال، 3/ 265 ـ 268]، وقد ذيلها أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري (ت 770هـ/ 1368م).

وله من قصيدة يمدح الرسول ﷺ:

أحن اشتياقا لريح سرت
وأبدي هياما لبرق أنارا

حنينا وشوقاً إلى معلم
حوى شرفا خالدا لا يُجارى

به أسكن اللّه أسمى الورى
نبيًا كريما وصحبا خِيارا

هو المصطفى المنتقى المجتبى
أرى معجزاتٍ وآيا كبارا

يحق علينا ركوبَ البحارِ
وجوبَ القفار إليه ابتدارا

قال المقري [8/ 58]: وقصد بهذه القصيدة معارضه قصيدة الشهاب محمود التي نظمها بالحجاز في طريق المدينة، ومطلعها:

وصلنا السّرى وهجرنا الديارا
وجئناك نطوي إليك القفارا

وقال في وداع شهر رمضان [الإحاطة، 4/ 250]:

أأزمعت يا شهر الصيام رحيلا
وقاربت يا بدر التمام أفولا

أجدّك قد جدت بك الآن رحلة
رويدك أمسك للوداع قليلا

وله شعر في النسيب وفي أغراض أخرى [الإحاطة، 4/ 254؛ والكتيبة الكامنة، 68].

وقد لحق التغلبي في حياته وبعد مماته ثناء كبير، وإذا كان لسان الدين بن الخطيب قد انقلب عليه، وتغيّرت صورته ما بين الفراغ من تأليف كتابه «الإحاطة»، وتأليف كتابه «الكتيبة الكامنة»، وطعن في سلوكه ونسبه، واختار من شعره أو نسب إليه ما لا يشرف [الكتيبة، 67 ـ 69]، فإنّ هذا الانقلاب والتغيّر قد شمل آخرين من معاصري ابن الخطيب، وممن كانوا في عداد شيوخه أو أصدقائه لأسباب معروفة، ولم يكن هذا التغيّر ليقلّل من قدر التغلبي وجلاله ولا يوهن من أثره وتأثيره في الحياة العلميّة، والبيئة الاجتماعيّة الأندلسيّة، ولا التفت إليه أحد.

فالتغلبي بإجماع أهل العلم من أكابر علماء المالكيّة المتأخرين، ومن محققيهم الذين عليهم مدار الفتوى مع القيام التام على الفنون بأسرها، حتّى قال آخر علماء غرناطة محمد بن يوسف العبدري الشهير بالمواق (ت 897 هـ/ 1491 م): شيخ الشيوخ أبو سعيد بن لب الذي نحن على فتاويه في الحلال والحرام.

وقلّ بالأندلس في وقته من لم يدرس عليه، ولم يستفد منه من أكابر شيوخها، كلسان الدين بن الخطيب، والإمام الشاطبي، ومحمد بن سعد الغرناطي (ت 791هـ/ 1388م)، وابن زمرك محمد بن يوسف (ت 795هـ/ 1392م)، ويحيى بن أحمد السراج (ت 803هـ/ 1400م)، ومحمد بن قاسم بن علاق (ت 806هـ/ 1403م)، ومحمد بن محمد القيجاطي (ت 810هـ/ 1407م)، ومحمد بن علي الشهير بالحفار (ت 811هـ/ 1408م)، وقاسم بن علي المالقي (ت 811هـ/ 1408م)، وعبد اللّه بن محمد بن ميمون البلوي، قرأ عليه القراءات السبع وأجازه سنة (764هـ/ 1362م) [غاية النهاية، 2/ 8]، ومحمد بن محمد يوسف الخشاب الغرناطي الذي كان حيّا سنة (772هـ/ 1370م)، وغيرهم من أهل طبقتهم؛ ثمّ من الطبقة الثانية، أبو يحيى بن عاصم محمد بن محمد (ت 813هـ/ 1410م)، وأخوه أبو بكر (ت 829هـ/ 1425م)، ومحمد بن عبد الملك القيسي المنتوري (ت 834هـ/ 1430م) وأبو القاسم محمد بن محمد السراج (ت 848هـ/ 1444م) في جماعة آخرين.

توفي التغلبي ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة 782هـ/ 13 آذار 1380م. وهو قول تلميذه المنتوري، ونحوه لتلميذه أبي زكريا السراج، وقال ابن حجر: توفي سنة 783 هـ/ 1381م.

■ آثاره

للتغلبي من المؤلّفات:

1 ـ أرجوزة في الأحاجي والألغاز النحويّة، وهي قصيدة نونية في سبعين بيتا، أولها:

أحمد ربّي حمد ذي إذعان
معترفا بالقلب واللسان

مع شرح له في عشر ورقات، وأوله: «.. يعني الألف واللام الموصولة في مثل جاء الضارب».

ذكرهما حاجي خليفة في كشف الظنون [2/ 1348]، والزركلي في الأعلام [5/ 140]، وكحالة في معجم المؤلفين [8/ 58] و[Brockelmann, S, II, P. 371]، منها نسخة مخطوطة في خزانة الرباط [2/ 527]. والقاهرة [2/ 121 و2/ 137]؛ 2 ـ «الأجوبة الثمانية» في الفقه، قصيدة لامية، وشرحها من تأليفه، ذكرهما الزركلي وBrockelmann, g, II, p. 259، منها نسخة مخطوطة في خزانة الرباط ضمن مجموع برقم (262 أوقاف)؛ 3 ـ كتاب «الباء الموحدة في النحو». ذكره ابن حجر في أنباء الغمر [1/ 249]، والسيوطي في بغية الوعاة [2/ 244]، والداودي في طبقات المفسرين [2/ 28]، وأحمد بابا [219]، والمقري [8/ 61]، والبغدادي في هدية العارفين [1/ 816]، والزركلي، وكحالة، ومخلوف في شجرة النور [1/ 231]؛ منه نسخة مخطوطة في خزانة الرباط ضمن مجموع برقم (262 أوقاف)؛ 4 ـ رسالتان في الفقه، الأولى: رسالة في فرائض الوضوء والغسل والصلاة وتوابعها. أوّلها قال رضي الله عنه: «فأمّا الوضوء ففرائضه أحد عشر...»، منه نسخة مخطوطة ضمن مجموع من الورقة (1ب ـ 7ب) مكتوبة بخط مغربي جميل، محفوظة بالخزانة العامة بالرباط برقم (1588د).

والثانية: رسالة «فيما يعرض في الصلاة مما ليس مشروعا فيها»، ضمن المجموع المذكور آنفا من الورقة (31 ب ـ 40أ).

ومن مؤلّفاته التي ما تزال في عداد المفقودات:

5 ـ كتاب «تصريف التسهيل» في النحو، وهو شرح على تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك محمد عبد الله الطائي (ت 672هـ/ 1273م)، ذكره أحمد بابا، والمقري، والبغدادي في هدية العارفين، وكحالة، ومخلوف؛ 6 ـ كتاب «شرح الجمل للزجاجي» في النحو، ذكره أحمد بابا، والمقري، وكحالة، ومخلوف؛ 7 ـ كتاب «ينبوع عين الثرة في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة» ذكره أحمد بابا، والمقري، والبغدادي في: هدية العارفين، وفي إيضاح المكنون [2/ 731 ـ 732]؛ 8 ـ كتاب في «مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيئة المعروفة»، ذكره أحمد بابا، والمقرّي، ومخلوف. ألفه إثر خلاف وقع بينه وبين تلميذه الشاطبي في أمور تتصل بالعبادات، وما اعتاد عليه الناس، كان الشاطبي ينكرها والتغلبي يتأول لها. وقد ردّ عليه في هذا التأليف تلميذه أبو يحيى بن عاصم في جزء كبير انتصارا لشيخه الشاطبي؛ 9 ـ كتاب في «الرد على ابن عرفة في القراءة بالشاذ في الصلاة»، انفرد بذكره مخلوف في شجرة النور، وابن عرفة هو محمد بن محمد الورغمي التونسي (ت 803هـ/ 1400م) إمام المغرب في علوم القراءات والفقه والأصول والعربيّة والمنطق، وهو صاحب كتاب المختصر المشهور في الفقه [ابن فرحون، 2/ 331]، وكان الشاطبي تلميذ التغلبي كثير المراسلة له، يستفتيه في المسائل المختلف عليها في الأندلس؛ 10 ـ وله فتاوى مجموعة ذكرها أحمد بابا، والمقرّي، وقال: «جمعها الشيخ ابن تركاط الأندلسي»، والبغدادي في

إيضاح المكنون [2/ 155]، وهدية العارفين، وذكرها كحالة، ومخلوف.

المصادر والمراجع

● ابن الخطيب، الإحاطة، تح. محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1977، 4/ 253 ـ 255؛ ● م.ن، الكتيبة الكامنة، تح. إحسان عباس، بيروت، 1963، 67 ـ 70؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، 1977، 2/ 139 ـ 142؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، اعتنى بنشره، ج. برجستراسر، بيروت، 1980، 2/ 8؛ ● ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، تح. حسن حبشي، القاهرة، 1969، 1/ 249؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1964، 2/ 243 ـ 244؛ ● الداودي، طبقات المفسرين، تح. علي محمد عمر، القاهرة، 1972، 2/ 25 ـ 28؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، بيروت 1979، 6/ 280 ـ 281؛ ● ابن القاضي المكناسي، درة الحجال، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة 1970، 3/ 265 ـ 268، ● م.ن، لقط الفرائد، تح. محمد حجي، الرباط، 1976، 220؛ ● أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مطبعة المعاهد، القاهرة 1351، 219 ـ 221؛ ● المقري، نفح الطيب، تح. البقاعي، بيروت 1986، 8/ 57 ـ 61، 172؛ ● القادري، محمد بن الطيب (ت 1187هـ)، الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، نسخة مصورة عن نسخة خزانة الرباط الملكيّة برقم (1898)، ورقة 80أ؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 2/ 1348؛ ● البغدادي، هدية العارفين، إستنبول، 1951، 1/ 816؛ ● م.ن، إيضاح المكنون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 2/ 155، و731 ـ 732؛ ● الزركلي، الأعلام، ط14، بيروت 1999، 5/ 140؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1959، 8/ 58؛ ● مخلوف، شجرة النور، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، 1/ 231.

● Carl, Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden 1938. II, 259, S, II, 371.

د. ناطق صالح مطلوب
جامعة الموصل
العراق

التغلبي، عمرو بن كلثوم بن مالك

(ت 570م أو 600م)

هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب التغلبي. لا يذكر مؤرّخو الأدب تاريخ مولده. تدل وقائع سيرته على أنه ممن عاصروا عمرو بن هند ملك الحيرة (554م ـ 568م) [تاريخ الأدب العربي، 1/ 103]، وتجمع الأخبار التي تناولت سيرته على أنه من عائلة فرسان وشعراء يشهد لهم بالفضل. فأمّه هي ليلى بنت المهلهل أخي كليب وائل. أما أبوه كلثوم بن عتّاب فقد كان من أشراف العرب وساداتهم. وقد نشأ الشاعر معتدًا بنفسه فخورا بحسبه. وتولّى أمر قومه وهو في الخامسة عشرة من عمره. [الأغاني، 9/ 175؛ الشعر والشعراء، 1/ 234 ـ 236؛ الموشّح، 8 ـ 7].

اقترنت صورته بالفتك حتى نُعِتَ به، فقيل إنه من «فتاك العرب». ويتفق مؤرّخو الأدب على أن حرب البسوس التي دامت أربعين سنة بين بكر وتغلب قد انتهت بصلح بين العشيرتين لعب فيه الملك المنذر والد عمرو بن هند دورا مهمّا. فلقد طلب من العشيرتين أن ترتهن كلّ واحدة منهما مائة غلام عنده حتى إذا اعتدت إحداهما على الأخرى قتل من رهائنها ما به يفتدي القتلى سواء كانوا من بكر أو تغلب. وجاء أيضا أن عمرو بن هند حين تولّى من بعد أبيه المنذر سلك معهم مسلك أبيه وكان ميّالا إلى بني تغلب.

وتتوسّع كتب الأخبار في ذكر ما كان من أمر عمرو بن كلثوم مع الملك عمرو بن هند فتذكر أن عمرو بن هند أراد أن يذلّ أمّ عمرو بن كلثوم ويجعلها تخدم أمّه، فغضب عمرو بن كلثوم غضبة جاهلية وأطاح برأسه، وقال معلّقته الشهيرة. وقد اقترن اسم عمرو بن كلثوم باسم الحارث بن حلّزة شاعر بكر. إذ يذهب الرواة إلى أن الحارث إنما قال معلّقته ردّا على معلّقة عمرو بن كلثوم. [الأغاني، 9/ 175؛ الكامل في اللغة والأدب، 365؛ المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية 610 ـ 611؛ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، 262؛ اللآلي في شرح أمالي القالي، 1115] شكك طه حسين في نسبة المعلّقة إلى عمرو بن كلثوم وعدّها ضربا من الانتحال. [في الشعر الجاهلي، 164 ـ 172].

يختلف الرواة في حادثة وفاة عمرو بن كلثوم. يذكر صاحب الأغاني [9/ 178] أنه عمّر طويلا ومات بين بني قومه. أما ابن قتيبة فيذهب إلى أن الشاعر توفي من كثرة تشرابه الخمر. ويذكر أنه أغار على بني حنيفة باليمامة ولما أسر ظلّ يشرب الخمر صرفا إلى أن مات. [الشعر والشعراء، 1/ 380]

يحتوي ديوان عمرو بن كلثوم على مقطّعات قصيرة لا يتعدّى أطولها 14 بيتا. أما معلقته فلقد احتوت على 125 بيتا. على أن مقطعاته لا تضيف إلى ما تناوله في المعلّقة معنى يذكر. فأغلبها قيل في الأيام التي خاضت

عمارها بنو تغلب. منها مثلا ما قاله في وقعة وادي الأخرمين ضدّ قبيلة مذحج، [من الوافر]: [الديوان، ص 99 - 100]

لِيَجزِ اللّهُ مِن جُشَمَ بنِ بَكرٍ
فَوارِسَ نَجدَةٍ خَيرَ الجَزاءِ

بِما حاموا عَلَيَّ غَداةَ دارَت
بِوادي الأخرَمَينِ رَحى صُداءِ

بِضَربٍ تَشخَصُ الأبصارُ مِنهُ
وَطَعنٍ مِثلِ أفراغِ الدِلاءِ

صَباحَ الخَيلُ دامِيَةٌ كُلاها
تَرَقَّصُ بِالفَوارِسِ كَالظِباءِ

أما بعضها الآخر فيطرق فيه غرضي الفخر والهجاء. من ذلك مثلا هجاؤه عمرو بن هند في المقطوعة التي مطلعها، [من الوافر]: [الديوان، 105 - 106]

ألا مَن مُبلِغٌ عَمرَو بنَ هِندٍ
فَما رُعِيَت ذَمامَةُ مَن رَعَيتا

وهجاؤه النعمان بن المنذر. وهو يعدد مثالبه فيعيّر النعمان بأن أمّه كانت ابنة صائغ، وأن أخاه صائغ أهدر حياته في نفخ الكير بيثرب. يقول [من الطويل]: [الديوان، 102 - 103]

ألا أبلِغا عَنّي سُلَيماً وَرَبَّهُ
فَزيدا عَلَيَّ مِئرَةً وَتَغَضُّبا

فَإن كانَ جِدٌّ فَاسعَيا ما وَسِعتُما
وَإن كانَ لِعبٌ آخِرَ الدَهرِ فَالعَبا

وَمِن يَعدِلُ اللَيثُ المُجَرَّبُ وَقعَهُ
بِجِسلَينِ لَمّا يَعدُوا أن تَضَبَّبا

لَحى اللَهُ أدنانا إلى اللُؤمِ زُلفَةً
وَأعجَزَنا خالاً وَألأَمَنا أبا

وَأجدَرَنا أن يَنفُخَ الكيرَ خالُهُ
يَصوغُ القُروطَ وَالشُنوفَ بِيَثرِبا

ويتناول عمرو بن كلثوم في مقطعاته المعاني التي درج الشعراء على طرقها في الفخر. فيذكر أنه متلاف للمال لا يحفل إلاّ بالمجد وركوب المعالي. يقول [من الرمل]: [الديوان، 120]

بَكَرَت تَعذُلُني في أن رَأت
إبِلي نَهباً لِشَربٍ وَفِضالِ

لا تَلوميني فَإنّي مُتلِفٌ
كُلُّ ما تَحوي يَميني وَشِمالي

لَستُ إن أطرَفتُ مالاً فَرِحاً
وَإذا أتلَفتُهُ لَستُ أُبالي

يُخلِقُ المالُ فَلا تَستَيئِسي
كَرِّيَ المُهرَ عَلى الحَيِّ الحِلالِ

وَابتِذالي النَفسَ في يَومِ الوَغى
وَطِرادي فَوقَ مُهري وَنِزالي

يجمع مؤرّخو الأدب ونقّاده على أن المعلّقة هي أهم ما قاله عمرو بن كلثوم. ويذكر ابن قتيبة أن تغلب قد شغفت بها الشغف كلّه فتناقلها نسلهم جيلا بعد جيل حتى صاروا يعيّرون بأن تغلب لا تملك من الشعر إلا معلّقة يتيمة. [الشعر والشعراء، 1/ 236]

سار عمرو بن كلثوم في معلّقته على نهج فحول الشعراء في تبويب المعاني التي تناولها، وفي أقسام القصيدة فابتدأ بمقدّمة جمع فيها إلى التشبيب الحديث عن الخمر وظعن الأحبّة. ثم تخلّص إلى الغرض الذي فيه القول وهو على ثلاثة أقسام، قسم أول قاله متوعّدا عمرو بن هند مفتخرا بأمجاده وأمجاد تغلب، وقسم ثان توعّد فيه البكريين.

أما القسم الثالث فقد توجّه فيه مفتخرا على جميع القبائل. يقول في مطلع المعلّقة واصفا الخمر مخاطبا الأحبة قبل ظعنهم، [من الوافر]: [الديوان، 127 ـ 130]

أَلا هُبّي بِصَحنِكِ فَاصبَحينا
وَلا تُبقي خُمورَ الأَندَرينا
مُشَعشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيها
إِذا ما الماءُ خالَطَها سَخينا
تَجورُ بِذي اللُبانَةِ عَن هَواهُ
إِذا ما ذاقَها حَتّى يَلينا
تَرى اللَحِزَ الشَحيحَ إِذا أُمِرَّت
عَلَيهِ لِمالِهِ فيها مُهينا

. . . .

قِفي قَبلَ التَفَرُّقِ يا ظَعينا
نُخَبِّركِ اليَقينا وَتُخبِرينا
قِفي نَسأَلكِ هَل أَحدَثتِ صَرماً
لِوَشكِ البَينِ أَم خُنتِ الأَمينا

يتّخذ التشبيب في معلّقة عمرو طابعا حسّيا إذ يتوقّف الشاعر عند مفاتن جسد المرأة. فيصف تلك المفاتن تصويرا دقيقا لا يخلو من التحرّق واللهفة على غنم اللذّات. فيمعن في وصف نهديها وكشحها وردفيها وساقيها. يقول: [الديوان، 131 ـ 132]

تُريكَ إِذا دَخَلتَ عَلى خَلاءٍ
وَقَد أَمِنَت عُيونَ الكاشِحينا
ذِراعَي عَيطَلٍ أَدماءَ بِكرٍ
هِجانِ اللَونِ لَم تَقرَأ جَنينا
وَثَدياً مِثلَ حُقِّ العاجِ رَخصاً
حَصاناً مِن أَكُفِّ اللامِسينا
وَمَتنَي لَدنَةٍ سَمَقَت وَطالَت
رَوادِفُها تَنوءُ بِما وَلينا
وَمَأكَمَةً يَضيقُ البابُ عَنها
وَكَشحاً قَد جُنِنتُ بِهِ جُنونا
وَساريَتَي بَلَنطٍ أَو رُخامٍ
يَرِنُّ خُشاشُ حَليِهِما رَنينا

يأتي القسم الذي يتوجّه فيه إلى الملك عمرو بن هند ليكمّل الحكاية التي تناقلها الرواة حول ما كان من أمره وأمر أمّه ليلى بنت المهلهل مع الملك عمرو بن هند وأمّه. يقول مهدّدا الملك عمرو بن هند واصفا فتكه به: [الديوان، 142 ـ 143]

أَلا لا يَجهَلَن أَحَدٌ عَلَينا
فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجاهِلينا
بِأَيِّ مَشيئَةٍ عَمرُو بنَ هِندٍ
نَكونُ لِقَيلِكُم فيها قَطينا
بِأَيِّ مَشيئَةٍ عَمرُو بنَ هِندٍ
تُطيعُ بِنا الوُشاةَ وَتَزدَرينا
تَهَدَّدنا وَتوعِدنا رُوَيداً
مَتى كُنّا لِأُمِّكَ مَقتَوينا
فَإِنَّ قَناتَنا يا عَمرُو أَعيَت
عَلى الأَعداءِ قَبلَكَ أَن تَلينا

تتميّز معلّقة عمرو كلثوم بسهولة الألفاظ وقرب المعاني. وهي ذات طابع غنائي واضح إذ يكثر فيها تصوير مشاهد الحرب في نبرة لا تخلو من بُعد ملحمي. ولعلّها من أكثر القصائد غلوّا في الفخر. فلقد ذهب الشاعر في الفخر كلّ مذهب وتصرّف فيه كلّ متصرّف ولم ير فوق قومه من مزيد. يقول مفتخرا بنسبه معدّدا أسماء الماجدين من أسلافه:

[الديوان، 144]

وَرِثنا مَجدَ عَلقَمَةَ بنِ سَيفٍ
أَباحَ لَنا حُصونَ المَجدِ دينا
وَرِثتُ مُهَلهِلاً وَالخَيرَ مِنهُ
زُهَيراً نِعمَ ذُخرُ الذاخِرينا
وَعَتّاباً وَكُلثوماً جَميعاً
بِهِم نِلنا تُراثَ الأَكرَمينا
وَذا البُرَةِ الَّذي حُدِّثتَ عَنهُ
بِهِ نُحمى وَنَحمي المُحجَرينا
وَمِنّا قَبلَهُ الساعي كُلَيبٌ
فَأَيُّ المَجدِ إِلّا قَد وَلينا

ويقول ماضيا بغرض الفخر إلى أقصاه [الديوان، 154]

إذا ما المَلكُ سامَ الناسَ خَسفاً
أَبَينا أَن نُقِرَّ الذُلَّ فينا
مَلَأنا البَرَّ حَتّى ضاقَ عَنّا
وَظَهرُ البَحرِ نَملَأُهُ سَفينا
إِذا بَلَغَ الفِطامَ لَنا وَليدٌ
تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدينا

لقد كان عمرو بن كلثوم من الشعراء الفرسان. وقد جاءت معلقته مجسّدة لقيمة الفتوّة التي دان بها مجتمع ما قبل الإسلام. وبلغت من اشتهارها أن قيل فيها «لو وضعت أشعار العرب في كفة وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة لمالت بأكثرها.» [جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، 115]

آثاره

ترك عمرو بن كلثوم ديوانا صغيرا يحتوي على 292 بيتا موزعة على 44 قصيدة ومقطوعة.

ويذكر بروكلمان، [1/ 103] أن مخطوط ديوان الحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم موجود بمكتبة الفاتح تحت رقم 533. وقد نشره عن مخطوط الفاتح المستشرق كرنكو في مجلّة المشرق، سنة 1922، [591 ـ 611].

ويذكر الأب لويس شيخو في كتابه تاريخ الآداب العربية [ص 328] أن المستشرق الألماني جان غدفريد كوسغارتن ذيّل معلّقة عمرو بن كلثوم بالملحوظات المفيدة وطبعها في غريسفالد.

ـ ديوانا الحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم، شرح مجيد طراد، بيروت، دار الجيل، ط1، 1418هـ/ 1998م.

ـ ديوانا الحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم، شبكة الانترنيت، الموسوعة الشعرية، ضمن موقع المجمّع الثقافي (أبوظبي)، على شبكة الإنترنت: http://www.cultural.org.ae.

ـ ديوانا الحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم، قرص مرن: الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي. الإصدار الأول، سنة 1998؛ الإصدار الثاني، سنة 2001؛ الإصدار الثاني، سنة 2003.

المصادر والمراجع

● الحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم، ديوانا الحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم، شرح مجيد طراد، بيروت، دار الجيل، ط1، 1418هـ/ 1998م؛ ● الأصفهاني، أبو الفرج (ت 356هـ/ 897م)، الأغاني، نسخة مصوّرة عن طبعة بولاق الاصلية، بيروت، نشر صلاح يوسف الخليل ودار الفكر للجميع، 1390هـ/ 1970م، الجزء

التاسع؛ • بروكمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ط5، (د. ت)، الجزء الأول؛ • البكري (ت 487هـ/1094م)، اللآلي في شرح أمالي القالي، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ • الثعالبي، أبو منصور (ت 429هـ/1038م)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ • حسين، طه (ت 1393هـ/1973م)، في الشعر الجاهلي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1344هـ/1926م؛ • الحلبي، أبو البقاء (توفي في النصف الأول من القرن السادس هجريا)، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ • شيخو، لويس (ت 1346هـ/1927م)، تاريخ الآداب العربية، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ • ابن قتيبة (ت 276هـ/889م)، الشعر والشعراء، تح. وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف (د. ت)، الجزء الأول؛ • القرشي، أبو زيد (ت 170هـ/786م)، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ • المبرد (ت 286هـ/899م)، الكامل في اللغة والأدب، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث 2003، باب المراجع؛ • المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 684هـ/994)، الموشّح، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة، دار نهضة مصر، 1965.

د. محمد لطفي اليوسفي
جامعة تونس

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر

(722هـ/1322م - 791هـ/1389م)

مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني المعروف بسعد الدين من أعلام البلاغة والمنطق والكلام والأصول، ولد بتفتازان (خراسان) واختلف في سنة مولده فذهب، ابن حجر الى أنه ولد سنة 712هـ/1312م [الدرر الكامنة، 350؛ السيوطي،

بغية الوعاة، 2/ 285]، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ أكثر من مرجع ذكر أنّه شرع في التصنيف وهو ابن ست عشرة سنة، وأنّه صنف شرح التصريف للزنجاني سنة 738م/ 1337م بدا من الوجيه أن يكون قد ولد سنة 722هـ، وهذا يؤيّده ما ذكره طاش كبرى زاده من أنّه قد كتب على قبره: «ولد عليه الرحمة والرضوان سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة».

أخذ التفتازاني عن كبار العلماء في عصره وخاصّة عضد الدين الإيجي (ت 756هـ/ 1355م) الفقيه الشافعي والمتكلّم الأشعري، صاحب كتاب «المواقف» في علم الكلام، وقد ساق فيه مذاهب الفلاسفة والمتكلّمين في قضايا العقيدة كلّها بأمانة في النّقل والعرض ودقّة في المناقشة والنّقد، وقطب الدين محمّد الرازي (ت 766هـ/ 1364م) الملقّب بالقطب التحتاني، وضياء الدين عبد الله بن سعد الله القزويني (ت 780هـ/ 1281م) الفقيه الذي كان حنفي الأصول، شافعي الفروع؛ كما كان ماهرا في المعاني والبيان.

وإذ كان التفتازاني واحدا من أبرز تلاميذ الإيجي؛ فإنّه كان أيضا واحدا من أشهر أساتذة البلاغة والمنطق وما وراء الطبيعة والكلام والفقه وغيرها من العلوم؛ حتّى أنّه عرف على الإطلاق بالأستاذ، بعد أن اشتهر صيته في الآفاق، فيما وراء النهر، وما وراء العراق، وفي المشرق العربي، حتّى تعرّف إليه ابن خلدون فيما وصل إليه من تصانيفه في مصر، وقال عنه: «إنّ له ملكة راسخة في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدلّ على أنّ له اطّلاعا على العلوم الحكمية وقدما عالية في سائر الفنون العقليّة» [المقدّمة، فصل 13، مصر، 481].

وقد شغل التفتازاني منصب الأستاذيّة في العلوم في سرخس؛ وكان أصلا يساعد ابن مبارك شاه (ت حوالي 803هـ/ 1400م)، فاكتسب إضافة عقليّة منطقيّة بارزة علاوة على اللّغة.

وقد استقدمه تيمور لنك إلى سمرقند لما عرف عن إمامته في مختلف العلوم، وقد جرت بينه وبين السيّد الشّريف الجرجاني (ت 816هـ/ 1413م) مناظرة في مجلس السلطان انتهت على ما يبدو بتقديم الجرجاني عليه، وقد استطاع الجرجاني أن يقنع تيمور لنك بإزاحة التفتازاني من أستاذيّته في سرخس ونقله إلى سمرقند في إقامة شبه إجباريّة حتّى وفاته في سمرقند؛ وقد دفن في سرخس. وعلى الرّغم من الصّلة العلميّة بين الجرجاني والتفتازاني، على الأقلّ فيما بين أيدينا من بيانات اهتمام الأوّل بوضع الحواشي على كتاب المطوّل للتفتازاني، لم يمنع ذلك من تقاطعهما في العقيدة. ويبدو أنّ مكانة الجرجاني عند السلطان وغروره وتعصّبه قاده كلّ ذلك إلى الإساءة إلى أستاذه التفتازاني.

ومن تلامذته برهان الدين حيدر بن محمود الهروي، وحسام الحسن بن علي الأبيوردي، وشاه فتح الله الشرواني...

ومن أبرز مشاكل البحث في سعد الدّين التفتازاني مسألتان:

الأولى ميله إلى فقه أبي حنيفة. والثانية استكماله لقواعد العقيدة الماتريديّة. وقد اختلط موضوع تفقّهه وتمرّسه في علم الكلام على الكثير من الباحثين فاعتبروه شافعيّا في الفقه، أشعريّا في العقيدة؛ وهو لم يكن كذلك [قارن: اللكنوي، الفوائد البهيّة، 134]. ولعلّ دراسته على عضد الدين

الإيجي (المتوفى 756هـ/ 1355م)، المتكلّم المبرّز في العقيدة الأشعريّة والفقيه الكبير في الشافعيّة، كانت سببا في اعتقاد بعض مؤرّخي التفتازاني في أشعريّته وشافعيّته، وصحيحه كما هو ثابت لدينا بما تحقّق الآن من ماتريديّته وحنفيّته. والإيجي له مكانة خاصّة في تطوير المنحى العقلي للتفتازاني ليس في الدرس فحسب، بل إنّ هذا الأخير كان تلميذا وفيّا لأستاذه الذي تعرّض لمنازعات مع حاكم كرمان أدّت إلى سجنه وموته في السجن.

وقد تميّز التفتازاني بتنوّع معارفه، وكان لعدد من مصنّفاته تأثير كبير في التراث البلاغي والأصولي والمنطقي؛ فإذا كان كتابه المطوّل في البلاغة واحدا من أعظم الشروح الكبرى على كتاب «تلخيص المفتاح» للقزويني الخطيب (المتوفّى 739هـ / 1338م). فإنّ «المختصر» هو أنفس كتاب مدرسي للبلاغة اختصر فيه شرحه المطوّل لتلخيص المفتاح.

ومن ناحية أخرى، فإنّ كتبه العقديّة تؤكّد انتسابه إلى أبي حنيفة في الفقه وأصوله، وإلى أبي منصور الماتريدي في العقيدة وعلم الكلام. وأبرزها كتاب المقاصد، وشرحه، ثمّ شرح العقائد النسفيّة. وهنا نجد التفتازاني واحدا من أبرز المتأخرين في المدرسة الماتريديّة، قوّة في الحجّة، وتأثيرا في المتلقّي لفكره المبسوط في هذه الكتب الثلاثة.

وفي الجانب الآخر، نجد التفتازاني صاحب شروح على شروح في المنطق كان لها تأثيرها في عصرها، حتّى فطن ريشر إلى أنّه كان «يمثّل حدّا فاصلا بين الباحثين القدماء والباحثين المحدثين» [انظر Rescher, D.A.L., pp. 217-218 والترجمة العربيّة، 487]؛

وهكذا نلاحظ أن سعد الدين التفتازاني علم مبرز في مختلف علوم عصره، وقد تكرّست مناقشاته في حرية الاختيار والجبر على نحو يجعله معمّقا لقراءاته لأبي منصور الماتريدي والماتريديين، وهو أمر يبعده عن الأشعري والأشاعرة في هذا المجال.

وكان التفتازاني في مؤلّفاته الكلاميّة متأثّرا بالفلاسفة تأثّرا واضحا في استخدامه للمصطلحات والألفاظ الفلسفيّة؛ كما أنّ حججه التي يسوقها في تقوية ما ذهب إليه الماتريدي والنسفي، تصدر عن حجج منطقيّة برهانيّة تتجاوز طبيعة القياس الجدلي والقياس الخطابي؛ ومن ذلك قوله إنّ الواحد يعني أنّ صانع العالم واحد، ولا يمكن أن يصدق مفهوم واجب الوجود إلاّ على ذات واحدة [شرح العقائد النفسيّة، 33]، لذلك يشير التفتازاني إلى «أنّ النصارى قالوا بالقدماء المتغايرة، وإن لم يصرّحوا بذلك، ولكن لزمهم ذلك لأنّهم أثبتوا الأقانيم الثلاثية» الوجود والعلم والحياة، وسمّوها الأب والابن و(روح) القدس، وزعموا أنّ أقنوم العلم قد انتقل إلى بدن عيسى عليه السّلام، فجاوزوا بذلك الانتقال والانفكاك «فصارت ذوات متغايرة» [أيضا، ص 47].

وفي مجال المعرفة والعلم نجد التفتازاني محاورا من نوع خاص، عندما يتعرّض للسوفسطائيّة فيردّهم في قولهم بإنكار ثبوت حقائق الأشياء، تلك الحقائق التي يجزم هو بضرورة ثبوتها بالحس أو العيان، وبالعقل أو البيان، وأنّ خطأ السوفسطائيّين بجميع أصنافهم إنّما جاء من خطأ الحواس [أيضا، 11 - 12]. ويخلص إلى أنّ حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقّق [انظر رسالته في

وحدة الوجود، 11]، ومن هنا يأتي مفهومه للعقل مخالف ما يذهب إليه الفلاسفة والصوفيّة على حدّ السواء.

آثاره

وضع التفتازاني مصنّفات في مختلف العلوم التي مارسها، وجلّ كتبه من قبيل الشروح والمختصرات؛

1 ـ المطوّل، ويعرف بـ«شرح التلخيص، أو شرح تلخيص المفتاح»،وهو شرح واف مشهور لفنون البلاغة العربيّة، وضعه على كتاب تلخيص المفتاح للخطيب القزويني (ت 739هـ/ 1338م)، وفرغ من تأليفه في صفر 748هـ/ 1347و. ويعدّ المطوّل ومختصره من أشهر شروح التلخيص، وأكثرها تداولا، وقد علّقه تيمورلنك. لقيمته العلميّة. على باب قلعة هراة [كشف الظنون، 1/ 498]. وله عدّة طبعات في القسطنطينة (1260هـ، 1289هـ) ولكنهو (1265هـ) وطهران (1270هـ) ودلهي (1326هـ) . . . إلى آخره. وله عدّة شروح منها: ـ شرح الجرجاني على المطوّل، طبع في لكنهو 1312هـ؛ ـ شرح عبد الحكيم السيالكوتي، طبع في قسطنطينة عام 1266هـ؛ ـ حاشية أحمد بن يحيى حفيد التفتازاني (ت 906هـ)، وغيرها [كشف الظنون، 1/ 474 ـ 475]؛

2 ـ المختصر أو مختصر المعاني، ويعرف أيضا بـ«مختصر شرح تلخيص المفتاح، ومختصر المطول أو الشرح المختصر». وهو شرح ممزوج من المطوّل، زاد فيه ونقص، وفرغ منه بـ «غجدوان» سنة 756هـ، وأهداه إلى السلطان محمود جاني بيك خان، وقد تناول فيه مجمل القضايا البلاغيّة في علوم المعاني والبيان والبديع، وختمه بمبحث في السرقات الشعريّة وما يتّصل بها. وهو كتاب مطبوع في كلكتا 1228هـ/ 1813م، ولكنهو 1261هـ و1312هـ، وبولاق 1271هـ وغيرها. . .، ومنه مخطوطات عدّة، وله شروح كثيرة؛ 3 ـ شرح التصريف العزّي، ويعرف أيضا بـ«شرح مختصر الزنجاني»، و«شرح تصريف الزنجاني»، وهو شرح لكتاب الزنجاني في الصرف وهو أوّل تصانيفه، أتمّه في السادسة عشرة من عمره، له عدّة شروح منها: مفتاح السعادة لأحمد شاه بن كول، والترصيف على شرح التصريف للسيوطي المتوفّى سنة 911هـ/ 1505م [كشف الظنون، 2/ 1139]. وله عدة طبعات منها: القسطنطينية عام 1253هـ. وطهران عام 1270هـ/ 1884م (ضمن مجموعة)، ودلهي عام 1289هـ و 1295 (مع مفتاح السعادة لأحمد شاه بن كول)، والقاهرة عام 1307هـ [دائرة المعارف الإسلاميّة، 5/ 341]؛

4 ـ تهذيب المنطق والكلام، أو «تهذيب المنطق أو تهذيب الكلام»، قال عنه التفتازاني: هذا غاية تهذيب الكلام في المنطق في تحري المنطق والكلام، جعله على قسمين: الأوّل في المنطق، والثاني في الكلام، واختصر المقاصد في كلامه. أتمه في رجب عام 789هـ/ 1387م بسمرقند، ولم يطبع القسم الثاني منه. أمّا القسم الأوّل فقد أقبل عليه الدارسون، وطبع عدّة مرات [كشف الظنون، 1/ 515 ـ 517؛ بروكلمان، القسم السابع (12): 310 ـ 311؛ دائرة المعارف الإسلاميّة، 5/ 343]؛ 5 ـ شرح الرسالة الشمسيّة أو شرح الشمسيّة، وهو شرح لرسالة الكاتبي في المنطق (والكاتبي هو نجم

الدين عمر بن علي القزويني المتوفّى سنة 693هـ). حقّق التفتازاني فيه القواعد وفصّل مجملاتها، وأتمه ببلده جام (مزارجام) في جمادي الآخرة سنة 753هـ/ 1352م، (وذكر صاحب شذرات الذهب أنّه في 757هـ). طبع في لكنهو عام 1326هـ/ 1905م وله شروح منها: . شرح قطب الدّين محمد بن محمّد التحتاني (ت 766هـ) سماه «تحرير القواعد المنطقيّة في شرح الشّمسيّة» وعليه حاشية للمحقّق السّيد الشريف الجرجاني (ت 816هـ) وهي التي يقال لها «حاشية كوجك»، وحاشية محمد بن حمزة الفناري (ت 834هـ)، وشرح علاء الدين علي بن محمّد المعروف بـ: مصنفك الفارسي (ت 871هـ)؛ 6 ـ شرح مقاصد الطالبين في أصول الدين، أتمه في ذي الحجّة سنة 784هـ بسمرقند. طبع في الآستانة سنة 1277هـ في جزأين وبهامشه متن مقاصد الطالبين، وفي سنة 1305هـ في جزء واحد [سركيس، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، 1/ 638]؛ 7 ـ شرح العقائد النسفيّة، وهو شرح لموجز عمر بن محمّد النسفي (المتوفّى 537هـ/ 1142 ـ 1143م) [كشف الظنون، 2/ 1145]، تناول فيه قواعد الدين الإسلامي وأصوله، وشرحها شرحا مفصّلا يبيّن معضلاتها، ويكشف عن خفاياها، بما يزيل كل إبهام أو غموض، وقد عرض فيه لآراء كثير من الفرق الكلاميّة. له عدّة طبعات في كلكتا (1244هـ)، ولكنهو (1293هـ/ 1876م)، والقسطنطينية (1297هـ)، والقاهرة (1297هـ) . . . ؛ 8 ـ التلويح في كشف حقائق التنقيح، هو شرح لكتاب تنقيح الأصول لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود المتوفّى سنة 747هـ/ 1246 ـ 1247م. فرغ منه في ذي القعدة سنة 758هـ في بلدة كلستان تركستان [كشف الظنون، 1/ 496]. وله طبعات عدّة في دلهي (1267هـ/ 1851م) ولكنهو 1281هـ/ 1864م . . . إلى آخره [دائرة المعارف الإسلاميّة، 5/ 345] ومن شروحه: ـ حاشية حسن بن محمّد شاه الفناري المتوفى سنة 886هـ؛ ـ حاشية السيّد الشريف الجرجاني المتوفّى سنة 816هـ؛ ـ حاشية محيي الدين محمّد السامسوني المتوفّى سنة 919هـ، وغيرها [كشف الظنون، 1/ 496 ـ 499]؛ 9 ـ شرح المختصر في الأصول، وهو شرح على شرح عضد الدين عبد الرحمن أحمد الإيجي المتوفى سنة 756هـ لمختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب المالكي، المتوفى سنة 646هـ. والكتاب في أصول الفقه الإسلامي، فرغ منه في ذي الحجّة سنة 770هـ/ 1369م، بخوارزم. وهو يتناول عددا كبيرا من القضايا المنطقيّة، واللغويّة، والأصوليّة التي تدخل في إطار علم أصول الفقه . وله طبعات متداولة منها: في بولاق عام 1316هـ/ 1319، وفي الكتب العلمية بيروت 1406هـ/ 1983م [دائرة المعارف الإسلاميّة، 5/ 345]؛ 10 ـ شرح القسم الثالث من المفتاح، أو «شرح مفتاح العلوم» وهو شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي (ت 626هـ)، كتبه التفتازاني في أواخر عهده بالتأليف، وأتمّه بسمرقند في شوال عام 789هـ/ 1387م، وذاع ذيوع المختصر والمطول، ويعدّ أحد أجود ثلاثة شروح للمفتاح. ومنه مخطوطات محفوظة في الأسكوريال [Deren-bourg : رقم 26]، والمكتب الهندي [Loth، رقم 847 ـ 848]، وليدن [de Goeje & Houstma]،

رقم: 298]، وفي غيرها من دور الكتب [دائرة المعارف الإسلاميّة، 5/ 342؛ كشف الظنون، 2/ 1764]؛ 11 ـ إرشاد الهادي أو (الإرشاد في النحو)، ألّفه سنة 744هـ/ 1372م، أو 778هـ بخوارزم لولده المكرم. اختصر فيه الحاجبية وجعله على مقدمة وثلاثة أقسام، المقدمة في تعريف النحو والكلمة، والقسم الأوّل في الاسم، والثاني في الفعل، والثالث في الحرف، وهو متن لطيف. منه مخطوط في فينا [Flugel، رقم 206]، وبطرسبرغ رابع 921. وله عدّة شروح منها: شرح محمّد بن علي الجرجاني ولد السيّد الشّريف الجرجاني (ت 838هـ) وهو مخطوط في برلين [Ahlwardt، رقم6754 ـ 6755]. وشرح شمس الدين محمّد بن محمّد البخاري، وسماه المرشد، وهو مخطوط في الأسكوريال Derenbourg، كما جاء في رسالة منسوبة إلى الجرجاني [دائرة المعارف الإسلاميّة، 5/ 340؛ وأيضا حاجي خليفة، كشف الظنون، 1/ 56، 474، 496، 515، وغيرها]؛ 12 ـ مقاصد الطالبين في أصول الدين، وهو موجز في ما وراء الطبيعة والكلام، رتّبه صاحبه على ستّة مقاصد، وفرغ من تأليفه في ذي القعدة عام 784هـ/ 1383م، وله عليه شرح جامع. قال حاجي خليفة. كما سبق أن ذكر إن القسم الثاني من كتاب (تهذيب المنطق والكلام) موجز للمقاصد. ومنه مخطوطات في جامع الزيتونة بتونس 3/ 96/ 1457، وفي المتحف البريطاني [Ellis-Edwards، ص 9]؛ 13 ـ المفتاح أو (مفتاح الفقه)، وهو شرح مختصر في فقه الشافعيّة، فرغ من تأليفه سنة 772هـ/ 1346م بسرخس، وهو مخطوط ببرلين [Ahlwardt، رقم 4604، بروكلمان، القسم السابع (12)، 320، وأيضا دائرة المعارف الإسلاميّة، 2/ 345]؛ 14 ـ اختصار شرح تلخيص الجامع الكبير، وهو موجز ـ لم يتمه ـ لشرح مسعود بن محمد الغجدواني على مختصر الخلاطي لرسالة الشيباني، في فروع الفقه الشافعي، المعروفة بالجامع الكبير. فرغ من تأليفه سنة 785هـ (786هـ)/ 1383م في سرخس [بروكلمان، القسم السابع (12)، 321، دائرة المعارف الإسلاميّة، 2/ 345، شذرات الذهب، 8/ 548، البدر الطالع، 2/ 304]. ومنه مخطوط في مكتبة يكي جامع (رقم 428 مكرر)؛ 15 ـ كشف الأسرار وعدّة الأبرار، هو تفسير للقرآن باللّغة الفارسيّة، منه نسخة مخطوطة في مكتبة يكي جامع [دائرة المعارف الإسلاميّة، 5/ 345]؛ 16 ـ حاشية الكشّاف، وهو شرح لكتاب الكشّاف للزمخشري المتوفّى سنة 538هـ، وذكر حاجي خليفة أنّها ملخّصة من حاشية الطيبي (الحسن بن محمّد) المتوفّى في سنة 743هـ «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها. فرغ من تأليفه في ربيع الآخر سنة 789 هـ/ 1387م بسمرقند. منه مخطوطات في برلين [Ahlwardt، رقم 793]، وفي المتحف البريطاني [Ellis-Edwards، ص 3]، وفي المكتب الهندي، وفي غيرها من دور الكتب؛ 17 ـ النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ: وهو شرح ممزوج في فقه اللّغة على ذخيرة الزمخشري الموسومة بـ«نوابغ الكلم»، طبع مع ذيل له في ترجمة جار الله الزمخشري مأخوذة من ابن خلكان (مط، وادي النيل 1287هـ، ص80) مع حاشية لمحمّد البيروتي، بيروت

1306هـ [معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، 1/ 638]؛ 18 ـ ترجمة نثريّة باللّغة التركية لديوان سعدي المعروف بالبستان قام بها سنة 755هـ؛ 19 ـ حل المعاقد في شرح القواعد لابن هشام الأنصاري؛ 20 ـ دلالات؛ 21 ـ شرح الأربعين النوويّة (حديث)؛ 22 ـ بحث المشترك (باريس 4187)؛ 23 ـ فتاوي الحنفيّة؛ 24 ـ الرد على ابن عربي في فصوصه؛ 25 ـ التركيب الجليل، وهو في بناء الجملة؛ 26 ـ تركيب غريب وترتيب نجيب، عرض فيه مقوّمات الأسلوب الأساسيّة في إيجاز... إلخ.

المصادر والمراجع

● ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، بيروت، د.ت، دار الجيل، 350؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، تح. محمود الأرناؤوط، دمشق. بيروت، ط. أولى 1992م، دار ابن كثير، 8/ 547 ـ 549؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت (د.ت)، المكتبة العصريّة، الجزء الثاني، 285؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، مجلّدان، بيروت 1413هـ/ 1992م، دار الكتب العلميّة؛ ● الداوودي، شمس الدّين بن محمّد، طبقات المفسّرين، بيروت، ط. أولى، 1403هـ/ 1983م، دار الكتب العلميّة، 2/ 319؛ ● الشوكاني، البدر الطالع، بيروت، (د.ت)، دار المعرفة، 2/ 303 ـ 305؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، القاهرة 1346هـ/ 1928م، مكتبة الثقافة الدينيّة، 1/ 635 ـ 638؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. غريب محمّد غريب، حسن محمود إسماعيل، عبد الحليم محمود أحمد، الهيئة العامة للكتاب 1995م، القسم السابع (12)/ 310 ـ 321؛ ● الشنتاوي، أحمد، وخورشيد، إبراهيم زكي ويونس عبد الحميد، دائرة المعارف الإسلاميّة، القاهرة، 5/ 339 ـ 346؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، ط. ثالثة 1389هـ/ 1969م، 8/ 113 ـ 114؛ ● كحالة، معجم المؤلّفين، سوريا، ط. أولى 1414هـ/ 1993م، مؤسّسة الرسالة، 3/ 49.

د. محمّد صلاح زكي أبو حميدة
جامعة القاهرة
د.عبد الأمير الأعسم
جامعة بغداد
د. محمّد الميسّر
جامعة الأزهر

التفتازاني، محمد أبو الوفا الغنيمي

(1348 ـ 49هـ/1930م ـ 1415هـ/1994م)

ولد محمد أبو الوفا الغنيمي التفتازاني بكفر الغنيمي مركز منيا القمح الشرقيّة بمصر، ودرس العلوم الدّينيّة عن طريق والده وبعد تخرّجه في المدرسة الأوّليّة والثّانويّة التحق بكليّة الآداب/ جامعة القاهرة سنة 1964م، ودرس الفلسفة وتخرّج في 1950م. عمل فترة بمدرسة فؤاد الأوّل الثّانويّة وحصل على الماجستير 1955 م؛ وكان قد عيّن معيدا بكليّة الآداب جامعة القاهرة 1952م. وبعد حصوله على الدّكتوراه سنة 1961م عن فلسفة ابن سبعين الصّوفيّة، عيّن مدرّسا بقسم الفلسفة، ثمّ رقّي أستاذًا مساعدًا 1969م، فأستاذا للفلسفة الإسلاميّة والتّصوّف 1974م، ووكيلا لكليّة الآداب جامعة القاهرة مع ندبه عميدا لكليّة التّربية في الفيّوم 1978م، ونائبا لرئيس جامعة القاهرة 1981م، وعضوًا بلجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للنّظام؛ وعضوًا في الهيئات العلميّة في مصر والخارج.

كما عيّن شيخا لمشايخ الطّرق الصّوفيّة 1983م، وعضو مجلس الشّورى بمصر؛ ثمّ حصل على جائزة الدّولة التّقديريّة للعلوم الاجتماعيّة 1986م، ووسام «تمغة امتياز» من باكستان، 1989م. وكانت وفاته في الثّامن والعشرين من يونيو 1994م.

وهو من أهمّ علماء التّصوّف الإسلامي الّذين حدّدوا مجاله، ورتّبوا موضوعاته، وصاغوا الأطر النّظريّة له، أبان عن تاريخه وأبعاده النّظريّة والعلميّة، وعرف بالتّجربة الصّوفيّة وخصائصها، وأوضح المنهج العلمي لدراستها، حيث قدّم العديد من الدّراسات التّاريخيّة والسيكولوجيّة في التّصوّف في مقدّمتها ثالوثه الشّهير:

1 ـ ابن عطاء الله السكندري وتصوّفه، 1955م.

2 ـ ابن سبعين وفلسفته الصّوفيّة، 1961م.

3 ـ المدخل إلى التّصوّف الإسلامي، 1973م.

وهناك نوعان من الأصول أو المصادر الّتي نهل منها:

* الأول: كتب القشيري، والطوسي، والغزالي، والشعراني، وكتب الصّوفيّة الّذين عرض لهم.

* الثّاني: «المصادر المباشرة» أو الأساتذة شيوخه ومعلّموه، سواء والده الشّيخ الغنيمي التفتازاني (1893 ـ 1936م)، أو أساتذته المباشرون بالجامعة المصريّة مثل: محمد مصطفى حلمي، أو غير المباشرين، مثل الشّيخ مصطفى عبد الرّازق، وأبي العلا عفيفي، ولويس ماسينيون.

ويعدّ الشّيخ مصطفى عبد الرازق (1885 ـ

1947م) أستاذه عن طريقين، الأول عن طريق والده، والثاني عن طريق تلميذ الشيخ عبد الرزاق الأستاذ محمد مصطفى حلمي (1904 ـ 1969م).

يأتي محمد مصطفى حلمي في المرتبة الأولى من أساتذة التفتازاني ومن مصادره في التصوف، كتب عنه بعد وفاته، ليوضح أن محمد مصطفى حلمي «لم يكن في الحقيقة دارسا للتصوف فحسب، وإنما كان يؤمن به كفلسفة حياة، ويمكن أن نؤكد الاتفاق بينهما في الإيمان بالتصوف ونظرة كل منهما إليه كفلسفة حياة».

وقد أفاد التفتازاني من عديد المستشرقين، إمّا بشكل مباشر عن طريق تبنّي بعض آرائهم أو التأكيد على بعض نتائج أبحاثهم، أو مناقشة بعض نظرياتهم والردّ على تحليلاتهم. نشير من بين هؤلاء إلى اثنين، «لويس ماسينيون» (1883 ـ 1962م) الذي يظهر أثره في بعض أجزاء «المدخل إلى التصوف الإسلامي»، ومادّة «تصوف» في الموسوعة الفلسفية العربية، و«ماسينيون ودراسة التصوف الإسلامي»؛ والثاني «آسين بلاثيوس»، الذي يظهر في ثنايا دراسته عن «ابن سبعين وفلسفته التصوفية»، و«ابن عطاء الله السكندري وتصوفه»، و«ابن عباد الرندي»، وذلك مقابل غيرهما من المستشرقين الذين يردّ على موقفهم من التصوف الإسلامي ومصدره، ويحلّل آراءهم مفندا إياها مقدّما تفسيرات مخالفة لها.

يغلب التفسير النفسي على تعريف مبكر قدّمه التفتازاني للتصوف، حيث يحدّده بقوله: «هو صفاء النفس البشرية، وهو تربية روحية، وفلسفة علمية أساسها المعرفة بالله أوّلاً وآخرا. والمتصوف هو ذلك الشخص الذي استطاع أن يروّض نفسه ويقاوم شهواته ليتحرّر من سلطان البدن وليصل إلى المعرفة اليقينية لأسرار الكون وموجوده».

وفي دراسة تالية يجعل منه منهجا كاملا في الحياة يربط حياة الفرد بالمجتمع.

والتصوف بهذا الاعتبار يعدّ «فلسفة إيجابية» تضفي على حياة الإنسان معنى ساميا. إنّ هذا التعريف الذي يطالعنا به في مقدّمة الطبعة الأولى من «ابن عطاء الله السكندري وتصوفه» يختلف عن التعريف الذي قدّمه في دراسته المبكرة «الإدراك المباشر عند الصوفية»، 1949م، في تأكيده على دور التصوف في المجتمع.

ويقدّم لنا في دراسة من أخريات أعماله تعريفا شاملا للتصوف محدّدا إيّاه بأنّه «فلسفة حياة، وطريقة معيّنة في السلوك يتّخذها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي، والاتصال بمبدأ أسمى، وعرفان بالحقيقة، وتحقيق سعادته الروحية»، وهذا التعريف يحتوي على الخصائص العامة للتصوف التي حدّدها لنا في خمس خصائص، نفسية، وأخلاقية، وإبستمولوجية تنطبق على مختلف أنواع التصوف، وهي:

* الترقّي الأخلاقي.
* الفناء في الحقيقة المطلقة.
* العرفان الذوقي المباشر.
* الطمأنينة أو السعادة.
* الرمزيّة في التعبير.

لقد تناول موضوعات التصوّف وفصل في مراحله وتوسّع في أعلامه، وناقش كثيرا من نظريّات الفلاسفة الغربيّين فيه، مثلا:

* رسل في دراسته «التصوّف والمنطق».

* ووليم جيمس في كتابه «أنواع مختلفة من الخبرة الدّينيّة».

* وردّ على آراء المستشرقين خاصّة في الجدل الّذي أثير في القرن التّاسع عشر حول التّصوّف الإسلامي، وهل هو مردود إلى مصادر أجنبيّة.

مرّ التّصوّف الإسلامي عند التفتازاني بمراحل متعدّدة، وتوالت عليه ظروف مختلفة، واتّخذ تبعا لكلّ مرحلة ووفق ما مرّ به من ظروف مفاهيم متعدّدة.

فقد مرّ التّصوّف الإسلامي بمراحل متعدّدة، الأولى: مرحلة الزّهد في القرنين الأوّل والثّاني، وراء ذلك عاملان أساسيّان، هما: القرآن الكريم الّذي تضمّن آيات كثيرة تدعو إلى الزّهد، والثّاني هو الأحوال السّياسيّة والاجتماعيّة، واضطرابها في هذا العصر، ويحرص التفتازاني على الرّبط بين التّصوّف والشّريعة، ومن هنا تفرقته بين اتّجاهين ظهرا في القرنين الثّالث والرّابع، الأوّل يمثّله صوفيّة معتدلون في آرائهم يربطون بين تصوّفهم وبين الكتاب والسّنّة؛ والثّاني يمثّله صوفية انطلقوا من حال الفناء إلى القول شطحا بالاتّحاد أو الحلول، ويؤكّد التفتازاني على استمرار الاتّجاه الأوّل السّنّي أثناء القرن الخامس الهجري، على حين اختفى الثّاني أو كاد أثناء هذا القرن.

ويتناول أهمّ صوفيّة هذا القرن، أي أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)؛ كما يحدّد تيّارين في التّصوّف ظهرا في القرنين السّادس والسّابع: أحدهما فلسفي والآخر عملي. يتمثّل الأوّل بوضوح عند متفلسفة الصّوفيّة، والآخر عند أصحاب الطّرق. ثم يعرض مجموعة من القضايا الإبستمولوجيّة والسيكولوجيّة، حيث يتناول في أحد دراساته لنظريّة المعرفة وأداتها ومنهجها وموضوعها عند الصّوفيّة وفي الدّراسات الأخرى الجوانب النّفسيّة من التّصوّف باعتباره حالات وجدانيّة. وذلك في مجلّتي «الرّسالة» و«علم النّفس» عام 1949 - 1950م.

وتظهر كتابات التفتازاني الاهتمام الكبير الّذي أولاه لدراسة النّاحية السيكولوجيّة، كما نجد في دراستيه عن «ابن عطاء اللّه السكندري» و«الطّريقة الأكبريّة»، ويخصّص دراسة مستفيضة نشرها في عددين بمجلّة «علم النّفس» عن «سيكولوجيّة التّصوّف»، ويحاول أن يرسم صورة عامّة واضحة المعالم للطّريق الّذي يسلكه الصّوفي بوجه عام، وأن يصنّف هذه الحالات الوجدانيّة الّتي ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا، بحيث يخضع التّصوّف لقانون سيكولوجي عام، ويحلّل حالات المتصوّفة النّفسيّة.

ويتناول التفتازاني عددا من شخصيّات الصّوفيّة، في مقدّمتهم ابن عطاء اللّه السكندري الصّوفي الشّاذلي الّذي خصّه بأكثر من دراسة، وابن عباد الرندي الصّوفي الأندلسي الّذي كان ممثّلا للمدرسة الشّاذليّة الصّوفيّة في أسبانيا في القرن الثّامن الهجري؛ كما تناول عددًا كبيرًا من أعلام التّصوّف السّنّي وأصحاب الطّرق، مثلا: أحمد

الرفاعي (ت 573هـ)، وأحمد زروق (846 ـ 899هـ)، وأحمد الدردير (1127 ـ 1201هـ) أحد كبار الطّريقة الخلوتيّة بمصر، وأحمد إدريس (1173 ـ 1253هـ) من أقطاب الصّوفيّة العمليّين من أصحاب الطّرق في القرن الثّاني عشر الهجري، وأحمد بن الشرقاوي (1250 ـ 1316م) أحد متأخّري الصّوفيّة على طريقة الخلوتيّة في صعيد مصر.

ويتناول ابن مسرة (269 ـ 319هـ) وهو من أوائل فلاسفة الأندلس ذوي النّزعة الصّوفيّة، إلاّ أنّ أهمّ الأعلام الّذين يتناولهم بالبحث والدّراسة من أصحاب التّصوّف الفلسفي، هما ابن سبعين وابن عربي، خصّ الأوّل بأطروحته للدّكتوراه حول «ابن سبعين وفلسفته الصّوفيّة»، وبمادّة طويلة في «معجم أعلام الفكر الإنساني»، بالإضافة إلى دراسة مقارنة بينه وبين السهروردي حكيم الإشراق في الكتاب التّذكاري عن السهروردي، ويتّخذ الموقف نفسه من ابن عربي في دراسته الطّريقة الأكبريّة، ولا تقتصر كتابات التفتازاني على أعلام الصّوفيّة بل تتناول أيضا أعلام الفلاسفة والكلام.

آثاره

1 ـ دراسات في الفلسفة الإسلاميّة؛ 2 ـ ابن طفيل وأثره على الغرب؛ 3 ـ إخوان الصفا ودورهم في التّفكير الإسلامي؛ 4 ـ ابن رشد وموقفه من التّصوّف؛ 5 ـ الوهابيّة والتّصوّف؛ 6 ـ الشّيعة والسنّة والصّوفيّة؛ 7 ـ تحقيق الجزء الرّابع من كتاب القاضي عبد الجبار المعتزلي المغني في أبواب التّوحيد والعدل، الّذي يدور حول الرّؤية؛ 8 ـ واصل بن عطاء والفكر الفلسفي في مجال العلوم الشّرعيّة؛ 9 ـ علم الكلام وبعض مشكلاته، وعلم الكلام يمثّل عنده الفكر الفلسفي في العلوم الشّرعيّة.

وتظهر في كتابات التفتازاني أهميّة القيم والعوامل الأخلاقيّة والرّوحانيّة الّتي نجدها في التّصوّف والعلوم الشّرعيّة الإسلاميّة في بناء المجتمع. ممّا دعاه للردّ على كثير من التيّارات الفلسفيّة الغربيّة وفي مقدّمتهم الوجوديّة في دراسته عن «الصّراع الأيدلوجي بين أصحاب الاتّجاهات المختلفة في قضيّة الهويّة العربيّة، التّراث وانعكاساته على الثّقافة».

المصادر والمراجع

● مجلّة «الجمعيّة الفلسفيّة المصريّة»، العدد الرّابع، 1994م؛ ● العراقي، عاطف، الدّكتور أبو الوفا التفتازاني أستاذا للتّصوّف ومفكّرا إسلاميّا، دار الهداية للطّباعة والتّوزيع والنّشر، القاهرة، 1995م؛ ● عطيّة، أحمد عبد الحليم، النصّ التفتازاني، مجلّة «المسلم المعاصر»، القاهرة.

د. أحمد عبد الحليم عطية
جامعة القاهرة ـ مصر

التفليسي، أبو الفضل حبيش بن إبراهيم

(ت 629هـ/1231م)

هو جمال الدين بديع الزمان، أبو الفضل حبيش بن إبراهيم بن محمد كمال الدين التفليسي المنجم المتوفى سنة 629هـ/1231م. طبيب، لغوي، أديب، مشارك في بعض العلوم، معظم مؤلفاته بالفارسية، عاش في أيام السلاجقة وخدمهم في صناعة الطب وعلم النجوم، ووضع بعض كتبه بأسمائهم، ولقب بالتفليسي نسبة إلى مدينة تفليس، وهي مدينة قديمة بأرمينية [معجم البلدان، 2/ 36]. لم تذكر المصادر والمراجع إلا القليل عن نشأته وحياته وأخباره، له كتب في الطب وتعبير الرؤيا، والعروض، وعلوم اللغة [هدية العارفين، 1/ 263؛ معجم المؤلفين 3/ 189؛ ذيل بروكلمان، النسخة الألمانية 1/ 893].

آثاره

1 ـ كفاية الطب، وهو كتاب باللغة الفارسية في الأمراض التي تصيب بدن الإنسان من الرأس إلى القدم وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، والأدوية المفردة والمركبة. وضعه لملك شاه السلجوقي سنة 550هـ/ 1155م، وجعله في ثلاثة أجزاء في مجلد واحد، تتضمن بمجموعها 225 بابا وهي:

الجزء الأول: في معرفة كليات الطب رتبه على شكل جداول وذكر في أوله أن لكل داء دواء، فإذا أصبت دواء الداء برئ بإذن الله تعالى. ثم قال: «علم الطب شفاء لكل داء كما أن القرآن شفاء لما في الصدور من الشكوك والشبهات». وقد نقل الكثير مما ورد عند الأطباء الأولين كبقراط، وجالينوس، وثابت بن قرة الحراني، ومحمد بن إسحق، وابن سينا، وابن عبدان وغيرهم. وقبل أن يبدأ في جزئه الأول تناول موضوع خلق الإنسان كما ورد في القرآن الكريم، وصفة جسم الإنسان من الرأس إلى القدم، ورسم طبقات العين وعلاقتها بالدماغ، وأمراضها وعلاجاتها. ثم ذكر كل مرض وأسبابه وعلاجاته على شكل جداول.

الجزء الثاني: في بيان الأدوية المفردة والأغذية ومنفعتها ومضرتها وطبيعتها، وقد رتبها على حروف المعجم وجعلها على شكل جداول.

الجزء الثالث: في الأدوية المركبة والمعجونات والسفوفات والقرصات والأشربة والمطبوخات والحبات ومنفعة كل واحدة ومدة تأثيرها وأهميتها في حفظ جسم الإنسان من العلل والأمراض.

توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في دار بغداد للمخطوطات، كتبت بخط التعليق الجيد بالمدادين الأسود والأحمر، وترقى إلى القرن الثاني عشر للهجرة / القرن الثامن عشر للميلاد برقم 15577، وتقع في 394

صفحة؛ ونسخة في مكتبة أورخان غازي بإستنبول برقم 1130 كتبت سنة 915هـ/ 1509م، وفي مكتبة لاله لي برقم 1645، وفي آيا صوفيا برقم 3710، وفي خزانة دانكشاه في إيران برقم 2491 بخط يوسف جراح باشي كتبها سنة 1271هـ/ 1855م [مخطوطات الطب في تركيا، 198؛ مخطوطات الطب مكتبة المتحف، 295؛ الذريعة، 18/ 94]؛ 2 ـ بيان الطب، وهو كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها وضعه المؤلف باللغة الفارسية، ورتبه على عشرين بابا وذكر في ديباجته أن له كتاب كفاية الطب، نسخة منه في دار بغداد للمخطوطات كتبت سنة 1253هـ/ 1837م، يقع في 239 صفحة [مخطوطات الطب في مكتبة المتحف، 44 ـ 450]؛ 3 ـ كامل التعبير، وهو كتاب في تعبير الرؤيا وتفسير الأحلام، وضعه المؤلف لأبي الفتح قلج أرسلان بن مسعود بن أرسلان، ويقع الكتاب في 16 بابًا، وهو باللغة الفارسية، نسخة منه في مكتبة موزة برقم 4334 بخط علي شاه بن أحمد الأصفهاني كتبت سنة 736هـ/ 1335م عليها وقفية لشاه عباس إلى الشيخ صفي الدين سنة 1017هـ/ 1705م، ونسخة أخرى في خزانة المهدوي بطهران ترقى إلى القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي [الذريعة، 17/ 254]؛ 4 ـ كتاب القوافي، وهو قاموس من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية خاص بالكلمات التي تقع في القوافي، ويسمى هذا الكتاب أيضا «ترجمان القوافي»، و«لغات القوافي».

بدأ المؤلف في وضعه باسم قليج آرسلان الثاني ابن مسعود السلجوقي وختمه باسم ابنه قطب الدين بن قليج أرسلان، نسخة منه في خزانة سبهسالار برقم 110 بخط محمد بن عبد الكريم بيكسماني كتبها في بروسه سنة 929هـ/ 1523م، ونسخة أخرى في خزانة دهخدا برقم 140 ترقى إلى القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي [هدية العارفين، 1/ 263؛ الذريعة، 17/ 196، 18/ 331]؛ 5 ـ قانون الأدب في ضبط كلمات العرب، وضعه المؤلف باللغة العربية، وترجم إلى اللغة الفارسية، وفرغ منه سنة 594هـ/ 1198م. توجد منه نسخ عديدة أصلية أو مترجمة منها نسخة في مكتبة المتحف البريطاني برقم 425، وفي إستنبول عدة نسخ من هذا الكتاب في مكتبة آيا صوفيا كتبت سنة 677هـ/ 1279م برقم 4730، وفي مكتبة أسعد أفندي برقم 3252 كتبت سنة 730هـ/ 1330م، وخزانة بغداد وهبي برقم 315 كتبت سنة 816هـ/ 1414م، ونسخة في المكتبة الرضوية في إيران برقم (35 لغة)، ونسخ أخرى في مكتبات متفرقة مما يدل على أهمية هذا الكتاب [هدية العارفين، 1/ 263؛ الذريعة، 17/ 18]؛ 6 ـ أصول الملاحم، وهو كتاب في أوائل الشهور والحوادث التي فيها رتبه المؤلف على 12 بابًا بعدد شهور السنة، وجعل كل باب على خمسة وعشرين فصلا بعدد الحوادث التي تقع في كل شهر، ابتدأ بشهر تشرين الأول (الميزان) وانتهى بشهر أيلول وذكر آخر حوادث هذا الشهر في الباب

الخامس والعشرين في الزلزلة وآثارها، وقد ذكر كثرة الموت في الزلزلة في زنجبار وكوهستان [هدية العارفين، 1/ 263؛ الذريعة، 2/ 212]؛ 7 ـ ملحمة دانيال، وهو كتاب باللغة العربية في الظواهر الفلكية في شهور السنة وما تقع فيها من الأحداث من الكسوف والخسوف وحركة الأرض ومواقع الكواكب السيارة والبروج والأشكال التي تظهر في الجو ودلائل دخول الأشهر ونوع الحمرة التي في السماء، وما يتبع ذلك من الأمطار والزلازل، نقله المؤلف من كتب الأوائل في دلائل الآثار العلوية عن هرمس الحكيم ودانيال واسكندر ذو القرنين، ورتبه المؤلف على 22 باباً شرحها الفاضل عبد الله بن هارون السوسي، في دار بغداد للمخطوطات نسخة جيدة الخط كتبت سنة 1201هـ/ 1786م رقمها 8295/ I تقع في 90 صفحة، ونسخة أخرى برقم 35790 ترقى إلى القرن 13هـ/ 19م تقع في 210 صفحة [كشف، 2/ 1818؛ هدية العارفين، 1/ 263]؛ 8 ـ بيان الصناعات، وهو مختصر باللغة الفارسية ذكر فيه المؤلف بعض الأمور الغريبة من الحيل والصنائع ورتّبه على عشرين بابا، وقد ترجم هذا المختصر إلى اللغة التركية خليل بن عبد الرحمن. في خزانة آيا صوفيا نسخة برقم 3574 تقع في 198 صفحة كتبت بخط التعليق سنة 884هـ/ 1479م ونسخة من الترجمة في خزانة يكي جامع برقم 5/ 835 [مخطوطات الطب في تركيا، 197؛ كشف، 1/ 261؛ هدية العارفين، 1/ 263؛ ذيل بروكلمان (النسخة الألمانية)، 1/ 893]؛ 9 ـ تقويم الأدوية المفردة، وهو مختصر في الأدوية جعله على شكل جداول، أوله «الحمد والثناء»، نسخة منه في خزانة بايزيد برقم 4210، وفي مكتبة مغنيسا برقم 1764، ونسخ أخرى عديدة في خزائن المخطوطات [ذيل بروكلمان (النسخة الألمانية)، 1/ 893؛ مخطوطات الطب في تركيا، 198؛ كشف، 1/ 467؛ هدية العارفين، 1/ 263]؛ 10 ـ المدخل إلى علم النجوم، باللغة الفارسية وهو كتاب مختصر ذكر فيه أنه ألّفه بعد تلخيص علل القرآن الكريم [كشف 2/ 1644؛ هدية العارفين 1/ 263]؛ 11 ـ أودية الأدوية، نسخة منها في خزانة ولي الدين أفندي في تركيا برقم 3574 كتبت سنة 884هـ/ 1479م [مخطوطات الطب في تركيا، 1970]؛ ومن تآليفه الأخرى: نظم السلوك، تقويم الأبدان، لباب الأسباب، تحصيل الصحة بالأسباب الستة، كامل التدابير، مدخل إلى علم النجوم، تلخيص علل القرآن الكريم، بيان النجوم، صحة الأبدان [هدية العارفين، 1/ 263؛ معجم المؤلفين، 3/ 189؛ ذيل بروكلمان، النسخة الألمانية، 1/ 893].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، طبع أوفسيت بغداد، مكتبة المثنى 1967م؛ ● الطهراني، آغا برزك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، 1 ـ 25 مجلد؛ ● فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، مركز

الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الإسلامية باسطنبول 1984؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبع اوفسيت بغداد، مكتبة المثنى 1967؛ ● النقشبندي، مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة في مكتبة المتحف العراقي، بغداد، دار الرشيد للنشر 1981م؛ ● الحموي، معجم البلدان، 1 ـ 5، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 1 ـ 15، مطبعة الترقي بدمشق 1957م.

د. أسامة ناصر نقشبندي
دار التراث ـ بغداد
العراق

■ التقوي، السيِّد حسين بن السيِّد دلدار علي

(ت 1273هـ/1856م) ■ ■ ■

هو حسين بن دلدار علي بن محمد معين الحسني التقوي النصير آبادي، ويُعرف أيضاً باللكهنوي نسبة إلى بلدة لكهنؤ. ولد من العاشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين وألف، ببلدة لكهنؤ. وتلقى تعلميه الأوّلي على والده السيِّد العلامة الشيعي دلدار النصير آبادي (ت 1235هـ)، الذي كان يُعد من أهم علماء الشيعة الاثني عشرية في عصره، حيث درس على عدد من فقهاء الشيعة في النجف والكوفة وكربلاء، وترك آثاراً علمية في الهند أشهرها: «أساس الأصول»، و«عماد الإسلام» الذي يتكون من خمسة مجلدات في التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد. ثم بعد ذلك أكمل السيِّد حسين تعليمه على عمه السيِّد محمد بن دلدار علي النصير آبادي (ت 1284هـ)، الذي كان يُعدُّ مجتهد الشيعة الأول في الهند وإمامهم في عصره.

وبعد أن اشتد عوده ورسخ قدمه في العلوم النقلية والعقلية والمعارف الكشفية، تفرغ السيِّد حسين النصير آبادي التقوي للعمل الدعوي والتدريس، حيث درس عليه جمع من علماء الهند، أذيعهم صيتاً المفتي عباس التستري، وغنى نقي الزيدبوري، والسيِّد حسين المرعشي، مرزا حسن العظيم آبادي، وعلي أظهر، وهادي بن مهدي.

توفي السيِّد حسين النقوي في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف من الهجرة الموافق لعام ستة وخمسين وثمانمائة وألف.

■ آثاره

ومنذ سني حياته الباكرة اشتغل السيِّد حسين بالتأليف، فله جملة من الرسائل التي ألفها في حياة أبيه، مثل:

1 ـ «رسالة الاجتهاد»؛ 2 ـ «رسالة الموتي»؛

3 ـ «رسالة الشك» في الركعتين الأوليين في الصلوات الرباعية والمغرب.

وبعد وفاة والده أصدر كتابه الموسوم بـ 4 ـ «مناهج التدقيق ومعارج التحقيق»، وهو كتاب مبسط في المناهج الكشفية؛ 5 ـ كتاب آخر في الفقه يعرف بـ «الذخر الرائق»؛ 6 ـ حاشية للشرح الكبير للطباطبائي؛ 7 ـ «رسالة حسينية» في تصحيح العقائد رداً على الشيخ أحمد الإحسائي وصاحبه السيِّد كاظم الرشتي.

وألف أيضاً باللغة الفارسية، ومن أهم مصنفاته: 8 ـ «روضة الأحكام»؛ 9 ـ «الحديقة السلطانية»؛ 10 ـ «الرسائل الإيمانية» التي خصص مبحثها الأول للتوحيد والعدل والنبوة والإمامه والمعاد متقفياً النهج الذي أخطته والده، ومبحثها الثاني للعبادة.

المصادر والمراجع

● الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسين، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج 7، ط، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1979، ص 142-143؛ ● الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسين، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج 7، دار بن حزم، 1999م، ص 954.

د. أحمد ابراهيم أبو شوك

الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماليزيا

التقوي، السيِّد علي المجتهد النصير آبادي

(1166هـ/1753م ـ 1235هـ/1822م)

هو دلدار بن محمد معين بن عبد الهادي الحسيني التقوي النصير آبادي، الذي ينحدر من سلالة السيِّد نجم الدين السبزواري التي ترفع نسبها إلى الإمام جعفر بن علي التقي.

ولد عام 1166هـ/ 1753م تقريباً، ببلدة نصير آباد، وشدَّ رحاله منها إلى إله آباد، حيث لازم مجالس الشيخ غلام حسين الدكني، ثم سافر إلى «سنديله» لقراءة شرح «تصديقات السلم» لحمد الله على ابنه حيدر بن علي بن حمد الله السنديلوي، ودرس أيضاً على مولانا باب الله الجونبوري.

وبعد هذه السياحة المعرفية في وطنه الأم انتقل السيِّد دلدار التقوي إلى العراق سنة 1193هـ/ 1779م، حيث زار مشاهد الأئمة في الطف، والنجف، والكاظمية، والمشهد. وفي كربلاء قرأ «الاستبصار» للطوسي، و«الفوائد الحارة» على الآقا باقر محمد البهباني، وشطراً من «شرح المختصر النافع» على مصنفه علي بن محمد علي الطباطبائي،

وبعضاً من كتب الحديث على مهدي بن أبي القاسم الشهرستاني؛ ثم رحل إلى النجف الأشرف حيث قرأ شطراً من «الوافي»، و«معالم الأصول» على مهدي بن مرتضى الطباطبائي النجفي. وفي سنة 1194هـ/1780م قدم إلى المشهد وأدرك به مهدي بن هداية الله الموسوي الأصفهاني، فلازم مجالسه وأخذه عنه الإجازة. وبعد ذلك رجع إلى الهند، ومكث برهة من الزمن ببلدة نصير آباد، ومنها رحل لكهنؤ حيث اصطفاه حاكمها حسن رضا خان الشيعي وزيراً له ومعلماً لأبنائه.

وكان الشيعة الإمامية في عصره متفرقين في بلاد الهند، وليس بينهم رابط أو دعوة منظمة إلى مذهبهم، فقام السيّد دلدار بتنظيمهم في بلدة لكهنؤ بدعوتهم للصلوات الجامعة، وبذل الجهد في إحقاق مذهب الشيعة الإمامية وإبطال المذاهب الأخرى، لا سيما الحنفية والصوفية والاخبارية، حتى كاد يعم مذهبه بلاد أوده، وتشيع كل الناس بأمر دعوته.

توفي السيّد دلدار في 9 رجب 1235هـ/22 أبريل 1822م، ببلدة لكهنؤ في عهد السلطان غازي الدين حيدر، وقد دفن جثمانه في حسينية بتلك المنطقة، ثم أضحت هذه الحسينية مزاراً لأتباعه ومقبرة لأبنائه الذين تناسلوا من بعده.

آثاره

له مصنفات كثيرة منها:

1 ـ أساس الأصول، في إثبات الأدلة الأربعة؛ 2 ـ إبطال الفوائد المدنية، للاسترآبادي؛ 3 ـ عماد الإسلام، في خمسة مجلدات: الأول في التوحيد، والثاني في العدل، والثالث في النبوة، الرابع في الإمامة، والخامس في المعاد؛ 4 ـ منتهى الأفكار، في أصول الفقه؛ 5 ـ الشهاب الثاقب، في رد مذهب الصوفية؛ 6 ـ المواعظ الحسنية؛ 7 ـ صوارم الإلهيات في قطع شبهات عابد العُزَّى واللات؛ 8 ـ التحفة الاثني عشرية؛ 9 ـ حسام الإسلام؛ وله رسالتان في إثبات الجمعة الجامعة في غيبة الإمام، ورسالة من مسائل الخراج.

المصادر والمراجع

• الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسين، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ط2، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1979م، ج7، ص 168-171.

د. أحمد إبراهيم أبو الشوك
الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماليزيا

التقوي، السيِّد محمد تقي بن سيد العلماء حسين

(ت 1289هـ/1872م)

هو محمد تقي بن حسين بن دلدار التقوي النصير آبادي، وأحد العلماء المشهورين بالاجتهاد في مذهب الشيعة الإمامية، ولد لست عشر خلون من جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف ببلدة لكهنؤ. وتلقي العلم على والده سيد العلماء حسين النصير آبادي وعلى عمه السيِّد محمد ابن دلدار علي اللكهنوي، اللذان اجازاه في العلوم النقلية والعقلية، ولقبه أمجد علي شاه اللكهنوي بأمير «أوده» وذلك لتميزه بين علماء بلدته، وتقديراً لذلك أوكل إليه مهمة التدريس في المدرسة النظامية.

وامتدحه علي أكبر الكشميري في كتابه «سبيكة الذهب»، وقال إن له «ينابيع الأنوار في تفسير كلام الله الجبار»، أي مصنفه الخاص بتفسير القرآن، ووصفه بالجد والاجتهاد في جمع الكتب والمصنفات النادرة، وقد أسس داراً كبيرة لهذه المصنفات، وكان له مسجد تقام فيها الصلوات الجامعة، وحسينية يزدحم الشيعة فيها يوم عاشوراء، ويقيمون المآتم والمراسم على شهداء آل البيت (علي بن أبي طالب وبنيه) الذين قتلوا في كربلاء وغير ذلك.

آثاره

اشتهر أيضاً السيِّد محمد تقي اللكهنوي بالتأليف، وله عدد من المصنفات، نذكر منها: 1 ـ «النخبة الدعوات»، في الأدعية المأثورة؛ 2 ـ «العباب» في النحو؛ 3 ـ «كتاب الإرشاد» في الرد على من ينكر تأثير الدعاء؛ 4 ـ «حديقة الواعظين»؛ 5 ـ «نزهة الواعظين»؛ 6 ـ «لمعة الواعظين»، وتدور موضوعات الكتب الثلاثة الأخيرة حول الوعظ والإرشاد.

وله عدة رسائل، أشهرها: 7 ـ رسالته في جواز إمامة الفاسق إذا استطاع أن يعدل بين المؤمنين؛ 8 ـ رسالة في فضائل الدعاء وأدآبه، وله شرح على تبصرة الحلي في الفقه، وآخر لـ «تذكرة العلماء» للفيض آبادي. ومات سنة تسع وثمانين ومائتين وألف.

المصادر والمراجع

● الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسين، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج 7، ط 2، حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1979م، ص 442-443؛ ● الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسين، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ج 7، دار بن حزم، 1999م، ص 1090.

د. أحمد ابراهيم أبو شوك
الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماليزيا

التقيّ الحِصْني، أبوبكر بن محمد

(752هـ/1351م - نحو 829هـ/1426م)

الإمام أبو بكر بن محمّد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلّى بن موسى بن حريز بن سعيد بن داود بن قاسم بن عليّ بن علويّ بن ناشب بن جوهر بن عليّ بن أبي القاسم بن سالم بن عبد الله بن عمر بن موسى بن يحيى بن عليّ الأصغر بن محمّد التّقيّ بن حسن العسكريّ بن عليّ العسكريّ بن محمّد الجواد بن عليّ الرضي بن موسى الكاظم بن جعفر الصّادق بن محمّد الباقر بن زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب التّقيّ الحسيني الحصني ثمّ الدّمشقي الشّافعي المعروف بالتّقي الحصنيّ، وإليه تنسب زاوية الحصني بناها رباطا في محلّة الشاغور بدمشق [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 81؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 7/ 188؛ الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 166].

ولد بالحصن سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة للهجرة، وهي قرية من قرى حوران انتسب إليها جماعة من أهل العلم. قدم دمشق وسكن البادرائية، وشاركه العزّ عبد السّلام القدسيّ في الطلب فترة [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 81؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 7/ 188؛ الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 166؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 45].

كان التّقيّ الحصنيّ محدّثا فقيها شافعيًا مصنّفا بارعا جليل القدر، تفقّه بجماعة من أهل عصره، وسمع منهم الحديث النّبوي حتّى أصبح من الأيمّة المشهورين. أبرزهم الشّريشي، والزّهري، وابن الجابي والصّرخدي، والشّرف الغزّي، وابن غنّوم، وابن مكتوم، والصدر الياسوفيّ [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 82؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 7/ 188]. ولمّا ذاع صيته قصده الطّلبة، وانتفعوا بغزير علمه [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 81؛ الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 166].

نوّه معاصروه بحميد خلاله وشهدوا له بالورع والصّلاح. قال القاضي تقيّ الدّين الأسديّ: كان خفيف الروح منبسطا له نوادر، ويخرج إلى النّزه ويبعث الطّلبة على ذلك مع الدين المتين والتحري في أقواله وأفعاله. تزوّج عدّة نساء، ثمّ انقطع وتقشّف وانجمع عن الناس، وواظب على الاشتغال بالعلم والتصنيف، وازداد بعد الفتنة تقشّفه، وزهده وإقباله على الله. واحتقاره لبني الدّنيا، وكثرة سبّهم، وامتنع من مكالمة كثيرين لا سيّما من يتخيّل فيه شيئا، وكثر مع ذلك أتباعه حتى صار قدوة العصر في ذلك. وتزايد اعتقاد النّاس فيه وألقيت محبّته في القلوب وأطلق لسانه في القضاة وأصحاب الولايات، وتصدّى للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وبالغ فيهما، وله في الزّهد والتّقلل من الدّنيا حكايات تضاهي ما نقل عن الأقدمين [السخاوي،

الضوء اللامع، 11/ 82؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 7/ 189].

ووصفه التقيّ بن القاضي شهبة بالإمام العالم الربّاني الزّاهد الورع، وترجمه بعضهم بالإمام العلاّمة الصّوفي العارف بالله تعالى المنقطع إليه زاهد دمشق في زمانه، الأمّار بالمعروف، النّهاء عن المنكر، الشّديد الغيرة لله والقيام فيه الذي لا تأخذه في الحقّ لومة لائم وأنّه المشار إليه هناك بالولاية والمعرفة لله [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 82 ـ 83].

ولئن كان التّقيّ عالما ورعا إلاّ أنّه لم يسلم من التعصّب لمذهبه الأشعريّ، والإنكار على مخالفيه، فقد اشتدّ قيامه على الحنابلة، وحمل على التّقيّ بن تيمية فبالغ، وأغلظ في التّشنيع على من يعتقد ما خالف فيه ابن تيمية الجمهور. وتلقّى ذلك عنه طلبة دمشق، وثارت بسببه فتن كثيرة، قال المقريزي في عقوده: «إنّه كان منحرفا عن الحنابلة انحرافا يخرج فيه عن الحدّ، فكانت له معهم بدمشق أمور عديدة، وتفحشّ في حقّ ابن تيمية وتجهرّ بتكفيره من غير احتشام بل يصرّح بذلك في الجوامع والمجامع بحيث تلقّى ذلك عنه أتباعه، واقتدوا به جريا على عادة أهل زماننا في تقليد من اعتقدوه» [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 83].

روي أنّ البرهان الحلبي عاتبه بسبب ابن تيمية فلم يردّ عليه مع كون التّقي هو الذي قصده في الشرفية بالزّيارة، لأنّ البرهان تناقل النّاس عنده عنه أنّه لم يسلم منه متقشّف ولا متصلّف حيث يقول للأوّل هذا تصيف أو نحوه، وللثاني هذا تجبّر أو تكبّر، فتحامى البرهان الاجتماع به حتى قصده هو [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 83].

وكانت وفاته بعد أن ثقل سمعه، وضعف بصره في ليلة الأربعاء منتصف جمادى الثّانية سنة 829هـ بخلوته بجامع المزّاز بالشّاغور، وحملت جنازته على أعناق الأكابر، وكان يوما عظيما شهده عالم لا يحصون كثرة وازدحموا على حمله للتبرك به، هذا مع تخلّف الكثيرين لكونه أوصى أن يخرج به بغلس، ولكنهم ذهبوا إلى قبره وصلّيَ عليه غير مرّة، وأوّل من صلّى عليه بالمصلّى ابن أخيه شمس الدّين ثمّ ثانيا عند جامع كريم الدين، ودفن بالقبيبات في أطراف العمارة على جادة الطريق، وختم على قبره ختمات كثيرة، ورثيت له منامات صالحة في حياته وبعد موته [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 81؛ ابن العماد، شذرات الذهب، 7/ 188؛ الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 166].

■ آثاره

صنّف في الفقه والتّصوف والزّهد تصانيف مفيدة اشتهرت في عصره وانتفع بها خلق كثير، فقد ألّف: 1 ـ كفاية الأخيار في فروع الشافعية، وهو شرح جليل لغاية الاختصار للإمام الأصفهاني، حرّره بأسلوب جامع بين الدّقة والوضوح، فرغ منه يوم الجمعة في العشر الأوّل من شهر ربيع الأوّل سنة 788هـ، وكان ذلك بالمدرسة الصّالحية بالقدس الشريف [2/ 562]، والكتاب عني بطبعه ونشره عبد الله إبراهيم الأنصاري مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي؛ 2 ـ له شرح التنبيه في فروع الشافعية؛ 3 ـ شرح المنهاج؛ 4 ـ شرح صحيح مسلم في ثلاثة مجلدات؛ 5 ـ شرح أربعين النووي في مجلّد؛ 6 ـ شرح مختصر أبي شجاع في مجلّد؛ 7 ـ شرح

الهداية؛ 8 ـ شرح أسماء الله الحسنى في مجلّد؛ 9 ـ تلخيص مهمّات الإسنوي في مجلّدين؛ 10 ـ قواعد الفقه في مجلّدين؛ 11 ـ تنبيه السّالك على مظان المهالك في ستة مجلّدات؛ 12 ـ قمع النفوس ورقية المأيوس جمعه بالقدس وذكر فيه المعجزة والكرامات وغيرها من المواعظ؛ 13 ـ سير السالك في أسنى المسالك؛ 14 ـ المختار مختصر سير السالك؛ 15 ـ أهوال القبول في مجلّد؛ 16 ـ تفسير القرآن إلى الأنعام آيات متفرّقات في مجلّد؛ 17 ـ سير نساء السلف العابدات في مجلّد؛ 18 ـ تأديب القوم في مجلّد؛ 19 ـ تخريج أحاديث الإحياء في مجلّد؛ 20 ـ شرح الغاية؛ 21 ـ شرح النهاية؛ 22 ـ دفع الشبه؛ 23 ـ المولد؛ 24 ـ الموجودات من ظلمة العدم [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 81؛ ابن العماد، شذرات الذهب 7/ 188؛ الشوكاني، البدر الطالع، 1/ 166؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 203 ـ 491 ـ 558 ـ 1013 ـ 1032 ـ 1356 ـ 1625 ـ 1875 ـ 1915 ـ 2039؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 45؛ كحّالة، معجم المؤلفين، 3/ 74].

المصادر والمراجع

● التقيّ الحصني، أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن (ت 829 هـ)، كفاية الأخيار في حلّ غاية الاختصار، عني بطبعه ونشره عبد الله إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي قطر، 2/ 562؛ ● السّخاوي، أبو الخير محمّد بن عبد الرحمان شمس الدين (ت 902هـ)، الضّوء اللاّمع لأهل القرن التّاسع، دار مكتبة الحياة بيروت، 11/ 81 ـ 83؛ ● ابن العماد، أبو الفلاح شهاب الدّين (ت 1089 هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 7/ 188 ـ 189؛ ● الشّوكاني، محمد بن علي (ت 1250 هـ)، البدر الطّالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، مصر ـ القاهرة، ط1، 1348 هـ/ 1929م، 1/ 166؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسنطيني الرومي الحنفي (ت 1067هـ)، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح محمد شرف الدين بالتقايا، وكالة المعارف 1362هـ/ 1943م، 203 ـ 491 ـ 558 ـ 1013 ـ 1032 ـ 1356 ـ 1625 ـ 1875 ـ 1915 ـ 2039؛ ● الزّركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط14، 1999، 2/ 69؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، مكتبة المثنى بيروت، دار إحياء التراث العربي، 3/ 74.

د. برهان النفاتي
جامعة الزيتونة ـ تونس

تقي الدين، أمين

(1302هـ/1884م - 1356هـ/1937م)

محام وشاعر وكاتب وأديب وصحافيّ. ولد في بعقلين (الشوف - لبنان) في 21 أيلول 1302هـ/ 1884م. والده القاضي سعيد تقيّ الدين رئيس محكمة الشوف لسنوات عديدة. لمّا بلغ السابعة من عمره، أدخله والده المدرسة الداودية في عبيه حيث تلقى دروسه مدّة عامين. ثمّ انتقل إلى مدرسة الحكمة في بيروت، ويُرجّح دخوله إليها بين العامين 1893 و1901م، وتتلمذ فيها على يدي الحجّة في قواعد اللغة العربية الشيخ عبد الله البستاني. قرض الشعر وهو طريّ العود ونظم في معلّمه البستاني قصيدة أعجب بها كثيرًا وشجّعه على متابعة النظم. والتقى في الحكمة نخبة من رفقاء العمر، وفي طليعتهم جبران خليل جبران، والأخطل الصغير، ويوسف السودا، ووديع عقل، وشبلي الملاّط، وبولس سلامة، وموسى نمّور، وغيرهم.

وبعد أن أنهى دروسه في مدرسة الحكمة، انتقل إلى الجامعة الأمريكية فتعلّم الإنكليزية. ثمّ سافر إلى مصر العام 1905م، وبقي فيها تسع سنوات عمل خلالها في الصحافة اليوميّة في جريدة «الظاهر»، ودخل كلّية الحقوق الخديوية، ثمّ نال شهادة الليسانس من جامعة ديجون الفرنسية لأنّه كان يسافر إليها في نهاية كلّ سنة.

مارس المحاماة في مصر في مكتب اسكندر عمّون أشهر محامي مصر يومذاك، وعاون الكاتب أنطون الجميّل في تحرير مجلّة «الزهور»، ثمّ أصبح شريكًا له، ابتداء من العدد الرابع في حزيران 1911م، وكانت من المجلاّت الأدبيّة الرصينة، عاشت حتّى كانون الأوّل من العام 1913م. وقد ترك فيها مقالات في الأدب والتوجيه. وهناك اتّصل بعدد من الأدباء والشعراء المصريين والأدباء اللبنانيين المقيمين في مصر منهم: أحمد شوقي، وحافظ ابراهيم، ووليّ الدين يكن، وخليل مطران، وجرجي زيدان، وشبلي الملاّط، وغيرهم.

عاد إلى لبنان العام 1913م، وما إن استقرّ ببلدته حتّى أرسلت السلطة العسكرية مذكّرة إحضار له، فغادرها إلى مزرعة يملكها ذووه في ضواحي بعقلين، وراح يدبّج المقالات وينظم الشعر ويمارس الترجمة من الفرنسية إلى العربيّة.

بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى وفرض الانتداب على لبنان عهد إليه الفرنسيون شؤون الاغاثة، ثم عُيّن عضوًا في المحكمة التي تألّفت للنظر في نتائج الحرب، فقضى فيها سنتين.

قصد بيروت وعمل بالصحافة وبدأ يكتب في جريدة «البيرق» ثمّ في «البرق». وأنشأ مكتبًا للمحاماة العام 1919م مع صديقه جبرائيل نصّار، فمارس المحاماة واشتهر بمرافعاته

القويّة الحجّة، ولكنّها لم تبعده عن أجواء الأدب، فتحوّل مكتبه في بيروت إلى «منتدى شعريّ» وملتقى للشعراء والأدباء..

كان من مؤسّسي «الشبيبة اللبنانية» في العام 1920م، وانضمّ إلى «رابطة الأدب العربيّ». ثم أسّس «الرابطة الأدبية»، وقد شاركه فيها عدد كبير من المثقّفين والأدباء. وكان من أهدافها جمع شمل الأدباء في لبنان والبلاد العربية. كما كان من مؤسّسي «جمعية خرّيجي مدرسة الحكمة»، وتولّى نيابة الرئاسة فيها. وكان عضوًا في المجلس الملّيّ الدرزيّ، وسكرتير نقابة المحامين في بيروت في العام 1921م. ثمّ انتخب سكرتيرًا عامًّا لنقابة المحامين للمرّة الثانية في 26 تشرين الأوّل العام 1923م.

وفي العام 1925م، أصدر الحاكم العامّ قرارًا بتعيين لجنة إدارية تتولّى الاشراف على حسابات المدرسة الداوديّة في عبيه، فكان أحد أعضائها العاملين.

ترشّح للانتخابات النيابيّة في الأعوام 1925م، 1927م و 1931م ولكنّه لم يفز. واشترك في تأسيس بعض الأحزاب اللبنانية وأسهم فيها مدّة معيّنة، منها: «حزب الاتّحاد الديموقراطي» حيث فاز بالعضوية، و«حزب الجبهة اللبنانية» مع يوسف السودا والياس الخوري والياس البعقليني. وكان من أهداف هذا الحزب الدعوة إلى استقلال لبنان.

أصبح عضوًا في المجمع العلميّ اللبناني الذي أنشىء في العام 1928م. ثمّ انصرف إلى الأدب والشعر إلى أن توفّي في العام 1356هـ/ 1937م. عُلّق رسمه الزيتي في دار الكتب الوطنيّة، وأطلق اسمه على أحد شوارع بيروت.

كان أمين تقيّ الدين محبوبا من الجميع، سريع النكتة، حلو الحديث، طامحًا ويتّصف بأخلاق رضيّة وطباع دمثة. لم يُعِرِ الشهرة اهتمامًا، والكسب الماديّ أيّ اعتناء، فعمل دون مباهاة.

لم يسخّر قلمه لمصلحة أحد، معتمدا على علاقات شعبية بالناس عمومًا، ولم يحبّ المدح أو الاطراء أو الكذب أو التزلّف. سهر على إصلاح مجتمعه الاخلاقيّ والأدبيّ والسياسيّ، فعمل بصمت وهدوء عميقين غير حافل بالمناصب الخطيرة. وكانت مرافعاته في القضاء حجّة في البلاغة.

جنّد نفسه لصيانة اللغة العربية وحفظها من الضعف والانهيار، فخدم الآداب العربية وكان في طليعة أرباب الشعر والبيان والخطابة.

قسّم جهوده إلى ثلاث مراحل أهمّها: الصحافة الأدبية والبحث التأريخي والنضال الوطنيّ. وقد صادف كثيرًا من المصاعب، فمشى غير مبال بالفشل، واثقًا بنفسه، يعرف كيف يتخلّص من الأوقات الحرجة.

لم ينشر أمين تقيّ الدين كتابًا مستقلاً، ولا اهتمّ بطبع ديوان، وإنّما ترك مجموعة من المقالات والقصائد نشرها في عدد من الصحف والمجلاّت أو ألقاها في بعض المناسبات. وله كتاب «أدب المحاماة» وكتاب «الأسرار الدامية» لجون دي كاستين. وله «قصّة شاب فقير» المترجمة عن الفرنسية إلى العربية، وهي مازالت مخطوطة.

يمتاز شعره بجزل الألفاظ، والأسلوب الرائق، والقوافي المتينة وسلامته من

العيوب، لا ابتذال فيه ولا تكلّف، لا تعمّل ولا تعسّف. تتجلّى البساطة والعفويّة في أبياته، ونكاد الطلاوة تتدفّق من صدوره وأعجازه، بعيدًا عن سخف التركيب وابتذال الأسلوب.

انطلق أمين تقيّ الدين من عاطفته وقناعته وإحساسه وشعوره، لا يبالغ ولا يغالي ولا يقول ما لا يحتمله الناس. فالشعر عنده يصدره في معظمه عن القلب ولواعج الفؤاد، ليستقر بالقلب فورًا لا في الأذن. قال الشعر إرضاء لنزوات في النفس. فكان صادقًا مع الناس صدقه مع ذاته.

تفيض أشعاره بالصدق والعاطفة والوطنيّة الحقّ بلبنان. فقد أجاد في قصائده الوجدانية والرثائيّة والوطنيّة التي امتاز فيها بسرعة الخاطر وقوّة المخيّلة والألفاظ الموسيقيّة الإيقاع. وهي تتضمّن آفاقًا جديدة تنقل قارئها من عالم جامد وتضعه في دنيا رهيفة الحسّ، فيّاضة الشعور وصدق الانسانية المتجلّية في نفس صاحبها التوّاقة إلى الأعالي، الحاملة في ثناياها الكِبَر، والأنَفَة، والإباء، والحبّ والجمال، والألم، فآثارها ومعالمها كامنة في كلّ سطر وكلمة إلى درجة تُشعر بأنّ الحرف ينبض، ويحترق ذائبًا بشعوره، والقافية يسلخها لا من قلبه فقط، بل من عمق أعماقه.

في قصائده لمحات تأمّليّة في المصير الانساني تفتح أمام القارىء نوافذ جديدة على الحياة فيعيش نشوة حالمة تجعله يرتع فيها فضلاً عن مناخات فكريّة متعدّدة تنقله بين أجوائها. وله في بعض المقاطع تساؤلات «اللاأدريّين الحائرين».

وتلهب القارىء في بعض المقاطع أوهاج الروح الوطنيّة الثائرة الملتهبة، تشعل القلوب وتهيّج العاطفيّين والمتحمّسين. فقد راح يتغنّى بالأرز الخالد وببطولة فخر الدين الكبير الذي عزّز مكانة بلاده بعد أن أسّس استقلالها:

مشى مع الدهرِ وأجيالِهِ
يكلأهُ اللهُ ويرعاهُ
وتقرأُ الدنيا أساطيرَها
مدوَّناتٍ في حناياه
مسلسلاتٍ قصّةٌ قصّةٌ
كأنّما الأوراقُ أفواه

فيا فخرَ الدين يوم انتهى
منه إليه العزُّ والجاه
أعظمْ بفخرِ الدين من سيّد
صاحبُه المجد وأخاه

وفي قصيدة داليّة يطلب إلى قريبه وجاره وصديقه أن يهبّوا من غفوتهم ويحموا بلادهم ويستشهدوا في سبيلها ويحافظوا على أمانيها الغالية، وينهضوا بها إلى سلّم السؤدد والعزّة:

بلادُك فاحْمِ حِمى مَجْدِها
فإنْ أنتَ لم تحْمِ لم تُحْمَدِ
ولا تستبِحْ عِرْضَها فالوفاءُ
دليلٌ على كَرَمِ المَحْتِدِ

ويعالج في قصائده موضوعات متفرّقة في الحياة يصبّها في قوالب شعريّة أقرب إلى التصوير الواضح والدرس والتحليل، منها إلى الغموض والخيال والرمزيّة الكسيحة.

قال الشعر الوجدانيّ، فكان شعره الإباء والشمم، وعزّة النفس، وكرم الأخلاق. فإذا

تُعذّب فلا يضعف ولا تخور قواه. فهو صامد تجاه مصائب الأحداث، ثابت الجنان، وهو القائل في داليّته في شكوى الدهر:

تسائلني كيفَ يشقى الكريمُ
كأنّي لبستُ الشقاء جديدا

تصدّى لي الدهرُ مستبسلاً
وارصدتُ للدهر خلْقًا شديدا

كلانا على عزمِهِ ثابتٌ
حديدُ القوى يستفزُّ حديدا

ووالله ما شدَّ إلاّ شددْتُ
فلاقى ولاقيتُ خصمًا عنيدًا

إذا لانَ عزمي استراح الزمانُ
وإنْ وَهَنَ الدهرُ عشتُ سعيدا

أحبَّ الطبيعة وارتاح إليها وبثّها لواعج صدره. وتعدّ قصيدة «الله يا لبنان» التي أصبحت أغنية تردّدها أفواه الصبايا والشباب من عيون الشعر المعاصر. قال في مطلعها:

الله يا لبنانُ ما أجملَكْ
وأروعَ الشيبَ الذي جلّلَك

بين يديكَ المُلكُ في جاهِهِ
على الثرى أو عزُّهُ في الفَلَك

أنتَ نعيمُ اللهِ في وعْدِهِ
مثّلْتَ بالنعمةِ مَنْ مثّلَكْ

لبنانُ هيّا نتشاكى الهوى
لي التصابي فيكَ والسحرُ لكْ

أمّا شعره في الرثاء فقد كانت قصائده دفقات من العاطفة الفيّاضة، تنضح بإحساس عميق، ومشاعر جيّاشة، إذ كان وفيًا لأصدقائه، صادقًا في محبّتهم، صريحًا في موالاتهم. فهو لم يكن يرثي إلاّ الأشخاص الذين عندهم عطاء بليغ وخلق كريم ونفس أنوف ووطنيّة صادقة، ويتركون بعد مماتهم فراغا لا يسدّ بسهولة. وكان الرثاء مفعماً عاطفة وصدقاً. وفي رثاء صديقه ورفيق صباه وشبابه الشاعر وديع عقل، تفجّرت عاطفته، ونزلت دموعه غزيرة. فالمصاب بالغ الألم: الصداقة خسرت بالراحل عضوًا بارزًا من أعضائها، والقافية نابغة من نوابغها قلّما جاد الزمان بمثلها:

لا ينزلُ الهمُّ مرتادًا منازلَنا
ولا يطُوفُ الأسى وهْنًا بمغنانا

كلُّ الغنى عندَنا مالاً ومنزلةً
بيتٌ من الشعرِ من غناهُ أغنانا

وفي الإخوانيات كانت له قصائد رائعة، كقصيدته في يوبيل أستاذه عبد الله البستاني، قال:

شجاها أنّ تزيدَ العيدَ جاها
فنادتني فلبّاها فتاها

أنا مَنْ تعْلمينَ فتى القوافي
إذا أطْريْتُ استاذي أباها

أمّا في مقالاته المتفرّقة فكان أستاذ فنّ دقيق، ومثال إنشاء صحيح، وقدوة في تفهم المفردات النابضة حياة، المتململة غبطة وألمًا. فغدا أقرب «القدماء» إلى النشوة الفنّيةالحديثة، كما كان أقرب «المحدثين» إلى المتانة السليمة والصفاء القديم.

المصادر والمراجع

أ ـ الكتب:

● الباشا، محمد خليل، معجم أعلام

الدروز، ط1، الدار التقدّميّة، المختارة، 1990م، ج1، ص207 - 208؛ ● البعيني، نجيب، رجال من بلادي، ط1، مؤسّسة دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، 1984م، ج1، ص129 ـ 146؛ ● أمين تقي الدين الشاعر والناثر وما قيل فيه، دار العلوم العربيّة، بيروت، 1410هـ/ 1990م؛ ● صدى الأيام صفحات في الأدب والتاريخ والاجتماع وسِيَر الأعلام، ط1، نوفل، بيروت، 1421هـ/ 2000م، ص149 ـ 150؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، الجزء الثاني، الراحلون، 1800 ـ 1955، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأدبية 7، بيروت، 1983، ص220 ـ 221؛ ● شبوب، إدفيك جريديني، سعيد تقيّ الدين، بيروت، 1980م، ص30؛ ● المؤتمر العام الثالث لمنظّمة الأونسكو، أعلام اللبنانيين في نهضة الآداب العربية، نشرته اللجنة اللبنانية لإعداد شهر الأونسكو، تشرين الثاني، كانون الأوّل 1948، بيروت، 1948م، ص35 ـ 42.

2 ـ المجلاّت:

● الأديب، الجزء 11، السنة 12، المجلّد 44، نوفمبر 1963، ص44 ـ 45؛ ● الحكمة، الجزء1، تشرين الثاني 1951، ص10 - 11، 16، 23؛ ● الورود، الجزء 10، السنة 13، حزيران 1960، ص18 ـ 19.

د. يوسف أ. لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

تقي الدين، خليل محمود

(1324هـ/1906م ـ 1407هـ/1987م)

خليل محمود تقي الدين من مواليد بعقلين (الشوف ـ لبنان)، نشأ في بيت علم وأدب. يقول عن ذلك: «كان بيتنا يفخر بكثرة الكتب التي فيه أكثر مما يفخر بكثرة الطنافس والسجاد، والدمقس والحرير» فنشأ على حب المطالعة والكتابة والتثقف الذاتي.

كانت مدرسته الأولى في الضيعة «تحت السنديانة». فلمّا انتهت الحرب العالميّة الأولى نزل من بعقلين إلى بيروت حيث دخل مدرسة البعثة العلمانيّة الفرنسيّة (اللايبك) وتعلم العربيّة والفرنسيّة على أيدي أساتذة قديرين، ونال شهادة الباكالوريا الفرنسيّة بقسميها الأول والثاني، ثمّ دخل كلية الحقوق في جامعة القديس يوسف للآباء اليسوعيين، ونال الإجازة منها. وما لبث أن عيّن كاتبا في

مجلس النواب، وقد رافق المجلس النيابي اللبناني، منذ وضع الدستور في العام 1926، فكان ملازما لمراحل السياسة اللبنانيّة، وتطوراتها، كما عرف الحياة الدبلوماسيّة في أرقى مراتبها. فقد كان سفيرا لبلاده في بلدان كثيرة منها: الاتحاد السوفياتي، فنلندا، أسوج، نرويج، المكسيك، غواتيمالا، السلفادور، هندوراس، نيكاراغو، كوستاريكا، جمهوريّة مصر العربيّة، ليبيا، السودان، تركيا، بريطانيا.

اهتمّ خليل بالحياة الأدبيّة منذ شبابه، فكان من مؤسسي «عصبة العشرة» التي تأسست في العام 1930 في بيروت في «دار المعرض» لصاحبيها ميشال زكور، وميشال أبو شهلا. ولم يبلغ أعضاؤها يوما العشرة، بل ظلّوا أربعة وهم: ميشال أبو شهلا، والشاعر إلياس أبو شبكة، والشيخ خليل تقي الدين، والشيخ فؤاد حبيش صاحب «دار المكشوف».

وقد كان لهذه العصبة دور في الحياة الأدبيّة، فقد «أسهمت إسهاما كبيرا في إعادة شعراء العصر وأدبائه إلى أحجامهم الحقيقية»، وشنت حربا طاحنة على القديم... ولم تفتها السياسة ورجالها، والمجلس النيابي وأربابه، فكان لخليل تقي الدين، وهو أمين سر المجلس آنذاك، اليد الطولى في فضح كثير مما كانت تخفيه الكواليس عن أعين اللبنانيين، «فقامت قيامة الحكام، ولم يطل الأمر حتّى علق الدستور وعطل المعرض» كما يقول الأديب والمحامي أنطوان قازان [المجموعة، ج2، ص 102 ـ 199].

وكان خليل تقي الدين يلتقي في مجلة «المكشوف» بعدد من أدباء لبنان المرموقين المعاصرين له، أمثال عمر فاخوري، وإلياس أبي شبكة، وفؤاد أفرام البستاني، وبطرس البستاني، ويوسف غصوب، والدكتور سليم حيدر، ولطفي حيدر، وصلاح لبكي... ويتحاورون في شؤون الأدب وشجونه.

وعندما أحيل على التقاعد في العام 1970 عمل في الصحافة، فكتب في مجلة «الصياد»، ونشر مذكراته في «الراصد»، ثمّ تعاقد مع وزارة الاعلام، بصفة مستشار ثقافي، حتّى العام 1982، حين انقطع نهائيًا عن العمل، ولزم بيته، دون أن يطلّق القلم الذي بقي يداعبه من حين إلى آخر. وقد توفي في العام 1987 ودُفن في مسقط رأسه بعقلين.

ويُعدّ خليل تقيّ الدين من أدباء الطليعة والأصالة «فإذا انتقد فلعودة إلى الينابيع، وإذا كتب القصة فأنت أمام سيد من أسيادها الملهمين، من تحليل نفسي عميق، إلى وصف مرهف للعادات والتقاليد، إلى جولات فنية رائعة عبر الحب والحقيقة والطبيعة والحرمان» [قازان المجموعة، ج2، / 199 ـ 202].

وقد عدّه محمد يوسف نجم في كتابه «القصة في الأدب العربي الحديث» مؤسسا للمدرسة اللبنانيّة القصصية الحديثة مع توفيق يوسف عواد وسواهما. ويقول عنه أنيس الخوري المقدسي: «... وقد لا يقل عنه (عن توفيق يوسف عواد) فهو محلل نفسي بارع، ويمتاز بوصفه للعادات والتقاليد المحلية، والنفاذ إلى أعمال الحياة اللبنانيّة... وكان له مع غيره فضل يذكر في ترقية القصة اللبنانيّة وتطويرها». «وعندما ظهر خليل تقي الدين سنة 1937 بمجموعة «عشر قصص» وأتبعها

بمجموعة «الاعدام» سجل نفسه رأسا بين الرواد الأوائل للقصة العربيّة الحديثة. وكانت قصصه وقصص العواد نماذج ودلائل على القفزة الفنية الواسعة التي حققها القصص العربي» [الفنون الأدبيّة، ص 507 ـ 508].

وقصصه من صميم الحياة. يقول في مقدّمة مجموعته «عشر قصص من صميم الحياة»:

«... أنا أكتب القصة لأصول الحياة كما تراها عيناي، لا عينا غيري، وألقي شيئا من النور على نواحٍ منها يمر بها الناس ولا يقفون، وهؤلاءِ الأشخاص الذين تعمر بهم هذه القصص ليسوا أشباحا أبدعتهم مخيلتي إبداعا، بل هم بشر من لحم ودم، نقلتهم من مسرح الحياة، وكان الأدب سبيلي إلى ذلك، وفي وسعي أن أضع على جبين كل واحد منهم اسما يعرفه الناس».

وخليل تقي الدين يسعى إلى أن يكون صادقا في تصويره لشخوصه وأبطاله، فهو يصورهم كما هم على حقيقتهم، ولا يطمح إلى تغييرهم. يقول في المقدمة:

« أنا، إذن، أعبُّ من الحياة الينبوع الأكبر الذي لا ينضب، فإليها مرد إبداعي أو إخفاقي. ولست أطمح إلى تغيير ما اشتملت عليه الحياة، بل إلى تصويره. وما همّني إن كانت الحياة كلها كذبا وخداعا وخيانة واجراما، فجاءت قصصي تمثل ذلك، وقال الناس: يا له من متشائم، أو ما همني إن كانت الحياة على عكس ذلك، صدقا، ووفاء، وإخلاصا، فظهرت صورة هذه الفضائل في قصصي، وقال النقاد: يا له من كاتب لم يغمس قلمه في شقاء التاعسين، ولم ير من الحياة إلاّ وجهها الضاحك. أنا في ذلك كله لا أختار صوري اختيارا، بل أكتب ما تُملي عليّ الحياة. وأكبر همي أن تكون الصورة صادقة إلى حد بعيد». [على هامش، ص 5 ـ 6].

وللتمثيل على أسلوبه في الكتابة القصصية نورد هذا المقطع من إحدى قصصه العشرة بعنوان «فارس الشامي». وحكاية فارس أنّه كان غائبا في المهجر وأمه تنتظر عودته بفارغ الصبر، فلما حضر كان فرحها به عظيما. وائتمرت لتزويجه، من غير معرفته ولا أخذ رأيه، إحدى بنات قريته، فاعترض في بادئ الأمر، وهو الذي كان في بلد ينعم الناس فيه بالحرية. إلاّ أنّه رضخ في النهاية، إرضاء لوالدته التي كانت تصر على أن ترى أولاده يدبون في البيت، قبل وفاتها.

غير أنّ والدته ما لبثت أن توفيت بعد فترة قصيرة من زواجه، فلم تتحقق رغبتها في رؤية عقبه. فكانت الكارثة عليه، وعلى زوجته، لأنّه تركها بعد ذلك عائدا إلى أميركا. ويختم تقي الدين هذه الأقصوصة بالنص الآتي:

«بعد أسبوع، كان فارس الشامي يلقي نظرة على سلسلة جبال لبنان وقراه المنتشرة في سفوحه وعلى قممه، وهو متكئ على حاجز الباخرة الخشبي، والباخرة تتهادى خارجة من مرفأ بيروت، ويجيل في بلاده التي يتركها من جديد، ولكن إلى الأبد، عينين مغرورقتين بالدموع.

وبأني موكب البغلة إلى القرية (وهي البغلة التي تحمل ساعي البريد) كل سبت ويروح، وأدما (زوجته) تنتظر ساعي البريد، والساعي

لا يطرق بيتها. أرملة لم يمت زوجها، تنتظر أوبة المسافر، والمسافر لا يعود، امرأة كانت كل آثامها أن القدر اختارها ليلهو بها، والويل من القدر المكتوب» [ص 64 من عشر قصص].

ولا يخفى ما في تصوير هذه الخاتمة غير السعيدة من نقد لبعض العادات التي كانت سائدة في مجتمع القرية اللبنانيّة.

أمّا أسلوبه في كتابة الخواطر فأدبي رفيع، مليء بالتشابيه والصور والخيال، على موسيقى داخليّة لطيفة. يقول في وصف الواحة في قلب الصحراء:

«ما أجمل الواحة في قلب الصحراء!

هي الظل الوارف في الجحيم المحرق، والري المحيي في الظمأ القاتل، ودنيا الحياة على تخوم الموت، والشاطئ الأمين للساري والسائر.

الواحة حديقة غناء في خضم من الرمال، وهبّة النسيم في السعير اللاهب، وابتسامة الخضرة في عبسة الجفاف.

ما المروج والجداول والرياض سوى كلمات منثورة افترّت عنها شفتا الخالق. وأمّا قصيدة الله الكبرى فهي الواحة، هي الطرفة في ما خلق وأبدع» [خواطر ساذج، ص 33].

ويقول في «سمو العطاء» من «خاطر ساذج»:

«أنت في الحياة تسمو بقدر ما تعطي لا بقدر ما تأخذ وقليلون في الناس من يعطون وأقل منهم أولئك الذين يعرفون كيف يعطون هؤلاء هم نخبة النخبة وخلاصة الخلاصة.

ومع ما في العطاء المجرد من سمو فهنالك عطاء أسمى وأرفع، هو عطاء الإنسان جزءا من نفسه أو فلذة من كبده... يجود بها على الناس ليغذوا عقولهم ويرووا أرواحهم ونفوسهم.

وهؤلاء الذين يعطون هذا العطاء هم أبناء الفن الموهوبون، وعطاؤهم هذا ريّ للعطاش، وإشباع للجائعين، لكنه عذاب لهم، إذ إنّهم غالبا ما يغمسون أيديهم في دماء قلوبهم حين يعطون» [خواطر ساذج، ص 26 ـ 27].

آثاره

1 ـ كيف أفهم القصة من كتاب الفنون الأدبيّة، مجموعة محاضرات ألقيت في جمعية خريجي القسم الثانوي في الجامعة الأمريكيّة ببيروت، مطبعة الاتحاد 1937، 112 صفحة؛ 2 ـ تمارا، قصة قصيرة، 1955 بيروت، منشورات دار الصياد، 42 صفحة. صدرها بهذه العبارة، صاحب تمارا عاش هذا القصة في موسكو ثلاث سنوات، وفكر فيها عشر سنوات، وهي قصة «رأى أحداثها بعينيه وسمعها بأذنيه أثناء حياته الدبلوماسيّة»؛ 3 ـ الأدب العربي في آثار أعلامه، بالاشتراك مع فؤاد أفرام البستاني وواصف بارودي، بيروت المطبعة الكاثوليكية 1934، وطبعة ثالثة 1951، نصوص منتخبة وفقا لمنهاج البكالوريا اللبنانيّة؛ 4 ـ عشر قصص من صميم الحياة، منشورات المكشوف، مطابع الاتحاد، بيروت 1936، تجاه التياترو الكبير، 163 ص، وطبعة ثانية دار المكشوف 1961، وطبعة ثالثة بيروت، مؤسسة نوفل 1985، 179 ص... وهي أروع انتاجه، والقصص هي: نداء الأرض، في مهب

الغرام، ذكرى الهوى الأول، فارس الشامي، ساره العانس؛ 5 ـ كارن وحسن، من هتلر إلى رياض الصلح، بيروت دار المكشوف طبعة أولى 1972، 452 صفحة، قصة عن الحرب العالميّة الثانية (1939 ـ 1945)؛ 6 ـ الإعدام، مجموعة قصص، بيروت، دار المكشوف، 1940، «تضرب على وتر القرية والتعلق بالأرض وتندرج في الخط الذي اختطه في عشر قصص»؛ 7 ـ خواطر ساذج، بيروت، مؤسسة نوفل، 1986، 234 ص، وطبعة ثالثة 1999؛ 8 ـ العائد، بيروت، مؤسسة نوفل، 1986، 210 ص، وكانت صدرت عن دار النهار في بيروت 1968، وهي «تمثل المجتمع الدرزي الذي لم يتجزأ أي إنسان أن يكتب فيه»، فقد وصف إحساسه وإيمانه بعقيدة التقمص. فضلا عن تصويرها لحقبة تاريخيّة من حياة لبنان خلال الحرب الأولى.

المصادر والمراجع

● الباشا، محمد خليل، معجم أعلام الدروز، الدار التقدمية، طبعة أولى 1990، المجلد الأول، أ ـ ر. ص 212 ـ 213؛ ● د. جميل جبر، لبنان في أروع أقلامه، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، لا ط، لا ت، تاريخ المقدمة 1964، ص 263 ـ 266؛ ● عبود، مارون، في المختبر، المطبعة البولسية، حريصا، لبنان، 1952، ص 81 ـ 107، نقد لبعض قصص خليل تقي الدين العشر؛ ● عبود، مارون، نقدات عابر، دار الثقافة، بيروت، 1959، ص 192 ـ 194؛ ● الزركلي، خير الدين، إتمام الأعلام، ذيل لكتاب الأعلام، نزار أباظة ومحمد رياض المالح، دار صادر، بيروت، ط أولى، 1999م، ص 89؛ ● رمضان يوسف، محمد خير، تكملة معجم المؤلفين، دار ابن حزم للطباعة والنشر، 1997، ص 176؛ ● أنطوان قازان، المجموعة الكاملة، الجزء الثاني، أدب وأدباء، دار المراد 1998، بيروت ص 199 ـ 202؛ ● نجم، محمد يوسف، القصّة في الأدب العربي الحديث، ط2، 1961، منشورات المكتبة الأهليّة، بيروت، ص 285؛ ● المقدسي، أنيس الخوري، الفنون الأدبيّة وأعلامها في النّهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1978، ص 507 ـ 508.

د. نزيه كباره
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

تقي الدين، سعيد بن محمود

(1322هـ/1904م - 1380هـ/1960م)

سعيد بن محمود تقيّ الدين. أديب، قصّاص، مسرحيّ، ناقد، سياسيّ. ولد في بعقلين، من جبل لبنان، في 15 أيّار من العام 1904م. درس في المدرسة الوطنيّة الدينيّة في بعقلين، وتلقّى فيها مبادئ العربية والإنكليزية والحساب والدين مدّة سنتين. ثم التحق بإحدى المدارس الخاصة مدّة سنة، دخل بعدها مدرسة القديس يوسف الأنطونية في بعبدا، إلى أن انتقل إلى الجامعة الأميركيّة في بيروت في العام 1917م حيث أنهى دروسه خلال ثماني سنوات، وتخرّج فيها في العام 1925م. وكان عضواً في جمعية «العروة الوثقى» ثم رئيساً لها.

تأثّر بعمّه الشاعر الأديب أمين تقيّ الدين الذي وجهّه إلى الأدب والشعر، فكان أن خطّ أوّل مقالة له في السادسة عشرة من عمره نشرها في جريدة «البرق»، وراح ينشر مقالات في صحف بيروت ودمشق والقاهرة باسم «حمّاد» و«بشّار».

هاجر إلى الفيليبين في عام تخرّجه، وقضى فيها اثنين وعشرين عاماً ونصف العام، عمل في خلالها بالتجارة وأدار قنصليّة لبنان في مانيلا. وتزوج ورُزق ابنة دعاها ديانا. ثم عاد في العام 1948م إلى لبنان، وأسّس مع أحد أصدقائه مكتباً للهندسة والمقاولة. وترأس جمعيّة متخرّجي الجامعة الأميركيّة مدّة ثلاثة أعوام ونصف العام (1949 - 1952م) وأسهم في تأسيس نادي خرّيجي الجامعة الأميركيّة، وترأس تحرير مجلّة «الكلّية»، وجعلها منبراً حرّاً توضح قضية فلسطين وتدافع عنها أمام الرأي العام العالميّ. وأسّس لجنة «كلّ مواطن خفير» لمكافحة النشاط الصهيونيّ. وكان من أعضاء اللجنة الوطنيّة اللبنانيّة الأولى للأونيسكو، وعضواً في جمعيّة «أهل القلم في لبنان» ومن هيئة المكتب الإداري فيها.

انخرط في صفوف الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، فبذل فيه نشاطاً فائقاً. وفي أيلول من العام 1958م هاجر إلى المكسيك فكولومبيا حيث أسس تجارة بعد أن اتصل بالشركات التجاريّة في كلّ من أميركا وألمانيا وإنكلترا وفرنسا، إلى أن توفيّ في 15 شباط من العام 1960م إثر نوبة قلبيّة أودت بحياته. وبعد مرور عام على وفاته أزيح الستار في نادي متخرّجي الجامعة الأميركيّة عن لوحة تذكاريّة له، واقترح أحد مسؤولي الجامعة آنذاك تخصيص جائزة سنويّة تسمّى «منحة سعيد تقيّ الدين». وفي العام 1971م نقلت رفاته إلى مسقط رأسه بعقلين. ويقيم له الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ احتفالات في ذكرى ولادته.

يمتاز أدب سعيد تقيّ الدين بقوّة العبارة وتماسكها، وسبك الكلمات وتمازجها، وميله

إلى الطابع التوجيهي، والصراحة، والصدق، والجرأة، وإثارة السخرية والنقد.

أسلوبه خاصّ في الخواطر والانطباعات عن السفر، وعموده الفقري النكتة الساخرة والهزل وإن كان أدبه أدب الرجولة. كما امتاز أسلوبه بميلٍ إلى الإيجاز في السرد، والاقتصاد في التعبير، والابتعاد عن الانفعاليّة والعاطفيّة الحادّة، والاقتراب من الصناعة الحديثة للقصّة، وخصوصاً الأميركية منها.

إنه المسرحي الأوّل في لبنان، كما قال مارون عبّود، وهو «مارد القصّة»، كما قال توفيق يوسف عوّاد، وهو الذي «أعطى أدبنا النَّفَس الشخصي. فسواء ألّف المسرحية، أو الأقصوصة، أو المقالة، لم يسعه إلا أن يكون هو نفسه فيها كلها، من حيث الطابع الخاصّ والطرافة المتجدّدة بتجدّد المواضيع.» على حدّ قول الأديب خليل رامز سركيس.

تفاعلت أصالته الفنّية مع تجربته الحياتيّة الغنيّة، وجاء أسلوبه تعبيراً صادقاً عن طرافة شخصيّته.

يصبّ أدب سعيد تقي الدين القصصي في المثالية، ويصوّر استسلام الإنسان للمادّة وسعيه الحثيث إليها، ناسياً أنّها الفناء، وأنّ ما جمعه منها في دهر قد يتبخّر في لحظة.

غمس سعيد تقي الدين قلمه في الواقع الريفي واتّخذ منه شخصيّاته الرئيسة، فصوّرهم متنكّرين له، جاحدين إيّاه، مندفعين وراء المادّة والمظاهر الاجتماعيّة البرّاقة. حتّى إذا وصلوا إلى النهاية وجدوا العقاب في انتظارهم من دون أن يكون لهم إمكان التوبة.

وأخذ سعيد تقي الدين، في أدبه، جانب الفقراء وعطف عليهم، وجعل لكلّ من يعتدي على حقوقهم وأرزاقهم أو يحتكر غذاءهم نهاية مأسويّة. فحسُّه المثالي يضرب في الحقيقة الاجتماعيّة أكثر مما يضرب في الروحانيّة المطلقة. وهذا ما يرى واضحاً في مجموعة «غابة الكافور».

كما امتاز أدبه بغنى في التحليل النفسيّ تجاوز الموهبة القصصيّة وعكس إلماماً له بعلم النفس، ما أكسب واقعيّته طابعاً من العلميّة وشيئاً من العمق والنضج والدقّة. وقد مزج بين المظهر الفيزيائيّ للإنسان وطاقاته النفسيّة. فلكلّ وجه ووضع وحركة ما يقابله في النفس، وهكذا امتزج التصوير الداخلي للإنسان بالتصوير الخارجي فتكاملا.

كان سعيد تقيّ الدين كاتباً كبيراً وقصّاصاً مبدعاً وناقداً اجتماعيّاً، ومن روّاد التأليف المسرحي والقصّة القصيرة، فامتاز في كتابته بأسلوبٍ ساخرٍ خاصٍّ، وبلغةٍ تكاد تكون خاصّةً. وقد لاقى أدبه نجاحاً في الأوساط كلّها، نظراً إلى ثورته على الظلم والإقطاع والتخلّف والرجعيّة والتعصّب، وغلب على أقاصيصه طابع الكفاح والشقاء والتوثّب والكآبة والحزن والقلق والضياع والاغتراب والحنين، فكان الإنسان موضوع محور كتاباته. ودبّت في مذكّراته روح العاطفة والحنين والشوق والواقعيّة والتعمّق بشؤون الناس وقضاياهم على رحب خيالٍ، وسرعة خاطرٍ، ونظرٍ ثاقبٍ للأمور، ورغبةٍ بالإصلاح.

ويبقى سعيد تقيّ الدين في طليعة القصّاصين في لبنان والعالم العربيّ.

آثاره

كتب سعيد تقيّ الدين في الأنواع الأدبيّة كلّها، وترك الكثير من المؤلّفات والمقالات. وقد صدر له ما بين العامين 1924 و1961م اثنا عشر مؤلّفاً تناول فيها المسرحيّة والأقصوصة والمقالة. أمّا نتاجه المسرحيّ فقد صدر في أربع مسرحيّات هي:

1 - «لولا المحامي»، العام 1924، مؤلّفة من خمسة فصول بمئة وسبع وأربعين صفحة. موضوعها ثورة على الإقطاع في القرية اللبنانيّة؛ 2 - «نخب العدو»، مؤلّفة من ثلاثة فصول وإحدى عشرة قصّة، صدرت عن مطبعة الكشّاف ببيروت في العام 1946، في 350 صفحة، وموضوعها الصراع الطائفيّ في القرية اللبنانيّة، وغايتها بثّ روح الإلفة والمحبّة بين أبنائها؛ 3 - «حفنة ريح»، هزليّة في فصل واحد، عدد صفحاتها 280، صدرت عن دار العلم للملايين في بيروت في العام 1947، مع مجموعة أقاصيص «موجة نار»؛ 4 - «حفنة ريح» موضوعها نقد المجتمع البيروتيّ والسخريّة من العادات والتقاليد التافهة التي تسيطر على عقول الناس والتمسّك بالقشور دون اللباب؛ 5 - «المنبوذ»، وهي مسرحية في فصل واحد، صدرت في بيروت في العام 1953، موضوعها تحرير المجتمع اللبناني من عبوديته، وتحويل جهوده الفردية المبعثرة إلى نظامية موحّدة.

أمّا بالنسبة إلى الأقصوصة فقد ترك سعيد تقيّ الدين ستّاً وثلاثين أقصوصة توزّعت على أربع مجموعات هي:

1 - «الثلج الأسود» وقصص أخرى ألحقها بكتاب «نخب العدو»، صدرت عن دار الكشّاف، بيروت، 1946، وهي في إحدى عشرة قصّة؛ 2 - مجموعة «غابة الكافور»، صدرت عن دار العلم للملايين في بيروت في العام 1951، وهي أوّل نتاجه القصصيّ، وتضمّ تسع أقاصيص؛ 3 - مجموعة «ربيع الخريف» و«رفّات جناح»، صدرت عن دار الشرق الجديد في بيروت في العام 1954 مزيّنة بالرسوم، وتضمّ تسع قصص؛

أمّا في ما يتعلّق بالمقالة، فقد ضمّن كتبه الكثير من الخطب والمقالات الأدبيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والمذكّرات والرسائل والخواطر، منها:

1 - «سيّداتي سادتي»، صدر عن دار الشرق الجديد في بيروت في العام 1956، وهي مجموعة خطب ألقيت في مناسبات عديدة بين 1948 و 1954م، تدور كلّها حول الإقطاعيّة والطائفيّة والفرديّة والأنانيّة والاتكاليّة. وتقع في 176 صفحة؛ 2 - «تبلّغوا وبلّغوا»، صدرت عن دار الجيل الجديد في بيروت في العام 1955، وقد كرّسها للكتابة عن الحزب السوري القومي الإجتماعي ومبادئه وحول الأسباب التي أدّت به إلى اعتناقه. عدد صفحاتها 168؛ 3 - «غبار البحيرة»، في 160 صفحة، صدر عن دار الشرق الجديد في بيروت في العام 1956؛ يتناول فيها عدداً من الموضوعات فيها الرصانة والجدّية وبعض السخرية والنكات المحبّبة حول العادات والتقاليد؛ 4 - «غداً تقفل المدينة»، وهو مجموعة مقالات وأبحاث وخواطر صدرت عن دار الشرق الجديد في بيروت في العام 1956. ويبلغ عدد صفحاتها 176؛

5 ـ «رياح في شراعي»، مجموعة مقالات تضمّ مذكّراته في الفيليبين ونشاطه في الحزب السوري القومي واختباراته في شؤون الحياة المختلفة وفلسفته الخاصّة. كتبها في المهجر بعد سفره الثاني، وصدر عن دار المجاني في بيروت في العام 1960. وعدد صفحاتها 239؛ 6 ـ «أنا والتنين»، وهو مجموعة مقالات (166 صفحة)، كتب معظمها في المكسيك وكولومبيا، وهي آخر ما كتبه قبل وفاته، صدر عن دار المجاني في بيروت في العام 1961. أفرد فيه أسراراً وتحليلاً لساسة بارزين، وأضفى عليه تجاربه في الحياة ومفاهيمه؛

هذا وقد أصدرت له دار النهار للنشر مجموعة كاملة ضمّت أعماله ومقالاته الأدبيّة والسياسيّة كلّها في العام 1969 في ستة أجزاء: 1 ـ القصص؛ 2 ـ المسرحيّات: «لولا المحامي»، «حفنة ريح»، «نخب العدو»؛ «المنبوذ»؛ 3 ـ المقالات الأدبيّة؛ 4 ـ المقالات السياسيّة؛ 5 ـ الخطب والرسائل؛ 6 ـ ملحق: «أنا والتنين». «الدروب الموحشة».

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● إدريس، سهيل، القصّة في لبنان، معهد الدراسات العربيّة، جامعة الدول العربيّة، القاهرة، 1957، ص 87، 90 ـ 91؛
● الباشا، محمد خليل، معجم أعلام الدروز، ط1، المركز الوطنيّ للمعلومات والدراسات، الدار التقدّميّة، بيروت، 1990، المجلد الأول، ص 211 ـ 226؛ ● البعيني، نجيب، رجال من بلادي، ط1، مؤسّسة دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، 1986، الجزء الثاني، ص 216 ـ 217؛ ● تقيّ الدين، سعيد، نخب العدوّ، مطبعة الكشّاف، بيروت، 1946؛ ● تقيّ الدين، سعيد، غابة الكافور، دار العلم للملايين، بيروت، 1951؛ ● دايه، جان، سعيد تقيّ الدين الأديب، بيروت، 1969؛
● عقيدة سعيد تقي الدين، ط1، فجر النهضة، أنطلياس، 1991؛ ● سعيد تقي الدين في الحزب القومي، الجزء الأول، ط1، فجر النهضة، أنطلياس، 1995؛
● شيبوب، إدفيك، سعيد تقيّ الدين: سيرته، أدبه، رسالة ماجستير في الآداب، الجامعة الأميركيّة، بيروت، 1969؛
● عساكر، بطرس، الالتزام الاجتماعي في أدب سعيد تقيّ الدين، رسالة أعدّت لنيل شهادة الكفاءة في اللغة العربيّة وآدابها، كلّية التربية، بيروت، 1973؛
● نور الدين، هدى، نماذج من التصوير الاجتماعيّ في قصص سعيد تقيّ الدين، رسالة أعدّت لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها، الجامعة اللبنانيّة، بيروت، 1996؛

2 ـ الجرائد والمجلات:

● الآداب، عدد 2 (آذار 1954)، ص 5؛
● الأديب، عدد 5، (1948)، ص 49؛
● الأنوار، 7 تموز 1991، 18 أيار 2001؛ ● الحياة، عدد 10 أيار 1971؛
● الديار، 21 أيّار 1995، 20 حزيران 1999، 6 أيلول 1999؛ ● الرسالة

المخلصية، مجلد 32، عدد 3 ـ 4 (آذار ـ نيسان 1965)، ص 213 ـ 217؛ ● السفير، 28 شباط 1985، 16 تشرين الثاني 1996؛ ● ملحق النهار، 11 شباط 1973، 5 أيار 1974؛ ● النهار، 6 تموز 1991، 17 حزيران 1999، 21 أيار 2001؛ ● الورود، السنة 13، الجزء 9، (أيار 1960)، ص 4 ـ 6، ص 30 ـ 31

أ. د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

التقي الفاسي، محمد بن أحمد بن علي

(775هـ/ 1373م ـ 832هـ/ 1429م)

محمد بن أحمد بن علي بن محمد الفاسي، المكي، الحسني، المالكي، ويعرف بالتقي الفاسي، تقي الدين، أبو عبد الله، أبو الطيب، شيخ الحرم المكي.

ولد بمكة المكرمة في شهر ربيع الأول، ونشأ بها، وبالمدينة المنورة. ودخل اليمن والشام وغزة والرملة ونابلس ومصر واليمن عدة مرات. وولي قضاء المالكية بمكة، وهو أول مالكي ولي القضاء بها استقلالاً، وكف بصره، وتوفي في مكة في شهر شوال سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة [كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 300؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 199؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، 304؛ الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 114].

محدث بارز، ومؤرخ ماهر، عني بعلم الحديث أتمّ عناية، وكتب الكثير وأفاد وانتفع الناس به وأخذوا عنه، ودرّس وأفتى وحدّث بالحرمين والقاهرة ودمشق واليمن، وكان ذا يد طولى في التاريخ والحديث، واسع الحفظ، اعتنى بأخبار بلده فأحيا معالمها وأوضح مجاهلها وحدد مآثرها وترجم أعيانها.

وقد أذن له كثير من شيوخه في الإفتاء والتدريس، وذلك لرسوخه في العلم ولعمق ذكائه واجتهاده [التنبكتي، نيل الابتهاج، 304؛ الشوكاني البدر الطالع، 2/ 114].

قال فيه الحافظ ابن حجر: وافقني في السماع بمصر والشام واليمن وغيرها، وكنت أوده وأعظمه وأقوم معه في مهمّاته، ولقد ساءني موته وأسفت على فَقْد مثله فللّه الأمر [التنبكتي، نيل الابتهاج، 304؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 199].

ووصفه ابن العماد الحنبلي بأنه مفتي البلاد الحجازية وعالمها؛ وبأنه كان لطيف الذات، حسن الأخلاق، عارفاً بالأمور الدينية والدنيوية؛ له تصرّف ودهاء وتجربة وحسن

عشرة وحلاوة لسان، يخلب القلوب بحسن عبارته ولطيف إشارته [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 199]. سمع من شيوخ كثيرين في سائر البلاد التي دخلها وأقام بها، وقد ذكر الإخباريون أن عدد شيوخه بالسماع والإجازة بلغ نحو خمس مائة.

فقد سمع بالمدينة من إبراهيم بن فرحون، وأخذ علم الحديث على العراقي وغيره، وأخذ الفقه على ابن عم أبيه عبد الرحمن بن الخير، والتاج بهرام، والزين خلف، وأبي عبد الله الوانوغي؛ وأخذ أصول الفقه على أبي الفتح بن صدقة والبرهان الأنباسي، كما سمع من ابن الصديق، والنويري، وقرأ على البلقيني، وابن الملقن، والهيثمي وغيرهم [التنبكتي، نيل الابتهاج، 304؛ الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 114].

آثاره

صنف التقي الفاسي عدّة مصنفات، وقد ضاع أكثرها لاشتراطه أن لا تعار لمكي. ومن هذه الآثار:

1 ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، أو غاية المرام في أخبار البلد الحرام، وهو كتاب حافل في التاريخ، وقد اختصره مرارا، وهو يقع في مجلدين؛ 2 ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، أو العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، في أربعة مجلدات؛ 3 ـ مختصر حياة الحيوان للدميري؛ 4 ـ ذيل سير النبلاء للذهبي؛ 5 ـ ذيل على التقييد لمعرفة رواة السند والأسانيد لابن نقطة الحنبلي. وقد سماه البغدادي في إيضاح المكنون «التقييد لمعرفة رواة السنن والأحاديث». وهو في المختلف والمؤتلف [البغدادي، إيضاح المكنون، 3/ 545]؛ 6 ـ كتاب في الأخريات، سوّد غالبه؛ 7 ـ تخريج الأربعين المتباينات وفهرست مروياته؛ 8 ـ الأذكار والدعوات والمناسك [التنبكتي، نيل الابتهاج، 304؛ كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 300؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 199؛ الشوكاني، البدر الطالع، 2/ 114].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، كتاب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● التنبكتي، أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج2؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة بيروت، لبنان؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي

جامعة الزيتونة ـ تونس

التكريتي، أبو نصر يحيى بن جرير

(كان حيًا عام 472هـ/1079م)

أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي نسبة إلى مدينة تكريت الواقعة بين بغداد ومدينة الموصل شمال العراق. عالم موهوب برز في علم الفلك والهيئة، كما اهتم بصناعة الطب كأخيه الفضل. رحل إلى بغداد واستقر بها إلى حين وفاته. لم تذكر المصادر التي ترجمت لحياته تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته.

يذكر بروكلمن أنه عاش في عهد ناصر الدولة بن مروان أمير ديار بكر (402 ـ 453هـ/ 1011 ـ 1061م).

صنف التكريتي في علمي الفلك والطب وكان من أهم مؤلفاته:

1 ـ كتاب الاختيارات في علم النجوم أو المختار من كتب الاختيارات الفلكية: في فصول كثيرة، نسخته الخطية في مكتبة المتحف البريطاني برقم (5709/ شرقي)؛ 2 ـ كتاب في منافع الجماع ومضاره. ذكره الزركلي في الأعلام؛ 3 ـ رسالة في منافع الرياضة وجهة استعمالها. ذكره الزركلي.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 328، تح. نزار رضا ـ بيروت، دار الحياة، 1965؛ ● خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 8 ـ دار العلم للملايين، بيروت 1995م؛ ● بروكلمن، تاريخ الأدب العربي، ج 5، ص 174، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

زهير حميدان

هيئة الموسوعة العربية ـ دمشق

التل، مصطفى وهبي بن صالح

(1317هـ/1899م ـ 1368هـ/1949م)

مصطفى وهبي بن صالح المصطفى اليوسف التل ولد بمدينة إربد شمال الأردن في 14 محرم 1317هـ/ 25/ 5/ 1899م. وتلقى تعليمه الابتدائي في إربد، ثم في دمشق وحلب. عرف النفي والإبعاد والفصل من المدرسة على إثر مشاركته في المظاهرات الاحتجاجيّة ضدّ الأتراك. عمل معلّما في مدرسة والده

الخاصّة بإربد سنة 1916م، وبعد ذلك عمل في مطحنة أهله، ثم شغل منصب حاكم إداري في وادي السير، والزرقاء، والشوبك بشرق الأردن. وعمل في سلك القضاء سنة 1933م، فشغل منصب مأمور إجراء في إربد وعمان، ورئيس كتاب محكمة الاستئناف ومدّعي عام السلط، ومساعد النائب العام [عشيات وادي اليابس، ديوان مصطفى وهبي التل (عرار) 37]. عرّض بالأمير عبد الله بن الحسين فنفاه إلى العقبة سنة 1931م [أوراق عرار السياسية، 58 ـ 164]. وكان الأمير يستظرفه حينا، فيقرّبه ويكرّمه، ويصبّ عليه جام غضبه حينا آخر فيعاقبه. فلقد عيّن مثلا أمينا ثانيا للأمير سنة 1938، لكنه سرعان ما عوقب وزجّ به في السجن لمدّة 70 يوما سنة 1942م [عرار: شاعر الأردن، 304].

تلقّب مصطفى وهبي التل بعرار لأنه كان معجبا بشخصية عرار: عمرو بن شأس وبشعره [انظر ترجمته في الأغاني، 11/ 194 ـ 196] وفيه رأى صنوه وشبيهه [عرار شاعر الأردن، 178؛ عرار: الشاعر اللامنتمي، 50 ـ 51]. استسلم الشاعر على إثر الخيبة التي مني بها، نتيجة ما قابله به ناس مجتمعه من نكران وجحود فضل، لحزن مهلك مبيد وازداد تشرابا للخمور فاعتلّ وساءت حاله، وتوفّي يوم 24/ 5/ 1949م في المستشفى الحكومي بعمان. ودفن في تلّ إربد عملا بوصيته التي قال فيها من البسيط، قصيدة «بقايا ألحان وأشجان» [الديوان، 414]:

يا أردنيّات إنْ أوديتُ مُغتربًا
فانسُجْنها، بأبي أنتنّ أكفاني

وقلن للصحب: واروا بعضَ أعظمه
في تلِّ إربدَ أو في سفحِ شيحانِ

كان مصطفى وهبي التلّ (عرار) شاعرا متمرّدا آعلن الخروج على الأعراف والتقاليد الاجتماعية. وقد نذر شعره لإصلاح المجتمع واستنهاض الناس للوقوف في وجه الطغاة والغزاة. ولم يكن هذا الطابع الانشقاقي مجرّد موضوع عليه جريان قصائده، بل كان نهجا سلوكيا كرّسه في حياته. فلقد مجّد في شعره الخمر وهدم الأعراف والتقاليد حتّى آن آراءه وسلوكه وتصوّراته كثيرًا ما قوبلت بالرفض. فالتجأ إلى الغجر وأقام بينهم. عاشرهم ومجّد قيمهم واعتبر طريقة مقامهم على الأرض تجسيدا لقيم العدالة والإنسانية. كتب في قصيدة «بين الخرابيش» ممجّدا ما لمسه عند الغجر من تراحم وإخاء ومساواة، ومشهّرا في الآن نفسه، بالمجتمع الذي قابله بالنكران وجحود الفضل، (من البسيط) [الديوان، 260]:

بين الخرابيش لا عبدٌ ولا أمةٌ
ولا أرقّاءُ في أزياء أحرارِ

ولا جناة ولا أرض يضرّجها
دم زكيّ، ولا أخّاذٌ بالثارِ

ولا قضاةٌ ولا أحكامٌ أسلمُها
بردًا على العدل أتّونٌ من النارِ

ولا نضارٌ، ولا دخلٌ ضريبته
تُجْبى، ولا بيدرٌ يُمْنى بمعشارِ

بين الخرابيش لا حرصٌ ولا طمعٌ
ولا احترابٌ على فلسٍ ودينارِ

بين الخرابيش لا مالٌ ولا نسب
ولا احتراب على حرصٍ وإيثارِ
ولا هيامٌ بألقابٍ وأوسمةٍ
ولا ارتفاعٌ ولا خفضٌ بأقدارِ
الكلُ زطٌ مساواة محققةٌ
تنفي الفوارق بين الجار والجار.

هذا الطابع الانشقاقي هو ما يميّز شعره سواء من جهة المواضيع التي كان عليها جريان القول، أو من جهة بنية قصائده ذاتها. والناظر في ديوانه سرعان ما يدرك أنّ الكتابة لدى الشاعر لا تتبع خطّة عقليّة بموجبها يجهد الشاعر نفسه في تثقيف شعره وتحكيكه بل تخضع لمزاجه وأهوائه. فهو يعتبر الشعر موهبة وإيحاء. يكتب في قصيدة «والعلم في عمان أزياء»، (من البسيط) [الديوان، 111]:

دعني بربّ «السكاكي» من بلاغته
وقوله: مقتضى حال وإنشاء
أما «فراهيدُ» فاستغفر لصاحبها
وقوله: من عيوب الشعر «إقواءُ»
فجودة السبك في الأقلام موهبةٌ
وروائع النظم كالتنزيل إيحاءُ

لذلك جاءت أغلب أشعاره في شكل مقطعات لا تتعدّى البيتين أحيانا [انظر مثلا : وبُعدُ الفتى، 234؛ منّي تعلّم حبّها، 317؛ عيد سعيد، 319؛ عرار في منفاه، 334؛ تمرون الديار، 335]. وتقف أحيانا كثيرة عند أربعة أو خمسة أبيات. وقد تمتدّ أحيانا أخرى لتصبح مطولات تصل إلى أكثر من تسعين بيتا من ذلك مثلا قصيدة بين الخرابيش، 93 بيتا؛ وقصيدة بقايا ألحان وأشجان، 134 بيتا.

غير أن أهم ما يميّز أشعاره إنما هو مسايرتها لحكاية حاله ولمواقفه ورؤاه. فلقد كتب في الوطن فمجّده حينا، ثم عاد ليصبّ عليه وعلى ناسه جام غضبه وسخطه ووصل إلى حدّ التنصل منه. يقول (من الطويل) [الديوان، 398]:

(صرماية) بِعْه فما هو موطني
ولا اهله أهلي ولا أنا أردني
(صرماية) بِعْه وبِعْني وبِعْهُمُو
لأشياع غورو أو لأتباع وزمن

لكن أغلب قصائده جاءت تترجم وعيه المأسوي بالوجود وإيمانه بأن لا شيء يبقى غير العدم. ومواجهة العدم بالانغماس في اللذات هي ما يمكن أن يمد وجود الإنسان بالمعنى. فالوجود في نظر الشاعر، ليل لا يمكن لدياجيره أن تنجلي إلا في كأس من الخمر. يقول (من الرمل) [الديوان، 171]:

هاتها واشرب فمثلي ما له
يا أخي عن نكة الخمار ندح
إن هذا العمر ليل ما له
يا أخي في غير أفق الكأس صبح

لذلك تعدّدت النصوص التي تمجّد الخمرة وتعتبرها طريق المرء إلى الخلاص المؤقت في الدنيا الفانية. نقرأ مثلا (من مجزوء الكامل) [الديوان، 150]:

أشربت؟ إي والله إنّي
قد شربت وسوف أشرب
الدهر يلعب بي وسو
ف به، بفضل الكأس، ألعب

وقد تعدّدت القصائد التي تستنهض المتلقي إلى الانغماس في اللذة والتحلل من الأعراف والممنوعات. حتّى أنّ الكلام عن السكر وشراب الخمور وتمجيد اللذات تحوّل في ديوان مصطفى وهبي التل إلى تحدّ للمجتمع وأعرافه وتقاليده. يقول مثلا (من الكامل) [الديون، 152]:

بادر إلى اللذات قبل فوات
وهلم نهمل، فالزمان مؤات

أما الوقار فلا تدع أبدا له
أثرا، يعرقل ظله خطواتي

لإني أخو طرب، أعيش لأنتشي
علَّ الزمان يدوخ من نشواتي

سكران، قد صدقوا ورب محمد
إني أخو طرب، فتى حانات

أسقي، واشربها، وأعرف انها
رجس، ومن عمل اللعين العاتي.

ههنا أيضًا تتنزل أغلب المساجلات التي نظمها الشاعر ليدافع بها عن فلسفته في الحياة وموقفه من الأعراف والتقاليد. وأغلبها نصوص ذات طابع سجالي كتبت للدفاع عن النفس وللتشهير بالوعاظ ممن أخذوا على الشاعر ميله الجارف إلى اللذات والخمر. وهي نصوص تكشف براعة الشاعر في السخرية والإضحاك والنقد اللاذع للخصوم من العيابين الطاعنين. يقول في قصيدة «دعني من التقوى»، (من البسيط) [الديوان، 288]:

للشيخ عبود، لا رثّتْ عمامَتُهُ
وغظٌ أضيقُ به نرعًا وجلاسي

يا شيخُ ! دعني من التقوى وآلتها
إنّي استعضتُ عن الأنكار بالكاسِ

غير أنّ هذا الوعي المأسوي باستحالة خلاص المرء إلاّ مؤقتا بالانغماس في اللذة وتدويخ الحواس بالمسكرات أصنافا وأنواعا يزداد عنفا ومضاء في القصائد ذات المنحى السياسي التي تتحوّل فيها الكتابة إلى إشهاد على تهاوي الأحلام الوطنية الكبرى. فتتشكّل الكتابة جامعة إلى التشهير بالمستعمرين والتنديد بالعرب قادة ونُخبا. ويعمد الشاعر إلى التوجّه بخطابه إلى «الهبر» شيخ قبيلة الغجر باعتباره مجسّدا لقيم الحرية والنبل والشهامة. يكتب في قصيدة «نور نسمّيهم»، (من الكامل) [الديوان، 225 ـ 231]:

أوَلَمْ تر العرفاءَ كيف تهوّدوا
أوَلَمْ تر المتعلّمين تنصّروا

والبائعين بلادهم بقُلامَة
قد أقدموا والمخلصين تقهقروا

فالحرّ فينا للعلوج مطِيّةٌ
والعفُّ منا لليهود يسمسرُ

بعنا العروبة بالوظيفة وانبرى
ليبيع «غور أبي عبيدة» ازعرُ

يا «هَبْرُه» يا طبّالُ، يا من قومه
من كل سفسطة تغلّ تحرّرُوا

إنّا على ما قدّروه لشأننا
من قيمة من شسع نعلكَ أحقرُ

حاك الصغار لنا رداءَ رئاسةٍ
يلهو بقرضِ خُيوطِه المستعمرُ

ويكتب في واحدة من مقطعاته تحمل عنوان

«حبّ الزعامات»، (من البسيط) [الديوان، 155]:

كم صحت فيكم، وكم ناديت من ألم
فلم تصيخوا لصيحاتي وأنّاتي
والله ما غالكم، واجتثّ دوحتكم
بين الشعوب، سوى حبّ الزعامات

هذا الإحساس الفاجع بالمخاطر التي تتهدّد الأمة العربية قاطبة، وخيبة أمل الشاعر في زعامتها وقادتها كثيرا ما دفع به إلى اعتبار الساسة العرب يأتمرون بأوامر أنضائهم من الإسرائيليين المتربّصين بفلسطين وشعبها.

كتب مصطفى وهبي التل في الغزل. غير أن الغزل كثيرا ما انفتح على الخمرة وورد مقترنا بتمجيد اللذات إذ تداخل الحديث عن الحب باعتباره لذة من اللذات بالكلام عن الخمرة والنشوة. فكف الغزل عن كونه مجرد تغنّ بقيم الجماعة مجسدة في المحبوب، وكف عن كونه مجرد تغن بمفاتن المحبوب وهباته وتحرق على وصاله ليصبح مواجهة لرعب الوجود بتمجيد اللذات وإعلائها. يقول في قصيدة «غرام» (من البسيط) [الديوان، 305]:

فليتّقِ الله من قالُوا صبابتنا
وهمّ ومنْ خال أنّي بالغرام دعي
يا جيرة البان إن الكأسَ قد عصفت
بالرأس عصفًا، فنِضو الكأس كيف يَعي

وكتب في الرثاء، فرثى «الهبر» شيخ قبيلة الغجر؛ لكن المرثية تتوسع لتصبح رثاء للأردن وللأمة العربية. ورثى الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان، فانفتح الرثاء على شكوى الحال وتحوّلت القصيدة إلى مرثيّة ذاتية تطفح بالنوح والتأسي على الذات [بقايا ألحان وأشجان، 399 ـ 414].

يتّسم الشاعر عرار، رغم طابعه الانشقاقي، بالانشداد إلى الشعر العربي القديم والاهتداء بمنجزه الفني. حتّى أنّ الشاعر كثيرا ما يضمن بعضا من أبيات ذلك الشعر، وقد أشار المحقق زياد صالح الزعبي إلى هذه الظاهرة في العديد من المواضيع. ويعمد أحيانا أخرى إلى محاكاة طرائق القدامى في تصريف الكلام وابتناء القصيدة فيحاكي ما درجوا عليه من وقوف على الاطلال [انظر مثلا قصيدة «عفت المنازل»، 331]. بل إنّ قاموسه الشعري يستعير الكثير من المجازات والاستعارات من ديوان الشعر العربي. وهو يستلهم تشبيهات أبي نواس في خمرياته ويقتدي بما درج عليه شعراء الغزل من تشبيه المرأة بالظبي، لحاظها بالسهم، وخصرها بالرمح. يقول في قصيدة «تسوّل شاعر» (من الكامل) [الديوان، 239]:

ظبيات وادي السير هل نفرت
من سربكن الظبية السمراء

غير أن هذا الملمح الاتباعي يتعايش في الديوان مع نزعة تجديدية واضحة وصلت بالشاعر إلى حدّ الخروج على نظام الشطرين. فلقد كتب ثلاث قصائد هي «أعن الهوى» [512]، و«يا حلوة النظرة» [522 ـ 525] خرج فيها على نظام الشطرين. وفي حين لم تحمل الأولى تاريخا وقع تأريخ كتابة القصيدتين التاليتين بسنة 1942م. والحال أن نازك الملائكة قد أرّخت بداية ما تسمّيه «الشعر الحرّ» بسنة 1947م، تاريخ نشرها لقصيدتها «الكوليرا» [قضايا الشعر المعاصر، 21].

ثمّة في شعر عرار ظاهرة أدبية أخرى استوقفت العديد من الدارسين وأشار إليها زياد الزعبي محقّق ديوان «عشيات وادي اليابس» في أكثر من موضع، وهي إدراج الأمثال الشعبية وتوظيف تعابير مقتطعة من العامية الأردنية. غير أن أهمّ ما تمكّن الشاعر من إضافته للشعرية العربية إنّما هو ابتناؤه لرمز «الهبر» الذي غدا في شعره وهو شيخ قبيلة الغجر في الأردن. لكن عرار تمكّن في النصوص العديدة التي كتبها عن الغجر المهمّشين خارج تخوم المدن والقرى من تحويل هذه الشخصيّة الواقعيّة إلى رمز طافح بالدلالات على البهي والحرّ والأصيل.

إن عرار من صنف الشعراء الذين اختاروا النزق وهدم الممنوعات والمحرّمات طريقة مواجهة المجتمع وزعزعة قيمه التي يعتقدون أنها تكبّل الإنسان وتصنع تحت الشمس نكده. وهم كثيرا ما ينعتون بالشعراء الملاعين. إنه واحد من هؤلاء الذين أعلنوا شرعة الخروج على الطغاة والغزاة والمحرّمات. وهو واحد ممّن آمنوا بأن المدنيّة حمّالة خراب بني البشر أجمعين. لذلك عشق دنيا الغجر. رحّالة هم الغجر، مقيمون في السفر والترحال. ومثلهم كان عرار عابر سبيل مأخوذ بالنهايات والأقاصي.

■ آثاره

لم يعن الشاعر في حياته بجمع أشعاره وأعماله الأخرى. وهو يجاهر بذلك قائلا (من البسيط) [الديوان، 413]:

قالوا لشعرك عشّاق بودّهم
أن يجمعوا بعضه في شبه ديوانِ
فقلتُ: شعريَ أشلاءٌ مبعثرة
كأنها عُمُري في كلّ ميدان

لذلك سترى أعماله النور على مراحل.

1 ـ الديوان: له ديوان يحمل عنوان عشيات وادي اليابس، وقد اهتمّ به مجموعة من الباحثين وتناولوه بالتحقيق والتمحيص منذ سنة 1954م. أصدر محمود المطلق طبعة أولى من عشيّات وادي اليابس، عمان 1954م. وقد ضمت الطبعة 66 قصيدة. ثم أصدره يعقوب العودات سنة 1973 زاد فيها 33 قصيدة. ثم قام زياد صالح الزغبي بجمعه وتحقيقه وتقديمه، ط1، صدر عن دائرة الثقافة بعمّان 1982م، وط2 صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1998م؛ 2 ـ رباعيات الخيام (ترجمة)، حققها واستخرج أصولها، يوسف بكار، بيروت، دار الجيل، عمّان، مكتبة الرائد العلمية، ط1، 1410هـ/ 1990م؛ 3 ـ نصوص قصصيّة ومقالات نقدية ودراسات اجتماعية، جمعها زياد صالح الزغبي وأصدرها في كتاب على هامش العشيات (280 ص)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1999م.

■ المصادر والمراجع

● التل، مصطفى وهبي، عرار، عشيات وادي اليابس، جمع وتح. وتقديم زياد صالح الزعبي، بيروت 1998، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2؛ ● أبو مطر، أحمد، عرار الشاعر اللامنتمي، الاسكندرية 1977م؛ ● الزعبي، زياد صالح، على هامش العشيات، جمع

ودراسة، بيروت 1999، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1؛ ● العودات، يعقوب، عرار شاعر الأردن، 1958م؛ ● الفحماوي، كمال، الشاعر مصطفى وهبي التل، عمان د.ت؛ ● كعوش، محمد، أوراق عرار السياسية، عمان 1980م؛ ● المطلق، محمود، عشيات وادي اليابس، 1954م؛ ● المغيض، تركي، الحركة الشعرية في بلاد الملك عبد الله بن الحسين 1980؛ ● الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، ط 1، بيروت 1962، دار الآداب.

د. محمد لطفي اليوسفي
جامعة تونس

التلاتي، أبو سليمان داود بن إبراهيم الجربي

(ت 967هـ/1560م)

العلامة أبو سليمان داود بن إبراهيم؛ اشتهر عند العامة بأبي داود، حتى أنّ أكثر التلاميذ لا يعرفون مصنفاته إلا بأبي داود، وهو خطأ أن يكنى باسمه، فكنيته أبو سليمان، ويعرف بالتلاتي، نسبة إلى حومة تلات بجربة. والخطأ في الكنية نشأ من أن البربر يكنون العظماء بأسمائهم، والأصل عندهم أن العظيم من رجال الدين يقال له: «بابا فلان» أي سيدنا فلان. ويختصرونه إلى «بافلان»، فيوهم أنهم يكنون، وعلى هذا اشتهر كثير من عظماء العلماء في البلاد التي تغلب عليها اللهجات البربرية بالمغرب [أبو اسحاق إبراهيم اطفيّش في مقدمته لمتن العقيدة وشرحها].

إنّ الأخبار عن حياته متواترة، رددها معظم الذين ترجموا له، مصدرها أحد تلاميذ التلاتي نفسه، وهو العالم المؤرّخ محمد بن زكرياء الباروني، ومن ذلك نفهم عدم التضارب في الروايات عندَ ترجمته، ما يجعلنا نطمئنّ إلى صحّتها.

عاش التلاتي سنوات طويلة متنقّلا بين البلدان طالبا للعلم. بدأ رحلاته منذ الصغر، سافر من جربة إلى جبل نفوسة، بعدها إلى موطنه وأقام مدة، ثم رجع ثانية إلى الجبل، ومنه إلى بقالة. وعند عودته إلى جربة شدّ الرحال إلى مدينة مليكة في وادي ميزاب جنوب الجزائر.

وفي رحلته الأولى التقى بالشيخ أبي زكرياء الباروني، فحفظ على يديه القرآن الكريم والعقيدة، عقيدة التوحيد، ثمّ واصل دراسته في جربة بعد العودة إليها، وتتلمذ فيها على عالمين اثنين هما الفقيه أبو القاسم بن يونس السدويكشي وأبو يحيى زكرياء بن إبراهيم الهواري. ثمّ قصد الفقيه العالم أبا يوسف يعقوب بن صالح التندميرتي في جبل نفوسة، قال فيه: هو الذي أخذت عنه أكثر من الذي

أخذت عن غيره. برع التلاتي في فنون البيان والمنطق في «بقالة» على يد الشيخ إبراهيم أبي الاحباس، وحين عودته إلى جربة سمع بشهرة العالم أبي مهدي عيسى بن إسماعيل تلميذ سعيد بن علي، الشهير الشيخ عمي سعيد، في مدرسة مدينة مليكة بوادي ميزاب جنوب الجزائر، فتعلّقت همّة التلاتي بالوصول إليه، فشدّ الرحال ولازمه وأخذ عنه، وحين أتمّ دراسته جلس للتدريس وتفرّغ لتلاميذه بعد عودته إلى جربة، وقد تحصّن بسلاح العلم وبلغ فيه منزلة عالية.

تصدّر للتدريس في مسجد القصبيين بحومة قلالة قرب تلات، وعرف باجتهاده في التعليم وإقبال الطلبة عليه، وصفه الشيخ سليمان الحيلاتي بقوله: .. ثم من بعدهم في زمان الشيخ صالح السمومني، المدرس الكبير، الشيخ داود التلاتي في مسجد القصبيين بقلالة. ومن تلاميذه، العالم عبد الرحمن بن أحمد الحيلاتي الذي خلفه في التدريس بعد مقتله، والعالم المؤرّخ محمد بن زكرياء الباروني.

عرف الشيخ التلاتي بالصرامة والاجتهاد والعمل على إصلاح المجتمع والاستماتة في الدعوة إلى الحق، وهو من أصحاب الحل والعقد في جربة، انتخب رئيسا لمجلس العزابة، وتولّى رئاسة مجلس الحكم فيها. جابه الحاكم التركي درغوث باشا ووقف أمامه صامدا وتحدّاه وحاجّه. يرى أبو اسحاق اطفيّش أنّ الثورة في جربة على درغوث بن علي التركي، كانت بإشارة الشيخ داود التلاتي، فما كان من درغوت إلاّ أن أخذه خدعة في إحدى هجوماته على جربة، فسجنه شهرا، ثمّ أمر بصلبه في أوّل جمادى الأولى سنة 967هـ لما رأى فيه من الشدّة، فمات حديث السن دون أن يفيد كثيرا من العلم الذي حصله في شبابه، فإن خمس سنوات قضاها على رأس مشيخة جربة ليست كافية لتكوين جيل [محمد أبو راس الجربي، مؤنس الأحبّة في أخبار جربة، ص93 ـ 94، ومعلومات إضافية أخرى في كتاب علماء جربة المسمّى رسائل الشيخ سليمان بن أحمد الحيلاتي في ذكر علماء جربة.. تحقيق محمد قوجة، ص 6].

وضريحه معروف إلى الآن في مقبرة جامع أبي داود في حومة بركوك، ومازال أهل قرية تلات التي ينتسب إليها يقيمون زيارة سنوية لضريحه إحياء لذكراه.

آثاره

أ ـ عقيدة التوحيد:

نظرا لمكانة «العقيدة» وشرحها، من أعمال الشيخ داود التلاتي وما تركته من أثر من بعده، خصّصنا لها حيّزا متميّزا في هذا المدخل. ترجم «العقيدة» عمرو بن جُميع وهو من علماء جربة في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، إلى اللغة العربية قال: إنّي وجدت هذه النكتة منسوخة بالبربرية في توحيد خالق البرية، فسألني من لا أرد قوله ولا أجهل فضله، أن أنقلها من لسان البربرية إلى لسان العربي، ليبيّن لفظها ويسهل على القارىء حفظها فأجبته إلى ما طلب. كانت تلك هي العبارات التي افتتح بها شرحه، ويفهم منها بأنّه لم يكن مؤلّفا للعقيدة، وتذكر بعض المصادر أنّ تأليفها يعود إلى القرن

الرابع الهجري، وبعضها يرجعها إلى القرن الثاني، ولكنّها لا تشير إلى مؤلّفها الذي يبقى مجهولا، وقد نسبها البعض بالخطأ إلى مترجمها من البربرية عمرو بن جُميع. ورد ذكر «العقيدة» في جميع المصادر تحت عنوان «عقيدة التوحيد» خلافا للنص الذي حقّقه أبو إسحاق إبراهيم اطفيّش وذكر لها عنوانا آخر هو «مقدمة التوحيد»، ما يرجح احتمال أن يكون العنوان الجديد كان من وضع المحقق.

تصدّى لشرح العقيدة واهتمّ بها علماء كثيرون منهم: أبو العباس الشمّاخي (ت 928هـ/ 1522م)، وأبو سليمان داود بن إبراهيم التلاتي (ت 967هـ/ 1560م)، وعمرو بن رمضان الجربي التلاتي (ت 1187هـ/ 1773م)، والشيخ محمد بن يوسف اطفيّش (ت 1332هـ/ 1914م).

لكن الشرح الذي يستوقفنا هو الذي وضعه داود بن إبراهيم التلاتي، وقد اعتنى به العلماء والدارسون والنساخ من بعده وارتبط اسم أبي سليمان داود التلاتي بشرحه للعقيدة وعرف بها. وتوجد نسخ مخطوطة عديدة في مكتبات ولاية غرداية نذكر منها:

* نسختان في مكتبة بوعيس الحاج عيسى رقمها في فهرس المكتبة 11 و38.

* نسخة في مكتبة البكري رقمها في فهرس المكتبة 17.

* نسخة في مكتبة الحاج آل فضل رقمها في فهرس المكتبة 40.

* نسخة في مكتبة الحاج مسعود بابكر رقمها في فهرس المكتبة 79.

* أربع نسخ في مكتبة آل يدر عنوانها شرح عقيدة التوحيد، أرقامها في فهرس المكتبة 80، 89، 90، 91.

* خمس نسخ أخرى في المكتبة نفسها عنوانها عقيدة التوحيد وشرحها، أرقامها في فهرس المكتبة من 92 إلى 96.

* نسخة في مكتبة اروان ورقمها في فهرس المكتبة 37.

ونتبيّن من وفرة تلك النسخ من المخطوطات، حرص الباحثين والدارسين وانشغالهم بشرح «العقيدة» وتداولها. ومن جهة أخرى صدرت طبعات لمتن العقيدة وشرحها ظهرت الطبعة الأولى سنة 1934 في القاهرة تحت عنوان «مقدّمة التوحيد وشروحها»، صحّحها وعلّق عليها أبو إسحاق إبراهيم اطفيّش 120ص.

أما الطبعة الثانية فعنوانها: «مقدّمة التوحيد»، ترجمها عن البربرية عمرو بن جُميع التزم بطبعها الحاج خليفة بن الحاج سعيد الشيباني، قدم لها أبو إسحاق إبراهيم اطفيّش، ليبيا، 1973، 167ص.

وصدرت في مصر طبعة غير محققة من مجموع ضمّ سبعة كتب عنوانه «كتب مختارة»، المطبعة البارونية، د.ت.

وكان عمرو بن جُميع صاحب المتن حسب شهادة البدر الشماخي إماما مشهورا، وكان من بين العلماء منظورا، وإليه تنسب العقيدة التي كانت بالبربرية فأبدلها بلسان العربية. أما الشرح لمتن «العقيدة» فقد تحدّثت عنه كتب كثيرة، وكان مقرّرا لطلبة العلم، قال أبو إسحاق اطفيّش: قلّ أن نجد ممّن أدركناه من العلماء أو التلاميذ لم يكن من محفوظاته،

قال عنه صاحبه: فهذه تذكرة لشيء من المسائل على بعض كلمات العقيدة، عقيدة التوحيد من حدود وآيات وأحاديث وآثار، ووصفه الدكتور فرحات الجعبيري بقوله: جاء الشرح وفيا للمنهج المقترح في الخطبة، ذاك أنه اصطبغ بصبغة وعظية واضحة، بعيدة عن النزعة الجدلية والاحتجاج العقلي. فطريقة هذا الشرح حينئذ نقلية توفر للقارىء ما يحتاج إليه من الآيات والأحاديث للتأكيد من مفهوم المتن وقيمته مع عدم الاستغناء عن بعض الشروح اللغوية والاصطلاحية، عندما يلزم الأمر لفهم النص المشروح.

ب ـ مؤلّفات أخرى:

وله مؤلّفات أخرى ورد ذكرها في مصادر كثيرة هي: 1 ـ شرحه على متن إيساغوجي في المنطق؛ 2 ـ مطبوع، مقرر بجامع الزيتونة بتونس، شرحه على الأجرومية، مطبوع، قال أبو اسحاق اطفيّش: قلّ أن نجد ممّن أدركناه لا يحفظه عن ظهر الغيب، وهو ممّا منّ الله به علينا من المحفوظات؛ 3 ـ وله رسائل إلى شيخه أبي مهدي عيسى، مخطوط؛ 4 ـ وسفر في رثاء بعض أشياخه، خاصّة منهم شيخه زائد اللوغ، شيخ العزابة في عهده، رثاه بقصيدة أوّلها:

بدأت بحمد الله لا اتقوّل ...

المصادر والمراجع

● اطفيّش، أبو اسحاق، ترجمته لأبي سليمان التلاتي في مقدمة التوحيد، ط2، ليبيا، 1973، ص12 ـ 15؛ ● الجربي، محمد أبوراس، مؤنس الأحبّة في أخبار جربة، تح. محمد المرزوقي، تونس، 1960، ص93 ـ 94؛ ● الجعبيري، فرحات، البعد الحضاري للعقيدة عند الاباضية، القرارة، جمعيّة التراث، 1987، ج1، ص133 ـ 139؛ ● الجعبيري، فرحات، نظام العزابة، تونس، 1975، ج1، ص218 ـ 219؛ ● الحيلاتي، سليمان بن أحمد، علماء جربة المسمّى رسائل الشيخ سليمان بن أحمد الحيلاتي الجربي في ذكر علماء جربة، تح. محمد قوجة، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1998، ص16، رقم الترجمة 10؛ ● فهارس مكتبات وادي ميزاب: (أ) ● في مدينة بني يزجن: مكتبة آل فضل ـ مكتبة آل بدر ـ مكتبة بوعيس الحاج عيسى ـ مكتبة متياز. (ب) ● في مدينة غرداية: مكتبة الحاج مسعود بابكر. (ج) ● في مدينة العطف: مكتبة البكري. ـ مكتبة إروان؛ ● معجم أعلام الاباضية، قسم المغرب الاسلامي، ط2، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 2000، ج2، ص140، رقم الترجمة 306.

د. محمد عيسى موسى

عضو المجمع الجزائري للغة العربية

التلاتي، أبو حفص عمر بن رمضان البدر

(ت 1187هـ/1773م)

أبو حفص عمرو بن رمضان الجربي التلاتي، ويسمّى البدر، ولد في جزيرة جربة بحومة تُلات التي تنسب إليها أسرة التلاتي.

أخذ العلم قبل أن يسافر إلى مصر على المؤرّخ والفقيه أبي الربيع سليمان بن أحمد الحيلاتي، ثم سافر إلى القاهرة خفية دون أن يستأذن أهله، مخافة أن يمنعوه من السفر، وقد يكون ذلك من الأسباب التي جعلته يختار المقام في مصر والاستقرار في القاهرة، واصل دراسته في المدرسة الاباضية بوكالة الجاموس في القاهرة، وكان يرتاد الجامع الأزهر للدراسة في البداية، ثمّ أصبح مدرسا فيه. لم يتزوّج في حياته، وكان كثير الشكوى من فقره في مؤلّفاته، على أنه بلغ درجة كبيرة في العلم.

من تلاميذه في مصر العالم والشاعر علي بن يوسف المصعبي، وكبير المشايخ في وادي ميزاب العالم يحيى بن صالح الأفضلي، وقد مدحه شيخه التلاتي بقصيدة توجد نسخة منها مخطوطة بمكتبة الشيخ اطفيّش ضمن ديوانه.

له مؤلّفات كثيرة، في مجالات عديدة أهمّها: في العقيدة والتوحيد، وفي النحو واللغة، وفي الأدب والاجتماع والأخلاق، وديوان شعر من أقواله:

أ ـ في القدر:

«فمن أقر بكون الله عالما بالأشياء قبل وجودها قد أقر بالقدر» [البعد الحضاري، الجعبيري، ج2، ص 417].

ب ـ في الإرادة:

«الإرادة قسمان: إرادة العزم وإرادة التمني، وإن إرادة العزم للشرك والمعاصي إرادة خلق، لا أمر، وإرادة الإيمان وإرادة الطاعة إرادة خلق وأمر» [البعد الحضاري، الجعبيري، ج2، ص 465].

ج ـ في التوبة:

«التوبة بمعنى الاقلاع من الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم العودة إليه» [البعد الحضاري، الجعبيري، ج2، ص 556].

توفي التلاتي بالقاهرة سنة 1187هـ/ 1773م.

آثاره

1 ـ الأزهار الرياضية على المنظومة الرائية، مخطوط، في الصلاة وما لها من وظائف، المخطوط في مكتبة البكري بمدينة العطف، غرادية، الجزائر، رقمه في الفهرس 31؛ 2 ـ إعراب المنظومة الخزرجية، مخطوط، في النحو؛ 3 ـ حاشية على شرح الرسالة العضدية في آداب المناظرة، مخطوط، وهو تعليق على الشرح المنسوب للعالم الشيخ محمد الحنفي الذي حلّ به ألفاظ الرسالة العضدية، في آداب المناظرة والخصام، مخطوط في مكتبة آل فضل في مدينة بني

يزجن، غرادية، الجزائر، رقمه في الفهرس 398؛ 4 ـ ديوان في الشعر، مخطوط، توجد نسخة له في مكتبة الشيخ اطفيّش في مدينة بني يزجن بوادي ميزاب، غرادية، الجزائر؛ 5 ـ رفع التراخي في مختصر الشماخي، العنوان الكامل لمختصر الشماخي هو: مختصر العدل والانصاف وشرحه لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي (ت928هـ) في أصول الفقه لأبي يعقوب يوسف الوارجلاني (ت 570هـ)، مخطوطات مكتبة عشيرة آل خالد، خزانة الشيخ محمد بن عيسى أزبار، في مدينة بني يزجن، غرادية، الجزائر، رقمه في الفهرس 554؛ 6 ـ روضة المشتاق لزهرة الاشراق، مخطوط.

في الأدب والاجتماع:

7 ـ العقد النضيد على نكتة التوحيد، شرح على عقيدة التوحيد، وهو الشرح الأول لعقيدة التوحيد، مخطوط، توجد نسخة في مكتبة آل بدر نسخت في حياة المؤلّف ونسخة أخرى في مكتبة عشيرة آل خالد خزانة الشيخ محمد بن عيسى أزبار في بني يزجن، غرادية، الجزائر، رقمها في الفهرس 555؛ 8 ـ عمدة المريد لنكتة التوحيد، شرح على عقيدة التوحيد، وهو الشرح الثاني لعقيدة التوحيد، للشيخ عمرو بن جُميع، طبع ضمن مجموع يحتوي على ثلاثة كتب، وهو الثاني، من ص30 إلى 124، قسنطينة، المطبعة الادارية، 1323هـ/ 1905م؛ 9 ـ فوائد من شرح عقيدة التوحيد، مخطوط، في مكتبة البكري بمدينة العطف، غرادية، الجزائر، رقمه في الفهرس 19؛ 10 ـ اللآلىء المنظومات، في معجم أعلام الاباضية الميمونات، في عقود الديانات، شرح كتاب «متن الديانات» لعامر بن علي الشماخي، طبع ضمن مجموع تحت عنوان كتب مختارة وهو الرابع من ص 50 ـ 86، المطبعة البارونية، 200ص، في كتاب فرحات الجعبيري، البعد الحضاري، ج1، ص154 ـ 155، وصف للمحتوى والمنهج الذي سلكه الشارح، عرض المؤلّف في الكتاب آراء الاباضية في أصول الدين؛ 11 ـ اللآلىء الميمونية على المنظومة النونية، شرح النونية في أصول الدين لأبي نصر فتح بن نوح الملوشائي، المخطوط في مكتبة عشيرة آل خالد، خزانة االشيخ محمد بن عيسى أزبار في مدينة بني يزجن، غرادية، الجزائر، نسخ في حياة المؤلّف، رقمه في الفهرس 477؛ 12 ـ اللؤلؤة المضيئة على متن العقيدة، مخطوط؛ 13 ـ مختصر اعراب المنظومة الخزرجية، في النحو، في الديباجة ما يشير إلى أنّ للمؤلّف شرحا وافيا لنفس المنظومة فهرس مخطوطات مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي في مدينة بني يزجن، غرداية، الجزائر، رقم المخطوط في الفهرس 167؛ 14 ـ مرآة الناظرين في أصول تبغورين، المخطوط بمكتبة الشيخ اطفيّش بمدينة بني يزجن، د، الجزائر، والكتاب هو شرح مطوّل لأصول الدين المشهور بـ«عقيدة تبغورين» تأليف تبغورين بن عيسى بن داود الملشوطي عاش في النصف الأوّل من القرن السادس الهجري؛ 15 ـ نتيجة الأفكار في تعليق عقيدة الأبرار، مخطوط في مكتبة عشيرة آل خالد خزانة الشيخ محمد بن عيسى أزبار في مدينة بني يزجن، غرداية، الجزائر، رقمه في الفهرس 429، وهو تعليق على شرح التلاتي

داود بن ابراهيم على عقيدة التوحيد لعمرو بن جُميع؛ 16 ـ نخبة المتين من أصول تبغورين، المخطوط في مكتبة البكري في مدينة العطف، غرادية، الجزائر، رقمه في الفهرس 21، لمّا رأى الشيخ التلاتي قصور همم الناس عن مطالعة الكتب المطوّلة اختصر شرحه الموسع على أصول تبغورين في كتاب سماه «نخبة المتين من أصول تبغورين» قال: لما فرغت من شرح أصول تبغورين سنح لي أن ألخص ما فيها من ملهمات المذهب وأحررها بذكر الصواب وترك ما فيها من الجدل الذي لا داعي إليه الآن، لانعدام الهمم واستيلاء الزمان، حررتها في عبارات بليغة، وألفاظ فصيحة أنيقة، ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة، طبع دون تحقيق في مصر ضمن مجموعة النصوص بعوان «العقيدة المباركة» وأعيدت طباعته في الجزائر مع كتب أخرى هو السابع تحت عنوان «من راثنا الاسلامي»، كتب مختارة، المطبعة العربية، غرداية؛ 17 ـ نزهة الأديب وريحانة اللبيب، مخطوط، في الأدب والأخلاق، والزهد والتصوّف، وفيه حديث عن علم الفلك، وعن مصر والنيل، توجد نسخة في مكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بجربة، وتوجد النسخة الأصلية في مكتبة الشيخ بابا بن الحاج محمد بن صالح في مدينة بني يزجن، غرداية، الجزائر، وكانت من قبل في خزانة الشيخ صالح بن عيسى، وتوجد نسخة منها مصوّرة في دار إروان في مدينة العطف، غرداية، الجزائر، رتبه الشيخ اطفيّش القطب في كتاب عنوانه «تحفة الأديب وتخصيب القلب الجذيب»؛ 18 ـ نظم التحقيق في عقود التعليق، مخطوط، موجود بالمكتبة البارونية بحومة الحشان جربة، وهو شرح لشرح أبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي لعقيدة التوحيد التي ترجمها عمرو بن جُميع عن البربرية، في كتاب البعد الحضاري لفرحات الجعبيري، ج1، ص139 ـ 140، معلومات وافية عن المنهج والمضمون.

المصادر والمراجع

• الجعبيري، فرحات، البعد الحضاري للعقيدة عند الاباضية، القرارة، جمعية التراث، 1987، ج1، ص160 ـ 163؛ • الجعبيري، فرحات، نظام العزابة، تونس، 1975، ج1، ص258 ـ 259؛ • فهارس مخطوطات مكتبات وادي ميزاب، جنوب الجزائر: أ ـ في مدينة بني يزجن: ـ مخطوطات آل فضل؛ ـ مخطوطات آل بدر؛ ـ مخطوطات عشيرة آل خالد؛ ـ مخطوطات مكتبة الشيخ اطفيّش؛ ـ مخطوطات مكتبة الشيخ صالح علي. ب ـ في مدينة العطف: ـ مخطوطات مكتبة اروان؛ ـ مخطوطات مكتبة البكري. • معجم أعلام الاباضية، قسم المغرب الاسلامي، ط2، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 2000، ج2، ص318، رقم الترجمة 678 .

د. محمد عيسى موسى
عضو المجمع الجزائري للغة العربية

التّلعفري، أبو المكارم محمد بن يوسف

(593هـ/1196م - 675م/1276م)

شهاب الدين أبو المكارم، محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني، اتفق الدارسون على ولادته في مدينة الموصل سنة 593هـ.

تلقّى العلوم والآداب في الموصل، واتصل بعلمائها وأدبائها، وأخذ عنهم وتفتحت موهبته الشعرية ولما يتجاوز العقد الثاني من عمره، وكان ذكيا فطنا «حافظا للأشعار وأيّام العرب وأخبارها».

مدح في الموصل الملك بدر الدين لؤلؤ، وفي أربيل الوزير شرف الدين أبا البركات بن المستوفي، وارتحل إلى الشام واتصل بالملوك الأيوبيين ومدحهم وأثنى عليهم ونال عطاءهم.

وكان الملك العزيز بن غازي بن أيّوب (ت 634 هـ) صاحب حلب أول من اتصل به ومدحه بقصيدتين، وراق له الإنتقال إلى مجال أرحب للشهرة، فاختار دمشق وارتحل إليها واتصل بملكها الشاعر الأشرف موسى بن أبي بكر العادل (ت 635هـ) ومدحه وحصل على مال وفير، إلاّ أنّه أتلفه على ملذاته وشهواته مع أرباب الخلاعة والمجون، وانهمك بشرب الخمر. وقد ضجر الملك الأشرف من سلوكه، مما حدا به إلى التحول إلى حلب ثانية حيث كسب ودّ ملكها الناصر يوسف بن محمد بن غازي (ت 659هـ) ونال جوائزه، وخصص له مبلغا دائما من المال يتقاضاه كل شهر، ونصحه بتقويم سلوكه، وترك المقامرة والخمرة، إلاّ أنّه لم يأخذ بالنصيحة، وظلّ يشرب الخمرة، وقامر بكل شيء يملكه، حتّى خفافه وثيابه، وقد أمر الملك الناصر أن ينادى في حلب: «من قامر مع الشهاب التّلعفري قطعنا يده».

فكان أن هرب من حلب وأخذ يتنقل في ديار الشام، وذهب إلى مصر، ويبدو أنّه لم من يجد فيها من يعينه فخرج منها وعاد إلى الشام، ليستقرّ بعد تعب وضنًى في حماة، واحتمى بالملك المنصور محمد بن محمود (ت 683هـ) ونادمه وسامره، وقدّم بين يديه مدائحه، ونال إكرامه، وعاش في ظلّه معزّزا مقدّرا، وحينما تجاوز الثمانين من العمر وأحنت السنون ظهره، ندم على أفعاله السابقة، وأسف على أعماله التي أغاظت الآخرين، وتوفي سنة (675هـ)، وكان آخر نظمه من شعره قبيل وفاته:

إذا أمسَى فراشي من تُراب
وبتُّ مجاور الرّبّ الرحيم

فهنّوني أخلاّئي وقولوا
لك البُشْرَى قدمتَ على كريم

نظم شهاب الدين التلعفري الشعر وأنشده أكثر من خمسين عاما، وديوانه الصغير، كما يبدو لنا، لا يعدو أن يكون مختارات من ديوان

كبير، وهو مرتب حسب الحروف الهجائيّة، وأبرز ما فيه من أغراض: الغزل، والخمريات، ووصف الطبيعة، وموشحّةٌ في المدح، ومقطوعة في المدح أيضا.

لقد جاء غزله في غاية الرقة والسلاسة والعذوبة، وكأنّه الماء النمير صفاء، وهو يجري على هذا النمط السهل البديع:

يا دارَ سلمى بالسَّلَمْ
والسَّفح من ذاكَ العلَمْ
ذرت إذا نجَلَ السحا
بُ عليك من دَمْعي بِيَمْ
قسمًا بِعيش مرّ فيـ
ـك وإنّه أوفى قسَمْ
ويجرُّ أذيال الدُّجى
في ظلمة الليل، الأجَمْ
إيمانُ ذي قلب شَجٍ
عانٍ، وطرفٍ لم ينَمْ
ما كنتُ في ميْلي إلى الـ
ـسلوان إلاّ متّهَمْ

إنّ أغلب غزله من هذا النمط السهل الممتنع، وكثيرا ما نرى الخمرة عنده تقترن بالغزل وقد وصفها وصف خبير مدمن، وتغنّى بطيبها وأثرها في النفس، ودعا إلى شربها والتمتّع بها قبل فوات الأوان و انقضاء العمر:

فاصْرف الهمّ بصرف دونها
مرَّ في العمر عليها الزمنُ
ذاتُ أنوار تجلّتْ في الدُّجى
عاد مثل الصّبح فيهَا الوهنُ
كلما طافَ بها السّاقي تَرى الشـ
ـمس بالبدر علينا تُقرنُ
فاغتنمها من يَديْ معتَدل
قدُّه يَخْجل منه الغُصنُ

ويبدو أنّه كان يتردّد على الأديرة المنتشرة في ديار الشام، ويستأنس في جلسات صاخبة بشرب الخمرة فيها مع ندماء ليطرُد الهموم ويطرح الأحزان، وقد أثرت الطبيعة ومباهجها في التعلفري، فراح يصفها في شعره، ويرسم المناظر الخلاّبة التي وقع بصره عليها في الشام ومصر، بريشة دقيقة وألوان زاهية، وكانت دمشق من أحبِّ الديار إلى نفسه، من ذلك قوله فيها:

تلك الجنانُ التي حيثُ التفتُّ ترى
قصرًا مُشيدًا به حورٌ وولدانُ
تدعوك فيها إلى اللذات أربعةٌ
بيعُ الحياة بها مَا فيه خسرانُ
ظِلٌّ ظليل، وماءٌ بارد غدقٌ
وجوسقٌ مشرف عالٍ، وبستانُ

أما مديحه فلم يصل إلينا منه سوى مقطوعة وموشحة، وأسلوبه فيهما لا يختلف عن الأغراض الأخرى ما خلا المبالغة التي هي من طبيعة هذا الفن، وتجدر الإشارة إلى أنّه لم يكتف بنظم الشعر والموشح، بل شارك في نظم الدوبيت ونظم المواليا.

لقد عبّر التعلفري بشعره عن ذاته ودخيلة نفسه خير تعبير، وشعره على العموم سهل مأنوس، لا غموض فيه ولا إيهام، ولم يستطع أن ينقذه من ضروب البديع والصور البيانيّة التي عمّ استعمالها، وشاع إيرادها في النظم آنذاك، ولا سيما الجناس والطباق والتضمين. لقد

كان التلعفري شاعرا بارزا موهوبا، يمتلك قدرة عالية على التعبير عن مشاعره وأحاسيسه، وقابلية جيدة في توفير الموسيقى العذبة لشعره المتأتية من المواءمة بين الألفاظ من جهة، وحروف الألفاظ من جهة أخرى إلى جانب الملاءمة بين الألفاظ والمعاني، سواء أكان في القصيد أو الموشح بحيث تستهوي القارئ وتبعده عن السأم الذي يلاقيه في الشعر الذي أصابهُ العقم وضمور العواطف وخمود الشعر، وتلك ميزة الشاعر المميز الذي يترك أثره في عصره و ما تلاه من عصور.

آثاره

ـ ديوان التلعفري، مط. المعارف، بيروت 1326هـ.

المصادر والمراجع

● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح. د. إحسان عباس، مط. دار صادر، بيروت 1973، 4/ 62؛ ● الصفدي، خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، نشر المستشرقين الألمان، استانبول، 1931، 5/ 255؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، مط. دار صادر، بيروت 1972، 7/ 45؛ ● ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، المط. الخيرية، القاهرة 1304هـ، ص 8؛ ● اليونيني، قطب الدين، ذيل مرآة الزمان، مط. دائرة المعارف العثمانية، الهند 1954، 3/ 219؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مط. دار الكتب المصريّة، القاهرة 1936، 7/ 55؛ ● د. رشيد، ناظم، الأدب العربي في العصر الوسيط من أول الدولة العبّاسيّة حتّى بدء النهضة الحديثة، جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل 1992، ص 189 ـ 199؛ ● باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام، المكتبة الهاشميّة، دمشق 1973، ص 356 ـ 377؛ ● الدليمي، محمد نايف، ديوان الموشحات الموصليّة، مكتبة بسام، الموصل 1975، ص 34؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، مط. دار المعارف، القاهرة 1975، ص 393 ـ 396.

د. جنان هاشم عبد العزيز
اتحاد الكتاب والأدباء ـ العراق

التلمساني، الشريف محمد بن أحمد بن علي

(710هـ/1310م - 771هـ/1370م)

إمام من أئمة المغرب، وعلم من أعلام المذهب المالكي الشيخ، محمد بن أحمد بن علي الحسيني الشهير بالشريف التلمساني، المعروف بالعلوي، نسبة إلى (العلْويين) بسكون اللام وكسر الواو، قرية من أعمال تلمسان.

ولد بتلمسان ونشأ بها عفيفا صيِّنا، شغوفا بالعلم وأهله، وقد ركب الصعاب من أجله، وتحمل مشاقّ الترحال، في أنحاء المغرب الإسلامي شرقيه وغربيه، فأخذ عن علماء فاس وتونس والجزائر. وكان من أشهر شيوخه: أبو زيد الإمام يعقوب، وأخوه أبو موسى عمران المشدالي، ولزم الشيخ الابلي، وانتفع به، وابن عبد السلام التونسي؛ وشهد له شيوخه بوفور العقل، وحضور البديهة، وكثرة التحصيل. وحكى عنه خالد السيد عبد الكريم الذي كان يحبه لذكائه ويصحبه معه - رغم صغر سنه - دائما إلى مجالس العلم والعلماء، قال: حضرنا مجلس أبي زيد الإمام في تفسير القرآن الكريم فذكر الشيخ نعيم الجنات، فقال له الشريف الصبي: هل يقرأ فيها العلم؟ فقال له الشيخ: نعم، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. فقال له الصبي: ولو قلت لا . . . لقلت لك لا لذة فيها؛ فعجب منه الشيخ ومن حضور بديهته ودعا له في الأخير.

ثم عاد إلى موطنه تلمسان متصديا للإفادة والاستفادة، وشرع في تدريس العلم وإرشاد العامة، فأقبل عليه الناس على اختلاف طبقاتهم، والتفّ حوله الطلبة يأخذون عنه شتّى العلوم والفنون، فكثر تلامذته وملأ المغرب علوما ومعارف وتلاميذ، فأحيا السنة وأمات البدعة، ويذكر أنه ابتدأ الإقراء وهو ابن احدى عشرة سنة. وكان في تدريسه يترك الطالب وما تميل إليه نفسه من أنواع العلم فلا يحمل أحدا على نوع دون نوع، ويرى الكل من السعادة ويقول: «من رزق في باب من العلم فليلازمه».

ولما تملك السلطان أبو عنان المريني تلمسان سنة 753هـ/ 1352م استخلص الشريف التلمساني لمجلسه العلمي ورحل به الى فاس فتبرم الشريف من الاغتراب، وردد الشكوى، فأحفظ السلطان بذلك، وارتاب به. ثم بلغه أثناء ذلك أن السلطان أبا سعيد عثمان ملك تلمسان أوصاه على ولده، وأودع له مالا عند بعض الأعيان من أهل تلمسان، وأن الشريف مطلع على ذلك، فانتزع الوديعة، وسخط على الشريف بذلك ونكبه، وأقام في اعتقاله شهرا، ثم أطلقه سنة 756هـ/ 1355م، وأقصاه، ثم أعاده إلى مجلسه إلى أن هلك السلطان آخر سنة 759هـ/ 1358م.

ولما ملك السلطان أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن الزياني تلمسان من يد بني مرين

استدعى الشريف التلمساني من فاس بعد أن سرحه القائم بالأمر يومئذ الوزير عمر بن عبد الله، فانطلق إلى تلمسان، وتلقاه أبو حمو بالترحاب والإكبار، وزوجه ابنته، وبنى له مدرسة سنة 763هـ/ 1362م فتفرّغ التلمساني للدرس والبحث والنظر والإرشاد، فكان يمضي جلَّ أوقاته في ذلك، مع ما كان عليه من التعبّد والتهجد والزهد، وتلاوة القرآن. حكى عنه ابنه أبو محمد عبد الله قال: إنه بقي دهرا ما يزيد على ستة أشهر لم ير فيها أهله وولده اشتغالا بالورع والبحث وهو مقيم بينهم ! ذلك أنه كان عندما يستيقظ بكرة يغدو في حينه إلى المدرسة وهم نائمون، ولا يعود إليهم إلا ليلا؛ وإذا غلبه النوم نام نومة خفيفة، ثم إذا استيقظ لا يعود، ويقول: أخذت النفس حقها فيتوضأ، والوضوء من أخف الأشياء عنده، ثم يرجع للنظر. وكان من كثرة ازدحام الطلبة عليه يوزع بينهم ساعات الدرس بالرملية.

ومن أشهر تلاميذه: العلامة عبد الرحمن بن خلدون، والإمام الشاطبي، وابن زمرك، وإبراهيم الثغري، وأبو عبد الله القيسي، وغيرهم كثير.

وكثيرا ما كانت ترد عليه الأسئلة من السلطان فما دونه، فيوجهها إلى الطلبة ويسميهم بأسمائهم لرفع منزلتهم عند السلطان وغيره، فكانوا بذلك على عهده من أعز الناس، وأكثرهم عددا، وأوسعهم رزقا.

كان عالما بالفقه المالكي وأصوله، وبالحديث وعلومه، ومن أعلم علماء عصره بالعربية، واسع المعرفة بالغريب، وبالشعر وأخبار العرب، ميالا إلى النظر، متكلما جامعا للعلوم القديمة والحديثة، والعلوم الرياضية، له اليد الطولى في الخلافيات، بارعا في الهندسة والهيئة والحساب، انتهت إليه الرئاسة، وشهد له العلماء بأنه وصل إلى درجة الاجتهاد.

وقد اجتمع أهل التراجم والطبقات على إمامته، وكماله في علمه، وصلاحه وأخلاقه، فذكروا أنه كان من أحسن الناس وجها وقدرا، مهيبا، ذا نفس كريمة، وهمة عالية، ولهجة صادقة، حليما لا يغضب، وإذا غضب قام فتوضأ، رفيع الملبس بلا تصنع ولا تكبر، طويل اليد كريما، يطعمُ الطلبة طيب الأطعمة ولذيذها ولا يؤثر عنهم غيرهم.

ولعناية التلمساني بالإقراء والدرس، لم يسعه الزمن للإكثار من وضع الكتب والتصنيف والتأليف؛ فإنه لم يبلغنا عنه مع غزارة علمه، وسعة إطلاعه، من خبر تآليفه إلا القليل منها.

توفي بتلمسان وحضر جنازته السلطان أبو حمو الثاني قائلا في تعزيته لولده: «ما مات من خلفك، وإنما مات أبوك لي، لأني أباهي به الملوك». وقال ابن عرفة حين بلغه نعيه: «لقد ماتت بموته العلوم العقلية».

آثاره

1 ـ مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، وهو كتاب جليل في علم أصول الفقه، ألفه على منهاج جيد. قوي العرض، دقيق النظر، يعنى بما خلت منه المؤلفات في هذا العلم. طبع بتونس سنة 1346هـ؛ بتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف؛ كما كتب وصدر عن مكتبة الخانجي مصر 1962م، كما كتب عليه عبد الحميد بن باديس تعليقا وجيزا

وضعه للطلبة حال تدريسه للكتاب ولم يطبع؛ 2 ـ شرح على جمل الخونجي في المنطق، انتفع به خلق كثير؛ 3 ـ كتاب في القضاء والقدر؛ 4 ـ كتاب في المعاوضات أو المعاطاة؛ وله فتاوى ورسائل وأجوبة في مسائل من العلم.

المصادر والمراجع

● محمد الملقب بابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر 1908م، 222؛ ● الجلالي، عبد الرحمن محمد، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت 1980م، 2/ 209؛ ● الحفناوي، أبو القاسم محمد. تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت 1985م، 1/ 363؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1988م، 5/ 327؛ ● الونشريسي، القول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبد الله الشريف، مخ؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، 9/ 138؛ ● التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، 308.

د. أحمد متفكر
جامعة القاضي عياض ـ مراكش

التلمساني، أبو العباس أحمد بن هطال

(ت 1219هـ/ 1804م)

أبو العباس الحاج أحمد بن هطال التلمساني، نشأ وتعلم بتلمسان وتولى الكتابة لدى الباي محمد الكبير باي الغرب بوهران، وأصبح من مقربيه ومستشاريه. وقد أوفده الباي في سفارة إلى سلطان المغرب، برفقة قاضي المحلة ابن سحنون، حملت معها هدايا للسلطان العلوي الذي استجاب لطلب الباي بالسماح لمرور حمولة من البارود بلغت قنطارين ونصف من جبل طارق عبر المغرب، استعداذا لطرد الإسبان من وهران (1791م).

وبعد وفاة الباي محمد الكبير (1212هـ/ 1797م) ظلّ أحمد بن هطال محتفظا بمنصب الكتابة لولده وخليفته عثمان باي وللباي مصطفى بن عبد الله العجمي الذي تولى بايليك الغرب (1215هـ/ 1800م) والذي اصطحبه في حملاته ضدّ الثائر الشريف الدرقاوي وأتباعه. وقد لقي ابن هطال حتفه مع العديد من رجال المحلة في واقعة «فرطاسة» بين وادي مينة ووادي العبد في أوائل ربيع الأول من عام 1219هـ/ 1804م.

آثاره

اشتهر أحمد بن هطال بتقاييده عن حملة محمد الكبير باي الغرب على الجهات الجنوبية لبايليك وهران المتاخمة للصحراء، فقد صاحَبَ الباي في حملته على عشائر شلالة، وعين ماضي، والأغواط لإخضاعها واستخلاص الجباية منها.

كان الدافع لابن هطال على تسجيل وقائع هذه الحملة إكباره لمحمد الكبير وإعجابه ببطولته وحزمه، فأراد أن يخلد ذكره بتسجيل ما قام به من غزوات وما حققه من نجاحات وهذا ما أشار إليه بقوله: «إذ به (أي التاريخ) عرفت قدماء الأمم وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم، فاشتغلت به علماء كل قطر، وصنفت به أدباء كل عصر. وقد أردت أن أذكر منه نبذة أخذهم بها حضرة قامع المبغضين ومدوخ الكافرين... السيد محمد باي مولانا السيد عثمان باي... مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة عام تسع وتسعين ومائة وألف مقدرا بالسوائع مراحله. ومبيّنا منازله ومناهله...».

وقد جاءت رحلة بن هطال متميّزة بالتسلسل في العرض، والدقة في الوصف فتتبع جيش الباي «المحلة» باليوم والساعة وحرص على ضبط أسماء الأماكن وتحديد مواقع الآبار والعيون وإحصاء ما استولى عليه الباي من غنائم وما استخلصه من جبايات دون أن يغفل وصف حالة السكان ووضعية العمران، وعلاقة الحاكم بالرعية. وهذا ما جعل رحلة بن هطال وثيقة مهمّة ومصدرا أوليا للتعرف على أوضاع دواخل مقاطعة وهران وطبيعة العلاقة بين السلطة والسكان.

اتبع ابن هطال في تسجيل رحلة الداي محمد الكبير الأسلوب التقليدي في عرض الأحداث وتسجيل الأخبار، فقد جاء أسلوبه متميّزا بالتكلف واستعمال الألفاظ الركيكة والتعابير الضعيفة، والالتزام بالمحسنات البديعيّة، مثل قوله في مستهل رحلته: «فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا، ومخرج الأرواح، ومصير الأشباح لها وطنا، ومفضل الإنسان بالنطق المبلغ». وهو في كل ذلك حريص على إثبات الأبيات الشعريّة العديدة التي قيلت في مدح الباي محمد الكبير، فكانت رحلة ابن هطال من حيث أسلوبها ومضمونها صورة معبّرة ومرآة صادقة لمستوى ثقافة عصره واهتمامات بيئته.

اهتم قورقوس (A. Gorguos) بنشر ترجمة فرنسيّة لرحلة ابن هطال بالمجلة الإفريقيّة المجلد 18/ 1858. بينما ظلّ الأصل العربي موزعا على عدّة نسخ اثنتان منها بالمكتبة الوطنيّة الجزائريّة، إحداهما نسخت بيد محمدّ بن البشير إقراي التلمساني مؤرّخة في 29 ذي القعدة 1182هـ. وقد قام الأستاذ محمد بن عبد الكريم سنة 1969م بنشر الرحلة محققة على عدّة نسخ مع مقدّمة ضافية تناول فيها حياة الباي محمد الكبير ومآثره.

المصادر والمراجع

- ابن هطال التلمساني، أحمد، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، القاهرة 1969؛
- ابن سحنون الراشدي، أحمد بن محمد، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح. وتقديم المهدي

البوعبدلي، قسنطينة 1973؛ • المزاري، الأغا بن عودة، طلوع سعد السعود، تح. ودراسة يحيى بو عزيز، بيروت 1990، الجزء الأول، 106، 304؛ • شاوش، الحاج محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعيّة 1995، 528 ـ 529؛ • سعيدوني، ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، «تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين»، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999، 448 ـ 452.

- Bresnier (L.T), Expédition de challala par le Bey Mohamed El Kebir, in Revue Africaine, T4/1859-1860, pp. 75-156;
- Deligny et Theuma, Relation de l'expédition de Bey Mohamed El Kebir contre Challala, in Moniteur Algérien, nº 806-809;
- Gorguos, A., Expédition de Mohamed El Kebir Bey de Marcona dans les contrées du Sud, trad. in Revue Africaine, T3/1853, pp 51-185, et T4/1859, pp. 347-357.

د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر

ابن التلمساني، عبد الله بن محمد

(567 هـ/1171م ـ 644هـ/1246م)

هو أبو محمد شرف الدين عبد الله بن محمد بن علي الفهري المصري الشافعي المعروف بابن التلمساني. كان أصوليا، متكلما، ديّنا، خيّرا، من علماء الديار المصرية ومحققيهم [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 8/ 160]. أصله من تلمسان مدينة بشمال غربي الجزائر في إقليم التل، ينسب إليها كثير من العلماء.

عاش ابن التلمساني في مصر وبها اشتهر ودرس، تصدّر للإقراء بالقاهرة وانتفع به كثير من الناس، وصنف تصانيف مفيدة وحسنة في الكلام والأصول، ذكره ابن الرفعة في «المطلب» مثنيا على فضله. توفي في القاهرة في 11 جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وستمائة للهجرة [كحالة، معجم المؤلفين، 6/ 133].

■ آثاره

1 ـ شرح «المعالم» في أصول الدين لفخر الدين الرازي (ولعله الأربعين في أصول الدين)، وهو مختصر مشتمل على خمسة أنواع من العلوم المهمة، الأول: علم أصول الدين، الثاني: علم أصول الفقه، الثالث: علم الفقه، الرابع: أصول معتبرة في

الخلاف، والخامس: أصول في آداب النظر والجدال؛ 2 ـ شرح «المعالم» في أصول الفقه للفخر الرازي أيضا؛ 3 ـ المغني، وهو شرح متوسط على «التنبيه» في فروع الشافعية للشيخ أبي إسحاق الشيرازي لم يكمله، ويعتبر «التنبيه» أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية، وأكثرها تداولا كما صرح به النووي في تهذيبه؛ 4 ـ شرح الخطب النباتية، وهي خطب ابن نباتة في الأدبيات؛ 5 ـ المجموع في الفقه.

المصادر والمراجع

● السبكي، عبد الوهاب (ت 771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تح. محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة البابي الحلبي وشركائه، ط 1 ـ 1974م؛ ● الإسنوي، عبد الرحيم (ت 772 هـ)، طبقات الشافعية، تقديم كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 ـ 1407هـ/ 1987م؛ ● السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي، مصر، ط 1 ـ 1387هـ/ 1967م؛ ● حاجي خليفة (ت 1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 6 مج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● الزركلي، خير الدين (ت 1976م) الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 14، 1999م؛ ● كحالة، محمد رضا، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1376هـ/ 1957م.

د. هشام قريسة

المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس

التلمساني، عفيف الدين سليمان بن علي

(610هـ/ 1213م ـ 690هـ/ 1291م)

التلمساني عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي، الأديب، الشاعر، أحد وجوه الصوفية، كوميّ الأصل من قبيلة «كومة» وهي قبيلة صغيرة منازلها بساحل البحر من أعمال تلمسان ويسميها المغاربة «كومية». تنقل في بلاد الروم وسكن دمشق وباشر فيها بعض الأعمال.

وصف التلمساني بالشاعر المتقن المتفنن في علوم منها: النحو، والأدب، والفقه، والأصول وله في ذلك مصنّفات.

قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: أثنى عليه ابن سبعين وفضّله على شيخه القونوي، فإنّه لمّا قدم شيخه القونوي رسولا إلى مصر اجتمع به ابن سبعين لما قدم من المغرب،

وكان التلمساني مع شيخه القونوي، قالوا لابن سبعين: كيف وجدته؟ يعني في علم التوحيد، فقال: إنّه من المحققين لكن معه شاب أحذق منه وهو العفيف التلمساني.

ووصف ابن تغري بردي، التلمساني بالصوفي الشاعر المشهور الفاضل الذي يدعي العرفان، ويتكلم على اصطلاح القوم.

ويعدُّ التلمساني من عظماء الصوفية القائلين بالوحدة المطلقة، ويظهر أنّ بعضهم قد اتهمه برقة الدين، بينما رأى البعض الآخر أنّ الكلام عن رقة دينه هذيان ناله ونال شيخه وشيخ شيخه ولم يثبت عنهم شيء من ذلك بريق معتبر، فهم قائلون بأنّ واجب الوجود هو الوجود المطلق.

ولا شكّ أنّ الرؤية العقلية الفريدة لهذا الصوفي، وطبيعة تجربته الشعرية التي تمجّد الجمال وتحتفي به، جعلتاه يعزف خارج جوقة الآخرين الذين استسلموا لدعة فكريّة وكسل عقلي ومخيلة فقيرة، وكان لا بدّ أن يتعرّض لسوء فهم من قبل الفكر السائد في عصره، شأنه في هذا شأن كل صوفي له رؤيته المميزة والعميقة للوجود والحياة والجمال، وكان طبيعيًا أن يرمي هكذا شاعر صوفي حاذق من قبل العوام والاتباعيين في الفكر، برقة الدين، وهو أمر ينفيه شعره من جهة، واهتماماته العقدية دينيًا من جهة أخرى، أضف إلى ذلك أنّ أخلاقه رفيعة يشهد على ذلك الشيخ قطب الدين بقوله: «وكان حسن العشرة، كريم الأخلاق، له حرمة ووجاهة وخدم في عدة جهات».

ويبدو أنّ التلمساني، كان من القائلين بوحدة الوجود وأنّه قد اتبع طريقة ابن العربي في أقواله وأفعاله، ويذكر عنه أنّه عمل أربعين خلوة، كل خلوة أربعين يومًا متتابعة.

كان العفيف التلمساني شاعرًا مجيدًا، عذب الروح، سلس العبارة، مفصحًا عن رؤية صوفية في أشعاره، وله ديوان شعر مشهور يقدّم صورة عن طبيعة فكره وعمق لغته وغناها بالإشارات والرموز والدلالات، ومن نماذج شعره قوله:

يشكو إلى أردافه خصرُه
لو تسمع الامواجُ شكوَى الغريق
يا ردفَه رقَّ على خصره
فإنّه حمّل ما لا يَطيق

وله أيضًا:

إن كان قتلي في الهوى يتعيَّنُ
يا قاتلي فبسيفِ جَفنِك أهونُ
حسْبي وحسبك أن تكونَ مدامعي
غسْلي وفي ثوبِ السَقام اكفَّنُ
عجبًا لخدِّك وردةٌ في بانةٍ
والبان فوق الغُصْن ما لا يُمْكنُ
أدنته لي سِنَةُ الكرَى فلثمتُه
حتى تبدَّل بالشقيق السوسنُ
ووردت كوثَرَ ثغره فحسبتني
في جنةٍ من وجنتيه أسكَنُ
ما راعني إلاّ بلال الخال فوق
الخدّ في صبح الجبين يؤذّنُ

ويلاحظ أنّ شعره يتوفر على إدراك لرقة وصفاء وليونة المفردة اللغوية ويحفل بالصور

المعبّرة عن الحالة النفسيّة، وعن روح مضطرمة بالحب والعشق الذي هو وسيلة من وسائل الوصول إلى الذات والحالات عند الصوفية، كما أنّه رغم قصيدته والفكر الذي يضيء فيه، شعر عفوي بعيد عن التكلّف، الأمر الذي يشير إلى براعة وفرادة التلمساني الشاعر والصوفي في نفس الوقت، ووضع أحدهما في خدمة الآخر، لإيصال الجذوة في الروح.

■ آثاره

ذكر السيد محسن الأمين الحسيني العاملي في كتابه [أعيان الشيعة. 7/ 35 ـ 361] أن للعفيف التلمساني في كل علم تأليفًا وتصنيفًا. ونظرًا إلى أنّه كان صوفيًا أديبًا وشاعرًا، ومعنيًا بالأصول والفقه، فقد وجدنا أن مصنفاته تدور حول هذه الفنون.

فمن آثاره التي ذكرها عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين:

1 ـ كتاب المواقف: في التصوف؛ 2 ـ شرح القصيدة العينية لابن سينا؛ 3 ـ شرح منازل السائرين للهروي؛ 4 ـ ديوان شعر؛

وبالبحث والتنقيب عن هذه المؤلفات للوقوف منها على أهم آراء وأفكار التلمساني لم نجد أيًا منها منسوبًا إلى التلمساني؛ فعلى سبيل المثال قيل إن من مصنفات التلمساني كتاب «المواقف في التصوف» إلا أنه وجد منسوبًا إلى السيد الأمير عبدالقادر الجزائري المتوفى عام 133هـ/ 1882م، في ثلاثة مجلدات، ويحتوي كل مجلد على العديد من المواقف:

ـ المجلد الأول يبدأ من الموقف الأول إلى الموقف 215.

ـ ويبدأ المجلد الثاني من الموقف 216 إلى الموقف 298.

ـ أما المجلد الثالث فيبدأ من الموقف 299 وينتهي عند الموقف 372.

وفي هذه المواقف يتعرض الأمير عبد القادر الجزائري إلى تفسير وشرح آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة.

وقيل أيضًا إن من آثار التلمساني: «شرح منازل السائرين» للهروي؛ إلى إنّه لا يوجد من بين شروح منازل السائرين شرحًا للتلمساني. وذلك على الرغم من قول زين العابدين الخوافي عن عفيف الدين التلمساني أنّه أقدم من عرفناه من شراح كلام الشيخ (يقصد الهروي).

وعلى الرغم من تصريح زين العابدين الخوافي بأن شرح التلمساني لمنازل السائرين للهروي هو أقدم شرح إلا أن الأب سي دي لوجيبه دي بوركي الدومنكي ـ وهو محقق شرح منازل السائرين لعبد المعطي اللخمي الإسكندري ـ يؤكد أن زين العابدين الخوافي مخطئ؛ إذ إن التلمساني في رأيه كان ولد عام 613هـ، وكان عمره لا يتجاوز خمسًا وعشرين سنة لما نسخ محمد بن عبدالله الصنهاجي الشرح الذي يقدمه المعطي اللخمي والذي يقدره كل التقدير، ويجعل له منزلة رفيعة في تاريخ كتاب «منازل السائرين» [المقدمة].

وذكر البغدادي [في إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 2/ 232] أن التلمساني عفيف الدين شرح القصيدة العينية للرئيس ابن سينا لفخر الدين محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري المارديني المتوفى سنة

أربع وتسعين وخمسمائة، وسمّى هذا الشرح باسم «الكشف والبيان في علم معرفة الإنسان»، ولكنه في كتابه [هدية العارفين، 5/ 400] يجعل شرح العينية والكشف والبيان كتابين مستقلين. ومما ذكره البغدادي في هدية العارفين من آثاره:

1 ـ شرح أسماء الله الحسنى؛ 2 ـ شرح تائية ابن الفارض؛ 3 ـ شرح المقامات للنفري في التصوف، ولعله كتاب المواقف المذكور أعلاه؛ 4 ـ شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر.

المصادر والمراجع

● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8/ 29 ـ 31؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 5/ 412 ـ 413؛ ● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 1/ 178 ـ 180؛ ● ابن كثير، البداية، 13/ 326؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام، الجزء الأخير، 99 ـ 101؛ ● القلقشندي، صبح الأعشى 5/ 151؛ 7/ 385؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، 4/ 216 ـ 217؛ ● أعيان الشيعة 35/ 360 ـ 361؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، / 266، 802، 1034؛ ● وصفحات أخرى متفرقة من هدية العارفين؛ ● إيضاح المكنون.

- Arabic manuscripts in Princeton 23 Ablwardt... Verzichneiss der arabischen handschriften VII : 42 ;
- Brockelman: 9, 1/258, S,/458.

د. مرفت عزت بالي
جامعة حلوان ـ مصر
د. نجمان ياسين
اتحاد الأدباء العراقيين ـ العراق

التلمساني، محمد بن رقية الجديري

(ت بعد 1194هـ/1780م)

محمد بن عبد الرحمان بن الجلالي بن رقيّة الجديري التلمساني، لا يعرف عنه إلاّ أنّه عاش بتلمسان في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد؛ واتصل بالباي محمد الكبير بمعسكر، واكتسب مكانة لديه لمعرفته بالعلوم اللغويّة والمسائل الفقهيّة، وأنّه ظلّ من المقربين إليه حتى وافته المنيّة بعد سنة 1194هـ/ 1780م.

وضع محمد بن رقيّة التلمساني مصنفا مختصرا في التاريخ تناول فيه غارات النصارى على مدينة الجزائر بعنوان «الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة». والذي انتهى من وضعه كما ورد مسجلا في إحدى نسخه في الرابع عشر من ذي الحجة سنة 1193هـ/ 1779م؛ نزولا عند رغبة الباي محمد الكبير باي

الغرب (ت 1212هـ/ 1797م) كما ذكر مؤلفه: «وذلك عن إذن الأمين... سيدي محمد باي نجل... عثمان».

اتبع محمد بن رقية التلمساني في تأليفه التسلسل الزمني للحملات التسع التي شنها الأوربيّون على الجزائر منذ بداية العهد العثماني مع قدوم الأخوين عروج وخير الدين بربروسة وحتى فترة حكم الداي محمد عثمان باشا (1766 ـ 1791)، فجاءت متتابعة حسب الترتيب التالي:

1 ـ حملة ديغو دو فارا (Diego de Vara) في عهد عروج (922هـ/ 1516م). 2 ـ حملة هيقو دو منكاد (Hugo de Mancade) في عهد خير الدين بربروسة (925هـ/ 1519م). 3 ـ حملة الإمبراطور شارلو كان (Charles Quint) في عهد حسن آغا (948هـ/ 1541م). 4 ـ حملة إنكليزيّة في عهد رمضان بلكباشي (1071 هـ/ 1660م). 5 ـ حملة دوكان الفرنسي (الأولى) (Duquesne) على مدينتي شرشال والجزائر في عهد الداي بابا حسن (1093 ـ 1683هـ/ 1094 ـ 1683م). 6 ـ الحملة الثانية لدوكان (Duquesne) على عهد بابا حسن السابق ذكره. 7 ـ حملة دوكان الثالثة على عهد ميزومورتو (1095هـ/ 1683م). 8 ـ حملة الدانويين «الدانماركيين» بقيادة كاس (Caas) على عهد محمد عثمان باشا (1184هـ/ 1770م). 9 ـ الحملة الإسبانيّة بقيادة أوريلي (O'Reilly) على عهد عثمان باشا 1189هـ/ 1775م.

كان الدافع لمحمد بن رقية في تأليفه «للزهرة النائرة» رغبته في التذكير بحملات النصارى على مدينة الجزائر والتنويه بمن استشهد في الدفاع عنها. وهذا ما عبر عنه بقوله: «يقول العبد الفقيه الجامع إنما حررت هذه الأوراق وجمعت فيها بالرحمة والمغفرة إعلاما لآخر القانطين والمرابطين بها...».

تختلف القيمة التاريخيّة لما سجله ابن رقيّة عن الغارات الأوربيّة باختلاف المصادر والروايات التي اعتمدها. فقد رجع في تسجيله للغارات الأولى إلى تقييد غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول، وإلى وثيقة المحكمة الملحقة به، فكادت تكون نقلا حرفيا عنهما. مما أنقص من قيمتها التاريخيّة. أمّا الغارات المتأخّرة وما اتصل بها من أخبار حول باشوات الجزائر، فقد اعتمد فيها على روايات أشخاص شاركوا فيها أو عاصروها مما أكسبها أهميّة خاصّة وجعلها مصدرا أساسيّا لا غنى عنه للتعرف على الحملات الأوربيّة على الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي.

تعكس «الزهرة النائرة» في أسلوبها ولغتها ثقافة البيئة الجزائريّة في القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر الميلادي، كما تعبر عن موقف مؤلفها من الأحداث وغيرته على بلاد الإسلام والمسلمين وافتخاره بصمود الجزائر وتحديها للمغيرين المسيحيين، فدعا لها بدوام العز والمنعة في قوله: «تراب نواحيها معجون بدماء الكفار، اللهم أدامها دار جهاد، ومحل عزم واجتهاد؛ إلى يوم التناد، بحرمة أشرف العباد».

تتوفر «الزهرة النائرة» على عدّة نسخ مخطوطة، منها نسخ بالمكتبة الوطنيّة الجزائريّة في حوالي خمسين ورقة تحت رقم 626 مسجلة بتاريخ 12 جمادى الثانية

1194هـ ونسخة بمكتبة ميونيخ بألمانيا تحمل رقم 419، ونسخة بمكتبة سعد الدين بن شنب قام بترجمتها إلى الفرنسيّة المستشرق الفرنسي روسو (R.Rousseau)، ونشرها بالجزائر سنة 1841م، بعنوان «يوميات إيال الجزائر».

بينما ظلّ النص العربي مخطوطا بعيدا عن أيدي القراء إلى أن تولّى تصحيحه ونشره الأستاذ سليم بابا عمر في إطار تحضيره لدبلوم الدراسات المعمّقة بجامعة الجزائر، ونشره في مجلّة تاريخ وحضارة المغرب 1967. وأعاد نشره بحوليّات جامعة الجزائر سنة 1989.

المصادر والمراجع

- ابن رقيّة التلمساني، محمد، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مجلّة تاريخ وحضارة المغرب عدد 3، 1967، 2 ـ 32؛
- شاوش، محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر 1995، 526 ـ 527؛ ● ناصر الدين، سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي «تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين»، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999، 925 ـ 931.
- Baba Ameur, (s). A propos d'une histoire du XVIIIe siècle, sur les expéditions étrangères contre Alger in Annales de l'université d'Alger nº 4/1989-1990. pp. 59-90;
- Bresnier, (J) Traduction du récit indigène de l'expédition d'Oreilly, extrait de la Zahrat - en - Naira, in Revue Africaine, T 8 / 1863, pp. 334 - 346;
- Rousseau, (A), Chroniques de la régence d'Alger, Traduction d'un manuscrit arabe intitulé El-Zohrat-el-Nuyerat, Alger, 1841.

د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر

التلمساني، أبو مدين شعيب

(ما بين 504 ـ 509هـ/1110 ـ 15م ـ 594هـ/1203م)

أبو مدين شعيب بن الحسين التلمساني المغربي الأنصاري الأندلسي المالكي الصوفي، العارف بالله، شيخ أهل المغرب.

ولد أبو مدين التلمساني في حصن قطنياته من عمل إشبيلية، من أسرة عربية غير معروفة، وهي من العائلات العديدة ذات الأصول اليمنية التي استقرّت تباعًا بالأندلس منذ الفتوح الأولى، وقد كان أبواه فقيرين، وقد

توفي والده وهو صبي، فكفله إخوته، وكان يرعى مواشيهم (قبل أن يتعلّم صناعة النسيج)، لكنه أخذ نفسه بحفظ القرآن الكريم منذ حداثته، ثم ما لبث أن تعلّم حرفة النسيج ليكتسب منها. ولم يكن ذلك ليحدّ من ميله وحماسه إلى طلب العلوم الدينية وغيرها، فهو عاصر حوالي ربع قرن من حكم المرابطين، وأكثر من نصف قرن من حكم الموحّدين، ومن ثمّ، فعصر أبي مدين يمثّل الذروة في التاريخ المغاربي ككل، من حيث استتباب الأمن عمومًا، ومن حيث تمازج علوم الظاهر والباطن وانتشار العقليات والتواصل الثقافي المغاربي.

ودفع حب العلم أبا مدين التلمساني إلى الترحال في سبيل تلقيه عن مشاهير العلماء والشيوخ من المغاربة، فتوجّه إلى سبتة وطنجة مدّة يخالط الصيادين ليكسب عيشه، قبل أن يلتحق بمراكش التي تضم الكثير من العناصر الأندلسية، لكنه عدل عنها بعد ذلك إلى فاس في أخريات دولة المرابطين وأوائل دولة الموحّدين، وهناك وجد بغيته، وواصل الدراسة حتى قيل عنه: «أنه برع وتفنّن في علوم الإسلام نقليّها وعقليّها».

وكان أبو مدين التلمساني قد قرأ على عدد من الشيوخ منهم: أبو الحسين علي بن حرزهم (ت 559هـ)، وعلي بن غالب الأنصاري (ت 568هـ) قرأ عليه سنن الترمذي، والمحدّث الصوفي أبو عبد الله محمد الدقاق السجلماسي، والصوفي أبو يعزي يلنور (ت 572هـ).

وبالرغم من ذلك فإن ذوق أبي مدين التلمساني في التصوّف وميله إلى سلوك طريقه فاق كل تقدير فأقبل عليه بهمته، مدفوعا بتشجيع شيخه أبي يعزى إلى الرغبة في بلوغ أوج الكمال الروحي، آخذا نفسه بأكثر قواعد الزهد والتقشّف صرامة، دون أن يجد لذلك ما قد يجده غيره من صعوبة وعسر.

وتدرج أبو مدين التلمساني مترقيا في طريق التصوّف حتى نال مرتبة «القطب» و«الغوث»، كما أن تصدّيه للتدريس بفاس لاحقًا، دليل على أنه وصل درجة الأستاذية، ولم يكن ذلك متاحًا لكل واحد بالمراكز العلمية المرموقة، خصوصًا وقد كان يدرس بجامع له، حيث تولى تكوين المريدين أيضًا، وسكن حومة الرميلة، مسلما له من أجله أعلام التصوّف في عصره، وتشير بعض الروايات أن أبا الصبر أيوب الفهري السبتي اختلف إليه بفاس سنين كثيرة، وهو الذي قال عنه: «خاض من الأحوال بحارًا، ونال من المعارف أسرارًا».

وحج أبو مدين في شبابه في وقت غير محدّد، وذلك في حياة الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ) الذي لقيه بعرفة ثم درس عليه أبو مدين الحديث بمكة المكرّمة، وقويت بينهما أواصر المودّة وقطع بصحبته شوطًا بعيدا في علوم الأصول. وقيل إنه اتّصل بالشيخ الرفاعي، ولكن ليس هناك ما يدلّ على أنّ رحلته امتدّت إلى بغداد.

ثم عاد أبو مدين التلمساني إلى بلاده، حيث أقام مدرسة صوفية في مدينة «بجاية»، ولم يكن اختاره لبجاية خاليًا من الاعتبار المعاشي وقد قال عنها: «إنها تعين على طلب المعاش». وقام بتدريس الحديث والتصوّف والفتوى في مسائل الفقه، وكانت رسالة القشيري ضمن المؤلّفات التي تولّى شرحها

لطلبته، ومع هذا كان يقرض الشعر، ومن ثم كان ذا ذوق أدبي، وكان يتردّد عليه الأولياء لاستفساره وذوو الحاجات لمساعدتهم، ممّا يدل على حرمته لدى المسؤولين وذوي الجاه. وتخرّج في مدرسته كثير من علماء الصوفية، منهم: الفقيه محمد بن ابراهيم الأنصاري، والفقيه أبو محمد عبد الخالق التونسي، ومحمد بن أحمد القرشي، وعبد الرحيم بن حجون المغربي، وحسن بن محمد الغافقي الصواف، وأبو محمد بن ابراهيم الجزولي، وفاطمة الأندلسية، وغيرهم.

وتذكر الروايات أن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (ت 638هـ) التقى به ولازمه فترة ينتفع فيها بإرشاده، وتحمل مؤلفات ابن عربي حقيقة عبارات الإجلال والعرفان لهذا الشيخ الجليل الذي كان يلقبه ابن عربي بـ«شيخ الشيوخ». و«نشر الله ذكره، وطبقت شهرته الآفاق، وهرع إليه المريدون من أقصى البلاد مجذوبين إلى ما ذاع عنه من بركة وما سجل له من كرامة. وتخرج به جماعة من الفضلاء كأبي عبد الله القرشي وغيره، وانتهى إليه كثير من العلماء المحققين وفضلاء الصالحين كابن عربي، وله من الحقائق كلام واسع».

وذكره ابن التلمساني بقوله: «كان من أفراد الرجال، وصدرًا من صدور الأولياء والأبدال. جمع الله له بين الشريعة والحقيقة، وأقام ركن الوجود، هاديًا وداعيًا للحق».

وكالعهد بتعاليم الصوفية التي كانت تجرح أذواق المتعصّبين من الفقهاء، كانت تعاليم أبي مدين التلمساني بالنسبة لفقهاء الموحّدين في بجاية، فلم يرضهم أن تذيع شهرته هذ الذيوع أو أن يكثر زواره ومريدوه إلى هذا الحد، فزيّنوا لسلطان الموحّدين «أبا يوسف يعقوب المنصور» محاكمته وامتحانه. وقد بعث السلطان في طلب أبي مدين إلى مراكش، مع التلطّف في معاملته، ليسأله ويناقشه بنفسه، وتلقّى أبو مدين الأمر بطيب خاطر، وطمأن أصحابه وتنبأ بقرب أجله، وعاجلته المنية قبل أن يصل إلى السلطان. ويشير ابن العماد الحنبلي في كتابه «شذرات الذهب» إلى ذلك بقوله: «طلبه ـ لأبي مدين ـ سلطان المغرب فلما وصل إلى تلمسان، قال: ما لنا والسلطان نزور الإخوان، ثم نزل واستقبل القبلة وتشهّد، وقال: ها قد جئت، ها قد جئت، وعجلت إليك رب لترضى، فمات.. وقد قارب الثمانين».

إذن، توفّي أبو مدين التلمساني في سنة 594هـ وهو في طريقه إلى سلطان الموحّدين، وكانت وفاته على بعد أميال قليلة من تلمسان. فدفن ـ كما أوصى ـ برباط (جبانة)، العباد قرب المدينة، ولا يزال قبره بهذا الرباط محجة للكثيرين من كل صوب. كما اعتبر أبو مدين بحق دليل تلمسان، وازدهرت هذه المدينة ببركاته، كما نمت مدينة «العباد» حول قبره، وبنيت قبة على قبره، وكلما جاء أمير أو ملك ممّن حكموا تلمسان أضاف إلى زخرفة قبره كثير من المنشئات الفخمة، وقد بقي منها الجامع والمدرسة.

تدور تعاليم أبي مدين التلمساني على محور واحد بعد إفراد الله بالحب والعبادة والعمل والذكر والتفكير واستشعار الامتلاء الكامل بحضرته وحده، وقد رأى بعض الدارسين بحق أنّه يمكن اختصار هذه التعاليم في هذا

البيت الذي كان أبو مدين التلمساني يردّده دائما وهو:

اللـهَ قـلْ وذرِ الـوجـودَ ومـا حـوى
إن كـنـتَ مـرتـادًا بـصـدقِ مُـرادِ

ولم يكن موقف أبي مدين التلمساني موقفًا شعوريًا فحسب، بحيث ينتهي إلى وحدة الشهود، بل كان موقفًا فكريًا أيضًا بحيث يسمح بوحدة الوجود بمعنى خاص للغاية في هذا المقام. ومن مقولات أبو مدين التلمساني العديدة:

- ثمرة التصوف تسليم كُله.

- توكّل على الله حتّى يكون الغالب على ذكرك، فإنّ الخلق لن يغنوا عنك شيئًا.

- أسماء الله تعالى، بها تعلّق وتخلّق، وتحقّق، فالتعلّق: الشعور بمعنى الاسم، والتخلّق: أن يقوم بك معنى الاسم، والتحقّق: أن تفنى في معنى الاسم.

- أسس هذا الشأن علة الزهد والاجتهاد.

- علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق.

والأسس الفكرية لطريقة أبي مدين التلمساني تنطلق من الورع والتوكّل، وقد قال أبو الصبر الفهري - أحد أصحابه - بعد أن نوّه بخصال هذا الصوفي الكبير، أنّه كان في «مقام التوكّل لا يشقُّ غباره».

ومن أفكاره الأساسية:

- الجهر بالطاعة لله كما يجهر العصاة بالمعاصي.

- الجهر بالذكر تبعًا للطريقة القادرية.

- سلوك الطريق بدءًا بالتوبة ثم الإرادة.

■ آثاره

إنّ ما وصل إلينا من مؤلّفات أبي مدين التلمساني هذا العالم الكبير نزر يسير للغاية، ويتمثّل في بعض الأشعار الدينية الصوفية التي تنم عن ذوقه الصوفي وثقافته، كما أن له عرضًا للعقيدة. وبعض آثاره محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس برقم 10، 420، 1230، 3410، 4585، ورقة 15، وكذلك في المكتبة الأهلية بالجزائر بأرقام 376 (3) و938 (1 - 9)، 1859 (73).

ومن أحسن الشعر الصوفي لأبي مدين التلمساني رائيته، والتي خمسها محيي الدين بن العربي، ومنها:

يـهوي التـصـوُّفُ من أخلاقـهـم طـرفًـا
حـسـن الـتـألـيـف مـنـهـم راقـنـي نـظـرًا

لا زال شَـمـلـي بـهـم فـي الله مـجـتـمـعًـا
ونـنـبـنـا فـيـه مـغـفـورا ومـغـتـفـرًا

ومن شعره أيضًا:

يـا مـن عـلاَ فـرأى مـا فـي الـغـيـوبِ ومـا
تـحـتَ الـثـرى وظـلامُ الـلـيـل مـنـسـدلُ

أنـت الـغِـيـاثُ لـمـن ضـاقـت مـذاهَـبُـه
أنـتَ الـدلـيـلُ لـمـن حـارتْ بـه الـحـيـلُ

إنّـا قـصـدنـاك والامـالُ واثـقـة
والـكـلّ يـدعـوك مـلـهـوفٌ ومـبـتـهـلُ

فـإن عـفـوتَ فـذو فَـضْـل وذو كـرم
وإن سـطـوتَ فـأنـتَ الـحـاكِـمَ الـعـدلُ

1 - أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد، شرحه شهاب الدين أحمد بن عبد القادر

وسماه البيان والمزيد المشتمل على معاني التنزيه وحقائق التوحيد، أوّله «الحمد لله»، العلية ذاته، المجيد صفاته، القديمة أسماؤه وآياته؛ 2 ـ الحكم؛ 3 ـ مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب.

المصادر والمراجع

● ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف، 1972، بيوتات فاس الكبرى، تح. عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ص66؛ ● ابن أبي الزرع، علي (ت 727هـ)، 1303هـ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، فاس، ص194؛ ● ابن عربي، محيي الدين (ت 638هـ)، رسائل ابن عربي، حيدر آباد؛ ● ابن عربي، محيي الدين، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ج1، ص153؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص303؛ ● عيشون، أبو عبد الله، 1997، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تح. زهراء النضام، الرباط، ص266؛ ● ابن القاضي المكناسي، أحمد (ت 1012هـ)، جذوة الاقتباس، الرباط، ص259؛ ● البغدادي، إسماعيل، إيضاح المكنون، ج1، ص133؛ ● البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين، ج1، ص417؛ ● التنبكتي، أحمد بابا (ت 1036هـ)، نيل الابتهاج، طرابلس، ص194؛ ● حركات، إبراهيم، 1421هـ، مدخل إلى تاريخ العلوم، الدار البيضاء، ج3، ص70؛ ● الحنفي، عبد المنعم، 1992، الموسوعة الصوفية، القاهرة، ص360؛ ● خليفة، حاجي، كشف الظنون، ج1، ص84؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج3، ص244؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج4، ص302؛ ● المقري، أحمد بن محمد (ت 1042هـ)، نفح الطيب، تح. محيي الدين عبد الحميد، ج9، ص347 ـ 349.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

التلمساني، ابن مرزوق شمس الدين أبو عبد الله محمد

(711 أو 712هـ/1311 أو 1312م ـ 781هـ/1379م)

ابن مرزوق، شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أحمد، بن محمد، بن أبي بكر، ابن مرزوق، ابن الحاج القيرواني، العجيسي، التلمساني المعروف بالخطيب، وبالجدّ وبالرئيس. محدث، وخطيب ورجل دولة. ترجمت له الكثير من المصادر العربية التي تجمع على نعته بالمشاركة والتخصص في كثير من العلوم وشدة الإقبال

على تدريس العلم ونشره، وتنوه بحلقاته العلمية ومجالسه الأدبية التي كان يلقن فيها الطلبة مختلف الفنون المعرفية. وهو ينحدر من أسرة عريقة في العلم، قيروانية الأصل، استقرت بتلمسان أواخر الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، إثر الزحف الهلالي على القيروان كما يعتقد، وأنجبت ثلة من الأعلام الذين لعبوا دورا مهما في الحياة الدينية والأدبية والسياسية لبلاد المغرب. وارتبط سلفه بخدمة الولي الشهير أبي مدين شعيب (ت 594هـ).

قرأ القرآن على يد أبيه، وعلى الشيخ الفقيه أبي زيد عبد الرحمان بن علي بمكتبه بسويقة إسماعيل، وعلى الأستاذ أبي مهدي عيسى الجناتي وعلى غيرهما، وأخذ العلوم بمسقط رأسه على علمائها أمثال أبي عبد الله محمد بن علي أبي قطران، والإمام أبي عبد الله العبدري، وأبي عبد الله القصري المغربي، وغيرهم ممن ذكرهم في برنامج شيوخه وفي ترجمة حياته.

ارتحل مع والده إلى المشرق سنة 724هـ وهو شاب يافع، وزار أكبر حواضر المشرق الإسلامي، وتتلمذ على أشهر علماء مكة، والمدينة، والقاهرة، وبيت المقدس، ودمشق ذكرهم في فهرسة شيوخه. وكانت مناسبة وقف فيها ابن مرزوق على أوجه الاختلاف بين الحياة الاجتماعية والفكرية بين الشرق والغرب الإسلامي والمقارنة بينهما في كتابه الشهير «المسند». وقد ظهرت مواهبه في الخطابة عندما خطب بجامع الإسكندرية سنة 729هـ/ 1329م. واشتهر أمره وعدّ من خطباء الإسلام منذئذ. وقد قيل عنه لاحقا إنه خطب على ثمانية وأربعين منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا [البستان، 187].

رجع سنة 729 إلى المغرب عن طريق بلاد الجريد وتتلمذ في طريق عودته على أشهر علماء طرابلس وتونس وبجاية. وأقام بتلمسان إلى سنة 734هـ عاد بعدها إلى الحجاز أيضا على بلاد الجريد، فأقام بالقاهرة إلى آخر سنة 736هـ. وفي سنة 737هـ عاد إلى المغرب ولقي السلطان أبا الحسن المريني محاصرا لتلمسان، ولما فتحت المدينة سهل عليه التقرب إلى البلاط المريني بمساعدة عمه محمد (الثالث) بن مرزوق الذي كان خطيبا بجامع العباد الذي شيده السلطان على ضريح الولي أبي مدين. وبعد وفاة عمه، ولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه، وسمعه يخطب على المنبر، ويشيد بذكره في خطبته، ويثني عليه، فقرَّبه وأدخله إلى حاشيته، وأصبح كاتبه ومحل ثقته.

وفي سنة 740هـ/ 1339م رحل إلى فاس ومدينة سلا صحبة السلطان أبي الحسن. وحضر معه وقعة طريف في صيف 741هـ/ 1340م التي انهزم فيها المرينيون، ثم استعمله في سفارة إلى الأندلس، ثم إلى ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر، في تقرير الصلح، واستِنْقاذ ولده تاشفين المأسور يوم طريف، ونجح في مهمته وعاد إلى تونس مصحوبا بعدد من الشخصيات القشتالية لتهنئة السلطان بفتح تونس في خريف عام 748هـ/ 1347م. ورجع بعد وقعة القيروان (محرم 749هـ/ أبريل 1348م) إلى المغرب مع زعماء النصارى، وزوجة أبي الحسن، شمس الدين الضحى، أم أبي عنان، الذي كان قد أعلن تمرده على أبيه وتولى السلطة في مدينة فاس.

ثم رجع إلى تلمسان التي كان قد استردها بنو زياد على يد أبي سعيد عثمان وأخيه أبي ثابت. ونزل السلطان أبو سعيد بن مرزوق إليه سرا في الصلح بغير مشورة أخيه، فلما اطّلع أبو ثابت على الخبر، أنكره على أخيه، فبعثوا من حَبَسَ ابن مرزوق؛ فأقام في السجن تسعة أشهر، «وكابرت ـ يقول ابن مرزوق ـ ما يعظم الله أجره.. وبقي أهلي يعتقدون وفاتي». ثم نفوه إلى الأندلس سنة 752هـ/ 1351م، فنزل على أبي الحجاج يوسف، سلطانها، بغرناطة فقربه وعينه مدرسا في المدرسة البلاطية، واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء وبجامع غرناطة. وهناك ربط صداقة مع لسان الدين بن الخطيب والأمير أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن. ولم يزل ابن مرزوق خطيب السلطان الغرناطي إلى أن استعاده السلطان أبو عنان عام 754هـ/ 1353م، وألحقه بحاشيته وأصبح من خاصته.

ولما استولى النصارى على مدينة طرابلس وعزم السلطان أبو عنان على افتكاكها بماله، بعثه السلطان إلى مدينة قابس لتسليم خمسة وأربعين ألفا من الذهب إلى الفقيه مروان بن مكي متولي افتكاكها. ثم أرسله سنة 758هـ/ 1357م سفيرا إلى تونس ليخطب له إحدى بنات السلطان أبي يحيى الحفصي. ولم يفلح ابن مرزوق في مهمته، «فوجد الحسدة سبيًا لما كانوا عاملين عليه من طعن في جهته»، فأدركه خدام السلطان على مرحلة من تلمسان، فثقفوه وأوصلوه إلى فاس، حيث اتهم بالتماهي مع الرفض التونسي، وأودع السجن للمرة الثانية في حياته. ولم يطلق سراحه إلا قبل وفاة السلطان أبي عنان (ذو الحجة 759هـ/ ديسمبر 1358م).

وعرف ابن مرزوق أوج تألقه السياسي زمن السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن، الذي تولى الحكم في 15 شعبان 760هـ/ 12 يوليو 1359م)، فقد آثره وجعل زمام الأمور بيده. وبعد اغتيال السلطان أبي سالم في 21 ذي الحجة 762هـ/ 23 سبتمبر 1361م، صودرت أملاك ابن مرزوق، وأودع السجن للمرة الثالثة. ومكث بالسجن سنتين، وبعد الإفراج عنه غادر المغرب بحرا إلى تونس، هناك استقبله بحفاوة السلطان أبو إسحاق إبراهيم ووزيره أبو محمد بن تافرجين، وعين خطيبا بجامع الموحدين، وأقام هناك إلى أن هلك السلطان أبو يحيى عام 770هـ/ 1369م وولي ابنه خالد الذي سرعان ما سينحيه أبو العباس عن السلطة (772هـ/ 1370م). وعمد السلطان أبو العباس إلى عزل ابن مرزوق عن الخطابة، وحينما فشل في العودة إلى فاس واسترجاع مكانته في البلاط المريني، شد الرحال إلى الإسكندرية بحراً (773هـ/ 1372م)، واستقر بالقاهرة حيث استقبله السلطان المملوكي الأشرف ناصر الدين شعبان، وولاه الوظائف العلمية، فلم يزل بها على حسن حال، وعلو المكانة إلى أن توفي في ربيع النبوي 781هـ/ يونيو ـ يوليو 1379م.

ولقد تتلمذ على ابن مرزوق عدد كبير من العلماء الكبار أمثال لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ/ 1374م)، ومحمد بن يوسف ابن زمرك (ت بعد 795هـ/ 1393م)، وابن قنفذ القسنطيني (ت 810هـ/ 1407م)، وأبو القاسم البرزلي (ت 842هـ/ 1438م)، وعبد الله بن محمد الشريف التلمساني (ت 792هـ/ 1390م).

آثاره

تتوزع آثار ابن مرزوق بين الأدب، والفقه، والشعر، والتاريخ، والتراجم، كلها ما تزال مخطوطة، باستثناء:

1 ـ «المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن»، وهو أهم تآليف ابن مرزوق، وبه اشتهر حتى عدّ من المؤرخين الأساسيين الثلاثة للغرب الإسلامي في نهاية العصور الوسطى، إلى جانب كل من لسان الدين بن الخطيب، وعبد الرحمان بن خلدون. وقد كتب ابن مرزوق مسنده وفق نظرة أخلاقية وبهدف تقريضي حيث يتبين ذلك بغاية الوضوح من العنوان، إذ خصص أبواب الكتاب الخمسة والخمسين لذكر مآثر السلطان أبي الحسن المريني في شتى الميادين: الإدارية، والاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والعمرانية، والجهادية، مقدما بذلك مادة تاريخية خصبة عن البلاط المريني وعن مختلف النواحي الحضرية لبلاد المغرب الكبير في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد؛ فضلا عن معلومات دقيقة عن حياة ابن مرزوق نفسه وعن أسلافه ووظائفه العلمية والسياسية وشيوخه وتلامذته. فالمسند مليء بما يدل على مشاركة ابن مرزوق في كثير من الأحداث الكبيرة في عصره؛ 2 ـ تعليق، عرّف فيه ابن مرزوق بسلفه، وخصص خاتمته لذكر مولده وتاريخ رحلته واستيطانه وبعض من لقي من الأولياء. وتوجد نسخة مصورة منه بالخزانة العامة بالرباط ضمن المخطوطات التي نالت إحدى جوائز الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق. وتتخلل «التعليق» معلومات قيمة عن الأحوال السياسية والدينية والروحية والعلمية لبلاد المغرب، وخاصة بفاس وتلمسان. وقد كتب خطبة «التعليق» حفيده الإمام الأشهر المتوفى سنة 842هـ (ورقة 98 ظهر)؛ 3 ـ عجالة المستوفر (أو المستوفي) المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز، وهو معجم أو فهرس في ذكر شيوخه. وصلتنا نقولات منه في الديباج المذهب وفي نفح الطيب وغيرهما، ويوجد مخطوطا في نسخة قديمة ورديئة جدًا بالمكتبة الملكية (الحسنية) بالرباط ضمن مجموعة رقمه 7579؛ 4 ـ بوح الخفاء في شرح الشفاء. وهو شرح لكتاب الشفاء للقاضي عياض المتوفى سنة 544/ 1149؛ لم يكمله ابن مرزوق، ويقع في خمسة مجلدات، ويوجد مخطوطا (مكتبة غوطة 83، 2 Gotha)، وكان محل تقريض وتنويه من معاصريه؛ 5 ـ تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام، وهو شرح لـ «عمدة الأحكام عن سيد الأنام» لتقي الدين الجماعيلي (ت 600/ 1203). مخطوط ضخم يقع في خمسة أجزاء، مكتبة أيا صوفيا بتركيا رقم 1331 ومخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 38د، وهو «شرح جليل، جمع فيه بين شرح العمدة لابن دقيق العيد وشرح عمر الفاكهاني مع زوائد لابن مرزوق»؛ 6 ـ جنى الجنتين في فصل الليلتين: ليلة القدر وليلة المولد النبوي، يوجد مخطوطا بالمكتبة العامة بالرباط رقم ك 1228 (مبتور الأول)؛ 7 ـ الأحاديث الأربعون النبوية من مرويات الخلافة العلوية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 3582، من 54 ورقة، في الورقة الأولى «اقتناه الإمام ابن عرفة التونسي، وكتب سنة 988هـ»؛

8 - خطب مرتبة على حروف المعجم (مخطوط الخزانة العامة بالرباط، جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق رقم 930/ 5 مراكش، 1979). وهي عبارة عما اختطب به بحضرة غرناطة وبالحمراء، وقد أملاها على بعض طلبته واحتوت على «متفرقات الحكم ودرر الكلام»، كما «اشتملت على اللفظ الموحش والكلام المستعجم» حسب ابن مرزوق نفسه؛ 9 - خطب كثيرة من غير التزام حروف المعجم توجد مخطوطاته في نسخة رديئة بالمكتبة (الملكية) الحسنية بالرباط رقم 4070.

أما ما لم يصلنا من مؤلفاته فهو: 10 - رسالة البدر في ليلة القدر؛ 11 - إيضاح المراشد في أجوبة أبي راشد [المسند، 97]؛ 12 - تعليق على صحيح البخاري [المسند، 276]؛ 13 - الأربعين في فصل الصلاة على سيدنا محمد؛ 14 - شرح الأحكام الصغرى، لعبد الحق بن عربي الإشبيلي. يقول عنه حفيده محمد (ت 842هـ/ 1438م): «ما رأيت مثله في التحصيل والنقل والفائدة»؛ 15 - الأربعين في فصل العلم؛ 16 - الأربعين في فضل الصحاح؛ 17 - إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب، وهو شرح لمختصر ابن الحاجب في الفروع؛ 18 - قصائد في مدح النبي صلّى الله عليه وسلّم؛ 19 - قصائد في التوسل؛ 20 - قصائد في المولديات؛ 21 - قصائد في الحجازات؛ 22 - نظم كثير: منه القصيدة المسماة بالفرجة، والقصيدة اللامية، والقصيدة النبوية الحجازية، والقصيدة الدالية؛ 23 - كتاب الإمامة؛ 24 - شرح البردة (مفقودة)، ورد ذكره في طالعة شرح البردة للفقيه عبد الرحمان الجاديري (ت 839هـ): مخطوط الخزانة الصبيحية بسلا رقم 210، ومخطوط خزانة القرويين رقم 524؛ 25 - كتاب عارض به كتاب «العفو الاعتذار» [المسند، 98]؛ 26 - أربعون حديثا خرجها من مرويات السلطان أبي الحسن [المسند، 277]؛ 27 - مقالة في الصبر [المسند، 216]؛ 28 - فهارس مطولة ومختصرة والعجالة؛ 29 - الوصية مع الغبريني والرد عليه والانتصار لصاحبه العلامة الشريف والقاضي المقري، وهي «مما يكتب بماء الورد».

■ المصادر والمراجع

● ابن مرزوق، تعليق، عرف فيه بسلفه ونفسه (مخطوط)؛ ● م.ن، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981؛ ● ابن خلدون، يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد تح. عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980، 115؛ ● ابن خلدون، عبد الرحمان، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تح. محمد ابن تاويت، القاهرة، 1951، 49 - 54؛ ● الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح. وتقديم الحسين اليعقوبي، المكتبة العتيقة، تونس، 1998، 193، 198، 201، 204؛ ● ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 184 -

190؛ • أحمد بابا، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، 450 ـ 455؛ • ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث للطبع والنشر، 2/ 290 ـ 296؛ • ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان علماء المائة الثامنة، حيدر أباد، 1348 ـ 1350 هـ، 3/ 360 ـ 362؛ • المقري، أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج. 5، تح. إحسان عباس، دار الفكر، 1988، 5/ 390 ـ 418؛ • ابن القاضي، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس، القسم الأول، دار المنصور، الرباط، 1973، 225 ـ 227؛ • الحفناوي، أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، 1962، 1/ 136 ـ 144؛ • الكتاني، عبد الكبير بن هاشم، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تح. علي بن المنتصر المتاني، دار البيضاء، 2002، 2/ 167 ـ 170؛ • الزركلي، الأعلام، ط 2، دمشق، 1954 ـ 1959، 6/ 226؛ • كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1957، 9/ 16ـ17؛ • حاجي خليفة، كشف الظنون، إستنبول، 1941 ـ 1943، 104، 154، 306، 550، 1164، 1170، 1333، 1628؛ • سعيدوني، ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، 190 ـ 196؛ • فيغيرا، ماريا خيسوس، أخبار إفريقية في «المسند» لابن مرزوق، ضمن أعمال الملتقى الثالث التونسي الإسباني، الكراسات التونسية، عدد 103 ـ 104، سنة 1978، 61 ـ 87؛ • دودو، أبو العيد، ابن مرزوق الخطيب، مجلة المعرفة، الجزائر، العدد 17، ص 648 ـ 650؛ • بوعياد، محمد، من مآثرنا المغمورة: المسند الصحيح الحسن... لمحمد بن مرزوق الخطيب، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 61، 1981، ص 19 ـ 28؛ • الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج 2، بيروت، ط 4، 1980، 2/ 131 ـ 134.

- Lévi-Provençal E., Un nouveau texte d'histoire mérinide : Le Musnad d'Ibn marzuk, Hespèris, 1925, pp. 1-82.
- Hadj Sadok, Ibn Marzuk, in Encyclopédie de l'Islam, N. E., Tome III, pp. 890 - 892.
- Benchekrun Mohamed, la vie intellectuelle marocaine sous les mérinides et les wattasides, Rabat, 1974, pp. 283 - 293.
- Shatzmiller, Maya, L'historiographie mérinide : Ibn Khaldoun et ses contemporains, Leiden, E. J. Brill, 1982, pp. 36 - 44.

د. محمد الشريف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ تطوان
المغرب

ابن التلميذ، أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد

(466هـ/1074م - 560هـ/1164م)

هو موفق الملك أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن هبة الله بن إبراهيم بن علي بن التلميذ النصراني الطبيب المعروف بأمين الدولة البغدادي، الطبيب الحكيم الأديب. كان أوحد زمانه في صناعة الطب، ومباشرة أعمالها، متفنّنا في علوم كثيرة، حكيما أديبا شاعرًا. وكان يكتب خطًا منسوبًا، وعارفا بالفارسية واليونانية والسريانية، متضلعًا بالعربية، وله النظم الرائق، والنثر الفائق، ونثره أجود من شعره.

ولد سنة 466 هـ/ 1074م. ثم درس الطب على شيخه هبة الله بن سعيد المتوفى سنة 495هـ/ 1101م صاحب «التلخيص»، و«المغني»، و«الإقناع» في الطب. وتولى البيمارستان العضدي، وخدم الخلفاء من بني العباس، وتقدم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم [معجم الأدباء، 19/ 276؛ معجم المؤلفين، 13/ 138].

وقد حاول أوحد الزمان أبو البركات الحكيم المشهور صاحب كتاب «المعتبر» في الحكمة، وكان يهوديا ثم أسلم في آخر عمره، الإيقاع بابن التلميذ عند الخليفة، لما كان بينه وبين ابن التلميذ من تنافر وتنافس؛ فكتب عن ابن التلميذ عظائم لا تصدر عن مثله، وهمّ الخليفة أن يوقع به، إلا أنه رجع عن رأيه بعد أن علم أن ذلك من تدبير أوحد الزمان لإهلاك ابن التلميذ، فغضب الخليفة وأباح لابن التلميذ دمه وماله وكتبه، فكان من كرم أخلاق ابن التلميذ أنه لم يتعرض له بشيء، وصفح عنه.

[عيون الأنباء، 349 - 350؛ وفيات الأعيان، 6/ 74؛ معجم الأدباء، 19/ 278].

ومن نوادر علمه في الطب ما نقل عن الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي بما حكاه عن أمين الدولة ابن التلميذ، قوله: «كان أمين الدولة حسن العشرة، كريم الأخلاق، عنده سخاء ومروءة، وأعمال في الطب مشهورة، منها أنه أحضرت له امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة هي أم في الممات، وكان الزمان شتاءً، فأمر بتجريدها وصب الماء المبرد عليها صبًا متتابعًا كثيرًا. ثم أمر بنقلها إلى مجلس دفيء قد بخر بالعود والند (عود يتبخر به، وهو ضرب من الطيب)، ودثرت بأصناف الفراء ساعة؛ فعطست وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها». ومنها قوله: «ودخل إليه رجل منزف يعرق دمًا في زمن الصيف، فسأل تلاميذه وكانوا قدر خمسين نفسًا فلم يعرفوا المرض، فأمره أن يأكل خبز شعير مع باذنجان مشوي، ففعل ذلك ثلاثة أيام، فبرئ. فسأله أصحابه عن العلة فقال: إن دمه قد رق ومسامه قد تفتحت، وهذا الغذاء من

شأنه تغليظ الدم وتكثيفه» [عيون الأبناء، 350].

ومن أخلاقه أن ظهر داره كان يلي بناية المدرسة النظامية بالجانب الشرقي من بغداد، فإذا مرض فقيه نقله إليه، وقام في مرضه عليه، فإذا أبلّ وهَبَ له دينارين وصرفه» [وفيات الأعيان، 6/ 76؛ عيون الأنباء، 350].

ذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة فقال: «سلطان العلماء، ومقصد العالم في علم الطب، بقراط عصره وجالينوس زمانه، ولم يكن في الماضين من بلغ مداه في الطب؛ عمّر طويلا، وعاش نبيلا جليلا؛ لطيف الروح، بعيد الهم، عالي الهمة، شيخ النصارى، وقسيسهم، ورئيسهم؛ وله في النظم كلمات رائقة. ومن شعره في علم الميزان لغز:

ما واحد، مختلف الأسماء،
يعدل في الأرض وفي السماء
يَحكم بالقسط بلا رياء
أعمى يُري الإرشاد كل راء
أخرس لا من علة وداء
يُغني عن التصريح بالإيماء
يُجيب إن ناداه ذو امتراء،
بالرفع والخفض عن النداء
يفصح إن علق في الهواء.

فقوله «مختلف الأسماء» يعني ميزان الشمس، وهو الإسطرلاب، وسائر آلات الرصد، وهو معنى قوله «يعدل في الأرض وفي السماء»، وميزان الكلام النحو، وميزان الشعر العروض، وميزان المعاني المنطق» [وفيات الأعيان، 74 ـ 6/ 69؛ أخبار العلماء لابن القفطي، 222 ـ 223؛ معجم الأدباء، 19/ 276؛ معجم المؤلفين، 13/ 138 ـ 139].

وروي عن أبي الفرج بن توما، وأبي الفرج المسيحي أنهما قالا: «كان ابن التلميذ جالسًا ونحن بين يديه إذ استأذنت عليه امرأة ومعها صبيّ صغير، فأدخلت عليه، فحين رآه بدرها فقال: «إن صبيك هذا به حرقة البول، وهو يبول الرمل»، فقالت: نعم. قال: فيستعمل كذا وكذا، وانصرفت.

قالا: فسألناه عن العلامة الدالة على أن به ذلك، وأنه لو أن الآفة في الكبد أو الطحال لكان اللون من الاستدلال مطابقًا. فقال: حين دخل رأيته يولع بإحليله ويحكّه، ووجدت أنامل يديه مشققة قاحلة، فعلمت أن الحكة لأجل الرمل، وأن تلك المادة الحادة الموجبة للحكة والحركة ربما لامست أنامله عن ولوعه بالقضيب فتقحّل وتشقّق، فحكمت بذلك فكان موافقًا [عيون الأنباء، 351].

وحدّث سديد الدين محمود بن عمرو عن فخر الدين محمد بن عبد السلام الماردينى، وكان صديقًا لأمين الدولة، قال: «كان ابن التلميذ من المتميزين بالعربية، وكان يحضر مجلسه في صناعة الطب خلق كثير يقرؤون عليه. وكان اثنان من النحاة يلازمان مجلسه، ولهما منه الإنعام والافتقاد؛ فكان من يجده من المشتغلين عليه يلحن كثيرًا في قراءته، أو ألكن اللسان، يترك أحد ذينك النحويين يقرأ عنه وهو يسمع. ثم يأمر ذلك التلميذ أيضًا بأن يقرر للنحوي شيئًا يعطيه إياه عن قراءته عنه.

وكان لأمين الدولة ولد لم يكن مدركًا لصناعة الطب، وكان في سائر أحواله بعيدًا عمّا كان فيه أبوه، فقال فيه أمين الدولة:

أشكو إلى الله صاحبًا شكسًا
تعسفه النفس، وهو يعسفها
فنحن كالشمس والهلال معًا
تكسبه النور، وهو يكسفها

ومن تأنيبه لولده:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه
وأراه أسهل ما عليك يضيع

وحدث بعض العراقيين أن لصديق أمين الدولة ولدا قد مات، وكان ذا أدب وعلم ولم يعزّه أمين الدولة. فلما اجتمع به بعد ذلك عتب عليه للمودة التي بينهما، فقال أمين الدولة: لا تلمني في هذا !، فوالله أنا أحق بالتعزية منك، إذ مات ولدك وبقي مثل ولدي» [عيون الأنباء، 353 ـ 354].

وكان ابن التلميذ يميل إلى صناعة الموسيقى ويقرّب أهلها، بالإضافة إلى صناعة الطب، كما كان أديبا شاعرا ذكر بعض شعره الذي نظمه في أغراض مختلفة كل من كتب عنه كياقوت الحموي وابن خلكان وابن أبي أصيبعة وابن القفطي.

ومما قال ملغزًا في مجمرة البخور:

كل نارٍ للشوق تضرم بالهجـ
ـر، ونار تشبُّ عند الوصالِ
فإذا الصدّ راعني سكن الوجـ
ـد، ولم يخطُرِ الغرام ببالي

ومن مشهور شعره:

يا من رماني عن قوس فرقته
بسهم هجْر غلا تلافيه
أرض لمن غاب عنك غيبته
فذاك ذنبٌ عقابه فيه

ومن شعره:

حبي سعيدًا جوهرٌ ثابت،
وحبه لي عرَضٌ زائل
به جهاتي الستّ مشغولة،
وهو إلى غيري بها مائل

وكان أبو الحسن بن التلميذ يحضر عند المقتفي بأمر الله العباسي كلّ أسبوع مرة، ويجلسه لكبر سنه. وكانت دار القوارير ببغداد من إقطاعاته، فلما ولي يحيى بن هبيرة الوزارة حلها وأخذها منه، فحضر أبو الحسن بن التلميذ يومًا عند الخليفة المقتفي على عادته؛ فلما أراد الانصراف عجز عن القيام وكان قد ضعف من الكبر، فقال له الخليفة: كبرت يا حكيم. قال: نعم كبرت وتكسرت قواريري. وهذا مثل يتماجن به أهل بغداد لمن عجز وبطل، ففطن الخليفة، وقال: رجل عمّر في خدمتنا وما تماجن قطّ بحضرتنا فلهذا التماجن سرّ. ثم فكر ساعة وسأل عن دار القوارير، فقيل له: قد حلها الوزير ابن هبيرة عنه وأخذها منه بعد أن كان الإمام المستنجد بالله قد وهبه هذه الضيعة وبقيت بيده زمانًا ثلاثة سنين، فأنكر المقتفي على ذلك إنكارًا شديدًا، وتعجب من حسن أدب ابن التلميذ وأن لا يعارض في شيء من ملكه، وردّها إليه وزاده إقطاعًا آخر.

وتوفي ابن التلميذ في سنة ستين

وخمسمائة(560هـ/ 1164م) ببغداد وله أربع وتسعون سنة. ولم يبق في بغداد من الجانبين إلا خرج في جنازته. ومات نصرانيا، وخلف نعمًا كثيرة وأموالا جزيلة، وكتبًا لا نظير لها في الجودة. فورث جميع ذلك ولده وبقي مدة.

آثاره

1 ـ أقراباذين، وهو كتاب في الأدوية جعله في عشرين بابًا. وقد اشتهر هذا الكتاب وتداوله الناس أكثر من بقية كتبه؛ 2 ـ أقرباذينه الموجز البيمارستاني، ويقع في ثلاثة عشر بابًا؛ 3 ـ المقالة الأمينية في الأدوية البيمارستانية؛ 4 ـ اختيار كتاب الحاوي للرازي؛ 5 ـ اختيار كتاب مسكويه في الأشربة؛ 6 ـ اختصار شرح جالينوس لكتاب تقدمة المعرفة لأبقراط؛ 7 ـ تتمة جوامع الاسكندرانيين لكتاب حيلة البرء في الطب لجالينوس؛ 8 ـ شرح مسائل حنين بن إسحاق على جهة التعليق؛ 9 ـ شرح أحاديث نبوية طبية؛ 10 ـ كناش في الطب؛ 11 ـ مختصر الحواشي على كتاب القانون للرئيس ابن سينا؛ 12 ـ الحواشي على كتاب المائة في الصناعة الطبية لعيسى بن يحي الجرجاني المسيحي؛ 13 ـ التعاليق على كتّاب المنهاج لابن جزلة؛ 14 ـ مقالة في الفصد؛ 15 ـ المختار من كتاب إبدال الأدوية لجالينوس؛ 16 ـ ديوان شعر؛ 17 ـ ديوان رسائل، مجلد ضخم الخ...

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت د. ت، منشورات دار مكتبة الحياة، 349 ـ 371؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، 6/ 69 ـ 77؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، 19/ 276، 278، 286؛ ● ابن القفطي، أخبار العلماء، 222 ـ 223؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، بيروت، د. ت، دار إحياء التراث العربي، 2/ 505؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 13/ 138 ـ 139.

د. أسامة ناصر النقشبندي
دار التراث والمخطوطات ـ بغداد ـ العراق

التليلي، البشير

(1354هـ ـ 1935م / 1406هـ ـ 1986م)

ولد البشير التليلي المؤرخ الباحث بميدون (جزيرة جربة) في 21 سبتمبر 1935، وباشر تعلّمه خلال المرحلة الابتدائية بقريته لكي يلتحق بتونس العاصمة لإتمام دراسته الثانويّة، فتحصّل على شهادة الباكالوريا سنة 1959، وإزاء تعلّقه بمواصلة تعلمه الجامعي التحق بجامعة السربون بفرنسا، ومنها تحصّل على الإجازة في الفلسفة؛ كما سجّل بجامعة

سترازبورغ، ومنها تحصّل على الإجازة في علم الاجتماع. وبتدخّل خاصّ من أستاذه هنري لوفافر Henri Lefèvre التحق بنيس حيث أطّره الأستاذ أندري نوشي André Nouchi المؤرّخ في تاريخ الجزائر وقسطنطينة تحديدا.

ويبدو أنّ مهمّة الأستاذ نوشي لم تكن صعبة في تحويل وجهة المترجم له من علم الاجتماع والفلسفة لكي يصيّره مؤرخا، سيّما أنّ العلوم الإنسانيّة قد بدأت آنذاك تنفتح تدريجيّا على عديد العلوم الرديفة مثل علم الاجتماع والديمغرافيا التاريخيّة والأنتروبولوجيا وعلم الآثار. بحيث تستند إليها بل تستمدّ منها أدوات فاعلة في تطوير هذه العلوم وإثرائها. ولئن بدت هذه المهمّة العلميّة يسيرة نسبيّا فإنّها ستعرقل جزئيا بفعل مواقف البشير التليلي السياسيّة ونضاله إلى جانب قوى «الرفض الشبابيّة» منذ النصف الثاني من سنوات «الستّين». فقد كان المترجم له عضوا في فرع «الاتحاد العام لطلبة تونس» بسترازبورغ، وعضوا في هيئة «الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا»، وعضوا مؤسّسا لجمعيّة «عدالة وسلم في فلسطين»، فضلا عن نضاله في «جمعيّة الموافقيّة الدوليّة» حتّى حلّها. وإذا كانت سنوات 1967 (حزيران) و1968 (ماي) «ساخنة» سياسيّا. فقد أورث ذلك قرارا يحظر بقاءه بفرنسا من جوان 1968 إلى نوفمبر 1969، فالتحق في الأثناء بجامعة هيدنبارغ الألمانيّة وأكسفورد الإنقليزية.

إنّ هذه العراقيل لم تمنعه في الواقع من تتويج جهوده بمناقشة أطروحة الحلقة الثالثة في آخر 1968 حول «العلاقات الثقافيّة والإيديولوجيّة بين الشرق والغرب بتونس خلال القرن التاسع عشر (1830 ـ 1880) (طبعت باللغة الفرنسية ـ تونس 1974، 736 ص)، وكذلك بمناقشة ملحق للبحث السابق يحمل عنوان: ثقافة وإيديولوجيا ومفكرون تونسيون خلال النصف الأوّل في القرن التاسع عشر، ممّا أهّله للحصول على دكتوراه الدولة، وذلك سنة 1970.

وقد خلّف البشير التليلي، الذي توفّي إثر حادث مرور جدّ يوم 3 ديسمبر 1986 سجلاً حافلا على صغر سنّه عند الوفاة، سواء بوصفه أستاذا مربّيا، أو باحثا جادّا، أو مؤطرا حازما في العلوم التاريخيّة.

فقد انتدب بداية معيدا بجامعة نيس أثناء إعداده لأطروحته، ثمّ رسخت قدمه بالجامعة التونسيّة منذ انتدابه في 13 نوفمبر 1970 أستاذا مساعدا بها. وقد اهتمّ في البداية بتدريس المسائل التي شغلته وحظيت باهتمامه في أطروحته، إذ رغب في إفادة طلبة قسم التاريخ بدروس حول الأسس الثقافيّة والإيديولوجيّة للنهضة في العالم الإسلامي المتوسّطي وتونس قبل الاحتلال، وهو موضوع حاول أن يجدّد فيه ليبيّن أنّ النهضة هي بالأساس وليدة المخاض الذي عرفه المجتمع العربي الإسلامي والأزمات التي مرّ بها منذ منتصف القرن التاسع عشر. غير أنّ المترجم له سريعا ما ترك هذا الاختصاص المرتبط ببحوثه الأولى لكي تنزلق دروسه تدريجيا نحو الفترة الاستعمارية بالذات فصارت حلقاته الدراسية تهتم بالتشكيلات السياسيّة والمجموعات الفكريّة والوحدات

الاجتماعيّة المرتبطة بتاريخ تونس المعاصر عموما.

وربّما ارتبط إبحار الأستاذ التليلي نحو اختصاص جديد يهمّ التاريخ المعاصر بمفارقات عدّة: فقد كان ثمّة أساتذة عدّة بالجامعة التونسيّة ممن اختصّوا في ميدان بحوثه وتدريسه، ونهلوا من النهضة ببعديها التاريخي والحضاريّ، وكانوا يحملون في ذات الوقت على الأستاذ الذي جاء حديثا من فرنسا وعلى أفكاره، سيّما أنه كان يدرّس مسألة «النهضة في العالم العربي الإسلامي» باللغة الفرنسيّة، وليس غريبا أن تبرز تجاهه حساسيّة مفرطة سيّما من قبل أساتذة قسم العربيّة داخل الجامعة. وكان المترجم له يبادلهم الاحتراز نفسه خاصّة أنه كان في وقت ما يعادي «المركزيّة العروبيّة»، ويسير أكثر في سياق «المركزيّة الأوروبيّة» والفرنسيّة، تخصيصًا راغبا في أن يلعب دورا معتبرا كحلقة وصل بين الجامعة التونسيّة والجامعة الفرنسيّة وذلك عبر تبادل وفود الطلبة والأساتذة فضلا عن الخبرات والتجارب لا سيّما ضمن قسم التاريخ الذي أشرف على رئاسته فيما بين 1974 و 1980.

وقد عرف مسار المؤرّخ الباحث أيضًا المنعرج ذاته، فقد ارتبطت أبحاثه الأولى بالقراءات الجديدة التي حاول أن يقدّمها لحركة النهضة العربيّة في سياقها العربي الإسلامي من جهة والأورو - متوسّطي من جهة ثانية. كما ارتبطت أيضًا بالقراءات النقديّة التي أنجزها حول عدد من مفكّري النخبة الإصلاحيّة وروّادها (من أمثال خير الدين وابن أبي الضياف وبيرم الخامس إلخ...) عبر الانطلاق من قضايا مخصوصة تهمّ البحث في العمران والمرأة ومفهوم الأمّة والحكومة الجيّدة والمحتويات الاقتصاديّة وغيرها... وفي كلّ هذه الأبحاث كان البشير التليلي ناقدا للأفكار السائدة، حاملا على المفكّر «الكلاسيكي» الذي كان يعتبر التاريخ مجرّد محطّات زمنيّة وتعاقب أشخاص لا غير. فصارت مقالاته (14 من جملة 47 مقالة) التي كتبت حول الفكر الإصلاحي بتونس وبالإمبراطورية العثمانية وعلاقة ذلك بأوروبا والمحيط المتوسّطي، مراجع يستند إليها ويعتدّ بها فضلا عن أطروحته. ثمّ غلبت تدريجيًا الأبحاث المهتمّة بالتاريخ التونسي - المتوسّطي المعاصر وبالتشكيلات السياسية اليمينيّة واليساريّة التي ظهرت خلال النصف الأوّل من القرن العشرين، وقد عمل البشير التليلي ضمن السياق على الابتعاد عن الرسوم التاريخيّة الجاهزة والقراءات المتعجّلة التي تصنّف الأحداث ضمن خانة بيضاء أو أخرى سوداء لا غير، معتبرا أنّ مهمّة المؤرّخ ودوره الأساسي يكمن خاصّة في «إعادة التفكير في التاريخ وليس إعادة كتاباته». ولعلّ أهمّ تجديداته في ميدان الكتابة التاريخيّة تكمن في انفتاح أبحاثه على بلدان المغرب العربي جميعها وعلى البحوث الجهويّة والمواضيع الأحاديّة الموضوع، وعلى الأقليّات العرقيّة والفكريّة، وربط جميع ذلك بالعلاقات بين الشرق والغرب، والشمال - جنوب.

كما جدّد المترجم له كثيرا في المنهجيّة التاريخيّة المعتمدة، فأولى أهميّة خاصّة إلى المنهج المقارن بالنظر إلى ما يقدّمه من ثراء، وباعتباره يمكّن من تجاوز الحقائق التي تبدو

نهائيّة وثابتة وهي ذلك، ودعّم هذا المنهج بآخر يقوم على تعدّد مستويات التحليل وعلى تداخل العوامل والعناصر المفسّرة للحدث التاريخي بعيدا «عن الدغمائيّة والتحجّر» حسبما كان يحلو له أن يقول.

وبديهي أن لا يشاطر هذه الآراء كثيرون. فقد عاب عليه البعض إهماله العودة إلى الوثائق الرسميّة وغير الرّسميّة مع العمل على نقدها. وأخذ عليه آخرون انتحاله آراء الآخرين وترجمتها إلى اللغة الفرنسية لا غير، دون العمل على مقارنتها بكتابات أخرى، كما عيب عليه ترصيف مقالات المجلاّت والجرائد في كتاباته، وهي مقالات من دوريّات لا تخلو بدورها من مآخذ إذ هي في نهاية الأمر أبواق لتشكيلات سياسيّة رسميّة أو شبه رسميّة يجب التعامل معها بحذر؛ . . . كما عيب عليه أيضا أنّه كان لا يولي أهمّيّة للتصانيف التاريخيّة التأليفيّة على كثرة إنتاجه وغزارته، وأقصى ما كان يعمد إليه المترجم له في أحيان كثيرة هو إعادة تجميع مقالاته المنشورة وإصدارها مجدّدا في كتب دون أن يغيّر فيها شيئا.

ويبدو أنّ مثل هذه المآخذ، التي أورثت كذلك توتّرا في العلاقات الشخصيّة مع عدّة وجوه جامعيّة، لم تزعزعه عن قناعاته في شيء، إذ واصل الدعوة إلى ما يراه صائبا في عديد الملتقيات التي شارك فيها بتونس أو فرنسا أو إيطاليا أو بغداد 1973 أو بيروت 1975 أو الجزائر 1978 ـ 1979 أو مكسيكو 1976 أو غيرها من العواصم الجامعيّة. كما واصل بثّ أفكاره عبر أبحاثه التي كان ينشرها بعديد الدوريات المختصّة ببلدان البحر الأبيض المتوسّط لا سيّما بالكراسات التونسيّة الصادرة عن كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، وهي الدوريّة التي أشرف على رئاسة تحريرها فيما بين 1972 و 1981م.

ولم يخرج دور البشير التليلي المؤطّر عن المسار العام الذي اختطّه المربّي، والباحث أيضا. فقد جدّد المترجم له في المواضيع التي أنجزها الطلبة وكنت أحدهم، تحت إشرافه. فمن جملة 29 بحثا أشرف عليها، اهتمّت 7 بحوث منها فقط بالفترة الحديثة، ومن الأكيد أنّ النقص في إطار التدريس بالنسبة إلى الفترة المعاصرة كان من موجبات هذا التوجه. غير أنّنا نعتقد أيضا أنّ رغبة المؤطّر ذاته في تجديد الكتابة التاريخيّة قد دفعت إلى ذلك أيضا، ذلك أنّ الأبحاث التي كانت تعدّ تحت إشرافه كانت في الواقع عنوان هاجسه ومحطّ أفكاره. . . فكثيرة هي التي اهتمّت بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وكثيرة هي التي تعمّقت في المسائل النقابيّة والثقافيّة (مسألة الهويّة)، وكثيرة هي التي اختارت الإبحار في مسائل تهمّ التاريخ المقارن . . . وجميعها مواضيع لم تعهدها الجامعة التونسيّة آنذاك، وعلى أيّ حال خالفت السائد. بل إنّ المترجم له كان من الأوائل الذي شجّع أحد طلبته سنة 1986م على ارتياد ما اصطلح على تسميته بـ «التاريخ الآني»، فناقش تحت إشرافه بحثا حول حركة الديمقراطيين الاشتراكيين من التأسيس إلى المؤتمر الأوّل سنة 1983م. فكان له السبق في هذا المضمار. كما اهتمّت أبحاث طلبته بالدراسات الجهويّة، وكذلك بدراسة مختلف التشكيلات السياسيّة اليمينيّة

واليساريّة، تونسيّة كانت أو أجنبيّة، تبعًا لاقتناع المترجم له بدور المثاقفة بشتّى أوجهها وإقراره عن صواب أنّ الحركة السياسيّة بالبلاد ليست صنوا للحركة الوطنيّة.

على أنّ البشير التليلي الذي حمل الأفكار الليبيرالية منذ الستّينات وكان يلتذّ بمشاكسة السائد من الأفكار وأصحابهم، وجاء من فرنسا داعية إلى حقّ الآخر في الاختلاف، صار هو الآخر بمرور الزمن تدريجيًا ينكر على الآخرين هذا الحقّ ولا سيّما على طلبته. ويبقى المؤرّخ البشير التليلي على حدّة مزاجه واعتداده برأيه لا غير من الأساتذة الأفاضل الذين أضافوا الكثير إلى الجامعة التونسيّة، ومثّلوا أحد أركانها في ميدان تخصّصه على الأقلّ مما جعل البعض يعدّه «بدون منازع أبرز ألمع وجوه جامعتنا» سيّما أنّ مضامين البحث التاريخي ومناهجه قد انفتحت على يديه على آفاق أرحب شكلا ومضمونا بغاية التباين كلّيا عن دعاة السير في طرق معبّدة.

آثاره

نشر تباعا التآليف التالية: 1 ـ دراسات في التاريخ الاجتماعي التونسي خلال القرن التاسع عشر، طبع بالفرنسية، تونس 1974، 322 ص؛ 2 ـ الاشتراكيون والشباب التونسي قبيل الحرب الكبرى 1911 ـ 1913، بالفرنسية، تونس 1974، 94 ص؛ 3 ـ الأزمات والتحوّلات بالعالم الإسلامي المتوسّطي المعاصر 1907 ـ 1918، (بالفرنسية، تونس 1978، جزءان، 540ص + 490 ص)؛ 4 ـ الحركة المعادية للفاشيّة 1939، (بالفرنسيّة، تونس 1980، 147 ص)؛ 5 ـ أصدر سنة 1984 بتونس، القوميات، الاشتراكية والحركة النقابيّة بالمغرب الأقصى في سنوات 1919 ـ 1934 (بالفرنسيّة، جزءان 362 ص + 398 ص).

المصادر والمراجع

- محمد الطالبي، البشير التليلي في ذمّة اللّه، الكراسات التونسيّة عدد 1986، 135 ـ 136؛
- Ben Hamida Abdesslam: «L'apport de Béchir Tlili à l'historiographie Tunisienne», in les Cahiers de Tunisie n°. 143-144, 1988, numéro spécial : mélanges Béchir Tlili.
- Ben Hamida Abdessalem et El Annabi Hassen : «Liste des travaux de Béchir Tlili», in les Cahiers de Tunisie, numéro spécial : Mélanges Béchir Tlili.
- Hamza Raouf: «A La mémoire d'un ancien soixante huitard» in les Cahiers de Tunisie, numéro spécial : Mélanges Béchir Tlili.
- Nouschi André: «Mélanges Tlili», in les Cahiers de Tinisie, numéro spécial.
- Snoussi, Mohamed Larbi, «Une synthèse inachevée», in la Presse de Tunisie du 7-12-1986.
- Senoussi Mohamed Larbi: «En hommage Béchir Tlili son oeuvre et sa méthode d'investigation», in la Tunisie de 1939 à 1945, actes

du 4ème séminaire sur l'histoire du mouvement national, juin 1987, Tunis 1989.

- Temimi Abdeljalil: «La thèse de M. Béchir Tlili ou la décadence du métier d'historien», in Revue d'histoire maghrébine, nº 4, Juillet 1975.
- Temimi Abdeljalil: «Lettre de M. A. Nouschi au directeur de la revue et réponse de M. A. Témimi», in Revue d'histoire maghrébine nº 5, janvier 1976.

د. الكراي القسنطيني
جامعة تونس

■ تمام الرازي، أبو القاسم بن محمد بن عبد اللـه

(330هـ/941م - 414هـ/1023م) ■ ■ ■

تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن الجنيد الرازي، البجلي، أبو القاسم، من محدثي دمشق، ومن حفاظ الحديث. ينتمي الى أصل مغربي. اشتهر بقوة الحفظ وكثرة الرواية ونقل الخبر، مع الثقة والأمانة والإفادة. وقد ترك مصنفا بارزا عني فيه بفوائد الحديث.

ولد في ثالث المحرم سنة ثلاثين وثلاثمائة للهجرة الشريفة. وتوفي سنة أربع عشرة وأربعمائة [كحالة، معجم المؤلفين، 3/ 93؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 87].

قال الكتاني: كان ثقة، لم أر أحفظ منه في حديث الشاميين. وقال أبو علي الأهوازي: ما رأيت مثله في معناه. وقال أبو بكر الحداد: ما رأينا مثل تمام في الحفظ والخبر [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 3/ 200].

روى عن خيثمة، وأبي علي الحضايري، وطبقتهما [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 3/ 200].

■ آثاره

1 - فوايد أو الفوائد في الحديث (ثلاثون جزءا)، منه جزء مخطوط في شستربتي 3445، ومنه الأول والثاني والثالث والرابع مخطوطات في مكتبة زهير الشاويش ببيروت [الزركلي، الأعلام، 2/ 87]؛ 2 - أخبار الرهبان [كحالة، معجم المؤلفين، 3/ 93؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 87؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1296؛ البغدادي، إيضاح المكنون، 4/ 208].

■ المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، كتاب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● حاجي خليفة،

مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة بيروت، لبنان؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بغداد - بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة - تونس

أبو تمام الطائي، حبيب بن أوس

(188هـ/804م - 232هـ/846م)

أحد فحول شعراء العرب على مرّ العصور، مؤرّخ شعري، نقّادة أدبي، تملأ أخباره وأشعاره وتقويمهما مئات الصفحات في كتب الشعر والأدب والتاريخ والسّير منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين وحتّى اليوم. وإذا كان المتنبّي قد صار رمزا شعريّا عربيا، فإنّ أبا تمام يشبه «الخضر» الثقافي، يظهر في كلّ زمان وفي كلّ مكان على ساحة الثقافة العربيّة.

اختُلف في عدّة مفردات من سيرة حياته وتقويم شعره. ويبدأ الخلاف حول أصله. فقد عدّه البعض عربيا طائيا صليبة. وأورد له ابن خلكان (ت 681هـ) واحدا وعشرين جدا، عابرا (جلهمة) من طيّىء وحتّى يعرب بن قحطان. وقال البعض إنّ أباه كان مسيحيّا، ويجعله البعض يونانيّا ويسميه تدوس (أو بالثاء)، أو ثيودوسيوس. و«يتساهل» البعض فيجعله نبطيا. ويأتي الاختلاف الآخر في سنتي ولادته ووفاته. فقد وردت للولادة السنوات: 172، 180، 182، 188، 190، 192هـ. وللوفاة السنوات 228 - 229، 231 - 232، 236هـ. وورد اختلاف في مكانيّ ولادته ووفاته. وإذا كان الاتّفاق على اسم قريته «جاسم» التي تحدد أغلبيّة المؤرّخين موقعها على بعد نحو خمسين كيلومترا من دمشق في الطريق إلى طبرية، فإنّ أبا الفرج الأصفهاني يجعلها من قرى منبج التي تبعد عن حلب بنحو ستين كيلومترا. وإذا كان المتفق عليه أنّه توفي بالموصل، فإنّنا لا نعدم من قال بأنّه توفي بسُرَّ من رَأى (مدينة «سامراء» الحالية).

ويبدو أنّ أسرته انتقلت، وهو صبي، إلى دمشق.

واختلف في مهنة أبيه بين عطّار وخمّار.

واختلف في أوّل مهن أبي تمام نفسه: أكان صبي خمّار أم صبي حائك. ويظهر أنّه زار مصر، في الأقلّ مرّتين، مرّة وهو صبي، وتصرُّ أسطورة أن تجعله يمتهن السقاية في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط. وعندما كان بمصر بين سنتي 211 ـ 214هـ، واتصل بواليها عبد الله بن طاهر الخزاعي ولاء (182 ـ 230هـ) ومدحه. ومدح عياش بن لهيعة الحضْرمي الذي عاد فهجاه لأنّه لم يدفع له ثمن مدحه الأول. وكما تفتقت شاعريّة أبي تمام بمصر بدأ هناك أوّل الفتوق بينه وبين الشعراء.

غادر مصر إلى حمص، وبها التقى الشاعر ديك الجن (161 ـ 230هـ/ 778 ـ 750م) وأخذ عنه. وفي سنة 215هـ كان الخليفة المأمون قد رجع (ت 218هـ) من غزو الروم عن طريق دمشق، فقصده أبو تمام مادحا. لكنّ المأمون أعرض عنه لميله إلى العلويين. مع أنّ ما أشيع عن تشيعه لم يأت إلاّ انتهازيّة وتقرّبا من المأمون، عندما أعلن سنة 212هـ تفضيل الإمام علي رضي الله عنه على الخليفتين: أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما.

اتصل أبو تمام بشيوخ قبيلة طيِّء ومدحهم. ومدح ورثى رجال الدولة في عصره مثل: أبي دُلف العجْلي (ت 226هـ/ 840م)، وخالد بن يزيد الشيباني (ت 230هـ) ووالي الجزيرة الفراتية مالك بن طوق التغلبي (ت 259هـ/ 872م)، ومحمد بن حسان الضبي (ت ح 230هـ/ ح 844م)، والوزير والأديب محمد بن عبد الملك الزيات (ت 233هـ). ورثى محمد بن حُميْد الطوسي حين قتل سنة 214هـ في حرب ضدّ الخارج على قانون الدولة بابك الخرّمي.

وتقول المصادر الحديثة إنّه تردد، في العقد الثاني من القرن الثالث على الرقّة، والموصل يمدح رجالهما. وأنّه كان يسرع في العودة إلى الموصل، متنقّلا بينهما وبين موطنه. ويقول عمر فروخ إنّه «قضى معظم أوقاته في الموصل».

وبعد وفاة المأمون سنة 218هـ، وتولي المعتصم سدّة الخلافة، أخذ نجم أبي تمام الشعري يُضيء الآفاق، فاستقدمه عنده، وصار شاعره الخاص، يؤرّخ أعماله شعرا. وصحبه في فتح عمورية، وقال قصيدته البائيّة الشهيرة، التي عدّها بعض مؤرّخي الأدب المعاصرين مثل حنا فاخوري، وشوقي ضيف، واحدة من ملاحم العرب النادرة في الأدب العربي.

وفي آخر سنة أو سنتين من عمره، سعى صديقه المقرب الحسن بن رجاء (ت 250هـ) كاتب الوزير الزيات في توفير التطواف على أبي تمام بين مدن بلاد الشام، والجزيرة، ومصر، وخراسان، فولاه البريد بالموصل. وهنا لا نعرف عن حياته سوى علاقته مع رجلين أحدهما الحسن بن وهب الذي بقي يتحف أبا تمام بالطرف، فيتحفه الشاعر بقصائد مدح. وقد أرسل أبو تمام إلى ابن وهب ثلاث قصائد مجموع أبياتها (102) هي كلّ ديوانه الموصلي. والرجل الآخر هو الشاعر مخْلد بن بكّار الموصلي (كان حيّا سنة 232هـ) الذي هجا أبا تمام هجاء مرّا قاسيا. ولم يجبه أبو تمام كي لا يرفع من قيمته. وبالموصل توفي في آخر سنة 231هـ أو في المحرم من 232هـ حسب توقيت الشاعر الموصلي ابن بكّار.

لقد تنبه الأدباء والنقاد والمؤرّخون القدامى إلى أنّ أبا تمام قد أحدث جديدا في الشعر العربي. حتّى أسموا هذا الجديد بـ«مذهب الطائي». وقد صُنّف في هذا المذهب عديد من كتب الأدب والنقد والموازنة معه أو عليه. الأمر الذي سهل على النقاد المحدثين عمليّة «تنظير» أدب وشعر أبي تمام، فقالوا إنّ مذهبه يتسم بصفتين رئيستين: إغراقه في البديع إلى حدّ التعسف. وإلحاحه على المعاني الدقيقة في تصوير أفكاره العميقة، ولجوؤه كثيرا إلى قانوني التضاد والقياس.

لقد ساعدت عوامل ذاتية وأخرى موضوعيّة في تشكيل شخصيّة أبي تمام الشعرية والأدبيّة والثقافيّة. فقد كان، كما قال القدامى، ذا ذكاء وقّاد وحافظة قويّة، مكنتاه من استيعاب وحفظ كثير من شعر العرب الجاهليين والإسلاميين ومن تلوهم في العصر الأموي. هذا إلى أنّه وضع لنفسه نهجا تثقيفيا ذاتيا بدأ به منذ سماعه حلقات التعليم في جامع عمرو بمصر. كما لا يجوز إغفال النقلة النوعيّة التاريخيّة في الثقافة العربيّة - الإسلاميّة في أواخر القرن الثاني، وبداية القرن الثالث. فقد نشأ أبو تمام في زمن «بيت الحكمة» ببغداد حيث برزت حركة للترجمة والتأليف والنشر. ووضعت مصنفات في الطب، والصيدلة، والرياضيات، والهندسة، والفلسفة، والمنطق وأصبحت في متناول المثقفين العرب - المسلمين.

فأبو تمام ابن بيئته الثقافيّة. وإن عدّه المحدثون «حداثيّا» فهو كذلك لأنّ علوما ومعارف جديدة استحدثت في الثقافة العربيّة.

ومن آراء القدامى في أبي تمام، السلبيّة، ما قاله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي (150 - ح230هـ) وهو معاصر لأبي تمام وأكبر منه. قال وقد سمع لأبي تمام: «إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل»، وما ردّده أبو سعيد الضرير أحمد بن أبي خالد البغدادي تلميذ ابن الأعرابي ومعاصر لأبي تمام، وكان صاحب السؤال الشهير: «يا أبا تمام، لم لا تقول من الشعر ما يُفهم؟» فأجابه أبو تمام بجواب حُمّل أكثر ممّا يستحق على مدى أكثر من ألف سنة: «وأنت يا أبا سعيد، لم لا تفهم من الشعر ما يقال؟». وكان أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني - ثعلب - (200 - 291هـ) من أشدّ الطاعنين على أبي تمام في البدء، ثمّ صلح رأيه فيه.

وقد أعلن أبو ذكوان القاسم بن إسماعيل (ق3هـ) حيرته: «فإمّا أن يكون هذا الرجل أشعر الناس جميعا، وإمّا أن يكون الناس جميعا أشعر منه». وسمع علي بن مهدي الكسوري (كان حيّا 289هـ/ 902م) بيتا لأبي تمام فقال: «لعمري إن هذا لفظ سخيف».

وقد ناصب العداء أبا تمام عددٌ من الشعراء المعاصرين حسدا له، وخوفا من شهرته. منهم، دعبل بن علي الخُزاعي (ت. 246هـ) الذي قال: «لم يكن أبو تمام شاعرا، وإنّما كان خطيبا، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر». وقال: «ثلث شعره سرقة وثلثه غث وثلثه صالح». والشاعر عبد الصمد بن المعذل البصري (ت 240هـ) الذي ما إن سمع بتوجُّه أبي تمام إلى البصرة حتّى أرسل إليه هجاء مريرا، امتنع معه من دخول البصرة.

أمّا الآراء الإيجابيّة، فقول محمد بن عبد الملك الزيات (ت 233هـ) الوزير والأديب

والشاعر، وكان من أشد المعجبين بأبي تمام: «إنّك لتحلي شعرك من جواهر لفظك، وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب، وما يدّخر شيء من جزيل المكافأة إلاّ ويصغر عند شعرك في الموازنة» وتلميذه الشاعر الكبير أبو عبادة البحتري (ت 284هـ) الذي دافع عنه بوجه الخصوم، وأخذ على ثعلب نقده لأبي تمام وقال «إنّه - ثعلب - لا علم له بالشعر» و«إنّما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه». وكذلك اللغوي والأديب الكبير أبو العباس المبرّد (ت 286هـ) الذي سئل عن الطائيين، أبي تمام والبحتري فقال: «لأبي تمام استخراجات لطيفة ومعان طريفة . . . وهو صحيح الخاطر، حسن الانتزاع . . . يقول النادر والبارد. وما أشبّه أبا تمام إلاّ بغائص يخرج الدرّ والمخشلبة» أي الرديء والمهشم من الحلي. وقال عبد اللّه بن المعتز (ت 296هـ): «. . . وأكثر ما له جيد، والرديء الذي له إنّما هو شيء يستغلق لفظه فقط، فأمّا أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا».

آثاره

أ - المطبوعة:

1 - الديوان، بومبي 1856، القاهرة 1292هـ/ 1878م، 1941، 1942، بيروت 1889، 1323هـ/ 1905م، 1950. وله طبعات عدّة أُخر؛ 2 - شروح الديوان، شرح الخطيب التبريزي 4ج، تحقيق محمد عبده عزام، القاهرة 51، 1957، ط2، 64، 1965، ط3، 1972. وشرح الصولي، تحقيق د. خلف رشيد نعمان، 3ج، بغداد ج1 و2، 1978 وج 3، 1982؛ 3 - ديوان الحماسة، منتخبات منه في ليدن/ هولندا 1748 و 1767، ديوان الحماسة، 2 جد، بون 1828 - 1847، الهند 1، كلكتا، 1856، 2 لكناو 1293هـ/ 1877م، 3، بومبي 1299، القاهرة 1286هـ/ 1869م، 1292هـ/ 1875م، 1325هـ/ 1907م، 1331هـ، 1335هـ، و1955م، بيروت 1306هـ/ 1888م، موسكو 1912؛ 4 - شروح ديوان الحماسة، مط. الصفهاي؛ الهند، ق7م/ 11هـ، شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي بون 1828 و1851 مع ترجمة ألمانيّة، القاهرة 1296هـ/ 1878م، 1938، 3ج و1955، 2ج، التنبيه في شرح مشكل أبيات الحماسة لابن جني الموصلي، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة 1971، المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة لابن جني، دمشق 1348هـ/ 1929م؛ 5 - نقائض جرير والأخطل، منسوب إلى أبي تمام، بيروت 1922؛ 6 - همزيات أبي تمام، القاهرة 1940، ط2، 1953؛ 7 - الوحشيات، أو الحماسة الصغرى، القاهرة، ط1، 1963 وط2، 1970.

ب - المخطوطة:

- من ديوان أبي تمام وشروحه، وديوان الحماسة وشروحه المطبوعة، نسخ عديدة في الوطن العربي، وتركيا، وروسيا، وأوروبا، والولايات المتحدة. وهذه أسماء مصنفات أبي تمام التي ما تزال مخطوطة أو هي ضائعة: 8 - الاختيارات، جاء في الوساطة للآمدي (ت 370هـ)، والفهرست لابن النديم

(ت حوالي 385هـ) هذه الاختيارات الشعريّة لأبي تمام؛ 9 ـ اختيار شعراء الفحول؛ 10 ـ اختيار الشعراء المقلين والمغمورين؛ 11 ـ الاختيار القبائلي الأكبر، اختار فيه من كل قبيلة قصيدة؛ 12 ـ القبائلي، اختار فيه قطعاً من محاسن أشعار القبائل. ومن اختيار الشعراء الفحول نسخة خطية في مشهد 15، 83، 29، رقم 4.

المصادر والمراجع

● الآمدي، «الموازنة بين أبي تمام والبحتري»، بيروت د.ت، عن ط. القاهرة 1944، تحقيق محمد محيي عبد الحميد؛ ● م.ن. «المؤتلف والمختلف»، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة 1961، ظ.ك، ص 303؛ ● الطائي، خضر، أبو تمام الطائي، بغداد 1966؛ ● عواد، كركيس، وعواد، ميخائيل، أبو تمام الطائي، حياته وشعره في المراجع العربيّة والأجنبيّة، بغداد 1971؛ ● الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق أحمد مصطفى المراغي بك، القاهرة 1932، ص 11، 23، 141، 150؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، ط4، 1979، 2/ 165؛ ● الاصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مؤسسة جمال، بيروت، مصور عن ط. دار الكتب، 16/ 382 ـ 399، (ترجمته)، ج19، 20، ـ 23، ظ. ك.، ص 340 ـ 341، 458، 431 ـ 432 و 476 على التوالي؛ ● القالي، أبو علي، أمالي القالي وذيل الأمالي والنوادر، دار الفكر، بيروت، د.ت، في آخر كتاب التنبيه، ظ.ك، ص 149؛ ● التوحيدي، أبو حيان، الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت 3/ 185 ـ 186؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت 1986، 10/ 299 ـ 301، 308 وظ. مجلد الفهارس ص 119؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربيّة، بيروت 1983، 2/ 374 ـ 377؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. د. عبد الحليم النجار، القاهرة 1968، 1/ 77 ـ 80؛ ● ديوان الحماسة، 2/ 71 ـ 77 (ترجمته)؛ ● د. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، القاهرة 1973، ج2، العصر العباسي الأول، ص 268 ـ 289؛ ● فاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، مط. البولسيّة، بيروت، ط6، د.ت، ص 476 ـ 478؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، بيروت، ط1، 1969، 2/ 251 ـ 268 (ترجمته)، وظ. ك. ص 628؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت عن ط. الخانجي، القاهرة 1931، 8/ 248 ـ 253؛ ● البهبيتي، نجيب محمد، تاريخ الشعر العربي حتّى آخر القرن الثالث الهجري، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص 490 ـ 503 (ترجمته)، وظ. ك، ص 524.

بسام إدريس الجلبي
الموصل ـ العراق

التمبوكتي، محمد بابا بن محمد الأمين

(ت 1014هـ/1605م (أو) 1044هـ/1634م)

هو محمّد بابا بن محمد الأمين بن حبيب اللّه بن الفقيه المختار التمبوكتي، ولد بمدينة تمبكتو، وهي مدينة توجد الآن في شمال جمهوريّة مالي (إحدى دول غرب إفريقيا). ولهذه المدينة شأن تاريخي هام، فقد كانت منارة لإشعاع الحضارة الإسلاميّة في منطقة غرب إفريقيا منذ القرنين 10 و11هـ/ 15 و16م. وهو يدعى أيضا أحمد بابا بن محمد الأمين بدلا من محمد، ولا ندري أيّهما الصواب.

اختلف الرواة في تاريخ وفاته، فقد أورد أحمد بابير الأرواني أنّه توفّي سنة 1044هـ/ 1634م، وذكر البرتلي أنّه توفي عام 1014هـ/ 1605م. ونرجّح التاريخ الثاني بدليل أنّ جلّ أساتذته الذين أخذ منهم كالفقيه محمد الونكري عاش في القرن 15 و16م، وليس في القرن 16 و17م، كما هو مذكور عند أحمد بابير الأرواني.

تلقّى العلم على يد عدد من علماء عصره؛ فقد أخذ عن الفقيه محمد الونكري الفقه والكلام والنحو. وكان يكاتبه ويوجّه إليه أسئلة، وكان لزم كذلك الشيخ أحمد (لم نعثر على لقبه) فأخذ عنه النحو إلى أن تمكّن منه، ثم قرأ على الفقيه محمد الأمين حبلة من مختصر خليل، وأكمله على يد الفقيه محمد بن محمد كري لمّا تولّى هذا الأخير التدريس في مسجد سنكوري (سنكري)، ويعدّ هذا المسجد الجامعة التي درس فيها أحمد بابا التمبوكتي السوداني صاحب كتاب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، وغيره من العلماء الأجلاّء في تمبوكتو. كما درس «التوضيح» عن ابن حاجب، وتتلمذ عليه في «جمع الجوامع»، و«الموطّأ» و«المدوّنة» عن الفقيه عبد الرحمن بن أحمد المجتهد.

وتلقّى روايتي ورش وقالون دراية على العالم سيدي بن عبد المولى الحملال، وعلى عبد اللّه بن الفقيه أحمد برّي، حيث أعطاه هذا الأخير إجازة في الشفا والبخاري.

آثاره

لم نعثر على معلومات وفيرة بشأن نشاطه العلمي، وقال عنه أحمد بابير الأرواني: «إنّه كان مشاركا في عدد من فنون العلم»، علاوة على ذلك تحصّلنا من المصادر على عناوين لمؤلفات ينسب إليه تصنيفها، منها:

1 ـ شواهد الخزرجي؛ 2 ـ طرر على مقامات الحريري؛ 3 ـ حاشية على البخاري (لم تكمل)؛ 4 ـ قصائد في مدح الرسول؛ 5 ـ أمّا كتاب المنح الحميدة في شرح الفريدة ألفية السيوطي فقد نسب إلى أحمد بابا التمبوكتي السوداني خطأ، والأرجح أنّ هذا التأليف وضعه عالم آخر اسمه سعيد بابا بن محمد الأمين بن حبيب، ويمكن الاطّلاع

على هذا الكتاب في مركز أحمد بابا تحت رقم 429.

المصادر والمراجع

• الأروافي، أحمد بابير، السعادة الأبدية، مركز أحمد بابا، تمبوكتو، مالي؛ • البرتلي، أبو عبد الله الطالب محمد، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني، محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981؛ • الدالي، الهادي المبروك، التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، ط، 2، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، ليبيا، 2001. • دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الخامس، الترجمة العربية.

• Encyclopaedia Universalis, Corpuce 6. R-Z, France, SA, 1993, p. 3479

د. عيسى نسوكى

مركز بابا أحمد ـ مالي

التمرتاشي، شهاب الدين (شمس الدين) محمد بن عبد الله

(ت 1006هـ/1598م)

هو شهاب الدين (شمس الدين) محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن إبراهيم العمري التمرتاشي الغزي. في الأصل هو من قرية تمرطاش (تومر طاش) في خوارزم. أما المعلومات التي تتعلق بحياته فنجدها في مؤلف «خلاصة الأثر» لصاحبه المحبي، ثم جاء المؤلفون اللاحقون فكرروا هذه المعلومات نفسها. ولد التمرتاشي في غزة. وبدأ أول مراحل تعليمه هناك. وتلقى العلم على يد المفتي الشافعي شمس الدين بن المشرقي الغزي. ثم واصل تعليمه بعد ذلك في القاهرة التي ذهب إليها مرات عديدة. ونجد من الذين درس على أيديهم كلا من أمين الدين بن عبد العال، وزين الدين بن نجيم، وكذلك قنالي زاده علي أفندي (ابن الحنائي) الذي كان قاضيا في القاهرة في عام 974هـ/ 1566م. ثم عاد إلى بلاده بعد ذلك، وأصبح في طليعة أسماء علماء الحنفية.

اشتغل التمرتاشي بالتدريس والفتوى. وتخرج على يديه عدد كبير من التلاميذ. ومن بين هؤلاء نجد ابنيه صالح ومحفوظ التمرتاشي، وعبد النبي الخليلي، وبرهان الدين محمود بن أيوب الفتياني، وعبد الغفار بن يوسف العجمي، مفتي القدس، وغيرهم من العلماء المشهورين.

إذا كان المحبي بين أن التمرتاشي توفي في

نهاية شهر رجب عام 1004هـ الموافق نهاية شهر مارس عام 1596م في غزة، فإنه ذكر في «مواهب المنان» وهو شرح لـ «تحفة الأقران» كان قد أنهاه في 21 ربيع الثاني عام 1066هـ، أنه توفي في رجب عام 1006هـ، وبالتالي يكون التاريخ الذي ذكره أولا عبارة عن خطأ حدث في النسخ [آربيري، II، 45؛ مسعفة الحكام على الأحكام، مقدمة الناشر، I، 16-17]. وحسب المعلومات التي قدّمها المحبي فإنّ التمرتاشي توفي في الخامسة والستين من عمره، وبناء على ذلك يكون تاريخ مولده في عام 939هـ/ 1532م، وباعتبار أن وفاته في عام 1006هـ فإن مولده يكون في عام 941هـ.

آثاره

1 ـ تنوير الأبصار وجامع البحار، أكمل المؤلف هذا الكتاب في عام 995هـ/ 1587م. ودوّن فيه مسائل كتب الفقه المعتمدة. وبصفة خاصة يعتبر كتيّبا مهما للغاية في الفقه لكل من المفتين والقضاة. وتوجد منه نسخ مخطوطة كثيرة [مثلا: مكتبة نور عثمانية، رقم 1430 ـ 1437؛ مكتبة الدولة ببايزيد، قسم بايزيد، رقم 1894 ـ 1897؛ دار الكتب الظاهرية، رقم 2609، 3895، 7215، 8037، 8066، 8157؛ المكتبة الخديوية، رقم 1005، 1006، 6831]. وتم شرح هذا الكتاب من قبل المؤلف ومن قبل بعض العلماء الآخرين، ويأتي في طليعة هذه الشروحات ما يلي: أ. محمد بن علي الحصكفي، «خزائن الأسرار وبدائع الأفكار». يتناول فيه حتى صلوات النافلة، وذلك بسبب وفاة المؤلف. وتوجد نسخة منه في دار الكتب الظاهرية (رقم 10104). ب. محمد بن علي الحصكفي، «الدر المختار»، هو شرح مشهور للمؤلف نفسه. وتمت طباعته بشكل مستقل أو مع بعض الحواشي [استانبول 1260، 1277، 1294، 1307، 1308؛ كالكوتا 1243، 1268؛ لكنو 1280، 1293 (مع الترجمة الهندية)، 1294؛ بومباي 1278، 1309؛ لاهور 1305؛ بولاق 1254، 1272؛ القاهرة 1268، 1293، 1299، 1307، 1318، 1321]. وقد كتب العالم الحنفي ابن عابدين حاشية مشهورة ومتداولة لهذا الشرح بعنوان «رد المختار على الدر المختار» [I - V، بولاق 1272، 1286؛ I - VIII، القاهرة 1386].

ومن الذين كتبوا حواشي على «الدر المختار» نجد كلا من محمد بن عبد القادر الأنصاري [نخبة الأفكار، I - IV، دار الكتب الظاهرية، رقم 2567-2570]، وخليل بن محمد الفتال [دلائل الأسرار، دار الكتب الظاهرية، رقم 59، المجلد الثاني؛ 9496، المجلد الأول]، وإبراهيم بن مصطفى الحلبي [تحفة الأخيار، دار الكتب الظاهرية، رقم 5246، 6644، 8191، 8441، 9153، 1137؛ الخديوية، رقم 6824؛ مكتبة متحف سراي طوب قابي، قسم خزينة الأمانات، رقم 749]، وابن عبد الرزاق [سلك النضار، دار الكتب الظاهرية، رقم 6662]، وأحمد بن محمد الطهطاوي وغيرهم من العلماء. وقد تمت طباعة حاشية الطهطاوي [كالكوتا 1264؛ القاهرة 1268، 1304؛ بولاق 1254، 1269، 1283]. ج. ملا حسين بن اسكندر الرومي، «الجوهر المنير في شرح

التنوير» [دار الكتب الظاهرية، رقم 8088].
د. عبد الرزاق بن خليل بن جنيد الرومي، «منير الأفكار في شرح تنوير الأبصار». محمد بن عبد الله البورصوي، «تبصير الأنوار في شرح تنوير الأبصار». وإسماعيل بن عبد الباقي اليازجي، «مطالع الأنوار ولوامع الأفكار» [دار الكتب الظاهرية، رقم 8131].
وقام موسى بن أسعد المحاسني بنظم «تنوير الأبصار» بعنوان «خلاصة التنوير وذخيرة المحتاج والفقير»؛

2 ـ «منح الغفار شرح تنوير الأبصار»، هو شرح كتبه المؤلف لكتابه الذي تم ذكره سابقا. وتوجد منه مخطوطات مختلفة [مثلا مكتبة الدولة ببايزيد، قسم بايزيد، رقم 2050، 2316؛ قسم ولي الدين، رقم 1155، 1156؛ مكتبة جامعة استانبول المركزية، المخطوطات العربية، رقم 2279؛ مكتبة نور عثمانية، رقم 1570، 1571، 1573، 1575؛ مكتبة السليمانية، قسم عمجه زاده حسين، رقم 229، 230؛ دار الكتب الظاهرية، رقم 2571، 8301، 10837]. وقام خير الدين بن أحمد الرملي بكتابة حاشية لهذا الشرح بعنوان «لواقح الأنوار» [دار الكتب الظاهرية، رقم 8102؛ الخديوية، رقم 6911]، كما كتب ابنه نجم الدين الرملي حاشية بعنوان «نتائج الأفكار»؛

3 ـ «إعانة الحقير لزادي الفقير»: هو عبارة عن شرح كتب لمؤلف «زاد الفقير» لصاحبه ابن الهمام، وهو كتاب مختصر يتعلق بالصلاة [مكتبة الدولة ببايزيد، قسم بايزيد، رقم 1992؛ الخديوية، رقم 962، وتوجد في النهاية بعض رسائل المؤلف]؛ 4 ـ «معين المفتي في جواب المستفتي»، كتاب يتناول أكثر المواضيع التي تقابل المفتون في الفقه وعلم الكلام. وتوجد منه نسخ مخطوطة مختلفة [دار الكتب الظاهرية، رقم 5157، 8100؛ مكتبة كوبرلي، قسم فاضل أحمد باشا، رقم 692؛ المكتبة الوطنية، قسم فيض الله أفندي، رقم 1077؛ مكتبة الدولة ببايزيد، قسم بايزيد، رقم 2462]؛
5 ـ «تحفة الأقران»، عبارة عن مؤلف منظوم يدور حول الفقه الحنفي. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة Chester Beatty في إيرلندا [رقم 1/ 3352، ورق 1-15]. وتوجد منها نسخ ميكروفيلمية في كل من معهد المخطوطات العربية في القاهرة [رقم 1/ 836]، ومكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية [رقم 1/ 3352]؛
6 ـ «مواهب المنان»: هو شرح قام به المؤلف للكتاب السابق. وتوجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة Chester Beatty في إيرلندا [رقم 2/ 3352، ورق 16-284]، واستنسخت منها نسخ ميكروفيلمية، توجد الأولى منها في معهد المخطوطات العربية في الكويت [رقم 2/ 836]، بينما توجد الثانية في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية [رقم 2/ 3352]. كما توجد من الكتاب نسختان في مكتبة متحف سراي طوب قابي [قسم خزينة الأمانات، رقم 756؛ قسم روان كشكي، رقم 1602]؛
7 ـ «فتاوى التمرتاشي»: [مكتبة الملا مراد، قسم الملا مراد، رقم 1126؛ مكتبة رشيد أفندي في قيصري، رقم 421؛ دار الكتب الظاهرية، رقم 6665، 7121، 8121، 8490؛ الخديوية، رقم 1254، 6888]؛

8 ـ «مسعفة الحكام على الأحكام»: هو كتاب تم ذكره في المصادر وتسجيله في المكتبات بأسماء مثل «مسعف الحكام على الأحكام مما يتعلق بالقضاة والحكام». وهو يدور حول الفتوى والقضاة. وقد حققه صالح بن عبد الكريم بن علي الزيد ونشره تحت اسم «بغية التمام في تحقيق ودراسة مسعفة الحكام على الأحكام» [I-II، الرياض 1416/ 1996].

من مؤلفات التمرتاشي الأخرى وتلك التي لم يكملها نجد: «شرح كنز الدقائق»، و«شرح الوقاية»، و«شرح المنار»، و«عصمة الأنبياء»، و«الوصول إلى قواعد الأصول»، و«شرح الوهبانية»، و«حاشية على الدرر»، ورسائل أخرى كتبها في مواضيع مختلفة [للاطلاع على قائمة مؤلفاته انظر: محبي، IV، 19؛ مسعفة الحكام على الأحكام، مقدمة الناشر، I، 32- 47].

■ المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، نشر فريد عبد العزيز الجندي، بيروت بدون تاريخ، II، 53؛ ● التمرتاشي، محمد بن عبد الله، مسعفة الحكام على الأحكام، نشر صالح بن عبد الكريم بن علي الزيد، الرياض 1416/ 1996، I، 13-113، مقدمة الناشر؛ ● المحبي، خلاصة الأثر، IV، 18-20؛ ● الطباع، عثمان مصطفى، إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، نشر عبد اللطيف زكي أبو هاشم، غزة 1420/ 1999، IV، 87-89؛ ● هدية العارفين، II، 262؛ ● الموسوعة الفلسطينية، دمشق 1984، IV، 150؛ ● الميحي، أحمد، والببلاوي محمد، فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية، القاهرة 1306، III، 6-7، 28-29، 39، 47، 52، 88، 138، 140؛ ● الزركلي، الأعلام، VI، 239-240؛ ● الحافظ، محمد مطيع، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: الفقه الحنفي، دمشق 1401/ 1981، I، 25-26، 136-139، 233-236، 267، 274، 293-294، 324-330، 340-341، II، 13-15، 133-134، 173-174، 187، 214-216، 242-245، 252- 253؛

- Brockelmann, GAL, II, 404, Suppl., II, 427-429;
- Arthur J. Arberry, The Chester Beatty Library: A Handlist of the Arabic Manuscripts, Dublin 1954, II, 45;
- Ahmet Özel, Hanefi Fikih Alimleri, Ankara 1990, p. 124-125.

د. أحمد أوزال
هيئة الموسوعة الإسلامية ـ اسطنبول ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي

■ التُّمرتاشي، ظهير الدين أبو العباس بن أحمد بن إسماعيل

■ ■ ■

(ت 601هـ/1204م)

هو ظهير الدين أبو العباس، أحمد بن إسماعيل بن محمد بن آيدغمش التمرتاشي الخوارزمي. نسبته إلى تمرتاش، بضمّ التاء المثناة وسكون الرّاء، قرية من قرى خوارزم.

من أئمّة المذهب الحنفي، جليل القدر، عالي الإسناد، مطلع على حقائق الشريعة، تولى الإفتاء في خوارزم.

توفّي سنة 601هـ/ 1204م.

■ آثاره

له عدّة مصنّفات منها: 1 ـ شرح الجامع الصغير، للشيباني في الفروع؛ 2 ـ فتاوى التمرتاشي؛ 3 ـ كتاب التراويح؛ 4 ـ فرائض التمرتاشي.

■ المصادر والمراجع

● القرشي، محيي الدين أبو محمد عبد القادر، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، الهند، دائرة المعارف العثمانيّة، 1332هـ، 1/ 61؛ ● التميمي، تقي الدين عبد القادر، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تح. عبد الفتاح محمد، القاهرة، 1970، 1/ 328؛ ● اللكنوي، محمد عبد الحي، الفوائد البهية في تراجم الحنفيّة، القاهرة، مطبعة السعادة، 1324هـ، 15؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، مكتبة المثنى، 1941، 2/ 1221، 1246، 1403؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إستنبول، 1951، 1/ 89؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، مطبعة الترقي، 1975، 1/ 1067.

د. نزار محمد قادر
جامعة الموصل
العراق

التمكروتي، أبو الحسن علي بن محمد بن علي

(ت 1003م/1595م)

عرف بنفسه في كتابه النّفحة المسكيّة بما يلي: «علي بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الجزولي قبيلة البكري نسبا الدرعي التمكروتي دارا ومنشأ» [النّفحة المسكيّة، 4]. ولد بزاوية سيدي علي، ونشأ وتربّى في كنف والده إلى جانب أخيه سيدي محمد بن محمد. أخذ العلوم عن عدد من الأعلام المشايخ بالزّاوية النّاصريّة ببلده بتمكروت، وأخذ التّصوّف عن شيوخ الزّاوية المذكورة. كان فقيها وأديبا بارعا ومشاركا في العلوم [نشر المثاني، 1/ 49؛ مادّة التمكروتي، معلمة المغرب، 7/ 2191]. حلاّه صاحب الدّرر «بإمام المعارف وروضة الأدب والصّلاح النّاعمة الأفنان والمطارف» [الدّرر المرصّعة، 217].

تصدّر التمكروتي للتّدريس بزاوية أسلافه، فسطع نجمه، وطبقت شهرته الآفاق، فاستدعاه السّلطان أبو العبّاس أحمد المنصور الذهبي إلى القصر الملكي بفاس سنة 997هـ/ 1589م [النّفحة المسكيّة، 4]، ووجّهه بهديّة عظيمة إلى الخليفة العثماني مراد الثّالث، فغادر مرسى تطوان يوم عيد الفطر سنة 997هـ/ 13 غشت 1589م [النّفحة المسكيّة، 12]. ودامت هذه الرّحلة من يوم الأحد فاتح شوّال من السّنة المذكورة إلى يوم الأربعاء فاتح جمادى الثّانية من سنة 999هـ/ 1591م. قال التمكروتي: «فكانت هذه الغيبة المباركة خمسة وعشرين شهرا لنا منها في البحر ومراسيه وبلاده عام وثلاثة أشهر وإحدى عشر يوما وباقي المدّة في بلاد المغرب» [النّفحة المسكيّة، 175 ـ 177؛ الدّرر المرصّعة، 217].

رافق التمكروتي في هذه الرّحلة إلى القسطنطينيّة أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي كاتب المنصور الذهبي، قال التمكروتي: «فتوجّهنا مع السيّد... سيدي محمد بن علي الفشتالي حفظه الله سفيرين» ومعنى ذلك أنّ الفشتالي شاركه في مهمّته تلك [النّفحة المسكيّة، 10؛ الدّرر المرصّعة، 217 ـ 220؛ المنتقى المقصور، 2/ 587؛ مؤرّخو الشّرفاء، 82].

دوّن التمكروتي بمناسبة سفرته تلك كتابا سمّاه «النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة» قال الأفراني: «وهو كتاب مفيد وقفت عليه وانتقيت من فوائده في كتابنا نزهة الحادي بأخبار أهل القرن الحادي». وقال محمد المكّي بن موسى الدّرعي: «وقد وقفت على الرّحلة المذكورة أطنب فيها وأغرب وأتى فيها بما أذهل وأعجب» [الدّرر المرصّعة، 217]. وقد سجّل التمكروتي في هذا الكتاب ارتساماته عن رحلته، ونثر به إفادات تاريخيّة لا بأس بها عن المغرب وعلاقته بالأتراك العثمانيّين [نشر المثاني،

1/ 49؛ المصادر العربيّة، 138؛ مؤرّخو الشّرفاء، 82؛ تاريخ الأدب العربي، القسم 9/ 461؛ مادّة التمكروتي، معلمة المغرب، 7/ 2191].

عاد التمكروتي بعد نجاحه في المهمّة الّتي أنيطت به في هذه السّفارة إلى مسقط رأسه تمكروت واشتغل بالتّدريس مرّة أخرى. ثمّ انتقل في أخريات أيّامه إلى مرّاكش لأسباب لا نعرفها. ولا يستبعد أن يكون السّلطان أحمد المنصور الذهبي قد استدعاه إلى عاصمة ملكه ليكلّفه بمهامّ دبلوماسيّة أخرى أو مهامّ مخزنيّة، غير أنّ المنيّة عاجلته سنة 1003هـ/ 1595م، فدفن بضريح القاضي عياض بمرّاكش [الدّرر المرصّعة، 221؛ نشر المثاني، 1/ 49؛ طبقات الحضيكي، 2/ 248 ـ 249؛ مادّة التمكروتي، معلمة المغرب، 7/ 2191؛ L'activité Intellectuelle, p. 604].

■ آثاره

ـ النفحة المسكية في السفارة التركية، نشرت بالأوفسيت ـ عن نسخة مغربيّة الخطّ بعناية المستشرق دوكاستري، الّذي أضاف للنصّ العربي ترجمته للفرنسيّة، وصدر ذلك بباريس سنة 1929 م، حيث جاء القسم العربي في 189 ص [المصادر العربيّة، 138].

■ المصادر والمراجع

• التمكروتي، أبو الحسن علي، النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة، نشر هنري دو كاستري، باريس، 1929م؛

• القادري، محمد بن الطيّب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثّاني، ج 1، تح محمد حجي وأحمد التوفيق، الرّباط، 1977 م؛ • ابن القاضي، أحمد، المنتقي المقصور على مآثر الخليفة المنصور، ج 2، تحقيق محمد رزوق، مكتبة المعارف، الرّباط، 1986م؛

• الناصري، محمد المكّي بن موسى الدّرعي، الدّرر المرصّعة بأخبار أعيان درعة، مخطوط الخزانة العامّة، رقم 265 ك، الرّباط؛ • الحضيكي، محمد بن أحمد، طبقات الحضيكي، الجزء 2، المطبعة العربيّة، الدّار البيضاء، 1983م؛

• المنوني، محمد، المصادر العربيّة لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كليّة الآدب والعلوم الإنسانيّة، الرّباط، 1983م؛ • بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، القسم التّاسع، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1995م؛ • بروفنصال، ليفي، مؤرّخو الشّرفاء، تعريب عبد القادر الخالدي، دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، الرّباط، 1977م؛ • البوزيدي، أحمد، مادّة التمكروتي، معلمة المغرب، الجزء 7، مطابع سلا، 1995م.

• Hajji Mohamed, L'activité intellectuelle au Maroc à l'époque sa'adide, Tome II, Rabat, 1977.

د. حسن حافظي علوي

كليّة الآداب ـ مرّاكش

ابن تميم، دونش الشَّفلجي

(ت 360هـ/971م)

دونش بن تميم طبيب قيرواني، يكنّى أبا سهل ويُعرف بالشفلجي الإسرائيلي. ويسمّيه اليهود أدُونيم. أصله من عائلة يهوديّة قادمة من بغداد إلى إفريقية لغرض التجارة، في عهد الدولة الأغلبية.

ولد دونش بالقيروان في أواخر القرن الثالث الهجري. ولا نعرف التاريخ بالضبط. وأما وفاته فقد حدّدها حسن حسني عبد الوهاب بسنة 360 هـ/ 971م. والمؤكد أن دونش عاش في القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي، أي في فترة عرفت فيها مدينة القيروان ازدهارا علميّا في ميدان الطبّ وسائر العلوم. وهو أيضا عصر إسحاق بن سليمان، وأحمد بن الجزّار.

تتلمذ دونش على الطبيب الشهير إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، فعلّمه الطبّ حتى برع فيه. كما درس الرياضيات وعلم الفلك والفلسفة والعلوم الدينيّة العبرانيّة التي كان مفتيا فيها، ومرجعا عند اليهود وخاصّة يهود الأندلس، ومن بينهم يوسف حسداي بن إسحاق الإسرائيلي، وهو طبيب الأمير الحكم الثاني بقرطبة. وكانت بين دونش وحسداي مراسلات في مواضيع دينيّة.

كان دونش متّصلا بالأمراء العبيديين. وخدم بالطبّ إسماعيل المنصور، وابنه المعزّ لدين الله، قبل انتقاله إلى مصر.

آثاره

حرّر دونش مؤلفاته باللغة العربيّة، باستثناء الكتب الدينيّة التي كتبها باللغة العبريّة. نذكر منها: 1 ـ التلخيص في الأدوية المفردة. وهو التأليف الطبّي الوحيد الذي ذكره المؤرخون: لوسيان لوكليرك وحسن حسني عبد الوهاب، وأحمد بن ميلاد. ونجد ذكره في كتاب الجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار، الذي يسمّيه دويس أو دويس بن تميم.

يقول ابن البيطار في مادّة زنجبيل: «دويس بن تميم: اخترت منه ما كان مدمجا غير مسوّس» [2/ 197]. وكذلك في مادة ورد، يقول: «دويس: وقد يكون منه (الورد) أصفر، وقد بلغني أنه يكون بالعراق وردا أسود أيضا. وأجوده الفارسي، ويقال إنه لا يتفتح. والمختار من الورد القويّ الرائحة، الشديد الحمرة، المندمج أوراق الزهرة» [2/ 189]. وقد ترجم لوكليرك هذا الوصف الدقيق إلى اللّغة الفرنسية [116 ـ 117]. وفي نهاية كتاب التلخيص، نجد بيانا للأوزان والمكاييل المستعملة آنذاك في صناعة الأدوية؛ 2 ـ كتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار؛ 3 ـ كتاب في الفلك وحركة الكواكب. يقول حسن حسني عبد الوهاب: «إن هذا الكتاب يحتوي على تعديل السنين الشمسيّة بحساب الشهور القمريّة». ويقول

لوكليرك: «إنّه يتعلّق بالتقويم العبري». وقد أهدى دونش تأليفه هذا إلى يوسف حسداي بن إسحاق بن شبروت الطبيب اليهودي في قرطبة بالأندلس؛ 4 ـ كتاب آخر في علم الفلك. أهداه دونش إلى المنصور بالله بن القائم الخليفة الفاطمي (334 هـ/ 944م ـ 341 هـ/ 961 م)؛ 5 ـ كتاب في المقارنة بين اللغتين العربيّة والعبريّة. كتبه بالعربيّة، ويتخلّله كلمات بالعبريّة [عبد الوهاب، ورقات، ق 1]؛ 6 ـ شرح على «سفر يصيرا»، أي سفر الكون. وهو من مبادئ الشريعة اليهوديّة [عبد الوهاب، ورقات. ق. 1، لوكليرك، ج. 1]. حرّره بالعربيّة ثم نقل إلى العبريّة.

ويذكر لوكليرك مؤلّفات أخرى موجودة بالمكتبة البُذلية بأكسفورد، مؤلفها «أبو سهل القيرواني» ـ أي دونش ـ وهي باللغة العبريّة. ويمكن أن يكون أصلها بالعربيّة ثمّ ترجمت إلى العبريّة، وهذه عناوينها: 1 ـ كتاب المستلحق؛ 2 ـ رسالة التنبيه؛ 3 ـ رسالة التسوية؛ 4 ـ رسالة التقريب والتسهيل؛ 5 ـ رسالة الأصول.

المصادر والمراجع

● ابن البيطار، ضياء الدين، كتاب الجامع لمفردات الأدوية، طبعة دار المدينة، 1291 هـ، 2/ 197، 189؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات في الحضارة العربية بإفريقية التونسيّة، ق. 1، 1965، 297 ـ 300.

- Leclerc Lucien: Histoire de la Medecine Arabe, 2 vol. Paris 1876, Réédité Rabat, 1980;
- Munk, Journal Asiatique, 1850 (vol. 2, p. 5 et suivantes);
- Ammar, Sleim, Médecins et Médecine de l'Islam, éd. Tougui, Paris, 1984 (p: 227).

د. الراضي الجازي

صيدلي ـ تونس

التّميمي، إسماعيل بن محمد بن حمودة

(1165هـ/51 ـ 1752م/ 1248هـ/ 1832م)

إسماعيل بن محمد بن حمودة التميمي، نسبة إلى بلدة منزل تميم، بدخلة المعاوين من الوطن القبلي. بها ولد وفيها حفظ القرآن الكريم، وأخذ عن الصوفي أحمد سليمان الذي أمره بالهجرة إلى حاضرة تونس لتلقي العلم، وسكن في المدرسة الحسينيّة الصغرى.

كان فقيها أصوليًا نحويًا، وقد بلغ مرتبة المجتهدين في تعليل المسائل الفقهيّة، بمدارك أصولها الشرعيّة، ويصرّح أنّه من أهل الترجيح، ولم ينكره أحد عليه، بل يعتمدون ترجيحه عند تسليم الدليل. ويستفتى من

حاضرة العلم فاس، ومن قسنطينة، والجزائر، وطرابلس؛ ويجيب بالكتابة [ابن أبي الضياف، الإتحاف، 8/ 12].

أخذ العلم بجامع الزيتونة عن شيوخ عصره، كالشيخ صالح الكواش (1218هـ/ 1804م)، وعمر المحجوب (1222هـ/ 1808م)، ومحمد الشحمي (1190هـ/ 1777م)، وغيرهم.

عاش الشيخ التميمي في عهد الدولة الحسينيّة، وقدّمه حمّودة باشا لخطّة القضاء المالكي بالحاضرة سنة 1221هـ/ 1806م، فباشرها بعلمه وعدله ورسوخ قدمه في معرفة فقه القضاء، واستحضار النوازل، وسلك فيها منهج المجتهدين، وقام بحقوقها على أكمل وجه مدّة عشر سنين. ثم نقل إلى خطّة الفتوى في عهد محمود باشا سنة 1231هـ/ 1816 م، وأعاده هذا الباي إلى خطّة القضاء. وفي ذي القعدة 1235 هـ/ أوت 1820م - وهو إذ ذاك قاضي المالكيّة - نفاه محمود باي إلى ماطر، لأنّ بعض الوشاة نقل عنه أنه قال بقرب زوال حكم هذا الباي، وأنّه يطعن في تصرفات دولته لأنّها تخالف الشرع في كثير من الأمور.

وبعد حوالي شهر ظهرت براءته، فأرجعه الباي من منفاه وهو نادم على ما بدر منه في حقّه وحقّ بعض أتباعه الذين سجنهم. وفي سنة 1239هـ/ 1824م أرجعه محمود باي لخطّة الفتوى، وارتقى في الأخير في عهد حسين باي، إلى رئاسة المفتين للمذهب المالكي وذلك سنة 1243هـ/ 1828م بعد وفاة المفتي قاسم المحجوب [محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 1/ 247].

وكان الشيخ التميمي إلى ذلك مدرّسا بالجامع الأعظم، ولمّا توفّي العالم الصالح الشيخ محمد نصر القابسي سنة 1233 هـ/ 1818م تقدّم عوضه لمشيخة المدرسة الأندلسية، فأدارها وأقام دروسها.

أخذ عنه العلم كثيرون؛ من نبهائهم: الشيخ إبراهيم الرياحي، ومحمد البحري بن عبد الستار، وصالح الغنوشي السوسي، وشيخ الإسلام محمد بن أحمد بن الخوجة، وأحمد بن أبي الضياف.

وعرفت هذه الفترة التاريخيّة ازدهار نشاط ثقافي تمثّل في عقد مناظرات علميّة بين العلماء دلّت على ثراء في الفكر ورغبة في الجدل والسجال، تابعها بعض البايات بأنفسهم. وقد شارك الشيخ التميمي في البعض منها، من ذلك المناظرة التي جرت بينه وبين الشيخ لطف الله الأعجمي الأزميري، شارح أسماء الله الحسنى (توجد نسخة مخطوطة لهذا الشرح ضمن مجموع بدار الكتب الوطنيّة بتونس تحت رقم 16537) القادم من تركيا إلى تونس سنة 1178هـ [بعض هذه المناظرات في مقال لمحمد بن الخوجة: صفحة من تاريخ تونس. بمجلّة شمس الإسلام، ج 5، أوّل رمضان 1355 هـ، 295].

وكان يناظر كبير أهل الشورى أبا عبد الله محمد المحجوب (1243هـ/ 1828م) [ترجمته في ابن أبي الضياف، الإتحاف، 7/ 151 - 152]، فقال له يوما في المجلس، وقد اختلفا في قول، أنا أفتي في دين الله ستّين سنة، وأعرف المسألة من حين روايتها عن مالك، وكلّ من تكلّم فيها؛ فقال له الشيخ التميمي:

لا غرابة في اتّصافك بذلك، فإنّك حافظ المذهب، لكنّي أعلم اعتماد كل متكلّم في المسألة على أيّ دليل. وكان الشيخ محمد المحجوب يرجع له [الإتحاف، 8/ 12].

وتوفّي الشيخ التميمي في الخامس عشر من جمادى الأولى 1248هـ الموافق للعاشر من أكتوبر 1832م.

آثاره

1 ـ المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهّابية، وهي رسالة ألّفها بأمر من حمّودة باشا باي ليردّ فيها على محمد بن عبد الوهاب النجدي، أتمّ تأليفها في شوّال 1225 هـ، منها نسخ مخطوطة كثيرة بدار الكتب الوطنيّة بتونس، تحت أرقام 1/ 424، 2/ 421، 2780، 7805، (1673، عبدليّة)، (9449 عبدليّة)، وقد طبعت بتونس عام 1328هـ؛ 2 ـ تقييد فيمن تولّى الإمامة بجامع الزيتونة من عهد الإمام ابن عرفة إلى عصره، أورده ابن أبي الضياف في إتحافه، 7/ 61 ـ 69، منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الوطنيّة رقم 1011، ونشر في مجلّة الحياة الثقافية عدد 24، 1982 م، ص 165 ـ 175، تـــــح. محمد الزاهي؛ 3 ـ رسالة في الخلوّ عند المغاربة والمصريين، مبتورة الآخر، توجد نسخ مخطوطة منها بدار الكتب الوطنيّة بتونس تـــحـــت أرقـــام 3/ 2688، 4/ 14892، 4/ 3223 أحمدية. وقد طبعت مع رسائل أخرى عام 1316هـ، وتوجد نسخة منها مطبوعة بدار الكتب الوطنية د.ت، تحت رقم 10408؛ 4 ـ حكم طعام أهل الكتاب، رسالة أتمّ تحريرها سنة 1248هـ، منها نسخ مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت أرقام 2483، 4665، 3/ 8273؛ 5 ـ رسالة في نازلة من نوازل الأوقاف، ساير بها رسالة أحمد بن عمّار الجزائري، منها نسخ بدار الكتب الوطنيّة بتونس رقم 2/ 424، 3/ 9350، 3/ 10233 عبدليّة، طبعت في تونس كملحق لرسالته المنح الإلهية وذلك سنة 1328 هـ؛ 6 ـ ضريبة العشر الموظّفة على بعض الحبوب، منها نسخ بدار الكتب الوطنيّة بتونس رقم 5/ 9105، 5/ 369 عبدليّة؛ 7 ـ فتاوي عديدة وأجوبة عن أسئلة مبثوثة في مجاميع وكنانيش كثيرة، منها بدار الكتب بتونس تحت أرقام 2/ 424، 610، 6/ 23089، 4254، 15/ 3222 أحمديّة، 16/ 3222 أحمديّة، مكتبة ح. ح عبد الوهاب رقم 1/ 18489.

المصادر والمراجع

● ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان، تونس 1963، 3/ 63، 132 ـ 133، 146، 185، 8/ 11 ـ 14؛ ● ابن مخلوف، محمد، شجرة النور، القاهرة 1349 ـ 1350 هـــــــ، 370 ـ 371؛
● برنامج المكتبة العبدليّة، تونس 1326هـــــــ/ 1936م، 3/ 78 ـ 79؛
● بروكلمان كارل، ملحق 2، ليدن 1938، 878؛ ● الحجوي، محمد بن الحسن، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج 1، ط. المغرب 1340، 3، 4، ط. تونس، 1345 هـ، 4/ 4/ 31؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1376 هـــــــ/ 1957، 2/ 263؛
● الزركلي، خير الدين، الأعلام، القاهرة 1373هـ ـ 1954م/ 1378هـ ـ 1959م،

ط 2، 1/ 326؛ • محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، لبنان 1981، 1/ 247 ـ 248؛ • عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر، تونس، بيروت 1410هـ/ 1990م، 1/ 861 ـ 864؛ • عزونة، جلول، الآثار المطبوعة للشيخ إسماعيل التميمي، مجلة الفكر، عدد 2، نوفمبر 1981م.

د. عبد الرزاق بسرور
وزارة التربية ـ تونس

■ التميمي التونسي، أحمد بن علي بن إسحاق

(ق 7هـ/13م) ■ ■ ■

هو أحمد بن علي بن إسحاق التونسي، التميمي، توفي في مستهلّ المائة السابعة للهجرة/القرن الثالث عشر الميلادي [ذكره ابن خلدون في المقدمة، ط. مصر، 489؛ وابن البنّاء المرّاكشي في مقدمة كتابه منهاج الطالب لتعديل الكواكب؛ سوتر Suter، 142، رقـم 356؛ Ibn Khaldoun, Prolegomènes, Trad. De Slane, III, 149. خ خ الاسكوريال 1، 909؛ مكتبة الجزائر 1454، 63؛ فـهـرس E. Fagnan 400]؛ حاجي خليفة يخلط بينه وبين ابن كمّاد، ويتبعه في ذلك المنوني.

قدّمه ابن خلدون بقوله: «قد عوّل المتأخّرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن إسحاق، من منجّمي تونس في أول المائة السابعة، ويزعمون أنّ ابن إسحاق عوّل فيه على الرصد، وأنّ يهوديا بصقلية، ماهرا في الهيئة والتّعاليم، وكان ممن يعنى بالرّصد، كان يبعث إليه بما يقع في ذلك من أحوال الكواكب وحركاتها، كان أهل المغرب يعنون به، لوثاقة مبناه على ما يزعمون، ولخّصه ابن البنّاء في آخر سمّاه «المنهاج»، فولع به النّاس لما سهل من الأعمال فيه، وإنّما يحتاج إلى مواضع الكواكب من الفلك لتبني عليها الأحكام النّجومية، وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها بأوضاعها في عالم الإنسان من الملك والدّول والمواليد البشرية».

وتدلّ عبارة ابن خلدون ذاتها أنّ زيج ابن إسحاق تلاشى وفقد في عهده. وبقي هذا الزيج في عدد المفقودات زمنا طويلا، إلى أن ساعد الحظ أخيرا الباحث A. King، إذ عثر بين مخطوطات حيدر آباد، على نسخة من زيج ابن اسحاق. وهو عمل بديع في 400 صفحة من بينها 360 جدولا فلكيا تخصّ مشاهدات وأرصادا متنوعة. ويمثّل هذا الزيج الحلقة المفقودة من أعمال الفلك المغربي، وحرر، فيما يبدو سنة 1218م/ 614هـ، بمدينة تونس، وحسبت جداوله في الفلك الكروي بطول مدينة تونس. على أنّ باقي

الجداول يتبع طول طليطلة، ونقلت نقلا عن أعمال أندلسية، ويبرر ابن إسحاق ذلك بكون بنية الجداول بنية عامّة، لا تتأثر بما اتخذ من أصل من دوائر الزّوال، واختيار الدّائرة اختيار اعتباطي، فيمكن صرف نتائج طليطلة إلى غيرها من المدن بمجرّد عملية لتغيير الأصل.

وكثيرا ما كان ابن إسحاق يحيل على أعمال الزّرقالي (طليطلة سنة 1070م) وابن الكمّاد (إشبيلية 1150م)، وابن الهيثم (إشبيلية 1200م)؛ كما يسجّل عددا من أرصاده الذاتية الخاصة، كتقديره للميل الكلّي (أي ميل فلك البروج على خطّ الاستواء) بالنسبة إلى تونس سنة 588هـ/ 1192م.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن من أوّل ما ظهر من الأزياج بأوروبا ما حرر منها بالدانمارك في القرن الثالث عشر الميلادي، إذن تمّ التواصل مع الأزياج العربية وأكملت الحلقة في الأرصاد الفلكية، وستنتهي إلى أرصاد تيكوبراهة وقوانين كبلار ونيوتن المتعلقة بحركات الكواكب السيارة.

وممّا يبدو بالعودة أيضا إلى مخطوط الإسكوريال ومخطوط الجزائر 1445 [الذي يختتم بالملاحظة الثمينة: نسخة بخطّ المصنّف: رصد أبي إسحاق التونسي لحركة الكواكب التي عليها هذا الزيج سنة (حيط = 619 للهجرة/ أي فيفري 1222م)] أن المصنّف ينقسم إلى 24 بابا ويشتمل على 55 جدولا، منها: الباب الأول: في التواريخ؛ الباب الثاني: استخراج تاريخ الرّوم من تاريخ العرب؛ . . . الباب الثاني عشر: معرفة مطارح الشعاع، الجدول الأول: ما بين التواريخ، الجدول الثاني: علامات شهور العرب، . . . الجدول الرابع: حركة رأس الحمل في السنين العربية؛ . . . الباب الخمسون: مطالع البروج على الأفق الشرقي من مدينة فاس؛ الباب الخامس والأربعون: أزمان الساعات بمدينة فاس.

المصادر والمراجع

- يضاف إلى ما سبق: سويسي، محمد، دور تونس في تطوّر العلوم والحضارة في العهد الإسلامي؛ • أعلام ومعالم، تونس 1977، 116.
- Driss Lamrabet: Introduction à l'histoire des Mathématiques Maghrébines, Rabat, 1994, nº 368, p. 76-787;
- M. Comes : A propos de l'influence d'az-Zarqalah en Afrique du Nord, l'apogée solaire et l'obliquité de l'écliptique dans le «Zidj» d'Ibn Ishaq [las actas del IIe coloquio Hispano - Marroqui de ciencias Historicas], Granada, 1989;
- Al-Zarqali: Dictionary of Scientific Biography, 14 (1976), p. 112 - 113 et p. 592 - 595;
- Marmol : Obra de Zarquel, «Hommage à Georges Vadja», Louvain 1980, p. 151 - 154.

محمد سويسي
جامعة تونس

التّميمي، أبو الحسن عبد العزيز بن الحارث

(317هـ/929م - 371هـ/982م)

هو أبو الحسن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمي الحنبلي، نسبة إلى تميم قبيلة من قبائل العرب سكنت نجد، والمنتسب إليها جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

كان أبو الحسن من أكابر علماء الحنابلة في الفقه والأصول والفرائض وله اطلاع على مسائل الخلاف، حدث عن أبي بكر عبد الله بن محمد النيسابوري، ونفطويه النحوي، والقاضي المحاملي، ومحمد بن مخلد الدوري ونحوهم، وصحب أبا القاسم الخرقي، وأبا بكر عبد العزيز بن جعفر المشهور بغلام الخلال، وروى عنه بشرى بن عبد الله الرومي وابنه أبو الفرج عبد الوهاب. قال أبو يعلى بن الفراء (ت 452هـ) أبو الحسن عبد العزيز بن الحارث التميمي رجل جليل القدر، وكان له كلام في مسائل الخلاف، وله تصنيف في الفرائض وفي الأصول [طبقات الحنابلة، ج 2 ص 139].

ولكن الخطيب البغدادي تكلم في عدالته وذكر أنه وضع حديثا في مسند أحمد، فقد روى عن شيخه أبي القاسم عبد الواحد بن علي العكبري (ت 456هـ) عن الحسن بن شهاب عن عمر بن المسلم قال: حضرت مع عبد العزيز بن الحارث الحنبلي بعض المجالس، فسئل عن فتح مكة أكان صلحا أو عنوة؟ فقال: عنوة، فقيل: ما الحجة في ذلك؟ فقال: حدثنا أبو علي بن الصواف عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بسنده إلى أنس بن مالك أن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في فتح مكة أكان صلحا أو عنوة فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: كان عنوة، قال ابن المسلم: فلما خرجنا من المجلس قلت له: ما هذا الحديث؟ فقال: ليس بشيء وإنما صنعته في الحال أدفع به عني حجة الخصم.

كما نقل الخطيب عن ابن رزقويه (ت 412هـ) أن أبا الحسن التميمي وضع في مسند أحمد بن حنبل حديثين فأنكر أصحاب الحديث عليه ذلك، وكتبوا محضرا أثبتوا فيه خطوطهم بشرح حاله، قال الأزهري: ورأيت المحضر عند ابن رزقويه وفيه خط الدار قطني وابن شاهين وغيرهما [البغدادي، تاريخ بغداد، ج 2 ص 233] و أنكر ذلك ابن الجوزي واعتبره من تعصب الخطيب عليه وقال: ما زال هذا دأبه في أصحاب أحمد بن حنبل، ثم قال: وشيخ الخطيب الذي حكى عنه هو أبو القاسم عبد الواحد بن علي الأسدي العكبري لا يعتمد عليه، فإنه لم يكن من أهل الحديث والعلم وإنما كان يعرف شيئا من العربية، ولم يرو شيئا من الحديث، كذلك ذكر عنه الخطيب، وكان أيضا معتزليا، وعنه أيضا حكى الخطيب الطعن في ابن بطة

الحنبلي (ت 387هـ) مما يدل على بغضه لأصحاب أحمد و طعنه في أكابرهم. وانتهض ابن الجوزي للرد على البغدادي فقال «إنه كان يبهرج بعصبية باردة تعظيم المتكلمين من المبتدعة فيذكر لهم ما يقارب الاستحالة، فإنه ذكر عن ابن اللبان أنه قال: حفظت القرآن ولي خمس سنين، وحكى عن ابن رزقويه أن التميمي وضع في مسند أحمد حديثين، ويجوز أن يكون قد كتب في بعض المسانيد من مسند آخر ومن مسموعاته، من غير ذلك المسند، ومتى كان الشيء محتملا لم يجز أن يقطع على صاحبه بالكذب [ابن الجوزي، المنتظم ج7 ص 110]. وقد طعن الحافظ الذهبي أيضا في عدالته فقال: أبو الحسن التميمي الحنبلي من رؤساء الحنابلة وأكابر البغاددة، إلا أنه آذى نفسه، ووضع حديثا أو حديثين في مسند الإمام أحمد، قال ابن رزقويه الحافظ: كتبوا عليه محضرا بما فعل، كتب فيه الداقطني وغيره نسأل الله السلامة، والحديث المتهم به هو ما رواه عن آبائه عن جده الأعلى أبي عبد الله التميمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما اجتمع قوم على ذكر إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة. قال الذهبي: أكثر أجداده لا ذكر لهم لا في تاريخ ولا في أسماء رجال. كما اتهم بوضع حديث رواه بسنده عن آبائه التسعة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وقد سئل عن الحنان المنان ـ فقال: الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه، والمنان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال [ميزان الاعتدال، ج 2 ص 624] وكانت وفاته ببغداد سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة.

آراؤه

اتفق أصحاب التراجم والطبقات على أن له تصانيف في أصول الكلام وفي مذهبه والفرائض، وغير ذلك، وقد نقل عنه علماء الحنابلة كالقاضي أبي يعلى، وابن قدامة، وابن تيمية، وابن النجار، وغيرهم كثيرا من المسائل الأصولية في مواضع عديدة من مؤلفاتهم.

جاء في «المسودة» لابن تيمية، عند الكلام على محل العقل نقلا عن التميمي: «والذي نقول به: «إن العقل في القلب، يعلو نوره إلى الدماغ فيفيض منه إلى الحواس ما جرى في العقل» [المسودة، ص 599].

كما حكى ابن تيمية عن القاضي أبي يعلى عن أبي الفضل بن أبي الحسن التميمي عن أبيه أنه قال: في كتابه في «أصول الفقه» و«القرآن ليس فيه مجاز عند أصحابنا» [م.س، ص 165]. كما نقل ابن النجار في « شرح الكوكب المنير» كثيرا من آرائه الأصولية والكلامية، ففي مسألة التحسين والتقبيح، هل تكون بالعقل أو لا؟ قال أبو الحسن التميمي من أصحابنا والشيخ تقي الدين وابن القيم والمعتزلة والكرامية «العقل يحسن ويقبح ويوجب ويحرم، وعند أحمد وأكثر أصحابه والأشعرية: العقل لا يحسن ولا يقبح ولا يوجب ولا يحرم [شرح الكوكب المنير، ج 1 ص 301].

كما نقل عنه علماء الحنابلة أنه لا يجوز أن يرد الشرع في الأعيان بما يخالف حكم العقل إلا بشرط منفعة تزيد في العقل أيضا، وأنه لا يجوز أن يرد الشرع بحظر موجبات العقل أو

إباحة محظوراته [المسودة، ص 484] ولا يتعرض الحنابلة في تصانيفهم الفقهية أو الأصولية لمسألة فرعية أو كلامية إلا ويذكرون رأي أبي الحسن التميمي فيها و أكثر استشهادهم بأقواله في مسائل الأصول والكلام.

المصادر والمراجع

● البغدادي الخطيب، أبي بكر، تاريخ مدينة السلام، تح. د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان؛ ● ابن الجوزي، عبد الرحمان بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط 1، 1358هـ؛ ● الحافظ الذهبي، أبو عبد الله، ميزان الاعتدال، تح. البجاوي، دار المعرفة ط1، 1382هـ/ 1963م؛ ● ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1413هـ / 1992م؛ ● ابن النجار الحنبلي، شرح الكوكب المنير، تح. د. الزحيلي و د. حماد، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة 1400هـ / 1980م.

د. هشام قريسة
المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس

التميمي، أبو الحسن منصور بن إسماعيل

(ت 306هـ/918م)

منصور إسماعيل بن عمر التميمي الضرير، أبو الحسن. أصله من رأس العين المشهورة بالجزيرة، سافر في شبابه إلى بغداد، ومدح بها الخليفة المعتز، ثم سكن مصر التي توفي بها في شهر جمادى الأولى سنة ست وثلاثمائة للهجرة الشريفة. فقيه شافعي، من الشعراء وله شعر مليح؛ وكان أديبا فهما عاقلا حاد المناظرة، له حظ من كل علم، وقيل إن شعره يظهر فيه التشيع.

قال القُضاعي: أصله من رأس عين، وكان فقيها متصرفا في كل علم، شاعرا مجوّدا، لم يكن في زمانه مثله [السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 479]. وقال عنه الإسنوي: كان فقيها متصرفا في علوم كثيرة لم يكن في زمانه في مصر مثله [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 249]. وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء وأنشد له:

عابَ التفقة قومٌ لا عقولَ لهم
وما عليه إذا عابُوه من ضَرَر
ما ضرَّ شمسَ الضُحى، والشمسُ طالعةٌ،
أن لاّ يرَى ضوءَها من ليس ذَا بصَر

[المكي، أبو محمد عفيف الدين، مرآة الجنان، 2/ 248].

أصابته فاقة في سنة قحط، فنادى بأعلى صوته فوق داره: الغياث الغياث! يا أحرار! نحن فقراء وأنتم تجار، إنما تحسن المواساة في الشدة لا حين ترخص الأسعار، فسمعه جيرانه فأصبح على بابه مائة حمل برّ [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 249]. وقال أبو إسحاق: قرأ على أصحاب الشافعي وأصحاب أصحابه، وله مصنفات في الفقه مليحة [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 249؛ المكي، أبو محمد عفيف الدين، مرآة الجنان، 2/ 248].

كانت له منزلة جليلة عند أبي عُبَيْد القاضي، وكان من خواصّه الذين يخلو بهم للمذاكرة والمحادثة، وكان بينهما مناظرات في الفروع أدت إلى الخصام، فتعصّب الأمير أبو الحسن ذُكا الرومي وجماعة من الجند لابن إسماعيل منصور، وتعصّب للقاضي أبي عُبيد جماعة منهم ابن الربيع الجيزيُّ، ثمّ شهد محمد بن الربيع على ابن إسماعيل منصور بكلام زعم أنه سمعه منه، وهو مقالة حكاها منصور عن النظّام، فقال القاضي أبو عبيد: إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به عليه ابن الربيع ضربت عنقه، فخاف على نفسه ولازم نفسه إلى أن توفاه الله عز وجلّ [الزركلي، الأعلام، 7/ 297؛ ابن الجوزي، المنتظم، 6/ 152؛ ياقوت، معجم الأدباء، 19/ 185].

ويذكر الرواة والمترجمون أن المسألة الفقهية الفرعية التي أدّت إلى الخصام بينه وبين القاضي أبي عبيد هي مسألة نفقة الحامل المطلقة ثلاثا، فقال أبو عبيد القاضي: زعم زاعم أن لا نفقة لها، فأنكر ابن إسماعيل منصور ذلك، وقال: أقائل هذا من أهل القبلة؟ ثمّ انصرف منصور، وحدّث الطحاوي، فأعاده على أبي عبيد، فأنكره أبو عبيد، فقال منصور: أنا أكذبه. قال أبو بكر ابن حداد: حضر منصور، فتبينت في وجهه الندم على حضوره، ولولا عجلة القاضي بالكلام لما تكلم منصور، ولكن قال القاضي: ما أريد أحدا يَدُل علي، لا منصور ولا نصّار، يحكون عنا ما لم نقل، فقال منصور: قد علم الله أنك قلت، فقال: كذبت، فقال: قد علم الله مَن الكاذب، ونهض، وهو أعمى، فما جسر أحد من هيبة القاضي أن يأخذه بيده، إلا ابن الحداد، وكانت بينه وبين ابن الحداد مقاطعة، فشكر له هذا الصنيع، وقال له: أحسن الله جزاءك، وشكر فعلك، وأخذ بيدك يوم فاقتك إليه...

وقد أدت هذه المنازعات والمجادلات إلى أن لزم ابن اسماعيل منصور جامع ابن طولون، يأتي كل يوم فلا يخرج منه إلى المساء، محزونا مغموما، ولم يمض على منصور إلا أيام يسيرة، وتوفي؛ وعزم القاضي أبو عبيد على أن يصلّي عليه، فبلغه أن خلقا من العسكر والجند، حملوا السلاح، وتهيؤوا لقتل القاضي إن هو صلى عليه، فتأخر عن الصلاة عليه. وقيل إن منصورا أنشد عند موته:

قضيت نحبي فسُرَّ قوم
حمقى بهم غفلةٌ ونُومُ
كأنَّ يومي عليَّ حتمٌ
وليس للشامتين يومُ

وقيل: إن أبا عبيد ندم على ما جرى منه، وأسف على ما فاته من منصور. وكان أبو بكر بن الحداد يقول: لو شئت لقلت إن دية منصور على عاقلة القاضي، يريد أن أبا عبيد قاتله خطأ، فإن منصورا بلغت منه نكاية أبي عبيد حتى جاءت على نفسه [السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 480 ـ 481].

أخذ الفقه عن أصحاب الإمام الشافعي وعن أصحاب أصحابه [المكي، أبو محمد عفيف الدين، مرآة الجنان، 2/ 248].

آثاره

لابن إسماعيل منصور آثار وكتب في الشعر والأدب وفي المختصرات الفقهية على مذهب الشافعي. من هذه الآثار: 1 ـ كتاب الواجب، في الفقه؛ 2 ـ كتاب المستعمل؛ 3 ـ الهداية، كتاب في الفقه؛ 4 ـ كتاب زاد المسافر.

المصادر والمراجع

● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الطبعة الأولى بحيدر آباد 1358 هـ؛ ● المكي، عفيف الدين، مرآة الجنان؛ ● السبكي، طبقات الشافعية؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

التميمي، رزق الله بن عبد الوهاب

(401هـ/1010م ـ 488هـ/1095م)

رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن يزيد بن أكينة بن الهيثم بن عبد الله التميمي، أبو محمد. كذا سيق نسبه عند مترجميه ورفع بعضهم نسب جدّه عبد الله إلى زيد مناة بن تميم، جدّ القبيلة. وسبب ذلك، فيما يظهر، أن عبد الله هذا كانت له صحبة، وكان اسمه عبد اللات، فسمّاه الرسول عبد الله، وعلّمه، وأرسله إلى اليمامة والبحرين، ودعا له ولعقبه [المنتظم، 9/ 88؛ المستفاد، 116؛ طبقات الحنابلة، 2/ 250؛ ذيل طبقات الحنابلة، 1/ 96؛ سير الذهبي، 18/ 609؛ الإكمال، 1/ 109؛ المنهج الأحمد، 2/ 200].

ولد أبو محمد في بغداد عام 401 للهجرة، كما ذكر ذلك مؤرخو الحنابلة، وقيل عام 400، ونُقل عنه أنه قال: مولدي سنة ست وتسعين وثلاثمائة [المنهج، 2/ 195]. ويرجح الأول أنّ تلميذه الحافظ محمد بن ناصر السلاّمي (ت 550هـ) الذي لزمه حتى

أخريات أيامه قال: وما رأيت شيخا ابن سبع وثمانين سنة أحسن سمتا وهديا واستقامة منه [المستفاد، 116].

ونشأ في أسرة علمية معروفة ببغداد، فأبوه (ت 425هـ)، وعمه عبد الواحد (ت 410هـ) كانا من علماء بغداد، وجده لأبيه عبد العزيز (ت 371هـ) محدث وفقيه وله تصانيف، وجدّه لأمّه هبة الله بن سلامة البغدادي (ت 410 هـ) مفسّر، وله كتاب الناسخ والمنسوخ أقرأه لسبطه، وأقرأه سبطه في سمرقند وأصبهان [م. ن]، وابناه عبد الوهاب (ت 491هـ) وعبد الواحد (ت 493هـ) اشتغلا بالعلم والوعظ.

في هذا الوسط العلمي المزدهر تلقى رزق الله علومه فقرأ القرآن والفقه والحديث والأصول والتفسير والفرائض واللغة العربية (النحو). وذكر من شيوخه غير أبيه وعمّه وجدّه لأمه، شيخه أبا علي محمد بن أحمد بن أبي موسى (ت 428هـ)، والمقرئ أبا الحسن علي بن أحمد الحمّامي (ت 417هـ) وقد عرض عليه أبو محمد القرآن، وقرأ عليه بالروايات.

وسمع الحديث عن طائفة منهم، أبو الحسين أحمد بن محمد بن المتيّم (ت 409هـ) وأبو عمر عبد الواحد بن محمد بن مهدي (ت 410هـ)، وأبو الحسين علي بن محمد بن بشران (ت 415هـ)، ومحمد بن الحسين بن الفضل القطان (ت 415هـ)، وأبو القاسم عبد الملك بن محمد بن بشران (ت 430هـ)، وأبو الحسن محمد بن محمد بن مخلد (ت 419هـ)، وأبو القاسم عبد الرحمن الحرفي (ت 423هـ)، وأبو الحسن بن شاذان (ت 425هـ)، وأبو الفرج محمد بن عمر الجصّاص.

تحقق لأبي محمد من السجايا والمزايا والمواهب ما رفع منزلته عند الناس والرؤساء إلى مرتبة رفيعة جدا، فابن الجوزي (ت 597هـ) يقول: كان قد اجتمع للتميمي القرآن والفقه والحديث والأدب والوعظ، وكان جميل الصورة، فوقع له القبول بين الخواص والعوام. ويصفه الحافظ أبو عامر العبدري محمد بن سعدون (ت 524هـ)، وكان قد سمع منه، بأنه كان شيخا بهيّا، ظريفا لطيفا، كثير الحكايات والملح، ما أعلم منه إلا خيرا؛ كما وصف بأنه كان ثقة صدوقا فاضلا ذا حشمة. وانه كان جمالا للإسلام، كما لقب، وفخرا لأهل العراق خاصة ولجميع بلاد الإسلام عامة.

ويقول أبو علي الصدفي (ت 514هـ) في «مشيخته»: ما لقيت في بغداد مثله، فقرأت عليه كثيرا، وإنما لم أطل ذكره لعجزي عن وصفه لكماله وفضله. ومثل ذلك ما وصفه به ابن النجار الحافظ (ت 643هـ)، والسمعاني (ت 562هـ)، وتلميذه المؤرخ ابن ناصر (ت 550هـ)، والحافظ أبو طاهر بن سلفة (ت 576هـ) [تاريخ الذهبي، 31/ 243].

لكل ذلك وصف بأنه كان رئيس الحنابلة ببغداد، وأنه كان كبير بغداد وجليلها، وكان يقول: كل الطوائف تدّعيني. ويلخص الذهبي ذلك بقوله: كان إماما مقرئا، فقيها، محدّثا، واعظا، أصوليا، مفسرا، فرضيا، كبير الشأن، وافر الحرمة [معرفة القراء، 441].

ويذكر أخيرا أنّ له شعرا مرويا في مصادر سيرته، ولم يعرف عنه ياقوت غير أنّه أديب شاعر مجيد [معجم الأدباء، 11/ 136].

كثيرون هؤلاء الذين حضروا مجالس رزق الله وأخذوا عنه، لا سيّما طلبة الحديث ورواته، فقد روى السمعاني حديثا عن رزق الله عن أربعة وسبعين نفسا سمعوه منه [معرفة القراء، 442]، وممن روى عنه الحفاظ: أبو المسعود سليمان بن إبراهيم الأصبهاني (ت 486هـ)، وأبو علي أحمد بن محمد البرداني، وعبد الوهاب بن مبارك الأنماطي (ت 538هـ)، وأبو الفضل محمد بن ناصر السلامي المؤرخ (ت 550هـ)، والمؤتمن بن أحمد الساجي (ت 507هـ)، وأبو علي بن سكرة الصدفي (ت 514هـ)، ومحمد بن الخضر المحوّلي (ت 538هـ)، وكلاهما قرأ عليه لقالون ختمة، وأبو الكرم الشهرزوري (ت 550 هـ)، وأبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطي (ت 564هـ)، وسبط الخياط البغدادي (ت 541هـ)، وروى عنه بالإجازة أبو طاهر السلفي (ت 576هـ).

توفي رزق الله ببغداد في منتصف جمادى الأولى سنة 488هـ وصلى عليه ابنه أبو الفضل (ت 491هـ). ودفن في داره بباب المراتب، بإذن من الخليفة المستظهر بأمر الله، ولم يدفن في المكان أحد قبله، ثم حوّل رفاته بعد ثلاث سنوات إلى باب حرب حين توفي ابنه أبو الفضل، فدفن معه، إلى جنب أبيه وجدّه وعمّه بدكة الإمام أحمد.

آثاره

ذكر لرزق الله من المصنفات: 1 ـ الأقسام؛ 2 ـ الخصال، ولم يحدد مضمونهما. وفي «هدية العارفين»، ذكر له: «شرح الأقسام وشرح الخصال»، كما ذكر له أيضا: «شرح الإرشاد» لشيخه أبي علي بن أبي موسى في الفقه [هدية العارفين، 1/ 367؛ المنهج الأحمد، 2/ 196].

المصادر والمراجع

● ابن ماكولا، الإكمال، ط. حيدر آباد، 1967م؛ ● ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ط. 2، مكتبة المعارف، بيروت، د. ت؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام، تح. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت؛ ● م. ن، تذكرة الحفاظ، حيدر أباد، ط 4، 1970م؛ ● م. ن، دول الإسلام، ط دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، 1988م؛ ● م. ن، سير أعلام النبلاء، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982م؛ ● ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، بعناية هنري لاوست وسامي الدهان، دمشق 1951م؛ ● ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب، دار إحياء التراث، بيروت (مصورة)؛ ● ابن أبي يعلي، محمد، طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت؛ ● الداودي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية «مصورة»، بيروت، 1983م؛ ● الذهبي، العبر في خبر من عبر، دار الكتب العلمية، بيروت؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، تح. برجشتراسر، مكتبة الخانجي، القاهرة 1932م؛ ● ابن الأثير، الكامل، دار صادر، بيروت؛ ● ابن الدمياطي، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ط حيدر أباد؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م؛ ● الذهبي، معرفة القراء الكبار، تح. بشار

عواد معروف وزميلاه، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984م؛ ● الذهب المعين في طبقات المحدثين، تح. همام عبد الرحيم، دار الفرقان، ط1، عمان، 1984م؛ ● ابن مفلح المقدسي، المقصد الأرشد، تح. عبد الرحمن العثيمين، ط مكتبة الرشد، الرياض، 1990م؛ ● ابن الجوزي، المنتظم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م؛ ● العليمي، المنهج الأحمد، تح. محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت 1984م؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، وكالة المعارف، استانبول؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي (د. ت) بيروت.

د. صاحب جعفر أبو جناح
جامعة صنعاء ـ اليمن

التميمي، أبو عبد الله بن محمد بن أحمد

(320هـ/932م ـ 390هـ/1000م)

ولد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي في بيت المقدس.

وكان جده سعيد طبيبا أيضا. فتتلمذ على جده، كما تتلمذ على راهب قبطي هو الأنبا زكريا بن ثوابة، ونجد في كتبه أنه ينقل بعض المعلومات حول النباتات من والده أحمد الذي يرويها له نقلا عن الجد سعيد المذكور. كما ينقل معلومات أخرى عن صديق أو أستاذ جده أحمد بن أبي يعقوب مولى بني العباس. واشتهر طبيبنا في فلسطين ببراعته في تركيب الأدوية وبرحلاته العلمية لدراسة النباتات في البلدات المحيطة به. وبسبب شهرته دعي إلى مدينة الرملة بفلسطين واختص بوالي المنطقة الساحلية الحسن بن عبيد الله بن طغج، وصار من رجال بلاطه، وقام بتركيب معاجين ولخالخ من ابتكاره لذلك الوالي (اللخالخ جمع لخلخة. وهي طيب مجموع يتلطخ به).

وفي فترة إقامته بفلسطين اشتهر بإضافة مركّبات جديدة إلى مضاد السموم المعروف باسم «الترياق الفاروق». وهذا الترياق كان يركّب على ما قرره أطباء اليونان القدامى قبل التميمي الذي أضاف إليه مركّبات جديدة. وقد قام بتصنيف ثلاثة كتب تصف عمل الترياق: كتاب كبير، وآخر متوسط وثالث مختصر.

كانت القاهرة في عهد الفاطميين منطقة جذب للعلماء البارزين، لكونها عاصمة دولة شجعتهم وجمعتهم من بلدان مختلفة. فسافر إليها طبيبنا بسنة 360هـ/ 970م والتحق ببلاط الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس، وهو يهودي الأصل، ولد ببغداد وأشهر إسلامه حسب المذهب الشيعي بعد التحاقه بالبلاط الفاطمي، وتوفي بالقاهرة سنة

380هـ/ 991م. وكان هذا الوزير قد اجتذب أطباء مشهورين آخرين، منهم الطبيب البلدي مؤلف كتاب «تدبير الحبالى والصبيان»، ومنهم أيضا جرّاح العيون أبو عمّار الموصلي مؤلف كتاب «المنتخب في علم العين». وكلا الكتابين مطبوع. والتقى أيضا بأطباء من المغرب العربي، ونجد في كتبه كثيرا من الاقتباسات عن معاصره ابن الجزار القيرواني الذي لم يلتقِ به على ما يبدو. لأن ابن الجزار لم يغادر ولاية أفريقية (تونس الحالية) إلى مصر. ويذكر في كتبه أيضا أبا الحسن البصري، أي ابن الهيثم الذي نعلم أنه انتقل من البصرة إلى مصر واستقر فيها.

من أشهر مؤلفات التميمي كتاب «المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات من الأدوية». يحتوي على أربع عشرة مقالة موزعة على قسمين: القسم الأول في سبع مقالات تبحث في مفردات الأدوية، والمستحضرات الصيدلانية من المواد النباتية، والمعادن، وأنواع التربة، وخواص الأغذية، والنباتات العطرية، والثمار، والأشربة، والمياه، والأدهان، والمراهم، والإكسيرات.

والقسم الثاني يحتوي على السبع المقالات الأخيرة. من المقالة الثامنة حتى العاشرة نجد مباحث في قوى الأغذية وطبائعها ومنافعها ومضارها، كذكر الرياحين والورد والأزهار والثمار المسمومة وأوصافها وأنواعها وخواصها واستعمالها كطعام أو علاج. وتبحث في أنواع المياه في أماكنها الطبيعية، وتأثير درجة الحرارة والرطوبة فيها. وفيها وصف لأنواع من السكنجبين والربوب والمعاجين والسكنجبين وهو شراب مكون من جزئين من العسل وجزء من الخل وأربعة أجزاء من الماء. ولكن الصيادلة المبدعين من أمثال التميمي أضافوا إليه مكونات تضيف إليه طعما ألذ أو تزيد بعض خواصه العلاجية.

أما المقالة الحادية عشرة فتحتوي على ذكر سكّر العشر والمن الساقط على الشجر وعسل النحل والسكر والمومياء (القار أو الزفت) والنفط والكبريت وغيرها. وفي حديثه عن المومياء يصف عملية تحنيط الفراعنة، وأنها تتم باستخراج المعدة والأمعاء وكل الأجزاء السائلة مثل المخ من الجثة، ثم يحشى الجسم مكان هذه بالمومياء. وهذا هو السبب في تسمية الجثة المحنطة بالمومياء. وفي حديثه عن البترول الخام الذي كان ينبع من الأرض في بعض البلدان يصف المؤلف الخصائص العلاجية لهذه المادة.

وفي حديثه عن الكبريت يتحدث عن استعمال هذه المادة لإحداث شعلة، الأمر الذي يسجل سبقا نادرا، قبل أي حديث عن استعمال الكبريت لهذا الغرض في أوروبا بخمسة قرون. فلا نجد له ذكرا في الغرب إلا عند الألماني جورجيوس أغرِكولا Georgius Agricola (1494-1555) حسب ما ورد عن تاريخ أعواد الثقاب في الموسوعات العالمية [Hamarneh, Health Sciences in Early Islam, I, 72, 89].

وفي حديثه عن أنواع القار والزفت يتحدث عن نوع كان يسمى «قفر اليهود»، وفي بلاد الشام كان يسمى «الحُمَّر». وكان يمزج بزيت الزيتون وتطلى به سيقان وأغصان أشجار الثمار لتقتل الديدان والحشرات الضارة بالزرع. فهنا نجد حديثا عن تقنيات الزراعة

بالإضافة إلى حديث المؤلف عن المعادن والطب.

وفي حديثه عن البحر الميت وفوائد مياهه للعلاج ينتقد المؤلف أطباء اليونان مثل جالينوس على إهمالهم لهذا الجانب. فمياه ذلك البحر معدنية كان الناس يتعالجون بها في عهد المؤلف الذي شاهدهم حين كان مقيما بالقدس الشريف. وهذا موضوع يتم التطرق إليه لأول مرة أيضا في تاريخ الطب. ويصف بعض المواد المستخرجة من حول ذلك البحر كالنفط والمومياء والجبس والحمّر والنطرون (النطرون هو ملح البارود أو نترات البوتاسيوم) والأملاح.

والمقالة الثانية عشرة فيها أنواع الطين والأملاح والبوارق (وهي أملاح تتولد من الأحجار السبخة. ومنه المائي والجبلي والأرمني. والأرمني يسمى بورق الصاغة لأنه يجلو الفضة جيدا. وقد يطلق اسم البورق على النطرون)، والطباشير، والنشادر (وهو كلوريد الأمونيوم. ويسمى بالإنكليزية sal ammoniac) والشبوب (مفردها شبّ وهو ملح متبلر عبارة عن كبريتات الألمنيوم والبوتاسيوم) والزاجات (الزاج هو أحد أنواع الكبريتات المعدنية. فالزاج الأصفر هو كبريتات الخارصين، والأزرق كبريتات النحاس، والأخضر كبريتات الحديد)، والأحجار المستعملة في صنع أنواع الكحل والتنكار (وهو ملح بورقي، عبارة عن «تحت بورات الصوديوم». منه ما يستخرج من الطبيعة ومنه ما يصنّع. ويستعمل في سبك الذهب وتليينه).

والمقالة الثالثة عشرة تبحث في الأحجار الذائبة في النار وما يتخذ منها من الكلوس (جمع كلس). ومن هذه الزئبق والزنجفر والزرنيخ والكبريت والذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها.

أما المقالة الرابعة عشرة الأخيرة فتبحث في الأحجار التي تستعمل دون صهر، كالإثمد واللؤلؤ والياقوت والزمرد والعقيق والإقليميا والتوتياء والمرجان واللازورد والشاذنج والفيروز والمرقشيتا والبلور والزجاج وقشر البيض وزبد البحر والإسفنج والنشادر وخشب الأبنوس والماس والبادزهر والدهنج وحجر العقاب والباهت. وفيه حديث مفصل عن المغنطيس وخواصه.

هذه المعلومات المستفيضة جعلت هذا الكتاب موسوعة هامة في النباتات والمعادن والصيدلة والصناعات الكيميائية. وهو من الكتب الرائدة في هذه المجالات.

في حوالي عام 370هـ/ 980م ألّف التميمي ما يعتبر أكبر الكتب حجما في التلوث البيئي. وهو كتاب «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء». ونستطيع تلخيص محتوياته في المواضيع الآتية:

1 ـ آراء أبقراط وجالينوس وأرسطو وأهرن حول الموضوع؛ 2 ـ شرح أنواع الهواء الملوّث في الأقطار الإسلامية، وعلاقتها بالفصول والأماكن. وهو يضع ريح السموم وغازات البراكين ضمن أنواع التلوث الهوائي؛ 3 ـ الأمراض النّاتجة عن التلوّث وكونها أمراضا معدية؛ 4 ـ الطّرق الصحية للوقاية من العدوى عند حدوث الوباء؛ 5 ـ أنواع البخور التي تعالج تلوّث الهواء.

وكثير منها من صنع المؤلف؛ 6 ـ معالجة تلوث المياه الآسنة الضارة صحيا. وهي أيضا تنتج ملوثات الهواء؛ 7 ـ أدوية تقوي جهاز المناعة ضد العدوى والأوبئة؛ 8 ـ استعمال العطر والموسيقى والعلاج النفسي لتجنب العدوى والوباء؛ 9 ـ تعريف الجدري والحصبة وعلاجهما؛ 10 ـ أنواع العلاجات لمن أصيبوا بالأمراض الوبائية. وهي تشمل المعاجين والأشربة والمساحيق والعطورات والبخورات وغيرها. وكثير من هذه العلاجات من إعداد المؤلف. والدواء الذي ليس من ابتكاره ينسبه صراحة إلى الكتاب الذي نقله منه. وتشغل وصفات هذه العلاجات معظم صفحات الكتاب، حيث يغلب على التميمي صفة الصيدلي في كل مؤلفاته.

وقد طبع الكتاب في القاهرة سنة 1999م. لكاتب هذه الأسطر مراجعة نقدية لهذه الطبعة (البحث المنشور في مجلة المنهل ضمن المراجع). وفي مقدمة المحقق نجد تحليلا لمحتويات الكتاب من الناحية العلمية الحديثة، يخلص فيه المحقق إلى القول: «من كل ما سبق نستنتج أن التميمي يعدّ أول عالم عربي وضع كتابا كاملا عن التلوث وأسبابه وآثاره على الإنسان، والأمراض الناتجة عنه، وكيفية الوقاية من هذا التلوث ومن هذه الأمراض قبل حدوثها، وكيفية علاجها بعد حدوثها. ولقد وضّح أهمية الطب الوقائي ومعالجة عناصر البيئة من ماء وهواء، وتحسين خصائصها قبل استثمارها، بالإضافة إلى ربطه بين عناصر البيئة، وتوضيحه على أن تلوث أحد هذه العناصر يستدعي بالضرورة تلوث العناصر الأخرى. كما عرف دور العوامل الجوية في حدوث الأمراض، وبيّن أنها عوامل مساعدة على نشوء الأمراض، وأن نشوء الأمراض لا يكون بسببها هي، بل الأمراض تنشأ عن خمائر يحملها الهواء معه وتستقر في جسم الإنسان إلى أن تأتي الظروف الجوية المناسبة فتنشط هذه الخمائر وتسبب الأمراض. وهنا نجد التميمي قد تمرّد على نظرية الأخلاط في أسباب الأمراض، وطرح نظرية أخرى مقاربة جداً للتصورات الحديثة عن أسباب نشوء الأمراض. ومع أن التميمي خصص كتابه بشكل أساسي للبحث في تلوث الهواء، يعطي آراء قيمة في مجال تلوث المياه ومعالجتها تتقارب مع آراء العلم الحديث في الوقت الحالي. بل إن بعض هذه الآراء يطبّق حاليا في محطات معالجة المياه الحديثة».

ومن مؤلفاته «جيب العروس وريحان النفوس». وهي رسالة في العطور، لم تذكر عند من ترجموا لمؤلفنا مثل ابن أبي أصيبعة والقفطي. ولكن النويري (677 ـ 733هـ/ 1278 ـ 1333م) لخص الرسالة في اقتباسات مطولة تمثّل أغلب محتوياتها في كتابه «نهاية الأرب» ونسبها صراحة إلى التميمي. وبرغم أن ترجمة التميمي ومؤلفاته وردت في كتاب سزكين المذكور في المراجع، إلا أنه لم يذكر هذه الرسالة إلا في مكان آخر، منسوبة إلى مؤلف يدعى محمد بن أحمد (وهو الاسم الذي يستخدمه التميمي في كل مؤلفاته حين يقول: قال محمد بن أحمد). حيث ذكر أن منها نسخة مخطوطة في إيران. واقتبس القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» فقرات من الرسالة، ونسبها أيضا صراحة إلى التميمي.

نجد في هذا الكتاب أنواع العطور الموجودة في الطبيعة، مثل المسك والعنبر والعود والصندل والسنبل الهندي وزهر القرنفل. ويأتي ضمن الكلام عنها أصناف كل واحد منها، وأماكن استخراجها وتصديرها، وكيفية تحضيرها لتكون مهيئة للاستعمال. ثم يتحدث المؤلف عن العطور التي يتم إعدادها بخلط مواد مختلفة وغليها أحيانا. فمن ذلك الغالية والندّ والرامك والأدهان. ومن المحاليل العطرية المخففة يتحدث المؤلف عن النضوحات والمياه المستقطرة وغير المستقطرة.

إنّ الأصالة التي تمتاز بها مؤلفات التميمي، والمعلومات المبتكرة فيها، جعلت اعتماد الأطباء والعلماء اللاحقين على كتبه واقتباسهم آراءه أمرا حتميا. فمن هؤلاء علي بن رضوان (376 ـ 460هـ/ 1067 ـ 986م) الذي ألّف رسالة بعنوان «تعليق من كتاب التميمي في الأغذية والأدوية»، ذكرها ابن أبي أصيبعة ولم تصل إلينا. فإذا تذكّرنا أن ابن رضوان كان معتدا بنفسه مزهوا بعلمه، ولعا بالنقد الجارح للأطباء المشهورين مثل الرازي وابن الجزار وابن بطلان، فإن عمله حول كتاب التميمي هو اعتراف منه بالقيمة الاستثنائية لأعمال هذا العالم. والذي يطالع قائمة على مؤلفات ابن رضوان التي زادت عن مائة لا يجد من بينها كتابا مماثلا حول الاسترشاد بأي طبيب أو عالم عربي. وإنما له مؤلفات حول التعليق على مؤلفات اليونان مثل جالينوس، أو النقد الجارح كما قلنا لبعض الأطباء العرب.

والطبيب الفيلسوف موسى بن ميمون (ت 601هـ/ 1204م) في كتابه «الفصول» يقتبس من كتاب «المرشد» عشرين مرة [Rosner & Munter: p. 15] وقد ذكر هذان الباحثان أن التميمي ورد ذكره في كتاب ابن ميمون سبع مرات، ولكن مراجعة النص تبيّن أنه ذكر أكثر من ذلك. أما ولفنسون [انظر المراجع] فيذكر أن ابن ميمون ذكر التميمي عشرين مرة.

وابن البيطار (ت 646هـ/ 1248م) اقتبس من كتاب «المرشد» سبعين مرة في كتابه المشهور «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية».

وفي شهر محرم (669هـ/ سبتمبر 1270م) ألّف أبو الحسن علي بن عبد العظيم الأنصاري الأندلسي كتابا حول الترياق، توجد منه عدة نسخ حول العالم بعناوين مختلفة [Hamarneh Origins of Pharmacy, p. 157] وفيه اقتباسات مطولة من كتاب التميمي حول الترياق الفاروق، مع اقتباسات مطولة من مؤلفات رشيد الدين الصوري، ومن مصادر أخرى. ونظرا إلى أن كتاب التميمي وكتب الصوري كلها مفقودة لم تصل إلينا فكتاب الأنصاري يعطينا فكرة عما كتبه هذان العالمان في هذا المجال [On-line Catalogue NLM].

وابن القيّم (ت 751هـ/ 1350م) يقول في كتابه «الطب النبوي»: «قال التميمي في كتاب مادة البقاء: أشد أوقات السنة فسادا وأعظمها بلية على الأجساد وقتان، أحدهما وقت سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر، والثاني وقت طلوعها من المشرق .. الخ».

وقد مرّ بنا أنّ النويري (677 ـ 733هـ/ 1333 ـ 278 1م) اقتبس معظم محتويات رسالة «جيب العروس» في كتابه «نهاية الأرب». وأن

القلقشندي (ت 821هـ/ 1418م) اقتبس أيضا فقرات مطوّلة منها في كتابه «صبح الأعشى».

آثاره

1 ـ جيب العروس وريحانة النفوس، ويسميه صاحب صبح الأعشى «طيب العروس». منه نسخة خطية في مكتبة مجلس شوراي ملي (مجلس الشورى القومي) بطهران برقم 2294 في 170 ورقة من القرن السابع الهجري. والعنوان على هذه المخطوطة «حبيب العروس». وقد وردت معظم محتوياته في «نهاية الأرب» للنويري، كما وردت مقتطفات منه في «صبح الأعشى» للقلقشندي؛ 2 ـ مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء، طبع بتحقيق يحيى شعار عن نسخة وحيدة محفوظة بالمكتبة المارونية بحلب؛ 3 ـ المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات من الأدوية، توجد منه ثلاث نسخ خطية: الأولى في بطرسبورك (لينينغراد سابقا) برقم 5414، الأوراق 204 ـ 272، وهي الرسالة الثانية ضمن مجموع، تم نسخها في القرن الثامن الهجري (14م). والثانية في المكتبة البريطانية (المتحف البريطاني سابقا) برقم Or. 9010 في 98 ورقة. تحتوي هذه النسخة على المقالات السبع الأخيرة. والنسخة الثالثة في المكتبة الوطنية بباريس، برقم 2870، الأوراق 1 ـ 126، وهي الرسالة الأولى ضمن مجموع، مؤرخة في 947هـ (1540م)، تحتوي على المقالات الأربع الأخيرة. وقد طبعت من هذا الكتاب المقالة الرابعة عشرة ـ وهي الأخيرة ـ بعد أن حققت وترجمت إلى الألمانية بقلم المستشرقة يوتا شونفلد Jutta Schonfeld في الكتاب المذكور ضمن المراجع؛ 4 ـ منافع خواص القرآن: ذكر منه سزگين ثلاثا وعشرين (23) نسخة خطية حول العالم، وهناك نسخة أخرى في طشقند ذكرها فرفور والحافظ؛ 5 ـ الفحص والأخبار: وهذا كتاب لم يصل إلينا، وقد يكون عنوانه الصحيح «الفحص والاختبار»؛ 6 ـ مقالة في ماهية الرمد، لم تصل إلينا؛ 7 ـ رسالة إلى ابنه في صناعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما يغلط فيه من أدويته ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعه وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته. لم تصل إلينا؛ 8 ـ كتاب آخر في الترياق، لم يصل إلينا.

كتاب مختصر في الترياق، لم يصل إلينا. وفي كتاب الأنصاري السابق ذكره اقتباسات مطولة عما كتبه التميمي في موضوع الترياق.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. عامر النجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، 4 أجزاء، ج3 ص 361 ـ 366 وج4 ص 32؛ ● ابن البيطار عبد الله بن أحمد، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق، 1291هـ 1875م، وأعيدت هذه الطبعة بالتصوير مرارا؛ ● محمد بن أحمد التميمي، محمد بن أحمد: مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء، تح. يحيى شعار، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، 1999؛ ● سامي خلف حمارنة، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، إربد: جامعة

اليرموك، 1986م، ص 279 ـ 283؛ ● زهير حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، دمشق، وزارة الثقافة، 1995، ج2 ص 263 ـ 265؛ ● عبد الرحمن فرفور، ومحمد مطيع الحافظ: المنتقى من مخطوطات معهد البيروني للدراسات الشرقية بطشقند، دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1416هـ 1995م، ص 136 ـ 137؛ ● قاري، لطف الله، «المؤلفات البيئية في تراثنا العلمي»، مجلة «المنهل»، الإصدار السنوي الخاص، شوال 1423هـ/ ديسمبر 2002م؛ ● سلمان قطاية، مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة بحلب، حلب، معهد التراث العلمي العربي، 1976، ص 321 ـ 329؛ ● علي بن يوسف القفطي، مختصر الزوزني، من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي، تح. يوليوس لپرت Julius Lippert، ليبزك 1903، (وأعيد طبعه بالتصوير مرارا)، ص 105 ـ 106؛ ● القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1913 ـ 1920 (وأعادت نفس الدار طبعها بالتصوير سنة 1963م)، 14 جزءا، ج 2 ص 119 ـ 131؛ ● ابن القيّم، الطب النبوي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، حلب، دار الوعي، الطبعة السادسة، 1986، ص 153؛ ● النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1356هـ/ 1937م، 32 جزءا، ج 12، تحقيق أحمد الزين، ص 1 ـ 141؛ ● إسرائيل ولفنسون، موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355هـ/ 1936م، ص 143.

- Meyerhof, Max, Studies in Medieval Islamic Medicine, collected papers, London: Variorum Reprints, 1984, VIII: 144 and IX: 55.
- NLM (The U.S. National Library of Medicine) on-line catalogue, on their internet site.
- Rosner, F. and S. Munter: The Medical Aphorisms of Moses Maimonides, New York: Bloch Publishing Company and Yeshiva University Press, 1970, p. 15.
- Schonfeld, Jutta, Uber die Steine, Das 14. Kapitel aus dem «Kitab al-Murshid», Freiburg: Klaus Schwartz Verlag, 1976.
- Sezgin, Fuat, Geschichte des Arabischen Schrifttums, Leiden, Brill, 1970, 3: 317-318, 340.
- Ullmann, Manfred, Die Medizin im Islam, Leiden: Brill, 1970, pp. 245, 269-271, 315, 332.
- Ullmann, Manfred, Islamic Medicine, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1976, pp. 47, 48, 87.
- Gari, Lutfallah; «Notes on Air Pollution in Islamic Heritage», Hamdard Medicus, vol.30 (1987), nº. 3, pp. 40-48.
- Gari, Lutfallah, «Arabic Treatises

on Environmental Pollution up to the End of the 13th Century», Environment and History, Vol. 8 (2002), pp. 475-488.

- Hamarneh, Sami K, Origins of Pharmacy and Therapy in the Near East, Tokyo: Naito Foundation, 1973, pp. 109-115, 157.
- Hamarneh, Sami k, Health Sciences in Early Islam, collected papers edited by Munawwar Anees, Blanco (Texas): Zahra Publications, 1983, 2 vols., I: 61-96.
- Hamarneh, Sami K, Catalogue of Arabic Manuscripts on Medicine and Pharmacy at the British Museum, Cairo: Les Editions universitaires d'Egypte, 1975, pp. 73-75.
- Leclerc, Lucian, Histoire de la Medicine Arabe, réédité (de 1876 edition) par Ministère des Habous et des Affaires Islamiques du Maroc, Rabat, 1980, I/ 388-391.

المهندس لطف الله قاري
ينبع ـ المملكة العربية السعودية

التميمي، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة

(45هـ/665م ـ 145هـ/762م)

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي بالولاء، مولى عروة بن أديّة (58هـ ـ 678م) وسواد بشرته يرجّح أنّه إفريقيّ الأصل، ولد على الأرجح بالبصرة حوالي (45هـ ـ 665م). وهو الإمام الثاني لأهل الاستقامة بعد وفاة الإمام الأول جابر بن زيد (93هـ ـ 711م).

أدرك بعضا من الصّحابة منهم: عبد الله بن عبّاس (68هـ ـ 687م)، والبراء بن عازب (72هـ ـ 691م)، وعبد الله بن الزّبير (73هـ ـ 692م)، وأبو سعيد الخدري (74هـ ـ 693م)، وجابر بن سمرة (74هـ ـ 693م)، وواثلة بن الأسقع (83هـ ـ 702م)، وسهل بن سعد السّاعدي (91هـ ـ 709م)، والسّائب ابن يزيد (92هـ ـ 710م)، وأنس بن مالك (93هـ ـ 711م)، صحار بن عبّاس العبديّ (100هـ تقريبا ـ 718م). وهو من الصّحابة، إلاّ أنّنا خصصناه بالذّكر لأنّه أخذ عنه أكثر من غيره، جعفر بن السّمّاك العبدي (بعد 102هـ ـ 720م) تابعيّ، وأبو الشّعثاء جابر بن زيد (93هـ ـ 711م) وهو تابعيّ كذلك.
إنّ هؤلاء الصّحابة الأجلاء وبقيّة شيوخه من أهل الدّعوة وجدوا فيه الأرض الخصبة فبذروا كلّ ما لديهم ليؤتي أكله بعد حين.
فهذا عروة بن أدية مولاه وقد نوّهت المصادر بشجاعته وثرائه وعبادته الشيء الكثير، فد ورّث هذا المولى كلّ تلك الخصال.

وينضاف إليه حديث جابر وفقهه وحسن تدبيره، دون أن ننسى ما أخذ من صحار العبدي من معرفة للأخبار وقدرة على البيان وبراعة في الجدل والاحتجاج.

كل هذه الخصال مكنت هذا الفتى المتفاني في طلب العلم وفي خدمة الجماعة في مركزها الأساسي في البصرة وفي بيت الله الحرام من أن تبوئه المكانة التي تليق به ألا وهي إمامة الكتمان التي تحرص على الاستعداد لإمامة الظّهور.

ولم يكن أبو عبيدة رغم ما آتاه اللّه من علم أن يندفع إلى الاعتداد بالرأي، وإنّما أرسى في مدرسته التعلق بالآثار مما جعلها مدرسة سنية راسخة القدم لا تبتغي عن حديث الرسول عليه الصلاة والسلام وأخبار صحابته بديلا.

وقد قال قبله شيخه جابر في هذا الصّدد: «ومن ضيّع للنّاس أمرا مخالفا للسنّة فإنّه لا يمكن أن يكون على صواب» [جابر بن زيد، الرّسائل، ص 5].

وهاهو الإمام أبو عبيدة يقول: «من لم يكن له أستاذ من الصّحابة فليس هو على شيء من الدّين، وقد منّ الله علينا بعبد اللّه بن عبّاس بن عبد المطّلب عمّ رسول اللّه ﷺ، وعبد اللّه بن مسعود (32هـ ـ 652م)، وعبد اللّه بن سلاّم (43هـ ـ 663م)، وهم الرّاسخون في العلم، فعلى آثارهم اقتفينا، وبقولهم اقتدينا، وعلى سيرتهم اعتمدنا، وعلى مناهجهم سلكنا» [الجيطالي (750هـ ـ 1349م)، شرح النّونيّة، خ/ 24].

فلا قيمة لمذهب ليس له سنده المتين الذي يربطه بالرّسول محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم، ولا قيمة لمدرسة ليس لها مرجع راسخ في العلم، وفي هذا المعنى يقول أبو عبيدة: «كلّ صاحب حديث «من ليس له إمام في الفقه فهو ضالّ مضلّ، ولولا أن من اللّه علينا بجابر بن زيد رضي اللّه عنه لضللنا» [ن.م، ا/ 24].

ولا قيمة للرّأي عند أبي عبيدة إلاّ بعد أن يستنفد البحث في السنّة والآثار.

كيف تأتّى للإمام أبي عبيدة في محيط البصرة بما فيه من ضغط سياسيّ عنيف في تلك الفترة أن يحيي سنّة رسول اللّه ﷺ، وأن ينشر سبل الخير في تلاميذ أجلاّء تمكّنوا من نشرها في أطراف العالم الإسلاميّ آنذاك شرقا وغربا.

لقد تأتّى له ذلك بإقامة مجالس كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع: مجالس الشّيوخ، ومجالس العامّة، ومجالس تكوين الدّعاة [النّامي، دراسات عن الإباضيّة، 101 ـ 104].

وقد جمع مجلس الدّعاة طلبة من الحجاز، واليمن، وعمان، وخراسان، ومصر، والمغرب ممّن كان لهم شأن في مواطنهم في بثّ الدعوة وإرساء قواد إمامة الظّهور، الأمر الذي لم يرد أن يضطلع به أبو عبيدة بنفسه، إذ يعلم أنّه بالإقدام على مثل ذلك في البصرة إنّما يقدم على عمليّة انتحاريّة تفجّر كلّ البناء عن أساسه.

ومن هذا المجلس تخرّج من العراق: مثل أبي غسّان مخلد بن العمرد الغسّاني، وعبد الملك الطّويل الذي تحمّل مسؤوليّة إحدى المجالس العامّة، وأبي سعيد عبد اللّه بن عبد العزيز

الذي رويت عنه كثير من أخبار مدوّنة أبي غانم الخراسانيّ.

ومن الحجاز: أمثال محمّد بن سلمة المدني، وأبي سفيان محبوب بن الرّحيل بن هبيرة القرشيّ المكّي، وأبي الحرّ عليّ بن الحصين.

ومن عمان: أمثال الرّبيع بن حبيب الفراهيدي (175هـ ـ 791م) الذي دوّن ما رواه من أحاديث عن شيخه، وأبي حمزة المختار بن عوف الأزدي (131هـ ـ 748م)، وبلج بن عقبة الفراهيدي (131هـ ـ 748م)، والجلندى بن مسعود (134هـ ـ 751م) (الذي أقام إمامة الظّهور بعمان)، وشبيب بن عطيّة (بعد 131هـ ـ 748م)، والفضل بن جندب (؟).

ومن اليمن: أمثال سلمة بن سعد الحضرمي ناشر الدّعوة في بلاد المغرب، وعبد اللّه بن يحيى الكندي المعروف بطالب الحقّ (131هـ ـ 748م) الذي أقام إمامة الظّهور باليمن، وأبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري الحميري (144هـ ـ 761م) الذي أقام إمامة الظّهور بطرابلس ليبيا، وأبي المؤرّج عمر بن محمّد العمدي وهو واحد ممّن رويت عنهم مدوّنة أبي غانم الخراسانيّ...

ومن خراسان: أمثال هلال بن عطيّة الخراسانيّ، وأبي عبد اللّه هاشم بن عبد اللّه الخراسانيّ، وأبي عيسى الخراسانيّ...

ومن مصر: أمثال محمّد بن عبّاد المصريّ، وعيسى بن علقمة المصريّ.

ومن شمال إفريقيا: أمثال أبي عبد اللّه محمّد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني النّفوسي، وقد أخذ العلم عن الإمام قبل أن يحرّر المسائل، وحملة العلم إلى المغرب وهم: أبو درار إسماعيل بن درار الغدامسيّ اللّيبيّ، وعبد الرّحمان ابن رستم الفارسيّ القيروانيّ الذي أقام إمامة الظّهور بتاهرت بالمغرب الأوسط (171هـ ـ 787م)، وعاصم السّدراتي ولعلّه من المغرب الأوسط، وأبو داود القبليّ النّفزاوي التونسي...

وإنّه لمن المفيد هنا ما دمنا مع الإمام أبي عبيدة الحركيّ أن نعدّد ذكر من أقاموا إمامة الظّهور في حياته وبأمر منه وإثر وفاته لأنّ عملهم لم يكن إلاّ ثمرة مكابدته الطّويلة وتخطيطه القويم.

أمّا في حياته وبمشورة منه ومن معه فكانت:

ـ دولة الإمام طالب الحقّ عبد اللّه بن يحيى الكندي.

ـ دولة الإمام أبي الخطّاب عبد الأعلى المعافري بطرابلس (140 ـ 144هـ/ 757 ـ 761م) [د. عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضيّة، 146].

ـ دولة الإمام الجلندى بن مسعود في عمان وقد انعقدت إثر سقوط دولة الإمام طالب الحقّ باليمن. [ن. م، 116].

وأمّا إثر وفاته فكانت دولة الإمام عبد الرّحمان بن رستم بتاهرت بالمغرب الأوسط (160 ـ 171هـ/ 776 ـ 787م). [بحّاز، إبراهيم بكير، الدّولة الرّستميّة، 110].

ولا يفوتنا هنا أن نبيّن أنّ هذه النّتائج لم يحصل عليها بجهده الخاصّ وإنّما قد أعانه عليها ثلّة من المشائخ الفضلاء هم النّواة

الأساسيّة لأهل الدّعوة نذكر منهم أبا داود حاجب الطّائي، وحيّان الأعرج، وأبا نوح صالح الدّهان، وضمام بن السّائب. وغيرهم كثير. [مبارك الرّاشدي، الإمام أبو عبيدة. ملحق، 2، 585].

لقد عرف أبو عبيدة غياهب سجون الحجّاج بن يوسف وذاق من أصناف عذابها لكنّ هذا لم يثنه عن مواصلة دعوته وحال موت الحجّاج (95هـ ـ 713م) تيسّر له الفرار مع ثلّة من أصحابه فزادهم ذلك عزما على السّعي إلى إقامة إمامة عادلة وقد تمكّنوا من ذلك كما أشرنا آنفا.

وما كان ليتمّ لهم ذلك إلاّ عن طريق الاتّصال الدّؤوب بمركز القيادة لتتبّع تحوّلات الأحداث التي تتحوّل بسرعة في أخريات دولة بني أميّة. وواضح أنّ هذا كان يتمّ في منهج الإمام السّياسيّ بمسلكين واضحين.

أولهما: اللّقاء في موسم الحجّ.

ثانيهما: المراسلات وعادة ينقلها أنصار ثقات مغمورون.

وبهذا تمّ لأبي عبيدة بناء مجتمع مترابط الأواصر رغم بعد الدّيار لأنّه يقوم على منهج واحد. [الجعبيري، أبو حمزة الشّاري، ط عمان د.تا. 30].

فللرّجل باع في جميع علوم عصره من تفسير وحديث وكلام وفقه، ونلحّ خاصّة على عطائه في بابي الحديث والفقه، ذلك أنّ سلسلة سند الحديث عند الإباضيّة تقوم على ثلاثيّة محورها الأوّل أبو عبيد. أمّا عن الفقه فهو بدون منازع فقيه أهل الدّعوة في زمانه وإمامها ومرجع الفتوى في كلّ ما يطرأ من القضايا المستجدّة وإليه يرجع الفضل بعد الإمام جابر بن زيد في إرساء منهج المدرسة الإباضيّة في الفقه وهو يقوم على الأخذ بالقرآن الكريم ثمّ بالسنّة الشّريفة ثمّ بالإجماع والقياس [الرّاشدي، الإمام أبو عبيدة، 451 ـ 465].

■ آثاره

1 ـ رسالة لأهل المغرب في الزّكاة حقّقها مبارك الرّاشدي ضمن دراسته الموسومة بـ: الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي وفقهه 45 ـ 145 مطابع الوفاء المنصورة ط 1 1413هـ ـ 1993م ص497 ـ 572؛ 2 ـ رسالة الإمامين أبي عبيدة وحاجب بن مودود الطّائي إلى أهل المغرب. [الرّاشدي، الإمام أبو عبده ملحق 1، ص597، 583]؛ 3 ـ مسائل أبي عبيدة خ 38 صفحة (غير كاملة في حوزة الشّيخ يوسف العطفاوي، العطف، مزاب) [النّامي، دراسات، ص 298].

■ المصادر والمراجع

● أبو زكرياء، السّيرة وأخبار الأئمّة، تحقيق عبد الرّحمان أيّوب، ط 1 الدّار التّونسيّة للنّشر 1405، 1958، المطبعة العربيّة التّونسيّة 55؛ ● الدّرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، مطبعة البعث الجزائر، إخراج إبراهيم طلاّي ط. 1 د. تا، 1974. 2/ 238 ـ 246؛ ● الشّماخي، كتاب السّير، وزارة التّراث القوميّ والثّقافة، سلطنة عمان، تحقيق أحمد بن سعود السّيابي. 1/ 87؛ ● النّامي، دراسات عن الإباضيّة، ترجمة ميخائيل خوري، مراجعة د. ماهر جرّار. دقّق

أصوله وعلّق عليه د. محمّد صالح ناصر ـ د. مصطفى صالح باجو، دار الغرب الإسلاميّ ط. 1 2001، 95 ـ 108؛

● مبارك بن عبد الله الرّاشدي، الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي وفقهه، مطابع الوفاء، المنصورة ط 1، 1413هـ ـ 1993م، ص 45، 145؛

● معجم أعلام الإباضيّة من القرن الأوّل الهجري إلى العصر الحاضر قسم المغرب الإسلاميّ، دار الغرب الإسلاميّ 1420هـ ـ 1999م. ط2، 418 ـ 420؛ ● فرحات الجعبيري، أبو عبيدة ضمن تراجم أخرى، ط. النّهضة عمان 2001.

د. فرحات الجعبيري
جامعة تونس

التميمي، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم

(251هـ/865م ـ 333هـ/945م)

أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم الدارمي التميمي. فقيه مالكي ومحدّث ومؤرّخ وشاعر، من مدينة القيروان، توفّي في 8 ذي القعدة سنة 333هـ/ 23 جوان 945م، ودفن بمقبرة باب سلم بالقيروان.

انحدر من أسرة عربيّة عريقة، كان جدّه الأوّل أبو الجهم تمام بن تميم عاملا على مدينة تونس، وقد ثار على الوالي محمد بن مقاتل العكي، وتمكّن من الاستيلاء على القيروان سنة 183هـ/ 799م. غير أن تدخّل إبراهيم بن الأغلب لإعادة الشرعية، أفضى إلى هزيمة ابن عمّه تمام، ونفيه إلى بغداد حيث توفّي في السجن سنة 187هـ/ 803م. وذكر والده أحمد من بين الطلبة الذين أخذوا عن شجرة بن عيسى، وسليمان بن عمران.

ولد أبو العرب سنة 251هـ/ 866 ـ 865م، وسكن مدينة القصر القديم، أو العباسية، جنوب القيروان ببضع كلمترات، في وسط أميري؛ فتربّى على اللباس الفاخر وحياة البلاطات في صباه، زمن حكم بني الأغلب التميميين.

غير أنّه فضّل حياة طلبة العلم على ذلك، وتركه ما كان عليه آباؤه، حسب عبارة ابن ناجي. فأخذ من عدد من علماء إفريقية من أصحاب سحنون، بلغ عددهم حسب الدباغ مائة وخمسة وعشرين شيخًا. وكان من بينهم: عيسى بن مسكين، ويحيى بن عمر صاحب كتاب «أحكام السوق»، وقاضي الجماعة عبد الله بن أحمد بن طالب، وسليمان بن سالم، والمتكلّم سعيد بن محمد بن الحداد، وأحمد بن معتب، وعبد الجبار بن خالد، وحمديس القطان، وجبلة بن حمود الصدفي.

وأضاف عياض أبا داود العطار، ومحمد بن مسكين، وسهل القبرياني، وحماس وحبيب بن نصر، وابن أبي سليمان، وسعيد بن إسحاق.

أمّا طلبته، فقد ذكر منهم الفقيه محمد بن أبي زيد صاحب كتاب الرسالة والنوادر والزيادات، وأبو عبد الله الحسين بن سعيد الخراط الذي نقلت عنه المصادر روايات في شيخه حسن بن مسعود في ابن فرحون، وهو خطأ، وزياد السدري (السروي حسب ابن فرحون). تولّى التدريس، غير أنّ دروسه لم تعد مقتصرة على حلقات ضيّقة، بعد سيطرة الفاطميين على إفريقية سنة 297هـ، وكان عمره وقتذاك ناهز الأربعين، إنّما تحوّل إلى خطيب للعامة، وإلى محرض على القيام على الفاطميين ومشارك في حركة أبي زيد مخلد بن كيداد النكاري الإباضي في حرب الشيعة، ابتداء من سنة 332هـ. قال عياض: ودارت عليه محنة من الشيعي، حبسه وقيّده مع ابنه مدّة، بسبب بني الأغلب والتهمة في السلطان. وهو أحد مَنْ خرج لحرب بني عبيد وحصار المهدية وسمع عليه هناك كتاب «الإمامة» لمحمد بن سحنون. وتوفّي بسبب هذه المحنة مسجونا.

قال ابن فرحون: كان حافظًا للمذهب مفتيا (وفي ترتيب المدارك عياض: معتنيا به) وغلب عليه الحديث والرجال وتصنيف الكتب والرواية والأسماع. وأضاف ابن ناجي: كان فقيها صالحا صحيح التقييد ضابط الرواية كثير التأليف والمشائخ، وكان موفقا في التأليف مُعَانا عليه وهو رافع لواء التاريخ بإفريقية مع تقدّمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث. كما كان يصنع الشعر ويجيده.

كل مصادر المغاربة والمشارقة تجمع على وصفه بالحافظ المحدّث. أورده الذهبي في تذكرة الحفاظ الذي خصّصه لهذه الطبقة من المحدّثين، 3/ 883، ونعته ابن حجر بحافظ القيروان [اللسان، 7/ 94]. وقال ابن العماد كان ثقة حافظًا نبيلا [الشذرات، 2/ 334] ووصف تلميذه الخشني هذا الجانب من علمه فقال في طبقاته: تغلب عليه الرواية والجمع [ص 173].

وتتركّز جهوده في الرواية في ثلاثة محاور، أولها التأليف في مسائل منتقاة وهذا ما تبيّنه لائحة كتبه كعوالي حديثه، والجنائز وذكر الموت وعذاب القبر، والوضوء والطهارة، وسند حديث مالك، وثانيها تقصّيه لمرويات محدّثي افريقية المتقدّمين عنه وحرصه على جمعها، كان دائم التنقيب عنها وكتب ما وقع له منها ويشير في كل مناسبة إلى توجّهه البحثي هذا. وثالثها روايته لمعظم مصنّفات الحديث التي كانت موجودة بإفريقية في وقته، كالموطأ، وجامع سفيان الثوري الكبير [الطبقات، 220] وجامعة الأوسط ومسند محمد بن سنجر وجامع عبد الله بن وهب، وكتب محمد بن سحنون كالمسند وغريب الحديث وشرح الموطأ [شواط، مدرسة الحديث، 2/ 695]، ومصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني [ط. الخشني، 173] وكتب خالد عبد الرحمن بن زياد الافريقي [ط. أبي العرب، 100] وغيرها من كتب الأفارقة والمشارقة في الفقه، والتفسير، والتاريخ، والمغازي، والآثار التي أشار إليها في ثنايا طبقاته.

كما اشتهر بأنه رافع لواء التاريخ بإفريقية،

وتخصّصه الدقيق فيه هو تاريخ الرجال الذي ركّز فيه على توثيق حياة حَمَلَةِ العلم ببلده، واهتمامه بهذا الفن التاريخي هو أحد مقومات محدّثيه كحافظ شهير في عصره. وهو في ذلك شبيه بالحافظين الذهبي وابن حجر اللذين اهتمّا لاحقا بهذا الفنّ وأكثرا من التآليف فيه خدمة للحديث وعلومه، لأن تاريخ الرجال والطبقات هو من الاختصاصات المهمّة للمحدّثين لارتباطه الشديد بدراسة الاسناد وتوثيق الروايات والجرح والتعديل لذلك أفرد له أبو العرب ثلثي (3/ 2) مجموع مؤلّفاته التي وصلتنا أخبارها [انظر فقرة تصانيفه].

وأهمّ أعماله في هذا المجال كتابه «ثقات المحدّثين وضُعفائهم» الذي خصّصه للنقد ووصلتنا عنه نقول كثيرة في المؤلّفات اللاحقة، وكتاب طبقات علماء افريقية، وهو من أوّل كتب الطبقات ببلاد المغرب وصلتنا منه النسخة التي رواها محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت 361هـ/ 971م)، وأضاف إليها فصولا أخرى. ويمكن تقسيم الكتاب المذيل عليه إلى سبعة أقسام: خصّت الثلاثة الأولى، وهي من تأليف أبي العرب، لعلماء القيروان من بداية الفتح إلى أواسط القرن الثالث هجري/ التاسع ميلادي، وذكر محمد بن الحارث الخشني في بداية فقراتها (قال تميم، قال محمد بن أحمد بن تميم، قال أبو العرب)، وقد تخلّلتها تعليقات للخشني وردت ضمن النص الأصلي.

أما الأقسام الثلاثة، الموالية، فهي من تأليف الخشني، الذي حرص على نسبتها إلى نفسه للتفرقة بينه وبين أبي العرب، إذ كثيرا ما أردفها بعبارة: قال محمد بن الحارث، وتعرّض فيها لأعلام المذاهب المختلفة الذين عاشوا في عصر قريب منه بين أواسط الثالث هجري، وبداية الرابع هجري. فتناول تباعا الأبواب التالية: فقهاء المالكية؛ وباب ذكر الرجال العراقيين: ذكر فيه علماء الحنفية؛ و باب من انتحل النظر وتحلّى بالجدل من أهل السنة؛ وباب من تشرق (بمعنى تشيّع)؛ وباب من دارت عليه محنة من السلطان من علماء القيروان؛ وباب أسماء قضاة القيروان.

وأمّا القسم السابع، فهو لأبي العرب، ويخصّ علماء مدينة تونس. وقد أرفق اسم الكتاب والمؤلّف في كل جزء باسم المالك له، وهو أحمد بن محمد الطلمنكي (ت 429هـ/ 1039م).

اعتمد فيه أبو العرب على روايات شيوخه، وخصوصا أحمد بن يزيد القرشي، وجبلة بن حمود الصدفي، وبكر بن حماد التاهرتي، وفرات بن محمد. وضمّنه تراجم متفاوتة الأهمّية، تعرض فيها لاسم العلم ونسبته وكنيته إلى شيوخه وطلبته ورحلته وتاريخ ولادته ووفاته أحيانا، وإلى الأخبار التي رواها وغيرها من المعطيات. وإذ خصّت هذه التراجم العلماء والزهاد والمتكلّمين دون غيرهم، فإنّها أهملت ذكر مصنّفاتهم، وتاريخ وفاتهم.

ولئن اقتصر كتاب أبي العرب على الترجمة لأعلام الثلث الأوّل من القرن الرابع هجري، فإنّ مصادر عديدة [رياض النفوس، وترتيب المدارك، ومعالم الإيمان، ووفيات الأعيان] أحالت عليه ترجمة أعلام من النصف الثاني من القرن الثالث ومطلع القرن الرابع، على

الرغم من أنّ هذه الأخيرة لا أثر لها في كتاب الطبقات الذي وصلنا. فقد ذكر مثلا ابن خلّكان [ج3، ص 182] رواية عن سحنون اعتمادا على كتاب الطبقات، غير أنّ هذا الخبر غير موجود في طبقات أبي العرب، وهو ما يعني أنّ النسخة التي وصلتنا ناقصة أو ربّما مختصرة.

آثاره

ألف أبو العرب التميمي عديد المصنّفات في الفقه والحديث، والتاريخ، وقد أخطأ فؤاد سزكين حين نسب «كتاب ما جاء من الحديث في النظر إلى الله» إلى أبي العرب، إذ يتّضح من الفقرة التي نشرها الزركلي من مخطوطة القيروان أنّ الكتاب من تأليف أبي عبد الله محمد بن الوضاح، وأنّ الاسم الوارد في الأسفل (محمد بن أحمد بن التميمي) هو مالك هذا المصنّف.

1 ـ كتاب المحن، ذكره ابن خير، وعياض، وابن فرحون. وقد تضمّن المحن التي تعرّض لها المسلمون، من الصحابة والزهاد والفقهاء والمحدّثين والولاة، مستعرضًا وفق الترتيب الزمني أصناف هذه المحن، من تهديد وسجن وضرب وتعذيب وإبعاد وقتل وصلب وسقي السم، ومنتهيا في كلّ فصل بما خص إفريقية. وفرق أبو العرب في أجزاء كتابه الخمسة بين طرق المحنة العنيفة التي لقي فيها أصحابها الموت، والوسائل الأقلّ عنفا.

وقد أبدى فيه مؤلفه عداده للمذاهب الأخرى، خصوصًا أنّه أُلّف في حقبة خيّمت عليها محنة المالكية في ظلّ السيطرة الشيعية. ونتبيّن من خلال آخر علم ترجم له اسحاق بن أبي المنهال الذي كان قاضيا عند وفاة عبيد الله المهدي، أنه ألّف بعد سنة 322هـ/ 934م؛ تح. يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1982؛ 2 ـ طبقات علماء إفريقية، ذكره عياض وابن فرحون والدباغ.

طبع الكتاب لأوّل مرّةسنة 1332هـ/ 1915م، تح. محمد بن أبي الشنب، اعتمادا على نسخة أندلسية، وطبع عزت العطار الحسيني الكتاب ثانية بالقاهرة سنة1954م، اعتمادا على تحقيق ابن شنب. وأعاد علي الشابي ونعيم اليافي تحقيقه، اعتمادا على طبعة ابن شنب، مع كثيرمن الحواشي، وحذف الجزء الذي ألفه الخشني؛ 3 ـ في ثقات الرجال وضعفاهم،ورد ذكره في طبقاته بطريقتين مختلفتين، ص26، 29، في ثقاة المحدثين وضعافهم، في طبقات الرجال. وفي كل أحوال فقد ألف قبل كتاب الطبقات؛ 4 ـ كتاب فضائل مالك، ذكره عياض وابن فرحون؛ 5 ـ كتاب فضائل سحنون، ذكره القاضي عياض وابن فرحون، وفي ابن خير، مناقب سعيد بن سحنون وسيرته وأدبه؛ 6 ـ كتاب مناقب بني تميم، ذكره عياض وابن فرحون، واقتصر الدباغ على ذكر كتاب مناقب، وجاء في البغدادي [هدية العارفين، ج2، ص 37] مثالب بني تميم، وهو تصحيف واضح؛ 7 ـ مسند حديث مالك، ورد في كل من المدارك والمعالم والديباج؛ 8 ـ كتاب في الصلاة، ذكره عياض وابن فرحون؛ 9 ـ كتاب الجنائز وذكر الموت وعذاب القبر، ذكره عياض وابن فرحون؛ 10 ـ كتب عوالي حديثه، كذا، ذكره عياض وابن فرحون؛ 11 ـ كتاب عباد إفريقية، ورد في كل من المدارك والمعالم والديباج وكشف الظنون؛

12 ـ كتاب التاريخ، في 17 مجلّدا حسب عياض والدباغ، وفي سبعة مجلّدات حسب ابن فرحون، و11 مجلّدا حسب البغدادي، وهو تصحيف، كما ذكره ابن حجر [لسان الميزان، ج3، ص 233]؛ 13 ـ موت العلماء، في جزئين، ذكره عياض وابن فرحون؛ 14 ـ كتاب الضعفاء، أفاد منه ابن حجر في لسان الميزان.

المصادر والمراجع

● المالكي، كتاب رياض النفوس، تح. البشير البكوش، بيروت 1981، ج2، ص 306 ـ 312؛ ● الخشني، قضاة قرطبة، بيروت 1982، ص226 ـ 227؛ ● القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح. محمد بن شريفة، المحمّدية، المغرب، د.ت، ج5، ص232 ـ 326؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج3، ص182؛ ● ابن ناجي، معالم الإيمان في معرفة علماء القيروان، تح. محمد ماضور، تونس 1978، ج3، ص36 ـ 39؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، د.ت، ص233؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ج3، ص889؛ ● ابن حجر، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1971، ج3، ص233؛ ● م.ن، الإصابة، بيروت، ج1، ص 677؛ ● ابن خير، الفيرست، بيروت 1979، ص 522، 532؛ ● ابن الأبار، الحلة السيراء، تح. حسين مؤنس، القاهرة، 1985، ص88 ـ 93؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص1122؛ ● البغدادي، هدية العارفين، استانبول 1955، بيروت، دار إحياء التراث، د.ت، ج2، ص37؛ ● حسن حسني عبد الوهاب، المنتخب المدرسي، القاهرة 1944، 38 ـ 37، ومجمل تاريخ الأدب التونسي، ط. مكتبة المنار، ط. مزيدة تونس 1968، 80 ـ 82؛ ● محمد بن شنب، طبقات أبي العرب، تح. وتر. إلى الفرنسية، الجزائر 1915 ـ 1920؛ ● كحّالة، معجم المؤلّفين، دمشق، مطبعة الترقي، 1959، ص243؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، 1986، مج5، ص309؛ ● فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، مج1، ج2، الرياض 1983، ص236 ـ 237؛ ● أسعد سالم قسيم، علم المحدّثين، الرياض 1994، ص176 ـ 180؛

- Brockelmann, G.A.L., SI, p.228;
- CH. Pellat, Abu-l-Arab, E. I., T 1, p. 109.

د. محمد حسن

جامعة تونس

د.محمد الناصر الزعايري

جامعة الزيتونة ـ تونس

التميمي، عـروة بن حـديـر بن عمرو

(ت 58هـ/678م)

هو عروة بن حدير بن عمرو بن عبيد بن كعب التميمي، وهو أخو الداعية الشاري المشهور أبي بلال مرداس بن حدير.

نشأ بالبصر مثل أخيه، وشهد مع الإمام علي واقعة صفين، وكان من أنصاره الأقوياء، ولكنه أنكر التحكيم إنكارا شديدا، ويروى أنه أول من قال «لا حكم إلا لله».

كان ممن شهد النهروان سنة 38 هـ، ونجا من القتل.

التجأ إلى البصرة موطن بني تميم، وكان له بها أتباع، وشيعة. و لا ندري أي الأخوين أكبر مرداس أم عروة! ونرجح أن عروة كان الأكبر، كما نستشف ذلك من الحوار الذي جرى بين عبيد الله بن زياد وعروة قبل مقتله سنة 58 هـ.

كان عروة صاحب علم، وتقوى، وورع اشتهر بها عند الشراة. قيل له: لِمَ لا تحدثنا مما عندك من العلم؟ قال: أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة، فأخسر [محمد يوسف، السمير الواعظ، د. ت، 2/ 27].

وهو ممن غدا مثلا في الجرأة على قول الحق، ومواجهة الطغاة، وتروي كتب التاريخ والأدب مواقفه من زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله بن زياد بكثير من الإعجاب.

يروي الطبري أن ابن زياد كان قد خرج في رهان له، فلما جلس ينظر الخيل اجتمع الناس، وحسبها عروة مناسبة ليقول كلمة الحق صادعة، وابن زياد في أوج جبروته، وأبهته ليذكره بمصير الظالمين في الآخرة، فانطلق يقول له: خمس قد كن في الأمم قبلنا قد صرن فينا، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: 128]. ففهم ابن زياد من كلامه أنه بداية فتنة، فقام وترك رهانه، وأضمر الشر لعروة الذي أدرك خطورة ما قام به، فتوارى.

غير أن ابن زياد طلبه حتى قبض عليه، ومثل به أمامه، وكان عروة آية في التجلد والصبر، فقال له ابن زياد: لأمثلن بك، فقال لعروة: اختر لنفسك من القصاص ما شئت. فلما أمر به فقطعت يداه ورجلاه، فقال: كيف ترى؟ قال: أفسدت علي دنياي، وأفسدت عليك آخرتك، فأمر به وقتل، وصلب على باب داره، وأرسل إلى بنته فقتلها.

وتورد كتب التاريخ والأدب تفاصيل أخرى كلها تشهد لعروة بالإيمان الراسخ، والصبر القوي [لسان الميزان، ج 4؛ شرح النهج، 1/ 38؛ العقد الفريد، 1/ 271؛ الطبري، تاريخ، 5/ 175؛ المبرد الكامل، 2/ 90].

وقد عرف عروة إضافة إلى خصائصه الجهادية المشار إليها آنفا بعلمه، وتواضعه، وأخلاقه

الإسلامية العالية، وكان أبو عبيدة مسلم - الذي سيصبح زعيما للإباضية خلفا لجابر بن زيد مولى لعروة بن حدير - مما كان له أبلغ الأثر في مسيرة حركة الدعوة، ولعل أثره لا يقل نجاعة وأهمية عن أثر أخيه مرداس، ولكن كتب التاريخ لا تحله محله اللائق به، وقلما قرأنا من يحاول إبراز دور عروة في مسيرة الحركة الإباضية، اللهم إلا إشارات عابرة هنا و هناك..

ويقال عن عروة إنه كان شديد العبادة، منقطعا إليها، حتى قال عنه مولاه في وصفه: «ما أتيته بطعام بنهار قط، ولا فرشت له فراشا بليل قط» [المبرد الكامل، 2/ 135].

وتدل الأحداث التي توردها المصادر على أن استشهاد عروة كان قبل أخيه مرداس بثلاث سنوات، وكان أيام خروج مرداس مع أتباعه شاريا في حكم عبيد الله بن زياد، وليس في أيام زياد بن أبيه كما ذهبت إلى ذلك بعض المصادر [إحسان عباس، شعر الخوارج، 66].

■ آثاره

تنسب بعض الأشعار إلى عروة وهي قليلة جدا، ونورد هنا بعض ما عثرنا عليه من المصادر، من ذلك قوله:

لعمركَ ما بالموت عارٌ على الفتى
إذا ما الفتى لاقى الحِمَام كريما
ولكنما ضرُّ الحياة وعارها
أحال عليهِ أن يموت نميما

[الأعلام، ج1/ 82]

وقوله:

أيحرم أهل الشام منا بشبهة،
وليسَ علينا قتلهم بمحرم

وقالوا: كتابُ الله يحكم بيننا فقلنا: كتاب الله خير محكّم

[معجم الأعلام، 2/ 290]

■ المصادر والمراجع

● جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م، 2/ 289؛ ● ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تح. أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1965م، 1/ 380؛ ● الدرجيني، طبقات المشايخ، تح. طلاي إبراهيم، مطبعة البعث، قسنطينة، (د. ت) 2/ 214، 226؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1404هـ/ 1984م، 5/ 16 - 17؛ ● الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1963 م، 6/ 175؛ ● المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، (د. ت)، 2/ 190؛ ● ناصر، محمد صالح، منهج الدعوة عند الإباضية، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، 1997 م، 91؛ ● القاضي، نعمان، الفرق الإسلامية، دار المعارف، مصر (د. ت)، 169.

د. محمد صالح ناصر
جامعة الجزائر

التميمي، القعقاع بن عمرو

(ت 40هـ/661م)

القعقاع بن عمرو التميمي، قائد وشاعر، يعدّ في الطبقة الأولى من الأبطال الشجعان الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. وهو من الصحابة، قدم إلى رسول الله ﷺ في وفد بني تميم. روي عنه أنّه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ما أعددتَ للجهاد ؟ قلتُ: طاعة الله ورسوله والخيل. قال: لك الغاية.

وقال أيضًا إنّه شهد وفاته.

أوّل جهاد عرف للقعقاع كان امتثاله لأمر الخليفة الرّاشد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فقاد حملة ضدّ علقمة بن علاثة المرتّد. ثمّ يمضي القعقاع على رأس كتيبته «الخرساء» ملبّيًا نداء الواجب، دون تعب وتردّد، فيشارك في معارك الفتح في الشام، والعراق، وبلاد فارس. يقول عن نفسه:

ويَدْفعونَ قعقاعاً لكلِّ كريهةٍ
فَيُجيبُ قعقاعٌ دعاءَ الهاتفِ

ولقد تناقل الكتّاب والمؤرخون أخباره، وأشادوا بشجاعته وحسن بلائه في القتال، وجودة تدبيره في قيادة الرجال، حتى أن الخليفة أبا بكر، عندما أرسل القعقاع لمساندة خالد بن الوليد في حصار الحيرة قال: لا يهزم جيش فيه مثله.

ويذكر المسعودي أن القعقاع، في يوم أغواث وهو من أيام القادسية، قد حمل ثلاثين حملة، كل حملة قتل فيها واحداً من كبار الفرس وكان آخر من قتل من عظمائهم يقال له بزرجمهر وفيه يقول القعقاع:

حبوتُهُ جيّاشةً بالنّفسِ
هدّارةً مثل شعاعِ الشمسِ
في يومِ أغواثَ قتيلُ الفُرسِ
انحسَ بالقومِ أشدُّ النَّحْسِ
حتى يُفيضَ معشري ونفسي

وإليه يعود الفضل بانتصار المسلمين في القادسية، إذ أنّه أشار عليهم بوضع البراقع على وجوه الإبل وسيّرها بركابها عشرة عشرة، تدفعها الفرسان بجيادها على خيول الفرس، الذين لم يستطيعوا إخراج فيلتهم لأن صناديقها كانت قد تكسّرت، فتبدّد شملهم واندحروا، وكابدوا من الإبل ذلك اليوم، أعظم ممّا كابد المسلمون من الفيلة.

لم يهدأ هذا الفارس إلاّ بعد اغتيال الإمام علي رضي الله عليه، إذ أنّه آثر الانكفاء في الكوفة، حيث توفي. وكان القعقاع قد شهد إلى جانب الإمام علي وقعة الجمل وغيرها من الوقائع.

للقعقاع شعر، وصلنا منه القليل، وأكثره أراجيز، ارتجلها في غمرة الوغى، كان يقاتل بسيفه وصوته، يكبر ويرتجز، فيشجّع

المحاربين ويزيدهم حماسة واندفاعاً في القتال، حتى قيل إنّ صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل.

يشكل شعر القعقاع بمجمله نموذجاً من الشعر الحربي، فهو يقدّم لنا جردة، تكاد تكون كاملة، بالوقائع والأيام التي انخرط فيها الشاعر، وبأسماء الأشخاص والقبائل المشاركة في خوضها، وبالأسلحة والأعتدة التي استعملت فيها.

مثال ذلك قوله:

ألم تسمعْ بمعركةِ الهبودِ
غداةَ الرّومُ حافلةُ الجنودِ

غداةَ الرّومُ صَرْعى في يَبابٍ
تُنَهْنِهُها القبائلُ مِنْ ثَمودِ

تجاوبُ عاصماً فُرْسٌ ورومٌ
وأوْباشٌ من الأُمَمِ الرّفودِ

نصارى ليس يَنْهاها رشيدٌ
وأخرى من ضوالِعَةِ اليهودِ

وباقي تَغْلِبٍ وبني أَيادٍ
وحَيُّ النَّمْرِ رهطِ أبي كنودِ

ينضح شعر القعقاع بصدق الإيمان، والرضى بالموت في الجهاد، والتغنّي بشجاعة قومه وبالانتصار على الأعداء، كقوله:

وَجَدْنا المسلمين أَعَزَّ نَصْراً
وخَيْرَ الناسِ كُلِّهِمُ اقتِدارا

وقوله:

أَلَمْ تَرَنا على اليرموكِ فُزْنا
كما فُزْنا بأيّامِ العراقِ

وقوله:

وسائلْ نَهاوَنْداً بنا كيف وَقْعُنا
وقد أَثْخَنَتْها في الحروبِ النّوائبُ

ولا ينسى القعقاع أن يفخر في شعره وأراجيزه بنفسه، فيذكر شجاعته وأعماله البطولية. يقول:

أنا الهمامُ الفارس القعقاعُ
ليثٌ شجاعٌ ضيغمٌ مُطاعُ

وبحُسامي تنشوي الأصلاعُ
وتقطعُ الهاماتُ والأضلاعُ

وللأعادي طالَ منّي الباعُ
وسيّدٌ مُهَذَّبٌ شُجاعْ

غير أنّ هذا الفخر يجيء في إطار الفخر بقومه وجماعته، يقول:

كم من أبٍ لي قد وَرِثْتُ فِعالَهُ
جَمِّ المكارِمِ بَحْرُهُ تَيّارُ

كان شعر القعقاع، على ما قال أحد جامعيه، «صورة لحياته الحربية ولوناً متألقاً من ألوان فروسيته التي لم يتطرق فيها إلى أي موضوع آخر».

المصادر والمراجع

● الترمانيني، د. عبد السلام، أحداث التاريخ الإسلامي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب في الكويت، 1408هـ/ 1988م؛ ط2، 1/ 263، 287، 383 ـ 384؛ ● ابن عبد البرّ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح. علي محمّد البجاوي، القاهرة، 3/ 1283؛ ● الجزري، علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح.

وتعليق الشيخ علي محمد معوّض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية - بيروت ، 4/ 390؛ ● العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تح. علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1412هـ/ 1992م، ط1، 5/ 450 - 452؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ، 2002، ط 15، 6/ 48؛ ● الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، بيروت، (حوادث السنوات من 12هـ إلى 21هـ)؛ ● القيسي، د.نوري حمّودي، شعراء إسلاميون، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، 1405هـ/ 1984م، ط2، ص11-51؛ ● الجزري، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، 1398هـ/ 1978م، (حوادث السنوات من 12هـ إلى 21هـ)؛ ● المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1970، 3/ 57؛ ● الأبشيهي، الشيخ شهاب الدين أحمد، المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، 1/ 266؛ ● البستاني، بطرس، معارك العرب، دار المكشوف، بيروت، 1944، ط1، ج1/ 19-21؛ ● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، (مادة: أغواث، بُزاخة، الثّني، جَلُولاء، الحُصَيْد، حُلوان، فِحْل، ماهان، المُصَيَّخ، نَهاوَنْد، الواقوصة، وايَه خُرد، الوَلَجة، يرموك)؛ ● علي، د. جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد، 1978، ط2، 4/ 229 و5/ 225؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل ابن أيبك، الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز شتاينز، شتوتغارت، باعتناء وداد القاضي، 1412هـ/ 1992م، 24/ 264.

د. أنطوان القوال
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

التّميمي، محمد بن أبي بكر القيرواني

(422هـ/1022م ـ 512هـ/1119م)

محمد بن عتيق أبي بكر بن محمد هبة الله أبي نصر، بن علي بن مالك، التميمي، القيرواني، أبو عبد الله، يعرف بابن أبي كُدَيَّة.

لم ينصّ أحد من مترجميه على تاريخ مولده ولا على مكانه، غير أنّ نسبته إلى القيروان ودراسته فيها أوّل نشأته توحي بأنّه ولد هناك. وقول الذهبي إنّه توفي عن نحو من تسعين سنة [سير أعلام النبلاء، 19/ 418] وقوله في موضع آخر: جاوز التسعين [طبقات القراء 2/ 713]

أكثر تحديداً من قول ابن الجزري أنّه ولد في حدود العشرين وأربعمائة، مما يرجح الاعتقاد بأنّ مولده كان في حدود عام 422هـ.

درس القيرواني علم الكلام والأصول على أبي عبد الله الحسين بن حاتم الأزدي الأصولي صاحب القاضي أبي بكر محمّد بن الطيّب الباقلاني (ت 403هـ) مؤلف «إعجاز القرآن» وأخذ الحديث عن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ الأندلسي (ت 463هـ) صاحب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» وذلك في القيروان.

ثمّ رحل إلى مصر وسمع الحديث من القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت 454هـ) قاضي مصر، وأخذ القراءات على أبي العباس أحمد بن سعيد بن أحمد المعروف بابن نفيس (ت 453هـ) وذلك سنة (422هـ). ويبدو أنه أقام طويلاً في مصر لأن ابن عساكر يذكر أنه قدم دمشق مجتازاً إلى العراق قبل سنة (480هـ)، [تاريخ دمشق، 57/ 147] ولأنه حين دخل دمشق أقرأ علم الأصول فأخذه عنه جماعة، منهم أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي (ت 542هـ) مسند الشام. وحدّث في صور فسمع منه الفقيه نصر المقدسي.

ثم توجه إلى بغداد فأقرأ علم الكلام والقراءات بالمدرسة النظامية زماناً. قرأ عليه أبو الكرم الشهرزوري (ت 550هـ) شيخ القراء في بغداد في زمانه ومؤلف «المصباح في القراءات العشر».

وفي بغداد استقرّ حتّى نهاية حياته، يقرئ الطلبة ويدرّس علوم القراءات وعلم الكلام والأصول. وقرأ عليه جماعة من أهل العلم بالعراق.

وممّن روى عنه أبو عامر العبدري، وعبد الحق اليوسفي وأبو طاهر السلفي وآخرون وكان متحمّساً لمذهب الأشعري، صلباً في اعتقاده به، مواظباً على الإفادة. قال عنه الحافظ السِلَفي (ت 576هـ): كان مشاراً إليه في علم الكلام، قال لي: أنا أدرس علم الكلام من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة. قال: وسألته عن مسألة الاستواء ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54] فقال: «أحد الوجهين للأشعري أنّه يحمل على ما ورد ولا يُفسَّر». وقال السلفي: «كان مقدّماً على نظرائه، مُبجّلاً عند من ينتحل مذهبه، مُجانباً عند مخالفيه. جرت بينه وبين الحنابلة فتن، وأوذي غاية الأذى». [طبقات القراء، 2/ 713؛ سير أعلام النبلاء، 19/ 418؛ غاية النهاية، 2/ 196].

قال ابن عقيل (ت 513هـ): ذاكرته فرأيته مملوءاً علماً وحفظاً. وقال عنه أيضاً: «هو شيخ هشّ، حسن العارضة، جاري العبارة، حُفَظَة، متديّن، ضَلِف» [سير أعلام النبلاء، 19/ 418]. وعرف عنه أنّه كان يحفظ «كتاب سيبويه» [مرآة الزمان، 8/ 57؛ النجوم الزاهرة، 5/ 217؛ تاريخ دمشق، 57/ 148].

وتعريض ابن عقيل فيه بالهشاشة والصلف مرجعه اختلاف منزعيهما في التفكير، فمع أنّ ابن عقيل بدأ معتزلياً متكلماً انتهى آخر أمره، بعد الضغط والمراجعة والإلحاح، نقلياً سلفياً متشدداً.

ولم يسلم القيرواني من تشنيع خصومه عليه،

فادّعوا أنّ أصحابه شهدوا عليه بأنّه لا يصلّي، ولا، ولا، وأنّ قراءته على ابن نفيس دعوى.

وتعقّب الذهبي هذا التشهير بقوله: «هذا كلام بهوى». ونعته عند ترجمته له بـ «العلامة الأصولي، شيخ القراء» [م. س، 19/ 418].

ووصفه ابن الجزري بأنه إمام، علامة، متقن، متكلم، مناظر [غاية النهاية، 2/ 196].

توفي القيرواني في ذي الحجّة سنة 512هـ عن نحو تسعين سنة، ودفن مع أبي الحسن الأشعري بمشرعة الروايا، خارج الكرخ، بالجانب الغربي جوار قبر أبي الحسن الباهلي [تاريخ دمشق، 57/ 148؛ فوات الوفيات، 3/ 429].

المصادر والمراجع

● الذهبي، تاريخ الإسلام، تح. د. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت؛ ● ابن عساكر، تاريخ دمشق، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، ط. حيدر آباد، الهند 1376/ 1956م؛ ● الذهبي، طبقات القراء، تح. د. أحمد خان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض؛ ● الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، تح. برجشتراسر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1936م؛ ● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح. د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت؛ ● سبط بن الجوزي، مرآة الزمان؛ ● الذهبي، معرفة القراء الكبار، تح. بشار عواد معروف وزميليه، مؤسسة الرسالة، بيروت؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (مصورة) عن ط دار الكتب المصرية، د.ت؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ - 2000م.

د. صاحب جعفر أبو جناح
جامعة صنعاء - اليمن

التنسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله

(820هـ/ 1417م - 899هـ/ 1494م)

الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني، ولد على الأرجح بمدينة تنس، ونشأ وعاش بمدينة تلمسان حيث تعمق في علوم الفقه وامتلك أساليب اللغة والأدب على أيدي شيوخها الكبار أمثال محمد بن مرزوق الحفيد بن زاغو المغراوي، ومحمد بن إبراهيم بن الإمام، والولي محمد البخاري، ومحمد بن النجار، وقاسم بن سعيد العقباني، وأبو علي حسن بن مخلوف أبركان الراشدي، وإبراهيم التازي، والإمام محمد بن العباس التلمساني. بعدها اشتغل بالتعليم وتولى

الإفتاء، وتتلمذ عليه العديد من علماء تلمسان منهم أبو عبد الله محمد بن صعد، وأحمد زروق البرنسي.

ارتبطت حياة أبي عبد الله التنسي بمدينة تلمسان وإن كان لا يعرف الكثير عن حياته بها، وكانت له صلات بحكامها الزيانيين، فمال إليهم وأطنب في مدحهم ووصف محاسنهم. وهذا ما دفعه إلى تجاوز عيوبهم وسمح له بالقول بأن بطن بني القاسم الذي ينتسب إليه ملوك تلمسان الزيانيين من الأشراف دون غيره من بطون بني عبد الواد.

حاز أبو عبد الله التنسي حظوة مرموقة ومكانة عالية بحاضرة الزيانيين تلمسان، بعد أن اشتهر بمعرفته العديد من علوم عصره؛ فكانت له مشاركة في رواية الحديث والأدب والتاريخ وتسجيل الأحداث والروايات واقتباس الأشعار والطرائف، واعتبر من فقهاء وأدباء عصره، فوصفه أحمد بن داود الأندلسي نقلا عن أبي مريم في البستان بـ «شيخنا الفقيه الحافظ قدوة الأدباء»، ونعته أحمد بابا التمبكتي بـ «الفقيه الجليل والأديب المطلع»، ولقبه المقري بـ «شيخ شيوخ شيوخنا»، ووصفه الونشريسي بـ «الفقيه الحافظ التاريخي الأديب الشاعر».

لقد اشتهر التنسي وعدّ من مؤرخي الدولة الزيانية بكتابه «نظم الدر والعقيان...» الذي انتهى من وضعه عام 868هـ/ 1464م، وجعله في خمسة أقسام مع مقدمة وخاتمة؛ تناول في المقدمة السلطان أبا ثابت محمد المتوكل بالمدح والثناء دون غيره اعترافا بجميله وفضله عليه، ثم جعل القسم الأول من الكتاب في سبعة أجزاء تناول فيها تاريخ بني عبد الواد، فخصص الباب الأول لذكر نسب السلطان محمد المتوكل، والثاني لفضل العرب، والثالث لبيان شرف قريش، والرابع لبيان شرف بني هاشم، والخامس لشرف علي وبنيه، والسادس لبيان شرف عبد الله الكامل والأدارسة. أما الباب السابع والأخير من كتابه فقد خصصه لتاريخ بني زيان وعرف فيه بسبعة عشر حاكما من الحكام الزيانيين ابتداء بيغمراسن بن زيان إلى أبي عبد الله المتوكل.

ومما يلاحظ أن هذا الباب السابع يعتبر أهم ما كتبه التنسي، لكونه يتضمن معلومات مهمة عن تاريخ بني زيان، فتميز بقلة التكرار والحشو والإطناب وابتعاده قدر المستطاع عن ذكر الخرافات والكرامات مع التقيد بالترتيب المنطقي للأحداث والتواريخ والحكام، وذلك في أسلوب واضح المعنى، حسن العرض، جيد السبك، وإن كانت تتخلله المحسنات البديعية الشائعة في ذلك العصر.

أما باقي أقسام الكتاب فلا تختلف عن مجمل أبواب القسم الأول من حيث العرض الأدبي وتناول المواضيع. فقد جاء القسم الثاني في ثلاثة أبواب تطرقت لشروط الإمارة وخصال الملوك؛ وتفرع القسم الثالث إلى ثلاثة عشر بابا أغلبها حكايات وأخبار مختلفة عن أمم سابقة؛ واشتمل القسم الرابع على ثمانية أبواب تعرض فيها التنسي لمحاسن اللغة العربية شعرا ونثرا؛ بينما جعل القسم الخامس في خمسة أبواب عالج فيها الأخلاق والفلسفة. أما الخاتمة التي تعرض فيها لأصل العرب فقد ضمنها التنسي سبع قصائد لأبي حمو الزياني.

ومن خلال محتوى كتاب «نظم الدر والعقيان...» يمكن إدراجه ضمن صنف التواريخ السلطانية التي تعرض الملاحظات الشخصية وتروي الروايات المتداولة حول الحكام. وهذا ما يجعل منه موسوعة غنية في الثقافة العامة تشتمل، إلى جانب التاريخ، على مواضيع مختلفة منها قصائد شعرية خاصة لأبي حمو موسى الثاني، ومقتطفات نثرية وآراء في الملك وشؤونه.

ومما يلاحظ أن كتاب نظم الدر والعقيان يكتسي بالنسبة إلى المؤرخين وحتى المشتغلين بالأدب والثقافة أهمية خاصة لكونه يغطي الحقبة الأخيرة من تاريخ الدولة الزيانية (حتى سنة 868هـ/ 1464م)، التي لم تحظ بالكثير من الكتابات التاريخية، فإذا استثنينا كتاب نظم الدر والعقيان لا نجد سوى بعض الإشارات العابرة عن هذه الفترة المتأخرة من الزياني من قبيل ما قيده المقري في «نفح الطيب»، أو ما سجله الباسط بن خليل في «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم»، أو ما أثبته بابا أحمد التمبكتي في «نيل الابتهاج»، وابن مريم في «البستان». بينما حظيت الفترة السابقة، التي تغطي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، بالعديد من المؤلفات أهمها ما كتبه صاحب «زهرة البستان» (حتى عام 764هـ/ 1363م)، ويحيى بن خلدون في بغية الرواد (حتى عام 777هـ/ 1376م)، وعبد الرحمان بن خلدون في العبر (حتى عام 796م/ 1393هـ).

آثاره

ترك أبو عبد الله التنسي عدة مصنفات، أهمها:

1 ـ نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما ما مضى من الزمان. وقد نشر جزء منه الباحث الألماني هارس كوريو (1983) يتضمن ذكرا للحكام الزيانيين من بعد التنسي حتى استيلاء الأتراك على تلمسان مما يرجح بأن النسخة التي رجع إليها موضوعة من طرف مؤرخ متأخر أو مقتبسة من غزوات عروج وخير الدين. كما قام الأستاذ محمود بوعياد بدراسة القسم الخاص بتاريخ بني زيان من كتاب نظم الدر والعقيان...، ونشره في شكل دراسة محققة بالجزائر (1985)، مما يتطلب مستقبلا تحقيقا كاملا لكتاب نظم الدر والعقيان حتى يمكن الرجوع إلى مجمل مادته التاريخية والأدبية؛ 2 ـ روح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح ويوافق ذلك على حسب الاقتراح؛ 3 ـ الطراز في شرح ضبط الخراز؛ 4 ـ فهرس بأسماء شيوخه؛ 5 ـ تعليق على مختصر ابن حاجب؛ 6 ـ فتاوى عديدة تدل على اطلاعه الواسع ومعرفته باللغة العربية وآدابها وعلى علوم الشريعة وأحكامها.

المصادر والمراجع

● التنسي، أبو عبد الله محمد، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان (قسم تاريخ بني زيان ملوك تلمسان) تح. وتعليق ونشر محمود بوعياد، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر 1985؛ ● م.ن، تاريخ دولة الأدارسة (قسم من كتاب نظم الدر والعقيان)، تح. وتعليق عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1984؛ ● المقري التلمساني، أحمد، نفح الطيب من غصن

الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح. إحسان عباس، 8 ج. دار صادر، بيروت 1988، في صفحات عديدة من الأجزاء 1 ـ 6؛ ● التمبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، فاس، 1899/ 1317، ترجمة 697، 572 ـ 573؛ ● المديوني، محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، 1908، 248 ـ 249؛ ● الزركشي، محمد بن ابراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح. محمد ماضور، تونس، المكتبة العتيقة، 1966؛ ● الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المشايخ والمشيخات والمسلسلات، نشر إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ترجمة 106، 1/ 267 ـ 268؛ ● الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982، ق1/ 164 ـ 165؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، 1992، 1/ 116؛ ● نويهض، عادل، أعلام الجزائر، بيروت، المكتب التجاري، 1971، 150 ـ 160؛ ● بوعياد، محمود، محمد التنسي، مؤرخ بني زيان، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 1978/ 47، 39 ـ 51؛ ● سعيدوني، ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، بيروت، 1999، دار الغرب الإسلامي، 258 ـ 265؛ ● سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، 1/ 70 ـ 73؛ ● بلحميسي مولاي، التنسي، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد 1968/ 5، 30 ـ 34؛ ● حسن حجازي علي طروة، حضارة تلمسان في عهد بني زيان، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، 1994، 222 ـ 226.

● J.J.L. Bargès, Histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen, trad du Nazam Al-Dur Wal Iqyān d'Al-Tenaci, Paris 1852. ● J.J.L Bargès, Complément de l'histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen , Paris 1887. ● A Cherbonneau, Notice sur Mohamed et- Tanaci, historien des Beni Zeiyan, in Revue africaine, n° 3/1856, pp 212-215. ● A Cherbonneau, Lettre à M. Defremery sur Mohamed et Tanaci et sur les historiens des Beni Zeiyan, in Journal asiatique, 4ème série , T.XVIII/1851, pp.585-591. ● Levi-Provençal, Et Tanaci, in Encyclopédie de l'Islam, T. IV, pM 681. ● Hars Kurio, Geschichte und Geschichtsschreiber der Abd-Al-Wadiden, Miteiner feiledition des Nazm Al-Durr des Muhammed Abd-al- Galil At-Tanasi, Freiburg, 1983.

د.ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر

التنوخي، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد

(ت 726هـ/1353م)

إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن أبي العاصي التنوخي، وكنيته أبو إسحاق. أصله من جزيرة طريف نسبة إلى طريف بن مالك، أول من عبر البحر إلى إسبانيا من قواد المسلمين، وهي على نتوء في جنوبي غربي المثلث الإسباني مقابل الجزيرة الخضراء، واسمها بالإسبانية Tarifa [الإحاطة، 1/ 374].

إذا كانت بعض المصادر المترجمة للتنوخي قد أظهرت قلة الزاد في تحديد تاريخ ميلاده [درة الحجال؛ أعلام المغرب العربي؛ الكتيبة الكامنة؛ الإحاطة]، فإن مصادر أخرى اختلفت اختلافا كبيرا حول تحديد تاريخ هذا الميلاد، فقد ذهب صاحب «نيل الابتهاج» إلى أنه كان سنة 607 هـ/ 1206م [نيل الابتهاج، 38] وهو ما نستبعده جدا، إذ لا يعقل أن لا يتقلد التنوخي منصبي الإمامة والخطبة بجامع غرناطة وذلك سنة 716 هـ، إلا وقد بلغ من العمر عتيا أي 109 سنة. في حين ذهب صاحب «بغية الوعاة» إلى أن ولادة التنوخي كانت سنة 677هـ الموافق لسنة 1276م [بغية الوعاة، 2/ 859] وهو التاريخ الذي يعارض ما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة من أن التنوخي رحل عن بلده عند استيلاء العدو على جزيرة طريف سنة 671هـ [الإحاطة، 1/ 374].

نشأ التنوخي في أسرة من أعيان طريف [درة الحجال، 1/ 96]، وقرأ ببلده على الخطيب القارىء المقرىء أبي الحسن عبيد الله بن عبد العزيز القرشي الشهير بابن القارىء، ثم سرعان ما رحل - وهو لما يزل صغيرا سنة 671هـ عن مدينته عندما استولى النصارى عليها - إلى سبتة، فنشأ بها ولقي مشيختها، فكان ممن أخذ عنهم: أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الطيب بن زرقون القيسي الضرير نزيل سبتة أخذ عنه التنوخي القراءات، والقاضي العالم إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي المريوني أبو إسحاق (ت آخر شهر ذي القعدة سنة 716هـ) [تاريخ قضاة الأندلس، 133]، وأبو الحكم بن منظور القيسي الإشبيلي، والراوية الحاج أبو عبد الله محمد بن الكتامي التلمساني بن الخضار، بعد ذلك تحول التنوخي عن سبتة إلى حاضرة غرناطة، وانتظم في جملة كتاب الدولة الناصرية [الإحاطة، 1/ 374؛ درة الحجال، 1/ 96؛ أعلام المغرب، 1/ 111]. ثم نزع عن ذلك، وعكف على طلب العلم، ومال إلى العبادة، وتحلّى بحلية التقوى، إلى أن قدم بإشارة من أستاذ الجماعة يومئذ أبي جعفر بن الزبير للخطبة والإمامة بجامع غرناطة سنة 716هـ [درة الحجال، 1/ 96؛ الإحاطة، 1/ 374؛ أعلام المغرب، 1/ 111]، فجمع بين القراءة وتدريس الفقه

والعربية والتفسير مع الثبات والتحقق في كل ما ينقله. هذا فضلا عن نبل أخلاقه وغيرته على الدين ومخالفته لأهل البدع وحمل نفسه على الجود مع الفقراء. إذ تشير المصادر المترجمة للتنوخي بأنه كان على كثير من هذه الشيم [الإحاطة؛ الكتيبة الكامنة؛ درة الحجال؛ نيل الإبتهاج؛ أعلام المغرب]، كما كان على كثير من خلق التواضع، يردد كلما أثنى عليه أحدهم: «اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون» [نيل الابتهاج، 38].

أما عن مشيخته بغرناطة، فقد أجازوا له جميعهم وهم: ابن سمعون، والوزير الحافظ أبو محمد عبد المنعم بن سماك، والخطيب أبو عبد الله محمد بن رشيد، وأبو الحسن بن مستقور، وأبو جعفر بن الزبير.

بالإضافة إلى هؤلاء يتحدث صاحب درة الحجال عن شيوخ آخرين للتنوخي، كان قد أخذ عنهم بمالقة [درة الحجال، 96] وقد أوردهم تباعا كالآتي: أبو محمد عبد الواحد بن أبي السوداء، والخطيب أبو جعفر الكلاعي بن الزهار، وأبو عبد الله بن الكماد اللخمي البكري.

الأمر الذي يؤكد أن الرجل كان على همة عالية في الأخذ والتعلم لا تثبطه المسافات ولا تثنيه المهام.

إذا كان ابن الخطيب لم يشر إلى تاريخ وفاة التنوخي أثناء ترجمته له في كل من كتبه: الكتيبة الكامنة، والإحاطة، وعائد الصلة، في حين اكتفى صاحب نيل الابتهاج بالإشارة إلى أن سنة الوفاة هي 727هـ/ 1354م دون تحديد الشهر واليوم والمكان، فإن ابن القاضي في درته وابن مَنصور في أعلامه قد أظهرا مزيدا من الاعتناء، فاتفقا على أن تاريخ وفاة التنوخي كان بغرناطة يوم السبت 7 محرم 726 هـ/ 1353م وبالتحديد في وقت العصر حسب صاحب الدرة [درة الحجال، 1/ 96؛ أعلام المغرب، 1/ 112].

بالرغم من سعة معارف التنوخي في التفسير، والفقه، واللغة العربية، والآداب لم يبق لنا من أثر فكري من حياة التنوخي سوى شعر متفرق المضان، أجمعت المصادر المطلعة عليه أنه شعر وسط قريب من الانحطاط [الإحاطة، 1/ 375؛ أعلام المغرب، 1/ 111].

تناول التنوخي في جملة من نظمه الذي اطلعنا عليه مواضيع شتى نختزلها في صنفين:

- منها ما يوحي بنزعة تشاؤمية ونبرة ثائرة وماقتة للحياة كقوله:

دنياكَ مهمَا اعتبرتَ فيهَا
كجيفة عُرْضَة انتهاب

إن شئْتَهَا فاحتمِل أذاهـا
واصبِرْ عليها مع الكلاب

[أعلام المغرب، 1/ 111؛ الكتيبة الكامنة، 33]

- ومنها ما نستبعد أن يكون باكورة ثقافته الدينية الجامعة بين النصح والاستئناس بذكر الله وذكر رسوله المبعوث، كقوله في هذين البيتين متضرعا إلى الباري سائلا مغفرته:

أمولايَ أنتَ الغفورُ الكريمُ
لبذلِ النَّوال مع المعْذِره

علـيـهِ ذُنُـوبٌ وتـصْـحـيـفُـهـا
ومـن عـنـدك الـجـودُ والـمـغـفِـرَه

[الإحاطة، 1/ 377؛ الكتيبة الكامنة، 33]

ـ أو كقوله في معرض وصيته للطلبة حاثا على العلم والعمل به:

وإذا الـفـتـى قـد نـال عِـلْـمًا ثم لـمْ
يـعْـمـل بـهِ فـكـأنّـمـا لـم يـعْـلَـم

[الإحـاطـة، 1/ 376؛ أعـلام الـمـغـرب، 1/ 112؛ الكتيبة الكامنة، 33].

ـ أو كقوله مشيدًا بأن عزة المرء في دينه لا في ماله:

عـزُّ الـفـتـى يـا صـاحِ فـي ديـنِـه
ولـيـسَ عـزُّ الـمـرءِ فـي درهـمـه

[درة الحجال، 1/ 96]

ـ أو كقوله مجيبا بهذه الأبيات الستة ـ وعلى نفس الروي والقافية والإيقاع ـ أبا جعفر بن الزيات وقد كاتبه في شأن شخص يدعي القرابة من أهل البيت النبوي:

يـا إمـامـي! ومـنْ بـه قـطـركـم ذَا
كَ وخـادي الـبـلادِ أطـيَـب مـنـزلْ

لـم أضِـع مـا نـظمتُم من يدي حتى
انـيـلَ الـشـريـف تـحـفـةَ مـنـزِلْ

وحـبـاهُ بـكـل مـنْـحِ جـزيـل
مَـنْ غـدا يـمـنـحُ الـثـوابَ ويـجـزِلْ

دمـتـم تـنـشـرونَ عِـلْـمـا ثـواب
الـلـه فـيـهِ لـكُـمْ أعـزُّ واجـزلْ

تـذكـرونَ الإلـه ذكـرًا كـثـيـرا
وعـلـيـكُـمْ سـكـيـنـة الـلـهِ تـنْـزِل

وطـلـبـتُـمْ مـنّـي الـدعـاء وإنـي
عـنْـد نِـفْـسـي مـن الـشـروط بـمَـعْـزَلْ

[الإحاطة، 1/ 375 ـ 376]

تلك كانت إضمامةٌ من شعر إبراهيم التنوخي، نستبعد أن يكون هو كل نظمه. وبالتالي فإن تقييمنا له يظل نسبيا جدا ومحاولتنا دراسته تظل باهتة ودون الغاية ما لم نقف عليه كاملا منقحا محققا، وما لم نستقرئه استقراء واعيا يشمل الشعر وكذا الشاعر على حد سواء.

■ المصادر والمراجع

● الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، مجلد 1، تح. وتقديم محمد عبد الله عنان، ط 2؛ ● ابن منصور، عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، ج 1، المطبعة الملكية الرباط، 1399 هـ/ 1979م؛ ● النبهاني، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن، تاريخ قضاة الاندلس، تح. لجنة إحياء التراث العربي، ط 5، منشورات دار الآفاق الجديدة؛ ● ابن القاضي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، ق1، المطبعة الجديدة برباط الفتح 1934م؛ ● ابن الخطيب، لسان الدين، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح. احسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت لبنان؛ ● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

د. نعيمة بويغرومني
القنيطرة ـ المغرب

التنوخي، عزالدين علم الدين بن أمين

(1307هـ/1889م - 1386هـ/1966م)

هو عز الدين بن أمين شيخ السروجية الدمشقي، المسمى عز الدين علم الدين التنوخي. عالم بالأدب، له نظم وباع في نشر التراث العربي الإسلامي، وحركة النهوض والتنوير في مرحلته التاريخيّة، مولده ووفاته في دمشق، تعلّم بها وبمدرسة «الفرير» في يافا وتعلّم اللّغة الفرنسيّة في كلّية إخوة المدارس المسيحيّة، وتفرّغ لدرس اللّغة العربيّة وعلومها وأمضى في الأزهر بين أربع إلى خمس سنين، وعاد إلى دمشق فتصدّر للوعظ شابا. وهذا الأمر يشير بوضوح إلى أن التنوخي كان معدّا لرسالة في حمل ونشر المعرفة منذ البواكير الأولى، أضف أنّه عد في مرحلته التاريخيّة من المثقفين الذين جمعوا بين معرفة التراث الأصيل والمعاصرة التي تفتح أبوابها ونوافذها على ثقافة العصر حينذاك، فهو بهذا المعنى من الرعيل الرائد الذي أسهم في حركة النهوض العربي.

أوفده بعض محبي العلم ممن توسموا فيه سمات النبوغ والموهبة البينة، إلى فرنسا لدراسة الزراعة والفنون الزراعيّة وفهم طرق الري وتطورها وكان ذلك عام 1910م.

وبعد أن أمضى ثلاث سنوات في فرنسا عاد في أوائل سنة 1913 م، فعينته وزارة الزراعة العثمانيّة معلما في مكتب الزراعة ببيروت، فقام بهذه الوظيفة سنة واحدة، وعندما نشبت الحرب العالميّة الأولى دخل الخدمة المقصورة في الجيش العثماني بدمشق، وأيضا علم العلوم الطبيعيّة في دار المعلمين بدمشق. وإبّان الحرب نقل إلى حلب، لكنه فر منها إلى الجوف حيث لقي عبد الغني العريسي والبساط ورفاقهما عند الأمير نواف الشعلان. واتجه إلى البصرة، وكانت واقعة في قبضة الاحتلال البريطاني، حيث عمل في جريدتها الرسميّة «الأوقاف البصريّة». ثمّ قصد الحجاز فلحق بجيش الشريف فيصل، ثم استقرّ بمصر إلى نهاية الحرب. ويبدو من دراسة المنحنى الشخصي للتنوخي في هذه الفترة من حياته، أنّه كان يتمتع بروح وطنيّة وثّابة وشعور قومي قويّ أضف أنّه كان يتحرّك على مساحة كبيرة من الساحة العربيّة انطلاقا من شعوره بوحدة القضيّة العربيّة التي هي قضيّة أمّة عربيّة واحدة، كانت تنشد الحريّة والنهوض والتخلص من نير الأجنبي وما يشعله من حرائق في الكيان والمجتمع العربي حينذاك.

عاد عز الدين التنوخي من مصر إلى دمشق، فعين عضوا في «لجنة الترجمة والتأليف» التي تحوّلت إلى مجلس معارف، ثمّ إلى المجمع العلمي العربي سنة 1919 م، فكان من الأعضاء المؤسسين له. وحين قضى الاحتلال الفرنسي على استقلال سوريا غادرها متوجّها إلى فلسطين للعمل الحر في الزراعة.

وفي عام 1923 م، استقدمته وزارة المعارف العراقيّة، فقصد بغداد ليعمل مدرسا في دار المعلمين العليا. وفي بغداد ترجم عن الفرنسيّة «مبادئ الفيزياء»، وألّف «صناعة الإنشاء»، وهو كتاب مدرسي؛ كما ترجم عن الفرنسيّة «قلب الطفل» في جزئين. ويلاحظ أنّ عز الدين التنوخي قد جمع بين شخص العالم والأديب في نفس الوقت، وقام بدور إحيائي تربوي من خلال الترجمة والتأليف والتدريس، وكان لهذا أثره في عمليّة الإيقاظ القومي، ودلالته في دور المثقف العربي حينذاك والذي كان يعد كل الوطن العربي مجال عمله الرسالي الفكري.

وعاد عز الدين التنوخي إلى دمشق في نهاية سنة 1931م، فانتخب أمينا لسر المجمع العلمي، وعين مديرا لمعارف السويداء؛ ثمّ مفتّشا للمعارف بدمشق، ومدرسا للعربيّة في الجامعة، ومن الأعضاء المراسلين للمجمع العلمي العراقي.

وانتخب عز الدين التنوخي، ليكون نائب الرئيس للمجمع بدمشق عام 1964، فانقطع للعمل فيه، وكرس نفسه وجهوده لبعث وإحياء التراث العربي الإسلامي حيث حقق نفائس في التراث.

آثاره

1 ـ المنتقى من أخبار الأصمعي؛ 2 ـ تكملة إصلاح ما تغلط به العامة؛ 3 ـ بحر العوام في ما أصاب به العوام؛ 4 ـ الإبدال؛ 5 ـ المثنّى.

ومن المؤكّد أنّ مثل هذا الجهد، يرتبط بعمل ومنهج المفكرين النهضويين الذين يرون أنّ تطوير اللّغة العربيّة والارتقاء بها، هو إحدى وسائل البعث الفكري والتاريخي؛ أضف إلى ذلك أنّ العناية بتاريخ العرب وثقافتهم وحضارتهم، من الأمور التي تحفز على النهوض وتحديث الحياة العربيّة آنذاك. ويظهر من هذا الجهد الفكري الذي بذله التنوخي، تميزه عن مفكري ومثقفي ومتعلمي عصر النهضة الذين كانوا منبهرين بالغرب ومعطياته. ذلك أنّه كان من المتفرّدين في الموقف الفكري بامتلاك خصوصيته التي تجعله يرافق بين الأصالة والمعاصرة؛ خصوصيّة تنطلق من خصوصيّة تطور أمّته تاريخيا وحاجاتها الأساسيّة في التحرر والتميز والخلاص من التبعيّة على كافة المستويات. فهو بهذا المعنى مثقف عربي، وعالم عربي، يضرب جذوره عميقا في أعماق أرضه العربيّة، ولا يخضع للتغريب، والانسحاق تحت وطأة نموذج الغرب.

لم يقف عز الدين التنوخي عند التأليف والتحقيق والترجمة والتدريس فحسب، بل كان شاعرا وكاتبا له قصائد ومقالات كثيرة منشورة في المجلاّت والجرائد المعروفة في مصر والشام، حتى ليحقّ لنا أن نصفه بالعالم الأديب صاحب الدور التنويري النهضوي.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، 4/ 229. ● مجلّة لغة العرب، ج 7، السنة 4/ كانون الثاني 1927 م، للأب انستاس ماري الكرملي، بغداد.

أ. د. نجمان ياسين
جامعة الموصل ـ العراق

التنوخي، علي بن يوسف بن عبد الله

(ت 656هـ/1258م)

علي بن يوسف بن عبد الله بن عليّ، طبيب وصيدلاني بالإضافة إلى كونه نباتيّا وعشّابا، لا يعرف تاريخ مولده بالتحديد، والمرجّح أنّه في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. مسقط رأسه «القدس» حيث لقبه المقدسي، ينتمي إلى عائلة من الأطبّاء والعشّابين، فقد كان جده رشيد الدين بن الصوري (ت 639هـ/ 1241م) من الأطبّاء المشهورين، وقد تتلمذ على يديه وتلقى منه علوم الصناعة الطبيّة، ومعرفة مختلف صنوف أدوية «الترياق الكبير» الذي برع في تركيبه.

كان التنوخي كثير الأسفار، وتنقّل في مدن من بلاد الشام كلّها، كما وصل إلى بغداد، وتجوّل على سواحل البحر، المتوسّط من مدينة الإسكندريّة إلى أنطاكيّة شمالا مرورا بطرابلس وغيرها. وتابع رحلاته إلى بلاد الروم وجزيرة صقلّية ورودس اليونانية، وهدفه المنشود استكمال تحصيله الطبّي، والتعرّف عيانا على النباتات الطبية في مواطنها الأصلية، وتبادل المعلومات العلميّة مع النباتيين والعشابين في تلك المناطق، كما يساعد في إنتاج الترياقات.

والترياق: معجون مركّب من سبعين ونيّف من أصل نباتي وحيواني ومعدني، كان القدماء يعدّونه شافيا من كلّ أنواع السموم، ويحافظ على الصحّة، ويعالج أمراضا كثيرة، أما استخدامه الرئيس فهو دواء نافع من لدغ الهوام والحشرات السامة والسموم، وهو ما يمنع ميكانيكيّا امتصاص السم من المعدة والأمعاء. وينطبق وصف الترياق بأنه دواء، لأنّ الدواء بالتعريف هو: مادة أو مركّب يقدّم على أنّ له خواص شافية أو واقية تجاه الأمراض [مجلّة العلوم، الكويت، العدد 3، 1995، 32].

ومن جملة الأسباب التي دفعت القدماء للبحث جاهدين عن الترياقات هو الخوف من السموم التي قد يتعرّضون لها بسبب سوء الحظ أو العداوة، ويذكر المؤرخ المقريزي (ت 845 هـ/ 1441 م) أنّ أولى اهتمامات الخليفة الفاطمي بُعَيْدَ تنصيبه أنه سأل عن الترياق الفاروق وقد أمرهم بتحصيل أصنافه ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه، ويؤكد في ذلك تأكيدا عظيما [المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، 1/ 420]، وتجمع المصادر بأنّ الترياق من أصل يوناني قديم، وعبر رحلته الطويلة تعرّض لكثير من الزيادة والتبديل والحذف في أدويته ومقاديرها وأنواعها، ومع مرور الزمن أخذ مكانا ووجودا في الدساتير الطبيّة كدواء مركّب لا يستغنى عنه.

إنّ الطبيب القديم كان يفترض فيه آنذاك معرفة ضروب النباتات والحشائش والأعشاب الطبيّة

وخواصّها ليصف من خلال ذلك العلاج لمرضاه، وقد ساهم ازدهار الدراسات الصيدلانيّة، وهو العلم الذي لا ينفصم بحال من الأحوال عن الطبّ. ويحتلّ التنوخي مركزا هاما في علم النبات، والمؤسف أن هذا العالم النباتي والطبيب والصيدلاني قد أغفل ذكره ولم يلق الاهتمام الذي يستحقّه. ومن خلال كتابه «الأشرف» نتبيّن بعض تفاصيل حياته، وأنه قدّم مادة علميّة نباتيّة جيّدة، ويعتبر من المؤسّسين لعلم النبات المحض المستقل، ومن الذين أثروا التأليف المعجمي الطبي النباتي بمنهج علمي قائم على القياس والتجربة والمشاهدة العيانيّة والبحث والاستفسار من ذوي الشأن والمهتمّين، وارتبطت حياته المهنيّة بالبحث والتفتيش عن مفردات الترياق المتعدّدة وإيجادها في مظانّها الأصلية كما يقول: «رأيت جماعة من مشايخ الأطبّاء الذين ينسبون أنفسهم بالعظمة والمشيخة غالطين في أكثر عقاقيره، وإبدالها بغيرها، بما هو مخالف لمزاج ما بدل منه، وتصحيف أسمائها، ومقلّدين الشجارين في غلطهم، وإذا غلط واحد اتّبع غلطه جماعة، ويعذرون بأنّ فلانا عمل كذا، كالذي يحتجّ بدين آبائه، وإن كان الذي يقوم أجهل الناس بعلم العقاقير وقواها، وأكثر معاجينهم أصلها إمّا تقليد جهّال الشجارين، وإما عتيقة أو مبذولة حصلت من حوانيت العطّارين، وربما أدخلوا في غلطهم ما ليس فيه، فكان سببا لعدم نفعه» [مخطوط، الأشرف في صنعة الترياق المنقذ للنفوس الشريفة من التلف].

كما يذكر المصادر المعرفيّة التي اكتسبها من خلال أسفاره الكثيرة بالإضافة إلى اطّلاعه الواسع والمتعمّق على ما دوّنه القدماء من يونانيين وعرب في (علم النبات)، والجدير بالذكر أنّ الأطبّاء القدامى كانوا يعتقدون أنّ لكلّ دواء فعلا وقوّة يفعلها في البدن، ومن الممكن بمعرفة قوّة كلّ دواء ومادّة على حدّة، ثمّ مزجها معًا بنسب معيّنة الحصول على أدوية ذات فعل جديد وقوّة جديدة، وهم يسمّون قوّة الأدوية الأولى قبل خلطها بغيرها «قوى الأدوية المفردة»، ثمّ إذا خلطت مكوّنة معادلة دوائيّة جديدة يسمّونها «قوى الأدوية المركّبة»، ويقول التنوخي: «وكنت أكثر أهل زماني عناية وطلبا واشتغالا بعلم الأدوية المفردة والاشتغال بكتاب ديسقوريدس، وكتاب جالينوس فيها، وكتاب الغافقي وكتاب ابن وافد، وابن جلجل، وابن الأشعث، وأبي حنيفة الدينوري، وأدوية القانون للرئيس ابن سينا، وأدوية الحاوي للرازي، وابن الجزار وغيرهم من القدماء.

كان اهتمام التنوخي بعلم النبات لغايات طبّية وصيدلانيّة، وتقوم طريقته المنهجيّة على وصف لشكل النبات الظاهر وصفا دقيقا، ويستعين بأقوال ديسقوريدس وجالينوس لتأييد أقواله، ثم يورد الوصف التفريقي الشكلي للنبات مع أيّ نبات آخر قد يتشابه معه في الشكل، كما لا يفوته أن يذكر الأسماء المتعدّدة للنبات المختلفة باختلاف المناطق الجغرافية، فهو يقول عن نبات «الأذخر»:

«يسمّى طرسيس، وتبن مكة، وتبن حرمه، وسمّاه الطبري جوز حنّاء، ويسمّى نواه فقاح أذخر، ينبت ببلاد كثيرة وبأنطاكية والروم، أجوده الحجازي، رأيته بالعراق وأربل كثيرا، ثمره كأنّه رؤوس القصب الفارسي، ورأيت

منه بجزيرة صقلّية وليس له طعم ولا رائحة».
وعن نبات «الدارصيني» يقول:
«رأيته ببغداد كثيرا، معروف مجلوب إليها، وشربت منه في سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجرة النبويّة المحمّديّة، واستعمله شيخي في ترياقه لما حمّلته إليه».
ويظهر لنا بأنّه مارس الطبّ عمليًا، فهو يورد بعض مشاهداته الطبّية، وتجاربه والنتائج التي توصّل إليها، فهو يقول عن نبات «الأشقرديون»:
«هذا النبات أيضًا ممّا غلط فيه فضلاء الأطبّاء والصيادلة والشجارين ووهموا بأنّه الثوم البرهي، وينبت بدمشق كثيرا وسقيت منه في بعض الأسفار عند طلب الأدوية رجلا نهشته أفعى في ساقه وورم فما استقرّ في معدته حتّى تخلّص».
كان التنوخي يميل إلى صناعة وتركيب الترياق بنفسه، ويقوم في سبيل ذلك برحلات تعشيبيّة إلى بلاد الشام وغيرها لجمع مفرداته المطلوبة لعمله، هذا البحث الميداني في مواقع النبات جعله يكتسب خبرة عملية في «علم النبات التفريقي»، وكان حريصًا عند شرحه لكلّ مفردة نباتيّة أن يصف ماهيته بشكل واضح تمهيدًا لتفريقها وتمييزها عن أيّ نبات آخر قد يتشابه معه، ويعبّر عن هدفه بقوله:
«إنّما قصدت تعريف الغلط في الأدوية كيف وقع والتشابه الضعيف الذي تمسّكوا به فيما نراه عيانا فما ظنّك بالمجهول»، كما نتبيّن بأنّه كان يجري تجارب عمليّة مخبريّة تتضمّن زرع واستنبات بعض النباتات الغريبة غير الموجودة في محيطه الجغرافي، أو التي تجلب من مناطق عن «البلسان»:
«ورأيت ببغداد حبّا بلسان شبيه بالشونيز أو أنبل منه، وقالوا: إنّ شجره ينبت عندهم بواسط أو قريب من بلدهم، وأخذت من حبها فوجدت ريحه يشبه ريح البلسان، وزرعتها أول أخذها، ونبت عندي قصب طوله ذراع».

ذكر التنوخي 57 نباتا في كتابه «الأشرف»، كما كشف بعض أخطاء العلماء السابقين وأهدافهم من الكتابة حول الترياق، وأبدى ملاحظات مفيدة حول كتاباتهم، كما بيّن الطريقة والتقنية لتحضير الترياق، والكمية والمادة الطبيّة والمواد البديلة والتأخير الدوائي من خلال التجربة والأوعية الذهبيّة والفضيّة والزجاجية المستخدمة في الصناعة الدوائيّة، كما ذكر الترياق الذي ركبه شيخه «ابن الصوري» للسلطان الأيّوبي الملك العادل «سيف الدين أبي بكر بن أيوّب» سنة 610هـ/ 1212م بالقاهرة وكذلك الترياق المصنوع للملك الأيوبي «عيسى المعظم» في أوائل 626 هـ/ 1229م.

والواقع أنّ مركّب الترياق لا بدّ أن يكون عالما بقوى الأدوية النباتيّة وغيرها المستخدمة في التركيب، ومعرفة ماهيتها وكيفيتها واختيار جيّدها من رديئها، ومعرفة خواصّها، وكثرة أجناسها، وعلم أوقات اختيارها في منابتها، وقد انغمس التنوخي لفرط حماسه وثقته في خلافات مريرة مع أبرز علماء عصره «ابن البيطار». ودخل معه في مناقشات علميّة ومنازعات مريرة، واتهامات متبادلة لا تخلو من التجنّي والتحامل مثل الخلاف حول تسمية بعض النبات وتفريقها كما يقول:

«واجتمعت بعبد الله بن البيطار المؤلّف للكتاتيب وباحثته طويلا، وقد علم من حضر مباحثتي تميّزي بما لا أحتاج معه إلى زخرفة

في القول، وكان رحمه الله راوية دون مباشرة لأنه اجتمع بي في أطراف جبال لبنان، وطلب مني أدوية موجودة بين رجليه، فعلمت أنّه ناقل غير مباشر، فحينئذ رغبت في وضع كتاب الترياق لا يحتاج طالب تركيبه إلى غيره».

ساهم التنوخي في وفد مدرسة دمشق الطبيّة في الأدوية والأعشاب، ومن جملة مصادره المعرفيّة: مدرسة القيروان ويمثّلها ابن الجزّار (369هـ/ 980م)، ومدرسة الأندلس ويمثّلها ابن جلجل (377هـ/ 987م)، ومدرسة دمشق وأبرز من يمثّلها ابن المطران (587هـ/ 1191م)، وابن الدخوار (628هـ/ 1230م)، وقد اجتمعت المدارس الثلاث في كتابات التنوخي، فترك لنا معجما نباتيا هاما.

آثاره

- الكتاب الأشرف في صنعة الترياق المنقذ للنفوس الشريفة من التلف، هو الأثر الوحيد الباقي للتنوخي الذي وصلنا، ولا نعرف له مؤلفا غيره، وتوجد نسخته الوحيدة الفريدة في مكتبة خدابخش بتنه - الهند [بروكلمان، تاريخ التراث العربي، ملحق أوّل، ص 898].

والمؤسف أنّ كتب الأعلام والطبقات التراجم لم تأت على ذكر التنوخي وأغفلته تماما، ربّما لأنّه كان يُتابع ويساعد أستاذه وجدّه ابن الصوري ويلازمه فاتّجهت الأضواء لجدّه الذي كان طبيبا من خاصّة الملوك الأيّوبيين، وإن كان بعض الباحثين قد خلطوا بينهما واعتبروهما شخصا واحدا، ولكنّه يذكر في مقدمة «الكتاب الأشرف» أنّه «سبط وتلميذ ابن الصوري» وتعريف السبط هو: «ولد الابن والابنة».

وقراءة فاحصة متأنّية لكتاب الأشرف تؤكد ما قرّرناه، فالتنوخي يذكر أنّه شاهد مادّة «الطين المختوم» في دمشق سنة 646 هـ، وفي موضع آخر بلغه أنّ نبات «القسط» قد ورد منه إلى دمشق سنة 653هـ، شيء صالح، كما يذكر أنّه اجتمع بالعالم النباتي الشهير «ابن البيطار» (ت 646هـ) ويردفه بعبارة «رحمه الله» ممّا يدلّ على أنّ كتاب الأشرف قد دوّن بعد هذا التاريخ، وكما ذكرنا فإنّ «ابن الصوري» (ت 639هـ)، فيتّضح لنا استحالة أن يكون ابن الصوري والتنوخي شخصا واحدا، والواقع أنّ إغفال المصادر القديمة لذكر التنوخي قد أدّى لهذا الخلط والالتباس حول شخصيّته، وقد وهم بعض الباحثين أيضًا بشأن كتاب الأشرف واعتبروا أنّه انتهى من تعليقه سنة 605هـ [إبراهيم شبّوح، فهرس المخطوطات المصوّرة، ج 3، القسم الثاني، ص 14] في قراءة خاطئة، والصحيح أنّ التاريخ المقصود هو 656 هـ، والسبب عدم وجود دراسة صحيحة وموثّقة لكتاب الأشرف.

المصادر والمراجع

● التنوخي، علي بن يوسف بن عبد الله ابن علي المقدسي، توفّي بعد 656هـ/ 1285م، الكتاب الأشرف في صنعة الترياق المنقذ للنفوس من التلف، مخطوط، مكتبة خدابخش بنتة، الهند، رقم 2202، 120 ورقة؛ ● الأنصاري المتطبّب، علي بن عبد العظيم، توفّي بعد 669 هـ/ 1270م، جامع الافتراق والاتّفاق لصناعة الترياق، مخطوط، مكتبة برنستون، الولايات المتّحدة

الأمريكية، رقم 565 H، 159 ورقة؛

- Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden, 1937, SI, 898..

- شبّوح، إبراهيم، فهرست المخطوطات المصوّرة، القاهرة، مطبعة السنة المحمّديّة، 1959، الجزء الثالث، العلوم، القسم الثاني، الطب، 14؛

- المنجد، صلاح الدين، مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب، مجلّة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلّد الخامس، الجزء الثاني، 1379هـ/1959م، 284.

د. محمد فؤاد الذاكري

باحث في التراث العلمي العربي ـ حلب سوريا

التنوخي، القاضي أبو علي المحسن بن أبي القاسم

(327هـ/938م ـ 384هـ/994م)

القاضي أبو علي المحسّن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم التّنوخي.

ولد بالبصرة لأب قاض وشاعر وأديب. ثم انتقل إلى بغداد حيث تلقى العلم بها عن الصّولي وغيره. وكان ولده أبو القاسم علي بن محسن امتدادا طيّبا له، حيث صار أديبا فاضلا على نهج أبيه. لم يصلنا من شعره سوى ما تناثر منه استشهادا ومقارنات عند العسكري في كتاب «الصناعتين»، والثعالبي في «يتيمة الدهر». وقد أفادت أخباره صلات له بأبي العلاء المعري، وكثرة روايته للشعر. سمع التنوخي بالبصرة من أبي العباس الأثرم وأبي بكر الصّولي، والحسين بن محمد ابن يحيى بن عثمان النسوي وطبقتهم. وقرأ على الكسائي المنجم، ويقال إنه كان يقوم بعشرة علوم، وكان يحفظ للطائيين سبعمائة قصيدة ومقطوعة سوى ما يحفظ لغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين والجاهليّين.

وقيل إنه كان ينفق على أصحاب الحديث، وقيل إنه كان معتزليا، وكان عنده كتاب القدر لجعفر الفريابي. وكان أصحاب الحديث يتحاشون عن مطالبته بإخراجه، «فطالبته ـ كما قال الخطيب ـ به، وقرأته عليه وسمعوا». وكان التنوخي ساكنا لم يعترض على شيء من تلك الأحاديث، وكان الخطيب والصّوري وغيرهما يبيتون عنده، وكان ثقة في الحديث متحفظا في الشهادة محتاطا صدوقا.

كان يحفظ من اللّغة والنّحو شيئا كثيرا، وكان في الفقه والفرائض والشروط غاية، على حدّ ما عرضه ابنه عليّ، إلى جانب ما سجّله له من معرفة واسعة بالشروط والمحاضر

والسجلات، وكان يأخذ عنه ما قد اشتهر من الكلام والمنطق والهندسة. وكان في النحو وحفظ الأحكام وعلم الهيئة قدوة، وكذلك في حفظ علم العروض، وله فيه وفي الفقه عدة كتب مصنّفة، وكان يحفظ ويجيب فيما يفوق عشرين ألف حديث.

نزل ببغداد وأقام بها، وحدّث إلى حين وفاته، وكان سماعه صحيحا. وأول سماعه الحديث في سنة 333هـ، وهو في السادسة من عمره وقتئذ.

تقلد القضاء سنة 349هـ على قصر بابل وما يليه من نواح. منها المدائن وأذربيجان وقرميسين. ثم تنقّل في عدة مناصب أخرى... وكانت وفاته ببغداد في 25 محرم سنة 384هـ.

ويبدو أن ابنه قد سلك مسلكه على غرار ما ذكره عنه الخطيب في «تاريخ بغداد» حين ذكر صِلاته بالخطيب أبي زكريا التبريزي، وعدّد شيوخه الذين روى عنهم، وما كان من أمر قبول شهادته عند الحكام في حداثته، وهو ما استمرّ حتى آخر عمره، إذ كان متحفّظا في الشهادة، محتاطا، صدوقا في الحديث، وتقلّد قضاء نواح عدّة. منها: المدائن وأعمالها ودرنجان والبردان وعكر مكرم وأيدج ورامهرمز وغيرها.

وفي مسيرة الابن ما أكمل مسيرة أبيه الذي كان شاعرا إخباريا وأديبا وقاضيا، كما تقلد أعمالا كثيرة في نواح مختلفة. وفي سنة 363هـ تولى القضاء بواسط، وقد استشعر صاحب «اليتيمة» هذا التشابه بين الأب والابن فذكرهما في باب واحد. ثم قال في حقهما معا: «هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشجر، والشاهد العدل بمجد أبيه وفضله، والفرع المسند لأصله، والنائب عنه في حياته، والقائم مقامه بعد وفاته، وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج الشاعر:

إذا ذكر القضاة وهمْ شيوخ
تخيّرتُ الشبابَ على الشّيوخِ
ومن لم يرضَ لم أصفعه إلا
بحضرةِ سيدي القاضي التّنوخي

وفي أخبار التنوخي الأب توقف «الثعالبي» عند صرفه عن قضاء البصرة والأهواز، وروده حضرة سيف الدولة زائرا ومادحا، فأكرم وفادته عندئذ وأحسن قراه، وكتب في معناه إلى الحضرة ببغداد، حتى أعيد إلى عمله، وزيد في رزقه ورتبته. وكان أبو محمد المهلبي الوزير وغيره من وزراء العراق يميلون إليه جدا ويتعصّبون له، ويعدّونه ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء، ويعاشرون منه من تطيب عشرته، وتلين قشرته، وتكرم أخلاقه، وتحسن أخباره، وتسير أشعاره ناظمة حاشيتي البر والبحر، وناحيتي الشرق والغرب. وهكذا صار القاضي التنوخي واحدا من أصحاب الوزير المهلبي وندمائه، مما قد يفسر تحامله على أبي الطيب المتنبي إرضاء للمهلبي. فقد خاض التنوخي في قضية نسب المتنبي، وشهد على نفسه بالتخليط والوضع في هذا الموضوع. وليس عجبا أن يكون التنوخي ممّن حمل لأبي الطيب في صدره شحناء لصلته المعروفة بأبناء عمومته، فحملته هذه الشحناء على وصف الرجل بكل نقيصة..

كما تحكي المرويات عن صور المنادمة

والمسامرة التي تورّط فيها باعتباره واحدا من أثرياء المرحلة، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة وحكمة المشايخ الكبراء.

وقد رصد الثعالبي ما استحسنه من شعره، وما أسماه غرر شعر التنوخي في وصف الليل والنجوم فانتقى منها أبياتا مفردة ومقطعات متنوعة، كما اختار له من التشبيهات والأوصاف ووصف دجلة والقمر والبرد، ورصد من شعره من قصيدة كثيرة العيون ـ على حد تعبيره ـ عدّها من أمّهات قلائده، وغير ذلك من شعر الغزل وغيره، وقد تكررت صور الاستحسان لبعض أشعاره بين الثعالبي والعسكري على غرار ما استملحا من التشبيه، وما أجاد فيه في فن الوصف.

■ آثاره

صنف التنوخي كتبا مفيدة. منها:

1 ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، نشره مرغليوث في لندن 1918 ـ 1921، ثم في دمشق، المعهد العلمي العربي سنة 1930م؛ 2 ـ المستجاد من الأجواد، وفيه حكايات وأخلاق، وقد نشره محمد الزهري الغمراوي في القاهرة 1903 ـ 1904م، وباولي في شتوتغارت 1939م، ومحمد كرد علي في دمشق 1365هـ/ 1946م؛ 3 ـ الفرج بعد الشدة، نشره في القاهرة محمود رياض 1903 ـ 1904، وفي بومباي نشر الفصل السابع منه جمال الرحمان في 1329هـ، وفي بومباي أيضا سنة 1919م... إلخ. وهو من الكتب المتميزة لما حواه من الحقائق التاريخية والاجتماعية. وقد ذكر في أوائل هذا الكتاب أنه كان على العيار في دار الضرب بسوق الأهواز سنة (346هـ)، ثم ذكر بعد ذلك بقليل أنه كان على القضاء بجزيرة ابن عمر. وقد أسند الثعالبي كتاب «الفرج بعد الشدة» للابن، وليس للأب؛ 4 ـ ديوان شعر، وقد حكت بعض المصادر أن له فيه مقصورة عارض بها الدريدية، وأنه أنشد لنفسه شعرا كثيرا، وأنه نظم شعرا حين قدم مصر وخرج منها كارها. وقد أخبر الثعالبي أن ديوان شعر ابنه كان أكبر حجما من ديوانه.

■ المصادر والمراجع

● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 13/ 155؛ ● أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، 1/ 32، 70، 244، 347، 2/ 16، 32، 54؛ ● الكتبي، فوات الوفيات، 2/ 68 ـ 69؛ ● ابن حجر، لسان الميزان، 4/ 252 ـ 253؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، 14/ 110، 14/ 165، 15/ 56، 17/ 92؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/ 168، 5/ 58؛ ● الصفدي، الوافي، 12/ 140 ـ 141؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 225، 3/ 201، 307، 365، 4/ 159 ـ 162، 5/ 158؛ ● الثعالبي، يتيمة الدهر، 2/ 393، 405؛ ● العاملي، أعيان الشيعة، 42/ 9 ـ 10؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 5/ 288، إلى آخره.

د. عبد الله التطاوي
جامعة القاهرة

التنوخي القاضي، أبو القاسم علي بن أبي الفهم

(278هـ/891م - 342هـ/953م)

علي بن محمد بن أبي الفهم، أبو القاسم التنوخي. واسم أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم، من ذرية عمرو بن الحارث أحد ملوك تنوخ الاقدمين، عربي صليبة.

ولد في أنطاكية في ذي الحجة سنة ثمان وسبعين ومائتين.

قدم بغداد في حداثته وتفقه بها على مذهب أبي حنيفة، وكان قد سمع الحديث من الحسن بن أحمد بن حبيب الكرماني صاحب مسدد، ومن أحمد بن خليد الحلبي صاحب أبي اليمان الحمصي، ومن أحمد بن محمد ابن أبي موسى الأنطاكي، وأنس بن سالم الخولاني، والحسن بن أحمد بن إبراهيم الأنطاكي والفضل بن محمد العطار الأنطاكي، والحسين بن عبد الله القطان الرقيّ، وأحمد بن عبد الله بن زياد الجبلي، ومحمد بن حصن الالوسي.

وسع ببغداد من الحسن بن الطيب الشجاعي، وعمر بن أبي غيلان الثقفي، ومحمد بن محمد الباغندي، وحامد بن شعيب البخلي، وأبي القاسم البغوي، وأبي بكر بن أبي داود [تاريخ بغداد، 12/ 77؛ والأنساب، 111؛ ولسان الميزان، 4/ 256]، وأضاف ابن قطلوبغا أن شاعرنا تفقه ببغداد على أبي الحسن الكرخي [تاج التراجم ص. 45]. وقرأ علم النجوم على الكسائي المنجم [معاهد التنصيص، 1/ 136]. وقال ياقوت: قرأه على البناني المنجم صاحب الزّيج [معجم الأدباء، 14/ 163].

لشدة شغفه بالعلم ظلّ يواصل أخذه رغم تقدم منزلته الفكرية والاجتماعية، ذكروا أن محمد ابن أحمد المفجع الشاعر دخل يومًا على المترجم له، فوجده يقرأ «معاني الشعر» على العبيسي، فعجب لذلك، لعلوّ كعب التلميذ على شيخه، فارتجل:

قد قُدِّم العجبُ على الرويسِ
وشارفَ الوهدُ آبَا قُبيس
وطاولَ البقلُ فروعَ المَيْسِ
وهبَّت العنز لقرع التيس
وادّعت الرومُ أبًا في قيس
واختلط الناسُ اختلاط الحيس
إذ قرأ القاضي حليفَ الكَيْسِ
«معانيَ الشعر» على العُبَيْسي

[إرشاد الاديب، 6/ 319].

حدث، التنوخي ببغداد فروى عنه من أهلها أبو حفص بن الآجري، وأبو القاسم بن الثلاج، وروى ولده المحسن بن علي عنه ديوانه [تاريخ بغداد، 12/ 78؛ لسان الميزان، 4/ 257؛ الأنساب الورقة، 111].

كان التنوخي متعدد الجوانب، وقد امتاز

بحافظة عجيبة، ذكروا أنه حفظ قصيدة دعبل التي يفتخر فيها باليمن، ويعدد مناقبهم، ويردّ على الكميت فَخْره بنزار وأولها:

أفيقي من ملامِك يا ضَعينا
كفاني اللومَ مرُّ الأربعينا

وهي نحو ست مئة بيت، حفظها في يوم وليلة.

وذكروا أنه كان يحفظ من شعر الطائيين مائتي قصيدة وخمس مئة مقطوعة [النشوار، 2/ 142 و7/ 203؛ وتاج التراجم، 45] عدا ما كان يحفظ لغيرهم، وأنه كان يحفظ من اللغة والنحو شيئًا عظيمًا. وكان علم الفقه والفرائض والشروط والمحاضرة والسجلات رأس ماله، وكان يحفظ منه ما قد اشتهر به.

وأنه كان يحفظ من الكلام والمنطق والهندسة الكثير، وكان في علم النجوم والأحكام والهيئة قدوة، وكذلك في علم العروض. وكان مع ذلك يحفظ ويحدث فوق عشرين ألف حديث، حتى قيل: لولا أن حفظه متفرق في هذه العلوم، لكان أمرًا هائلاً [نشوار المحاضرة، 7/ 203 نقلا عن فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، 167؛ وتاج التراجم، 45 ومعجم الادباء، 14/ 164 - 165؛ وبغية الوعاة، 2/ 187]، وكان يعرف الكلام في الاصول على مذهب المعتزلة، ويعرف النجوم وأحكامها معرفة ثاقبة، ويقول الشعر الجيد [تاريخ بغداد، 12/ 78؛ الانساب، الورقة، 111].

حتى قيل: إنه كان يقوم بعشرة علوم [معجم الأدباء، 14/ 163؛ الوافي بالوفيات، 21/ 459-465].

ولد التنوخي سنة 278 في أنطاكية، كما أسلفنا، ولمّا زار الخليفة المعتضد أنطاكية سنة 287هـ، إثر قضائه على تمرّد وصيف الخادم ونزل خارجها وطاف بالبلد بجيشه، كان التنوخي صبيًا في المكتب، وقد كان لوالده محمد بن داود آنذاك موقف مأثور إذ نجح في ثني الخليفة عن عزمه في هدم سور المدينة بالحجة الناصعة، وهو موقف محمود كان له أثره في حفظ المدينة من غزوات الروم. وقدم التنوخي بغداد في حداثة سنة ست وثلاث مئة، وكان على ما ذكرنا من الحفظ والذكاء والعلم.

وفي سنة عشر وثلاث مئة قلّده قاضي القضاة أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن بهلول التنوخي القضاء بعسكر مكرم وتُسْتَر، وجنديسابور، والسوس وكلها من كور الاهواز، وحين سلّم إليه ابن بهلول عهدَ القضاء، أوصاه بتقوى الله عزّ وجل، وبأشياء من أمور العمل، وسياسته في الدنيا والدين، وأن يكتم حقيقة عمره لئلاً يتهم بالحداثة. وتقلد قضاء البصرة والاهواز بضع سنين ثم صرف عنه، فقصد سيف الدولة زائرًا ومادحًا، فأكرمه وكتب في أمره الى المسؤولين ببغداد، فأعيد الى عمله، وزيد في رزقه ورتبته. وتقلد قضاء أيذج، وجند حمص، من قبل المطيع الله. وتقلد القضاء في كورة واسط وأعمالها، والكوفة، وسَقْي الفرات، وعدة نواحٍ من الثغور الشامية، وأرّجان، وكورة سابور مجتمعًا ومفترقًا. وأول ولايته القضاء رناسةً في أيام الخليفة المقتدر بالله بعهدٍ كتبه له الوزير أبو علي بن مقلة، ووهم ياقوت إذ ذكر أن هذا العهد كتب سنة أربعين وثلاث مئة. فالوزير ابن مقلة توفي في

سنة 328هـ وكان ابن مقلة قد قلده المظالم بالأهواز والاشراف على العُيّار بها.

إن قدرات التنوخي قد نبهت إليه أبا عبد الله البريدي، شيخ البريديين، فألحقه بخدمته، وخوّله الكتابة والنيابة عنه في الأمور المهمة الدقيقة، حتى عُدّ في جملة البريديين على ما ذكر المسعودي [مروج الذهب، 4/ 229]. ففي سنة 324هـ كان رسول البريدي الى القائد ياقوت، حيث أبرم صلحًا، وزوّج ابنة البريدي من ابن ياقوت [تجارب الامم، 1/ 345]. وفي سنة 325هـ كان رسول البريدي الى الامير محمد بن رائق، فحمل اليه من واسط رسالة ولقيه بدير العاقول [نشوار المحاضرة، 4/ 75].

وفي سنة 326هـ، كان رسول البريدي الى أمير الامراء بحكم، حيث عقد بينهما مصالحة عززت بزواج بحكم من ابنة البريدي. وفي عام 327هـ ولد له بالبصرة ابنه المحسن، الذي سار على سُنّة أبيه في التحصيل والتصنيف، فكان من مصنفاته: نشوار المحاضرة، والفرج بعد الشدة وسواهما. وحين توفي أبو عبد الله البريدي سنة 332هـ استقرّ التنوخي بالبصرة، وتوثقت صلته بالمهلبي، الذي أصبح فيما بعد وزيرًا لمعز الدولة أحمد بن بويه.

كان الوزير المهلبي شديد الميل للتنوخي، شديد التعصب له، يعده ريحانة الندماء، ونارنج الظرفاء، لطيب عشرته، وكرم أخلاقه، وسيرورة أشعاره. وكان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين، على اطّراح الحشمة، والتبسط في القصف وهم ابن قريعة، والمزاح، وابن معروف، والايذجي. وقد حفظ الثعالبي وصفا لبعض مجالسهم وما قاله الرفّاء فيهم [يتيمة الدهر، 2/ 336 ـ 337]. وصلة التنوخي بالمهلبي قديمة، بدأت قبل أن يشتهر بوقت طويل. قال صاحب النشوار وجدت كتابًا من أبي محمد المهلبي الى أبي، قبل تقلده الوزارة بسنتين، أوله: كتابي أطال الله بقاء سيدنا القاضي، عن سلامةٍ لازالت له إلفا، وعليه وقفا. ثم أورد نتفة ومقطعة مدح بهما التنوخي [نشوار المحاضرة، 2/ 203].

وتطورت الصلة بين الرجلين على مرّ السنين وازدادت توثقًا، وعلى الرغم من أن مجلس المهلبي كان غاصًا بأفاضل العلماء وكبار الأدباء كالحاتمي، وابن المنجم، وأبي الفرج الاصبهاني، وابن حجاج، وابن سكرة، والخالديين، والصابي، والقاضي الخلادي، والسيرافي، والرماني، والصاحب بن عباد، إلا أنه كان شديد الميل للتنوخي، يُعدّه كما ذكرنا-ريحانة الندماء ونارنج الظرفاء. وكان التنوخي حريصًا كل الحرص على حضور مجالس صاحبه المهلبي، وحين عاقه المطر الشديد ذات يوم كتب إليه قصيدة تنضح بالشوق والاعتذار، فردّ عليه الوزير بالأبيات التالية:

أتتْ رقعةُ القاضي الجليل فكشّفت
وساوس محزونِ الفؤاد مُلهّفِ

فأهدتْ نظامًا من قريضٍ كأنّه
نظامُ لآلٍ أو كَوَشْي مُفوّفِ

تكامل فيه الظرف والشكل مثلما
تكامل في مهديه كلُّ التظرّفِ

حوى منتهى الحسنى بأوّل خاطرٍ
يكلفه في الشعر ترك التكلُّف

وتعكس قصيدة أخرى طرفًا من هذه الصلة الحميمة بين القاضي والوزير المهلبي، وهي صلة ظلت قائمة حتى عصف الموت بالتنوخي، إذ ذكرت المصادر أن المهلبي قضى ما على التنوخي من دين وهو خمسون ألف درهم بعد وفاته [معجم الأدباء، 14/ 164]، وصلة التنوخي بالمهلبي تقودنا إلى الحديث عن صلته بنائبه وخليفته على الوزارة صاعد بن ثابت، وكانت قديمه ومتينة عززتها الأشعار [نشوار المحاضرة، 4/ 64].
كذلك شدّت التنوخي إلى عبد الله بن ورقا أمن رؤساء عرب الشام وقوادها والمختصين بسيف الدولة، وكان شاعرًا أديبًا جوادًا مُمَدّحا، صلة مودّة وتحابب انعكست على شعر التنوخي [معجم الأدباء، 14/ 171- 172]. وله مع ابن العميد مكاتبات شعرية حفظ بعضها الثعالبي [اليتيمة 3/ 170]، كما تكشف أشعاره صلة تهاد بينه وبين ابن خلاد القاضي الشاعر.
أشار ياقوت إلى أن التنوخي لم يزل نبيهًا متقدّمًا يمدحه الشعراء و يجيزهم، ويُفضل على من قصده إفضالاً أثّر في حاله [معجم الأدباء، 14/ 164].

وهي إشارة جديرة بالوقوف عندها، ذلك أن التنوخي كان جوادًا كريمًا، أكّد هذه الحقيقة الثعالبي إذ قال في ترجمته: هو من أعيان أهل العلم والأدب وأفراد الكرم وحسن الشيم [يتيمة الدهر، 2/ 336]. وكان مألفًا للشعراء مُمَدَّحا.
أهدى مرة طيلسانًا الى جحظة البرمكي فكتب الأخير إليه قصيدة أوردها الخالديان في [الهدايا والتحف، 51 ـ 52]. وفي نشوار المحاضرة أخبار عدد من الشعراء ممن كان يقصده فيظفر بحاجته، بينهم مغمورون ومشهورون. ومن المشهورين: أبو الفرج الاصبهاني، والخبزأرزي، والمفجّع البصري محمد بن أحمد، ومحمد بن الحسن بن جمهور العمّى الكاتب، وكان من شيوخ أهل الأدب في البصرة، وعبد الرحمن بن الفضل الشيرازي.

وأشعار هؤلاء في امتداحه منتشرة في نشوار المحاضرة، ومعجم الأدباء، ويتيمة الدهر وسواها وثمة قصيدة مطولة وجهها الشيرازي الذي تقدم ذكره إلى التنوخي حفظها مصنف جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، وحفظ ردّ التنوخي عليها شعرًا وهو كتاب لمّا يزل مخطوطًا.

إن رجلاً مثل التنوخي يقصده الشعراء فيجيزهم، ويغضب منهم من يغضب فيعتب فيترضاه ويهب له من ماله، ويسدّ حاجات الشعراء والأدباء من قُصّاده ويُفضلُ عليهم إفضالاً أثّر في حاله، رجل مثله ليس بِدْعًا أن يموت مدينًا على ما أسلفنا.

توفي القاضي التنوخي الكبير في البصرة عصر يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأول سنة 342هـ. ودفن من الغد في تُربة اشتريت له بشارع المربد [تاريخ بغداد، 12/ 79؛ الأنساب الورقة، 111؛ العبر، 2/ 260؛ تاج التراجم، 45].

ومن عجائب الأمور أنه تنبأ بموعد وفاته بدقة مستندًا إلى معرفته بعلم النجوم.

وقد أوردت المصادر تفاصيل ذلك [نشوار المحاضرة، 2/ 329 ـ 330؛ ومعجم الأدباء، 14/ 186].

وصفه الذهبي [العبر، 2/ 260] بأنه «من أذكياء العالم، رواية الأشعار عارفًا بالكلام والنجوم» وهي عبارة اقتبسها اليافعي، وابن العماد الحنبلي وحرفت كلمة النجوم إلى (النحو). ونعته ابن حجر بأنه: من بحور العلم والأدب [لسان الميزان، 4/ 256]. وقال عنه ابن تغري بردي الاتابكي بأنه «كان فقيهًا حنيفًا بارعا في الفقه والأصول والنحو، وكان شاعرا فصيحًا» [النجوم الزاهرة، 3/ 310]. وقال ابن خلكان: «كان عالما بأصول المعتزلة والنجوم» [الوفيات، 3/ 366] وقال الصفدي: «وكان يحفظ من النحو واللغة شيئًا كثيرًا، وكان في الفقه والفرائض والشروط غاية. واشتهر بالكلام والمنطق والهندسة. وكان في الهيئة قدوة..» [الوافي، 21/ 460]. وقد مرّ بنا ما قاله الثعالبي عنه.

ومما دلّ على حصافة المترجم له وحكمته وحسن تعليله وعدم تكبُّره رغم ما أحاط به من علوم، قوله في مجلسه ذكر رجل كان صغيرًا فارتفع، فقال بعض الحاضرين: من ذاك الوضيع؟ أمس كنا نراه بمرقعة يشحذ!! فقال التنوخي: وما يضعه إن الزمان عضّه، ثم ساعده، كلّ كبير إنما كان صغيرًا أولا، والفقر ليس بعار، إذا كان الإنسان فاضلا في نفسه وأهل العلم خاصته لا يعيبهم ذلك. وأنا أعتقد أن من كان صغيرًا فارتفع، أو فقيرًا فاستغنى، أفضل ممن ولد في الغنى أو في الجلالة. لأن من ولد في ذلك إنما عمل له غيره، فلا حمد له هو خاصة فيه. ومن لم يكن له فكان، فإنّما بجده أو كدّه وصل إلى ذلك، فهو أفضل من أن يصل إليه ميراثا، أو بجدّ غيره، وكدّ سواه [نشوار المحاضرة، 2/ 100].

تركت الطبيعة أثرها في شعر التَنُوخي، وكان أثر الطبيعة الصامتة أبرز وأظهر في الصبابة المتبقِّية من شعره. فقد وصف السماء ونجومها، والليل، والرعد، والبرق، والريح، والشمس، والبرد والنار، والديار الدارسة، والرياض، والزهور، والأنهار، والثمار.

وإذا كان بعض الشعراء قد وصفوا هذه الأشياء أو بعضها في معرض المديح، فان التنوخي جعل وصفها غرضا أساسيًا من أغراض شعره، وفي مدة مبكرة من حياته، نلحظ ذلك بوضوح في مقصورته التي نظمها وهو في العشرين من عمره. وقد كان لمخيِّلته أثرٌ كبير في إبداعه. وإذا كان التشبيه ثمرة ابتكار القوة المخيلة، فإن أعلى درجاته، تشبيه المحسوس بالمعقول. وهو ضرب من التشبيه لا يقدر على تخيّله إلاّ فحول الشعراء ومن كانت مُخَيِّلَتهُ صحيحة وذوقه لطيفًا وكان التنوخي واحدًا من هؤلاء الفحول الذين أجادوا تشبيه المحسوس بالمعقول، ولعلّ مما ساعده في ذلك سعة معارفه، فهو فقيه، ومنجم، وعروضي، ونحوي، وأصولي، ومتكلم، فضلاً عن سعة محفوظه. إن تعمقه في الفقه وممارسته مهنة القضاء زمنًا طويلاً قد رَفَدا مخيِّلتَهُ الشعرية بتشبيهات نادرة مثل قوله:

وكأن النجوم بين دجاهُ
سُنَنٌ لاحَ بينهنَّ ابتداعُ

مشرقاتٌ كأنهنّ حجاج
تقطع الخصمَ والظلام انقطاعُ

وقوله:

انهض بنارٍ الى فحم كأنهما
في العين ظلم وإنصافٌ قد اتّفقا
جاءت ونحن كقلب الصبّ حين سلا
بردًا، فصرنا كقلب الصبّ إذ عشقا

فهذه التشبيهات لا يفوق إليها ولا ينهض بها غير من كانت مخيّلته صحيحة، ومن كان الى ذلك قد عجم مهنة القضاء وسبر غورها فاستقادت لتعبيره.

ومن هذا القبيل قوله يصف سحابا ممطرًا:

سحابٌ أتى كالأمن بعد تخوّفِ
له في الثرى فعل الشفاء بمدنفِ
يُعَبّسُ عن برقٍ به متبسّمٍ
عبوسَ بخيلٍ في تبسّمِ معتفِ
دجاهُ إذا ما لاحت الشمس مُبطلٌ
سناها، كمنٌ مُبْطلٍ منْ مُسْعفِ
كأنّ التماع البرق في ظُلماته
هدىً في ضَلالٍ يبتدي ثمّ يختفي

وكان للطبيعة الحية كالطير، أثرها في شعره، كذلك كان للحالة الاجتماعية أثرها في شعره، فقد تأنق في وصف مجالس الشراب، لأن هذه المجالس كانت تشغل فراغا في حياته، وكان مجلس المهلبي واحدًا من أمتعها وأحفلها. وقد انعكست في شعره ظاهرةُ شعر الاخوانيات، التي اختلف في تعليلها، لكننا لا نشارك القائلين بأنها ثمرة من ثمار النفاق الاجتماعي.

وبعد: فهذا شاعر من فحول شعراء عصره، عدّه الثعالبي شاعر البصرة في زمنه. وهو في رأينا، من أئمة التشبيه.

آثاره

1 ـ ديوان شعره، ذكره الثعالبي في اليتيمة، إذ قال: ومما أُنشدتُ له، ولم أجده في ديوانه "ثم أورد بيتين، مما يشعر بأن الديوان كان بين يدي الثعالبي [اليتيمة، 2/ 346]. وأشار ياقوت إلى وقوفه على ديوانه ونقله منه [معجم الأدباء، 4/ 190]. ومن المصادر التي أشارت إلى ديوانه: [أنساب السمعاني، الورقة 111؛ تاريخ بغداد، 12/ 78؛ العبر، 2/ 260؛ مرآة الجنان، 2/ 334؛ النجوم الزاهرة، 3/ 310؛ وفيات الأعيان، 3/ 369؛ كشف الظنون، العمود 781].

ومن المحزن أن هذا الديوان قد ضاع ولم نقف له على أثر فَنَهَدَ كاتب هذه الترجمة إلى جمع ما تفرق من شعره في شتى المظان مخطوطة ومطبوعة، فصنع منها مجموعا سماه ديوانا نشره في مجلة «المورد» البغدادية المجلد 13 العدد الأول سنة 1984. وقد ضمّ المجموع نحو مائة نص بين قصيدة ومقطعة ونتفة. ثم استدرك صانع الديوان على نفسه في كتابه [المستدرك على صناع الدواوين، 2/ 309-314] مضيفًا 12 نصا مهما بين قصيدة ومقطعة. ووهِمَ د. عمر فروخ في كتابه [تاريخ الأدب العربي، 2/ 448] إذ قال: وله قصيدة في مفاخرة اليمن تبلغ ست مائة بيت مطلعها:

افِيقي مِنْ ملامك يا ظعينا
كفاك اللوم مرُّ الاربعينا

فالقصيدة لدعبل والذي في تاريخ بغداد أن التنوخي حفظها في يوم وليلة ؛ 2 ـ كتاب في العروض، ذكره ياقوت [معجم الأدباء، 14/ 165؛ ابن قطلوبغا، تاج التراجم، 45].

وقال الخالع في معجم الأدباء: ما عمل في العروض أجود منه؛ 3 ـ كتاب في الفقه: ذكره ياقوت [المعجم، 14/ 163]؛ 4 ـ كتاب في الفقه: ذكره ياقوت، وابن قطلوبغا؛ 5 ـ كتاب مجهول العنوان: ففي كثير من المصادر مثل [تاريخ بغداد، 6/ 176]، نجد روايات حدّث بها عليّ بن المحسّن بقوله: وجدت في كتاب جدي علي ابن محمد بن أبي الفهم التنوخي. ولم نقف على اسم هذا الكتاب، ولكن تبدو أهميته في النصوص المهمة المنقولة عنه. ويؤكد ياقوت أن للتنوخي الكبير عدة كتب مصنفة، لكنه لا يذكر أسماءها. ووهم صاحب [النجوم الزاهرة، 3/ 310] إذ عدّ «الفرج بعد الشدة» من مصنفاته خالطًا بينه وبين ابنه المحسن. وتابعه على هذا الوهم عمر رضا كحالة في [معجم المؤلفين، 7/ 196]. وقد ضاعت آثاره ضمن ما ضاع من تراثنا.

المصادر والمراجع

● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، 12/ 77 ـ 79؛ ● السمعاني، الأنساب، طبعة مصورة عن طبعة مر جليوث الورقة 111؛ ● ابن حجر، لسان الميزان، بيروت 1390هـ 4/ 256 ط.2؛ ● ابن قطلوبغا، تاج التراجم، بغداد 1960، ص45؛ ● العباسي، معاهد التنصيص، مصر 1316هـ، 1/ 136؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، طبعة الرفاعي، مصر، 14/ 163 ـ 164 و171 ـ 172؛ ● ياقوت، إرشاد الاريب، طبعة مرجليوث، مصر 6/ 319؛ ● التنوخي، نشوار المحاضرة، بيروت 142 و203 ـ 240 و4/ 64؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، مصر 2/ 187؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات: بيروت، 21/ 459 ـ 465؛ ● مسكويه، تجارب الأمم، مصر 1915، 2و1/ 345؛ ● المسعودي، مروج الذهب، بيروت 1965، 4/ 229؛ ● الثعالبي، يتيمة الدهر، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد ط.2 القاهرة 1956، 2/ 336 ـ 337 و3/ 170 ـ 175؛ ● الخالديان، الهدايا والتحف، تح. سامي الدهان، القاهرة، 1956 ص. 51-52؛ ● الذهبي، العبر، تح. فؤاد السيد، الكويت، 2/ 260؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، حيدر آباد الدكن 2/ 334؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 3/ 310؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت 3/ 369؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، العمود 781؛ ● ديوان القاضي التنوخي الكبير، تح. هلال ناجي، مجلة «المورد» البغدادية المجلد 13، العدد الأول 1984؛ ● ناجي، هلال والقيسي، نوري، المستدرك على صناع الدواوين، بيروت 1998، 2/ 309 ـ 314؛ ● فروخ، تاريخ الأدب العربي، بيروت، 2/ 448.

أ. هلال ناجي
باحث في التراث العربي
بغداد ـ العراق

التنّوخي، القاضي، أبو القاسم علي بن المحسّن

(365هـ/975م - 474هـ/1081م)

القاضي أبو القاسم، علي بن المحسّن التنوخي. ولد بالبصرة سنة 365هـ، في بيتٍ أهله كلّهم فُضلاء أدباء، ظُرفاء. عُرف بالتنوخي لقبائل اجتمعت قديمًا بالبحرين وتحالفت على التوازُر والتناصُر، وأقامت هناك، فسُمّيت تنوخًا.

صحب «أبا العلاء المعرّي» (ت 449هـ) وأخذ عنه كثيرًا، وإليه كتب «أبو العلاء» قصيدته التي أوّلها:

هات الحديثَ عن الزَّوْراء أو هِيتا
ومُوقد النار لا تكرى بتكْريتا

وأوّل سماعه في سنة 370هـ. ولمّا يُكمّل الخمس سنوات، فسمع من خلقٍ كثير. واتّهم بأنه كان يتشيّع ويذهب إلى الاعتزال، وعلّق الحافظ «الذهبي» (ت 748هـ) على ذلك ملتمسًا العُذر فيما اتُّهِمَ به بأنه نشأ في الدولة البُوَيْهيّة وأرجاؤها طافحة بهاتين البِدْعتين.

وإذا كان الخطيب البغدادي (ت 463هـ) أفرد له ترجمة ذكر فيها بعض أسماء شيوخه، فإنه قد ذكر في مواضع كثيرة من «تاريخ بغداد» أسماء الكثيرين من الشيوخ الذين سمعهم وروى عنهم واستجازهم وتأدّب عليهم وتتلمذ في مختلف العلوم، أحصيناهم من خلال التراجم والأسانيد فبلغوا 77 شيخًا، بين محدّث وفقيه وأديب، ويُعتبر أبوه أوّل شيوخه، بطبيعة الحال، ورغم كثرة شيوخه فإنّ المصادر لا تحدّد سنوات تلقّيه عليهم كلّهم، بل هي تشير إلى بعضهم فقط. أمّا التلاميذ الذين روَوا عنه فهم كُثُر أيضًا، ولكنْ لم يصلنا إلاّ أسماء القليل منهم، كان أشهرهم الخطيب البغدادي، ويتّضح ذلك من كثرة مروياته عنه في «تاريخ بغداد»، ومصنّفاته الأخرى، مثل كتاب «التطفيل»، وكتاب «البخلاء»، وغيره.

وكان الخطيب يُكثر من ملازمته والتردد على مجلسه، حتّى قيل إنه كان يبيت عنده مع صاحبه الحافظ محمد بن علي الصوري (ت 441هـ). وكان يركن إلى رأيه ويعتمد أقواله في تحقيق الأخبار والوقائع، ومن ذلك روايته عن مقتل محمد الأمين الخليفة العبّاسيّ. وشهد له بضبط أمور الرجال وأخبارهم وسنيّ سماعهم أو روايتهم. وهذا يتّفق مع قبول شهادته عند الحكام في حداثته، ولم يزل على ذلك مقبولاً إلى آخر عمره، وكان متحفّظًا في الشهادة، محتاطًا، صدوقًا في الحديث، وتقلّد قضاء نواحٍ عدّة منها: المدائن وأعمالها، ودَرْزِنجانْ، والبَرَدان، وقرميسين. وكان إلى جانب مجلسه للقضاء يعقد مجلسًا للعلم يحضره الشيوخ والشعراء والأدباء، وغيرهم، وللنساء نصيب في ذلك المجلس.

إلى جانب إلمامه بالحديث فقد كان أديبًا، وله

شِعر حسب قول ابن خلكان (ت 680هـ) وإنّ كان يقول إنه لم يقف منه على شيء. ومثل ذلك قال الثعالبي (ت 429هـ) في "يتيمة الدهر". وهو روى "أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان" تأليف الضبي (ت 222هـ).

ألّف في الحديث كتاب "الطوالات"، وروى كتاب "الأشربة" للإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، وألّف "الفوائد العوالي المؤرّخة من الصحاح والغرائب" في عدّة أجزاء، لم يصلنا منها سوى الخامس، وعنوانه يدلّ على موضوعه، وهو رواية الأحاديث الصحيحة الواردة في كتب الصحاح الستة، و"الغريبة" التي لها راوٍ واحد، والغرابة في أصل السند من طرفه الذي في الصحابيّ، أو في جميع طبقاته بأن روى الحديث واحدٌ عن واحد عن واحد.. إلخ . من طريق عالية، بمعنى أن يكون للحديث سندان، ظاهرهما الاتصال إلى النبيّ ﷺ، واحدهُما عددُ رجاله أقلّ، والثاني أكثر، فيقال للأوّل: حديث عالي الإسناد. وتزداد الغرابة في "العوالي" حين يروي الشيوخ الكبار عن الشيوخ الصغار، مثل "رواية" "الزُهري" لحديث "الفُريعة" عن الإمام مالك وهو شيخه، وقد مات مالك 179هـ. بعد الزُهري (ت 124هـ) بـ55سنة. وأوّل من حدّث بهذا الحديث عن مالك هو الزُهري وآخر من حدّث عنه أبو حُذافة سنة 259هـ، فبين أول من حدّث به عن مالك وآخر من حدّث عنه 135 عامًا. ومثل الحديث عن ابن اللُّتْبِيّة الذي رواه يزيد بن أبي حبيب عن ابن إسحاق الكاتب (ت 151هـ) صاحب "المغازي"، وهو يدخل في رواية الأكابر عن الأصاغر، لأنّ يزيد هو شيخ ابن إسحاق وحدّث عنه كثيرًا، ومات يزيد قبله بثلاث وعشرين سنة. ومنها أن يكون الراوي من الوجهين جميعًا، وذلك كرواية كثيرٍ من العلماء الحفّاظ عن أصحابهم وتلامذتهم كعبد الغني بن سعيد (ت 409هـ) في روايته عن محمد بن علي الصوري (ت 441هـ).

ولا يقتصر الجزء على رواية الحديث فحسب، بل هو يتضمّن 19 حديثًا شريفًا، وقطعة في التفسير، وخمس قطع في المواعظ، ولهذا سُمّي الجزء بـ"الفوائد". ويجمع الجزء إلى جانب كل ذلك، تحقيق تواريخ وفيات شيوخ السند، مع ترجمة لبعض الأعلام، ممّا يفيد في فنّ تراجم الرجال ووفياتهم وطبقاتهم، ولو وصلتنا بقيّة أجزاء المخطوط، لوقفنا على كمّ كبير من المعلومات في هذا المجال.

آثاره

1 ـ الطوالات؛ 2 ـ الفوائد العوالي المؤرّخة من الصحاح والغرائب.

المصادر والمراجع

● أعيان الشيعة، 42/ 9 ـ 10؛
● التنوخي، الفوائد العوالي المؤرّخة من الصحاح والغرائب، بتخريج الصوري، تح. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ودار الإيمان، طرابلس 1406هـ/ 1985م.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس

التنوخي، المفضل بن محمد بن مشعر

(390هـ/1000م ـ 442هـ/1050م)

هو المفضل بن محمد بن مشعر بن محمد التنوخي المعري (أبو المحاسن)، أصله من المعرة وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه [معجم البلدان، 5/ 156]. ولد سنة 390هـ وقدم بغداد.

أخذ الفقه عن أبي الحسين القدوري الحنفي والصميري، وأخذ الأدب عن أبي عيسى الربعي، وكان من جملة المصنفين فيه، وله كتاب لطيف نقل ياقوت فوائده [معجم الأدباء، 1/ 48].

ومن شيوخه أيضا محمد بن أشرس النحوي، وعلي بن عبد الله الدقيقي وسمع والده، وأبا عمر بن مهدي [السيوطي، بغية الوعاة، 2/ 297] وحدث بدمشق، وناب في القضاء بها، وولي قضاء بعلبك، وحدث عنه الشريف النسابة [ياقوت، معجم البلدان، 19/ 164].

توفي بدمشق، ولم يخلف بعده مثله. اختلف في تاريخ وفاته فقيل سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة [كحالة، معجم المؤلفين، 13/ 315] أو ثلاث وأربعين وأربعمائة وهي السنة السادسة عشرة من ولاية المستنصر على مصر [ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 52].

آرائه

تدور مؤلفات المفضل التنوخي حول الفقه، والآداب، والنحو. ذكر بعضا منها عمر رضا كحالة في الجزء الثاني من معجم المؤلفين، وابن تغري بردي في الجزء الخامس من النجوم الزاهرة، والسيوطي في الجزء الثاني من بغية الوعاة، وياقوت في الجزء التاسع من معجم الأدباء.

ومن مصنفات التنوخي:

1 ـ كتاب التنبيه في الرد على الشافعي فيما خالف النصوص؛ 2 ـ رسالة في غسل الرجلين ووجوبه؛ 3 ـ كتاب تاريخ النحاة؛ 4 ـ أهل اللغة؛ 5 ـ اللباب في شرح تنبيه أبي إسحاق؛

ومما يؤسف له عدم تمكننا من العثور على أي من هذه المؤلفات لمعرفة أهم آرائه وأفكاره واتجاهاته الفكرية خاصة وأن أصحاب الأعلام والتراجم قد اكتفوا بذكر نبذ مختصرة عن حياة التنوخي ومصنفاته وحسب.

المصادر والمراجع

● ياقوت، معجم الأدباء، 1/ 48، 19/ 164؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، 26/ 25؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 52؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، 2/ 297؛ ● البغدادي، هدية

العارفين، 2/ 468 ـ 469؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، 263، 492، وصفحات أخرى متفرقة؛ ● ابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص 45، 55؛ ● القرشي، الجواهر المضيه، 2/ 179؛ ● عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، 12/ 315؛ ● آغا بزرك، أعلام الشيعة عن حسين علي محفوظ.

د. مرفت عزت بالي
جامعة حلوان ـ مصر

التهانسيري، أحمد بن محمد

(ت 820هـ/ 1400م)

هو العالم الفاضل الشيخ أحمد بن محمد التهانسيري، ولد بمدينة دلهي حيث استقرت عائلته نهائيًا بعد مغادرة بلدة «تهانسير» الواقعة بولاية البنجاب في وسط مدينتي دلهي ولاهور [سبحة المرجان، 92] فتمت نشأته وتثقفه في عاصمة البلاد دلهي التي كانت في القرن الثامن للهجرة محط العلماء ومهبط الأدباء والفضلاء والمتصوفين، فأشبع الشيخ التهانسيري [نزهة الخاطر، ج3/ 8] غلته العلمية والأدبية من مناهل الراسخين في العلم والأدب والمعرفة، المتواجدين في دلهي في تلك الحقبة من الزمن. وقد استفاد كثيرًا على وجه الخصوص من الشيخ نصير الدين الأودهي الدهلوي، والقاضي عبد المقتدر بن ركن الدين الشريحي الكندي التهانسيري صاحب اللامية الشهيرة في مدح النبي ﷺ التي تستهل كما يلي:

يا سائقَ الظَّعن في الأسحار والأُصُلِ
سلِّم على دارِ سلمى وابْكِ ثم سَلِ

عن الظبياء التي من دأبها أبدًا
صيد الأسود بحسْن الدلّ والنجَلِ

ومما يبدو أن الشيخ التهانسيري كان متأثرا للغاية من غزارة علم أستاذه، وخاصة من ملكته الأدبية وموهبته الشعرية حتى أنه سلك مسلكه واقتفى أثره في قرض الأبيات بالعربية. وخير مثال على هذا قصيدته الدالية التي امتدح فيها نبينا الكريم قائلا:

اطار لُبِّي حينَ الطائر الغَرِدِ
وهاجَ لوعَة قلبي التائهِ الكَمِدِ

وأذْكرتْني عهودًا بالحمى سلفتْ
حمامةٌ صدحتْ من لاعجِ الكَبِدِ

باتت تُؤرّقني والقوم قد هجعوا
ما بين مضطجِعٍ منهم ومستَندِ

تنم هذه الأبيات عن تضلع الشيخ التهانسيري في اللغة العربية وآدابها [سبحة المرجان، 93]. وإنه لمن المؤسف جدًا أن كل ما أنتجته قريحته الأدبية من القصائد والمنظومات

ما عدا القصيدة المذكورة آنفًا قد ذهبت أدراج الرياح. وأيا كان الأمر فإن قصائده المتبقية تدل على قدرته الفائقة على أساليب الشعر الجاهلي المختلفة. وبعد قراءتها يبدو أن الشيخ التهانسيري كان عربي الثقافة رغم كونه هندي المولد، ذلك لأن قصائده تزخر بالتشبيهات والاستعارات التي تتميز بها دواوين الشعراء الجاهليين، وعلى سبيل المثال فهو يقول:

لا عيشَ بَعْد لُثَيْلات اللّوى رغدا
ولا وصول إلى ذلك الجِمَى بيدي
حل الأحاديث عن ليلى وجارتها
وارْحل إلى السيد المختار من أدد

[سبحة المرجان، 94]

ومن الملاحظ هنا أن الشيخ التهانسيري لم يثبت تفوقه في قرض الشعر بالعربية بل كانت له يد طولى في مختلف العلوم والفنون الإسلامية ولا سيما مجالات الفقه، والحديث، والتفسير، فالناس كانوا يشدون الرحال إليه لطلب العلم والمعرفة وينهلون من مَعين معلوماته الواسعة، وكانت مدينة دلهي وما يجاورها من المدن والأمصار تدوي بصيته العلمي والأدبي.

ومما يروى في هذا الخصوص أن قوات الأمير تيمور بن ترغاني لما سيطرت على مناطق السند والبنجاب ودخلت سنة 801هـ مدينة دلهي، منتصرة ووقع الشيخ التهانسيري أسيرًا لها تأثر الأمير المذكور بغزارة علمه إلى حدّ أنه سرعان ما أصدر حكمًا بإطلاق سراحه وبالغ في تعظيمه وتكريمه، وطلب منه أن يلتحق بزمرة العلماء والأدباء الذين يصطحبونه بصورة مستقلة، ويرحل معه إلى سمرقند مقر حكومته الدائمة. إلا أن الشيخ رفض هذا الطلب وغادر دلهي سرا متوجهًا إلى بلدة «كالبي» الواقعة في وسط البلاد [ماجد الزبيدي، 479] حيث قضى بقية أيام حياته في زرع بذور العلم والأدب بعيدًا عن زخارف الدنيا وملذاتها إذ لم يكن لديه أي شغل عدا التفاني في العبادة. ولم يزل على هذه الحالة حتى وافته المنية في 820هـ وَوُوري جثمانه داخل قلعة «كالبي» بحضور جم غفير من العلماء والأدباء وعامة الناس.

إنّ الكلمات السالفة الذكر تنم عن أن الشيخ التهانسيري كان كثير الاهتمام في جميع أطوار حياته بنشر العلوم والثقافة الإسلامية، وقد بذل سعيًا دائبًا في سبيل إرساء دعائم الإسلام في ربوع الهند.

ومما لا ريب فيه أن جهوده وجهود العلماء الآخرين من أمثاله قد أتت أكلها، واتسعت رقعة الدين الحنيف في هذه البقعة من الأرض بفضل جهوده. ولتحقيق هذا الهدف النبيل اختار الطريقة الصوفية على يد الشيخ محمود نصير الدين الأودي الدهلوي [نزهة الخواطر، 3/ 8] للرد على الحركة «البهكتية» الهندوسية وآرائها الباطلة ومعتقداتها الخاطئة.

ومن الملاحظ بهذا الصدد أن محاولته هذه لم تكن على حساب الشريعة، ومعتقده الديني لم يقطع صلته بمصادر الشرائع والأحكام الدينية كما فعل بعض المتصوفة الهنود في عصره والعصور التالية، وذلك بفضل معرفته باللغة العربية وآدابها التي أنقذته من الجوانب السلبية للصوفية، لأنه كان يستوعب معاني القرآن والحديث وأسرارهما مباشرة دون الاعتماد

على الكتب المترجمة من العربية إلى اللغات المحلية، وهذا الأمر يفضي بنا إلى القول بأن استيعابة الثقافة العربية كان هدفه وغرضه الإلمام بأحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها النبيلة.

وأيا كان الأمر فإن تضلعه من الأدب العربي جعله قادرًا على سكب عواطفه في قوالب الشعر العربي إذ كان رقيق القلب، ومرهف الحس، لطيف الخيال، فترك لنا قصائد رائعة بالعربية. دليل ذلك هذه الأبيات من إحدى قصائده التي كنا أشرنا إليها سالفًا.

ما زار طرْفيَ غمض بعْدَ بُعدكم
ولا خيال سرور دارَ في خَلَدي

ليتَ الهوى لم يكن بيني وبينكُم
وحبلُه كان فينا غير مُنعقدِ

كانت لنا لُبُّ أيام وغرَّتُها
ولَّتْ سراعًا على رغْمي ولم تعُدِ

كأنه لم يكن بين الحِمى أنس
إلى اللوىَ وكأنّ الحيَّ لم تَفِدِ

[سبحة المرجان، 93 ـ 94].

المصادر والمراجع

● البلكرامي، آزار غلام علي، سبحة المرجان في آثار هندوستان ص 93 ـ 94؛ ● الحسني، عبد الحي، نزهة الخواطر، ج3/ 8؛ ● الندوي، رضوان علي، اللغة العربية وآدابها في شبه القارة الهندية الباكستانية عبر القرون

● The contribution of Indo and Pakistan To Arabic literature by M. G. Zoubierd Ahmed p. 479؛

د. محمد أسلم اصلاحي
جامعة جواهر لال نهرو ـ الهند

التهانوي، أشرف علي

(1280هـ/1864م ـ 1362هـ/1943م)

هو العلامة أشرف علي التهانوي، عالم جليل من علماء عصره، ومفسر وزاهد ورع، ولد في تهانه بهون القرية من مظفر نكر في الخامس من ربيع الثاني عام 1280 هـ/ السادس عشر من سبتمبر 1864م، وكانت وفاته طبقا لما ورد في كتاب "تذكرة أكابر ديوبند". في عام 1362هـ/ 1943م، التحق بمدرسة ديوبند الشهيرة وهو في الخامسة عشرة تقريبا، ودرس بها لخمس سنوات، على يد أساتذة زمانه وبالأخص مولانا محمد يعقوب الديوبندي، وشيخ الهند مولانا محمود الحسن، ويقال إنه تأثر كثيرا بالشيخ العالم الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة، وكان قد التقى به في مكة.

كرس العلامة أشرف علي التهانوي حياته للدرس والتدريس، وذاعت شهرته لما عرف عنه من تقوى وورع وحسن خلق، وما كان عليه من علم، وقدرة علمية وهبها الله له، في مجال التدريس والتعليم، وقد عمل في مدرسة فيض عام في مدينة كانبور، ثم انتقل إلى مدرسة أخرى تعرف باسم جامع العلوم.

بعد أن عمل بالتدريس مدة أربع عشرة سنة، اتجه أكثر إلى التأليف والتصنيف، وخاصة بعد حجته الثانية، ويقال إن له أكثر من أربعمائة كتاب، بل ذكر صاحب «موج كوثر» أن له أكثر من تسعمائة، بينما ورد في كتاب «تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند» [م، 10] أن له حوالي 1250 كتابا، وذكر صاحب كتاب «أكابر علماء ديوبند» أنّ له أكثر من ذلك.

كان قد بدأ التأليف في مدينة كانبور حيث ألف كتابه الضخم «بهشتي زيور» الذي كتب بعض أقسامه تلميذه أحمد علي. وفي مسقط رأسه تفرغ تماما لكتابة مؤلفاته الأخرى، ومن أهمها وأشهرها تفسيره «بيان القرآن» وكتاب «رحمة القدوس»، وأيضا «بهجة النفوس» في أحاديث التصوف وغيرها.

والعلامة أشرف علي تهانوي في مقدمة العلماء الذين حافظوا على القديم بمعنى التمسك بالأصول، ورفعوا في الوقت نفسه لواء التجديد في الحياة الفكرية والدينية، وكان لهذا أثره على تلامذته، وقد نشر أفكاره عن طريق الوعظ والتأليف، واتسعت حلقة تلامذته، فكان من بينهم عامة المسلمين ممن جهلوا القراءة والكتابة، كما كان من بينهم أيضا العلماء ومن تثقفوا بالثقافة الأوربية، ومن تلامذته الشيخ حسين أحمد المدني، وسيد سليمان الندوي، وعبد الماجد الدريابادي، وهؤلاء من الأدباء والعلماء الكبار في الهند.

لقد تخرج على يديه ـ رحمه الله ـ آلاف من تلامذته، برز منهم أكثر من مائة وثلاثين عالما منهم: الشيخ أحمد شرواني مؤسس مجلس صيانة أي حماية المسلمين، والشيخ مفتي محمد حسن الأمرتسري مؤسس الجامعة الأشرفية بلاهور، والشيخ خير محمد الجالندهري مؤسس خير المدارس بملتان، والشيخ المفتي محمد شفيق الديوبندي مؤسس دار العلوم بكراتشي، والشيخ أطهر علي مؤسس الجامعة الإمدادية في بنجلاديش، والمقرئ محمد طيب قاسمي القائم على دار العلوم في ديوبند بالهند، والعلامة سيد سليمان الندوي، والشيخ عبد الباري الندوي.

آثاره

1 ـ ترجم معاني القرآن الكريم ترجمة سهلة واضحة سلسة، بالإضافة إلى التفسير سابق الذكر الذي تضمن شرحا للقضايا الفقهية، وإيضاحا لمعاني الآيات القرآنية، مبينا الحكمة منها فيما يتعلق بإصلاح داخل الإنسان؛ 2 ـ وكتب عن السيرة النبوية عدة مؤلفات منها: نشر الطيب في ذكر النبي الحبيب، وكثرة الازدواج لصاحب المعراج، كما كتب مجموعة أدعية قرآنية بعنوان «مناجاة مقبول» وهي باللغة العربية مع ترجمة لمعانيها بالأردية نظما ونثرا؛ 3 ـ وتنوعت موضوعات كتبه إلا أن هدفه الأساس كان مجال الدعوة والإصلاح الاجتماعي، ومن هنا كتب «إصلاح الثورة» و «تعليم الدين وإصلاح

الرسوم» أي العادات والتقاليد وكتب الحقوق والفرائض وأيضا أحكام الإسلام وحقوق التعليم وآداب المساجد وحياة المسلمين وحرمات الحدود وغيرها. وهو في كتابه حياة المسلمين يذكر 25 أصلا من أصول الحياة، يجعلها دستورا، مقترحا تشكيل مجلس باسم «صيانة أو حماية المسلمين» وكان ذلك عام 1349هـ/ 1930م، الهدف منه الحفاظ على الأصول الأساسية للإسلام، وعلى عقائد الإسلام وعباداته، وتربية الفرد المسلم على أساسها، وإصلاح المعاملات الاجتماعية، والتأكيد على التربية الأخلاقية على مستوى الفرد والجماعة حتى يرقي المسلم، ويصل إلى درجة الكمال؛ 4 ـ ومن مؤلفاته أيضا كتاب الانتباهات المفيدة عن الاشتبهات الجديدة نشره فيما بعد باسم «إسلام اور عقليات» أي الإسلام والفكر الفلسفي، رد فيه على طبقة من المثقفين الجدد، الذين وجهوا اعتراضاتهم للدين باسم العقل والعلم الحديث، وقد رد التهانوي على شبهات هؤلاء عن طريق الاستدلال المنطقي الواضح، فأقام مقدمات في البداية موضحا الأمور البديهية وبين نوعية الدليل، ومن ثم قام بالرد على الاعتراضات في ضوء الأصول والمقدمات؛ 5 ـ أما كتابه عن الحقوق والفرائض فقد قدمه في ضوء المباحث الجديدة لمدرسة علي كره التي أسسها سيد أحمد خان، فرد على هجوم التجديديين في الهند آنذاك، وأدخل الطمأنينة في قلوب أولئك الذين ارتبطوا بالقيم الإسلامية، والأصول الإسلامية الراسخة؛ 6 ـ وفي كتاباته عن التصوف دعا إلى البعد عن البدع، والتركيز على الشريعة، موضحا «أن الشريعة هي الضمان للسعادة الدنيوية والأخروية، السعادة الظاهرية والباطنية». وقد أوضح أن التقرب إلى الله، يتم دون مبايعة أحد، ولا تلزم البيعة حتى يصلح المسلم باطنه ويزكي نفسه، وهذا نموذج من كتاباته: «الظاهر والباطن للدين المتين هو الشريعة والطريقة، فكما أن الأحكام الإلهية قضت بالفرائض والواجبات الخاصة بالأعمال الظاهرة، فهناك فرائض وواجبات للأعمال الباطنة، ونحن ملتزمون بأدائهما معا... وجنبا إلى جنب فمن الضروري أيضا ومن اللازم الحفاظ على حقوق العباد».

المصادر والمراجع

● أشرف علي التهانوي، إحياء السنن، ط. الهند 1918م؛ ● م. ن. حياة المسلمين، ط. ديوبند، 1947م؛ ● م. ن. حقوق وفرائض، ط. ملتان، 1960م؛ ● محمد أكبر شاه بخاري، أكابر علماء ديوبند، ط إدارة إسلاميات لاهو، ص 141، 150؛ ● شيخ محمد أكرم، موج كوثر، ط إدارة ثقافت اسلامي لاهور 1958م، ص 201؛ ● د. سمير عبد الحميد إبراهيم، الأدب الأردي الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط. أولى 1991م، ص 520 ـ 525؛ ● بنجاب يونيورسيتي (مجموعة من الأساتذة)، تاريخ أدبيات مسلمانان باك وهند جلد، جامعة البنجاب لاهور 1973م، مجلد 10 طبع المكتبة العلمية لاهور، ص 302، 305 ـ 304.

د. سمير عبد الحميد إبراهيم
جامعة محمد بن سعود

التهانوي، محمد أعلى بن الشيخ علي الفاروقي

(كان حيًا في 1158هـ/1745م)

هو محمد أعلى بن شيخ علي الفاروقي التهانوي، موسوعي التأليف في الاصطلاحات، وحسنة من حسنات الإسلام الهندي. كان إماما عالما من علماء المسلمين، بارعا في العلوم، لم يرزق حظا وافرا بالدراسة والبحث والإشهار، على الرغم من عطائه الوافر في العلم والمعرفة، واكتفت المصادر العربية بالإشارة إليه لماما وبإيجاز. ومن المرجح أن قدرا كبيرا من حياته ما يزال غائبا عنا، وعلى رأس ذلك سنوات ولادته ووفاته بالضبط، وكذلك شيوخه وتلاميذه. ومع كثرة المصادر التي ترجمت له؛ ولكنها غالبا ما تنقل من مصدر واحد، فهي متشابهة. ويلقب بالتهانوي نسبة إلى بلدة صغيرة تسمى (تهاني بهون) من أعمال مظفر نكر من ضواحي دلهي بالهند، فهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري، أدرك عصر «عالم كير»: 1069 ـ 1119هـ). وعالم كير هذا هو العالم الإمبراطور «أورنك زيب»، القائد المشهور باهتمامه الشديد بالعلوم النقلية والعقلية، والمتفرد بين الأباطرة بعمله الدؤوب في نشر الإسلام، وعقيدة أهل السنة خاصة، فضلا عن اهتمامه بالفتاوى الفقهية.

آثاره

1 ـ كشاف اصطلاحات الفنون، وعليه قامت شهرة التهانوي، وهو أشهر كتبه، بل هو أشهر الكتب الموسوعية الاصطلاحية على الإطلاق، وهو إنجاز عظيم في علم المصطلحات، انتهى من معظم نصوصه عام 1158 هـ.

لقد أصبح «الكشاف» تاريخا شاملا لعلوم العرب والمسلمين، على امتداد حقبهم الحضارية المزدهرة. يقول في مقدمة الكتاب: «لمّا فرغت من تحصيل العلوم العربية والشرعية من حضرة جناب أستاذي ووالدي، شمّرت عن ساق الجد إلى اقتناء ذخائر العلوم الحكميّة الفلسفيّة من الحكمة الطبيعية والإلهيّة والرياضيّة كعلم الحساب والهندسة والهيئة والأسطرلاب ونحوها، فلم يتيسر لي تحصيلا من الأساتذة، فصرفت شطرا من الزمان إلى مطالعة مختصراتها الموجودة عندي، فكشفها الله عليّ، فاقتبست منها المصطلحات أوان المطالعة، وسطرتها على حدة في كل باب يليق بها».

وأشار أيضا إلى أنّ لكل علم مصطلحات خاصة به، وأنّ الجهل بها يغلق أمام الباحث أبواب ذلك العلم، كما أشار إلى أنّه وجد كتبا تشرح مصطلحات بعض العلوم، ولكنه لم يقف على كتاب يشرح مصطلحات جميع العلوم. ولذا ندب نفسه للاضطلاع بهذه المهمة، معوّلا في ذلك على أمهات الكتب المعتبرة في العلوم المختلفة، وعلى آراء

الثقات والعلماء والمؤلّفين، ويعمد أحيانا إلى إيراد المظان التي نقل عنها.

طبعات الكشاف:

أ ـ طبع بالهند لأول مرة سنة 1278هـ/ 1862م بعناية جمعية البنغال الآسيوية، من سلسلة المكتبة الهنديّة، كلكتا، وقام بتحقيقه وتصحيحه المولوي محمد وجيه، والمولدي عبد الحق، والمولوي غلام قادر.

واهتم به المستشرق النمساوي لويس سبرنغر 1893م، والمستشرق الإيرلندي وليم ناسوليس، وصدرت هذه الطبعة في مجلدين كبيرين.

ب ـ الطبعة الثانية كانت بالآستانة عام 1317هـ، وهذه الطبعة في مجلد واحد كبير ولكنها ليست كاملة.

ج ـ الطبعة الثالثة بتحقيق لطفي عبد البديع وعبد المنعم محمد حسنين، وراجعه الأستاذ أمين الخولي، نشرتها مطبعة السعادة بمصر سنة 1382هـ/ 1963م بإشراف وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، طبع منها أربعة أجزاء، ولكنها غير كاملة، ووقفت عند حرف الصاد. وقد حاول المحققان عزو الأقوال إلى أماكنها في المصادر والمراجع، كما أنهم نقلوا النص الفارسي إلى العربية.

د ـ مصورة مكتبة صادر، بيروت عن الطبعة الأولى الهنديّة.

رتب التهانوي كتابه سنة 1278هـ كشاف اصطلاحات الفنون ترتيبا هجائيا، وجعله في أبواب بحسب أوائل الحروف، ثم رتب مادة كل باب في فصول تتسلسل ألفبائيا، ولكن تبعا لأواخر الحروف، ومن ثم افتتح الكتاب بمقدمة بسط فيها خطته في التأليف، وانتقل بعدها إلى ذكر مباحث في فلسفة التصنيف تنم على عقلية كبيرة، وأهم ما يطالعنا في المقدمة ما سماه التهانوي بالرؤوس الثمانية، وهي معايير ومواصفات تضبط مادة الكتاب وتقيّدها، فقال علماء التصنيف: الواجب على من شرع في شرح كتاب ما أن يتعرّض في صدرِه لأشياء قبل الشروع في المقصود، يسمّيها قدماء الحكماء الرؤوس الثمانية، وهذه الرؤوس الثمانية هي:

- الغرض من تدوين العلم وتحصيله، أي الفائدة المترتبة عليه، لئلا يكون تحصيله عبثا في نظره.
- المنفعة أو الفائدة المجتناة من العلم.
- السّمة أو التسمية، أي عنوان الكتاب؛ ليكون عند الناظر إجمال ما يفصله الغرض.
- المؤلف، وهو مصنّف الكتاب؛ ليركن قلب المتعلم إليه في قبول كلامه.
- من أي علم هو؟ أي من اليقينيات أو الظنيات؟
- في أي مرتبة هو؟ أي بيان مرتبة العلم فيما بين العلوم.
- القسمة، وهي بيان أجزاء العلوم وأبوابها؛ ليطلب المتعلّم في كل باب منها ما يتعلّق به.
- الأنحاء التعليمية، وهي أنحاء مستحسنة في طرق التعليم.

ووزع العلوم في الكتاب من وجهة نظر أخرى تصنيفية، فجعلها على تصنيفات عامة هي:

أوّلا - العلوم العربية، ويجمعها على عشرة علوم: اللغة، والتصريف، والمعاني، والبيان والبديع، والعروض، والقوافي، والنحو، وعلم قوانين الكتابة، وعلم قوانين القراءة.

ثانيا - العلوم الشرعية الدينيّة: كعلم الكلام أو الفقه الأكبر، أو التوحيد والصفات، علم التفسير، علم القراءة - قراءة القرآن الكريم، علم الإسناد، علم الحديث، علم أصول الفقه، علم الفقه، علم الفرائض، علم السلوك.

ثالثا - العلوم العقلية، وهي التي لا تتغير بتغير الملل والأديان، وهي:

المنطق وأصوله التسعة، والحكمة وأقسامها: الإلهي والرياضي والطبيعي. ثم ختم ذلك في بيان العلوم المحمودة والعلوم المذمومة.

وقد بلغ عدد المصطلحات الواردة في الكشاف من الفنين ثلاثة آلاف وأربعين مصطلحا.

2 - أحكام الأراضي، منه نسخة خطية في المكتبة الهندية برقم 1730، وفي مكتبه بانكي بور، برقم 1599 وليس الكتاب كبيرا، وإنما تقع صفحاته في حدود 19 ورقة تشتمل على الأبواب التالية:

أ - في بيان معنى دار الإسلام ودار الحرب.
ب - في بيان أحكام أراضي دار الإسلام.

ج - في بيان أنواع الأراضي وأحكامها.

3 - كتاب سبق الغايات في نسق الآيات، وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم؛ والكتاب مطبوع في الهند سنة 1316هـ.

وهكذا يبدو لنا التهانوي عالما موسوعيا، وشارحا مدققا؛ ويكفيه الفضل أنه أدرك حاجة طلاب العلم والمكتبة العربية والإسلاميّة إلى عمل كهذا، فسدّ بصنيعه هذا ثغرة، وتخطى مرحلة، واختزل جهد مجموعة كبيرة من الباحثين فجاء كتابه استجابة لملء الفراغ في المكتبة العربية، وقد استقصى فيه بحث المعاني وإيرادها على مختلف دلالاتها، مبتدئا بالدلالة اللغوية، ومتدرّجا إلى الدلالة النقلية فالعقليّة ثمّ العلميّة، وسار على المنوال نفسه في بعض الألفاظ الفارسيّة التي أثبتها في ثنايا الكتاب.

المصادر والمراجع

● البستاني، دائرة المعارف، بيروت، دار العلم للملايين، ط 8، 1989م، 6/ 246 - 247؛ ● جميل، أحمد، حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين 18 - 19، ص 21، 168 - 170؛ ● الحسيني، عبد الحي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، حيدر آباد. د. ت. المجلد الثاني، 804 - 805؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين ط 8، 1989، 6/ 295؛ ● سركيس، إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مصر، 1346هـ/ 1928م، 645؛ ● عطية، عبد الرحمن، مع المكتبة العربية، بيروت، ط 2، 1404هـ/ 1984م، 69 - 70؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دمشق، 1957 - 1961، 11/ 47.

د. محمود الربداوي
جامعة دمشق - سورية

التواتي، محمد البشير بن محمد الطاهر

(ت 1311هـ/1893م)

هو محمد البشير بن محمد الطاهر التواتي، البجائي الأصل، التونسي النشأة. وقد اتفق المترجمون له على أنه لم تكن له علاقة بـ«توات» من صحراء المغرب، وإنما نودي بذلك نسبة إلى رجل صالح من أهلها اتّصل به صاحب الترجمة وأخذ عنه. ولئن اتفق أصحاب التراجم أيضا على أنّه ولد وتوفي بتونس سنة 1311هـ فلم يتعرّض أحد منهم إلى سنة ولادته، أو حتّى التأريخ لها بحدث بارز مشهور.

نشأ المترجم له في حاضرة تونس ببيت علم ودين، ألحقه أبوه بجامع الزيتونة فدرس وجدّ واجتهد وأخذ القراءات عن الشيخ محمد بن إدريس عن الشيخ المشاط الأندلسي التونسي (ت 1245هـ)، عن الشيخ حمودة بن محمد بن إدريس الشريف الحسني التونسي، عن الشيخ محمد الحركافي الصفاقسي، نزيل تونس وشيخ القرّاء بها (ت 1154هـ) وتلميذ أبي الحسن النوري الصفاقسي أبي عبد الله الأفراني المغربي راوي قراءة الشيخ سلطان المزاحي بأسانيده المعروفة، فأصبح صاحبُ الترجمة بذلك الإمامَ الأول في فن القراءات وعليه المعوّل في تونس؛ كما درس العلوم على أعلم علماء عصره منهم أبو الفلاح صالح النيفر، وقد مدحه بقصيدة عند ختمه للشرح المختصر لسعد التفتازاني على التلخيص في البلاغة، طالعها:

أبدر تمام حلّ في طالع السعد
أم البرق لاح من نواحي بني سعد

كما أخذ أيضا عن الشيخ عليّ النفاتي، والشيخ عاشور القسنطيني، وكذلك الشيخ محمد تاج العارفين البكري وابنه أبي بكر البكري، وأبي حسن الأندلسي وأبي حسن الغمّاد، ومحمد الغمّاد، وإبراهيم الجمل، والشيخ عبد القادر الجبالي، وغيرهم؛ ودرس علم الباطن على أبي الحسن علي عزّوز. واجتهد في العلوم الشرعية المفيدة دنيا وآخرة، فانتهت إليه الرئاسة في المعقول والمنقول، واجتمعت إليه شوارد المنطوق والمفهوم في علم التفسير والحديث والفقه بسنده للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه. وبعد تخرّجه من جامع الزيتونة تصدّى لتدريس القراءات به فأتى بكلّ نفيس، وكان مقرئا مجوّدا وله مشاركة في عديد من العلوم. كما تولّى التصحيح بالمطبعة الرسمية [محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 1/ 252].

تخرّج عنه غالب القرّاء بتونس ومن أشهرهم المقرىء الشيخ محمد بن يالوشة، والشيخ محمد المولدي بن عاشور، والشيخ البشير السقاط؛ كما قرأ عليه الشيخ محمد مخلوف روايتي ورش وقالون وشرح الجزرية، وترجم له في كتابه «شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية» بالطبقة السابعة والعشرين.

عاصر أقرانه في طبقته وعقد مع بعضهم صلة علمية بالمناظرة والمراسلة تدارسوا بها أصول وفروع مذهبهم وأثْرَوا مسائله، منهم الشيخ أبو العبّاس أحمد الورتتاني من شيوخ الطبقة الأولى بجامع الزيتونة ورئيس جمعية الأوقاف، المتفنن في العلوم وأمتنها اللّغة والنحو (ت 1302هـ)؛ وأبو عبد الله محمد بن عيسى الجزائري ثم التونسي الفقيه العالم العامل، الخيّر الفاضل صاحب المكان المكين في الأدب والإنشاء مع الورع والدين المتين (ت 1303هـ)؛ وأبو العيش عمار بن سعيدان حامل لواء الفقه المالكي والخبير بمسائله، تلميذ أيمّة القيروان ثمّ أعلام الزيتونة (ت 1304هـ)، وكذا الشيخ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الكريم الشريف الفقيه المحدّث المتحصّل على إجازات متّصلة في الحديث وغيره المتبرّك به، المعتقد أنّه مجاب الدعوة (1307هـ)، والشيخ عبد الله محمد الشاذلي بن الشيخ عثمان قاضي «باردو» ورئيس المُفْتِين، شيخ الشيوخ وعمدة أهل التحقيق والرسوم، من العلماء الأفاضل ومن أهل الفتوى والشورى في الأحكام والنوازل، (ت 1308هـ)، وكذا الشيخ أبو عبد الله محمد العربي أصله من «مازونة» ورحل إلى تونس، عيّن بعلمه وفضله وبُعد صيته من شيوخ الطبقة الأولى فانتفع به الكثير (ت 1309هـ).

ومن هؤلاء أيضا الشيخ أبو الفلاح صالح بن فرحات التبرسقي فقيه تونس ومفتيها المقرىء الجامع لشتات الفضائل، المحاضر في الأدب وناظم الشعر وناثر الرسائل (ت 1309هـ)، والشيخ أبو عبد الله محمد الطاهر بن الشيخ محمد النيفر الأكبر الشريف، البصير بالمذهب وفروعه، الضابط لقواعده، العارف بصناعة الأحكام، الفصيح اللسان (ت 1311هـ)، ومنهم أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي الحسن السقّا، من مدينة «سوسة»، المتأدب بأبيه وعمّه من أهل العلم والتقى الإمام والخطيب بالجامع الكبير بسوسة والمدرّس به وبمدرسة «الزقاق» (1235 ـ 1316هـ) [محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، 415].

آثاره

1 ـ مجموع الإفادة في علم الشهادة، وهو تأليف في التوثيق فرغ منه في 15 شعبان 1292هـ/ 6 أوت 1875م، طبع طبعة ثانية بتصحيح المؤلف بالمطبعة الرسمية بتونس سنة 1293هـ/ 1876م في 147 صفحة مع 9 فهارس. وذكر محمد بن الخوجة في «المجلّة الزيتونية» فيفري 1949 رقم 47 في التعليق أنه لا يعرف تاريخ الطبعة الأولى، وحسب رأيه ترجع إلى عشرة التسعينات من القرن التاسع عشر؛ وقد جمع المؤلف في هذا الكتاب أساليب من كتب الرسوم (الوثائق) والحجج العادلة مع بيان أحكام كل باب في طالعته؛ والكتاب ترجمه إلى الفرنسية وعلّق عليه «ج. أبريبا Abribat». وطبعه في تونس سنة 1896 في 280 صفحة؛ 2 ـ ثبت اشتمل على أسانيده في القراءات، خ؛ 3 ـ الهداية المحمدية، وهو كتاب في شرح ملحة البيان لزين المرصفي، مخ. بخطه بدار الكتب الوطنية بتونس [4/ 29] الملحق الثاني للجزء الثاني؛ 4 ـ غنية الراغب ومنية الطالب، وهو في علم الكلام مخطوط بمكتبة

«طوب كابي» (3/ 108) وفي الخزانتين، الكتابان من تأليف محمد الطيّب بن محمد الطاهر التواتي الحسيني التونسي (ت 1311هـ) وليس محمد البشير. لذا يقول الزركلي في «الأعلام»: يبدو أنّه - أي المترجم له - كان يدعى: محمد الطيّب، كما يدعى: محمد البشير، لأنه لا يعقل أن يكون شخصان: محمد البشير بن محمد الطاهر ومحمد الطيّب بن محمد الطاهر قد انتسبا إلى «توات» وماتا في تاريخ واحد [خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 14، 6/ 53].

المصادر والمراجع

● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت 1349 هـ، 415؛ ● الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1402/ 1982، 1/ 231؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنّى بمعيّة دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت)، 9/ 102؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت، ط أولى سنة 1404هـ/ 1984م، دار الغرب الإسلامي.

د.حسن مزيو

جامعة الزيتونة ـ تونس

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد

(311هـ/923م ـ 401هـ/1011م)

أبو حيان التوحيدي، هو علي بن محمد بن العباس، المشهور بالتوحيدي؛ نسبة إلى مهنة والده بيع تمر «التوحيد»، أو نسبة إلى «عقيدة التوحيد»، والأولى أرجح. وقد اخْتُلِفَ في نسبه القومي؛ لكن عروبته واضحة، بعد أن رأينا تردّد بعض مؤرخيه بين عروبة صحيحة وفارسية محتملة. وواقع الحال يؤكد أنه لم يكن يعرف الفارسية طوال حياته، علاوة على أنه واحد من أبرز مثقفي العربية الكبار؛ ولا نحسب أحدا يُنسب إلى العربية، كما حدث للتوحيدي، إلاّ ويكون له أصل فيها [كتابنا، أبو حيان، 55 ـ 56]. ومن ناحية أخرى، إن التوحيدي مجهول الميلاد، ولم يشر هو نفسه إلى ميلاده وظروف مولده؛ والوثيقة الوحيدة التي تؤرخ لنا حياته هي رسالته التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد يخبره فيها بأنه أحرق كتبه، وكان وقتها في عشرة التسعين، ولم تعرف سنة وفاته بعد هذا التاريخ وهو رمضان 400هـ/ 1010م. لكننا نرجح أن تكون وفاته سنة 401هـ/ 1011م. ومعنى هذا أنه ولد سنة 311هـ/ 923م [م. س، 57 ـ 58].

ولد أبو حيان التوحيدي في واسط، ونشأ فيها؛ وترعرع في كنف عائلة ربُّها يبيع التمر؛

ثم قدم إلى بغداد، وعاش أغلب سنوات عمره فيها، ما عدا زياراته إلى الري أيام ابن العميد ثم الصاحب بن عباد؛ وبعدها قرّر أن ينفيَ نفسه في شيراز حتى توفّي بها. والغريب أن أبا حيان لم يفصح عن حياته في الطفولة والصبا والشباب، بل لم يعرّفنا بشيء عن أسرته وتعلُّمه، وكيف كان انتقاله من واسط إلى بغداد.

لكن المعروف لدينا على نحو مؤكد أنه كان حوالي سنة 340هـ/ 951م تلميذًا لجعفر بن محمد بن نصير الخلدي؛ وأنه ظهر مؤلفا في الوراقين ببغداد سنة 347هـ/ 958م، وأن سنوات ازدهار نشاطه مؤلفًا وكاتبًا بارعًا من الطراز الأول كانت على مدى ثلاثة وخمسين عاما حتى عام 400هـ/ 1010م سنة إحراق كتبه في شيراز.

إن شُحّ الأخبار التي تعيننا على فهم السيرة الكاملة لأبي حيان إنما ترجع إلى أنه لم يُرِد إطلاع الناس على تفصيلات حياته لأسباب كثيرة. أبرزها التستّر على أحوال له لم يكن ليرتاح إلى الكشف عنها، خصوصًا أنه كان جليس الوجهاء والمفكرين والفقهاء والفلاسفة، ثم الوزراء. ولكن يُستشف من إشاراته المتناثرة في كتبه أنه درس الأدب والنحو والمنطق والفقه والفلسفة، خلال حياته الطويلة في بغداد، على السيرافي والرمّاني وأبي حامد المرورّوذي وأبي بكر الشاشي ويحيى بن عدي وأبي سليمان السجستاني. والأخير كان أستاذه الكبير الذي يعتدّ بتتلمذه عليه [م. س، 277، 288، 233، 240 ـ 244]، فعنه أخذ الدرس مباشرة وبالسماع والمحاورات والأمالي في القراءات.

ولقد نسب مؤرخو أبي حيان وكتّاب سيرته من المستشرقين والعرب إليه عنوانات لمؤلفات احتملت التغليط والتصحيح والنفي والإثبات، قدمناها على نحو مفصل في مكان آخر [م.س، 71 ـ 80]؛ وذكرنا هناك المنحول والصحيح من هذه العنوانات، واعتبرنا قائمة ياقوت التي تضمنت حوالي عشرين عنوانا هي الأقرب إلى الصواب [معجم الأدباء، 5/ 238]؛ واتضح لنا أن الباحثين المحدثين في أبي حيان لم يكونوا دوما دقيقي المعرفة بكتبه ونصوصه، كما خلطوا في مؤلفاته بينه وبين ابن حيان الأندلسي وأبي حيان النحوي. لكن تحقيقنا لعناوين كتبه التي وصلت إلينا، وهي منشورة الآن نشرًا علميا، يسمح لنا بالقول في إمكان وقوع التحريف فيها أو أنّها مجتزأة من مؤلفات أخرى [كتابنا، أبو حيان، 82].

لقد كان أبو حيان التوحيدي ممثِّلا لحركة الفكر العربي المزدهر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكانت هذه المدرسة الفكرية «مدرسة بغداد المنطقية» أسست على أيدي أبي بشر متّى بن يونس، وأبي نصر الفارابي، ويحيى بن عديّ، وأبي سليمان المنطقي؛ وكان أبو حيان من أبرز أعضائها. أما زملاؤه في الدرس والتحصيل والجدل في هذه المدرسة الفكرية فهم: أبو الفتح النوشجاني، وأبو العباس البخاري، وأبو الخير اليهودي، وابن الخمار، وابن السمح، وأبو بكر الصيمري، وأبو زكريا الصيمري، وأبو محمد العروضي، وأبو علي بن زرعة، وعيسى بن علي بن عيسى،

وغلام زحل، وأبو بكر القومسي، وأبو إسحق النصيبي، ونظيف الرومي، ووهب بن يعيش. وقد كان هؤلاء العلماء من نوابغ القرن الرابع الهجري؛ فكل واحد منهم هو فرد في صناعته [كرد علي، أمراء البيان، 528]، وقد امتازت حركتهم الفلسفية بالتنوّع والتسامح والحوار مع الآخر؛ لذلك «جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة... كان فيهم المجوسي، والصابي، واليعقوبي، والنسطوري، والملحد، والمعتزلي، والشافعي، والشيعي» [م. س، 528]، وكذلك نجد بينهم اليهودي والمانوي... إلخ. ولم يبحث أعضاؤها «إلى حد الآن بحثا دقيقا... فما زال البحث فيهم بكرا ويستحقّ كل اهتمام في المستقبل». وقد كان أبو حيان فعلا من الذين سمعوا دروس يحيى بن عدي وأبي سليمان المنطقي، ولم يتتلمذ فعلا في الفلسفة إلا سنة 361هـ/ 972م وقد بلغ الخمسين؛ فكان أقل «الجماعة» تحصيلا للفلسفة؛ ولعل تأخر دراسته لها حتى سن الخمسين سبّب له بطئا في إدراك العويص من موضوعاتها.

وجملة القول في فكر أبي حيان التوحيدي أنه أبدع في التعبير عن أفكار فلاسفة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وصارت كتبه سجلاّت لأفكارهم عن قصد منه أو غير قصد، إذ بلغ بنا الظن أنه تلاعب بألفاظ الغير أو نسي معاني بعض الألفاظ فحملها على غير المطالب التي قصدوها في العلم الإلهي، والعلم الطبيعي، والمنطق، والنفس، والأخلاق، والسياسة من منطلقات الإنسان والجماعة، في الملّة وغيرها، وفي الدين، وفي العقيدة والفقه، وصلة الإنسان بربه في العبادة والتصوّف، وإنشاء الكلام في كل قضية اتصلت بالآداب والفنون، واستخلاصًا لها في أفكار تبحث في العلل والمعلولات والحياة والموت، والوجود والعدم، والله، والعالم، والإنسان؛ وبالذات من حيث إن الأخير تتحقّق لديه المعرفة بما يملك من عقل وجسد، وما يصاحب هذا الإنسان من حظ وبخت وصدفة، وكل ما يقع ضمن أنساق الطبيعة وعالم الغيب.

إن أبا حيان أكبر الأدباء الفلاسفة العرب على الإطلاق بعد الجاحظ الذي أُعتبر أستاذه في الأسلوب والفكر والمناظرة؛ فألف كتاب تقريظ الجاحظ، ووصفه بأنه كان «واحد الدنيا» [ابن حجر، لسان الميزان، 4/ 369]. ومن هنا كان ياقوت الحموي على حقّ عندما وصف أبا حيان بأنه «فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، فرْدُ الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنة ومكنة» [معجم الأدباء، 5/ 380 ـ 381].

وخلاصة القول في فلسفة أبي حيان «أنه استطاع أن يعبّر بلغة أدبية عن أعمق المشكلات.. التي كانت تقلق بال الفلاسفة في عصره» [زكريا إبراهيم، أبو حيان، 298] حتى بدا لنا كأننا «لأول مرة في تاريخ الأدب العربي، نشهد فنانًا أصيلاً، لا يعجز فنّه عن الاضطلاع بأدق الحقائق الفلسفية وغير الفلسفية؛ ولكن الفلسفة عند التوحيدي، حوّلتها مرونة التعبير الأدبي إلى أدب» [إحسان عباس، أبو حيان، 134].

والملاحظ على أبي حيان تطلّعه إلى الاتصال بالوزراء والكبراء في الدولة، وهو بذلك كان

يريد أن يضمن مصادر الرزق والنعمة والطمأنينة لدى عِلْية القوم الأرستقراطيين. فكان اتصاله الأول بالوزير أبي محمد المهلبي (ت 352 هـ/ 963 م) الذي اشتهر بعلاقات متميزة مع الأدباء والعلماء، لكنه غضب على أبي حيان فقرّر نفيه إلى خارج بغداد بحسب الرواية الشاذة التي يذكرها الذهبي [ميزان الاعتدال، 3/ 355] بتهمة «سوء العقيدة والزندقة والانحلال». ولم يكن من حسن طالع أبي حيان أنه توجّه إلى الوزير ابن العميد الذي كان موصوفا بحسن معاشرة الأدباء والكتاب والشعراء والفقهاء والمحدثين وأصحاب العلوم كالهندسة والمنطق والفلسفة حتى برع في علم الحيل «الميكانيكا» وفنون آلات الحرب وأدواتها [ابن مسكويه، تجارب الأمم، 2/ 275]، فلم يوفق أبو حيان في استمالة الوزير ابن العميد إليه، بل نفر منه حتى كان يزدري أبا حيان ويحتقره لما يرى منه إهمال الهيئة على الرغم من اعتداده بنفسه، حتى إنه كان يتجاوز حدوده في حضرته [ياقوت، معجم الأدباء، 5/ 15] فلم يكن موفّقًا معه حتى عاد إلى بغداد خائبًا. ثم عاد إلى الريِّ واتصل بالوزير ابن عباد الذي كان أصلاً من أتباع ابن العميد، ثم صار صاحبًا لابن العميد، واستوزر بعد وفاته، وهو في عنفوان الشباب. لكن أبا حيان لم يكن محظوظا، أيضا، عند ابن عباد، لسوء تصرف وفلتة لسان وحماقة تصريح [معجم الأدباء، 15/ 28 ـ 44] فلقي منه كل التعسف [الإمتاع والمؤانسة، 1/ 3 ـ 4]، حتى اعتقد أبو حيان أن ابن عباد كان يحسده ويتملّكه الغيظ منه [ياقوت، م. س، 15/ 34 ـ 35].

وقد ساق الحقد على ابن العميد، والضغينة على ابن عباد، أبا حيان، إلى تأليف كتاب «ذمّ الوزيرين» حتى صار الكتاب مجلبة للنحس والشؤم بحسب رواية ابن خلكان [وفيات الأعيان، 2/ 60]. لكن عودته إلى بغداد في 370هـ/ 980م فسحت له فرصة صداقته لأبي الوفاء المهندس المشهور في علم الرياضيات والهندسة ومن العارفين بعلوم الأوائل؛ فقدّمه إلى الوزير ابن العارض الذي لقي أبو حيان منه اهتماما. وكانت حصيلة هذه الصلة أنه ألف من أحاديثه مع الوزير كتاب «الإمتاع والمؤانسة» الذي جاء وصف الوزير فيه [الإمتاع، 3/ 233] بما لم يخطه يراع أبي حيان في مدح أحد ممن عرف من الوزراء وكبار القوم. لكن سوء حظه تكرَّر قدرا هذه المرة عندما توفي الوزير في 375هـ/ 985م، فلم يهنأ بصحبته طويلا، بعد أن توثّقت أواصر الصداقة بينهما لبضع سنين. ومن عجائب الأشياء أن أبا حيان التوحيدي، صاحب القلم المتمكّن والبراع البارع، كان جبانا أمام الوزراء، منافقا معهم، يمدحهم أمامهم وهو قريب منهم، ويذمّهم خلف ظهورهم وهو بعيد عنهم؛ بل شتم كثيرا من الكتاب والأدباء والمفكرين ممن زاملوه وعرفوه في مجالس بغداد والري وشيراز وغيرها. حتى بدا لكل الباحثين أنه شتّام يبحث عن مثالب الناس ويحقد على كل من توافرت له النعمة، وينقم على كل من كان كبيرا في المنصب والمال والجاه؛ لأنه عاش عمره كله فقيرا، حتى صار له الفقر عقدة نفسية دمّرت حياته وشخصيته بالتشاؤم والحقد وفساد المدح والذم لكل من عرفه على العموم، حتى قال عن نفسه مرة «غدا شبابي

هرما من الفقر، والقبر عندي خير من الفقر» [ياقوت، معجم الأدباء، 16/ 23]، لذلك كان عاجزا عن كل ميسرة إذ «العجز غالب لأنه مبذور في الطينة» [م. س، 15/ 48].

وكأنّ أبا حيان التوحيدي، في تشاؤمه ويأسه وقنوطه، كان يبحث عن موت بطيء؛ لكن قدره غلب عليه لأن يعيش طويلا حتى بلغ أرذل العمر، فكان رمز المكدين، والاغتراب. أما التصوف العقلي فقد ساقه إلى كتابة (الإشارات الإلهية)، وهو كتاب يفصح بقوة عن مدى الجور والظلم اللذين لحقا به، والطغيان الذي تعرض له، والجحود الذي لقيه من كل من كان حوله من الناس أجمعين!

آثاره

1 ـ الإشارات الإلهية، تح. عبد الرحمان بدوي، ج 1، ط. القاهرة 1950، جامعة فؤاد الأول، وتح. وداد القاضي، ج 1، بيروت 1973، دار الثقافة؛ 2 ـ الإمتاع والمؤانسة، تح. أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة 1939 ـ 1944، لجنة التأليف والترجمة والنشر، وط. 2، القاهرة 1953؛ وط. 3، بيروت 1966؛ 3 ـ البصائر والذخائر، تح. أحمد أمين وأحمد صقر، ج. 1، القاهرة 1373 هـ/ 1953 م، لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ وتح. عبد الرازق محي الدين، ج 1، بغداد 1953؛ وتح. إبراهيم الكيلاني في 4 مج، دمشق 1964 ـ 1966، مكتبة أطلس ومطبعة الإرشاد، مج. الأول 1 و2، 1964 ومج. الثاني 1966، ومج. الثالث 1 و 2، 1966 ومج. الرابع 1966؛ 4 ـ حكاية أبي القاسم البغدادي، نشر آدم متز، هيدلبرك 1902؛ 5 ـ ذم الوزيرين، نشر بعنوان «مثالب الوزيرين»، تح. إبراهيم الكيلاني، دمشق1961، دار الفكر؛ ونشر بعنوان «أخلاق الوزيرين»، تح. محمد بن تاويت الطنجي، دمشق 1385هـ/ 1965م، مطبوعات المجمع العلمي العربي؛ 6 ـ رسالة إلى القاضي أبي سهل، (نقلاً عن ياقوت) نشرة حسن السندوبي، مقدمة كتاب «المقابسات»، القاهرة 1374هـ/ 1929م 7 ـ رسالة الحياة، نشرة إبراهيم الكيلاني، ضمن «ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي»، الرسالة الثالثة، بيروت 1951م؛ ونشرة ثانية مع تر. فرنسية للمستشرق كلود أدوبير، مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي، دمشق 1963، 8 ـ رسالة السقيفة، نشرها حسن السندوبي محققة على اقتباسات المصادر القديمة في مقدمة كتاب «المقابسات»، القاهرة 1347هـ/ 1929م؛ وأعاد تح. على وفق مخطوطاتها إبراهيم الكيلاني، ضمن «ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي»، الرسالة الأولى، بيروت 1951؛ 9 ـ رسالة الصداقة والصديق، نشرها أحمد فارس الشدياق، في كتاب «رسالتان للعلامة الشهير أبي حيان التوحيدي»، إستانبول 1303هـ/ 1884م، مطبعة الجوائب؛ وطبعت ثانية في كتاب «الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق»، القاهرة 1323هـ/ 1905م، المطبعة الشرقية؛ ونشرت ثالثة تح. إبراهيم الكيلاني، دمشق 1964، دار الفكر؛ ونشرت رابعة تح. علي متولي صالح، القاهرة 1972؛ 10 ـ رسالة في علم الكتابة، نشرة فرانز روزنتال، مع تر. إنكليزية، مجلة الفنون الإسلامية، جامعة

مشغن، 1948؛ وأعاد نشرها إبراهيم الكيلاني في «ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي»، الرسالة الثانية، بيروت 1951؛ 11 ـ رسالة في العلوم، نشرها أحمد فارس الشدياق، ملحقة بالصداقة والصديق، في كتاب «رسالتان للعلامة.. التوحيدي»، إستانبول 1301هـ/ 1884م، مطبعة الجواب؛ وطبعت ثانية، ملحقة بالصداقة والصديق، في كتاب «الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق»، القاهرة 1323/ 1905، المطبعة الشرقية؛ وأعاد تح. مارك بيرجيه، ونشرها مع تر. فرنسية وفهارس، في مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي، دمشق 1963 ـ 1964؛ 12 ـ المقابسات، نشرة الميرزا حسن الشيرازي، الهند (بومباي؟)، ط. حجر، 1306هـ/ 1889؛ ونشرة حسن السندوبي، القاهرة 1347هـ/ 1929، المطبعة الرحمانية بمصر؛ ونشرة محمد توفيق حسين، بغداد 1970، مطبعة الإرشاد؛ ونشرة دانيال واتريكان، (جزء 2 من رسالته في السوربون، وهي غير مطبوعة) 1974؛ 13 ـ مناظرة بين أبي بشر متّى بن يونس القُنّائي وأبي سعيد السيرافي، في المنطق اليوناني والنحو العربي، نشرها مارغوليوث نقلا عن ياقوت مع تر. انكليزية في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية بلندن 1905، ونشرها حسن السندوبي في مقدمة كتاب «المقابسات» طبعة القاهرة 1347هـ/ 1929م؛ 14 ـ الهوامل والشوامل، (بالاشتراك مع ابن مسكويه)، نشرة أحمد أمين والسيد أحمد صقر، القاهرة 1370 هـ/ 1951 م، لجنة التأليف والترجمة والنشر...

المصادر والمراجع

● ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ط. حيدر آباد 1329هـ ـ 1331هـ/ 1911م ـ 1913م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، نشرة F. Wustenfeld، كوتنكن 1835 ـ 1843، وط. بولاق، 1275هـ/ 1858م؛ وط. محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1367هـ/ 1848م؛ ● الحافظ الذهبي، ميزان الاعتدال، القاهرة، 1325هـ/ 1907م؛ ● ابن شاكر، فوات الوفيّات، نشرة محمد محيي الدّين، القاهرة 1953م؛ ● الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب أو معجم الأدباء، نشرة د. س. مارغليوث، (ط. 1، 1907 ـ 1926)، لندن 1923 ـ 1931؛ ونشرة دار الكتب، القاهرة 1908 ـ 1927م؛ ● أدهم، علي، مقالة عن أبي حيان وابن حيان، مجلة الثقافة، القاهرة، ج. 12 العدد 12 1950م؛ ● الأعسم، عبد الأمير، أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، ط. 1، بيروت 1980م، دار الأندلس؛ ● بيرجي، مارك، أبو حيان التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة؛ مجلة دراسات فلسفية وأدبية، مجلة جمعية الفلسفة بالمغرب، السلسلة الجديدة، العددان 2 ـ 3، 1977 ـ 1978م؛ ● بهنسي، عفيف، علم الجمال عند أبي حيان التوحيدي، والمسائل في الفن، 1972م؛ ● الجندي، أحمد، أبو حيّان التّوحيدي، مجلّة

المجمع العلمي للغة العربية، ج 40، 300 ـ 323، دمشق، 1965م؛ ● الحوفي، أحمد محمد، أبو حيان التوحيدي، ط. 1، القاهرة، 1957 م، جزآن، ط. 2، مجلد واحد، القاهرة 1964م؛ ● عماد عبد السلام، رؤوف، كتب خطيّة لأبي حيّان التّوحيدي، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج. 3، القاهرة 1957م؛ ● زكرياء، إبراهيم، أبو حيان التوحيدي الأديب الفيلسوف، مجلة المجلة، القاهرة 1963، العدد 80؛ ● م. ن، أبو حيان التوحيدي عالم النفس، مجلة الرسالة، العدد 1045، القاهرة 1964م؛ ● م. ن، أبوحيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، القاهرة 1965م، ط. 2/القاهرة 1974م؛ ● السندوبي، حسن، أبو حيان التوحيدي، آثاره ومروياته، مقدمة نشرته لكتاب المقابسات، القاهرة 1347هـ/1929م؛ ● شاكر، علي، أبو حيّان التّوحيدي، بين الفلسفة والدّين، الفكر العربي، عدد 25، جانفي/فيفري 1982م، 349 ـ 356؛ ● الصدّيق، حسنين، طبيعة الجمال عند أبي حيّان التّوحيدي، الموقف الأدبي، عدد 181 ـ 183، ماي/جوان، 1986م، 208 ـ 218؛ ● عباس، إحسان، أبو حيان التوحيدي، ط. 1/بيروت 1956م، ط. 2/بيروت 1963م؛ ● م. ن، أبو حيان التوحيدي وعلم الكلام، الأبحاث، بيروت، ج 19، عدد 2، جوان 1966م، 189 ـ 207؛ ● م. ن، تاريخ النّقد الأدبي عند العرب، دار الأمانة، بيروت، 1971 م، 227 ـ 240؛ ● فخري، ماجد، تاريخ الفلسفة الإسلاميّة، نقله عن الإنكليزيّة كمال اليازجي، بيروت 1974 م، الدّار المتّحدة للنّشر، 253 ـ 257؛ ● القاضي، وداد، الرّكائز الفكريّة في نظرة أبي حيّان التّوحيدي إلى المجتمع، الأبحاث، ج. 23، بيروت 1970م، 15 ـ 32؛ ● م. ن، علاقة المفكّر بالسّلطان السّياسي في فكر أبي حيّان التّوحيدي، في Festschrift for Ihsân A'bbâs Studia arabica et islamica الجامعة الأمريكية، بيروت 1981م، 221 ـ 238؛ ● م. ن، الغريب في إشارات التّوحيدي، مجموعة أبحاث ودراسات، ج. 50، عدد 2، بيروت 1984م، 127 ـ 139؛ ● كاروس، بول، مقالة عن أبي حيان التوحيدي، الثقافة، ج. 6، عدد 284، القاهرة، 1944م؛ ● كرد علي، محمد، أمراء البيان، القاهرة، 1937 م، لجنة التأليف والترجمة والنشر؛

- BERGÉ, Marc : Kitâb al-Imtâ wa-L-mu'ânasa d'Abû Hayyân al-Tawhîdî, in Etudes Philosophiques et Littéraires, Revue de la Société de Philosophie du Maroc, Nouvelle série: Nº 2 (1977), Nº 3 (1978).
- KEILANI, I: Abû Hayyân al-Tawhidi: Essayiste arabe du IVè s. de

al- Tawhîdî, in Arabica, (Paris), XII (1965).

- WATRIGANT, D.: Al-Muqâbasât d'Abû Hayyân al-Tawhîdî, (Doctorat de troisième cycle, Université de Paris IV-Sorbonne, 1974.
- WIEDEMANN, E. «Aus der Schrift über die Wissenschaften von al-Tawhîdî, in Beitrage zur Geschichte der Natur, LVII, V. (Erlangen 1918 - 1919).
- AL-A' ASAM, A.A.: Essais sur les Muqâbasât d'Abû Hayyân At-Tawhîdî, conférences sur l'histoire de la philosophie arabe du IVème siècle de l'hégire. Cours professé en 1978 a L'université de Paris IV, La Sorbonne), Beyrouth 1ère. Ed.
- ARKOUN, M : L'humanisme arabe au IVe / Xe siècle, d'après le Kitâb al-Hawâmil Wal-Chawâmil : in Studia Islamica, (Paris), XIV et XV (1961).
- AUDEBERT, C.I. : La Risâlat al-hayât d'abû Hayyân al-Tawhîdî, Bulletin d'Études Orientales, (Institut Français de Damas), XVIII (1963 -1964).
- Berge, Marc : Essai sur la personnalité morale et intellectuelle d'Abû Hayyân al-Tawhîdî, (Thèse présentée devant L'université de Paris IV, le 9 Mars 1974), Service de Reproduction des Thèses, Université de Lille III, Lille 1974.
- BERGÉ, Marc : «Une antologie sur l'amitié d'Abû Hayyân l'Hégire (Xè s.), (Institut Français de Damas), Beyrouth 1956.
- KOMPF, L.: «The Zoólogical Chapter of the kitâb al-Imtâ' wa'l-mu'ânasa» , Osiris, XII 1956.
- MAHJOUBI, Zadi : «Abû Hayyân al- Tawhîdî, un rationaliste original», in Revue d'institut des belles lettres arabes (Tunis), nº 108 (1964).
- MARGOLIOUTH, D.S: «The discussion Between Abû Bishr Mattâ and Abû Sa'id Al- Sîrâfî on the Merits of logic and grammar», in Journal of the Royal Asiatic Society, London, 1905.
- MARGOLIOUTH, D.S: «Some Extracts from Kitâb al- Imtâ'wa'l-Mu'ânasa of Abû Hayyân al- Tawhîdî» in Islamica, (ed. E. Braunliclh- Lipsiae), Leipzig (Volumen secondum), MCMXXVI 1926.
- MARGOLIOUTH, D.S : Art. Abû Hayyân (al- Tauhîdî), in Encyclopaedia of Islam, 1st.ed. Leyden, London 1908-1913.
- ROSENTHAL, F.: «Abû Hayyân al- Tawhîdî on Penmanship», in Arts Islamica, (the Departments of fine Arts, University of Michigan), XII- XIV (1948 - MCMXL VIII).
- STERN, S. M. : Art. Abû Hayyân (al- Tawhîdî), in Encyclopaedia of Islam, 2nd. ed., Leyden - London 1960, I.
- Vajda, G.: «Brèves notes sur la Risâlah fî'l-'Ulûm d'Abû Hayyân

al-Tawhîdî»; in: Bulletin d'Études Orientales, (Institut Français de Damas), XVI (1959).
- BERGÉ, Marc: «Epitre sur les sciences (Risâla fi 'l-'Ulûm) d'abû Hayyân al-Tawhîdî»; in Bulletin d'Études Orientales (Damas), XVIII (1963 - 1964), XXI (1968).
- BERGÉ, Marc: «conseils politiques un ministre. Épître d'Abû Hayyân al-Tawhîdî au vizir Ibn Sa'dân al-'Arid» Arabica, vol. 16, nº 3, Octobre 1969.
- BERGÉ, Marc: «Continuité et progression des études tawhidiennes modernes de 1883 à 1965», Arabica, vol. 22, nº 3 Octobre 1975.
- BERGÉ, Marc : «Le corpus tawhidien», Annales Islamologiques, vol. 13, 1977.
- BERGÉ, Marc: «Les écrits d'Abû Hayyân al-Tawhîdî. Problèmes et chronologie», Bulletin d'Études Orientales, vol. 29, 1977.
- BERGÉ, Marc: Pour un humanisme vècu: Abû Hayyân al-Tawhîdî, institut Français de Damas, 1979.

د. عبد الأمير الأعسم
بيت الحكمة - بغداد

التورودي، عبد القادر بن مصطفى

(... هـ/... م - ... هـ/... م)

عبد القادر بن مصطفى بن محمد التوروذي الفلاتي يمثل بشعره وعلمه الجيل الثاني لعصر الخلافة الإسلامية الذي أسسه عثمان بن فودي، والشاعر يرتفع نسبه إلى قبيلة الفلاته أو الفلاني وهي نفسها قبيلة عثمان بن فودي. ويمتد نسب الشاعر للشيخ عثمان بن فودي من ناحية أمه وهي خديجة بنت عثمان بن محمد فودي.

لم يذكر المؤرخون تاريخ ميلاده ووفاته بدقة تساعد على الاثبات لكن أشعاره تؤكد أنه عاش وقت حكم محمد بللو ثم امتد عمره حتى فترة حكم أبي بكر العتيق بمنطقة شمال نيجيريا:

ولسنا في حاجة إلى البحث عن مصادر ثقافة الرجل لأنه سجل ذلك في منظومات قصيرة ضمها الوزير جنيد إلى ديوانه، المنظومة الأولى يشكر فيها الله على ما آتاه من علوم، وأما المنظومة الثانية فيحدد فيها شيوخه وأنواع العلوم التي تعلمها:

لقد أخذنا منْ علُوم الشرعِ
فنونها بالنقل أو بالسمع

زمن أصول الفقه والكلام
والسُّنَن الواضحة التمام

من اللغات ومن التَّصريف
والنَّحوِ والبيانِ بالتعريف

والمنظومات الأخرى تفهم منها أنه قرأ في علم الطب، والنجوم، واللغة، والتصوف، والشعر، والتوحيد... وهو يعكس ثقافته وثقافة عصره وأقرانه آنذاك.

وعبد القادر بن مصطفى شاعر عالم، أما شعره فقد جمع بعضه الوزير جنيد وعنونه بديوان «الغصن الناضر ببعض أشعار عبد القادر»، وقد أضاف محقق الديوان د. محمد نجيب التلاوي مجموعة من القصائد جمعها من مخطوطات مؤلفة للشاعر نفسه وأودعها في دار الوثائق بولاية صكتو بنيجيريا.

وأما علمه فقد سجله في مؤلفاته المخطوطة جميعاً والتي أحصاها د. محمد نجيب التلاوي في دراسته المخطوطة للدكتوراة وبلغت مؤلفاته نحو أربعين مخطوطاً في الفراسة، والتاريخ، والقصيدة، والأنساب، والتصوف، والتوحيد، ومقامات الصوفية، ومقامات الأنبياء، والتفسير، وفي الحكم والسياسة...

وهذه المخطوطات لا تعكس فقط ثقافة عصره وإنما تؤكد شيوع المعرفة الموسوعية التي تميز بها شعراء وعلماء عهد الخلافة الفودية الأولى في غرب أفريقيا.

وإذا ما ركزنا على ديوان الشاعر فإننا سنلاحظ أن الرثاء كان له النصيب الأوفر في الديوان حيث رثى عبد الله بن فودى وجدته ووالدته وخاله ووالده.. وكلهم من الأسرة الفودية أسرة والدته.

وإذا كانت القطع المنظومة قد تأبّت على القافية الموحدة، فإنه قد حرص في أشعاره على توحيد الرويّ والقافية تمثلاً لما هو سائد في عصره حيث مثلت الأشعار آنذاك صورة من صور الانبعاث الجاهلي في السمات الفنية والأغراض الشعرية اللهم إذا استثنينا الحس الإسلامي وقصائد الجهاد التي كانت القاسم المشترك بين شعراء الخلافة الفودية في غرب افريقيا.

وتأتي قصيدته التي مطلعها «بات الحبيب» القصيدة الوحيدة المادحة في ديوانه، وقد مدح بها محمد بللو لكنه كان ذريعة لتأريخ الجهاد الفودي وانتصاراتهم على ولايات الهوسا الكافرة آنذاك، ولأن الغزل غير مفضل عند شعراء الخلافة فقد بدأ الشاعر قصيدته المادحة بالوقوف على الأطلال ثم تحول المدح إلى فخر عام للفتوحات الفودية بقيادة «محمد بللو» الممدوح:

سل «الغوابر» عنهم في وقائعهم
هل يصبرون ونار الحرب تلتهب

سلْ عنهم «كنت» إذ ولّى أميرهم
لما رأوا راية الإسلام تقترب

ثم يتابع الغزوات في كوشنا، الطوارق، زنفرا...، وفي قصائد الجهاد يعمد إلى التسجيل المباشر مصحوباً بالفخر والحماسة:

وما ضرنا أنّا قليلٌ وجارُنا
عزيزٌ، وجار الأكثرين ذليل

إذا لم يساعدنا الزمان وأهله
فقد ساعدتنا في الزمان عُقولُ

وفينا خصال لا تعد لغيرنا
ومنْ لِطراد الخيل حين تجول

ومنْ ذا لنشرِ العلم، مَنْ لعويصه
وفهمِ كتاب الله كيف يئُول

وهو يذكرنا بعنترة وعمرو بن كلثوم إلاّ أن الحس الإسلامي جعل لأشعارهم مذاقها الخاص حيث نقرأ مفردات التاريخ لجهادهم في غرب أفريقيا لنشر الإسلام واللغة العربية وثقافتها ومحاربة البدع والخرافات وهى المهمة التي نجحت فيها الدولة الفودية أو قل الخلافة الفودية في غرب أفريقيا.

د. محمد نجيب التلاوي
كلية الآداب ـ المنيا ـ
جمهورية مصر العربية

توري، سعد عمر

(1327هـ/1910م ـ 1417هـ/1997م)

يعد سعد عمر توري أنموذجا فريدًا من المثقفين السودان الذين أفرزهم التفاعل بين الحضارة العربية الإسلامية وحضارة الأفارقة السودان وخصوصا في منطقة مالي. فمن هو سعد؟ وكيف كانت مساهمته الفكرية في الحضارة العربية الإسلامية؟

هو سعد بن عمر بن سعيد جليا توري الفوتي. ولد حوالي سنة 1910م بقرية دوكونيكورو (Doukounikoro) الواقعة على بعد عشرات من الكيلومترات عن مدينة سيقو (جمهورية مالي).

وتلقى سعد دروسه الأولى في الإسلام واللغة العربية على يد أبيه، وكان هذا الأخير مثقفا ثقافة عربية وشاعرًا، إذ كانت له مؤلفات عديدة بمكتبة الحاج عمر تال في مدينة سيقو. ولما استولى الفرنسيون على المدينة سنة 1890م بقيادة «أرشنار» نهبوا كتب المكتبة وحوّلوها إلى مكتبات في فرنسا. وقد تمكّن سعد من الحصول على أحد كتب أبيه المسروقة وعنوانه "سيوف السعيد"، وذلك بفضل باحث مالي عثر عليه في إحدى المكتبات الفرنسية [سعد عمر توري: الرجل والعمل، 7 ـ 8].

وظل سعد يتعلّم على يد أبيه في مسقط رأسه إلى أن التحقت أسرته بمدينة سيقو لتستقر فيها نهائيا. وفي سيقو أخذ يتتلمذ على يد الشيخ تيورنو هادي تيام، أحد أعلام الصوفية وعلماء المدينة البارزين، والتحق في الآن نفسه بالمدرسة الاستعمارية الفرنسية، ولكن عهده بهذه المدرسة لم يطل بسبب ضغط أبيه الذي كان يكره الاستعمار وكل ما يمتّ إليه بصلة، بما في ذلك لغته. فحاول معلموه دون جدوى أن يرجعوه إلى المدرسة الفرنسية، ومع ذلك فإن عزيمة سعد في طلب العلم لم تفتر، إذ أخذ يقارن بين طريقة تدريس أبيه وأستاذه تيام من جهة، وطريقة معلّميه في المدرسة

الاستعمارية من جهة ثانية، فلاحظ جمود الطريقة التقليدية وعدم جدواها، في حين أعجب أيما إعجاب بدروسه الفرنسية التي سيستفيد منها كثيرًا عندما يسافر إلى نيامي (جمهورية نيجير) صحبة عمّته في طلب الرزق.

تعرّف في «نيامي» على سليمان النور، وهو ابن أب «وولوف» وأم عربية. وكان ذا ثقافة مزدوجة: عربية وإنكليزية، فأخذ سعد يتبادل مع صديقه الجديد أطراف العلوم، ومارسا معا الترجمة بين اللّغة العربية و اللغة الفرنسية، فدعم سعد بذلك تكوينه وأثرى رصيده المعرفي.

ولم يعد إلى مدينة سيقو سنة 1945 م، استجابة للخدمة العسكرية، التي كانت تفرضها السّلطة الاستعمارية على مستعمراتها، إلاّ وقد تهيّأ لتدريس اللغة العربية وفق منهج مخالف لمنهج التقليديين.

وكان من حسن حظ سعد أن عودته إلى بلده صادفت نهاية الحرب العالمية الثانية، فلم ينخرط آنذاك في سلك الخدمة العسكرية. مما سمح له بالإقامة بجوار والده والتكفّل بمسؤولية عائلته، وقد مارس في سبيل ذلك أعمالا مختلفة قبل أن يستقر للتدريس والتأليف، منها الزراعة، والتجارة، والخياطة [نفسه، 12 ـ 14].

ولما استكملت مواهبه للتدريس أسس مدرسة عربية سماها «سبيل الفلاح»، ورتّبها على نمط المدارس الفرنسية، وضبط لها برنامجا أساسه التعريب، وقد اعترفت السلطة الاستعمارية له بالقدرة العلمية والتأهيل التربوي فمنحته سنة 1948م رخصة لإدارة هذه المدرسة غير أنها ألغيت بُعَيْدَ الاستقلال وإقامة جمهورية مالي سنة 1960 م، لتصبح مدرسة خاصة تقتصر على المرحلة الأساسية: ست سنوات من التعليم الابتدائي وثلاث سنوات من التعليم الإعدادي، يتخرّج التلاميذ إثرها بشهادة التعليم الأساسي باحثين عن منح دراسية لمواصلة دراستهم في البلدان العربية. ولما كان الحصول على تلك المنح أمرًا صعبا حاول سعد أن يفتح معهدًا مهنيا في مدينة سيقو لإتاحة الفرصة لمن يريد المتابعة من التلاميذ. ولكن القصور المادي وعدم توفّر الأساتذة الأكفاء من المشاكل التي حالت دون تنفيذ هذا المشروع، لذلك وجّه سعد عنايته خاصّة إلى الإنتاج الفكري.

آثاره

اهتم سعد بالتأليف إلى جانب التدريس، وكانت مؤلفاته صنفين: صنف تربوي منهجي غايته مسايرة المدرسة، وصنف فكري عام يتناول القضايا الدينية رغبة في نشر التعاليم الإسلامية. وقد مكنته معرفته للغتين العربية والفرنسية من تأليف نحو عشرين مطبوعا وثلاثة مخطوطات، وهي كما يلي:

أ ـ المطبوعة:

1 ـ أحكام الصلاة والطهارة (بالعربية والفرنسية)؛ 2 ـ أحكام صوم رمضان على مذهب السادة المالكية (بالعربية والفرنسية)؛ 3 ـ الإسلام ومنكروه (بالعربية والفرنسية)؛ 4 ـ التوضيحات البسيطة على المنظومة البيقونية (في علم الحديث)؛ 5 ـ الدروس النحوية (في ثلاثة أجزاء وثلاثة مجلدات)؛ 6 ـ الصواعق الإلهية في الردّ على ترهات الكنائس المسيحية؛ 7 ـ الكنائس الحالية هل

هي مسيحية أم بونية؟؛ 8 ـ اللآلىء والدرر في الآداب والمحاسن الغرر (مختارات من الأحاديث النبوية، بالعربية والفرنسية)؛ 9 ـ المبادىء الصرفية (في جزأين ومجلدين)؛ 10 ـ حماية طلبة المدارس الإسلامية من تضليل رجال الكنائس المسيحية (بالعربية والفرنسية)؛ 11 ـ محمد ورسالته (بالفرنسية)؛ 12 ـ معين الباحثين عن قسمة فروض الوارثين؛ 13 ـ الأضواء الصافية على الأوراد التجانية؛ 14 ـ ذكر الله (بالعربية والفرنسية)؛ 15 ـ حقيقة المحدثات والبدعة وما ليس في الشرع منها؛ 16 ـ التحفة فيما يجوز ويحرم من التداوي والتعاويذ والرقية.

ب ـ المخطوطة:

17 ـ شرح المختصر المقنع في علم أبي المقرع (في علم الفلك)؛ 18 ـ الحاج عمر تال؛ 19 ـ رد أقاويل المفترين على أولياء رب العالمين.

هذا بالإضافة إلى مخطوطات أخرى في الحساب والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا وغيرها، بقيت في مكتبة سبيل الفلاح ليستعملها المدرسون.

في ضوء هذا الكم الغزير من المؤلفات يمكن القول بأن سعد عمر توري قد أثرى المكتبة العربية، وذلك انطلاقا من مجهوده الفردي، كما يمكن القول بأن المسلمين في إفريقيا الغربية قد استفادوا من إنتاج الرجل وإنجازاته، إما بطريقة مباشرة لمن قصد سبيل الفلاح من المواطنين الماليين ومن أبناء الدول المجاورة، وإما بطريقة غير مباشرة باعتبار أنّ جلّ المدارس العربية في المنطقة قد اعتمدت برنامج مدرسته واستعملت مؤلفاته التي كانت بفضل انفتاحها على اللغة الفرنسية في متناول المثقفين ثقافة فرنسية، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، على أساس أنه تناول القضايا المسيحية في هذه المؤلفات، وإن كانت موظفة لغايات إسلامية. وليس عبثًا أن نشير هنا إلى أنّ الرجل قد تعمّق في تعاليم المسيحيين بفضل معايشته للرهبان المبشرين، فلا عجب إذن أن ينال تقريظ بعض العلماء الكبار من أمثال أبي بكر بن محمد المعروف بـ«دمب وقي» بمدينة «بارول» (جمهورية مالي). إذ يقول في مطلع كافية له من البحر البسيط [نفسه، 55]:

خدمتَ وطْنَك فالرحمان يجزيكَا
وقُدتَه للعلا فالربُّ يعليكا

على هذا يكون سعد عمر توري مصدرًا هامًا للثقافة العربية والفرنسية في غرب إفريقيا، ولا تزال مدرسته مؤسسة تعليمية يقصدها من يريد الاطلاع على مبادىء اللغة والثقافة العربية، كما لا تزال مؤلفاته في متناول القرّاء في المنطقة، لكنها مهددة بالضياع على غرار كلّ مصنّف لا ينال من الدّارسين عناية.

المصادر والمراجع

• في غياب مراجع تهتم بسعد في سيرته ومؤلفاته اعتمدنا على المرجع الوحيد الذي اعتنى بهذه الشخصية، وهو بحث قدمه صاحبه بدار المعلمين العليا بـ (بماكو) لنيل شهادة الأستاذية في اللّغة العربية، وهو الأستاذ دانيو موديبو، الذي أنجز شهادة بعنوان «سعد عمر توري: الرجل والعمل»، سنة 1998.

موديبو دايون
جمهورية مالي

التّوزي، عبد الله بن محمد بن هارون

(ت 230هـ/ 844م)

عبد الله بن محمد بن هارون أبو محمد التّوزي، لغوي نحوي، يضعه الزبيدي في ترجمة له مقتضبة جدًا ضمن الطبقة السابعة من نحاة البصرة [طبقات النحاة واللغويين، 106]، وقد سمّي التّوزي نسبة إلى توّز وهي بلد بفارس ويقال لها أيضا توّج [السيوطي، المزهر، 2/ 445]، لذا يسمّيه أبو الطيب اللغوي تارة التّوزي وتارة أخرى التّوّجي [مراتب النحويين، 75]؛ كما يدعى أبا محمد القرشي باعتباره مولى لقريش؛ لم تذكر المصادر تاريخ ولادته، أما وفاته فالأغلب أنها كانت سنة 230هـ/ 844م؛ لكن السيوطي رغم تحديده لها في البغية بهذا التاريخ فإنه يذكر في المزهر أنه توفي سنة 238هـ/ 852م [2/ 464].

لا نعرف شيئا عن أسرته سوى أنّه تزوّج أم القاسم بن ذكوان اللغوي الراوية، ولئن كان التّوزي من أصل غير عربي كما هو شأن كثير من علماء العربية في القرنين الثاني والثالث فقد كان عربي المنشإ واللغة والثقافة عاش في البصرة في إطار عربي وتعلّم العربية وألّف بها.

لقد أخذ التّوزي المعرفة باللغة والشعر والنحو عن أهم أعلام عصره، فقد درس على أبي عبيدة (110هـ/ 728م - 209هـ/ 824م) وكان أكثر تلاميذه رواية عنه [القفطي، إنباه، 2/ 126]، ودرس كذلك على الاصمعي (213هـ/ 828م) صاحب الرسائل اللغوية الموضوعة والمختارات الشعرية، وهذان العلمان من أعلام الدراسة اللغوية بصفة عامة والدراسة اللغوية للنص بصفة خاصّة مع التدقيق في الرواية والضبط؛ وقرأ التّوزي كتاب سيبويه على أبي عمر الجرمي (225هـ/ 840م) وسمع كذلك من سعيد بن مسعدة الأخفش (210هـ/ 825م)؛ ومن أبي زيد الأنصاري، ويبدو أن شهرة تتلمذه على أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد قد تجاوزت البصرة وبلغت بغداد، هذا ما يستنتج من خبر ورد في ترجمة الأصمعي عن زيارة قام بها التّوزي إلى هذه المدينة مفاده أنه حضر أثناءها حلقة الفرّاء فسأله هذا عن أخبارهم ونوّه بشأن كل واحد منهم في معرفته بالشعر أو أيام العرب والنحو [مراتب اللغويين، 48]. لقد عرف التّوزي بثقافته اللغوية العميقة وبعلمه الواسع بالشعر العربي واقترن اسمه بأسماء بعض أعلام عصره من اللغويين ممن أخذ الناس علم العرب عنهم حسب أبي الطيب اللغوي وبرعوا فيه، ومنهم أبو علي الجرمازي وأبو عمر صالح بن اسحاق الجرمي [مراتب اللغويين، 75]؛ على أن المبرّد كان يعتبر التّوزي «أبلغ القوم في اللغة وأعلمهم بالنحو بعد الجرمي والمازني»؛ كما اعتبره أعلم الناس بالشعر متفوّقا على الرياشي والمازني [السيرافي، 85].

وكانت له مساجلات مع بعض معاصريه كالتي دارت بينه وبين أبي حاتم السجستاني في مجلس الأخفش [الزجاجي، مجالس العلماء، 18 ـ 19]؛

وقد كان التّوزي صاحب ملاحظات دقيقة عن المعرّبات من الفارسيّة والآرامية، وكانت له جهود في تعرّف كون الكلمة معرّبة بمعايير لغويّة في ضوء ملاحظاته في البنية والدلالة. كانت صلته بالفارسية واضحة، كما كان وهو في سواد العراق يعرف قدرا من الآرامية، وملاحظاته عن المعرّبات قليلة لكنها دقيقة ومهمة.

كان التّوزي من أهمّ أعلام اللّغويين في عصره، تتلمذ عليه كثيرون، وأصبح بعضهم من كبار النحاة واللّغويين. وأشهر تلاميذه المبرّد وأبو ذكوان. كان المبرّد رأس المدرسة البصرية في القرن الثالث الهجري، مؤلّفاته في النحو كثيرة واهتمامه بالقضايا اللّغوية يوازي اهتمامه بالأدب والنصوص والتدقيق اللّغوي فيها. ومن تلاميذ التّوزي أيضا أبو ذكوان، وكان من أشهر علماء عصره في الشعر العربي، وقد تعلم من التّوزي الذي كان زوج أمه. وللمبرّد مؤلّفات كثيرة، ووصل بعضها، وفيها ما يشير إلى أثر التّوزي فضلا عن النقول المنسوبة إليه في كتب اللّغة والأدب وكتب الطبقات.

ومن أهمّ الملاحظات التأصيلية المنسوبة للتّوزي ما ورد في ترجمته عند المرزباني. لقد نسب إليه تلك الملاحظة الخاصة بتأصيل بعض أسماء التمر في ضوء المعرفة بلغات مختلفة كانت لها صلة بالمنطقة. فلاحظ أنّ ما يبدأ منها بالباء فهو نبطي، وذكر أمثلة لأسماء تبدأ بكلمة «بر»، التي تعني في النبطية واللهجات الآرامية الأخرى معنى كلمة ابن، ذو، صاحب. ولاحظ التّوزي أيضا أنّ ما ينتهي من أسماء التمر بألف ونون فهو معرّب عن الفارسية، وذكر لذلك أمثلة دالة.

آثاره

تنسب كتب الطبقات التي ترجمت للتّوزي عددا من المؤلّفات ضاع أكثرها وإن بقي اسم التّوزي واردا في عدد كبير من النقول في كتب اللغة. لقد وصلت إلينا له رسالة صغيرة عن الأضداد، وكانت من المصادر التي اعتمد عليها أبو الطيب اللغوي في كتابه في هذا الموضوع. وكانت للتّوزي كتب أخرى ذكرتها له كتب الطبقات، منها: كتاب الأمثال، كتاب الخيل وأنسابها وعيوبها وإضمارها ومن نسب إلى فرسه. وقد ذكر هذا الكتاب نفسه بعنوان: كتاب الخيل وسبقها وأنسابها وشياتها وغرّتها وإضمارها ومن نسب إلى فرسه.

وهذا الكتاب أحد المؤلفات التي اهتمّت بالخيل من الجانب اللّغوي رصدا للكلمات وبيانا للدلالة وإيضاحا للفروق وشرحا للسياق الثقافي. نسبت كتب الطبقات إليه أيضا كتابا في النوادر، وقد أشار إليه أبو حيان التوحيدي في «البصائر والذخائر» في عدّة مواضع وأفاد منه.

أمّا جهوده النحوية فقد كانت معروفة في عصره، ووردت منها نقول عند العلماء في القرن الثالث الهجري، وقد أشار المبرّد في كتابه الكامل إلى بعض آرائه النحوية، كما ذكره الزجاجي في مجالسه وأشار إلى كتابه فعلت وأفعلت، ويبدو أنّ هذا الكتاب كان

أهمّ جهوده النحوية وقد ذكره له ابن النديم.

المصادر والمراجع

● أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تح. محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة ص 75 ـ 76؛ ● أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح. فريتس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، باريس بول فنتر 1936، ص 85 ـ 87؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. فلوجل، ليبزج/ ألمانيا ص 57 ـ 58؛ ● اليغموري، نور القبس المختصر من المقتبس للمرزباني، تح. رودلف زلهايم، فيسبادن / ألمانيا 1384هـ/ 1964م ص 215 ـ 217؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبي الفضل إبراهيم، مصر 1384هـ/ 1965؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر 2/ 162؛ ● فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، الأصل الألماني؛

● F. Sezgin: Geschichte des arabichen schriftums, Leiden, 1968, VIII 89-90.

وفي المرجع الأخير بيان بمصادر أخرى لترجمته وحصر للمؤلّفات التي نسبت إليه في كتب الطبقات، وما نقل عنها في كتب اللّغة والأدب.

د. محمود فهمي حجازي

القاهرة

د. عبد القادر المهيري

تونس

توفيق، محمد عمر

(1337هـ/ 1919م ـ 1414هـ/ 1994م)

ولد محمد عمر توفيق بمكة المكرمة. وتخرج من القسم العالي بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة سنة 1355هـ/ 1936م.

عمل مدرسا في دار الأيتام بمكة المكرمة بعد تخرجه. كما عمل بصحيفة أم القرى، وانتقل منها للعمل بإدارة البرق والبريد والهاتف، ثم انتقل إلى العمل بمطابع الحكومة. وتم تعيينه بديوان نائب الملك بمكة.

وفي سنة 1378هـ/ 1958م طلب إعفاءه من منصبه، وتفرغ لقضايا الأدب والفكر والتأليف. ثمّ تمّ تعيينه وزيرا للمواصلات منذ سنة 1382هـ/ 1962م حتى سنة 1396هـ/ 1976م حيث أحيل على التقاعد بناء على طلبه.

كان محمد عمر توفيق مؤرّخا وكاتبا وأديبا وشاعرا. ولعلّ أبرز أعماله التاريخيّة كتابه طه حسين والشيخان، والكتاب دراسة تاريخية قيمة من خلال نقد كتاب طه حسين

«الشيخان»، وعن منهجه في نقد الكتاب يذكر محمد عمر توفيق أنه لم يتابع جميع الأفكار والروايات التي جاءت في الكتاب بالنقد والمناقشة، بل حرص على تقديم تحقيق شامل دقيق. ففي الفصل الرابع والخامس من كتابه ناقش طه حسين قصة بيعة أبي بكر الصديق، ويعلق محمد عمر توفيق على ذلك بقوله: «يطول الكلام لو نقلت هنا نص ما قاله طه حسين. . غير أن النتائج التي يمكن استخلاصها من ذلك النص هي، أن كل ما تذكره الروايات عن جدال أو تخالف بعض المهاجرين من بني هاشم كعلي رضي الله عنه، أو بعض الأنصار كسعد بن عبادة كبير الخزرج إنما هو كذب تكلّفه المتكلّفون بآخرة حين افترق المسلمون شيعًا وأحزابا. . وأن أكثر نصوص الحوار الذي جرى بين المهاجرين أو بين الأنصار أو بين أولئك وهؤلاء، يوم اجتماع سقيفة بني ساعدة إنما هي نصوص لا يُطمأن إليها. وتستمر تهمة الكذب والتشكيك في وجه ما ورد ـ أيا كان حظه من القوة تتحدى الشك أو من الضعف الذي اكتشفه القدماء من مئات السنين ـ اللهم إلا ما آمن به طه حسين وحده ولا شيء سواه»، ويخلص محمد عمر توفيق إلى أن منهج طه حسين في كتابه «الشيخان» كان مهزوزا: «اتضح أن النهج لا يكاد يستمر بمعنى القاعدة والقياس، فهو ينهض مرة ولا ينهض أخرى وما كان يستحق الشك ـ على نهجه ـ قد يأخذ باليقين أو بالاحتياط، وما قد يستحق اليقين على نهجه ـ قد يأخذه بالشك أو بالتكذيب إلى آخر ما هناك، ثم هو لم يكلف ناقده عناء التحقيق مذ كان يبني النتائج على منطقه لا على تحقيق أو استيعاب لما قيل في الرّواية أو روايتها من جميع الوجوه».

ويأخذ محمد عمر توفيق على طه حسين أنه كان إمّا أن يجزم بصدق الرواية أو كذبها دون التحقق منها: «وهناك ـ إن تعذرت سبل التحقيق ـ شيء اسمه الترجيح، والتردد كخطة العلماء والنقاد. أما الجزم بكذب الرواية أو بصدقها فإنه يبعد عن الخطة المثلى. . كيف إن العكس هو الصواب كما ظهر من أمر بعض الروايات».

أما أبرز أعماله الأدبية فكانت في أدب الرحلات حيث سطر في هذا الصنف من الأدب فصولا راقية. فقد طاف العديد من البلاد، وسجل ما رآه وشاهده في قالب أدبي شيق. ومن رحلاته وذكرياته التي أوردها في كتبه: من لندن وطوكيو، في هونغ كونغ، بين الشرق والجنوب، بين الحل والترحال، ملامح إسكندنافية، لمحات في أوروبا، من جنيف إلى بوخارست، جزر الكناري، على هامش البرتغال، النشل في إيطاليا، بين إيطاليا والنمسا، من جدة إلى يوغسلافيا، على هامش نياجرا، من كوبنهاجن إلى ميامي، من أورلاندو إلى ميامي، في ماربيا.

وله انطباعات خاصة عن الهدف من تسجيل تلك الرحلات. بشرحه بقوله: «إنني لا استهدف التاريخ أو رواية ذكريات بعينها مما يكون هو مبتغى من يكتبون الرحلات أو بعض من يقرؤونها. إنما أكتب ما يحضرني، وإن يكن تافها كما قد يراه من يراه؛ وقد أغفل ذكر الأسماء والأيام والأمكنة، وتفاصيل لا أعفي النفس عادة في الحضر والسفر. فأنا لا أدوّنها أصلا، أو قد أفعل وأنسى أو لا أكاد أجدها بين أوراقي وقت اللزوم».

آثاره

1 ـ طه حسين والشيخان، ط. 1، جدة سنة 1401هـ/ 1981م، ط. 2، جدة 1405هـ/ 1985م؛ 2 ـ من مذكرات مسافر (الجزء الأول، جدة 1400هـ/ 1980م)؛ 3 ـ من مذكرات مسافر (الجزء الثاني، جدة 1406هـ/ 1986م)؛ 4 ـ الزوجة والصديق (القاهرة 1409هـ/ 1989م)؛ 5 ـ أيام في المستشفى القاهرة: ـ دار مصر.

المصادر والمراجع

● الأنصاري، عبد الرحمن وآخرون. المواصلات في المملكة العربية السعودية خلال مائة عام، مج. 2، الرياض 1419هـ/ 1999م؛ ● سلم أحمد سعيد، موسوعة الأدباء والكتب السعوديين خلال ستين عاما 1350 ـ 1410هـ ـ القسم الأول (نادي المدينة المنورة الأدبي ـ ط 1، 1413هـ/ 1992م)؛ ● كتبي، زهير محمد. محمد عمر توفيق: العقل الكبير، الرياض 1414 هـ؛ ● الموسوعة الثقافية الشاملة للمملكة العربية السعودية، الجزء الأول، معجم الأدباء والكتاب، ط. 1، دائرة الإعلام، الرياض 1410هـ/ 1990م.

د. عبد الرحمان الأنصاري

جامعة الملك سعود ـ الرياض

ابن توفيل، سعيد

(ت 273هـ/ 892م)

هو سعيد بن توفيل، طبيب نصراني متميز في صناعة الطب والعلاج، عاش أغلب حياته في خدمة أحمد بن طولون، الذي حكم مصر من عام 254هـ/ 868م إلى 270هـ/ 883م، وكان ابن توفيل يصحبه في أسفاره وعند انتقاله إلى مكان. ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء، وقال: كان طبيبًا، نصرانيًا متميزًا في صناعة الطب، وكان في خدمة أحمد بن طولون، ومن الأطباء الخاصين به، يصحبه في السفر والحضر [ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 541 ـ 544]، وقد أورد الصفدي ترجمة مطابقة كما جاء عند ابن أبي أصيبعة [الوافي بالوفيات، 15/ 204 ـ 205].

ولم يرد لسعيد بن توفيل أي ذكر في مصدر آخر فيما انتهى إليه البحث، عدا هذين المصدرين، كما لم تحوِ فهارس المكتبات العربية أو الأجنبية أية إشارات لمؤلفاته أو رسائله أو مقالاته. ويبدو أنه لم يصنف.

ويفهم من الترجمة اليتيمة التي أوردها ابن أبي أصيبعة، أن سعيد بن توفيل كان يكثر التردد

على بيعة في أنطاكية، كان يتعبد بها وهي بيعة القُسْيان، في وسط أنطاكية. وأنه التحق بخدمة أحمد بن طولون إبان وجوده في الشام. ومن ثم انتقل إلى مصر مصاحبًا له، ويطببه في السفر. فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن الحسن ابن زيرك كان طبيب أحمد بن طولون يصبحه في الإقامة في مصر ويطببه، فإذا سافر صحب سعيد بن توفيل.

ويفيد كتاب سيرة أحمد بن طولون، بأن أحمد ابن طولون كانت له عناية فائقة بالطب وأهله، وأنه أمر ببناء بيمارستان في أرض العسكر، قريبة من جامع ابن طولون وقنطرة السد، ظاهر مصر وبين السور الذي يفصل القرافة عن مصر، وكان ذلك سنة 259هـ/ 350م وانتهى بناؤه بعد سنتين، وحبس عليه الأوقاف [البلوي، سيرة أحمد بن طولون، 180، 350] وحشد إليه الأطباء من الشام ومصر وشحنه بالأدوية والشرابات.

وقد جعل بداخل البيمارستان حمّامين أحدهما للرجال والآخر للنساء وأباحهما مجانًا للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب. وأدخل أحمد بن طولون في هذا البيمارستان ضروبًا من الأنظمة جعلته في مستوى أرقى المستشفيات المعاصرة، فكان المريض إذا دخل تُنزع ثيابُه ويودع ما معه من مال عند أمين البيمارستان، ثمّ تقدّم للمريض ثياب أخرى. وينزل في مكان تتوافر فيه وسائل النوم والراحة، وبعد تشخيص الأمراض تعطى للمريض الأغذية والأدوية مجانًا حتّى يتمّ شفاؤه. فإذا قُدمت له دجاجة ورغيف فأكلها أذن له بمغادرة البيمارستان بعد أن ترد إليه ثيابه وأمواله. وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا البيمارستان وحرصه على راحة المرضى أنّه كان يتفقده بنفسه في يوم الجمعة، فيطوف على خزائن الأدوية، ويتفقد أعمال الأطباء، ويشرف على المرضى، ويبالغ في الترحيب بهم وإدخال السرور عليهم.

وأوكل رئاسة البيمارستان إلى كبير أطبائه سعيد بن توفيل القبطي، وقد ازدهرت صناعة الطب والعلاج خلال رئاسة سعيد بن توفيل للبيمارستان... فكان للأطباء أزياؤهم الخاصّة، وخصّص لكلّ طبيب أعوانه ومساعدوه ممن مهمّتهم تحضير العقاقير وعجن الأدوية وإيقاد النار.

ويُعد هذا البيمارستان أوّل مستشفى كبير في تاريخ مصر الإسلامية، كما عد بمثابة مدرسة طبية لتعليم كافة فنون العلوم الطبية: التشخيص وصناعة الأدوية المفردة والمركبة والتمريض، وكان لابن توفيل وسائله الخاصة في الفحص والعلاج. فكان يجس النبض ويفحص الفضلات (مثل البول، والبراز، والقيء)، كما كان يحدد للمرضى أنواع الأطعمة التي يجب أن يأكلوها، وكان يمارس بعض الجوانب النفسية في علاج مرضاه... فقد اعتقد أنّ كثيرًا من الظروف النفسية السيئة لها مضارها على الجسم، وهي تظهر في شكل أعراض مرضية جسمية كثيرة وإذا انتهت هذه الظروف النفسية تتحسّن حالة المريض.

ويقال إنّ ابن توفيل كان يدور على المرضى بالبيمارستان ويتفقد أحوالهم وبين يديه المشرفون وبعض القائمين على خدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك، وكان بعد فراغه من ذلك يجلس في إيوان

البيمارستان ويطلع على جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثمّ تجري مباحث طبية ويقرئ التلاميذ. ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة وينظر في الكتب والمجادلة مقدار ثلاث ساعات أو أكثر ثم يركب دابته إلى داره.

وقد ركز ابن أبي أصيبعة على الحادثة التي أدت إلى وفاة أحمد بن طولون، واتهام سعيد ابن توفيل بالتساهل في علاجه، وحتى التعمد في إيذائه. ومن ثم أمر أحمد بن طولون، وهو في أيامه الأخيرة بضرب سعيد بن توفيل مائتي سوط، وتعزيره والتشهير به في شوارع وحارات وأزقة القاهرة، والمنادي يصرخ بأعلى صوته، «هذا جزاء من ائتمن فخان»، وكان أن توفي سعيد بن توفيل بعد يومين من هذه الحادثة.

ويبدو أن رجال أحمد بن طولون هم الذين أوقعوا بسعيد بن توفيل، فإضافة إلى حظوة سعيد بن توفيل كطبيب خاص، فإن أحمد بن طولون كان يستشيره في أمور كثيرة من شؤون الدولة، وكان لخادمه هاشم دور في الإيقاع به، فقد كان هذا الجاكري (أي الخادم) يرافق سعيد بن توفيل في ركوبه ويخدم بغلته، وقد علمه سعيد بن توفيل تحضير بعض الأدوية، ثم كان تقديم خادمه أحمد بن هاشم لخدمة حريم أحمد بن طولون، بعد خشية أحمد بن طولون من استخدام ابن سعيد بن توفيل لملاحته وحسن صورته، وقبل أحمد بن هاشم الجاكري (الشاكري، الخادم) لقبح صورته وعدم استملاحه من الحريم الطولوني، وقد نجح هاشم في اجتذاب حريم القصر الطولوني إليه، بما يقدمه لهن من أدوية للحبل وتزيين البشرة وتغزير الشعر. ولما شكا أحمد ابن طولون علة الذَّرب (أي فساد المعدة) وعدم نجاح سعيد بن توفيل في علاجه وهو في الشام، ثم عاد إلى القاهرة، وعجز الأطباء عن شفائه أوحى أحمد بن هاشم لأحمد بن طولون، بأن الخطأ الطبي سببه سعيد بن توفيل، الذي يُكن حقدًا قديمًا لأحمد بن طولون، وكانت نهايته كما أشرنا إليه سابقا.

المصادر والمراجع

● ابن أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، 1965م؛ ● البلوي، عبد الله بن محمد، أبو محمد، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها، محمد كرد علي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.؛ ● الصفدي، خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، عناية بيرند راتكة، فسبان، دار النشر فرانزشتاينر، 1399هـ/ 1979م، الجزء الخامس عشر.

د. محمد عيسى صالحية
جامعة اليرموك ـ اربد
د. عبدالفتاح مصطفى غنيمة
جامعة الإسكندرية ـ مصر

التوقاني، مولانا لطف الله بن حسن

(ت 904هـ/1499م)

لطف الله بن حسن التوقاني الرومي، الحنفي، الشهير بمولانا لطفي، تركي الأصل والمنشأ، تفقه بالعربية. عالم مشارك في أصول الفقه وعلم الكلام والمنطق والمعاني والبيان وغيرها [كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 154].

أقامه السلطان محمد بن عثمان أمينا على خزانة الكتب، فاطلع على الغرائب منها، ثم ترقى، وأعطاه السلطان أبو يزيد خان السلطان مراد خان الغازي، وأقام في «بروسة»، وتوفي مقتولا [كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 154؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 242].

كان ذكيا فطنا خاشعا يقرأ عليه في صحيح البخاري فيبكي حتى تسقط دموعه على الكتاب إلى أن ختم القراءة. وكان فاضلا عالما [الغزي، الكواكب السائرة، 1/ 301]، وكانت له نوادر وعجائب كثيرة. كان فاضلا لا يجارى وعالما لا يبارى. كان عنيفًا في المناقشة، يطيل لسانه على أقرانه وعلى السلف أيضًا، فأبغضه علماء الترك ونسبوه إلى الإلحاد والزندقة، وحكموا بإباحة دمه، فقتلوه [الزركلي، الأعلام، 5/ 242؛ طاش كبري زاده، الشقائق النعمانية، 169].

وقد استمع إليه وهو يكرر كلمتي الشهادة وينزّه عقيدته مما نسبوه إليه من الإلحاد حتى قيل إنه تكلّم بالشهادة بعدما سقط رأسه على الأرض.

وقد قيل في تاريخه: ولقد مات شهيدًا [الغُزّي، الكواكب السائرة، 1/ 301].

تخرّج بالمولى سنان باشا، وقرأ على القوشنجي العلوم الرياضية بإشارة المولى سنان [الغُزّي، الكواكب السائرة، 1/ 301؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 8/ 23].

آثاره

1 ـ حاشية على شرح السيد لمفتاح العلوم للسكاكي؛ 2 ـ تعليقة على صحيح البخاري؛ 3 ـ حاشية على شرح مطالع الأنوار لقطب الدين الرازي في المنطق (أورد فيها فوائد وتحقيقات خلت منها كتب الأقدمين)؛ 4 ـ حاشية على شرح المفتاح للسيد الشريف (حل فيها المواضع المشكلة من الكتاب بحيث يتحير فيها أولو الألباب)؛ 5 ـ تعليقة على التوضيح في أصول الفقه؛ 6 ـ كتاب في موضوعات العلوم، ورسالة في العلوم العربية والشرعية، بلغ فيها نحو مائة علم، وقد أورد فيها غرائب وعجائب لم تسمعها آذان الزمان؛ 7 ـ المطالب الإلهية، وهو شرح لكتاب موضوعات العلوم؛ 8 ـ مراتب الموجودات، مخطوط؛ 9 ـ مباحث البرهان، مخطوط؛ 10 ـ رسالة في الفرق بين الحمد والشكر، مخطوط؛ 11 ـ شرح المواقف، مخطوط؛ 12 ـ رسالة في تعريف الحكمة، مخطوط؛ 13 ـ السبع الشداد، وهو

رسالة مشتملة على سبعة أسئلة، قيل: لو لم يؤلف سواها لكفته فضلا، «أولها حمدا لك اللهم يا من هو الموجود في كل مكان إلخ»، ذكر فيه أنه باحث في مجلس السلطان بايزيد خان لكن لم يتميز وجه الحق عن أسفار البطلان فكتب محصول المقالة في هذه الرسالة لنظر العلماء العظام ثم قال: اعلموا يا جماهير الأفاضل العظام ومشاهير الأماثل الكرام أني أسألكم من وجه مواضع التبس علي من كلام السيد الشريف من مباحث الموضوع فظننتها غير معقول مطبوع، سؤال متعطش محرور لا سؤال ممتحن مغرور، فإن كان ما عندكم من الكثير والقليل يروي الغليل فتنعموا علي لتفوزوا ثناء جميلا وأجرا جزيلا، وإلا فالله بيني وبينكم وكفى بالله وكيلا.

أورد فيه سبعة أسئلة على السيد الشريف في بحث الموضوع ولقد أبدع فيها كل الإبداع وأجاد عن تلك الأسئلة المولى العذاري إلا أن الحق أنه لم يقدر على دفعها والحق أحق أن يتبع [حاجي خليفة، كشف الظنون، 1/ 478، 2/ 976؛ كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 154؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 242؛ الغُزّي، الكواكب السائرة، 1/ 301؛ طاش كبري، زاده، الشقائق النعمانية، 169].

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● طاش كبري، زاده، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1395هـ/ 1975م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن تَوْلب، أبو قيس النمر بن زهير بن أقيش

(ت 14هـ/635م)

النمر بن تَوْلَب بن زهير بن أقيش (كزبير) بن عبد كعب بن عوف بن الحارث بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مناة بن أدّ العكلي، يكنى بأبي قيس، شاعر جاهلي مُقلٌّ، امتدّ به العمر حتّى أدرك الإسلام فأسلم، لا يعرف عنه إلاّ القليل من الأخبار، وأكثر ما يعرف به كرمه، والتولب في اللغة هو الجحش، ومن عادة العرب أن تسمّي أولادها بأسماء الحيوان للقوّة وإخافة الأعداء.

نزلت قبيلة الشاعر في بلاد نجد، وحدث أن غارت جماعة من بني بكر بن وائل على عُكْل، وفيها الشاعر، فهزمتها قبيلته، فقال يفتخر ويذكر بطولته [ديوانه، 64 ـ 65]:

ولقد شهدت الخيلَ وهي مغيرةٌ
وشهدتُها تعدو على آثارها

وحويت مغنمها أمام جيادها
وكررت إذ طردت على أدبارها

ولقد شفيتُ من الركاب ومشيها
وزفيفها نفسيَ ومن أكوارها

ويروي أنه نزل بدياره قوم في الجاهلية فعقر لهم أربع نوق واشترى لهم زق خمر بجمل مُسِنٍّ، فلامته زوجته فرد عليها مؤكدا كرمه طالبا منها أن تكرم صحبه لأنهم بمنزلة الإخوة، فهو على يقين من أن الموت سيوافيه ذات يوم، ثم يذكرها بقوم عادٍ وفنائهم كما يذكرها بزرقاء اليمامة لتكون بصيرة مثلها، فيقول [ديوانه، 71 ـ 73]:

قالت لتعذلني من الليل اسمع
سفهًا تَبَيُّتُك الملامة فاهجعي

لا تعجلي لغدٍ وأمْرُ غدٍ له
أتعجّلين الشرّ ما لم تمنعي

قامت تعذّل أن سبأت لفتية
زقًّا وخابية بعَوْدٍ مُقَطَّع

وله أخ يدعى الحارث بن تولب وكان سيدًا في قومه، أغار على بني أسد فسبى منهم امرأة هي جمرة بنت نوفل، فوهبها لأخيه، فعاشت معه على كره، وأنجبت له، ثم طلبت زيارة أهلها، ووعدته أن ترجع إليه، ولكنها لم تفعل، وقد حزن عليها أشدّ الحزن إلى أن تزوّج امرأة تدعى دعد، وكانت على قدر من الجمال، فشغل بها، وهو القائل فيها البيت الشهير [ديوانه، 133]:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن امُتْ
أوكّلْ بدعدٍ مَنْ يهيمُ بها بَعدي

ثمّ حجّ فنزل بمنى، ونزلت جمرة مع زوجها قريبًا منه فعرفته، فبعثت إليه بالسلام وأوصته خيرًا بأولاده منها، وظلّ يقول فيها أشعاره، ثمّ رثاها حين بلغه نعيها، فقال [ديوانه، 99]:

ألـم تـر جـمـرة أن جـاء مـنـهـا
بـيـانُ الـحـق أنْ صَـدَقَ الـكـلامُ

نـعـاهـا بـالـبـديـعِ لـنـا حـزامٌ
أحـقّ مـا يـقـول لـنـا حـزامُ

فـلا تـبـعـدْ وقـد بـعـدتْ وأجـدى
عـلـى قـبـرٍ تـضـمَّـنـهـا الـغـمـامُ

وكان له ولد منها يدعى ربيعة. وتجمع الروايات على وروده على الرسول ﷺ وإعلانه إسلامه بين يديه، وقد ذكر ذلك فقال [ديوانه، 69]:

إنـا أتـيـنـاك وقـد طـال الـسَّـفَـرْ
نـقـودُ خـيـلاً ضُـمَّـرًا فـيـهـا ضَـرَرْ

نـطـعـمُـهـا الـلـحـمَ إذا عـزَّ الـشـجـرْ
والـخـيـلُ فـي إطـعـامـهـا الـلـحـمَ عَـسَرْ

يـا قـوم إنّـيَ رجـلٌ عـنـدي خَـبَـرْ
الـلـه مـنْ آيـاتـه هـذا الـقـمَـرْ

والشمس والشعرَى وآيات أخرْ

ووفد على المربد بالبصرة ومعه كتاب من رسول اللّه ﷺ إلى قومه يدعوهم فيه إلى الإسلام. ولقد امتدّ بالنمر بن تولب العمر، حتّى شاخ وهرم، ونال منه الخرف، وقد ذكر في شعره كثيرًا الشيب والتقدم في العمر وأعباء الحياة، ومن ذلك قوله [ديوانه، 70]:

أصـبـحـت لايـحـمـل بـعـضـي بـعـضَـا
أشـكـو الـعـروقَ الـنـابـضـات نَـبْـضَـا

كـمـا تـشـكّـى الأرحـبـيُّ الـغَـرْضَـا
كـأنّـمـا كـان شـبـابـي قـرضَـا

ويبدو أنه عاش إلى خلافة عمر بن الخطاب، إذ يروى أنّه نزل البصرة وقد بنيت في عهده، ويروى أن عمر ذكره وترحم عليه، ويرجح أن تكون وفاته عام 14 هـ.

كان النمر أحد أجواد العرب، فقد ذكر ابن سلام أنه كان واسع القِرى كثير الأضياف وهّابًا لماله ولا يُليق شيئا أي لا يمسكه ولا يحبسه، وتؤكد ذلك أبيات كثيرة من شعره يرد فيها على زوجته التي كانت تلومه على إنفاقه المال، وكان يرى أن الحياة إلى زوال ولا شيء يبقى وليس للإنسان إلا ما أنفق، فكم من غني صاحب إبل كثيرة رعاها وتعب في رعيها، ثم مات وامتلكها من بعده غيره، وصار إلى قبر تعلوه الحجارة، ومن ذلك قوله [ديوانه، 39 ـ 41]:

أعـاذل إن يـصـبـحْ صـداي بـقـفـرةٍ
بـعـيـدًا نـآنـي صـاحـبـي وقـريـبـي

تـرَيْ أن مـا أبـقـيـتُ لـم أكُ ربَّـه
وأن الـذي أمـضـيـتُ كـان نـصـيـبـي

وذي إبـلٍ يـسـعـى ويـحـسِـبُـهـا لـه
أخـي نَـصَـب فـي سَـقْـيِـهـا ودؤوبِ

غَـدَتْ وغـدا ربٌّ سـواه يـسـوقُـهـا
وبـدِّل أحـجـارا وجـال قـلـيـبِ

ولذلك شبه أبو عمرو بن العلاء شعره بشعر حاتم الطائي، وهو يشبهه في شعره وفي كرمه، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني أنه خرج مرة في إبله بعد أن تقدّم به العمر، فسأله سائل فأعطاه فحل إبله، وظلّ على كرمه إلى آخر أيام حياته، فكان يردد وهو متقدّم في العمر: «انحروا للضيف، أعطوا السائل، اصبحوا الركب»، وكان عفًا، ذا خلق رفيع، لا يخون ابن عمه في زوجته، ولا جاره ولا

الرجل البعيد، ويرجو لقاء ربه عاريا من الذنوب، يقول [ديوانه، ص 66]:

ولا أخونُ ابن عمّي في حليلتِهِ
ولا البعيدَ نَوَى عنّي ولا جَاري
حتّى يقال إذا وُرِّيتُ في جَدَثي
لقد مَضَى نَمِرٌ عارٍ من العارِ

ولقد حظي النمر بتقدير القدماء، فقد عدّه ابن سلام في الطبقة الثامنة من طبقات فحول الجاهلية، ووصفه فقال: «كان شاعرا فصيحًا جريئًا على المنطق، وكان أبو عمرو بن العلاء يسمّيه الكيِّس لحُسْن شعره». وكان شعره سجلاً لحياته، ولولا شعره لما عرف عنه إلاّ القليل، وشعره مثل سائر الشعر الجاهلي، يسير فيه على نهج الشعراء في الوصف والتشبيه والتعبير عن البيئة، ولا يأتي بجديد، وأهمّ ما يمتاز به هو خلقه المتمثّل في العفّة والكرم والشجاعة. وأبرز ما يظهر في شعره حديثه عن ذاته وذكره الشيب والتقدم في العمر، ويلاحظ أنه لم يمدح أحدًا.

آثاره

عُني القدامى بشعر النمر بن تولب، فقد صنع ديوانه كلٌّ من أبي سعيد السكري، والأصمعي، وابن الأعرابي، وأشار إلى ديوانه ابن النديم (ت 385هـ) في كتابه «الفهرست»، وبدر الدين محمود الشهير بالعيني (ت 855هـ) في كتابه «شرح شواهد الألفية»، والسيوطي (ت 911هـ) في كتابه «شرح شواهد المغني»، وحاجي خليفة (ت 1076هـ) في كتابه «كشف الظنون»، والخطيب البغدادي (ت 1093هـ) في كتابه «خزانة الأدب»، مما يدل على وجود ديوانه حتّى وقت متأخر، ولكنّه فُقِدَ بعد ذلك.

ولقد عني الدكتور نوري حمودي القيسي في جامعة بغداد بجمع ما روته المصادر من أشعار النمر، وخرّجها وشرحها، ووضع لها مقدمة عرف فيها بالشاعر وشعره، ونشره بعنوان: «شعر النمر بن تولب»، في مطبعة المعارف ببغداد سنة 1968م.

ويتضمّن هذا الشعر ستة وأربعين نصّا شعريا، ولا يزيد مجموعه عن مئتين وستّة وستين بيتًا، وألحق به ثمانية نصوص مما ينسب إلى النمر وغيره من الشعراء، ومجموع أبيات هذه النصوص الثمانية لا يزيد على سبعة عشر بيتا، ولعل ديوان النمر بن تولب كان يتضمن أكثر مما تمّ جمعه، ولكن هذا ما تبقي من شعره، ومهما يكن فقد كان الشاعر مُقلاً كما يصفه صاحب «الأغاني».

المصادر والمراجع

● الأصفهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين (ت 356هـ)، الأغاني، المؤسسة المصريّة، القاهرة 1921 ـ 1948، 19/ 158؛ ● البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ)، خزانة الأدب ولبّ لباب العرب، بولاق، 1299، 1/ 156؛ ● بلاشير، ريجس (1900 ـ 1973م)، تاريخ الأدب العربي، تر. إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1973، 2/ 91؛ ● الجمحي، محمد بن سلام (231هـ)، طبقات فحول الشعراء، تح. محمد محمود شاكر، دار المعارف، 1952، 134؛ ● الزركلي، خير الدين (ت 1976هـ)، الأعلام، دار العلم

للملايين، بيروت، ط. رابعة 1980م؛ ● ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، 1960، 1/ 309؛ ● القيسي، نوري حمودي، شعر النمر بن تولب، مطبعة المعارف، بغداد 1968م.

د. أحمد زياد محبك
جامعة حلب ـ سوريا

ابن تُومَرت، محمد بن عبد الله

(485هـ/1092م ـ 524هـ/1130م)

محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن واضع أسس الدولة الموحدية بالمغرب ويعرف أيضا بالهرغي بفتح الهاء، وسكون الراء، وغين معجمة، نسبة إلى قبيلة هرغة، وتعرف بالبربرية باسم أرغن إلى اليوم [خلال جزولة، 164]. وهي قبيلة كبيرة من المصامدة في جبل السوس بالمغرب الأقصى. كما كان يلقّب في صغره بأمغار، ومعناه الشيخ، وبأسافو ومعناه الضّياء وما يستضاء به كالشهاب ونحوه [نظم الجمان، 43؛ الحلل الموشية، 103؛ خلال الجزولة، 167].

رفع بعض المؤرّخين نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، معتمدين في ذلك على ما وجدوه بخط أهل الأدب من المعاصرين له [وفيات الأعيان، 5/ 45 ـ 46؛ المعجب، 245]. وهذا النسب فيه بتر على ما نبّه عليه الشيخ القصار في نسب المهدي هذا [الإعلام، 4/ 58]. وقد انقسم المؤرّخون إزاء هذا النسب بين ناف له وبين مثبت إمّا بالتصريح أو بالتلميح، قال ابن خلدون: «بعض المؤرّخين نسبه إلى سليمان بن عبد الله الكامل وبعضهم نسبه إلى العبّاس» [العبر، 6/ 446؛ المقدّمة، 26 ـ 27]، يعني العبّاس بن محمّد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وقال المختار السوسي إنّ المهدي من الشرفاء الهرغيين من بني تاحبوت وبني تاشتول، وأنّ هرغة نزل سلفها من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب في سوس في عهد والي الأمويين على المغرب موسى بن نصير [خلال جزولة، 166 ـ 168]. وقيل هو دَعِيٌّ في هذا النسب، قال ابن العماد: «ولكن جرّه إقدامه وجرأته على حبّ الرّئاسة والظّهور وارتكاب المحظور ودعوى الكذب والزور من أنّه حسنيّ وهو هرغي بربري» [شذرات الذهب، 4/ 70]؛ اختلف في سنة مولده وتراوحت الأقوال في ذلك من سنة 471هـ/ 1078م إلى سنة 491هـ/ 1098م، وقد ولد بموضع نورمكان حسب ابن القطان، [نور الجمان 37]، وبإيجلي أن وارغن

حسب المرّاكشي [المعجب، 245]، وبايكلين حسب الزركشي [تاريخ الدولتين، 3]. وقال المختار السوسي إنّ هذه التسميات ما هي إلاّ تصحيف للفظة إكْلي، وهي قاعدة السّوس الأقصى زمان البكري، وهي الآن خراب، ولا تزال بها إلى اليوم بطون من قبيلة هرغة التي ينتسب إليها المهدي بن تومرت [خلال جزولة، 164].

خرج ابن تومرت في رحلة لطلب العلم بالمشرق على رأس المائة السادسة للهجرة، واختلفت المصادر في تاريخ انطلاق رحلته العلميّة هاته. فقد ذكرها ابن القطّان في أخبار السنة الأولى من المائة السادسة [نظم الجمان، 61 ـ 62]. وقال المرّاكشي إنّ ابن تومرت حلّ بالمشرق في شهور سنة 501هـ/ 1107 ـ 1108م [المعجب، 245]. وقال ابن خلدون: «وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة السادسة» [العبر، 6/ 465].

وقد مرّ أثناء رحلته بعدد من المدن فدخل قرطبة وأخذ عن بعض علمائها ومنهم القاضي ابن حمدين [ابن قنفذ، الفارسية، 100]، ثمّ سافر من المريّة إلى المهديّة ومنها إلى الاسكندريّة [تاريخ الدولتين، 4]، وأخذ بها عن أبي بكر الطرشوشي.

ولمّا كان موسم الحج قد اقترب لم يطل به المقام في الاسكندريّة وقصد البقاع المقدّسة، وبعد أداء مناسك الحجّ سافر إلى دمشق في طريقه إلى بغداد، احتمل كثير من المؤرّخين أنّه لقي أبا حامد الغزالي [وفيات الأعيان، 5/ 46؛ نظم الجمان، 54؛ المعجب، 247؛ القرطاس، 172؛ تاريخ الدولتين، 4 . . .] وعدّه مرتضى الزبيدي من تلامذة الغزالي [إتحاف السادة المتّقين، 1/ 44]. لكن ابن خلدون لم يجزم بذلك وقطع بنفيه ابن الأثير [الكامل، 8/ 294]، وابن غلبون [التذكار، 85]؛ على العموم فصِلَتُه بالغزالي غير ثابتة رغم ذيوع أمرها [معلمة المغرب، 8/ 2640]، فقد غادر الغزالي بغداد في سنة 488 هـ/ 1095م، كما غادر دمشق بعد تزهّده في سنة 499هـ / 1105م أي قبل انطلاق ابن تومرت في رحلته من المغرب إلى المشرق [المهدي بن تومرت، 80].

حصل ابن تومرت في رحلته إلى المشرق على قدر صالح من علوم الشّريعة والحديث النبوي، وأصول الفقه والدّين [الأعلام، 4/ 59]. قال ابن خلدون: «وانطوى هذا الإمام راجعا إلى المغرب بحرا متفجّرا من العلم، وشهابا واريا من الدّين» [العبر، 6/ 302]. فقد درس الفقه على أبي بكر الطرطوشي. وكان فقيها متبحرا في السياسة الشرعيّة، وعلى أبي عبد الله محمد بن منصور الحضرمي، ودرس الأصول على الفقيه أبي بكر الشاشي وكان رئيس الطائفة الشافعيّة ضليعا في الفقه، وعلى الفقيه الكياهراسي وكان عالما في الفقه والأصول والجدل وحفظ الحديث. وأخذ علم الحديث عن الشيخ المبارك عبد الجبّار، وكان مبرزا في الحديث.

وقد لقي بالمشرق أئمّة الأشعريّة من أهل السّنة، وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السّلفيّة، وأخذ برأيهم في كافّة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألّف في العقائد على رأيهم مثل

«المرشدة» في التوحيد، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت. وكان يقول بعصمة الإمام على رأي الإماميّة من الشيعة [العبر، 6/ 302؛ الإعلام، 4/ 60 ـ 72؛ تاريخ الأدب العربي، القسم 4/ 113]. قال ابن خلدون: «ولم تحفظ له فلتة في البدعة سواها» [العبر، 6/ 302]. قال ابن العماد: «وابن تومرت في ذلك كلّه لون واحد من الزهد والتّقلّل والعبادة وإقامة السّنن والشعائر لولا ما أفسد القضيّة بالقول بنفي الصّفات كالمعتزلة، وبأنّه المهدي وبتسرّعه في الدّماء» [شذرات الذّهب، 4/ 70؛ الإعلام، 4/ 76].

قال ابن الخطيب في «رقم الحلل»: «قالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنّه مأمور بنوع من الوحي والإلهام، وينكر التقليد، وله باع في علم الكلام، وغلبت عليه نزعة خارجيّة، وكان ينتحل القضايا الاستقباليّة يشير إلى الكوائن الآتية» [رقم الحلل، 57؛ الإعلام، 4/ 60 ـ 72].

وقد امتدّت رحلته إلى المشرق حوالي عشر سنوات عاد بعدها إلى المغرب، فحلّ بمكّة؛ ولكنّه حين بالغ الإنكار والطعن في البدع تعرّض لأوّل إبعاد من طرف الحكّام، وحدث له ذلك أيضا في مصر للسبب نفسه. بدأت دعوته الحقيقيّة إلى منهج التأويل في طرابلس، ومنها قصد المهديّة وكان نصيبه فيها الإبعاد، وقد كان السبب في اضطراب في المدينة، ومنها قصد المنستير بتونس ودرس فيها. ثمّ خرج منها مع ثلاثة من أتباعه أحدهم أبو بكر الصنهاجي صاحب كتاب «أخبار المهدي بن تومرت». ومرّ على قسنطينة في طريقه إلى بجاية وفيها أقام فترة من الوقت يدرّس في مسجد الريحانة؛ وكعادته في كلّ مدينة يحلّ بها يتولى بنفسه زجر العامّة والضرب وإنكار شرب الخمر والاختلاط، فاضطرّ حاكم المدينة إلى إخراجه، ولكنّه لم يبتعد كثيرا عن بجاية، وأقام في مدينة ملالة القريبة منها، واستقرّ فيها للتدريس. وفي هذه المدينة رسم ابن تومرت خطّته عندما التحق به عبد المؤمن ابن علي ولازمه منذ ذلك الوقت، ولم يتوقّف وهو في طريقه إلى المغرب عن مواصلة دعوته وإنكاره على الناس شرب الخمر واللهو والطرب؛ وفي بعض الأحيان كان ردّ العامّة عنيفا وصل حدّ الاعتداء عليه بالضرب في مكناس. وقد يطول به المقام أحيانا كما فعل في مدينة فاس، حيث جلس للتدريس والتفّ حوله المعجبون بدروسه على الطريقة الأشعريّة، ولكن الشيوخ والفقهاء لم يعجبهم ذلك، فشكوه إلى الأمير، وجمعه للمناظرة؛ فتغلّب عليهم ابن تومرت وأفحمهم. وزاد ذلك من خوفهم وحثوا الأمير على إبعاده من فاس بدعوى الخوف من إفساد عقول العوام، ونزل عند رغبتهم فأمره بالخروج من المدينة، فقصد مراكش.

لكنّه استمرّ على تغيير المنكر بعد حلوله بالعاصمة المرابطيّة سنة 514هـ/ 1120م، فأغرى الفقهاء السّلطان علي بن يوسف به، فأحضره للمناظرة معهم، وكان له التفوّق عليهم، لأنّه وجد قوما لا يعرفون علم الكلام. ونصح كبيرهم مالك بن وهيب

السّلطان علي بن يوسف باعتقال ابن تومرت وأصحابه فلم يعمل بالنصيحة واكتفى بأمره بالخروج من البلد. لكن ابن تومرت لم يبتعد عن المدينة؛ غادرها وأقام في خيمة خارجها، وجلس فيها للدعوة والتدريس وغيّر في لهجة خطابه فأصبح يدعو لأوّل مرّة إلى الثورة على الحكّام حين وجد من الناس إقبالا. ولمّا وصل الخبر إلى الأمير أحضره ثانية وأنذره، ثمّ أمره بالخروج من المدينة وضواحيها. ويبدو أنّ الأمير اقتنع هذه المرّة بضرورة التخلّص منه وقتله. فلمّا شعر ابن تومرت بالخطر أسرع مغادرا مع عشرة من أصحابه نحو أغمات. ومنها خرج إلى مسفيوة ثمّ إلى هنتاتة، ولقيه بها الشيخ عمر بن يحيى الهنتاتي جدّ الحفصيين ملوك تونس، ومنها إلى موطن قبيلته هرغة، وذلك سنة 515هـ/ 1121م، وبنى رابطة للعبادة، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل وأخذ يعلّمهم «المرشدة» باللسان البربري، وشاع أمره، ثمّ داخل عامل لمتونة على السوس أبو محمد اللمتوني أناسا من هرغة في قتله، فنقله أتباعه إلى معقل حصين، ودعوا المصامدة إلى مبايعته عقب صلاة الجمعة يوم 15 رمضان من سنة 515هـ/ 1121م. ولمّا كان الغد هو يوم السبت، خرج ابن تومرت في أصحابه العشرة متقلّدين السّيوف وتقدّم إلى الجامع، فصعد المنبر وخطب في الناس وأعلمهم أنّه المهدي المنتظر ولقّبوه بالمهدي، وكان قبل البيعة يعرف بالإمام.

زحف عامل لمتونة بالسوس على هرغة، فكانت الهزيمة على المرابطين، وتردّدت عساكر لمتونة على الموحّدين مرّة بعد أخرى ففضّوهم. وانتقل ابن تومرت لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينمل فاستوطنه لمناعته، وبنى به مسجده، واتّخذه قاعدة لدعوته [أخبار المهدي، 31 ـ 32؛ نظم الجمان، 23؛ وفيات الأعيان، 5/ 50؛ تاريخ الدّولتين، 5 ـ 6؛ القرطاس، 176 ـ 17؛ العبر، 6/ 465 ـ 469؛ الكامل، 8/ 296؛ حلل جزولة، 167؛ الإعلام، 4/ 64 ـ 65].

ولم يزل ابن تومرت يبثّ دعوته بين المصامدة حتّى جهّز جيشا عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل، وافتتح بهم عددا من المناطق بجبل درن، ثمّ بعث بهم إلى حصار مرّاكش، فكانت الدائرة عليهم في البحيرة، واستأصلت هذه المعركة أغلب أصحابه وكادت تأتي عليهم جميعا، كما كانت سببا في وفاته [وفيات الأعيان، 5/ 50؛ القرطاس، 176 ـ 178؛ الإعلام، 4/ 67].

توفّي المهدي ابن تومرت يوم الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة 524هـ/ 20 غشت 1130م، عقب هزيمة الموحّدين في معركة البحيرة [أخبار المهدي، 43؛ نظم الجمان، 167؛ وفيات الأعيان، 5/ 53؛ المعجب، 262؛ رقم الحلل، 6؛ القرطاس، 180]، وانفرد ابن خلدون بالقول [رقم الحلل، 57؛ الإعلام، 4/ 60 ـ 72].

قال العبّاس بن إبراهيم إنّ ابن تومرت كان ورعا، ناسكا، ومتقشّفا، مخشوشنا، كثير الإطراق، بسّاما في وجوه الناس، مقبلا على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلاّ عصا وركوة [الإعلام، 4/ 59]. وذكر الحسن بن عبد الله ما يخالف ذلك في معرض حديثه عن الزهّاد الذين يبالغون في التعقّف والعبادة،

والبعد عن طعام الملوك، وأبوابهم وصلاتهم ومقصودهم بذلك أنّ تتبعهم العامّة، ومثّل على هؤلاء بالمهدي ابن تومرت الذي «دخل المغرب على زيّ الزهّاد بالمرقعة والعكّاز، وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان من أمره ما كان من سقوط دولة الملثّمين» [تاريخ الأوّل، 62 ـ 63].

رتّب ابن تومرت قومه ترتيبا غريبا، فمنهم أهل الدار وأهل الجماعة، وأهل الساقة، وأهل خمسين، وأهل سبعين، والطلبة والحفاظ وأهل القبائل. فأهل الدار للامتهان والخدمة، وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة، وأهل الساقة للمباهات، وأهل سبعين وخمسين والحفّاظ والطّلبة لحمل العلم والتلقّي، وسائر القبائل لمدافعة العدوّ [نظم الجمان، 82 ـ 87؛ القرطاس، 176 ـ 177؛ رقم الحلل، 79؛ الكامل، 8/ 298، الإعلام، 4/ 74].

وكان متيقّظا في أحواله، ضابطا لما ولي من سلطانه، ذا سياسة وناموس عظيم، غير متوقّف في سفك الدّماء، يهون عليه إتلاف عالم في بلوغ غرضه، وكان حصورا لا يأتي النساء. عمل مع البشير الونشريسي حيلة قتل بها كلّ من خالف أمره [الإعلام، 4/ 67 ـ 72]، كما عمل الحيلة على قومه بعد هزيمتهم في معركة البحيرة بأن جعلهم يعتقدون بأنّه يكلّم الموتى. ذلك أنّه انتخب بعضا من أتباعه المخلصين ودفنهم أحياء بموضع المعركة: «وقال لهم: إذا سُئِلتم عن حالكم، فقولوا: قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا، وأنّ ما دعا إليه الإمام المهدي هو الحقّ». ثمّ أتى بقومه حتّى سمعوهم فأهال عليهم التّراب حتّى لا يخرج خبرهم [وفيات الأعيان، 5/ 54؛ المعجب، 250؛ القرطاس، 182؛ شذرات الذّهب، 4/ 72؛ الإعلام، 4/ 72]. وهو أوّل من أحدث (أصبح ولله الحمد) في آذان الصبح [العبر، 6/ 341].

ولمّا كان المهدي صاحب دعوة سياسيّة ذات مضمون عقدي، حرص على تبليغ آرائه السّياسيّة بالخطب والمواعظ وإنشاء الرسائل وتأليف الكتب، مستفيدا في ذلك من ملكته الأدبيّة وفصاحته في اللّسان العربي والمغربي. وقد احتفظت كتب التاريخ والتراجم بالعديد من الرسائل السّياسيّة والخطب الوعظيّة التّي ألّفها لأتباعه من الموحّدين.

■ آثاره

1 ـ أعزّ ما يطلب، وهو مجموعة من الرسائل والتعاليق ألّفها المهدي في مواضيع مختلفة، وهو على ذلك مجموعة كتب وليس كتابا واحدا. أمّا عنوانه «أعزّ ما يطلب» فهو عنوان كتاب من الكتب التي يشمل عليها هذا المجموع، وهو أوّلها في الترتيب. قال ابن خلدون: «افتتحه بأعزّ ما يطلب، وصار هذا المفتتح لقبا على ذلك الكتاب» [العبر، 6/ 302]. وهو كتاب في الفقه والعقيدة رواه عنه خليفته عبد المؤمن. ويتبيّن من خلال فصوله ومباحثه أنّ عقيدة ابن تومرت تتمحور حول مسألتين رتيسيّتين في الكلام الإسلامي الوسيط، هما: مسألة التّوحيد ومسألة الإمامة [أعزّ ما يطلب، 230 ـ 231، 244 ـ 245، 264، 267، 272؛ معلمة المغرب، 8/ 2640 ـ 2641]. ولأجل ذلك قال

المختار السّوسي إنّه كتاب في الإمامة [خلال جزولة، 167]. وفيه من الكتب: المرشدة وهي رسالة في التوحيد صغيرة الحجم لا تتجاوز الصّفحتين، فيها عرض موجز لمسائل العقيدة خال من البراهين، ولعلّها أكثر مؤلّفات المهدي انتشارا في المغرب والمشرق لأنّها تعتبر خلاصة لفكره العقدي. والعقيدة وهي رسالة في مسائل العقيدة، مرتبة من التّوحيد إلى إثبات الرّسالة. ورسالة في توحيد الباري، وهي على غرار المرشدة. ورسالة في أنّ التّوحيد هو أساس الدّين. وكتاب في التوحيد باللسان البربري. وكتاب القواعد. ورسالة في العبادة. وأعزّ ما يطلب كتاب يشتمل على مسائل في العلم وشروطه وطرقه. ورسالة في الدّليل على أنّ الشّريعة لا تثبت بالعقل. ورسالة في المعلومات فيها بحث في الموجود والمعدوم وأحكامها. ورسالة في العلم. ورسالة في المحدّث. وكتاب الإمامة. ورسالة في الصلاة. وكتاب الطّهارة. وكتاب الغلول. وكتاب تحريم الخمر، وكتاب الجهاد، ورسالة في أصول الفقه. ورسالة في بيان طوائف المبطلين من الملثّمين والمجسّمين. ورسالة في غربة الإسلام والبشارة بانتصار الحقّ على الباطل. ورسالة في تسبيح الباري سبحانه [المهدي بن تومرت، 150 ـ 154، 156؛ تاريخ الأدب العربي، القسم 4/ 113 ـ 114]؛ 2 ـ محاذي الموطأ وتلخيص كتاب مسلم. شرح في الأوّل كتاب الموطأ للإمام مالك برواية يحيى المخزومي (ت 231هـ/ 845م) واقتصر على الراوي الأخير بعد حذف السّند، رواه عنه عبد المؤمن كذلك، والمعروف منه النّسخ الآتية: نسخة قديمة بالجزائر نشرها غولد زيهر، بالجزائر، سنة 1905 م، ونسخة بخزانة القرويين، رقم 40/ 181، ونسخة الخزانة العامّة بالرباط، رقم 1222 ج، وأخرى بنفس الخزانة، رقم 840 ج؛ 3 ـ تلخيص كتاب مسلم وهو مختصر لصحيح مسلم محذوفة منه الأسانيد، والمعروف منه نسخة فريدة بخزانة ابن يوسف بمرّاكش، رقم 403، تشتمل على 405 صفحة، تاريخ نسخها سنة 569هـ/ 1173م بسجلماسة [المهدي بن تومرت، 154 ـ 156]؛ 4 ـ رسائل وأقوال متفرّقة حفظتها لنا كتب التراجم [معلمة المغرب، 8/ 2639؛ المهدي بن تومرت، 145 ـ 149]؛ 5 ـ وله شعر أورده العبّاس بن إبراهيم [الإعلام، 4/ 72].

المصادر والمراجع

● البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحّدين، دار المنصور، الرباط 1971م؛ ● ليفي بروفنصال، رسائل موحّدية، الرباط 1941م، المطبعة الاقتصاديّة؛ ● ابن تومرت، أبو عبد الله محمّد، أعزّ ما يطلب، تح. عمار الطّالبي، الجزائر، 1985م؛ ● ابن خلكان (أبو العبّاس أحمد بن محمّد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ج 5، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، 1968 ـ 1972م، دار صادر؛ ● ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمّد بن أبي القاسم، المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس، تونس 1350م، مطبعة النّهضة؛ ● ابن عذاري، أبو العباس أحمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط 3، ج 4،

تح. ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنصال، بيروت، 1983 م، دار الثّقافة؛ ● ابن القطّان، أبو الحسن علي بن محمّد، نظم الجمان في أخبار الزّمان، تح. محمود علي مكّي، بيروت، 1990م، دار الغرب الإسلامي؛ ● المرّاكشي، عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح. محمد سعيد العريان، القاهرة 1963م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة؛ ● ابن قنفذ، أبو العبّاس أحمد بن حسين، الفارسيّة في مبادىء الدّولة الحفصيّة، تح. محمّد الشاذلي النّيفر وعبد المجيد التّركي، تونس 1968م، الدّار التّونسيّة للنشر؛ ● ابن أبي زرع، علي بن عبد اللّه، الأنيس بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرّباط، 1973 م، دار المنصور؛ ● ابن الخطيب، أبو عبد اللّه بن سعيد السّلماني لسان الدّين، رقم الحلل في نظم الدّول، تونس، 1329هـ، مطبعة التقدّم الإسلاميّة؛ ● ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، المقدّمة، و ج 6، ط 2، بيروت، 1988م، دار الفكر؛ ● ابن الأثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، ج 8، تح. عبد الوهّاب النجّار، القاهرة 1338هـ، مطبعة الإستقامة؛ ● مجهول، الحلل الموشيّة في ذكر الأخبار المرّاكشيّة، تح. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدّار البيضاء، 1979م، دار الرّشاد الحديثة؛ ● الزركشي، أبو عبد اللّه محمّد بن إبراهيم، تاريخ الدّولتين: الموحّديّة والحفصيّة، تح. محمّد ماضور، تونس 1966م، المطبعة العتيقة؛ ● القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 5، القاهرة 1963م؛ ● النويري، أحمد بن عبد الوهّاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح. مصطفى أبو ضيف أحمد، الدّار البيضاء 1985م، دار النشر المغربيّة؛ ● الحسن بن عبد اللّه، تاريخ الأوّل وترتيب الدّول، منشور بهامش تاريخ الخلفاء للسيوطي، القاهرة 1305م، المطبعة الميمنيّة؛ ● ابن العماد، عبد الحي بن أحمد، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، ج 4، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع؛ ● ابن غلبون، أبو عبد اللّه محمّد بن خليل، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تح. محمّد أحمد الزاوي، طرابلس 1976 م، مكتبة النور؛ ● الزبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد، إتحاف السّادة المتّقين شرح أسرار إحياء علوم الدّين، ج 1 (طبعة خالية من أيّ بيان)؛ ● اليوسي، أبو علي الحسن بن مسعود، المحاضرات، تح. محمّد حجّي، الرباط 1976م، دار المغرب للتأليف والترجمة والنّشر؛ ● المختار السّوسي، خلال جزولة، الجزء 4، تطوان 1377 هـ، المطبعة المهديّة؛ ● ابن إبراهيم: العبّاس، الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الجزء 4، ط. الثانية، الرباط 1988م، المطبعة الملكيّة؛

● مادّة ابن تومرت، معلمة المغرب، الجزء 8، 1995 م، مطابع سلا؛
● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 6/ 228 ـ 229.
● Goldziher, le livre de Mohamed Ibn Toumarte, Alger 1930.
● Encyclopédie de l'Islam, NIIe. Ed., T.III, Ibn Toumarte.

د. حسين حافظي علوي
كلية الآداب ـ مرّاكش
د. محمد عيسى موسى
مجمع اللغة العربية ـ الجزائر

التونسي، الجنرال حسين

(1237هـ/1822م ـ 1304هـ/1887م)

ولد حسين في بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر. وهو شركسي الأصل، جيء به إلى تونس غلاما صغيرا في دولة مصطفى باي إذ تمّ ابتياعه من أسواق الآستانة وهو لا يزال صبيا، فلا يعرف له نسب دقيق شأنه شأن أمثاله من المماليك، ولذلك نسب إلى تونس فقيل له التونسي.

وقعت تنشئته في بلاط حسين باي الثاني تنشئة عسكرية وسياسية على ما جرت به العادة في إعداد النخبة.

وبعد أن لُقّن مبادئ علوم الدين واللّغة انتقل إلى مدرسة المهندسين بباردو لمّا أسّسها أحمد باي فتلقّى فيها تكوينا في العربية والدّين الإسلامي على يد الشيخ محمود قبادو الذي توطّدت صلته به فيما بعد. كما تعلّم اللسان الفرنسي المعتمد في التّدريس والمعارف العسكرية إلى جانب الحساب والجغرافيا وجميع ما يتّصل بتكوينه وتأهيله لتولّي الوظائف الحربية والإدارية، فكان متميزا بين أقرانه.

والتحق بعد تخرّجه بالجيش التونسي وشغل عدّة رتب عسكرية حتّى صار أميرلاي في عهد أحمد باي (ت 1855م)، ثمّ ارتقى إلى رتبة أمير لواء في عهد محمّد باي (1855م ـ 1859م).

ترأس الجنرال حسين المجلس البلدي لمدينة تونس المؤسّس بسعي منه في محرّم 1275هـ/1858م وهو مؤلّف من عشرة أعضاء حتّى صار يعرف بمجلس العشرة. وقد أُسندت إلى هذا المجلس عدّة وظائف منها العناية بالتّنظيف وإجراء تراتيب تخصّ الأسواق والحرف على أسس العدل والنظام والتوفيق بين مصالح التونسيين القاطنين داخل أسوار المدينة العتيقة وبين مطالب الجاليات الأجنبية الوافدة من جزر البحر المتوسط والتي تعيش على هامش المدينة وتثير في سلوكاتها الغريبة مخاوف أبناء البلاد.

ويذكر أنّ المجلس البلدي بتوجيه من حسين قد أذن إلى عُمَد الحارات بإجراء مسح إحصائي تمّ ضبطه في جدول يبيّن بدقّة المكونات الوظيفية للمدينة من المنازل والمحلات التجارية والحرفية ومرافق الخدمات مثل الحمّامات والفنادق والمدارس والجوامع وغيرها. فهذا الإحصاء الأوّل من نوعه في تونس ينمّ عن فكر منظوّر يؤسّس العمل المدني والسياسي على المعرفة الموضوعية ويدلّل في ذات الوقت على تبلور اتجاه نحو الإصلاح والتقدّم الذي عرفته تونس في بداية المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر وكان حسين أبرز من يمثّله.

ولبعث نهضة ثقافية وعلمية كان لا بدّ من الطباعة الحديثة لنشر المعرفة على نطاق واسع، ولهذا الغرض سافر حسين إلى باريس لاقتناء مطبعة بالأحرف الحديدية التي مكّنت البلاد من إصدار أوّل جريدة لها وهي «الرائد التونسي» عام 1277هـ/ 1860م برئاسته؛ وقد كانت عاملا فعّالا في إحياء التّراث بتحقيقه ونشره، وفي تأسيس حداثة نامية بتونس.

كما كان حسين عضوا في لجنة صياغة دستور 1861م الذي هو تفصيل لما جاء مجملا في وثيقة عهد الأمان التي هي ترجمة تونسية للتنظيمات الخيرية العثمانية. وتولّى حسين رئاسة المحكمتين الجنائية والمدنية، وكانت له بالمجلس الأعلى (البرلمان) مواقف مشهورة لصراحته في قول الحقّ والذبّ عنه بمساندته الدائمة للمصلحة العامّة حتى أنّه فيما أورد المؤرخ ابن أبي الضياف، عارض مسعى دولة الصادق باي في مضاعفة ضربة المجبى محتجّا بما آل إليه السكّان من بؤس، فقد غدا التونسيون الخاضعون للابتزاز الضريبي، على حدّ قوله، بقرة استنزفوا ضرعها حلبا حتّى نزّ دما.

وإثر فشل ثورة الفلاحين بزعامة علي بن غذاهم سنة 1864 وتفرُّد الوزير مصطفى خزندار وبطانته بزمام الأمور، عُزل حسين عن منصبه وأُبعد عن البلاد في خريف 1865، فخرج من البلاد وزار أقطارا عربية وأجنبية عديدة، ولم يتولّ منصبا حكوميا إلاّ بعد أُفول نجم خزندار وتولّي خير الدين الوزارة الأولى عام 1873، فهبّ لمساعدته وعيّن في منصب وزير التعليم والنافعة، إذ اهتمّ بالتعليم والأشغال العامّة وأشرف من موقعه ذلك على بعض الإصلاحات التي عرفها التّعليم الزيتوني، وبعث تعليم حديث تجسّم في تأسيس المدرسة الصادقية (1875)، وكان يصدر في أعماله التربوية عن رؤيا نقدية لما هو سائد يومئذ.

أفنى الجنرال حسين سنوات من عمره بالبلاد الأروبية مدافعا عن الحقوق التونسية التي عبث بها بعض المفسدين الذين احتالوا واختلسوا أموال الدولة وفرّوا إلى الخارج تحميهم الامتيازات القنصلية والجنسية الأجنية المكتسبة. من ذلك أنّه قضى أكثر من أربع سنوات صحبة خير الدين لمتابعة محمود بن عيّاد قابض الخزينة التونسية الذي فرّ في الخمسينات (من القرن 19) بمحتواها إلى فرنسا. كما كُلّف بمتابعة اليهودي نسيم شمامة الذي تولّى قباضة خزينة الدولة ثمّ فرّ بها هو الآخر إلى إيطاليا حيث منح الجنسية الايطالية وأنكر على التونسيين حقوقهم، فقضّى حسين رفقة صديقه العالم المصلح سالم بوحاجب

سنوات عديدة لمتابعة القضية دفاعا عن الحقوق التونسية. وكانت هذه الإقامات المتتالية الطويلة نسبيا فرصة اغتنمها حسين في التّعرف عن كثب على الحضارة الأوروبية والتملّي في الجوانب المضيئة فيها لأخذها وتطبيقها في المجتمعات الإسلامية. وبحكم هذه الأسفار الكثيرة ارتبط حسين بعلاقات وصداقات مع العديد من رجال النهضة مثل الطهطاوي والشدياق والأفغاني وعبده وإبراهيم المويلحي وغيرهم، وكانت له مشاركة في الحياة الثقافية والعثمانية عامّة. فنراه ينظّم المسابقات الأدبية على صفحات الجرائد العربية مثل «الجوائب» ويمنح الجوائز للفائزين من أيّ قطر. كما تدفعه الغيرة على القوى التحررية ضدّ الفساد والنفوذ الأجنبي المتنامي بالبلاد العربية إلى الوقوف مع المظلومين والثائرين مثل إيفاده محاميا إنجليزيا للدفاع عن أحمد عرابي لما قدّم إلى المحاكمة على إثر فشل ثورته، رغم ما كان يمرّ به حسين من ضيق ذات اليد، وقد جرّد من كافة وظائفه بإيعاز من الفرنسيين الذين لم يهادنهم بل حاول أن يتصدّى لهم. ونسجّل كذلك مساعدته المعتبرة للعروة الوثقى بالدعم المادّي والسياسي فقد كان جلّ تمويلها منه أو عن طريقه.

وكان حسين عدا أعماله وإنجازاته الاجتماعية والثقافية، مصلحا حقيقيا تحدوه رغبة في النهوض بتونس وبالعالم الإسلامي قاطبة.

استند في تكوينه الثقافي على تأصيل في التراث شغف به منذ فترة الطّلب لمدرسة المهندسين بباردو على يد أستاذه الشيخ محمود قبادو الذي نفث في دروسه وأشعاره روحا إصلاحية جريئة، ثمّ تعزز بمطالعاته وملازمته لرفيقه الشيخ المصلح سالم بوحاجب الذي كان ذا باع طويل في المعارف الشرعية واللغوية، وأستاذا لأكثر من جيل. كما تميّز حسين من بين كافة المصلحين التونسيين، بل وأكثر المصلحين العرب، بمعرفة عميقة للتيارات الفكرية والإيديولوجية المعاصرة له في أوروبا، فنراه ينزع منزعا قريبا من الفكر الاجتماعي ذي الصبغة الاشتراكية الرائج بفرنسا في عهد الإمبراطورية الثانية، إذ هو يشي في عديد آرائه بإحالات مرجعية قريبة من أفكار سان سيمون وأتباعه الذين كانوا نشيطين اقتصاديا وعلميا في أكثر من قطر بما في ذلك مصر والجزائر وتونس.

ونستشفّ آراءه في التربية من خلال إنجازاته العلمية وبعض كتاباته المتصلة بقضايا التعليم مثل التقرير الذي صاغه على إثر زيارة إلى جامع الزيتونة في 1289هـ/ 1872م فضمّنه انتقادات صريحة لما عليه الوضع التربوي وشخّص ما عليه من نواقص وعيوب. من ذلك خلوّ البرامج المقرّرة من بعض العلوم بما في ذلك العلوم الدينية مثل التفسير، وهيمنة الدروس اللغوية وخاصة علم النحو المفروض فيه أنّه مجرّد وسيلة لصيانة اللّسان عن الخطأ وليس هدفا في ذاته، فيذكر: «إنّ الفنون صارت عندنا مقصودة بالذات، فالنّحو مثلا الذي اشتهر تشبيهه بالملح في الطعام يوجد منه بالجامع الأعظم ما يزيد على النصف باعتبار دروس المتطوّعين، فما نحن والحالة هذه إلاّ كمن يأكل الملح بالطعام لا الطعام بالملح». وينتقد حسين الكتب المقرّرة لاختلاف اصطلاحاتها وكثرة ما تورده من

اختلافات، بالإضافة إلى كون اختصارات المتون مخلّة بالتّعليم. وهو يرى أنّ طرق التدريس ومناهجه لم تتغيّر منذ قرون لأنّ ما أورده ابن خلدون في مقدّمته من نقدات لا يزال وجيها وهذا يعني سوء تقدير لأهمية الزمن ومدّة التعليم.

ومن المواقف التقدمية التي شاعت عنه دفاعه الحادّ فعلا وقولا عن إلغاء نظام الرقّ من البلاد الإسلامية من وجهة نظر أخلاقية واقتصادية. ففي رسالة طويلة أجاب حسين عن أسئلة قنصل الولايات المتحدة الأمريكية الموجّهة إليه، أبدى فيها ميلا واضحا إلى النظام العملي المأجور الأكثر جدوى اقتصادية من النظام العبودي الذي تستسيغه الفئات الأرستقراطية المستنكفة عن العمل. ويرى أنّ تمدّن الأقوام وقوّتهم لا يمكن النظر إليهما في مصروفهم أو حصونهم أو مدافعهم أو مراكبهم أو عساكرهم أو زخارفهم، فإنّ تلك المظاهر قد تضلّل الناظر فيها، وإنّما ينبغي أن ينظر إلى علامتين كبيرتين منزّهتين عن الغش: أولاهما التعليم العمومي بما في ذلك تعليم الصناعات والفنون. وثانيتهما المعاملات الاقتصادية. «فإذا شئت أن أخبرك بحالك فأطلعني على كم عندك في المائة ممّن لا يحسنون القراءة ولا الكتابة ولا الحساب. ثم أخبرني بعد ذلك ما الوارد منك إلى غيرك وما محصول بلادك». وهكذا لا يلتجئ حسين في تفسير سرّ التقدم إلى مقاييس دينية أو عرقية أو أخلاقية، بل يعتمد معايير موضوعية مثل نسبة المتعلّمين وتطوّر الحياة الاقتصادية في مجالي الإنتاج والتبادل. وكان على ما تذكر بعض المصادر القريبة منه، جمهوريا خالصا ينبذ توارث الملك وحصره في العائلة الحاكمة، كما دأب عليه المسلمون بعد صدر الإسلام. لكن توجّهه هذا لم يحل دون تعلّقه بالدولة العثمانية ودعوته إلى تمتين الأواصر معها.

آثاره

على الرغم من متانة ثقافة حسين لم يترك لنا آثارا مكتوبة في مستوى «أقوم المسالك» لأنّ الشواغل العلمية وكثرة التنقّل حالت بينه وبين الكتابة والتأليف، بل لقد غلبت على تحاريره صبغة المساجلة والمجادلة مع أطراف مختلفة وعديدة، إذ نجده تارة يجادل في أمور العقيدة فيدخل في مناظرة مع بعض القساوسة دفاعا عن الإسلام، ونجده في طور آخر يخوض في مسائل الجنسية والقانون المدني ضد ما عرف بسياسة الامتيازات القنصلية والاحتماء بالأجانب فيؤلف في ذلك التآليف. هذا بالإضافة إلى المقالات والرسائل الغزيرة الموجّهة إلى رجال النخبة العربية وفي مقدّمتهم صديقه خير الدين التونسي. ونكتفي بذكر الكتابات ذات القيمة الفكرية والإيديولوجية:

1 ـ ردّ على سؤال وجّهه ابن أبي الضياف حول تمثيل اليهود بالمجلس الأكبر، نشر النص العربي للسؤال والجواب في المجلة التونسية Revue Tunisienne، 1940؛ 2 ـ رسالة في عتق العبيد كتبها عام 1863 جوابا عن سؤال وجّهه القنصل الأمريكي بتونس ونشرته «الجوائب» في عام 1877 وأعيد نشره في «كنز الرغائب»، ج. 6؛ 3 ـ تقرير عن الوضع التعليمي بجامع الزيتونة عام 1871 نشرته الرائد؛ 4 ـ حسم الألداد في نازلة ابن عياد وهو تعريب عن الفرنسية

بتصرّف، ط. الرسمية، تونس 1878؛ 5 ـ مكاتيب من حسين غالبها إلى خير الدين وبعضها لغيره جمعها وأعدّها أحمد عبد السلام وحسين الحداد وبها 307 وثيقة تغطي ما بين سنتي 1856 و1887/ ط. تونس 1991؛ 6 ـ كتاب بالفرنسية موجّه إلى محمود بن عيّاد الذي رغب في الاستحواذ على تركة نسيم شمامة المهرّبة من تونس وعنوانه: Au Général Mahmud Ben Aiad : Livourne. Imprimerie F. Vico 1875؛ هذا عدا تحاريره الصحفية التي نشر بعضها غفلا من التوقيع وبعضها باسمه مثل النقل الصحفي الطويل الذي غطى به رحلة الصادق باي إلى الجزائر (1861) لملاقاة نابليون وقد رافقه حسين بصفته مترجما ووزيرًا للخارجية، وغيره من المقالات.

المصادر والمراجع

● الطويلي، أحمد، الجنرال حسين، حياته وآثاره، (د.م. ن) تونس 1994؛ ● عبد السلام أحمد والحداد حسين، رسائل حسين إلى خير الدين، 2ج.، المجمع التونسي للعلوم (بيت الحكمة) تونس 1991؛ ● عمايرية، حفناوي، الصحافة وتجديد الثقافة، تونس في القرن التاسع عشر، المعهد الوطني للتراث، الدار التونسية للنشر، تونس 1994؛ ● خوري، رئيف، الفكر العربي الحديث وأثر الثورة الفرنسية في توجّهاته الاجتماعية والسياسية، دار المكشوف، بيروت 1943؛ ● مجهول، الجنرال حسين، مجلة خير الدين، عدد4، تونس 1906؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، تراجم الأعلام، الدار التونسية للنشر، تونس 1970؛ ● المطوي، محمد الهادي، أحمد فارس الشدياق، حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة، قسمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1989؛ ● باكير، محمود، الجنرال حسين، في النشرة العلمية، كلية الشريعة وأصول الدين، عدد4 سنة 1396هـ/ 1976م ـ 1397هـ/ 1977م.

د. حفناوي عمايرية

جامعة تونس

التونسي، الحاج أحمد

(كان حيًا سنة 967هـ/1559م)

قليلة هي المعلومات التي نعرفها عن هذا الجغرافي الخرائطي التونسي الأصل، المغربي النشأة، صاحب خريطة العالم التي أنجزها سنة 967هـ/ 59 ـ 1560م، وربّما صار لأثره الخرائطي شهرة أكثر ممّا هو معروف عنه شخصيا، بل إن

معرفتنا بالمترجم له قد تأتّت عبر ما خلّفه هو نفسه من معلومات جاءت بإحدى طرّات خريطة العالم المنجزة، فقد قدم التونسي بأسفل العامود الأيسر ضمن هذه الخريطة بعض المعطيات بشأن حياته: فأفادنا بأنه أصيل تونس وعاش بمدينة فاس المغربية حيث قرأ منذ صغره على يد شيوخ بمسجد مدينتها، ونفترض أن يكون المسجد المشار إليه هو مسجد القرويين باعتباره قبلة طلبة العلم من كلّ الأصقاع، فضلاً عن كونه نقطة إشعاع حضاريّ ودينيّ وملتقى مسالك المعارف بين المغرب وأوروبا وجنوب الصحراء. ولعل ذلك ما حفّز المترجم له على التفرّغ للعلم والمثابرة في تحصيله طيلة سنوات، بل وتكريس حياته للأمر مثلما أشار إلى ذلك في نصّه. وانصبّ اهتمامه خاصّة على التآليف المختصّة بالعلوم الجغرافية والرياضيّة والفلكيّة كما واكب مستجدات الحملات الاستكشافية وما ترتّب عليها من إثبات كرويّة الأرض من جهة والتعرّف على التفاصيل الخاصّة بالقارّة الجديدة من جهة ثانية.

وأفادنا الحاج أحمد التونسي كذلك بأمر أسره من قبل القراصنة الافرنج، ثمّ بيعه إلى أحد أفاضل أمراء البندقية الذي عامله معاملة حسنة لمكانته العلميّة وزاده المعرفيّ، فضلاً عن نبل أخلاق سيّده وانتسابه هو الآخر إلى عالم العلم والتحصيل. ممّا سَمَحَ له بداية بمواصلة تعلّمه واطلاعه على التآليف الأوروبية المرتبطة بميدان اختصاصه. ثم كذلك بقيامه بكلّ طقوسه الدينية. ومثل هذا التسامح يعدّ استثنائيًا خلال تلك الفترة. وقد ذهب بعض الباحثين إلى افتراض أن يكون هذا السيّد ميشال منبري (Michel le Membri) الرحّالة العارف باللغتين العربية والعثمانية ومترجم مدينة البندقية الرسمي في اللغة العثمانية فيما بين 1550 ـ 1589م، إذ كشف المذكور في تأليفه الخاصّ برحلته إلى بلاد فارس (طبع 1542م) أنّه كان مصحوبا أثناء رحلته تلك بأحد العبيد التونسيين، فقد يكون هذا العبد هو الحاج أحمد التونسي المعنيّ بهذه الترجمة سيّما أنّ للرجلين أكثر من صلة بأمر خريطة العالم المنجزة من قبل التونسيّ باعتبار أنه كان مترجمها إلى التركية.

ويخطىء أولئك الذين ذهبوا إلى أنّ الحاج أحمد التونسي قد أنجز خريطته ببعض البلاد الإسلامية إثر عتقه من الأسر!! ومثل هذه التخمينات غير سليمة بدليل أنّ التونسي يذكر أنّه أنجز عمله بطلب من سيّده من ناحية، وأنّه يأمل من ناحية أخرى أن يتمّ خلاصه من بلاد الافرنج تبعا لذلك؛ «فيعود إلى بلاد الإسلام سليما عزيزا مكرّما» وهو ما يفيد بداهة بأنه مازال عند إنجازه خريطة العالم عبدًا وبالبندقية بالذات. وربّما فكّر التونسي، بإيراده هذه المعلومات بطرّة الخريطة، أن أحد أعيان الدولة العثمانية قد يتمزّى باشترائه من سيّده فيعتقه بفعل ما قدّمه من خدمة للعلم وللأمّة الإسلامية.

آثاره

عرف الحاج أحمد التونسيّ بوضعه خريطة للعالم باللغة التركيّة وهي الخريطة التي كانت منقوشة على 6 ألواح من خشب التفّاح تُعطي عند تجميعها الأبعاد التالية 115م طول × 121 عرض × 5,2 سمك. وقد ضمّت 4 منها خريطة العالم ذاتها على حين اشتملت

اللوحتان المتبقّيتان نصوصا وزخارف ومفاتيح وملحقات.

أمّا الخريطة فتحمل عنوان «صورة جميع العالم ووصفه كاملا بدقة» إذ اشتملت على القارات التقليدية الثلاث إضافة إلى القارّة الأمريكية لا سيّما الإسبانية منها (1518م). وجاءت جميعها في هيئة قلب ضمن شكل شبه كرويّ مُسَطَّح، استعمل فيها صاحبها المساقط مع اعتماد خطّ الزوال الأساسي ذاك الذي يمرّ بجزر الكناري. والأكيد أنّ التونسي كان متأثرًا في هذا المجال بما تعلّمه واطّلع عليه زمن أسره بالبندقية (وهي أهمّ محطّة رسم الخرائط آنذاك بأوروبا) وبما شاع من استعمالات بالقارّة إلى حدود أواسط القرن 16. بل أقرّ البعض الآخر من الباحثين بأنّ التونسي قد حسّن ما جاء به جون وِرْنَار (Jean Werner) (نـورمـبـورغ 1514م) بخصوص خطّ الاستواء والمتوازيات، وما انفرد به إلى ذلك الوقت الجغرافي الفرنسي أورنس فين (Oronce Fine) (1534 ـ 1536م) بخصوص اعتماد رسم الخرائط في هيئة قلب إضافة إلى ذلك. فقد جاءت الخريطة غير مجزّأة بل اشتملت على جزئي الكرة الأرضية ملتصقين بعضه بالبعض الآخر. كما أبانت بدقّة غير معهودة عن تفاصيل سواحل أمريكا الغربية والشمالية خاصّة. وأفادت بأسماء عديد المدن المستحدثة على الساحل الجنوب الغربي لذات القارّة. وهو ما لم يكن متوفّرا بالخرائط الأوروبية، المعاصرة لخريطة التونسي. كما دقّق التونسي ضمن خريطته خطوط المناخات، ومواقع المدن والمناطق وأسماءها وسجّل المسافات الفاصلة بينها... إلخ. وهو ما حَدَا ببعض الباحثين الأوروبيين المختصّين إلى الإقرار بأنّ خريطة التونسي «فريدة من نوعها».

كما حُسِبَ لهذه الخريطة أيضًا ملاحقها المكتوبة في الطرّة: وقدّم التونسي في جهتها اليمنى معلومات حول الكرة الأرضية والقارّات الأربع وبلدانها معدّدا حدود كلّ بلد وأهمّ مدنه وأنهاره وبحاره ومنتوجه. واشتملت الطرة اليسرى على معلومات بخصوص حكومات بعض البلدان وتاريخها وسلاطينها ختما بالتعريف بشخصه ومختلف الأتعاب التي تجشّمها لإنجاز هذا العمل وعلى هامش هذه النصوص وضمنها أيضًا أوجد قرابة 20 مفتاحا للخريطة همّت الاتجاهات، وبعض المعطيات عن الطرق التجاريّة العالميّة (ماجلاّن، الموزمبيق) بما يشي بتوفّر زاد معرفيّ هائل واطلاع على ما استحدث من معلومات وإفادات.

ويقرّ صاحب الترجمة بالأتعاب التي لقيها لإتمام عمله لا سيّما اطلاعه على كمّ هائل من المصادر الجغرافية وتعرّفه على كتب الرياضيّات والفلك، وعلى التآليف والكتب والخرائط الأوروبية الحديثة، فضلاً عن اعتماده رئيسيًا على ما كتبه المؤرّخ والجغرافي الأمير إسماعيل أبو الفدا (1273 ـ 1331م) صاحب حماة، وخاصة على تأليفه تقويم البلدان. على أنّ أكبر مزايا خريطة العالم التونسي أنّها كانت ابنة عصرها، واكبت مستجداته، ورافقت تطوّراته، وأبانت عن آخر مكتشفاته على تواضع صاحبها راجيا ممّن عثر على خطإ تصويبه.

غير أنّ بعض الباحثين المحدثين أبانوا عن بعض نقائص خريطة العالم للتونسي وهي التي كُتِبَتْ باللغة العثمانية، لغة العصر آنذاك، وواضعها لا يحسن على ما يبدو تلك اللغة إذ كان من أصل تونسيّ، وترعرع بالمغرب، واستقرّ أخيرا بالبندقية؛ فكثرت بها تبعا لذلك الأخطاء النحوية والصرفية والرسميّة وحتّى المعرفية كما جاءت أسماء المدن مطبوعة بلغة مصادرها الإيطالية أو الإنقليزية أو الإسبانية عدا اسم مدينة البندقية المشهورة عربيّا بهذا الاسم (دور تجاري) بل إنّ التونسي قد سمّي بلاده المغرب، مارقو Marocco حينا، ومرق Maroc حينا آخر كما هي معروفة ببلاد الإفرنج، وسمّاها طورا ثالثا مراكش بمتن الخريطة. وقد التبس الأمر على قلّة من الباحثين صار معها بعضهم يشكك في وجود شخص التونسي فعليّا مفترضا أنّ هذا «الاسم المستعار» ليس سوى غطاء لشخصيات ايطالية كانت لها مصالح تجارية هامّة لإنجاز هذه الخريطة بلغة عثمانية بغاية ترويج بضاعتها تلك في العالم الاسلامي لا غير.

ومهما كانت الأوضاع، وأيّا كانت الافتراضات الجانبية التي لا تركن سوى لتخمينات، فإن وجود بعض الأخطاء في متن النصّ... لا يبيح التشكيك في نسبة الخريطة إلى صاحبها الجغرافي الحاج أحمد التونسي جملة وتفصيلا. إذ يجب في تقديرنا تقسيم الأدوار في عمليّة إنجاز هذه الخريطة المعتبرة إلى 3 مراحل:

المرحلة الأولى: تتمثّل في تجميع مادة الخريطة ثمّ تأليفها ووضعها فإنجاز مفاتيحها وكتابة النصوص المصاحبة لها. وتلك هي مهمّة الحاج أحمد التونسي التي قام بها بسلام فيما بين سنتي 967 ـ 976هـ/ 58 ـ 1560م، وقد حاول فيها التونسي أن يخرج العمل في أحسن صورة خدمة لإخوانه المسلمين كما يقول، وتلبية لرغبة سيّده الذي أرادها أن تكون باللغة التركية. فتسرّبت بعض الأخطاء كما تسرّبت بعض الألفاظ العربية إلى النصّ العثماني مثل «كما»، «لأنه»، «كذلك»، «ليس»، «مشار إليه»، بما يؤكد أنّ النصّ كان عربيّا في الأصل ثم «عُثْمِنَ».

المرحلة الثانية: وتهمّ هذه المرحلة عملية نقش الخريطة التي تمّ تأليفها على ألواح خشب التفّاح تهيئة لطبعها بأعداد كبيرة. ولم تكن هذه المرحلة ذاتها خالية من المخاطر. فالبندقية وغيرها من دول أوروبا كانت في صراع مفتوح مع العثمانيين والعالم الإسلامي، فكانت عمليّات النقش تتمّ في سرّية تامّة خوفا من تعقّب الصنّاع وهو ما يكون مدخلا لتسجيل بعض الأخطاء والنقائص الإضافية الأخرى. كما أسعفتنا وثائق مجلس الشيوخ بمدينة البندقية ذاتها بأدلّة وبراهين عن تعقّب عملة النقاشة وغيرهم من الراغبين في طباعة هذه الخريطة ـ خريطة العالم بالأحرف العربية ـ التي أعدّها التونسي، بل ومحاكمته إثر تقديم شهادات الإدانة ضدّهم قبل سنة 1568م تاريخ محرقة الكتب باللغة العبريّة وغيرها من التآليف «المعادية للمسيحيّة». ويبدو أنّ خريطة الحاج أحمد التونسي قد تجاوزت هذه المرحلة بصعوبة كبرى رغم اتّخاذ كلّ الحيطة والحذر في الشأن.

بقيت المرحلة الأخيرة الثالثة الخاصّة

بالطباعة، وهي مرحلة ذات أبعاد سياسية دينيّة وتجاريّة خطيرة، ذلك أنّ الحاجة إلى مثل هذا النوع من الخرائط قد تعاظمت بالدولة العثمانية إذ شهدت هذه الدولة مع السلطان سليمان القانوني (حكم 1520 ـ 1566م) أوج عظمتها وبداية أعظم توسّعاتها سيّما منذ منتصف القرن 16، إذ اتّجهت هذه التوسّعات أكثر فأكثر نحو أوروبا الوسطى والحوض الغربي للمتوسّط، فتجدّدت طلبات القادة العثمانيين (السياسيين منهم خاصّة والعسكريين) إلى البنادقة ومجلسهم تحديدا منذ سنوات 52 ـ 1553م بغاية بيعهم خرائط العالم وهي طلبات ملحّة تغاضى عنها أصحاب القرار بمجلس الشيوخ لاعتبارات سياسيّة واضحة ترتبط بالتخوّف إزاء التوسّع المتزايد للعثمانيين في اتجاه البلاد اليونانية وجزرها. أمّا من الناحية التجارية، فإنّ هذا الحظر لم يكن ليروق لبعض الناشرين من أمثال مارْكْ انطونيو غِسْتِنْياني (Marc Antonio Gustiniani) صاحب امتياز نشر خريطة التونسي إثر نقشها على الألواح. فقد استرحم هذا الناشر مرات المجلس ليُؤذَنَ له في استرجاع ألواحه بعد منعه من الطباعة ومحاكمته سنة 1568م. فوافق المجلس شريطة أن لا يطبع الخريطة دون ترخيص من المجلس. ومثلما نلاحظ صارت خريطة التونسي في قلب صراع سياسي وتجاريّ مفتوح حوكم إثره غستنياني مرّة أخرى سنة 1570 بتهمة امتلاكه خرائط «شيطانية» إذ هي كتبت باللغة العثمانية، سيّما أنّ صاحبها كان يعرض الواحدة للبيع بثمن لا يقل عن 100 دوكا (ما يوازي ثمن كراء قصر فاخر بالبندقية طيلة سنة كاملة) وقد آلت المحاكمة فيما آلت إليه إلى حجز ألواح الخريطة بصورة نهائية وحفظها بصندوق بإحدى حجرات مجلس العشرة بالبندقية، وبقيت الألواح هناك طيلة أكثر من قرنين، إلى أن كتبَ بشأنها القسّ الماروني سيمون السمعاني (Abbé Simone Assemani) أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بادو مذكّرة سنة 1795م إثر طباعة 24 نسخة من هذه الخريطة على سبيل الاطلاع على محتواها والتعرّف عليها. ومنذ ذاك الوقت رُفِعَتْ الألواح لتُحْفَظَ نهائيّا إلى اليوم بمكتبة القديس مرقص بالبندقية، إذ يتخوّف المختصون من إتلاف الأثر الجغرافي والألواح نهائيا إن هم جازفوا بطباعة الخريطة مجدّدا، على حين كُرِّمَ القسُّ بميدالية ضربت للغرض. وعلى أيّ حال ينتشر عدد لا يستهان به من نسخ هذه الخريطة بمتاحف ومكتبات أوروبا إلى اليوم.

■ المصادر والمراجع

● كراتشوفسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ط.م. بيروت 1987، 499 ـ 500؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، 1/ 265.

- Adivar (Adnan), la licence chez les Turcs Ottomans, Paris, 1930, p. 70-72.
- Assemani (Simone), Dichiaratione d'una mappa turchesca incisa in quatro Tavole ritrovate mell'archivio dell'Eccelso consiglio de'Dieci.

Venizia 1795.

- Bellingeri-G Vercellin, «Del mappamondo turco a forma di Cuore» in Venezia ei Turchi. Milano 1985, pp. 154-159.
- d'Avezac (M) «Note sur une mappemonde Turke du 16 Siècle conservée à la Bibliothèque de Saint-Marc à Venise» in Bull. de la Société de géographie, Paris 1966, pp. 675-757.
- Fabris (Antonio), «Note sul mappamondo cordiforme di Hagi Ahmed di Tunisie» in Quaderni di studi Arabi, nº 7, 1989, p. 3-17.
- Gasparini-Sitran (L): «Haggi Ahmed, perfetta e completa incisione e descrizione di tutto il monde» in biblioteca Maruana Venizia, Firenze 1988, pp 224-227.
- Ménage (V.L) «The Map of Hajji Ahmed and its nakers» in Bulletin of the School of oriental and African Studies, University of London, Volume 21, 1958, part 2, pp 291-314.

د. الكراي القسنطيني
جامعة تونس

التونسي، خير الدين

(1238هـ/1822م - 1308هـ/1890م)

خير الدين التونسي(1822 - 1890) رجل دولة تونسي وعثماني: ولد ببلاد الشركس بالجنوب الشرقي من جبال القوقاز من قبيلة أباظة، وفقد أباه في إحدى الوقائع العثمانية ضدّ روسيا. وتولّى تحسين بك، نقيب الأشراف وقاضي عسكر الأناضول، تنشئة خير الدين ببلاطه بالآستانة ثم اشتراه بسوق الرقيق سنة 1839 أحد رجال الباي التونسي أحمد باي، كمملوك وسنّ خير الدين آنذاك 17 سنة، وأرسله إلى تونس حيث تربّى بقصر أحمد باي وبرعاية وزيره الأكبر مصطفى خزنة دار. وقد تلقى دروسا خاصة في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وانخرط بالجيش التونسي فأظهر قدرات عالية ومواهب جيدة، فترقى بسرعة في السلّم الوظيفي. وقد تعرّف في عام 1269هـ/ 1840م على ضباط ومستشارين فرنسيين في "مدرسة باردو الحربية" الذين قدموا إلى تونس بهدف إنشاء جيش تونسي حديث. واجتهد في تعلّم اللغة الفرنسية والنظم الجديدة، وتلقّى الأفكار الإصلاحية الأولى عن المصلحين التونسيين مثل محمود قبادو وإبراهيم الرياحي. وأصبح في عام 1846 في رتبة أميرآلاي، وفي عام 1850 أصبح أمير لواء وقائد عساكر الخيالة.

وقد بدأت علاقته المباشرة بأوروبا أثناء مرافقته لأحمد باشا في زيارته إلى باريس في عام 1846، وقد أخذ الملتزم بجمع الضرائب محمود بن عياد قسما كبيرا من الضرائب التي جمعت بين 1853 و 1857، وفرّ بها إلى فرنسا ففتحت ضدّه دعوى، وكلف خير الدين باشا بتمثيل الحكومة التونسية في هذه القضيّة، فبقي في باريس، وقام بدوره على أحسن وجه وحفظ لتونس حقوقها. وفي هذه الأثناء احتك بالحضارة الغربية عن قرب، وطوّر لغته الفرنسية بشكل سريع. وبوفاة أحمد باشا في عام 1855 وحلول محمد باشا في منصبه عيّن خير الدين باشا في رتبة فريق، وفي 21 يناير 1857 عين خير الدين باشا وزيرًا للحربية وذلك بعد النجاحات التي حققها في باريس، وبدأ ممارسة عمله في هذه الوظيفة بعد مجيئه إلى تونس في 8 مايو 1857. وقد عمل على إصلاح الوزارة والأسطول البحري وتحديثهما خلال فترته التي استمرت حتّى 23 نوفمبر 1862.

وعند إعلان «عهد الأمان» في تونس في 10 سبتمبر 1857، كان خير الدين باشا من أكثر الناس حماسا ونشاطًا لتحديث النظم السياسية والاجتماعية في تونس، وقد احتوى هذا العهد على أسس فرمانات الإصلاحات والتنظيمات التي شهدتها الدولة العثمانية. وفي عام 1861 اختير خير الدين باشا ضمن لجنة عهد لها بإعداد دستور للبلاد. وبعد عام اختير عضوا في «المجلس الأكبر» الذي كان بمثابة هيئة استشارية. ثم أصبح رئيسًا له، وقد لعب دورا مؤثرا في الإصلاحات القانونية؛ كما كان له حضور في لجنة المحاكم القنصلية، ورأس كذلك اللجنة التي قامت بإعداد القانون العسكري.

وتعتبر سنة 1862 سنة حاسمة إذ طلب خير الدين استعفاءه من جل مهامه بما في ذلك وزارة البحر، احتجاجا منه على قبول الوزير الأكبر مصطفى خزنة دار الدخول في دوامة الاقتراض من أوروبا ممّا سيؤدّي إلى إفلاس الدولة التونسية وانهيارها، إلى جانب إقدام مصطفى خزنة دار على تضعيف الأداء «المجبى»، ممّا سيؤول إلى انتفاضة شعبية عارمة من 1863 إلى 1869 أدّت إلى إبطال العمل بالدستور والمجالس وإلقاء القبض على زعيم الثوار علي بن غذاهم؛ كما أدّت إلى انتصاب الكوميسيون المالي (فرنسا - بريطانيا - إيطاليا). ولقد كان دور فرنسا وبريطانيا دورًا مهيمنًا، وعيّن خير الدين رئيسًا للكوميسيون المالي منذ إنشائه سنة 1869.

وفي فترة اعتزاله الوظائف الرسمية أرسل إلى إسطنبول لتأكيد الموالاة، وكذلك إلى تسع من العواصم الأوروبية لتقديم الأوسمة والهدايا لحكّامها وذلك في مهمة غير رسمية، وأرسل مرّة ثانية إلى إسطنبول بهدف توطيد العلاقات العثمانيّة التونسيّة، ثمّ رجع حاملا معه «أمرا ساميًا»، وينصّ هذا الأمر على إقرار السلطان العثماني بأحقّية العائلة الحسينية في السلطة والإبقاء على النظام الإداري المتّبع في تونس.

وبعد تولّيه رئاسة الكوميسيون عيّن خير الدين سنة 1870 وزيرًا مباشرا إلى جانب الوزير الأكبر حتّى تمّ تعيينه سنة 1873 وزيرًا أكبر خلفًا لمصطفى خزنة دار الذي أقيل بعد أن شغل هذا المنصب مدّة 36 سنة معاصرًا بذلك

ثلاثة من بايات تونس، كما عهد إليه أيضًا برئاسة اللجنة المالية، وقد استطاع خير الدين باشا، وحتّى استقالته في 21 يوليو 1877 أن يحقق لتونس مجموعة من الإصلاحات وعمليات التحديث، وأصبح بذلك ألمع المنادين بالإصلاح والتحديث. ومن بين أهمّ مظاهر إصلاحاته التي قام بها إصلاح الإدارة التونسية وتطبيق سياسة ماليّة سليمة، وإصلاح المجال الزراعي، وتنظيم مؤسسة «الخمّاسة» وتشكيل محكمة للنظر في الدعاوي بين التونسيين والأجانب، وإعادة تنظيم المحاكم الشرعية، كما أولى خير الدين باشا عناية خاصة للجانب التعليمي فأصلح التعليم بجامع الزيتونة، وأنشأ دور الطباعة. وفي عام 1875 افتتح «المدرسة الصادقية» وهي مدرسة ثانوية تعتمد على المناهج الحديثة، وتخرّج منها فيما بعد مجموعة من رجال الفكر النيّرين، ومن جانب آخر عيّن خير الدين باشا محمد بيرم الخامس وهو أحد المؤمنين بأفكاره الإصلاحية رئيسًا لـ «جمعية الأوقاف»، فنظّمها من جديد وعمل على زيادة مداخيلها.

بذل خير الدين باشا مساعي حثيثة لتسديد الديون الخارجية، وذلك بهدف منع التدخلات الأجنبية في البلاد، كما اتبع سياسة متوازنة تراعي المصالح الإنجليزية والفرنسية والإيطالية في تونس، إلاّ أنّ أوضاع تونس الاقتصادية الصعبة قد حالت دون تنفيذ آماله الإصلاحية؛ كما أنّه لم يجد الاستجابة الكافية من باي تونس بهدف إعادة نشاط المجلس وإحياء العمل بالدستور. وكان خير الدين باشا يقف إلى جانب الدولة العثمانية في مواجهة ضغوطات الدول الأوروبية، ذلك أن تونس لا تستطيع أن تحفظ كيانها إلاّ في وجود الدولة العثمانية. وفي مواجهة سياسة التوسع الأوروبي قدم خير الدين باشا مساعدات قيّمة للدولة العثمانية التي كان مقتنعا بضرورة بقائها وذلك أثناء حرب 93. وإثر ضغوطات عديدة من الداخل والخارج قدم خير الدين باشا في 21 يوليو 1877 استقالته من الوزارة الكبرى، ومكث في فرنسا لمدة من الزمن بهدف العلاج، وفي أغسطس 1878 دعاه السلطان عبد الحميد الثاني إلى اسطنبول بعد أن حدثه الشيخ محمد ظافر أفندي شيخ الطريقة المدنيّة وهي إحدى شعب الطريقة الشاذلية عن شخصيّة خير الدين باشا وخصائص إصلاحاته ذات الطابع الإسلامي وعن كتابه «أقوم المسالك...».

وعند قدومه إلى إستانبول منح رتبة وزير، ثم عيّن عضوًا في مجلس الأعيان، وعهد إليه بعد ذلك برئاسة اللجنة المالية التي أسست حديثًا، وبعد شهرين، أي في 9 ذي الحجة 1295هـ الموافق لـ 4 ديسمبر 1878م، عيّن في منصب الصدر الأعظم. وكان السلطان عبد الحميد الثاني يأمل من خلال تعيينه في هذا المنصب في أن يكون قد وجد الرجل المناسب بفضل شخصيته الإصلاحية وارتباطه الوثيق بالدين الإسلامي، وذلك للخروج بالدولة من هذا الوضع الحرج. وكان خير الدين باشا لا يتقن اللغة التركية كما أنّه كان لا يحسن الكتابة بها، وأثناء فترة صدارته التي استمرّت ثمانية أشهر حتّى 9 شعبان 1296هـ الموافق لـ 29 يوليو 1879م استطاع أن يحلّ بعض المسائل المتعلّقة باتفاقية برلين والحرب العثمانية الروسية، كما أنّه بذل كذلك مساعي

حثيثة في إعادة التنظيم الإداري للدولة، وسعى في توطيد سلطة الحكومة وصلاحيتها في مواجهة القصر، وقد عمل على توضيح أفكاره المتمثّلة في تنظيم المحاكم من جديد وهيكلة إدارة الولايات وزيادة مداخيل الدولة، كما كان يدعو إلى تغيير الدستور وإلى اجتماع مجلس المبعوثين من جديد، وكان له دور كبير في تفاقم الخلافات بين القصر الهمايوني ورجال الدولة، ولم يوافق السلطان عبد الحميد الثاني على انعقاد المجلس للمرة الثانية، كما أنّه لم يوقّع على العمل بمشروع خير الدين باشا فيما يتعلّق بسلطات مجلس الوكلاء ووظائفه. وفي هذه الفترة قدم خير الدين باشا استقالته في 28 يوليو 1879م الموافق لـ 8 شعبان 1296هـ لاختلافه مع القصر وشيخ الإسلام أسعد أفندي، إلاّ أنّه لم يترك إسطنبول، واستفاد منه السلطان عبد الحميد استفادة كبيرة وأعدّ له مجموعة من اللوائح، وكلّفه ببعض المهام في اللّجان الخاصة.

بعد الاحتلال الفرنسي لتونس عام 1881، عرض على خير الدين باشا منصب الصدر الأعظم مرة ثانية في عام 1882 لمعرفته الواسعة بخبايا السياسة التونسية، إلا أنّه رفض هذا المنصب. وبعد تركه للوظيفة عرض خير الدين باشا على السلطان مجموعة من اللوائح والعرائض، وقد جاءت في شكل برنامج عمل، عبّر عن أفكاره بكلّ وضوح وثبات، أي يدعو إلى تغيير جذري في نظام الإدارة العثمانية، واعتبر أن الشرط الأول لنجاح الإصلاح هو سيادة القانون والعدالة وتطبيق الدستور، وكان يدعو كذلك إلى اجتماع المبعوثان ومجلس الأعيان، وإلى تشكيل هيئة من النظّار تكون ذات صلاحيّة ومسؤولية واضحة. وكان غير المسلمين من أتباع الدّولة العثمانيّة أكثر علما وثروة، وكان خير الدين باشا يرى أنّه لا بدّ من وضع حدّ لحرياتهم المطلقة ولحسم مطالبهم التي تدعو إلى الانفصال عن الدولة، وإلاّ فإنّ مآل الدولة سوف يكون الانقسام والتمزّق. وكان خير الدين باشا الذي يعرف أوروبا جيّدًا على قناعة أن قوّة هذه البلاد ناجمة عن تطبيق نظام إداري قوي وصارم. ولهذا السبب كان مصرًّا في إصلاحاته على معالجة هذا الجانب، ويرى ضرورة تشكيل مجلس علمي للمشيخات، وإيجاد هيكل إداري جديد لنظام العدالة والمحاكم ومحاكم المشيخات.

ومما كان يحتل حيّزا في برنامج خير الدين باشا الإصلاحي إصلاح النظام الإداري في الولايات، وتشكيل مجالسها لتكون الأساس الذي يعتمد عليه المجلس الوطني، وكان على قناعة بضرورة الوقوف في وجه التدخلات والضغوطات الأجنبيّة، وحلّ المسائل التي لم تستطع اتفاقيّة برلين حلّها، وتسديد الديون الخارجيّة بطريقة منظمة وحماية حقوق أتباع الدّول الأوروبية الموجودين في الدولة العثمانية.

وقد ربط خير الدين باشا عودته إلى منصب الصدر الأعظم بالاعتراف ببرنامجه الإصلاحي وتطبيقه كاملا، وبما أن هذا الشرط كان صعب التطبيق فقد رفض منصب الصدارة للمرة الثالثة بتاريخ 30 نوفمبر 1882، ولم يقتنع بوعد السلطان له بأنّ تطبيق برنامجه سوف يكون بشكل تدريجي. وفي 29 يناير 1890م الموافق لـ 17 جمادى الآخرة 1307هـ توفي خير الدين باشا ودفن في

حديقة دار ضيافة شاه سلطان في مرسى أيوب سلطان، وفي عام 1968 نقل رفاته إلى تونس.

ويبدو من المفيد رفع التباس ناشىء عمّا ذهب إليه بعض المؤرخين مفاده أن خير الدين مملوك عثماني خدم البايات التونسيين؛ ثمّ انفصل عنهم ليخدم السلطان عبد الحميد الثاني. ورأى بعضهم أنّ خير الدين كان عثمانيًا قلبا ولحما ودمًا، واتهمه بعضهم بأنه عندما باع أملاكه العقارية وخاصة هنشير النفيضة (100000 هكتار) للشركة الفرنسية بمرسيليا سنة 1880 قد مهّد للاحتلال الفرنسي، وقد ردّ خير الدين في رسائله على كلّ هذه التهم، وبيّن أنّه لو لم يبع أملاكه للأجانب لاستولى عليها خصمه اللدود وخلفه مصطفى بن إسماعيل خليل الصادق باي.

آثاره

1 ـ أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك: وضعه خير الدين سنة 1284هـ/ 1867م ونشر في تونس في نفس السنة، كما نشر المؤلف القسم المتعلّق بالمقدمة في العام نفسه في باريس باللغة الفرنسية بعنوان "Réformes nécessaires aux Etats Musulmans" ثم طبع طبعة ثانية عام 1875، ثم قام مكالي مرسي بإعادة نشر الترجمة الفرنسية منقحة ومرفوقة بملاحظات (Aix-en-Provence 1987). وطبعت هذه المقدمة باللغة العربية في تونس عام 1868، وفي إستانبول في عام 1293هـ/ 1876م، وفي الإسكندرية في عام 1881 ـ 1882. ثم نشرت فيما بعد من قبل المنصف الشنوفي في تونس عام 1972، 1986، ومعن زيادة في بيروت عام 1978، 1405هـ/ 1985م، كما قام المنصف الشنوفي بنشر كتاب أقوم المسالك في مجلّدين في بيت الحكمة بتونس عام 1991. وأما ترجمته إلى اللّغة التركية فقد قام بها عبد الرحمن ثريا أفندي، وطبعت هذه الترجمة في إستانبول عام 1296هـ/ 1879م، وبالنسبة إلى الترجمة الإنجليزية فقد نشرت في البداية في أثينا عام 1874 ونشرت بعد ذلك مع المقدمّة والملاحظات في كامبريدج، انظر:

Leon Carl Brown, the surest Path, the Political Treatise of a Nineteenth Century Muslim Statesmen, Cambridge, 1967, S, 178- 65 إن هذا الكتاب يندرج أساسا في أدب الرحلة إذ تحدّث فيه خير الدين عن البلدان الأروربية التي زارها خلال مهمّات رسميّة وعددها 20، ولعلّ أهمّ قسم فيه هو مقدّمته (90 صفحة) شأنه في ذلك مع اعتبار الفارق شأن ابن خلدون وكتاب العبر.

يعتقد خير الدين أنّ أساس العدل والعمران هو الحكومة الصالحة، ويضرب لذلك مثلا تقدّم أوروبا فهو ـ في نظره ـ مدين إلى نظام الحكم لا إلى المسيحيّة، ويعتبر أقوم المسالك أولى ثلاث وثائق أساسية لدراسة الحركة الإصلاحيّة في القرن التاسع عشر قبل إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضياف، وصفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار لمحمد بيرم الخامس.

إن منطلق التفكير الإصلاحي عند خير الدين تونسي بحت، وهو وضع البلاد التونسيّة في منتصف القرن التاسع عشر، إلاّ أنه يتنزّل في محيط عثماني باعتبار أنّ تونس جزء لا يتجزّأ

من الخلافة العثمانية. ولقد ركز إصلاحه على قضيّة جوهريّة وهي ضرورة الاقتباس من الغرب المتحضّر لا المستعمر وتبرير ذلك شرعيّا: فلئن بات عنده من الثابت أنّ تحدّي الغرب الاقتصادي أصبح أمرا تفاقم خطره فإنّه مازال يعتقد - وهذا هو برنامجه - أنّ العالم العربي الإسلامي غير مستعدّ أن يدمج إدماجا وأن يغزى عقائديا، لذلك سيطرت على تفكيره مشكلة الإصلاح من الداخل لا من الخارج وإحياء القيم السرمدية كالشورى والحرية والعدل ونظام الحكم الذي حاد عن الشريعة الإسلامية، وانقلب إلى حكم مطلق استبدادي أدّى إلى الخراب، وكان نداؤه موجها بالدرجة الأولى إلى علماء الأمة الإسلامية (أهل الحلّ والعقد)، وبالدرجة الثانية إلى أوروبا المتشكّكة في حسن استعداد المصلحين للنهضة.

إن «أقوم المسالك» هو رسالة مصلح تونسي واع بالخطر الأوروبي الذي أحدق بالإيالة التونسيّة منذ الستّينات في القرن التاسع عشر، وتبقى محاولات خير الدين التونسي سواء بتفكيره أو بعمله معلما هامّا في تطوّر الفكر السياسي في العالم العربي، ولا أدلّ على عصرية برنامجه من تبنّي كلّ الحركات الوطنيّة التونسيّة اللاّحقة جلّ آرائه واعتباره بحقّ أبا النهضة الأوّل بتونس.

المصادر والمراجع

● رسائل حسين إلى خير الدين، تح. أحمد عبد السلام تونس 1991؛ ● ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وملوك عهد الأمان، 8 أجزاء، متفرّقات (VIII-III)، تونس، 1963م؛ ● أرشيف الحكومة التونسية، الوزارة الأولى، ملف الجنرال خير الدين؛ ● ثريا، محمد، السجل العثماني، إستانبول 1308، 1315، II 317 - 318؛ ● ابن الأمين، محمد كمال إنال، Osmanli Devletinde Son Sadri Azamlar, Istambul 1940 - 1553, 895 - 860, Mehmet Zeki Pakalin, Son Sadri azamlar ve Basvekiller, Istambul 1944, IV, 313-377؛

● أمين أحمد، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة 1949، 146 - 183؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، القاهرة 1956، 5 - 60؛ ● م. ن، تراجم الأعلام، تونس 1970، 45 - 58؛ ● الزمرلي، محمد الصادق، أعلام تونسيون، بيروت 1886، 97 - 108؛ ● الجندي، أنور، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي، القاهرة 1970، 80 - 87؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت 1982، II/ 271 - 279؛ ● الميزوري، العروسي، التفكير الديني في أقوم المسالك، IBLA, LIII/165، تونس 1990، 133 - 147؛

- G.S Van Krieken, Khayr al-Dine et la Tunisie: 1850-1881 Leiden 1976;
- G.S Van Krieken (Khayr al-Dine Pasa), Encyclopaedia of Islam, IV, 1153-1155;

- Atilla çetin, Tununslu Khayreddin Pasa, Ankara 1988;
- Atilla çetin, Tununslu Khayreddin Pasa Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbull 1998, XVII, 57-60;
- Muhammed Salah Mzali- Jean Pignon, Tunuslu Hayreddin Pa-sa'nin Hatiralari (Trc.Belma Ak-sun), Istambul 1997;
- J. Ganiage, Les origines du protectorat français en Tunisie: 1861-1881, Paris 1959, s. 437-491;
- M. Smida, Khéréddine, ministre réformateur, 1873-1877, Tunis, 1970.

د. المنصف الشنوفي
جامعة تونس
د. أحمد أوزال
الموسوعة الإسلامية ـ تركيا

التونسي، علي

(340هـ/951م - 410هـ/1019م)

هو الشاعر الصنهاجيّ الإفريقي علي بن يوسف التونسيّ ولد بتونس في تاريخ لم تضبطه كتب التراجم القليلة التي ذكرته ولكنّ ابن رشيق ذكر في الأنموذج (ص304) أنه توفي سنة 410هـ/ 1019م عن سنّ تناهز السبعين بما يعني أنّه ولد قبيل عام 340هـ/ 951م. يخلط المترجمون بينه وبين شاعر آخر هو عليّ التونسيّ المعروف بابن الإيادي والذي عاش في القيروان ومدح المنصور والمعزّ الفاطميّين (ت 365هـ/ 976م) وقد أثر ذلك في نسبة الأحداث وإيعاز النّصوص إلى أحدهما بدلا من الآخر [انظر مثلا: إدريس 2/ 392].

انتقل إلى القيروان حيث تلقّى هناك تكوينا أدبيّا متينا في اللّغة والأدب مكّنته من أن يكون «قويّ الكلام جيّد الرّصف» [أنموذج، 298]. ولا يعرف عن حياته التي قضى معظمها في القيروان غير بعض الأخبار منها اتصاله فيها ببني أبي العرب وفيهم قال جلّ شعره. ومنها أنّه مدح ثلاثة من الأمراء الصنهاجيين وهم المنصور بن بلكين (374هـ/ 984م ـ 386هـ/ 996م) وباديس (386هـ/ 996م ـ 406هـ/ 1016م) والمعزّ (406هـ/ 1016م ـ 422هـ/ 1051م) وكان هؤلاء الأمراء يعدّونه من أفضل شعرائهم وكان المنصور من أشدّ الصنهاجيين إعجابا بشعره «لا يتمالك إذا سمعه» إذ يروي ابن رشيق كيف وهب له فرسا قد فتن به بعد أن سحره وصف التونسيّ له. كما يروي أنّه لمّا أنشده قصيده الذي مطلعه:

يا عذولي أكثرت عذلا وعدما
كم ملام أغرى فهوّن سقما

دفع له أربعمائة دينار عينا وأقطعه قرية من نواحي تونس. [أنموذج، 298].

وشهرته لدى الصّنهاجيين قد أثّرت سلبا على معاصريه من الشّعراء فقد ألقى عليهم ظلاًّ كثيفا. بل كان كما يقول عنه ابن رشيق يستضعفهم «ويهتدم أبياتهم وربّما اصطرافها (أي انتحالها لنفسه) جملة واحدة» [أنموذج، 299] وكان يعتذر لنفسه بما كان يصنعه الفرزدق من سرق ويقول: «أنا فرزدق هذه الطبقة» (السّابق). وذكر ابن رشيق اسمين ممن استولى التونسي على شعريهما وهما محمد بن إبراهيم الكموني والجراوي الكاتب.

لم يصلنا من شعر التونسي إلاّ بعض المختارات القليلة التي يمكن أن نتبيّن منها بوضوح براعته في نسج الصّور وقدرته على الوصف وحسن تخيّره العبارة التي لا هي من السهل الممجوج ولا من الصعب المستغلق. لكنّ المعاني وأن بدت تقليديّة فلقد أحلتها نزعة عقليّة انبنت على الحجاج والجدل وجنوح إلى السّرد الذي يكسر جمود وحدة البيت.

وكان في مديحه يخصص جزءا من القصيد لمطالبه كما في قوله يمدح المنصور:

قامر باشقر محبوك القرا قرط
عبل الشّوى مذ براه الرّكض ما صفنا (...)
وخلعة من صفايا ما ذخرت فما
اكدى الرّجاء الذي عندي ولا وهنا

وما من شكّ في أنّ مثل هذا القول يضعف القصيد لما يحدثه فيه من بتر للمعاني.

المصادر والمراجع

● ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح. المطوي والبكوش، ط. الدار التونسيّة للنّشر، المؤسسة الوطنيّة للكتاب تونس/الجزائر 1986 298 - 304؛ ● الدوداري، س. كنز الدرر وجامع الغرر، ج 6؛ ● الدرّة المضيّة في أخبار الدولة الفاطميّة ط. القاهرة 1960، 589؛ ● ابن عذاري، البيان المغرب، ط. ليدن 1948، 1/ 297؛ ● العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار ج XVII خ 2327 باريس 46ظ - 49؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، ط. بيروت 1984، 22/ 134 - 135؛ ● القلقشندي، نهاية الأرب، ط. القاهرة 1959، 1/ 407؛ ● المغربي، ابن سعيد، عنوان المرقصات المطربات، ط. القاهرة 1286هـ، 62؛ ● إدريس، الهادي روجي، الدولة الصنهاجيّة، تح. حمادي السّاحلي، ط. بيروت 1992؛ ● بو يحيى، الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في عهد بني زيري، تح. محمد العربي عبد الرزاق، ط. بيت الحكمة تونس 1999، 129 - 131.

د. توفيق قريرة
جامعة منوبة - تونس

التونسيّ، محمد بن عمر بن سليمان

(1204هـ/1790م - 1274هـ/1857م)

محمد بن عمر بن سليمان التونسيّ، وقد استمدّ هذا النسب من نسب عائلته التي توزعت بين مصر وبلاد السودان. أما نسب العائلة في تونس فيرجع إلى عائلة «زرّوق»، ويبدو أنه اللقب الذي كان يعرف به جدّه سليمان في بلاد السودان فقد أنجب هناك ابنًا أسماه «أحمد زرّوق» ذكره التونسيّ في رحلته [تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، 57 - 58، 333]، وقال إنّه عمّه.

وُلِد محمد بن عمر بمدينة تونس من أمّ مصرية في منتصف ذي القعدة 1204هـ، أي يوم 27 جويلية 1790م (وليس 1789 كما ورد عند أكثر الذين ترجموا له)، أثناء إقامة عائلته بها إقامة قصيرة انتهت بوحشة بيْن عمر - والده - وبين أخوين له فقرر العودة إلى مصر سنة 1207هـ/ 1793م وللطفل ثلاث سنوات. وقد كان الغالب على عائلته التنقل والترحال بين تونس ومصر وبلاد السودان، فلقد سافر جدّه سليمان (ت 1210هـ/ 1795م) بتجارة من تونس لم يُكتَب له فيها النجاح بسبب الغرق في البحر، فقرّر ألاّ يعود إلى تونس، وأخذ الطريق - بعد الحج - إلى بلاد السودان حيث وجد الحظوة وأنسِيَ أهْلَه بتونس.

وعندما شب عمر خرج مع خال له من أهل العلم اسمه أحمد بن سليمان الأزهري إلى الحجّ فالتقيا صدفة بأبيه سليمان وتواعدوا على الالتقاء في القاهرة بعد أداء فريضة الحجّ. ولم يأت الأب إلى القاهرة، فأقام الابن بها حيث انصرف إلى الدراسة في الجامع الأزهر. ثمّ لحق بأبيه في بلاد السودان فوجده في مدينة سنّار «قارًا في داره، مغتبطا بأولاده وعياله، لا يسأل عن غيْرهم» [تشحيذ الأذهان، 33]. ثم حصلت بيْن الرجُلين وحشة فقرّر الابن العودة إلى مصر، ودخل هناك الجامع الأزهر لطلب العلم من جديد وتزوّج بمصرية هي التي أنجبت محمدًا بتونس. وقد حدث لمحمد مع أبيه عمر ما حدث لهذا مع أبيه سليمان. فقد رجع عمر إلى بلاد السودان سنة 1211هـ/ 1796م بعد أن علم بوفاة والده، فلقي هناك هو أيضًا حظوة كبيرة عند السلطان وأنسيَ أهله بالقاهرة، فقرّر محمد السفر للبحث عن والده الذي كان في دارْفور، فتوجّه إليه سنة 1218هـ/ 1803م. ولكن المقام معه لم يطل لأن عمر كان قد ترك أملاكه لابنه، ورجع إلى تونس سنة 1219هـ/ 1804م. وأقام محمد بدارفور ثم بوادّايْ نحو عشر سنين، ثم غادر بلاد السودان إلى تونس سنة 1228هـ/ 1813م فالتقى هناك بأبيه من جديد. ولا نعلم كم بقي من سنة في تونس، ولكننا نعلم أنه قد أتمّ فيها تعليمه، لكنه لم يذكر من شيوخه فيها إلاّ واحدًا هو إبراهيم الرياحي (ت 1266هـ/

1850م)، وقد وصفه بـ«شيخنا وشيخ المشايخ الآن بتونس» [تشحيذ الأذهان، 25، 29]. وقد يكون لوالده أثر في تعلّمه أيضا لأنّ حديثه عنه يدلّ على أنّه كان عالمًا، وأنّه قد ألّف وهو في بلاد السودان كتبا في الفقه المالكي والنحو [تشحيذ الأذهان، 116].

رجع محمد إلى مصر في تاريخ غير محدّد إذن، وهناك ما يَدلّ على أنّه كان بالقاهرة سنة 1238هـ/ 1822 - 1823م [تشحيذ الأذهان، 28 - 29] حيث ذكر نصّين شعريّيْن أرّخ بهما لإنشاء زاوية ومَوْرد ماء في القاهرة سنة 1238هـ. وفي هذا الوقت كانت مصر تعدّ لحملة عسكريّة على المورة متحالفة مع الباب العالي العُثماني، ونعلم أنّ هذه الحملة قد انطلقت سنة 1239هـ/ 1824م، وتواصلت حتّى سنة 1244هـ/ 1828م، وقد عيّن التونسي واعظًا للآلاي الثامن في هذه الحملة [تشحيذ الأذهان، 4]، فرافق هذه الفرقة من المشاة إلى المورة. وتذكر بعض المراجع [مقدمة تحقيق تشحيذ الأذهان، 13] أن مرافقة التونسيّ لهذه الفرقة بدأت سنة 1827؛ ورغم أن الحملة كلّها على المورة فإنّها انتهت سنة 1828 برجوع الجيش المصريّ إلى الإسكندريّة في أكتوبر منها [ينظر: P. Kahle - P.M. Holt : Art. Ibrahim Pasha - in : Encyclopédie de l'Islam, Vol. III, Leiden - Paris, 1975, (pp. 1024 - 1025), p. 1024]. ذلك أنّ المراجع متفقة على رُجوع التونسيّ من المورة سنة 1247هـ/ 1832م.

في هذا التاريخ اختير مصحّحا للكتب الطبّيّة في مدرسة الطبّ بأبي زعبل، أي تصحيح الترجمات التي كانت تنجز في هذه المدرسة للكتب الطّبيّة الأجنبيّة، وقد خُصّ التونسيّ «بتصحيح كتب الأجزاخيّة» [تشحيذ الأذهان، 4]، أي كتب الصيْدلة. وفي هذه المرحلة تعرف إلى عالمين جليلين فرنسيين كان لهما تأثير عميق في حركة الترجمة - وفي الحياة العلميّة - بمصر في عصر محمد علي، هما: انطوان كلوت (Antoine Clot، 1793 - 1863) الذي عرف باسم كلوت بك، وأ.م. برّون (A.-M. Perron) ت 1876. وقد شغل الأول خطّة مُدير لمدرسة الطبّ من سنة 1827 إلى 1834م، وشغل الثاني الخطّة نفسها من 1839 إلى 1846م، وقد رافقهما التونسيّ وعمل معهما، لكنّ صِلاته ببرّون كانت أقوى. وكان جُلّ نشاطه العلميّ في هذه المدّة التي رافق فيها هذين العالميْن. وقد جمد هذا النشاط - مثلما جمدت الحياة العلميّة بمصر عامّة إثر وفاة محمد علي سنة 1849م - في السنوات الأخيرة من حياته. فانصرف إلى تدريس الحديث بمسجد السيدة زينب يوم الجمعة من كلّ أسبوع، حتّى وفاته سنة 1274هـ/ 1857م.

■ آثاره

يمكن أن نعُدّ التونسيّ أديبًا عالمًا، ولأدبه وجهان: الأوّل هو قرض الشعر. وقد أشار في تشحيذ الأذهان [ص 47] إلى غزارة شعره، ولكن ما وصلنا منه قليل إذ لا يتجاوز ستّين بيتًا وردت كلّها في تشحيذ الأذهان [2، 28 - 29، 38، 43 - 44، 45 - 46، 48، 112، 266 - 267]. وهي لا تدلّ على شاعريّة حقيقيّة؛ والوجه الثاني هو التأليف في أدب الرّحلة؛ وله فيه كتابان: الأوّل هو «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب

«السودان»، وقد ألّفه فيما يبدو سنة 1842م، فقد ذكر فيه [ص 274] تاريخًا التقى فيه بالقاهرة أحد قضاة مملكة واداي هو سنة 1257هـ/ 1841م، ثمّ إننا نعلم أنّ صديقه برّون قد كتب سنة 1843 ملحقًا للرحلة حول الأمير الفوري أبي مدْين [تنظر ترجمة هذا الملحق في ملاحق تشحيذ الأذهان، 343 ـ 364]، وما بين 1841 و 1843م إذن هو تاريخ التأليف.

ألّف التونسيّ هذه الرحلة بطلب من برّون نفسه، وبرّون هو الذي ترجم الكتاب أوّلا إلى الفرنسيّة ونشره بعنوان «Voyage au Darfour» سنة 1845، ثم نشر نصّ الرحلة العربيّ بخطّه سنة 1850 بباريس، منقولا عن نصّ المؤلّف؛ وقد أعاد نشرَهُ محققا بالقاهرة (1965) خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مُسعد، عن طبعة برّون صدر عن المؤسّسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر والدار المصرية للتأليف والترجمة. وفي الكتاب مقدّمة ذات ثلاثة أبْواب، ومقصد ذو ثلاثة أبواب أيضًا، وخاتمة في باب واحد، وفيه وصف جغرافي وطبيعي لمملكة درافور، وحديث عن الحياة السياسية والاجتماعية فيها. وقد مزج فيه المؤلّف بين الوصْف العلميّ والحديث الأدبي بإيراد الشعر والنوادر والمستطرف من الأخبار، وخاصّة حول الظواهر الاجتماعية والسلوكيّة التي يراها عجيبة. وهو ـ لذلك كلّه ـ وثيقة مهمّة للمؤرّخ والباحث الاجتماعي بل وللعالم الطبيعي أيْضًا.

والكتاب الثاني لم يصلنا لا عنوانه الأصليّ ولا نصّه العربيّ، وقد سمّاه جمال الدين الشيّال [تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1951، 60] «الرحلة إلى واداي»، وقال إن التسمية للمؤلّف؛ وسمّاه محقّقا تشحيذ الأذهان [المقدّمة، ص 14] «رحلة واداي». وهذا العنوان ترجمة حرفيّة لعنوان الرحلة الذي وضعه برّون لترجمتها الفرنسيّة التي نشرها بباريس سنة 1851، وهو «Voyage au Ouaday»، ولم تُعرف هذه الرحلة إلاّ من نصّها الفرنسيّ، أمّا أصلها العربي فلا يُعرف مصيره. وفي هذا الكتاب وصْف لمملكة واداي التي عاش فيها التونسيّ أيْضًا، شبيه بوصفه لمملكة دارفور من حيث الاهتمام بالحياة الاجتماعية والسياسيّة وبالمحيط الجغرافي.

وأمّا التونسيّ العالم فتبرزه مشاركته في الحياة العلميّة ـ وخاصة في حركة الترجمة ـ في عصْر محمّد علي. ويمكن تقسيم هذه المشاركة إلى ضربيْن: الأوّل هو المشاركة في مراجعة ترجمات الكتب العلميّة إلى العربيّة وتصحيحها. فقد كان التونسيّ من جملة العلماء الأزهريّين الذين أسهموا في حركة الترجمة بمراجعة نصوص الترجمات وتصحيح عباراتها العربيّة وتهذيبها، على أنّه كان فيما يبدو أهمّ تلك الجماعة، فقد كان «نابغة المصحّحين والمحرّرين وزعيمهم جميعًا في ذلك العصر» حسب عبارة جمال الدين الشيال [تاريخ الترجمة، 179]. ويبدو أنّ ذلك «النبوغ» قد تأتى له من عاملين: العامل الأول، معرفته باللغة الفرنسيّة، والدليل على ذلك إشارته في مقدّمة كتاب الجواهر السنيّة في الأعمال الكيمياوية إلى أنه قابل كل مشكلة فيه مع مؤلفه برّون «على أصوله الفرنسيّة» [الشيال، تاريخ الترجمة، 66]،

بل إن الشيال قد ذهب إلى أنّ التونسيّ قد اشترك مع برّون في «ترجمة» الكتاب [نفسه، 181]، أما العامل الثاني فإلمامُه بمبادىء العلم الذي شارك في مراجعة نصوصه، وهو الطبّ، وقد أشار في تشحيذ الأذهان [ص 263] إلى جهله بعلم الطبّ عندما كان في دارفور وواداي، وعلمه به زمن تأليفه للكتاب.

والكتب التي راجعها وصحّحها أو شارك في مراجعتها وتصحيحها ستّة، كلّها في الطبّ والصيدلة، مترجمة من الفرنسيّة: منها اثنان في الصيدلة، هما «الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع» من تأليف فيجري، وترجمة حسين غانم الرشيدي (بولاق، 1258هـ/ 1841م)، و«الجواهر السنيّة في الأعمال الكيمياوية»، من تأليف برون وترجمته بمعونة التونسي نفسه (بولاق، 1258هـ/ 1842م - 1260هـ/ 1844م، 3 أجزاء).

وأما الكتب الأربعة الباقية فطبّية خالصة: وهي «الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال»، من تأليف كلوت بك وترجمة محمد الشافعي (بولاق، 1250هـ/ 1834م)، و«روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى»، وقد جمعت نصوصه من كتب مختلفة، ترجمة محمد علي البقلي وراجعه مع التونسي سالم عوض القنياتي (بولاق 1259هـ/ 1843م)، و«كنوز الصحة ويواقيت المنحة» من تأليف برون، وقد شاركه التونسي في التصحيح والمراجعة (بولاق، 1260هـ/ 1844م)، و«التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد» من تأليف كروليبه وترجمة محمد الشباسي، وقد شارك التونسي في المراجعة الشيخ القنياتي (بولاق، 1266هـ/ 1850م، 3 أجزاء).

والضرب الثاني من مشاركة التونسي في الحياة العلمية في عصره هو التأليف. ولم يؤلف في الحقيقة كتابا بعينه بمفرده بل شارك في وضع معجم طبّي ذي أصل فرنسي مشاركة قويّة جعلت الكتاب ينسب إليه، هو «الشذور الذهبيّة في الألفاظ الطبّية». ومادة الكتاب الأصلية ترجمة لمعجم طبّي فرنسي ذي ثمانية أجزاء عنوانه Dictionnaire des Dictionnaires de médicine لمؤلف فرنسي اسمه فابر «Fabre». وقد ترجم الكتاب بأن وزع برون - ناظر مدرسة الطبّ - على أساتذة المدرسة المترجمين أجزاءه ثمّ وزّع عليهم وعلى جماعة من المصححين القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي وطلب منهم استخراج كل ما فيه من مادة ذات صلة بالطب والصيدلة، وقد خصّ برون التونسي بالنظر في مصادر أخرى وخاصة كتاب «القانون» لابن سينا، و«تذكرة أولي الألباب» لداود الأنطاكي، وقد أضاف التونسي إلى ذلك كله ما عثر عليه من ألفاظ صالحة لأن تكون مصطلحات في بعض المصادر اللغوية مثل «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي، ثمّ ما وقف عليه بنفسه من أسماء النبات في بلاد السودان، وضمّ إلى ذلك أيضًا أسماء الأطبّاء المشهورين - وخاصة القدماء من العرب والعجم - فكان «الشذور الذهبية» لذلك موسوعة في الطبّ قد اشتملت على مصطلحات - وخاصة ما ظهر منها في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أي أثناء حركة الترجمة ذاتها - وأعلامه ومصطلحات العلوم المتّصلة به. وقد انتهى التونسي من تأليف

مادّة المعجم سنة 1265هـ/ 1849م، ويبدو أن كلوت بك قد خشي عليه من التلف فاصطحبه معه إلى باريس وأهداه سنة 1851 إلى المكتبة الوطنية بها، ويوجد أصله المخطوط اليوم بها، في 599 ورقة. وقد اهتم به المصريون في أوّل القرن العشرين فنشر منه أحمد عيسى بعض مادة حرف الألف سنة 1910م، ثمّ أهمل، ولم يُفد منه فيما نعلم المصطلحيّون العرب المحدثون في أعمالهم، رغم أهميته العلميّة والمصطلحيّة.

المصادر والمراجع

● أهمّ مرجع لترجمة التونسي هو تشحيذ الأذهان حيث عرّف بكثير من ظروف عائلته وظروف حياته هو، وخاصة ص30 ـ 40، ثمّ في مواضع كثيرة داخل الرحلة. ثم ينظر: M. Jomard : Observations sur le voyage au Darfour, Benjamin, Duprat-Paris, 1845 (P. 77), pp. 12-17. وهذا النصّ كلّه مقدمة كتبها جومار لترجمة «تشحيذ الأذهان» الفرنسيّة ونشرت منفصلة، وفيها تحليل موسّع لمادّة الكتاب Art. Tns. in Encyclopédie de l'Islam, 1ère éd.IV. Leiden-Paris 1939, pp.888-891. وقد اختصر هذا النصّ اختصارًا شديدًا في الطبعة الثانية: EI 2,vol.X, Leiden-Paris, 2002,pp.587-588

● الشيال، جمال الدين، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، 179 ـ 181، 191 ـ 194؛ ● عساكر، خليل محمود، ومسعد، مصطفى محمد، مقدمة تحقيق تشحيذ الأذهان، 11 ـ 15؛

● ابن مراد، إبراهيم، مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، 126 ـ 155، وفيه تحليل لقيمة كتاب الشذور الذهبيّة اللغوية وخاصة من حيث هو معجم مختصّ.

د. ابراهيم بن مراد
جامعة تونس

ثُويت اليمامي، عبد الملك بن عبد العزيز السّلولي

(ت 100هـ/720م)

عبد الملك بن عبد العزيز السَّلُولي اليمامي، نسبةً إلى سَلُول، وهم بنو مُرّة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر. ينسبون إلى أمهم سَلُول بنت ذُهْل بن شيبانَ بن ثعلبةَ بن عُكابةَ بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

يُلَقَّب بالثُّوَيْتِ اليمامي معرفًا بأل ومجردًا منها، وهو تصغير التوت، وربما لقب بالاسم

المكبر. ورُوي له لقبٌ آخر هو التوب، وأراه تصحيف كلمة (التوت)، قال الجاحظ: «والتوت هو الصواب، وهو المعروف بتُوَيت، فكبّره هنا». وروي له أيضًا لقبٌ رابعٌ هو «نُوَيْب»، والكلمة لا تعدو كونها تصحيف لفظة «توبت»، وفي معجم ياقوت ورد لقبه «توبة»، وهي لفظة محرفة.

والتوت هو المعروف بالفِرْصاد. قال الأصمعي: التوثُ بالثاء في اللغة الفارسية، وبالتاءِ في اللغة العربية.

ولم تفصح المصادر عن سبب تلقيبه بهذا اللقب، وقد يكون تشبيهًا له بثمرة التوت، وهو من الأسماء المعروفة عند العرب قديمًا، فبنو تُوَيت هم أبناء حبيب بن أسد بن عبد العُزى بن قُصَيّ.

واليمامي نسبة إلى اليمامة الإقليم المعروف في سُرَّة نجد.

ولد تُويت في اليمامة، ولم تذكر المصادر عام ولادته، ولا يتضمن شعره الذي وصل إلينا ما يلقي الضوء على السنة التي أبصر فيها الدنيا، وكل ما نعرفه أنه كان معاصرًا ليحيى بن أبي حفصةَ اليمامي، وأن تُويتًا هجاه لما تزوج يحيى المرأة التي كان التويتُ يهواها، واستنفد فيها شعره متغزلاً، وسيأتي تفصيل ذلك، ونعرف أن يحيى توفي بعد عام 95هـ/714م، وبذلك يكون تويت قد أمضى حياته كلها في العصر الأموي.

نشأ في اليمامة، وتوفي بها، ويبدو انه قضى حياته كلها في هذا الإقليم، فلم يفد إلى خليفة، ولا إلى أحد من رجالات الدولة، ولم يوظف شعره في مدح أحد من الكابر والرؤساء.

ولهذه الأسباب لم يلتفت إلى شعره الرواة، فأصبح شاعرًا مغمورًا، لا يعرفه إلا القلة، وأغفلت ذكره مصادر الأدب، ما عدا إشارات قليلة في مصادر محدودة، وانفرد الأغاني بتقديم ترجمة موجزة عنه تضمنت بعض أشعاره، وجدها الأصبهاني بخط أبي العباس بن ثوابةَ من أخبارٍ رواها عن عبد الله بن شبيب، ولم ينقل إلينا أبو الفرج كل ما كتبه عبد الله بن شبيب عن تويت، بل انتقى من ذلك مختارات: شعرًا وأخبارًا.

ويظهر أنّ منزله من اليمامة كان في سهل قَرْقرى الذي يسمى الآن بالبطين، أو بطين ضرمى، وهو سهل طويل عريض ممتد يحاذي عارض اليمامة (جبل طويق) من ناحيته الغربية، وتقع فيه عدة بلدان منها ضرمى (قَرَما قديمًا)، والبَرَّتانِ البرة العليا والبرة السفلى، والبرة العليا منزل الشاعر اليمامي يحيى بن طالب الحنفي، والدليل على أن منزل تويت اليمامي في قَرْقرى قوله:

مـا تـزال الـدِّيـارُ فـي بُـرْقـةِ الـنَّـجْـ
دِ لِـسُـعْـدَى بِـقَـرْقَـرَى تُـبْـكِـيـنِـي

والبيت يؤكد أن منزل سعدى المرأة اليمامية التي أحبها كان في برقة النجد في قرقرى، إذْ ليس من المعقول أن يهوى الشاعر امرأة نائية الدار، لا يراها في غدو ورواح، أو في ساعة من ساعات الليل أو النهار، فمنزله لا يعدو أن يكون في برقة النجد أو قريب منها.

وعني أبو الفرج الأصبهاني فيما نقله عن عبد الله بن شبيب بخبر حُبّ تُويت لسعدى بنت أزهر اليمامية، ولم يقدم معلومات عنها سوى أنها من اليمامة، وعرفنا من بيت تويت

الماضي أنها كانت تنزل في برقة النجد الواقعة في سهل قرقرى. قال عبد الله بن شبيب: «كان ثُوَيْت يهوى امرأةً من اهل اليمامة يقال لها سُعْدى بنت أزهر، وكان يقول فيها الشعر، فبلغها شعره من وراء وراء، ولم تره، فمر بها يومًا، وهي مع أتراب لها، فقلن: هذا صاحبك، وكان دميمًا، فقامت إليه وقمن معها، فضربنه، وخرّقن ثيابه، فاستعدى عليهن فلم يُعْدِه الوالي، فأنشأ يقول:

إنَّ الغواني جَرَحْنَ في جَسَدي
مِن بعدِ ما قد فَرَغْنَ من كَبِدِي

وقد شَقَقْنَ الرِّداءَ ثُمَّتَ لم
يُعْدِ عليهن صاحِبُ البَلَدِ

لم يُعْدِنِي الأحولُ المشومُ وقد
أبصرَ ما قد صَنَعْنَ في جَسَدِي

فلما جرى هذا بينه وبينها عُقِدَ له في قلبها رقة».

ويبدو أن سعدى وأترابها ضربْنَه ضربًا لا يخلو من قسوة ظهر أثره على ثيابه وجسده، مما دفعه إلى أن يشكو ما فعلن به إلى والي اليمامة، غير أنه لم يلتفت إلى شكايته ولم ينصفه منهن، وكيف يقبل دعواه على امرأة شبَّبَ بها وشهرها في شعره؟ وكان الأجدر بثويت أن يصبر على ما أصابه، وان يسكت ولو كان السكوتُ على مضضٍ. وأرى شكواه إلى الوالي في هذا الموقف ضعفا وتخاذلا، لأنه رجل، واللواتي استسلم لضربهنّ نسوة.

وكانت سعدى بعد هذه الحادثة تتعرض له إذا مرّ بها، واجتاز يومًا بفنائها فلم تتوارَ عنه، وأرته أنها لم تره، فلما وقف مليًا سترت وجهها بخمارها، فقال ثويت:

ألاَ أيها الثَّارُ الذي ليسَ نائمًا
على تِرَةٍ إنْ مُتُّ من حُبِّها غدا

خذوا بدمي سُعدى فسعدى مَنِيتُهَا
غداةَ النقا صَادَتْ فؤادًا مُقَصَّدا

بآيةِ ما رَدَّتْ غداةَ لَقِيتُها
على طَرْفِ عينيها الرداءَ المورَّدا

والذي يظهر لي أن حبه لسعدى كان الحدث البارز في حياته، وأن غيره من الأحداث لم يكن له من الأثر والخطر ما يستحق أن يدونه في شعر، في حين ظفر حبه بهذه المقطوعات التي تفيض رقة وعذوبة، ولذلك نراه يصاب بخيبة أمل كبيرة، وشعور عميق بالإحباط والغيرة حين زوجت سعدى إلى منافسه يحيى بن أبي حفصة الشاعر اليمامي، وكان يحيى أكثر منه مالاً ويسارًا، واعظم جاهًا وشهرة، وعرف عنه بأنه كريم جواد.

ولم يكن ثويت على شيء من الجمال وحسن المنظر، فتتعلق به قلوب الغانيات، وتشرئب إليه أبصارهن. وأرى أن ليحيى نصيبًا مما افتقده ثويت. ولما تزوجها يحيى حجبها، وانقطع ما بينها وبين ثويت، فكان وَقْع ذلك على قلبه أليماً، عبّر عنه بهجائه يحيى بقوله:

عَناءٌ سِيقَ للقَلْبِ الطَّرُوبِ
فقد حُجِبَتْ مُعَنِّيَةُ القُلُوبِ

أقولُ و قد عرفْتُ لها محلاً
ففاضَتْ عَبْرَةُ العَيْنِ السَّكُوبِ

الا يا دارَ سُعْدى كَلِّمينا
وما في دارِ سُعْدى من مُجِيبِ

ولما ضَمَّها وحوى عليها
تركتُ له بِعاقبةٍ نَصِيبِي

وقُلْتُ: زِحامُ مِثْلِكَ مِثْلَ يحيى
لَعَمْرُكَ ليس بالرأي المُصِيبِ

فما لكَ مثلُ لِمَّتِهِ تُدَرَّى
وما لكَ مثلُ بُخْلِ أبي الجنوبِ

إذا فَقَدَ الرغيفَ بكَى عليه
وأتبَعَ ذاكَ تشقيقَ الجُيُوبِ

يُعَذِّبُ أهلَهُ في القَرْصِ حتى
يظلوا منه في يَوْمٍ عَصِيبِ

ووصف يحيى بالبخل يناقض ما ذكر عنه من أنه جواد كريم مُمَدَّح. وبزواج سعدى انطوت صفحة تشبيبه بها، وغابت عنا معلومات كثيرة عن حياته، وسقطت أشعار من الممكن أن تسهمَ في جلاء شخصيته، وتحديد سمات شاعريته. وبودنا لو أنّ أبا الفرج الأصبهاني نقل إلينا كلَّ ما كتبه عنه عبد الله بن شبيب؛ وكتابه «الأخبار والآثار» الذي رواه عنه تلميذه أبو العباس ثعلب (200هـ/ 816م - 291هـ/ 904م)، والكتاب الذي وجده أبو الفرج الأصبهاني بخط أبي العباس بن ثوابة، ونقل عنه ما كتبه عن ثويت، يعدان في عداد الكتب المفقودة.

وهو شاعر فصيح معدود من طبقة يحيى بن طالب وبني أبي حفصة وذويهم. و كان معاصراً ليحيى بن أبي حفصة، وربما يكون من أترابه في السن. أما يحيى بن طالب الحنفي فمن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وتوفي في عهد هارون الرشيد. والطبقة هنا يراد بها طبقة الشعر لا طبقة السن والعصر، فشعره لا يقلُّ جودة و فصاحة وعذوبةً عن شعر آل أبي حفصة ويحيى بن طالب، بل إنَّ شعره يمتاز بهذه السهولة التي تقطر رقة من غير ضعف، وينفرد بهذه الحلاوة اللذيذة التي تداعب ذهن المستمع حين يسمع هذا الشعر، وتمتع شعور القارئ حين يقرؤه. ولستَ واجدًا هذه السمة في كثير من شعر الغزل والتشبيب.

وعاش ثويت في عصر الاستشهاد اللغوي، لأنه أمضى حياته في العصر الأموي، وفي بيئة بعيدة عن الحضارة المترفة والعناصر الأجنبية، هي بيئة جرير، ويحيى بن أبي حفصة، وعصام بن عبيد الزِّمَّاني، وكوكبة من شعراء بني حنيفة، وغيرهم من شعراء اليمامة الذين لم يهجروها، ولم تنقطع صلتهم بها، بل إنه يختلف عن غيره في كونه ابن بيئته التي لم يغادرها، ولم يَرِمْ عنها طوال حياته. وقرقرى التي عاش فيها من أخصب أراضي اليمامة، وأغزرها ماءً، وأمرعها مرتعًا، وأطيبها منزلاً، وكانت ذات قرى ينزلها الحضر، وفيها مزارع ونخيل، وموارد يردها أهل البادية، ويقيمون عليها بمواشيهم وأنعامهم طوال الصيف حين تشتد حاجتهم إلى الماء والامتياز.

آثاره

ليس لثويت ديوانٌ مجموع، ولم يذكر المعنيون برواية الشعر وجمعه أن أحدًا من المتقدمين صنع له ديواناً، ولذلك يعد كتاب الأغاني المصدر لما بقي من شعره، ويضم قدرًا ضئيلاً لا يمثل إلا جزءًا يسيراً من شعره الذي نعتقد أنه قاله، وإن وصفناه بأنه شاعر مقل. وجنى على شعره انطواؤه على نفسه،

وبعده عن موطن الرواة في العراق والشام. فتفلّت شعره وذهب. والمجموع الذي بين يدينا كله تشبيب وغزل في سعدى، ما عدا قطعة واحدة في هجاء يحيى بن أبي حفصة حين أعرس بها، وحجبها عنه. و قال في سعدى شعراً أكثر مما وصل إلينا بدليل قول أبي الفرج الأصبهاني: «ومن مختار قوله فيها».

■ المصادر والمراجع

● الجاحظ، البيان والتبيين، تح. عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، 1380هـ/ 1960م، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، 2/ 359 ـ 360، 3/ 259؛ ● الأصفهاني، الأغاني، الجزء 23، حققه عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة، 1380هـ/ 1961م، بيروت ص. 39 ـ 48؛ ● الحموي، معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، 1/ 398 (برقة النجد)؛ ● الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم)، الطبعة السابعة، 1986، دار العلم للملايين، بيروت، 4/ 160 ● فروخ، تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثانية، 1395هـ/ 1975م، دار العلم للملايين، بيروت، 2/ 166ـ167؛ ● فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، مج. 2، ج. 3، نقله إلى العربية، محمود فهمي حجازي، راجع الترجمة، عرفة مصطفى، سعيد عبد الرحيم، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص 111؛ ● عزيزة فوّال بابتي، معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، الطبعة الأولى 1998م، دار صادر، بيروت، ص 268 ـ 269؛ ● حمد ابن ناصر الدُّخيل، من شعراء اليمامة المغمورين، ثويت اليمامي عبد الملك بن عبد العزيز السلولي، حياته وأخباره وما بقي من شعره، بحث نشر في مجلة «العرب»، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، الرياض، ج 665 س 38 ذوا القعدة والحجة 1423هـ/ يناير وفبراير 2003م، ص 257 ـ 272 وج 7، 8 س 38 محرم وصفر 1424هـ/ مارس وابريل 2003م ص 435 ـ 446.

د. حمد بن ناصر الدخيل
جامعة الملك سعود
الرياض ـ السعودية

تياذوق، الطبيب السرياني

(ت 90هـ/708م)

طبيب سرياني، توفاه اللّه في واسط بالعراق، بعدما كبر وأسن، في نحو سنة 90هـ/ 708م.

كان طبيبا معروفًا ومشهورًا، في وقت ندر فيه وجود أمثاله، وكان وحيد عصره، كما يقال.

عاش في صدر الدولة الإسلامية، والدولة الأموية، صحب الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من الخليفة عبد الملك بن مروان، وخدمه بصناعة الطب، وكان يعتمد عليه، ويثق به، فمنحه من المال السلطاني الكثير.

جاء في كتاب ابن أبي أصيبعة، [عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، السفر الأول، 216] قوله عن تياذوق: «كان طبيبا فاضلاً، وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب، وعمّر. وكان أوّل دولة بني أميّة، ومشهورا عندهم بالطب، صحب الحجاج بن يوسف الثقفي، المتولّي من جهة عبد الملك بن مراون، وخدمه بصناعة الطب، وكان يعتمد عليه، ويثق بمداواته، وكان له منه الجامكية الوافرة، والافتقاد الكثير».

ولدوره المهم، في هذه المرحلة، ولا سيما بعدما أسن، وشاخ، فقد خاف عليه البعض، من أن يموت، ويضيع علمه وفائدته، وألاّ يعتاض عنه، لأنه كان أعلم الأمة، في مهنة الطب، فأخذوا يحتاطون لمستقبلهم الصحّي، ويسألونه، أن يرشدهم إلى القواعد الصحّية، الواجب اتباعها بعد موته.

جاء في المصدر السابق [ص 219] قوله: «وقيل: إن بعض الملوك، لما رأى تياذوق، وقد شاخ وكبر، وخشي أن يموت، ولا يعتاض عنه، لأنه كان أعلم الناس، وأحذق الأمة، في وقته بالطب، فقال له: صف لي، ما أعتمد عليه، وأسوس نفسي، وأعمل به أيام حياتي، فلست آمن، أن يحدث عليك حدث الموت، ولا أجد مثلك، فقال تياذوق: أيّها الملك، بالخيرات أقول: لك عشرة أبواب، إن علمت، واجتنبتها؛ لم تعتل مدة حياتك، وهذه عشر كلمات: - لا تأكل طعاما، وفي معدتك طعام؛ - لا تأكل، ما تضعف أسنانك عن مضغه، فتضعف معدتك عن هضمه؛ - لا تشرب الماء على الطعام، حتّى تفرغ ساعتين، فإن أصل الداء التخمة، وأصل التخمة الماء على الطعام؛ - عليك بدخول الحمام، في كلّ يومين مرة واحدة، فإنه يخرج من جسدك، ما لا يصل إليه الدواء؛ - أكثر الدم في بدنك، تحرس به نفسك؛ - عليك في كلّ فصل، قيئة ومسهلة؛ - لا تحبس البول، وإن كنت راكبًا؛ - اعرض نفسك على الخلاء، قبل نومك؛ - لا تكثر الجماع؛ - لا تجامع العجوز، فإنه يورث الموت الفجاءة».

لقد كان تطبيب تياذوق بشكل عام، مبنيًا على

الخبرة وتجاربه في الحياة، ولم يكن معتمدا على دراسات أكاديمية، أو منهجيّة، يركب الأدوية والعقاقير ويمزجها، ويجعل لكل داء دواء، إضافة إلى نصح مرضاه، باتباع القواعد الصحّية المطلوبة. وها هو ذا ينصح الحجاج، كما جاء في المرجع السابق، ويقول له: «أربعة تهدم العمر، وربما قتلن الإنسان، وهي: ـ دخول الحمام على البطنة؛ ـ المجامعة على الامتلاء؛ ـ أكل القديد الجاف؛ ـ شرب الماء البارد على الريق».

لقد كان تياذوق معالجا ذا خبرة، ومعرفة واسعة، في تركيب الأدوية، ودقّها ومزجها، وطريقة حفظها.

جاء في كتاب أعلام الحضارة العربية الإسلامية ـ المجلّد الأول ـ زهير حميدان ـ تحت رقم 121 قوله: «تياذوق طبيب الحجاج بن يوسف الثقفي، معالج له معرفة بتركيب الأدوية».

وجاء في الفهرست لابن النديم [الجزء الأول ص 422] قوله: «تياذوق، مطبب الحجاج، وعامل لملكه». لقد كان تلاميذه كثرا، أجلّوه، وتقدموا بعده، وأدرك بعضهم الدولة العباسية».

وجاء في كتاب أخبار العلماء، للوزير جمال الدين أبي الحسن، ابن القاضي الأشرف، يوسف القفطي [ص 74]، قوله: «تياذوق، طبيب من صدر الإسلام، مشهور في الدولة الأموية؛ اختص بخدمة الحجاج بن يوسف الثقفي، وله تلامذة أجلّوه، وتقدموا بعده، ومنهم من أدرك الدولة العباسية، كفرات بن شحناثة، أو سخياثة، طبيب، مات زمن المنصور».

آثاره

كتب تياذوق بالسريانية والعربية، وله آثار جليلة، وعديدة، ترجمت فيما بعد للعربية والفارسية: 1 ـ كناش كبير، يحتوي على تعريف للعقاقير، وكيفية جمع المفردات، ودقّها، ومزجها، وطريقة حفظها واستعمالها، أهداه لابنه؛ 2 ـ مقالة في إبدال الأدوية، ذكر فيها، اسم الأدوية، وصفاتها، ومنافعها، وقد ذكرها الرازي في كتابه الحاوي؛ 3 ـ قصيدة في حفظ الصحّة، ترجمها ابن سينا إلى الفارسية، في بنكيبور برقم 4/ 108؛ 4 ـ الفصول في الطبّ، باريس ضمن مجموعة برقم 139 من الورقة 9 ـ 10.

المصادر والمراجع

● حمدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، المجلد الأول؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء؛ ● ابن النديم، الفهرست، الجزء الأول؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين.

جوزيف أسمر ملكي
القامشلي ـ سوريا

تيام، الشيخ محمد علي

(1235هـ/1820م - 1328هـ/1911م)

ولد محمد علي تيام ببلدة «هيريلاوو» بـ«فوتاتورو» (السنغال)، وحفظ القرآن الكريم على يد والده، ثم درس علوم عصره، وقد أظهر موهبة لغوية كبيرة منذ نعومة أظفاره، فقرض القريض بنوعيه، العربيّ والأعجميّ، في عمر لا يتجاوز خمسة عشر عاما. لازم الحاج عمر تال في تنقلاته داخل «فوتاتورو»، ولم تمنعه شواغل الشيخ من أن يأخذ منه حظّه من العلم والمعرفة.

عندما قرر عمر تال الهجرة والجهاد، كان محمد علي تيام ذراعه وسجلّه الخاص، رافقه في حلّه وترحاله من «فوتاتورو» إلى نباني (غامبيا والسنغال)، ومنها إلى «فوتاجالون» بـ«غينيا»، وأخيرا بلاد «ماسينا» و«مالي». وكان في كلّ هذه المناطق يسجل نشاط الشيخ قبل أن ينام ليلا، إضافة إلى ما كان يرويه الشيخ عن نفسه وعن العلماء الذين التقى بهم، وناقشهم أثناء رحلته إلى الحجّ، وعن الطرائف والغرائب التي لقيها في البلدان التي زارها [محمد علي تيام، حياة الحاج عمر تال، القصيدة الفلانية، ص IX-IV].

إلا أن القدر أراد أن يفرّق بين الشيخ وتلميذه وذلك في مدينة «حمد الله» (عاصمة ماسينا) حين هزم الحاج عمر الفلانيين في ماسينا بقيادة أحمد بن أحمد لوبو. وقد كانت هذه المعركة وخيمة على الطرفين ممّا جعل الشيخ يشعر بقلق شديد كأنه كان يعرف أن الفلانيين في هذه المنطقة ينتظرون الوقت المناسب للانقضاض عليه بعد قتل أميرهم أحمد لوبو عام 1863م. وبعد ذلك بعام قتل الحاج عمر بدوره في مغارة «داغمبري» عام 1864م، فخلفه ابنه أحمد عمر تال الذي هزم الفلانيين شرّ هزيمة، ولكنه لم ينعم بالاستقرار طويلا، فقد زحفت عليه القوّات الفرنسية بقيادة أرشينارد، فهرب تاركا وراءه بعض أعوانه ومنهم محمد علي تيام.

ولم يعد محمد علي تيام إلى بلاده «فوتاتورو» عندما رأى أن شيخه قد خسر المعركة، بل عكف يكتب سيرته. وفي عام 1890م أنهى عمله فأراد أن يرحل من مدينة «سيقو» إلى حمد الله حاملا معه كنزه الثمين: سيرة الحاج عمرتال، ليريه ابنه أحمد بن عمر تال عساه يكافئه على ما بذل من جهد. لكن الجنرال أرشينارد حال بينه وبين السفر إلى «حمد الله» وأمره بالبقاء في «سيقو» أو الرجوع إلى «فوتاتورو» فاختار الثاني، وهو يناهز الستين من العمر، إذ العمر يمضي والعدوّ يحتلّ مزيدا من الأراضي، والمنطقة تزداد وهنًا على وهن، فرجع إلى مسقط رأسه «هيريلاوو» ومعه هذا الكنز الثمين الذي لولاه لما كان لنا اليوم من حياة الحاج عمرتال إلاّ ما يدوّنه المستعمر إلى جانب القصص والأساطير التي ينسجها السكان المحليّون، وهي معطيات

يعبّر بعضها عن حبّ هذا الرجل المجاهد، وبعضها الآخر ينسب إليه خوارق وكرامات لا تكون إلاّ للمولى عزّ وجلّ، مثل القول بأنّه لم يمت بل اختفى عن الأنظار، وإنه سيعود يوما لإحياء دولته وطرد الفرنسيين من إفريقيا. أما محمد علي تيام، فلم يكن يكلّفُ نفسه مزيدًا من العناء، بل كان يترك كلّ واحد منهم يعبّر عن حبّه للحاج عمر تال كما أراد. وفي عام 1911م استيقظت بلدة «هيريلاوو» لتجد آخر رفيق لعمرتال قد رحل تاركا لهم قصيدة فلانية عن حياة الحاج عمر [هنري غادن، ص XI]. وقد كوّن محمد علي تشام عددا من التلاميذ، نذكر منهم: أحمد المختار صاغو، وسعيد نور عمار، وغيرهما من المشايخ والعلماء.

آثاره

- سيرة الحاج عمر، نشره هنري غادن عام 1933، وهو يناهز ألفا وخمسمائة بيت باللغة الفلانية بلهجاتها الشرقية والغربية، وقد قال عنه سنغور (رئيس السنغال الأسبق): «إنه أجمل شعر مكتوب في اللغات الإفريقية بالحرف العربي» [ليوبولد سيدار سنغور (المقدمة) على ترجمة القرآن إلى الفلانية لعمر با، ص2 ـ 5].

المصادر والمراجع

- أبو بكر خالد با، نبذة من تاريخ فوتي السنغالية ومجاري الدعوة الإسلامية في إفريقيا السوداء، القاهرة، مطبعة الرسالة 1956.
- Mouhamed Ali Tyam: La vie d'El Hadj Omar. Qalida en Poular, Franscriptions, Traduction, notes et glossaire par Henri Gadcm, I.E. XXI, Paris, 1933.
- Leopold Sedar Senghor, (Préface) Coran, Français. Peul, Par Oumar Ba, Harmathan, Paris, 1982.

الحسن سعيد جالو
جمهورية غامبيا

ابن التيّاني، تمام بن غالب بن عمر

(ت 433هـ/ 1041م)

تمام بن غالب بن عمر القرطبي المرسي أبو غالب؛ لغوي أندلسي، قد تدل نسبة التيّاني على بائع التين. والملاحظ أن مرسية التي سكنها مشهورة بإنتاج التين الجيّد، على أن ياقوت يميل إلى اعتبارها نسبة إلى تيان وهو ماء في ديار بني هوزان [معجم الأدباء، 7/ 135].

عاش ابن التّياني مخضرمًا بين القرنين 4 ـ 5هـ/ 10 ـ 11م. وهي فترة اندلعت فيها الفتنة الكبرى بالأندلس سنة 399هـ/ 1008م،

وانتهت بسقوط الخلافة الأمويّة بقرطبة سنة 422 هـ/ 1030 م، فقامت على أنقاضها مجموعة من الدّويلات عرفت بدول الطوائف اقتسم النفوذ فيها العرب والبربر والصقالبة، وكانت بعض المدن التي عاش فيها ابن التياني كمرسية والمريّة من نصيب الفتيان الصقالبة كمجاهد وزهير وخيران العامريين. توفي ابن التياني بالمريّة، وكان قد استدعاه إليها عبّاس والد الوزير أحمد بن عبّاس، وزير زهير العامري صاحب المريّة، لتعليم ابنه بها.

وقد اختلفت المصادر في تحديد تاريخ وفاته، قال ابن خلكان: «توفي بالمريّة في إحدى الجماديين سنة 436هـ/ 1044م أو 433هـ/ 1041م» [وفيات الأعيان].

وحدده صاحب [بغية الملتمس] في سنة 421هـ / 1030 م، والمرجح أنّ وفاته كانت بالمرية سنة 433هـ / 1041م [بغية الوعاة]، لأنّ هذا التاريخ ورد عند أغلب الذين ترجموا له.

أخذ ابن التياني علوم اللغة عن أبيه وعن أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت 379هـ/ 989م). ولم يمنعه هذا التخصّص من أن يكون مطّلعا على فنون من المعرفة شتّى، في عصره. فقد كان من كبار رواة شعر أبي تمّام بالأندلس، أخذه عن أبيه غالب، وكان غالب أخذ شعر الطّائي عن أبي سعيد عثمان بن سعيد الصيقل (مولى زيادة الله الثاني الأغلبي) عن أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني (من كتاب الدولة الأغلبية ت 298هـ/ 910م) عن أبي تمّام حبيب الطّائي.

وقيل فيه إنّه كان مقدّما في علم اللسان أجمعه [إنباه الرواة، I/ 260]؛ كما كان مذكورا بالديانة والعفّة والورع.

قال ياقوت الحموي: «إنّه كان ثقة صدوقا» [معجم الأدباء]. من ذلك ما وقع له مع الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبد الله العامري الذي وجه إليه أيام غلبته على مرسية ألف دينار أندلسيّة على أن يزيد في ترجمة كتابه (ممّا ألفه لأبي الجيش مجاهد)، فرد الدنانير وأبى ذلك، ولم يفتح في هذا بابا البتة.

ومن أشهر تلامذة ابن التّياني: أبو عبد الله محمد بن مضي النحوي، وأبو بكر محمد بن هشام المصحفي أخذ عنه كتابه السابق الذكر.

آثاره

1 ـ تلقيح العين في اللغة، اتفقت جل المصادر على أنه جمّ الفائدة. وهو الكتاب الذي رفض ابن غالب أن يضع مجاهد العامري في مقدّمته؛ 2 ـ أخبار تهامة؛ 3 ـ شرح الفصيح لثعلب، كتاب الفصيح لثعلب من كتب التصويب اللغوي، حاز شهرة كبيرة على صغر حجمه، فتعددت شروحه والتعليقات عليه. وقد شارك الأندلسيون في ذلك: ومن أشهر هذه الشروح الأندلسية التي وصلتنا شرح ابن هشام الرخمي (ت 577هـ/ 1181م)، وأبي جعفر اللبلي (ت بتونس 691هـ/ 1291م). وهذا يدلّ على أنّ شرح ابن التّياني قد سبق زمنيّا هذين الشرحين. وأكيد أنهما اعتمدا في شرحيهما عليه؛ 4 ـ فتح العين على كتاب العين؛ 5 ـ الموعب في اللغة (من أوعب إيعابا الشيء: أخذه بأجمعه ولعله الموعب في اللغة أي الموسّع).

نوّهت المصادر به، وذكرت أنّه لم يؤلّف مثله اختصارا واكتنازا. ذكر الزركلي [الأعلام، 2/ 87] أنّه مخطوط دون أن يحدّد مكان وجوده. وذكرت بعض المصادر خطأ [وفيات الأعيان، 3/ 106] أنّه هو الكتاب الذي رفض أبو غالب أن يضع في مقدمته اسم مجاهد العامري.

المصادر والمراجع

● ابن بشكوال، الصلة، تح. عزّت العطار الحسيني، ط القاهرة 1955، 1/ 122، رقم الترجمة 283؛ ● الحميدي، أبو عبد الله محمد (ت 488هـ/ 1095م)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح. محمد بن تاويت الطنجي، ط القاهرة 1952؛ ● ابن خير الاشبيلي، أبو بكر محمد (ت 575هـ/ 1179م)، فهرسة ما رواه عن شيوخه، بيروت 1979 م، دار الآفاق الجديدة؛ ● الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة (ت 599 هـ/ 1202 م)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ط. دار الكتاب العربي 1967م؛ ● الحموي، ياقوت (ت 626هـ/ 1228م)، معجم الأدباء، مكتبة عيسى الحلبي بمصر، ط 2/ 1992، 7/ 135؛ ● ابن خلكان، أبو العبّاس أحمد (ت 681هـ/ 1282م)، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، ط بيروت، دار الثقافة، 1/ 300؛ ● القفطي، أبو الحسن علي (ت 697هـ/ 1298م)، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تح. محمد أبو الفضل، ط. القاهرة 1950، 1/ 260؛ ● الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تح. ليفي بروفنسال، القاهرة 1937، 182؛ ● السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ/ 1505م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل ابراهيم، ط 1979، دار الفكر، 1/ 478؛ ● الخوانساري، محمد باقر الموسوي، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، ط. مكتبة إسماعيليان، تهران، 2/ 161 ـ 162؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ط. إستانبول 1951، أعيد طبعه بالأوفست، منشورات مكتبة المثنى بغداد، 5/ 245 .

د. حسن جلاّب

كلّية اللغة العربيّة ـ مراكش

د. جمعة شيخة

جامعة تونس

التيزيني، محمد بن محمد الدمشقي

(828هـ/1424م ـ 911هـ/1505م)

محمد بن محمد بن أبي بكر الدمشقي الحلبي الحنفي التيزيني ـ نسبة إلى بلدة تيزن من قرى حلب كانت تعد من أعمال جند قنسرين، فلكي، ورياضي.

ولد محمد بن محمد التيزيني في مدينة حلب في سنة 828هـ، ونشأ في بيئة علمية، وتعلّم القرآن والحديث وأخذ العلوم الفلكية عن زوج أمه الشمس الحلبي الذي اختصر زيج ابن شاطر، وعن شيوخ آخرين، وعاش التيزيني في دمشق وأصبح رئيس الموقتين في الجامع الأموي بدمشق. وصنّف جدول الكواكب الثابتة المحرّكة البعد والمطالع. وقد توفّي التيزيني في يوم السبت الثالث من صفر 911هـ.

آثاره

ألّف محمد بن محمد الدمشقي التيزيني عدة رسائل في علم الفلك وآلاته: 1 ـ رسالة بالعمل بالصفيحة الزرقالية؛ 2 ـ رسالة في علم الوقت؛ 3 ـ استخراج درجة الشمس إلى تمام ألف سنة؛ 4 ـ رسالة في معرفة ربع الشيكازية للأعمال الفلكية؛ 5 ـ رسالة مختصرة في العمل بربع الدائرة الموضوعة على المقنطرات المطوية؛ 6 ـ رسالة في العمل بالربع المجيب الأفاقي؛ 7 ـ وضع الريب في أعمال الجيب؛ 8 ـ رسالة في العمل بالجيب وأن القطب بطرق قوس الارتفاع؛ 9 ـ جدول الكواكب الثابتة المحركة البعد والمطالع.

المصادر والمراجع

● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لبنان، ج8، ص55؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، 1977، ج2، ص160؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، دار الفكر، بيروت، ج2، ص236؛ ● حميدان، زهير، 1996، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، وزارة الثقافة دمشق، ج4، ص338؛ ● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج2، ص441؛ ● السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، ج11، ص195؛ ● الغزي، نجم الدين، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، 1945، ج1، ص13؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج11، ص199 .

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

التيشيتي، الشريف حمى الله

(1107هـ/1695م - 1169هـ/1755م)

اشتهر بنسبته إلى موطنه تيشيت، واسمه كاملا الشريف حمى الله بن الشريف أحمد بن الإمام أحمد ينتهي نسبه إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال عنه صاحب «فتح الشكور»، وبعد أن ساق سلسلته وافية: «فنسبه لا يدافع فيه». وكان أحد أجداده عبد المؤمن بن صالح، مؤسس مدينة تيشيت.

ولد الشريف حمى الله عام سبعة ومائة وألف، ونشأ في بيئة علمية ازدهرت فيها الدراسات الفقهية أكثر من غيرها من العلوم، ولا تسعفنا المصادر التاريخية إلا بالنزر اليسير عن مساره التعليمي، بيد أننا نفترض أنه بدأ الدراسة مبكرا على عادة أقرانه في أوساط الزوايا الشنقيطية، إذ كان محاطا في أسرته بلفيف من العلماء، فقد أخذ عن خاليه الفقيهين الشريف محمد فاضل (ت 1160هـ) والشريف أحمد بن فاضل (ت 1153هـ). وبتتبع سلسلة الاجازات نرى أن هذين الفقيهين أخذا عن الحسن بن أغبد الزيدي (ت 1122هـ)، الذي يرتفع أخذه بوسائط إلى سيدي محمد الحطاب شيخ المالكية في عصره.

وبذلك يتضح أن الشريف حمى الله قد وصلت إليه خلاصة النقاشات الفقهية التي دارت بين شيوخه وبين جهابذة العلماء المالكيين في الأقطار المجاورة، إذ ذكر العلامة ابن حامدون في موسوعته أن ابن أغبد الزيدي ناقش العلامة الخرشي المصري في أربعين مسألة من شرحه على مختصر خليل، واستدرك عليه نحوا من ثمانين مسألة أخرى.

وسنرى أثر هذا الجدل الفقهي في عطاء الشريف حمى الله العلمي الذي كرس جانبا كبيرا منه لتحرير المسائل الفقهية وتنقيح الأحكام موضع الخلاف. إلا أن عنايته بتمحيص الفروع وتدقيقها لم تصرفه عن التعمق في الأصول والبحوث الكلامية والمنطقية حتى قال عنه صاحب «فتح الشكور»: «كان رحمه الله تعالى عالما بعلوم المنقول والمعقول».

وباعتبار التراكمات العلمية ومنظومة القيم التي تحلى بها الشريف حمى الله بوصفه سليل الدوحة الشريفة كان جديرا بأن يصفه البرتلي بقوله: «كان صدرا من صدور العلماء وفخرا من مفاخر النجباء، وسخيا من الأسخياء، جمع العلم والعمل، والسخاء والمروءة التامة، وكانت تلك عادة أسلافه الطاهرين» [فتح الشكور، 90].

ولم تكن هذه الإشادة اعتباطا بقدر ما تدل على عظم المكانة التي حظي بها الشريف حمى الله في نفوس معاصريه ومن بعدهم، اعترافا منهم بالجميل الذي أسداه بكشفه عن

عويصات طالما أقضت مضاجع الفقهاء. فهذا الفقيه محمد بن علي الولاتي ينوه بتعليق للشريف حمى الله أظهر خفايا معنى قول خليل «وخصصت نية الحالف».

أخفيتُ ما أخفى الجهابذة الأولى
بعبارة أعيت تلامذة الجدل
واتيتُ من تيارها بلآلئ منثورةٍ
لا يُبتغى منها بدل
فجزيت خيرا من مقرّر كلمة
تقريرها يغني المحاورَ إن عدل

وقد حوى قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي رسالة تقع في بضع وأربعين صفحة من الحجم الصغير، ناقش فيها الشريف حمى الله العلامة سيدي محمد الخرشي المصري في العديد من المسائل وصوب ما يراه على ضوء ترجيحات النقول، من ذلك:

- اليمين في القسامة، حيث توصل بعد النقاش إلى أنها «تكون بالله الذي لا إله إلا هو خلافا لبعض الشراح»، وعنى بذلك الخرشي ولم يسمه تأدبا معه.

- رد قول الخرشي «إن الأشقاء في المشتركة يرثون للذكر مثل حظ الأنثيين» بأن ذلك خطأ صراح لأن الإخوة للأم والأشقاء إنما يرثون فيها بالأم فقط، والذكر والأنثى فيمن يرث بالأم سواء.

- ناقش الخرشي في مسائل من الدماء، ورد أدلته المستقاة من «الجواهر»، وقال: «إن في موطأ مالك ما هو أولى بالاستدلال من نص الجواهر»، وأورد أقوال مالك لحسم موضع الخلاف.

ولئن كان الشريف حمى الله يعترض على أقوال كبار علماء المذهب من خارج القطر عندما يرى أنّ أدلتهم ضعيفة، فقد كان ذلك مرجعا للخلافات بين علماء منطقته ونستشف من فتاويه أن القضايا المطروحة عليه كانت مثار جدل بين الفقهاء، وأن المستفتي في حيرة من أمره، ويطلب الرد الشافي من الشريف حمى الله؛ ويظهر ذلك عادة من صيغة السؤال الذي يطرح أكثر من احتمال، وأحيانا يسأل صراحة عن رأيه فيما قاله أحد كبار العلماء، «وسئل هل ما قاله بعض التلاميذ إن سيدي علي الأجهوري أجاب بأن البادي الصحيح كالمسافر إن عدم الماء صحيح؟».

وتبرز إجابات الشريف حمى الله درجة عالية من التمكن من النصوص والقدرة على تنزيل الأحكام على الوقائع.

على أن استقراء النوازل المطروحة عليه ينبئ عن طبيعة الانشغالات التي كانت تستأثر باهتمام الطبقة العالمة في مجتمعه. ومن ذلك الإشكاليات المترتبة على التركيبة السكانية للبلاد وعلاقاتها بالمجموعات المجاورة من حيث انطباق أحكام الإسلام عليها؛ كما أن البيئة البدوية وقضاياها كانت حاضرة بقوة في فتاوي الشريف حمى الله، مثل مشاكل المياه والطهارة وأحكام السفر والتنقل لانتجاع المراعي وطريقة إخراج الزكوات بمختلف أنواعها.

وتتميز الاستفتاءات ذات الطابع الاجتماعي بتركيز واضح على مسائل النشوز والخلاف بين الزوجين، مما يستشف منه الدور البارز للمرأة البدوية في عصر الشريف حمى الله ومكانتها في المجتمع كعنصر فاعل يتمرد

أحيانا على سيطرة الرجل ويطالب بالحقوق الشرعية المخولة له.

وكانت لمجموعة فتاوي الشريف حمى الله شهرة كبيرة في أوساط الزوايا، واعتمد عليها الكثيرون لصحة أنقالها واختصار أجوبتها التي غالبا ما تكون القول الفصل في محل الاستشكال؛ ولذا قال عنها البرتلي صاحب فتح الشكور إنها «فتاوي مجموعة مشهورة عم النفع بها في إقليمنا، لصحتها وبركة مؤلفها، وحسن اعتقاده فيها».

ولشح المصادر التي تتناول حياة المترجم له لم نتمكن من معرفة التلاميذ الذين صدروا على يدي الشريف حمى الله ما عدا سيدي المختار بن الطالب سيدي أحمد القلاوي، لكن تأثيره في العلماء المعاصرين له والذين جاؤوا بعده كان كبيرا بدليل كثرة المحيلين إليه والمنوهين به.

■ آثاره

لم تسجل المراجع التي عدنا إليها من مؤلفات الشريف حمى الله سوى كتابه «تحصيل البيان والإفادة» وهو شرح لمنظومة الأوجلي في العقائد، وكذلك شرح لمنظومة له في التوحيد تناولت معاني كلمة الشهادة، إضافة إلى التعليق الذي أشرنا إليه آنفا حول قول خليل «وخصصت نية الحالف».

أمّا فتاويه فقد راجت على نطاق واسع في أغلب محاضر البلد، وقد تم تحقيقها ونشرها مرقونة في معهد ابن عباس للدراسات الاسلامية سنة 1990.

■ المصادر والمراجع

● حمى الله، الشريف، نوازل الشريف حمى الله، ج 1، معهد ابن عباس للدراسات الاسلامية 1990، 7 وما بعدها؛ ● البرتلي الولاتي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني وآخر؛ دار الغرب الاسلامي، بيروت 1981، 89 ـ 90 ـ 91؛ ● ابن حامدون، المختار، حيّاة موريتانيا، ج 2، الدار العربية للكتاب 1990، 12 ـ 15؛ 18؛ 20؛ ● ابن زيد، سيد محمد، معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي، منشورات سعيدان، تونس 1996، 18؛ ● النحوي، الخليل، بلاد شنقيط، المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1987، 558.

د. سيدي محمد بن محمد عبد الله
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

التيشيتي، محمد المختار بن أحمد بن انباله

(1299هـ/1881م ـ 1364هـ/1944م)

يعرف نفسه في مقدمة مؤلفاته باسم محمد المختار بن أحمد بن انباله التيشيتي، وتضيف له مصادر أخرى النسبة التالية: «الفهري، القرشي»، إذ إن النسابين يثبتون أن نسبه ينتهي إلى القائد الفاتح عقبة بن نافع الفهري، يقول ابنه محمد:

وما لأناس ننتمي غير أننا
بنو عقبة الداعي المستجاب بن نافع

ولد سنة 1299هـ ببلدة، انبيديع تنقاليت، في ولاية الحوض الشرقي من موريتانيا، على بعد سبعين كيلومترا من مدينة تنبدغه الحالية. ونشأ في بيئة تعتمد على انتجاع الرعي وحياة الترحال، ولكنها زاخرة مع ذلك بالمحاضر والعلماء.

بدأ محمد المختار بن انباله دراسته في سن مبكرة، وتشير إحدى الروايات إلى أنه شرع في التحصيل المعرفي وهو في الخامسة من عمره. وقد ظهرت عليه علامات النبوغ مبكرا، فانكب على حفظ القرآن الكريم واستظهار متون الرسم والتجويد حتى نال الإجازة في مقرأ نافع، ثم تعمق في الدراسات القرآنية حتى حصل من علماء المنطقة على إجازات أخرى في القراءات السبع خاصة من شيخه عالي بن آف، إلى جانب دراسة اللغة والنحو والفقه والأصول والحديث، مما بوأه مكانة سامية في هذه العلوم، وقد أخذ عن العديد من الشيوخ المشهورين بالعلم والصلاح، منهم والده أحمد، وعمه محمد بن انباله، وعالي بن آف، ومحمد بن أحمد الصغير، ومحمد يحيى بن سليمه.

وبعد أن تضلع محمد المختار من جملة العلوم المدرسة في محاضر منطقته وبلغ فيها شأوا عاليا، توافد عليه الطلاب والمستفتون بوصفه عميد أسرة أهل انباله الذين حملوا لواء العلم متسلسلا منذ عهود طويلة، فجده انباله كانت له إجازات من أشهر علماء عصره مثل سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (ت 1233هـ).

اتصل الشيخ محمد المختار بن انباله بإمارة أهل لمحيميد وخاصة الأمير محمد محمود، وكانت له عندهم منزلة سامية، وبالغوا في إكرامه حتى إنه كان يقول: «إذا نظرت حولي وفي زوايا بيتي لا أرى إلا شيئا أهداه محمد محمود»، مما يدل على المكانة التي كان يتمتع بها والهيبة التي حظي بها لدى العامة والخاصة إذ كان يعتبر ضيفا كريما على سكان المنطقة رغم أن حيه كان متميزا وملجأ للتشبثيين النازحين إلى الحوض.

وباستقراء مجموعة من الإشارات الدالة اجتماعيا يتبين أن الشيخ محمد المختار استطاع أن يستقطب نفوذا روحيا كبيرا في

محيطه، فكان محط رحال الوافدين لطلب العلم والبركة، حتى إن فرق القنص لم تكن تخرج إلا بعد أن يزودها بالدعاء، ومن تأثيراته المباشرة على إمارة أهل لمحيميد اعتناقهم الطريقة التجانية على يده، واستشارتهم له في الشؤون القضائية.

وكانت للشيخ محمد المختار بن انباله اتصالات بعلماء عصره مثل العلامة محمد بن أعمر دكر السوداني الأصل الذي ناظره في ميدان التصوف دفاعا عن شيخه الشيخ حماه الله، ذلك الشيخ الذي ارتبط به المترجم له ارتباطا وثيقا، وخصه بالكثير من المدائح.

وتميزت علاقة الشيخ محمد المختار مع الفرنسيين بالتوتر لارتباطه بالشيخ حماه الله، وكانت له مع السلطات المحلية للإدارة الاستعمارية مواقف شجاعة اتسمت بالرفض القاطع لتعسف تلك السلطات.

على أن مسلك الزهد والانغماس في البحور العرفانية نأيا بالشيخ محمد المختار عن الانهماك في الشؤون الدنيوية البحتة، بل كرس حياته لمسيرته العلمية والروحية ببث المعارف وتربية النفوس على الخير والفضيلة.

وقد اقتبس من نبراسه ثلة من الفضلاء نذكر منهم:

- ابنه امحمد، شيخ محضرة في تنبدغه؛
- وابن أخته الشيخ التراد بن العباس، أحد أبرز شيوخ القادرية في القطر الموريتاني؛
- وأحمد بن محمد الأمين التشيتي؛

ومحمد عبد الله بن الإمام القلاوي؛

- ومحمد بن سيدي بن يد، وغيرهم.

تعددت المجالات التي ألف فيها الشيخ محمد المختار، وكانت له اليد الطولى والباع الفسيح في عدة علوم، وتلقى العلماء مصنفاته بالقبول، فكتب إليه أحمد بن محمد الأمين قاضي تشيت: «إن المدار عندي في الأحكام الشرعية على موافقة ما عندكم»؛ وقال عنه الفقيه سيد امحمد بن أحمد معلوم: «لقد عصمه الله من الخطأ مذ عرفته»، إلى غير ذلك من الشهادات التي تدل على مكانته العلمية.

استمر الشيخ محمد المختار في عطائه العلمي وإمداده الروحي حتى وافاه الأجل المحتوم في فاتح شوال سنة 1364هـ في تلال «الواعر» قرب ولاته وهو في طريقه إلى الحج، وإلى ذلك أشار العلامة محمد بن المحفوظ في أرجوزته عن وفيات الأعيان بقوله:

وقبل ذا موت الفتى العالم
محمد المختار نجل مسلم
وكان فارق البلاد خارجا
لحجة بها يرد المخرجا
فجاء فيه قول من قد انشدا
فعاقه حمامه دون المدى

وفيها يؤبن الفقيد بقوله:

وكان ذا نحو ذا تصريف
وكان ذا فقه بلا تحريف
وكان حافظا لمقرا السبعه
وفي الحديث علمه ذو سعه

آثاره

لقد تمّ تحقيق بعض مؤلفات الشيخ محمد المختار ونالت حقها من الدراسة والتحليل في مذكرات التخرج بالمعاهد الموريتانية، مثل:

1 ـ الإيضاح والبيان، حققه حفيد المؤلف؛ 2 ـ منهاج السنة، تم تحقيقه في معهد ابن عباس للدراسات الإسلامية 1988؛ 3 ـ نصيحة الأقوام في بحث على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، تم تحقيقه في المعهد العالي للبحوث والدراسات الإسلامية 1998؛ 4 ـ شرح إضاءة المقري؛ 5 ـ شرح نظم عبيد ربه؛ 6 ـ شرح أسماء الله الحسنى؛ 7 ـ ابتهاج القلوب؛ 8 ـ شرح اختصار المنهج لمحمد يحيى بن سليمه؛ 9 ـ شرح اختصاره أيضا لمراقي السعود لسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم؛ 10 ـ سفر ضخم في علوم القرآن؛ 11 ـ الرد على محمد الخضر بن ما يأبى انتصارا للطريقة التجانية؛ 12 ـ غزوة بدر الكبرى، تأليف في السيرة النبوية؛ 13 ـ تأليف في فرض العين؛ 14 ـ أنظام كثيرة في الفقه تمتاز بحرصه على عزو الأحكام لأصحابها.

وقد تجاوزت شهرة كتب الشيخ محمد المختار نطاق محيطه الضيق، فهذا أحمد بن بو الأعراف أحد علماء تنبكتو يكتب إليه ملتمسا إمداده ببعض مصنفاته: «وتطلب من الله ومنك أن تتحفنا بما قدرت عليه من مؤلفاتك لأني سمعت أنك شرحت إضاءة الدجنة شرحا نفيسا فيه تحقيقات وتدقيقات، وسمعت أنك شرحت نظم التواتي المعروف بعبيد ربه، وألفت كتابا في الفقه قربت فيه ونفعت وسهلت، وكان عندي من قديم شرحك على منظومة محمد يحيى بن سليمه لاختصار المنهج حتى نسخ من عندي مرارا وانتفع به» [من رسالة بحوزة حفيد المؤلف].

المصادر والمراجع

● المؤلف، رسائل وفتاوي بحوزة حفيده وسميه محمد المختار بن انباله، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الذي أمدنا بإرشادات قيمة؛ ● ابن إزيدبيه، الشيباني، تح. منهاج السنة، معهد ابن عباس للدراسات الإسلامية 1988، 5 وما بعدها؛ ● ابن محمد البشير، طالب التلاميذ، تح. نصيحة الأقوام في الحث على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، المعهد العالي للبحوث والدراسات الإسلامية 1998، 7 وما بعدها؛ ● ابن حامدو، المختار، حياة موريتانيا، ج 2، الدار العربية للكتاب 1990.

د. سيدي محمد بن محمد عبد الله
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

التيفاشي، شرف الدين أحمد بن يوسف

(580هـ/1184م - 651هـ/1253م)

أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون بن حجاج بن ميمون بن سليمان بن سعد القيسي، التيفاشي القفصي، شرف الدين. موسوعي وأديب ومشارك في علوم عديدة، له شعر حسن ونثر جيد ومصنفات عديدة في فنون مختلفة. ذهب ابن فرحون والصفدي إلى أنّه توفي بالقاهرة ودفن بمقبرة باب النصر سنة 651هـ، غير أنّ ابن منظور ذكر في كتابه «نثار الأزهار» أنّه توفي بعد وفاة والده بمدّة، وعلى الأرجح في السنة الموالية. قال في هذا الصدد: «وقد كنت في أيام الوالد رحمه اللّه أرى تردد الفضلاء إليه... ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي في جملتهم وأنا في سنّ الطفولة، لا أدري ما يقولونه، غير أني سمعته يذكر للوالد كتابا صنفه أفنى فيه عمره واستغرق دهره، وأنه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب، وتوفي الوالد رحمه اللّه في سنة 654هـ وتوفي شرف الدين بعده بمدّة».

انحدر من كبار البيوتات، إذ كان عمّ أبيه محمد شاعرا، مدح عبد المؤمن بن علي عند دخوله إفريقية في سنة الأخماس. وقد نعت ابن سعيد والده أبا يعقوب يوسف بالشيخ القاضي. انتسب إلى تيفاش، قرية من قرى قفصة حسبما ذكر ذلك ابن فرحون. ولئن ظن كثير من الدارسين أن تيفاش المعنية تقع غرب مدينة الجزائر أو على طريق الجبال غرب الأربس، فإن ما ذكره ابن فرحون لا يدعو إلى الشكّ بكون الموضع يقع في مجال قفصة، وهو ما يعني أنّ هناك ثلاثة مواضع تحمل ذات الاسم. والثابت أنه ولد بقفصة، حيث أخذ من أبي العباس أحمد بن أبي بكر القدسي، ثمّ انتقل إلى تونس وواصل تعلمه بجامع الزيتونة، وأقبل على الأدب والعلوم الرياضية. رحل إلى مصر، فأخذ عن الطبيب عبد اللّطيف البغدادي، ومنها انتقل الى دمشق حيث التقى بتاج الدين بن الحسن الكندي. وسمع في مكة من أبي الفتح الكروخي.

رجع إلى تونس في تاريخ غير محدد، فولّي خطّة القضاء في مسقط رأسه قفصة، ونرجّح أن يكون هذا في آخر العشرة الثالثة من عمره أو في أوّل العشر الرابعة، أي حوالي سنة 610هـ/ 1215م. ثمّ ترك القضاء وقرّر الرجوع إلى المشرق فأخذ طريق البحر مُصطحبًا ماله وأبناءً ثلاثة له، فَفُجِعَ في ماله وأبنائه الذين غرقوا في البحر، ووصل هو إلى الإسكندرية. ولم يستقرّ بمصر بل سافر منها إلى بلاد الشام وأرمينية، والعراق، وفارس، ثم رجع إلى مصر سنة 630هـ/ 1232م فاستقرّ بها، وشغل خطّة القضاء، وقد كانت له خلال هذه الفترة **اتصالات واسعة بثلاثة أصناف من الناس:** **الأوّل** هم علْيَةُ القَوْم بين أعيان الدولة خاصّة، مثل الملك الكامل (615هـ/ 1218م - 635هـ/ 1238م) والوزير الصّاحب محيي

الدين محمد بن محمد الجزري (ت 651هـ/ 1253م) ـ وقد لقيه بالقاهرة ثمّ بجزيرة ابن عمر التي تولّى حكمها، والرئيس جمال الدين موسى بن يغمور (ت 663هـ/ 1265م) وبعض الأمراء. **والصنف الثاني** هم أدباء العصر وعلماؤه، ونخصّ منهم بالذكر بعض المغاربة، مثل أبي الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي (ت 636هـ/ 1239م)، وجلال الدين المكرّم بن أبي الحسن الأنصاري الإفريقي (ت 645هـ/ 1247م)، والد ابْن منظور مؤلّف لسان العرب، وقد ولد بالقاهرة من أب تونسيّ، فسمّي الإفريقي؛ وأبي محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار المالقي (ت 646هـ/ 1248م)، وأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت 685هـ/ 1286م) الذي جاء إلى القاهرة سنة 640هـ/ 1242م.

والصنف الثالث هم أصحاب الصناعات وخاصّة الجوهريين الذين نقل عنهم بعض العلم بالأحجار الكريمة في كتاب «أزهار الأفكار»، وقد ذكر منهم الشريف الجوهري الذي كان بمدينة القاهرة في حدود سنة 630هـ/ 1233م [التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تح. محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1977، 73 ـ 74]، والقاضي معين الدين بن ميسّر «أمين السلطان على معدن الزمرّد بالديار المصرية» [نفسه، 88]. ويمكن أن نقول إذن إن التيفاشي قد لقي في المشرق حظوة يسّرت له الحياة. ويبدو أنّه قد مارس بعض الصناعات، فقد ذكر أنّه صنع وهو في القاهرة أواني من اليشم وأهداها إلى «بعض الأمراء ممن يقتني اليَشَم ويحرص عليْه وعنده منه أوان. فلم يشك أنّ ما أهديته له معمول في الصين. فعرّفته أني عملته فأنكر ذلك حتّى أوْقفته على الدليل فيه، وصنعت له أواني على شكل مخصوص بقدر وزْنٍ مخصوص اقترح به، فصدق عند ذلك» [أزهار الأفكار، 195]، وقد كانت وفاته بالقاهرة سنة 651هـ/ 1253م، ودفن في مقبرة باب النصر بها.

آثاره

كانت للتيفاشي مشاركة في جلّ العلوم التي اهتم بها أبناء عصره، فكان من الموْسُوعيّين الجامعين بيْن أشتات المعارف، ثقافة وتأليفًا.

فقد تعاطى النظم والنثر، فكان شاعرًا أديبًا عالمًا. أمّا شعره فقد نشرت منه سبْع وعشرون قطعة جملة أبياتها 122 بيتًا، منها تسع عشرة في المختصر الذي وضعه ابن منظور (ت 711هـ/ 1311م) لموسوعة التيفاشي «فصل الخطاب» وسماه «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» [تح. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980]. وقد أضاف إليها محقق الكتاب إحسان عبّاس ست قطع ألحقها بمقدّمة التحقيق، ص 42 ـ 44، ومن القطع الثماني التي ذكر اثنان مثبتان في متن الكتاب، ويضاف إلى ما جمعه المحقق قطعتان وردتا في كتاب التيفاشي [نزهة الألباب بما لا يوجد في كتاب، تح. جمال جمعة، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن ـ قبرص، 1992، 300 ـ 301].

وشعر التيفاشي الذي وصلنا لا يخلو في جملته من جوْدة، ولكنّه لا يخرج عما يُعرف بشعر العُلماء.

أما كتبه فهي موضوع إشكال فكتابه فصل الخطاب الذي اشتهر به موسوعة في معارف شتّى وقد يكون بعض ما ينسب إليه مصنفات أخرى أو كلها، أقساما من هذا الكتاب:

1 - فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب، وهو موسوعة ضخمة. قال ابن منظور الذي اختصره إنّه في أربعين جُزءًا [سرور النفس، 6]. وإنّه قد سمع التيفاشي يقول إنّه «أفنى عمره واستغرق دهْره» [نفسه، 5]، وليس هو كتاب في فنّ بعينه بل هو جامع لجملة من العلوم والفنون، ونعلم أنّه قد انتهى من تأليفه حوالى سنة 642هـ/ 1244م لأن أبا محمد بن البيطار قد اعتمده ونقل منه في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» [ط. بولاق 1291هـ/ 1874م، 1/ 21] الذي ألّف في حدود 643 - 644هـ/ 1245 - 1246م، وقد ضاع كتاب «فصل الخطاب» ولم تبق من أجزائه الصحيحة النسبة إليه إلاّ ثلاثة هي: (أ) نثار الأزهار في الليل والنهار؛ (ب) طلّ الأسحار على الجلّنار في الهواء والنار، وقد بقي من هذين الجزئين المختصر الذي وضعه لهما ابن منظور ضمن المختصر العامّ الذي وضعه في عشرة أجْزاءٍ [الصفدي: نكت الهميان في نكت العُمْيان، ط. القاهرة، 1911، 276] لكتاب «فصل الخطاب»، وسماه «سرور النفس بمدارك الحواسّ الخمس»؛ (ج) متعة الأسماع في علم السّماع، وهو في الموسيقى، وقد أشير في بدايته إلى أنّه جزء من «فصل الخطاب»؛ 2 - نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، نشره جمال جمعة (1992). وهو كتاب في اثني عشر بابا جمع فيها التيفاشي أخبارا وأشعارا في الزنا واللواط تصف مظاهر من العلاقات الجنسية وخاصة في المدن التي زارها المؤلّف مثل تونس، والإسكندرية، والقاهرة، ودمشق، وبغداد. وقد ترجم الكتاب إلى التركية عالي أحمد بن مصطفى أفندي (ت 1008هـ/ 1599م) وسمى الترجمة «راحة النفوس» [رمضان ششن وجميل آقبكار وجواد أيزكي: فهرس مخطوطات الطبّ الإسلامي باللّغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، إستنبول، 1984، 156]؛ 3 - الوافي في الطبّ الشافي، وهو في الطب النبوي، جرد فيه كتاب «الطب النبوي» لأبي نعيم أحمد بن عبد اللّه الاصبهاني (ت 430هـ/ 1038م) وهذبه، وللكتاب ترجمة تركية قام بها أحمد بن إبراهيم بن محمد الداعي (ت 831هـ/ 1427م) وسماها «الشفاء في أحاديث المصطفى» [فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، 126]، 4 - رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه، وهو كتاب ذو منزع طبي صحّي، حظي بشهرة واسعة منذ القديم فترجم إلى الفارسية، وترجم إلى التركية مرتين: الأولى ترجمة ابن كمال باشا (ت 940هـ/ 1534م) بطلب من السلطان العثماني سليم الأول - وقد نسب الكتاب خطأ بعد ذلك إلى ابن كمال باشا - والثانية ترجمة رجل اسمه مير مصطفى بن حسين باشا [فهرس مخطوطات الطبّ الإسلامي، 155 - 156. [وينظر أيضًا: Pasha-Zange: Art.Kem U.L. in: Encyclopédie de l'Islam, Nlle Ed. vol. IV, Leiden-Paris, 1978. p.914] ، كما ترجمه مجهول إلى اللغة

الإنكليزية بعنوان «The Old Man Young Again»، وصدرت الترجمة في جزئين بباريس، 1898 ـ 1899، ونشر بالعربية أكثر من مرّة في طبعات تجاريّة، منها: بولاق 1309هـ/ 1891م، والقاهرة، 1316هـ/ 1898م؛ 5 ـ أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، وهو في الأحجار الكريمة، قد إشتمل علي خمسة وعشرين حجرًا كريمًا قسم المؤلف القوْل في كلّ منها إلى ستة عناصر هي: (أ) التعريف اللغوي بالاسم، (ب) علّة تكوّنه في معدنه، (ج) معدنه الذي يتكوّن فيه، (د) ذكر جيّده ورديئه، (هـ) ذكر خواصّه ومنافعه، (و) ذكر قيمته وثمنه. على أنّ العنصر الأوّل لم يظهر إلاّ في البابين الأوّل الجوْهر، والثاني، الياقوت، أمّا بقية العناصر فتكاد تكون قارّة. وللثاني منها قيمة كيميائية، وللثالث قيمتان جيولوجية وجغرافية، وللرابع والسادس قيمتان، اقتصاديّة وحضاريّة، وللخامس قيمة طبّية. وقد اعتمد التيفاشي فيه مصادر كثيرة منها اليوناني مثل أرسطو (في كتاب منحول اليه) وجالينوس، وبلينوس، ومنها العربيّ مثل يوحنّا بن ماسويه، وأبي يوسف الكندي، وأبي جعفر أحمد بن الجزّار، لكنه اعتمد على الثقات من المخبرين أيضًا، وعلى تجاربه الخاصّة التي اكتسبها من تجواله الكثير بالبلاد الإسلامية، ومكّنته من الإتيان بإضافات علميّة كثيرة في تصنيف الأحجار وتحليل مكوّناتها واختبار الجيّد والرديء منها.

وقد لقي الكتاب حظوة عند المهتمين بالمعدنيات عند العرب منذ القديم. فاعتمده عبد اللّه بن البيطار في كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» بُعيْد تأليفه، أثناء حياة المؤلف [كتاب الجامع، 1/ 82، 3/ 172]، واعتمده بيلك بن محمد القبحقي (ت بعد 681هـ/ 1282م) في تأليف كتاب «كنز التجار في معرفة الأحجار» فأخذ جُلّ مادّته وقلّد التيفاشي في طريقة التأليف والوصف، واعتمده علاء الدين الغزولي (ت 815هـ/ 1412م) في تأليف كتابه «مطالع البُدور في منازل السرور»، فكاد «أن يكون قد لخصه» حسب عبارة إحسان عبّاس [مقدمة تحقيق سرور النفس، 25]، وتُرْجِمَ في الثقافة الإسلامية إلى اللغتين الفارسية والتركية، كما اهتمّ به المستشرقون، فأصدره س. رافيوس (S. Ravius) سنة 1784 في نشرة جزئية مع ترجمة لاتينية بهولندة. ثمّ نشره تامّا أر. بيشيا (A.R.Biscia) مع ترجمة إيطالية بفلورنسة سنة 1818: Fior di pensieri sulle pietre preziose de Ahmed Teifascite. Opera stampata nel suo originale arabo, tradizone italiana suppressa e diverse note-Frienze 1818. وقد أعيد طبع هذا العمل سنة 1906 في بولونيا (Bologna). كما خصّه الفرنسيّ كليمن مللاي (Clement Mullet) بالدرس المعمّق، فحلّل مادته تحليلا موسعًا وترجم منه إلى الفرنسية فقرات كثيرة في بحث له مطوّل عن علم المعادن عند العرب، اتّخذ فيه «أزهار الأفكار» مصدره الأساسي [Clément Mullet, Essai sur la minéralogie arabe, in: Journal Asiatique, 1868, pp 5-81, 102 - 233, 502 - 522].

على أنّ أهمّ عمل خصّ به هو ما قام به العالمان المصريّان محمد يوسف حسن

ومحمود بسيوني خفاجي من تحقيق لنصّه ودراسة ضافية معمّقة لمحتواه العلمي [مركز تحقيق التراث، القاهرة 1977]؛ 6 ـ الأحجار التي توجد في خزائن الملوك، مطبوع حسب الزركلي؛ 7 ـ كتاب في البديع، ذكره ابن أبي الاصبع المصري (ت 654هـ/1256م) في مؤلفه بديع القرآن؛ 8 ـ الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة، يتعلّق على الأرجح بفضائل أهل إفريقية، وهو ما يعني أنه ألّفه بالشرق، مفقود؛ 9 ـ سجع الهديل في أخبار النيل، اعتمده السيوطي في كتابه حسن المحاضرة، مفقود؛ 10 ـ الديباج الخسرواني في شعر ابن هاني، شرح فيه ديوان ابن هاني، مفقود؛ 11 ـ مشكاة أنوار الخلفاء وعيون أخبار الظرفاء، نسبه الحميري إلى عمر التيفاشي، مثلما نسب إليه كتابا آخر، قادمة الجناح في أدب النكاح، وهو معروف لأحمد التيفاشي مما يرجع نسبة مشكاة الأنوار إلى أحمد التيفاشي، مفقود؛ 12 ـ درة اللآلي في عيون الأخبار ومستحسن الأشعار، مفقود؛ 13 ـ قادمة الجناح، في معاشرة النساء، مفقود؛ وتنسب إلى التيفاشي أيضًا كتب في التفسير والتاريخ لم تصلنا عناوينها.

المصادر والمراجع

● ابن فرحون، الديباج المذهب، القاهرة، 1972، دار التراث، 1/ 247 ـ 248؛ ● ابن الأبار، التكملة، 1/ 62؛ ● ابن سعيد، الغصون اليانعة، 59، 124 ـ 125؛ ● نفسه، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، تح. إبراهيم الأبياري، بيروت 1980، دار الكتاب اللبناني، 163 ـ 164، 212؛ ● المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، بيروت 1968، دار صادر، تح. إحسان عباس؛ ● حاجّي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد د.ت، مكتبة المثنى، 1/ 835، 2/ 1055، 1940؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد د.ت، المثنى، 1/ 549؛ ● ابن مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، بيروت د.ت، دار الفكر، 170؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت د.ت، دار إحياء التراث، 2/ 208؛ ● الزركلي، الأعلام، 1/ 257؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات، تونس 1981، 2/ 448 ـ 460؛ 495؛ ● Brockelmann, G.A.L., I، بيروت، 1982 ـ 1986؛ 1/ 272 ـ 275؛ ● ابن مراد، إبراهيم، بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1993، 99 ـ 103؛

● J. Ruska-O. Khal: Art d. vol X, leidan - Paris, 2002 p. 511 in: Encyclopédie de l'Islam

د. ابراهيم بن مراد
جامعة تونس
د. محمد حسن
جامعة تونس

تيمور، أحمد بن إسماعيل

(1288هـ/1871م - 1348هـ/1930م)

أحمد بن إسماعيل تيمور، أحد أعلام النهضة الثقافية العربية في مصر الحديثة. ترجع أسرته إلى أصول كردية استقرت في مصر، وارتقت في الوظائف، وأصبحت من أعظم الأسر المصرية ثراء ومكانة واهتماما بعلوم العربية وبالأدب والمخطوطات.

ولد بالقاهرة. وكانت بداية تعلّمه في مدرسة فرنسية بها إلى جانب تعلم خاص في بيت الأسرة للغة التركية واللغة الفارسية. وأخذ العلم أيضًا عن عدد من علماء العربية المتميّزين، منهم الشيخ محمد الشنقيطي، والشيخ حسن الطويل، والشيخ نصر الهوريني، وعرف أيضًا دروس الإمام محمد عبده والعلاّمة طاهر الجزائري. وكانت الصلة بالثقافة الفرنسية والعمل في مجال التراث العربي سمتين واضحتين في أعماله العلمية والثقافية.

اهتمّ أحمد تيمور بالتراث العربي المخطوط، وأنفق على اقتناء المخطوطات النفيسة قدرا من ثروته، واكتملت لديه على مدى السنين مجموعة نادرة ومتكاملة من المخطوطات، وصل عددها إلى نحو ثمانية عشر ألف مجلد، وأعدّ لها فهرسا حصريا. وبعد ذلك قدّمها إلى دار الكتب المصرية فكانت أعظم هدية تلقتها الدار، وخصّصت لها مكانا، وعرفت باسم: المكتبة التيمورية. وأكثر هذه المخطوطات أصول نادرة، وفيها - أيضًا - مصوّرات عن مخطوطات عربية محفوظة في مكتبات أوروبا وبعض الدول الإسلامية. وهذه المجموعة جعلت له على مرّ الزمن مكانة دائمة عند المهتمّين بالتراث العربي من العرب والمسلمين وعند المستشرقين الذين كان يحرص على الصلة العلمية معهم.

لم يرغب في شغل منصب عام بالدولة في مصر، غير أنّه لم يكن يضنّ بالرأي والمشورة لمؤسساتها، فكان عضوا في مجلس دار الكتب؛ وكان أيضًا عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق، ولم يكن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد بدأ أعماله، وتمّ عمل كبير لتحقيق هذا الهدف، ولمّا يكتمل بعد.

كانت اهتماماته بالتراث العربي متعدّدة الجوانب، شغل بالعربية ومعاجمها، وأعدّ معجما للعامية المصرية، وسجّل الأمثال العامية، ودرس موضوعات متعدّدة في الحضارة العربية الإسلامية.

كانت العناية بالمعاجم العربية طبعا وتصحيحا ونقدا قد أخذت مكانها عند مثقّفي العربية بعد نشر لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزآبادي. لقد تابع أحمد تيمور طبعة لسان العرب التي صدرت عن المطبعة الأميرية ببولاق/ القاهرة، ودوّن ملاحظاته عليها وسجّل نقده لبعض ما ورد فيها، ونشر

عنها في صحيفة «المؤيد» ثم في مجلّتي «الضياء» و«الآثار»، وجمع هذه الملاحظات بعد ذلك في كتابه: «تصحيح لسان العرب» في قسمين طبعا بالقاهرة 1334، وكان القاموس المحيط للفيروزآبادي قد طبع أيضًا بمطبعة بولاق، فكتب أحمد تيمور في نقد هذه الطبعة كتاب: «تصحيح القاموس المحيط».

أما أعماله المعجمية ففيها اهتمام كبير بالعامية المصرية، ويعدّ «قاموس الكلمات العامية» أكبر أعماله، وقد بدأ يطبع بعد وفاته. وشبيه بهذا العمل جهده في تأليف «الكنايات العامية» و«الأمثال العامية». وهذه الجهود لها مكانتها التوثيقية الجادة، وتمهّد لقيام دراسات شتّى في اللّغة والتراث الشعبي. وظلّ اهتمام أحمد تيمور بالأعمال المرجعيّة سمة واضحة في جهوده. وعندما أصدر محمد فريد وجدي «دائرة معارف القرن العشرين» تابع أحمد تيمور المعلومات التاريخية الواردة بها وكتب نقدا لها، وهي أعمال تتكامل في عنايتها باللغة والاستخدام اللغوي والضبط والتدقيق، ولها أهمّيتها الحضارية أيضًا.

كان أحمد تيمور يرى أعماله امتدادا لجهود المؤلفين في الحضارة العربية الإسلامية. ألّف ذيلا لطبقات الأطبّاء، يعدّ استكمالا لجهود عربيّة سابقة في الترجمة للأطبّاء. وأعدّ فهرسا مفصّلا لكتاب «خزانة الأدب» للبغدادي، وهو من أهمّ كتب التراث النحوي والأدبي، سمّاه «مفتاح الخزانة». وكتب كتابا عن «أعيان الشرق في القرن الثالث عشر الهجري» يعدّ امتدادا لكتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي، ثم ألحق تيمور بكتبه ذيلا يضمّ تراجم لأعيان أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وهذه الجهود في تأليف كتب الطبقات والتراجم تتضح منها رؤية أحمد تيمور لمكانه في الحضارة العربية الإسلامية، فهو يكمل هذه الأعمال بأعمال أخرى في إطار تلك التقاليد العلمية.

وفوق هذا كلّه، ألّف أحمد تيمور بعض المؤلفات التي توضّح جوانب من الحضارة الإسلامية، منها كتابان في المذاهب الفقهية والمعتقدات، وله كتاب يتضمّن: «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة»، وكتاب آخر عن: اليزيدية ومنشأ نحلتهم. يمثل الموضوع الأوّل اهتماما سائدا في بدايات القرن العشرين للنظر في المذاهب الفقهية الإسلامية تاريخا ونقدا وتعرّفا لأسسها المنهجيّة، أما البحث في اليزيدية فهو موضوع نادر ومصادره محدودة.

وكان لأحمد تيمور فضل الريادة في دراسة عدد من موضوعات الحضارة المادّية في التاريخ الإسلامي. ويعدّ كتابه: «أعلام المهندسين في الإسلام» من أندر الدراسات في هذا الموضوع، ترجم فيه لأكثر من مائة مهندس وعالم بالهندسة في إطار الحضارة العربية الإسلامية. وعلى الرغم من قلّة المعلومات المتاحة عنهم وعن جهودهم المعمارية، فقد استطاع أحمد تيمور تقديم صورة واضحة عن حياتهم وأعمالهم، ومن هؤلاء الأعلام إبراهيم بن غنايم وابن السيوفي وابن الطولوني. وتضمّن الكتاب بيان إنشاءات الظاهر بيبرس في بلاد الشام والناصر محمد بن قلاوون في مصر وغير هذا وذلك. وخصّص المؤلف في هذا الكتاب قسما للتصوير عند

العرب، ترجم فيه أيضًا لعدد من مشاهير فنون النقش والزخرف في الحضارة العربية الإسلامية، ولهذا القسم أهمّية لغوية أيضًا فقد جمع مصطلحات معمارية وشرحها في ضوء المعاجم العربية، وعلى أساس استخدامها عند أرباب الحرف والصناعات. وهنا نجد ملامح شخصية تيمور في اعتماده على التراث العربي، وفي محاولة إكماله من خلال العمل الميداني. وكلا الموضوعين: الهندسة المعمارية والتصوير من أطرف ما قدمه تيمور.

هذه الجهود الرائدة في جمع المخطوطات، وفي متابعة الأعمال المعجمية والموسوعية، وفي التأليف المرجعي عن العامية والتراث الشعبي، وفي استكمال كتب الطبقات وفي التأليف في الفقه والمعتقدات، وفي دراسة جوانب من الحضارة المادية كانت إلى جانب علاقات قويّة بالبيئات العلمية في مصر وباقي الأقطار العربية والإسلامية، وعناية بالصلة مع علماء المستشرقين الأوروبيين، وقد جعلت لأحمد تيمور مكانة رفيعة بين معاصريه.

آثاره

1 ـ تصحيح لسان العرب، القاهرة، مطبعة الرحمانية، 1915، عني بنشره محمد عبد الجواد الأصمعي بالقاهرة المطبعة السلفية 1334هـ/ 1924م في جزءين؛ 2 ـ تصحيح القاموس المحيط، القاهرة 1924، المطبعة السلفية، 282ص؛ 3 ـ ضبط الأعلام، مراجعة أحمد لطفي السيد، القاهرة 1947، مطبعة الحلبي، 180ص؛ 4 ـ نظرة تاريخية في حدوث المذاهب، القاهرة 1344هـ، المطبعة السلفية، 45ص؛ 5 ـ البرقيات للرسالة والمقالة، القاهرة 1949، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، 84ص؛ 6 ـ أبو العلاء المعري، نسبه وأخباره، شعره ومعتقده، القاهرة 1940، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 160ص؛ 7 ـ الآثار النبويّة، الطبعة الثانية، القاهرة 1955، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، 124ص؛ 8 ـ أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، القاهرة 1940، نشر عبد الحميد حقي، 164ص؛ 9 ـ الأمثال العامية، القاهرة 1949، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، 244ص؛ 10 ـ الكنايات العامية، القاهرة 1940، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، 128ص؛ 11 ـ التذكرة التيمورية، معجم الفوائد ونوادر المسائل، القاهرة 1953، دار الكتاب العربي، 46 ص؛ 12 ـ أوهام شعراء العرب في المعاني، القاهرة 1950، دار الكتاب العربي، 111ص؛ 13 ـ فهرست كتاب الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، القاهرة 1907؛ 14 ـ التصوير عند العرب، القاهرة 1942، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ 15 ـ السماع والقياس، رسالة تجمع ما تفرق من أحكام السماع والقياس والشذوذ وما إليها من المباحث اللغوية النادرة، القاهرة 1955، مطابع دار الكتاب العربي، 94ص؛ 16 ـ أسرار العربية، معجم لغوي نحوي صرفي يحتوي على ذخائر من أسرار العربية مستقاة من نوادر المؤلفات وأقوال الأئمة في الكتب المخطوطة والمطبوعة، القاهرة 1954، دار الكتاب العربي، 176ص.

وإلى جانب هذه المطبوعات الكاملة فقد بدأ طبع أعمال له كانت مخطوطة، منها قاموس الكلمات العامية في ستة أجزاء مخطوطة.

■ المصادر والمراجع

● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، القاهرة 1928، 652 ـ 653؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 100/1؛ ● كرد علي، محمد، المعاصرون، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 198، 37 ـ 47.

● J. Schacht, in: ZDMG, N.T.9 (1930).

● A. Schaade, in: OLZ (1930) 854.

د، محمود فهمي حجازي
رئيس جامعة نور مبارك ـ قازاخستان

■ التيموريّة، عائشة عصمت تيمور بنت اسماعيل

(1256هـ/1840م ـ 1320هـ/1902م) ■ ■ ■

عائشة عصمت تيمور بنت إسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور، كاتبة اجتماعية وشاعرة كتبت بثلاث لغات هي العربية والفارسية والتركية، تعتبر شاعرة «الطليعة» وعنوان اليقظة النسائيّة في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تُلقَّبُ بعائشة التيموريّة.

ولدت عائشة التيمورية في القاهرة سنة 1840م فكانت «مصرية الولادة والنشأة والمقام»، وإن تقاسمت أصلها عناصر ثلاثة، هي تركية، كرديّة، جركسيّة.

ورغم وجود بعض المدارس ذات الصبغة الأجنبية آنذاك مثل مدرسة راهبات الراعي الصالح، ومدرسة راهبات الفرنسيسكان الإيطالية، ومدرسة الأمريكان، فإنّ الأسر الكبيرة ـ شأن أسرة تيمور ـ لم تكن تجازف بإرسال بناتها إليها، لذا لمّا شبّت عائشة التيموريّة وآنس والدها لديها ميلا إلى القراءة والكتابة أحضر لها في قصره الأستاذين إبراهيم مؤنس ليعلّمها القرآن الكريم والفقه الإسلامي والخطّ، وخليل رجائي ليُلقنها النحو والصرف واللغة الفارسية. وكان والدها نصيرًا لها ضدّ والدتها التي كانت تريد لها أن تحذق أشغال الإبرة والتطريز؛ وممّا يقوله في هذا الصدد: «وإذا كان لي من عصمت كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي» [عائشة التيمورية، حلية الطراز، 17] وصار والدها يتقصّى خطاها ويُشرف على تعليمها حتّى تَقَيّدَتْ ـ على حدّ تعبيرها ـ بقيْد الزواج من محمّد بك توفيق ـ نجل محمد بك الاستنبولي الذي كان حاكما بالسودان ـ وهي ماتزال طفلة في الرابعة عشرة من عمرها.

وتذكر زينب فواز مؤلفة كتاب «الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور» أنّ عائشة قد اقتصرت ـ بعد زواجها ـ على المطالعة وإنشاد الأشعار وانقطعت عن التحصيل، ولكنّها

استأنفته بعد ذلك عندما كبُرت ابنتها توحيدة. ثمّ تفرّغت له بعد أن توفّي زوجها حتّى برعت في علوم العربية وخاصة النحو والعروض، وصارت تنشد «القصائد المطولة والأزجال»، وظلّت تنظم وتكتب إلى أن وافاها الأجل في 12/ 05/ 1902 وهي في سنّ الثانية والستّين بعد حياة ملؤها الصّلاح والعمل الجادّ.

لئن كانت عائشة التيمورية شاعرة وناثرة معا فإنّها عُرفت بشعرها أكثر ممّا عُرفت بنثرها، وحظي شعرها بمقام مرموق في عصرها ولعلّها قد «أسهمت» به في انبعاث حركة تجديد الشعر آنذاك، ألم يقل العقّاد: «فإذا ما استثنينا البارودي أولا والساعاتي ثانيا فشعر السيدة عائشة يعلو إلى أرفع درجة من الشعر ارتفع إليها أدباء مصر في أواسط القرن التاسع عشر إلى عهد الثورة العرابيّة» [العقّاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، 150].

كما كانت عائشة التيمورية تُجيد اللغات الثلاث: العربية والفارسية والتركية، وتعالج أشعارها بهذه اللغات. ولعلّها كانت تحسن لغات أخرى غيرها، ألم تصرّح هي ذاتها بأنّها كانت تُترجم لوالدة الخديوي إسماعيل عند زيارة أقارب ملوك العجم فتقول: «كانت تدعوني والدة صاحب السموّ إسماعيل باشا الخديوي السابق بالقصر العالي للترجمة عند حضور أقارب ملوك العجم..» [عائشة التيموريّة، حلية الطراز، 78].

ونظرا إلى انتماء عائشة التيمورية إلى الطبقة الراقية فقد كانت تعاشر نساء علية القوم وكبرائهم، وكانت تتردّد كذلك على البيت العالي كما كانت لها مراسلات وعلاقات ودّ وصداقة مع بعض شاعرات عصرها وأديباته مثل وردة اليازجي التي أهدتها التيموريّة ديوانها «حلية الطراز»، وتبادلت معها بعض رسائل المجاملات، وزينب فوّاز مؤلفة كتاب «الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور» التي كانت صديقة لها وعشيرة.

ولئن لم يكن لعائشة التيمورية نشاط اجتماعي معلوم فإنه كان لأدبها صدى في عصرها، وتواصل ذاك الصدى إلى ما بعد عصرها.

قرضت عائشة التيمورية الشعر منذ حداثتها إمّا فكاهة ـ حسب زعمها ـ وإمّا اقتداء ببعض من سبقنها من شاعرات العربيّة وفي هذا تقول:

ولقد نظمتُ الشعر شيمة معشرٍ
قبلي ذواتِ الخدرِ والأحسابِ
ما قلته إلاّ فكاهةَ ناطقٍ
يهوى بلاغةَ منطقٍ وكتابِ

كتبت الشعر في أغراض مختلفة وجمعته في ديوانها العربيّ «حلية الطرّاز» الذي قام بنشره ابنها محمود توفيق بك زادة سعيا منه إلى إبراز فضل والدته. وممّا تذكره عائشة في هذا الصّدد مُخاطبة ابنها: «في استطاعتي أن أنظم الآن شيئا من الشعر.. أما أشعاري الماضية فقد أحرقتها ولا أظنّ أنّ في مكتبتي منها إلاّ الشيء القليل بالعربية والتركيّة، فأمّا شعري بالفارسيّة فإنّه كان في محفظة فقيدتي توحيدة، وقد أحرقت محفظتها كما احترق قلبي عليها. إنّي أهدي إليك ما عندي من الكتب والأوراق فاصنع بها ما شئت، وإن رأيتها جديرة بالطبع فاطبعها» [عائشة التيموريّة، حلية الطرّاز، 19].

جرت عائشة في أغراض شعرها على ما كان يجري عليه الشعراء في ذلك الزمان [حسن، عائشة التيموريّة، 15]. وأهمّ هذه الأغراض

شعرها الغزلي الذي يكاد يستغرق النصف من ديوانها، ثمّ شعرها العائلي من تهنئة ومَراثٍ. ولعلّ أصدقه المراثي، لا سيما مرثاة ابنتها توحيدة؛ وشعر المدح والمجاملات وأكثره في مدح الخديويّين؛ وشعرها الأخلاقي وفيه دعوة إلى صيانة النفس، وحفظ اللسان، والتحلّي بالعفاف ومكارم الأخلاق؛ وأخيرًا شعرها الديني، وفيه ابتهال إلى الله وتضرّع بغية نيل مرضاته والفوز بغفرانه. فضلا عن ذلك كان لعائشة كثير من المواويل والأدوار والموشّحات والأزجال.

أمّا النثر عند عائشة التيمورية فلها فيه رواية «نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال»، وهي رواية ذات صيغة اجتماعية أخلاقية انتهت بانتصار الخير على الشرّ.

ولعائشة التيموريّة «مرآة التأمّل في الأمور» وهي رسالة اجتماعية نقديّة فيها إبراز لانحطاط أخلاق الرجل وتهافته على الاستثراء بشتّى السّبل.

كما كتبت مقالا بعنوان «لا تصلح العائلات إلاّ بتربية البنات» وهو مقال اجتماعي أساسا تنْعَى فيه على المرأة مغالاتها في الزينة والتبرّج وإهمالها لواجباتها.

وهكذا فإنّ عائشة التيمورية لئن جرّبت قلمها في الشعر والنثر فإنّها اكتفت بتناول الموضوعات المألوفة وانتهاج الأساليب التقليديّة المعروفة ممّا حدا بمي زيادة إلى الإقرار بأن «عائشة لم تتعمّق أصلا في فكرة أو في عاطفة بل كانت تكتفي بالناحية المطروقة، وترضى لها بالتعبير المألوف.. ومع ذلك فقد رسمت عن الذاتية النسائية خطا جميلا حين كانت صورة بالمرأة سديما محجوبا وراء الجدران».. فكانت «بارقا يُبشر المرأة المصريّة ومُستقبلها» [ميّ زيادة، المجموعة الكاملة، 1/ 362].

آثارها

1 ـ حلية الطراز، ديوان عائشة التيموريّة القاهرة، مطبعة دار الكتاب العربي، 1952؛ 2 ـ نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال، القاهرة، مطبعة معهد أفندي مصطفى، 1305هـ/ 1887م؛ 3 ـ مرآة التأمل في الأمور، مصر، 1310هـ؛ 4 ـ إشكوفة، ديوان عائشة باللغة الفارسية وقد طبع بمصر والآستانة وإيران؛ 5 ـ اللّقاء بعد الشتات، رواية تمثيلية ـ لم تصلنا؛ 6 ـ تركت رواية أخرى مخطوطة لكنها غير مكتملة.

المصادر والمراجع

● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت، منشورات جمعية أهل القلم في لبنان، 1955، 2/ 238 ـ 240؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1969، 4/ 5 ـ 6؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربيّة، القاهرة، مؤسسة المطبوعات الحديثة، دار الهلال، د.ت، 4/ 224؛ ● فواز، زينب، الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط2، دمشق، مطبعة الترقّي، 1958، 5/ 55 ـ 56؛ ● كحّالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ط2، المطبعة الهاشميّة بدمشق 1959، 3/ 162 ـ

179؛ ● الفاخوري، حنّا، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ط1، بيروت، دار الجيل 1986، 130؛ ● بدر، عبد المحسن طه، التطوّر والتجديد في الشعر المصري الحديث، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1991، 141 ـ 168؛ ● تيمور، محمود، اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة، القاهرة، المطبعة النموذجية، 1970، 50 ـ 82؛ ● حسن، محمد عبد الغني، عائشة التيموريّة، شاعرة الرثاء وأدوار الغناء، الهلال، أفريل 1974، 14 ـ 23؛ ● عبّود، مارون، روّاد النهضة الحديثة، بيروت، دار الثقافة لبنان 1966، 173 ـ 176؛ ● العقّاد، عبّاس محمود، شعراء مصر وبيناتهم في الجيل الماضي، ط3، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 149 ـ 154؛ ● فهمي، منصور، محاضرات عن ميّ زيادة مع رائدات النهضة النسائية الحديثة، القاهرة، معهد الدراسات العربيّة العالميّة، 1955، 3 ـ 46.

- Brockelmann. C: Gesehiehte der Arbischen Litteraur, Zweiter Supplement Band II, Leiden, E.J. Brill 1938 (A'isa' Is mat Taimùr) p.742.

سعاد إدريس نبيّغ
المعهد العالي للعلوم الانسانية ـ تونس

التّيمي، أبو عبيدة مغمر بن المثنّى

(110هـ/729م ـ 209هـ/824م)

هو مَغمر بن المُثنّى التّيمي، مولى تَيْم قريش لا تَيْم الرّباب [المزهر، 2/ 445]، البصري [تاريخ بغداد، 13/ 252]. يعود أصله إلى بَاجَرْوان [الفهرست، 85] وهي مدينة بنواحي أرمينية كما رجّح ذلك ابن خلّكان [وفيات، 4/ 330].

اتّفقت المصادر على علوّ مكانته العلميّة وشموليّة تكوينه، فلُقّب بالنّحوي [نزهة الألبّاء، 111]، واللّغويّ [شذرات الذّهب، 9/ 24]، والإخباري [م. ن]، والعلاّمة [وفيّات الأعيان، 4/ 323] إلى أن قيل عنه: «لم يكن في الأرض خارجيّ ولا جماعيّ أعلم بجميع العلم منه» [البيان والتّبيين، 1/ 347]. غلب عليه المعرفة بغريب اللّغة، ورواية الشّعر، وتقصّي أيّام العرب وأخبارها وكذلك المعرفة بأنسابها. وهو أوّل من صنّف في غريب الحديث [معجم الأدباء، 19/ 155 ـ 156].

وتتأكّد هذه المنزلة العلميّة بكثرة مؤلّفاته الّتي قاربت المائتي تصنيف [طبقات المفسّرين، 2/ 327]، وتنوّعها، وكذلك في كثرة

الحريصين على التّلقّي، وتعدّد النّاهلين من كتبه في حياته وبعد وفاته.

لم يذكر مترجموه مكان ولادته، ولعلّه ولد بالبصرة لأنّه معدود من علمائها؛ فقد جعله الزّبيدي في الطّبقة الرّابعة من طبقات اللّغويّين البصريّين [طبقات، 175]. ونصّص عبد السلام هارون ـ في تقديم تحقيقه لكتاب الحيوان ـ على أنّ أبا عبيدة كان من أهل البصرة، ولد وتوفّي بها [كتاب الحيوان، 1/ 4]. غير أنّه لم يوثّق معلومته. وكذلك فعل H. A. R. GIBB في مقاله عن أبي عبيدة في دائرة المعارف الإسلاميّة [Nouvelle édition, I, 162, Encyclopédie de l'Islam] ويرى ابن خلّكان أنه الأصحّ أنّ ولادته كانت في شهر رجب سنة 110هـ / 729م وضعف الأقوال الأخرى وهو في سنتي 111هـ/ 730م و114هـ/ 733م [وفيّات، 4/ 329].

يبدو أنّ نشأة أبي عبيدة كانت بالبصرة وذلك استنادا إلى من أخذ عنهم من شيوخها. وأشارت بعض المصادر إلى جذوره اليهوديّة [نزهة الألباء، 105]. وقد اهتمّ M. LECKER في مقاله [72 ـ 77 ...Bibliographical notes] بهذا الموضوع اهتماما دقيقا، وقدّم أدلّة مفصلة لتأييد ذلك.

وذكر بعضهم أنّه كان شعوبيّا يطعن في الأنساب، وله تأليف في مثالب العرب [طبقات، 175]، لكنّه ألّف أيضا في مآثرهم [الفهرست، 86]. نقل الزّبيدي أنّه كان ينسب إلى المعتزلة، لكنّ تلميذه أبا حاتم أنكر ذلك [طبقات، 175]. أمّا انتماؤه إلى الخوارج فيكاد يكون أمرا مؤكّدا، وله تأليف حول خوارج البحرين واليمامة [الفهرست، 85]. اعتبره بعضهم من الإباضيّة [معجم الأدباء، 19/ 156]، وآخرون من الصّفريّة [الحيوان، 3/ 402؛ .Bibliographical notes 97-94]. من أجل هذا كان في رأي ابن خلّكان مدخول الدّين والنّسب [وفيّات، 4/ 328].

لا نملك معلومات مفصّلة عن مراحل تلقّي أبي عبيدة العلم، والّذي وصلنا من أسماء شيوخه يدلّ على أنّه قد تكوّن بالبصرة على أعلم النّاس بها وأفصحهم. فأخذ عن أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ/ 770م) اللّغة، والنّحو، والشّعر، والقراءات [المزهر، 2/ 401]، واختلف إلى أبرز تلاميذه، كالنّحويّ عيسى بن عمر الثّقفي (ت 149هـ/ 767م)، واللّغوي عبد الحميد بن عبد المجيد الأخفش (ت 177هـ/ 793م)، والنّحويّ يوسف بن حبيب (ت 182هـ/ 798م)، وقد لازمه أبو عبيدة أربعين سنة يملأ كلّ يوم ألواحه من حفظه [المزهر، 2/ 399]. وروى عن آخرين من لغويّي البصرة، كالمنتجع بن نبهان [طبقات، 157]، وأبي مهدية الأعرابي (م. ن.) وعن فصحائها [المجاز، مقدّمة سزكين، 1/ 12].

لا نعلم إن كان أبو عبيدة قد سافر في طلب العلم، لكنّ المصادر تذكر أنّه قد زار بغداد سنة 188هـ/ 803م [تاريخ بغداد، 13/ 254] وهو مشرف على الثّمانين. فهل كانت تلك زيارته الوحيدة لبغداد؟ كما أنّه تحوّل إلى بلاد فارس [طبقات، 175]، ولا نعلم إن كانت هذه الزّيارة مشفوعة بغيرها أيضا.

أمّا سبب خروج أبي عبيدة من البصرة، فقد كان، في نظر تلميذه أبي حاتم، الرّغبة في العطاء [طبقات، 175]، ويؤيّد هذا ما ذكره ابن خلّكان من أنّ سبب تفضيل أبي عبيدة

للشاعر الرّاعي (ت 90هـ/ 708م)، لمّا سأله الفضل بن الربيع ـ وزير الرّشيد ـ عن أشعر النّاس، أنّ هذا الشّاعر لمّا ورد على سعيد بن عبد الرحمان الأموي وصله في يومه الّذي لقيه فيه وصرفه. فكان أن فعل الوزير مع أبي عبيدة مثل ذلك إذ أخرج له صلة من الرّشيد وأمر له بشيء من ماله وصرفه [وفيات، 4/ 327].

لكنّ روايات أخرى تدفع هذا، وتجعل السّبب في توجّه أبي عبيدة إلى بغداد هو دعوته من قبل الرّشيد ووزيره الفضل للإفادة من علمه وقراءة شيء من كتبه عليه [وفيات، 4/ 324]. وقد نقل ياقوت مقالة الفضل في أبي عبيدة وهو يُعرِّف كاتبه إبراهيم بن إسماعيل به فقال: «علاّمة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه» [معجم الأدباء، 19/ 158]. وكان الرّشيد يجمع بينه وبين الأصمعي (ت 216هـ/ 831م) وإن كان قد اختار الأصمعيّ للمنادمة [وفيات، 4/ 325].

ليس من اليسير أن يحصل الشّخص على هذه المكانة المرموقة في عصر قد عجّ بالعلماء مع شدّة المنافسة بينهم، فإنّ تميّز أبو عبيدة فذلك لِمَا كان يتمتّع به من أصالة التّكوين وعمقه، ومتانته، مع الصّدق والأمانة في تبليغ المعلومة.

تعدّد الآخذون عن أبي عبيدة في مجالات اختصاصاته المتنوّعة.

فقد روى عنه الأدب أبو عبيد القاسم بن سلاّم (ت 224هـ / 838م) [نزهة الألباء، 137] العالم بالكتاب والسنّة [طبقات، 199]، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت 248هـ/ 862م أو 255هـ/ 869م) اللّغويّ، المقرئ [وفيات، 2/ 150].

وأخذ عن أبي عبيدة اللّغة أبو عمر الجَرْمي (ت 225هـ/ 839م)، وأبو محمد التّوجّي أو التّوزي (ت 238هـ/ 852م) [نزهة الألبّاء، 107 ـ 172]، ورحل أبو عمر الهروي، وكان حافظا للغريب، راوية للأخبار والأشعار، إلى العراق ليأخذ عن أبي عبيدة [نزهة الألبّاء، 196].

ويُعتبر أبو غسّان رُفيع بن سلمة بن مسلم المعروف بـ«دَماذ» كاتب أبي عبيدة في الأخبار [الفهرست، 87؛ طبقات، 181] وهو الّذي روى عنه كتاب «العقعقة والبررة» (يأتي في المؤلّفات).

ويصعب استعراض جميع تلاميذ أبي عبيدة، فقد كان أحد أئمّة النّاس الثّلاثة «في اللّغة، الشّعر، وعلوم العرب... عنهم أخذ جلّ ما في أيدي النّاس من هذا العلم بل كلّه» والإمامان الآخران هما: أبو زيد سعيد بن أوس الانصاري (ت 215هـ/ 830م)، والأصمعي (ت 216هـ/ 831م) [المزهر، 2/ 401].

ذكرت تواريخ متعدّدة لوفاة أبي عبيدة تردّدت بين 201هـ/ 816م [طبقات، 178] و213هـ / 828م [وفيات، 4/ 330].

والّذي عليه الجمهور من العلماء، ولم يضعّف إلاّ نادرا أنّ وفاة أبي عبيدة كانت سنة 209هـ / 824م وهو التّاريخ الّذي ذكره أبو حاتم تلميذ أبي عبيدة [طبقات النّحويّين، 175]، وقال إنّه كان له ثلاث وتسعون سنة عند وفاته. فتكون ولادته على هذا سنة 116هـ/ 734م ولم يذكر أحد هذا التّاريخ لولادته.

وقد مرّ أنّ ابن خلّكان قد رجّح أن تكون ولادة أبي عبيدة سنة 110هـ/ 729م وذكر أنّ وفاته كانت سنة 209هـ/ 824م بعد أن ضَعّف الأقوال الأخرى [4/ 329 ـ 330]، فيكون أبو عبيدة على هذا قد قارب المائة عند وفاته سنة 209هـ/ 824م وهو ما أكّده الدّاودي في طبقاته [2/ 328] واستقرّ عليه عدد من الباحثين المعاصرين.

نختم بهذه الملاحظة بعد الاطّلاع على ما قيل عن أبي عبيدة، نكتفي بتسجيلها دون تعليل.

لقد كان أبو عبيدة شخصيّة عجيبة، اجتمع فيها ما يدعو إلى النّفور منه وما يحمل على الإعجاب به.

لقد كان ـ من ناحية ـ وسخا، ألثغ، مدخول السّيرة، والنّسب، والدّين، جبّاها، يستقبل النّاس بالمكروه، فكانوا يتجافونه خشية من لسانه، فلم يكن له من البشر صديق حتّى أنّه لم يحضر جنازته أحد. يخطئ إذا قرأ القرآن نظرا، ولا يقيم البيت من الشّعر إذا أنشده [طبقات، 175 ـ 177؛ وفيّات، 4/ 327 ـ 329].

وكان من جهة أخرى قمّة في العلم، «أديم طوي على علم» كما قال أبو نواس (ت 198هـ/ 813م) [وفيّات، 4/ 325]، ثقة فيما يقوله فلا يحكي عن العرب إلاّ الشّيء الصّحيح، حتّى أنّ الخليفة هارون الرّشيد قد تنازل ليطلب سماع كتبه منه مباشرة. مُيّز عن علماء عصره فقيل عمّن يأتون مجلسه: «إنّهم يشترون الدّرر في سوق البعر»، بينما قيل عمّن يأتون مجلس الأصمعي: «إنّهم يشترون البعر في سوق الدّرر» [وفيّات، 4/ 224 ـ 225]، وكان إلى هذا العمق في علمه نقادة يحكّم في معرفة الأشعر من النّاس [الأغاني، 7/ 4، 172 ـ 175، إلخ . . .] ويعلّل استعمالات العرب في لغتهم [المزهر، 1/ 269 ـ 301، إلخ . . .]. فكان بذلك العمدة للخلف في كلّ الاختصاصات الّتي اهتمّ بها.

إنّ اجتماع هذه الاضداد في أبي عبيدة لم يؤثّر على استمرار ذكره من خلال كتبه المتوفّرة وما قد تكشف عنه الأيّام القادمة.

أكثر أبو عبيدة من التّصنيف حتّى أربت كتبه على المائتين [معجم الأدباء، 19/ 162]، استعرض منها ابن النّديم 103 تصنيفات [الفهرست، 85 ـ 86]، وأوصلها الدّكتور ناصر حلاوي محقّق كتاب تسمية أزواج النّبيّ ﷺ وأولاده إلى 134 كتابًا [ص 8].

كتب أبو عبيدة في مجالات متنوّعة، كان للّغة وأخبار العرب وأيّامهم وأشعارهم فيها نصيب الأسد. وكتب في القرآن، والحديث، والتّاريخ، والتّراجم.

ونستعرض فيما يلي بعض العناوين في هذه الاختصاصات:

ـ في اللّغة عموما: الأضداد، ما تلحن فيه العامّة، الجمع والتّثنية، إلخ . . .

ـ في الأشياء: السّيف، الرحل، إلخ . . .

ـ في الحيوان: البازي، الحمام، الخيل، إلخ . . .

ـ في الشّعر: الشّعر والشّعراء، ويبدو أنّ مؤلّفات أبي عبيدة عموما لا تخلو من الشّعر، وفي ما وصل إلينا منها دليل على ذلك.

ـ في أيّام العرب وأخبارهم: أيّام العرب،

أيّام بني يشكر وأخبارهم، كتاب بين مازن وأخبارهم، إلخ. . .

ـ في القرآن: (انظر قائمة الآثار).

ـ في الحديث: غريب الحديث، وهو أوّل من ألّف فيه.

ـ في التّاريخ: جُفرة خالد، مقتل عثمان، فتوح أرمينية، إلخ. . .

ـ في التّراجم: تسمية أزواج النّبيّ ﷺ وأولاده، قضاة البصرة، إلخ. . .
إلى غير ذلك ممّا يمكن الوقوف عليه في التّرجمات الّتي أعدّت لأبي عبيدة. لكنّ الّذي يؤسف له أنّه لم يبق من هذا الكمّ الهائل من المؤلّفات إلاّ عدد ضئيل (ستّة عناوين)، طبع منها خمسة وهي: «كتاب الخيل»، كتاب «نقائض جرير والفرزدق»، كتاب «العققة والبررة»، كتاب «تسمية أزواج النّبيّ ﷺ وأولاده»، وكتاب «مجاز القرآن».

أمّا الكتاب السّادس فهو: «مقاتل الفرسان»، وتوجد نسخة خطيّة منه مشوّشة بالمتحف البريطاني [حاشيتان خفيفتان، 339].

وذكر الزركلي [8، 191، طبعة ثالثة]: «لأبي عبيدة مخطوطا بعنوان: طبقات الشّعراء»، وقد تابع في ذلك Brockelmann [S.I, 162] ولم يذكر مصدره المعتمد عليه. لكنّ نهاد الموسى [حاشيتان، 339] يرى أنّ الكتاب المنسوب إلى أبي عبيدة هو: «الشّعر والشّعراء».

كما نفى الموسى وجود قصيدة على «اللاّم» نسبها Brockelmann لأبي عبيدة وقال بأنّها للأصمعي [م. ن، 342].

ونصّ الزّركلي [م. ن]، متابعا في ذلك Brockelmann أيضا [م. ن]، على وجود مخطوطة: «الأنباذ» لأبي عبيدة، ولم يذكر مكانها. وكذلك فعل بكتاب «المحاضرات والمحاورات».

ولهذه المؤلّفات المتبقّية أهميّة كبرى. فهي تعطي فكرة واضحة عن بدايات التّأليف في الحضارة الإسلاميّة، كما أنّها ساهمت في حفظ اللّغة العربيّة وأشعار العرب وفكرهم عموما.

ففي كتاب «الخيل» إحاطةٌ بالألفاظ المتعلّقة بخلقها، وعيوبها، وألوانها، وما يُستدلّ به على جودتها. فهو، كما قال محقّقه يفوق كتاب الأصمعي في الموضوع أضعافا، في حجمه وفي إحاطته بأوصاف أعضاء الفَرَس. كما أنّه أتى بشواهد كثيرة من الشّعر، وختم الكتاب بأشعار متفاوتة في الطّول قالتها العرب في صفة الخيل.

ولا يقلّ كتاب «نقائض جرير والفرزدق» أهميّة عن كتاب «الخيل» من حيث موضوعه والمادّة الّتي اشتمل عليها. ورغم كون بعضهم يرى أنّ هذا الكتاب ليس خالص التّأليف لأبي عبيدة [نهاد موسى، تحقيق تسمية. . .، 226، هامش 2] فإنّ محقّق كتاب الخيل قد أكّد أنّ لبّ الكتاب من تأليفه [ص 179].

أمّا موضوع الكتاب أساسا فهو شرح للقصائد الّتي تهاجى بها الشّاعران: جرير (ت 110هـ/ 729م) والفرزدق (ت 110هـ/ 729م).

لكنّ الكتاب اشتمل كذلك على:

1 ـ استشهادات شعريّة كثيرة لشعراء متعدّدين.

2 ـ ثروة معجميّة هامّة وإحالات على أسماء وأشخاص تمّ الاحتفاظ بها، ولولا هذا الكتاب لاندثرت.

3 ـ أخبار العرب وأيّامهم، وهي أقدم ما نملك في هذا الموضوع في نظر محمد القاضي [La Composante narrative, 358].

أمّا كتيّب «العققة والبررة» ففيه من الفوائد الشّعريّة واللّغويّة ما في الكتاب السّابق، مع إضافة كونه قد حافظ على لون أدبيّ قلّ من ألّف فيه، ويتمثّل في أشعار جاءت على لسان قوم عقّوا آبائهم فعاتبوهم على عقوقهم بقوم برّوا آباءهم. وكذلك في قوم هاجرو إلى أمصار وتركوا آباءهم في البوادي فاشتاقوا إلى أولادهم فقالوا في ذلك شعرا [كتاب العققة، 352].

كتاب «تسمية أزواج النّبيّ ﷺ وأولاده»، أغفل ذكرَه مترجمو أبي عبيدة لأنّهم لم يستوفوا ذكر مؤلّفاته [تسمية، تحقيق نهاد الموسى، 227] وقد حُقّق مرّتين (انظر أسفله).

ولا تخفى الأهميّة التّاريخيّة لهذا الكتاب باعتبار أنّ أبا عبيدة كان بين الأوائل الّذين صنّفوا في الموضوع [تسمية، تحقيق الحلاوي، 10]. لذلك اعتمده العديد من المؤلّفين كابن الأثير، وابن عبد البرّ [م.ن، 9 ـ 10].

اعتُبر كتاب «مجاز القرآن» أهمّ مؤلّفات أبي عبيدة المتبقّية [د. نهاد الموسى، مجاز القرآن، 159 ـ 160] وذلك أنّه أوّل ما صُنّف في هذا المجال [طبقات المفسّرين، 2/ 36؛ أثر القرآن في تطوّر النّقد العربي، 41]. ويدلّ سبب تأليفه على ذلك. فقد لاحظ أبو عبيدة أنّ النّاس في عصره لم يعودوا متمكّنين من العربيّة تمكّن السّابقين منها، فكان لذلك انعكاس سلبيّ على فهم معاني الكتاب. والقرآن أنزل بلسان عربيّ مبين [مجاز، 1/ 8] وفي «ما في الكلام العربيّ من الغريب والمعاني» [م.ن، 1/ 18]، لذلك عزم أبو عبيدة على تأليف كتاب، يشرح فيه معاني القرآن على ضوء عادات العرب في كلامهم، وذلك بعد زيارته إلى بغداد سنة 188هـ/ 803م [ياقوت، 19/ 158 ـ 159].

وقد نسب لأبي عبيدة أربعة عناوين، وهي: مجاز القرآن، غريب القرآن، معاني القرآن، وإعراب القرآن [الفهرست، 85]. والّذي عليه الباحثون عموما، أنّ هذه العناوين تشير إلى تأليف واحد هو كتاب المجاز وذلك باعتبار الموضوعات المدروسة فيه، ومقالة بعض العلماء، وما جاء مسجّلا في الأصول الخطيّة للكتاب [مجاز، مقدّمة سزكين، 1/ 18؛ أثر القرآن، 40 ـ 41]. لكنّ إجماع المترجمين لأبي عبيدة على استعراض هذه العناوين مستقلاًّ بعضها عن بعض، يترك مجال البحث في الموضوع مطروحا، خاصّة إذا اعتبر أنّ التّأليف في تلك الفترة كان في بداياته، وأنّ الشّأن فيه إفراد كلّ تأليف بموضوع مستقلّ. أضف إلى ذلك أنّه قد ذكر لبعض العلماء مثل هذه العناوين كأبي عبيد القاسم بن سلاّم (ت 224هـ/ 838م) الّذي ألّف غريب القرآن [كشف الظّنون، 2/ 1207]، ومعاني القرآن [م.ن، 2/ 1730].

ولم يلق الكتاب من معاصري أبي عبيدة قبولا حسنا. فقد روي عن الفرّاء (ت 207هـ/

822م) أنّه قال: «لو حمل إليّ أبو عبيدة لضربته عشرين في كتاب المجاز» [معجم الأدباء، 19/ 159]. وكذلك فعل أبو حاتم، تلميذ أبي عبيدة حين قال: «إنّه لكتاب ما يحلّ لأحد أن يكتبه، وما كان شيء أشدّ عليّ من أن أقرأه قبل اليوم، ولقد كان أن أضرب بالسّياط أهون عليّ من أن أقرأه» [طبقات، 176].

والّذي استاء منه هؤلاء أنّ أبا عبيدة قد خرج في كتاب «المجاز» عن المعهود في كتابة التّفسير. فلم يصدّر كلامه بسند، ولم يستعرض الأحاديث وأقوال السّلف في تبيين معاني الآيات، ولم يهتمّ بذكر أسباب النّزول، بل ركّز على استخراج معنى اللّفظ القرآني اعتمادا على الاستعمال العربي، وما جاء على لسان الشّعراء، مثبتا بذلك أنّ «في القرآن مثل ما في الكلام العربيّ من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني» [مجاز، 1/ 8]، «ومن مجاز ما اختصر... ومجاز ما حذف... ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، إلخ...» [م.ن، 1/ 18]. ولذلك نجده كثيرا ما يقول في كتابه: «هذا شيء تكلّمت به العرب» [م.ن، 1/ 38]، «والعرب تفعل هذا» [م.ن، 1/ 79]، «وتقول العرب» [م.ن، 1/ 88]، إلخ...

فالمقصود بالمجاز في هذا الكتاب تلك التّصرّفات الّتي للعرب في لغتهم والّتي لا يدركها الجاهلون بهذه اللّغة. ولذلك نرى أبا عبيدة يحلّل كلّ استعمال من شأنه أن يثير التّساؤل مؤكّدا أنّ العرب تفعل ذلك.

وهذا فعلا منحى جديد في تناول النصّ القرآني اقتضت بداية بُعْد النّاس عن الاحاطة باللّغة العربيّة ظهورَه. فهو غير التّفسير الّذي اصطلح قديما عليه في كيفيّة التّعامل مع النصّ، لكنّه تفسير مشروع، بعيد عن الرّأي الّذي ادّعاه الأصمعي في كتاب أبي عبيدة [معجم الأدباء، 19/ 159]. وقد ردّ أبو عبيدة هذه التّهمة بقوله: «هذا الّذي تعيبه علينا كلّه شيء بان لنا فقلناه ولم نفسّره برأينا» [م.ن].

وبتوخّي أبي عبيدة لهذا المنهج نراه قد وفّر المادّة لظهور معجم لغوي وآخر قرآني، ووضع نواة علم إعراب القرآن مع التّعليل في الغالب. كما أنّه قدّم خدمة كبرى للمهتمّين بالشّعراء في العصر الجاهلي وما بعده، وذلك بتسميتهم وبذكر أشعارهم، شأنه في ذلك شأن صنيعه في مؤلّفاته الأخرى.

وقد أثبت التّاريخ أهميّة كتاب المجاز فصار مصدرا للعلماء من بعده كابن قتيبة (ت 276هـ/ 889م)، والطّبري (ت 310هـ/ 922م)، وابن حجر (852هـ/ 1448م)، وغيرهم [المجاز، مقدّمة سزكين، 1/ 17؛ نهاد الموسى، مجاز القرآن، 175] بل إنّ بعض معاصريه قد تبنّاه، ولنقل على الأصحّ أنّه قد تبنّى المنهج المتّبع فيه، مثل سعيد بن مسعدة الأخفش (ت 215هـ/ 830م)، وأبي عبيد القاسم بن سلاّم [طبقات، 73؛ نهاد الموسى، مجاز القرآن، 185]، وإن كان الأخير قد جمع في كتابه بين أبي عبيدة وغيره ممّن ألّف في الموضوع [طبقات المفسّرين، 2/ 36].

■ آثاره

1 ـ المطبوعة:

1 ـ تسمية أزواج النّبيّ ﷺ وأولاده، تح. نهاد الموسى، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجلّد 13، العدد 2، 225 ـ

286، مقدّمة، شعبان 1387هـ/ نوفمبر 1967م، تح. ناصر حلاوي، مطبعة حدّاد، 1969، مقدّمة؛ 2 ـ كتاب الخيل، رواية أبي حاتم سهل بن محمد السجستاني، تح. سالم الكرنكوي Krenkow، طبعة أولى، حيدر آباد، الدكن، الهند، 1358هـ؛ 3 ـ كتاب العققة والبررة، رواية أبي غسّان رُفيع بن سلمة بن مسلم العبدي، تح. عبد السلام هارون، طبعة أولى، 351 ـ 370، نوادر المخطوطات، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، 1374هـ/ 1955م؛ 4 ـ مجاز القرآن، رواية عليّ بن المغيرة الأثرم، تح. فؤاد سزكين، طبعة أولى، الجزء الأوّل، محمد ساسي أمين الخانجي، تقديم أمين الخولي، مصر، 1374هـ/ 1954م، طبعة ثانية، تقديم أمين الخولي، فهارس، جزءان، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1401هـ/ 1981م؛ 5 ـ نقائض جرير والفرزدق، Edited by Anthony Ashley Bevan, Brill Leiden., 1905 ـ 1912، مجلّدان، الثالث للفهارس، مقدّمة.

2 ـ المخطوطة:

6 ـ مقاتل الفرسان، نسخة مشوّشة بالمتحف البريطاني.

المصادر والمراجع

● الإصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار الفكر للجميع، 1390هـ/ 1970م [مواطن متعدّدة. انظر فهرست الكتاب طبع في مطبعة بريل، ليدن، 1318هـ]؛ ● ابن الأنباري، كمال الدين عبد الرّحمان، نزهة الألبّاء، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة، 104 ـ 111؛ ● البغدادي، أحمد بن عليّ، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، 13/ 252 ـ 258؛ ● الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتّبيين، تح. عبد السّلام هارون، القاهرة، 1367هـ/ 1948م؛ ● الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تح. وشرح عبد السّلام هارون، طبعة أولى، مصطفى بابي الحلبي، مصر، 1386هـ/ 1938م؛ ● ابن خلّكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، طبعة أولى، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السّعادة، مصر، 1367هـ/ 1948م، 4/ 323 ـ 331؛ ● الداودي، محمد بن علي، طبقات المفسّرين، طبعة أولى، تح. علي محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر، 1392هـ/ 1972م، 2/ 326 ـ 328؛ ● الزبيدي، محمد بن الحسن، طبقات النّحويّين واللّغويّين، طبعة ثانية، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 175 ـ 178؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام طبعة ثالثة، 8 / 191؛ ● زغلول، محمد، أثر القرآن في تطوّر النّقد العربي، دار المعارف، مصر، 1968م؛ ● السيوطي، عبد الرّحمان، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع (مواطن متعدّدة)؛ ● ابن العماد، عبد الحيّ، شذرات الذّهب، المكتبة التّجاريّة للطّباعة والنّشر

والتوزيع، بيروت، 9/ 24 ـ 25؛
● الموسى، نهاد، حاشيتان خفيفتان على كتاب المخطوطات العربيّة، مخطوطتان منسوبتان إلى أبي عبيدة خطأً، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجلّد 13، عدد 2، 1387هـ/ 1967م، 339 ـ 342؛
● الموسى، نهاد، مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنّى، تح. محمد فؤاد سزكين، دراسة وتعقيب مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، المجلّد 13، الجزء الأوّل، ربيع الأوّل 1378هـ/ مايو 1967م، 159 ـ 192؛ ● ابن النديم، الفهرست، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 85 ـ 86؛
● الحموي، معجم الأدباء، دار المشرق، بيروت، 19/ 154 ـ 162.

- BROCKELMANN, Geschichte, I, 103 ; S. I., 162.
- GIBB, H. A. R., Abū 'Ubayda, Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, I, 162 - 163.
- LECKER, Michael, Bibliographical notes on Abu'Ubayda Ma'amr b. Al-Muthannā in: Studia Islamica, 1995/1 (Juin) 81, pp. 71 - 100.
- AL-QĀDT, Muhammad, La Composante narrative des «Journées des Arabes» (Ayyām Al-'Arab), in: Arabica Brill, Leiden, 1999, pp. 358 - 371.

د. هند شلبي
جامعة الزيتونة ـ تونس

التَّيمي، عُمر بن لجَأ بن حدير

(ت 105هـ/724م)

عمر بن الأشعث بن لَجَأ بن حدير التَّيمي. منسوب إلى جدّه لجأ، وليس إلى أبيه الأشعث. وقومه التَّيم هم بنو عبد مناة بن أدّ بن طابخة. ولم يكن بنو التيم ذوي جاه وخطر، فهم من أهل البادية وفقراء وأصحاب شاء وحمير. وقد شكلوا مع عدي وعكل وثور قبيلة الرباب. وهؤلاء جميعهم أبناء عم لقبيلة تميم المعروفة.

وعُمَر بن لجأ شاعر أموي وراجز، واشتهر بنقائضه مع جرير. وكان يشاركه في هجاء جرير ثلاثة شعراء أُخَر من التيم هم: السَّرَنْدي، وعلقة، وجحدب [الاشتقاق، 186].

كان لإقامة تميم في اليمامة، في البادية، أثر واضح في موضوعات شعره وفي فصاحته وبلاغته. ويبدو أن عمر قد انتقل من مكان إلى آخر، فالراجح أنه مرّ بالبصرة والتقى الفرزدق فيها. ومر بالمدينة، وفيها عوقب مع جرير بسبب هجائهما المقذع. وانتهى به الأمر إلى الأهواز، حيث مات هناك، كما يقول ابن قتيبة [الشعر والشعراء، 428 و 249].

ولا ندري متى مات عمر بن لجأ بدقة. وإذا كان خير الدين الزركلي يُرجّح العام 105هـ/ 724م تاريخا لوفاته [الأعلام، 5/ 95] فإنّ ناشر شعره في زماننا، د. يحيى الجبوري، يرى أن وفاته تأخرت إلى ما بعد ذلك التاريخ [شعر عمر بن لجأ، 9]. وضع ابن سلام الجمحي عمر بن لجأ في الطبقة الرابعة من طبقات الشعراء الإسلاميين، مقرونًا إلى نهشل بن حرّي، وحميد بن ثور الهلالي، والأشهب بن رميلة [طبقات ابن سلام، 2/ 583].

وجل أخبار عمر بن لجأ تتركّز حول مهاجاته جريرًا. وتختلف في أسباب هذا الهجاء، وفي من سعى فيه [النقائض، 1/ 487 ـ 488؛ طبقات ابن سلام، 1/ 424؛ الشعر والشعراء، 2/ 680؛ الأغاني، 8/ 18، 70 ـ 71؛ الموشح، 202 ـ 206]. وكانت نقائض عمر بن لجأ وجرير موضع اهتمام العلماء القدامى، فقد ذكر ابن النديم أن السكري عمل نقائض جرير وعمر بن لجأ، وعملها كذلك أبو عمرو الشيباني، والأصمعي [الفهرست، تح. نهاد عباس عثمان، قطر، 1985، ص 302].

وبخصوص السعاة بين الشاعرين رُوِي في النقائض أن لقمان الخزاعي هو الذي أوقع الشر بين الشاعرين، إذ اتّهم عمر بأنه يسرق شعر جرير، وخاصة قوله:

تـأويـنـي ذكـر لـزولـة كـالـخـبـل
وما حيث تلقى بالكثيب ولا السهل

ثم عاد واتّهم جريرًا بأنه يسرق شعر عمر، فوقع الشر بينهما [النقائض، 1/ 487؛ طبقات ابن سلام، 2/ 588]. وفي الشعر والشعراء جاء أن أوّل من ألقى الهجاء بين عمر وجرير، هو الأشهب بن جميل، فقد ألقى الأشهب على مسامع جرير قول عمر:

«جر العجوز الثني من خفائها»

فأصلح جرير شعر عمر، وأبلغ الأشهب هذا الإصلاح لعمر، فغضب ووقع الشر بينهما [الشعر والشعراء، 680].

وفي الأغاني روي أنّ جريرًا قال بيتا الشعر، فقبّحه عمر بن لجأ، وهو قول جرير:

وأوثـق عـنـد الـمـرهـقـات عـشـيـةً
لـحـاقًـا إذا مـا جـرّد الـسـيـفَ لامـعُ

فغضب عمر أن جريرًا قال:

وأوثـق عـنـد الـمـردفـات عـشـيـةً
لـحـاقًـا اذا مـا جـرّد الـسـيـفَ لامـعُ

فغضب جرير وراح يحذر التيم من منازلته، إذ قال:

يـا تـيـمَ عـدي لا أبـا لَـكُـمُ
لا يـوقـعـنّـكـم فـي سـوءة عُـمَـرُ

خلِّ الـطـريقَ لـمنْ يـبـنـي الـمـنـار بـه
وابـرز بـبـرزةَ حـيـث اضـطـرّكَ الـقـدَرُ

و «برزة» هنا هي أم عمر. وردّ عمر على جرير بقصيدة تقع في تسعة وثلاثين بيتًا، مطلعها:

تـبـئـت كـلـب كـلـيـبٍ قـد عـوى جـزعًـا
وكـلُّ عـاوٍ بـفـيـه الـتـربُ والـحَـجَـرُ

ويقول فيها:

هِبْتَ الـفـرزدق فـاسْـتَـغْـفَـيْـتَـنِـي جـزعًـا
لـلـمـوت يـعـمـد والـمـوت الـذي تـذرُ

فـاخْـسـأْ لـعـلَّـكَ تـرجـو أن يـحـلَّ بـنـا
رحـل الـفـرزدق لـمـا عـضَّـكَ الـدبـرُ

تهجو بني لجأ لما انهزمْتَ لهُ
رعْبًا وأنْفُكَ مما قالَ مختصرُ

إنّي أنا البحرُ غمرًا لست جاسره
وسيّئ النارَ دونَ البحرِ تستعرُ

[شعر عمر بن لجأ، ص 92]

وهكذا التحم الهجاء بين الشاعرين، فنظم جرير في هجاء عمر التيمي أربع عشرة قصيدة، ورد عمر عليه بعشر قصائد طوال.

ويبدو أن عمر كان خصمًا عنيدا لجرير يساعده في ذلك شعراء قومه المذكورون سابقًا. ويروي أن حجناء بن جرير سأل أباه يوما: «من هاجيتَ فكان أقسى عليك؟ قال: التيم، كنت أقول القصيدة أحب إلي من بكري، فيجتمعون، فينقضونها» [الموشح، 206].

وثمّة روايتان في كتاب الأغاني حول نهاية هذه المعركة الشعرية بين عمر وجرير، واحدة تصور الشاعرين في المدينة، وقد أمر الوليد بن عبد الملك عامله عليها أبا بكر محمد بن حزم الأنصاري بأن يضربهما، ليكفا عن التهاجي وقذف المحصنات من النساء [الأغاني، 8/ 71 ـ 72]. ويشكك د. يحيى الجبوري في هذه الرواية [شعر عمر، 13، الحاشية]. والرواية الثانية رواها ابن سلام الجمحي عن أبي الغراف، ومؤداها: أن رجالاً من تميم مشت بين جرير وعمر، وأصلحت بينهما بالعهود والمواثيق المغلّظة ألا يعودا إلى الهجاء، فكف التيمي، ولكن جريرًا بقي يرسل الواحدة تلو الأخرى... فيقول التيمي: والله ما نقضت هذه ولا سمعتها. فيقول جرير: هذه كانت قبل الصلح [الأغاني، 8/ 78]. ويروى أن عمر بن لجأ قد اصطدم بالفرزدق الذي وقف إلى جانب جرير. ويروى أنهما تصالحا في البصرة بعد أن جاء الفرزدق يطلب من عمر أن يذله على مثالب بني جعفر بن كلاب [النقائض، 2/ 908].

والمدقق في شعر عمر بن لجأ يرى أن الهجاء قد استنفد جل أشعاره، وأنّ أغراض الشعر الأخرى كانت قليلة بل ضامرة. ولا شك في أن الفخر يمتزج بالهجاء في فن النقائض. ففي الوقت الذي يهاجم عمر فيه جريرًا، ويلج في شتمه وتجريحه، يفخر بقومه وبوقائعهم وبأيامهم، كما يفاخر بشعره وبقدرته على الإيذاء.

ويضاف إلى الهجاء والفخر، فنُّ الوصف الذي تفوق فيه عمر، وخاصّة وصف الناقة. وأبرز معاني الهجاء عند شاعرنا تتمثّل بالتشنيع على نسب جرير الأدنى، وقذف قومه باللؤم، والغض من انتسابه إلى تميم، يقول عمر:

فقد خُلقتْ كليبُكَ من تميمٍ
مكانَ القردِ من ذنبِ الفصيلِ

وحظُّ ابن المراغةِ من تميمٍ
كحظِّ الزانياتِ من الفحولِ

فإنّك وافتخارك من كليبٍ
ببيتِ اللؤمِ والعددِ القليلِ

كأورقَ ليسَ له جناحٌ
على عودَيْنِ يلعبُ بالهديلِ

وابن مراغة هو لقب لجرير، وكان الفرزدق ينبزه به في بعض شعره. ولا شك أن القدح في النسب يجرح الخصم ويؤذيه، لأنّ العرب قديمًا كانت تفاخر بأنسابها، وتشمخ بأروماتها وأجدادها. ويفخر الشاعر، في موطن آخر،

بقريضه الذي أفحم به جريرًا، بل قضى به على معالم الرجولة فيه، يقول:

الا مَنْ مُبلغُ الشعراء أني
خصيتُ ابن المراغةِ حِينَ شابا
إذا خُصيَ الحِمارُ كبا وطاشتْ
قوائِمُهُ وكانَ لـه تَبابا

ويعجب عمر من جرير في قصيدة أخرى كيف يشتم قومه من الرباب، الذين أجاروا نساء بني يربوع، بعد أن قهرهم بنو مالك وأرادوا إذلالهم زمنا مديدًا، يقول:

أتشتُمُ أقوامًا أجاروا نساءَكُمْ
وأنتَ ابنُ يربوع على الضيم وارِكُ
أجرنا ابنَ يربوع من الضيمِ بعدما
سقتكمْ بكأس الذلِ والضيم مالِكُ
غداةَ أرادَتْ مالِكٌ أنْ تحلَّكم
على الخسْفِ ما هبَّ الرياحُ السواهكُ
فغُذّتُم بأجواء الرباب وأنتمُ
كفقْعِ التناهي استدرجتهُ السنابكُ

[شعر عمر بن لجأ، 116]

ومن مزايا هذا الشاعر ورود إشارات كثيرة فيه إلى أيام العرب، فهو مثلا يذكر يوم الكلاب، ويوم تيمن، ويوم سجستان، ويوم دجلة، ويوم سعد، ويوم بحير، ويوم أراب، وفي هذا اليوم يقول:

ويوم أراب السهل يوم استَبَتْكُم
علاكم بنبي يربوع وردٌ مواشِكُ

ومن مزايا هذا الشاعر أنه كان راجزا. وفي شعره المجموع ثمان أراجيز. اختار الأصمعي منها واحدة في «أصمعياته»، بل اختار منها أحد عشر بيتا. وكرّس عمر بعض أراجيزه لوصف الناقة، فهو يقول مثلاً:

أنعتُها إنّي من نُعَاتِها
مُنْدحَةُ السرّاتِ وادِقاتُها
مكفُوفةُ الأخفافِ مجمراتها
سابغةُ الأذنابِ نيَّالاتها

[شعر عمر بن لجأ، 116]

ولفتت قدرة عمر على قرض الشعر ونظم الرجز معا نظر الجاحظ، فقال فيه: «إن من الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز الى القصيد، ومنهم من يجمعهما كجرير، وعمر بن لجأ، وأبي النجم، وحميد الأرقط، والعماني» [الشعر والشعراء، 1/ 209].

وكذلك شهد الأصمعي لعمر بن لجأ بأنه من أنعت الرجاز للإبل فقال: «وأنعت الناس لمحلوب الراعي، وأنعتهم في الرجز ابن لجأ التيمي» [فحولة الشعراء، 18].

واختلف القدماء في تقييم هجائيات عمر في جرير، ففي حين يروي الأصفهاني بسنده أن سعيد بن المسيب يرى أن جريرا أكل عمر في هجائياته [الأغاني، 8/ 78]، يروي المرزباني أن عبيد بن غاضرة كان يميل إلى عمر، ويعيب على جرير حين احتكما إليه

ولا شك أن هذه الأحكام الملقاة جزافا لا يركن إليها، فكما كان جرير يُجوّد في بعض هجائياته، كان عمر يُجَوِّدُ في بعض هجائياته هو الآخر. بيد أنّ الرأي الشائع قديمًا هو أن جريرًا هَزَمَ كل من هاجاه، عدا الفرزدق.

ولكن ما يسجّل لعمر في نقائضه ومجمل شعره أنه كان ذا نفس طويل في قرض الشعر،

ففي شعره قصيدتان يربو كل منهما على مائة بيت (139 و105). وقصيدتان، إحداهما 99 بيتا، والثانية 80 بيتا. أما مجموع شعره في الرد على جرير فقد تجاوز ستمائة بيت.

وهذا النفس المديد كان يجري على طلق واحد وسوية عالية من الفصاحة والبلاغة. ويروى أن ابن لجأ قال ابن عم له: «أنا أشعر منك. قال: وكيف؟ قال: إني أقول البيت وأخاه وتقول البيت وابن عمّه» [الشعر والشعراء، 90؛ الموشح، 552]، وأراد ابن قتيبة بهذا القول أن يكون شاهدًا على عدم التكلّف، بمعنى أن يكون البيت مقرونًا إلى جاره ومضمونًا إلى لِفْقِهِ.

آثاره

لم نقع على اسم عالم تراثي جمع شعر عمر بن لجأ. ولكن القدماء جمعوا نقائض جرير وعمر بن لجأ. وكان منهم محمد بن حبيب والأصمعي وأبو عمرو الشيباني والسكري. وربّما يكون محمد بن ميمون بن المبارك، وهو من علماءالقرن السادس الهجري، قد رجع إلى تلك الكتب المفقودة ليختار منها عشر قصائد لعمر بن لجأ، ويدرجها في كتابه «منتهى الطلب من أشعار العرب». وهو كتاب عثر على الجزء الثالث والخامس منه د. يحيى الجبوري في جامعة ييل بأمريكا. وكان لعمر بن لجأ في الجزء الخامس عشر قصائد كلها في هجاء جرير. وهي لم ترد كاملة في أي مصدر اخر. فشجع هذا د. الجبوري على أن ينشر تلك القصائد، مضيفًا إليها أراجيز عمر وبعض أشعاره المتفرّقة في مصادر التراث، ويصدر كتابه «شعر عمر بن لجأ» في بغداد، عام 1396هـ/ 1976م.

المصادر والمراجع

● أبو عبيدة، معمر بن المثنى، النقائض، طبيفان، ليدن 1905، ج1/ 195، 487 ـ 489، ج2/ 902؛ ● الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تح. محمود شاكر، القاهرة، ط2، 1974، 362 ـ 372، 433، 495، 504، 583، 588؛ ● الجاحظ، البيان والتبيين، تح. هارون، القاهرة 1949، ج1/ 164، 206، 209، ج2/ 223؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. أحمد شاكر، ط2، القاهرة 1966، 90، 280 ـ 281؛ ● الأصفهاني، الأغاني، ط. دار الكتب، مصر، 8/ 18، 77 ـ 78؛ ● ابن دريد، الاشتقاق، تح. هارون، منشورات مكتبة المثنى ببغداد، ط2، 1399هـ/ 1979، 185؛ ● المرزباني، الموشح، تح. علي البجاوي، القاهرة 1965، ص200 ـ 206، 552؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، 5/ 59؛ ● عفيف، عبد الرحمن، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتّى نهاية العصر الأموي، دار المناهل، بيروت، 1417هـ/ 1996م، ص171؛ ● عمر بن لجأ، شعر عمر بن لجأ، تح. يحيى الجبوري، بغداد 1976م.

د. عادل عطا الله الفريجات
دمشق ـ سورية

التيمي، أبو محمد عبد الله بن أيوب

(ت 209هـ/ 824م)

أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي، مولى تيم الله بن ثعلبة بن عُكَابَةَ بن صَعْبِ بن بكر بن وائل، شاعرٌ من أهل الكوفة، عاش في العصر العباسي الأول (132هـ/ 750م - 232هـ/ 847م). ولا تعرفُ السنة التي ولد فيها، ولكن يحتمل أنه ولد في أوائل العصر العباسي في مدينة الكوفة، لأنه حين توفي كان قد تجاوز السبعين من عمره.

نشأ في الكوفة، وانتقل إلى بغداد، وكان يتردد بين عاصمة العباسيين وموطنه.

وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء، أحدهما يقال له: أبو التَّيَّحان، ذكر ابن النديم في «الفهرست» أن شعره يقع في خمسين ورقة، والآخر يقال له: أبو السحاب، والثالث اسمه أحمد بن أيوب التيمي، وابن أخ هو عبد الله بن أحمد التيمي، وكان يروي بعض شعره، وابن عم له يدعى قبيصة، كان يختلط به في حياته الخاصة. وله ابن اسمه حيّان، اخترمته المنية وهو حَدَثٌ، فجزع عليه، ورثاه بقصيدة سينية.

وعُرِفَ التيميُّ أوّلَ ما عُرف في المصادر شاعرًا يتكسب بشعره في دواوين الوزراء والقادة والولاة والخلفاء ومجالسهم. ولعل أولى صلاته صلته بإبراهيم المَوْصلي، وابنه إسحاق، وكلٌّ من الثلاثة شاعر، يحب المتعة، ويهوى المنادمة، ويطرب للشعر المغنَّى، بل يعد إبراهيم وابنه من رواد صَنْعة الغناء في العصر العباسي. واتصل بالفضل بن الربيع بن يونس حاجب هارون الرشيد ووزيره وتوثقت صلته به.

وممن اتصل بهم أيضًا البرامكة، ويبدو أنَّ صلته بهم أثمرتْ قصائد كثيرة، ولا سيما في مدح الفضل بن يحي البرمكي. وحصل منهم مقابل ذلك على أعطياتٍ وجوائز سنية.

وتعددت صلاته بالولاة والقادة الكبار، ومن هؤلاء يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، وانقطع إليه التيمي حتى توفي يزيد في أذربيجان عام، 185هـ/ 801م، وكان واليًا عليها من قبل هارون الرشيد. ويبدو أنه أقام معه هناك مدة من الزمن، وقال في مدحه قصائد كثيرة.

وتوثقت صلته بمنصور بن زياد أحد الكتاب ورجالات الدولة في عهد الرشيد، وكذلك بعمرو بن مسعدة الصُّولي الكاتب المشهور في عهد المأمون.

ومن كبار رجالات الدولة في دولة الرشيد والأمين والمأمون الذين اتصل بهم الفضل بن سهل ذو الرياستين، وأخوه الحسن بن سهل، وأبو عيسى بن الرشيد، وتوصل بهؤلاء وغيرهم إلى سُدَّةِ الخلافة، فذكرت المصادر صلته بالرشيد، والأمين، والمأمون، وهي صلة شاعر يمدح ويأخذ. وفي مناسبات

قصائده المجموعة، والأخبار المتعلقة بها ما يوضح علاقته بهؤلاء جميعًا.

وظفر من صلته برجال الدولة على صلات وأموال وافرة، ذكر أن الأمين أعطاه مرة مئتي ألف درهم على أبياتٍ أجازها له لما ضُرِب كوثرُ خادمه الأثير لديه في الحرب التي قامت بينه وبين المأمون.

وإلى جانب صلاته تلك كانت له صلات أيضًا بشعراء عصره، مثل أشجع السلمي، وابن رَزِينٍ الخزاعي، وغيرهما من الشعراء الذين كانوا يلمّون بمجالس الخلفاء والوزراء والولاة والقادة، وكانت صلته بِلِدَاتِهِ لا تخلو من منافسة.

آثاره

بالاطلاع على مجموع شعره الذي احتفظت به المصادر يتبيّن لنا أن التيمي طرق الموضوعات الشعرية المعروفة في عصره، من أبرزها:

1 ـ المدح: وهو من اهم الموضوعات المتميزة في شعره، وكان لعلاقته القوية برجال الدولة العباسية ما دفعه لإسباغ مدائحه عليهم، وكان لإعطياتهم الجزلة أثرها في توظيف كثير من شعره في هذا الموضوع. وفي حياته وأخباره ما يشير إلى أنه مدح بشعره جميع رجالات الدولة العباسية في عصره الذين اتصل بهم، وتوثقت علاقته بهم، ومن أطول قصائده في المدح التي اطلعنا عليها قصيدته في مدح عمرو بن مسعدة الصولي التي رواها الحصري في زهر الآداب، وتتكون من ثلاثة وعشرين بيتًا، مطلعها:

أَعِنِّي على بارقٍ نَاصِبِ
خَفِيٍّ كَوَحْيِكَ بالحاجِبِ

وتضمَّنت بعض مصادر شعره أبياتًا قليلة في مدح الفضل بن الربيع بن يونس، والأمين، والمأمون، والفضل بن سهل.

وتنسب إليه في بعض المصادر القصيدة الرائية المشهورة التي ألقاها بين يدي الرشيد حينما نقض نقفور Nicephorus الأول ملك الدولة الرومانية الشرقية العهد الذي كان بينه وبين الرشيد، وكتب إلى الرشيد يتوعد ويهدد مطلعها:

نَقَضَ الذي اعْطاكَهُ نَقْفُورُ
فعليه دائرةُ البَوارِ تدورُ

ومنها:

ابشرْ اميرَ المؤمنينَ فإنَّهُ
فَتْحٌ اتاكَ بهِ الإلهُ كبيرُ
فَتْحٌ يزيدُ على الفُتُوحِ يَؤُمُّنا
بالنصرِ فيهِ لواؤكَ المنصورُ
فلقد تباشَرَتِ الرعيةُ انْ اتى
بالنَّقْضِ عنه وافِدٌ وبشيرُ

وفيها يمدح الرشيد، ويثني على أفعاله، ويحدثه على غزو الروم، ويبشره بالفتح والغلبة. والخطاب الموجز البليغ الذي كتبه الرشيد إلى نقفور معروفٌ مشهور.

وتلمس في مدائحه نبرة الصدق وعاطفة الإخلاص.

2 ـ الرثاء، أجاد التيمي في هذا الموضوع أيما إجادة، ويبدو من تعدد صلاته وتنوعها أنه قال مراثي كثيرة فيمن اخترمته المنية من

أصدقائه وأحبابه ورجال الدولة العباسية. ومرّ بنا أن ابنه حيّان توفي وهو صغير، فرثاه بقصيدة سينية، ذكرت بعض المصادر خمسة أبيات منها، ويتضمن شعره المجموع مرثيته في يزيد بن مزيد الشيباني، ومرثيته في منصور بن زياد، وتعد هاتان المرثيتان من عيون المراثي في الشعر العربي، و لا سيما مرثيته في يزيد بن مزيد الشيباني الدالية، وتقع في خمسين بيتًا أوردها ابن عبد ربّه الأندلسي في العقد الفريد، مطلعها:

أحـقًّـا أنـه أودَى يـزيـدُ
تَـبَـيَّـنْ أيُّـهَـا الـنَّـاعِـي الـمُـشِـيـدُ!

أمّا مرثيته في منصور بن زياد فلم يصل إلينا منها سوى عشرة أبيات، ولكنها بليغة مؤثرة، وبعض أبياتها ورد في كثير من المصادر، منها قوله:

أمـا الـقـبـورُ فـإنـهـنَّ أوانـسٌ
بـجـوارِ قـبـرِكَ والـديـارُ قـبـورُ

عَـمَّـتْ فَـواضِـلُـه فـعـمَّ مُـصـابُـهُ
فـالـنـاسُ فـيـه كُـلُّـهـمْ مـأجـورُ

عـجـبًـا لأربـعِ أذرعٍ فـي خـمـسـةٍ
فـي جـوفِـهـا جَـبَـلٌ أشَـمُّ كـبـيـرُ

ورثاؤه صادق ينبئ عن إخلاصٍ ومحبة وتقدير للمرثي، ويرى رثاءه حقًا يجب عليه أداؤه، وفاءً لمن أسدوا إليه معروفًا، ومنحوه عطاءً، وأفسحوا له في مجالسهم وبيوتهم؛

3 ـ شكوى الكبر: ليس للتيمي في مجموع شعره سوى مقطوعة واحدة في شكوى الكبر وتقدم السن، تتكون من خمسة أبيات، قالها بعد ان بلغ سبعين عامًا من عمره، وهي أبيات مشهورة سائرة، ولشهرتها نوردها هنا:

إذا كـانـتِ الـسـبـعـونَ سِـنَّـكَ لـم يَـكُـنْ
لـدائِـكَ ـ إلاّ أنْ تـمـوتَ ـ طَـبـيـبُ

وإنَّ امـرأً قـد سـارَ سـبـعـيـنَ حِـجَّـةً
إلـى مـنْـهَـلٍ مـن وِرْدِهِ لـقـريـبُ

إذا مـا مـضـى القرنُ الذي كُنْتَ فيهمُ
وخُـلِّـفْـتَ فـي قَـرْنٍ فـأنـتَ غَـريـبُ

إذا مـا خـلـوتَ الـدهـرَ يـومًـا فـلا تـقـل:
خَـلَـوْتُ، و لـكِـنْ قُـل: عـلـيَّ رقـيـبُ

ولا تَـحْـسَـبَـنَّ الـلّـه يَـغْـفُـلُ سـاعـةً
ولا أنَّ مـا يـخـفـى عـلـيـه يَـغـيـبُ

والمقطوعة تعد من شواهد الشعر، التي يستشهد بها كثيراً. وللتيمي مقطوعات في الغزل، والوصف، والعتاب.

وما دام ديوان شعره مفقودًا فإن الباحث لن يتمكن من الإلمام بالموضوعات والأغراض التي طرقها في شعره، لأن من البديهي أن يتضمن شعره الذاهب موضوعات أخرى لا نجد نماذج منها في مصادر شعره.

ويمكن القول إن شعره في مجمله يقترب من أن يكون تصويرًا لحياته وصلاته برجال عصره وعلاقته بزملائه من الشعراء والأدباء. ومما ينبغي أن يلحظ في شعر التيمي هو هذه السهولة التي تمتاز بها ألفاظه وتراكيبه، وبخاصة في المقطوعات.

والقارئ الأديب المتخصص لا يحتاج إلى الاستعانة بمعجم اللغة في فهم الألفاظ إلاّ في أبيات يسيرة، كبعض الألفاظ التي وردت في مرثيته لعمرو بن مسعدة الصولي، ومرثيته

ليزيد بن مزيد الشيباني. والسمة الأخرى قدرته على انتقاء اللفظ المناسب المعبر حسب ما يقتضيه المقام والمعنى.

المصادر والمراجع

● ذكر ابن النديم في الفهرست أنَّ للتيمي ديوانًا يقع في مئة ورقة، وهو قدر من الشعر كبير، إذ الورقة تتكون من صفحتين، وربما لا تقل أبيات الصفحة الواحدة عن خمسة عشر بيتًا، ونستطيع بإجراء عملية حسابية يسيرة أن نقول إن شعر التيمي يقارب نحو ثلاثة آلاف بيت، وهذا المقدار لم يصل إلينا، فلا يزال ديوانه في عداد المفقودات. وشعره القليل الذي وصل إلينا مفرق في عدد من مصادر التراث الأدبي، وفي مقدمتها الأغاني، والعقد الفريد، وزهر الآداب، وديوان الحماسة لأبي تمام. ● ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح. أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، وعبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، 1384هـ/ 1965م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 3/ 295 ـ 293؛ ● الأصفهاني، الأغاني، الجزء، 19، حققه عبد الستار أحمد فرَّاج، دار الثقافة، 1960م، بيروت، ص 318 ـ 337؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة، 9/ 413 ـ 411؛ ● النديم، الفهرست، تح. رضا تجدد، كراجي، باكستان، 186؛ ● الشيباني التبريزي، شرح ديوان الحماسة، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، 5/ 3؛ ● ابن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، الجزء، 17، باعتناء، دوروتيا كرافولسكي، نشر فرانزشتاينر، 1401هـ/ 1981م فيسبادن، ص79 ـ 80؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (الهيئة العامة للكتاب)، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، 2/ 160 ـ 161، 189؛ ● الزركلي، الأعلام، الطبعة السابعة، 1986م، دار العلم للملايين، بيروت، 73/ 4؛ ● فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، مج. 2 ج. 4، نقله إلى العربية، د. عرفة مصطفى، وراجع الترجمة، د. محمود فهمي حجازي، د. سعيد عبد الرحيم، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص 102 ـ 103؛ ● شعر عبد الله بن آيوب التيمي، جمع وتح. وشرح د. حمد بن ناصر الدُّخَيِّل، معهد المخطوطات العربية، 2001م، القاهرة، ص 156.

د. حمد بن ناصر الدُّخَيِّل
جامعة الملك سعود
الرياض ـ السعودية

التيمي، أبو المعتمر سليمان بن طرخان

(46هـ/666م - 143هـ/760م)

هو أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي، ولد سنة 46هـ/ 666م، وروى عن الصحابي أنس بن مالك وعدد من قدامى التابعين، وكان بصفة عامة موضع ثناء لدقّة مروياته، وتوفي بالبصرة سنة 143هـ/ 760م.

قال ابن سعد في طبقاته عنه: ليس بتيميّ ولكنه مرّي ومنزله في التيم فنسب إليهم. ووصفه بأنه كان ثقة، كثير الحديث، وكان من العبّاد المجتهدين، وكان يصلي الليل كلّه، يصلي الغداة بوضوء عشاء الآخرة، وكان هو وابنه المعتمر يدوران بالليل في المساجد فيصليان مرة في هذا المسجد ومرة في هذا المسجد حتى يصبحا، وكان سليمان مائلاً إلى الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
ورد عن سليمان بن طرخان قوله: أخذ فلان وفلان صحيفة جابر، فقالا: خذها فقلت: لا. وجاء عن شعبة قوله: «لم أر أحداً أصدق من سليمان التيمي، وكان إذا حدّثنا بأحاديث يرفعها إلى النبي ﷺ تغيّر وجهه»، لا بل مضى أبعد حين قال: شكّ سليمان (التيمي) عندنا يقين.

ومن آثار سليمان بن طرخان، كتابه الموسوم «كتاب السيرة الصحيحة» والذي عرف باسم «كتاب المغازي» أيضاً، وقد حصل الخطيب البغدادي في دمشق على إجازة بروايته، كما يبدو أن الطبري قد أفاد منه، وهناك قطعتان مهمتان منه في تاريخ الطبري، إضافة إلى وجود مقتبسات منه في صحيح البخاري، وخصوصاً في المجلد الخامس «القسم الخاص بالمغازي» وفي «فهرست ابن خير» يرد ما يفيد أن الكتاب قد قرئ عليه وعلى آخرين، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب قد فقد إلاّ سبعاً وسبعين صفحة منه، نشرها المستشرق فون كريمر في ختام كتاب المغازي للواقدي الذي طبع في كلكتا سنة 1856م.
كان سليمان بن طرخان أحد علماء البصرة وعبّادها، وقد عاش سبعا وتسعين سنة، وعدّ من حفّاظ البصرة، ويروى أنه لم يُرَ ساعة قط إلّا تصدق بشيء، فإن لم يكن صلى ركعتين، وقد قال عنه حماد بن سلمة: «ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله فيها إلّا وجدناه مطيعاً، كنا نرى لا يحسن يعصي الله».
ويروي سعيد بن عامر: «مرض سليمان التيمي، فبكى، فقيل ما يبكيك؟ قال: مررت على قدري فسلمت عليه فأخاف الحساب عليه».

وعرف عن سليمان بن طرخان أنه لا يحدّث أحداً حتى يمتحنه، كما عرف عنه نشاطه في رواية التاريخ، كما عرف بالزهد والأمانة، والى هذا فهو متشيع لآل هاشم: جمع أخباراً عن العباس وفي مصلحته، وكان معنياً بأخبار الصراع الذي دار بين الوثنية والإسلام، وبأخبار المؤامرات اليهودية، وبأخبار التضحية والصمود أمام القوى الفارسية التي

تأهبت للقضاء على الإسلام، وكانت السيرة بما فيها من جهاد وتشريع وحكم وتوجيه والمشكلات التي واجهت المسلمين بعد وفاة النبي محمد ﷺ بما فيها من أحداث حاسمة، محل عناية هذا المحدث والأخباري الذي يستحق ما كتبه عن السيرة، أن يوصف بأنه من أقدم ما دوّن في هذا الشأن، كما أن أخباره من أدق الأخبار التي رويت عن أحداث فتنة عثمان رضي الله عنه وجدل الخارجين على سياسته، ونرى من خلالها، تفاعل الدراسات التاريخية وحركة تطورها، والحرص على ما يستلزمه الخبر التاريخي، من فهم الراوي حقيقة القصة التي يتحدث عنها سواء كانت هذه المغازي من تدوين سليمان بن طرخان أم من تدوين غيره.

إن الروايات التي جاءتنا عن سليمان بن طرخان، تضعنا أمام طبيعة الكتابة التاريخية في عصره من جهة، وترينا رؤيته الفكرية والمقاصد التي يتوخاها، إذ يتضح من الروايات القليلة التي ينقلها الطبري عنه، ما يعبّر عن مقاصده السياسية في إدانة المشاركين في وفد مصر الذي ناظر عثمان بن عفان رضي الله عنه وحاصره، إذ يروي أن هذا الوفد انصرف راضياً، لكنه فوجئ برسول يحمل كتاباً عليه ختم عثمان رضي الله عنه وفيه يأمر والي مصر بقتلهم، ثم يقص خبر إنكار عليّ رضي الله عنه لما ادّعاه هذا الوفد عليه من مكاتبته إياهم، ثم ابتعاده عن المدينة، إذ غادرها إلى قرية خارجها، وتنتهي القصة بقسم عثمان رضي الله عنه الذي يؤكد براءته من التهمة التي وجهها إليه هذا الوفد بإرسال الكتاب إلى والي مصر. أما الخبر الثاني الذي نقله الطبري عن سليمان، ويتعلق بفتنة قتل عثمان رضي الله عنه فهو يصف مقتله بطريقة يظهر منها تعاطفه مع عثمان رضي الله عنه إذ يختتم هذه القصة بطريقة مأساوية، فيذكر أن الذي قتل عثمان رضي الله عنه هو رجل يسمى «الموت الأسود» وإنه أجهز على عثمان رضي الله عنه بأن خنقه بيديه.

ويمكننا أن نتبين المقاصد الاقتصادية والإدارية عند سليمان بن طرخان فيما نقله من حوار بين الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ومخالفيه الذين اعترضوا على إجراءاته الاقتصادية والإدارية، ودفاع عثمان رضي الله عنه عن هذه الإجراءات، إذ قال لمناظريه، وقد أخذوا عليه حمايته الحمى: «وأما الحمى فإن عمر حمى قبلي لإبل الصدقة، فلما ولّيت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زاد في إبل الصدقة». ويظهر موقف عثمان رضي الله عنه القوي في إدانة محاصريه من تعداده لخدماته التي قدمها لدعم ونصرة الإسلام والمسلمين، إذ يروي سليمان، أن عثمان أشرف يوماً على محاصريه وقال لهم: «أنشدكم بالله، هل علمتم أني اشتريت رومة من مالي، يستعذب بها، فجعلت رشائي منها كرشاء رجل من المسلمين، قيل: نعم، قال: فما يمنعني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر، قال: أنشدكم الله هل علمتم أني اشتريت كذا وكذا من الأرض فزدته في المسجد، وقيل: نعم، قال: فهل علمتم أحداً من الناس منع أن يصلي فيه قبلي» وهو ينقل لنا أخباراً اقتصادية من تاريخ الخلافة العباسية، إذ يروي عن الخليفة المنصور أنه جعل سنة 143هـ، على من كان يملك عشرة آلاف درهم فصاعداً أن يوجه رجلاً إلى قتال الديلم، وذلك أنهم نالوا من المسلمين.

وتتضح مقاصد سليمان بن طرخان الدينية من اهتمامه في رواياته بإيراد الآيات القرآنية وشرح مناسباتها التاريخية، وهو يعنى بالمناقشات التي جرت بين عثمان رضي الله عنه والخارجين عليه، إذ استخدم الطرفان سور القرآن الكريم وآياته، وهي تظهر معرفة عثمان رضي الله عنه بأسباب النزول، كما يروي أخباراً عن بداية الخليفة، وقد بلغ من تقديسه لأحاديث الرسول محمد ﷺ وإجلاله لها، أنه كان إذا حدّث بأحاديث يرفعها إلى النبي ﷺ تغيّر وجهه، كما يروي روايات توحي بنبرة نَقْدٍ لبعض صور السلوك الإجتماعي، مثل قصته عن اهتمام معاوية بشراهة بشير بن عبيد الله بن أبي بكرة بالطعام، وقد حضر مائدته.

وقد حظيت بعض روايات سليمان بن طرخان، باهتمام البخاري في الصحيح، سيما تلك التي يتحدث فيها عن جهاد وصمود المسلمين وانتصاراتهم، فثمة إشارة إلى مصرع أبي جهل في بدر سنة 2هـ وأخرى عن صمود طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص في أحد سنة 3هـ، تأكيداً لفضائل الصحابة التي حرص على إبرازها ابن طرخان، وثمة إشارة إلى حزن النبي محمد ﷺ عندما أبصر جسد عمّه الحمزة رضي الله عنه، وقد مثّل به أبشع تمثيل، حيث يقول: فنظر الرسول ﷺ إلى منظر لم ينظر إلى شئ قط أوجع منه لقلبه.

وثمة إشارة أخرى إلى استشهاد سعد بن معاذ رضي الله عنه، وأخرى إلى عائشة رضي الله عنها في تقييم حسان بن ثابت.

ويتجلى منهج سليمان بن طرخان العلمي، في أسلوب تناوله للأخبار إذ نجدها عنده موجزة، مكثفة، مضغوطة، منسقة ومنتظمة، لا تكثر خلالها الفواصل والزوائد، وهو لا يذكر الأسانيد، ولا يعنى بالروايات المتعددة، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعداها، ويظهر من الروايات التي نقلت أقواله تمسكه بالنصوص الدينية وتجنبه الاجتهادات الفقهية، إذ يروى عنه أنه كان يقول: «لو أخذت برخصة كل عالم، أو زلة كل عالم، اجتمع فيك الشر كله».

المصادر والمراجع

● ابن سعد، محمد (ت 230هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر ودار بيروت، بيروت 1960؛ ● ابن أبي حاتم، عبد الرحمن (ت 327هـ)، كتاب الجرح والتعديل، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ط 1، 1952؛ ● اليافعي، أبو عبد الله بن سعد بن علي (ت 768هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط 2، 1970؛ ● الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748هـ)، تذكرة الحفّاظ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1956؛ ● ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط 2، (ب. ت)؛ ● ابن خيّر، أبو بكر محمد (ت 575هـ)، فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق فرنشسكة قرارة زيدين وخوليان ربارة طرغوة، طبعة ثانية عن الأصل المطبوع في مطبعة قومش، سرقسطة،

1893؛ ● مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، بيروت، 1979؛ ● مدني، أمين، التاريخ العربي ومصادره، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971؛ ● الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ)، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1960؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، م1/ج1، ترجمة د. فهمي حجازي، دار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1983؛ ● نصّار، د. حسين، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، منشورات إقرأ، بيروت، ط 2، 1980؛ ● محمد عطاء الله محمد سعيد، مقاصد المؤرخين المسلمين في كتابة السير والتراجم في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، عام 1416 هـ/ 1996م.

د. نجمان ياسين
جامعة الموصل ـ العراق

ابن تيمية، تقي الدين أبو العبّاس أحمد

(661هـ/ 1263م ـ 728هـ/ 1328م)

هو تقيّ الدّين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السّلام بن تيميّة الحرّاني الدّمشقي، وُلد يوم الاثنين في العاشر من شهر ربيع الأوّل سنة 661هـ/ 1263م. هاجرت أسرته إلى دمشق عندما أغار التّتار على ديار بكر وما حولها ـ منها حرّان ـ سنة 667هـ/ 1268م.

يمكن تقسيم حياة ابن تيميّة العلميّة إلى مرحلتين: مرحلة الطّلب العلمي، ومرحلة العطاء والإنتاج. ففي المرحلة الأولى انصرفت همّته منذ صباه إلى تحصيل العلم والانكباب عليه. فقد تلقّى على يد والده (ت 682هـ/ 1284 م)، الشّيخ «شمس الدين بن أبي عمر» (ت 689هـ/ 1291م)، والشّيخ «زين الدّين بن المُنجّا» (ت 695هـ/ 1297م) الفقه الحنبلي، وبرع في ذلك وناظر. وعُني بالحديث، وسمع المسند مرّات عديدة والكتب السّتّة ومعجم الطّبراني الكبير وما لا يُحصى من الكتب والأجزاء... وقرأ العربيّة أيّاما على «محمد بن عبد القوي» (ت 699هـ/ 1301م). وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرّز فيه. ونظر في علم الكلام والفلسفة وبرّز في ذلك على أهلهما. وبالجملة فلم يكد يبلغ العشرين من عمره حتّى تمثّل جلّ علوم عصره النّقليّة والعقليّة، وحاز قصب السّبق في كثير منها وبزّ أقرانه ومعاصريه.

وقد ساعده على بلوغ تلك المرتبة، أمران:

أوّلهما ذاكرته القويّة، وثانيهما ذكاؤه الحاد. فقد كان آية في الحفظ والفهم، له قدرة فائقة على الغوص في دقيق العلوم، فلا يكاد يباشر شيئا منها إلاّ ويفتح له باب في الفهم الصّائب [الكرمي، الكواكب، 68]. فهذه المؤهّلات الشّخصيّة مكّنته من الاطّلاع الواسع على ما كُتب في شتّى العلوم [لاووست، نظريّات شيخ الإسلام ابن تيّميّة، 204 ـ 265].

فلمّا توفّي والده وكان له حينئذ من العمر إحدى وعشرون سنة، قام بوظائفه من بعده في دار الحديث السّكريّة سنة ثلاث وثمانين وستّمائة (683هـ / 1284م). لقد أسلمته هذه المرحلة إلى أن يتبوّأ مكانة الإمامة في العلوم الإسلاميّة وعقليّها بدون منازع. فكان إذا تكلّم في التّفسير فهو حامل لوائه المطّلع على ما كُتِبَ فيه. يغوص في دقيق معاني الكتاب الكريم.

أمّا في علم الحديث، فهو حافظ متقن وصفه الذّهبي بالخبرة التّامّة «بالرّجال، وجرحهم، وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث. وبالعالي والنّازل... فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه...» [ابن رجب، الذّيل على طبقات الحنابلة، 2/ 323].

ونظر في العقليّات فأتقن علم الكلام والفلسفة والمنطق، فبان له بالدّليل العقلي الموافق لصحيح المنقول غلط كثير من أصولهم الّتي بنوا عليها مذاهبهم.

وقصارى القول، فقد أسلمه عقله الواعي النّاقد وفكره الحرّ، إلى إعادة تقويم تراث السّابقين ونخله في ضوء ما صحّ عنده من صحيح المنقول الموافق لصريح المعقول. وقد اعترف له معاصروه، الموافق منهم والمخالف ببلوغ الغاية في العلوم، حتّى قال عنه كمال الدين بن الزّملكاني: «كان إذا سُئل عن فنّ من العلم ظنّ الرّائي والسّامع أنّه لا يعرف غير ذلك الفنّ...» [الكرمي، العقود، 60].

وُلِدَ ابن تيّميّة في ظروف مضطربة، إذ لم يمض على سقوط بغداد (656هـ/ 1258م) سوى خمس سنوات على يد التّتار، ودخولهم بعد ذلك حلب ودمشق، حتى رأى ابن تيّميّة آثار الخراب والدّمار، وسمع عن أهوال المجازر، ورأى بنفسه ما حصل في حرّان وهو صبيّ، كلّ ذلك كان له كبير الأثر في شخصيّته فمحّض حياته للدّفاع عن أمّته، وقد أثبتت الأحداث صدق نيّته وشجاعته. فقد وقف في وجه الملك «قازان» سنة 699هـ/ 1300م حين أراد الاستيلاء على دمشق، فانسحب بجيشه، ولمّا عاد التّتار سنة 702هـ/ 1303م تصدّى لهم فحثّ السّلطان النّاصر على إعداد العدّة اللاّزمة وأظهر من الشّجاعة والثّقة بنصر الله الّذي تحقّق.

أمّا ابتلاؤه فكان بسبب جرأته في إظهار ما يعتقده أنّه مذهب السّلف الّذي يجب نشره ولا يجوز كتمانه، وقد اقتضى منه ذلك نقد كبار أئمّة الكلام والتّصوّف الّذين كانت لهم منزلة مكينة في نفوس مقلّديهم، فعزّ عليهم أن ينال من سمعتهم، فأعلنوها حربا عليه. فكانت أوّل مسألة امتحن فيها هي العقيدة الحمويّة الّتي كتبها سنة 698هـ/ 1299م على إثر سؤال ورد عليه من حماه حول صفات الله، فأجاب عليه بما يوافق عقيدة السّلف، ويخالف ما عليه أهل الكلام، ولكنّه انتصر عليهم فيها. وفي سنة 705هـ / 1306م أعيد امتحانه في مصر وانتهى به الأمر إلى السّجن [الكرمي،

العقود، 126 ـ 147]. ولمّا كانت سنة 707هـ/ 1307م أخرج من السّجن فاستأنف التّدريس والإفتاء وبيان مذهب السّلف، حتّى صدر منه تشنيع على مذهب ابن عربي (ت 638هـ/ 1240م)، فسعى خصومه لحبسه مرّة أخرى وأرسلوه إلى الاسكندريّة لتمكين أعدائه من سفك دمه، لكنّه اكتسب أنصارا له يتبنّون أفكاره. ولمّا عاد السّلطان النّاصر إلى السّلطة أطلق سراحه سنة 709هـ/ 1309م وبالغ في إكرامه وعرض عليه الانتقام من أعدائه لكنّه أبى، ممّا ترك عميق الأثر في خصمه «ابن مخلوف» [ابن رجب، الذّيل، 2/ 330].

وفي سنة 712هـ/ 1313م عاد إلى دمشق، حيث غيّر اتّجاه البحث، فاشتغل بالجانب الفقهي خصوصا ـ وهوالّذي نُركّز عليه ـ بعد أن أشبع القضايا الأصوليّة بحثا وتحقيقا [E12, III, 977]. فكانت له اجتهاداته الخاصّة الّتي قد تُخالف آقوال الأئمّة الأعلام. ومن فتاويه الّتي انفرد بها عنهم والّتي جدّدت محنته قوله بأنّ الطّلاق الثّلاث لا يعدّ إلاّ طلقة واحدة، وأنّ الحلف بالطّلاق تجب فيه الكفّارة لا غير. فحدثت له محنة سنة 720هـ/ 1320م بعد أن منع سنة 718هـ/ 1318م من الفتوى حول الطّلاق. ثمّ أُعيد إلى السّجن سنة 726هـ/ 1326م بسبب مسألة منع شدّ الرّحال لزيارة قبور الأنبياء والصّالحين، حيث وافته المنيّة سنة 728هـ/ 1328م.

لقد تلقّى ابن تيّميّة دراسته الفقهيّة الأولى على أبيه الحنبلي، وعلى كبار علماء دمشق الّذين شهدوا له بإتقانه علم الفقه وأصوله. وقد ذكر «ابن كثير» في «ترجمة أحمد بن نعمة المقدسي» أنّه: «أَذِنَ في الإفتاء لجماعة من الفضلاء منهم... ابن تيّميّة، وكان يفخر بذلك ويفرح به ويقول: أنا أذنت لابن تيّميّة بالإفتاء» [ابن كثير، البداية، 9/ 230؛ انظر فيه أقوال العلماء في الكواكب، 66؛ ابن رجب، الذّيل على الطّبقات، 2/ 323 ـ 324؛ ابن عماد، شذرات الذّهب، 8/ 143 ـ 147].

وقد كان ابن تيميّة يرجّح مذهب الإمام أحمد بن حنبل على غيره من المذاهب الفقهيّة باعتباره الأقرب إلى النصّ، وقد أوضح ذلك بقوله: «أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنّة وأقوال الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان... ولا يوجد في مذهبه قول ضعيف إلّا وفي مذهبه قول يوافق القول الأقوى» [ابن تيّميّة، مجموع الفتاوى، 20/ 229].

بيد أنّ ابن تيّميّة لم يجمد على المذهب الحنبلي لا يتخطّاه: بل كان يدرس غيره ليخرج إلى الدّراسات الفقهيّة المقارنة. فقد درس سائر المذاهب الإسلاميّة. كما أنّه كان ينظر إلى آراء العلماء والأئمّة الآخرين بعين التّقدير والرّضا ملتمسا لهم عن أخطائهم الأعذار، ظهر ذلك في رسالته المشهورة «رفع الملام عن الأئمّة الأعلام». ولكن مع هذا التّقدير الكلّي لأئمّة المذاهب، فإنّه لم يمنعه ذلك من الرّجوع إلى المعين الصّافي شأنه في ذلك شأن الأئمّة المجتهدين، فخالفهم في بعض ما ذهب إليه، لأنّ القرآن والسنّة يحكمان بغير ما اختاره الفقهاء المجتهدون [ابن العماد، الشّذرات، 8/ 144].

ولكن هل يمكن اعتبار ابن تيّميّة مجتهدا مطلقا؟.

مال البعض إلى أنّ اجتهاده لم يكن مطلقا، وإنّما كان مقيّدا، وذلك راجع إلى قلّة ما

انفرد به عن الأئمّة الأربعة [انظر في غرائبه ومفاريده؛ ابن رجب، الذيل، 2/ 333] وعدم مخالفته لأصول الإمام أحمد في الاستنباط. فهو من ثمّ مجتهد منتسب للمذهب الحنبلي. بينما اعتبره البعض الآخر مطلق الاجتهاد لتوفّر شروطه فيه ولتفرّده بغرائب ومسائل خالف فيها المذاهب الفقهيّة. وأمّا موافقته لأحمد فهي راجعة لاجتهاد لا لتقليد. وأمّا تقيّده بالمنهج العامّ للمذهب الحنبلي، فهذا لا يحطّ من قيمة اجتهاده.

ولعلّه من باب الاعتدال في الحكم الجمع بين الأمرين معا، فهو تابع لمنهج الإمام أحمد العامّ، ومستقلّ عنه في اختياراته التّطبيقيّة، فتارة يوافق أحمد وهو الغالب ولكن بعد إقامة الدّليل وبذلك تنتفي عنه صفة التّقليد للمذهب الحنبلي، وتارة يخالفه، بل يخالف المذاهب الأربعة أحيانا. وكلّ ما وافق فيه الأئمّة كان عن اجتهاد وتدبّر لأصول الشّريعة ومقاصدها. وما اتّباعه لأصول أحمد إلاّ لكونها أصحّ الأصول عنده، وباعتبارها تمثّل أصول أهل الحديث الموافقة لأصول الشّريعة. ولقد تعرّض ابن تيميّة لهذه الأصول في رسالتيه «طرق الأحكام الشّرعيّة»، و«قاعدة في المعجزات والكرامات»، وهي سبع:

1 - الكتاب: وهو الأصل الأوّل الّذي يعتبر حجّة في المسائل الفقهيّة والاعتقاديّة.

2 - السنّة المتواترة: سواء تلك الّتي تفسّر ظاهر القرآن ولا تخالفه، أو الّتي لا تفسّره فهي حجّة عند جميع السّلف إلاّ الخوارج فإنّهم لا يعملون بالسنّة المخالفة - في تصوّرهم - للقرآن.

3 - السنن المتواترة: سواء الّتي تلقّاها أهل العلم بالقبول، أو الّتي رواها الثّقات. وقد اتّفق أكثر أهل العلم على الأخذ بها، لكن أنكرها بعض أهل الكلام، وردّ أهل الرّأي بعضها لشروط وضعوها.

4 - الإجماع: وهو عند ابن تيميّة إجماع علماء العصر الواحد على رأي واحد في مسألة معيّنة بحيث لا يشذّ عنهم واحد، والإجماع بهذا المعنى عنده لم يتحقّق إلاّ في عهد الصّحابة، وأنّ المسائل المجمع عليها بعدهم قليلة.

5 - القياس على النصّ والإجماع: وهو حجّة عند جمهور الفقهاء، ومن النّاس من أنكره كبعض أهل الكلام والحديث، ومنهم من توسّع فيه ككثير من أهل الرّأي، والحقّ عنده وسط بين الفريقين.

6 - الاستصحاب: وقد عرّفه بالبقاء على الأصل فيما لم يُعلم ثبوته ولا انتفاؤه بالشّرع. ووضّح أنّه وقع الاتّفاق على كونه حجّة على عدم الاعتقاد، بينما وقع الخلاف في كونه حجّة في اعتقاد العدم.

7 - المصالح المرسلة: ومعناها أن يرى المجتهد أنّ هذا الفعل يجلب منفعة راجحة، وهو لا يخالف الشّرع. وقد تردّد ابن تيميّة في قبولها ذلك أنّ القياس قد شملها، ومن ناحية أخرى لأنّه شاهد أمورا في عصره جعلته يتجنّبها لاعتماد أهل الأهواء عليها.

وهذه الأصول الّتي ذكرها، الظّاهر أنّه لم يقصد بها حصر الأدلّة لأنّه ذكر غيرها في مواضع أخرى، ومن ذلك:

قول الصّحابي [انظر، قاعدة جليلة في

التوسّل] ـ شرع من قبلنا ـ الاستحسان ـ سدّ الذرائع ـ العرف [مجموع الفتاوى، 19/ 5].

إنّ ابن تيميّة لم يذكر هذه الطّرق ضمن الأدلّة السّابقة لأنّها ليست مستقلّة عمّا ذكره فهي تابعة لها.

آثاره

ألّف ابن تيميّة في الفقه وأصوله، ففي أصول الفقه: 1 ـ مجموع الفتاوى، الجزءان 19 ـ 20، ففيها أغلب رسائله. أمّا في الفقه فله: 2 ـ «شرح المحرّر في مذهب أحمد»؛ 3 ـ شرح العمدة لموفّق الدّين، 4 مجلّدات؛ 4 ـ مجموع الفتاوى، الرّباط، 37 مجلّدا، تح. محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبيّة؛ 5 ـ درء تعارض العقل والنقل، 11 مجلّدا.

المصادر والمراجع

● ابن كثير، البداية والنّهاية، ط. 1، تح. يوسف البقّاعي، دار الفكر، بيروت، 1996م، 9/ 230؛ ● ابن العماد، شذرات الذّهب، ط. 1، تح. عبد القادر ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1992م، 8/ 143 ـ 147؛ ● ابن رجب، الذّيل على طبقات الحنابلة، ط. 1، بإشراف أبي حازم حسن وحازم بهجت، دار الكتب العلميّة، بيروت 1997م، 2/ 323 ـ 324؛ ● الكرمي، مرعي، الكواكب الدريّة، ط. 1، تح. نجم عبد الرحمان، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986 م؛ ● ابن عبد الهادي، العقود الدريّة، تح. حامد الفقي، مطبعة أنصار السنّة، 1938 م؛ ● ابن ناصر الدّمشقي، الرّدّ الوافر، ط. 1، تح. زهير الشّاوش، المكتب الإسلامي، 1980م؛ ● الجَلَيْنْد، محمد السيّد، الإمام ابن تيميّة وقضيّة التّأويل، ط. 5، دار قباء، القاهرة، 2000 م؛ ● عقيلي، إبراهيم، تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيميّة، ط. 1، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1994م؛ ● حلمي، مصطفى، مادّة ابن تيّميّة ضمن معجم أعلام الفكر الإنساني، ج 1، الهيئة المصريّة للكتاب، القاهرة، 1984م؛ ● أبو يعرب المرزوقي، منزلة الكلّي في الفلسفة العربيّة، جامعة تونس الأولى، 1994م؛ ● دليل الرّسائل الجامعيّة، ج 2، جامعة أمّ القرى، مكّة، 1998م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 1/ 144.

● E12, III, p. 976; E11, II, p. 447.

د. عبد الجليل بن سالم
جامعة الزّيتونة ـ تونس

ابن التين، الصفاقسي عبد الواحد بن عمر

(ت 611هـ/1214م)

عبد الواحد بن عمر بن عبد الواحد بن ثابت. المعروف بابن التين أبو محمد أو أبو عمر الصفاقسي. الإمام، الفقيه المالكي، المحدّث.

اشتهر ابن التين بين العلماء بشرحه للجامع الصحيح للإمام البخاري. ومع ذلك لا توجد له في كتب التراجم سوى ترجمة مقتضبة لا تلقي الضوء على أهم مراحل حياته وتعلّمه. واكتفى مقديش بالقول: إنّ شهرته تغني عن التعريف بفضله [نزهة الأنظار، 2/ 297].

ومن خلال ما هو معروف في ذلك العهد في مسيرة العلماء العلمية، يكون ابن التين قد تفقه على مذهب مالك وتدرّج في المعارف الشرعية في مسقط رأسه على علماء بلده. وقد يكون رحل إلى القيروان أو تونس أو إليهما معاً.

وكشأن كثير من علماء إفريقية والمغرب والأندلس في عدم اكتفائهم بالأخذ عن علماء بلدانهم، وسعيهم إلى الاتصال بعلماء المشرق رغبة في الاستزادة من المعارف والحصول على الإجازات والانتساب إلى أئمة العصر؛ فقد كانت لابن التين رحلة إلى المشرق، زار فيها مصر والشام والحرمين الشريفين. ومن هنا يمكن القول بأنه اتصل ببعض علماء النصف الثاني من القرن السادس المعروفين بمصر والشام ومكة والمدينة.

وقد عاد ابن التين من رحلته إلى مسقط رأسه راسخ القدم في العلوم الدينية، وبحسب حسن حسني عبد الوهاب فإنّ تأليفه يدلّ دلالة قطعية على سعة إطلاعه ومكانته من اللغة والحديث وتصرّفه في تطبيق أصول الفقه على الفروع.

ولا شكّ أنّ لابن التين تلاميذ وإن لم يعرفوا. وقد توفي ببلده سنة 611هـ/ 1214م. وقبره هناك مشهور. وهو أمام قبر الإمام اللخمي.

آثاره

عرف لابن التين مؤلف واحد كان سبباً في شهرته وهو «الخبر الفصيح الجامع لفوائد مسند البخاري الصحيح». وقد ورد العنوان هكذا بلفظ «الخبر» على مخطوطتي الكتاب. وهو عنصر مرجّح على ما أورده بعض المترجمين من أنه «المخيّر» أو «المحبّر».

وممّا يدلّ على شهرة هذا الكتاب وتداوله، اعتماد العلماء عليه والنقل منه، كما فعل الإمام ابن حجر العسقلاني في شرحه لصحيح البخاري «فتح الباري» والإمام بدر الدين العيني في شرحه لصحيح البخاري «عمدة القاري»، والحافظ محمد بن رشيد الفهري كذلك في شرحه لصحيح البخاري «إفادة النصيح في شرح البخاري الصحيح»، كما كان يحتمده في دروسه في شرح الصحيح لأجل حضور البربر في مجلسه، وقد كان

معتمدهم المدونة، وابن التين ينقل منها ومن كلام شرّاحها [أزهار الرياض، 2/ 350].

وهو من أوائل من أقدم على شرح صحيح البخاري؛ فقد ذكره حاجي خليفة في العشرة الأوائل الذين عرفت لهم شروح على الصحيح [كشف الظنون، 1/ 545].

وقد عدّ ابن خلدون هذا الشرح من الشروح التي لم تستوف حقّ الشرح [المقدمة، 408]. واعترض عليه من المعاصرين حسن حسني عبد الوهاب الذي كان يملك منه جزءا، أنّه بمراجعته يعدّ يظهر آنّه من أكمل الشروح وأوفاها بالغرض المطلوب، مع اعتناء كامل باللغة والأحكام المتفرعة على الأحاديث الواردة في الأصل.

ويبدو أنّ الاختلاف بينهما في التقييم راجع إلى اختلافهما في تقدير ما هو مطلوب في الشرح كي يكون مستوفى.

منهج ابن التين في كتابه:

من خلال اطلاعنا على المخطوطتين اللتين وقفنا عليهما، يقوم منهج ابن التين في شرحه على العناصر التالية:

1 ـ ذكر نصّ الرواية بتجريدها من السند؛ 2 ـ تحليل النصّ وبيان المعنى الذي يحتمله، تحت عنوان «شرح» مقسما الشرح إلى فصول بحسب مقاطع النص. ويقوم تحليله للنصّ على أساسين: أساس لغوي، ببيان الدلالة اللغوية للألفاظ؛ وأساس شرعي، ببيان المعنى الشرعي الديني المستفاد. وفي كلّ ذلك يستشهد لما ذهب إليه بأقوال أئمة اللغة وعلماء الإسلام، ومن الصحابة ومن جاء بعدهم. وممّن اعتمدهم ونقل أقوالهم أحمد بن نصر الداودي (ت 440هـ/ 1050م) له «النصيحة في شرح البخاري [الديباج، 35]. لكن نلاحظ أنّ هذه النقول والإيرادات ليست كثيرة ولا طويلة؛ وتقوم قاعدة تحليله ومنطلقه فيه على مذهب الإمام مالك وأصوله، دون إغفال لآراء غيره؛ 3 ـ المقارنة بين روايات الباب من ناحية الألفاظ والمعاني، وتفسيرها على وجه يزيل الاختلاف بينها إن وجد؛ 4 ـ المقارنة بين ما جاء في صحيح البخاري من روايات واردة في غيره من كتب السنة كالموطأ، ببيان أوجه الاختلاف بينها؛ 5 ـ الاعتناء باستنباط الأحكام بحسب ما يفيده النص؛ 6 ـ إثارة مسائل فقهية لها علاقة بموضوع الرواية، وتقديم إجابات عنها تحت عنوان «مسألة» أو «فرع». ويعتمد ابن التين في دراسة المسائل التي يثيرها على منهج المقارنة بين آراء العلماء، سواء علماء المذهب المالكي فيما بينهم، أو بين علماء المذاهب الأخرى. وهو ما يشير إلى ما كان عليه علماء الإسلام من إقرار مبدأ الحوار وقبول الرأي المخالف، واعتبار الحجّة والدليل السبيل الوحيد لمعرفة الحق، لا الإقصاء والمصادرة.

ويوجد الآن بالمكتبة الوطنية بتونس مجلدان من «الخبر الفصيح»: الأول تحت رقم 7102 وأصله من المكتبة العبدلية. وهو السفر الثالث من أصل الكتاب. يبتدئ بباب القصر في الصلاة، وينتهي بباب صلاة ركعتي الطواف خلف المقام؛ الثاني تحت رقم 18474. وأصله من مكتبة حسن حسين عبد الوهاب. يبتدئ من كتاب الحج وينتهي بكتاب المظالم والغصب.

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1955، 1/ 635؛ ● التنبكتي، أحمد أقيت، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مطبوع مع كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 188؛ ● ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، دار الشعب، القاهرة، 408؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر، بيت الحكمة، قرطاج/تونس 1990، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، مج. 1، 1/ 300 ـ 301؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1982م، 1/ 276؛ ● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر؛ ● مقديش، محمود، نزهة الأنظار، تح. علي الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1988، 2/ 297 ـ 298؛ ● المقري التلمساني، أحمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث، الرباط، 1978م، 2/ 350.

الحبيب بن طاهر
وزارة الشؤون الدينية

ث

ابن ثابت ـ الثوري

ابن ثابت، حسّان بن ثابت بن منذر الأنصاري

(... هـ/563م - 54هـ/673م)

هو حسّان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النّجار، بطن من الخزرج في يثرب شاعر من أبرز شعراء الرسول ﷺ والدعوة المحمّدية الجديدة إبّان ظهورها. كان يكنّى بأبي الوليد فأبي الحسام فأبي عبد الرحمان. ولد بيثرب (المدينة) عام 563 م ونشأ بها نشأة ترف إذ كان والده من وجهاء المدينة وكان جدّه المنذر صاحب رأي وتحكيم في الخلافات بين أهل يثرب، فقد حكم بين الأوس والخزرج في ما يعرف بـ"يوم سميحة" [أنظر: ابن الأثير، 1/ 659؛ ابن سلاّم، 84].

اتصل في الجاهليّة بالغساسنة فكان شاعر بلاطهم المحبّذ، وقرّبوه لما كان بينهم وبين الخزرج من صِلات نسب؛ مدح منهم الحارث بن أبي شمر الغسّاني (ت 630 م) وجبلة بن الأيهم آخر الغساسنة وقد ظل هذا الغسّانيّ يجزل له العطايا إلى فترة متأخّرة من حياته.

واتّصل بعد الغساسنة بالنعمان بن المنذر اللخمي (ت 602م) وكان ذلك على الأرجح بعد فرار شاعره المبجّل النابغة الذّبياني (ت604م). وبعد أن عاد النّابغة مغفورا له لم يطل بحسّان البقاء في بلاط النعمان. لكنّ اجتماع ابن ثابت بالنّابغة كان مكسبا له فالنابغة كان رأس الشعراء في عصره. لكنّ اللّقاء الأشهر بين الشّاعرين كان في سوق عكاظ بحضور أعشى قيس (ت 8هـ/ 629م) والخنساء (ت 24هـ/ 654م) يحكمّونه في أشعارهم.

كان حسّان في الجاهليّة شاعر الخزرج يذود عنها في إنكساراتها كما في حرب ربيع الظفريّ [ابن الأثير، 1/ 666] أو يمجّد انتصاراتها كما في يوم السّرارة [السّابق، 1/ 662]. وكانت بينه وبين قيس بن الخطيم (ت620م) شاعر الأوس سجالات ومنافرات دفع بعضها ابن ثابت إلى أن يطلّق زوجته عمرة بنت صامت وقد ذكرها الأوسّي بهجنة.

وبعد أن اعتنق حسّان الإسلام في وقت غير بعيد من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة (622م) صار يذود بشعره عن الدعوة الجديدة وانقلب عداؤه إلى أهل الشرك وخصوصا قريش. ويبدو أن الدّعوة الجديدة التي كانت تحتاج اللسان السّليط حاجتها إلى السيف الإصليت قد وجدت في حسّان بن ثابت أهمّ من له القدرة على الجمع بين إبراز المثالب وتزيين المناقب وقد كان اشتهر بذلك في الجاهليّة. كان يقول عن لسانه: «والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه» [ابن قتيبة، 1/ 223]. لم يطلب من حسّان أكثر من هذا الدّور البياني الذي أقعده مقعدَ الكبر أو الجبن، كما في كثير من الروايات [انظر قصته مع صفيّة عمّة الرسول ﷺ في

غزوة الخندق، ابن الأثير، 2/ 182؛ ابن قتيبة، 1/ 223].

كان الرسول ﷺ ينزل حسّان بن ثابت منزلة مهمّة حتى إنّه «وهبه» شيرين القبطية أخت ماريّة إحدى زوجات النبيّ ﷺ فأنجبت له شيرين عبد الرحمان ابنه الشّاعر المعروف [ابن الأثير، 2/ 1999]. لكنّ هذه المكانة قد اهتزت لبعض الوقت بسبب ما بات يعرف بـ«حديث الإفك» الذي أرجف فيه على عائشة زوج الرّسول ﷺ حين تأخرت عن الرّكب مع صفوان بن المعطّل. وكان حسّان بن ثابت «ممّن أفصح بالفاحشة» [ابن الأثير، 2/ 198] فلمّا أنزلت البراءة أقيم عليه الحدّ فجلد. وكاد يقتله صفوان بن المعطّل لولا تدخّل الرسول ﷺ.

وبعد وفاة الرسول ﷺ ظلّ حسّان خامل الذّكر حتّى جاءت خلافة عمر بن الخطاب (634م ـ 644م) فجعل يحكّمه في بعض المهاجي المشكلة التي كان يرفعها إليه المهجوّون طلبا للقصاص. من ذلك تحكيمه في قصيدة الحطيئة (ت 59هـ/ 679م) التي هجا بها الزّبرقان بن بدر والتي أشكل على عمر قوله فيها: «... وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي» أهو هجاء أم مدح حتى قال حسان: «لم يهجه ولكن سلح عليه» [ابن قتيبة، 1/ 245؛ ابن سلاّم، 41]. كما حكّمه عمر في قصيد هجا به النجاشيّ الحارثيّ أهل الكوفة [السابق، 1/ 247].

إلا أنّ الدور الأبرز الذي لعبه بعد وفاة الرّسول ﷺ كان قبيل مقتل عثمان بن عفّان وبعده فقد انتصر له بن ثابت وطالب باقتداء دمه. حتى إنّ ابن الأثير كان يسمّيه «عثمانيا».

وهذا الانتصار فسّر بالعلاقة القديمة التي كانت لعثمان مع أوس بن ثابت أخي حسّان الذي أسكن عثمان ببته حين هاجر مع الرسول ﷺ إلى المدينة. وقد ذهبت بعض الآراء إلى أنّ موقف حسان لم يكن مدفوعا كبقيّة المواقف بمصلحة إذ كان على حّد عبارة ابن الأثير «شاعرا لا يبالي ما يصنع» [3/ 191]. وكان من قلة قليلة من الأنصار استجابت لنفير عثمان إذ قال: «يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين».

تذهب جلّ الأخبار إلى أنّ حسّان بن ثابت كان من الشعراء المعمّرين إذ عاش كما تقول مائة وعشرين سنة مناصفة بين الجاهلية والإسلام وأنّه كفّ بصره في آخر حياته. إلا أنّ تاريخ الوفاة لم يكن مضبوطا، فقد كان أكثرالتّواريخ تواترا سنة 40هـ/ 660م [ابن الأثير، 3/ 403] وقيل سنة 50 هـ/ 670م وفي قول ثالث إنّ وفاته كانت عام 54هـ/ 673م وهذه التواريخ جميعا لا تؤكد أن الرجل عمّر المائة والعشرين عاما.

ترك حسّان بن ثابت ديوان شعر يضمّ ما يقرب عن 230 قصيدة ومقطوعة ويزعم بعض الدّارسين [بلاشير، 1/ 317؛ عرفات :E.I.2 3/281] أنّ في شعره كثيرا من المنحول حتى أنّ مقال E.I.2 يرفع نسبة النحل فيه إلى ما بين 60 و70% بما يعني أن المنحول هو في ديوان حسّان أكثر من الأصلي. ولآراء المحدثين في التمحّل على حسّان صلة بما قاله ابن سلاّم [طبقات، 48] من أنّه «قد حمل عليه ما لم يحمل على أحد... وضعوا عليه أشعارا لا تليق به». ونحن وإن كنّا لا ننكر أن يكون داخل نصوص الشاعر الأصلية

بعض من التلفيقات والوضع، فإنّ ذلك لا ينبغي أن يصل إلى النسبة المرتفعة أعلاه، فحسّان بن ثابت كان ثريّ التجربة غزيرها ينبغي أن يكون ما وصلنا منه أقلّ ممّا قاله فعلا.

كان ديوان حسّان مجموعا معروفا حين شرحه في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أبو سعيد السّكّريّ [بلاشير، 1/ 317]. ويبدو أنّ من اختار شعر حسّان ضخّم فيه كونه شاعرا للرّسول ﷺ وللدّعوة فوجّهت هذه الصورة كثيرا من اختيارات قصائده. لذلك تجد في الديوان أغلب القصائد المعبّرة عن مرحلة ما بعد إسلام الرجل. وأمّا المرحلة الجاهليّة فضامرة مطموسة لاعتقاد من اختار أنها لا تتناسب مع الصفة الرسمية التي صارت لحسّان بن ثابت. ذلك على الرغم من أنّ الرواة القدامى والشعراء كانوا يقدّمون أشعاره في الحقبة الجاهليّة؛ فالأصمعيّ يقول عنه: «شعر حسّان في الجاهلية من أجود الشّعر فقطع متنه في الإسلام» [ابن قتيبة، 1/ 224] ويقول عنه في كلام آخر إنّه «فحل من فحول الجاهليّة» [السّابق، 1/ 261]. وعدّه ابن سلاّم من أشهر شعراء القرى العربيّة [طبقات، 83].

على أنّ من ينظر في نصوص حسّان الإسلامية يجد ضربا من الملاءمة والتوافق بين مقتضيات الأغراض الأساسيّة عنده وهي الفخر، الهجاء، المدح ومفهومي القبيلة والعقيدة. فإذا كانت القبيلة تتحكّم في معاني تلك الأغراض قديما، فإنّها ارتبطت بمفهوم العقيدة دون أن تتنازل له في شعر حسّان عن مواقعها المركزيّة.

كانت قوّة شعر حسّان ترتكز على الهجاء فهو أبو الأغراض لديه. وهجاء الأفراد أو القبائل يوظّف فيه حسّان كلّ ما أتيح له من الأساليب الممكنة والمعاني المقبولة أو المرذولة لينكّل بالمهجوّ. ولقد وجدناه أكثر ما يستعين بالصور ذات المرجميات الحيوانية البدوية وإرجاع الأصول من المعاني والصّور إلى أضدادها، كتدنيس المقدّس وجعل الجميل قبيحا.

ويمثل الفخر في قصائد حسّان مركز ثقل آخر. والفخر الذي مداره القبيلة لم يضمر في شعره بل اعتمد على أعداء الدّين الجديد لإذكائه. فكان حسّان يبرز معنى نصرة آل يثرب للرسول ﷺ، وجعل هذا المعنى سببا في ذكر الأمجاد القديمة. وعموما فإنّ شعر حسّان يجد متانته وصلابته في طول نَفَسه، وفي نهله من ينابيع الشعر الجاهليّ، فهو في عمومه جاهليّ الروح وإن وشّته بعض المعاني الإسلامية. وفي شعر حسّان دليل على أنّ الانتقال من عادة شعريّة قديمة إلى أخرى جديدة لا يكون يسيرا ولا سريعا.

■ المصادر والمراجع

● ابن سلاّم، طبقات الشّعراء، 83 ـ 85؛ ● ابن قتيبة الشعر والشعراء، 1/ 223 وفهارس؛ ● الطبري، تاريخ الأمم (فهارس)؛ ● ابن الأثير، الكامل، (فهارس)؛ ● المبرّد، الكامل، (فهارس)؛ ● البلاذري، فتوح، 32، 335؛ ● البغدادي، الخزانة، 1/ 207-211، 4/ 288-304؛ ● القالي، الامالي، 1/ 41، 2/ 112؛ ● ابن دريد، الجمهرة 1/ 128، 259، 2/ 25؛ ● الذّهبي، سير أعلام النّبلاء، 2/ 366-

374، 394؛ ● الذهبي، تأريخ الإسلام، 2/ 77؛ ● المرزباني، الموشح، 60-63؛ ● ابن حجر، الإصابة، 1/ 667-69؛ ● ابن سيد الناس، عيون الأثر، 1/ 190 - 290 2/ 32 - 34، 66؛ ● بلاشير، تاريخ الأدب، 1/ 315 - 318.

- R. Blachère, Histoire, 2/313-316;
- Arafat, A critical introduction to the study of the poetry ascribed to Hassān b.THābit, thèse (Londres 1953);
- W. Arafat, article: Hassān b. THabit ,in EI 2, 3/279-281.

د. توفيق قريرة
الجامعة التونسية - تونس

ابن ثابت، زيد بن الضحاك

(ت 45هـ/665م)

ولد زيد بن ثابت بن الضحاك في المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها بإحدى عشر عاما، أي في (611م)، وهو ينتسب إلى بني النجار من الخزرج. أما أمه فهي النوار بنت مالك بن معاوية، من بني النجار، من ذات العشيرة التي ينتمي إليها والده.

وقد نشأ زيد يتيما في رعاية والدته، إذ كان أباه قد قتل في واقعة بعاث، ولم يكن زيد قد تجاوز سنواته الست.

ويبدو أن زيدا كان ذكيا قوي الذاكرة، متطلعا لمشاركة قومه في حياتهم العامة ومواقفهم الكبيرة منذ صغره، لذا فإن قومه قدموه إلى الرسول ﷺ حين هجرته على المدينة وكان عمره أحد عشر عاما، وقالوا له: هذا غلام من بني النجار قد قرأ مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فاستقرأه ﷺ فقرأ، فعجب به، وأخذ يفكر في الاستفادة من مواهبه في الحفظ والكتابة.

ولم يقف طموح الفتى زيد بن ثابت عند حدود حفظ القرآن الكريم، بل تعداه إلى محاولة مشاركة المسلمين في معاركهم ضد المشركين، لذا فقد عرض نفسه للمشاركة في معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة، إلا أن الرسول ﷺ استصغره لأن عمره لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة.

وقد روي أن زيد بن ثابت "شهد أُحُدا وما بعدها من المشاهد، وقيل: إن أول مشاهده الخندق، قيل: وكان ينقل التراب يومئذ مع المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: "أما إنه نعم الغلام" [ابن عبد البر، الاستيعاب، ق، ص 537].

ويبدو أن القول الثاني هو الأولى بالقبول،

لأن هذه المعركة كانت في سنة (5هـ/ 627م)، ولم يكن عمر زيد قد تجاوز آنذاك السادسة عشرة سنة، وقد روي عنه قوله: «أجازني رسول الله ﷺ يوم الخندق، وكساني قبطية» [الطبري، المعجم الكبير، ج 5، ص 107].

ولم تقدم لنا المصادر معلومات حول مدى مساهمة زيد بن ثابت في حروب الرسول ﷺ بعد ذلك، سوى إشارتها إلى أن الرسول ﷺ دفع إليه راية بني مالك بن النجار في غزوة تبوك، لأنه كان أكثر حفظا من غيره للقرآن، غير أن ابن عبد البر قد رد هذا الخبر، وقال: عندي لا يصح، ربما لعدم الارتباط بين متطلبات الحرب وبين تميزه في حفظ القرآن.

كانت القراءة والحفظ والكتابة هي أبرز المجالات التي نبغ فيها زيد بن ثابت، وقدم من خلالها خدمات جليلة للإسلام والأمة منذ أن وضع نفسه بين يدي الرسول ﷺ ليسمعه ما حفظ من القرآن عند مقدمه إلى المدينة. لذا فقد عهد إليه الرسول ﷺ بكتابة الوحي إلى جانب أبي بن كعب وصحابة آخرين، «وكان زيد ألزم الصحابة لكتاب الوحي» [الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص 171].

وفضلا عما تقدم، فقد روي عن زيد ثابت أن رسول الله ﷺ قال له: «تعلم كتاب يهود فإني ما آمن يهود على كتابي، فتعلمت في نصف شهر حتى كتبت إلى يهود، وأقرأ له إذا كتبوا إليه» [الخزاعي، 219].

وعند توسُّع علاقات الرسول ﷺ مع الدول المجاورة، أخذت ترده رسائل مكتوب باللغة السريانية، فأمر زيد بن ثابت بتعلمها، فتعلمها في سبعة عشر يوما [الخزاعي، 218-219].

وهكذا فقد تميز زيد بن ثابت عن بقية كتاب الرسول ﷺ بمعرفة اللغات الأجنبية، واستخدمها في خدمة علاقات الرسول ﷺ مع هذه الأقوام. كما شارك بقية الصحابة من كتابه ﷺ في كتابة الرسائل إلى الملوك والأمراء بالعربية، فضلا عن كتابة ما ينزل به الوحي من القرآن الكريم.

وبعد وفاة الرسول ﷺ واستشهاد عدد من قراء القرآن في حروب الردة وبخاصة في معركة اليمامة، اقترح عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق أن يأمر بجمع القرآن، لأنه كان مفرقا في صدور الرجال وفي صحائف متنوعة، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه، إلى زيد بن ثابت، حسبما يروي البخاري والترمذي فقال له: «إنك رجل شاب عاقل لا نتَّهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه»، فقام بجمعه من «الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال... وبعد الانتهاء من ذلك وضعت الصحف عند أبي بكل الصديق حتى وفاته، ثم عند عمر حتى وفاته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها» [ابن الديبع الشيباني، تيسير الوصول، ج 1، ص 203].

وفي خلافة عثمان رضي الله عنه، ظهرت الحاجة على توحيد المصاحف على قراءة واحدة منعا للاختلاف بين الناس في قراءة القرآن، وذلك لأن الخط العربي لم يكن قد عرف التنقيط والتشكيل الذي يساعد على حسن القراءة ودقتها، وكان حذيفه بن اليمان قد اقترح على عثمان رضي الله عنه توحيد المصاحف فوافق على ذلك، فطلب من حفصة بنت عمر أن ترسل صحف القرآن

لاستنساخها، ثم أمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الحارث، أن ينسخوها. وقال لهم: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم». ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمر بما سوى ذلك من القرآن أن يحرق [الشيباني، تيسير الوصول، ج. 1، ص 204].

وهكذا فإن جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، كان يهدف إلى جمع الناس على لهجة عربية واحدة هي لهجة قريش منعًا للتنازع والاختلاف في وجوه قراءة القرآن. أما جَمْعُ القرآن في عهد أبي بكر الصديق فكان القصد منه جمع صحائف القرآن في مصحف واحد وترتيب سوره، وكان لزيد بن ثابت في كلا الجمعين فضل الريادة والقيادة.

إن ملازمة زيد بن ثابت للرسول ﷺ قد ساعدته على معرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمتقدم والمتأخر من آيات القرآن الكريم. لذا فقد عُدَّ أحد عشرة صحابة اشتهروا بتفسير القرآن، وفضلا عما تقدم فقد اشتهر بالفقه ورواية الحديث. وقد شهد له رسول الله ﷺ بالتميز في علم المواريث، فقال: «أفرض أمتي زيد بن ثابت». أما في الحديث فقد أورد الطبراني 184 حديثا رواها عنه بعض كبار الصحابة والتابعين [المعجم الكبير، ج. 5، ص 109-160].

لقد حملت هذه المؤهلات العلمية لزيد بن ثابت الناس والخلفاء على الاستعانة به في مجال الفتوى والقضاء، فذكر ابن سعد أنه كان «مترئسا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي في مقامه بالمدينة، وبعد ذلك خمس سنين حتى ولي معاوية سنة أربعين فكان كذلك أيضا حتى توفي...» [الطبقات، ج 2، ص 360].

وبالنظر لما كان يتمتع به زيد بن ثابت من منزلة رفيعة فقد «استخلفه عمر بن الخطاب على المدينة ثلاث مرات في الحجتين، وفي خروجه إلى الشام»، وكذلك كان يفعل عثمان بن عفان إذا حج، كما استعان به هذان الخليفتان في الكتابة وفي إدارة بعض الأمور المالية [ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 2، ص 538-539].

وقد حمل علم زيد بن ثابت الصحابة على النظر إليه بصفته «عالم الناس وحبرها»، كما جعل بضع كبار الصحابة يظهرون التجلة والتوقير له. فقد روي أن عبد الله بن عباس أخذ بركاب زيد بن ثابت فقال له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال: هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا.

وكان زيد بن ثابت على الرغم من حاجة الناس إلى علمه، قليل الكلام، فهو أصمتهم إذا جلس بينهم، علما بأنه كان من أفكه الناس إذا خلا بأهله. وكان زيد ورعا متواضعا، فهو يفرق بين حديث رسول الله ﷺ واجتهاده الشخصي، فكان يسمح في كتابة الأول وروايته عنه ويرفض كتابة الثاني. وذكر ابن سعد أن مروان بن الحكم «أجلس لزيد بن ثابت رجلا وراء الستر، ثم دعاه فجلس يسأله ويكتبون، فنظر إليهم زيد فقال: يا مروان عذرا، إنما أقول برأيي» [الطبقات، ج 2، ص 361].

وكان زيد بن ثابت يكنى بأكثر من كنية فهو أبو سعيد، وأبو عبد الرحمان، وأبو خارجة. وقد توفي رحمه الله في سنة 45هـ/ 665م بحسب أقدم وأرجح الروايات، عن عمر ناهز الـ 56، عاما. وقيل إنه توفي سنة 42، و43، و50، و51، و52، و55.

وقال ابن عباس بعد دفن زيد بن ثابت: هكذا ذهاب العلم، لقد دفن اليوم علم كثير، وقال أبو هريرة: اليوم مات حبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفًا.

المصادر والمراجع

● ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت 1957، ج 2، ص 362 ـ 458؛
● الطبراني، المعجم الكبير، الموصل 1984، ج 5، 106-109؛ ● البستي، محمد بن حبان، مشاهير علماء الأمصار، القاهرة 1959؛ ● ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاري، مصر، لات، ج 2، ص 537-540؛ ● ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، النجف 1967، ج 1، ص 192؛ ● ابن قتيبة الدينوري، المعارف، بيروت 1987، ص 149؛
● الخزاعي، علي بن محمد، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 171 ـ 183، 218-220؛
● ابن الديبع الشيباني، تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول، مصر 1934، ج 1، ص 203-204؛
● السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مصر 1951، ج 1، ص 57 ـ 60؛ ● الذهبي، التفسير والمفسرون، القاهرة 1961، ج 1، ص 63 ـ 64؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، مصر 1968، ج 1، ص 139-140؛ ● فنسك، مادة زيد بن ثابت، دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالعربية: أحمد الشنتاوي وآخرين، مجلد 11، ص 8-9؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، السعودية 1983، مجلد 1، ج. 3، ص 15-16؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، 1979، ج 3، ص 57.

أ. د. هاشم يحيى الملاح
جامعة الموصل ـ العراق

ابن ثابت، سنان بن قرة الحرّاني

(ت 331هـ/942م)

سنان بن ثابت بن قرة الحرّاني الصابيء (نسبة إلى مذهب الصابئة)، وهو أحد أفراد أسرة علميّة امتدّت عدّة أجيال، ومؤسسها هو والده (ت 288هـ/ 900م) ونظرا إلى شهرة والده تبدأ أغلب ترجمات سنان بن ثابت ببيان الصلة بينهما، يقول ابن النديم: «أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرّة الحراني، وقد مرّ نسب أبيه» [الفهرست، 359]، وعند القفطي: «سنان بن ثابت، كان طبيبا مقدّما كأبيه» [أخبار العلماء، 130]، وعند ابن أبي صبيعة: أبو سعيد سنان.. كان يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم، واشتغاله بها، وتمهّره في صناعة الطب [عيون الأنباء، 300].

انتقل والد سنان بن ثابت من حرّان إلى بغداد، واستوطنها زمن الخليفة المعتضد؛ وكان سنان، طبيبا ماهرا، فاتّخذه طبيبا خاصا ثلاثة من الخلفاء، وهم: المقتدر بالله، والقاهر بالله والراضي بالله.. وكان رفيع المنزلة عند المقتدر. وجعله رأسا للأطباء الذين أجاز منهم ببغداد ثمانمائة وستين طبيبا، لم يؤذن لأحد منهم باحتراف الطب إلاّ بعد أن امتحنه سنان [الأعلام، 3/ 141]. ويروي ابن النديم - وكان صديقا لوالده - أنّ الخليفة القاهر أرغم سنان بن ثابت على الإسلام، فهرب، ثمّ أسلم وخاف من القاهر، فمضى إلى خراسان وعاد وتوفّي ببغداد مسلما [الفهرست، 360]، ويروي الحكاية نفسها ابن أبي أصيبعة - محيلا إيّاها إلى ابن النديم - ثمّ يزيد عليها حكايات كثيرة ينقلها من كتاب التاريخ لثابت بن سنان، وكلّها تدلّ على رحابة عقل سنان، وحسن تدبيره، واهتمامه ببناء البيمارستانات (المستشفيات) العامة، للعناية بصحّة عوام الناس وفقرائهم [عيون الأنباء، 301 - 304].

آثاره

لسنان بن ثابت أعمال علمية عديدة، أغلبها في الرياضيات والفلك والتاريخ؛ مع أنّه نبغ في الطب. وقد أورد المؤرخون والمترجمون هذه القائمة لمؤلفاته، وهي: 1 - رسالة تاريخ في ملوك السريانيين؛ 2 - رسالة سهيل (الكوكب)؛ 3 - رسالة إلى بجكم (الوزير)؛ 4 - رسالة إلى ابن رائق (الوزير)؛ 5 - رسالة إلى ابن أبي الحسن علي بن عيسى؛ 6 - الرسائل السلطانية والإخوانيات؛ 7 - التاجي (السيرة) في أصول الديلم ومفاخرهم؛ 8 - رسالة في النجوم؛ 9 - رسالة في شرح مذهب الصائبين؛ 10 - رسالة في النجوم؛ 11 - رسالة في قسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة؛ 12 - رسالة في الفرق بين المترسل والشاعر؛ 13 - رسالة في أخبار آبائه وأجداده؛ 14 - ترجمة، نواميس هرمس؛ 15 - إصلاح، أصول الهندسة؛

16 ـ مقالة في الأشكال ذوات الخطوط المستقيمة التي تقع في الدائرة؛
17 ـ إصلاح، كتاب أرشميدس في المثلثات.

وقد تناقلت المصادر هذه القائمة من المؤلفات اعتمادا على ما أورده أبو علي الحسن بن إبراهيم بن هلال الصابي.

المصادر والمراجع

● القفطي، أخبار العلماء، دار الآثار، بيروت، طبعة مصوّرة، 133؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، تح. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 304؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. رضا المازندراني، دار المسيرة، بيروت 1988، ط3؛ ● كحالة، عمر، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 4/ 281؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 8، دار العلم للملايين، بيروت 1989، 3/ 141؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1/ 386، ليدن، أبريل 1938م.

د. يوسف زيدان
جامعة الاسكندرية ـ مصر

ثابت قُطْنة، ابن كعب بن جابر

(40 و45هـ/ 600 و665م ـ 110هـ/ 729م)

ثابت بن كعب بن جابر... وقيل ثابت بن عبد الرحمن فهو عَتَكي أزدي يمني قحطاني من بني أسد بن الحارث بن عتيك؛ ولا صحة لما قيل: إنه مولى لهم، إذ كان عربي المحتد، متعصباً لقومه الأزد، مدافعاً عنهم، مادحاً لرجالاتهم، هاجياً لغيرهم كما في هجائه لبني الكَوّاء من بني يَشْكُر من بَكْر، وكانوا من أزارقة الخوارج، ومن هجائه فيهم:

كُلُّ القبائل من بَكْرٍ نَعُدُّهُمُ
واليَشْكُرِيُّون منهم ألأم العَرَبِ

لُقِّب بثابت قُطْنَة؛ واشتهر بلقبه هذا حتى خَفي اسمه الكامل ونسبه. والسبب فيه أن سهماً أصاب إحدى عينيه في معركة مع الترك سنة 102هـ/ 720م وكان في جيش الحارث بن الحكم نائب مَسْلمة بن عبد الملك على خراسان بعد قتل مسلمة ليزيد بن المهلب في يوم العقير في السنة نفسها، فوضع ثابت قطنة عليها، فعرف بها. ومن ثم أيقن أنه سيُهْجَى بها، فأنشد بيتاً؛ وأشهد أصحابه بأنه قائله؛ وهو:

لا يَعْرِف الناس منه غيرَ قُطْنَتِهِ
وما سواها من الأنسابِ مَجْهولُ

وكان قد اشتهر بالمهاجاة مع صاحب الفيل (حاجب بن ذُبيان المازني التميمي الذي مات

في حروب مع الترك سنة 102هـ)...وقد ضمّن حاجب هذا البيت في هجائه له فأشهد ثابت الناس بما سبق أن فعله وقاله.

ويكنى ثابت أبا العلاء، ولا ولد له؛ فهو لم يتزوج... علماً أنه أعجب بامرأة جميلة فبعث صاحبا له، هو جُوَيبر بن سعيد ليخطبها له؛ فخطبها لنفسه وتزوجها، فذكر ثابت غدر صاحبه به في شعره.

ولد ثابت بالبصرة، وبها نشأ، ولا تعرف سنة ولادته بدقة، لكنه رُئي لأول مرة - وهو في أتم شبابه - فارساً محارباً قوياً لا يأبه الموت في جيش المُهَلَّب بن أبي صُفْرة الأزدي اليماني سنة 73هـ/ 792م حينما كان يقاتل أزارقة من الخوارج؛ مما يرجح أنه ولد بالبصرة بين سنتي 40 و45هـ/ 600 و665م.

وتثبت المظان العديدة أنه ارتحل في جيش المهلب إلى ما وراء النهر نحو خُراسان في سنة 78هـ/ 697م وشارك في المعارك هناك... وقد حظي بمنزلة رفيعة في عهد ابنه يزيد بن المهلب والي خراسان بعد أبيه، لما عرف فيه من الحكمة والشجاعة والكرم... فانعقدت بينهما صحبة قوية، جعلته يصله بجوائز سَنِيَّة، ثم استعمله والياً على بعض كُوَر خراسان. وقيل - في هذا المقام - إنه صَعِد المنبر في يوم جمعة، فرام الكلام فتعذّر عليه وحَصِر، فقال: «سيجعل الله بعد عُسْر يسراً، وبعد عيٍّ بيانا، وأنتم إلى أمير فَعّال أحوج منكم إلى أمير قَوّال:

وإنْ لا أكن فيكم خطيباً فإنني
بسيفي إذا جدّ الوغى لخطيب»

فبلغت كلماته خالد بن صفوان في العراق فقال: «والله، ما علا ذلك المنبر أخطب منه في كلماته هذه، ولو أن كلاماً استخفّني فأخرجني من بلادي إلى قائله استحساناً لأخرجتني هذه الكلمات إلى قائلها» [الأغاني، 14/ 263]، بينما استغل حاجب الفيل هذه الحادثة ليجعلها مادة لهجائه إياه في إحدى قصائده.

وكان ثابت قد أخلص الولاء ليزيد بن المهلب وإخوته، ومدحه، ولم يتخل عنه حين تمرد في خراسان على الخليفة يزيد بن عبد الملك؛ ومن ثم قاتل معه يوم العقير جيش مسلمة بن عبد الملك، بينما خذله أصحابه، وبخاصة أهل العراق، وفروا عنه، حتى قتل سنة 102هـ فرثاه رثاء معبراً، ومنه قوله يذكر هذه الوقعة التاريخية، ويندد بمن فر عنه، وطالما هجا خصومه:

كل القبائل بايعوك على الذي
تدعو إليه وتابعوك وساروا

حتى إذا حَمِسَ الوغى وجعلتهم
نَصبَ الأسِنَّة أسلموك وطاروا

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن
عاراً عليك، وبَعْضُ قَتْلٍ عار

فثابت أعجب بخصال يزيد الكريمة، وهو ممن كتب له رسائله، فضلاً عن انتمائهما للأزد.

وتتابعت الأحداث على ثابت قطنة بعد عزل يزيد ثم مقتله، ومجيء قتيبة بن مسلم والياً على خراسان الذي أبعده عن مجلسه لعلاقته بيزيد فأحنقه؛ ثم غضب قتيبة عليه بعد أن تعرض له ولقبيلته بالهجاء زاعماً فرارها من بعض الحروب مع الترك وصمود تميم؛ ومما قاله في هجائه وهجائها:

تواقَتْ تميمٌ في الطِّعَان وَعَرَّدَتْ
بُهَيْلَةُ لما عاينت مَعْشراً غُلْبا

وإذا كان حلم قتيبة قد وسع أفعال ثابت ثم قربه إليه فمدحه ومجد انتصاراته، فإن أشرس ابن عبد الله السلمي والي خراسان منذ سنة 109هـ/ 727م قد ضاق بمخالفة ثابت له حين فرض الجزية على الفقراء والضعفاء من «السُّغْد»؛ لأنه عدّ إسلامهم نفاقاً، بينما كان ثابت يرى أن الإسلام ما جاء إلا نصيراً لأمثال هؤلاء، فحبسه في سجن «المُجَشَّر»... وبقي محبوساً حتى قدم نَصْر بن سيار والياً لأشرس على «المجشر» فأحسن إليه وألطفه؛ ثم حمله إلى أشرس فعفا عنه، وأطلق سراحه بعد أن كَفِله عبد الله بن بسطام..

لهذا وجدناه يشكر صنيع نَصْر له ويمدحه في بعض شعره الذي أثنى فيه على بطولة الجند، في الوقت الذي افتخر فيه بنفسه وبنسبه، ومنه:

إنّي وإنْ كنت من جِذْم الذي نَضُرَتْ
منه الفروع، وزَنْدي الثاقب الواري
لذاكرٌ منك أمراً قد سبقْتَ به
من كان قبلك يا نصر بن سيَّارِ

وكان ثابت قطنة إثر هذه الأحداث التاريخية على موعد مع الشهادة؛ إذ غزا أشرس بن عبد الله بلاد «سَمَرقند» سنة 109هـ/ 728م ومن بعد وجه ثابتَ قطنة في الخيل مع عبد الله بن بسطام إلى «آمُل» من «طَبَرستان» سنة 110هـ/ 729م فظفر بالأعداء من الترك غير مرة؛ ثم ظفروا به وقتلوه في إحدى المعارك في «آمل» بعد أن أُصيب بجراحات بليغة... وكان يقول وهو في النَّزع الأخير: «اللهم إني أصبحت ضيفاً لابن بسطام، وأمسيت ضيفك، فاجعل قِرَاي من ثوابك الجنة» [تاريخ الطبري، 7/ 59] ثم فاضت روحه الطاهرة، وصمد المقاتلون حتى انتصروا على أعدائهم، وفتحت «آمل» للإسلام.

وبناء على ذلك، وعلى ما ورد في شعره ندرك أنه شاعر أحداث تاريخية قبل أي شيء آخر؛ وإذ أرّخ لكل ما شاهده من معارك وفتوحات فقد نذر نفسه للدفاع عن المسلمين، كما يستشف مما تقدم ومن قوله:

كررْتُ عليهم اليَحْمُوم كرّاً
كَكَرّ الشَّرْبِ آنيةَ المُدامِ
فلولا الله ليس له شريكٌ
وضَرْبي قَوْنَس الملِكِ الهمامِ
إذن لسعَتْ نساءُ بني دِثَارِ
أمام الترك باديةَ الخِدامِ

ثم هو شاعر عاش في مرحلة بزوغ العصبيات الكبرى والصغرى فخاض غمارها وغمار الصراع الفكري والديني، فهو شاعر محارب، وفارس قائد، ووالٍ حكيم، وخطيب قدير، وكاتب مترسل، وقد تميز بصحة الطبع، وصدق الموقف، وكراهة الغدر، وحدة المزاج...

وبناءً على ذلك كله نقول: لما اجتمعت في نفسه أسباب التعصب لقومه ومذهبه لم يخرج عن إطار العقيدة الإسلامية. لهذا مزج شعره بين الأطر الثلاثة: القبلي، القومي السياسي، الديني، ووفق بينها حين صبغ ذلك بالحكمة وعدم التطرف ،وهو الذي جالس في خراسان عددا من الخوارج، وعدداً من أصحاب الاتجاهات الأخرى، وعرف في مجالسها

غيرما شاعر مثل كعب بن مَعْدان الأشقري الأزدي، المتوفى سنة 102هـ، والتقى قوماً من المرجئة فمال إلى مذهبهم وتكلم باسمهم، ودافع عنهم في شعره، في الوقت الذي ناظر في مبادئ الإرجاء، وأوضح طبيعتها وجوهرها، كما نراه في قصيدته التي رثى فيها آل المهلب التي بلغت خمسة عشر بيتاً، منها:

يا هِنْد، إنّي أظنُّ العيش قد نَفِدا
ولا أرى الأمر إلا مُدْبِراً نَكِدا
إني رهينةُ يومٍ لسْتُ سابقَه
إلاّ يكن يومنا هذا فقد أفِدا
بايعْتُ ربّيَ بيعاً إن وفيتُ به
جاورْتُ قتلى كراماً جاوروا أُحُدا
ياهند، فاستمعي لي: إنَّ سيرتنا
أنْ نعبدَ الله لم نشرك به أحَدا
نُرجي الأمور إذا كانت مُشَبَّهَةً
ونَصْدق القول فيمن جار أو عَنَدا
المسلمون على الإسلام كلُّهُم
والمشركون أشَتُّوا دينهم قِدَدا
ولا أرى أن ذَنْباً بالغٌ أحَداً
م الناس شِرْكاً إذا ما وحَّدوا الصَمَدا
وما قضى الله من أمر فليس له
رد وما يقض من شيء يكن رشدا
كُلُّ الخوارج مُخْطٍ في مقالته
ولو تعَبَّدَ فيما قال واجتهدا
أما عليٌّ وعثمانٌ فإنهما
عَبْدان: لم يُشْركا بالله مُذْ عَبَدا
الله يعلمُ ماذا يحْضُران به
وكُلُّ عبدٍ سيَلْقى الله منفردا

لعل هذه الأبيات التي اخترناها تدل على الواقع الفكري والديني والمذاهب التي عرفت بين الناس في عهد ثابت قطنة... فهي ذات موضوع واحد، ينظمها عدد من المبادئ التي تمثل عقيدة الإرجاء في مختلف الاتجاهات آنذاك .وقد عرضها بأسلوب ذاتي هادئ، فصيح مستند إلى الدليل العقلي والنقلي، المدعوم بالحجة والبرهان...حتى كادت مع قصائد أخرى خصها بآل المهلب تودي برأسه...

وبناء على ما تقدم يتضح لدينا أن شعر ثابت قطنة غلبت عليه موضوعات دون غيرها، بل دار على قليل منها، مثل الفخر الذي جمع بين الذاتي القبلي الموروث وبين القومي والديني الجديد، شكلاً ومضموناً. وكذا المدح الذي أجاد فيه، والرثاء والهجاء اللذان أبدع فيهما وأثر، كالوصف الذي رسم فيه باقتدار ملامح البطولة. ولا مكان للغزل في حياته، وأعرض عن ذكر المرأة في مقدمات شعره إلا ما أورده من أسماء سخرها لغرضه الشعري، ووشى ذلك بالمفاهيم الفلسفية والدينية التي تعبر عن آراء المرجئة، وعن الأحداث الاجتماعية والحربية في وقت واحد.

فثابت قطنة شاعر مجيد موجز كثير المعاني غلبت مقطعاته على قصائده، وطرقت ـ كلها ـ موضوعها بأسلوب مباشر سهل واضح ورشيق جذاب، خلا من الغرابة والتعقيد، وظل متسماً بالفصاحة والجزالة والمعتمد على طريقة التدرج في العرض مع الأدلة.

ذلك هو ثابت قطنة الشاعر الخطيب الكاتب الفارس المحارب والوالي الحصيف الذي جعل نفسه في خدمة الدين الإسلامي، قبل أن يضعها في خدمة مذهب الإرجاء، على الرغم من أن أدبه يمثل أدب المرجئة.

المصادر والمراجع

● الاصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث، بيروت د. ت؛ ● تاريخ الطبري، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1949م؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، القاهرة ط. 2 1966م؛ ● جمعة، حسين، قراءات في أدب العصر الأموي، مطبوعات جامعة دمشق-1992م؛ ● البغدادي، خزانة الأدب، دار صادر بيروت د. ت؛ ● ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1956م؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 3، 1980م؛ ● السامرائي، ماجد، شعر ثابت قطنة، تح. بغداد 1968م؛ ● السيوطي، شرح شواهد المغني، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت؛ ● الجاحظ، البيان والتبيين، تح. عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط. 4.

د. حسن جمعة

جامعة دمشق ـ سوريا

ابن أبي ثابت الكوفي، أبو محمد ثابت

(ت 250هـ/865م)

أبو محمد ثابت بن أبي ثابت الكوفي. عالم لغوي من علماء القرن الثالث الهجري، ونحوي من كبار الكوفيين. صنفه الزبيدي في الطبقة الرابعة من اللغويين الكوفيين.

اختلفوا في اسم أبيه، فذكره بعضهم سعيدا، وذكره آخرون محمدا، وآخرون عبد العزيز، ولذلك دعوه ثابت بن أبي ثابت خروجا من خلاف في اسم أبيه.

لم يذكر علماء الترجمة شيئًا عن حياة ثابت، وجلّ ما جاؤوا به مكرور لم يزد فيه بعضهم شيئا على بعض.

كان ثابت من أصحاب أبي عبيد القاسم بن سلام (ت 244هـ)، قال عنه الجاحظ: «كان ثابت ممن أخذ عن أبي عبيد القاسم بن سلام كتبه وضبطها، وكان من أحسن الناس خطًا، وله حظ من الفقه على مذهب أهل الحديث» [الأعلام، 2/ 97].

أخذ ثابت عن كبار النحويين، كما لقي

فصحاء الأعراب وأخذ عنهم اللغة، فأبدع في تصانيفه اللغوية ما يدل على تبحره في علم اللغة ولا سيما كتاب «خلق الإنسان» الذي أجاد فيه حق الإجادة، وأحسن فيه وأربى على من تقدمه. يقول محقق الكتاب عبد الستار أحمد فراج: «وقد دلنا هذا الكتاب على سعة في الإطلاع، وبراعة في الاستشهاد، وخبرة للعرب عظيمة في تفصيل جميع أجزاء الإنسان ودقائق ما يحويه جسمه، ومسميات كل ذلك وأوصافه» [مقدمة كتاب خلق الإنسان، ا]. وقد تفوق ثابت في كتابه هذا على كل من ألف في خلق الإنسان. وكان له السبق في ذلك، فكتابه هذا من أمتع الكتب، فالقارئ حين يبدأ فيه لا ينصرف عنه إلى غيره حتى ينتهي منه لما يستحوذ عليه من طرافة الموضوع وحسن عرضه، ومزجه بالأدب الرفيع، فهو كأنه قصة محبوكة» [مقدمة الكتاب، ص ج]. قال عنه الفيروز آبادي: «لم يؤلف في معناه مثله» [البلغة، 45]. يقول ثابت في بداية كتابه: «هذا كتاب خلق الإنسان رويناه عن أبي عبيد الأثرم وسلمة بن عاصم وأبي نصر وغيرهم، وابن الأعرابي والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري عن الكلابيين. وفي كتاب رجل ممّن سمّينا زيادة على كتاب بعض. وقد جمعنا ذلك ولخصناه وأثبتناه في مواضعه، وإن جاء في كتابنا شيء عن غير هؤلاء الذين سميناهم بيناه وحكيناه عن أصحابه إن شاء الله» [كتاب خلق الإنسان، 1].

■ آثاره

1 ـ خلق الإنسان؛ 2 ـ الزجر والدعاء، ذكره بعضهم الزجر والدهاء؛ 3 ـ وله كتاب الوحوش؛ 4 ـ كتاب خلق الفرس؛ 5 ـ كتاب الفرق بين تسمية جوارح الإنسان وتسمية جوارح غيره من الحيوان؛ وهو مطبوع، نشره محمد الفاسي في الرباط؛ 6 ـ كتاب مختصر العربية؛ 7 ـ كتاب العروض؛ 8 ـ كتاب القوافي.

■ المصادر والمراجع

● ابن أبي ثابت، ثابت، مقدمة كتاب خلق الإنسان، تح. عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت 1985؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار التراث، بيروت، 7/ 140 ـ 141؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964، 1/ 481؛ ● الفيروزآبادي، البُلغة في تاريخ أئمة اللغة، تح. محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1972، 45؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة 1985، 138؛ ● اليماني عبد الباقي، إشارة التعيين في تراجم النّحاة واللّغويين، تح. عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية 1986، 71، ترجمة رقم 45؛ ● الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع سامي أمين الخانجي الكتبي، مصر 1954، 225؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 3/ 100؛ ● الزركلي،

خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1995، 2/ 97؛ ● القفطي، جمال الدين، أنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952، 1/ 261.

د. مها المبارك
هيئة الموسوعة العربية ـ دمشق ـ سوريا

الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

(786هـ/ 1385م ـ 875هـ/ 1470م)

عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري نسبة إلى قبيلة الثعالبة التي قطنت سهل متيجة بين مدينة الجزائر وجبال الأطلس، وهو السهل الممتد شرقا إلى وادي يسر، وينسب الثعالبي أيضا إلى مدينة الجزائر حيث عاش طويلا وتوفي بها، فهو دفينها وصالحها بل وحاميها في نظر أجيال من الناس، وكنيته أبو زيد. وقد اشتهر بالعلم والزهد في عصره، كما كان له دور سياسي سنعرفه. عاش الثعالبي جزءا من عصر ابن خلدون، وبعيد سقوط القسطنطينية (1453م) في يد المسلمين، وقبيل سقوط غرناطة (1492م) في يد الإسبان، فكان عصره بالنسبة للعالم الإسلامي عصر تفكك داخلي وغزو خارجي. وكان لقبيلته دور في لملمة الأوضاع وملء الفراغ بولاية الإمارة في المنطقة التي تحيط بمدينة الجزائر إلى أن قضى العثمانيون على هذه الإمارة وتولوا هم مواجهة الخطر الخارجي والقضاء على التفكك الداخلي بعض الوقت.

ولد الشيخ الثعالبي سنة 786هـ في بلدة يسرا الساحلية الواقعة على الوادي الذي يحمل اسمها (وادي يسر) شرقي مدينة الجزائر. وبعد أن درس وشب في هذه المدينة رحل سنة 802هـ إلى مدينة بجاية، إحدى مراكز العلم والحضارة في وقته فأخذ بها على شيوخ لهم صيتهم وآثارهم، ومنهم تلاميذ عبد الرحمان الوغليسي الذي ترك شرحا متميزا على الوغليسية في الفقه، وتلاميذ أحمد بن إدريس الذين اشتهروا بالورع والزهد والابتعاد عن الأمراء والحكام الظلمة. ومن هؤلاء علي المانجلاتي وأحمد النقاوسي صاحب الشرح الضخم على القصيدة المعروف بـ (المنفرجة). وبعد حوالي سبع سنوات من الدراسة في بجاية انتقل إلى تونس حاضرة الحكم الحفصي الذي كان يشمل بجاية وقسنطينة، وحيث جامع الزيتونة قلعة العلم الحصينة، فأخذ على تلاميذ محمد بن عرفة الذي كان في الفقه والأصول كابن خلدون في التاريخ والسياسة وكانا (ابن خلدون وابن عرفة) متعاصرين بل ومتنافسين أيضا. واللافت للنظر هنا أن الثعالبي أشاد بأصحاب ابن عرفة

ولكنه لم يشد فيما نعلم بأصحاب ابن خلدون، ربما لأن مجال اهتمام الثعالبي لم يكن هو مجال اهتمام ابن خلدون وأصحابه.
ومهما كان الأمر فإن الثعالبي تتلمذ في تونس على عيسى الغبريني، ومحمد الأبي، وأبي القاسم البرزلي، ويعقوب الزغبي. وقد ذكر أن عمدته من هؤلاء هو محمد الأبي.
والمعروف في كتب التراجم أن هؤلاء كانوا من كبار المدرسين في العهد الحفصي، وقد أخذ عن الإمام البرزلي (ت 842هـ) صحيح البخاري. وكان البرزلي يتمتع بشهرة واسعة في الفقه بعد تدوينه للكثير من النوازل أو الفتاوي الشرعية. ويبدو أن الثعالبي قد أطال الإقامة في تونس قبل أن يرحل إلى الشرق لأداء فريضة الحج وطلب العلم. والجدير بالذكر أنه لم يذكر من شيوخ المشرق إلا من تلقى عليهم في مصر، وهم: البلالي الذي أخذ عنه صحيح البخاري ومختصر كتاب الإحياء للغزالي، كما حضر دروس ولي الدين العراقي في الحديث، ونال منه الإجازة.
وعند رجوعه إلى بلاده توقف الثعالبي بتونس من جديد فوجد تغييرا هاما قد حصل في أسرة شيوخ العلم، فقد حل محمد القلشاني محل الغبريني الذي أدركته الوفاة، فلازم الثعالبي الشيخ القلشاني. ومع ذلك افتخر الثعالبي بنفسه فقال إنه لم يكن في تونس عندئذ من يفوقه في علم الحديث حتى أنهم جميعا أنصتوا له واعترفوا بفضله في هذا الميدان، وأن بعض المغاربة (ربما يعني من مراكش) قال له بعد رجوعه من المشرق: إنك أصبحت آية في علم الحديث. وخلال إقامة الثعالبي الثانية بتونس حل بها الشيخ محمد بن مرزوق الحفيد سنة ٨١٩هـ فأخذ عن الثعالبي كثيرا من العلوم، منها كتاب الموطأ للإمام مالك، وحصل منه على الإجازة، كما حصل على الإذن بالتدريس منه ومن الشيخ الأبي، ونفهم من سياق حديث الثعالبي عن نفسه ورحلته أنه ظل عشر سنوات على الأقل خارج وطنه في طلب العلم وأداء فريضة الحج.
تلك هي مسيرة الثعالبي في تحصيل العلم على شيوخ من المغرب والمشرق، فمن هم تلاميذه؟ لقد جلس الثعالبي للتدريس والتأليف في مدينة الجزائر، واشتهر أمره بين طلبة الوقت على أنه آية في علم الحديث والتفسير والفقه وسائر علوم الدين، ولم يكن في مدينة الجزائر مركز علمي على غرار الزيتونة، وإنما كانت مراكز العلم فيها مبعثرة عبر القطر من تلمسان إلى بجاية، ولم تكن مدينة الجزائر نفسها تتميز بأية ميزة علمية في وقته، فقد كانت مدينة ساحلية صغيرة فيها بعض المساجد للصلاة والعبادة مثل الجامع الكبير الذي يرجع بنيانه إلى عهد المرابطين، وفيها نشاط تجاري ملحوظ لأن مرساها كان ملتقى السفن الإيطالية والإسلامية. فأين يقع علم الثعالبي من كل ذلك؟ يبدو أن طلابه لم يأتوه من مدينة الجزائر ولا من جوارها أو على الأقل لم يشتهر منهم سوى واحد هو أحمد بن عبد الله الجزائري (هكذا نسبته) الذي اشتهر بمنظومته «الجزائرية» في العقائد، وما عداه لا نجد للثعالبي تلاميذ من متيجة أو من المدية أو حتى من بجاية، وإنما تلاميذ من تلمسان التي كانت عاصمة تستقطب العلماء وتحمل تلاميذها على البحث عنهم في غيرها. فقد ورد عليه عدد من طلبتها مثل محمد بن يوسف السنوسي الذي اشتهر أيضا بالزهد والتأليف في العقائد وغيرها، ومثل أخيه لأمه محمد

التالوتي. وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي هز الحياة العلمية في وقته وحرك العلماء فجعلهم بين مؤيد ومعارض له في إعلانه الحرب على اليهود في بلدة توات واستنصاره عليهم ببعض أمراء إفريقيا (محمد أسقيا صاحب مملكة سونغاي) بدل أمراء بلاده الذين خذلوه في حملته، كما تتلمذ على الثعالبي عالم تلمساني آخر هو محمد بن مرزوق الكفيف. وهناك طالب آخر جاءه من بسكرة هذه المرة وهو عيسى بن سلامة البسكري الذي سار على نهج شيخه في الورع والزهد.

أما تلاميذ الثعالبي من المغرب والمشرق فلا نعرف منهم الآن سوى اثنين وهما: أحمد زروق البرنوسي الذي جاء من المغرب والذي أصبح له شأن في الزهد والتصوف السلفي، وعبد الباسط بن خليل الذي جاء من مصر إلى الجزائر في حياة الثعالبي وحصل منه على الإجازة وسجل ذلك في رحلته المعروفة باسم «الزهر الباسم في حوادث العمر والتراجم». وهكذا يكون الثعالبي قد ترك بصماته على العصر بهؤلاء التلاميذ الذين حذوا حذوه في التقوى والعلم والرحلة والجهاد.

وتتجه الدراسات القديمة إلى نسبة الكرامات والبركات إلى الشيخ الثعالبي، فهي تجعل منه وليا من أولياء الله الصالحين، وزاهدا بلغ أعلى الدرجات في الورع والتقوى، ورغم أنه لم يؤسس طريقة ولم ينشئ زاوية، فإن كتّاب سيرته يكادون يجعلون منه شيخا من شيوخ الطرق والزوايا. ولا شك أن ظهور الثعالبي في وقت ضعف السلطة الإسلامية وتخلف المجتمع وشيوع البدع وتحارب الدويلات الإسلامية المتجاورة في بلاد المغرب (وهي المرينية، والحفصية، والزيانية) والأطماع الخارجية المتمثلة في الخطر الإسباني والبرتغالي، كل ذلك جعل الناس يبحثون عن منقذ يعيد الأمور إلى نصابها ويبشر المتقين والشهداء بالجنة، ويتوعد العصاة والمتخاذلين بالنار؛ ولذلك ألصقوا بالثعالبي صفات هذا المنقذ بوسائل المنامات والكرامات ونزعوا عنه، أو كادوا، صفات العلم والعمل بأوامر الدين ونواهيه، بما في ذلك العمل الميداني كالحرب والسياسة.

ولكننا وجدنا الثعالبي ينشط أيضا في ميدان المقاومة للخطر الخارجي، وربما كان هو يعتبر هذا النشاط من الواجبات الإسلامية. فقد دعا إلى الجهاد ضد بني الأصفر (الروم) الذين أصيبوا في مقتلهم - كما قال - بضياع القسطنطينية من أيديهم فأرادوا الانتقام من المسلمين في بلاد المغرب باحتلال سواحلهم والاستيلاء على مدنهم وسبي نسائهم وذريتهم ونهب أملاكهم، كما حدث فعلا في عهد الثعالبي نفسه، ثم توالى بعده حتى أصبح ساحل المغرب الإسلامي كله تقريبا تحت سيطرة الإسبانيين والبرتغاليين. فقد وصلت الأخبار إلى الثعالبي أن بجاية، التي درس فيها ومكث فيها طويلا، أصبحت معرضة لغارات إسبانية، فنصح أهلها، وعلماءها على الخصوص، بالاستعداد للعدو، كما فعل مع سكان مدينة الجزائر وما حولها، وأعطاهم درسا عمليا في كيفية توفير السلاح والعدة لمواجهة هذا الخطر، في رسالة بعث بها إلى الشيخ محمد الكفيف، أحد متعلمي بجاية. وكان الثعالبي متألما في هذه الرسالة من واقع الحال بالجزائر وبجاية إذ لا توجد عندئذ

سلطة تحمي الذمار ولا جيش يصدُّ المعتدين. عندما يُذكر الشيخ الثعالبي تحضر معه صورة العالم الزاهد والعامل على التربية الروحية والسياسية للشعب للدفاع عن نفسه ضد اليأس والهزيمة من الداخل وضد الخطر من الخارج، ولذلك استحق في الذاكرة الشعبية لقب حارس مدينة الجزائر. وقد اعتقد الناس فيه البركة فبنوا له ضريحا في قصبة المدينة، وسرعان ما تحول الضريح، في عصر البدع والتفكك، إلى زاوية تزار باعتبارها منبعا للحكمة والعلم والتقوى، وإلى مقبرة للأحفاد وأعيان البلاد وعلمائها. وقد كثر فيها وحولها الفقراء والمساكين ليعيشوا من مال الوقف المخصص لها، وتنافس الحكام والتجار وأهل الخير على وقف الأوقاف على هذا الحرم الآمن في كل الأوقات، ولا سيما أوقات الشدة والخطر كما حدث في العهد الفرنسي. ولكن زاوية (ضريح) الشيخ الثعالبي لم تكن مركزا لنشر العلم، خلافا لزوايا أخرى في القطر الجزائري. وقد راج اسم الثعالبي في المغرب والمشرق أيضا بعلم أبي مهدي عيسى الثعالبي في القرن الحادي عشر الهجري (17م) صاحب الأسانيد التي نوه بها تلميذه أبو سالم العياشي في رحلته، كما تعزز بحنكة عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس السياسي في القرن العشرين بعد نفي السلطات الفرنسية والده من الجزائر إلى تونس، وهو أحد أحفاد عبد الرحمان الثعالبي. وقد قيل إن الثعالبي الذي نترجم له قد أنجب أربعة أولاد وأربع بنات توفي أغلبهم قبل وفاة أبيهم، ولذلك نتساءل هل انقطع عقب الثعالبي تبعا لذلك؟ ويبدو من ترجمة عبد الرحمان الجيلالي له أن عقبه قد انقرض، وأن مدفن أولاده في المكان المعروف بجبانة الطلبة حيث ضريح الثعالبي اليوم. أما الثعالبي نفسه فقد توفي سنة 875 هـ.

آثاره

ترك الثعالبي مجموعة من التآليف والرسائل التي طبع أقلها وبقي أكثرها مخطوطا أو مجهولا. ومن ناحية أخرى أشرنا إلى غلبة الطابع الديني على كتبه، فقد ألف: في التفسير: 1 ـ الجواهر الحسان الذي لخص فيه، كما قيل تفسير ابن عطية للقرآن الكريم، ولكنه أضاف إليه إضافات من عنده جعلته تفسيرا متميزا، وهذا التفسير طبع في عدة أجزاء مرتين على الأقل؛ له في الفقه: 2 ـ كتاب روضة الأنوار ونزهة الأخيار؛ في السيرة النبوية: 3 ـ كتاب الأنوار في معجزات الرسول ﷺ وحياة الصحابة والغزوات، قيل إنه جعله على منهج المغازي لابن إسحاق، وقد ذكر فيه ما أخبر به الرهبان والأحبار وحكماء العرب عند ظهور الرسول، وهو كتاب ضخم يحتوي على أبواب وفصول.

من تآليفه: 4 ـ كتاب جامع الهمم وهو في التراجم، ولكننا لا نعرف مترجميه، وربما يكون من كتب الطبقات؛ 5 ـ منها شرح على ابن الحاجب الفرعي أو الفقهي تحدث فيه أيضا عن مناقب الإمام مالك وأصحابه.

وله في التصوف كتب عديدة منها: 6 ـ الأنوار المضيئة؛ 7 ـ الدر الفائق؛ 8 ـ العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة.

أما في الحديث الشريف الذي تميز به عن غيره، فله: 9 ـ كتاب الأربعين حديثا المختارة، وربما كان كتابه: 10 ـ المختار من

الجوامع في هذا العلم أيضا. ولا ندري الآن موضع كتابه الآخر: 11 - جامع الفوائد؛ أما كتاب: 12 - جامع الأمهات، فهو في فقه العبادات. ويدخل كتاباه: 13 - رياض الصالحين؛ 14 - النصائح، في باب الوعظ والإرشاد.

وللثعالبي كتب أخرى منها: 15 - الذهب الابريز في آي القرآن العزيز، وهو في غريب القرآن الكريم؛ 16 - شرح في القراءات على منظومة ابن بري؛ 17 - تحفة الأقران في الإعراب. وأما: 18 - إرشاد السالك فالغالب أنه في الفقه أيضا.

ويقال إن تآليف الثعالبي قد بلغت أكثر من تسعين مؤلفا. ونلاحظ تكرار كلمة «الجامع» في عدد من تآليفه، وهي توحي بأنه كان يجمع موضوعات شتى هدفه منها الوعظ والإرشاد والفوائد العلمية؛ 19 - ونسب إليه أيضا كتاب بعنوان التقاط الدرر؛ 20 - كما أن له فهرسة ذكر فيها شيوخه ورحلته وتآليفه، وهي ما تزال مخطوطة ولم نطلع منها إلا على بعض الصفحات، ولذلك لا نستطيع أن نصف محتواها بدقة، وهذه الفهرسة هي التي سماها «غنية الواجد وبغية الطالب الماجد».

■ المصادر والمراجع

● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج؛ ● الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 14، 1999، 3/ 331؛ ● السخاوي، الضوء اللامع؛ ● السراج، الوزير، الحلل السندسية؛ ● البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين؛ ● الجيلالي، عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام؛ ● سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي؛ ● رسالة الثعالبي في الجهاد منشورة ضمن البحوث المهداة إلى الأستاذ الدكتور أحمد فكري، القاهرة، 1976؛ ● نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر.

د. أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

■ الثعالبي، الشيخ عبد العزيز بن ابراهيم

(1293هـ/1876م - 1364هـ/1944م) ■ ■ ■

عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي، مصلح اجتماعي، وداع ديني وزعيم سياسي. ينحدر من أسرة جزائرية الأصل معروفة بالعلم والصلاح. وُلد بمدينة تونس في 15 شعبان 1293هـ الموافق للخامس من سبتمبر 1876م، وقد سهر والده وجدّه على تربيته تربية إسلامية أصيلة. وبعد أن حفظ نصيبا من القرآن الكريم في الكتّاب،

وتعلّم مبادىء اللغتين العربية والفرنسية بالمدرسة الابتدائية في حيّ باب سويقة، التحق بجامع الزيتونة بتونس لمواصلة دراسته الثانوية. فتعلّم النحو والصرف والبلاغة والمنطق وعلم الكلام والحديث والتفسير والرياضيات وعلم الفلك. وتتلمذ على نخبة من كبار علماء عصره ذكر من بينهم في سيرته الذاتية المشايخ: سالم بوحاجب، أحد أركان الحركة الإصلاحية في تونس، وإسماعيل الصفايحي، ومحمد النجار، ومصطفى بن خليل الذي وصفه بـ«فيلسوف الإسلام»...

ولكنّه انقطع عن الدراسة قبل النجاح في امتحان «التطويع» الذي كانت تُختم به الدراسة عهدئذ بجامع الزيتونة. إذ إنه لم يكن يرى نفسه في حاجة إلى اجتياز ذلك الامتحان الذي كان لا بدّ من النجاح فيه بالنسبة إلى من يرغب في الالتحاق بالوظيفة العمومية، أما هو فلم تكن تلك غايته.

وما إن غادر عبد العزيز الجامع الأعظم سنة 1894، حتّى شرع في تحرير بعض الفصول والمقالات التي كان يمضيها بأسماء مستعارة، ويُرسلها إلى بعض الصّحف المصريّة، مثل «النيل» و«المؤيد» و«الفيّوم». وانتهى به الأمر إلى إصدار جريدة أسبوعية أطلق عليها اسم «سبيل الرشاد»، وسخّرها للوعظ والإرشاد والدعوة إلى التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي (ديسمبر 1895). لكن السلطة الاستعمارية الفرنسية لم ترض عن اتجاه الجريدة، فقررت تعطيلها، متهمة مديرها ومحرّريها بالتطرّف الديني والتهجّم على النظام القائم، ولمّا وجد الثعالبي نفسه عاطلاً عن العمل دون أيّ مورد رزق، عزم على التحوّل إلى المشرق وغادر تونس متنكّرا، ووصل في شهر أغسطس 1896 إلى طرابلس حيث أقام شهرين ونشر بعض الفصول في جريدة «الترقي»؛ ومن هناك ارتحل إلى بنغازي ومنها إلى الآستانة.

وفي شهر نوفمبر 1897 توجه الثعالبي إلى القاهرة حيث اتّصل بكبار العلماء ورجال الفكر والأدب المصريين، ونشر بعض الفصول في مجلّة «الموسوعات» التي كان يشرف عليها الزعيم المصري محمد فريد؛ كما تابع بعض الدروس في جامع الأزهر، لا سيما منها دروس الفلسفة والتفسير والحديث. واغتنم فرصة وجوده بالمشرق لزيارة بعض الأقطار العربية مثل سوريا وفلسطين، والعراق، وعدد من البلدان الأوروبية مثل إيطاليا، والدانمارك، وبلاد اليونان. وفي سنة 1902 غادر القاهرة متّجها إلى تونس ومنها إلى الجزائر والمغرب، ولم يرجع من جديد إلى تونس إلّا في سنة 1904؛ فشرع في نشر أفكاره الإصلاحية بين الناس، ممّا ألّب عليه بعض العلماء المحافظين الذين اتهموه بالتطاول على الدين الإسلامي والخروج عن الجماعة. فرُفعت ضدّه قضيّة لدى المحكمة الابتدائية بتونس فحكمت عليه في 23 يوليو 1904 بالسجن مدّة شهرين.

وبمجرّد خروجه من السجن، ألّف الشيخ عبد العزيز الثعالبي كتابا باللغة العربية للردّ على خصومه وإظهار الإسلام في مظهر الدين المُقام على أسس العدالة والحريّة والتسامح. وكلّف صديقيه المحامي سيزار بن عطّار والمترجم العدلي الهادي السبعي بترجمة هذا الكتاب الذي صدر باللغة الفرنسية في باريس

سنة 1905 بعنوان: L'esprit libéral du Coran (روح التحرر في القرآن).

وفي مطلع سنة 1907 انضمّ الثعالبي إلى الحركة السياسيّة التي بعثها المحامي علي باش حامبة (1876 ـ 1918) بالاشتراك مع نخبة من الشبّان الوطنيين المتخرّجين من المدرسة الصادقيّة والمعاهد الفرنسية بتونس. وقد أصبحت تُعرف باسم «حركة الشباب التونسي». وتولى تحرير صحيفة «التونسي» الناطقة باسم هذه الحركة. وقد أيّدت هذه الجريدة بالخصوص الإضراب الذي أعلنه طلبة جامع الزيتونة في 15 مارس 1910 للمطالبة بإصلاح التعليم في معهدهم، وإعادة تنظيمه على أسس حديثة مطابقة لروح العصر. ودعا الثعالبي الطلبة الزيتونيين إلى وجوب دراسة العلوم العقليّة والتطبيقيّة إلى جانب العلوم الشرعيّة، «حتّى تنطلق عقولهم من أسر العبودية والأوهام».

وفي سنة 1911 بلغت الحركة الوطنيّة ذروتها، فتذرّعت السلطة الفرنسية بحوادث «الزلاج» التي اندلعت في مدينة تونس يوم 7 نوفمبر 1911، احتجاجا على محاولة انتهاك حرمة مقبرة «الزلاج» الإسلامية، وقرّرت إعلان حالة الحصار وتعطيل الصحف العربيّة، ومن بينها النشرة العربية من جريدة «التونسي». ورغم ذلك استمرّت حركة الشباب التونسي في نشاطها الوطني المُكثف، إلى أن جدّت حوادث مقاطعة التونسيين لركوب «الترامواي» في شهر فبراير 1912، فاتهمت السلطة الفرنسية علي باش حانبة وجماعته بإثارة الشغب في البلاد وألقت القبض يوم 13 مارس 1912 على سبعة أشخاص من قادة الحركة، أبعدت منهم أربعة إلى الخارج، من بينهم عبد العزيز الثعالبي الذي تحوّل صحبة علي باش حانبة إلى فرنسا ومنها إلى اسطنبول. وبعد أشهر قليلة رُفع قرار الإبعاد المُتّخذ ضدّ قادة الحركة، وسُمح لهم بالعودة إلى تونس. ففضّل علي باش حانبة الاستقرار نهائيًا في تركيا لمواصلة كفاحه من أجل تحرير وطنه، ولم يرجع الثعالبي إلى أرض الوطن إلاّ إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914).

ركدت الحركة الوطنيّة التونسيّة في الداخل إلى أن وضعت الحرب أوزارها في سنة 1918. وعندئذ هبّ الوطنيون إلى إعادة تنظيم صفوفهم وضبط مطالبهم، محاولين الاستفادة من المبادىء التي أعلنها الرئيس الأمريكي ويلسن، لا سيما منها مبدأ حقّ الشعوب المولّى عليها في تقرير مصيرها.

وتحقيقا لهذه الغاية، أوفدت الحركة الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى فرنسا لعرض المطالب التونسية على الأوساط الحكومية والبرلمانية الفرنسية. وبمجرّد وصوله إلى باريس يوم 10 يوليو 1919 شرع في تأليف كتاب يستعرض فيه مختلف جوانب القضيّة التونسيّة، ويقدّم المطالب الوطنية التي حظيت بموافقة ممثلي الشعب التونسي الشرعيين، بالإجماع. وقد صدر هذا الكتاب في مطلع شهر يناير 1920 بعنوان «تونس الشهيدة: مطالبها» بعد أن نقله من اللّغة العربيّة إلى اللّغة الفرنسيّة المحامي التونسي المقيم بفرنسا، أحمد السقا، وهو أوّل مثقّف تونسي أحرز شهادة الدكتوراه في الحقوق بفرنسا سنة 1916، برسالة عنوانها «نظام الحكم في الإسلام».

وما إن ظهر الكتاب حتّى قررت الحكومة الفرنسية حجزه ومصادرته. ورغم ذلك فقد راج في تونس في كنف السريّة، بل زاد في حماس الوطنيين الذين أيّدوا المطالب الواردة فيه، وأجمعوا كلمتهم يوم 15 يونيو 1920 على تأسيس أوّل حزب تونسي منظّم برئاسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، أطلقوا عليه اسم «الحزب الحر الدستوري التونسي».

وقد تمثّل ردّ الحكومة الفرنسية في إلقاء القبض في باريس على مؤلّف «تونس الشهيدة» وتحويله يوم 28 يوليو 1920 إلى تونس حيث اعتُقل في السجن العسكري ووُجّهت إليه تهمة «التآمر على أمن الدولة».

لكن حكومة الحماية اضطرّت في آخر الأمر إلى إطلاق سراح المتّهم يوم أوّل مايو 1921، بعد أن صرّح قاضي التحقيق لدى المحكمة العسكرية العقيد «بارون» (Baron) بعدم سماع الدّعوى.

وما إن تمّ الإفراج عن الثعالبي حتّى أقبل، بالاشتراك مع أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب، على تركيز الهياكل الحزبيّة ونشر المطالب الوطنيّة ودعوة الوطنيين إلى الانضمام إلى هياكل الحزب والدعوة لفائدة برنامجه، سواء عن طريق الخطب أو من خلال الفصول المنشورة في الصحف العربية التي استأنفت صدورها منذ سنة 1920 .

وقد حظي الحزب الدستوري منذ انبعاثه بتأييد جميع الفئات الاجتماعية، وفي مقدّمتها أمير البلاد محمد الناصر باي (1906 ـ 1922). وسرعان ما أصبح الحزب قوّة تهدّد الحضور الفرنسي في تونس بالخطر. ولكن لم تمض مدّة طويلة حتّى بدأت منذ أواخر سنة 1921 تظهر بذور الخلافات بين قادة الحزب حول طرق العمل.

فبينما كانت الأغلبية الملتفّة حول الثعالبي متمسّكة بالمطالب الواردة في «تونس الشهيدة»، كان الشق المعتدل الذي يتزعّمه المحامي حسن قلاّتي يدعو إلى قبول الإصلاحات الهزيلة التي اقترحها المقيم العام الفرنسي «لوسيان سان» (Lucien Saint): (1920 ـ 1929). وانتهى الأمر إلى انفصال هذا الشقّ عن الحزب الدستوري وإنشاء حزب جديد أطلق عليه الحزب الإصلاحي الذي سرعان ما أصبح اسمًا بلا مسمّى. وبالإضافة إلى ذلك، فُجع الحزب الدستوري في شهر يوليو 1922 بوفاة الأمير محمد الناصر باي وتعويضه بابن عمه ووليّ عهده محمد الحبيب باي (1922 ـ 1929) الذي ما لبث أن صار أداة طيّعة بين أيدي الفرنسيين. فاغتنم المقيم العام الفرصة لاستصدار مجموعة من الأوامر القمعية التي عطّلت الصحف الوطنيّة ومنعت الاجتماعات العامّة وسلّطت أقسى العقوبات على المناضلين، فاضطرّ زعيم الحزب الدستوري إلى الهجرة من جديد إلى المشرق بإيعاز من السلطة الفرنسيّة.

غادر الشيخ عبد العزيز الثعالبي تونس يوم 26 يوليو 1923، متوجّهًا إلى روما، ومنها إلى اليونان وتركيا حيث أقام فترة من الزمن. ثمّ زار على التوالي مصر وعدن والحجاز وقطر والبحرين والكويت، وانتهى به المطاف إلى بغداد، فاستقرّ بها من سنة 1925 إلى سنة 1930، وذلك تلبية لدعوة صادرة من ملك العراق فيصل بن الحسين الذي كان قد تعرّف

إليه في باريس واسطنبول. واقترح عليه الملك الاستقرار في بغداد للتدريس في جامعة آل البيت التي تأسست سنة 1924 . وقد باشر عمله المتمثّل في إلقاء دروس في الفلسفة الإسلامية وحكمة التشريع، وذلك من مطلع سنة 1926 إلى أن ألغيت جامعة آل البيت في سبتمبر 1930 . وإثر ذلك تحوّل إلى القاهرة فأقام بها من ذلك التاريخ إلى سنة 1937 للإشراف على البعثة الطلابيّة العراقيّة بمصر بتكليف من الملك فيصل.

ولقد كان لأزمة 1929م الاقتصادية أسوأ الأثر على المملكة التونسيّة: فقر متزايد، وتطرّف الحركة الوطنيّة إثر معارك التجنيس والمؤتمر الافخاريستي والاحتفالات بمرور الذكرى الخمسين على انتصاب الحماية الفرنسية؛ وهو ما أدّى إلى انشقاق في الحزب بظهور شبّان من المناضلين سمّوا أنفسهم بالحزب الحرّ الدستوري «الجديد» في مارس 1934م.

وأثناء إقامته بالمشرق سافر الثعالبي إلى القدس للمشاركة في أعمال المؤتمر الإسلامي الذي انعقد من 7 إلى 17 ديسمبر 1931 . وانتخب عضوًا في مكتبه الدائم، ثمّ عيّن مسؤولا عن لجنة الدعاية والنشر. وخلال الفترة الممتدّة من 1930 إلى سنة 1937 سخّر الشيخ عبد العزيز الثعالبي كلّ جهوده للدفاع عن القضايا العربيّة والإسلاميّة والكفاح من أجل تحرير الأقطار العربيّة والإسلاميّة من الاستعمار الغربي، حتّى أصبح من أبرز قادة النهضة الإسلاميّة الحديثة. وقد قام بعدّة رحلات عبر العالم لنشر الدعوة الإسلاميّة، فزار على التوالي اليمن والهند وبورما والسيام والفيليبين وماليزيا وسنغفورة.

ولمّا علم بأن حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا قد سمحت له بالرجوع إلى تونس. أخذ يستعدّ للرجوع إلى أرض الوطن بعد هجرة دامت 14 سنة.

عاد الثعالبي إلى تونس يوم 19 يوليو 1937، فخصّه الشعب التونسي باستقبالات رائعة، بإشراف أعضاء الديوان السياسي للحزب الدستوري الجديد. واستبشر الوطنيون برجوعه معتقدين أنّه سينجح لا محالة في توحيد صفوف الدستوريين ووضع حدّ للانشقاق الذي ظهر إثر انبعاث الحزب الدستوري الجديد في 2 مارس 1934 .

وبالفعل فما إن رجع مؤسس الحزب الدستوري إلى أرض الوطن حتّى سعى إلى توحيد الحزبين المتنافسين. ولكن سرعان ما باءت جهوده بالفشل، نظرًا إلى تباين المواقف ووجهات النظر بين الطرفين. فاضطرّ في آخر الأمر إلى الانحياز إلى شقّ أصدقائه من قادة الحزب الدستوري القديم. وحاول القيام بجولة داخل البلاد للاتصال بالمناضلين والاطّلاع على رأيهم في هذا الشأن. لكن قادة الحزب الدستوري الجديد قد حالوا بينه وبين القيام بهذه المهمّة. فتهجّم عليهم الشيخ بكلّ حدّة، ولم يتأخر في اتهامهم «بالمروق والعقوق». وتفاقم الوضع إلى أن أفضى إلى اشتباكات ومصادمات بين أنصار الشقّين. فاضطرّ الثعالبي إلى الابتعاد عن أيّ نشاط سياسي، لا سيّما بعد أن أجبره المرض الذي ألمّ به على ملازمة بيته، إثر امتداد الحرب العالميّة الثانية إلى تونس (1942 ـ 1943).

يتّضح من الاعتبارات السالفة الذكر أنّ الثعالبي ـ كما أكّد ذلك الشيخ محمد

الفاضل بن عاشور - كان داعيا دينيا ومصلحا اجتماعيا، قبل أن يكون «زعيما سياسيّا» [الحركة الأدبية والفكرية في تونس]. فقد سخّر حياته لتجديد الفكر الديني وإصلاح المجتمع الإسلامي، وإقامة الدليل على أنّ الإسلام لا ينافي أبدا المدنيّة الحديثة.

ركّز الثعالبي تفكيره الديني على الدعوة إلى تخليص العقيدة الإسلامية من كلّ ما علق بها من خرافات وأوهام، ونبذ البدع المنافية للكتاب والسنة كتقديس الأولياء والصالحين، والتبرّك بالأضرحة والزوايا. فلا سبيل في نظره إلى النهوض بالأمة الإسلامية إلاّ بربط الإسلام بقضايا المجتمع، وتأويل النصوص الدينية تأويلا صحيحا، وإزالة ما طرأ عليها من شوائب أوهنت الإرادة وشجّعت على التواكل.

ولتحقيق هذه الغايات، يرى الثعالبي أنّه لا مناص من وجود مصلحين يرشدون المسلمين إلى معرفة ما بين الأصول والفروع من فوارق، ويفهمونهم أن الأحكام التي لا يجوز فيها التغيير إنّما هي الأصول الصالحة لكلّ زمان ومكان؛ أما الفروع والجزئيات المستمدّة فيجب تطويرها لتكون ملائمة لمقتضيات العصر.

ومن أهمّ القضايا التي شغلت بال الشيخ، قضيّة تحرير المرأة التي خصّص لها حيّزا كبيرًا من كتابه «روح التحرّر في القرآن»، فقد دعا فيه إلى وجوب تعليم البنت المسلمة، وفقًا لتعاليم السنة النبوية، وحثّ المرأة على خلع الحجاب، حتّى تتمتّع بحقها في الحياة ونور الشمس. وفي إحدى محاضراته بجامعة آل البيت تطرّق إلى موضوع تعدد الزوجات، فأوضح «أن الله إنّما أباح أن يتزوّج الرجل من اثنتين إلى أربع على المعتمد بشرطه المضيّق، لأن التعدّد في نظر الشارع هو من الأمور النادرة، فلم يراعه في أحكامه».

ودعا الثعالبي من ناحية أخرى إلى إصلاح النظام الاجتماعي في الإسلام وتركيزه على مبادىء العدل والإنصاف والحرّية والمساواة.

كما ندّد بالحكم الفردي الاستبدادي الذي «أوقف حركة التقدم في البلاد الإسلامية وحرم المسلمين من فوائد الرقيّ وحال بينهم وبين الاستفادة من تجارب الأمم الراقية».

آثاره

مؤلفات الثعالبي الصادرة عن دار الغرب الإسلامي ببيروت هي التالية:

1 - تونس الشهيدة، تعريب حمادي الساحلي، مراجعة محمد العروسي المطوي، 1984؛ 2 - معجز محمد رسول الله، الجزء الأول، طبعة 2، تح. محمد اليعلاوي، 1984؛ 3 - مسألة المنبوذين في الهند، 1985؛ 4 - تاريخ المذاهب والأديان، تح. حمادي الساحلي، 1985؛ 5 - تاريخ شمال إفريقيا، تح. جلول الجريبي، 1986؛ 6 - مقالات في التاريخ القديم، تح. جلول الجريبي، 1986؛ 7 - خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، تح. حمادي الساحلي، 1988؛ 8 - معجز محمد رسول الله، الجزء الثاني، تح. حمادي الساحلي، 1989؛ 9 - سقوط الدولة الأمويّة، تح. حمادي الساحلي، 1997؛ 10 - الرحلة اليمنيّة، تح. حمادي الساحلي، 1997؛ 11 - محاضرات في التفكير الإسلامي والفلسفة، تح. حمادي الساحلي، 1999.

المصادر والمراجع

● ابن ميلاد، أحمد، وإدريس، محمد، الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية، بيت الحكمة، قرطاج، 1991؛ ● الخرفي، صالح، عبد العزيز الثعالبي من خلال آثاره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبيّة والفكرية بتونس، ط. 3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983؛ ● بو الخضرة، مسعودة مسعود، الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي، المكتبة العصريّة، بيروت، 1995؛ ● الجندي، أنور، عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية، 222، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984؛ ● المدني، أحمد توفيق، حياة الكفاح، متفرّقات، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976 (متفرقات)؛ ● المعهد العالي للحركة الوطنيّة، وثائق (مجلة)، عدد 13، تونس 1990؛ ● المعهد العالي للحركة الوطنية، (مجلة)، عدد 19، عدد مخصّص لعبد العزيز الثعالبي، تونس، 1993 .

أ. حمادي الساحلي
د. المنصف الشنوفي
الجامعة التونسية

الثّعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد

(350هـ/961م ـ 429هـ/1038م)

ولد أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل بنيسابور، ولا توجد في المصادر معلومات كافية بشأن حياته وهو أمر يدعو للحيرة رغم شهرته الواسعة في تلك الفترة، وإذا كان كل من العتبي، وأبو الفضل البيهقي وهما من معاصريه لم يذكرا بشأن حياته شيئا فإنه يعتقد أن أول من تحدث عنه هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت 453هـ/ 1061م) في كتابه «زهر الآداب» بكثير من المدح والإطراء؛ كما أن علي بن الحسين الفارسي، وهو أحد طلبته وصفه بأنه «جاحظ نيسابور».

ولقد أغفلت المصادر الأولى الحديث عن نشأته وتعليمه وأساتذته وطلبته وصلته برجال الدولة؛ كما أن المصادر اللاحقة لم تمدنا بأي جديد في هذا الموضوع. وهذه المصادر تذكر أنه كان ألمع أدباء عصره في البلاغة والفصاحة، وكانت مؤلفاته نبراسا للغرب والشرق، ورغم أن ابن بسام (ت 542هـ/ 1147م) يعتبر أكثر من تحدث عنه إلا أنه لم يقدم معلومات مستفيضة عن حياته، وقد نقل عنه ابن بسام الكثير في مؤلفاته.

ومعنى الثعالبي هو الشخص الذي يخيط الفرو من جلد الثعلب، وقد لقب بهذا اللقب

لاشتغاله بهذه المهنة [ابن خلكان، III 180]. وقد نشأ الثعالبي في محيط زاخر بالعلم والأدب ويكفي أن نذكر أنه كان يوجد في هذا المحيط أبو بكر الخوارزمي، وبديع الزّمان الهمذاني، وقد درس الثعالبي على يدي الخوارزمي. وتكشف مؤلفاته أنه كان عالما كبيرا وأديبا فذا، ويعتقد أنه كان مدرسا لأبناء رجال الدولة، وربما يكون أيضا اشتغل بالتدريس في مدارس نيسابور. ويذكر ابن شاكر الكتبي أن الثعالبي في فترة شبابه درس في المدارس الابتدائية. وممن أهدى إليهم الثعالبي كتبه نجد خوارزمشاه أبو العباس مأمون (309هـ - 922م/ 407هـ - 1017م). والأمير أبو المظفّر ناصر بن ناصر الدين سبوكتكين والي خراسان وأخو محمد الغزنوي، والأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد و هو من الميكاليين وممن شد على يديه أثناء طلبه للعلم وحسب ما نفهم من مؤلفاته فإن الثعالبي قد انتقل في أواخر عهد الدولة السامانية وبالتحديد في عام 382هـ/ 992م إلى بخارى التي كانت تعتبر أعظم وأهم مركز علمي في خراسان. وهنا تعرف على الشاعر أبي طالب المأمون، وأولى شعره اهتماما كبيرا. وعندما كان في بخارى سقطت المدينة في يدي الكرخانيين. وبعد وفاة المأمون بعام واحد ترك الثعالبي بخارى وأقام بعد ذلك في جرجان عام 403هـ/ 1012م لفترتين قصيرتين، وهناك أهدى بعض كتبه إلى قابوس بن وشمكير. وفي عام 371هـ/ 981م طرد قابوس من جرجان، وانتزع منه عرشه من قبل عضد الدولة البويهي، وعاش في نيسابور منفيا حتى استعاد عرشه في عام 388هـ/ 998م.

وفي هذه الأثناء تعرف عليه الثعالبي. وبعد فترة ذهب إلى جرجانية و أهدى بعض كتبه إلى خوارزمشاه المأمون ابن المأمون، والوزير أبي عبد الله الحامدي. وبعد فترة انتقل إلى غزنة وأقام بها، ثم رحل إلى نيسابور حيث قضى بقية عمره حتى وفاته. وقد تعرف على شخصيات أخرى مرموقة إلى جانب من ذكرهم في مؤلفاته، وتوفي الثعالبي عام 429/ 1038 إلاّ أن هناك بعض المصادر تذكر 430 تاريخا لوفاته.

آثاره

يعتبر الثعالبي من بين المؤلفين الذين تركوا كتبا كثيرة، وقد أورد الصفدي قائمة طويلة في كتبه [الوافي، XIX 195-197]. ونلاحظ سواء في هذه القائمة أو في غيرها من المصادر أن هناك أخطاء في نسبة بعض الكتب إليه بل إن بعض الكتب قد تمت طباعتها، وهناك دراسات لمجموعة من الدارسين المعاصرين حول مؤلفاته. إذ له حوالي 30 مؤلفا تدور حول مختارات من الشعر العربي، ومجموعات من كتب النثر الفني، ونقاشات في اللغة، ومجموعة نوادر عن الحياة الاجتماعية والسياسية. وباستثناء اهتمامه بجوانب النقد الأدبي لم يكن للثعالبي اهتمام بالجانب الأدبي أو غيره من الجوانب الأخرى. وقد عمل الثعالبي على العناية باللغة العربية وآدابها وسعى إلى تنظيمها والمحافظة عليها وتوريثها لجيله وللأجيال اللاحقة.

وممّا يثير الانتباه أنّه لم يكتب أي مؤلف باللغة الفارسية واكتفى فقط ببعض مقاطع من الشعر في كتابيه «يتيمة الدهر» و«التتمة». ولم يهتم من الفارسية إلا ببعض الترجمات العربية

للاطلاع على الشخصيات التي أهدى إليها كتبه [السامرائي، 185 ـ 186]. ومن هذه المؤلفات:

1 ـ يتيمة الدّهر ومحاسن أهل العصر: أشهر ما كتب الثعالبي، ويعتبر واحدا من أهم المصادر التي تتناول الشعراء والأدباء في عصره والعصر السابق له. وقد فرغ الثعالبي من تأليفه عام 384هـ/ 994م، بيد أن شكله النهائي لم يكتمل إلاّ ما بين 402 إلى 407هـ/ 1011 ـ 1016م.

يحتوي الكتاب على على تراجم مختصرة ومختارات شعرية وفنية لأعمال 470 شاعرا وأديبا، رتّب بالنظر إلى بلدان الشعراء والأدباء ويحتوي الكتاب وطبع مرات عديدة (دمشق 1304هـ؛ القاهرة 1934م)، وقد نشره محمد محيي الدين عبد الحميد [I-VI، القاهرة 1956 ـ 1958]؛ ومفيد محمد قميحة [I-V، بيروت 1403هـ/ 1983م]. وقد أعد أبو موسى أحمد الحق المولوي فهرسا ليتيمة الدهر [فائدة العصر، كلكوتة 1915]. و قد أضاف الثعالبي ذيلا لليتيمة بنفس الترتيب و أسماه تتمة اليتيمة [I-II، نشرها، عباس إقبال، طهران 1353هـ/ 1934م]. كما وضع لها أبو القاسم علي بن حسن الباخرزي (ت 467هـ/ 1075م) ذيلا أسماه «دمية القصر وعصارة أهل العصر» [I-II، نشره محمد عبد الفتاح الحلو، القاهرة 1968 ـ 1971؛ سامي مكي العاني، بغداد 1971 ـ 1973؛ I-II، محمد التونجي، دمشق 1974 ـ 1976]، كما وضع لها عماد الدين الأصفهاني أيضا ذيلا بعنوان «خريدة القصر وجريدة العصر».

وقد نشر محمد بهجت الأثري وجميل سعيد القسم الأول من هذا المؤلف [I-V، بغداد 1955 ـ 1978]، ونشر شكري فيصل القسم الثالث [I-III، دمشق 1955 ـ 1966]. ونشر أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس الجزء المتعلق بمصر من القسم الرابع [I-II، القاهرة 1951 ـ 1952]، ونشر عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم الأجزاء المتعلقة بصقلية والمغرب والأندلس (القاهرة 1960 ـ 1969) وأنترتاش، أنتنرنوش (تونس 1971 ـ 1972)، وقد نشر كل من محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى الجزء المتعلق بالمغرب (تونس 1966). وقد كتب علي بن زيد البيهقي (ت 565هـ/ 1169م) ذيلا على ذيل الباخرزي أسماه «وشاح دمية القصر»؛ ثم كتب ذيلا آخر أسماه «درة الوشاح» [ياقوت الحموي، XIII 266]؛ 2 ـ كتاب أحسن ما سمعت: مختارات شعرية جمعها حسب مواضيعها، وطبع الكتاب بشرح محمد أفندي صادق عنبر عام 1324هـ بالقاهرة، ونسخته موجودة في مكتبة كوبريلي وتحمل رقم 1197، وقام ريتشر بترجمته إلى اللغة الألمانية (ليبزيغ 1916)، كما نشره أحمد علي تمام وس. عاصم عام 1989 في بيروت، ويوجد ذيل للكتاب بخط المؤلف بعنوان «كتاب من غاب عنه المطرب» بمكتبة لاللي تحت رقم 1946، ويوجد الآن مطبوعا ضمن حفة البهية، إستنبول 1302هـ، 230 ـ 294، بيروت 1309هـ؛ نشر النبوي عبد الواحد شعلان، القاهرة 1405هـ/ 1984م؛ ونشر محمد إبراهيم سليم، القاهرة 1412هـ/ 1992م. كما قام ريتشر بترجمته إلى اللغة الألمانية

[Le monde Oriental, XVII, 198-31]؛ 3 ـ شمس الأدب في استعمال العرب: ويحمل أيضا عنوان «أسرار اللغة العربية وخصائصها»، وأفرد للكلمات المترادفة أسماه «سر الأدب في مجاري كلام العرب» (مجاري كلام العرب). ثم جعل الثعالبي من القسم الأول من الكتاب كتابا مستقلا أسماه «فقه اللغة»، و اكتسب الكتاب شهرته بهذه الصيغة، (نشر الكتاب مرفوقا بتعليقات من قبل ج، سلجمان، أوبسله 1863؛ ور. دحداح، باريس 1861؛ والقاهرة 1284هـ، 1325هـ؛ ومصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعلي شلبي، القاهرة 1357هـ/ 1938م؛ وسليمان سليم البواب، دمشق 1404هـ/ 1984م). (وقد نشر القسم الثاني من الكتاب «سر العربية في مجاري كلام العرب» في القاهرة عام 1284هـ، 1325هـ)؛ 4 ـ ثمار القلوب في المضاف والمنصوب: كتاب مشهور في التراكيب الإضافية المعرفة، أهداه إلى الأمير عبد الله بن أحمد الميكالي [القاهرة 1326هـ؛ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1384هـ/ 1965م]. وذيل كتاب بـ «تذييل المرغوب من ثمر القلوب» الذي يقدم قائمة في مجموعة من المشاهير. وقد اختصر كتاب «ثمار القلوب» عبد الرؤوف المناوي باسم «عماد البلاغة». وقد رتبه محمد أمين المحبي حسب الحروف بعنوان «كتاب ما يؤول عليه في المضاف والمضاف إليه»؛ 5 ـ كتاب اللطائف والظرائف (الظرائف واللطائف) في مدح محاسن الأشياء وأضدادها: أهدى كتابه هذا إلى خوارزمشاه أبو العباس المأمون، وقد دمجه أبو نصر أحمد بن عبد الرزاق المقديسي مع كتابه «يواقيت المواقيت»، وطبع باسم الكتاب الأول (بغداد 1282هـ)، وباسم «جماعة فيما بين كتاب الثعالبي» [بولاق 1296هـ؛ القاهرة 1275، 1300، 1307، 1310هـ؛ تبريز 1283هـ؛ طهران 1286هـ؛ نشر عبد الرحيم يوسف الجمل، القاهرة 1414هـ/ 1993م]؛ 6 ـ نشر النظم وحل العقد من مختار الشعر الذي يشتمل عليه الكتاب المترجم بمؤنس الأدباء: ألفه الكاتب بطلب من خوارزمشاه أبي العباس وقام فيه بتحويل النظم الموجود في كتاب «مؤنس الأدباء» لمؤلف مجهول إلى نثر (دمشق 1300هـ؛ القاهرة 1317هـ)؛ 7 ـ كتاب المنتحل (كنز الكتاب): جمع فيه الكاتب 250 شاعرا و2500 «لامي» (توفي في 938هـ/ 1532م)؛ 8 ـ كتاب لطائف المعارف، نشر. ب ـ دو. يونغ، ليدن 1867؛ نشر إبراهيم الأبياري، وحسن كامل الصيرفي، القاهرة 1379هـ/ 1960م؛ ترجمه إلى الأنجليزية. س. أ. بوسووث، إدنبرغ 1368هـ؛ نشر محمد إبراهيم سليم، القاهرة 1992م؛ 9 ـ المبهج: (القاهرة 1324هـ؛ توجد بعض مقاطعه في أربع رسائل، إستنبول 1301هـ. أهدى هذا الكتاب إلى قابوس بن وشمكير؛ 10 ـ كتاب التمثيل والمحاضرة في الحكم والمناظرة (حلية المحاضرة وعنوان المناظرة)؛ توجد من هذا الكتاب نسخ متعددة و طبعت منه بعض الأقسام ضمن أربع رسائل؛ ونشر من قبل عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة 1338هـ/ 1961م؛ 11 ـ كتاب محاسن كلم النبيّ ﷺ، والصحابة والتابعين وملوك الجاهلية وملوك الإسلام والوزراء والكتاب، والبلغاء، والحكماء، والعلماء؛ قام ج. ح. .ف. فلتون بنشر جزء

منه (ليدن 1844)؛ 12 ـ كتاب الإعجاز والإيجاز (يوجد ضمن خمس رسائل، إستنبول 1301هـ، نشر إسكندر أصاف، القاهرة 1897م؛ نشر محمد التونجي، بيروت 1992م). وقد ترجمه أ. بوتي إلى اللغة الفرنسية (La beauté est le gibier des cœurs, Paris, 1987)؛ 13 ـ كتاب مرآة المُرُوءات وأعمال الحسنات (القاهرة 1898، 1318هـ)؛ 14 ـ كتاب برد الأكباد في الأعداد: (يوجد ضمن «خمس رسائل» إستنبول 1301هـ؛ إستنبول 1325هـ)؛ 15 ـ النهاية في فن الكناية (الكناية و التعريض): وهو كتيِّب صغير في البلاغة، أهدي إلى خوارزمشاه المأمون بن المأمون (مكة 1301هـ)، وتوجد بعض أجزائه ضمن كتاب الجرجاني المسمى «المنتخب من كناية الأدباء» في أربع رسائل، إستنبول 1301هـ؛ نشر محمد إبراهيم سليم، القاهرة 1412هـ/ 1991م؛ ونشر موفق فوزي الجبر، دمشق 1415هـ/ 1994م؛ 16 ـ كتاب خاص الخاص، مختارات من الشعر (القاهرة 1326هـ؛ تونس 1293هـ، نشر مأمون بن يحيى الدين الجنان، بيروت 1994)؛ 17 ـ كتاب سحر البلاغة وسر البراعة، نشر علي الحرفي، بيروت 1984؛ 18 ـ تحسين القبيح وتقبيح الحسن: نشر شاكر العاشور، بيروت 1401هـ/ 1981م)؛ 19 ـ الاقتباس من القرآن الكريم: (I ـ II، نشر ابتسام مرهون الصفار، بغداد 1395هـ/ 1975م؛ المنصور 1412هـ/ 1992م)؛ 20 ـ التوفيق للتلفيق، نشر إبراهيم صالح، دمشق 1983، 1990؛ نشر هلال ناجي وزهير زاهد، بغداد 1405هـ/ 1985م؛ 21 ـ لطائف الظرفاء، نشره قاسم السامرائي مع مقدمة وتعليق، ليدن 1978؛ نشر عمر الأسد، بيروت 1980 باسم «لطائف اللطف»؛ 22 ـ مكارم الأخلاق، بيروت 1900؛ 23 ـ آداب الملك (سيرة الملك): نشر جليل العطية، بيروت 1990؛ 24 ـ تحفة الوزراء: نشر حبيب الراوي وابتسام مرهون الصفار، بغداد 1977، نشر سعد أبو دية، عمّان 1414هـ/ 1994م؛ 25 ـ غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم: ترجمه ونشره بالفرنسية هـ. روتنبارغ، (Histoires de rois des Perses, Paris 1900, Téhéran)؛ 26 ـ الأشباه والنظائر: نشر محمد المصري. بيروت 1404هـ/ 1984م؛ 27 ـ لباب الآداب: نشر قحطان رشيد صالح، بغداد 1988: نشر أحمد حسن صبح، بيروت 1417هـ/ 1997م؛ 28 ـ درر الحكم: نشر يوسف عبد الوهاب، طنطة 1995؛ 29 ـ روضة الفصاحة: نشر محمد إبراهيم سليم، القاهرة 1412هـ/ 1991م؛ 30 ـ اليواقيت في بعض المواقيت في مدح الشَّيء وذمه: نشر محمد جاسم الحديثي، بغداد 1990.

وللثعالبي كتب أخرى وهي: «كتاب لطائف الصحابة والتابعين»، «مؤنس الوحيد»، و«كتاب المتشابه أو كتاب الأجناس والتجنيس» (أهداه إلى أبي المظفر نصر بن سبوكتكين). وله أيضا: «الأنوار البهية وتعريف مقامات فصحاء البرية»، و«مواسم العمر»، وكتاب «سر الحقيقة»، بالإضافة إلى كتب أخرى [للاطلاع على هذه الكتب وبقية مؤلفاته وكذلك المخطوطات انظر: بروكلمان، Geschichte, I, 284-286,

نهاد، ڤتين، Supplement band, I, 499-500؛ الموسوعة الإسلامية، X 263 ـ 265؛ محمد صادق النقوي، 59 ـ 74].

المصادر والمراجع

● الحصري، أبو إسحاق، زهر الآداب وثمر الألباب، نشر علي محمد البجاوي، القاهرة، 1969م/ 1389هـ، 1/ 127 ـ 129؛ ● الباخرزي، دمية القصر، نشر سامي مكي العاني، الكويت 1985م/ 1405هـ، 2/ 228 ـ 233؛ ● ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، نشر إحسان عباس، بيروت 1979م/ 1399هـ، IV/2 ـ 583 ـ 560؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان، نشر إحسان عباس، بيروت III 1978م/ 1398هـ، 178 ـ 180؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، القاهرة، XIII، 1936 ـ 1938م/ 1355 ـ 1357 هـ، 226؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، XVIII، 437 ـ 438؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، فيسبادن، XIX، 1962م/ 1381هـ، 194 ـ 199؛ ● ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، نشر فؤاد سزكين، فرنكفورت فقب، 1988م/ 1408هـ، 89 ـ 91؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، III، 246 ـ 247؛ ● جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت 1983، 1/ 586؛ ● كرد علي، محمد، كنوز الأجداد، دمشق، 1984، 221 ـ 226؛ ● الجادر، محمود عبد الله، الثعالبي، بغداد 1976؛ ● م.ن، الثعالبي ناقدا وأديبا، بيروت 1411هـ/ 1991م؛ ● م.ن، مصادر الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر»، مجلّة المجمع العلمي العراقي، 2 ـ XXII/1، بغداد 1981، 321 ـ 326؛ ● م.ن، دراسة تحقيقية في كتاب من غاب عنه المطرب للثعالبي، المورد، XVII/3، بغداد 1988، 81 ـ 104؛ ● النقوي، محمد الصادق، «الثعالبي حياته وعصره»، مجلة المجمع العلمي الهندي، 1977، 2 ـ II K/1 49 ـ 73؛ ● أبو رحمة، خليل، مع الثعالبي وكتابه الذي وسم بلطائف اللطف، المورد، XVIII/2، بغداد. 1989، 36 وما بعده...؛ ● بروكلمان، كارل، وڤتين، نهاد، الثعالبي، الموسوعة الإسلامية، إستنبول 1993، ت، 262 ـ 266؛ ● راوسون، أ.ك. «الثعالبي»، أنسزكلوبيديا آوف إسلام (الموسوعة الإسلامية)، ت، 426 ـ 428.

- Kasim al-Samarrai, Some biographical notes on Tha'âlibi; Bibliotheca Orientalia, XXXIII, 1975, S. 175-186.

د. أحمد أوزال

الموسوعة الإسلامية ـ اسطنبول ـ تركيا

ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

ثعلب، أبو العبّاس أحمد بن يحيى

(200هـ/815م - 291هـ/903م)

أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد (وقيل يزيد)، مولى بني شيبان؛ لغوي، نحوي، كوفي. نقل عنه قول يساعد على تأريخ مولده ومراحل تكوّنه. فقد حضر حسب ذلك القول قدوم المأمون من خراسان سنة مائتين وأربع، وهو في سن الرابعة. وبدأ بالنظر في العربية والشعر واللغة في سنّ السادسة عشرة، ولم يبلغ الخامسة والعشرين حتّى ألمّ بكتب الفرّاء وحفظها [الفهرست، 116]. وقد أخذ العلم عن ابن الأعرابيّ، وسلمة بن عاصم، ومحمد بن سلاّم الجمحي، وعلي بن المغيرة الأثرم، والزّبير ابن بكّار، والرياشي... وبالإضافة إلى ما درسه من مصنّفات عَلَمَي الكوفة الكسائي والفرّاء، فقد روى كتب أبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة، والأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء؛ كما روى القراءة عن سلمة ابن العاصم، ويبدو أنّه جلس للتدريس وعمره خمس وعشرون، وتتلمذ عليه خاصّة محمّد بن عبد الله اليزيدي، وأبو بكر الأنباري، وإبراهيم بن محمّد بن عرفة المعروف بنفطويه، وأبو عمرو الزاهد، وأبو الحسن بن مقسم، وعبد الرحمن بن محمّد الزهري، وأحمد بن موسى بن مجاهد، وعلي بن سليمان الأخفش. وجلس إليه عدد ممّن جلس إلى المبرّد كالزجاج، وعلي بن سليمان الأخفش... وقد عهد إليه محمّد بن عبد الله بن الطاهر والي بغداد بتأديب أبنائه، ووفّر له لذلك ما يكفي من المال ورغد العيش.

ولمّا غادر المبرّد «سرّ من رأى» إلى بغداد بعد قتل المتوكّل، جلس للتدريس في الجامع الذي كان يجلس فيه ثعلب. وتشير المصادر أن ثعلبا لم يرقه ذلك، فأرسل إليه بعض تلاميذه «ليفضّ» حلقته [الزبيدي، 118]. وكان ذلك بداية التنافس بين الرجلين، وبلوغ الخلاف بين الكوفيين والبصريين أوجه؛ فاعتبر ثعلب زعيم الفريق الأوّل والمبرّد زعيم الثاني. ولئن كانت المنافسة بين الرجلين «مذهبيّة» فمن أسبابها أيضا السعي الحثيث إلى كسب الأنصار، واستعمال التلاميذ قصد مناقشة المنافس، ومحاولة جلب تلاميذه، واكتساب الوجاهة لدى أولي الأمر وخاصة ابن الطاهر. ويبدو أنّ المبرّد كان بليغا، ذا منطق قويّ، بارعا في الجدل، وهذا ما كان يفتقر إليه ثعلب، فقد كان صاحب رواية أكثر منه رجل تنظير، كثير الحفظ في النقل واللغة والشعر والنحو، «لم يكن مستخرجا للقياس ولا طالبا له»، حسب تعبير القفطي [إنباه، 1/ 141]، فقد كان في مناظراته وأجوبته في مجالسه أو إملاءاته يحيل على الكسائي أو الفرّاء، ويورد ما نقل عن العرب ممّا رواه بنفسه، أو أخذه عن غيره؛ ولذا لا يعتبر ثعلب ممّن أضافوا شيئا إلى آراء الكوفيين وخاصّة الكسائي والفرّاء، وإنّما تمثّل دوره

في نقلها وترويجها، ويتجلّى ذلك فيما بقي من آثاره، فكتاب «المجالس» مثلا يتضمّن آيات قرآنيّة وضروبا من الأخبار والأشعار، وكلام العرب يوردها ثعلب فيشرحها أو يشرح بعض ما جاء فيها، ويقف عند بعض المسائل النحويّة، فيعلّق عليها حسب ما قاله سلفه في شأنها.

آثاره

1 ـ كتاب الفصيح، نشره أوّل مرّة في مدينة ليبزغ بألمانيا المستشرق فون بارث سنة 1876م، ثمّ صدر مع شرح الهروي وذيل البغدادي مع كتاب «فعلت وأفعلت» للزجاج بتصحيح محمّد بدر الدين النعساني الحلبي سنة 1909م، وأعيد طبعه بإشراف محمد عبد المنعم خفاجي سنة 1949م، ثمّ صدر أخيرا عن دار المعارف بتحقيق عاطف مدكور سنة 1984م؛ كتاب الفصيح أشبه بمعجم لغوي أراد منه صاحبه تقويم ألسنة المبتدئين على طريقة كتب اللحن، حتّى ذهب البعض إلى اعتباره امتدادا لأعمال سابقيه [المعجم العربي، 1/ 99؛ اللغة ومعاجمها، 55]. فأورد صيغا وألفاظا يختلف المتكلّمون في نطقها فشرحها، مبيّنا وجه الفصيح والصواب دالّا على الأصحّ الأفصح منها. وكان من أكثر كتب تنقية اللّغة تداولا بين القرّاء، حتّى أصبح له أهمّية في تدريس اللّغة العربيّة عدّة قرون. فكان الناس الذين يرغبون في تأديب أولادهم يحفظون كتاب الفصيح، لما فيه من الألفاظ السهلة المستعملة، ولأنّ العامة تخطىء في كثير منها. ومن مظاهر أهمّية هذا الكتاب شرح عدد من اللّغويين له، منهم ابن درستويه، وابن خالويه، والمرزوقي، وابن حيّان، والبطليوسي، وابن هشام اللخمي [مقدّمة كتاب الفصيح، ص 42]؛ 2 ـ كتاب مجالس ثعلب، نشر في دار المعارف بمصر بتحقيق عبد السلام محمّد هارون سنة 1948م، وأعيد طبعه ثانية منقّحة ومزيدا عليها سنة 1956م؛ ويعرف أيضا بأمالي ثعلب، أملاها على أصحابه، منهم أبو بكر الأنباري، وابن دستويه [الفهرست، ص 100] في مجالسه، وتناول فيها النحو، واللغة، والأخبار، ومعاني القرآن، والشعر... والكتاب كما يُتداول اليوم مقسّم إلى سبعة أجزاء ولا يختصّ كلّ جزء بموضوع معيّن. بل إنّ المادة هي نفسها لا يجمع بينها ترتيب معيّن؛ 3 ـ قواعد الشعر، نشره سكياباريلي في أعمال المؤتمر الثامن للمستشرقين 1890م، وتح. رمضان عبد التواب، القاهرة 1966م. وهو رسالة قصيرة يقسّم فيها الشعر إلى أمر ونهي، وخبر واستخبار. مع حديث قصير عن أغراضه، ودرس لما يجري في التشبيه من صور بيانيّة بليغة؛ 4 ـ شرح ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، طبع برواية ثعلب بعناية رودولف جاير سنة 1928م. وقد اعتبر جاير أنّ عمل ثعلب لم يتجاوز رواية النصّ؛ 5 ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، طبع في دار الكتب سنة 1944م؛ 6 ـ شرح ديوان ابن الدمينة، أنجزه بمعيّة محمّد بن حبيب (ت 245هـ)، وهو قسمان: قسم أوّل من صنعة ثعلب يضمّ 55 مقطوعة شعريّة، وقسم ثان من صنعة محمد بن حبيب يضمّ ستّ مقطوعات [انظر مقدّمة كتاب الفصيح، ص 34]، شرح وتحقيق أحمد راتب النفّاخ، طبع بالقاهرة، 1909م؛ 7 ـ قصيدة في معنى الخال، نشر سكياباريلي في مجموعة أعمال المؤتمر الثامن الدولي للمستشرقين، ليدن

1890م؛ 8 ـ حدّ النحو، نسخة منه ضمن مجموعة بالأسكوريال، 778؛ 9 ـ ديوان عروة بن حزام (برواية ثعلب)، نسخة في دار الكتب المصرية، رقم 5077؛ 10 ـ شرح قصيدة لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير، نسخة بدار الكتب المصرية؛ 11 ـ شرح لأميّة الشنفري، نسخة بالمكتبة الآصفيّة، 2/ 1344؛ 12 ـ الأبيات السائرة؛ 13 ـ اختلاف النحويين؛ 14 ـ إعراب القرآن؛ 15 ـ الأمثال؛ 16 ـ غريب الحديث؛ 17 ـ غريب القرآن؛ 18 ـ ما ينصرف وما لا ينصرف؛ 19 ـ معاني القرآن.

المصادر والمراجع

● اللّغوي أبو الطيّب، مراتب النحويين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1954؛ ● الزبيدي، طبقات النحويين واللّغويّين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر 1373هـ/ 1954م؛ ● ابن النديم، الفهرست، مطبعة الاستقامة، القاهرة؛ ● نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، دار المأمون، مصر؛ ● القفطي، إنباه الرواة، تح. محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، 1371هـ/ 1952م؛ ● ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار المسيرة، بيروت، 1399هـ/ 1979م؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. عبد الحليم النجّار، ج 2، مصر 1961، دار المعارف؛ ● المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة، ط2، مصر، 1377هـ/ 1985م، دار المعارف بمصر؛ ● شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط6 دار المعارف، القاهرة 1989؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة مج 4، فصل ثعلب ـ ط1.

د. عوض بن محمد القوزي
جامعة الملك سعود ـ السعودية
د. الحبيب النصراوي
الجامعة التونسية

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد

(ت 427هـ/1035م)

أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسّر المشهور، كان أوحد زمانه في علم التفسير، ذكره السمعاني وقال: يقال له الثعلبي والثعالبي وهو لقب له وليس بنسب، قاله بعض العلماء.

ذكر ابن خلكان في ترجمته عن أبي القاسم القشيري أنه قال: رأيت ربّ العزّة في المنام وهو يخاطبني أو أخاطبه، فكان في أثناء ذلك أن قال الربّ تعالى اسمه: أقبل الرجل الصالح، فالتفت فإذا أحمد الثعلبي مقبل.

وذكره عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي في كتاب «سياق تاريخ نيسابور» وأثنى عليه، وقال: هو صحيح النقل موثوق به، حدث عن أبي الطاهر بن خزيمة والإمام أبي بكر بن مهران المقرىء، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ؛ توفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة (427هـ)، وقال غيره توفي في المحرم من السنة المذكورة، وقال غيره: توفي يوم الأربعاء لسبع بقين من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

و«الثَّعْلَبِيّ» بفتح الثاء المثلثة وسكون العين المهملة، وبعد اللام المفتوحة باء موحّدة، و«النيسابوري» بفتح النون وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة، وبعد الألف باء موحدة مضمونة، وبعد الواو الساكنة راء؛ وهذه النسبة إلى نيسابور وهي من أحسن مدن خراسان وأعظمها وأجمعها للخيرات، وإنما قيل لها نيسابور لأن سابور ذا الأكتاف أحد ملوك الفرس المتأخرة لما وصل إلى مكانها أعجبه، وكان مقصبة، فقال: يصلح أن يكون ههنا مدينة، وأمر بقطع القصب وبنى المدينة فقيل لها: «نيسابور». والنيّ القصب بالعجمي، هكذا قاله السمعاني في كتاب «الأنساب».

حدّث الثعلبي عن أبي طاهر بن خزيمة، وأبي بكر بن مهران المقرىء، وأبي بكر بن هانىء، وأبي بكر بن الطرازي، والمخلّدي، والخفاف، وأبي محمد بن الرومي، وطبقتهم. وكان كثير الحديث كثير الشيوخ، وسمع منه الواحديُّ التفسير وأخذه عنه، وأثنى عليه، وحدّث عنه بإسنادٍ رفعه إلى عاصم.

■ آثاره

ويعدّ كتابه «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» من أشهر مؤلفاته وهو تفسير للقرآن الكريم، ألقى الثعلبي في مقدمته ضوءاً عليه، وأوضح منهجه وطريقته التي سلكها فيه، فذكر اختلافه منذ الصغر إلى العلماء واجتهاده في الاقتباس من علم التفسير الذي هو أساس الدين ورأس العلوم الشرعية، ومواصلته ظلام الليل بضوء الصباح بعزم أكيد وجهد جهيد حتّى رزقه الله ما عرف به الحق من الباطل؛ والمفضول من الفاضل، والحديث من القديم، والبدعة من السنة، والحجة من الشبهة، وظهر له أن المصنفين في تفسير القرآن فِرَقٌ على طرق مختلفة: فرقة أهل البدع والأهواء، وعدّ منهم الجبائي والرّماني؛ وفرقة من ألّفوا فأحسنوا، إلاّ أنّهم خلطوا أباطيل المبتدعين بأقاويل السلف الصالحين، وعدّ منهم أبا بكر القفال؛ وفرقة اقتصر أصحابها على الرواية والنقل دون الدراية والنقد، وعدَ منهم أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي؛ وفرقة حذفت الإسناد الذي هو الركن والعماد، ونقلت من الصحف والدفاتر، وحررت على هوى الخواطر، وذكرْت الغث والسمين، والواهي والمتين، قال: وليسوا في عداد العلماء، فصمت الكتّاب عن ذكرهم؛ وفرقة حازوا قصب السبق في جودة التصنيف والحذق، غير أنهم طوّلوا في كتبهم بالمعادات وكثرة الطرق والروايات، وعدّ منهم ابن جرير الطبري؛ وفرقة جرّدت التفسير دون الأحكام، وبيان الحلال والحرام، والحلّ عن الغوامض والمشكلات، والردّ على أهل الزيغ والشبهات، كمشايخ السلف الماضين، مثل

مجاهد والسيدي والكلبي. ثم بيّن أنه لم يعثر في كتب من تقدمه على كتاب جامع مهذب يعتمد، ثم ذكر ما كان من رغبة الناس إليه في إخراج كتاب في تفسير القرآن وإجابته لمطلوبهم، ورعاية منه لحقوقهم، وتقربًا به إلى الله.. ثم قال: فاستخرت الله تعالى في تصنيف كتاب، شامل، مهذب، ملخص، مفهوم، منظوم، مستخرج من زهاء مائة كتاب مجموعات مسموعات، سوى ما التقطته من التعليمات والأجزاء المتفرقات، وتلقفته عن أقوام من المشايخ الأثبات وهم قريب من ثلاثمائة شيخ، نسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز والترتيب. ثمّ قال: وخرّجت فيه الكلام على أربعة عشر نحوًا: البسائط والمقدمات، والعدد والتنزلات، والقصص والنزولات، والوجوه والقراءات، والعلل والاحتجاجات، والعربية واللغات، والإعراب والموازنات، والتفسير والتأويلات، والمعاني والجهات، والغوامض والمشكلات، والأحكام والفقهيات، والحكم والإشارات، والفضائل والكرامات، والأخبار والمتعلّقات، أدرجتها في أثناء الكتاب بحذف الأبواب، وسمّيته: «كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن».. ثم ذكر في أول الكتاب أسانيده إلى من يروي عنهم التفسير من علماء السلف، واكتفى بذلك عن ذكرها في أثناء الكتاب، كما ذكر أسانيده إلى مصنفات أهل عصره، وهي كثيرة، وكتب الغريب والمشكل والقراءات. ثم ذكر بابا في فضل القرآن وأهله وبابا في معنى التفسير والتأويل ثم شرع في التفسير.

والقارىء لتفسيره يجده يفسر القرآن بما جاء عن السلف مع اختصار للأسانيد اكتفاء بذكرها في مقدمة الكتاب، ويعرض للمسائل النحوية ويخوض فيها بتوسيع ظاهر كما في تفسيره قوله تعالى في الآية 90 من سورة البقرة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ..﴾ الآية حيث يتوسع في الكلام ويفيض في ذلك، كما أنه يعرض لشرح الكلمات اللغوية وأصولها وتصاريفها، ويستشهد على ما يقول بالشعر العربي كتحليله لكلمة «ينعق» في قوله تعالى في الآية 171 من سورة البقرة ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً..﴾ الآية.

وهو يتوسع أيضًا في الكلام على الأحكام الفقهية عند تفسيره لآيات الأحكام. وهناك ناحية أخرى يمتاز بها الثعلبي في تفسيره هي التوسع إلى حدّ كبير في ذكر الإسرائيليات من غير أن يتعقّب شيئًا من ذلك، أو ينبه على ما فيه رغم استبعاده وغرابته. ويظهر أن الثعلبي كان مولعًا بالأخبار والقصص حتّى أنه ألف كتابا يشتمل على قصص الأنبياء سبقت الإشارة إليه. وقد جرّ الثعلبي على نفسه اللوم والنقد من بعض العلماء بسبب هذه الكثرة من الإسرائيليات فقد قال عنه ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: «والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع». وقال أيضًا في فتاواه وقد سئل عن بعض كتب التفسير: «وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع، وإن ذكرها تقليدًا لغيره، وتفسيره وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها».

وقال الكتاني في الرسالة المتطرفة عند الكلام على الواحدي تلميذ الثعلبي: «ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبي كبير بضاعة في الحديث، بل في تفسيرهما - وخصوصا الثعلبي - أحاديث موضوعة وقصص باطلة». وذكر محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» أنه عثر على تفسير الثعلبي بمكتبة الأزهر فوجده مخطوطا غير كامل، وجد فيه أربعة مجلدات ضخام هي الأول والثاني والثالث والرابع، والرابع ينتهي عند أواخر سورة الفرقان، وباقي الكتاب مفقود. وقال الذهبي عنه: «والحق أن الثعلبي رجل قليل البضاعة في الحديث، بل ولا أكون قاسيا عليه إذا قلت إنه لا يستطيع أن يميّز الحديث الموضوع من غير الموضوع، وإلاّ لما روى في تفسيره أحاديث الشيعة الموضوعة على عليّ وأهل البيت، وغيرها من الأحاديث التي اشتهر وضعها وحذر العلماء من روايتها. والعجب أن الثعلبي بعد هذا كله يعيب كل كتب التفسير أو معظمها حتّى كتاب محمد بن جرير الطبري الذي شهد له خلق كثير، وليته إذ ادعى في مقدمة تفسيره أنه لم يعثر في كتب من تقدمه من المفسرين على كتاب جامع مهذب يعتمد، آخرج لنا كتابا خاليا مما عاب عليه المفسرين، ليته فعل ذلك.. إذًا لكان قد أراحنا وأراح الناس من هذا الخلط والخبط الذي لا يخلو منه موضع من كتابه».

آثاره

1 - الكشف والبيان في تفسير القرآن، مخ؛ 2 - عرائس المجالس، في قصص الأنبياء، مطبوع؛ 3 - ربيع الذاكرين؛ وغيرها...

المصادر والمراجع

● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، 1/ 79؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، 5/ 36؛ ● الداودي، طبقات المفسرين؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، 2/ 230؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1/ 75؛ ● الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، 6/ 227؛ وغيرها...

د. عبد الستار فاضل خذر
جامعة الموصل - العراق

الثعلبي، أبو زكرياء يحيى بن القاسم

(531هـ/ 1136م - 616هـ/ 1219م)

أبو زكرياء يحيى بن القاسم بن مفرج بن درع التكريتي، فقيه، مفسر، نحوي، لغوي، شاعر. من فقهاء الشافعية، ولد بتكريت في مستهل شهر المحرّم 531هـ/ 1136م، وتلقى عن والده الأدب وحفظ القرآن الكريم، وشيئًا من الفقه، ثم انتقل إلى

حديثة، فتفقّه فيها على سعيد بن الشهرزوري. ثم قدم بغداد، فصحب الشيخ أبا النجيب عبد القاهر بن عبد الله السهروردي (ت 563هـ/ 1167م)، والشيخ يوسف بن محمد الدمشقي، والرضي أبا الخير أحمد بن اسماعيل القزويني (590هـ/ 1193م). وقرأ الأدب على الشيخ أبي محمد عبد الله الخشاب النحوي (ت 567هـ/ 1171م). وسمع الحديث من أبي الفتح بن البطّي، وأبي زرعة المقدسي، وغيرهم.

وبعد حصوله على قدر وافر من العلم في المجالات أعلاه، رجع إلى بلده تكريت، وبرز فيها في الفقه والأدب، وتولّى قضاءها لمدة طويلة، مع حسن سيرة، واشتهار في الفضل والعفة، والديانة والتفنن في العلوم، وكان يُدَرس في المدرسة النظامية سنة 607هـ/ 1210م. كما أُسند إليه أيضًا النظر في الأوقاف التي تختص بالمدرسة النظامية، فاستناب ابنه الأكبر في تولّي الوقف، واستمر هو بالتدريس إلى سنة 614هـ/ 1217م، حين أُقصي عن ذلك، فسكن في رباط شيخ الشيوخ أبي البركات إسماعيل في بغداد. ولم يزل مقبلاً على الاشتغال بالعلم والعبادة على أحسن طريقة، حتّى وفاته عشية يوم الاثنين في الثامن من شهر رمضان سنة 616هـ/ 1219م، ودفن يوم الثلاثاء بمقبرة الشونيزي ببغداد.

يعد أبو زكرياء التعلبي من جملة المشايخ الذين يشار إليهم بالبنان بالنسبة في معرفة المذهب الشافعي. وكان حسن الكلام في المناظرة، وله عبارة فصيحة، ومعرفة جيّدة بالأصوليين، والأدب، وباع طويل في حفظ لغات العرب. وكان حسبما يذكر السبكي، من أحفظ أهل زمانه لتفسير القرآن الكريم، ومعرفة علومه. وكان من المجودين لتلاوته، ومعرفة القراءات ووجوهها [طبقات الشافعية، 5/ 150].

■ آثاره

ألف التعلبي بعض الكتب والتصانيف، وكلها مفقودة في الوقت الحاضر، وهي: 1 ـ كتاب تفسير القرآن العزيز، يزيد عن عشرين مجلّدًا؛ 2 ـ كتاب الحقير النافع على مذهب ابن شافع؛ 3 ـ كتاب اللعنة في إزالة اللكنة في النحو؛ 4 ـ كتاب في العروض والقوافي؛ 5 ـ كتاب الاختصاص في التاريخ الخاص، يتألف من ستة مجلّدات، قصره على ذكر مشايخه الذين قرأ عليهم، وتلامذته الذين قرؤوا عليه، وأتبعه بذكر أقاربه وأهله، وأشعار ورسائل ومكاتبات إلى أصدقائه في النظم والنثر وغير ذلك. وقد بقي من هذا الكتاب نقولات في كتاب تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي في الجزء الرابع بأقسامه الأربعة، والخامس بجزأيه. وقد أورد بعض مترجميه نماذج من شعره، لاسيّما ابن الشعار الموصلي، الذي أشار إلى الكثير من نظمه، منه على سبيل المثال:

لا بد للمرْء من ضيقٍ ومن سَعَةٍ
ومن سرور يُواتيه ومنْ حزنِ

والله يطلب منه شكرَ نعمته
ما دام فيها، ويبغي الصَّبر في المِحَنِ

فما على شدَّةٍ يبقى الزمانُ، فكن
جلدًا، ولا نعمة تبقَى على الزمنِ

المصادر والمراجع

● ياقوت، معجم الأدباء، بيروت، طبعة دار المستشرق، 20/ 29 - 30؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979، 12/ 294؛ ● ابن الشعار، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، مخطوط مصوّر في قسم اللغة العربية بكلّية التربية، جامعة الموصل، عن الأصل المحفوظ في مكتبة أسعد أفندي الملحقة بالكتبة السليمانية باستانبول رقم 2324، ج9، ص229 - 234،؛ ● سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، الهند، حيدر آباد لدكن، 1951، 8/ 608؛ ● المنذري، التكملة لوفيات النقلة، تح. بشار واد معروف، النجف، 1971، 4/ 411؛ ● أبو شامة، الذيل على الروضتين، تح. عزت العطار الحسيني، دمشق، 1947، ص120؛ ● ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، تح. مصطفى جواد، دمشق، 1962 - 1967، ج4، ق1، ص83، 469، 559، ج4، ق2، ص822، ج4، ق3، ص26، ج5، حرف الميم، ص200، 286، 649، 690؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام، الطبقة 22، تح. بشار عواد معروف وزميله، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1988، ص294؛ ● السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ط2، بيروت، دار المعرفة، 5/ 149 - 150؛ ● الأسنوي، طبقات الشافعية، تح. عبد الله الجبوري، بغداد، وزارة الأوقاف، 1971، 1/ 313؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، ط2، بيروت، دار المعرف، 1977، 13/ 86؛ ● ابن حجر العسقلاني، تبصير المنتبه، تح. محمد علي البجاوي وزميله، القاهرة، 1965، 1/ 209؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، 2/ 339؛ ● الزركلي، الأعلام، ط2، القاهرة، مطبعة كوستاتسوماس، 1955، 9/ 207؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، مطبعة الترقي، 1957، 13/ 220؛ ● بدري محمد فهد، «المؤرّخ يحيى التكريتي»، بحث ضمن محاضر الندوة الأولى لجامعة تكريت، مطبوع على الرونيو، تكريت، 1990، 2/ 67؛ ● محمد قاسم مصطفى، «قاضيان من تكريت»، بحث ضمن موسوعة مدينة تكريت، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، 1997، 3/ 167 - 179؛ ● السرحان، محيي هلال، «الحديث والمحدّثون في تكريت»، بحث ضمن موسوعة مدينة تكريت، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، 1997، 3/ 86 - 87.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل - العراق

الثقفي الجياني، محمد بن الحسن

(570هـ/1174م - 663هـ/1264م)

محمد بن الحسن بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي العاصمي الخطيب، مقرئ، محدث، أديب. ولد بمدينة جيّان (Jaen) بالأندلس، التي تبعد نحو 100 كيلومتر إلى الشمال من غرناطة (Granada). وقد تنقل في مدن الأندلس الجنوبية، لاسيما مالقة (Malaga)، وغرناطة، وسكن في كلتيهما، فضلاً عن مسقط رأسه جيّان، ثم استقرّ أخيراً في مدينة غرناطة، بعد سقوط جيّان بأيدي الأسبان سنة 643هـ/1245م. وينتمي محمد بن الحسن إلى قبيلة ثقيف القيسية، التي دخل بعض أفرادها الأندلس أيام الفتح العربي الإسلامي، لاسيما عاصم بن مسلم بن كعب، الذي يرجع نسب ابن الزبير إليه. ومنزل أسرته في جيّان، وحسبه فيها أصيل، وثروته معلومة. وهو قريب أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، العالم الأندلسي المعروف، صاحب كتاب «صلة الصلة»، المتوفى سنة 708هـ/1308م.

درس محمد بن الحسن اللغة العربية والأدب على الأستاذ أبي الحسين بن عبد الله السعدي، كما تلا عليه القرآن الكريم بالسبع. وأخذ الحديث ورواه عن أبي عبد الله بن أمية، وعن ابن حنون، وأبي الفضل بن عبد السلام الغيدوي. وكذلك عن هشام القلعي، الذي قرأ عليه أيضاً كتاب التيسير في القراءآت، لأبي عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني المتوفى سنة 444هـ/1054م. ولا تشير المصادر المتيسرة إلى تلامذته، باستثناء قريبه أبي جعفر بن الزبير، الذي درس عليه، وروى عنه، وأصبح فيما بعد خاتمة المحدثين، وإليه انتهت الرئاسة بالأندلس في دراسة العربية، وتجويد القرآن، ورواية الحديث، والمشاركة في الفقه، والقيام على التفسير. وتشير اهتمامات التلميذ هذه بالتأكيد إلى تفوق أستاذه الثقفي فيها.

تولى محمد بن الحسن القضاء ببعض الأماكن القريبة من بلده جيّان. ويبدو أنه قضى مدة لابأس بها من عمره في مدينة مالقة، واشتهر فيها حتى أنه تولى الخطبة بجامع قصبتها أيام أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي، الذي استغل ضعف السلطة الموحدية، وسيطر على عدة مدن أندلسية في الحقبة الممتدة من 625 - 634هـ/ 1227 - 1236م، ومنها مالقة. وقد تصدى ابن الحسن الثقفي أيضاً إلى عقد الشروط في هذه المدينة. وهذا يدل على أنه كان متمكناً من تحرير الشروط والوثائق العامة، بصيراً بعقدها. ولم تكن هذه المهمة ذات علاقة بالدولة، لأن النظام القضائي في الأندلس كان يترك الناس أحراراً في اختيار من يقوم بتحرير ما يتعاقدون عليه من شروط. وكان لبعض هؤلاء الذين يعقدون الشروط مؤلفات في هذا

المجال تسمى بالوثائق، ولكن لم يصلنا شيء عن قيام عالمنا هذا بالتأليف في هذا الموضوع أو في غيره من العلوم.

قضى ابن الحسن الثقفي السنوات الأخيرة من عمره في غرناطة، لكننا لا نعرف بالضبط متى ترك مدينة مالقة. ومن المحتمل أنه جاء إلى غرناطة إثر استقرار سلطة الدولة النصرية فيها بعد سنة 634هـ/ 1236م على يد مؤسسها محمد بن يوسف بن الأحمر النصري. وقد امتد عمر ابن الحسن الثقفي، حتى جاوز التسعين عاماً، ووصفه ابن عبد الملك المراكشي في أواخر أيامه، بأنه «كان شيخاً سنياً منقبضاً عن الناس، مقرئاً، مجوداً، محدّثاً متقناً، أديباً، فاضلاً، لين الجانب، حسن الخلق» [الذيل والتكملة، 6/ 161]. وقد فَقَدَ بصره في السنوات الأخيرة من عمره، فلزم داره نحو سبعة أعوام، إلى أن توفي في غرناطة سنة 663هـ/ 1264م.

المصادر والمراجع

● المراكشي، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1973، 6/ 161، الترجمة (431)؛

● الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (وفيات سنة 663هـ)، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة أحمد الثالث برقم (3010) بحوزة صالح مهدي عباس.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

الثقفي، طريح بن إسماعيل بن سعيد

(ت 165هـ/782م)

هو طريح بن إسماعيل بن سعيد بن عبيد ابن أسيد بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن عنزد بن قسي، وقسي هو ثقيف، وجده سعيد هو الذي رمى أبا سفيان يوم الطائف، فقلع عينه.

ويقال إن ثقيفا كان عبدا لأبي رغال، وكان أصله من قوم نجوا من ثمود، فانتمى بعد ذلك إلى قيس.

وأمه بنت عبد الله بن سباع بن عبد العزى بن نضلة بن غبشان من خزاعة، وسبّاع هو الذي قتله حمزة يوم أحد.

وكنيته أبو الصّلت لابن كان له اسمه صلت وله يقول:

يا صلتُ إن اباك رهنُ منيّة
مكتوبةٍ لا بد أن يلقاها

وقد ماتت أمه وهو صغير، فطرحه طريح إلى أخواله، وفيه يقول :

باتَ الخيالُ من الصُّليت مؤرقي
يعزى السراة مع الرباب الملثقِ

ما راعني إلا بياضُ وجيهه
تحت الدّجنّة كالسِّراج المشرِق

ولم يوفق الشاعر في حياته فقد ماتت زوجته في وقت مبكر وابنه صغير.

نشأ طريح في دولة بني أمية، واستفرغ شعره في الوليد بن زيد، وكانت أم الوليد ثقفية، وأصبحت صورة الوليد النموذج الذي أراده الشاعر في القدرة والاستحالة والتصور، وبالغ في تحديد معالم الصورة، حتى خرجت عن إطار الشكل المألوف، يقول:

جوادٌ إذا جئته كفاك
السؤال وإن عدتَ عادا

خلائقه كسبيك النُّضا
ر لا يعمل الدهر فيه فسادا

وقد كان الوليد بن زيد يكرمه، وكانت له منزلة ومكانة مرموقة، فكان الوليد، كما قال الأصفهاني، يدني مجلسه، ويجعله أول داخل وآخر خارج، ولم يكن يصدر إلا عن رأيه وكانت مدائحه فيه تتحدد من خلال الصلة الوثيقة التي تشد بينهما، والعهد والصداقة التي تربطهما، والنسب الذي يجمعهما لأن أم الوليد كانت ثقفية.

وحسد الناس طريحا، ولم يكونوا من عامة الناس بل من أهل بيت الوليد، واستعانوا بحماد الرواية، كما يذكر صاحب الأغاني، وقالوا له: والله لقد ذهب طريح بالأمير، فما نالنا منه ليل ولا نهار. فقال حماد: أبلغوني من ينشد الأمير بيتين من الشعر، فأسقط منزلته، فطلبوا إلى الخصي الذي كان يقوم على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم على أن ينشدهما الأمير في خلوة، فإذا سأله مِن قول مَنْ ذا ؟ قال: من قول طريح. والبيتان هما:

سيري ركَابي إلى من تسعدين به
فقد أقمتُ بدار الهون ما صلحا

سيري إلى سيِّد سمْح خلائقُه
ضخمُ الدسيعة قرم يحمل المدحا

وفعل الخصي ما طلب منه، فغضب الوليد، وأمر بأن يمنع طريح من الدخول عليه.
وحدثت القطيعة، واستمرت مدة من الزمن، إلى أن عرف طريح ما فعل به، فاحتال أن يرده من بين الناس، فدنا، فسلم، فلم يرد عليه السلام، فقال طريح يستعطفه ويتضرع إليه:

نام الخلي من الهموم وبتّ
لي ليل أكابده وهمٌّ مُضلِعُ

وسهرتُ لا أسرى ولا في لذة
أرقي وأغفل ما لقيتُ الهجَّعُ

أبغي وجوه مخارجي من تهمة
أزمت عليّ وسدّ منها المطلعُ

جزعا لمعتَبَة الوليد ولم أكن
من قبل ذاكَ من الحوادث أجزعُ

يا ابن الخلائف إن سُخطك لامرئ
أمسيتَ عصمتَه بلاءٌ مقطعُ

فلأنزعن عنّي الذي لم تهوه
إن كان لي ورأيت ذلك منزعُ

فاعطف فداك أبي علىّ توسّعا
وفضيلة فعلى الفضيلة تتبعُ

فقربه، وأدناه وضحك إليه، وعاد له إلى ما كان عليه.

ونقل صاحب الأغاني خبرا عن المدائني فقال: جلس الوليد يوما في مجلس له علم، ودخل عليه أهل بيته ومواليه والشعراء وأصحاب الحوائج فقضاها، وكان أشرف يوم رني له، فقام بعض الشعراء فأنشد، ثم وثب طريح، وهو عن يسار الوليد، وكان أهل بيته عن يمينه، وأخواله عن شماله وهو فيهم، فأنشده:

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم
تطرق عليك الحُنِيُّ والوُلج
طوبي لفرعيْك من هنا وهنا
طوبَى لأعراقك التي تشج
لو قلتُ للسيلِ دَعْ طريقك والـ
موج عليه كالهضب يعتلج
لأساخَ وارتد أو لكان له
في سائر الأرض عنك منعرج

فطرب الوليد، وأمر له بخمسين ألف درهم، وقال: ما أرى أحدا منكم يجيئني اليوم بمثل ما قال خالي، فلا يفسدني بعده شيئا، واحتبس طريحا عنده وأمر ابن عائشة، فغنى في هذا الشعر.

وانقطعت أخباره في زحمة الأحداث التي مرت على الدولة العباسية، ولا نجد إلا إشارات عابرة عن موضعه في تلك الدولة، ويذكر صاحب الأغاني [مجلد 54، ص 317] أن طريحا دخل على أبي جعفر المنصور وهو في الشعراء، فقال له: لا حياك الله ولا بياك ! أما اتقيت الله، ويلك، حيث تقول للوليد بن يزيد:

لو قلت للسيل دع طريقك والـ
موج عليه كالهضب يعتلج
لأساخ وارتد أو لكان له
في سائر الأرض عنك منعرج

فقال له طريح: قد علم الله عز وجل أني قلت ذلك ويدي ممدودة إليه عزّ وجل، وإياه تبارك وتعالى عنيت؛ فقال المنصور: يا ربيع أما ترى هذا التخلص؛ ويذكر صاحب التذكرة الحمدونية أن له في المنصور دالية [ح 4/ 159] ويبدو طريحا قام محاولا للتقرب من خلفاء العباسيين، فوقف عند الشيب طويلا لكنه

يقول في الشيب:

والشيب إن يحلل فإن وراءَه
عمرا يكونُ خلاله متنفسُ
لم ينتقص منّي المشيب قلامة
الآن حين بدا ألبّ وأكيسُ

وفي قصيدة أخرى يقول:

إن الشباب عمًى لأكثر أهله
وتعرّض لمهالك وتقرعُ
والشيبُ للحكماء من سفَه الصبا
بدل تكون له الفضيلة مقنعُ
والشيب زين نوي المروءة والحجى
فيه لهمْ شرف وحقّ مودعُ

لا يبعد الله الشباب فمرحبا
بالشيب حين أوى إليه المرجعُ

فدع البكاء على الشباب وقل له
ما قال عند مصيبة مسترجعُ

ويبدو أن عدم تقريب خلفاء بني العباس له قد جعل الملل يتسرب إلى بعض قصائده، واعترى اليأس معانيه، وسيطر عليه اليأس، والاستسلام المطلق للدهر، وبدا زاهدا، يقول في الدهر:

والدهر ليس بناجٍ من دوائره
حي جَبَان ولا مستأسدٌ بطلُ

ولا دفين غياباتٍ له نفق
تحتَ التراب ولا حوتٌ ولا وعلُ

بل كل شيء سيبلي الدهر جدته
حتى يبيد ويبقى الله والعملُ

أما منزلته الشعرية فقد قال عنه ياقوت إنه شاعر مشهور [مجلد 11 ص22]، وقال عنه عساكر إنه شاعر مجيدا مكين حسن الفصاحة، وأنه مدح السفاح والمنصور، لكن جامع شعره لم يذكر له شيئا من ذلك، ولكن صاحب «التذكرة الحمدونية» ذكر أن له دالية في المنصور، يقول منها:

أقفرُ ممن يحله السندُ
فالمنحنى فالعقيقُ فالجمدُ

لم يبق فيها من المعارف
بعد الحي إلا الرماد والوتدُ

إلى أن يقول:

دع عنك سلمى لغير مقلية
وعدّ مدحا بيوته شردُ

للأفضل الخليفةِ عبد الله
من دون شأوه صعدُ

من معشر لا يشم من خذلوا
عزًا ولا ستذلّ من رفدوا

أنت إمام الهدى الذي أصلح
الله به الناس بعدما فسدوا

قال إسحاق الموصلي: لما بايع الرشيد لولده، وكان فيمن بايع عبد الله بن مصعب ابن الزبير، فلما قدم ليبايع، قال متمثلا بقول طريح الذي قاله في الوليد وفي ابنيه:

لا قصّرا عنها ولا بلغتهما
حتّى يطولَ على يديك طوالها

فاستحسن الرشيد ما تمثّل به، وأجزل صلته.
ووصفه البكري في «سمط اللآلي» [ص 705] بأنه شاعر مجيد من شعراء الدولتين.
ورجح نوري حمودي القيسي أن يكون لبيئة ثقيف الأولى، وهي الطائف، أثر في رقة شعره، وأن الأوزان القصيرة تغلب على أشعارهم.
وقد استشهد له البحتري في حماسته في ثمانية عشر موضعا بخمسين بيتا في أبواب متفرقة يغلب عليها الطابع الأخلاقي والجانب الاجتماعي، وعد أبو هلال العسكري أبياته في مدح الوليد بن زيد من أمدح ما قالت العرب، وهي من الغلو على ما هي عليه، وأكد جودة مديحه في أبيات أخرى، كما عد قوله:

سعيت ابتغاء الشكر فيما صنعت بي
فقصرت مغلوبا وإني لشاكر

من أجود ما قيل في عظم النعمة وقصور الشكر من قديم الشعر.

وعلى الرغم من الاهتمام الذي ناله شعر طريح في كتب الاختيار، والاستشهاد، والسلاسة والرقة التي حفل بها هذا لشعر، فإن كتب التراجم قد أهملت ذكره إلا ابن قتيبة الذي وصفه بأنه شاعر شريف وله عقب بالطائف.

ومات طريح في أيام الخليفة المهدي سنة خمس وستين ومائة.

■ آثاره

لم يصلنا ديوان شعره، لكن نوري حمودي القيسي جمع شعره، ثم استدرك عليه، نشر المجموع أولا عام 1978 بمجلة «حوليات الجامعة التونسية» [ص 103- 139] ثم أعاد نشره ضمن كتاب «شعراء أمويين» جزء 3، واستدرك على هذا المجموع ونشره «بمجلة المجمع العلمي العراقي» [عدد 41 جزء 7، 1991، ص 88] كما جمع شعره بدر أحمر ضيف، الإسكندرية 1987، 127ص.

وقد ضم هذا الجمع قرابة أربعين قصيدة ومقطوعة، موزعة على النحو الآتي: 1 ـ مدح الوليد بن يزيد، ثلاث قصائد؛ 2 ـ مدح خالد القسري، قصيدة واحدة؛ 3 ـ استعطاف، ثلاث قصائد؛ 4 ـ رثاء، قصيدة واحدة؛ 5 ـ يخاطب ابنه، ثلاث قصائد؛ 6 ـ الشيب، أربع قصائد؛ 7 ـ الدهر والموت، ثلاث قصائد؛ 8 ـ حكم، ثلاث قصائد؛ 9 ـ حالة؛ قصيدة واحدة.

■ المصادر والمراجع

● ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق مارجليوث، القاهرة، 1930م، 11/ 22 ـ 25؛ ● البكري، سمط اللآلي، تحقيق عبد العزيز الميمني، مصر، لجنة التأليف والترجمة، 1947، 705؛ ● الأصفهاني، الأغاني، بيروت، دار الثقافة، 1964م 4/ 302-320؛ ● أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، مصر مكتبة المقدسين 1352هـ، 1/ 24، 52؛ 126 ـ 127؛ ● حماسة الخالدين 1/ 14 - 2/ 294؛ ● ابن الشجري، الحماسة الشجرية، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، دمشق، وزارة الثقافة، 1970، 268؛ ● ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس بيروت، دار صادر، 1996م؛ ● الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1960-1969م 8/ 182، 364؛ ● ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، 1949م، 7/ 53؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون دار المعارف، ط2، 1967م، 427؛ ● سيزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي وزملاؤه، جامعة الإمام محمد بن سعود، والرياض، 1983م، مجلد2، جزء3، 220 - 221؛ ● الزنجاني، شرح المضنون به على غير أهله، شرح عبيد الله الكافي نشر إسحاق بنيامين، مصر، 1913م، 179، 186 ـ 187.

د. عفيف عبد الرحمان جمعة
جامعة اليرموك ـ الأردن

الثقفي، أبو وائل الحارث بن كلدة

(ت 13هـ/634م)

أبو وائل الحارث بن كلدة عمرو بن علاج الثقفي، ينتسب إلى ثقيف بالطائف قرب مكّة المكرّمة. ولا نعرف تاريخ ولادته، عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام واختلف المؤرخون في تاريخ وفاته.

قال القفطي: «مات الحارث بن كلدة في أول الإسلام ولم يصحّ إسلامه» [تاريخ الحكماء، 163]، ، ويقول ابن عبد العزيز عن الحارث بن الحارث بن كلدة: «أما أبوه الحارث بن كلدة فمات أوّل الإسلام، ولم يصحّ إسلامه» [الاستيعاب في معرفة الصحّاب، 281].

أما عن وفاته، فالتاريخ الذي نجده أقرب للحقيقة هو عام 13هـ. أمّا بالنسبة إلى إسلامه فلم تسعفنا المصادر بقول قاطع، وإنما هناك إشارات فيها الكثير من الاختلاف أيضا. والذي نطمئن إليه أنه مات أوّل الإسلام ولم يصحّ إسلامه.

ونسب ابن أبي أصيبعة النضر بن الحارث خطأ للحارث بن كلدة، بينما الحقيقة أنّ النضر هو ابن خالة الرسول ﷺ ونسبه الصحيح هو النضر بن الحارث بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار، وهو ثقفي [جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 8/ 384].

درس الحارث بن كلدة الطب في جنديسابور في فارس، حيث رحل إليها مرتين، وتدرّب في بيمارستانها، ومارس الطب في فارس، واشتهر فيها، وحصل على مال كثير. كما عاد إلى الطائف مستصحبا معه جاريته التي سماها سميّة، وهي التي قيل إنّها صارت بعدئذ أم زياد بن أبيه من أبي سفيان. واشتهر طبّه بين العرب، وتعلّم الحارث الضرب على العود بفارس واليمن. ولم يكتف بتعلّمه في فارس، بل أخذ الطب عن أهل اليمن أيضا، وتمرّن هناك، وعرف الدواء وهو أوّل من تخرّج علميّا من أبناء الجزيرة، وسمّي طبيب العرب [فيليب حتّي، تاريخ العرب المطوّل، 324].

وللحارث مكانة متميّزة في تاريخ الطب عند العرب، وهذا ما أبرزه السامرّائي الذي يقول: «معلوماتنا عن الحارث بن كلدة تحمل قيمة تاريخية بالإضافة إلى القيمة الطبية. فهو أوّل طبيب عربي اطّلع على الطبّ اليوناني، ودرسه على أطبّائه. وأول من مارسه منهم على القواعد العلمية لا التقليدية. كما يمكن اعتبار طبّ الحارث مقياسا للتطوّرات والتحسينات التي أدخلت على الطبّ العربي فيما بين زمانه بالجزيرة العربية وعصر الترجمة في صدر الخلافة العباسية، حين صار الطب خاضعا لقواعد مثبتة لا يلعب بها الخيال والافتراض والتقليد [مختصر تاريخ الطب العربي، 2/ 278].

آثاره

تذكر كتب التراث أنه قابل كسرى أنو شروان

(531 ـ 579هـ) عامل فارس، ودار بينهما حوار مستفيض، وردت فيه نصائح طبية كان عرب الجزيرة يمارسونها قبل الإسلام. كما يذكر أنّ كسرى أمر بتسجيل ذلك الحديث، وأن ما دوّن منه صار كتابا بعد ذلك ألحق باسم الحارث على أنّه لم يصل إلينا أثر من هذا الكتاب. وتتضمّن المحاورة تعريف الطب والمرض، ومعلومات عن العلاج بالحمّام، والحجامة، وبالدواء، وحكما صحية كثيرة تبنّاها الأطبّاء العرب بعدئذ، وصارت لهم مبادىء مشوا عليها في ممارستهم، ووضع مؤلفاتهم [السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، 1/ 269].

■ المصادر والمراجع

● ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد السيد، القاهرة 1955، 54؛ ● القفطي، تاريخ الحكماء، 163؛ ● القفطي، عيون الأنباء، دار الفكر بيروت، 1956، 1/ 13؛ ● ابن الأثير، أسد الغابة، تح. محمد ابراهيم البنا ورفاقه، دار الشعب، 1970، 1/ 384.

د. محمود الحاج قاسم محمد
طبيب ـ الموصل ـ العراق

■ الثلاثي الحبابي، أحمد بن أحمد

■ ■ ■

(1118هـ/1706م ـ 1199هـ/1785م)

القاضي حافظ الثبت، أحمد بن أحمد بن عبد الهادي بن صالح قاطن، مولود بقرية حبابة من بلاد اليمن، وبها قرأ [البدر الطالع، 128؛ نشر العرف، 274؛ هجر القلم، 1121]. ثم انتقل إلى مدينة شباح كوكبان، فنشأ بها، وأخذ عن والده في الفقه، وعن القاضي علي بن عبد الوهاب النزيلي في الحساب والفرائض، وعن السيد صلاح بن يحيى الخطيب الشبامي في النحو والقراءات، وعن السيد العلاّمة علي بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر، مع تكسّبه بالتجارة في مبادىء عمره بشبام، [نشر العرف، 274].

ثم انتقل إلى صنعاء، فأخذ بها عن المولى أحمد بن عبد الرحمن الشامي في النحو والصرف والوضع والمعاني والبيان والمنطق، وفي الأصول الفقهيّة، وأخذ عن المولى هاشم بن يحيى الشامي، وقرأ كذلك على العلاّمة صالح بن علي اليماني، وعلى الشيخ يوسف بن يوسف، وأخذ عن الحافظ إبراهيم بن خالد في الفقه؛ واستجاز من مشايخه المذكورين، ومن الشيخ محمد بن علاء الدين الزجاجي، والشيخ محمد بن الطيّب المغربي المدني، والشيخ محمد بن حيوه السندي المكّي، وغيرهم.

وأخذ عنه عدد من الأعلام كالوزير الشهير العلاّمة الحسن بن علي حنش، والسيد العلامة محمد بن أحمد بن الحسين بن علي بن المتوكّل، والسيّد العلاّمة محمد بن الحسين الحوثي، وغيرهم كثير [نشر العرف، 274 ـ 275].

وقد ولاّه المنصور الحسين بن القاسم القضاء ثمّ عزله، ثمّ ولاّه ابنه المهدي عبّاس القضاء في ثُلأ، وجعل إليه ولاية الوقف هنالك، ثمّ سجنه سنة 1188هـ، وأمر بهدم منزله في ثلأ وحبسه، ثمّ أفرج عنه، وعوّضه عنه دارا في صنعاء، وولاّه القضاء الأكبر في صنعاء كذلك؛ ثمّ سجنه مرّة أخرى، ولم يفرج عنه إلاّ المنصور علي بن المهدي عبّاس بعد وفاة والده؛ فخرج وقد ثقل سمعه، وضعفت قواه لكبر سنّه مع أنّه كان مشهوراً بالعفّة والنزاهة وعدم المحاباة في أيّ أمر من الأمور لا لصغير ولا لكبير؛ ولكنّه مع كلّ ماحدث له ظلّ مستمرًا في التدريس لمن يرغب في الأخذ عنه [هجر الظلم، 1121؛ البدر الطالع، 128 ـ 129؛ نشر العرف، 276].

وقد كان زاهدًا في الدنيا، شغوفًا بعلم التصوّف وأهله، تبدر منه بوادر متى آل أمره إلى دعواه انكشف [نشر العرف، 279]. كما كان شغوفًا بحبّ مدينة شبام كوكبان لأنّها دار نشأته، وقد وصفها في عدد من مؤلفاته.

آثاره

1 ـ مختصر الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانيّ؛ 2 ـ قرّة العيون في أسانيد الفنون، وهو أجلّ مؤلفاته في هذا الفنّ، فإنّه لا يكاد يشذّ عنه كتاب إلاّ وذكر إسناده إلى مؤلّفه، وترجم للمؤلفين في هوامشه؛ 3 ـ الأعلام بأسانيد كتب أهل البيت عليهم السلام؛ 4 ـ نفحات الغوالي بالأسانيد العوالي؛ 5 ـ تحفة الإخوان بسند سيد ولد عدنان، وهو كتاب جليل، شرح به قصيدة له في سند صحيح البخاري، وترجم في الشرح كلّ رجل منهم، واستطرد فوائد ومهمّات عديدة يحتاجها طالب الفنّ؛ 6 ـ إتحاف الأحباب بدمية القصر الناعتة لمحاسن بعض أهل العصر، وهو آخر مؤلفاته، وهو بالقصر؛ 7 ـ شرح العقد الوسيم في أحكام الجار والمجرور والظرف، وما لكلّ منهما من التقسيم.

له في الفرائض: 8 ـ شرح قاموس الإمام أحمد بن يحيى بن المرتضى، وهو من أعجب المختصرات وأجمعها للمسائل مع خلوّه من الإسهاب والتطويل [نشر العرف، 275؛ هجر القلم، 1022].

المصادر والمراجع

- الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تح. حسين العمري، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1998؛
- زبارة، محمد بن محمد، تقاريظ نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف، مركز الدراسات والبحوث، اليمن/صنعاء؛
- الأكوع، إسماعيل بن علي، هجر القلم ومعاقله في اليمن، الجزء الثاني، دار الفكر المعاصر/بيروت، دار الفكر/دمشق، 1995 .

د. صلاح علي بن مدشل
جامعة حضرموت ـ اليمن

الثلائي، شمس الدين يوسف بن عثمان

(حوالي 752هـ/1351م ـ 832هـ/1429م)

شمس الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن عثمان اليماني الثلائي الزيدي المتوفى سنة 832هـ/ 1429م مصنف شهير من كبار أئمة الزيدية في اليمن، عرف عنه شدة الذكاء وتعلّقه بدراسة العلوم الشرعية منذ صغره.

وذكر أنه حفظ القرآن الكريم ومعظم الأحكام الفقهية، وكان أحد دعاة الفكر الزيدي الذي تشبّع به على أيدي علماء عصره. لم أقف على تاريخ ولادته والذي وجدته من خلال دراسة حياته أنه كان معمّرا وأنه تجاوز الثمانين عامًا قليلاً، ولما كانت سنة وفاته هي 832هـ، فمن التقريبي أنه ولد بحدود سنة 752هـ/ 1351م.

ولد شيخنا يوسف في مدينة ثلا وأقام بهجرة العين من تلك المدينة، وتوفّي بها في جمادى الآخرة وإليها نسب واشتهر فسمّاه مؤلفو الطبقات بالثلائي.

أقام في مسجد المدينة طالبا ثمّ أستاذا فترة طويلة. ثمّ وضع له مجلس خاص كان يلقي فيه دروسه ومواعظه؛ وكان طلاب العلم يأتون إليه من كلّ مكان، فيأخذون عنه كما ذكر الشوكاني، جميع العلوم الشرعية. وقد عرف عنه تبحره في تلك العلوم، إضافة إلى علم الحساب وعلم المساحة، وله عدّة رسائل في تفسير العديد من آيات القرآن الكريم بما يتفق والفكر الزيدي.

آثاره

1 ـ الجواهر الغرر في كشف أسرار الدرر، وهو كتاب جيد في الفرائض؛ 2 ـ برهان التحقيق وصناعة التدقيق، وهو كتاب في المساحة والحساب؛ 3 ـ الثمرات اليانعة والأحكام الموضحة القاطعة في تفسير آيات الأحكام؛ 4 ـ الرياض الظاهرة والجواهر الفاخرة واليواقيت الباهرة الموضحة لغرائب التذكرة الفاخرة للمطهّر.. إضافة إلى العديد من الرسائل الأخرى ذات العلاقة بالفقه والإسلام والتفسير.

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، 2/ 295؛ ● الشوكاني، محمد بن يوسف، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، 2/ 350؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مج 7/ 13.

د. دريد عبد القادر نوري
جامعة الموصل ـ العراق

الثلجي، أبو عبد الله محمد بن شجاع

(181هـ/797م - 266هـ/879م)

أبو عبد الله محمد بن شجاع البغدادي الحنفي الثلجي، أو ابن الثلجي، ولكن المشهور الثلجي، والثلجي كما يقول ابن الأثير نسبة إلى ثلج بن عمرو بن مالك بن عبد مناف وليس إلى بيع الثلج [اللباب، 1/ 171]. ولد سنة 181هـ/ 797م في بغداد، فقيه، ومحدث، وحافظ متكلم من أهل العراق. وكان فقيه العراق في وقته، والمقدّم في الفقه والحديث مع ورع وعبادة.

قال عنه الذهبي: «كان من بحور العلم صاحب تعبّد وتهجّد وتلاوة» [سير أعلام النبلاء، 10/ 269]، ورغم هذه المكانة إلاّ أنّ أهل الحديث يضعفونه، وإن كان في نفسه من الكاملين وكان له ميل إلى المعتزلة. وقيل إنّ الخليفة المتوكّل على الله (232هـ/ 847م - 247هـ/ 861م) كان يرغب بتولّيه القضاء، ولكن قيل له إنّه من أصحاب بشر المريسي، والمريسي هو أبو عبد الله فقيه معتزلي عارف بالفلسفة يرمى بالزندقة (ت 218هـ/ 833م)؛ فعدل المتوكل عن ذلك [تاريخ بغداد، 7/ 56]، ويذكر ابن قطلوبغا أنه طُلب للقضاء، فقال إنما يصلح القضاء لأجل ثلاثة، لمن يكتسب مالا أو جاها أو ذكرا؛ فأما أنا فمالي وافر، وأنا غنيّ وإن الأمير يوجّه إليّ بالمال لأفرّقه ولو احتجت إلى شيء منه لأخذته، وأما الذكر فقد سبق لي عند من يقصدنا من أهل العلم والفقه بما فيه الكفاية [تاج التراجم في طبقات الحنابلة، 198]، وسئل عنه أحمد بن حنبل فقال: «مبتدع صاحب هوى»، وقال فيه زكريا بن محمد الساجي: «فأما محمد بن شجاع فكان كذابا احتال في إبطال حديث رسول الله نصرة لأبي حنيفة».

وذكر أنه كان يضع أحاديث في التشبيه، وينسبها إلى أصحاب الحديث يثلبهم بذلك. وكان متعصبا للمذهب الحنفي حتّى أنه كان يقول عن الإمام الشافعي: ومن كان الشافعي؟ إنما كان يصحب بربرا المغنّي، ولم يزل يقول هذا إلى أن حضرته الوفاة، فقال: رحم الله أبا عبد الله الشافعي، وذكر علمه، وقال: رجعت عمّا كنت أقول فيه [الوافي بالوفيّات، 3/ 148] كما كان ضدّ الحنابلة ينال من الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه، وكان يقول أصحاب أحمد بن حنبل يحتاجون أن يذبحوا [ميزان الاعتدال، 3/ 577]، وكان يقول بالاعتزال وقد كان عالما ورعا صاحب عبادة وزهد؛ درس علومه على شيوخ عصره، ومنهم: الحسن بن زياد اللؤلؤي نسبة إلى بيع اللؤلؤ وهو من أصحاب الإمام أبي حنيفة (ت 204هـ) [تاريخ بغداد، 7/ 314]؛ ويحيى بن آدم القرشي (ت 203هـ/ 818م) [تذكرة الحفاظ، 1/ 359]؛ وإسماعيل بن علية؛ ووكيع بن الجراح بن الرواسي، وأبو سفيان (ت 197هـ/ 812م) محدث العراق

[حلية الأولياء، 8/ 368]؛ ومحمد بن عمر الواقدي (ت 207هـ/ 822م) مؤرخ ومحدث مشهور [تاريخ بغداد 3/ 3 ـ 21]؛ وحبان بن هلال (ت 216هـ/ 831م) [ميزان الاعتدال، 3/ 577]؛ واليزيدي [ميزان الاعتدال، 3/ 577]؛ و الحسن بن أبي مالك [الفوائد البهية، 171، 172].

ونظرا إلى مكانته العلمية وذيوع صيته كان مقصدا لطلاّب العلم، ومن روى عنه: يعقوب بن شيبة البصري نزيل بغداد (ت 262هـ/ 875م) من علماء الحديث يتفقه على مذهب الإمام مالك [تذكرة الحفاظ، 2/ 629]؛ ومحمد بن أحمد بن يعقوب بن أبي شيبة [أنساب السمعاني، 3/ 144].

آثاره

كانت حصيلة دراسته مجموعة من المؤلفات منها:

1 ـ كتاب المناسك، في نيف وستين جزءًا؛ 2 ـ كتاب تصحيح الآثار؛ 3 ـ كتاب النوادر؛ 4 ـ كتاب الرد على المشبهة؛ 5 ـ كتاب المضاربة؛ 6 ـ كتاب الكفارات.

المصادر والمراجع

● ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست 305، طبعة الاستقامة وفيه أنّه توفّي سنة 267هـ او 265هـ؛ ● الشيرازي، أبو إسحاق، طبقات الفقهاء 118، بغداد 1356هـ؛ ● الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، 5/ 350؛ ● السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور، الأنساب، طبعة حيدر آباد الركن، 3/ 144 ـ 145؛ ● ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد، اللباب في تهذيب الأنساب، 1/ 186، القاهرة، مكتبة القدسي 1357هـ؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، تذكرة الحفاظ، طبعة حيدر آباد الدكن، 2/ 629؛ ● م. ن. المشتبه؛ وفيه آن وفاته 267هـ، تح. محمد علي البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية 1962، 1/ 89؛ ● م.ن، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح. علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، 3/ 71 ـ 72؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، فيسبادن، 3/ 148؛ ● اليافعي، عبد الله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، بيروت 1970، 2/ 180؛ ● القرشي، محيي الدين عبد القادر، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، طبعة حيدر آباد الدكن، 2/ 60 ـ 61؛ ● ابن قطلوبغا، زين الدين قاسم، تاج التراجم في طبقات الحنفية، تح. عامر عطا عبد الغني (رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربي بغداد 1996م)، 197؛ ● طاشكبري زادة، أحمد بن مصطفى، طبقات الفقهاء، تح. أحمد نيلة، الموصل، مطبعة نينوى 1954، 40؛ ● ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة 1350هـ، 2/ 151؛ ● اللكنوي الهندي، محمد عبد الحي، الفوائد البهية في طبقات الحنفية، مصر مطبعة السعادة 1324هـ، 171 ـ 172؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله،

مشف الظنون، بغداد، مكتبة المثنى (أوفسيت)، 1/ 346، 410، 2/ 1453، 1459، 1981؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، بغداد المثنى (أوفسيت)، 2/ 556؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 10/ 64.

د. نبيلة عبد المنعم داود

مركز إحياء التراث العربي - بغداد

ثمامة، ابن أشرس النّميري

(ت 213هـ/833م)

ثمامة بن أشرس النميري أبو معن البصري، أحد المعتزلة، جاء إلى بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد، واتّصل به وبالمأمون [الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، 371]. وهو أحد القائلين بخلق القرآن [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 484]، وكان واحد دهره في العلم والأدب، وكان جدلا حاذقا [المرتضى، طبقات المعتزلة، 62]، وقد دعا المأمون إلى الاعتزال.

من شيوخ بشر بن المعتمد، وكان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ/ 868م) أحد تلاميذ ثمامة بن أشرس، حيث روى عنه. ومن تلاميذ ثمامة بن أشرس أيضًا أبو الهذيل. وكان ثمامة من الندماء الظرفاء، وهو صاحب ملح، وله أخبار ونوادر يذكرها الجاحظ [ابن النديم، الفهرست، 207؛ ابن حجر، لسان الميزان، 2/ 84].

ويبدو أنّ ثمامة قام بعمل لم يقبل به الرشيد، ممّا أدّى بالأخير إلى حبسه بسبب ميله إلى البرامكة، والاختصاص بهم، فنقم الرشيد عليه وعلى البرامكة [الجاحظ، البيان والتبين، 1/ 105؛ ابن النديم، الفهرست، 207].

بلغ منزلة كبيرة ورفيعة وجليلة عند المأمون، وكانت رغبة الخليفة المأمون في أن يتقلّد ثمامة الوزارة، إلاّ أنّ الأخير امتنع عن ذلك، «وله في ذلك كلام مشهور مدوّن يخاطب المأمون حتّى عفاه» [الشهرستاني، الملل والنحل، 91].

وأشار ثمامة على المأمون بأن يستوزر أحمد بن أبي خالد بدلا منه [ابن النديم، الفهرست، 207].

من أقواله «أنّ الأفعال كلّها متولّدة لا فاعل لها، وأنّ الاستطاعة هي السلامة وصحّة الجوارح، وأنّ العقل هو الذي يحسّ ويفجّ فتجب معرفة الله قبل ورود الشرع، وأن لا

فعل للإنسان إلاّ الإرادة وما عداها فهو حدث» [المقريزي، المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار، 347]. والتقى ثمامة في أحد مجالس الخليفة المأمون بيحيى بن أكثم، وجرت بينهما مناظرة حول العشق، فقال يحيى: «سوانح تسنح للعاشق يؤثرها، ويهتمّ بها تسمّى عشقا»، فردّ عليه ثمامة قائلا: «يا يحيى أنت بمسائل الفقه أبصر منك بهذا الباب، ونحن أحذق منك، فقال المأمون: فهات ما عندك»، فقال ثمامة: «يا أمير المؤمنين إذا امتزجت جواهر النفوس بوصل المشاكلة نتجت لمع نور ساطع تستضيء به بواصر العقل وتهتزّ لإشراقه الحياة، ويتصوّر من ذلك اللمع نور خاص بالنفس، فتصل بجوهرها إلى ما يسمّى عشقا، فقال المأمون: هذا وأبيك الجواب» [الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 7/ 147 ـ 148].

آثاره

ذكر ابن النديم في الفهرست مؤلفات ثمامة بن أشرس، وهي:

1 ـ كتاب الحجّة؛ 2 ـ كتاب الخصوص والعموم في الوعيد؛ 3 ـ كتاب المعارف وهو المعرفة؛ 4 ـ كتاب على جميع من قال بالمخلوق؛ 5 ـ كتاب الردّ على المشبّهة؛ 6 ـ كتاب المخلوق على المجبرة؛ 7 ـ كتاب نعيم أهل الجنّة؛ 8 ـ كتاب السنن.

المصادر والمراجع

● الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح. وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط5، القاهرة، 1405 هـ/ 1985م، 1/ 301؛ ● ابن النديم، أبو الفرج، الفهرست، تح. رضا تجدد، طهران، 1391 هـ/ 1971م، 207؛ ● الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، 3/ 145؛ ● الذهبي، أبو عبد الله محمد، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح. البجاوي علي محمد، القسم الأوّل، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت، 1383هـ/ 1963م، 71؛ ● الذهبي، أبو عبد الله محمد، سير أعلام النبلاء، تح. محيي الدين أبي سعيد عمر بن غدقة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1417 هـ/ 1997م، 8/ 484؛ ● المرتضى، أحمد بن يحيى، طبقات المعتزلة، تح. سوسنة ديفيلد ـ فلزر، بيروت، 1380 هـ/ 1961م، 62؛ ● المقريزي، تقيّ الدين أبو العباس، المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار، مكتبة المثنى، بغداد د.ت، 2/ 347 .

د. غانم هاشم خضير السلطاني
جامعة المستنصرية ـ العراق

الثمانيني، أبو القاسم عمر بن ثابت

(ت 442هـ/1051م)

هو أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانيني الضرير. نحويّ وأديب ولد بثمانين وهي بلدة صغيرة بجزيرة ابن عمر بأرض الموصل بالعراق. وزعموا أنّ هذه البليدة سمّيت كذلك لأنّ الذين كانوا في سفينة نوح عليه السلام، وعددهم في الأسطورة ثمانون، قد بنوا فيها بعد الطوفان أوّل بلدة [معجم البلدان، 2/ 98]. درس النحو على أبي الفتح عثمان بن جنّي (ت 392) وروى عنه كتاب «اللّمع» و«التصريف» قبل أن يشرحهما شرحا «انتفع بالاشتغال عليه جمع كبير» [وفيات الأعيان 3/ 443].

اقترن اسمه بنحويّ معاصر له هو أبو القاسم ابن برهان (ت 456هـ) إذ كانا «متعارضين» على حدّ عبارة ابن خلكان [وفيات، 3/ 443]، ومعنى التعارض المقصود هو التنافس في تدريس العربية ببغداد، فقد كان الثمانيني يدرّس العوام بينما كان ابن برهان يقرئ الخواص.

من تلامذته: الشريف أبو المعمر يحيى بن محمد بن طباطبا العلوي الحسيني، وإسماعيل بن المؤمل الإسكافي، ومحمد بن عقيل بن عبد الواحد الكاتب الدسكري، وأبو عبد الله الحلواني.

اجتمت كلّ المصادر على أنّ وفاته كانت سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة للهجرة إلاّ ياقوتا فإنّه خالفهم في معجم البلدان [2/ 98]، وذكر أنّه مات سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة للهجرة (482هـ)، لكن الحموي نفسه ذكر التاريخ الأوّل في معجم الأدباء [16/ 57]، فلعلّ التاريخ المذكور في معجم البلدان تصحيف.

آثاره

1 ـ كتاب شرح اللمع لابن جني. ذكر الزركلي أنّه مخطوط في أربعة مجلدات؛ 2 ـ كتاب المفيد في النحو؛ 3 ـ كتاب شرح التصريف الملوكي لابن جني.

المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تح. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1/ 1993، 16/ 57؛ ● الحموي، معجم البلدان. تح. فريد عبد العزيز الجندي دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان ط1، 1990، 2/ 98؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان د.ت، 3/ 443 ـ 444؛ ● الذهبي، الحافظ، شمس الدين محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، تح. صلاح الدين المنجد، وفؤاد السيد، الكويت 1966، 3/ 200؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، ط1، مصر،

1991، 220؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العربيّة بيروت، لبنان، د.ت، 2/ 217؛ ● الحنبلي، الإمام عبد الحيّ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط القاهرة 1350هـ، 3/ 269؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط. 14، بيروت 1999، 5/ 43.

د. توفيق قريرة
جامعة منّوبة ـ تونس

الثميني، ضياء الدين عبد العزيز بن إبراهيم

(1133هـ/1720م ـ 1223هـ/1808م)

ضيا الدين عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد اللّه المصعبي الثميني، داعية فقيه إباضي. لم تحسم المصادر مسألة مكان ولادته، فقد يكون ولد بمدينة وارجلان أو مدينة بني يسجن. أما نسبه فينتهي إلى أبي حفص عمر بن حفص الهنتاتي جدّ الأسرة الحفصيّة التي خلفت الدّولة الموحّدية في الملك، وهي من قبيلة «مصمودة» البربريّة. هاجر أجداد الثميني من مدينة «يجرن» بـ«الساقية الحمراء» جنوب «المغرب الأقصى» واستقرّوا بوادي ميزاب.

نشأ الثميني في القرن الثامن عشر في عصر تسوده الفتن وانعدام الأمن في المنطقة وسوء الأحوال الاجتماعية والسياسية، وكثر فيه ظلم الحكام، وانتشر الجهل أو «هو عصر الجهل» [بحاز إبراهيم، محاضرات الأيام الدراسية حول الثميني، 129]، وساعد على ذلك ضعف الحكم العثماني، وتكالب الأطماع الأوروبية على الجزائر .

نشأ عبد العزيز الثميني بمدينة «أورجلان» حيث قضى معظم شبابه في عزّ وسَعَةٍ ضمْنَ أسرة متديّنة ثريّة معتدّة بنفسها، طبعته بالتديّن، والإصلاح، وحبّ العمل، والجدّ. وقد قرأ القرآن في وقت قصير، واستوعب كلّ ما يُدرّس بالكتاب وفي مجالس العلماء القليلين بأورْجلان من مبادىء الفقه والتوحيد. ولمّا لم يجد المزيد انقطع إلى أملاك أبيه يُعينه في إدارتها، لكن ذلك لم يطمس منه حبّ العلم والشغف به. وفي سنة 1160هـ سمع برجوع الشيخ «أبي زكرياء يحيى بن صالح» من مدينة «جربة» بـ«تونس» واستقْرارِهِ في بني يزجن وفَتْحِه مدرسة بها، فارتحل إليه وانتسب إلي مدرسته [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، 5/ 239].

عرف فيه شيخُه النّبوغَ والرغبة فقرّبه، واعتنى به في الفقه، والأصول، وأصول الدين، والمنطق، وفي النحو، والصرف، والبلاغة، والعروض، وفي علم الفلك، وعلم الأخلاق

التي هي علم النّفس، والتربية إذّاك. فعكف عليها في لهفة وظمإ ودرسها بعمق وإتقان، وقد ساعده على ذلك ما تميّز به من ذكاء نادر وحافظةٍ قويّة وإرادة حديديّة. وفي ظرف عقد من التعلّم صار أكبر عالم في وادي ميزاب يُشار إليه بالبنان في شمال إفريقيّة [محمد علي دبوز، م.س، 266 - 267].

لم ترد أخبار عن جلوس الشيخ الثميني إلى غيره من المشايخ، إلاّ أن تعلّقه الشديد بالشيخ أبي حفص بن رمضان التلاتي الذي هاجر إلى مصر قادما إليها من جربة، توحي بوجود علاقة به، وكان التراسل بينهما مستمرّا، وقد اشتغل بمؤلفاته بالشرح والتعليق والتلخيص، وكان يطالبه بمزيد من الكتب.

وبعد التمكّن من العلم عكف الثميني على التدريس، وممن تتلمذ عليه ابن أخته الحاج إبراهيم بن بيحمان، والشيخ أبو يعقوب يوسف بن عدّون، وقد استخلفه في مسجد بني يسجن لما عجز...

استغلّ الشيخ منبر المسجد لإصلاح المجتمع والدّعوة إلى العلم والنهضة الحديثة فكان في دروسه شجاعا وصريحا، يهاجم البدع والتّعصّب المذهبي والقبلي والجهوي وأنصار الجهل والفتن، لا يداهنهم ولا يلين معهم ويدعو النّاس إلى الدين الصحيح وإلى الصفاء والأخوّة الإسلاميّة، كما كان يشجّع على العلم والعمل والنشاط والعمران ويستجيب لدعوات تلاميذه وأنصار النّهضة في المدن الميزابيّة المجاورة للوعظ والفتوى في مساجدهم ودورِ عشائرهم؛ كما كان علماء زمانه في المغرب يقدّرونه ويكاتبونه. وكانت الأسئلة الشّرعيّة تنهال عليه من أنحاء الجزائر وغيرها.

ولئن كان الشّيخ عبد العزيز أباضيّا من كبارهم، فلم يكن يتعصّب لمذهب في الدّرس والبحث والتّنقيب وجمْع المادّة لكُتُبِه، بل كان يدرّس كتب المالكيّة والحنفيّة والمذاهب الكبرى كلّها ويعرّف آراءها وعقائدها من كتب أصحابها، ويقارن بين أقوال المذهب فيرجّح الصّحيح بالأدلّة والبرهان وتجد في كتبه الفقهيّة وغيرها أقوال المذاهب الكبرى: الأباضي، والمذاهب الأربعة، والمذهب المعتزلي، والشيعي، يناقش أقوالها على ضوء الكتاب والسنّة فيرجّح ما يرجّح بدليل منهما [عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، 19].

■ آثاره

عرف عن الشيخ الثميني اشتغاله بالكتابة وانصرافه إلى التأليف، فقد ترك أعمالا كثيرة، منها المطبوع ومنها ما هو تحت الطبع، والكثير منها لا يزال مخطوطا، على أنه محفوظ بعناية في مكتبة «الاستقامة»، وكانت هذه المخطوطات محفوظة بإحدى المكتبات بتونس ثمّ تمّ نقلها في سنة 1990 إلى مدينة بني يسجن حيث هي الآن.

1 - النيل، وهو موسوعة فقهية، تلخص الأحكام الفقهية والاجتهادات والآراء التي صدرت عن العلماء المسلمين في مختلف العصور والمذاهب، وخاصة المذهب الأباضي منها. انتهج فيه المؤلّف أسلوب الاختصار، وتوجد نسختان من «النيل» بخطّ المؤلّف في مكتبة الاستقامة في بني يسجن. وقد طبعت النسخة الموجزة في المطبعة البارونيّة بمصر سنة 1305هـ، وقد سمّاه المؤلّف «النيل» وأضاف إليه المتأخرون

«وشفاء العليل». قال: سميته «النيل» رجاء من الله سبحانه وتعالى أن ينفع به كلّ من قرأه أو حصله أو سعى في شيء منه كلّ وقت بعد عصره.

حقق الكتاب الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي، وطبع في ثلاثة أجزاء، ونظمه الشيخ خلفان بن جميل العماني، وطبع في مصر سنة 1961 في مجلّدين، تبلغ الأبيات فيهما حوالي ثمانية وعشرين ألف بيت عنوانه «سلك الدرر الحاوي غرر الأثر»، ومن أشهر الذين شرحوه: الشيخ محمد بن يوسف اطفيّش، صدرت الطبعة الأخيرة منه في بيروت في 17 مجلّدا، نظمه الشيخ البطاشي العماني في مائة وأربعة وعشرين ألف بيت سماه «سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب». وقد ترجم بعض أقسام الكتاب إلى الفرنسية المستشرق زابيس وقد كانت محاكم الاستئناف الفرنسية تعتمد على هذه الترجمة بالجزائر في القضايا الأباضية التي ترفع إليها وقت الاحتلال. وترجم باب الوصايا منه إلى الفرنسية أيضًا «أبو معقل الحاج صالح بن محمد الغرداوي» [الثميني، النيل، م.س، 1/ 15]؛ 2 ـ التكميل لما أخلّ به كتاب النيل، وطبع في سنة 1925 بتحقيق محمد بن صالح الثميني، وهو اختصار لكتاب «أصول الأرضين» في أحكام العمران المدني والريفي. لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر المتوفى سنة 504هـ. توجد نسخة بخطّ المؤلف في مكتبة الاستقامة ببني يسجن؛ 3 ـ النّور، وهو شرح للمنظومة النونيّة في علم الكلام للشيخ «أبي نصر فتح بن نوح»، ولأهمّية المنظومة وحاجة النهضة الحديثة إليها شرحها الشيخ شرحا وافيا، طُبع في مصر طبعا حجريّا سنة 1306هـ، واعيد طبعه في الجزائر بدون تغيير سنة 1981م؛ 4 ـ الورد البسام في رياض الأحكام، وهو كتاب في أحكام القضاء، وهو التكميل الثاني لكتاب النيل، ، يقول الشيخ الثميني: سنح لي في خاطري ـ بعد حين ـ أن أثلّثهما بمختصر بعض ما فيهما ويزيد بالكثير الذي لا بدّ منه عليهما. . . وهو مختصر من كتاب ديوان المشايخ. حقق «الورد البسام» محمد بن صالح الثميني، وطبعه في المطبعة التونسية سنة 1345هـ ونظمه قاضي القضاة سيف بن محمد بن شيخان الأغبري العماني سماه: «فتح الأكمام عن الورد البسام في رياض الأحكام»، وطبعته وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان سنة 1981م؛ 5 ـ الأسرار النورانية عن المنظومة الرائية، نظم أبو نصر فتح بن نوح الملوشائي، وهو من علماء ليبيا في القرن السابع الهجري، القصيدة الرائية في موضوع الصلاة وأهمّيتها وأحكامها، وهي مطبوعة. تناولها بالشرح كثيرون، منهم، أبو حفص عمر بن رمضان التلاتي، سماها: «الأزهار الرياضية على المنظومة الرائية»، وهي مخطوطة اهتمّ بها واختصرها الشيخ عبد العزيز الثميني وسمّاها: «الأسرار النورانية على المنظومة الرائية»، طبعت بمصر طباعة حجرية سنة 1306هـ؛ 6 ـ معالم الدين، اشتهر، بمعالم الدين في الفلسفة وأصول الدين. طبع دون تحقيق من طرف وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان سنة 1986م . تناوله الباحث عمر إسماعيل في رسالة ماجستير ونوقشت في جامعة الجزائر، وهو كتاب في علم الكلام

ألّفه على طريقة كتاب المواقف الفلسفية للعضد الإيجي تعرّض فيه لأقوال المذاهب الإسلامية وناقشها ووازن بينها، منه نسخة بخطّ المؤلّف في مكتبة الاستقامة في بني يسجن، وقد شرح جزءا من هذا الكتاب الشيخ محمد بن يوسف اطفيش؛ 7 ـ التاج المنظوم من درر المنهاج المعلوم، هذا العمل هو اختصار لكتب، «منهاج الطالبين وبلاغ الراغبين» في موضوع التوحيد والفقه، للشيخ خميّس بن سعيد الشقصي العماني. طبعته وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان؛ 8 ـ عقد الجواهر من بحر القناطر، وهو في الأخلاق على نحو فلسفيّ، تضمّن الفلسفة الشرعية، والأخلاق، والآداب الإسلامية. مخطوط في جزئين بخزائن ميزاب؛ 9 ـ تعاظُمُ المَوْجَيْنِ، وهو شرح لكتاب «مرجُ البحرين» للشيخ «أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي» من علماء القرن السادس، وقد أفْرَغَهُ الشيخ عبد العزيز في قالب من البيان بديع، ولم يتمّه؛ 10 ـ مختصر حواشي الترتيب لمسند «الربيع بن حبيب»، في الحديث، جعله في ثلاثة مجلّدات، وأصلُ الحاشية لـ«أبي ستة محمد بن عمر القصْبي» الجِرْبِيّ؛ 11 ـ المصباح، وهو مختصر من كِتَابَيْ: «مسألة»، و«الألواح»، للشيخ «أبي العبّاس أحمد بن محمد بن أبي بكر»، اختصره وكَتَبَهُ بأسلوبٍ قويّ فصيح. وللشيخ رسائل كثيرة توجد في خزائن ميزاب تتضمّن أبحاثا فقهيّة، وأغلبها أجوبة عن المسائل الشّرعيّة التي كان يُستفتى فيها؛ لو جُمعت لكانت كتابًا مهمّا [علي دبّوز، النهضة، م.س، 275].

المصادر والمراجع

● عمر، إسماعيل، ضياء الدين عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني: حياته وآثاره، غرداية، 1999، 75؛ ● محاضرات الأيام الدراسية حول فكر ضياء الدين عبد العزيز الثميني، بإشراف الجمعية الثقافية القطبية، بني يزجن، غرداية، جنوب الجزائر، أيام 17 إلى 19 جوان (حزيران) 1999؛ ● معجم أعلام الأباضية: قسم المغرب الإسلامي، بيروت، 2000، 2/ 255؛ ● دبّور، محمد علي، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، المطبعة التعاونيّة، الجزائر، 1385هـ؛ ● كحالة، محمد رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنّى، دار إحياء التراث العربي، د.ت؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 9، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م.

د. محمد عيسى موسى
مجمع اللغة العربية ـ الجزائر
د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن أبي ثور الأندلسي، يوسف بن إسحاق

(ق 4هـ/10م)

يعرف بابن أبي ثور، كما يعرف أيضا بابن شتناش كما يذكر موسي بن عزرا في «كتاب المحاضرة»، كما يعرف بيوسف بن إسحاق السفاردي أيضا. وهو من علماء التلمود وأحد شعراء اليهود الأندلسيين وإليه نسب إبراهيم بن داوود أول ترجمة للتلمود إلى العربية، ترجم منه أجزاء من المباحث الستة المكونة للمشنا بطلب من الخليفة الحاكم وهي ترجمة مفقودة. وإذا صح هذا الخبر فإنه يكون أول من فكر في ترجمة التلمود إلى العربية، وقد عاش في الأندلس في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد ثم انتقل إلى فلسطين وما جاورها من البلاد، وتوفي بدمشق حسب رواية إبراهيم بن داوود حوالي 970 م.

درس في قرطبة على يد «الربّي» موشيه بن هانوخ، وقد شاطر رئيس يهود الأندلس آنذاك الناسي الربي حسداي بن شبروت بن موشيه هذا لتولي منصب أبيه رأسا للمثيبة فقبل ابن أبي ثور ذلك على مضض، ولكنه سرعان ما طالب بالأمر لنفسه بعد وفاة الابن. وانقسمت الجالية اليهودية بقرطبة فريقين طالبين النصرة من الخليفة الحاكم الثاني (961م)، وانتهى الأمر أخيرا بانهزام ابن أبي ثور وإعلانه خارجا عن الملة اليهودية وطرده، مما دفعه إلى الهجرة إلى بلاد المشرق رافضا تسلم المنصب من جديد بعدما تغيرت موازين القوى، مفضلا الذهاب إلى العراق لعله يجد الحظوة عند الربّي حاي غاؤون رأس المثيبة. ولكنه فشل في مسعاه رغم أن الضبط التاريخي يجعل من الصعب أن يكون الراب حاي هو الغاؤون الفعلي آنذاك، فاتصل بالغاؤون الربي شموئيل هاكوهين غاؤون فلسطين، والربّي شماريا بن الحنان غاؤون مصر، اللذين أكرما وفادته وناصراه في أحقيته في دعواه.

والواقع أن الكثير مما ينسب إليه قد ضاع ربما بسبب ما تعرض له من الأبعاد والطرد. وقد نظم شعرا في ما لقيه اليهود -فيما يزعم من الاضطهاد زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي بمصر (996 ـ 1021هـ).

آثاره

وقد توزعت آثاره أساسا إلى نوعين هما: الفتاوي أو «التشوفوت» بالعبرية، والأشعار الدينية المعروفة باسم «البيوتيم»، سلم منها حتى اليوم حوالي ثلاثمائة بيت. وقد جمعت أغلب فتاويه في «مجموع فتاوي غاؤوني المشرق والمغرب»، كما وضع شرحا على المزامير كتبه باسلوب مدراشي لم يبق منه إلا النزر اليسير، وفيه نجد آثارا واضحة لتمكنه من اللغة الأرامية التي يبدو أنه كان من المتضلعين فيها. ولايزال الكثير مما تركه مخطوطا. ويبدو أن أشعاره قد وجدت أخيرا

من يجمعها ويحققها في شخص أ. فلايشر في سياق أطروحة جامعية بالجامعة العبرية في القدس كما ينبه الي ذلك حاييم شيرمان.

المصادر والمراجع

- Kämpf, Nicht-Andalusische Poesie Andalusischer Dichter, II. 185-189;
- Lebrecht, Litteraturblatt des Orients, 1844, col. 702;
- Sachs, Religiöse Poesie, pp. 248-255.

د. فوزي البدوي
جامعة منوبة - تونس

الثوري، أبو هبة الله سفيان بن سعيد

(97هـ/716م - 161هـ/778م)

سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو هبة الله الكوفي. من ثور بن عبد مناة، وقيل من ثور همدان.

كان سفيان الثوري محدثا فقيها، ذكر عنه الزركلي أنه كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد بالكوفة سنة 97 للهجرة، وبها نشأ. راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، لكنه خرج من الكوفة عام 144هـ، وسكن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة حيث مات متخفيًا [الأعلام، 3/ 158].

نشأ سفيان الثوري في أسرة متواضعة، إذ لم يكن والده من ذوي الثراء الكبير، وإنما كان من «ثقات المحدثين». أما والدته فكانت حصيفة تقية، راجحة العقل، كثيرة النصح لولدها بضرورة تلقّي العلم.

وصفه أبو نعيم في الحلية «بأن العلم كان حليفه والزهد أليفه». وقد وهبه أهله للعلم، وكان يُعنى بالحديث، وليس ذلك بغريب عن بيئة كانت تتمثل قول رسول الله ﷺ (فيما رواه أبو داود والترمذي): «من سلك طريقا يبتغي فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة».

وقد حقق سفيان أمل والديه فطلب العلم وجدّ فيه، وكان يقول: «لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا». فأخذه عن العديد من الشيوخ، ذكر منهم المؤرخون عمرو بن مرة، وحبيب بن أبي ثابت، ومسلمة بن كهيل، وعمرو بن دينار، وعبد الله بن دينار، وسعيد بن مسروق، والأسود بن قيس، وجعفر بن برقان، وخصيف بن عبد الرحمن، وأبا حبيب البدوي وهو من كبار العباد الذين قابلهم سفيان. التقاه في الطريق بين مكة والمدينة وصاحبه مدة لصلاحه وتقواه وهو القائل لسفيان: «إن فيك لأنسا، وإن عنك لشغلا» [أبو نعيم، حلية الأولياء، 7/ 6؛ 8/ 287 - 288].

وعلى الرغم من عظم مكانة سفيان الثوري في العلم والورع والتقوى، فقد كان يسعى إلى عباد الكوفة ليتعلم منهم. فها هو يسعى إلى شيبان الراعي الذي خرج معه للحج مشاة، وهو القائل لسفيان معلما له ضرورة مراقبة نفسه: «إن من شؤم المعصية، الإصرار على الذنوب، فلا تعصِ ربك طرفة عين» [الحريفيش، الروض الفائق في المواعظ والرقائق، 11].

ثم طلب من سفيان أن يكون في مقام المراقبة، يراقب نفسه فلا يعصي الله طرفة عين. وسعى سفيان أيضا في طلب عابد من عباد الكوفة يقال له «الكوثان» لمدّة عشرين عامًا. وكان على صِلات بالزاهد الكوفي «داود الطائي»، وبالعابد الزيدي «الحسن بن صالح بن حي».

أما تلاميذ سفيان الثوري فيذكر ابن الجوزي الكثير منهم بأسمائهم وأحيانا بصفاتهم.

وإذا بحثنا في حياة سفيان الثوري العلمية أمكننا تقسيمها إلى مرحلتين هما: مرحلة الحديث والفقه، ومرحلة الزهد.

أما مرحلة الحديث والفقه فتتفق المصادر المختلفة على أن السياحات الأولى لسفيان الثوري ورحلاته كانت لطلب الحديث وجمعه وروايته، وحينما اكتملت أداة الحديث عنده بدأ يفتي الناس فكان أفقههم. ويمكننا التعرف على سفيان المحدث الفقيه من كتبه ورسائله، ومن شهادات العلماء في علمه وورعه وزهده وما له من آراء وأفكار قيمة في الفقه. هذا فضلا عن الأحاديث الدالة على إمامته وإفتائه، وحبه للحديث وكثرة حفظه له، وإجماع الناس على محبته وتفضيله على غيره من رواة الحديث. وقد بلغ سفيان في الحديث والفقه منزلة رفيعة إلى حد أن دُعي بأمير المؤمنين في الحديث.

وما كان لسفيان الثوري أن يبلغ هذه المكانة الرفيعة في الحديث لولا ما عُرف عنه من حب للعلم وحرص عليه. ومن دلائل ذلك قوله: «زيِّنوا العلم بأنفسكم ولا تزيّنوا بالعلم»، وأيضا لغزارة علمه ومعرفته به.

ومن أقوال سفيان الدالة على حبه للحديث، وحرصه عليه، ودعوته الناس إلى تعلمه: «ليس أنفع للناس من الحديث»، وقوله كذلك: «لو لم يأتني أصحاب الحديث لأتيتهم في بيوتهم». وقوله: «ينبغي للرجل أن يُكره ولده على طلب الحديث فإنه مسؤول عنه».

لقد كان سفيان جيّد الحفظ، كثير الرواية. وهو أحفظ وأكثر حديثا من مالك، ولكن مالكًا كان ينتقي الرجال، وسفيان يروي عن كل أحد. وهو أكثر حديثًا من شعبة وأحفظ، يبلغ حديثه ثلاثين ألفا. وكان سفيان يتقدم شعبة ومالك في الحديث والحفظ. قال الوليد بن مسلم: رأيته ـ يقصد سفيان ـ بمكة يستفتي ولما يخط وجهه بعد. وقال أبو حاتم وأبو زرمة وابن معين: هو أحفظ من شعبة.

وإذا كان سفيان الثوري قد حظي بهذه الشهرة الواسعة في رواية الحديث ووثق الناس به وثوقا تامًّا، فما ذلك إلا لأنه لم يكن يريد بالحديث إلا وجه الله والدار الآخرة، فهو في رأيه أفضل الأعمال بشرط صحة النية فيه.

ولعظم مكانة الحديث عند سفيان الثوري أمر

الناس بالتحفظ على نقله وروايته، وبعدم النقل إلا عن الثقة الحجة. يقول سفيان داعيا الناس إلى تعلم الحديث: «تعلموا هذا العلم (أي الحديث) واكظموا وأفرغوا عليه، ولا تخلطوه بضحك فتجمد القلوب».

وكما كان سفيان الثوري من أفضل المحدثين، كان أيضا فقيها ورعا موفقا. وقد أهلته المقادير لأن يكون من كبار المحدثين والفقهاء. كيف لا؟ وهو صاحب ذاكرة قوية، وقوة خارقة على الحفظ، وذكاء حاد، ونباهة منذ صباه. يقول سفيان: «ما استودعت قلبي شيئًا قط فخانني».

عدّه عبد الرحمن بن مهدي من أئمة الناس في الفقه، وقال: أئمة الناس في زمانهم أربعة: سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة» [حلية الأولياء، 6/ 356].

ويقول عبد الله بن داود مبينا مكانة سفيان في الفقه: «ما رأيت أفقه من سفيان». وقال ابن حبان: «كان (أي سفيان) من سادات الناس فقها وورعا وإتقانا».

هذه الأقوال وغيرها كثير إن دلت على شيء فإنما تدلّ على مبلغ ما وصل إليه سفيان الثوري من العلم والمعرفة في الحديث والفقه، وفي الحفظ والإتقان.

وأما المرحلة الثانية من مراحل الحياة الروحية لسفيان الثوري فهي مرحلة الزهد التي جاءها من باب الفقه، فكانت حياته عبادة وزهدا مع عمل. وكان يرى أن الحكمة ثمرة الزهد، ينبتها الله في قلب المؤمن.

بدأت سياحاته مع مجموعة من الزهاد، وكان منهم إبراهيم بن أدهم الخراساني، وقد اعتبره إبراهيم بن أدهم وغيره من الزهاد «إمام الزهاد»، ومرجع ذلك أن الزهاد رأوا سفيان يجمع بين علوم الدنيا وعلوم الآخرة، بينما شغل العباد من قبل ـ وخاصة في البصرة ـ بالتعبد عن الرواية.

وهنا يحق لنا أن نقول إن حقيقة الزهد وقوامه عند سفيان ثلاثة عناصر أولها: التقوى فهي ملاك الزهد عنده وجوهره. والتقوى في رأيه عمادها تهذيب النفس من شوائب الدنيا، لذلك كان يقول: «ما عالجت شيئًا قط أشدّ على نفسي، مرة علي، ومرة لي» [حلية الأولياء، 7/ 5].

وثانيها اليقين لقوله: «ولو أن اليقين استقر في القلب، كما ينبغي، لطار فرحا وحزنا، شوقا إلى الجنة وخوفا من النار» [ابن الجوزي، صفة الصفوة، 2/ 81 ـ 82].

أما العنصر الثالث للزهد عند سفيان فهو سقوط المنزلة. وذلك ما عبر عنه عندما سئل: «ما الزهد في الدنيا؟ فقال: سقوط المنزلة» [حلية الأولياء، 7/ 17].

وكان يرى الزهد الحق في سقوط المنزلة وعدم قبول الرياسة، يقول: «ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا نُوزع في الرياسة، حامى عليها وعادى» [حلية الأولياء، 7/ 39].

ويقول موضحا معنى الزهد في الدنيا: «ليس الزهد في الدنيا بأكل، ويلبس الخشن، ولا بأكل الخشب. إنما الزهد في الدنيا قصر الأمل». وقيل لسفيان: أيكون الرجل زاهدا

ويكون له مال؟ قال: «نعم، إن كان إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر». ومن دلائل زهده اعتباره حجب النعمة رحمة من الله تعالى. يقول مبينا هذا المعنى: «لنعمة الله علي فيما زوى عني من الدنيا أفضل من نعمته فيما أعطاني» [عبد الحليم محمود، سفيان الثوري، 156].

ويقول مبينا فضائل الزهد: «إذا زهد العبد في الدنيا أنبت الله الحكمة في قلبه، وأطلق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا وداءها ودواءها» [حلية الأولياء، 6/ 389].

وليس معنى الزهد في الدنيا أن يعيش الإنسان عالة على غيره، بل عليه كما يقول سفيان، اكتساب الرزق والعمل باليد. يقول موضحًا هذا المعنى: «يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشّع على ما في القلب، فقد وضح الطريق، فاتقوا ربكم وأجملوا في الطلب، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين» [م. س، 6/ 382].

إن الزهد عند سفيان لا يتنافى مع الثراء، ولذا كان يحثُّ على الكسب، ويدعو إلى الزهد. وليس الزهد عنده ترك النفس بالكلية، والدليل على ذلك قوله لبكر العابد: «يا بكر خذ من الدنيا لبدنك، ومن الآخرة لقلبك» [عبد الحليم محمود، سفيان الثوري، 157].

آثاره

توفي سفيان الثوري بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة للهجرة وله أربع وستون سنة قضى أغلبها طالبا للعلم، ساعيا لتحقيق رسالته ألا وهي نشر السنة المحمدية والتراث النبوي، مخلفا العديد من المؤلفات لعل أهمها كما قال ابن النديم في «الفهرست»، والزركلي في «الأعلام»، وعمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين» ما يلي:

1 ـ الجامع الكبير، يجري مجرى الحديث، رواهُ عنه جماعة منهم يزيد بن أبي حكيم، وعبد الله بن الوليد العدلي، وإبراهيم بن خالد الصنعاني، وعبد الملك الجدي، ومن غير أهل اليمن الحسين بن حفص الأصفهاني؛ 2 ـ كتاب الجامع الصغير، رواه جماعة منهم الأشجعي بن غسان بن عبيد الحسن بن حفص الأصفهاني، وابن عمران الموصلي، وعبد العزيز بن أبان، وعبد الصمد بن حسان، وزيد بن أبي الزرقاء، والقاسم بن زيد الجرمي؛ 3 ـ كتاب الفرائض؛ 4 ـ رسالة إلى عباد بن عباد الأرسوفي، وفيها حذر سفيان الثوري الحكام والولاة والأمراء من غرور الدنيا، وخوّفهم من عاقبة الظلم والجور وأهوال يوم القيامة. من ذلك نهيه الخليفة المهدي عن الإسراف والتبذير في نفقات الحج إذ يقول: «دخلت على المهدي فرأيت ما قد هيأه للحج، فقلت: ما هذا حج عمر بن الخطاب فأنفق ستة عشر دينارا».

وفي هذه الرسالة دعا ابن عباد إلى العزلة، وقلة مخالطة الناس، وحذره من الدنوّ من الأمراء ومخالطتهم، وكذلك من حب الرياسة لأنها في رأيه باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء، كما حذره من الرياء، فهو أخص من دبيب النمل [نص الرسالة منشور في حلية الأولياء، ج. 6؛ وكتاب سفيان الثوري لعبد الحليم محمود، 171 ـ 174]؛

5 ـ وصايا سفيان الثوري ونصائحه لعلي بن الحسن، ترك سفيان الثوري العديد من الوصايا لعلي بن الحسن نذكر منها قوله: «السنة سنتان، سنة أخذها هدى وتركها ضلالة، وسنة أخذها هدى وتركها ليس بضلالة. إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإن لله حقًا بالليل لا يقبله بالنهار، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه يحاسب العبد يوم القيامة بالفرائض، فإن جاء بها تامة قبلت فرائضه ونوافله، وإن لم يؤدها وأضاعها لحقت بالنوافل والفرائض، فإن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه» [كتاب عبد الحليم محمود، سفيان الثوري، 174 ـ 190].

أما نصائح سفيان فيدور جلها حول ضرورة العمل في الدنيا لأجل الآخرة، يقول: «عليك بالورع يخفف الله حسابك، ودَعْ كثيرا مما يريبك إلى ما لا يريبك تكن سليما، وادفَع الشك باليقين يسلَمْ لك دينك، وأمُرْه بالمعروف، وانْهَ عن المنكر تكنْ حبيب الله، وابغُضِ الفاسقين تطرُدْ به الشيطان، وأقلَّ الفرح والضحك بما تصيب من الدنيا تزدَدْ قوة عند الله، واعمَلْ لآخرتك يُكْفِكَ الله أمر دنياك، وأحسِنْ سريرتك يُحْسِنِ الله علانيتك، وابكِ على خطيئتك تكُنْ من أهل الرفيق الأعلى»؛ 6 ـ تفسير القرآن الكريم، رواه أبو جعفر محمد عن أبي حذيفة النهدي عنه، صححه وعلق عليه «امتياز علي عرش»، مدير مكتبة رضا، رامبور بالهند.

ورواية أبي جعفر، كما يقول عبد الحليم محمود، لم تحصر كل ما روي عن سفيان من تفسير، وهي في جملتها آيات قليلة من كل سورة تنتهي بسورة الطور. ومع أن هذه الآيات لا تكوّن تفسيرا كاملا للقرآن ولا لأكثره، فإنها سدت نقصا في المكتبة العربية، ودلت على عظيم عنايته بالقرآن الكريم. يقول الأوزاعي مؤكدا ذلك: «لو قيل لي اختر رجلا يقوم بكتاب الله، وسنة نبيه لاخترت لها الثوري» [كتاب سفيان الثوري، 111].

لقد كان تفسير سفيان للقرآن تفسيرا فريدًا من نوعه، إذ لم يتبع طريقة المفسرين للقرآن على بعض السور والآيات التي قد يصعب على بعض الناس فهمها إما لقصورهم في اللغة أو لقصورهم في الثقافة. وحجته في ذلك ـ كما يقول عبد الحليم محمود ـ أن القرآن الكريم أنزله الله بلسان عربي مبين، وهو واضح وضوح الأسلوب العربي المبين، ولهذا لم يعجبه من المفسرين للقرآن إلا ابن جبير ومجاهد وعكرمة، والضحاك.

ومن تفسير سفيان الثوري للقرآن الكريم الذي وقف على بعض سوره مفسرا وشارحا لبعض الآيات وليس لجملتها، وأقواله التي تكشف من قريب أو بعيد آراءه واتجاهاته الدينية نتبين زهده وورعه وتقواه، وحبه للحديث وروايته، وحبه للعمل وتقديره للعلماء، ودعوته للناس إلى العمل واكتساب الرزق، وحرصه على قول الحق الذي لا يبتغي فيه غير وجه الله.

لذا يحق أن نصفه بالزاهد العابد والمحدث الفقيه، وليس هذا الوصف مبالغة منا في تقدير هذا العالم الورع، وإنما هي كلمة حق حاولنا من خلالها أن نقدم نموذجا للأئمة الثقاة الذين جمعوا بين حب العلم وعلوم الدين من حديث وفقه.

المصادر والمراجع

● الأصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء

6/ 356 ـ 393، وبداية الجزء السابع؛ • ابن النديم، الفهرست، 328؛ • ابن سعد، الطبقات الكبرى، 6/ 257 ـ 260؛ • المامقاني، تنقيح المقال، 2/ 36 ـ 37؛ • ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 4/ 111 ـ 115؛ • الصفدي، الوافي بالوفيات، 13/ 94 ـ 96؛ • ميرزا محمد، منهج المقال، 164 ـ 165؛ • العاملي، أعيان الشيعة، 5/ 137 ـ 149؛ • الخوانساري، روضات الجنات، 316 ـ 317؛ • أبو علي، منتهى المقال، 148؛ • الجواهر المضية، 1/ 250؛ • تاريخ بغداد، 9/ 181؛ • صيد الخاطر، 157؛ • الطبقات للمناوي؛ • تاريخ الإسلام للذهبي؛ • تذكرة الحفاظ للسيوطي؛ • الرازي، أبو حامد عبد الرحمان بن أبي حاتم، تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل؛ • كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 4/ 234؛ • الزركلي، الأعلام، 3/ 158؛ • النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج. 3، دار المعارف، ط. 8، 1980؛ • محمود، عبد الحليم، سفيان الثوري، دار المعارف، ط. 3، 1990.

د. مرفت عزت بالي
جامعة حلوان ـ القاهرة

فهرس محتويات المجلد الرابع

■ حرف التاء ■

■ حرف الثاء ■